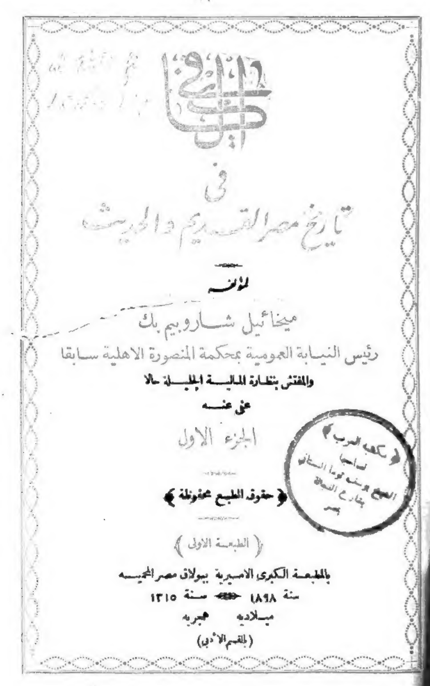


الكافي

في

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه

ميخائيل شاروبيم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية سابقا

والمفتش بنظارة المالية الجليلة حالا

عفى عنه

الجزء الاول

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحميه

سنة ١٨٩٨ — سنة ١٣١٥

ميلاديه — هجريه

(بالقسم الادبي)



بحمدك اللهم تستفتح المطالب • وتستمنح الرغائب • وبشكرك تستزاد النعم • وتستذاد النقم • تفردت سبحانك بالعزة والجبروت • وتوحدت بالملك والملكوت • وتنزهت فى التدبير عن الشريك والمعين • وتقدست فى التقدير عن الحدس والتخمين • فصرّفت خلقك بين رفع وخفض • وبسط وقبض • وابرام ونقض • واماتة واحياء • وايجاد وافناء • وهداية واضلال • وإعزاز واذلال • أنزلت الكتب السماوية مخبرة بأخبار الاخيار • مسفرة عن محاسن أخبار الاخبار • فكانت لقوم تذكره • ولآخرين تبصره • يدرك بها المتأخرون ماللاوائل • ويكونون معهم على حدّ قول القائل

من فاته نظر الديار بعينه • فعليه أن يصغى الى الاخبار
ليشاهد الآثار ممن قد مضى • والمرء ليس له سوى الآثار

ونسألك اللهم أن تصلى وتسلم على أنبيائك الذين ضربوا لنا الامثال • بوقائع الامم والاجيال • وسردوا أخبار الاولين • تبصرة وذكرى للتأخرين • وعلى آلهم وأصحابهم • الذين نسجوا على منوالهم • جاؤا بأصدق الروايات • وأمروا باجتناب الانباء الكاذبة ونبذ الخرافات • ونهوا عن الاخذ بما تولع به الاخباريون والقُصّاص من الاباطيل والترهات

(وبعد) فيقول الفقير الى مولاه الكريم • ميخائيل بن شاروبيم بن ميخائيل ابن شاروبيم • لما كان بين تاريخى مصر القديم والحديث نسب مجهول • وسبب فى

الظاهر

الظاهر مقطوع غير موصول * حيث مضت على أولهما أجيال وأحقاب * وأعين الكتاب تتطلع اليه من وراء حجاب * كانت الحاجة داعية لان ينتظما فى عقد نضيد * ويجمعها بعد شتات الشمل فى بيت القصيد * ولايكون ذلك الا بالاسهاب والتطويل * ولايستغنى فيه قط بالاجمال عن التفصيل * اذ كم تولى مصر من دوله * وكم حكمها من سلطان ذى بأس وصوله * وكم من ممالك هى كذلك أخضعتها * وأمم ساستها * وعهود أبرمتها * ومدائن أحدثتها * وهياكل ومساجد شادتها وكل ذلك كما لايخفى يستلزم بياناويستتبع النص عليه عصرا فعصرا وزمانا فزمانا * على توالى الايام * وتتابع الفراعنة والبطالسة والقياصرة والملوك والسلاطين والحكام * وبالنظر الى ما وقع لكل منهم من يوم أنشئت مصر * الى عهدها الاخير من هذا العصر * ففكرت كثيرا فى الحصول على هذا الغرض المهم * والوصول الى المقصود فى هذا الطريق المدلهم

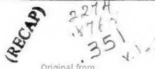
لعلى أن أنال بها مرادى * وأحظى بالمنى بين البريه
فاتطر من خلال سطور قوم * مآ ثرهم فأ كتسب القضيه
ويحكم لى بأنى مستحق * حقوقا لى دلائلها قويه

غير أنى كنت أرى أن السابقين الى طلبها كانوا أطول باعا * بل أوفر علما وأكثر بحثا واطلاعا * وأولى بصناعة الكتابه * وأحق بسمة البراعة والنجابه * وهم لم يفوزوا بالمنال * مع ما سهروه فى تحصيل ذلك من الليالى الطوال

وكل يدعى وصلا بليلى * وليلى لاتقر لهم بذا كا

وكان من أتى منهم بشئ جديد * بعد عناء وجهد جهيد * فانما أتى برسائل مجمله * أو فصول غير مفصله * لاتشفى لمحبى التاريخ غليلا * ولاتغنى عن الرجوع الى الكثير من المؤلفات التاريخية فتيلا * ومنهم من تعرض لتاريخها جملة واكتفى بالاجمال * وأعرض عن التفصيل فى مقام البيان الذى هو مقتضى الحال * فلما سار بى الفكر يتردد فى فيافى الأمل * ويستطلع ماعساه أن يكون من وسائل العمل * كدت أن أنبذ هذا الامر ظهريا * وأطرحه عنى قصيا * وأجعله منى نسيا منسيا * فلا أكون متعسفا جهالات * ولا خابط عشوات سيما وقد كان لى من المناصب الديوانية فى خدمة وطنى شاغل يحدو بى حدو الزاجر المقيم ويذرى سويعات نهارى اذراء الريح الهشيم * مع مايضاف الى ذلك من قلة البضاعه ووجوب الوقوف عند حد عدم الاستطاعه * فقيض الله لى من جعل يقول * ياهذا لايقعدك الخمول * ولايبعدك عن بلوغ هذه الامنية ونيل الامل * ما أراك فيه من التردد والوجل * بل سر فمن سار على الدرب وصل * ومن يعرف المطلوب يحتقر مابذل * ولله در من قال

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله * ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومن لم يذل النفس فى طلب العلا * قليلا يعش دهرا طويلا أخا ذل



وقال　　لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى ＊ فما انقادت الآمال الا لصابر

واعلم أنه لايترك منار فى مغار ＊ ولاتدرك أوطار الا بركوب الاخطار ＊ ومالك لاتجد حتى تعتصر مأربك ＊ وتهتصر فى هذه الآونة الصالحة مطلبك ＊ والله تعالى يحل عقدة من لسانك ＊ ويجرى فى ميدان البراعة يراع بنانك ＊ فقلت يارعاك الله انى أسير وساوس كثير ظنون وهواجس ＊ وهذا لايخفاك من عوائق النجاح ＊ وموانع الفوز والفلاح والعاقل من لايأتى أمرا حتى يخبر مشروعه ＊ ولا يقدم على عمل حتى يدرك بمرآة التبصر موضوعه ＊ وهذا الذى تشير على بطلابه ＊ وتستفزنى الى الاقدام على طرق بابه ＊ لهو غاية مرامى ＊ ولكنه وايم الله من أبعد المرامى ＊ لان من يعد نفسه فى عداد المؤرخين ويدعى أنه من الرواة والمحدثين ＊ يجب عليه أن يطابق بين الواقع وواقع الامر ＊ ولايحول عن الحقائق ولو تقلب على الجمر ＊ ومن لى بالعصمة عن الغواية ＊ واصابة الحقيقة فى الرواية والتاريخ كما تعلم صحيفة الزمان ＊ وصورة من الماضى تمثلها أقلام الكتاب بأتم حجة وأقوى برهان ＊ وفى المثل من ألف فقد استهدف

وهذا هو الداعى لتأخير بغيتى ＊ ومنع يراعى من قراع الكتائب
فأنت ترى لى العذر ياخير ناصح ＊ لئلا أرى فى الناس مضغة عائب
وحفظى عرضى واجب ومحتم ＊ وتنزيهه عن ترهات المثالب

فقال بلى ولكن لايعمل بخاطب المعالى ＊ أن يتهيب سهر الليالى ＊ ولله در القائل

ليس الفتى بفتى لايستضاء به ＊ ولاتكون له فى الارض آثار

ومازال بى حتى سرى عن سرى ＊ واشتد بالعزم أزرى ＊ وتحققت أن الكد أحسن معين على تحصيل الامل ＊ والجد أعين قرين لتيسير العمل ＊ فنشطت من عقال ＊ وقلت على الله سبحانه الاتكال ＊ وأجريت القلم فى حلبة البراعه ＊ وأخرجت نفسى من أرض الخمول الى روضة البراعه ＊ وأطلقتها من عقال الفهاهة واللكنه ＊ الى اعمال الفكرة والفطنه ＊ ولكن بين تقديم وتأخير ＊ وصفاء وتكدير ＊ حتى تصرم أجل تلك الخدمه وقدر الله بانفصام عروة تلك الحزمه ＊ فاعتزلت منصبى راضيا بما كان ＊ شاكرا تصاريف الزمان ＊ فلما سكنت بعزلتى نفثات بعض الصدور ＊ وتم نفوذ ذلك القدر المقدور ＊ رحلت عن الكنانة الى مسقط رأس الوالدين ＊ وقد كنت لم أره منذ نشأت الى ذلك الحين وأنخت به مطية الرضا والتسليم ＊ وحمدت لله شكرا على ما أولاه من فضله العميم ＊ ثم مالبثت أن اتخذت القرطاس سميرى ＊ والجد معينى على الكد ونصيرى ＊ ومضيت فى الذى نهجه لى الامل ＊ وقت ناشطا بما عصبه بى العمل ＊ فسهل الله ما كنت ألاقيه قبل من المتاعب ＊ وزال عنى بمنه وكرمه ما كان ملازما لمثلى من المصاعب ＊ وما زلت حتى ظفرت بالذى كنت أتمناه ＊ وأتيت بما يحبه محب التاريخ ويرضاه ＊ فجاء كتابى بحمد الله خير كتاب ＊ وعمدة ماصنف فى هذا الباب ＊ حقيقا بما قال فيه القائل

كتاب ان نظرت اليه تلق * يتيم الدر فى لبات حور
ترى الروض الندى به نضيرا * وباسم زهره بين السطور
ترى الخود الحسان مخترات * تبدى حسنها خلف الستور

وها هو بين أيديكم اليوم يتلو عليكم عبرا من آثار الماضين * وسيرا من أخبار آبائكم الاولين * فاحفظوا منها حكما ظواهر * واتخذوا لكم من أحاديث أيامهم مواعظ وزواجر فقد طالما كانت البلاد غرضا لكل نابل * وأكلة لكل آكل * وفريسة لكل صائل * حتى اختلط فيها الحابل بالنابل * وهذا كله من عبث الغرباء وافسادهم * وتطاول أطماعهم الى معالى الحكم وعنادهم * وما برحت هذه السطوة الاجنبية تزرع الروع فى القلوب * وتثير القطوب والخطوب والكروب * حتى لم تبق من آثار المجد الاثيل الا بقايا جدران * ولم تترك من معالم الفخر الذى لم يكن له مثيل الارسوم مدنية وعمران * وقد ذلت هاتيك السلطة وذهبت تلك الهيبة * وتفرق شمل الهيئة باستفحال داء هاته العلة * وانصرف هذا العنصر الطيب بتوالى الايام * وكرور الشهور والاعوام * عن وجهته بعض الانصراف وأصبح منكبا عن منهاجه فاقدا كثيرا من مزاياه بحكم ذلك الجور والاعتساف * غير أنه لم تزل فيه بقايا هى السائدة على أهليه * الحافظة لما بقى من رفيع شرفه ومجد ذويه * ينبيك عنها ماتراه من الهدء وثبات الجنان * والدعة واللطف والحنان * وخفض الجناح للقريب * وتوطين النزيل والغريب * فكأن الذى قضى على بقايا تلك الآثار القديمة بالبقاء * لتكون مرشدا وهاديا لسائر الامم فى تمدنهم الحديث الى سلم الارتقاء * هو الذى حفظ فيهم هذه الباقيات الصالحات لتكون عنوانا على هاتيك الشمائل * وبرهانا على تفردهم بالمحاسن هذه المحاسن والفضائل

وقد بدأته بنوح أبى البشر الثانى عليه السلام * ثم حام ومن جاء من ولد حام * ثم من قام بعدهم من الفراعنة والبطالسة والقياصرة والسلاطين والحكام * ثم ذكرت قسما كبيرا من تاريخ جاهلية العرب * وتدرجت الى ذكر تاريخ صاحب الشريعة الاسلامية (صلم) وكيف ساد وغلب * وقد تتبعت سنى الخلافة سنة بعد سنه * على أسلوب مفيد وخطة مستحسنه * الى انقراض الخلافة العباسيه * سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هجريه * ثم أتيت على ذكر من قام بالامر بعدها من ملوك آل عثمان * وهو السلطان سليم ابن السلطان الغازى بايزيدخان * ولكنى استطردت فأتيت على سائر من سبق من السلاطين توفية للمقام وبيانا لمن شاء الاستقراء من الباحثين * وذكرت فى سنى ملكهم أخبار من تولى من الولاة والعمال * وسيرة من أحسن منهم ومن أساء فى الاعمال * وأضفت الى أخبار من ملك من القياصرة والخلفاء والملوك والسلاطين * عدد من تولى البطريكية من المتأصلين والملكيين * وذكرت طرفا من الانشقاقات الدينية * والمناظرات الحزبيه * والكوارث التى ترتب عليها تفرق كلمة الدين * والفتن التى قامت بين الاحزاب فانجزم بها حبل اليقين *



ثم انى اعتمدت فى تأليفى هـذا على بعض الكتب الشهيرة الاجنبيه * وكثير من كتب التاريخ القديمة والحديثة العربيه * وأفرغته فى قالب لايشوبه خلل * ولايعترى القارئ منه ان شاء الله أدنى ملل * وجزأته الى أربعة أجزاء الأول منها ينتهى الى سنة تسع عشرة هجريه * أعنى قبل أن تحتل البلاد الجيوش الاسلاميه * وبعد تقلص ظل ملك الدولة الرومانيه * وابتدأت الجزء الثانى منه بتاريخ العرب الجاهليه * وانتهيت منه الى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هلاليه * وهى السنة التى دخل فيها السلطان سليم البلاد بجيوشه التركيه * والجزء الثالث يبتدأ بتاريخ ملوك آل عثمان * وينتهى الى سنة عشرين ومائتين وألف وهى سنة الامتنان * التى علا فيها شرف نجم الامير الشهير * الحاج محمد على باشا الكبير * والجزء الرابع منـه ابتداؤه تاريخه رحمه الله وانتهاؤه الى سنة ثمان وثلاثمائة وألف على التحقيق * وهى السنة التى انتقل فيها الى رحمة مولاه الخديوى محمد باشا توفيق وقد ارتقت بعـده الأريكة المصرية بجناب شبله الأعظم * ذى المجد الاثيل الداورى الأفخم * مالك أزمة المعالى * وطود مجدها الشامخ العالى * مولانا الخديوى الاكرم (عباس حلمى باشا الثانى) بلغه الله من كل مايحبه غاية الأمانى * وانما وقفت عند هذا الحد ليكون عصره مبدأ تاريخ جديد * وأول زمن طالعه سعيد * وسأفرد لعصره الزاهر كتابا زاهرا * وأخصص له فيما بعد تاريخا باهرا * ليكون مفردا بمقال * كما تفرد صاحبه حرسه الله بمحاسن الخلال

وقد سميت كتابى هذا ﴿ الكافى ﴾ فى تاريخ مصر القديم والحديث وانى أحمد الله على ماوفق له عبده * فبلغ بمنه وجوده منيته وقصده * وأسأله سبحانه بنعمته حفظا من الخطل وعونته اخلاصا فى العمل * وبقدرته بعدا عن الزلل * فهو خير مسؤل * وأكرم مرجو ومأمول

(تنبيـــــه)

سئل أحد العلماء عن التاريخ فقال هو المعاد المعنوى لانه يعيـد الاعصار التى سلفت و يبعث أهلها من القبور * كأنهم فى عالم الظهور * بعـد أن يكونوا قد تلاشت أخبارهم وعفت آثارهم * قال والتاريخ حافظ للانساب * ضابط للاحساب * ولولاه لخفيت أخبار الأول * وعفت آثار الممالك والدول * ولم نعرف حقوق ولاحفظت عهود * ولا برز مافى عالم الغيب الى عالم الشهود اه

قلت والتاريخ خطيب قائم يقرر الحوادث الماضية على تعدد أنواعها * ويتلو عجائب الوقائع الغابرة على تباين أوضاعها * فان كان مادونه على أسلوب بسيط مفيد * خال من الحشو والتعقيد

انساق

انساق السامعون الى حفظ عباراته * وفهم اشاراته * وان كانت عباراته وحشية المبانى معقدة * لم ينل سامعها منها المأمول * ويعسر عليه فى سلوك طريقها الى مقصوده الوصول * وليس من تمام الفائدة فى شئ أن يكتب صاحب التاريخ ما يعتنى بجمعه من الحوادث والاخبار مقفى منسقا منسوجا على منوال مقامات البديع أو رسائل الصابى * أو يجعله كله رموزا لا يتسنى لكل انسان أن يفكها فان هذا كله ممتنع فى مذهب أهل التاريخ وشرعة أصحاب الانتقاد * هذا تاريخ العلامة عماد الدين أبى عبدالله محمد بن محمد الاصفهانى المسمى بالفتح القسى فى الفتح القدسى قد حوى من ضروب البلاغة وكمال المحافظة على النفائس اللغوية فى مفرداتها وتراكيبها مع تزيين الكلام وتحسينه بالتنميق والسجع والتنسيق والترصيع والتورية والجناس وغير ذلك مالا يقدر عليه الا القليل من الكتاب وأهل الانشاء * ولكنه ليس من السهل المتيسر لسائر مطالعى التاريخ ادراك ما فى عباراته من تلك المعانى العالية والاستعارات البعيدة فيلزم على كل من شاء قصدا من قصوده أن لا يقرأه الا وبين يديه معجم اللغة يقلب صفحاته عند كل سجعة فينصدع لذلك فكره * لعمر الله ان فى ذلك لمنتهى الجور وغاية التثقيل على محبى التاريخ بل ربما كان داعيا الى اذهاب ولوعهم به * ومثل ذلك تاريخ الامام محمد بن عبد الجبار المدعو بأبى النصر العتبى المؤلف فى وقائع السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين فانه مع صغر حجمه ووقوف تدوينه عند انتهاء سنى ملك ابن سبكتكين المذكور قد تضمن من حسن التنسيق واشباع الكلام من رقائق لغة العرب ما قام بشرحه الامام أحمد بن على بن عمر المنينى فى مجلدين ضخمين لا ينقصان عن نيف وثمانمائة صحيفة وكلها شواهد على ما فيه من حسن صناعة الانشاء وعلى أن صاحبه من أكابر البلغاء متمكنة فيه ملكة تلك الصناعة التى قد استلزمت ذلك الشرح الطويل الذى لولاه لاستعصى على الكثير فهم مقاصده ومناحيه

وكأن طالب التاريخ لا ينال منه شيأ الا اذا كان متمكنا من فنون اللغة العربية كما أشرنا الى ذلك وهذا على ما أظن ضرب من العسف * ثم لا يسوغ التوسع فى القول حتى يقال انه ينبغى أن يكون التأليف باللغة العامية لاسيما تدوين الاخبار التاريخية بدلا عن اللغة الصحيحة الفصحى وذلك لان لغة هذا المصر العامية مفعمة بالحشو الاعجمى الذى لا يمكن معه التحرز ولا يصح معه التأليف مع أن الألسنة قد انطبعت عليها أعنى على هاته اللغة الجافية واستوى فى التخاطب بها العالم والجاهل حتى فى مجامع الافادة والاستفادة والتعليم والتعلم وعم ضررها بحيث اذا سمعك عالم أيا كان علمه تنطق ببعض كلمات فى التخاطب صحيحة غير عامية امتعض ورماك بالتكلف ووسمك بالتعسف وربما خاطبك بهذر الكلام بان يقول لك ياسبحان الله كأنك وسيبويه رأسان فى قلنسوة فان حاججته تأفف ولم ينصفك وبالغ فى مناقضة قولك ونازعك حقك الذى بيدك آمنا غير خائف لعلمه أن الناس طرا تقوم لنصرته ويمثل ذلك أنى كنت أخاطب رجلا يوما فى أمر يعنيه وفى الذى صح فى يدى منه فطال بيننا الاخذ والرد

حتى غلبت حجتى حجته وكدت أزهق مايدعيه فقال انى أقول لك الحق انى رجل لاأحب التشدق بعبارات النحاة واستعارات أهل البيان فقلت ومالذى أنكرته من ذلك فقال انك تنطق بألفاظ ضخمة معظمة وهذه خطة مذمومة فى عرف التخاطب العام وماذا عليك لونطقت بها كما ينطق بها كتابنا وأصحاب الذوق السليم منا وكأنى بك لم تسمع قول القائل

وللناس عادات وهم يألفونها * لها سنن يرعونها وفروض
فمن لم يوافقهم على العرف بينهم * فذاك ثقيل عندهم وبغيض

فقلت ياهذا ليس فى الشر أسوه ولافى اتباع الخطا قدوه فان كان هذا كله مبلغ انكارك ومنتهى انتقادك فياخيبة الرجاء وأين ما كنت تدعيه الآن من الاحاطة بكل شئ ثم كيف تدعونى الى غير الهدى الذى أنت مقيم عليه ولغتك التى عمت فأطفأت نور اللغة الصحيحة بما أدخلته عليها من الفساد والتحريف قد كانت ولن تزال علة انحطاط الامة وحرمان السواد الاعظم وأعنى بهم العامة من فوائد العلوم والآداب والاشتراك فى جنى ثمار الحضارة والمدنية فأمسوا وهم لايحسبون فى عداد الهيئة الاجتماعية والجامعة القومية الا كالانعام بل هم أضل سبيلا اذ لاحركة عندهم مرتبة ولاقصد صحيح ولاتفريق بين مايضرهم وماينفعهم * ولعمر الحق انك ياهذا قد خطأت من حيث أخطأت وتهافت على غير مساغ للقول فانك ان أنكرت أنت فالناس طرا لاينكرون أن اللغة كاملة غنية فى ذاتها عن حشو ودخيل وكما أن فيها من التدوينات العالية العربية المحلاة بالمحسنات البديعية ورقائق الالفاظ مالايكاد يدخل تحت الحصر فكذلك فيها الاصطلاحات السهلة البسيطة الجامعة بين صحيح اللغة وصحيح عرف التخاطب العام وعندى أن النوع الثانى أهم وفائدته أكمل وأعم اذ يستوى فى فهمه العلماء ومن دونهم من سائر طبقات الناس ولذلك نسقت كتابى هذا الكافى على هذا النسق ليعم ان شاء الله تعالى نفعه وتجزل فائدته غير ناظر الى مايقوله العائبون العابثون ولاحافل بما سيرموننى به اذ ليس فى أيديهم من الحجة ماليس فى يدى * هذه مقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون المغربى قد حوت من العربية الخالصة فضلا عن صحة الانتقاد وقوة الحجة وفصاحة التعبير ماعم بشهرته مشرق الارض ومغربها حتى روى عنه الرواة ونقل الكتاب وترجم المترجمون واحتجوا بحجته وأخذوا بقوله ومع كل ذلك فقد عاب بعض مافيها بعض أهل الانتقاد من المتقدمين والمتأخرين وسفهوا رأى صاحبها ونازعوه حقه الذى بيده

ومن ذلك ماسمعته من بعض الناس قال لى يوما * انى غير كاتم عنك ماأنا معتقده ولاوجل من أن أقوله لك انى أرى تاريخ ابن خلدون خلوا من البلاغة والفصاحة التى جمعتها فصول مقدمته ولاأظننى مخطئا اذا قلت ان كانت هذه المقدمة لذلك المغربى كان مافى الكتاب لغيره وان كان مافى الكتاب من عندياته كانت فصاحة المقدمة وطلاوة عباراتها من عنديات غيره فقلت يارعاك الله أما المقدمة فانى أرى أنها وضعت لقوم * وأما الكتاب فلآخرين وذلك أن هذا الفاضل رحمه الله قد التزم فى تنسيق مقدمة كتابه التى هى عنوان فضله ودليل عالميته

واحاطته

واحاطتــه بكل فن مايجمل بكل باحث فى فضل علم التاريخ وفى حقيقة النبوة والكهانة وفى اختــلاط الانساب كيف يقع وفى أخــلاق البشر وتأثير العناصر وغير ذلك من ضروب الفلسفة التى قصد من تنسيقها على هــذا النحو من البلاغة وحسن الترصيف عرضها على ذوى المكانة العالية اظهارا لفضله ومبلغ قدرته على التأليف والاستنباط الذى لم يسبقه اليه أحد من المشارقة والمغاربة ولذلك نراه قد كتب بقدر علمه والذى صح فى يده منه وما قامت به الحجة عنده آمنا مطمئنا غير مقصر ولا كاتم لما فى نفسه فجاءت عبارته غاية فى الطلاوة وحسن السبك حتى عدّت من المصنفات الفريدة فى بابها * وأما الكتاب فقد استعمل فيــه السهولة فى التعبير ليطلع عليه العلماء ومن دونهم ابتغاء التعميم والمشاركة فى فوائده العلمية وهذه أصلح الله حالك خطة محمودة لايهتدى اليها الامن كشــف العلم عن بصيرته وبصره وهداه الى سواء السبيل

وبالله كأن شرعة الانتقاد عنــد المتقدمين والمتأخرين واحدة والامر بينهما فيها مشاع غير مقسوم الاأنها عند المتقدمين خيرمنها عند المتأخرين لانك اذا ناظرتهم ناظروك طلبا للحق وأسقطوا بينك وبينهم اللجاج والمراء والمكابرة وأوسعوك تلطفا بان تقوم بحجتك غير مؤاخذين فى شئ ولامتعنتين عليك فى شئ والانتقاد اذا كان القصد به الافادة والاستفادة وتحقيق الحق والاتيان على ماصح من أصول الشئ المنتقد وفروعــه كانت نتيجته حسنه * وفائدته عامة مستحسنه * وحمد الناس أمر صاحبه ومدحوه * أما اذا كان القصد به المهاترة والمكابرة على غير حق كان مثل صاحبه كمثل الفراشة التى اذا رأت نور السراج فرحت به ورقصت حوله ثم لاتلبث أن تحترق وتموت

وأما التعييب فخطة مذمومة ولطخة فى وجه الادب لاسيما اذا كان المراد منــه التشنيع والتقريع فانه بدون المناظرة الحقة التى هى مجال للاستفادة ومحط للافادة ممتنع وكان صاحبه مدفوعا اليه بعامل الغــيرة ودافع الحســد وكان اذا تلطفت معــه فى القول وحاججته حجبك وقطعك عن بلوغ الحجة بشئ من المكابرة وهذر الكلام فتحتاج أن تقبض لسانك ولاتبسطه له ببيان حجتك لانك لاتقدر على تقويم الظل مع اعوجاج العود * وكأن التعييب ملكة اذا رسخت واستحكمت فى النفس لايجيــد صاحبها المناظرة الصحيحة * قال أصحاب الكلام لان الملكات صفات النفس فلا تتزاحم دفعــة ولا تلتقى فى واد واحد الا فى القليــل النادر من الاحوال * والعائب اذا شب على هــذا الخلق غلب على طبعه التنطع فى القول والتشدق والمماحكة وهى من أعراض هــذا الخلق فلا يبقى من ورائها الاذهاب المروءة والنقص فى النظر القلبى والادراك فيرى حينئــذ الســليم معيبا والصحيح سقيما والمســتقيم معوجا وهكذا تنقلب الاشكال فى عينيه الى أضدادها والصور الى عكس ماهى عليه * والعائبون فضلا عن أنهم يقتحمون مواطن التعييب من غــير أبوابها لايأتونها الاارضاء لشــيطان الحســد ثم هم يحقدون على من يعارضهم أو يخالف رأيهم وربما أدخلوا على أنفسهم الهموم والاحزان من



قيام أهل النصفة فى وجوههم واستمروا فى عناء عظيم من أجل ايجاب الحق لانفسهم فيحصل لهم المقت من النـاس لما فى الطباع البشرية من حب الترفع عن الصغار والهوان اذقل أن تسلم نفس لنفس بالكمال والترفع عليها الا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبـة أوبنعمة من الله وهداية منه * وهذا أوان الشروع فى المقصود بعون الملك المعبود



المقـــــدمة

(وفيها فصـــلان)

الفصــــــل الاول

(في دخول نوح عليه السلام السفينة وفيمن نزل مصر من ذريته)

هبط ادم وحوّاء عليهما السلام من جنات النعيم كما جاءت به الكتب المنزلة وكثرت ذريتهما فسعوا فى الارض فسادافبعث الله سبحانه وتعالى اليهم نوحا عليه السلام فنهى وأنذر فلم يرعووا ولم تأخذهم آخذة من الخوف فشاء الله تعالى أن يبيدهم بطوفانفأوحى الى نوح ان يصنع لنفسه ولذريته فلكا وان يدخله هو وبنوه وامرأته ففعلفلما صار نوح ومن معه فى الفلك أمر الله تعالىفانفتحت أبواب السماء وانفجرت ينابيع الغمر وعلت المياه على وجه الارض فمات كل ذى روح على وجه الارض وكان فلك نوح عليه السلام طافيا على وجه الماء فلم يبق سوى نوح وبنيه ومن معهم وكان ذلك بعد الخليقة بألف وستمائة وست وخمسين سنة على ماأخبر بهالمؤرخون

ولما غيض الماء استوى الفلك على الجودى ففرح نوح وعائلته وتفرقت الحيوانات التى كانت فى الفلكفى أنحاء الارض فلم تمض عليها الاحقبة من الدهر حتى تناسلت وملأت الارض وانطلق بنو نوح مع عيالهم الىارض شنعار الواقعة جنوبى الجبل المذكورعلى مقربة من دجلة والفرات فاستوطنوا هنالك وتوالدوا وأخذوا فى النماء حتى صاروا فى خلال جيل بعد الطوفان شعبا عظيما * وكان أكثر حديثهم فى ذلك الحين عن الطوفان وماترتب عليه من انقراض العالم فأوجسوا خيفة من أن يعود مرة أخرى ورأوا أن يبنوا صرحاعظيما يلجؤن اليه عند الحاجة ويتخلصون من غائلة الطوفان فأقاموه على شاطئ الفرات الىجهة الشرق وبالغوا جدا فى اعلائه حتى قيل انهم كانوا يريدون أن يصلوا به الى عنان السماء فرارا من الموت

وبينماهم على هذا الحال من الاجتهاد اذ ابتلاهم الله تعالى بأمر منه فبلبل ألسنتهم فتفرقت كلمتهم ووقع بينهم الخلافوصاروا لايعرفون كلام بعضهم فكفوا عن العمل وخاب منهم

الرجاء والأمل وهاموا على وجوههم شرقًا وغربا فاستوطن كل فريق منهم قسما من الارض كما جاءت به الكتب * وسمى ذلك الصرح ببرج بابل * وكان أولاد نوح الذين عمرت بهم الارض بعد الطوفان كما تقدم ثلاثة سام وحام ويافث * وكان ليافث سبعة أولاد أولهم دجومر وهو الذى هاجر الى الشاطئ الشمالى من البحر الاسود وتفرق نسله غربا وسكنوا فى الجنوب الغربى من أوروبا وفى جزائر بريطانيا وأكثر الاوروباويين من نسله على المشهور من قول جماعة من المؤرخين * وكان لجومر ثلاثة أولاد الاول اشكيناز وقد نزل بالشاطئ الجنوبى من البحر الاسود * والثانى ريفاث وقد نزل شرقى اشكيناز * والثالث تجرمة وقد نزل بالجانب الشرقى من ريفاث * الثانى مأجوج ومقره ببلاد التتر أى الشاطئ الشمالى من بحر الخزر وأكثر سكان أواسط آسية من نسله كالمغول وغيرهم * الثالث مادى وموطنه شمالى بلاد العجم * الرابع ياوان وقد سكن بلاد اليونان وباسمه سمى دانيال النبى أهالى هذه البلاد وكان لياوان هذا أربعة أولاد الاول منهم الشة استوطن هيلاس وهى الولاية الجنوبية الغربية من بلاد اليونان * الثانى ترشيش ومقره كليكيا فى آسية الصغرى وباسمه سميت مدينة ترسيس وذهب بعضهم الى أن طائفة من نسله سكنت أيضا بلاد اسبانيا * الثالث كتيم ومكانه عند شواطئ بحر ايطاليا وبلاد اليونان * الرابع رودانيم ومكانه البانيا التى هى بلاد الارناؤد على جنوبى مدينة تريسته ويظن أيضا أنه سكن فى نواحى مرسيليا جنوبى بلاد الفرنسيس * الخامس توبال ومحله بجوار مأجوج ومابين البحر الاسود وبحر الخزر * السادس ماشك ومسكنه فى جوار توبال ومأجوج وقد سكن بعض نسله فى شواطئ بحر البلطيك ومنه تسلسل بعض المسكوبيين * السابع تيراس ولم يعلم المؤرخون أين سكن قالوا والمظنون أن نصف أهل الارض من نسل يافث

وأما سام فكان له أربعة أبناء أولهم كوش وكان له ستة ذكور ومحله غربى بلاد العرب وقد سكن أكثر نسله افريقية قبل ومنهم من سكن عند الشواطئ الشمالية من خليج العجم وامتد شمالا الى مابين النهرين ويظن أن أكثر أهالى افريقية من نسله لانهم كانوا ينسبون اليه وان بنيه جميعا سكنوا بلاد العرب وافريقية ماعدا نمرود فانه سكن على سواحل الفرات وهو الذى أسس مدينة بابل * الثانى (مصرايم) وقد نزل بمصر فسميت بهذا الاسم نسبة اليه وقد تفرع منه سبع قبائل الاولى لوديم ومحلها غربى مصر الثانية عانيم وهى من القبائل الرحالة الثالثة لهابيم سكنت جنوبى لوديم الرابعة نفتوحيم ومحلها على الشاطئ البحرى أى على شاطئ البحر فى الجهة الغربية من مصر * قالوا ويظن أن اسم نبتون اله البحر عند الاقدمين مأخوذ منها * الخامسة فتروسيم ومحلها مصر العليا السادسة كلوحيم ومحلها بين مصر وأرض كنعان على شاطئ البحر ومنها الفلسطينيون السابعة كفتوريم ومحلها جزيرة قبرص * وأما الثالث من أولاد حام واسمه فوط فقد سكن شمالى افريقية ونسله مذكور مع كوش ولود والرابع كنعان ومحله الارض المنسوبة اليه وكان لكنعان هذا ابنان الاول

صيدون وهو الذى بنى المدينة المعروفة الآن باسمه وهى صيدا ويقال انها أقدم مدن العالم والثانى حث وقد عقب غير هذين تسع قبائل سكنت أرض كنعان فى أيام يشوع بن نون * وأما سام فكان له خمسة بنين الاول عليوم ومحله جنوبى بلاد العجم الثانى آشور ومنه الآشوريون الذين استعبدهم النمرود وكوش الثالث ارفكشاد وقد توطن بين النهرين ومن نسله ابراهيم الخليل عليه السلام وكان لارفكشاد هذا ولدان هما فالج ويقطان وكان ليقطان ثلاثة عشر ولدا منهم قبائل بلاد العرب وقد سكن الاسماعيليون بينهم الرابع لود ومن نسله اللوديون ومقامه الاناطولى الخامس ارام ومقامه بين النهرين ولذلك سميت هذه الارض سهل ارام وكان لارام أربعة بنين الاول عوص ومقامه عند رأس خليج العجم الثانى حول ومقامه منبع نهر الاردن حيث يدعى باسمه الثالث لم يذكره المؤرخون اهملوا محلا الرابع ماش وقد سكن الاناطولى أيضا * فما تقدم يتضح أن أكثر سكان افريقية ومنها ديار مصرهم من نسل سام ولد نوح عليه السلام

واعلم أن مصر التى بناها مصرايم ولد حام وتوطنها بنوه من بعده ﴿ اذا صح هذا القول ﴾ يحدها من الشمال البحر الابيض المتوسط ومن الشرق البحر الاحمر وخليج السويس ومن الجنوب بلاد النوبة ومن الغرب الصحراء وبلاد برقة وهى واد يكتنفه جبلان شرقا وغربا يتخللهما النيل من الجنوب الى الشمال ويصب فى البحر الابيض المتوسط عند مدينتى رشيد ودمياط بمصبيه وكان المصريون يعتقدون أنهم أول من سكن هذه الديار وعمرها ولذا سموا أنفسهم لوت ونقشوه على الآثار ومعناه أصل البشر ظنا منهم أنهم آباء البشر * قال دوروجيه فى كتابه الذى ألفه فى تاريخ الست عائلات الاول ان الذى تحقق له من الآثار أن أصلهم وتمدنهم انما هو من آسية لا من الجهة الجنوبية

الفصل الثانى

﴿ فى تاريخ مصر القديم وفيما يعتبره المصريون قاعدة تأسيس مملكتهم ﴾

اختلف أهل التاريخ على اختلاف طبقاتهم فى تحديد مبدإ تأسيس المملكة المصرية وتاريخ نشأتها وكيفية ارتقائها مراقى ذلك التمدن العجيب فمن قائل انها قديمة العهد جدا ومن قائل انها ابنة اثنين وخمسين قرنا ومن قائل خمسة وثلاثين ولكل على قوله حجة وبرهان فالقائلون بأنها قديمة العهد جدا جعلوا مستندهم على أنه لما لم يهتد قدماء المصريين الى معرفة مبدإ تأسيس مملكتهم وتاريخ نشأتها فرضوا لظهورها ثلاث عائلات أولية على وجه الاحتمال والتقريب وسموا العائلة الاولى منها بعائلة المعبودات التى يقال لها العائلة المقدسة

والثانيــة العائلة الشبيهة بالمقدسة والثالثة عائلة آبائهم الأولين وهم الحورشسو وقد ذكر كلٌّ من كهنة منف وطيبة عائلة المعبودات المذكورة على الترتيب الآتى

عدد	جدول أسماء المعبودات بمنف	
١	بتاح	
٢	رع	
٣	شو	وأخته تفنوت
٤	سب	وزوجته نوت
٥	ازوريس	وزوجته ازيس
٦	ست	وزوجته نفتيس
٧	حور	وزوجته حاتحور
		الشعرى اليمانية

عدد	جدول أسماء المعبودات بطيبه	
١	امون	المشترى
٢	منتو	المريخ
٣	توم	
٤	شو	وأخته تفنوت
٥	سب	وزوجته نوت (زحل)
٦	ازوريس	وزوجته ازيس
٧	ست	الشيطان وزوجته نفتيس
٨	حور	وزوجته حاتحور

قالوا ومعنى بتاح الفتاح وهو رمز للقدرة الالهية التى أوجدت الكون ومعنى رع عنصر النار وشو عنصر الهواء وسب عنصر التراب وازوريس عنصر الماء * قال صاحب العقد الثمين أما حور فانه يدل على الزمن المستقبل ولذا كان المصريون يلقبون به ولى العهد كما أنهم يلقبون الملك الحاكم برع أى الشمس والاموات بازوريس وكانوا يعتبرون هذه المعبودات ملوكا حقيقية وجعلوا لها أسماء وألقابا رسمية قال وأما العائلة الشبيهة بالمقدسة وعائلة أجداد المصريين فلم يوجد لها على الآثار القديمة شئ يذكر غير ما رأيناه فى ورقة تورينو يعنى المحفوظة فى خزانة التحف بمدينة تورينو احدى عمالات ايطاليا المبينة لترتيب الملوك ومدة ملكهم من أن الذين حكموا مصر قبل الملك (منا) وسبقوه فى الترتيب كانوا يدعون حورشسو ومعناه خدمة المعبود حور ولعلهم كهنة اه قال لبسيوس ان قدماء المصريين ينسبون لمعبوداتهم أو لاجدادهم حورشسو سن القوانين المدنية وابداع الفنون والصنائع واختراع الورق والكتابة وايجاد الاسماء المقدسة وترتيب الديانة والمذاهب ولذلك كان قدماء المؤرخين من اليونان يقولون ان البركات حكمها (أى مصر) كذا من السنين ومعناه ان كاهن هيكل النار التى كانت احدى المعبودات قد حكمها كذا سنة * ويقال ان أول هؤلاء الملوك يعنى الكهنة كان من مدينة طيبة كما يقال ان أول من أسس مدينة طيوه التى هى الآن بلدة الاقصر وما حولها هو الشمس يعنى كاهن الشمس * ثم خرجت بعد ذلك العائلة الملوكية من هاتين المدينتين * وأما من قال بانها ابنة اثنين وخمسين قرنا فجماعة من كبار أصحاب التاريخ المتقدمين وتبعهم جماعة من المتأخرين منهم مانيتون المؤرخ قال ان العائلات التى ملكت مصر احدى وثلاثون عائلة تنقسم الى ثلاث طبقات وقد جعل لكل منها بابا مخصوصا * فالباب الاول فى الطبقة الجاهلية أو الطبقة القديمة ومدة ملكها ألفان ومائة سنة وخمس سنين وتشتمل على احدى عشرة عائلة من العائلة الاولى الى الحادية عشرة

والثانى

والثانى فى الطبقة الوسطى ومدة ملكها ألف وثلاثمائة واحدى وسبعون سنة وتشتمل على ست عائلات من الثانية عشرة الى السابعة عشرة * والثالث فى الطبقة الاخيرة ومدة ملكها ألف وثلاثمائة واحدى وسبعون سنة وتشتمل على أربع عشرة عائلة من الثامنة عشرة الى الحادية والثلاثين فيكون مجموع سنى ملك هذه العائلات زهاء خمسة آلاف سنة * وقد عد هذه العائلات جماعة من المؤرخين نحو ثلاثين عائلة وعدها آخرون ستا وثلاثين * وقارن جماعة من المتأخرين بين مبدإ ظهور كل طبقة من الطبقات الثلاث المذكورة وبين التاريخ الميلادى والهجرى فكان مبدأ ظهور الطبقة الاولى منها أى الطبقة الجاهلية موافقا لسنة أربعة آلاف وخمسين قبل الميلاد المسيحى وسنة ست وعشرين وستمائة وخمسة آلاف قبل الهجرة المحمدية * والطبقة الوسطى منها لسنة أربع وستين وثلاثة آلاف قبل الميلاد وسنة ست وثمانين وستمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة * والطبقة الاخيرة منها لسنة اثنتين وسبعمائة وألف قبل الميلاد أى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف قبل الهجرة * قال مانيطون وكانت كل عائلة من هذه العائلات تلقب بمركز حكومتها فاذا كانت العائلة فى مدينة طيبة مثلا سميت بالطيبية وان كانت فى مدينة منف سميت بالمنفية ورتب مانيطون هذه الطبقات الثلاث وحقق سنى ملك كل منها فى كتابه على الترتيب الآتى

ترتيب العائلات		تخت المملكة لكل عائلة فى القدم	سنو ملك كل عائلة	
			سنة	
العائلة	الاولى	تنيس	٢٥٣	الطبقة الجاهلية كما رواه مانيطون
»	الثانية	منفيس	٣٠٢	
»	الثالثة	»	٢١٤	
»	الرابعة	»	٢٨٤	
»	الخامسة	»	٢٤٨	
»	السادسة	ايليفنتين	٢٠٣	
»	السابعة	»	٧٠	
»	الثامنة	منفيس	٢٤٢	
»	التاسعة	هرقليوبوليس	١٠٩	
»	العاشرة	»	١٨٥	
»	الحادية عشرة	طيبه	٠٠	
العائلة	الثانية عشرة	طيبه	٢١٣	الطبقة الوسطى كما رواه مانيطون
»	الثالثة عشرة	»	٤٥٣	
»	الرابعة عشرة	اكسويس	١٨٤	
»	الخامسة عشرة	الرعاة	٠٠	
»	السادسة عشرة	»	٥١١	
»	السابعة عشرة	»	٠٠	

ترتيب العائلات		تخت المملكة لكل عائلة فى القدم	سنوات كل عائلة	
العائلة	الثامنة عشرة	طيبه	٢٤١	الطبقة الاخيرة كما رواه مانيطون
«	التاسعة عشرة	«	١٧٤	
«	العشرون	«	١٧٨	
«	الحادية والعشرون	تانيس	١٣٠	
«	الثانية والعشرون	بوباست	١٧٠	
«	الثالثة والعشرون	تانيس	١٨٩	
«	الرابعة والعشرون	سيبس	٦٦	
«	الخامسة والعشرون	اتيوبيه	٥٠	
«	السادسة والعشرون	سيس	٠٧	
«	السابعة والعشرون	الفرس	١٢١	
«	الثامنة والعشرون	سيبس	٠٧	
«	التاسعة والعشرون	منديس	٢١	
«	الثلاثون	سيبانيس	٣٨	
«	الحادية والثلاثون	الفرس	٠٨	

وممن حذا حذو مانيطون هذا فى حسابه وتحقيقه العلامة الفلكى محمود باشا المصرى فقد قرأت فى رسالته التى حررها بالافرنسية فى سنة اثنين وستين وثمانمائة وألف ميلادية تحت عنوان ﴿ عمر الاهرام والغرض من بنائها ﴾ ما ملخصه قال * رحمه الله

كنت تعودت أن أزور هذه الآثار الشريفة * يعنى الاهرام * فى أول فصل الربيع أحد الاعتدالين حينما يكون الليل والنهار متساويين ويقع ذلك مرتين فى السنة فى نحو الحادى والعشرين من كل من مارث وسبتمبر فلما جاء اعتدال مارث من سنة اثنين وستين وثمانمائة وألف ميلادية استقدمنى الجناب الخديوى * يعنى به اسمعيل باشا * الى سرايه بالجيزه ورسم لى بالذهاب الى الاهرام وتعيين اتجاهاتها واستنتاج كل ما يمكن استنتاجه منها من القواعد العلمية فقمت بالامر طائعا وضربت لى مضربا فى جوار الهرم الكبير ولبثت أربعة أيام كاملة كنت أرى فى لياليها النيرة نجومها اللامعة تتلألأ كأنها تحيي بابتسام تلك الآثار العظيمة الدالة على ذلك المجد الانسانى فلما أمعنت الطرف فى حركات تلك النجوم والكواكب وسيرها استوقف نظرى ضياء ذلك الكوكب المعروف بسيريوس يعنى الشعرى اليمانية التى هو أعظم كواكب برج الكلب الاكبر وأشرقها ضياء فكنت أرى أن أشعته تنبعث عمودية الى الوجهة القبلية من الهرم بلا انحراف فجعلت أفكر فى ذلك وأدقق النظر والتأمل حتى ثبت عندى أن هذا الأثر العظيم لابد وأن يكون مقاما لاحد الآلهة الفلكية وأصحاب

المقامات

المقامات العلوية وهذا الاله على معتقدهم انما هو نجم الشعرى اليمانية * الى أن قال * وليس الهرمان الكبيران هما المتجهين فقط تمام الاتجاه للاربع نقط الاصلية بل ان كافة الاهرام الصغيرة وسائر الآثار الجنازية هي كذلك أيضا مما يدل على أن إنشاءها كان لغرض دينى أشبه بالذى حدا بالامم الحاضرة الى بناء مقابر موتاهم على وضع وشكل مخصوص * فانك ترى عند معاشر المسلمين مثلا أن وضع اللحد عمودى على اتجاه مكة المكرمة التى فيها بيت الله الحرام بحيث اذا وضعت الجثة على جانبها الايمن كان وجه الميت متجها نحو الكعبة * قال ومما يؤيد أن بناء الاهرام كان لغرض دينى ما يراه الرائى من ميل سائر جهاتها على سطح الافق بزاوية لا تزيد ولا تنقص عن اثنتين وخمسين درجة ونصف تقريبا وهذا لا يمكن وقوعه اتفاقا بطريق الصدفة والاتفاق ولابد أن يكون لهم فيه مآرب ويكون لهذا الوضع العجيب علاقة بأحد الكواكب التى كانت آلهة لقدماء المصريين * الى أن قال * وأما معرفة سن الاهرام وما مضى عليها من الاعوام فينحصر فى البحث بين سنة (٢٢٥٠) وسنة (٣٢٥٠) وهو زمن يكون فيه الميل موافقا ٢٢ درجة و ٣٠ دقيقة وبعمل الحساب على مقتضى هذا يتضح أن بناء الاهرام كان سنة اثنتين وثلاثمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد المسيحى وهذا التاريخ وان كان على وجه التقريب نظرا لما يحصل عادة من الفرق فى حساب الاميال لكنه موافق لما ذكره معظم مؤرخى العرب مثل القوضاعى وابن عبد الحكم والمسعودى والمقريزى وغيرهم وهم القائلون بأن حدوث الطوفان كان فى القرن الحادى عشر قبل تجسد السيد المسيح وان الاهرام كان بناؤها قبل الطوفان بثلاثة أو أربعة أجيال * قال وربما استند هؤلاء المؤرخون وابن يونس الفلكى فى هذا القول على القصة المشهورة التى جاء فيها أن بعض المصريين عثروا على ورقة من البابيروس الذى كان قدماؤهم يكتبون عليه فدفعوها الى راهب قبطى من رهبان دير قلامون ليفك رموزها وكان ذلك حوالى سنة خمس وعشرين ومائتين هجرية فقال لهم ان سنتكم هذه توافق سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة وأربعة آلاف من بناء الهرم وسنة احدى وأربعين وتسعمائة وثلاثة آلاف من الطوفان * الى أن قال * وقد ذكر كل من يونسن والجنرال ويزا أن الزمن الواقع بين منيس وبكتانيوس هو عبارة عن ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمس وخمسين سنة وان مدة تسلط الاربع عائلات الاول من ملوك الفراعنة كانت خمسمائة وسبعين سنة وان انقراض ملك العائلة الرابعة منها كان فى سنة خمس وثمانين وتسعمائة وألفين للاسكندر وسنة عشر وثلاثمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد المسيحى * قال ولما كان بناء الهرمين الكبيرين فى أيام الملك كيوبس والملك كفريم وكلاهما من ملوك هذه العائلة يعنى الرابعة التى حكمت مائة وخمسا وخمسين سنة كان بناؤها على مقتضى هذا الحساب فى القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد المسيحى أو فى الخامس والثلاثين على رواية بروكش * قال وعندى أنه من المحقق الذى لا امتراء فيه أن لبناء الاهرام علاقة دينية بنجم الشعرى اليمانية وأنه قد مضى عليها اثنان وخمسون قرنا اه

وممن قال انها ابنة خمسة وثلاثين قرنا جماعة من المتقدمين والمتأخرين أيضا ممن اجتمعت كلمتهم على أن (منا) الذى هو أول ملوك الطبقة الجاهلية هو (مصرايم) المذكور فى التوراة

ولما كان من الثابت المقرر فى التوراة أن مصرايم هذا هو ولد حام ولد نوح عليه السلام كان من الثابت المقرر أيضا أن المدة الواقعة مابين الخليقة من آدم عليه السلام والطوفان هى ألفان ومائتان وست وخمسون سنة أى قبل مولد المسيح بثلاثة الاف ومائتين وأربع وأربعين سنة * وقبل هجرة صاحب الشريعة المحمدية بثلاثة آلاف وثمانمائة وست وستين سنة * وكانت الحقيقة هى غير ماذكره مانيطون ومن حذا حذوه من المتأخرين. ومع أن مانيطون عاد فاستدرك فقال ان ملوك مصر فى سنى الطبقتين الاولى والثانية لم يكونوا جميعا متتابعين ملكا بعد آخر بل كانوا كثيرين متعاصرين مع بعضهم فمنهم من كان مستقلا بحكم اقليم ومنهم من كان منفردا بمقاطعة ومنهم من كان يحكم بالاشتراك وغير ذلك فان المتأخرين من أهل التاريخ لما حاروا فى كيفية وأسباب هذا الفرق الجسيم ولم يجدوا وجها للطعن فى صحة مارواه مانيطون وقوة سنده أوله بعضهم بان ديار مصر كانت منقسمة الى عدة ممالك يملكها أمراء متعاصرون من ملوك الطوائف فى كثير من المدد المذكورة وغالط بعضهم أيضا فقال وان مانيطون وهم فعدد كثيرا من العائلات الملوكية على أنها متتالية بعضها عقب البعض مع أنها كانت متعاصرة * وزعم أصحاب هذا المذهب أنه بينما كانت العائلة الخامسة قابضة على زمام الملك فى جزيرة ايليفنتين مثلا كانت العائلة السادسة مستولية فى هذه المدة على سرير الملك بمدينة منفيس

قلت وليست عبارة مانيطون المؤرخ هذه وحدها التى كانت ولم تزل موضعا للنقد بل هكذا حال التوراة أيضا اذ قام فى هذا العصر جماعة من علماء التاريخ وآخرون من الكتاب يخطؤن ماجاء فيها من أن المدة الواقعة بين الخليقة والطوفان هى ألفان ومائتان وست وخمسون سنة وأثبتوا أنها أكثر من ذلك كثيرا وقد سلم جماعة من علماء اللاهوت صحة هذا المذهب حتى وفق بعضهم بين هذا القول وبين عبارة التوراة بأن سلسلة الآباء المذكورة فى التوراة غير متصلة وقالوا انه لم يذكر فيها الا خاصة الناس دون عامتهم ولم يقفوا عند هذا الحد بل تطرف جماعة الى القول أيضا بأن أسفار موسى عليه السلام كتبت بعده بأعوام كثيرة بل بعد سبى بابل وان ماجاء فى التوراة من الحوادث التاريخية الخاصة ببنى اسرائيل أو المنقولة عنهم لايعول عليها كثيرا * ولكن هذا كله لم يغير من صحة التوراة ولم يمس عصمتها التى هى عقيدة أهل الكتابين من اسرائيليين ومسيحيين على أننا لو وفقنا بين الحوادث التاريخية المذكورة فيها وبين حوادث أيام تلك الطبقات الثلاث التى ذكرها مانيطون ونقلت بأن نضم أيام ملك الطبقتين الاولى والثانية التى هى أكثر اشكالا وتعقيدا بعضها الى بعض مع اعتبار أن مبدأ ملك الدولة الاولى منها كان بعد الطوفان لصح التوفيق وزال بعض اللبس وكان هذا المذهب على مافيه من التعليل أقرب سائر تلك المذاهب الى الصواب وأبعدها عن الشطط

وعليه

وعليه فانى مورد هنا ماصح عندى من أسلوب هذا التوفيق غير مشاغب ولامفضل مذهبا على مذهب فانى أعلم انها كلها أحاجيّ ومعميات وانها لاتزال كذلك حتى تتكشف خبايا تلك الآثار و يظهر لاصحاب العلوم الاثرية مافيها من الرموز والاسرار ۞ وليس هذا بالامر العسير فى هذا القرن الذى كاد يبلغ فيه كل علم منتهاه

أما طريقة الوصول الى هذا التوفيق فهى أن نضم أيام ملك الطبقتين الاولى والثانية وهى عبارة عن سبع عشرة عائلة كما رتبها مانيطون بعضها الى بعض ونحسب أن أيام ملكها جميعها تبتدئ من الطوفان وتنتهى الى ماقبل نزول يعقوب و بنيه على أرض مصر فى أوائل حكم الدولة الثامنة عشرة المتأصلة ۞ فاذا صح لديك ذلك كانت مدة ملك الطبقتين المذكورتين عبارة عن ألف وثلاثمائة وستين سنة لاغير وكان مبدأ ملكها قبل مولد السيد المسيح بثلاثة آلاف ومائتين وأربع وأربعين سنة وقبل هجرة صاحب الشريعة المحمدية بثلاثة آلاف وثمانمائة وستوستين سنة كما يتبين لك ذلك من الترتيب الآتى على ماجاء فى التوراة

سنة	
١٠٧٠	من الطوفان الى ميلاد ابراهيم الخليل عليه السلام بطريق تسلسل الاجيال
١٠٠	من ابراهيم الى اسحق ولده عليهما السلام
٦٠	من اسحق الى يعقوب عليهما السلام
١٣٠	من يعقوب الى مجيء بنى اسرائيل الى مصر
١٣٦٠	

وقد جاء مارواه مانيطون مطابقا لما نصت عليه التوراة من أن نزول يعقوب و بنيه على أرض مصر كان فى أيام الدولة الثامنة عشرة المذكورة وهى الثانية المتأصلة التى قامت من مدينة طيبة بعد سقوط الدولة السابعة عشرة المعروفة بدولة الهيكسوس أو دولة الرعاة وجلائهم عن البلاد فدل ذلك دلالة واضحة على أن مدة ملك الطبقتين المذكورتين لم تتجاوز قط ألفا وثلاثمائة وستين سنة وليست ألفين وسبعمائة وثلاثا وعشرين سنة كما رواه بعض أصحاب التاريخ

أما الطبقة الثالثة وأعنى بها الطبقة الاخيرة التى تبتدئ من العائلة الثامنة عشرة وتنتهى بالعائلة الحادية والثلاثين على رواية مانيطون المؤرخ فهذه لما كانت أخبار أيام ملوكها ظاهرة جلية صح أن نقسمها الى أدوار ستة بشرط انطباق ماوقع فى كل دور منها من الحوادث والانباء على ماجاء فى التوراة وعلى هذا الترتيب يكون الدور الاول من هذه الادوار شاملا لاربع عائلات من الثامنة عشرة الى الحادية والعشرين ۞ ويصح أيضا تقسيم هذا الدور الى قسمين

الاول منها يشتمل على عائلتين اثنتين هما الثامنة عشرة والتاسعة عشرة أما أيام ملك هاتين العائلتين فكلها تقارن مدة سكنى بنى اسرائيل أرض مصر تمام المقارنة ۞ قال مانيطون المؤرخ فى كتابه بعد كلام فأقام يوسف بمدينة منف وتسلط على سائر البلاد فى أيام أعظم

وأقدر فراعنة المملكة الجديدة اه قلت يريد بفرعون هذا الملك طوطومس الثالث أوطوطمس الذى تولى الملك بعد نفى الملوك الرعاة واخراجهم من أرض مصر وجاء فى التوراة مانصه « وقال فرعون ليوسف انظر قد جعلتك على أرض مصر * وخلع فرعون خاتمه وجعله فى يد يوسف وألبسه ثوب ارجوان ووضع طوق ذهب فى عنقه وأركبه فى مركبته الثانية ونادوا أمامه « اركعوا » وجعله على كل أرض مصر * وقال فرعون ليوسف أنا فرعون فبدونك لا يرفع انسان يده ولا رجله فى كل أرض مصر اه

ومما جاء أيضا مؤيدا لصحة ظهور هذه العائلة المتأصلة بعد نفى الرعاة واخراجهم من البلاد بغض المصريين لسائر رعاة الغنم وكراهتهم لاسم الرعاة واعتبارهم أن كل راع للغنم نجس وقد جاء فى التوراة من قول يوسف عليه السلام لاهله عند قدومهم اليه بأرض مصر * فيكون اذا دعاكم فرعون وقال ماصناعتكم أن تقولوا عبيدك من أصحاب الماشية منذ صبانا الى الآن نحن وآباؤنا جميعا كى تسكنوا أرض جاسان لان كل راعى غنم رجس عند المصريين اه وكان خروج بنى اسرائيل من أرض مصر أيضا فى أيام الملك منفطا الثانى أحد ملوك الدولة التاسعة عشرة التى هى احدى الدولتين المذكورتين ومنفطا هذا هو ابن سيزوستريس صاحب الحروب المشهورة والفتوحات المأثورة قال مانيطون المؤرخ مات منفطا هذا عن ابنة اسمها طوسير وابن قاصر اسمه منفطا الثالث ويلقب بأوسير خيروع ميامون فتزوجت هذه الابنة بعظيم من المصريين اسمه حفطا منفطا فكان يقال له أيضا فرعون تبعا لها وكان يحكم بالنيابة عنها اه فنفسر أهل التاريخ أن زواج طوسير المذكورة بذلك العظيم الذى لم يكن من بيت الملك مع أن جدها سيزوستريس كان قد خلف عدة بنين يدل على حدوث حادث عظيم جدا نجم عنه انقراض سائر أعضاء تلك العائلة الملوكية * قالوا وهذا الحادث انما هو غرق فرعون وجنوده فى البحر قلت فاذا صح ذلك كانت مدة مقام بنى اسرائيل فى أرض مصر مائتين وثلاثين سنة وهى مدة ملك العائلتين المذكورتين وتسلطهما على السواء

والقسم الثانى منهما يشتمل على عائلتين اثنتين أيضا وهما العائلة العشرون والحادية والعشرون فهاتان العائلتان وان لم يقع فى أيامهما من الحوادث شئ يذكر الا أنه يصح اعتبار مبدأ أيامهما من خروج بنى اسرائيل من مصر الى حدوث ماحدث من الكوارث فى أيام العائلة الثانية والعشرين التى قامت بعدها هذه العائلة وبناء على ذلك تكون عبارة عن ستمائة وسبعين سنة بالمقارنة على ماجاء فى التوراة حسب الترتيب الآتى

سنة	
٤٠	مدة مقام بنى اسرائيل فى البرية
٣٠	رياسة يشوع بن نون على بنى اسرائيل
٤٥٠	مدة قضاة بنى اسرائيل على مافى سفر اعمال الحواريين
٣٠	مدة رياسة صموئيل النبى على بنى اسرائيل بعد عالى الكاهن الى ولاية شاول
١٢٠	من ولاية شاول الى ملك سليمان بن داود عليهما السلام
٦٧٠	

والى

والى هـذا الحين أى الى أيام ملك سليمن بن داود عليهما السلام انقسمت السلطنة الاسرائيلية الى مملكتين أولاهما مملكة اسرائيل ورأسها ياربعام عبد سليمان وهذه لم تلبث أن تلاشت وعفت آثارها وثانيتهما مملكة يهوذا ورأسها راحبعام بن سليمان وهـذه قد بقيت تتنازعها الاحن وتتوالى عليها الخطوب والمحن الى مجيء المسيح ثم تلاشت أيضا فأصبحت أثرا بعد عين كما أنبأ بذلك يعقوب عليه السلام ولده يهوذا

اذا علمت ذلك كان مجمل سنى ملك الدور الاول من الطبقة الثالثة على هـذا الترتيب تسعمائة سنة لاغير

وأما الدور الثانى فيشتمل على ثلاث عائلات من الثانية والعشرين الى الرابعة والعشرين ومدة ملكها مائتان وثمان وثلاثون سنة بالتطبيق على مدة من ملك من ملوك يهوذا من أيام رحبعام الى موت يوثام كما سترى ذلك مفصلا فى محله * وقد طابق ماذكره جماعة المؤرخين من الحوادث والانباء التى وقعت أيام هـذه العائلات الثلاث ماجاء فى التوراة أتم مطابقة من ذلك أن الملك ششنق الاول رأس العائلة الثانية والعشرين التى هى احدى هـذه العائلات وقاعدة ملكها بوبسط بالشرقية المعروفة بتل بسطة الواقعة الآن على قيد بعض فراسخ من مدينة الزقازيق قد أجار ياربعام أحد عبيد سليمان بن داود عليه السلام عند ما نزل فى جواره هاربا من وجه سيده * وششنق هذا مذكور فى التوراة باسم شيشق قال بعض أهل التاريخ ونزل يوربعام عبد سليمان بن داود على شيشق ملك مصر مستجيرا فأكرم شيشق مثواه واتفق أن مات سليمان عليه السلام بعد ذلك بقليل فتولى الملك بعده ابنه رحبعام فلم يستو على سرير الملك حتى خرج عن طاعته عشرة أسباط من بنى اسرائيل لاسباب لامحل لايرادها هنا وسيروا فى طلب ياربعام عبد سليمان عليه السلام فسار اليهم فأحسنوا لقاءه وولوه الملك وسموه ملك اسرائيل فتجرد رحبعام عند ذلك لقتاله وركب عليه فى جيش عظيم من سبطى يهوذا وبنيامين فأرسل ياربعام الى شيشق ملك مصر يستنجده على قتال رحبعام فسار شيشق لنجدته فى جيش ضخم وألف ومائة مركبة حربية وقاتل رحبعام قتالا عنيفا للغاية وفتح مدن يهوذا ونهب خزائن بيت المقدس وبيت الملك وأخذ تروس الذهب التى كان عملها سليمان عليه السلام وعاد الى مصر ظافرا غانما ونقش تاريخ هذه الغزوة على جدران هيكل الكرنك وكتب عليه يهوذا ملكى * يعنى ان مملكة يهوذا صارت فى قبضة يده * أما بيان سنى ملك هذه العائلات الثلاث التى هى عبارة عن مائتين وثمان وثلاثين سنة كما تقدم التذكره فهى على الترتيب الآتى ممن ملك على يهوذا كما هو مذكور فى التوراة

سنة	
١٧	مدة ملك راحبعام
٠٣	مدة ملك إبيا
٤١	مدة ملك اسيا
٦١	

سنة

٦١ ماتقدم
٢٥ مدة ملك يوشافاط
٠٨ مدة ملك يورام
٠١ مدة ملك أحزيا
٦ مدة ملك عليا
٤٠ مدة ملك يواش
٢٩ مدة ملك أموصيا
٥٢ مدة ملك عذريا
١٦ مدة ملك يوثام

٢٣٨

وأما الدور الثالث فينحصر كله فى العائلة الخامسة والعشرين السودانية ولابتداها ومدة سنى هذا الدور احدى وعشرون سنة لاغير وهى عبارة عن المدة الواقعة من ملك أحاذ الذى تولى على يهوذا بعد يوثام الى ملك حزقيا حسب البيان الآتى

سنة

١٢ مدة تملك أحاذ على اليهودية قبل تملك هوشع على مملكة اسرائيل
٠٤ مدة » » » » بعد تملك هوشع على مملكة اسرائيل
٠٥ مدة تملك حزقيا الذى تولى بعده أحاذ المذكور

٢١

ومن الحوادث التاريخية التى وقعت فى أيام هذه العائلة وجاءت مذكورة فى التوراة أيضا أنه لما قام شلمناصر ملك أشور على هوشع ملك اسرائيل المذكور وكان هوشع معاصرا للملك سيبواس فرعون المذكور فى التوراة باسم سواه وهو أخو الملك سباقوس الحبشى الذى دوخ ديار مصر وتولى ملك الفراعنة قسرا بعد حروب وخطوب أتينا على شرحها فى ترجمته أرسل هوشع ملك اسرائيل الى سواه ملك مصر يستنجده ويستحثه فأبطأت النجدة وركب شلمناصر على هوشع فى عسكر جرار وقاتله وظفر به وقبض عليه وسجنه فجعل هوشع يستغيث بسواه الملك فلم يغثه لعدم تمكنه من ذلك وقالت التوراة فى هذا المقام ما نصه * وفى الثانية عشرة لاحاذ ملك يهوذا تولى هوشع بن أيلة على السامرة على اسرائيل تسع سنين وعمل الشر أمام الرب ولكن ليس كملوك اسرائيل الذين كانوا قبله وصعد عليه شلمناصر ملك أشور فصار له هوشع عبدا ودفع له جزية ووجد ملك أشور فى هوشع خيانة لانه أرسل رسلا الى سواه ملك مصر ولم يؤد جزية الى ملك أشور حسب كل سنة فقبض عليه ملك أشور وأوثقه فى السجن وصعد ملك أشور على كل الارض وصعد الى السامرة وحاصرها ثلاث سنين وسبى شعب اسرائيل الى أشور اه قلت وكان خراب مملكة اسرائيل وزوالها تماما بعد هذا التاريخ

وأما الدور الرابع فمبدؤه العائلة السادسة والعشرون التى قام على رأسها بسماتيكوس

الاول

الاول المشهور بحب العلوم وتوسيع نطاق المعارف والآداب وهو الذى فى أيامه اتسع نطاق استعمال الكتابة بالحروف الابجدية ومدة سنى هذا الدور مائة وثلاث وعشرون سنة وأشهر على ترتيب شئ من عاصرها من ملوك يهوذا الاتى بيانهم بعد

	سنين	شهور
مدة ملك حزقيا خلاف الخمس سنوات التى كان يعاصر فيها الدور الثالث	٢٤	٠٠
« حكم منسا بن حزقيا	٥٥	٠٠
« « امون بن منسا	٠٢	٠٠
« « يوشيا بن امون الذى قتله فرعون نخو	٣١	٠٠
« « يهوياحاذ بن يوشيا الذى خلعه فرعون نخو	٠٠	٠٣
« « الياقيم بن يوشيا الذى ولاه فرعون نخو	١١	٠٠
	١٢٣	٣

ومن الحوادث التاريخية التى جاءت فى التوراة مثبتة مطابقة هذه المدة على الوجه المشروح لمدة الدور الرابع المذكور حادثة نخاوس بن بسماتيكوس رأس هذا الدور * ومحصلها انما كان نخاوس هذا ميالا كأبيه الى تحسين أحوال الرعية بتوسيع نطاق التجارة عمد الى فتح البلاد وركب فى عسكر جرار وزحف على يهوذا وقاتل يوشيا ملكها وضيق عليه وما زال حتى قتله وفتح مدائنه وتملك عليها من البر والبحر فبايع بنو يهوذا يهوياحاذ ولد يوشيا بالملك واجتمعوا تحت رايته فأغضب ذلك نخاوس فرعون المذكور وركب من فوره فى عسكره على يوشيا وحاربه وظفر به وخلعه وذلك عند رجوعه من غزوة بابل وولى مكانه أخاه الياقيم وضرب الخراج على شعب يهوذا فى كل عام مائة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب واستصحب يهوياحاذ الى مصر أسيرا فبقى بها حتى مات قالت التوراة * وفى أيامه يعنى فى أيام يوشيا هذا * صعد فرعون نخو ملك مصر على ملك اشور الى نهر الفرات فصعد الملك يوشيا للقائه فقتله فى مجدو حين رآه وأركبه عبيده ميتا من مجدو وجاؤا به الى أورشليم ودفنوه فى قبره فأخذ شعب أرض يهوذا يهوياحاذ ابن يوشيا ومسحوه وملكوه عوضا عن أبيه وكان يهوياحاذ ابن ثلاث وعشرين سنة حين ملك وملك ثلاثة أشهر فى أورشليم واسم أمه حموطل بنت أرميا بن لبنة اه

وأما الدور الخامس فبدؤه أواخر سنى العائلة السادسة والعشرين أى أوائل ملك بسماتيكوس الثانى الذى حارب النوبة وأبلى فى قتالها بلاء حسنا ومات فقام بالامر بعده ابنه فرعون خفرع الذى يقال له أيضا وح ابرع * قال أصحاب التاريخ وكان فرعون هذا معاصرا لصدقيا ملك يهوذا الذى وقع خراب أورشليم وسبيها الى بابل فى أيامه باغارة بختنصر ملك بابل وان صدقيا أرسل الى فرعون خفرع المذكور يستنجده على قتال بختنصر فلم يفلح وسقط صدقيا فى يد بختنصر * قال الله تعالى على لسان نبيه أرمياء الذى كان على عهد سبى بابل هكذا قال الرب ها أنا ذا أدفع فرعون خفرع ملك مصر ليد أعدائه وليد طالب

نفســه كما دفعت صدقياء ملك يهوذا لبختنصر ملك بابل عدوّه وطالب نفســه اه قال أهل التاريخ وقد تم ماأنبأ به نبي الله أرمياء حيثما انتفض على (فرعون خفرع) عسكره وشقوا عصا طاعته عند عودته من حروبه مع القيروان ثم خلعوه وملكوا عليهم جنديا اسمه اماسيس ويقال له أيضا احمس فسار احمس هـذا مع هؤلاء الخوارج لقتال وح ابرع ولم يكن مع وح ابرع فى ذلك الحين سوى بعض الجنود الاجنبية التى كانت فى خدمته وهى زهاء ثلاثين ألفا فلما التقى الجمعان عنـد مدينـة صاالحجر اقتتـلا قتالا عنيفا فكانت الدائرة على جنود وح ابرع ووقع فى قبضة احمس فحبسه فى قصره قال هيرودوتس فلم تلبث الجنود بعد ذلك أن طلبتـه من احمس وشدّدت فى طلبه فدفعه اليهم فقتلوه فى الحال واستقل احمس بالملك واتسـعت كلمتـه وخضـع لحكمه أهالى جزيرة قبرص ثم مات فتولى الملك بعـده بسماتيك الثالث فلم يسـتقر به المنصب حتى زحف ملك فارس على أرض مصر فى عسكر جرار فخرج بسماتيك لقتاله فى عدة وافرة من الجنود المصرية واليونانية الذين كانوا فى خدمته فلما التقى الجمعان واشتد القتال هجمت جيوش بسماتيك على جيوش كمبيز ملك فارس وكان كمبيز قد وضـع فى مقـدمة جيوشه كثيرا من السـنانير والبزاة وغيرها من الحيوانات التى كان يعبدها المصريون فلم يجسروا على القتال ولم يرموا بسهامهم على عدوّهم مخافة أن تصيب تلك الحيوانات المقدسة فجفلوا ورجعوا القهقرى وسقط بسماتيك فى قبضة كمبيز فقتله بعد أمور قد أتينا على ذكرها مفصلة فى ترجمتـه وبسقوط بسماتيك هذا زالت دولة الفراعنة وانثل عرشها وتقلص ظل ملكها من هذه الديار فأصبحت من هـذا الحين ولاية تابعة لمملكة كمبيز بن كورش ملك فارس (قلت) وقد ورد فى التوراة أن الله أوحى الى حزقيال النبي عنـد سبي بابل وخراب أورشـليم أنه لايكون بعـد اليوم رئيس من أرض مصر وألقى الرعب فى أرض مصر (ومن أصدق من الله قيلا) فانه لم يقم من ذلك الحين رئيس على مصر من أهلها الى يومنا هذا

وقد عدّ أهل التـاريخ هذه الدولة القائمة الغاصبة فى عداد الدول المـالكة باعتبار أنها السابعة والعشرون بعد السادسة والعشرين المصرية المتأصلة فاذا صح لديك ذلك كان ادخالها أيضا فى دائرة الدور الخامس على مقتضى الترتيب المتقدم بيانه لازما مع مايدخل معها فى هذا الدور أيضا من بقية الدول الاخرى المتممة له كالدولة الثامنة والعشرين الصاوية والدولة التاسعة والعشرين الاشمونية والثلاثين السمنودية والحادية والثلاثين الفارسـية التى انقرضت باغارة الاسكندر المقـدونى على البلاد أما سنو ملك هذه العائلات فمائتان وثلاث وثلاثون سنة على مقتضى التنسيب الآتى للحوادث التاريخية المذكورة فى التوراة

سـنة	
١١	مدة ملك صدقياء على يهوذا وهو الذى وقع خراب أورشليم وسبي بابل فى أيامه
٢٧٢	المدة من سبي بابل الى ظهور الاسكندر المقدونى
٢٨٣	

بقى

بقي علينا الآن أن نأتي على ذكر الدور السادس الذي هو آخر مارتبناه من هاتيك الادوار وبيان عدد مايدخل فيه من الدول التي تولت الملك وسني ملك كل منها تتميما لحساب هذه القاعدة التي اخترناها للتوفيق بين ماجاء في التوراة وماجاء في التاريخ * فنقول اذا صح ماتقدم بيانه وكان هذا الترتيب غير معيب في شئ كان اذن مبدأ الدور السادس المذكور ظهور الاسكندر المقدوني وكان هذا الدور مشتملا على دولتين لاغير أولاهما الدولة البطليموسية وثانيتهما الدولة الرومانية أو اللاطينية المعروفة في حساب أهل التاريخ بالدولة الرابعة والثلاثين وهي الدولة التي ولد في أيامها السيد المسيح وكانت مدة ملك هاتين الدولتين ثلثمائة وتسع عشرة سنة على الترتيب الآتي

سنة

١٢ مدة ملك الاسكندر المقدوني
٢٧٥ مدة ملك الدولة البطليموسية
٣٢ مدة ملك الدولة الرومانية أو اللاطينية

٣١٩

فاذا جمعت سني ملك كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث الى بعضها على مارتبناه من الادوار ظهر لك أن المدة الواقعة من عهد الملك (منا) رأس العائلة الملوكية الاولى الذي يسميه بعض أهل التاريخ مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام أو من الطوفان الى مولد السيد المسيح ثلاثة آلاف ومائتان وأربع وأربعون سنة ولم تتجاوز الاربعة آلاف سنة كما قاله جماعة من المؤرخين المتقدمين والمتأخرين وان أنكروا أن مصرايم هو (منا) واذا علمت ذلك فالوقوف عند حد بعض هذه الاحتمالات والفروض الثلاثة التي ذكرناها أو تفضيل بعضها على بعض والأخذ به دون الآخر ترجيح بلا مرجح ولذلك لم أورد ما أوردته من المقارنة والتطبيق بين ماجاء في التوراة وماجاء في كتب التاريخ القديمة على ماتقدم بيانه انتصارا لمقالة على أخرى ولاحذف حجة للترغيب في تفضيل مذهب على آخر لاني أعلم أنها كلها آراء لم يثبت منها لغاية الآن شئ ولاصحت بها دعوى ولكني حرصت على أن لاتفوت محبي التاريخ معرفة هذه النبذة أيضا فذكرتها غير كاتم مافي نفسي منها ولاساتر رأيي فيها فلا أناداع اليها ولاناه عن الأخذ بها

واعلم أن المصريين كانوا قبل عهد الملك بسماتيك يزعمون أنهم أقدم شعب على وجه البسيطة قال هيرودوتس لما تولى بسماتيك الملك عمد الى معرفة حقيقة هذا الزعم وكان يظن أن الفريجيين أقدم شعب وينازعهم المصريون قال وكانت أبحاثه الى ذلك الحين لم تكف لمعرفة الحقيقة فاخذ طفلين رضيعين وسلمهما الى راع يربيهما مع عنز ورسم له أن يضعهما في بيت لايدخل أحد عليهما الا العنز لترضعهما في وقت معلوم وأن يتفرغ عن كل أشغاله وقت ارضاعهما وقصد بذلك أن يعرف ماهي أول كلمة ينطقان بها متى صارا قادرين على الكلام فلما مضى عليهما سنتان دخل الراعي يوما وقد فتح باب البيت فزحف

الولدان نحوه وصرخا بيكوس ومدا اليـه أيديهما فاشتكان عند ذلك ليرى مايكون بعد هذه اللفظة فصار كلما دخـل عليهـما يصرخان بيكوس فاعلم الملك بالقصة فرسم باستحضارهما فلما حضرا وسمع منهما تلك اللفظة استخبر عن الشعب الذى يستعمل كلمة بيكوس وما معناها فقيـل له ان الفريجيين يسمون الخبز بهذا الاسم قال هيرودوتس فلذلك تنازل المصريون للفريجيين عن ادعاء الاسبقية (قلت) ولعلها خرافة رووها عن هيرودوتس بعادات المصريين وأخلاقهم وأعيادهم وقدرة آلهتهم وكهنتهم وسحرتهم وغير ذلك مما اعتاد هذا المؤرخ العظيم الاسهاب و بسط الكلام فيه ومع ذلك فان هذه الرواية على ما فيها من الخلط تؤيد ماقلناه من أنه لم يتيسر لقدماء المصريين أن يعرفوا من أين جاء آباؤهم ولا مبدأ تأسيس مملكتهم ولا من أين وصلت اليهم مادة هذا التمدن العجيب ولذلك لم يجزموا بشئ من هذا كله بل بنوا كل ما قالوه فى هذا الباب على فروض واحتمالات اجتمعت كلمتهم على بعضها واختلفت فى البعض فتبعهم فى ذلك أصحاب التاريخ من المتقدمين والمتأخرين غير مبالغين فى النقد لضعف سندهم وعجزهم عن تفنيد البرهان بالبرهان ودحض الحجة بأقوى منها وكان مااجتمعت عليه كلمتهم ولم يختلف فيه منهم اثنان قولهم ان (منا) هو أول مؤسس للمملكة المصرية وانه رأس العائلة الاولى من الطبقة الاولى احدى الطبقات الثلاث التى رتبها مانيطون فى جدوله فعلى مقتضى هذا الترتيب نأتى هنا بذكر كل دولة من الطبقات الثلاث المذكورة وذكر أخبار كل ملك منها على التعاقب و بالله سبحانه وتعالى البداية ومنه تبارك وتعالى الهداية

الكتاب الاول

(فى ملوك الطبقات الثلاث وفيه ابواب)

البـاب الاول

(فى الطبقة الاولى أو الطبقة العليـا)

كان مبدأ هذه الطبقة على مارواه جماعة المؤرخين سنة خمسة آلاف وأربعة قبل الميلاد المسيحي أى سنة ست وعشرين وستمائة وخمسة آلاف قبل الهجرة المحمدية وهى تبتدى بالملك (منا) وتنتهى الى الدولة الحادية عشرة الطيبية وسنو ملكها ألف وتسعمائة وأربعون سنة

في

الفصل الاول

(فى العائلة الاولى الطينية)

كان مبدأ حكم هذه العائلة سنة خمسة آلاف وأربعة قبل الميلاد المسيحى أى سنة ست وعشرين وستمائة وخمسة آلاف قبل الهجرة المحمدية وسنو ملكها ثلثمائة سنة وخمس سنين وعدة ملوكها تسعة أولهم الملك (منا) أومناوس الذى قالوا باحتمال انه (مصرايم) المذكور فى التوراة

فى الكلام على الملك منا

هوأول ملوك مصر وأول مؤسس للمملكة المصرية بعد دولة الحورشسو وأصله من مدينة طينة وهى بلدة كانت على مقربة من العرابة المدفونة بجوار جرجا ولما استخلص (منا) المذكور الملك من أيدى الكهنة واستقل بحكم البلاد هاجر من مدينة طينة المذكورة لميل أهلها الى الكهنة وأقر رؤساء القبائل على ماهم عليه من قبل وأسس مدينة منف التى موقعها الآن البدرشين وميت رهينة وهما من أعمال مديرية الجيزة وجعلها تحت ملكه وحول اليها النيل الى مجراه الذى هو عليه الان قال ديودور الصقلى وكان النيل يجرى بصحراء ليبيا وأصلح أحوال الرعية بتحسين أحوال الزراعة قال هيرودوتس كانت الاصلاحات التى أحدثها بمدينة منف سببا فى عمارتها وتخطيط المدن بارجائها وشيد فيها هيكلا لمعبودها (بتاح) أى الفتاح فصارت منف مركز المدنية والتمدن والعلوم والمعارف الى عصر اليونان ثم أدخل سكان ليبيا تحت الطاعة بعد أن غزاهم قال مانيطون وبعد موته اتهم أنه غير عادة أسلافه من الزهد بميله الى الترف ووضع الطعام على الموائد وتناوله الطعام مضطجعا على سرير قال ديودور واقتدت به الملوك من بعده فلما تولى الملك تفنحت أحد ملوك الدولة الرابعة والعشرين أنكر عليه هذه العادة الذميمة والبدعة السيئة اذ هى موجبة للجبن والخول وأمر بنقش كلام عنها فى حجر هجا فيه (منا) ووضعه فى معبد امون بطيبة وقال مانيطون انه لما تغلب الملك (منا) على طائفة الكهنة ونزع الحكم من أيديهم بالقهر والغلبة نسبوا اليه سوء العاقبة وقالوا انه ابتلعه تمساح البحر بعد أن حكم ستين وقيل اثنين وستين سنة وكان الملك (منا) المذكور معظما فى قومه مهيبا عندهم حتى انهم عبدوه وقدموا له الذبائح والبخور واستمروا على عبادته فلما مات خلفه ابنه أتوتيس

فى الكلام على الملك أتوتيس

(ومن ملك بعده من هذه العائلة)

تولى هذا الملك بعد أبيه ويقال انه لبث عاملا على مصر العليا والصعيد ثلاثين سنة فى حياة أبيه وهو الذى زين مدينة منف وحسنها وبنى فيها الهياكل والقصور المشيدة واشتغل بعلم التشريح وألف فيه رسالة استمد منها أطباء قدماء المصريين * قال صاحب العقد الثمين وهى التى تجددت كتابتها فى عهد رمسيس الثانى وعنوانها مكتوب فى الصحيفة الخامسة عشرة فى كتاب الاموات ونصه

هذا أول مجموع فى التذاكر الطبية النافعة لمعالجة البرص قد نقل من صحيفة قديمة وجدت داخل محبرة تحت تمثال أنوب فى مدينة ليتوبوليس

قال وكان وجودها فى عصر الملك سيتى الذى هو الخامس من هذه العائلة حسب ترتيب الآثار وحيث ان بينه وبين الملك تتا (يعنى أتوتيس) ملكين فهذا يثبت لملك تتا المذكور معرفة علم الطب والتشريح ولعظم فائدة هذه الرسالة نقلت الى الملك (سندا) المندرج اسمه فى جدول العائلة الثانية

ومات الملك أتوتيس فقام بالامر بعده كنكنيس ولم يعلم المؤرخون من أخباره شيأ يذكر ومات بعد أن حكم احدى وثلاثين سنة * فقام بالامر بعده (ونيفس) الاول وفى أيام هذا الملك حصلت بمصر مجاعة عظيمة جدا ومن أعماله الهرم الموجود على شمالى الهرم المدرج بسقارة وهو المعتقد قديما لدفن ما كان يعبد من الثيران فى أيامه * قال صاحب العقد الثمين وقد استكشف هذا الهرم البارون فون مينوتولى سنة احدى وعشرين وثلثمائة وألف ميلادية فوجده موضوعا على خلاف وضع الاهرام لعدم اتجاه أركانه الى النقط الاربع الاصلية وله أربعة أبواب وبداخله حجرات قال فان صح ذلك كان هذا الهرم أول هرم بنى فى مصر اﻫ ومات ونيفس المذكور بعد أن حكم ثلاثا وعشرين سنة * فقام بالامر بعده ونيفس الثانى ولم يذكر المؤرخون من أخباره شيأ ومات بعد أن حكم اثنين وأربعين سنة * ثم قام بالامر بعده (سيتى) وهو الذى وجدت فى أيامه الرسالة الطبية التى ألفها الملك أتوتيس المكتوبة فى الباب الرابع والستين من كتاب الاموات وهى من ضمن الرسائل الطبية المشتملة عليها الصحيفة القديمة الموجودة فى برلين كما رواه صاحب العقد الثمين ولم يذكر المؤرخون لهذا الملك شيأ من الاخبار ومات بعد أن حكم عشرين سنة * فقام بالامر بعده (مية بيدوس) ولم يعلم أيضا من أخباره شئ ومات بعد أن حكم ستا وعشرين سنة * فقام بالامر بعده مميس وهو حفيد الملك سيتى وفشا فى أيام هذا الملك فى البلاد الوباء ففتك بالخلق فتكا ذريعا ثم قامت فتنة

عظيمة فاختل نظام البلاد وعكف الناس على ارتكاب المعاصى واستفحل أمر الفتنة فمات فى أثنائها الملك عيسى بعد أن حكم ثمانى عشرة سنة * فقام بالامر بعده (ببه نخس) وقد تولى الملك فى خلال الفتنة وانتشار الخلل فزاد الهيجان بتوليته واشتدت الفتنة وعظمت ولم تطفئ نارها الا بزوال العائلة الاولى هذه وموت ببه نخس المذكور الذى هو تاسع ملوكها وآخرهم فقامت بعدها العائلة الثانية المعروفة بالطينية

الفصل الثانى

(فى العائلة الثانية المعروفة بالطينية)

كان ابتداء حكم هذه العائلة فى سنة أربعة آلاف وسبعمائة واحدى وخمسين قبل الميلاد أى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وخمسة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها ثلاثمائة وستون سنة وعدة ملوكها تسعة وهم الآتى ذكرهم بعد * قال جماعة الكتاب ويقال ان بين هذه العائلة وبين الملك (منا) أول مؤسس للمملكة المصرية قرابة متواصلة ولكنه لم يقم من الادلة ما يثبتها ولم يوجد فى النقوش الاثرية لهؤلاء الملوك شئ سوى أسمائهم وكان أول ملوك هذه الدولة (الملك بوثوس) * قال مانيطون المؤرخ المصرى لما استولى الملك بوثوس على ملك مصر نزل رجز من السماء على مدينة بوبست المعروفة الآن بتل بسطه خسف بها الارض وأهلك فيها خلقا كثيرا اه ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره أو آثاره شيأ ومات بعد أن حكم ثمانيا وثلاثين سنة * فقام بالامر بعده (كابه خوس) وفى أيامه عكف الناس على عبادة الحيوانات فعبدوا الثور أبيس بمدينة منف والثور منيفس بالمطرية والحل المقدس بمدينة غى الامديد قال صاحب العقد الثمين وذلك ما دلت عليه النقوش التى وجدت داخل مقابر منف بسقاره اه ومات (كابه خوس) المذكور بعد أن حكم تسعا وثلاثين سنة (فقام) بالامر بعده بنيوثريس ومن أعماله انه سن قانونا أجاز به للنساء الحكم ووراثتهن فى الملك كيلا يخرج الملك من بيته (قال ده روجيه) وحاصل ما فى هذا القانون ان الملك اذا مات وكان له أولاد ذكور كانوا أحق بالملك وان لم يكن له ذكور أو كانوا وانقرضوا كان الحق فى الملك لبناته اه (وقال ماسبرو) فى ذلك ما مؤداه ان كل ملك توفى عن زوجة ولم يعقب ولدا أو كان ولده قاصرا تولت الملك من بعده زوجته بشرط أن لا تتزوج فان تزوجت بغيره ممن ليس له الحق فى الملك لا يجوز لزوجها هذا أن يكون ملكا وانما يجوز لذريته منها أن يعطى لهم منصب الملك ولقب الفراعنة اه وقد أجاز الملك بنيوثريس فى قانونه المذكور أن سلطة الملوك على الرعية حق مفروض عليهم أداؤه بالنيابة عن

المعبودات وبالغ فى هذا الامر جـدا حتى زعم أن دمه الذى فى عروقه من دماء المعبودات ولذلك جعل لنفسـه السلطة على جميع صـنوف الرعية ولقب نفسـه بابن الشمس التى هى أعظم المعبودات ليثبت القرابة لنفسه ولمن يأتى بعده بالمعبودات فسرى هذا الزعم منه الى جميع الملوك المصريين الى أيام الرومان ومن هـذا الحين صارت الرعية لاتستخف بالملوك ولو ضـعفت شـوكتهم وذلك لخصائصهم القدسـية وقرابتهـم من المعبودات فانه ان زالت عنهم دولة الحكم بقيت لهـم حرمة التقديس * وأخذ المصريون من هـذا القانون ان كل من أراد تأسيس عائلة غـير ملوكية ووصـلها بالعـائلة الملوكيـة التى قبلها فليتزوج من بنات الملوك أو يأخـذ منهن لاولاده فيتم له وصف القرابة بينهما كما دلت على ذلك الآثار (ومات الملك بفيوثر يس) المذكور بعـد أن حكم سبعا وأربعين سنة (فقام) بالامر بعده (طلاس) ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره شـيأ (ومات) بعـد أن حكم سبع عشرة سنة (فقام) بالامر بعده الملك ستنس (قال مانيطون) المؤرخ المصرى كان الملك الخامس من هذه العائلة المدعو ستنس واسـع العـلم كبير المعرفة فكان لذلك محترما الى عهد اليونان وقد أتم الرسالة الطبيـة التى وجـدت فى مدينـة منف المعروفة عند اليونان باسم ليتوبوليس (ومات) بعد أن حكم احـدى وأربعـين سـنة ومعنى ستنس باللغة القديمة المهول (ثم قام) بالامر بعده خارس ولم تذكر عنـه جماعة الكتاب شيأ (ومات) بعد أن حكم سبع عشرة سنة (فقام) بالامر بعده الملك نفرخرس وهوالسادس من ملوك هذه الدولة قال مانيطون وقد حلا فى عصرهذا الملك ماء النيل حتى صار عذبا كالعسل وبقى على هـذا الحال أحد عشر يوما ومات نفرخرس المذكور بعدأن حكم خمسا وعشرين سنة * فقام بالامر بعده الملك سيسوخريس وهو سابعهم قال مانيطون وكان هذا الملك طويل القامة جدا * ونقل صاحب العقد الثمين عن علماء القلم المصرى القديم أن مقبرة (نوت حتب) الموجودة بمنف وتمثال (سبا) المحفوظ بمتحف باريز هما من آثار هذه العـائلة لانه يظهر من نقوشهما وصناعتهما وتصاويرهما أنهما من صناعة الحالة الأولى لكونهما أقل اتقانا من صـنائع المتأخرين (ومات) سيسوخريس المـذكور بعد أن حكم ثمانيا وأربعين سـنة (فقام) بالامر بعده خينه رس وهو آخر ملوك هـذه الدولة ولم تذكر أصحاب التاريخ من مآثره شـيأ (ومات) بعد أن حكم ثلاثين سـنة وبموته انقرضت هذه الدولة التى هى من نسل الملك (منا) على ما رواه بعض أصحاب التاريخ الذين قالوا أيضا ان الملك منا المـذكور وان كان قد أخضع لحكمه جميع القبائل القاطنـة فى وادى النيـل وأدخـل تحت طاعتـه جميع رؤساء الاقسام بشرط أن يكون الحكم متوارثا بينهـم وبين ذريتهم الاأنه لم يتمكن من جعل أهل مصر أمة واحدة ومازالت كذلك الى أن تغلبت عليها ذريته فاختلطت القبائل بعضها ببعض وتألفت وصارت أمة واحدة واشتهرت بالامة المصرية * قيل وقد كان فى عصرهاتين العائلتين عائلات أخرى معاصرة ومشاغبة لهما ولبثوا كذلك الى أن أطاعوا ودخلوا تحت حكم ملوك الدولتين (قال) صاحب العقد الثمين ولذا نجد أسماء بعض

الملوك

الملوك منقوشة على ألواح حجرية لم يذكرها مانيطون فى جدوله فلا بد وأن تكون من تلك العائلات المضادة لفرية منا اهـ وبانقراض العائلة الثانية المذكورة على وجه ماتقدم قامت بعدها العائلة الثالثة المنفية

الفصل الثالث

(فى العائلة الثالثة المعروفة بالمنفية)

كان ابتداء حكم هذه العائلة سنة تسع وأربعين وأربعمائة وأربعة آلاف قبل الميلاد أى سنة احدى وسبعين وخمسة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائتان وأربع عشرة سنة وعدد ملوكها تسعة أولهم الملك نخروفس (قال) أصحاب التاريخ كان منشأ هذا الملك بمدينة منف وهو رأس العائلة الثالثة ولم يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة فى البلاد واتصلت بسكان صحراء لبية الداخلة تحت طاعة ملوك مصر من عهد الملك (منا) فسير لقتالهم عسكرا فالتقى الجمعان فى ليلة مقمرة فخيل لسكان الصحراء أن دائرة القمر تغير شكلها المعهود فخافوا وظنوا أن الله غضب عليهم لخروجهم على الملك نخروفس فبادروا بالطاعة له وانحسمت الفتنة واستتب الأمن وتوطد وأخذت البلاد فى الترقى فانتشرت العلوم واتسع نطاق الصنائع والفنون وما زالت تترقى فى أيامه حتى مات بعد أن حكم ثمانى وعشرين سنة كما رواه مانيطون المؤرخ فقام بالامر بعده توسورترس فحذا حذوه فى بث العلوم والصنائع فاحسن فن الكتابة وأتقن صناعة قطع الحجر ونحته وكان ماهرا فى علم الطب كالملك (تتا) وألف فيه كتبا تداولها الناس فى القرن الاول من التاريخ المسيحى ثم مات بعد أن حكم تسعا وعشرين سنة فقام بالامر بعده الملك ترهيس ولم تذكر له جماعة الكتاب شيأ ومات بعد أن حكم سبع سنين * فقام بالامر بعده الملك سسوخريس ولم تعلم جماعة الكتاب من أخباره شيأ ومات بعد أن حكم سبع عشرة سنة (فقام) بالامر بعده الملك سوفيس ولم يعلم من أخباره شئ ومات بعد أن حكم ست عشرة سنة * فقام بالامر بعده الملك تسرتاريس ولم يعلم من أخباره شئ ومات بعد أن حكم تسع عشرة سنة * فقام بالامر بعده الملك أخس ولم يعلم من أخباره شئ ومات بعد أن حكم اثنين وأربعين سنة (فقام) بالامر بعده الملك سفوريس ولم يعلم من أخباره شئ يذكر ومات بعد أن حكم ثلاثين سنة (فقام) بالامر بعده الملك كرفريس وهو خر ملوك هذه العائلة قال مانيطون المؤرخ وفى أيام ملك هذه العائلة زادت ثروة المملكة وكثرت عماراتها (قال) صاحب العقد الثمين فى تلك المبانى أبوالهول الموجود الآن بين الهرمين بالجيزة ويسمونه حورمخى أى شمس الافقين يعنون بذلك الشمس وقت شروقها وغروبها وهما وقتان اللذان كانوا يعبدونه فيهما وصورته على شكل سبع له رأس آدمى اشارة الى القوة

سنة وعدة ملوكها أربعة عشر ملكا (قال) أصحاب التاريخ ولم يعلم من أسمائهم غير ثمانية وستذكر سنة منهم بعد وأولهم الملك خوفو وبظهور هذه العائلة ظهرت مصر بمظهر الارتقاء وحسن البناء والمآثر التاريخية

في الملك خوفو

كان هذا الملك غازيا شديد البأس عظيم المهابة قاتل طائفة من بني عون وهم قبيلة من عرب البوادى الذين كانوا مستوطنين بناحية وادى مغارة وكانوا كثيرى التعدى على حدود مملكة مصر الشرقية من الجهة المصرية فأذلهم وأخضعهم وكان يحب تشييد العمارات والمبانى العظيمة فمن مآثره الهرم الاكبر الموجود بالجيزة واسمه (خوت) يعنى البهاء وكان العمال المشتغلون ببنائه مع المناوبة فى كل ثلاثة أشهر مائة ألف عامل واستمرت عمارته ثلاثين سنة منها عشرة فى توطيد أرضه وتأسيس حجارته السفلى وبناء الجسر الموصل اليه من شاطئ النيل بالحجارة لنقل الاحجار التى بنى بها هذا الهرم ومنها عشرون سنة فى تشييد ذات الهرم كما رواه هيرودوتس ونقل أيضا عن بعض المؤرخين أن قدماء المصريين انما أرادوا ببناء تلك الاهرام منع المعتدين الذين ينتهكون الحرمات وينبشون القبور من سلب مايكون فيها للموتى من التوابيت الجليلة والاوانى الفاخرة بالدخول فيها ووافقهم آخرون على ذلك وقالوا ان قدماء المصريين كانوا أشد الناس حرصا على موتاهم ولذا صنعوا هذه المبانى الضخمة لاعجاز أهل الغايات عن التوصل الى كنهها اه كلام ماريت

وقال صاحب العقد الثمين وهذا الهرم لم يحصل له خلل مع ثقله وطول مدته البالغة ستين قرنا وليس فى طوق البشر الآن اعمال بناء فيه حجرات وطرق وارتفاع بثقل يمكث زمنا كزمنه (قال) وقد اطلعت على حجر بدار التحف المصرية عليه نقوش بجانبه الايمن والايسر فالتى على جانبه الايمن تفيد أن الملك (خوفو) بنى هرمه المذكور والمقابر التى محيت آثارها الآن بجانب هيكل المعبودة ازيس المجاور ذلك الهيكل لمعبد أبى الهول من الجانب الغربى البحرى وانه أنشأ أيضا لابنته الاميرة (حونت سن) هرما بجوار هيكل ازيس المذكور ومن هذا يعلم أن أبا الهول ومعبده وهيكل أزيس كانت موجودة قبل بناء هرم خوفو ويستفاد من النقوش التى على جانبه الايسر أن الملك المذكور كان أهدى هدايا للمعبودة أزيس المسماة أيضا حاتحور واتخذها والدة له وأصلح معبدها ووضع بداخله التماثيل التى وجدها فيه من قبل وهى سفينة أزيس وتمثال (سلك) وتحوت وبتاح وحور وازيس وتفتيس وسخت وأزوريس وحپى وبجانب كل تمثال منها مكتوب اسم المادة المتخذ منها فسفينة أزيس وتمثال حور وتحوت كانت من الخشب المطلى بالذهب وكان تمثال أزيس من الذهب والفضة وتمثال نفتيس من النحاس (قال) وأثبت بعضهم أن الملك خوفو أصلح أيضا هيكل حاتحور

الذى

الذى بنفدره ومن هنا يتضح لك أن دعوى اليونان على الملك خوفو بأنه كان ظالما لرعيته فى تسخيرهم لبناء هرمه وغلق أبواب الهياكل واهانة المعبودات المصرية كذب لاأصل لها لما علم من تشييده الهياكل السابقة ولعل قولهم انه ظالم لرعيته فى بناء هرمه مبنى على انه لما قاتل بنى عون وأسر رجالهم سخرهم فى بناء هرمه كما هى عادة قدماء الملوك فى معاملة الاسرى وهذا وحده لايفيد أنه ظالم لرعيته (والاهرام) مقابر كانت تهتم فى بنائها الفراعنة من تاريخ استيلائهم على الملك فيشيدون أولا حجرة يدفنون فيها الملك بعد وفاته ثم يبنون عليها هرما صغيرا ويعلونه طبقة فطبقة بالتدريج على حسب مدة حكم الملك فان طالت مدته كان هرمه كبيرا شامخا والاقتراء صغيرا وعلى ذلك يكون عدد طبقات كل هرم دليلا على عدد سنى حكم صاحب ذلك الهرم وعدد الاهرام الموجودة فى ديار مصر ينيف على المائة والمشهور منها سبعون هرما اه وفى عصر هذا الملك عثر أحد الكهنة على رسالة طبية بالقرب من محراب معبد مدينة دعوت ببلاد النوبة فنقلها الى الملك خوفو وكتب على هذه الرسالة كيفية عثوره عليها بالالفاظ المعربة بما مؤداه (كانت الارض محدقة بالظلام والقمر يضىء من كل جهة على هذه الرسالة) فأحضرتها أعجوبة لجلالة الملك خوفو اه ثم مات (الملك خوفو) بعد ان حكم تسعا وعشرين سنة فتولى الملك بعده سوفيس الاول وهو الملك رع ددف

(الملك رع ددف)

كان هذا الملك كثير العبادة شديد التدين فاحبته الرعية واحترمته وقدسته وجعلته فى مصاف المعبودات (قال أصحاب التاريخ) وقد وجد نقش على حجر لرجل مصرى اسمه ابساموتيك بن أصاحور يفيد أن ابا موتيك المذكور كان كاهنا للمعبود (نائن) والمعبودة (ازيس) ملكة الاهرام وكاهنا للملك خوفو والملك خفرع الذى هو سوفيس الثانى والمقدس رع ددف الذى هو سوفيس الاول والمعبود حور محى الذى هو أبو الهول ويظن أنه ابن الملك خوفو والاخ الاكبر لخفرع أى سوفيس الثانى قال بعض الكتاب فان صح ذلك صدقت الرواية اليونانية بأن خفرع كان خليفة أخيه فى الحكم بدون ملك بينهما وكانت مدة الملك سوفيس الاول المذكور ثلاثا وستين سنة ثم مات وقام بالامر بعده سوفيس الثانى ويسمى أيضا خفرع

(فى الملك خفرع)

قال أصحاب التاريخ من اليونان لما تولى الملك خفرع بعد موت أخيه رع ددف الذى

هو سوفيس الاوّل شرع فى بناء الهرم الثانى بجانب هرم خوفو وجعله على وضعه وسماه (آر) يعنى الكبير قال صاحب العقد الثمين ويرى بجانبه محل قطع الاحجار التى كانت تستعمل فى بنائه وكلا الهرمين موضوع على جبل ارتفاعه مائة قدم (وروى هيرودوتس) عن المصريين أنهم نسبوا لهذا الملك الظلم والاعتساف بالرعية وقالوا انه سار على سيرة الملك خوفو فى جميع أعماله وقد سخرهم فى بناء هرمه وأغلق الهياكل وشدد عليهم فأبغضوه بغضا شديدا كبغضهم للملك خوفو وكانوا يودون لو أنهم لا ينطقون باسم أحدهما ولذلك سموا هرميهما براعى المواشى تهكما واستهزاء وذكر ديودور الصقلى أن كلا الملكين حرم من بقائه مدفونا فى هرمه وذلك لان الرعية كانت تبغضهما بغضا شديدا وقد عمدت الى جثتيهما فأخرجتهما من الهرمين وكسرت تابوتيهما وألقتهما على الارض إهانة لهما قال ولم يستدل الى الآن من الآثار على شئ من سيرة خفرع المذكور غير أنه عثر على سبعة تماثيل من حجر الصوّان على رسم صورته كانت ببئر فى المعبد المشهور الآن بالكنيسة التى قبلى أبى الهول فنقلت الى دار التحف المصرية وحفظت فيها اهـ

ومات خفرع المذكور بعد أن حكم ستا وستين سنة على مارواه مانيطون المؤرخ فقام بالامر بعده منكورع الذى يسمى أيضا منخرس

(فى الملك منكورع)

(المسمى أيضا)

(منخرس)

(قال) جماعة الكتاب لما استقر منكورع المنصب عمد الى انشاء الهرم الثالث الموجود خلف الهرمين وبالغ فى إنجازه وسماه (حور) يعنى الاعلى قالوا وكان منكورع هذا عادلا محبا للرعية شفيقا عليهم واسع الحلم كثير الرحمة فكان اذا تظلم أحد الناس من حكم يكون صدر عليه حنّ اليه وعمه باحسانه ولاطفه ليهوّن عليه الامر وقد دلت النقوش الاثرية على اهتمامه بأمر المعابد والهياكل حيث أمر ولده (حورددف) أن يطوف على جميع المحاريب والمعابد فيصلح ماتخرّب منها وينشئ غيرها فى الكثير من المدن فقام بالامر قالوا ولما كان يدير العمل فى محاريب مدينة (ليتوپوليس) المعروفة الآن باسم (وسيم) عثر على كتابة منزورة بلون أزرق على لوح من رخام فأحضرها الى أبيه فرحا مسرورا وقدم اللوح اليه قال ماسپرو وهى الكتابة المدرجة ضمن المواعظ والحكم القديمة التى جمعها علماء اللغة الهرمسية فى الباب الرابع والستين من كتاب الاموات فصعب عليهم حلها لانها أعجزت أهلها كما جاء فى قول كاتب من عصر الرعمسيسية الى رفيقة له وهو

(تأتينى بأسرار كبيرة) أى بمواعظ وحكم عن الامير حور ددف وتقول لى انك ماعلمت منها طيبا ولارديأ وكأنها سور منيع لايمكن تجاوزه وكيف تقول ذلك مع انك كاتب ماهر فائق على أقرانك فطن ولك فكر رائق وكلام موزون اذا قلت كلمة كانت أعظم من ثلاث كلمات صدرت عن غيرك ولقد تركتنى أصم بما حصل لى من فزع قولك . قال وبهذا يتضح لك أن المواعظ والحكم القديمة كانت صعبة على أهلها ولذا يتعسر الآن على علماء القلم المصرى القديم حل معضلاتها اه

وكان الملك منكورع حليما ومآثره كثيرة منها عدة مؤلفات فى علم الدين وكان شديد الرغبة فى تقدم وطنه والارتقاء به الى درجات التمدن والتقدم ولذلك كفل الملك شبسكاف الذى تولى الملك بعده فجعله فى بيته وأحسن تربيته بين عائلته وزوجه بابنته المسماة (معتخم) ليؤهله لارتقاء منصة الملك من بعده

(قال صاحب العقد الثمين) وقد وجدت جثة الملك منكورع هذا فى تابوت من حجر الصوان داخل هرمه فأرادت دولة الانجليز نقله الى متحفها فغرقت السفينة به فى ساحل البرتغال ولم تحصل على شئ منه سوى الجثة وغطاء التابوت المحفوظين الى الآن فى متحفها وهذا الغطاء مصنوع من خشب الجميز على شكل آدمى وعليه نقوش تتضمن دعوات طيبة له وتدل على أنه كان ملكا على جميع أرض مصر اه

ومات بعد أن حكم أربعا وعشرين سنة كما شوهد ذلك على الآثار القديمة وفى رواية مانيطون ثلاثاوستين سنة فقام بالامر بعده شبسكاف وهو خامس ملوك هذه الدولة ويسميه مانيطون فى جدوله باسم سبرخرس

(فى الملك شبسكاف)

(المسمى أيضا)

(سبرخرس)

هو خامس ملوك هذه الدولة ولما استقر به الملك أمر ببناء الايوان الغربى الموجود بمعبد بتاح بمنف قالوا وهو أعظم ايوان مزين بالصور والرسوم الغريبة لم تاز بذلك عن أسلافه وبنى له هرما يعرف باسم (شبسكافكب) قال هيرودوتس ونقش عليه يعنى على الهرم المذكور نقوشا معناها

لاتحقر هرمى بين الاهرام المبنية بالحجارة لانى أفضله عليها تفضيل المشترى على جميع الكواكب اذ كان بناؤه بطوب متخذ من خشب مبلول فى مستنقع ماء امتص ذلك الخشب طفل المستنقع وقال أيضا ان هذا الملك كان أحد الخمسة المشرعين بالديار المصرية وانه رتب

الديانة وأبدع فن الهندسة ورصد الكواكب وسن قانونا للقرض يجوز لمره أن يرهن جثة والده عند الغير ويأذن للدائن أن يتصرف فى مقبرة المدين حتى يوفيه دينه فان لم يوفه حرم المدين هو وذريته من الدفن فيه بعد وفاتهم

ومات بعد أن حكم سبع سنين كما جاء فى جدول مانيطون المؤرخ فقام بالامر بعده (نامقيتس) ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره شيأ ومات بعد أن حكم تسع سنين وبه انتهت العائلة الرابعة ولم يعلم من أخبارها غير ماذكر وقامت بعدها العائلة الخامسة التى كان تحت حكمها جزيرة أسوان

الفصل الخامس

(فى العائلة الخامسة التى كان تحت حكمها)
(جزيرة أسوان)

كان ابتداء حكم هذه العائلة سنة احدى وستين وتسعمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وأربعة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائتان وثمان وأربعون سنة وعدة ملوكها تسعة (قال ده روجه) ولم يظهر لنا من تاريخ هذه العائلة بعد البحث والتنقيب من الآثار وغيرها الا ماسنذكره لبعض ملوكها وكان أول هذه العائلة الملك اسكاف ويقال له أيضا اسركاف

(فى الملك أسكاف)

(الذى يقال له)
(اسركاف)

قال أصحاب التاريخ كان هذا الملك محبا للرعية عادلا دينا موقرا فكانت الرعية تحبه وتحترمه وتجله الكهنة اجلالا عظيما ولذلك جعلوا له وقتا معينا للعبادة وسماه مانيطون فى جدوله باسم اسرخرس وا بتنى اسركاف هذا لنفسه هرما سماه عب ستو يعنى (المكان الطاهر) ولم يعلم من أخباره شئ غير ماذكر ومات بعد أن حكم ثمان سنين وقال مانيطون ثمانيا وعشرين سنة

فقام بالامر بعده الملك صورع الذى يسميه مانيطون سفرس ولهذا الملك هرم على شمال قرية بوصير واسمه خعبا ومعناه بعثة الروح قالوا وله فى وادى مغارة لوحة أثرية موجودة للآن

الآن ومنقوش عليها رسم صورته على هيئة المنصور على أعدائه وأمام صورته نقوش يستفاد منها أنه قهر جميع أعدائه وتغلب عليهم قالوا ولبث المصريون يعبدون هذا الملك بعد موته زمنا طويلا وقد وجد فى عصر اليونان هيكل معد لعبادته وبداخله أسماء الكهنة الذين كانوا معينين لخدمته وكان لهذا الملك مدينة شهيرة على مقربة من اسنا سماها باسحورع وقد محيت آثارها الآن ومات بعد أن حكم أربع سنين وقال مانيطون ثلاث عشرة سنة

فقام بالامر بعده الملك ككا ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره شيأ ومات بعد أن حكم سنتين

فقام بالامر بعده الملك نفرار كارع ويسميه مانيطون نفرخرس ولهذا الملك هرم سماه (با) ومعناه الروح وفى أيام هذا الملك ازداد تمدن البلاد واشتغل أهلها بالعلوم والآداب قالوا وقد وجد بين قبور هذا العصر أسماء لكثير من الادباء مثل (أورخو) و (پتحولث) قالوا وكلاهما كان حائزا للشرف العالى بين قومه

ومات نفرار كارع بعد أن حكم عشرين سنة فقام بالامر بعده الملك شبسكارع ولم تذكر عنه جماعة الكتاب شيأ ومات بعد أن حكم عشرين سنة كما رواه مانيطون المؤرخ

فقام بالامر بعده الملك خع نفردع ولم يوجد لهشئ يذكر سوى اسمه ومات ولعل مدة حكمه كانت مع مدة شبسكارع فيكون الاثنان حكما معا وقال مانيطون انه حكم سبع سنين ويسميه باسم سيسيرس ثم قام بالامر بعدهما الملك رعنوسر ويسميه مانيطون المؤرخ ريورس قالوا وهو أول من أضاف اسم (آن) وهو اسم عائلته الى اسمه فكان يقال له بعد ذلك رعنوسر آن وكان ملكا محاربا كثير الغزوات غزا سكان جبل الطور وانتصر عليهم وبنى له هرما بوصير سماه (من ستو) ومعناه المحل المتين فلما مات دفن فى الهرم المذكور بعد أن حكم احدى عشرة سنة وقال مانيطون بل أربعا وأربعين سنة

فقام بالامر بعده الملك منكاحور ويسميه مانيطون المؤرخ فى جدوله منخرس وله هرم يعرف باسم نترستو ومعناه المحل المقدس قالوا والغالب أن موضع هذا الهرم بجهة سقارة ومات بعد أن حكم ثمان سنين وقال مانيطون تسع سنين فتولى الملك بعده الملك دد كارع

(فى الملك دد كارع)

(الذى يقال له أيضا)

(تنخرس)

كان دد كارع المذكور كثير العناية بالعلوم والصنائع وقد استكشف فى أيامه معادن

بوادى مغارة وابتنى له هرما كاسلافه الفراعنة وسماه نفر ومعناه الجميل قالوا ولم يعلم مكانه الى الآن وكان له ولد من العلوم والفلسفة بمكان عظيم اسمه بتاح حتب وقد شاخ ومات ودفن بجانب مقبرة (نى) واشتهر بالعلوم والمعارف التى نقلت عنه وكذلك المواعظ والحكم التى منها إذا كبرت بعد الصغر أو حزت مالا بعد الفقر وصرت به الاول فى مدينتك وازدادت به شهرتك فلا تعظم نفسك بسببه لان الله منّ عليك به ولا تحتقر امرأ كان كما كنت فقيرا أو كان ذامال مثلك ميسورا ومنها كن وجيها مادمت حيا ومنها متى صار للمرء اعتبار وساح فى الارض وتأهل بامرأة فان كان عاقلا جهز بيته وأحب زوجته ولم يتنازع معها وأطعمها وزينها بتحسين أعضائها وعطرها وجعلها مسرورة مدة حياته ولا يكون عليها متوحشا قاسيا ومنها أيها الهنهان (اسم لمعبود) صاحب العمر الكبير متى أتى للمرء الهرم وحصل له الضعف والعجز وأتاه التذير ورقد متألما صغرت عيناه وثقلت أذناه واضمحلت قوته وتلجلج لسانه وأظلم قلبه ووهن العظم منه حتى لايفكر فى أمس ويلازمه النسيان لضرّ ألم به فيتبدل معه الطيب بالخبيث الذميم ويذهب عنه الطعم والذوق السليم كيف لا وهو الهرم الذى يصير الانسان فى أسوإ حال وأقبح هيئة ومآل فيعطل حواس شمه حتى لايستنشق رائحة العود ويكلّ من الوقوف والقعود فماذا يفعل الانسان اذا وصل لحالتى وسمع مقالتى فقال الهنهان تعلم نصيحة من سلف التى يستغربها الصغار ويستعملها كبار الخلف وهى (ادفع عنك أذى العقلاء ولا تسئ أحدا ولو من الاعداء) اه كما نقله ماسبرو

(ومات الملك) ددكارع المذكور بعد أن حكم ثمانيا وعشرين سنة وقال مانيطون بل أربعا وأربعين سنة فقام بالامر بعده الملك أوتاس وهو آخر ملوك هذه العائلة على مارواه جماعة المؤرخين

(فى الملك أوتاس)

(الذى يقال له أيضا)

(آتوس)

لما ارتقى أوتاس المذكور عرش الملك ابتنى له هرما بسقارة وسماه نفرستو ومعناه الجميل قال صاحب العقد الثمين فتح يعنى الهرم سنة احدى وثمانين وثمانمائة وألف للميلاد وهو الموضوع فى الجنوب الغربى من الهرم المدرج ويرى حوله كثيب من الرمال والحصباء ناشئ من عمليات الفتح التى حصلت فيه قبل الآن ومن تساقط كسوته الظاهرة التى كانت مصنوعة من حجارة طرا ويرى على ظاهره هيئة الدمار وسقوط الصخور والاحجار وكان عرض قاعدته مائتين

وعشرين

وعشرين قدما وارتفاعه اثنين وستين قدما فتناقصت الآن مقاييسه لما حصل فيه من الهدم والدمار من أهل الغوايات الذين سعوا فى فتحه لاخذ ما كان مكنوزا فيه حسب اعتقادهم فلما أزالوا الكسوة الظاهرة وتوصلوا الى مدخله وجدوه مسدودا بالصخور التى لايمكنهم ازالتها فاضطروا الى فتح كوة معطفة طولها تقريبا سبعة أمتار توصلوا بها الى المدخل الاصلى وهو عبارة عن طرقة طويلة عرضها متر وستة وثلاثون سنتمتر مكتوب عليها بالمداد الاحمر أحمد الحجار قال ولعله هو الذى أيضا فتح هرم الملك خوفو الموجود بالجيزة مدة المأمون لرسم اسمه فيه فان صح ذلك كان فتح هذا الهرم سنة عشرين وثمانمائة هجرية ومن تلك الطرقة يتوصل الى قاعة معدة لاستراحة الزائرين وكان طولها ثلاثة أمتار وتسعة وثمانين سنتيمترا وعرضها مترين وستة وخمسين سنتيمترا ثم تمتد من تلك القاعة طرقة أخرى يوجد فى وسطها ثلاثة حواجز ارتفاع كل واحد منها الآن متر واحد وكانت من قبل مجعولة لسد مدخل الهرم ثم تنتهى بقاعة وسطى طولها ثلاثة أمتار وخمسة وسبعون سنتيمترا وعرضها ثلاثة أمتار وثمانية سنتيمتر وفيها طرقتان احداهما على اليمين والاخرى على اليسار فالتى على يمين الداخل طولها متر وخمسون سنتيمترا وعرضها متر وستة وثلاثون سنتيمترا وتفضى الى حجرة طولها سبعة أمتار وتسعة وعشرون سنتيمترا وعرضها ثلاثة أمتار وخمسة عشر سنتيمترا قال ولما فتح الهرم لم يوجد به شئ سوى تابوت الملك المتخذ من المرمر الاسود وغطاؤه ملقى بعيدا عنه وذراع الملك الايمن وعظم ساقه وبعض قطع من أكفانه ويرى فى وسط هذه الحجرة حفرة كبيرة كان حفرها اللصوص للبحث عن دفائن كنوزية والتى على يسار الداخل مقاسها كالطرقة السابقة ويوصل الى طرقة أخرى فتقطعها فى وسطها وطولها ستة أمتار وثلاثة وتسعون سنتيمترا وعرضها متران وخمسة وثمانون سنتيمترا وجانبها الشرقى مقسم بفاصلين الى ثلاثة أقسام كل فاصل بارز فى الطرقة بمقدار متر وخمسة وعشرين سنتيمترا ويرى على حجرات هذا الهرم نقوش هيروغليفية محفورة فى حيطانه ترجمها جناب ماسبرو مدير الانتيقة خانة الان فى كتاب مخصوص وهى عبارة عن أدعية اعتاد قدماء المصريين كتابتها فى القبور قال وقد أعرضنا عن درج ترجمتها هنا لعدم أهميتها وهذا الهرم معد الآن للفرجة اه بنصه ومات الملك أوناس بعد أن حكم ثلاثا وثلاثين سنة (قال بعض الكتاب) وقد اتضح من الصحيفة المصرية القديمة المحفوظة الآن فى متحف تورينو بايطاليا ان الملك أوناس المذكور كان المتمم للقسم الاول من طائفة الفراعنة وان ملوك هذا القسم الذين حكموا مصر على عمود التعاقب من عهد (منا) الى أوناس المذكور كانوا من نسل (منا) وبعد موت الملك أوناس انقرضت ذرية (منا) ونسله كما حققه بعض المؤرخين وقال آخرون بل ان الملك (تتا) أحد ملوك العائلة السادسة هو آخر نسل الملك (منا) ولكل حجة وبانقراض هذه العائلة أى الخامسة قامت بعدها العائلة السادسة التى كانت قاعدة ملكها جزيرة أسوان

الفصل السادس

﴿ فى العائلة السادسة التى قاعدتها ﴾

﴿ جزيرة أسوان ﴾

كان ابتداء ملك هذه العائلة سنة ثلاث وسبعمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة خمس وعشرين وثلثمائة وأربعة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائتا سنة وثلاث سنوات وعدد ملوكها ستة أولهم الملك آتى الذى يقال له أوتس وشريكه الملك تتا

(فى الملك آتى والملك تتاشريكه)

كان الملك ﴿ آتى ﴾ المذكور قبل ولايته حاكما على الاقليم القبلى ويقال انه كان من جزيرة أسوان وقيل انه من العرابة المدفونة وأما الملك ﴿ تتا ﴾ فكان حاكما على الاقاليم البحرية فعدهما أصحاب التاريخ لذلك كملك واحد لحكمهما فى وقت واحد وقد كان ﴿ تتا ﴾ المذكور آخر من ولد من الملوك بمدينة منف كما قاله بعض المؤرخين وقال آخرون ان الملك ﴿ آتى ﴾ هو رأس العائلة السادسة المذكورة وأول ملك منها حكم البلاد وقد بنى له هرما سماه ﴿ بابو ﴾ ومعناه هرم الارواح وجلب اليه الاحجار من وادى الحمامات فى السنة الاولى من حكمه وعين لهذا العمل رئيسا اسمه ﴿ احوخفا ﴾ والامير ﴿ نحوت اوبنى ﴾ وملاحظين اسم الاول منهما ﴿ أبى ﴾ والثانى ﴿ بتاح انكيو ﴾ ومائتين من العساكر ومائتين من العمال ومثلهم من أهل الصناعة وشيده على نحو ما أراد وأما الملك ﴿ تتا ﴾ فقد بنى له هرما آخر وسماه ﴿ ددستو ﴾ ومعناه أمتن الهرام صلابة ولقبه بابن الشمس قال أصحاب التاريخ ولم يسبقه بهذه التسمية أحد فى هرمه قال مانيطون المؤرخ ومات بعد أن حكم ثلاثين سنة قتله عساكره فتولى بعد موته وموت ﴿ تتا ﴾ شريكه المذكور ﴿ مريرع ﴾ الذى يسميه مانيطون باسم فيوس

(فى الملك مريرع)

﴿ الذى يسمى أيضا ﴾

(فيوس)

تولى مريرع المنصب الملوكى بجعل تحت حكمه جزيرة أسوان كما فعل الملك ﴿ آتى ﴾ سلفه

فاتحط

فاهتم الملك فدر مدينة منف وأخذت بهجتها فى الزوال وظهرت عليها بجزيرة أسوان وكان مري رع المذكور عاقلا محبا لتقدم البلاد وعمرانها فاستوزر رجلا اسمه (اونا) قال العلامة ده روجيه وكان (اونا) هذا فى أول أمره رئيس كهنة الملك (تتا) وكان مسموع الكلمة عنده فقلده فى أكبر الوظائف وأعلاها وقد كان رباه فى بيته فلما تولى الملك مري رع استوزره وسلمه مقاليد الامور ورسم له بالذهاب الى طرا ليبحث له هناك على صخرة بيضاء يصنع منها تابوتا لجثته فتوجه (أونا) المذكور وأتى اليه بالصخرة فزاد عنده قبولا وأخذ من هذا الحين يزيد فى ترقيه حتى ولاه نظارة أشغاله فأحسن التدبير وفرح المصريون بحسن سياسته ووجه الملك مري رع عنايته الى استكشاف المعادن فرتب لها الملاحظين والعمال حتى كثرت محصولاتها وزادت عما كانت عليه قبل أيامه وفتح طريقا مخصوصا فى الصحراء من قفط الى البحر الاحمر تسهيلا للمسافرين وفتح طريقا أخرى فيها للتجارة واختط مدينة جديدة فى مصر الوسطى وأصلح معبد (حاتحور) الذى بدندره حتى أعاده الى ما كان عليه وكانت الحوادث قد دمرته فى العصر القديم ولقب نفسه بابن (حاتحور) وأدرج هذا اللقب مع اسمه فى خانة ملوكية وخرج عليه أهالى النوبة وقبائل الشام المسماة (عمو) وقبائل هيروشا القاطنون أيضا فى جنوب بلاد الشام وكانوا أهل قوة ومنعة فركب اليهم وغزاهم وتغلب عليهم وأرجعهم الى الطاعة قال صاحب العقد الثمين وتفصيل ذلك منقوش على لوحة (اونا) الحجرية وهو وزيره وتعريبها ملخصا من كتب العلامة ده روجيه

(ان جلالة الملك ببى) وهو لقب الملك مري رع جيش جيشا عظيما من كافة أرجاء مصر ومن بلاد ارمنت ومن بلاد العبيد وهى أمام (واوات) (وكاوو) (وتمام) وأرسل (اونا) على هذا الجيش بعد أن رتبه وعلمه عشاهير رجال دولته فتوجه به (اونا) الى قتال الحروشعيين وغزاهم وهدم حصونهم وقطع أشجارهم ودواليهم وحرق زرعهم وقتل من عساكرهم ألوفا عديدة وأسر جما غفيرا من رجالهم ونسائهم وأطفالهم ورجع بجيشه سالما منصورا من غير ضرر ففرح به الملك فرحا كبيرا واستعمل الاسارى فى أشغاله وباع العبيد منهم وقال (اونا) انى توجهت خمس مرات بهذا الجيش الجند الى قتال بلاد (حروشع) وقهرت عصاتهم ثم عصاة بلاد (تحع) التى هى على شمال حروشع فسرت اليهم بهذا الجيش وقاتلتهم قتالا شديدا حتى أهلكت جميع عصاتهم وبهم انتهت الحرب وانقادت لاوامر الملك جميع البلاد قال ولما تمت هذه الغزوات نلت عند الملك مزيد الشرف والقبول وتكرم علىّ بعدم خلع نعالى عند دخولى فى القصر عليه وتمثلى بين يديه اه

وعادت بعد ذلك الراحة الى عموم البلاد وخضعت أهالى النوبة والليبيا وجهات آسية المتاخمة للدلتا وبلاد الحبشة واسترجع هذا الملك الى ملكه جبل الطور وقد كانت ضمته اليها بلاد آسية على عهد من سلفه امن الملوك وملأ ديار مصر بالآثار العظيمة فكان أعظم ملوك هذه العائلة وبه نالت مصر شهرة عظيمة وراحة كبيرة ومات بعد أن حكم أربع عشرة سنة

وقال مانيطون بل ثلاثا وخمسين فقام بالامر بعده الملك مرنرع الاول الملقب (سوكرمساف) ويسميه مانيطون باسم مثه سوفس الاول

(في الملك مرنرع)

(أو)

(مشـــه سوفس الاول)

هو ابن الملك مرنرع وكانت أيامه كلها راحة واطمئنانا فقد مهد له أبوه العقبات وأرهب جميع الامم المخالفة المتاخمة لديار مصر في أيامه فبقيت على الطاعة والسكينة واستوزر مرنرع المذكور وزير أبيه المسمى (اونا) وفوض إليه تدبير المملكة والنظر في مصالح الرعية وسلم إليه عدة وظائف أخرى مهمة منها ولاية الحكم على الاقليم القبلي بأجمعه وهذا المنصب لم ينله أحد من قبل قالوا ورسم له بان يصنع له هرما وناووسا فأخذ (اونا) السفن وحرا كب الحمل مع سفينة حربية وهي أول سفينة حربية صنعت في ديار مصر وسار الى بلاد (أبيها) والى جزيرة أسوان لجلب الحجارة اللازمة لبناء الهرم والناووس ومنها الى بلاد حاتوب المشهورة بجودة الاحجار لاحضار مائدة عظيمة للعاقرة وأتى بجميع ذلك على ظهر النيل وقت فيضانه ولم يسبق لهذا العمل مثيل من عهد الملك (منا) ثم أخذ في بناء الهرم فما أتم بناءه حتى مات فحضر الملك جنازته ومشى أمامه حتى واروه التراب

(ومات الملك مرنرع) أيضا بعد أن حكم سبع سنين فقام بالامر بعده الملك نفر كارع الذي يسميه مانيطون فيوبس

(في الملك نفـــر كارع)

(ويسمى أيضا)

(فيوبس)

(تولى الملك نفر كارع) ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره مايعادل سني ملكه فقد حكم قرنا كاملا كما رواه مانيطون المؤرخ وتسعين سنة كما دلت عليه الآثار غاية ماقالوه عنه انه رسم باستخراج المعادن من جبل الطور في السنة الحادية عشرة من ملكه وأنه طرد من كان فيه من القبائل المتوحشة وبنى لههرما سماه (من عنخ) ومعناه دار الحياة فبلغت

مصر فى أيامه من الشهرة واتساع الكلمة وبعد الصيت مبلغا عظيما وبقيت محافظة على حدودها وملحقاتها زمانا طويلا وقد لقبه اليونان (بيى) قال بعض الكتاب وعلى هذه التسمية يكون هو (بيى الثانى) ومات فقام بالامر بعده الملك مرنرع الثانى الذى يسميه مانيطون مثه سوفس الثانى

(فى الملك مرنرع الثانى)

(ويسمى أيضا)
(مثه سوفس الثانى)

(تولى مرنرع الثانى) الملك ولقب سوكرماف الثانى ولم يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة بين أهل البلاد واضطرمت نارها وارتفع لهيبها فقاموا عليه وعصوه وقتلوه فكان خامس ملوك هذه العائلة وكانت مدة حكمه سنة واحدة فقامت بالامر بعده أخته وزوجته الملكة نيتوقريس التى تسمى أيضا نيوتوقريس

فى الملكة نيتوقريس

كانت هذه الملكة من أجمل نساء عصرها وأشهرهن فضلا وكمالا وهى أخت وزوجة الملك مرنرع الثانى ولقبها مانيطون المؤرخ فى تاريخه بموردة الخدين قالوا ولما استقر بها المنصب عمدت الى الاخذ بثأر أخيها الذى هو زوجها من قاتليه وقد كانوا بعض رجال الدولة فاحتالت عليهم وجذبتهم الى قصر لها تحت الارض بقرب النيل بدعوى وليمة أعدتها لهم فلما جلسوا للطعام أجرت بانسياب النيل عليهم فغرقوا جميعا وماتوا ويقال انها ألقت نفسها بعد ذلك فى محل مملئ برماد فماتت فيه حتى لاتكون عرضة للعقاب وكانت مدة حكمها اثنتى عشرة سنة قالوا وفى أيامها أتمت الهرم الثالث الذى تركه الملك منكورع ناقص البناء وعظمت بناءه وكسته من الخارج بحجر الصوان واتخذت لها منامة فى وسطه بأعلى الحجرة التى دفن فيها الملك منكورع من قبلها بثمانمائة سنة

وفى عهد هذه العائلة تقدمت صنعة التصوير والنقش واتسعت وأتقنت غاية الاتقان وكانت قبلها فى حالة واحدة متشابهة وانتشرت عبادة المعبود ازوريس وعمت جميع الانحاء وقد كانت قبلها قليلة الا فى بعض المدن وانتهت ستو ملك العائلة المذكورة بموت الملكة نيتوقريس التى كانت آخر ملوكها وقامت بعدها العائلة السابعة والثامنة المنفية والتاسعة والعاشرة الاهناسية على الترتيب الآتى بعد

الفصل السابع

(فى العائلة السابعة والثامنة المنفية)
(والتاسعة والعاشرة الاهناسية)

(قال أصحاب التاريخ) لم يتأت لاحد من جماعة الكتاب الاهتداء الى معرفة أخبار ملوك هذه العائلات ولا معرفة شئ من أخبارها فان هذا الدور وهو الممتد من آخر الدولة السادسة الى أوائل الدولة الحادية عشرة يعد من أشكل أزمان تاريخ مصر وملوكها ويقدر بنحو أربعمائة وثلاثين سنة حتى ان مانيطون المؤرخ المصرى لم يتعرض لذكر أسمائهم ولم يأت على شئ من أخبارهم قالوا والغالب أنه الى ذلك الحين لم تكن لتهتدى جماعة الكتاب على الجهات التى توجد فيها آثار هذه العائلات الاربع المذكورة (قال صاحب العقد الثمين) وهذا القول هو الارجح ويؤيده ماذكره مريت باشا فى تاريخه من أنه يوجد بوجه الظن لهذه العائلات آثار فى نواحى ميدوم والفنت واهناس المدينة وفى سائر المنطقة الارضية التى فى مدخل وادى الفيوم قال غير أننا الى الآن لم نطلع عليها ولم نقف على حقيقتها وماورد عن مانيطون فى هذه العائلات الاربع هو أن العائلة السابعة كانت قاعدة حكمها مدينة منف وملوكها خمسة من غير أن يعين أسماءهم وكانت مدة حكمهم خمسة وسبعين يوما وفى رواية سبعين يوما وفى أخرى سبعين سنة وقد ذكر بعض الكتاب ابتداء ملكهم فقال ملكوا سنة خمسمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة اثنتين وعشرين ومائة وأربعة آلاف قبل الهجرة والذى وجد من أسمائهم فى ورقة تورينو أربعة وهم نفر كارع وقد حكم سنتين وشهرا ويوما ونفروس وقد حكم أربع سنين وشهرين ويوما وآخر ومحل اسمه مقطوع من تلك الورقة وقد حكم سنة واحدة وثمانية أيام

وان العائلة الثامنة كانت قاعدتها مدينة منف وملوكها سبعة وعشرون ملكا وفى رواية تسعة عشر وقيل تسعة وقيل خمسة ملوك ومدة حكمهم مائتان واثنتان وأربعون سنة وفى رواية مائة سنة وان ابتداء ملكهم كان سنة خمسمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة اثنتين وعشرين ومائة وأربعة آلاف قبل الهجرة وان العائلة التاسعة كانت قاعدة ملكها اهناس المدينة المتاخمة لمدينة بنى سويف على شاطئ بحر يوسف وملوكها تسعة عشر وفى رواية أربعة لم يعلم منهم سوى ملك واحد واسمه (اكتوس) وكانت سنو ملك هذه الدولة مائة سنة وتسع سنين وقيل مائة سنة وكان ابتداء ملكهم سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة ثمانين وتسعمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة وان العائلة العاشرة كانت قاعدتها اهناس المدينة أيضا وعدة ملوكها تسعة عشر وسنو ملكهم مائة

وخمس

وخمس وثمانون سنة وكان ابتداء حكمهم سنة تسع وأربعين ومائتين وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة احدى وسبعين وثمانمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة قالوا وقد وجد بعض أسماء ملوك هذه العائلات الاربع منقوشا على لوحة حجرية فى هيكل سيتى الاول بالعرابة المدفونة (قال صاحب العقد الثمين) ومرتب فى هذا الجدول على الصورة الآتية

٤٠	تتركارع		٤٩	نفركارع	ترل
٤١	منكارع		٥٠	نفركاحور	ييىسنب
٤٢	نفركارع		٥١	نفركارع	
٤٣	نفركارع	نبى	٥٢	نفركارع	عنو
٤٤	ددكارع	شما	٥٣	كودع	
٤٥	نفركارع	خوندو	٥٤	نفركودع	
٤٦	مرنحور		٥٥	نفركوحور	
٤٧	سنفركا		٥٦	نفراركارع	
٤٨	رعنكا				

قال وهذا أصح ترتيب وجد لاسماء ملوك هذه العائلات وكان سبب انقراض العائلة السابعة والثامنة هيجانا داخليا استمر نحو مائة وخمسين سنة ثم بعدها ظهرت العائلة التاسعة والعاشرة من اهناس المدينة التى كانت تسمى قديما (خبنتسو) وتسميها اليونان (هيرقليوبوليس) وهى على قيد ثلاثين فرسخا من منف وكان موقعها بجهة الغرب فى جزيرة عظيمة أحدثها فرع النيل الذى كان جاريا اذ ذاك تحت سفح جبل ليبيا ولم تكن اهناس المذكورة دار سياسة والذى أشهرها ملك يدعى (أخيتوس) مذكور اسمه فى كتب اليونان أنه من هذه العائلات وكان رجلا جبارا متمردا ظلوما فأصيب فى آخر أيامه بالجنون ثم ابتلعه تمساح كما رواه هيرودوتس المؤرخ وكانت مدة حكم هاتين العائلتين ستمائة وقيل ثلثمائة سنة ولم يذكر أصحاب التاريخ ان كان حكمها عم ديار مصر جميعها أو تناول بعضها قالوا وانما قد تحقق من الآثار أنه حصل بين الملكين المتممين للعائلة العاشرة وبين أمراء طيبة بالاقليم القبلى محاربات انتصر فيها الامراء على الملكين المذكورين ثم تعاهدوا على ترك الاقاليم القبلية للامراء المذكورين بشرط أن يحكموا بالتبعية لملوك اهناس المدينة ولكن لم يلبث الامراء طويلا حتى خرجوا وجعلوا لهم عائلة أى دولة مخصوصة هى الدولة الحادية عشرة وأقاموا عليهم انتف الاول واليا يحكم بالتبعية لملوك اهناس المدينة وانتف هذا هو رأس هذه العائلة انتهى بعض تصرف

الفصل الثامن

(فى العائلة الحادية عشرة الطيبية)

كان ابتداء حكم هذه العائلة سنة ثلاثين ومائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة خمسين وسبعمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة وكان عدة ملوكها ستة عشر ملكا لم يشتهر منهم بالاخبار سوى تسعة وكانت مدة حكمهم ثلاثا وأربعين سنة ولكنهم كانوا تابعين لملوك اهناس المدينة ولذلك لم تتوسع جماعة الكتاب فى ذكرما آثر كل واحد منهم الاالملك (منتوحب) الرابع (ومعنخ كارع) قال صاحب العقد الثمين قد كانا ملكين يحكمان بالاصالة اه وأول من ملك من هذه العائلة الملك انتف الاول

(فى الملك انتف الاول)

(الذى يقال له أيضا)
(انتف عا الاول)

هو رأس ملوك الدولة الحادية عشر وقد حكم البلاد بالتبعية لملوك اهناس المدينة ولذلك لم يدرج اسمه داخل خانة ملوكية كالفراعنة لانه لم يكن أصيلا بل كان واليا على الاقليم القبلى وكان ملكا مهيبا جليل القدر ذا شوكة عظيمة وله هرم على ضفة الصحراء فى الجهة المعروفة الآن بذراع أبى النجا بجدرية قنا مبنى بالطوب اللبن وجعل فى وسطه ضريحا كساه بالحجر الأبيض وأتقنه غاية الاتقان قالوا ووجد أهل تلك الناحية جثته داخل هذا الضريح موضوعة فى تابوت غطاؤه مطلى بالذهب وعليه اسمه ولكنه فقد

قال صاحب العقد الثمين وكذا وجد فى داخل الضريح حجر مؤرخ فى السنة المتمة الخمسين من حكمه وعليه رسم صورته وعلى رأسه تاج الثعبان وبجانبه أربعة كلاب كان يحبها مدة حياته وكان له ولد يدعى (منتوحتب الاول) لقب فى أيام أبيه بولى العهد وحكم البلاد القبلية تحت سلطة ملوك اهناس المدينة فلما مات أبوه تولى الحكم بعده ووضع اسمه فى خانة ملوكية اه ولم تصل جماعة الكتاب الى معرفة شئ من أخباره ثم مات فقام بالامر بعده (انتف عا الثانى) ولم يوجد له أثر يذكر غير تابوته الذى صار العثور عليه فى جهة الأصاصيف بقرب ذراع أبى النجا ثم مات

فقام

فقام بالامر بعده منتوحتب الثانى ومات ولم يقف أحد من الكتاب على شئ من أخباره

فقام بالامر بعده انتف الثالث ولم يوجد له أثر يذكر ومات

فقام بالامر بعده منتوحتب الثالث وله صورة منقوشة على أثر فى جزيرة الكنوز القريبة من قصر أنس الوجود على شكل مقاتل منصور على ثلاث عشرة أمة أجنبية متوحشة وبجانبها نقوش معناها أنه يعترف بالمعبودة (نلم) معبودة قفط التى كانت يومئذ محصنة بالحصون والقلاع للدفاع عن وادى الحمامات وكانت مستودع الذهب والحجارة النفيسة التى كانت تستخرج من ذلك الوادى وكان بينها وبين بلاد العرب علاقة تجارية وقد زادت هذه العائلة بهجتها ورونقها بما أحدثته فيها من المبانى والعمائر العظيمة قالوا (ولمنتوحتب) هذا نقوش فى وادى الحمامات منها ذكر والدته المسماة (أم) ومنها حثه الناس على الاهتمام باستخراج المعادن النفيسة من هذا الوادى ومنها أنه حفر بئرا فى وسطه عمقها عشرة أذرع مصرية سبيلا للواردين

(قال صاحب العقد الثمين) ووجد له أيضا فى هذا الوادى نقوش مؤرخة فى اليوم الخامس عشر من شهر بابه سنة اثنين من حكمه يذكر فى أولها توسلات للمعبود (خم) ثم يقول فيها الرجل اسمه (أمنمحعت) انقل تابوتى وغطاءه من هذا الوادى الى طيبة فتقرب هذا الرجل أولا بقربان الى معبوداته ثم جمع ثلاثة آلاف رجل على هذا التابوت وأنزلوه فى سفينة على ظهر النيل حتى أوصلوه الى طيبة اه فلما مات قام بالامر بعده (انتف الرابع) وكان ذا تدبير حسن وسياسة حازمة فما زال حتى نزع الاقليم القبلى من ملوك اهناس المدينة واستقل بالحكم عليه وأخضع أيضا أهل آسيه الشمالية (قال ماسبرو) وقال انى استوليت على الوجه البحرى أيضا ولكن لاصحة لقوله لوجود ملوك اهناس المدينة المتأصلين فى الوجه البحرى اه وله آثار أخرى ومات فدفن فى ذراع أبى النجا

وقام بالامر بعده (منتوحتب الرابع) ولقبه (نبضررع) فلم يستقر به المنصب حتى ركب على ملوك اهناس وأخذ يقاتلهم ليستخلص منهم الوجه البحرى ومازال على قدم الحرب والقتال حتى ظفر ونزعه منهم واستبد بملك مصر وادعى أنه المؤسس لهذه العائلة وابتنى لهرما سماه (خوستو) ومعناه أبهى الاماكن لم يعلم محله وانما استدل على اسمه من حجر وجد فى العرابة المدفونة لكاهن كان خادما فيه ثم مات (منتوحتب) هذا

فقام بالامر بعده (سعنخ كارع) فلما استقر به المنصب سهل المواصلات ومهد العقبات التى كانت بين بلاد العرب وديار مصر ونقش على حجر فى وادى مغارة نقشا ذكر فيه ما ترجمته عن شاباس

(يقول حنو) ارسلنى الملك لأوصل السفن الى بلاد العرب ولأحضر له الصمغ ذا الرائحة الذكية . يعنى البخور الذى جمعه رؤساء الصحراء للملك خوفا منه لان رعبه عم جميع الامم فتوجهت من قفط ومعى جنود من جنوب طيبة يخفرون التجريدة المرسلة لمقاتلة

الاعــداء فى بلاد العرب وعــددها ثلاثة آلاف رجل وكان معى أيضا نحاتون وعمال وضباط فرت بالكفر الاحمر ثم بأرض مزروعة وأعــددت معى قربا وآلات لحمل زلع الماء وكانت عشرين زلعــة فصارت تحملها الرجال مع التناوب وحفرت أربعــة أحواض أحــدها كان فى غاية متسعة ومقاسه اثنتا عشرة قصبة واثنان فى محل يدعى ﴿ اتاحتت ﴾ مقاس أحدهما قصبة واحــدة وعشرون ذراعا ومقاس الآخر قصــبة وثلاثون ذراعا ورابعها كان فى جهة تدعى ﴿ آتب ﴾ طوله عشر قصبات فى مثلها وعمقه ذراع واحد ثم وصلت الى سبا وأنشأت هنالك سفنا لنقل المحصولات من مين البقيع ورجعت من سبا الى ﴿ والك ﴾ و ﴿ رهان ﴾ فأحضرت منهما الحجارة النفيسة لتماثيل المعابد ولم يحصل مثــل ذلك من قبل وكذا لم يعهد أن أحــدا من أقارب الملوك أرسل الى تلك الجهات غيرى وانما فعلت ذلك لفرط محبة الملك لى اه (قال شاباس) المترجم لهذه الحكاية ان ﴿ حنو ﴾ هو أول من فتح الطريق الموصل من قفط الى بلاد العرب بأمر الملك ﴿ سعنخ كارع ﴾ وجعل فيها خمس محطات وعيونا للماء فكانت سببا لترتيب المواصلات فيها وسلوكها بالقوافل التى كانت تأتى بالبضائع والسلع من بلاد الهند والعرب الى مصر واستمر هذا الطريق كذلك الى عصر اليونان والرومان

وكان المصريون يطلقون على حضرموت واليمن اسم ﴿ بون ﴾ فاستعار العرب هذا الاسم ووضعوه للقهوة المعروفة بالبن وصار علما لها الى يومنا هــذا (قال مريت باشا) وقد وجد فى ذراع أبى النجا جملة من آثار هذه العائلة يرى عليها علامات الغلظ وهى عدة ألواح حجرية مستديرة من أعلاها وبعض أمتعة وأوان وفاكهة وخبز وملبوسات وشئ من أثاث البيوت والاسلحة وآلات الصناعة وكل ذلك محفوظ بخزانة التحف ببولاق قال وقد اصطلح أهل هذا العصر على أنهم يرسمون فوق توابيت موتاهم أشكالا بأجنحة على هيئة الطيور ويلونونها بألوان مختلفة باهرة اشارة إلى ما كان من جملة عقائدهم الدينية من أن احدى معبوداتهم المسماة ﴿ آزيس ﴾ كانت تحنو على أخيها ﴿ آزوريس ﴾ بالتجنيح عليه بذراعيها فشبهوا الميت بآزوريس ووضعوا صورته على توابيت الموتى قال والى الآن لم يستوعب جميع آثار هذه العائلة اه

(قال مانيطون المؤرخ) وضــعفت شوكة من قاموا بالامر بعد الملك ﴿ منتوحب الرابع ﴾ وزال بأسهم وتقهقروا فكان ذلك سببا فى انتقال الملك منهم الى العائلة الثانية عشرة بعد أن ظلوا قابضين على زمام حكم البلاد نحو ثلاث وأربعين سنة اه قلت فانتهت الطبقة الاولى بانتهاء هذه العائلة وظهرت الطبقة الثانية بدور جديد ومظهر مفيد فزادت البلاد فى أيامها بهجة وعمرانا والعلوم والصنائع تقدما واتقانا كما سيذكر فى محله

الباب الثانى

﴿ فى الطبقة الثانية ﴾

(قال أصحاب التاريخ) كان ظهور الطبقة الثانية من ملوك مصر فى سنة أربع وستين

وثلاثه

وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة ست وثمانين وستمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة وعدة من تملكها ست عائلات من العائلة الثانية عشرة الى آخر العائلة السابعة عشرة وفى رواية من الحادية عشرة الى الثامنة عشرة والاولى أرجح * وكانت سنو ملكها ألف سنة وثلثمائة واحدى وستين سنة

الفصل الاول

(فى العائلة الثانية عشرة الطيبية)

كان مبدأ حكم هذه العائلة سنة أربع وستين وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة ست وثمانين وستمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائتان وثلاث عشرة سنة وقد اتخذت قاعدة مملكتها مدينة طيبة فلما استتب لها الامر عملت على توحيد حكومة البلاد وجعلها مملكة واحدة تحت حكم ملك واحد وقد كانت الى هذا الحين منقسمة الى حكومات مختلفة حاكمة فى وقت واحد فنجحت وفازت وصارت البلاد كلها فى أيامها مملكة واحدة وكان عدة ملوكها ثمانية أولهم الملك امنمحعت الاول الملقب سحب أبرع وهو الآتى ذكر أخباره بعد

فى الملك امنمحعت الاول

لما رقى امنمحعت الاول سرير الملك نهض الى قتال الاعداء الذين كانوا يشنون الغارة على البلاد وقد كانوا أحزابا من سكان ليبيا والنوبة وآسية اجتمعوا على قتاله فقاتلهم حول قلعة تاتوى التى كانت غربى مدينة منف ومازال بهم حتى انتصر عليهم وتغلب وأخذ منهم منف وتعقبهم حتى طردهم عن البلاد وعاد غانما قال صاحب العقد الثمين ولما طرد هؤلاء الاحزاب واستتبت الراحة فى عموم مصر قال مقالة مكتوبة فى ورقة سالير تعريبها

فرجت عن الحزين حزنه فلم يسمع أنين صوته وانطفأت بهمتى نار الحروب وزالت الثورات والكروب وكان الناس من قبلى كثور يضرب وهو لا يشعر بماض ولا آت ولم يكن الجاهل والعالم راحة فى جميع الحالات ووسعت الفلاحة الى جزيرة أسوان ونشرت علائم الافراح الى روضة يحيط بها البحران واقترحت فى ملكى ثلاثة أصناف من الحبوب وأحببت (نبرا) أعنى إله الحب المحبوب كيف لا وقد فاض النيل من جدواى على جميع الارض فلم ير من جائع فى مدتى ولا من ظمآن تحت سلطتى وما هذا الا لامتثال الرعية أوامرى واستماعهم كلمى وتمسكهم بافكارى فلهذا قهرت السبع وقطعت دابر التمساح وظفرت باقوام (واواى) فنهم هذا الفلاح وأخذت (المتاشيو) أسارى وألزمت أهل آسية السير بجانبى كالأرانب حيارى اه

قال وكان لهذا الملك العاقل ولد زكى فلما آنس منه رشدا صار يخبره بأحواله وطباعه في الحروب وغيرها وهذه ترجمة ماقاله لابنه في ورقة سالير متى جن الليل * استغرقت ساعة في السرور ثم تمددت على فرش لينة بقصرى وتهيأت للراحة لتأخذنى سنة النوم وهكذا عادتى فاذا عصتنى جماعة وتظاهرت على بالعدوان أظهرت لهم أولا الضعف كالثعبان البرى ومتى تهيأت لقتالهم لم أجد أحدا منهم يقاومنى في القتال وبذا لم تبق نائبة طول عمرى واذا انتشر الجراد وأضر بالعالم أو أضمر أحد احداث الشقاق في قصرى أو كانت زيادة النيل غير كافية أو نضب الماء من الصهاريج كنت أجتهد في اصلاح ذلك اه

وقد اعتنى امنمحعت المذكور في استخراج الذهب من النوبة وكان قد أهمل أمره من عهد الملك (بيى) وقاتل بعض طوائف الزنوج وأدخلهم تحت الطاعة وغزا بنى (واواى) وقد كانوا من ألد أعداء المصريين من قديم الزمان ولكنهم لم يلبثوا أن فارقوا أوطانهم ونزحوا عنها تخلصا من خضوعهم اليه قال بركش . ان سواحل المنزلة الشرقية التى كانت معمورة بأخلاط من المصريين ومن قبائل آسية كانت كاقيل خارجة عن حكمه وقد شيد لنفسه هرما سماه (كانفر) اى الهرم العالى الجميل وبنى هيكلا عظيما لمعبودات منف فتنافس من أتى بعده من الملوك في توسيعه وتحسينه وبالغوا في ذلك * ثم بعد استقلاله بالملك عشرين سنة أشرك معه في الحكم ابنه المدعو أوسرتسن الاول وكتب ذلك في صحيفة وجدها سالير وتعريب مافيها

رفعتك يابنى من بين الرعية وأطلقت لك التصرف كى يخافوك ويهابوك أما أنا الآن فأتزين برفيع الاقمشة لأظهر للعيون كنبتة من نبت بستانى وأعطر نفسى بالعطريات الكثيرة كأنما أنثر على ماء من صهاريجى اه

وكانت مدة مشاركة ابنه له في الملك عشر سنين من غير منازعة بينهما فظهر ابنه بين الرعية بمظهر ألطف مظهر أبيه واتسعت كلمته وعلت شهرته وكان للملك امنمحعت كتاب بين فيه قصة حياته وكان نفيسا جدا حسن العبارة فتداول تعليمه أهل المدارس القديمة وتنافسوا في ذلك وكان مانيطون يسميه باسم أفمس ومات بعد أن حكم ست عشرة سنة وفى رواية ثلاثين سنة فانفرد بالامر بعده ابنه أوسرتسن الاول الملقب خبر كارع

(في الملك أوسرتسن الاول)

لما مات الملك امنمحعت استبد ولده أوسرتسن بالملك فكان ملكا جليل القدر عالى الهمة محبوبا استمال اليه قلوب الرعية بمظهره العظيم وهو صاحب المسلة الكبيرة المنصوبة بالمطرية وقد كانت أمام هيكل الشمس المدعو أتوم تعظيما لهذا الهيكل لما كان له من الشهرة الواسعة وكانت تؤمه الناس في كل وقت لأداء شعائر دينهم وصنع بجانبها مسلة أخرى

ولكنها تكسرت ولم يبق لها أثر أما الاولى فباقية الى يومنا الذى نحن فيه وعليها نقوش بالقلم الهرمى قال صاحب العقد الثمين وملخصها ان الملك المنصور حياة كل موجود سلطان الوجه القبلى والبحرى خير كارع صاحب التاجين وسلالة الشمس أوسرتسن المحب لمعبودات المطرية دام بقاؤه صنع هذا الاثر فى مبدإ العيد الرسمى لتخليد ذكره واحياء لهذا العيد اه قال ماسپرو وكان هذا اليوم يعنى يوم العيد الرسمى محترما عند المصريين حتى ان الملك أوسرتسن الاوّل نصب فيه المسلتين المذكورتين فى مدينة المطرية وكانت هذه المدينة محدقة بسور وفيها أصنام هائلة بين قائم على قواعد وقاعد على نصبات عجيبة طول كل صنم منها ثلاثون ذراعا وأعضاؤه على تلك النسبة ووجد أيضا بجوار قرية بجيج بجهة الفيوم لهذا الملك مسلة ثالثة عليها نقوش تتضمن أنه نصبها تعظيما لمعبودات الفيوم أمام باب هيكل قد دمر الآن قال وكان فى عصره رجل اسمه (امنى) قد بنى له مقبرة فى بنى حسان مكتوبا عليها مناقبه وملخصها . ان (امنى) هذا مات اليوم الرابع عشر من بؤنة سنة ثلاث وأربعين من حكم الملك أوسرتسن الاوّل وقد كان سافر مع الملك فى البحر والبر لقيادة الجيش المرسل لقتال الاعداء فى جهتى (كنت) (وأنو) بلاد الايتيوبيا فتغلب عليهم وظفر بهم وعاد معه سالما ثم أرسله الملك ثانيا بأربعمائة رجل لجلب سبائك الذهب من تلك الجهة فلما أحضرها غمره باحسانه ثم عينه ثالثا لتوريد البقر الحلوب للقصر الملوكى فقام فى تحصيل ذلك خير قيام ثم جعله ناظرا على قسم (سمح) الذى كان شرقى المنية فلم يظلم فى حكمه فقيرا ولا أرملة ولا صيادا ولم يطرد راعيا ولم يسخر فى أعماله أحدا بل سقى العطشان وأطعم الجوعان ولما حصلت فى زمنه السنون المجدبة اجتهد فى زرع جميع أرض قسمه وأطعم سكانه وجلب لهم المأكولات فلم يجع أحد منهم وكان يسوّى فى العطاء بين الأرملة والمتزوجة وبين الكبير والصغير ولما وقفت زيادة النيل أخذ كل زارع محصول أرضه من غير أن يأخذ منه (امنى) شيأ اه

(ورأى أهل التاريخ) أن هذه الرواية قريبة من قصة يوسف عليه السلام فظنوا أن أوسرتسن الاوّل هذا هو فرعون يوسف الذى وقع القحط فى أيامه لاهل مصر وعندى أن هذا الظن بعيد عن الصواب لان مدّة يوسف بن يعقوب لاتوافق هذا العصر واعتنى هذا الملك أيضا باستخراج الاحجار النفيسة من جبل الطور وكان جليل القدر مسموع الكلمة فى تلك الاصقاع وكان من مشاهير عصره أمير اسمه (منتوحتب) قال صاحب العقد الثمين وله قصة منقوشة على حجر فى متحف بولاق حاصلها أنه كان ناظر الداخلية والحقانية والاشغال العمومية والديانة وكان عادلا مشرعا عالما فهد كل أمر فى ديار مصر وأقام شعائر الدين وحامى عن الفقير والعاجز وأعطى الأمان لمن شاء وقاتل أعداء الملك وتغلب على أهل آسية وسكن هيجان الوادى والعبيد وكان له الامر والنهى فى الوجه القبلى والتصرف فى وضع الضرائب على الوجه البحرى وصنع له محرابا ملاصقا لمعبد أزوريس بالعرابة المدفونة وحفر فيه بئرا اه

وقبل موت أوسرتسن هذا رسم لمهندسه المسمى مرى أن يبنى له مقبرة فبناها وجعل بداخلها أودا بطرقات مقامة على أعمدة وجعل فيها حوضا متصلا بالنيل وعمل لها أبوابا ومسلات ووجهة من حجر طرا الابيض ثم مات بعد أن حكم خمسا وأربعين سنة وفى رواية مانيطون ستا وأربعين وكان مانيطون يسميه سيسونخوسيس فقام بالامر بعده امنمحعت الثانى الملقب تب كورع

(فى الملك امنمحعت الثانى)

لم تذكر جماعة الكتاب عن الملك امنمحعت هذا شيأ من الاخبار سوى ماقاله بعضهم من ان المصريين كانوا فى أيامه فى قتال وحروب هائلة مع طوائف الاتيوبيين بغية توسيع مملكتهم وتقوية حدودها فى تلك الانحاء وان الملك امنمحعت المذكور كان متزوجا بالملكة نفرت ومعناها الجميلة وكان مانيطون المؤرخ يسمى هذا الملك باسم امانمس وقد حكم ثمانيا وثلاثين سنة ومات فقام بالامر بعده الملك أوسرتسن الثانى

(فى الملك أوسرتسن الثانى)

تولى الملك أوسرتسن الثانى فأحسن التدبير وحافظ على حدود المملكة واجتهد فى بقاء شهرتها التى أوجدها أسلافه وقد كانت الحدود ومئذ تمتد الى بلاد الاتيوبيا ومن آثار عصر أوسرتسن الثانى المذكور مقبرة (خنوم حتب) الموجودة فى بنى حسان وعليها أجل نقوش قال صاحب العقد الثمين وهى مبينة لبعض أحكام الوراثة فى ذلك العصر اذ يفهم منها ان خنوم حتب بن (نحر) وأمه (بوقت) كان قريب الملك وصنع هذا الاثر لتخليد ذكره وذكر مستخدميه الذين عملوا الخيرات وذكر من امتاز من فلاحيه بالدرجة العالية وبين كل صنعة ووظيفة تحت رسم صورته وأخبر أن الملك امنمحعت الثانى أورثه الحكم الذى كان لجده من أمه على البلاد الشرقية بجهة المنية وأورثه أيضا وظيفة الكهانة للمعبودين (حور)(ونخت) التى كانت لجده أيضا بعد أن وضع له الحدود بنفسه فى كل جهة ووزع على الاراضى مياه النيل كما كان جاريا لجده من قبله وسبب توريث الحكم اليه من جده هو ان الملك امنمحعت الاول أمر بتعيين جده رئيسا على البلاد الشرقية جهة المنية وبعد ان مهدها له وأخمد عصيان أهلها وأصلح مادمر منها وبين حدودها بنفسه ووضع عليها الضرائب على حسب المحصولات ووزع عليها المياه كما كان مقررا فى السجل جعل هذا الجد ناظرا على قسم (سمع) بعد أن بين له حدود ومياه ذلك القسم وأنعم على ابنه المرحوم (نخت) برتبة حاكم على مدينة المنية اذ كان له حق الوراثة فيها .

قال ولما تولى الملك أوسرتسن الاول أصدر قرارا مؤيدا للارشد من ذرية الجد برتبة الرئاسة
نكانت والدتى (بوقت) هى السابقة فى الترؤس على مدينة امنمحعت الاول المسماة منعت
أبرع فى قسم سعح فساغ لها بذلك أن تتزوج بحاكم فتزوجها الحاكم (نحر) والدى وعلى ذلك
أورثنى امنمحعت الثانى رتبة الرئاسة على مدينة المنية التى كانت لجدى وذلك سنة تسع عشرة
من حكمه فعملت مافيه الاصلاح لهذه المدينة وأحييت اسم والدى (نحر) وشيدت المعابد
ووضعت تماثيلى فيها ورتبت لها مايلزم للقرابين وعينت لها قسيسا أقطعته أراضى وأخدمته
فلاحين ورتبت للاموات الصدقات فى جميع أعيادهم الآتية وهى
عيد السنة الجديدة وعيد رأس السنة وعيد السنة الكبيرة وعيد السنة الصغيرة وعيد آخر
السنة والعيد الكبير وعيد الحر الاكبر وعيد الحر الاصغر وعيد خمسة أيام النسى وموسم
ورود المحصولات ومواسم أنصاف الشهور الاثنى عشر وفى كافة أعياد الأحياء ومواسم الأموات
وشرطت أنه ان بدل كاهن شيأ من هذه الرسوم فهو معزول عن الخدمة ولاينوب ابنه عنه
انتهى

وكان خنوم حتب هذا من كبار المصريين وعظمائهم وكان يؤمه كثير من الناس لكرمه
فمن أتى اليه قاصدا بابه عائلته من بنى عمو القاطنين بآسية وكانوا سبعة وثلاثين فرسمهم
فى مقبرته بصورة أنهم قيام بين يديه خاضعون يشيرون اليه بالتحية ويسألونه أن يأذن لهم
بالاقامة فى جواره ورسم كاتبه المسمى نفر حتب كأنه يعرض عليه ورقة قال صاحب
العقد الثمين مضمونها يعنى مضمون الورقة المذكورة « فى السنة السادسة من حكم الملك أوسرتسن
الثانى قدم سبعة وثلاثون نفسا من بنى عمو وأحضروا معهم من جهة (بتسو) معدنا
يسمى (مستموت) هدية منهم للملك وكان هذا المعدن مرغوبا جدا عند المصريين
ولذا كانت عرب البقيع المسماة عمو تأتى به الى أهل مصر اه

قال ويرى على قبر خنوم حتب رسوم دالة على كيفية الفلاحة وأعمال الجهادية وطرق
للوسيق وتربية المواشى ومبينة لصور الملوك والاعيان وملاعيب اللهو وبعض قواعد الاحكام
وتدبير المنازل وأثاثاتها وفيها أيضا اعمال دينية وآثار تاريخية وفن الملاحة وعلم الحيوانات
قال فمن أراد الوقوف عليها فليتوجه الى بنى حسان وينظر رسمها فى قبر خنوم حتب هذا

وقد استنتج بركش من حكاية خنوم حتب أن الرتب والوظائف والرئاسة فى الاقسام
والمدن كانت تورثها الملوك الذكور عن آبائهم وأجدادهم وان الاجنبى كان لاحق له فى الحكم
الا اذا تزوج امرأة لها حق الوراثة فيه وأن الملوك كانت تباشر توزيع المياه على الاراضى
وتسجيلها فى الدفاتر وضبط مساحتها ووضع الضرائب اللائقة بها وبهذه العادة الجيدة
كان يمتنع الظلم والخصومة بين الاهالى اه

ومات الملك أوسرتسن الثانى بعد أن حكم تسع عشرة سنة وقال مانيطون بل ثمانيا وأربعين
سنة وسماه باسم سيسوستريس فقام بالامر بعده الملك أوسرتسن الثالث الملقب خع كارع

(فى الملك أوسرتسن الثالث)

تولى الملك أوسرتسن الثالث فكان شهما مهيبا صاحب عزم وحزم فاتسعت لذلك شهرته وكبرت شوكته وبلغت مبلغا عظيما جدا حتى عبدته الناس بعد موته وقد غزا مرارا طوائف العبيد المقيمين فى جنوب مصر رغبة فى توسيع حدود المملكة وأنشأ فى وادى حلفا بالقرب من الشلال الثانى القلاع والحصون وقد بقى منها قلعتان للآن يعرفان بقنه وسمنه لمنع دخول الاعداء جوف البلاد وفيهما يرى آثار الاسوار الشامخة والبروج العالية والخنادق والنزلات وغير ذلك قال صاحب العقد الثمين وكان بداخلها معبد وعدة مساكن دمرت الآن وقد عثر على حجرين كانا مجعولين حدا فاصلا لبلاد مصر من جهة الجنوب مكتوب على أحدهما مانصه

هذا حد مصر الجنوبى وضع فى السنة الثامنة من حكم الملك أوسرتسن الثالث مخلد الذكر لايجوز لأى أسود أن يتجاوز هذا الحد فى أثناء سفره الاسفنا فيها حيوانات من بقر ومعز وحمير من قبل بنى الأسود اه

وفى آخر هذه الكتابة عبارة مضمونها لايجوز لأى سفينة تابعة لبنى الاسود خالية من الحيوانات المذكورة الدخول أثناء سيرها فى بلاد مصر الجنوبية والكتابة الموجودة على الحجر الثانى يفهم منها ان هذا الملك وضع سنة ست عشرة من حكمه هذا الحجر حدا فاصلا لبلاد مصر الجنوبية وانه أمر بنصب تماثيله فى تلك الجهة فلهذا ابتهل أهل النوبة بصالح الدعوات الى أوسرتسن هذا بعد وفاته ومدحوه بأنه كان حامى حمى مصر وكان رجلا مقداما ثم بعد مضى خمسة عشر قرنا أعنى فى عصر العائلة الثامنة عشرة شيد له تحوتمس الثالث معبدا فى سمنه وكتب عليه ابتهالات كان يتلوها المصريون فى ذلك الوقت وهذا تعريبها ملخصا أيها الامراء الذين يحترمون معبودات جهاتهم اذا قربتم من هذا الأثر فاتلوا هذا الابتهال الى معبود النوبة (تويون) والى الملك المرحوم أوسرتسن الثالث عسى أن يرحما فلانا اه

وكان أوسرتسن الثالث المذكور كثير التعبد يحترم المعبودات ويشيد لهم الأبنية العظيمة وقد وجد على الآثار من قوله انه فى اليوم الثامن عشر من كيهك سنة أربع عشرة من حكم الملك أوسرتسن الثالث مخلد الذكر ومحب (خم حر) معبود مدينة قفط صدر أمر منه بصنع أثر فى وادى الحمامات (لحرشف) معبود اهناس المدينة اه وله هرم فى دهشور ثم مات بعد أن حكم ستا وعشرين سنة فقام بالامر بعده الملك امنمعت الثالث الملقب عنامعت

(فى الملك امنمعت الثالث)

تولى الملك امنمعت الثالث فأحسن التدبير وخلد له ذكرا لايمحى بما شيده فى الفيوم

من

من المبانى الجسيمة والعمائر النافعة وذلك أنه لما كانت ديار مصر وزروعات أرضها بين عاملين هائلين هما الغرق والشرق وكان اذا وقع أحدهما فى احدى السنين كانت الطامة الكبرى على البلاد وأهلها وكان الملك امنمحعت المذكور كبير العناية بأمر مملكته شديد الرغبة فى اسعادها وايرادها موارد الغنى والتقدم نهض الى تلافى هذه الاضرار وجعل البلاد فى مأمن منها وكان فى الصحراء الغربية من مصر بادية عظيمة تصلح للزراعة وهى التى تعرف الآن بوادى الفيوم وكانت كما قاله بعض الكتاب تتصل بوادى النيل الاصلى بقطعة من الارض كالبرزخ وفى وسطها قطعة أرض مستوية سطحها يضاهى سطح مزارع مصر وفى جانبها الغربى أرض منخفضة متسعة جدا تغمرها مياه بحيرة طبيعية هى التى تعرف الآن بركة قارون تبلغ من الطول أكثر من عشرة فراسخ فرسم بحفر بركة فى وسط تلك القطعة الارض المستوية وجعلها مستودعا للماء عرفت ببركة موريس فان كانت زيادة النيل ضعيفة فتحت البركة المذكورة فيخرج من المياه المخزونة فيها مايكفى لرى مزارع بادية الفيوم بل سائر أراضى الجانب الايسر من النيل الى البحر الابيض وان كان النيل كثيرا جدا بحيث يخشى منه تكسير الجسور صرف القدر الزائد عن المنافع الى تلك البركة الجديدة فان طفحت فيها المياه انصرف مازاد عنها الى بحيرة قارون بواسطة قنطرة تسد وتفتح بحسب الحاجة

وكان الملك يرسل فى كل سنة قبل ارتفاع النيل جماعة الى النوبة يستكشفون زيادة النيل جهة سمنه وقته ولذا يرى فى تلك الجهة نقوش بالقلم البربائى معناها على مارواه جماعة من الكتاب هكذا * الى هنا وصل ارتفاع النيل فى السنة الرابعة عشرة من حكم الملك امنمحعت الثالث خلد ذكره اه

قال العلامة لبسيوس وكان فيضان النيل فى عصر العائلة الثانية عشرة يزيد عن أكثر فيضانه الآن جهة سمنه وقته ثمانية أمتار وسبعة عشر سنتيمترا وان زيادته المتوسطة فى عصر امنمحعت الثالث تزيد على فيضانه الحالى سبعة أمتار اه

قال صاحب العقد الثمين فيتضح لك مما تقدم ان بركة قارون كانت طبيعية وبركة موريس صناعية وكانت الاولى كثيرة الاسماك والثانية يصب فيها ماء النيل من ترعتين وقت زيادته ثم يحجز فيها بواسطة سد فاذا كان وقت الشرق فتح هذا السد فيسقى الاراضى المجاورة لبركة موريس وكانت احدى هاتين الترعتين تتفرع من النيل بجانبه الغربى ثم تجرى تجاه بحر يوسف الحالى وكان باب السد موضوعا فى مجمع الترعتين والترعة الثانية كانت تجرى جهة الشمال وكانت معدة لتوزيع المياه على الارض عند الشرق وكان فى وسط بركة موريس المذكورة هرمان فى كل منهما تمثال جالس فالهرم الاول كان فيه تمثال زوجته المسماة سبك نفرورع وقد وجد رسم هذه الملكة فى صحيفة موجودة بمتحف بولاق وسماها اليونانيون باسم موريس بعين تلك البحيرة وأصلها (مرى) ومعناها (بحيرة) اذ من عادتهم أن يضعوا حرف السين آخر

أسماء الاعلام عندهم فلذا حولوا كلة مرى الى موريس وقالوا (بحيرة موريس) زاعمين أن موريس هذا اسم لاحد الفراعنة المصريين والحقيقة ليس بشئ قال بعض الكتاب

وأما الفيوم فاصلها بايوم أوفايوم ومعناه بالهرمسية بلد البحر ثم عربها العرب فقالوا الفيوم وأطلقوه على نفس الاقليم تسمية للارض باسم الماء الذى أخصبها باقتراح الملك امنمحعت الثالث ومن أعمال هذا الملك السراى الشهيرة باسم لابيرانثا وتسمى بالقلم الهرمسى لابورواحونت ومعناها معبد فم البحيرة وكان ينعقد فيها مجلس الاعيان من كهنة المصريين للمداولة فى أمور السياسة وكان بداخله اثنتا عشرة رحبة متقابلة الابواب ستة على الشمال وستة على اليمين وهذه العمارة محدقة من الخارج بسور كبير وفيها ثلاثة آلاف أودة منها ألف وخمسمائة فى الدور الاول وألف وخمسمائة فوقها وفيها أيضا ايوانات ورحبات وجميعها مسقوفة بالحجارة ومقامة على أعمدة من الحجر الابيض منتظمة الصفوف وفى آخر هذه العمارة هرم مزين بالرسومات العجيبة والاشكال الغريبة يتوصل اليه بسرداب تحت الارض وفيه قبر امنمحعت الثالث الذى دفن فيه

(وذكر استرابون) أن الاماكن التى داخل تلك العمارة كانت بعدد أقسام ديار مصر القديمة فكان لمندوب كل قسم محل مخصوص فيجتمعون فيها إما بأمر من الملك أوعلى مقتضى قانون البلد لكى يتداولوا فى أحوال بلادهم كوضع الرسوم والاموال وتغيير الملك أوالعائلة وهذه العمارة موضوعة فى الجهة الشرقية من بحيرة موريس على ربوة واسعة مربعة طولها مائتا متر وعرضها مائة وستون مترا وكانت وجهتها المطلة على بحيرة موريس مصنوعة من الحجر الابيض فان دخلها انسان ضل عن الطريق ولم يهتد للخروج منها لكثرة أماكنها وأحجارها مجلوبة من وادى الحمامات بدليل ماوجد على صخور الوادى المذكور من النقوش الدالة على انه فى السنة التاسعة من حكم الملك امنمحعت الثالث سار هذا الملك بنفسه الى هذا الوادى لجلب الحجارة للعمارة الجارى العمل فيها بمدينة الفيوم وصنع تمثالا لنفسه على شكل جالس ارتفاعه خمسة أذرع وهو المذكور آنفا ورى أيضا فى وادى الحمامات نقوش أخرى تفيد أن الملك أرسل هناك جماعة من المهندسين لمباشرة قطع ونحت الاحجار ولعمل التماثيل المطلوبة له ووجد فيه أيضا نقوش من أعمال بعض رجال دولته يفهم منها أن لهذا الملك مآثر كثيرة منها استخراج بعض المعادن من بجيث بجزيرة جبل الطور وأخصها معدن الفيروزج ومنها انه قاتل الزنج وفتح بلادا كثيرة اه

ومات الملك امنمحعت الثالث المذكور بعد أن حكم اثنتين وأربعين سنة وقال مانيطون بل حكم ثمان سنين وكان يسميه باسم أمرس فقام بالامر بعده الملك امنمحعت الرابع الملقب معت خرورع وأخته الملكة سبك نفرورع

(فى الملك امنمعت الرابع)

وأخته

(الملكة سبك نفرورع)

تولى الملك امنمعت الرابع وأخته الملكة سبك نفرورع معا وحكما بالاشتراك وكانت ولاية أخته بحق الوراثة كالملكة (نيتوقريس) من العائلة السادسة ولم يعلم من أخبارهما شئ يذكر غاية ما كتبه أصحاب التاريخ أنه قد استدل من الآثار على أن حدود المملكة المصرية كانت تمتد فى عصر هذه العائلة الى بلاد النوبة وكانت ملوكها متسلطة على بحيث جزيرة الطور وكان بين المصريين وبين سكان ليبيا الشمالية وأهل اسية أشغال ومعاملات تجارية كان مركزها بين مدينتى بنى سويف واهناس المدينة ولهذه الاسباب اختلط المصريون بالليبيين فتعلم المصريون عن الليبيين ألعاب المصارعة وكان الزنوج فى أيام هذا الملك يأتون الى بلاد مصر أفواجا لخدمة أهلها وكانت العلوم والصنائع فى أيام هذه العائلة بالغة حد الكمال والمدارس فى نجاح وتقدم وحدود البلاد وأقسامها وحركة نيلها فى انتظام غريب وأتقن فن البناء وصناعة الاحجار ولذلك قال أصحاب التاريخ إن أغلب ماوجد فى الاقاليم القبلية من الاعمدة الحلزونية الشكل هو من أعمال هذه العائلة دون غيرها

ومات الملك امنمعت الرابع المذكور وأخته الملكة نفرورع ولم يذكر أصحاب التاريخ أيهما مات أولا وانما يستنتج من جدول أسماء هذه العائلة المنقول عن الآثار وجدول مانيطون المؤرخ أن مدة حكم الملك امنمعت الرابع المذكور كانت تسع سنين وثلاثة أشهر وسبعة أيام حسب الآثار وثمان سنين حسب ماقاله مانيطون وكانت مدة حكم الملكة نفرورع سنة واحدة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما كما دلت عليه الآثار وأربع سنين كما رواه مانيطون وبموتهما انقرضت الدولة الثانية عشرة المذكورة وقامت بعدها الدولة الثالثة عشرة الطيبية

(الفصل الثانى)

(فى العائلة الثالثة عشرة الطيبية)

كان مبدأ حكم هذه العائلة سنة احدى وخمسين وثمانمائة وألفين قبل الميلاد المسيحى

أى سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها أربعمائة وثلاث وخمسون سنة وقيل غير ذلك وعدة ملوكها سبعة وثمانون وقيل غير ذلك

وقد خفى على أهل التاريخ معرفة أسماء ملوك هذه العائلة وما لهم من المآثر وغاية ماقالوه عنهم ان أكثرهم كان يلقب بلقب (سبك حتب) (ونفر حتب) قالوا وبالبحث فى الآثار القديمة وجد كل من لقب سبك حتب ونفر حتب منقوشا على الاحجار القديمة ولكن لم يعلم من أى عائلة هو ولما عثر أصحاب العلوم الأثرية على نقوش على الصخور التى بجهة سمنة مضمونها أن الملك (سبك حتب الاول) كان حيا على عهد الملك (أوسرتسن) الثالث استنتجوا من ذلك أن ظهور هؤلاء الملوك الملقبين باللقبين المذكورين كان عقب العائلة الملوكية الثانية عشرة وقد وجدت أسماؤهم مرتبة فى جدولين على صحيفة من البردى ممزقة وهى موجودة بمتحف تورينو بايطاليا قالوا وعدتهم سبعة وثمانون ملكا كما تقدم

ولم تعلم أسماؤهم كلهم الا القليل منهم وهم كما ذكرهم صاحب العقد الثمين رع خوتاوى الملقب سبك حتب الاول . وسخم كارع . ورع امنمحت الاول . وسحتب أبرع الاول . وأوفنى . وسعنخ أبرع الملقب أمنى أنتف امنمحت . وسمن كارع . وسحتب أبرع الثانى . و . . . كارع . والعاشر لم يعلم اسمه . والحادى عشر اسمه زم أبرع . ثم رع سبك حتب الثانى . وران سنب . وأتوأبرع الاول . وسزف . . رع . ورع سخم خوتاوى الملقب سبك حتب الثالث . ورع أوسر . . وسمنخ كارع الملقب مرمشا . و . . . كارع . و . . . أوسرسر . ورع سخم سوزتاوى الملقب سبك حتب الرابع . وخع سيشش رع الملقب نفر حتب بن حاعنخف . ورع ساحاتور . وخع نفر رع الملقب سبك حتب الخامس . وخع كارع . وخع عنخ رع الملقب سبك حتب السادس . وخع حتب رع الملقب سبك حتب السابع . وح أبرع الملقب يعب . ومر نفر رع الملقب أبى . ومر حتب رع . وسعنخنسرع الملقب أوتو . ومر سخمرع الملقب أرن . وسوز كارع . . أودرع . وأتم . . . رو . ومن الخامس والثلاثين الى الثالث والاربعين ساقط من الاصل . والرابع والاربعون هو مر خبر رع . ثم مر كارع . ثم من السادس والاربعين الى الخمسين ساقط . ثم . . . . مس . ورع معت . . الملقب أبا . و . . . رع أوبن الاول . و . . . . كا . ورع . . تن . ورع . . . . . . وسابع خمسيهم لم يعلم له اسم . وثامن خمسيهم اسمه نحسى رع . ثم خع خرو رع . ثم نبف عا أودرع . وسحبرع . ومرز فارع . وسوز كارع . ونبز فارع . ورع أوبن الثانى ومن سادس ستيهم الى سابع ستيهم ساقط . واسم ثامن ستيهم . . . زف عرا . ثم . . . رع أوبن الثالث . ثم . . أتو أبرع الثانى . وحرابرع . ونب سن رع . ومن ثالث سبعيهم الى سادس سبعيهم ساقط . ثم سابع سبعيهم مضبرن رع . ثم دد خرو رع . وسعنخ كارع . ونفرتوم . . رع . وسخم . . . رع

وكا

. وكا ... رع . ونفرابرع . ورع .... ورع خع .... ونركارع . وسمن ... رع . وهو سابع ثمانيهم

وكانت المملكة المصرية فى عهد هـذه العائلة حافظة لمجدها باقيـة على حالها من بعد الصيت واتساع الكلمة بل كبرت حدودها عما كانت عليه واتسعت وكان الملك الثالث منها وهو المسمى (سمنخ أبرع) له لقب يحتوى على ثلاثة أسماء ملوكية وهى امنى . وانتف . من العائلة الحادية عشرة (وامنمحعت) من العائلة الثانية عشرة وابتنى له هرما سماه ﴿ أمنى خودب ﴾ فلوا ولم يعلم له محل الآن

والملك السادس عشر من هذه العائلة المسمى (سبك حتب) الثالث نقوش بقرب سمنة على صخور بشاطئ النيل رأسية الوضع صعبة المرقى مكتوبة على ارتفاع سبعة أمتار فوق ماتبلغه زيادة النيل الآن ومعناها ان ماء النيل وصل ارتفاعه الى هنا فى السنة الثالثة من حكم جلالة الملك (سبك حتب) الثالث خلد ذكره

وأما الملوك الاربعة الذين هم (سبك حتب الرابع) (ونفرحتب) (ورع ساحاتور) (وسبك حتب الخامس) فقد تركوا من الآثار مادل على أنهم كانوا حقيقة فى عداد ملوك هذه العائلة قال صاحب العـقد الثمين وقد عثر على تمثال الملك سبك حتب المذكور المتخذ من حجر الصوان فى صان فـدل وجوده هناك على أنه كان حاكما على الوجـه البحرى كما ثبت ذلك أيضا للملك سبك حتب الخامس لوجود تمثاله المحفوظ الآن بمتحف باريز فى تل بسطة وكذلك اسـتدل على وجود تمثال وأسماء بعض ملوك هـذه العائلة فى جزيرة (ارجو) وفى جهة الكاب بمقـبرة (سبك نخت) على أنهم كانوا حاكمين على الوجه القبلى والنوبة وكان لهم عليها الصولة والقوة حتى وضـعوا فيها تماثيلهم اثباتا لحكمهم وتذكرة بسلطتهم عليها وقـد ذهب بعض أصحاب التاريخ الى أن العمالقة الذين هم الرعاة قد دخلوا ديار مصر فى أيام هذه العائلة ولكن الآثار الدالة على تملك هذه العائلة على جميع ديار مصر والنوبة تكذب هذا المذهـب اهـ

وانقرضت هذه العائلة و بانقراضها قامت بعدها العائلة الرابعة عشرة السخاوية المنسوبة الى مدينة سخا التى هى من بلاد مديرية الغربية الآن

الفصل الثالث

﴿ فى العائلة الرابعة عشرة السخاوية ﴾

كان مبـدأ ملك هذه العائلة سنة ثمان وتسعين وثلثمائة وألفين قبـل الميلاد أى سنة عشرين وثلاثة آلاف قبـل الهجرة وسنو ملكها مائة وأربع وثمانون سـنة وفى رواية

أربعمائة وأربع وثمانون سنة والاول أقرب الى الصواب وعدة ملوكها ستة وسبعون ملكا ولم يذكر مانيطون الكاهن شيأ من أخبارهم ولا تعرض لذكر أسمائهم فحذنا حذوه بقية الكتاب قال صاحب العقد الثمين وكذا لم يبلغنا من غيره يعنى غير مانيطون ولا من الآثار رواية عنهم ولكن بالاطلاع على صحيفة توّرينو وجد مذكورافيها بعد ملوك العائلة السابعة جملة ملوك تنسب لهذه العائلة يعنى الرابعة عشرة المذكورة وجميعها محصورة فى الجد ولبن الاخيرين منها وأكثرها متلاش وهم رع سحب رع . ورع مرزفا . ورع سفنكا . ورع نفارع نخب . ورع أوبن . وسادسهم وسابعهم سقطا من الاصل ثم جاء بعدهما رع نب زفا . ورع أوبن . ورع سفوتوحت . ورع حرحت . ورع نبسنو . وثالث عشرهم ورابع عشرهم ساقطان من الاصل . ثم جاء خامس عشرهم وهو رع ب .... ثم سخبر رع . ورع ددخرو . وسخنكارع . ورع نفر بالى . ورع سخم . ورع كا .... ورع نفرحت . ورع آ .... ورع خمو . ورع نفركا . ورع من . وسابع عشريهم وثامن عشريهم سقطا من الاصل . ثم جاء تاسع عشريهم وهو رع أوسر . ثم رع .... ورع سخم ... ورع سخم س ... ورع سسن . ورع نب أرى . ورع نب أتن . ورع سمن أوسر ... ورع سا أوسرأت . ورع سخم حرو . ومن تاسع ثلاثيهم الى خامس ستيهم ساقط من الاصل . وكذلك سادس ستيهم غير مرقوم . ثم جاء سابع ستيهم وهو رع سنفركا . ثم رع مخرو . ومن تاسع ستيهم الى ثانى سبعيهم ساقط من الاصل . وكذا ثالث سبعيهم غير مرقوم . ثم جاء رابع سبعيهم وهو حاناتحا . ثم (ينرو) خامس سبعيهم وهو آخرهم

قال ماسبرو وكان انقراض هذه العائلة مسببا عن عصيان الرعية وشقهم عصا طاعة اخر ملوكها فذهبت على يد من ظهروا من ملوكها خاملى الذكر اه قال صاحب العقد الثمين ولعل الملك رعنصعو الملقب (عن أب) هو من ملوك هذه العائلة وله آثر فى دار التحف المصرية يدلنا بوجه التقريب على درجة الصناعة فى ذلك العصر اه وقال ماريت ان آثار هذه العائلة توجد بأسيوط اه وبانقراض هذه العائلة قامت بعدها العائلة الخامسة عشرة وارتقت منصة الاحكام

الفصل الرابع

(فى العائلة الخامسة عشرة)

لم يعلم أحد من أهل التاريخ مبدأ ظهور هذه العائلة ولا سنى ملكها ولاعدة من ملك منها بالتحقيق غاية ما جاؤا به أن ملوكها ينقسمون الى قسمين وطنيين وأجانب فالوطنيون لم يعلم

عنهم

عنهم شيئ سوى أنهم كانوا قابضين على زمام الاحكام بالاقاليم القبلية وكانت قاعـدة مملكتهم مدينة طيوه . والاجانب كانوا يعـرفون بالرعاة وبالعمالقة وعدّتهم ستة ملوك وقـد حكموا البلاد وساسوها زهاء مائتى سنة وتسع وأربعين سنة وكانت قاعـدة مملكتهم مدينة أواريس بالاقليم البحرى وأوّل من ملك منهم الملك سلاطيس وهو الذى تسميه العرب الوليد ابن روقع

(فى الملك سلاطيس المعروف عند العرب بالوليد بن روقع)

هو أول ملوك هـذه العائلة وقـد ارتقى منصة الملك بعـد اغارة قومـه على الاقاليم البحرية من ديار مصر وأخذها من الملوك المتأصلين وتحرير الخبر أنه فى نهاية أيام آخر ملوك الدولة الرابعـة عشرة السخاوية جاء الى ديار مصر طوائف مختلفو الاجناس تحت راية الوليد ابن روقع وهو المسمى عند اليونان باسم سلاطيس ونزلوا مصر السـفلى والوسطى وحاربوا من فيهما وتغلبوا عليهم بعد هجمات متتابعة وحروب هائلة وقيل بل بدون كبير معارضة لان أهل البلاد كانوا يومئـذ فى ثورة وخروج وكان هؤلاء الاقوام كثيرين جـدا فانبثوا فى البلاد وعاثوا وأفسدوا وأحرقوا المعابد والهياكل ودمروا الكثير منها ورمم سلاطيس المذكور بناء القلاع والحصون بدلها وأكثر من سـفك الدماء والقتل والسلب فنزح أكثر الاهالى وساروا مع من بقى من بيت الملك المتأصلين الى الاقليم القبلى واستقروا بمدينة طيوه واتخذوها تختا لملكهم فشحن سلاطيس المذكور الاقليم البحرى بالجند والاسلحة ومعدات الحرب تحرزا من هجمات المصريين وجعل مـدينة منف تختا لمملكته ورتب نظام الاحكام وضرب الجـزية على من بقى من المصريين بالاقليم البحرى وانتقل من هذا الحين ملك البلاد الى الرعاة ماعدا الاقاليم القبلية فانها بقيت مستقلة تحت حكم العائلة المتأصلة المصرية فى مدينة طيوة التى هى دار الفراعنة وصار من هـذا اليوم فى ديار مصر مملكتان مملكة الفراعنة ومملكة الرعاة المتغلبين على منفيس قال مانيطون ولما غضب الله على مصر أرسـل اليها من المشرق أمة خبيثة قوية شـديدة البأس فاستولت عليها بلا حرب ولا قتال واسـتعبدت أهلها ورؤساءها وهـدمت معابدها وهياكلها وسبت الاولاد والنساء وملكت عليها ملكا جـديدا من هـذه القبيلة الهكسوسية أقام فى مـدينة منف وهو الملك سلاطيس ومن فرّ منها من أخلاف العائلة الملوكية ذهب الى الصعيد والى ساحل البحر الاحمر وتحصنت هذه القبيلة بالقـلاع والمعاقل والحصون وتمكنت من الاقاليم البحرية والوسطى وفعلوا بأهلها مالا خـير فيه ولم يبق للدولة المصرية المتأصلة الا ملك الصعيد وكانت دار ملكه مدينة طيوه انتهى

ووفد على الملك سلاطيس هذا جموع كثيرة من أهل آسية فاتخذ له منهم عسكرا ليأمن

شر الكنعانيين القاطنين فى بلاد الشام ومن بقى من سلالة الملوك المصريين المتأصلين ومن العراقيين فابتنى القلاع والحصون فى المواقع النافعة وحشد أكثر جنده بجهة مدينة السويس الآن وبنى فى مدينة أواريس معسكرا عظيما وأنشأ حولها الخنادق والحصون وبالغ فى ذلك جدا فهابه المصريون واتسعت كلمته وطارت شهرته وظل يدبر الامور تسع عشرة سنة ثم مات

فقام بالامر بعده الملك (بنون) وقد قضى أكثر سنى ملكه فى قتال ملوك طيوه وإخضاعهم وجعلهم تحت طاعته فلم يفلح ثم مات بعد أن حكم أربعا وأربعين سنة

فقام بالامر بعده الملك (اخناس) فتجرد كذلك لقتال ملوك طيوه وغيرهم من الملوك المتاخمين ومات بعد أن حكم ستا وعشرين سنة وسبعة أشهر

فقام بالامر بعده الملك (آبابى الاول) وكان مغازيا كثير الحروب والقتال مع الملوك المصريين ومات بعد أن حكم احدى وستين سنة

فقام بالامر بعده الملك (يانا) ومات بعد أن حكم خمسين سنة وشهرا ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره شيأ

فقام بالامر بعده الملك (أسس) وهو سادسهم وآخرهم ومات بعد أن حكم تسعا وأربعين سنة وشهرين وانقرضت بموته هذه العائلة كما قاله أهل التاريخ وكانوا كلهم قساة غلاظ القلوب فابغضهم المصريون بغضا عظيما وكرهوهم كرها زائدا . قالوا وأصل هؤلاء الملوك مجهول فمن قائل انهم من العبرانيين ومن قائل بل هم تتار وتركمان وبعضهم يجعلهم صوريين وكنعانيين والاقرب الى الحقيقة انهم من جهة الحجاز وبلاد الشام المتاخمة لديار مصر قال علماء الآثار فقد شوهد من هيئة أشكالهم المرسومة على كثير من الآثار القديمة أن صورهم كلها موسومة بالوشم الازرق وهم متقمصون بجلود الغنم وهذه الاشارات من الأدلة الناطقة بانهم من العرب لا من العبرانيين ولا من غيرهم ولا سيما أن دولتهم فى بلاد مصر كانت تعرف بهيك سوس يعنى الملوك الرعاة قالوا لان لفظة هيك عند قدماء المصريين معناها الملك وسوس معناها الرعاة فاذا زيد عليها واو وقيل سوسو كانت بمعنى العرب وبتطبيق هذا الرسم على ما يوافقه بالقلم البربانى وجدت كلمة (حق شاسو) موافقة له لان معنى حق ملك ومعنى شاسو أيضا البوادى وقال ماسبرو ان معنى شاسو اللصوص من عرب البوادى فسماهم المصريون بهذا الاسم لدناءة أصلهم

وذكر ماريت أن قبائل الهيكسوس كانوا أخلاطا من العرب وأهل الشام وكانت أكبر قبيلة حاكمة عليهم تسمى بالقلم الهرمسى (خيتا) وفى التوراة الحيثيين وفى كتب العرب العمالقة وبعد ان أقاموا فى ديار مصر مدة طويلة مالوا الى حضارة أهلها فتأسوا بهم وغلبت عليهم طباعهم فتركوا الفظاظة والغلظة ومالوا الى محبة الرعية وإحياء ما اندرس من معالم التمدن والعمارية واستخدموا الكثير من كتاب المصريين وتلقبوا بالقاب الفراعنة ودانوا بدينهم وفتحوا المدارس لتهذيب أولادهم واعتنوا بالامن والراحة واختاروا لمصالح دولتهم رجالا

متمكنين من أولى المناصب والرتب العاليـة واتخذوا مـدينة صان تختالهم وقصوا معابدها وأكثروا من الماَثر فيها حتى صارت من أعظم المدن شهرة وتغلبوا على الوجه القبلى ونزعوه من أيدى الملوك المتأصلين واستولوا على كافـة أنحاء مصر القبليـة والبحرية وطالت أيامهم وتعاقبت ملوكهم وعم نفوذهم مشرق البـلاد ومغربها وبانقراض هذه العائلة انتقـل الملك الى العائلة الثانية منهم وهى العائلة السـادسة عشرة المعروفة بالصانية

الفصل الخامس

فى العائلة السادسة عشرة الصانية

كان مبدأ ملك هذه العـائلة سنة أربع عشرة ومائتين وألفين قبل الميلاد أى سـنة ست وثلاثين وثمانمائة وألفين قبـل الهجرة وسنو ملكها خمسمائة واحدى عشرة سـنة وعـدد من ملك منها اثنين وثلاثين ملكا كلهم من الرعاة الذين هم الهيكسوس كما رواه مانيطون ولم يذكر من أسمائهم سوى اسم ملك واحـد وهو (آبابى) وسماه (ابوفيس) وتسميـه العرب الريان ابن الوليد الملقب (رعا كنن)

(فى الملك آبابى أو أبوفيس الملقب رعا كنن)
(الذى تسميه العرب الريان بن الوليد)

قال بعض الكتاب الغـالب أن مانيطون المؤرخ لم يأت بذكر الملك (أبوفيس) هـذا دون من ملك من هذه العائلة الا لشهرة أيامه وأهمية ماوقع فيها من الحوادث والانباء اذ هو الريان بن الوليد الملقب رعا كنن وهوفرعون يوسف عليه السلام وفى أيامه وفدت السيارة التى اشترت يوسف من اخوته بعد اخراجه من الجب فباعه مالك كبـير هـؤلاء السيارة الى وزير مصر قفطير و يسمى بالقلم القديم (بدوفر) ومعناه هدية الشمس فلما اشتراه قفطير أتى به الى بيته وقال لامرأته زعابيل بنت رعابيل أكرمى مثواه فلما رأت حسنه عشقته وأحبته حبا كبيرا وراودته فامتنع وقال لها كيف وزوجـك سيدى وقد أكرم مثواى فـلا يصح لى أن أخونه فكان من أمر سجنـه ماجاءت به الكتب وكانت الحبوس يومئـذ فى الجانب البحرى من سقارة قال صاحب العـقد الثمين ومكانه معروف للآن عنـد أهـل تلك الجهة اهـ

وكان معـه فى السجن فتيان هما ساقى الملك وخبازه وكان من أمر رؤياهما وما قاله لهما يوسف ماجاء فى الكتب المنزلة وبعد مكثه فى السجن بضع سنين رأى فرعون رؤيا هى أن سبع بقرات سمان وسبع بقرات عجاف خرجن من نهر يابس فابتلعت العجاف السمان ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وأفركت وسبعا أخرى يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها فجمع السحرة والكهنة وطلب منهم تفسير هذه الرؤيا فقالوا أضغاث أحلام ومانحن بتأويل الاحلام بعالمين فعند ذلك أخبر الساقى عن يوسف فأرسله الملك اليه فى السجن ففسر له يوسف هذه الرؤيا كما جاءت به الكتب المنزلة فكان ذلك سببا فى خروج يوسف من السجن وجعله الملك (زافنات بنياخ) ومعناه أمين على خزائن الارض فأشار على الملك حينئذ باعمال الخزائن لجعل الطعام فيها بقصله وسنبله وأن يرفع الجس من طعام الناس مدة سبع السنين المخصبة فأمر الملك ففعلوا ماأشار به يوسف فكفى يوسف أهل مصر ومن تاجها مدة السبع سنين المجدبة وفى خلال ذلك جاء بنو يعقوب فى مصر وتعرفوا بأخيهم يوسف وأقاموا نحو أربعين سنة بمدينة تعرف الآن بالسهريج بمديرية الشرقية وقصتهم مذكورة فى التوراة

قالوا وقد استدل جماعة الكتاب على حصول القحط فى أيام يوسف عليه السلام بما عثروا عليه من النقوش على أحد مقابر قرية الكاب لرجل من المصريين اسمه (بابا) ويلقب (آباتا) وهو من أقارب ملوك العائلة الثالثة عشرة وكان معاصرا ليوسف قال صاحب العقد الثمين وتعريبها كنت ذا قلب رؤف لا آلف الغضب واذا أكرمتنى المعبودات بالخير الجزيل فى دار الدنيا وكان أهل بلدى وهى الكاب تهنئنى بالصحة والسلامة وكنت أقتص من المسيئين ورزقت من الاولاد مدة حياتى باثنين وخمسين ولدا صغيرا وكبيرا بين ذكور وإناث وكان لكل واحد منهم سرير وكرسى وسفرة وكانوا يأكلون فى كل يوم مائة وعشرين مدا من القمح والحبوب وكان لهم ثلاث بقرات حلوبة واثنان وخمسون بقرة وثمانية حمير وكانوا يحرقون من البخورماينيف عن الهين[1] ويصرفون من الزيت ملء زجاجتين فان ناقضنى أحد فى قولى وظن أنه أخطأت فأشهد المعبود (مونت) على ماقلته من الحق وانى أحضرت جميع ذلك فى بيتى وكنت أعطى اللبن الرائب فى قدر والبوظة فى قدر طويل ضيق الرأس يعرف بالدلق بمقدار يزيد عن الهين وجمعت قمحا كثيرا محبة للعبود الطيب أى الملك وكنت متيقظا وقت الزراعة فى السنين المخصبة

قال ولما حصل القحط فى كثير من السنين كنت أعطى القمح لاهل المدينة فى كل مجاعة وبهذا يعلم أن تنبه زمن الزراعة وصرفه الغلال للناس وقت المجاعة هو إشارة بلا شبهة الى سنى يوسف المخصبة والمجدبة اه (كما رواه بركش)

١ الهين بكسر الهاء وسكون النون كيل معروف عندهم

وقامت

وقامت فى أيام هـذه العائلة فتنـة دينية بين الملوك وأمراء الاقاليم القبليـة وكبرت واستفحل أمرها ومازالت حتى انسلخ الوجه القبلى عن حكم الرعاة المذكورين وعاد الى حكم ملوك المتأصلين وكان أول من ظهر منهم الملك ﴿ تاعا الاول ﴾ وأسس فى الاقليم القبلى العائلة السابعة عشرة وهى العائلة المتأصلة وكان ذلك فى أيام الملك ﴿ ابابى ﴾ الملقب رعاكنن الذى هوآخر الملوك الرعاة من العائلة السادسة عشرة المذكورة

الفصـــــــل السادس

(فى العائلة السابعـة عشرة)

لم يعلم أحد من أهل التاريخ مبدأ ظهور هـذه العائلة ولا متى ملكها غاية ماجاؤا به عنها ان عدد من ملك منها ستة ولم يأتوا بشئ من أخبارهم لا بالاجمال ولا بالتفصيل . قالوا وفى عصر هـذه العائلة كانت مصر بين حكومتين الاولى فى الاقليم البحرى وجزء من الاقليم القبلى وهذه كانت ملوكها من الرعاة وعددهم ثلاثة وأربعون ملكا لم يعلم اسم أحـد منهم سوى الملك ابابى . رعاكنن . وكانت قاعدة ملكهم مدينة صان والثانية فى الصعيد الاعلى وملوكها من الوطنيين المتأصلين وقاعدة ملكها مدينة طيوه وعددهـم ثلاثة وأربعون ولم يعلم منهـم سوى ستة لاغير وهـم تاعا الاول الملقب رعسـكنن الاول وتاعا الثانى الملقب رعسكنن الثانى وأليسـفر غونوريس وتموزيس وتاعاكن الملقب رعسكنن الثالث وكامس الملقب رعوز خير * ولنتكلم على كل ملك منهم بالتعاقب واحـدا فواحدا وأولهم الملك تاعا الاول

(فى الملك تاعا الاول الملقب)

﴿ رعسكنن الأول ﴾

قال جماعة الكتاب لما ارتقى تاعا الاول منصة الملك نهض الى استخلاص البلاد من أيدى العمالقة والاستبداد بالملك وجيش لذلك جيشا ضخما للغاية وقاتل الرعاة المـذكورين وقام لنصرته الامراء من أهل البلاد الذين هم من أخلاف العائلات الملوكية المتأصلة وأمدوه بالذخيرة والرجال ومازالوا يطاردون الرعاة والحرب بينهم سجال حتى أجلوهم عن مصر الوسطى ودفعوهم الى مدينة منف فأقاموا فيها مااستطاعوا

ولما رأى تاعا الاول من قيـام هؤلاء الامراء لنجـدته واستخلاص الوطن من الاغراب

عينهم نظارا على أقسام مملكته وأباح لهم التلقب بلقب (سوتن) ومعناها ملوكى تعظيما لشأنهم حيث هم من نسل الملوك . وفى أيام الملك اليسفرغموثوريس ركب عليهم أيضا وقاتلهم ليطردهم من البلاد وما زالوا حتى أجلاهم عن منف أيضا فانحازوا بجنودهم الى مدينة أواريس التى بها معسكرهم واستقروا بها حقبة من الدهر آمنين ثم قام عليهم الملك رعسكنن الثالث وقاتلهم وكذلك الملك كامس وغيرهما من ملوك هذه العائلة الذين لم تعلم أسماؤهم لجماعة الكتاب فلم يستطيعوا اخراجهم من أواريس لمنعتها وظلوا حاكمين على أواريس المذكورة وما جاورها من المدن والبلاد حتى تغلب عليهم الملك (أموسيس الاول) رأس العائلة الثامنة عشرة التى قامت بعد هذه العائلة . قال بعض الكتاب ولم يبلغ كره المصريين الرعاة حد ما ذكره بعض أهل التاريخ فقد كانوا فى آخر أيامهم هم والمصريين على وفاق ووئام حيث شيدوا لهم المبانى العظيمة وابتنوا المعابد الكثيرة كما تقدم فمالوا اليهم وأحبوهم وسمى بعض المصريين أولادهم بأسماء الرعاة تفاؤلا وبانقراض هذه العائلة تم انقراض الطبقة الثانية بأسرها فظهرت بعدها الطبقة الثالثة التى هى الطبقة الاخيرة

الباب الثالث

(فى الطبقة الثالثة)

كان ظهور هذه الطبقة سنة ثلاث وسبعمائة وألف قبل الميلاد أى سنة خمس وعشرين وثلثمائة وألفين قبل الهجرة وتبتدئ بالعائلة الثامنة عشرة وتنتهى بالعائلة الحادية والثلاثين التى هى العائلة الفارسية عبارة عن أربع عشرة عائلة وسنو ملكها ألف وثلثمائة واحدى وثلاثون سنة وفى رواية ألف وثمانمائة وست وستون

الفصل الاول

(فى العائلة الثامنة عشرة الطيبية)

كان مبدأ حكم هذه العائلة سنة ثلاث وسبعمائة وألف قبل الميلاد أى سنة خمس وعشرين وثلثمائة وألفين قبل الهجرة وهو مبدأ ظهور الطبقة الثالثة وكان عدد من ملك من هذه العائلة أربعة عشر ملكا وسنو ملكهم مائتى سنة واحدى وأربعين سنة وأولهم الملك أموسيس الاول وتسمى هذه العائلة بالطيبية

فى

(فى الملك أموسيس الاول)

(الذى يقال له)

(أحمس الاول)

كان مبدأ ظهور الملك أموسيس الاول مظهرا لطبقة جديدة وعائلة حازت السودد والفخار وعلو الكلمة فقد انفردت بالشوكة الملكية والسطوة الاهلية وامتدت حدود مملكتها امتدادا سريعا وزادت ثروتها وتكاثرت عماراتها وكان أموسيس المذكور مصاهرا للملك الاثيوبيا بزواج ابنته المسماة (أحمس نفرت آرى) فتعاهد معه على إخراج العمالقة من أرض مصر والنهج على منوال أسلافه من الفراعنة المتأصلين وأخذ فى التأهب والاستعداد وتجييش الجند فلما كانت السنة الخامسة من ملكه سار بجيش عظيم وانضم اليه الامراء المصريون الذين هم من سلالة الملوك المتأصلين حتى نزلوا حول قلعة أواريس وحاصروها برا وبحرا وضيقوا عليها وشددوا حتى فتحوها عنوة وطردوا من كان بها من العمالقة وتبعهم الملك أموسيس بعسكره حتى أدخلهم قلعة (سروحن) فى حدود أرض كنعان وكانت هذه القلعة غاية فى المنعة والضخامة وقد أنشأها العمالقة ليتحصنوا فيها عند الحاجة فحاصرها ثم هجم بجيشه عليها وأخذها وأسر من العمالقة خلقا كثيرا ففر من بقى فتبعهم بعسكره حتى عبروا الفرات فتركهم وعاد منصورا وقد تخلصت البلاد من أيديهم وانفكت من قيود العبودية والاسر بعد أن تسلطوا عليها ستمائة سنة وفى رواية أربعمائة سنة

وبقى من العمالقة قوم فى جوف البلاد فأظهروا الطاعة والخضوع لملك البلاد فأنزلهم على سواحل المنزلة وأقطعهم الاراضى التى كانت بيد أسلافهم ليتعيشوا من غلاتها ولم تستقر به الراحة بعد قتال العمالقة واخراجهم حتى خرج عليه أهل النوبة وعصوا أمره وشقوا عصا طاعته فسار لقتالهم وظهر عليهم وأرجعهم الى الطاعة ولما رأى الايثيوبيون من منزلة زوجة الملك أموسيس عند المصريين واعتبارهم لها وهى من جنس الايثيوبيين خضعوا له وأطاعوه بغير قتال احتراما لقدس زوجته فاتسعت عند ذلك كلمته وعلت على جميع الديار المصرية من الشلالات الى البحر الابيض المتوسط لايعارضه فى حكمه أحد قال بعض الكتاب وقد استمرت نار الحرب والقتال مضطرمة بين ملوك الرعاة والملوك المتأصلين زهاء مائة وخمسين سنة حتى عاد لمصر استقلالها ورجعت مملكتها التى أنشأها أول ملوكها (منا) وكانت فى خلال هذه المدة الطويلة أخذت عماراتها وآثاراتها العظيمة فى التداعى

الى السقوط بل تخرب منها الكثير واضمحل حال الرعية فنهض الملك أموسيس المذكور الى ترميم العمارات وتنظيم الاحكام وترتيب الادارة وعين الامراء الذين ساعدوه على اخراج العمالقة نظارا على أقسام مملكته وأباح لهم التلقب بلقب (سوتن) يعنى ملوكى كما تقدم وفى السنة الثانية والعشرين من حكمه أمر بتشغيل محاجر طرا وفرض على أسارى العمالقة نقل الحجارة منها ووكل بهم رجالا لترميم معبد (بتاح) بمدينة منف ومعبد (أمون) بالكرنك ولانشاء معابد أخرى جديدة فعاد الى البلاد رونقها القديم وبهجتها الاصلية وأحبته الرعية حبا كبيرا وبالغوا فى تعظيمه وقد أمر بمعسكر أواريس الذى كان للعمالقة فهدم وأنشأ محله قلعة تسمى (تاسال) لتكون حائلا بين اغارات أهل آسية وبين بلاد مصر وهجر مدينة صان حيث كانت تحت حكم العمالقة وتركها على حالة ماأصبحت عليه بعد الحرب الاخيرة حتى كاد اسمها يمحى من كتب التاريخ * ثم مات أموسيس المذكور بعد أن حكم خمسا وعشرين سنة وهو المعروف فى جدول الآثار القديمة (باحمس الاول) فقام بالامر بعده الملك أمنحوتب الملقب رعركا

(فى الملك أمنحوتب الاول)

تولى الملك بعد موت أبيه ولعدم بلوغه سن الرشد قامت أمه (احمس نفرت آرى) بدلا عنه بمهام المملكة وما زالت حتى بلغ رشده فقام بالامر ونهض الى تعزيز مصر من الجانب القبلى وكذلك فعل بالجانب البحرى حتى صار حصينا لايمكن وصول العدو منه الى ديار مصر وكانت له عدة وقائع حربية فى الصعيد الأعلى تشهد بها النقوش المنقوشة على أحجار الكاب المنسوبة الى احمس رئيس الملاحين قال صاحب العقد الثمين منها مامعناه انى أحضرت سفينة الملك امنحوتب حين جهز تجريدة لقتال الايتيوبيين لتوسيع حدود مصر هنالك فانتشب بينهم الحرب وأسر الملك رئيس سكان جبل النوبة من بين رجاله وكنت أنا فى مقدمة فرساننا وقاتلت قتالا شديدا حتى شاهد منى الملك البسالة والشجاعة وقتلت رجلين من العدو وقطعت أيديهما وقدمتهما لجلالته ثم أسرت رجلا وأحضرته له وصرت أبحث عن أهله ومواشيه وبعد هذه الغزوة صحبت جلالته راجعين الى مصر فى يومين وكان قيامنا من جهة البئر الأعلى فأحسن الىّ بعقد من ذهب وكنت غنمت جاريتين غير الجوارى اللاتى أحضرتهن له ولذلك لقبت بفارس الملك اه

ووجد أيضا بجهة الكاب نقوش لرجل مصرى يدعى (احمس بن سوتب) تفيد أن هذا الملك تقاتل مع أهل الايتيوبيا ومع الجهة المسماة (امكاحك) التى فى الجانب الشرقى من مصر

وقد

وقد أصلح ماتهـدم من قسم طيبة وهيكل أمون ولذا نرى اسمه منقوشا على طوبها وحجارتها وملك مصرمع جميع ملحقاتها ولما وطد دعائم الراحة تزوج بالملكة (أحمس حتب) وأقام معها فى أرغـد عيش وأتم راحة واتخـذه أهل مصر بعـد موته مقـدسا وجعلوا له كهنة مخصوصين لعبادته لما شاهدوه من الراحة فى زمن حكمه

قال صاحب العـقد الثمين وجثته بدار التحف المصرية طولها متر واحـد وخمسة عشر سنتيترا وهى محفوظة فى تابوتها ومـدرجة فى أقمشة بنيـة اللون وفوقها أكاليل من أزهار البشنين والبردى وغيرهما اه

ومات امنحوتب المذكور بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة فقام بالامر بعده الملك تحوتمس الاول الملقب رعا خبركا

(ش الملك تحوتمس الاول)

(ويسمى أيضا)

(توتومس الاول)

قال صاحب العقد الثمين هذا الاسم مركب من كلمتين احداهما تحوت ومعناها هرمس والثانية مس ومعناها ابن ثم صارا علما على هذا الملك

وقال غيره من الكتاب ان اسمه مركب من كلمتين احداهما توت ومعناهـا هارب ومس أوموسيس ومعناهـا ابن ثم صارا علما وكان ملكا عظيـم البأس كثير الحـروب قاتل الاتيوبيا جنوبا وانتصر عليهـم ونقش نصراته على بعض الالواح الحجرية فى مـدينة كرمان إزاء جزيرة أونبو وأعظم نقش فيها مانقشه بالجزيرة المذكورة فى الســنة الخامسة من حكمه حيث يذكر فيه وقائعه الحربية وأسماء الامم التى دخلت تحت طاعتـه ووضعت له الجزية وامتـدت حكومته إلى محاجر مدينة أونبو من النوبة وقد وجد اسمه منقوشا على حجر هناك ووجد أيضا نقوش أخرى بجهة أسوان مؤرخة فى السنة الاولى من ملكه تدل على نصرته على بلاد النوبة وتغلبه على أهلها واتسعت فى أيامه حـدود مصر وامتدت من الجنوب الى جبل (أبتا) بأرض الحبشة ومن الشمال الى آخر أماكن أهل آسية وكانت بلاد الايتيوبيا منبع ثروة ديار مصر حيث كانت تأتى منها البضائع والارزاق على المراكب بالنيل من الحبوب والجلود والعاج والاخشاب والحجارة النفيسة والحيوانات والمعادن من الذهب وكان المصريون يستخرجونه من تلك الاصقاع بواسطة الاسرى والعبيد وكان هـذا المعدن يسمى عندهـم (نب) قال صاحب العقد الثمين فاشتق من هذا الاسم كلمة النوبة المعلومة الآن

وقاتل هذا الملك النوبيين وأدخلهم تحت طاعته ثم أقام عليهم أمراء ليحسنوا تدبير البلاد وسياسة أمورها وكان يلقب كل أميرمنهم بلقب (الامير الملوكى لبلاد الايتيوبيا) ولما تم له الامر بجهة الجنوب واتسعت مملكته وعلت كلمته سار بجيش عظيم نحو الشمال وقاتل سكان وراء فلسطين وأرض كنعان بالسهول الواقعة بين دجلة والفرات وهم الطوائف المعروفون فى النقوش القديمة باسم (روتنو) وكانت هذه الطوائف لاحاكم لها ولا سلطان يرجعون فى أمورهم اليه وكانوا يقطنون بلاد الجزيرة التى بين دجلة والفرات ومنها مدينة بابل ومدينة نينوى وبلاد الكرد وكانت تأتى اليها التجارة من مصر الى (رافيا) التى كانت مأهولة يومئذ بالعمالقة ثم الى فلسطين ومنها يعبر نهر الفرات فينتهى الى الجزيرة المذكورة وكان هذا الملك عظيم القدر عالى الهمة موفقا فى جميع أعماله

قال بعض الكتاب وهو الذى بيع يوسف بن يعقوب عليهما السلام الى وزير مصر فى أيامه على ماقيل واشتهر وفسرله أحلامه المذكورة فى الكتب (قلت) وقد اختلف أصحاب التاريخ من جهة شخص فرعون يوسف من هو من الفراعنة فزعم البعض أنه من ملوك العائلة الثانية عشرة وهذا بعيد وزعم البعض الآخر أنه كان من الملوك الرعاة الذين تغلبوا على مصر واسمه الوليد المعروف عند اليونان باسم (أبوفاس) وقد تقدم بيان ذلك فى محله وقال أحد المتأخرين من أهل التاريخ المحققين ان هذا الزعم غير صحيح لتقادم عهد تلك المدة (قلت) والاصح ان دخول يوسف الى مصر كان بعد انقراض دولة الرعاة كما قال مانيطون المؤرخ المصرى فانه لما تكلم على مدينة منف التى هى منفيس قال وعاش بها يوسف وتسلط على جميع البلاد فى زمن أقدر وأعظم فراعنة المملكة الجديدة التى قامت بعد نفى الرعاة وخروجهم من أرض مصر الى أرض كنعان وهى الدولة الثامنة عشرة المتأصلة التى قامت بمدينة طيبة ويؤيد صحة هذا القول ماجاء فى التوراة من قول يوسف لاخوته عند نزولهم عليه بارض مصر * يكون اذا دعاكم فرعون وقال ماصناعتكم أن تقولوا عبيدك من أصحاب الماشية منذ صبانا الى الآن نحن واباؤنا جميعا حتى تسكنوا أرض جاسان لأن كل راعى غنم رجس عند المصريين . ويستدل من الآثار أن تحوتمس هذا تزوج باخته المسماة احمس ويقال انها ملكت مصر بعده ولذا يظن أن اسم أميسيس الوارد فى جدول مانيطون المؤرخ بعد اسم الملك المذكور هواسم هذه الملكة

ومات تحوتمس الاول المذكور بعد أن حكم عشرين سنة وحسبها بعضهم احدى وعشرين سنة وقد عبده المصريون وعبدوا أخته بعد موتهما وجعلوهما فى مصاف المقدسين وبموته قام بالامر بعده تحوتمس أو توتميس الثانى

(فى الملك توتميس الثانى)

لما ارتقى توتومس الثانى سرير الملك عمد الى تعمير الهياكل والمعابد ثم أرسل جيوشه الى الشام والابتيو بيا ليأخذوا له البيعة من أهلها فبايعوه وكانت السودان قائمة على قدم القتال من عهد الملك توتومس الاول فحاربهم توتومس الثانى هذا وقاتلهم قتالا شديدا حتى أدخلهم تحت نير الطاعة وصير بلادهم جميعا الى حدود الحبشة ولاية تحت حكمه بعد أن كانت مستقلة وأقام عليها العمال من قومه من ذوى الرتب العالية وسماهم (ولاة الديار الجنوبية من قبل المملكة المصرية) كما فعل أسلافه من قبل ثم اعتبر هذا اللقب رتبة عالية فكان ينعم به على من يستحق حكم تلك البلاد ولو كان قاصر القصد الشرف والاعتبار وكان اذا أحسن به على من لم يبلغ رشده أقام له رئيسا يحكم بالنيابة عنه الى أن يتم رشده فيتولى الحكم بنفسه : ومات هذا الملك بعد أن حكم ثلاثين سنة وبضعة أشهر ولم يعقب نسلا فتولى الملك بعده أخوه توتومس الثالث ولاية اسمية حيث كان قاصرا فقامت أخته بالامر بالنيابة عنه حتى يبلغ الرشد وهى الملكة حعتشبسو الملقبة رمكا

(فى الملكة حعتشبسو)

(وتسمى أيضا)

(رمكا)

هى ابنة توتومس الاول وأخت توتومس الثانى المتقدم الذكر قال أصحاب التاريخ ولما كان لها حق الحكم على البلاد بالوراثة عن أمها (احمس) وجدتها (احمس نفرت آرى) أشركها أبوها توتومس الاول معه فى آخر أيامه فى حكم البلاد فلما مات والدها ظهرت وعلت كلمتها وعظمت شوكتها أيضا فى أيام أخيها توتومس الثانى و زادت بتوليتها النيابة عن أخيها توتومس الثالث واعتبرها المصريون الوارثة الحقيقية لكرسى الملك فلما دانت لها الامور تزوجت بزوج اسمه توتومس ومات فتزوجت بآخر اسمه (امتطه) و ولدت من الاول ولدها المسمى توتومس وكانت عالية الهمة فنهضت لتشييد المبانى العظيمة والهياكل الكبيرة وسمتها باسمها ورتبت لها القرابين وأحسنت التدبير جدا وحافظت على البلاد وأخذت الجزية من طوائف (الروتنو) سكان سوريا الشمالية وكانت عظيمة القدر مهيبة فرسمت نفسها فى الآثار على هيئة رجل له لحية ملوكية وكانت متسلطة على بلاد الشام والابتيو بيا وعزمت على أخذ بلاد (بون) وبلاد (توترو). قال صاحب العقد الثمين . ومعنى أسماء هذه البلاد الاراضى المقدسة وموضعها فى جنوب بلاد العرب من جهة الهند وهى متاخمة بلاد البون وكانت مركز التجارة للشرق عموما ولمصر خصوصا وكانت بضائعها ترد الى مصر على طريق قفط اه وكانت تريد بذلك توسعة ملكها بتلك البلاد الشهيرة بالاخشاب النفيسة والصمغ

والعطريات والذهب والفضة واللازورد والحجارة النفيسة وجميع التجارات العظيمة التى تحتاجها مصر لاشغال الهياكل والمعبودات وغيرها وأنشأت فى البحر الاحمر عمارة حربية وسافرت فيها بنفسها لتقود عسكرها وتقاتل بلاد (البون) المذكورة فلما نزلت عليها طلب أهلها الامان فأمنتهم فسلموا بلا حرب ولاقتال وعدلت عن المسير لقتال أهالى الاراضى المقدسة بعدأن رأت من استسلام أهالى (البون) مارأته ثم رجعت الى مصر وأمرت برسم صورة تلك الواقعة وتحريرها على جدران حجرتين فى الدير البحرى وفى أحد جوانب هاتين الحجرتين مايدل على أن قائد جيوش الاعداء يمثل بجيشه مع التضرع والخشوع أمام قائد جيوش هذه الملكة المتوج بالنصر والغلبة وترى صفة قائد جيوش الاعداء أنه أغبر اللون له ضفائر من الشعر مستطيلة على ظهره مجردا من السلاح ومن خلفه زوجته وابنته فى صورة شنيعة وحالة فظيعة ينفر منها الناظر قال صاحب العقد الثمين ورسمهما موجود فى متحف بولاق فاذا نظرت اليهما وجدت نوع استرخاء فى أعضائهما وورماق أفخاذهما يدل ذلك على أن فى جسمهما مرضا وتشاهد فى الجانب الآخر من الحجرتين المذكورتين رسومات ثانية بها أشكال السفن الحربية المصرية يشحنها رجال من الاعداء المنقادين بالحيوانات الغريبة كالزرافات والقردة والنمور وفى جهة أخرى ترى أنواع الاسلحة وسبائك النحاس وحلق الذهب وفى أخرى حمل الصناديق من أصناف الاشجار العطرية المضمخ أسفلها بالطين وقدرها اثنتان وثلاثون شجرة لغرسها فى بساتينها بطيبة وصورة السفن مخضمة يظهر عليها متانة التركيب ذات شراع ومجاذيف وعلى سطحها طوائف البحرية ويوجد تماثيل أخر عليها أشكال العساكر المصرية راجعة من الغزو كأنها تسرع فى المشى وتدخل مدينة طيبة بدلائل النصرة مسلحة برماح أوبلط فى الميامن وفى المياسر قابضة سعف النخل علامة النصر والغلبة وأمامهم الطبول والمزامير وكأنهم يضربون النوبة الحربية وبجانبهم الضباط حاملين على أكتافهم الاعلام والرايات الوطنية مكتوبا عليها اسم الملكة (حتشبسو) الوصية على الملك (توتميس الثالث) اه

وقد فعلت هذه الملكة من جليل المآثر وعظيم المفاخر ماأعلى قدرها وحفظ بين هذه العائلة ذكرها واستبدت بالتصرف مدة سبع عشرة سنة ومع بلوغ أخيها سن الرشاد وتصرفه فى الامور فقد كانت هى صاحبة الحل والعقد الى ان ماتت فاستبد أخوها توتميس الثالث المذكور بالملك

(فى الملك توتميس الثالث)

لما استقر بالمنصب واستبد بالحكم بعد موت أخته حتشبسو عمد الى ابادة ذكر أخته

بجمو

بمحو اسمها الذى كانت نقشته على ماشيدته من المبانى العظيمة والمـآثر الجسيمة المرسوم عليها صور وقائعها الحربية ونقش اسمه عليها بدل اسمها ليمحى خبرها ويطفئ سراج مجدها الذى دلت عليه فعالها انتقاما منها على ماصنعته به من اغتصاب الملك والتصرف فى الامور بعد بلوغه سن الرشد ولم يمض على استقلاله بالملك الا القليل حتى خرجت عليه طوائف (الروتنو) وامتنعت من دفع الجزية واقتدى بها سكان جميع الجهات المجاورة لها ثم خرجت كذلك جميع الايالات التى كانت لمصر فى اسيـة ولم يبق منها سوى غزة وماتاخمها من البلدان فركب الملك تونميس عليهم بجيوش عظيمة وهزمهم شر هزيمـة ونقش وقائع حروبه معهم على جـدران هيكل الكرنك

قال صاحب العقد الثمين ماحاصـله فى شهر برموده سـنة اثنتين وعشرين من حكم الملك تحوتمس الثالث يعنى تونميس توجه هذا الملك الى مدينة غزة وعمل فيها عيد ولايته ثم أخذ فى المسير منها الى مدينة (يوحم) فوصل الى ضواحيها فى عشرة أيام ونزل بعسكره هنالك وانتظر استكشاف طلائعـه لينظم جيشه على حسب أخبارهم ففى اليوم السادس عشر من الشهر المذكور أخبرته طلائعه أن الاقوام المتصالفين تحت قيادة أمير كدش قد عسكروا بالقرب من قلعة مجـدو فى مضيق كرمل وانتشرت قوتهم فى طريق لبنان فعند ذلك أشار عليه بعض قواد جنوده بالتوجه اليهم من طريق أتونا ليكون الهجوم على الاعداء من خلفهم وكانت هذه الطريق موصـلة الى سهل (بزرل) الواقع بين مدينة مجدو وجبل تابور فلم يقبل الملك منهم ذلك خوفا من عدم نجاح هذا المشروع وسار بجيشه مسرعا الى (آلون) فوصل الى ضواحيها فى ثلاثة أيام وكانت تلك الجهات خالية من الاعداء ومن الحصون لعدم الاعتناء بها فشغلها الملك بجزء من عسكره وفى صبيحة عشرين من الشهر اجتاز المضيـق الآنف الذكر من دون معارضة وانتظر فى سفح الجبـل من جهة الشمـال مؤخر جيشه فلما اجتمع جيشه فى السـاعة السـابعة من اليوم المذكور نشره فى السهل على شاطئ نهر (كينا) تجاه معسكر الاعداء من غير أن يبرز للقتال وفى صبيحة الحادى والعشرين من الشهر نظم جيشه للقتال والهجوم وجعـل الميمنة فى حصن حصين هنالك وادى (كينا) والميسرة ممتدة فى السهل الى الشمـال الغربى من مجدو وأقام هو فى القلب ثم هجمت الجيوش المصرية على أهل الشام هجوما فظيعا أوقع الرعب الشديد فى قلوبهم فتشتتوا وتركوا عرباتهم وخيولهم وولوا الادبار مسرعين فى فرارهم الى مجدو فلما رآهم حراس هـذه المدينـة أغلقوا الابواب دونهـم خوفا من دخول الجيوش المصرية فى أثرهم ولذلك لم يتمكن أحـدهم من دخول المدينـة سوى من تسور الجـدران من القواد على الاحجار

وأما باقى الجيش فانه تشتت داخـل الجبل وتخلص من سفك الدم والذى قتـل منهـم ثلاثة وثمانون مقاتلا وأسر نحو ثلثمائة وأربعين رجلا وغنم المصريون فى ساحة القتال مائتى

ألف واثنين وثلاثين حصانا (كذا) وتسعمائة وأربعا وتسعين عربة وغير ذلك من الاشياء التي تركها أهل الشام وقت هزيمتهم ثم توجه الجيش المصرى منصورا الى مجدو وهي وقتئذ أعظم من ألف مدينة فلم تثبت في صف القتال الا أياما ثم سلمت للمصريين وبفتحها انتهت الحرب وأطاعه رؤساء الشام والجزيرة والكردو بادر الجميع بدفع الجزية واظهار الانقياد والتعظيم للملك المنصور تحوتمس الثالث اهـ

ثم عاد أمير الشام الى العصيان ثانية وخرج عن طاعة الملك توتمس الثالث المذكور وهيج عليه سكان شمال سوريا فركب عليهم توتمس وحاربهم وتغلب على مدينة تونب وحلب وارواد وذلك في السنة التاسعة والعشرين من ملكه وهجم في السنة المتممة للثلاثين على مدينة كدش فتملكها وأخذ جميع مافيها من الاموال ودمر الاسوار ودكها دكا وسار منها الى مدينتي صميرة وارواد فظفر بهما أيضا وانتصر على الخوارج ثم عفا عن زعماء العصاة وأبقاهم في مناصبهم وأخذ أولادهم واخوتهم الى مصر رهينة فكان اذا توفى أحد من هؤلاء الرؤساء أرسل واحدا من المرهونين ليتولى بدله

وفي السنة الثالثة والثلاثين من ملكه عبر الفرات وسار الى الجزيرة التي بين دجلة والفرات في الجهة التي نصب فيها توتمس الاول الحجر الشاهد على نصرته وتغلبه على بلاد الارمن وادخالهم تحت طاعته ثم عبر نهر الخابور الى دجلة وسار حتى وصل الى نينوى بالعراق فخرج اليه رئيس العراق وتلقاه بالبشر والقبول وسلم اليه وأطاعه فأقره على منصبه وأباح لعسكره صيد ما في تلك الاصقاع من وحوش البر فاصطادوا منها مائة وعشرين فيلا وأتوا له بجلودها وماغنموه من تلك الغزوات ثم سار الى مصر فكان اذا مر بمدينة أو قرية تخرج له أهلها بالجزية والهدايا النفيسة وتلقوه بالفرح والقبول فظن أن قد تم له الامر وخضعت جميع آسية اليه ولم يبق لمن يعارضه في ذلك

فلما كانت سنة أربع وثلاثين من ملكه عادت بلاد آسية الى شق عصا الطاعة وخرج كذلك في سنة خمس سكان الجزيرة وفعل كذلك أهل كدش وغيرها من البلاد المجاورة لها فركب عليهم وقاتلهم جميعا وما زال حتى أخضعهم وانتصر عليهم نصرا مؤزرا ولم يكد يرجع من غزوة آسية واخضاع أهلها حتى قام عليه الزنوج والعبيد القاطنون على شاطئ النيل الاعلى فسار اليهم فلما أحسوا بقدومه تركوا أوطانهم وهربوا الى الجبال فأمر فنهبت مواشيهم وجميع أموالهم من الذهب والاواني المعدنية والريش وغير ذلك وهدموا مساكنهم وأحرقوها ثم عاد بجيشه والنصر يتقدمه فكانت أيامه كلها حروبا وشدائد

ومات توتمس الثالث المذكور في الثلاثين من شهر برمهات سنة أربع وخمسين من حكمه بعد أن قهر بلاد الحبشة والنوبة والسودان والشام والجزيرة وبلاد العراق الغربي وكردستان وجزيرة قبرص وأخذ منها جميعها الجزية صاغرة وهو من أشهر ملوك هذه الدولة

الثامنة

الثامنة عشرة التى هى رأس الطبقة الثالثة من طبقات ملوك مصر كما تقدم حسب ترتيب جماعة المؤرخين من المتقدمين والمتأخرين وكانت مدة حكمه خمسا وعشرين سنة وبعض أشهر وفى رواية ثمانا وأربعين سنة فانتقل الملك بعده الى حفيده أمنوفيس الثانى الملقب رعا خبرو ويسمى أيضا امنصب الثانى

(فى الملك أمنوفيس الثانى)

ارتقى أمنوفيس الثانى هذا سرير الملك والبلاد امنة مطمئنة لامهدد لسطوتها ولا موقف من الامم لنفوذ كلمتها فزاد فى نفوذها واعلاء كلمتها وتقوية شوكتها وأخذ فى تتميم مانوى سلفه على فعله من بناء العمائر العظيمة والمبانى المشيدة فى النوبة وبلاد الكنوز وابريم ولم يتمها وكانت فى أيامه الراحة ضاربة أطنابها فى جميع انحاء البلاد والرعية فى خوف من شدة بأسه وجبروته لم تجسر على الخروج ولا شق عصا الطاعة مدة ثم هب الآشوريون بعد ذلك من سنة الحول وعمدوا الى شق عصا طاعته والاستقلال بحكم أنفسهم فلما آنس منهم ذلك وأحس بما وراءه من الخوف على بقية الايالات الداخلة تحت سلطانه جيش جيشا عظيما وركب لقتالهم فاجتاز الفرات ونهر ارسانت وأرسل طليعة من عساكر الشام يستكشفون أحوال الآشوريين فى مدينة (اثات) ثم سار لقتالهم وضيق عليهم حتى انتصرت عساكره ثم سار منها الى الجزيرة ووقعت الهدنة بينه وبين أهلها الى شهر أبيب فقضى الشتاء فيها وذلك فى السنة الثانية من حكمه فلما كان العاشر من شهر أبيب سار الى نينوى فلاقاه أهلها واستسلموا له بغير قتال فنزل بدجلة وسار الى مدينة (اكاد) وغلب عليها وكانت هذه الغزوة آخر الحرب مع الآشوريين ثم عاد فى السنة الثالثة من حكمه بطريق البحر وكان فى مقدم سفينته سبعة قتلى من رؤساء مدينة (تاخيس) قد قتلهم بيده فى معمعة الحرب فلما دخل مصر أمر فعلقوا ستة منهم على سور مدينة ثيبة وقد قطعوا أيديهم وعلقوها أيضا بجانبهم ونقلوا سابعهم الى النوبة فعلقوه فى مدينة (نبتا) ليكون عبرة لاهالى تلك الاصقاع . وحكم هذا الملك خمسا وعشرين سنة وقيل لم يحكم الا عشر سنين وعشرة أشهر وكان جليل القدر فلما مات تولى بعده الملك توتميس الرابع الملقب رعمنخبرو وهو ابن أمنوفيس الثانى

(فى الملك توتميس الرابع)

تولى هذا الملك بعد أبيه أمنوفيس الثانى وعكف على بناء الهياكل وتشييد المبانى

العظيمة وحافظ على بقاء مصر على ماوجدها عليه من رفعة الشأن واتساع الكلمة وحارب الايثيوبيين فى السنة السابعة من حكمه وأخضع الشام لخروج أهلها عن طاعته وحصن مصر وجعلها فى منعة على القبائل العاصية جهة لوبية وبلاد برقة . قال صاحب العقد الثمين . ثم عكف على عبادة الشمس كما ورد فى الاسانيد الاثرية على جدران معبد أمدا بالنوبة واحترم أبا الهول القائم بين الهرمين بالجيزة حيث كان السر فى وضعه الاصلى رمزا عن الشمس المشرقة التى كان يتصف بها كل حاكم حائز لكافة الاوصاف الفرعونية لكونه بهذه الاوصاف يكون نائبا فى الارض عن الشمس المعبودة لهم قال ويشاهد فى صدر أبى الهول حجر ارتفاعه أربع عشرة قدما انكليزية قد علته الرمال وأعلاه صورة الملك تحوتمس الرابع مرسومة جهة اليمين على هيئة انها تعبد أبا الهول وعلى يسارها رسم الشمس ثم يلى ذلك نقوش مؤرخة فى اليوم التاسع عشر من شهر هاتور من السنة الاولى من حكم هذا الملك تفيد أنه لم يوفر أشياء لتحصين مدينتى منف والمطرية ولاعطاء المرتبات المقررة للعابد ولانشاء الهياكل واعمال التماثيل للمعبودات وانما تصفه بالقوة والشوكة بين الدول قال ومن أجل عبارات هذا الحجر خطاب منصوص فى آخره عن لسان أبى الهول يخاطب به الملك ويقول له

أكلمك بنفسى كما يكلم الأب ابنه فانظرنى وسرح الطرف نحوى يا تحوتمس ياولدى أنا أبوك (حورمخى خبرع توم) أى الشمس المشرقة الموجودة الكاملة . أعدك بأن تملك سائر الارض فى طولها والعرض وأن تعطيك الامم جزياتها العديدة وبطول عمرك سنين مديدة اهـ

وحكم هذا الملك تسع سنين وثمانية أشهر ومات فتولى الملك بعده ابنه أمنوفيس الثالث الذى رزق به من زوجته موت أموا ويسمى أيضا امنحتب الثالث ويلقب رعماتب

(فى الملك أمنوفيس الثالث)

لما تولى هذا الملك واستقر به المنصب بسط يده على جميع حدود المملكة التى كانت تمتد يومئذ شمالا الى نهر الفرات وجنوبا إلى دجلة وكان جليل القدر له شهرة عظيمة فى الاقطار الغربية وكان اليونان يسمونه (الممنون) وقيل انه لم يكن من جنس المصريين ولكنه اغتصب المملكة وتسلط عليها بمداخلته مع أحد الفراعنة بالزيجه ويستدل على صحة ذلك بانفراد قبره الذى فى مدينة ثيبة عن قبور باقى الفراعنة ويحكى أن ولادته وتربيته وشؤنه كانت عجيبة ومرسومة فى آثار مبانى لقصر و . تحرر الخبر أن رئيس الكهنة بشر أمه بحمله فأحست بذلك عن قرب فلما وضعته بشرها أيضا بعظم شأنه واتساع كلمته وأن يكون له ملك عظيم

لم

لم يسبق لمثله ويملك مابين الخافقين شرقا وغربا وشمالا وجنوبا فتم جميع ماقاله الكاهن وقد شيد المباني العظيمة والهياكل بلقصر وبيبان الملوك وغزا الغزوات الكثيرة بالنوبة والسودان وانتصر فيها فادّعى لنفسه الالوهية ولقب نفسه (هودوس) يعنى شمس الربيع وكذلك سمى نفسه ملك القطرين وصاحب المصرين ومولى الخافقين وكان يعنى بالقطرين الاقليمين البحرى والقبلى وبالمصرين منف وثيبة وبالخافقين المشرق والمغرب يعنى آسية وافريقة وكان مهيبا حسن السياسة بعيد النظر فى الامور فامتدت مملكته من الجزيرة الى قلب الحبشة وملأ جوانب النيل بالآثار العجيبة والرسوم الغريبة والهياكل والمعابد فمنها هيكل جبل البركل وهيكل الشلال الثالث وغيرهما من الآثار الاخرى بجزيرة أسوان وجبل السلسلة وطرا ومنف وجزيرة الطور قال صاحب العقد الثمين ونقش تاريخ غزواته على تاج هيكل لقصر الذى جدد فيه جزأ عظيما فقال مامعناه

أنا الملك المنصور الاكبر والليث الشديد الغضنفر أنا الذى دوخت بالسيف طوائف المتوحشين وملكت بلادهم وفرقت شملهم وأبدتهم أنا ملك القطرين وولى أمر المصرين والسيد المالك المطلق التصرف وابن الشمس ضارب رقاب الولاة الكبار ورؤساء الاقوام فى الاقطار لابلدة من البلدان تقاومنى ولا دولة من الدول تصادمنى بل سرت فى سائر الاقطار جامعا شمل الانتصار كالمعبود حوريس ابن المعبودة ازيس وكالشمس فى كبد السماء أضرب قلاعهم وأدمر حصونهم كيف لا وقد قهرت جميع الملل وألزمت كافة الدول بتأدية الجزية لديار مصر ألست بسلطان البرين وأمير العالمين ومن سلالة الشمس اهـ

ويقال انه هو الذى أنشأ على ميسرة النيل تجاه ناحية لقصر معبدا من أعظم الآثار المصرية القديمة وقد تخرب الآن ولم يبق منه الا الصورتان الموجودتان به المسماتان الآن بالصنمات وهما صورة الملك امنوفيس الثالث المذكور ويقال لهما أيضا شامة وطامة وكان فى الزمن الاول لم يلتفت الى هذه الصورة أحد فحصلت زلزلة فى سنة سبع وعشرين قبل الميلاد المسيحى فأسقطت جزء أحد التمثالين المذكورين وبقيت قاعدته قائمة فى محلها وقد شوهد أن هذه القاعدة متى سقط عليها الندى وقت الصباح سمع منها صوت مستطيل عند شروق الشمس فكان يعجب من ذلك أرباب السياحة من اليونان والرومان واعتقدوا أن صورة الملك امنوفيس الثالث المذكور هى صورة شمسون أحد أرباب الايتيوبيين ابن تيتون وأمه (أورور) وهو الذى أعان (بريام) على ارغام أنوف اليونان وانه يشير بالتحية عند طلوع الشمس الى أمه (أورور) أى الفجر ويودعه قال بعض المتأخرين ان هذا الصوت كان من أثر الندى وتأثير الشمس على الحجر فهى خاصية طبيعية وكان هذا الملك متزوجا بامرأة أجنبية من بيت الملك تدعى (تابى) ورزق منها بولد اسمه امنوفيس الرابع ويقال انه خلف عدة أولاد تولى منهم بعده ملك مصر ابنه حوروس وقد كان تناوب كرسى المملكة المصرية من غير بيت الملك عدة ملوك



قد حسبوهم فى عداد ملوك الدولة الثامنة عشرة ولكنهم كانوا خاملى الذكر ليس لهم من الآثار مايذكر قالوا فلما تولى هوروس ابن أمنوفيس الثالث المذكور رجع به المنصب الملوكى الى أهله من بيت الدولة الثامنة عشرة وكانت مدة حكم امنوفيس الثالث المذكور ستا وثلاثين سنة وخمسة أشهر فقام بالامر بعده الملك أمنوفيس الرابع الملقب رع نفروخون آتن

(فى الملك امنوفيس الرابع)

كان هذا الملك قبل ولية الملك كاهنا للشمس فلما آل اليه الملك بالوراثة عن أبيه امنوفيس الثالث أمر الناس بعبادتها ونهاهم من عبادة بقية المعبودات وغير اسمه لما فيه من ذكر أمون لبغضه له وسمى نفسه (خون آتن) يعنى نور قرص الشمس وأمر فمحوا جميع أسماء أجداده وأقاربه التى وجد فيها اسم أمون وحافظ كثيرا على كل ما كان فيه اسم الشمس محبة فيها واحتراما لها قال صاحب العقد الثمين وقد أمر بتخطيط مدينة جديدة بمحل تل العمارنة قرب منية الصعيد لتكون تختا جديدا للدولة المصرية بدل مدينة طيبة التى هى مقر المعبود آمون ونقل فى مدينته المستحدثة تمثال قرص الشمس وسماه (آتن) موافقة لاسم معبود اليهود أدونوس أو ادوناى وبكشف أرض تلك المدينة ظهر أنها كانت كثيرة الاماكن والشوارع المنتظمة منها آثار معبد الشمس المشتمل على دهليزين وعلى ستة عمد مدرجة الوضع كانت منصوبة فى وسط هذا المعبد وشوهد أيضا على جدرانه رسم الشمس مشرقة فوق الملك ورجاله وهم وقوف يقدمون القرابين اليها ولها أشعة ذات أيد كأنها تنشر الحياة على المخلوقات وحول ذلك أدعية وقصائد يتلوها المرتلون مصحوبة بنغمات الاوتار ومعهم مغانية تدعى (سترو) تقول مدحة لقرص الشمس مطلعها

لك الثنا ياصاحب الاعوام * ياموجد الشهور والايام

يامعدد الساعات * فى سائر الاوقات

وقد كان شديد المحافظة على حدود مملكته كثير العناية بأمرها فكان الايتيوبيون وأهل الشام والولايات الشرقية وجزائر البحر الابيض يدفعون له الجزية صاغرين وكان ملكا مهيبا موفقا فى الحروب والغزوات ومات عن سبع بنات ولم يعقب ذكرا يتولى الملك بعده قال صاحب العقد الثمين ولذا انتقل الملك بعد وفاته الى خمسة رجال من المصريين حكموا على التناوب بينهم بدون حق فى الوراثة وسنذكر من علم منهم على ترتيبهم فى جدول ملوك هذه العائلة قال

(فى الملك آيى)

هذا الملك هو أول الملوك الخمسة وكان قبل استيلائه على سرير الملك يدعى (تراتف آيى

حق

حو تتراوس) ومعناه الكاهن آي الحاكم المقدس فى طيبة وكان متوليا عند الملك أمنوفيس الرابع وظيفة سائس ركاب الميسرة ثم ترقى الى ناظر خيول الملك ثم الى كاتب سره وكان أخاه من الرضاعة وزوج ابنته الكبيرة (آتى) فلما آل اليه الملك على ديار مصر غير اسمه آي وسمى نفسه (رع خبرخبر وأرما) وقد علم من الآثار أنه أبقى ديانة الشمس واحترم أيضا أمون والمعبودات المصرية التى أبطلها أمنوفيس الرابع وكانت مدة حكمه تزيد عن أربع سنين وفى أثناء ذلك عين باوروالبا على الاقطار السودانية وصنع لنفسه مقبرة فى بيبان الملوك بطيبة نقش اسمه عليها فمحاه من حكم بعده من الملوك لكونه خارجا عن بيت الملك ولم يبق اسمه الاعلى بعض مواضع من تابوته ولقصر مدته ترك مقبرته المذكورة ناقصة البناء اه وبموته قام بالامر بعده الملك توت عنخ أمن

(فى الملك توت عنخ أمن)

تولى توت الملك بعد الملك آي وهو ثانى الملوك الخمسة وكان قبل توليته المنصب الملوكى حاكما على مدينة أرمنت وقد بقيت جميع المدن والبلدان خاضعة لحكمه وكان ملكا مهيبا جليل القدر نافذ الكلمة أتى اليه رؤساء قبائل الآشوريين والروتنو والجزائر وبلاد السودان بالجزية والهدايا النفيسة من الذهب والفضة والاوانى من المعدن المتقنة الصناعة ومن الخيول والسباع وجلود النمور وغير ذلك مما كان يصنع و يوجد بالجزيرة التى بين دجلة والفرات وكانت أيامه غاية فى الراحة والعز والطمأنينة فلما مات تولى الملك بعده الملك (رسعا كانحيرو) ثم ملكان آخران مجهولا الاسم كما رواه صاحب العقد الثمين ولكن لم يعلم لهؤلاء الثلاثة شئ من الاخبار أو المآثر ولم يصل جماعة المؤرخين الى الوقوف على شئ من أعمالهم وبموتهم عاد الملك ثانية الى من بقى من العائلة الثامنة عشرة المتأصلة وهو الملك (حور ربى) وقيل هو الملك هور يس بن أمنوفيس الثالث وبنته المسماة طماهو موت

(فى الملك حور ربى أوحور محب)

(ويسمى أيضا)

(رع سر خبر واستبن رع)

لم يستقر الملك حور ربى المذكور بالمنصب حتى قامت الفتنة فى جوف البلاد واشتدت

وأخذت فى الانتشار بسبب ماحصل من تغير ديانة البلاد على عهد الملك أمنوفيس الرابع وقام الاهالى على قدم وساق ومحيت آثار الملوك الذين ساعدوا على تغيرها من جميع الهيا كل والمعابد فنهض الملك (حورمحب) الى اطفاء نار الفتنة ورسم بارجاع عبادة المعبودات المصرية القديمة فقام عند ذلك الاهالى على هيكل الشمس ودكوه دكا ومحوا آثار المدينة العظيمة التى أسسها هؤلاء الملوك على مقربة من تل العمارنة وكانت تخت مملكتهم بدلا عن مدينة طيبة كرسى الملوك المصريين وما زال الملك حورمحب حتى مهد الامور وأسكن الفتنة وتم له الامر فنهض الى انشاء العمائر وبناء الا ٓثار العظيمة فبنى الواجهة الرابعة من معبد الكرنك وأصلح الغار الكبير الذى بجبل السلسلة وكان قبل ذلك مقطعا تستخرج منه الحجارة ونقش على جانبه الغربى نقوشا تدل على نصرته على أهل الايتيوبيا وكان ملكا حسن السياسة فعادت المملكة فى أيامه الى ما كانت عليه أوّلا وبلغت من العز والمجد مبلغا عظيما وحافظت على مالها من الحدود البعيدة على عهد الملك توتميس الثالث وحورمحب هذا هو آخر من أبلغ الديار المصرية من ملوك الدولة الثامنة عشرة أقصى درجات العمار وأكبر مراتب الفخار ومات عن بنتيه طماهو موت وابنه رمسيس الاول ولما كانت طماهو موت أرشد من أخيها وكان أخوها قاصرا ولت الملك بدلاعنه وقامت بتدبير أمور المملكة خيرقيام فكانت مدة حكم الملك حورمحب وابنته معاثمانياوثلاثين سنة وخمسة أشهر وهو آخر ملوك الدولة الثامنة عشرة على قول جماعة من الكتاب وقدأقامت هذه الدولة على كرسى المملكة احدى وأربعين ومائتى سنة ثم قامت بعدها الدولة التاسعة عشرة وعلى رأسها الملك رمسيس الاول الذى هوابن حورمحب المذكور

(الفصل الثانى)

(فى العائلة التاسعة عشرة)

كان ابتداء ملك هذه العائلة سنة اثنتين وستين وأربعمائة وألف قبل الميلاد أى سنة أربع وثمانين وألفين قبل الهجرة وعدة ملوكها ثمانية ومدة ملكهم مائة وأربع وسبعون سنة وأول ملوكها الملك رمسيس الاول وهو ابن حورمحب وأخو الملكة طماهوموت آخر ملوك الدولة الثامنة عشرة وهو الا ٓتى ذكر مآثره بعد

(فى الملك رمسيس الاول)

تولى رمسيس الاول الملك والبلاد فى ضعف وشوكتها فى ذبول وكلتها فى انحطاط بسبب

الفتن المترتبة على تغيير الديانة القديمة من آخر ملوك الدولة الثامنة عشرة وقد طمع فيها الغريب وخرج أهل آسية عن طاعتها وانضموا الى الحيثيين وصاروا يشنون عليها الغارة ولما كان رمسيس هذا ابن الملك (حورمحب) وأخا الملكة (طماهوموت) تولى الملك خلفا لاخته وأبيه خلافا لما قاله بعض الكتاب من أنه لم يعلم ان كان من عصبة الملوك المصريين أو ظهر من أهل آسية قال وغاية ماعلم أن زوج ابنته (سيتى) هو من ملوك العائلة الثامنة عشرة ثم تبوأ كرسى الملك كبيرا فأحسن السياسة فى رعيته وأوردها موارد الراحة وكان مهيبا جليل القدر قاتل فى السنة الثانية من حكمه أهالى شمال الشام من طريق الفرات وجبل كورين والبحر الابيض وهى البلاد التى يسكنها الخيتاس ويعرفون فى التوراة بالحيثيين وهاجم الجم الغفير من حلفاء هذه الطائفة من سكان آسية وقاتلهم قيل وهو أول من أقدم على مقاتلة الحيثيين والتغلغل فى بلادهم حتى وصل نهر العاصى ثم عاهدهم وكانت مدة حكمه تسع سنين وخلفه ابنه منفطه الاوّل المسمى عند اليونان (سيتى) أو سيطوس الاوّل .

(فى الملك سيطوس الاوّل)

(اللقب)

(رعمسا من)

لما ارتقى سيطوس الاول كرسى المملكة خف الى الاعمال النافعة وتعزيز جانب المملكة واتبع آثار جده الملك (توتميس الثالث) فى إعلاء شأن البلاد والوصول بالمملكة الى أوج العز والفخار ولمن الآثار الغريبة والعمائر العظيمة بالاقليمين القبلى والبحرى وعلى سواحل البحر الاحمر وبلاد النوبة ما دل على علو همته وجليل قدره وقد أكمل بناء هيكل القمر الذى كان قد أنشأه الملك (توتميس الرابع) بناحية بنى حسن القديمة وبنى بجانبه معابد أخرى ومقابر مرسوما عليها اسمه وأنشأ بالصعيد الاعلى عند جبل السلسلة على الشاطئ الغربى من النيل معبدا منحوتا فى الجبل لم تزل منه بقايا جيدة الصناعة كاملة الزينة تدل على تقدم فن العمارة والنقش فى أيامه وله القاعة ذات الاعمدة الموجودة بجهة الكرنك التى هى من أبدع العمائر المصرية القديمة وتسمى بالقصر المنفطى نسبة اليه قيل ولم يتم (سيطوس) المذكور بناء هذا القصر وانما الذى تممه ابنه (رمسيس الثانى) وأنشأ هيكلا آخر للشمس فى الوادى المعروف بوادى المويه على بعد يومين من النيل فى البرية التى فى طريق القصير ومن أعماله أيضا اصلاح الغار الموجود فى بنى حسان للعبودة (بشت) وهو المعروف الآن بغار (عسيعوس) وكان من قبل مقطعا تستخرج منه الحجارة للعمارات وينسب اليه أيضا مقطع

أحجار الرصيف المصنوع الآن في جزيرة أسوان وهو من آثار الاحجار التي نقلها للعمارات التي بناها في هذه الجزيرة ومن آثاره المسلة العظيمة التي نقلت من مصر الى مدينة رومة والهيكل الكبير الذى استكشف حديثا بالعرابة المدفونة ومايحتوى عليه من التصاوير العجيبة والنقوش الغريبة وهو أول من حفر الخليج الموصل ماء النيل الى بحر القلزم الذى هو البحر الاحمر وأول من فتح طريقا للقوافل من اسنا الى معدن الذهب بجبل (اوكى) وحفر في الجبل هنالك عينا ينبع منها الماء وله جملة غزوات وحروب مع السودان والشام وكثير من بلاد آسية وانتصر على قبيلتي (الخيتاس) (والروتنو) وهما أعتى القبائل وأشدها بأساوغزا مدينتي نينوى وبابل وسار بجنوده الى أقصى بلاد أرمينية وانتصر على أهلها وكانت جميع بلاد آسية الى عهد الملك سيطوس الاول ثانى ملوك الدولة التاسعة عشرقد خرجت عن طاعة المملكة المصرية وصارت تشن عليها الغارات وتقوى وتتعزز حتى صارت من أكبر أعدائها وكان بينها وبين مصر من الوقائع والحروب ماسيذكر في محله ثم مات الملك سيطوس الاول المذكور فكانت مدة ملكه اثنين وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وفي رواية مانيتون احدى وخمسين سنة ودفن في مدفنه الذى ابتناه لنفسه في بيبان الملوك عند مدينة طيبة تحت الارض يعجب منه كل من رآه لما فيه من الهيئات الفلكية كالشمس تسبح بسفينتها في السماء وكأن السماء لجة ماء وتجتاز مايعارضها من عقبات الثعبان أبب وكالنجوم الثوابت والسيارة وغير ذلك وتولى بعده بكر ولده وولى عهده رمسيس الثانى

(في الملك رمسيس الثانى)

(المعروف)

(بسيزوستريس)

(الملقب)

(رع أوسرما استبن رع)

اشتهر هذا الملك برمسيس الاكبر حيث كان أعظم ملوك مصر قوة وأكبرهم سلطة واقتدارا وكان ظافرا كثير الحروب والغزوات ملأ مشارق الارض بصيت فتوحاته وأرهب مغاربها بهيبته وبأسه وسطواته ولم يكن أحد قبله من ملوك مصر عبر البحر الاحمر لجهز هو عمارة عظيمة قيل انها كانت أربعمائة سفينة حربية وتغلب على سواحل البحر المذكور وعلى جزائر بحر الهند فامتد ملكه من نهر الكنك بآسية الى نهر الدنوب الذى هو نهر الطونة

وكان

وكان كلما فتح قطرا واستولى على مملكة من الممالك شيد فيها هيكلا وآثارا تدل على نصراته وفتوحاته وأنزل فيها طائفة من جنده المصرى ليستوطنوها وينشروا دياناتهم وعوائدهم فيها ليكون ذلك دلالة ظاهرة على تخليد ذكره وزاد فى ثروة أهل وطنه وأوردهم موارد السعادة والرفاهية ونم بالهم وسن لهم القوانين والاحكام ونظم أمورهم على أكمل ترتيب وأحسن نظام وضرب الجزية على عشرين أمة استرعاها ويقال ان كاهن الشمس بشر أباه بأن ولده هذا يملك سائر بلاد العالم ولذلك لما آلت اليه المملكة المصرية اعتنى بهيا كل مدينة منف المكرسة للشمس فشيدها ووسعها توسيعا خارجا عن حد العادة وقد طال عمره وامتدت مدة ملكه وتنوقلت مآثره وتواترت مفاخره وتكلم عنه كثيرا أصحاب التاريخ وقالوا انه لم يسبق هذا الملك أحد من ملوك العائلتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة أعظم من توتوميس الثالث الذى كان بينه وبين رمسيس الثانى هذا ستة ملوك وكان رمسيس من زمن شبوبيته فاضلا بارعا متضلعا من العلم والحكمة حتى قيل انه تلق جميع العلوم وسائر الفنون عن (هرمس المثلث) الذى هو ايليا النبى أى ادريس عليه السلام زعم البعض أنه تلقاها عنه مشافهة (قلت) وهذا غير صحيح لتأخر زمن رمسيس ورفع ايليا الى السماء قبل زمن رمسيس كما جاءت به الكتب ولعله تعلمها بالتلقى عن أحد الهرامسة المصريين وقد دلت كتب اليونان على أن هرمس الهرامسة المثلث هو ايليا النبى وهو مصرى المولد وأنه أول من وضع العلوم والفنون والسياسات والتدابير والحروب والصنائع وله رموز عجيبة وأسرار غريبة ومعارف غزيرة واسعة قد أودعها بطون الاسفار والكتب وهو أول من عرف الله سبحانه وتعالى وعبده قالوا ولما جاء الطوفان وأغرق الارض وأهلك سائر النوع البشرى ثم عمرت الارض باولاد نوح عليه السلام كان الناس كافة على الفطرة الاولى لايعرفون شيأ من ضروريات المعيشة فبعث الله لهم هرمس هذا فى صورة انسان وقد كان رفع الى السماء قبل الطوفان فعلمهم مايحتاجون اليه وثقفهم فتبدلت أخلاقهم الوحشية بانسانية وطباعهم الحيوانية بآدمية اذ كانوا هائمين على وجوههم كالوحوش لايفهم بعضهم بعضا الابصياح ساذج متقطع مختلط ووضع لهم أسماء المسميات وعلمهم طرق التعارف فيما بينهم قالوا وله اثنان وأربعون كتابا سلمها الى طائفة الكهنة وأمنهم عليها وأودعهم أسرارا غامضة وأمرهم بمعرفة مافى تلك الكتب كل على قدر حاجته ومرتبته فى الهيئة الاجتماعية وقال جامبليك ان كتب هرمس الهرامسة بلغت بمصر عشرين ألف كتاب وقال مانيطون بل أكثر من ذلك كثيرا اه ولغزارة علمه كانت جميع عباراته سهلة المآخذ مقبولة مألوفة للنفوس وكانت عادة المصريين أنهم اذا اخترعوا شيأ من المعارف النفيسة والحكم نسبوه الى هرمس المثلث ليسهل تلقيه من عامة الناس ويكون حسنا لديهم مقبولا وكان (رمسيس الثانى) المذكور بطلا شجاعا ميالا للغزو والقتال فأرسله أبوه لغزو بلاد العرب فنزل عليهم وقاتلهم وأرجعهم الى الطاعة ولم تكن العرب قبله انقادت لملك من الملوك الاولين وكان معه فى هذه الغزوة كثير من أبناء



المصريين الذين كانوا ترواممه ثم سيره الى جهات المغرب فاستولى على برقة وغيرها من بلاد أفريقية وصيرها من ملحقات المملكة المصرية ثم مات أبوه عقب ذلك فتولى الملك بعده فلم يستقر به المنصب حتى جيش الجيوش وأكثر من معدات القتال وسار لقتال الاقطار السودانية وما زال بها حتى أخضعها وضرب على أهلها الجزية مقدارا يدفعونه فى كل سنة من الآبنوس وسن الفيل والذهب ولما كان فى مبدإ السنة الخامسة من حكمه قامت عليه سكان آسية الشمالية وهم قبائل الخيتاس وكاتى وكركيش وكدش وأراد وكانوا أقواما أصحاب قوة وبأس فتألبوا على محاربته وانضم اليهم أقوام أخر لم يكن لهم سابق قتال مع المصريين فعمت بذلك الفتنة وامتدت فى أرجاء آسية الشمالية كلها وانحدروا جميعا على عجل الى أن وصلوا الى وادى الارنؤد على مقربة من حدود مصر فلما بلغ رمسيس خبر وصولهم ركب فى جيش عظيم وسار لقتالهم فعبر أرض كنعان التى كانت يومئذ خاضعة لديار مصر وانعطف الى الجهات الشمالية ونزل بشبتون القريبة من كدش وبث العيون والجواسيس لتأتى له باخبار العدو وما هو عليه من المنعة أو الضعف وكذلك فعل العدو فلما كان فى بعض الايام خرج رمسيس فى طائفة من حراسه وسار صوب مدينة كدش فلقيه رجلان من الاعداء وأخبراه بان رؤساء القبائل الذين كانوا اجتمعوا لنجدة رئيس الخيتيين انفصلوا عنه وصيروا بهما لخدمته والعمل بمقتضى اشارته وأنهما تركا رئيس الخيتيين فى حلب شرقى مدينة تونب يتقهقر بعسكره فرارا من رهبتك وخوفا من جبروتك فاغتر رمسيس بهذا الكلام وتمكنت منه الخيلاء فزحف على الاعداء بمن كان معه من طوائف الحرس فى ذلك اليوم وقد كان بينه وبين معسكره بعد بعيد وكان قد رتب من معه من الجند وقسمهم الى أربع فرق الاولى منها فرقة أمون رع والثانية فرقة رع والثالثة فرقة بتاح والرابعة فرقة سوتخ وعين لكل موقفا أمام العدو فلما سار بمن معه من الحرس نحو كدش يريد مفاجأة العدو وأخذه أخذ عزيز مقتدر برز اليه رجلان بعثهما رئيس الخيتيين ليقبضا عليه ويأخذاه أسيرا وكانت جيوش العدو مجتمعة فى الشمال الشرقى من كدش وهى على أهبة الهجوم على كل من عربهم من عساكر رمسيس فآنس رمسيس من الرجلين أنهما انما أتيا ليقبضا عليه ويأخذاه أسيرا فأمر جنوده بالقبض عليهما واوسعوهما ضربا حتى اعترفا بسر بعثهما وخفى مأموريتهما وأنهما انما حضرا لكشف أخبار الجيوش المصرية والقبض على رمسيس فعقد رمسيس لذلك مجلسا من كبار جنده وعنفهم وبالغ فى تعنيفهم وقال كيف تأتون بنا من طريق لا خبرة لنا بها ولا معرفة لنا بما فيها وكيف بسوء تدبيركم نضل عن طريق السلامة ونقع مع ما نحن فيه من القلة فى أيدى الاعداء الذين هم لنا بالمرصاد فجعلوا يعتذرون ويهونون عليه الامر ويقولون انما ذلك كله من فساد قلوب حكام هذه البلاد التى نزل بها العدو فلم يخبروا بخبره ولم يكشفوا لنا عن عوراته والرأى أن نرسل الساعة من يأتى لنا بالجيوش فنركب على الاعداء ونقاتلهم حتى نظفر بهم فبينماهم يتدبرون اذ ظهر العدو فى عدده

وعدده

وعنده يريد قتال رمسيس ومن معه وكان رمسيس فى هـذا الحين نازلا بمن معه من جند الحرس على شمال كـدش قريبا من نهر العاصى فهجم عساكر الحيثيين عليـه هجمة رجل واحـد وصدموا جنود القلب وأوقعوا فيهم القتل ففشـل المصريون وانقسموا وولوا الادبار وبقى رمسيس بين الاعداء منفردا فتأهب للقتال قال صاحب العقد الثمين وقدجاء فى النقوش الأثرية أن الشاعر المصرى (بنتاأور) كان حاضرا مع رمسيس فى هذه الموقعة فقال فى ذلك مانصه

ان حضرة الملك نهض وهو فى غاية الصحة واعتـدال المزاج ونهاية القوة والابتهاج كأنه المعبود مونت آخذا عدة الحرب فى الحال ومتهيأ للضرب والقتال فأرسـل عربته فى صفوف الجموع وهجم على بنى خيتاس منفردا بنفسه لم يتقدم معه أحد من أبناء جنسه واقتحم المعركة وحده أى اقتحام بمشهد من جميع الاتباع والخدام وقد أحاط به ألفان وخمسمائة عربة حربيـة من شجعان الخيتاس والعصبية والقبائل المتكاثرة والعشـائر المتظاهرة وهـم ﴿ آرادوس ﴾ ﴿ ومازو ﴾ ﴿ وبتاسا ﴾ ﴿ وكشكاش ﴾ ﴿ واليون ﴾ ﴿ وجازوناتان ﴾ ﴿ وشـيروب ﴾ ﴿ واكتود ﴾ وغيرهم وكان على كل عربة من عرباتهم ثلاثة من المحاربين ولم يكن مع حضرة الملك أحد من عشيرته ولا من أمراء دولتـه ولا من قواد جنوده ولا من العساكر الرماة ولا من عساكر العربات فتوجه الى معبوده واستغاث بمولاه قائلا

تركنى وحدى جند الرماة والفرسان ولم يبق معى من يشد ازرى . أو يعضد ظهرى . فماذا يريد مولاى أمون فهـل أنا عاص أستحق العقاب مع أنى لمولاى سميع مطيع أعمـل بما أعلم من الامر بقدر ما أستطيع . وأقوم بحقوق المشاعر واظهار الشعائر . وأملأ بيوت العبادة من غنائم الاعـدا . وأتقرب للمعبود بالقرابين التى لا تحصى عـدا . وقد أكثرت من المعابد والهيا كل وذبحت ألف ثور قربانا مزينة بالزهور الطيبة الرائحة وشيدت الهيا كل الجسيمة . واقتطعت لها الاحجار العظيمة . وغرسـت فى المعابد الاشجار المخلدة . ونذرتها لتكون مآثر مؤبدة . وأحضرت من جزيرة أسوان لمولى المعبود أحجار المسلات الشامخة . وأجريت السفن فى البحار الزاخرة لجلب غنائم الملل الى الهيا كل الباذخـة . فها أنا يا مولاى أدعوك وأنا بين أقوام كثـيرين لا أعرفهم . وأنا فى حضرتك وحدى . فاقدا لجندى . تركنى عساكر الرماة وفرعى الفرسان الكماة . وقد دعوتهم فما أجابونى . واستغثت بهم فما أغاثونى . وأنت أولى بى من الجنود الرماة والفرسان . وأحق بنصرتى من الابطال والفتيان . فانصرنى على العدد الكثير والجم الغفير . قال ثم أجاب الشاعر فى قصيدته بكلام عن مولاه انه لبى دعاءه وقبل رجاءه (قلت) وقد ضربنا صفحا عن ايراده هنا خوف ملل القارئ

وبعد قتال وحروب هائلة بين رمسيس والحيثيين والكنعانيين مدة خمس عشرة سنة كادت تفنى فيها جيوش الفريقـين تقـدم خناسار رئيس الحيثيين فى طلب الصلح والكف عن القتال حقنا للـدماء واسـتبقاء لما بقى من تلك النفوس فجنح رمسيس الى ذلك قال صاحب العـقد الثمين وأبرم أمره سنة احدى وعشرين من حكم رمسيس وحرروا معاهـدة كتبت صورتها



أولابلغة الحيثيين ثم نقشت على لوح من فضة وقدمت الى ملك مصر فى مدينة رمسيس وكانت مبنية على الشروط والاحكام المدونة فى المعاهدة التى وقعت بين أمير الخيتاس ورمسيس الاول وسيتى الاول وهذا نص تعريبها

(المقـــدمة)

فى اليوم الحادى والعشرين من شهر طوبة سنة احدى وعشرين من حكم رمسيس ميامون محبوب (أمون رع) (وحورمخى) (وبتاح) سيدقسم (أمخنو) عنف (وموت) سيدة قسى (أثر) (وخونفرت حتب) بطيبة وهو القائم على كرسى ملك العباد كأبيه (حورمخى) تخلد ذكره بينما كان هذا اليوم فى مدينة بارمسيس ميامون يؤدى فيها الشعائر للمعبود أمون رع ولحورمخى ولتوم سيد مدينة المطرية ولأمون الساكن بمدينة بارمسيس ولبتاح بالمدينة المذكورة وللشجاع (ست بن نحوت) لانهم منوا عليه بدوام عيده الرسمى وبدوام أعوام السلم وبخضوع الاهالى والامم تحت نعليه على الدوام اذا برسل من طرف أمير الحيثيين ختاسار أقبلت اليه وتقدمت بين يديه ليطلبوا الصلح منه وكانت صورته منسوخة على لوح من فضة مرسل من طرف أمير الحيثيين الى ملك مصر مع رسولين هما (تارتيسبو) (ورمسيس) يطلب الصلح من رمسيس ميامون نور الملوك الذى وضع حدوده فى كافة الارض حيثما أراد وهـذه المعاهدة كتبها ختاسار أمير الحيثيين المفخم ابن موراسار أمير الحيثيين المفخم وحفيد سابلل أمير الحيثيين المفخم على لوح من فضة وذلك بينه وبين رمسيس ميامون ملك مصر الاكبر المفخم ابن سيتى الاول ملك مصر الاكبر المفخم وحفيد رمسيس الاول ملك مصر الاكبر المفخم وهى معاهـدة وطيدة على الصلح والمحالفة والوفاق مؤكدة للسلم والاتفاق دائمة على الدوام

كان فيما مضى من عهد بعيد حصل بين ملك مصر وأمير الحيثيين عليهما رضوان الرب اتفاق الان أخى موتور أمـير الحيثيين نقضـه وتحارب فى زمنـه مع سيتى الاول ملك مصر الاكبر لكن من الآن فصاعدا أعنى من هذا اليوم تعهد ختاسار أمير الحيثيين بمراعاة هـذه الشروط سائلا (أمون رع) (وست) أن عنا بدوام اتباعها فى ديار مصر وفى بلاد الحيثيين وأن يزيلا الشقاق أبدا من بين المتشارطين قال

(المعاهـدة)

اتفـقت أنا ختاسار أمير الحيثيين ورمسيس ميامون ملك مصر الاكبر من هـذا اليوم على مراعاة الصلح والمعاهدة بيننا أبدالآبدين وعلى أن يكون حليفى ومنطويا على السلم معى وعلى أن أكون حليفه ومنطويا على السلم معه دهر الداهرين كما كان ذلك فى عصر أخى موتور أمير الحيثيين الاكبر الذى خلفته

فى الحكم بعد موته وجلست على تخت والدى وهاأنا ختاسار أظهر المودة الصادقة لرمسيس ميامون ملك مصر الاكبر وبناء على معاهدتنا ومسالمتنا هذه تكون ديار مصر وبلاد الخيثيين فى سلم ومحالفة تامة دائمة دون أن يقع بينهما أدنى شقاق مدى الدهر بشرط أن أمير الخيثيين لايشن أدنى غارة على مصر لسلب شئ منها كما أن رمسيس ميامون ملك مصر الاكبر لايشن غارة على بلاد الخيثيين لسلب شئ منها وأن أتبع اتفاق العدل الذى حصل فى مدة سابلل رئيس الخيثيين الاكبر واتفاق العدل الذى حصل فى مدة أبى مورا سار رئيس الخيثيين الاكبر وأن يتبع ذلك أيضا رمسيس ميامون ملك مصر الاكبر ونعترف بيننا سوية بأن نتبع هذا الاتفاق ونجرى أعمال العدل من هذا اليوم بشرط أنه ان أغارت أعداء على بلاد رمسيس ميامون ملك مصر الاكبر لزمه أن يرسل الى أمير الخيثيين ليخبره بالحضور فينضم الى قوته عليهم ويجب على أمير الخيثيين حينئذ أن يجيب سؤال ملك مصر الاكبر ويقاتل أعداءه وان لم يرد أمير الخيثيين الحضور بنفسه لزمه أن يرسل جنوده المشاة وعرباته ليقاتلوا أعداء ملك مصر وان غضب رمسيس ميامون على جماعة من أتباعه يكونون قد سرقوا شيأ منه وأراد أن يقتلهم فعلى أمير الخيثيين مساعدته على ذلك وإن أغار عدو على بلاد خيتا لزم أمير الخيثيين أن يرسل الى ملك مصر ويخبره بأن يحضر بقوته ليقاتل أعداءه فان أراد رمسيس ميامون ملك مصر الحضور بنفسه قاتل أعداء أمير خيتا وان امتنع عن الحضور بنفسه لزمه أن يرسل مشاته وعرباته ليقاتل أعداء أمير خيتا وأن يعين الوقت ويخاطبهم بذلك وان كانت جماعة من خدم أمير الخيثيين تسيئه فى خدمته فعلى رمسيس ميامون أن يساعده فى تأديبهم واذا هاجر بعض السكان من بلاد رمسيس ميامون الى أمير خيتا فعلى هذا الامير أن لايقبلهم بل يرسلهم الى رمسيس ملك مصر الاكبر واذا ذهب بعض العملة الماهرين الى أمير خيتا لعمل مافلا يتوطنون أرض خيتا بل يرسلون الى رمسيس ميامون ملك مصر الاكبر واذا كان بعض الهاربين يحضرون من بلاد خيتا ليتوجهوا الى رمسيس ميامون ملك مصر الاكبر فلا يقبلهم عنده بل يرسلهم الى أمير خيتا واذا ذهب بعض العمال الماهرين من أرض خيتا الى ديار مصر لعمل مافعلى رمسيس ميامون ملك مصر أن لايوطنهم مصر بل يأمر بارسالهم الى أمير خيتا هذا الكلام الذى على لوح الفضة مقول على لسان ألف معبود من معبودات ومعبودى الجهاد منهم معبودات بلاد خيتا وعلى لسان ألف معبود من معبودات ومعبودى الجهاد منهم معبودات مصر وهو أيضا يعتبر حقا وذمة علينا ويشهد بذلك ست معبود تونب وست معبود خيتا وست معبود مدينة أرنا وست معبود مدينة تسورونتا وست معبود مدينة بركا وست معبود مدينة خساب وست معبود مدينة سارسو وست معبود مدينة حلب وست معبود ..... وست معبود مدينة سربينا وأسترتا معبود بلاد خيتا وجزيرة تاضرار وكدش ومعبود مدينة أخن ومعبود مدينة تساى وجبال وأنهار بلاد خيتا ومعبودات بلاد كادز وأنانا وأمون ودع وست والارباب

الحربية والمعبودات وجبال وأنهار ديار مصر وكافة من بدائرة البحر الاكبر والهواء والسحب وهـذا الكلام الذى على لوح الفضة منسوب لبلاد خيتا وبلاد مصر فكل من لم يتبع مضمونه تصرف ألف معبود من بلاد خيتا وألف معبود من بلاد مصر فى مسكنه وأملاكه وخدمه ومن يتبع الكلام الذى على هذا اللوح سواء كان من بلاد خيتا أو من بلاد مصر أحبه ألف معبود من بلاد خيتا وألف معبود من بلاد مصر وأحيت بيته وأملاكه وأتباعه أيضا واذا هرب رجل أو اثنان أو ثلاثة من مصر وذهبوا الى أمير خيتا فعلى أمير خيتا أن لايقبلهم بل يأمر بارسالهم الى رمسيس ميامون ملك مصر الاكبر وكل من أرسل الى رمسيس ميامون لايعاقب بذنبه ولا يبيد بيته ولا امرأته ولا أولاده ولا تقتل أمه ولا يضرب على عينه ولا على فمه ولا على رجليه ولا تقام عليه أية تهمة جناية واذا هرب من بلاد خيتا رجل أو اثنان أو ثلاثة وذهبوا الى رمسيس ميامون ملك مصر الاكبر فعليه أن يأمر بارسالهم الى أمير خيتا وكل من أرسل اليه لايعاقب بذنبه ولا يبيد بيته ولا امرأته ولا أولاده ولا تقتل أمه ولا يضرب على عينه ولا على فمه ولا على رجليه ولا تقام عليه تهمة جناية انتهى بنصه

فلما تمت هذه المعاهدة بين الفريقين بقى كل منهما محافظا عليها ستا وأربعين سنة وفى هذه المدة حصلت الراحة التامة للرعية ووقع فيها المصاهرة بين رمسيس وأمير الخيتيين وذلك ان رمسيس تزوج بابنة هذا الامير وبعد المصاهرة بمدة دعا رمسيس صهره الى الحضور فى ديار مصر كما دلت على ذلك الكتابة الموجودة فى ورقة انسطاسى وحاصلها

ان رئيس الخيتيين الاكبر أرسل الى أمير (كانى) أحد أمراء دولته قائلا له هيئ نفسك كى تذهب الى مصر حيث دعانا ملكها رمسيس لذلك ولا يسعنا مخالفته اذ لافرق بينه وبيننا وقد أحبته الناس لكونه يمنح الحياة لمن يشاء اهـ

وكان حضور أمير الخيتيين لزيارة رمسيس فى مدينته بعد مضى ثلاث وثلاثين سنة من حكمه ولتـذكار سياحته نقش حاصل رحلته فى حجر ورسم عليـه صورة نفسـه وصورة ابنته التى تزوجها رمسيس وصورة رمسيس فتعجب المصريون من ذلك وقالوا انما أهل مصر صاروا قلبا واحدا مع أمير الخيتيين وهذا من الامور التى لم يسبق لها مثيـل من عهـد المعبود (رع) انتهى

قال أهل التاريخ ولم يكن له من غاية فى هـذه الفتوحات العظيمة سوى حب الظفر والغنيمة وتذليل الاعداء وانقياد الامم لسطوته وخضوعهم لعزته وجبروته ولكن قد خانته الايام فانه مارجع الى تخت مملكته حتى هبت جميع تلك الممالك الى الخروج عليه ونهضت الى شق عصا الطاعة فلم يبق له منها الا بعض المدائن والبلاد القريبة وهذه أيضا لم تبق على الطاعة لملوك مصر بعد موت رمسيس الثانى المذكور الازهاء أربعة قرون ثم عصت وخرجت كغيرها ولما كف عن الغزوات والحروب وجه عنايتـه الى تزيين الهياكل واتحافها بنفائس الغنائم

ثم صرف همته الى تشييد المبانى العجيبة وكان فى بنائه الهيا كل يراعى معتقد الاهالى فى كل بلدومدينة وكان الذين أسرهم فى غزواته يقطعون الاحجار ويشيدون تلك الآثار وكان جل اهتمامهمنصرفا الى تحسين المدينتين العظيمتين وهما منف دار الملك وطيبة دار الدين والعلوم وقد أنشأ الجسور والقناطر والترع والخلجان وسخر الاسرى فى ردم الاراضى المنخفضة التى كان يفسدها النيل وفى رواية أنه حوّل النيل الى مجراه الحالى ليصلح بذلك ماتلف من الاراضى المنخفضة قال بعض الكتاب ويقال انه لما رجع رمسيس الثانى المذكور من آخر غزواته الى ديار مصر خرج أخوه لملاقاته ومعه جماعة من خواصه وأظهر الفرح والسرور وقابله بمدينة تنيس فأحسن الملك فيه ظنه وأخلص له فى المودة فلما استقر بالملك المقام مع عائلته فى قصره الملوكى بمدينة تنيس أضرم أخوه النار فى القصر يريد إهلاك الملك وعائلته حرقا وأخو الملك هذا هو المسمى عند اليونان (دانوس المصرى) فلما أحس الملك بالحريق فرهاربا ونجا هو وعائلته من هذه المكيدة فخاف دانوس وهاجر الى بلاد اليونان ويقال انه أسس فيها القبائل المصرية وقد حكى بعض المؤرخين أن دانوس هذا هو نفس أرمايس أخو رمسيس الثانى وأنه ركب سفينة من مصر مع طائفة من المصريين وهاجر الى موره وعمر بلاد اليونان ومدنها وخالف ذلك بعض المؤرخين فقال إن دانوس هذا ليس من أبناء ملوك الدولة التاسعة عشرة ولا من إخوة رمسيس الثانى وانما هو من عائلة الملوك الرعاة المشاغبين للعائلة المصرية المتأصلة وانهم لما حاربوا أمراء الملوك الرعاة وأخرجوهم ومزقوا شملهم هاجروا تحت رئاسة دانوس المذكور وقيل انه من أبناء بنت ايناخوس المصرى الذى كان قد فر من مصر الى مدينة حور ومعه طائفة من عرب العمالقة فنزل وتزوج منها وأعقب بنتا ولدت دانوس المذكور ثم هاجر ايناخوس الى بلاد اليونان وتولى ملك اقليم ارغوس فى بلاد مورة فلما انتقلت المملكة الى أولاده وأولاد أولاده وكان دانوس من ذرية بنته ارتحل الى مملكة ارغوس ليأخذ حقوقه ووراثته فى ممالك جده قالوا وهذا كله يدل دلالة واضحة على أن تمدن اليونان انتقل مع من هاجر اليها من ديار مصر فى تلك الازمان وان اليونان انما هى بنت مصر لامحالة

وطالت أيام ملك رمسيس فكانت ثلاثا وثلاثين سنة وقال آخرون بل سبعا وستين سنة وقيل ثمانا وستين سنة واشهرا واستدلوا على ذلك بأنه لما تغلبت دولة فارس على بلاد مصر وخرجت الحكومة من يد ملوك مصر الاهلية وكان فى رواق الصور الملوكية بمدينة طيبة بالصعيد صورة رمسيس الثانى المذكور أراد داريوس ملك فارس أن يضع صورته فى هذا الرواق فوق صورة رمسيس الاكبر فغضب رئيس الكهنة المحافظ على تلك الصور من ذلك وقال للملك بغلظة لايجوز لأحد من الملوك أن يعلو على رمسيس الاكبر الا من حاكاه فى أعماله العظيمة فلم يغضب داريوس من كلامه وقال له لأجتهدن وأفعلن لمصر من المنافع مافعله هذا الملك العظيم ان عمرت عمر رمسيس حتى لا أكون دونه فى الشهرة ورفعة المقام

ورمسيس هذا هو الذى قسم مملكة مصر الى ست وثلاثين إيالة وأقام على كل إيالة نوابا لجمع العساكر وتجنيد الاجناد وهو الذى رسم صورة الخريطة وصور فيها صورة المدن التى افتتحها ليبين لاهل مصر عظم ملكه وكنه جبروته وكان فيه تيه وتعاظم فانه كان اذا ركب فى موكبه لزيارة المعابد أو التنزه يأتى ببعض الملوك والامراء والعظماء الذين أسرهم ويلبسهم ثيابهم الملوكية ثم يربطهم كالخيل أربعة أربعة ليجروا عربته وكان بعد رجوعه من هذا الموكب يجلسهم ويحسن اليهم وكان قد كف بصره فى آخر أيام حياته لجزع نفسه بعد ذلك بيده كأس الحمام وجسده اليوم محفوظ بدار الآثار المصرية وبموته تولى بعده ابنه المسمى منفطا الثانى (ويقال له أيضا منفتاح الاوّل)

(فى الملك منفطا الثانى)

(ابن رمسيس الاكبر)

تولى الملك بعد موت أبيه رمسيس الاكبر سنة خمسمائة وألف قبل الميلاد ويقال له أيضا فاران أو فرعان وفرعون وانما سمى منفطا لكون جده كان يسمى بذلك وكانت عادة ملوك مصر القدماء أن يلقب الملك منهم بلقب جده وله أبنية ومآثر عظيمة تدل على علو همته وفى أيامه خرج بنو اسرائيل من مصر مع موسى وهارون سنة أربع وخمسين وستمائة وألف قبل الميلاد بعد وقوع ماوقع من المعجزات على يد موسى كما جاء فى التوراة فهو على هذا فرعون الذى أغرقه الله سبحانه وتعالى فى بحر القلزم وقال بعض المؤرخين من أهل أوروبا ان خروج بنى اسرائيل وغرق فرعون كانا فى زمن رمسيس الثانى وزعم بعضهم ان هاتين الحادثتين كانتا فى زمن ابنه منفطا الاول والذى عليه معظم المؤرخين انهما فى زمن فرعون بن رمسيس الاكبر المسمى عندهم فرعان أو (ابوخوربس) وهو منفطا الثانى هذا قال مانيطون المؤرخ مات منفطا يعنى منفطا الثانى هذا عن ابنة اسمها (طوسير) وابن قاصر اسمه منفطا الثالث ويلقب (أوسيرخبرورع ميامون) فتزوجت هذه الابنة بعظيم من المصريين اسمه حفطا منفطا فكان يقال له أيضا فرعون تبعا لها وكان يحكم بالنيابة عنها اه ففسر أهل التاريخ أن زواج طوسير المذكورة بذلك العظيم الذى لم يكن من الدم الملوكى مع ان جدها سيزوستريس كان قد خلف عدة بنين يدل على حدوث حادث عظيم للغاية نجم عنه انقراض سائر أعضاء تلك العائلة الملوكية قالوا وذلك الحادث إنما هو غرق فرعون وسائر جنوده فى البحر . ولا بأس من أن نذكر هنا تفصيلا لقدوم بنى اسرائيل الى مصر وما جرى عليهم الى يوم خروجهم منها

على

على ماجاء فى التوراة وما قاله المفسرون فى ذلك تتميما للفائدة وان كان فيـه بعض الاسهاب والتطويل

اعلم ان أولاد يعقوب الذين جاؤا الى يوسف بمصر مع يعقوب أبيهم هم راؤبين وشمعون ولاوى ويهوذا ويساكر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالى وجاد وأشير وقد تناسل من هؤلاء الاحد عشر ومن خرج من أصـلابهم سبعون نفسا غير يوسف عليه السـلام فلبثوا مع أبيهم بمصر ماشاء الله ثم مات يوسف وجميع اخوته وسائر ذلك الجيل وبقى من خرج من أصلابهم فتوالدوا ونموا وكثروا كثرة بالغة جـدا وامتـلأت أرض مصر منهـم شرقا وغربا . فلما رأى فرعون كثرتهم ونماءهم (وهو رمسيس) خاف شر العاقبـة وقال لقومـه انظروا كيف نما بنو اسرائيل وكثروا وصاروا شـعبا أعظم منا هـلم نحتال لهـم لئلا يكثروا فيخشى أنه اذا حدثت حرب ينضمون الى أعدائنا ويحاربوننا ويكونون لهم عونا علينا فجعـلوا عليهم رؤساء تثقـل عليهم وتسومهم الخسف ثم جعـلوا يسخرونهم فى البناء ونقل الاحجار وحمل اللبن فابتنوا مدينتى (فيتوم) (ورعمسيس) وفيتوم هـذه هى المسماة فى الآثار باسم بيتوم (ورعمسيس مدينـة حصينة واقعة بين مصر وفلسـطين) وكان أولئك الرؤساء لايألون جهدا فى تعذيبهم وايذائهم فقـد وجد منقوشا على جـدران هيكل طيبة الصغير من قول أولئك الرؤساء للعمـال من بنى اسرائيل وذلك فى عصر توتميس الثالث (هاهى العصا بيدنا فلا تكونوا متوانين) قال أصحاب التاريخ وقد اشتدت عليهم وطأة العذاب فى أيام رمسيس الثانى اذ لم يكن ثمة مايشغله عنهم بسبب المعاهدة التى تمت بينه وبين أمير الحيثيين بالكف عن الحرب والقتال فوجه عنايته الى بناء المعابد وانشاء العمارات الجسيمـة والابنية الضخمة بعمـال من الاسرائيليين فكان فريق منهم للبناء وفريق للحرث وفريق للاعمـال الدنيئه ومن لم يقدر على عمل شئ فعليه الجزية وقد وجد مكتوبا على ورقة البردى الموجودة الآن بمتحف لوندرة عاصمة الانجليز ماترجمته

ان جـلالة الملك رمسيس شـيد لنفسه مـدينة تدعى رعمسيس حصينة الموقع بين مصر وفلسـطين مملوءة بالخيرات العظيمة ورسمها كرسم (أون) يعنى ارمنت وستبقى أكثر من منف وتشرق الشمس فى أفقها وتغرب فيها وتهجر الناس مواطنها لتسكنها فهيـكل (امون) غربيها وهيكل (سوتخ) جنوبيها وهيـكل (استرته) شرقيها والالهـة (بوتو) فى شمالها والمـدينة يتهـم كأنها أفق السماء وفيها (رمسيس) كأنه معبودها فهو ملك كالشمس بين الامراء لم تكن لمصر لذة الا به وهو مثـل (توم) من حيث حسـن الادارة كيف لا وقد خضعت له الارض اهـ

قالوا ولما أتم عمـال الاسرائيلين بناء المدينة المذكورة فرح بها رمسيس فرحا عظيما وأولم فيها وليمة حضرها كاتب من المصريين اسمـه (بنتا) فكتب فى ذلك الى رئيس له اسمه (امنم ابت) يقول « قد دخلت مـدينة رعمسيس فوجـدتها فى أحسن حال وهى جميلة ليس لها فى الحقيقة مثيل فى عمارات طيبة ولا فى جبل السلسلة الذى هو محل النعيم حيث



ترى حقولها مملوءة فى كل آن بالمغروس والمأكول وحيضانها مشحونة بالاسماك وغدرانها ترفرف عليها سائر أشكال الطيور المائية ومروجها مخضرة بالحشائش الأنيقة الى أن قال وميناها غاصة بالسفن والشوانى المشحونة بالخيرات الكثيرة من المأكولات على اختلاف أنواعها تأتى اليها فى كل يوم واذا نزل بها مقيم سر سره وانشرح صدره اذ لارقيب فيها ولا معارض بل يستوى فيها الصغير والكبير الى أن قال • وفيها جوارى الملك الحسان واقفات على أبوابها والفرح يعم سائر أرجائها بلا مكدر لصفوه • عشت بارمسيس فى صحة وعافية • ومع ما كان فيه بنو اسرائيل من الذل والحيف كانوا فى نماء وازدياد عظيمين حتى خاف فرعون عاقبة أمرهم وحسب لهم ألف حساب وكان لنساء الاسرائيليين قابلتان احداهما اسمها شفرة وثانيتهما اسمها فوه فأرسل فرعون فى طلبهما فلما تمثلتا بين يديه قال لهما انظرا اذاجاء المخاض لاحدى العبرانيات ودعيت احدا كما اليها فان ولدت ذكرا فلتقتله فى الحال بلا مهل وان ولدت بنتا فلتبقها فلم تفعل القابلتان ذلك وخالفتا فرعون فيما أمر وأحس فرعون بذلك فأرسل فى طلبهما وسألهما فقالا انا لم نخالف لمولانا أمرا ولكن العبرانيات أشد وأقوى من المصريات ولذلك يلدن قبل أن تصل إحدانا اليهن فتركهما فرعون ونادى فى قومه أن اطرحوا كل ذكر ولدته عبرانية فى النهر فان ولدت بنتا فاستبقوها فتطاولت أيدى الناس الى العبرانيات و بالغوا فى ايذائهن وتنكيلهن واحتاطت بهن العيون والارصاد فكانت شدة عظيمة الغاية • واتفق فى هذا الحين أن تزوج رجل من بيت لاوى بابنة من سلالة لاوى فحملت ثم ولدت ذكرا فنظرت اليه فرأته جميلا حسن الصورة فخبأته ثلاثة أشهر ثم خافت أن ينفضح أمرها فأخذت له سفطا من البردى وطلته بالقار والحمرة ووضعت الصبي فيه وألقته فى النهر بين الحلفاء النابتة على حافة النيل وأوقفت أخته من بعيد لترى ماذا يحل به وبينما هى على هذه الحال اذ أقبلت ابنة فرعون فى وسط جواريها ووصيفاتها لتغتسل فى النهر وكان بعض جواريها على مقربة من النهر فنظرن السفط فى ذلك المكان فأخبرن سيدتهن بخبره فأمرت باستحضاره فأحضرنه ففتحته فرأت فيه الصبي يبكى فتأملت فى وجهه وقالت ﴿هيه هو من أولاد العبرانيين﴾ وخالج حبه فؤادها وعند ذلك تقدمت أخته الى ابنة فرعون وقالت هل تسمح سيدتى بأن أذهب وآتى لها بمرضعة ترضعه فقالت لها اذهبى فذهبت أخته وعادت ومعها أم الصبي فدفعت لها ابنة فرعون الصبي وقالت أرضعيه ولك أجرتك فأخذته وانطلقت فرحة مسرورة بنجاته ولبثت ترضعه حتى كبر وترعرع فأتت به الى ابنة فرعون فاتخذته لها ولدا وسمته (أوزار سيف) ومعناه كما فسره أهل العلم من المتأخرين ﴿موسى﴾ وجاء فى التوراة أنها سمته ﴿موسى﴾ وقالت انى انتشلته من الماء وعنيت بتربيته وتهذيبه وتعليمه العلوم والفلسفة المصرية حتى نبغ

واتفق أن خرج موسى يوما الى حيث بنو اسرائيل يشتغلون فرآهم وهم يقاسون العذاب ألوانا والرؤساء تسوقهم الى العمل كالأنعام المسخرة ونظر فاذا مصرى يضرب عبرانيا ضربا شديدا

فشق

فشق عليه هذا الامر جدًا وأغضبه ونظر يمنة ويسرة فلم يرأحدا يخشاه فوكزه موسى فقضى عليه وواراه فى الرمل وهو لايظن ان أحدا رآه قط وأصبح فخرج واذا باثنين يختصمان وكان أحدهما شديدا قويا فكاد يبطش بالثانى فتقدم اليه موسى وقال له لماذا تضرب صاحبك كف عنه يرحمك الله فقال له الرجل ومن جعلك رئيسا وقاضيا علينا أتصرّ على قتلى كما قتلت المصرى بالامس وشاع خبر قتل المصرى وتقاوله الى فرعون فغضب وطلب موسى فلم يجده حيث خرج هاربا من ذلك اليوم الى أرض (مدين) ولما اشتد به التعب جلس عند بئر هنالك ليستريح وكان رجل مدين المدعو رعوئيل سبع بنات فأتين واستقين وملأن الاجران ليسقين غنم أبيهن فبينما هن على هذه الحال اذ جاء بعض الرعاة وطردوهن وأخذوا مافى الاجران من الماء فكبر هذا الامر على موسى واستعظمه وقام وطرد الرعاة واستردّ الاجران وسقى غنم أبيهن فلما عادت البنات الى أبيهن قال مابالكن قد رجعتن اليوم مسرعات فقلن رجل مصرى عاونا اليوم وأنقذنا من أيدى الرعاة وسقى لنا الغنم فقال رعوئيل ويلكن باقاسيات اذهبن واستدعين الرجل لنشكر له صنيعه فأتينه به فأكرم رعوئيل وفادته وأنزله مكانا رحبا وبالغ فى اكرامه وقربه منه ولبث موسى على هذه الحال أياما كثيرة فزوجه رعوئيل احدى بناته المسماة صفورة فرزقه الله منها ولدا فسماه (جرشوم) قال لانى ولدته وأنا فى بلاد غريبة

وما زال موسى وزوجته عند أبيها رعوئيل حتى مات فرعون الذى هو رمسيس الثانى وقد أخذت الشدة من بنى اسرائيل مأخذها وارتفع صراخهم الى عنان السماء واتفق أن خرج موسى يوما يرعى غنم حميه على عادته فسار بهم على غير التفات الى ماوراء جبل (حوريب) وجلس هنالك قليلا وكان على مقربة منه عليقة فنظر اليها واذا هى تتوقد نارا ولم تحترق فدنا من العليقة والخوف ملء فؤاده فسمع صوتا يناديه (موسى موسى) فقال لبيك فقال لاتقترب من هنا واخلع نعليك لان الموضع الذى أنت واقف به مقدس واعلم أنى اله أبيك واله ابراهيم واله اسحاق واله يعقوب فاشتد الخوف بموسى وستر وجهه بيديه فقال الصوت انى عالم بمذلة شعبى الذى بمصر وعالم بأوجاعهم وسأنقذهم من تلك العبودية وأخرجهم من تلك الارض الى أرض واسعة تفيض لبنا وعسلا وسأسكنهم حيث يسكن الكنعانيون والحيثيون والاموريون والفرزيون والحويون واليبوسيون فاذهب الى فرعون وأخرج شعبى من بلاده فقال موسى من أنا حتى أذهب الى فرعون ومن أنا حتى أخرج شعبك من أرض مصر قال « فاذا خرجت بشعبى من أرض مصر تعبدون الله على هذا الجبل وهذه تكون لك علامة أنى مرسلك » فقال موسى السمع والطاعة فاذا أتيتهم وقلت لهم اله آبائكم أرسلنى اليكم وقالوا ما اسمه فماذا أقول فأجابه الصوت قل لهم هو (أهية شر أهية) وقد أرسلنى اليكم فاذا سمعوا قولك فادخل أنت وشيوخ بنى إسرائيل على فرعون وقولوا له ان الله اتفقنا

وأمرنا بالدخول عليك لتطلق شعبه بنى اسرائيل وانى أعلم أن فرعون لايطلق شعبى ولا يسرحه فلذلك سأضرب مصر بكل عجائبى حتى تخرجوا * فقال موسى وكيف يصدقنى شعبك ويعمل بقولى * فقال له الصوت وما تلك بيمينك قال هى عصاى قال ألقها فألقاها فاذا هى حية تسعى فخاف موسى فقال له الصوت مد يدك وأمسك بذنبها فمد يده وأمسكه فعادت عصا فنادى الصوت ياموسى أدخل يدك فى جيبك فأدخلها ثم أخرجها فاذا هى بيضاء مثل الثلج فقال له أدخلها ثانية فأدخلها ثم أخرجها فعادت كما كانت قال الصوت فان لم يصدقوك بعد هاتين الآيتين فخذ ماء من النهر وصبه على الارض فيصير فى الحال دما وسأشد أزرك بأخيك هرون وأكون لكما عونا ونصيرا

وانحدر موسى الى مصر ومعه زوجته وأولاده وهرون أخوه وكان عمر موسى ثمانين سنة وعمر هرون ثلاثا وثمانين فلاقاهم بعض العبرانيين وفرحوا بقدومهم وسجدوا لله شكرا حيث نظر الى ضعفهم وماهم عليه من الذل والمسكنة وشاع الخبر بذلك فعم الفرح وبات موسى ومن معه وأصبحوا وقد دخل هو وأخوه هرون على فرعون وقالا له يقول لك اله إسرائيل أطلق شعبى ليعبدونى فى البرية فتعجب فرعون من كلامهما وقال من أنتما ومن هو إلهكما الذى يطلب أن أطلق له بنى اسرائيل عبيدى وعبيد شعبى اخسآ * ورسم الرؤساء والمسخرين بأن يشددوا على سائر العبرانيين ويضيقوا عليهم مااستطاعوا فشددوا وهددوا وساموهم الخسف فلما ضاق منهم الخناق اجتمع كبارهم ومدبرو أمرهم ووقفوا لفرعون فى طريقه فلما دنا منهم صاحوا فى وجهه وقالوا ارحم عبيدك ولا تحرقهم بنار غضبك فلم يلتفت اليهم فعادوا وهم فى أسوإ حال واذا بموسى وهرون ينتظرانهم فكلموهما فى الامر وبكوا وانتحبوا وقالوا لهما تضرعا الى الله كى يستجيب نداءنا ويرحم صراخنا فدخل موسى وهرون على فرعون وقالا له يقول الله اله ابراهيم واسحق ويعقوب ان أنت لم تطلق شعبه بنى اسرائيل حاق بك وبجميع شعبك غضبه فزجرهما وقال ماالذى جئتما به من العجائب حتى أطلق عبيدى القائمين ببناء معابد آلهة شعبى وهيا كلهم فقال موسى لهرون خذ عصاى وألقها أمام فرعون ومن حوله من كبار دولته فألقاها فصارت حية تسعى فلم يحفل فرعون بما صنع موسى وهرون وأمر بالسحرة والعرافين فحضروا فقال دونكم وما فعل هذا العبرانى فطرح كل واحد عصاه فصارت حية تسعى فانقضت عليهن حية موسى وابتلعتهن جميعا فغضب فرعون وأمر باخراج موسى وهرون فأخرجوهما فعاد اليه موسى وأخوه ثانية وقالا يقول الرب ان لم تطلق بنى اسرائيل نضرب الارض والنهر فيتحول ماؤه وسائر مياه سواقيكم وآجامكم وكل مجتمعات مياهكم دما فيكون الدم فى جميع أرض مصر حتى فى الاخشاب والاحجار قالا ذلك وفعلا بحضرة فرعون وكبار دولته وجماعة السحرة والعرافين فالتفت فرعون الى السحرة وقال وأنتم ماذا تقولون قالوا نفعل هاته الآية بعينها وفعلوها فى الحال فاشتد عناد فرعون وقال لاأطلق قط ذلك الشعب الخبيث وكبر الامر عليه جدا وجاء الناس ليستقوا من النهر

فلم

فلم يقدروا والشدة تنته فحفروا حوالى النهر وأخذوا الماء فوجدوه دما فكانت شدة عظيمة وبعد سبعة أيام
دخل موسى وهرون على فرعون وكلماه فى اطلاق بنى اسرائيل فلم يلتفت اليهما فقالا له
يقول اله اسرائيل ان لم تطلق شعبى ليعبدنى فى البرية وأبيت ذلك فها أنا أضرب جميع قومك
بالضفادع فيفيض النيل ضفادع وتنبت فى الارض وتدخل بيتك ومخدع فراشك وتصعد
الى سريرك وتدخل سائر بيوت شعبك والى مخابزك ومعاجنك فقال فرعون لا سبيل الى ذلك
فأمر موسى هرون فمد يده الى النيل ففاض فى الحال ضفادع وانبثت على وجه الارض
فجاء العرافون وفعلوا كذلك واشتد ايذاء الضفادع بالناس فاستدعى فرعون موسى وهرون وقال لهما
اطلبا الى الهكما أن يرفع عنا ضفادعه فرفع موسى عينيه الى السماء ونادى الله تعالى فماتت
جميعها باذن الله فجمعوها فكانت أكواما كثيرة لا تكاد تدخل تحت حصر وأنتنت وظن
فرعون أنه لم يبق من موجب لاطلاق بنى اسرائيل فجعل يماطل موسى وهرون ويطاولهما
فمد هرون يده بعصا موسى وضرب بها تراب الارض فصار كله بعوضا وعم كل أرض مصر
فجاء العرافون ليخرجوه بسحرهم فلم يقدروا واشتد البعوض بالناس والبهائم فكانت شدته
عظيمة جدا فلم ينكف فرعون عن عناده ولم يسرح بنى اسرائيل فغضب الله على فرعون
وضربه هو وقومه بضربات أخرى متتابعة هى الذباب وموت الماشية والقمل والبرد والجراد
والظلام الدامس مدة ثلاثة أيام ثم موت الابكار من ولد فرعون الجالس على كرسى عظمته حتى
بكر الجارية التى تطحن على الرحى حتى بكر البهائم أيضا فكانت هذه الضربة خاتمة ضربات
مصر فقام حينئذ المصريون قومة رجل واحد على فرعون ملكهم وقالوا له أطلق بنى اسرائيل
الساعة فأطلقهم فساروا مع موسى وهرون من مدينة رعمسيس نحو مدينة (سكوت) وهم زهاء
ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الاولاد ومعهم شئ كثير جدا من الضأن والمعز والبقر
فكانت مدة مقامهم بمصر مائتين وثلاثين سنة * وقال موسى لبنى اسرائيل اذكروا أنكم
خارجون من أرض مصر من بيت الذل والعبودية فى شهر أبيب وأخذ موسى وهرون جثة
يوسف عليه السلام معهما ليدفناها فى أرض الموعد وسار بنو اسرائيل وهم جيش
عرمرم من سكوت الى (ايتام) ونزلوا فى طرف البرية أياما ثم رجع بهم موسى ونزلوا أمام فم
الجيروث بين مجدل والبحر امام بعل صفون * وندم فرعون على ما فعل من اطلاق بنى اسرائيل
فنادى فى جنده وكبار قومه بالمسير خلفهم وارجاعهم وأمر فشدوا مركبته وجهزوا ستمائة
مركبة حربية وعدة وافرة من مركبات النقل وسار بها سيرا حثيثا جدا خلف بنى اسرائيل
حتى أدركهم عند فم الجيروث امام بعل صفون عند البحر فلما رآهم بنو اسرائيل مقبلين
بخيلهم وعرباتهم فزعوا جدا وصرخوا الى الله تعالى وصاحوا فى وجه موسى وهرون وقالوا
ويلكما هلا يكون فى أرض مصر قبور ندفن فيها حتى أتيتما بنا الى هنا لنموت فى هذه البرية
فرفع موسى عينيه الى السماء فسمع صوتا يقول * قل لبنى اسرائيل أن يرحلوا وارفع أنت

عصاك وامدد يدك بها الى البحر وشقه فتنكشف اليابسة فاعبر البحر أنت وهم • ففعل وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وكانت ريح شرقية طول الليل فيبس البحر وظهرت اليابسة فعبر بنو إسرائيل والماء سور لهم ذات اليمين وذات الشمال فتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم بسائر مركباتهم وخيلهم فلما تم عبور الاسرائيليين مد موسى عصاه الى البحر فانهال الماء على فرعون ومن معه من كبار قومه وجنوده ومركباته وأغرقهم جميعا وشاهد بنو إسرائيل أجسادهم طافية على وجه الماء فصاحوا جميعا صيحة الفرح وجعلوا يترنمون بهذه الكلمات • أرتل لله تعالى فانه قد تعظم . وقد طرح الفرس وراكبه فى اليم . الله ربى قوتى ونشيدى قد صار خلاصى هو الهى سبحانه فأمجده إله أبى فأرفعه • وجعلوا يكثرون من مثل هذه الاغانى حتى ملأت أصواتهم البرية وأخذت مريم أخت هرون الدف بيدها وخرجت جميع النساء وراءها يضربن بالدفوف والكاسات ويرقصن ومريم تنشدهن شيأ من الحماسيات ثم ارتحل موسى ببنى إسرائيل من بحر سوف وخرجوا الى برية شور فساروا ثلاثة أيام ولم يجدوا ماء فانقلبوا على موسى وأخيه وقالوا قد جئتما بنا الى هنا فمن أين يا ترى نستقى وليس أمامنا الا تلك العين المرة فنظر موسى الى شجرة كانت على مقربة منهم وقال اطرحوا هذه الشجرة فى العين فطرحوها فصار ماؤها عذبا زلالا ففرحوا واستقوا وساروا فى طريقهم حتى نزلوا على ﴿ إيليم ﴾ وكان بها اثنتا عشرة عينا وسبعون نخلة فاستقوا واستراحوا أياما ثم ارتحلوا من ﴿ إيليم ﴾ فوصلوا الى برية ﴿ سين ﴾ الواقعة بين ﴿ إيليم ﴾ المذكورة ﴿ وسينا ﴾ فى اليوم الخامس عشر من الشهر الثانى من خروجهم من أرض مصر فشق عليهم ذلك جدا وتذمروا على موسى وهرون وخاطبوهما بفحش القول وهذر الكلام وقالوا هل جئتما بنا الى هذا القفر لتقتلانا بالجوع والله قد كان خيرا لنا ان نخدم المصريين ونستعبدلهم ونحن جالسون عند معاجن الخبز وقدور اللحم فكبر هذا الامر على موسى ونادى ربه وبكى فقيل له إنى منزل عليهم فى الصباح خبزا من السماء فيخرجون ويلتقطون حاجة اليوم وفى المساء لحما فيأكلون ويستغفرون • فكان ذلك وساروا من هنالك الى ﴿ إرفيديم ﴾ فأعوزهم الماء فصاحوا فى وجه موسى وهرون وقالوا ارجعا بنا الى أرض مصر فانه خير لنا أن نموت عبيدا لأهلها من أن نموت فى هذه البرية عطشا فغضب موسى وقال ويلكم الى كم تغلظون فى القول والى متى تعنفوننى ونظر الى السماء وبكى فناداه الصوت أن خذ عصاك التى ضربت بها البحر وخذ معك جماعة من شيوخ بنى اسرائيل وسر بهم الى حوريب واضرب الصخرة التى هنالك بعصاك تلك فينفجر منها الماء فسار موسى ومعه الشيوخ الى حوريب وضرب الصخرة بعصاه فانفجر منها الماء فاستقى بنو اسرائيل وسائر دوابهم وشكروا ودعوا ذلك المكان باسم ﴿ مسة ومريبة ﴾ ثم سار بهم موسى وهرون حتى جاؤا برية سينا وحطوا رحالهم أمام الجبل ونادى الصوت موسى وهرون أن اصعدا الى الجبل واقصداه فصعدا فأنزل الله تعالى على موسى العشر كلمات شريعة يقضى بها ولبث موسى يصعد الى سينا وينحدر منه الى بنى اسرائيل بوصايا الله تعالى وشريعته التى سنها لهم حتى ناداه الصوت يوما أن اصعد

بموسى

ياموسى الى الجبل فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعلم بنى اسرائيل فقام موسى لساعته وودع شيوخ بنى اسرائيل وقال لهم إلى مستخلف فيكم هرون (وحور) فمن كانت له ظلامة فليتقدم اليهما وصعد الى الجبل فغشيه السحاب وكانت نار آكلة تأجج فى وسط الجبل وبنو اسرائيل ينظرون الى ذلك وهم وجلون فأقام موسى فوق الجبل أربعين يوما وأربعين ليلة

ولما أبطأ موسى ولم ينزل هاج بنو اسرائيل وماجوا وملوا من المقام فى البرية فقاموا على هرون وصاحوا فى وجهه وقالوا قم واصنع لنا إلها يسير أمامنا فانا مللنا المقام فى هذا المكان القفر أما موسى الذى أخرجنا من أرض مصر وجاء بنا الى هنا فلا ندرى مافعل الله به فوعدهم لما ملوا من الوعد وذهبوا الى السامرى فقال ائتونى بالذى عند نسائكم وبناتكم من الحلى فأصنع لكم منه الها فأتوه بجميع ماعند نسائهم وبناتهم من الذهب فصنع لهم عجلا على أحسن مايكون فلما نظروه صاحوا وقالوا (هذا الهكم يابنى اسرائيل الذى أخرجكم من أرض مصر) وبنى لهم مذبحا ونادى فيهم بأن تقربوا الى الهكم فى الغد بما شئتم ففرحوا وأكلوا وشربوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمعوا حول العجل يرقصون ويطربون ويغنون الاناشيد واذا بموسى قد انحدر من الجبل وألواح الشهادة فى يده فلما اقترب من المحلة وأبصر العجل والناس من حوله يرقصون ويغنون اشتد به الغيظ والحنق وألقى ألواح الشهادة الى الارض فانكسرت وانقض على العجل فنزعه وأوقد نارا عظيمة وطرح فيها العجل ثم حرقه ثم نسفه فى اليم نسفا وكان بنو اسرائيل يستقون منه وأكرههم على شربه جزاء مخالفتهم فشربوه وهم صاغرون وغضب الله على بنى اسرائيل ونادى الصوت ياموسى قل لهذا الشعب قاسى القلب انهم لايدخلون الارض المقدسة بل يلبثون أربعين سنة فى هذه البرية ويموتون جميعا فلا يدخلها الا أولادهم وأحفادهم فبكى موسى وتضرع الى الله تعالى أن يرحم شعبه بنى اسرائيل وان لايجازيه حسب عمله فناداه الصوت ثانية قائلا وأنت ياموسى لاتدخلها أيضا أى لاتدخل تلك الارض بل تراها من بعيد ثم تموت فاشتد بكاء موسى وشاع الخبر بين القوم فبكوا بكاء مرا * ولكن قد نفذ القدر المقدور * وأقام بنو اسرائيل فى تلك البرية أربعين عاما حتى مات سائر من خرجوا مع موسى وهرون من أرض مصر ولم يبق منهم أحد وما أصابهم مما هو مذكور فى التوراة لاحاجة الى ايراده هنا

أما مؤرخو اليونان فانهم لم يأتوا على ذكر شئ مما جاءت به الكتب السماوية بشأن هذا الحادث وجميعهم يؤول انفلاق البحر لعبور بنى اسرائيل بحادثتى المد والجزر وينكرون غرق فرعون موسى ويقولون انه لم يكن من موجب لذلك أى لاضطهاد بنى اسرائيل الا انضمامهم مع من بقى من طوائف الملوك الرعاة وخلودهم الى شق عصا الطاعة فضرب ملوك مصر عليهم الاسترقاق والاستعباد كى لايستطيعوا مد يد المساعدة الى أهل الحجاز والشام الذين كانوا

كثيرى الاغارة على ديار مصر (قلت) وهـذا القول بعيـد لان نزول بنى اسرائيل على أرض مصر كان بعد طرد طوائف الملوك الرعاة من البلاد وجلائهم عنها وظهور العائلة الثامنة عشرة المتأصلة قال مانيطون المؤرخ فى كتابه بعد كلام • وعاش يوسف بمدينة منف وتسلط على سائر البلاد فى أيام أعظم وأقدر فراعنة المملكة الجديدة يعنى طوطمس الذى ولى الملك بعد نفى الرعاة ومما يدل على صحة ذلك ماجاء فى التوراة أيضا من قول يوسف لاخوته عند حضورهم اليه بمصر • يكون اذا دعاكم فرعون وقال ماصناعتكم أن تقولوا عبيدك أهل مواش منذ صبانا الى الآن نحن وآباؤنا جميعا لتسكنوا فى أرض جاسان لان كل راعى غنم رجس عنـد المصريين اه وقال بعض الكتاب أيضا • قـد دلت الآثار على ان السحلة وحلة الرسائل كانوا من الكنعانيين فاستغاثوا وابتهلوا الى الله تعالى فأرسـل اليهم موسى وأخاه هرون فذهب موسى الى فرعون بآيات مـذكورة فى التوراة فخاف فرعون وأطلق بنى اسرائيل فساروا من مـدينة ﴿ رعمسيس ﴾ حتى أتوا مدينة ﴿ سوكوت ﴾ وكانوا ستمائة ألف رجـل غير الاطفال وسار معهم أيضا عدة كثيرة جـدا من الطوائف الاخر الذين كانوا فى أسر المصريين ومنهم الفينيقيون وقـد نزلوا ﴿ بارام ﴾ التى فى آخر الصحـراء وأمراقه تعالى موسى أن ينزل بهم امام فم نحوت التى بين مجدل والبحر امام بعل صفون وأن يسير موسى امامهم قريبا من البحر الاحمر وينزل هناك ففـعل • وندم فرعون على اطـلاق بنى اسرائيل فجمع فرسانه وجنوده وتبعهم ليرجعهم الى أرض مصر فأمراقه موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق وعبروا جميعا على اليابسة حتى صعدوا الى الشاطئ الثانى فأتبعهم فرعون وجنوده فغطاهم الماء وغرقوا جميعا • ولما عبر موسى البحر سار باسباطه من طريق الصحراء بين مجدل والبحر فكان طريقهم على أطراف بلاد العرب شرقى بلاد مصر والبحر الاحمر ولم يعبروا بأرض فلسطين شرقا خوفا من جنود الحيثيين أن تردهـم الى أرض مصر قياما بالعهد الذى كان بين ختاسار ملك الحيثيـين ﴿ ورمسيس ﴾ الاكبر ملك مصر وهو رد كل من أتى من رعايا أحدهـما الى بلاد الآخر • وتاه بنو اسرائيل فى البرية أربعين سنة عقابا لهم على مخالفة وصايا الله تعالى كما جاءت به الكتب المقـدسة ولم يدخـل أرض كنعان أحـد منهم سوى يوشع بن نون كما أمره الله مع ان مسافـة الطريق فى البرية الى أرض كنعان ليست الا ثنتى عشرة مرحلة ودخلها بعدهم أولادهم أماموسى فقد أراه الله سبحانه اياها من جبل ﴿ نبو ﴾ ثم مات ولم يعلم للآن مكان قبره

وقال يوسفوس المؤرخ غـير ذلك وقال آخرون ان خروج بنى اسرائيل كان فى أيام الملك طوسيرينت الملك منفطة الثانى كما سيأتى بيانه فى محله

(فى الملكة طوسير بنت منفطة الثانى)

(وأخيها الملك منفطة الثالث)

(الملقب أيضا)

(أوسرخبرورع ميامون)

وولت هذه الملكة حكم البلاد بعد أبيها منفطة الثانى وكانت متزوجة بعظيم يسمى سفطا منفطة ويقال له أيضا فرعون تبعا لها وكانت ولايتها قبل أخيها لصغره ولذلك كان زوجها المذكور يدير الملك بالنيابة عنها وطالت مدتها مع أخيها منفطة الثالث فكانت تسع عشرة سنة ٭ قال بعض أصحاب التاريخ ٭ وفى أيام الملكة طوسير كان خروج بنى اسرائيل من أرض مصر ٭ فقال يوسيفوس عن مانيتون الكاهن المصرى فى خروج بنى اسرائيل انه لما كان الملك امنوفيس ٭ قال صاحب العقد الثمين ولعله منفطس ٭ يحب أن يرى المعبودات تتجلى له كما كانت تتجلى على الملك (حوريس) أحد أجداده سأل فى ذلك أحد المكاشفين ورغب اليه أن يعلمه كيف يصل الى هذه المرتبة فقال له انك لن ترى الهك عيانا حتى تطهر الديار من جميع المجذومين وأصحاب النجاسة فجمع (امنوفيس) الملك من هؤلاء ثمانين ألفا وهم من الاسرائيليين ووضعهم فى محاجر طرا وبينهم طائفة من الكهنة فأثار هؤلاء القوم غيظ المعبودات فخاف ذلك المكاشف شر العاقبة وكتب نبأ فى صك يقول فيه ان هؤلاء القوم ٭ يريد اليهود ٭ سيتعاهدون مع قوم آخرين ويملكون مصر مدة ثلاث عشرة سنة وبعد أن كتب ذلك قتل نفسه فأعلم الملك (امنوفيس) بمقالة ذلك المكاشف فالتفت اليها ونقل أصحاب النجاسة الى مدينة (أواريس) ليقيموا بها وكانت قد تخربت وتداعت الى السقوط من أيام العمالقة فلما سكنوها واستقر بهم المقام تألفت منهم طائفة فكان على رأسها مقدم ديانتهم المسمى أوزار سيف المقيم بالمطرية ٭ قال صاحب العقد الثمين ٭ وقد فسره أهل العلم من الاوروباويين بموسى ٭ فجعل لهم قوانين مخالفة للعوائد المصرية وأعدهم للحرب وتعاقد مع من بقى من العمالقة المتوطنين من أجيال بالشام فهاجموا مصر سوية وملكوها بغير قتال فعند ذلك تذكر الملك (امنوفيس) مقالة ذلك المكاشف وخاف وجمع الاصنام وهرب بها الى بلاد الايتيوبيا ومعه جيشه وكثير من المصريين فعاث العمالقة واليهود فى البلاد وأفسدوا فى الارض وأساؤا الى أهلها وشددوا عليهم وضيقوا وحرقوا المدن والقرى ونهبوا المعابد وكسروا الاصنام وأكلوا الحيوانات التى كان المصريون يعبدونها وألزموا الكهنة

من المصريين بذبحها وتقطيعها والقائها فى الطرق ويشاهم على هذه الحال اذ عاد (امنوفيس) من بلاد الايتيوبيا بجيش عظيم ورجع أيضا ابنه (رمسيس) بجيش آخر وهجموا على العمالقة واليهود فانتصروا عليهم وقتلوا منهم عدة كبيرة واقتفوا أثرهم حتى أدخلوهم أرض الشام اه

أما مؤرخو العرب فقد قالوا ان خروج بنى اسرائيل وغرق فرعون مصر كانا فى أيام هذه الملكة وقد سموها باسم (دلوكة بنت ذبا) وقد ذكر المقريزى فى خططه مانصه * قال ابن عبد الحكم لما أغرق الله آل فرعون بقيت مصر بعد غرقهم ليس فيها من أشراف أهلها أحد ولم يبق بها الا العبيد والاجراء والنساء فاتفق من بمصر من النساء أن يولين منهن واحدة وأجمع رأيهن أن يولين امرأة منهن يقال لها (دلوكة بنت ذبا) وكان لها عقل ومعرفة وتجارب وكانت فى شرف منهن وموضع وهى يومئذ بنت مائة وستين سنة فخافت أن يتناولها الملوك فجمعت نساء الاشراف وقالت لهن ان بلادنا لم يكن قبلا يطمع فيها أحد ولا يمد عينه اليها وقد هلك أكابرنا وأشرافنا وقد ذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم وقد رأيت ان أبنى حصنا أحدق به جميع بلادنا فأضع عليه الحارس من كل ناحية فانا لا نأمن أن يطمع فينا الناس فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها المزارع والمدائن والقرى وجعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء وأقامت القناطر والترع وجعلت فيه محارس على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة فيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل وجعلت على كل محرس رجالا وأجرت عليهم الارزاق وأمرتهم أن يحرسوا بالاجراس فاذا أتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم الى بعض الاجراس فيأتيهم الخبر من أى وجه كان فى ساعة واحدة فنظروا فى ذلك فمنعت بذلك مصر ممن أرادها وفرغت من بنائه فى ستة أشهر وهو الجدار الذى يقال له جدار العجوز بمصر وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة فملكتهم ثلاثين سنة اه قلت فليتأمل

أما أخوها الملك منفطة الثالث فقد كان كثير التعبد للاصنام المصرية شديد الخضوع اليهم وله اغداقات كثيرة على الهياكل والمعابد وأهدى اليها تحفا كثيرة جدا وقد أنشأ هيكلا خصوصيا لمعبوده (أمون) فى هيكل الكرنك وعمل له قبيسو مدينة طيبة فى هذا الهيكل القاعدة الصغيرة التى هى بالحوش الاول تذكارا لاسمه قال صاحب العقد الثمين وكتبوا عليها ان (لوى) رئيس كهنة معبد (أمون) كان هو وابنه وخليفته محبين للملك ولكهنة (أمون) اه

وبنى لنفسه مقبرة عظيمة فى بيبان الملوك كتب عليها القسيسون انه حكم جميع بلاد مصر وساسها وقد حصل فى أيامه الخلل وكثرت الاختلافات الداخلية وفشت الاغراض وخرج عليه بعض الرعية وادعى بعضهم الرئاسة وانتحل لنفسه حقوق الكهونية والوراثة لملك مصر وكان ممن خرج رجل اسمه (امنمس) وادعى انه ابن (رمسيس) الاكبر وكان مولده فى مدينة (خب) وأخذ ينازع منفطة الثالث فى الامر ومازال حتى مات منفطة الثالث فكانت مدة حكمه بالاشتراك مع أخته (طوسير) مدة واحدة قدرها

على

على ماقاله أهل التاريخ تسع عشرة سنة وستة أشهر فلما مات تولى بعده (امنحس) المذكور وتسلق عرش الملك اختلاسا فحكم مصر وجميع ملحقاتها وأشاع ان المعبودة (ازيس) قد اختارته من مدينته (خب) التى هى من قسم (أفرو ديتو بوليس) وجعلته حاكما على الارض وكان متزوجا بامرأة تدعى (باكت أوروفور) فلم يستقر به المنصب حتى عم الخلل جميع البلاد وأقامت فيها الفوضى واشتدت ووردها الاجانب وتمكنوا منها وربضت قدمهم فى جوفها فعاملوا أهلها بالقسوة والجفاء والغلظة حتى كادت ترحل أهل البلاد وتنزح الى غيرها من البلاد الاخرى ومازال الحال هكذا حتى مات (امنحس) المذكور ومحى بموته اسمه من جميع الهياكل والآثار لكونه ليس من بيت الملك وفى أيامه ظهر (سبتاح) من بيت الملك القديم ونازع (امنحس) الملك أياما كثيرة ومازال ينازعه حتى هم الى معاونة (سبتاح) المذكور الوزير (بابى) وانضمت اليه زوجة (سبتاح) المسماة (توسرت) فتم له ذلك وارتقى المنصب بعنايتهما

(فى الملك سبتاح)

لما كثرت الفتن والارهاصات الداخلية وعم الاختلال وانتشرت الفوضى فى البلاد واستقل كل رئيس بحكم جهة مخصوصة نهض الوزير المسمى (بابى) واتحد مع (توسرت) زوجة (سبتاح) المذكور على تولية (سبتاح) ملكا على مصر فعملا ومازالا يعملان حتى تم (لسبتاح) الامر واستقل لملك مصر قال صاحب العقد الثمين ولما قال هذا الوزير انى أزلت الباطل وأظهرت الحق لكونى أجلست الملك (سبتاح) على تخت والده اه ولما استقر به المنصب أقام وزيره المسمى (سيتى) حاكما على بلاد (كوش) وقلده أيضا مناصب أخرى عالية وأجله وقربه عنده زلفى ولم يقدر (سبتاح) المذكور على اعادة الراحة فى داخلية البلاد الى سابق مجراها ولاردع أهل البغى والفساد والخوارج الذين ظهروا فى داخلية البلاد بل ظل الحال على ماهو عليه من الخلل والارتباك حتى مات فبقيت مصر فى يد هؤلاء الخوارج زمنا طويلا لم يتكلم أصحاب التاريخ عنه بشئ الى أن نهض من أمراء هذه العائلة (اريزو الفنديق) واستقل بالملك فعاث وأفسد وقهر أهل البلاد وأذلهم وأساءهم وطالت أيامه حتى ظهر آخر اسمه (سبتنخت) فقام على اريزو الفنديق المذكور وخلعه وطرده من البلاد واستقل هو بالملك قال صاحب العقد الثمين ويرى اسم الملك (رعمسو سبتاح) منقوشا مرتين فى خانة ملوكية داخل الهيكل الذى شيدته زوجته (توسرت) فالمرة الاولى تجده فى باب الهيكل والثانية فى داخل الهيكل المذكور مقرونا فى المكان الذى نقشت فيه زوجته اسمها وقد شيد لنفسه قبرا فى بيبان الملوك كتب عليه أسماءه ولكنها محيت منه اه

(فى الملك سيتنخت)

لما استقر بالملك (سيتنخت) المنصب نهض الى قتال الاعراب الذين عاثوا فى البلاد وأفسدوها ومزقوا هيبتها فردعهم وأرغم من قام من أهل البلاد ينازعه الملك وأخضعه وسعى بجهد الاستطاعة فى ارجاع الامور الى ما كانت عليه بعد أن اختل نظامها فى أيام الملك (امنمس) الى أيام (سيتنخت) هذا قال صاحب العقد الثمين ومما يؤيد صحة ما كان حاصلا من الاختلال والاضطراب فى مدة الملوك الثلاثة السابقين وهم (امنمس) (وسبتاح) (وسيتنخت) ماورد فى ورقة (هاريس) من النصوص المقولة على لسان رمسيس الثالث فى مبدإ حكمه حيث بين فيها حال تلك المدة الوخيمة بالالفاظ المعربة الآتية

(قال الملك رمسيس الثالث) المقدس الاكبر لأمراء ورؤساء البلاد والجنود والمشاة وجنود العربات الحربية والسرداتين ولكثير من العساكر الاجنبية وغيرهم من السكان المقيمين فى ديار مصر اسمعوا مقالتى فانى سأعلمكم بحسن سيرتى * لما صرت ملكا على البلاد وكانت أهل مصر منفية بالجهات الخارجة ولم يكن للقيم فيها اعتبار ومضى على ذلك زمن طويل وتداولت الايام ومصر فى أيدى رؤساء أجنبية وكان أحدهم يقتل الآخر دون مراعاة الشريف والحقير ثم بعد هذا الاختلال بعدة ظهر (الفنديقى ارزو) أحد هؤلاء الرؤساء واختلس الملك لنفسه وألزم جميع الامم بدفع الجزية له وكانت رفقاؤه تنهب كل ما ادخره الناس لانفسهم وهكذا كانوا يفعلون وعاملوا المعبودات كالناس ومنعوا عنهم قرابينهم المعتادة ولكن المعبودات أصلحوا الامور وأوجدوا العدل فى المملكة وتكرموا بتحسين الحال وازالة الاهوال وجعلوا (سيتنخت مرماتون) ملكا على جميع المملكة وأجلسوه فوق التخت المنيف فكان اذا غضب يشبه (ست) واعتنى بكافة المملكة وقتل كل من ثبت عليه قتل نفس أو ذنب وبذلك طهر تخت مصر المنيف من أهل الجرائم وحكم أهلها فوق تخت الشمس (توم) المعبودة لهم واستقبلها بوجهه وكان يبقى الحائط على كل من لم يظهر لصاحبه المحبة والاخوة ونظم المعابد وأعطى المعبودات مرتباتهم من القرابين حسب مربوط قوانينهم وأورثنى الحكم فى أرض مصر وجعلنى حاكما على جميع طبقاتها لأقوم بأمر الامة التى التأمت ثانيا ثم توفى وظهر من دائرة نوره كالاجسام السماوية فعملوا له الرسوم المعتادة لدفن الاموات وشيعت جنازته فى النهر على سفينة ملوكية ثم وضعوه فى جدثه الازلى غربى طيبة وبعد ذلك جعلنى أبى (آمون) وأعظم المعبودات (رع) (وبتاح) ذوى السلطنة ملكا على تخت والدى فتقلدت رتبته مع غاية المسرة وفرحت الناس وانشرحت مما حصل لهم من مزيد سرورهم وقروا عينا لما تطوفنى ملكا على مصر حيث انى أشبه (حور) ملكها حين كان فوق تخت (أزوريس) وتوجت بتاج (أتف) وبتاج

الثعبان وتزينت بالريشتين كالمعبود ﴿ تاتان ﴾ وهكذا كان ارتفاق على تخت ﴿ حورمحى ﴾ وتزيني بملابس الفخار مثل ﴿ توم ﴾ اهـ بنصه

وبموت الملك ﴿ سيتنخت ﴾ هذا انقطعت مدة حكم الدولة التاسعة عشرة على ما قاله جماعة من الكتاب فانهم عدوه آخر ملوكها وبعضهم يقول غير ذلك فكانت مدة حكم هذه الدولة على المشهور من أقوال أصحاب التاريخ مائة وأربعا وسبعين سنة وقامت بعدها الدولة المكملة للعشرين وأولها الملك رمسيس الثالث ابن ﴿ سيتنخت ﴾ المذكور

(الفصل الثالث)

﴿ فى ملوك الدولة المتممة للعشرين الطيبوية ﴾

كان مبدأ ظهور هذه العائلة سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف قبل الميلاد أى سنة عشر وتسعمائة وألف قبل الهجرة وعدد ملوكها اثنا عشر ملكا وسنو ملكهم مائة وثمان وسبعون سنة وقيل غير ذلك وأول ملوكها من نسل ملوك العائلة التى قبلها قال أهل التاريخ وقد كان لفظ الدولة عند قدماء المصريين غير المعنى المعهود منها فى اصطلاح المتأخرين وانما كانت عندهم بمعنى آخر كالعصابة أو الفرع مثلا قالوا والعائلة هى التى تحكم مدة خاصة فى بلد خاصة حكومة معتبرة وان لم تختلف السلالة ولا خرجت الحكومة عن السلسلة الملوكية وأول من ملك منهم رمسيس الثالث الآتى الكلام عليه

(فى الملك رمسيس الثالث)

﴿ اللقب ﴾

(رع أوسرماميامون)

كان أول ملوك هذه الدولة الملك رمسيس الثالث ويسمى رمسيس الميمون بمعنى عبد شمس ويقال له أيضا سيطوس الاول وانما سمى باسم رمسيس الثالث تفاؤلا بهذا الاسم وافتخارا اذ أن رمسيس الاكبر جعل لهذا الاسم كبير اعتبار ومزيد افتخار وقد تلقب به من أتى بعده من الملوك حتى ان هذه الدولة أى المكملة للعشرين سميت بالدولة الرمسيسية ورمسيس الثالث هذا آخر مشاهير ملوك مصر وكان قبل موت والده ﴿ سيتنخت ﴾ شريكا له فى حكم

البلاد وتدبير أمورها فلما آل اليه الملك كبر اهتمامه بامور المملكة وحفظ حدودها وطرقاتها واعتنى بتنظيم داخليتها وكان شجاعا عالى الهمة محاربا ولم يستقر به المنصب حتى قامت عليه قائمة الحروب والفتن وخرج أهل البادية فهددوا معاقل إقليم مصر المعروف بالدلتا وأذلوا العملة الذين كانوا بطورسينا لاستخراج المعادن وزحف على ديار مصر طائفة عظيمة من الليبيين من جهة الشرق برآسة أربعة وهم ﴿ ديد ومشاكن وصمار وصا وتمار ﴾ وانضم اليهم طوائف ﴿التهانو﴾ ﴿وتماحو﴾ ﴿وكهاك﴾ وقبائل أخرى ممن يجاورهم وقد ساروا من سهول صحراء ليبيا ومازالوا حتى احتلوا قسم مريوط وقسم صان ومصاب النيل الى فرعه الاكبر وانتشروا وشغلوا بجزء الدلتا الغربى من مدينة ﴿ كربانا ﴾ الى آخر حدود مصر الشرقية ومنها الى ضواحى منف من الجهة القبلية فقام عليهم الملك رمسيس وقاتلهم قتالا شديدا مبتدئا باهل البادية فهزمهم وانتصر عليهم نصرا مبينا حتى أبادهم ولم يبق منهم الا القليل ثم طارد الليبيين الذين هم أهل برقة ومن معهم من بقية الطوائف فى السنة الخامسة من حكمه فهزمهم شر هزيمة فانحاز بعضهم اليه فادخلهم فى جيوشه المعدة للامداد وتتابعت نصراته عليهم حتى أدخلهم تحت الطاعة وأذلهم وكسر شوكتهم وأزال بأسهم

قال صاحب العقد الثمين وهذه الواقعة منقوشة فى خمسين سطرا على جدران مدينة ﴿ آبو ﴾ بطيبة تركنا من أولها ستة عشر سطرا لعدم فائدتها لنا ولنذكر ههنا من السطر السابع عشر الى آخرها نقلا عن ﴿شباس﴾ وهذا نصها

﴿ الملك رمسيس الثالث ﴾ ذبح سكان بلاد السهول والجبال وأبادهم وأخذهم الى مصر أسارى متواضعين امام معبوداتها وأشبع الجائع بالمؤنة الوافرة التى غمر بها إقليمى الصعيد والبحيرة وبث الفرح فى أهل مملكته على الدوام كيف لا وهو الذى أجلسه المعبود ﴿ أمون ﴾ على تخت مصر وجعل غالب ماتطلع عليه الشمس فى قبضة يده ثم ان أهل آسية وبلاد ﴿ تهانو ﴾ اللصوص أهل الدناءة عصوا وفعلوا أفعالا قبيحة فى مصر وشنوا غارة العصيان عليها مدة الملوك السالفة ونهبوا أمتعة المعبودات وأموال الناس ولم يردعهم أحد مدة عصيانهم فلما ظهر هذا الشاب الهمام وثب عليهم كالاسد ذى المخلب القاتل وهجم عليهم كالمعبود ﴿ نهى ﴾ أعنى ﴿ هرمس ﴾ حتى أبطل كلامهم الذى هددوا به أهل مصر وأثبت كلامه عليهم وسرت الى جنوده قوة جيشه فظهروا كالثيران المستعدة للهجوم على المعز وكانت خيالته تهجم عليهم كالصقر اذا انقض على الطيور الصغيرة ولهم زئير كالسباع الهائجة من الغيظ وكانت ضباطه شديدة البطش لاتقاوم كأنهم المعبود ﴿ رسب ﴾ ينظرون الالوف من الناس صغيرة كحدقة العين ولقد كانوا فى قوتهم مثل ﴿ مونث ﴾ الذى اسمه ميزان العدل يخافه جميع بلاد السهول والجبال وبعد ذلك اجتمع أيضا لقتاله ﴿ الليبيون ..... والمشواشيون ﴾ المعروفون قديما ﴿ بتماحو ﴾ واعتمد جنودهم على رأى

رؤسائهم

رؤسائهم المهيج لقلوبهم ووافق أفكارهم هذا الرأى فقالوا هلم بنا نسكر ونشبع من خمر الحمية الا انهم خابت آمالهم ولم ينالوا مقاصدهم لعدم استحسان هذا الرأى لدى المعبود (أمون) حيث لم يستجب دعاء رئيسهم لكونه معبودا محسنا عالما بالهدى والضلال سلطان المعبودات الذى أقام رمسيس رئيسا على مصر وجعل بيده القوة والنصر حتى صار بدعوات الامم له ملكا ذا دولة عظيمة بفطنة وذكاء كالمعبود (هرمس) ولما ظهر لهذا الملك ما كمن فى قلوب (تماحو) ذوى القلوب الصغيرة من سوء مقاصدهم تغلب عليهم فخضعوا لسيفه وتفصيل ذلك (انهم اجتمعوا) عند رئيسهم وأصروا على سلب بعض أراض من مصر فتعجب المصريون وقالوا كيف ينالونها مع كونهم لم يسمعوا قولا يشبه ذلك فى مدة الملوك السالفة فلما سمع الملك رمسيس كلام الاعداء هاج قلبه واضطرب وهمّ باستئصالهم بسيفه المنصور ففزعوا منه كالمعز اذا هجم عليها ثور ووطئها برجليه وضربها بقرنيه وزعزع الجبال واقتفى أثر من قرب اليه كيف لاوقد منحته المعبودات فى حضرتهم مايليق به من القوة فكان اذا اخترقت جماعة حدوده هجم عليهم كالنار المحرقة اذا انتشرت فى الحشائش فيصيرون كالاوز المأخوذ من شبكة التقطيع والشى ولذلك تساقط منه أولئك الاعداء عند هجومه عليهم رمما مضرجة بدمائها تساقطا هائلا ولم يمكنهم من شئ سوى مشاهدة ذنوبهم كبيرة بينهم كالجبال الشامخة بل جردوا فى الميدان من أسلحتهم وتراكمت على الارض أمواتهم بشهامة الملك المنصور صاحب السيف والقوة (رعمسس الثالث) المماثل (لمونث) وأحضر معه من هذه الواقعة لمصر أيديا وأحاليل مقطوعة وأسرى لاتحصى مسلسلة فى الاغلال منقادة واجتمع فى هذا الوقت رؤساء هؤلاء الامم المأسورة لينظروا فضيحتهم أما الملك فقد سارت معه أعيان دولته الذين هم من درجة الثلاثين نحو المعبود (أمون رع) باسطين أيديهم الى السماء منادين نداء السرور مع امتلاء قلوبهم بمحبة الملك قائلين أيها المعبود قد وجب علينا مدح شهامة الملك رمسيس الذى حضرت لديه جميع رؤساء الدنيا وقلوبهم مرتجفة ومختطفة وغير مستقرة فى صدورهم شاخصين الى هذا الملك الشبيه (بنوم) ملك كسر فى حكمه أصلاب (تماحو) الذين زحفوا على حدود مصره ودمروا الارض وجعل قواد فرسانهم فرقا تحت تصرفه ولقبهم باسمه هذا ماحصل مع (تماحو) الذين جرؤا بالعدوان على مصر من غير أن يقفوا على حالها وجلبوا معهم المشواشيين كالسيل ورحلوا من وطنهم فهلكت مزارعهم وتلفت وشلت أعضاؤهم من الفزع وعجزت وصاروا يقولون لقد انقصمت فى بلاد مصر ظهورنا وأذل الى الابد ملكها نفوسنا والمصريون يقولون ياحسرة عليهم لانهم يرون رقصهم تبدل بذبح والمعبودة (سخت) المصرية فى أثرهم والفزع لاحق بهم فازداد عند ذلك تأسف الاعداء وقالوا هزمنا من غير مقاتلة فرسانهم لنا فى ميدان القتال فلا غنى فى الطريق التى يمشى الناس فيها بل نخوض الماء حياء منهم ولقد ألزمنا الخراب من ملكهم اذ كان كالنار علينا كل مرة أراد قتالنا واختطفتنا رجاله حين قربنا اليهم ولم نجد

لناسبيلا الى النجاة منهم ولما أراد رئيسهم رمسيس الشبيه (بست) الهجوم علينا كالسبع ذى المخلب واتبعنا ليقتلنا اضطرنا الى القهقرى دائما والبعد عن مصره فأوباعنا أعظم من الموت وسرت فينا النار فلا نزرع أبدا ولقد أراد رؤساؤنا (ديد ـ ومشاكن ـ ومرابو ـ وصماور ـ وصاوغار) الذين كانوا أكبر المهيجين لنا مع الليبيين إضرام اللهيب فى مصر من أولها الى آخرها ولكن سخطت علينا المعبودات لانا نهبنا هياكلهم وأراضيهم فالتزمنا بالخضوع لسيف مصر ذى البسالة العظمى أليس هو الذى أعطته الشمس قوة النصر فشابهها وقت ظهوره واستنارت به البشر فهلموا نسجد اليه احترامنا ونقبل الارض أمام حسام مصر المنصور (قال) وبهذا يتضح لك أن الليبيين انهزموا هم ومن معهم شر هزيمة وضربت عليهم بسبب عصيانهم الذلة والمسكنة وهذا حاصل ما تم فى الواقعة الاولى • وقد وقعت له واقعة ثانية كانت أكبر من الاولى وهى أنه لما سمع أهل آسية الصغرى والجزائر اليونانية بهذه الحرب الاخيرة هموا بالخروج عن طاعة رمسيس الثالث فشنوا الغارة عليه وهم (الدنائيون ـ والترسانيون والشكالاشيون ـ والتكريسيون) الذين خلفوا (الردانيين) فى البطش والمنعة بين الامم الروانية وتعاهدوا على قتال هذا الملك وانضم اليهم (الليبيون ـ والغلتيون) وساروا حتى نزلوا ببلاد (خيتا ـ وكركيش ـ وكاتى ـ وآراد ـ وكدش) فنهبوها وأخذوا رجالها معهم ليستعينوا بهم على قتال المصريين ثم ساروا حتى نزلوا ببلاد الاموريين وأقاموا بها مدة ثم نزلوا على مصر كسيل العرم من طريق الدلتا فتقابلت جيوشهم وسفنهم الحربية بالمراكب والجيوش المصرية وكانت تنتظرهم بين مدينتى (رافيا ـ والطينة) بجانب برج رمسيس الثالث وامتلأت مصاب النيل بالسفن الحربية والمراكب المشحونة بعساكر الاعداء فشرع الفريقان فى القتال والطعان فكانت المشاة من المصريين تزأر كالسباع وعساكر عرباتهم تقاتل تحت قيادة رؤساء محنكين وضباط مدربين وخيولهم تضطرب أعضاؤها وتدوس الامم بسنابكها أما رمسيس فكان واقفا أمام جيشه كأنه معبود الحرب (مونت) يقتل فى الاعداء ويجندلهم ويغرق سفنهم وأموالهم حتى هزمهم هو ورجاله شر هزيمة وانتصر عليهم نصرة تامة وعادت الراحة بعد ذلك واستتبت وعمت الطمأنينة أنحاء البلاد مدة طويلة فلما كانت السنة الحادية عشرة من هذه الواقعة عاد (الليبيون) الى شق عصا الطاعة مرة ثانية وزحفوا على ديار مصر ومعهم قبيلة (المشواشيين) وطوائف (سباته ـ وكبكاش) وبعض طوائف أخر وجيش من الجنود (الترسينية ـ والليسية) وأغاروا على مصر من جانبها الغربى وذلك فى شهر مسرى من السنة المذكورة وكان مقدم هذه الحملة (كابور) وابنه (مشاشال) فلما التقى الفريقان أعمل فيهم المصريون القتل وأبلوا فيهم بلاء حسنا وانتصروا عليهم انتصارا مبينا

وأرسل رمسيس الثالث طائفة من جنوده المظفرة الى جبل الطور لقتال أهل البادية الذين كانوا يغيرون على الحدود ومحلات المعادن فضربهم وأخضعهم وأدخلهم تحت الطاعة

فعلت

فعلت بعـد ذلك كلمتـه وطار صيته واتسعت مهابته وانجلى عن أرض مصر جميع من كان بها من (السردانيين ـ والترسينيين ـ والليبيين ـ والفلسطينيين) بعد أن كانوا يأتون اليها مهاجرين من أوطانهم منذ خمسة أجيال ورحلوا الى قارة أوروبا (قال شباس) فاستوطن (الترسينيون) شمالى مصب نهر (الطبر) ونزل السردانيون بجزيرة سردينيا فسميت باسمهم ورحل الفلسطينيون الى الشام وأقاموا بساحل البحر بين يافا وسهول مصر بأرض كنعان وعاثوا فيها وحاكها ملك مصر واستقرت طائفة المشواشيين الذين يسميهم مانيطون الحبر المصرى (ماكسير) فى الناحيـة الاخرى من الدلتا وأقطعهم رمسيس هناك أرضا وصارت رجالهم فى ليبيا وسواحل النيل جنودا تحت قيادة المصريين وامتازوا بالبسالة والاقدام والمثابرة على الحروب

قال بعض المؤرخين ولما خرج الملك رمسيس الثالث لقتال الاعـداء أقام أخاه المسمى (ارمايس أو بتناور) حاكما متصرفا على مصر بالنيابة عنه بشرط أن لايلبس التاج الملوكى وأن يراعى حقوق زوجة أخيه رمسيس أم أولاده فبينما هو يقاتل اذ وردت اليـه الاخبار من رئيس كهنـة المصريين بان أخاه (ارمايس) لم يعمل بوصيته وأنه أقام راية العصيان واستبد بالملك فكر رمسيس راجعا الى مصر ودخل مدينة تنيس واستولى على سرير الملك ولبس التاج الملوكى فهرب (ارمايس) وهاجر الى بلاد اليونان واليونان يسمونه باسم (داوس) وقال هيرودوتوس المؤرخ انه حين رجوعـه أى رجوع رمسيس من غزوته جاء اليـه أخوه (ارمايس) الذى كان حاكما على مصر بالنيابة عنه ودعاه هو وزوجتـه وأولاده الى الحضور فى وليمـة أعدها له فى قصره بمدينة صان وتظاهر بتهنئته وأبدى له البشاشة والفرح فأحسن الملك فيه ظنـه ولم يعتقد أن أخاه يظهر خـلاف مايبطن والحقيقـة أن أخاه أضمر له السوء والهلاك فلما استقر بالملك المقام أضرم أخوه النار فى القصر ولم يشعر الملك بذلك فلما أحس هو وعائلته بالحريق فروا هاربين ونجوا من هذه المكيدة

ولما صـفا للملك رمسيس الحال نهض الى اصلاح العمارات فوسع معبد الكرنك وأصلح هيكل لقصر وغيره من عمارات الاقاليم البحرية وزاد فى قرابين المعبودات وفى الاحتفالات الدينية والمواسم والاعياد (قال صاحب العقد الثمين) ويرى على حيطان هيكل مدينة (آبو) ان الملك رمسيس هذا كان متزوجا بامرأة أجنبية من آسية أو من بلاد الحيثيين تدعى (هيمارو صاث) وأبوها يدعى (هيبوار وصاث) رزقت من رمسيس باثنين وثلاثين ولدا منهم ثمانية عشر ذكرا وأربع عشرة أنثى وأكثر أسمائهم تلاشت ولم يبق منهم سوى العشرة الاول وهم

الامير رمسيس الاول وكان قائد المشاة فلما تولى الملك لقب برمسيس الرابع ثم الامير رمسيس الثانى ولما تولى الملك لقب برمسيس السادس والامير رمسيس الثالث ناظر الاصطبلات ولما تولى الملك لقب برمسيس السابع والامير رمسيس الرابع ناظر الاصطبلات ولما تولى الملك لقب برمسيس الثامن والامير براهيو ناميف أول قائد للعربات الحربية والامير منتصوحى خونشف



قائد الجيوش والامير رمسيس الخامس الملقب (عربثوم) كان رئيس الكهنة فى المطرية ثم صار ملكا والامير رمسيس السادس الملقب (بخاموس) رئيس كهنة معبد (بتاح سوكار) فى منف والامير رمسيس السابع الملقب (بآمون حى خونشف) والامير رمسيس الثامن ولقبه (مياموِن) اه

ومما تقدم يستدل على أن الدولة الملوكية المتممة للعشرين كانت سعيدة الطالع وأن هذا الملك قد أعلى شأن المملكة المصرية ورقاها مراقى العز والرفاهية كما كانت فى القدم * ولما كانت السنة الثانية والثلاثون من حكمه اعتزل الاشغال وأشرك معه ابنه رمسيس الرابع فى الحكم الى أن مات بعد ذلك بقليل ودفن فى قبره الذى بناه فى بيبان الملوك فاستقل ابنه رمسيس الرابع بالملك وهو بكر أولاده وولى عهده وقائد جيوشه المشاة

(فى الملك رمسيس الرابع)

لما استقر به المنصب الملوكى وأخذ فى تدبير أمور الرعية قام عليه فى السنة الثانية من حكمه أهل آسية وخرجوا عن طاعته فركب عليهم وقاتلهم وأعادهم الى الطاعة صاغرين ثم عنى بالتجارة فسهل أسبابها وفتح لها طريقا مابين مصر وبلاد العرب من ناحية (قفط) وأصلح شؤن الرعية بسن القوانين وابعاد المظالم ومال الى محبتهم فأحبوه كثيرا وأثرت البلاد فى أيامه وأخصبت وكان واسع السياسة ميالا الى توسيع حدود المملكة مولعا بابداع مايؤثر عنه وقد وسع معبد (خونسو) بطيبة وعمل رسوما بالحفر على حيطان وأعمدة معبد الكرنك ويقال ان مدة حكمه كانت طويلة جدا ولم يذكرها أحد من الكتاب وقد مات فتولى الملك بعده أخوه رمسيس الخامس وهو الملقب (برع أوسرماس خيرزع)

(فى الملك رمسيس الخامس)

قد اختلف أصحاب التاريخ فى نسبة رمسيس الخامس هذا الى رمسيس الثالث فقال بعضهم انه لم يكن من ذرية رمسيس الثالث وقال بعضهم غير ذلك أما من قال انه لم يكن من ذرية رمسيس الثالث فقد نسب ارتقاءه سرير الملك وقبضه على زمام حكم البلاد بعد موت رمسيس الرابع ابن رمسيس الثالث الى الخديعة والغش وذلك أنه لما ظهر الاختلال فى داخلية البلاد وكثرت الدسائس فى آخر أيام الملك رمسيس الرابع المذكور ظهر هذا الملك بمظهر الخديعة واختلس الملك لنفسه ونقش اسمه على الآثار بعد اسم سلفه رمسيس الرابع وانتصل النسبة الى العصابة الملوكية فلما ولى بعده الملك رمسيس السادس محا اسمه

المكتوب بينه وبين أخيه رمسيس الرابع ونقش اسمه مكانه لاتصال سلسلة العائلة بدون تخلل أجنبي عن بيت الملك وبنى رمسيس الخامس المذكور له قبرا في بيبان الملوك ظاهرا على ربوة في آخر الوادي وعليه نقوش تدل على وقائع فلكية ورموز دينية مثل رسم فلك الشمس وما تقطعه في اليوم والليلة ورسم عدد ساعات اليوم والليلة أيضا وجداول مطالع الكواكب وحلولها في البروج وأحكام النجوم وتناسخ الارواح والنص على ثواب المحسن وعقاب المسيء وذكر الحروب التي وقعت في أيامه ويقول بعض المؤرخين ان مدة حكم هذا الملك كانت عشرين سنة فلما مات تولى بعده رمسيس السادس

(في الملك رمسيس السادس)

(اللقب)

(بنباميامون)

(وفي الملك رمسيس السابع ورمسيس الثامن ومیامون مرتيوم ورمسيس التاسع)

لما استقر برمسيس السادس هذا المنصب الملوكي اهتم ببناء بيوت العبادة والهياكل العظيمة وكانت له عناية تامة بالمعبودات وعاداتها المقررة واستكشف في أيامه المنجمون من المصريين نجم الشعرى اليمانية وبنوا على استكشافه حسابهم الفلكي فأمر برسم هذا النجم على مقبرته التي أنشأها في بيبان الملوك وذلك في سنة أربعين ومائتين وألف قبل الميلاد المسيحي كما قاله (بيوت) الفلكي الفرنساوي في حسابه * قال بعض أصحاب التاريخ من اليونان وقد كان المصريون يحسبون سنتهم التوتية ثلثمائة وخمسة وستين يوما واستمروا على هذا الحساب الازمان الطوال ثم تبين لهم برصد الشعرى اليمانية اختلاف حسابهم ونقص سنتهم ربع يوم فبتكميل ربع يوم في الحساب تكون السنة التوتية ثابتة على حالة واحدة ووجدوا الفرق بين السنة المختلفة والسنة الصحيحة في كل مائة وعشرين سنة شهرا كاملا وبضم هذا الشهر وزيادته يتكون منه في كل ألف وأربعمائة وستين سنة زيادة ثلثمائة وستين يوما سنة كاملة وهي الفرق بين السنين المختلفة والسنين الصحيحة فبكبس هذه السنة في تلك المدة يوافق في آخر الدور أول السنة الصحيحة لاول السنة المختلفة ويوافق طلوع الشعرى اليمانية فصار تصحيح السنة التوتية على هذا الوجه يسمى عند القدماء (بالدور الشعروي) قالوا ووجه هذا التصحيح أن الالف والاربعمائة والستين سنة المختلفة باضافة سنة الفرق عليها لتصحيح تكون ألفا وأربعمائة وستين سنة صحيحة وحينئذ يكون عدد دورهما بهذه الاضافة واحدا لانمقدار أيام كل منهما مساو لمقدار الآخر في العدد فلذا صح التحرير والتصحيح لتوفيق السنين وكان تاريخ هذا التصحيح في أواخر القرن العشرين قبل الميلاد المسيحي اهـ

قال صاحب العقد الثمين وقد وجد على صخرة ببلاد (النوبة) بجبل (أنيب) الذى على شاطئ النيل الايمن حذاء ابريم على بعد خمسين كيلومترا من أبى سنبل نقوش لرجل مصرى يدعى (بنى بن حرونفر) كان فى عصر هذا الملك يعنى رمسيس السادس رئيسا على اقليم (واوا) وحاصلها أن هذا الرجل أوقف لتمثال الملك رمسيس السادس أربع قطع من الارض الزراعية المجاور بعضها لمدينة هيكل الشمس بالدير وبعضها لمدينة (أما) المعروفة أيضا بابريم البالغة مساحتها ألفا وخمسمائة ذراع من ضرب خمسة عشر فى مائة وقطعة أخرى من الارض الطفلية غير مدرجة فى سجل الزراعة تبلغ مساحتها ألفا ومائتى ذراع حاصلة من ضرب أربعة فى مائتين واثنين فى مائتين وانه أوقف غيطا فى أرض عالية تدعى (رفتى) وجعل زرعها معدا لأكل الثور الذى يذبح كل سنة قربانا لتمثال الملك المذكور ويرى فى آخر هذه النقوش وصية معناها كل من تعتدى على حدود هذه الاراضى التى أعرضنا عن ذكرها هنا لعدم فائدتها جازاه (أمون) جزاء مضاعفا وجازت المعبودة (موت) امرأته والمعبودة (خونو) أولاده ولحقه الجوع والظمأ والقل الى أن يهلك فى تلك الارض اه ملخصا من تاريخ بروكش

وكان رمسيس السادس المذكور عظيم الشوكة كبير المهابة وقد تغلب على كثير من البلدان وعلى اقليم (آهى) وعلى بلاد الذهب المسماة (اكينا) وأخذ منها الجزية وبسط حكمه على بلاد الزنوج وأقام عليها الولاة والحكام بجباية الاموال ومات فتولى الملك بعده الملك رمسيس السابع الملقب بـ(رع أوسرماميامون استبن رع) قال أهل التاريخ وهو أخو الملك رمسيس السادس ولم يعلم من تاريخ حياته وأعماله شئ يذكر ولا المدة التى حكمها ومات فتولى الملك بعده رمسيس الثامن الملقب بـ(رع أوسرماخون امن) قالوا وهو أخو رمسيس السادس أيضا ويظن انه حكم مع أخيه رمسيس السابع فكانت مدة حكمهما واحدة ولم يعلم لهما شئ من أخبارهما ولا آثارهما أيضا ويموت هذا أيضا حكم بعدهما الملك (ميامون مرتيوم) ثم رمسيس التاسع وهو (سبتاح) الملقب بـ(سخعن ميامون) قال أهل التاريخ ولم يعلم من سيرتهما شئ يذكر ومانا فتولى الملك بعدهما الملك رمسيس العاشر الملقب بـ(نفر كاوورع استبن رع) الذى سيأتى ذكر أخباره بعد

(فى الملك رمسيس العاشر)

(الملقب)

بـ(نفر كاوورع استبن رع)

كان لهذا الملك آثار كثيرة بالقرنة والكاب وقد وجد له دفتران محفوظان بمدينة لندن

عاصمة الانكليز أحدهما فيه حساب السنة الثانية من حكمه والثانى فيه حساب سبع عشرة سنة من أول ستة عشر امشير سنة واحد الى أحد عشر امشير سنة سبع عشرة من حكمه وله بعض عمارات أخرى مهمة ونقوش من هذا القبيل • قال صاحب العقد الثمين ومنها النقوش التى على حيطان هيكل (امون رع) بطيبة الدالة على علو شأن الكهنة فى عصره وعلى بعض ملحوظات تاريخية ومحصلها أن رؤساء كهنة امون بطيبة أخذوا من عهد رمسيس الثالث فى الظهور ونفوذ الكلمة شيأ فشيأ مع كل ملك الى أن آل ملك مصر بعد انقراض هذه العائلة يعنى الرمسيسية الى (حرحور) الذى هو سادس الكهنة المذكورين الذين هم (روى ـ وروما ـ ومرى بست ـ ورمسيس نخت ـ وأمون حتب ـ وحرحور) المذكور

ومما اشتهروا به فى أيام هذا الملك أن (أمون حتب) لما تولى رياسة الكهانة على معبد (امون رع) الموجود بطيبة بعد موت أبيه (رمسونخت) تحبب كثيرا الى الملك وتداخل فى أمور الحكومة حتى وكل الملك لعهدته تجديد عمارة الهياكل وغيرها من الاشغال الجليلة التى كانت من وظائف الملوك ومدحه بخطبة عظيمة بعد أن كان المدح من الكهنة للملوك فكان ذلك باعثا على تقدم هؤلاء الكهنة وتداخلهم فى أمور الحكومة وتقربهم الى السدة الملوكية كما يشهد بذلك صريح النقوش المكتوبة على الحائط الشرقى من هيكل طيبة ونصها ان (أمون حتب) ولى العهد قام بدل أبيه (رمسونخت) رئيسا على كهنة (امون رع) سلطان المعبودات بطيبة اه فكان اتصال لقب ولى العهد لنفسه تمهيدا لتنفيذ ماقد وطن النفس على عمله وهو أخذ الحكم لنفسه أولمن يأتى من الكهنة بعده ولذا تعدى على عمل الملوك فقال

انى لما وجدت هذا البيت المقدس المعد من قديم الزمان لكهنة (امون رع) آل الى الدمار أردت أن أصلح مافيه كما فعل (أوسرتسن الاول) فى أيامه فشرعت فى بنائه وجددته بعمل جيد وصناعة متقنة وقويت حيطانه من جميع جهاتها وأتممت بناءه وصنعت أعمدته وأمسكتها بحجارة كبيرة من أسفلها وأعلاها بعمل متقن وصنعت له بابا كبيرا بمصراعين من خشب السنط بقفل محكم وأتممت سوره الكبير المطل على جهة (محى) من الحجر وبنيت فيه بيتا جديدا عاليا ليكون مسكنا لكل رئيس على كهنته ونضدت هذا الباب الكبير بخشب السنط وجعلت مفاتيحه من النحاس الاحمر وطليت التماثيل بالذهب النقى والفضة وبنيت فيه بابا كبيرا بالحجر يفتح الى بحيرة المعبد من الجهة القبلية لأخذ الماء منها لغسل المعبد وأحطت جميع المعبد بسور ثم نصبت الاحجار الشامخة المنقوشة على بابه الكبير وركبت مصاريع الابواب المتخذة من خشب السنط ونصبت أمامها تمثالا من حجر النحت الكبير ودهنت دائرة النقوش باللون الاحمر وكتبت عليها اسم الملك وبنيت خزانة للاموال فى الارض داخل القاعة الكبيرة أما الاعمدة الكبيرة فصنعتها من الحجر والابواب من خشب السنط الملون وبنيت أيضا حجرة للملك وأنشأت خلف الكيلار محلا من حجر لوضع أدوات المعبد فيه



وجعلت أبوابه ومصاريعها من خشب السنط ونصبت فى الحوش الاول الكبير تماثيل لكل رئيس من كهنة ﴿ أمون رع ﴾ وأنشأت بساتين كالبساتين التى على بحيرة معبد ﴿ اشر ﴾ فى الكرنك وغرست فيها الاشجار الى أن قال أفضل سيدى ﴿ أمون رع ﴾ سلطان المعبودات وأعترف له بالعظمة والحكمة والقوة وأطلب منه للملك ولنفسى الحياة والصحة والعافية وطول البقاء اه

فلما تم بناء الهيكل المذكور على ما وصفه رسم الملك لمن حوله من الامراء والوزراء بان يعطوه العطايا العظيمة جزاء ما فعله من الذهب والفضة فلما كان اليوم التاسع عشر من هاتور من السنة العاشرة من حكم رمسيس العاشر المذكور حضر ﴿ أمون حتب ﴾ فى الحوش الاول من معبد ﴿ أمون رع ﴾ وحضر أمراء الملك وهم ﴿ أمون حتب ﴾ مستشار الملك وأمين خزائنه ﴿ ونس أمون ﴾ مستشار الملك ﴿ ونفركا أم بيامون ﴾ كاتب الملك وترجمانه ومستشاره فلما انتظم محفلهم حضر الملك وألقى مقالة مدح فيها ﴿ أمون حتب ﴾ وهى

دعوت ﴿ مونتو ﴾ معبود الحرب و ﴿ أمون رع ﴾ و ﴿ تحوت ﴾ صاحب الكلام القدسى ومعبودات السماء والارض أن يكونوا شهداء علىّ وأشهدت نفسى وأنا رمسيس العاشر ملك مصر الاكبر وأشهدت أولاد وأحباب المعبودات على أن يكون التوزيع والتمتع بمنافع أشغال الاهالى فيما يختص بمعبد ﴿ أمون رع ﴾ سلطان المعبودات تحت تفاريك وتعطى لك الايرادات كافة وأن تستلم الضرائب وتتكفل بادارة خزائن الاموال ومخازن المأكولات وشون الغلال التابعة لمعبد ﴿ امون رع ﴾ سلطان المعبودات لتكون على أحسن حالة وعلى ذلك أكافئك أيها التابع العظيم الممتاز وأكلفك بهذه الوظائف لتقوى بها على ما فيه الاصلاح ولما شاهدت فعلك تعجبت منه وأصدرت أمرى بالانعام عليك بالذهب والفضة وغيرهما مكافأة لك وأنطت بذلك أمين خزائنى والمستشارين ﴿ نس امون ـ ونفركا أم بيامون ﴾

فعند ذلك قام المستشاران ووضعا فى عنق ﴿ أمون حتب ﴾ عقدا من ذهب وحلياه بأنواع الحلى كما يشاهد ذلك على صورته المرسومة فى الحجر بمعبد أمون فى الكرنك اه

ومن هذا الحين أخذت شوكة ﴿ أمون حتب ﴾ رئيس الكهنة المذكور فى العظم واتسعت كلمته وعلت وتمكن من الملك وأرباب دولته وتداخل فى جميع أمور المملكة حتى آل حكومة البلاد وانتقلت الى عقبه كما سيأتى بيانه فى محله انشاء الله تعالى

ولما مات الملك رمسيس العاشر المذكور تولى بعده الملك رمسيس الحادى عشر وهو الملقب برع أوسرما ﴿ استين رع ﴾

(فى الملك رمسيس الحادى عشر)

كان هذا الملك عظيم الكلمة واسع المهابة امتد حكمه على بلاد الابتيوبيا وجميع بلاد

سوريا

سوريا ولم يستدل له على شئ من الآثار سوى ماوجد منقوشا على حجر مستخرج من هيكل (خونسو) وهو موجود بالخزانة الملوكية بمدينة باريس عاصمة الفرنسيس وحاصل ماعلى الحجر المذكور انه بينما كان هـذا الملك فى الجزيرة بين دجلة والفرات التى كانت من ملحقات الديار المصرية فى ذلك الحين وفد عليه جميع ملوك الامم الخاضعة لسلطانه وقدموا له الجزية المضروبة عليهم من الذهب والحجارة الكريمة والعطريات اللطيفة من محصول بلاد العرب وكان ممن أرسل الجزية اليه ملك (بختانا) أرسلها مع ابنته وكانت جميلة فلما رآها الملك أحبها ومال قلبه اليها فتزوجها وسماها من هذا الحين (نفرورع) ورجع بها الى ديار مصر وعمل لها الولائم والافراح ولما كان اليوم الثانى والعشرون من أبيب سنة خمس عشرة من حكمه سار الى مدينة طيبة التى هى تخت الملك يومئذ لزيارة (آمون رع) يوم عيده البهى بطيبة الجنوبية فبينما هو هنالك اذ دخل عليه أحد حجابه وأخبره بأن بالباب رسولا وفد من قبل صهره ملك (بختانا) ومعه هدية عظيمة برسم الملكة فأمر به فتمثل بين يديه وقال السلام عليك ياشمس الامم نسألك العيش فى كنفك ثم تذلل وقال انى أتيت اليك أيها الملك العظيم لاخبرك عن (بنت رشت) شقيقة الملكة (نفرورع) فانه قد أصابها مرض فى جسمها فأتيت أسألك ارسال طبيب ينظر فى شأنها فلما سمع الملك مقاله أمر بالاطباء والروحانيين فتمثلوا بين يديه فقال لهم قد دعوتكم لتختاروا من بينكم رجلا ماهرا حاذقا فأتوه بكاتب الملك واسمه (تحوت أم حب) فرسم له بالمسير مع الرسول الى بلاد (بختانا) فلما وصل الى المدينة التى فيها (بنت رشت) وجدها ممسوسة بجنى ورأى نفسه غير كفء لدفعه عنها وأخبر ملك بختانا بذلك فأرسل الملك المذكور الى ملك مصر يقول أيها الملك العظيم والسيد المفخم تكرم علينا ثانيا بارسال معبود مع كاهنه الى بلادنا لاخراج ذلك الجنى وكان وصول هذا الطلب الى مصر فى غرة بؤنة سنة ست وعشرين الموافق يوم عيد (أمون) وكان الملك يومئذ فى مدينة طيبة فقام من ساعته ودخل على (خونسو) معبود طيبة الثابت فى كانه وقال له أيها السيد العظيم قد جئت اليك من أجل بنت أمير بختانا ثم أمر الملك فأنزلوا المعبود (خونسو) وكاهنه فى سفينة كبيرة وهيأ لهما خمسا من السفن وكثيرا من الخيول والعربات لتسير على يمينه ويساره عند مروره فى بلاد بختانا فلما وصل ذلك المعبود الى المدينة التى فيها بنت (رشت) من تلك البلاد بعد مضى سنة وخمسة أشهر جاء ملك بختانا لمقابلته ومعه قومه وامرأته وألقى نفسه على الارض وتقدم اليه وقال لقد جئت الى بلادنا وأفرحتنا بامر صهرنا ميامون رمسيس ملك مصر ثم أتوا بالمعبود الى المكان الذى كانت فيه (بنت رشت) فسرت كرامة المعبود فيها حتى برئت من مرضها ونطق الجنى الذى كان عليها أمامه قائلا أهلا وسهلا بالمعبود الكبير مزيل الاذى عن بلاد بختانا هى لك وأهلها جميعا عبيدك وأنا أيضا عبدك فسأعود من حيث أتيت لينشرح صدرك باتمام الغرض الذى دعيت اليه غير انى أرجو منك أن تأمر بأن يعملوا لى فى يوم واحد مهرجانا من قبل ملك بختانا

فأشار كاهن المعبودات الحملك بختانا بأن اعمل قربانا عظيما لهذا الجنى وعند تلاوة العزيمة على الجنى المذكور كان ملك بختانا واقفا مع قومه وجلا فعمل الملك القربان وأولم (خونسو) وللجنى وليمة عظيمة ثم ذهب الجنى الى حيث أمره المعبود (خونسو) الحاذق ففرح ملك بختانا وقومه فرحا شديدا وقال فى نفسه يجب أن أبقى هذا المعبود فى بلادى وأعوقه عن الرجوع الى ديار مصر فمكث فى بلاد بختانا ثلاث سنين وتسعة أشهر وبينما الملك نائم فى سريره اذ رأى أن المعبود قد خرج من ناووسه العظيم كأنه باشق من ذهب قد بسط أجنحته وطار الى مصر فاستيقظ فوجد نفسه مريضا فقال لكاهن (خونسو) ان المعبود يريد أن يفارقنا ويذهب الى مصر وأمر فوضعوه على عربته وأطلق سبيله وأعطاه كثيرا من أنواع الهدايا العظيمة فلما وصل سالما الى طيبة توجه الى معبد (خونسو) ورفع اليه أنواع الهدايا الثمينة التى أهداها اليه ملك بختانا فلم يأخذ منها شيأ وبعد ذلك رجع (خونسو) الحاذق الى معبده فى اليوم الثالث عشر من امشير سنة ثلاث وثلاثين من حكم الملك رمسيس مياموون مانح الحياة ومخلد الذكر انتهى باختصار

ولما مات رمسيس الحادى عشر هذا تولى الملك بعده رمسيس الثانى عشر وهو الملقب (رع من ماستين بتاح)

(فى الملك رمسيس الثانى عشر)

لما تولى الملك رمسيس الثانى عشر هذا زين مدينة طيبة بالمبانى العظيمة فى بيوت المعابد وغيرها من بقية الآثار وزين معبد (خونسو) فى المدينة المذكورة بكثير من التماثيل الصغيرة كما زين مقابر العائلة الرمسيسية وقد وجد ماريت باشا مدير دار التحف المصرية فى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية حجرا فى شونة الزيبع بالعرابة المدفونة يحوى ما هو منقوش عليه أن رمسيس هذا طال حكمه سبعا وعشرين سنة قالوا وخط هذه النقوش يضاهى تقريبا الخط المكتوب على الورقة القديمة المحفوظة الآن فى متحف تورينو بايطاليا المؤرخة فى اليوم الخامس والعشرين من كيهك من حكم الملك المذكور وحاصل مانقله منها بروكش فى فهرست تاريخه ان هذا الملك أصدر أمرا الى (بيانخاس) حاكم الايتيوبيا ورئيس الامم الاجنبية التابعة للدولة المصرية يقول فيه سيصل اليك مرسومى المتضمن لما فى الجواب المعطى للرئيس (ياى) مستشارى الذى سافر بأوامرى فبوصول هذا الامر اليك اشترك معه فى انجازها بالحسنى لانه هو المكلف فى الاصل بأدائها وعليك أن تلاحظ توابيت المعبودة وتضعها فى سفينة وأن تأتى بها معه الى المكان الذى أعد لنصب التماثيل فيه مع احضار الاحجار النفيسة لتسلمها الصناع واحذر من التأخير فى انجاز هذه المطلوبات والا خلعتك وعاملتك

على

على مقتضى مايصل الينا من أخبارك . قالوا فان صح أن هذه الورقة محررة فى عصر هذا الملك كان حكمه ممتدا الى بلاد الحبشة غير أنه كان ضعيف القوة قليل البطش ولم يزل كذلك حتى توفى وولى بعده الملك رمسيس الثالث عشر الملقب ﴿برع خبرما استبن رع﴾

(فى الملك رمسيس الثالث عشر)

قد كان هذا الملك خامد الهمة ضعيف العزيمة ذابل الشوكة وكان المتولى فى أيامه على رئاسة كهنة ﴿أمون رع﴾ سلطان المعبودات الكاهن ﴿حرحور﴾ وهو سادس العائلة التى تقدم ذكر اسم كل منهم فى محله فلما رأى ﴿حرحور﴾ المذكور من ضعف عزيمة رمسيس الثالث عشر تطاول الى الاعمال السياسية وتداخل فى أمور البلاد وأحكامها وضم اليه قومه وأخذ فى مخاصمة الملك وعائلته وتظاهر بالعداء فاختل نظام الدولة وتفرقت كلمة أهل البلاد وزالت سطوة الحكومة وانحطت شوكتها وخرجت جلة بلاد عن حيازتها فضاقت حدودها وأحاطها من جميع الجهات أعداء أشد قوتمنها واقتدارا ومازالت تسير القهقرى حتى انتزعها ﴿حرحور﴾ رئيس الكهنة المذكور من رمسيس الثالث عشر وزال الملك عن الدولة المتممة للعشرين التى آخرها رمسيس الثالث عشر المذكور وقامت بعدها الدولة الحادية والعشرون وأولها ﴿حرحور﴾ رئيس الكهنة وهو من مدينة طيبة

(الفصل الرابع)

﴿فى ملوك الدولة الحادية والعشرين التنيسية﴾

كان ابتداء ظهور هذه العائلة سنة عشر ومائة وألف قبل الميلاد أى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وألف قبل الهجرة وعدد ملوكها أربعة وقال العلامة ماسبيرو بل هم سبعة نقلا عن الآثار ورتبهم على الترتيب الآتى الكاهن ﴿حرحور﴾ والكاهن ﴿بعنخى﴾ والكاهن ﴿بينوزم﴾ الاول والملك ﴿بينوزم الثانى﴾ والكاهن ﴿مزاحرتى﴾ والملك ﴿منخوربرى﴾ والكاهن ﴿بينوزم الثالث﴾ ولكنه لم يجزم بصحة هذا الترتيب حتى تنكشف له حقائق مافى الآثار ومع أن هذا الترتيب المنقول عن الآثار يكاد يكون فى حكم الثابت المحقق فلم يأتنا أصحاب التاريخ الا بأخبار ثلاثة منهم ليس الا وذكر بعضهم أسماء الاربعة الاخرون ذكر أخبارهم وقال ان مدة ملكهم جميعا كانت مائة وثلاثين سنة وان أصل هذه العائلة من مدينة تنيس التى هى صان شرقية وكانت هذه المدينة من أعظم

على صنعه بحضرته فأمر أمون بجلوس (منخبر رع) على كرسى والده (بينوزم) وجعله رئيس كهنته وقائد جيوش الوجه القبلى والبحرى فصنع (منخبر رع) فى نظير ذلك خيرات عظيمة وفى أول يوم من سنة ست وعشرين الموافق لمولد (ازيس) وموسم (أمون رع) أخرجوا أمون هذا فى موكب عظيم ووضعوه أمام باب القاعة الكبرى من معبده فدخل عليه (منخبر رع) وتضرع اليه بأدعية كثيرة وقرب اليه قربانا عظيما ثم قال له أيها السيد العظيم لقد كثرت الشكوى من غضبك على الناس المنفيين فى الواحات فأبتهل اليك أيها المعبود المصور لكل موجود ويامخرج الغذاء للمعبودات والموجودات ويانور الشمس فى النهار وضياء القمر فى الليل يامن يسرى فى السماء بسلام دون وقوف واهمال انظر الى أولئك الذين نفيتهم بامرك واشف مرضاهم وارأف بهم لانهم أهلك العبيدة فهل يستطيع أحد أن يسكن غضبك لو غضبت على شئ أنت الشعاع المنير استجب دعوتى واعف فى هذا اليوم عن الخدم الذين نفيتهم فى الواحات ليعودوا الى مصر

فاستجاب دعاءه ثم طلب منه ثانيا ان لايتفى أحد من أهل مصر الى تلك الجهات البعيدة فأجاب سؤله أيضا ثم طلب منه ثالثا أن يصرح بكتابة أمره هذا على حجر لنشره فى البلاد فقبل المعبود طلبه وبعد ذلك قال (منخبر رع) لقد فرحت كثيرا بتمام قصدى الذى ستحسن به بين الخلق سيرتى فأنا عبدك النائب عنك فى مدينتك من صغرى أنت صورتنى وأظهرتنى فى الوجود لسرور خلقك فأعطنى عيشة هنية فى خدمتك وقنى ساوقاية من عذابك وأرشدنى الى طريقك واهدنى سبيلك وحبب قلبى فى بيتك العظيم ولا تحرمنى من فضلك * الى غير ذلك من العبارات المألوفة لديهم ثم طلب فى آخر هذه النقوش من معبوده أمون أن يبيد ويميت كل ذى سعى فى الفساد فأجابه المعبود الى ذلك اﻫ

وأما الملك (بينوزم) فانه بينما كان مرابطا فى الحدود لدفع العدو عن البلاد اذ قدم نمروذ ملك أشور بجيش عظيم جدًا يريد التملك على ديار مصر وضمها الى مملكته لا الى معاونة الرمسيسيين اصهاره فقاتل الملك (بينوزم) وعاكره وانتصر عليه نصرا مبينا ونزع الملك منه وأدخل مصر تحت حكمه وتصرف فى البلاد تصرف الفاتح وما زال بينوزم منزويا حتى مات فدفنته أمه المسماة (مهتن أوسخ) فى مقبرة بالعرابة المدفونة ورتبت لقبره المرتبات المعتادة فى أعياد الاموات والخدم والحشم وزال الملك من كهنة طيبة بزوال الكاهن (بينوزم) وتولى نمروذ على البلاد * قال بعض المؤرخين وكان عدد ملوك هذه الدولة أعنى دولة الكهنة الحادية والعشرين سبعة ملوك وكانت مدة حكمهم جميعا مائة وثلاثين سنة وأصلهم من مدينة تنيس التى يسميها بعضهم أيضا (صان) وهى أعظم مدن مصر وكانت ذات جنات ونخيل وبها المجارى العظيمة لرى أرضها صيفا وشتاء كما تقدم لك القول * قال صاحب العقد الثمين قد حصل خلاف بين بروكش وماسبرو فى شأن هذه العائلة فذهب بروكش اتباعا لنص بعض الآثار الى أن رؤساء الكهنة نزعوا الملك من

الرمسيسية ونفرهم الى الواحات ثم حصلت مصاهرة بين الرمسيسية وملوك الدولة الأشورية فأدى جميع ذلك الى تفرق الكلمة الاهلية ووقوع مصر فى يد ملوك الدولة الأشورية ٭ وذهب ماسبرو الى أنه لما أراد رؤساء الكهنة حصر الملك فيهم عارضهم سكان الوجه البحرى وأقاموا (سمنتو) ملكا عليهم فنفى الكهنة الى بلاد الايتيوبيا الا أنه بالنظر لضعفه وتفرق الكلمة الاهلية لجأ هو ومن كان معه من الملوك الى جيرانهم فكان ذلك سببا لزوال الملك منهم وسقوط مصر فى أيدى ملوك الدولة الاشورية قال وأما مايتعلق بالتنيسيين وهم أهل صان فقال ماسبرو انه لما أراد ﴿ حرحور ﴾ حصر الملك فيه وفى عائلته عارضه فى ذلك سكان الوجه البحرى مع أهل صان وأقاموا ﴿ سمتو ميامون ﴾ ملكا عليهم فجعل مركز حكمه بمدينة صان وتبعه فى ذلك خلفاؤه الذين اعتبرهم مانيتون ملوكا أصليين لهذه العائلة الى أن قال ولضعف هؤلاء الملوك ٭ أعنى بهم ملوك الدولة الحادية والعشرين المذكورة ٭ كان أهل طيبة يطيعونهم وقتا دون وقت وكذلك الايتيوبيون خرجوا عن طاعتهم واستقلوا تحت حكم كاهن من رؤساء كهنة أمون وعصتهم أيضا بعض بلادهم فالتجؤا الى بعض الملوك المجاورة لهم واحتموا فيهم واختلطوا بهم فزوجوا أولادهم بنات ملوك الاسرائيليين وأخذوا من بناتهم لاولادهم فكان هذا سببا لنزع مصر من أيديهم واستيلاء النمروذ المتقدم ذكره عليها ٭ قال صاحب العقد الثمين ٭ بين بروكش كيفية تداخل الاجانب فى بلاد مصر الذى أدى الى نزعها من ملوكها فقال ان ملوك مصر اعتادت من قديم الزمان على تكملة ماينقص من جيوشهم من أسارى الحرب وتغالوا فى ذلك حتى زعم ملوك العائلة الثانية عشرة أنهم نقلوا أهل الشمال الى الجنوب وأهل الجنوب الى الشمال وأنهم أسسوا لهم فى وادى النيل طوائف عديدة ٭ ولما خرجت ملوك العمالقة من أرض مصر فى عصر العائلة الثانية عشرة ٭ قلت لعلها الثامنة عشرة كما يؤيد ذلك ماجاء فى التورات بقى غالب قومهم فى شرق الدلتا وحازوا بعض امتيازات ميزتهم عن المصريين وأطلق عليهم اسم ﴿ بى أمو ﴾ أى ﴿ بياميت ﴾ وتحصلوا أيضا من المصريين على وظائف مهمة كالكهانة ونحوها فأدى ذلك الى ادخال معبوداتهم فى الديانة المصرية فاحترمها المصريون وبنوا لها معابد فى منف قال ولما تعاهد رمسيس الثانى مع الحيثيين كان ذلك سببا أيضا لسريان اللغة السامية فى بلاد مصر فتعلمها غالب المصريين والليبيين وحصل من ذلك تغيير وتحريف فى اللغة المصرية القديمة فاستعملوا ﴿ كريات ﴾ بدل ﴿ نوت ﴾ أى مدينة ﴿ وترعا ﴾ بدل ﴿ را ﴾ أى باب وحرفوا كثيرا من الكلمات فقالوا ﴿ خبوشا ﴾ وشانبشاو بدل ﴿ خبش ﴾ ﴿ وشنس ﴾ أى باب ومصباح وفضلا عن تغيير اللغة وتداخل الاجانب فى بلادهم شيأ فشيأ استقلت قبيلة من الليبيين بنفسها غربى الدلتا فى أرض هناك استحوذت عليها من المصريين فأدى جميع ذلك الى أن صارت مصر غنيمة للاجانب فى آخر هذه العائلة اه هذا وقد كان النمروذ من نسل ﴿ بباى ﴾ ويقال له ﴿ بواى ﴾ أو ﴿ بوبواى ﴾ الشامى الأصل

الشهير الذى قدم الى مصر أثناء ملك العائلة المتممة للعشرين وأقام ببسطة أو بضواحيها ونمت ذريته بها فزوج ابنه الخامس (ششنق) بأميرة من بيت الملك تدعى (مهتن أوسخ) فولدت له هذا المعروف الذى تلقب رئيس الكهنة وقائد المشواشيين ثم ولد للمعروف ولد سماه ششنق على اسم أبيه فتولى ششنق هذا ملك مصر بعد موت ميامون سيونخع الثانى آخر ملوك التنيسية من هذه العائلة فكان هو المؤسس للعائلة الثانية والعشرين

(الفصل الخامس)

(فى ملوك الدولة الثانية والعشرين)

قال أصحاب التاريخ كان سرير ملك هذه الدولة مدينة بسطة باقليم الشرقية ومحلها الآن تل بسطة القريب من مدينة الزقازيق على بعد بعض فراسخ وعدد ملوكها تسعة وسنو ملكهم مائة وسبعون سنة قالوا والغالب أن ملوكها لم يكن منهم من الغزاة وأصحاب الفتوحات الا القليل ويظهر أيضا انه كان لهم مصاهرة أو قرابة أو حب واختلاط بالاجانب لتقارب أسمائهم باسماء ملوك الاكراد والعراقيين ولم تكن جنودهم الخاصة بحراسة أجسادهم من المصريين المتأصلين ولا من المستوطنين بل كانوا من المغاربة وكان أول ملوك هذه العائلة البسطية حسب ترتيب الآثار الملك ششنق الذى سيأتى الكلام عليه وكان مبدأ ظهور هذه العائلة سنة ثمانين وتسعمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وستمائة وألف قبل الهجرة

(فى الملك ششنق الاول)

هو رأس هذه الدولة الثانية والعشرين وتسمى أيضا بالدولة البسطية نسبة الى مدينة بسطة التى كانت تحت حكمها ويلقب هذا الملك (برع ورنخبراستبنرع) تملك نحو سنة تسعين وتسعمائة قبل الميلاد على مارواه جماعة المؤرخين وثمانين وتسعمائة على رواية مانيطون والثانى أقرب الى الصواب ويسمى فى التوراة شيشاق وهو الذى لجأ اليه يوربعام ملك اسرائيل مستغيثا به فنهض الى نجدته وقصد أورشليم بألف ومائتى مركبة وستين ألف فارس وقاتل رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وكان فى جيوشه قوم من السود والحبشان فافتتح مدن يهوذا عنوة ونهب خزائن بيت المقدس وخزائن بيت الملك وأخذ تروس الذهب التى عملها سليمان عليه السلام ثم عاد الى مصر ظافرا غانما ونقش تاريخ هذه الواقعة على جدران

هيكل

هيكل الكرنك العظيم وكتب عليه (يهوذا ملكى) يعنى مملكة يهوذا فى قبضة يديه وقد عنى كثيرا ببناء المعابد وقطع الاحجار من جبل السلسلة لعمارة هيكل الشمس وكان أكبر أولاده المسمى (آووبوت) رئيس الكهنة (أمونرع) وقائد جيوش الصعيد فوكل لعهدته جلب الاحجار للعمارات الكثيرة فقام بذلك خير قيام وأقام الملك ششنق الى أن مات فى أحد فصول الصيف وولى بعده ثانى أولاده المدعو (ارسرخان) وهو الملقب (برع خم خبراستبن رع) فكانت مدة حكم ششنق المذكور اثنين وعشرين سنة وفى رواية احدى وعشرين سنة

(فى الملك ارسرخان الاول)

ولى ارسرخان الملك بعد أبيه ششنق رغما عن معارضات أخيه (آووبوت) اذ ظل ينازعه ويزعم انه أحق بالملك لانه أكبر أولاد ششنق واشتد النزاع بينهما وطال الجدال ثم استتب الامر (لارسرخان) فارتقى سرير الملك وقبض على زمام البلاد وعلت كلمته وهو المذكور فى التوراة باسم زاراح الحبشى وقد حارب مملكة يهوذا بعشرات آلاف من النفوس وثلثمائة عربة حربية فسار ملك يهوذا لملاقاته واصطفت جنود الفريقين فى وادى (صعد) فوقع الرعب فى قلوب جند مصر فولوا الأدبار جميعا وانتصرت عليهم جند يهوذا نصرا مبينا فلم يعد ارسرخان الى محاربتهم ثانية ومات وولى الملك بعده ابنه (تاكلوت) الاول الملقب (برع خبراستبن أمن تترحق أون) فكانت مدة ملك ارسرخان خمس عشرة سنة

(فى الملك تاكلوت الاول)

لم يقف أصحاب التاريخ لهذا الملك على شئ من الاخبار أو الآثار ولم يعلموا شيأ عنه وغاية ما أمكنهم الوصول الى معرفته من أخباره أنه كان متزوجا بامرأة تدعى (كابوس) فولدت له صبيا سماه (أورسرخان الثانى) فلما مات (تاكلوت) المذكور قام بالامر بعده ابنه (أرسرخان) الثانى ولقب (برع أوسرماستبن أمن)

(فى الملك ارسرخان الثانى)

ولى ارسرخان الملك بعد أبيه تاكلوت ولم يعلم له من المآثر التاريخية سوى أنه فى السنة الثالثة والعشرين من حكمه مات العجل المسمى (ابيس) وهو معبود المصريين الاعظم قال المؤرخون

وكان هذا الملك متزوجا بامرأتين احداهما تدعى (كراما) والثانية تدعى (موت آو وت عنخس) فولدت له الاولى ولدا سماه (ششنق) باسم جده فلما بلغ اشده ولاه رئاسة كهنة (بتاح) معبود مدينة منف وورث عنه اخوته من أمه هذه الوظيفة من بعده وولدت له الثانية ولدا سماه (نمرود ششنق) باسم جده أيضا ولما بلغ اشده ولاه رئاسة الجيش ونظارة كهنة المعبود (خنوم) فى مدينة اهناس وخلفه اخوته لامه فى وظيفة الكهانة ثم انتقل من اهناس وصار حاكما على الوجه القبلى ورئيسا على كهنة أمون بطيبة ولما مات (ارسرخان) الثانى المذكور تولى الملك بعده ابنه ششنق الثانى الملقب (برع سخم خبراستبن امن)

(فى الملك ششنق الثانى)

قال علماء التاريخ لم يوجد لهذا الملك من المآثر شئ يذكر وقد انقطعت بعده سلسلة العصبة الوارثة من بيت الملك ولذلك لما مات ارتقى على سرير الملك بعده رجل اسمه (تاكلوت) وتاكلوت هذا كان زوج الاميرة (مجوت كروما ماأمن موت أم حت) أخت النمرود بن اوسرخان الثانى وكان رئيسا على كهنة أمون طيبة وقائد الجيوش المصرية وقد رزق من زوجته هذه ولد سماه (أوسورخون) وجعله رئيسا على كهنة (أمونرع)

(فى الملك تاكلوت الثانى)

(الملقب)

(برع خرخبر استبن رع)

لم يكن تاكلوت هذا من سلالة بيت الملك وكأنه لم يتقرب الى هذا المنصب الابسبب تزوجه بالاميرة (مجوت كروما ماأمن موت أم حت) أخت النمرود بن اوسورخون الثانى وفى أيامه زحف على مصر الايتيوبيون من الجنوب والاشوريون من الشمال وهددوها فخرج أهل الشام وغيرها من ملحقات مصر عن حكمها وانكمش ملوكها الاصليون فى مدائن الاقاليم البحرية وصاروا كالولاة وهم ثلاثة ملوك (شيشاق الثالث وبيماى وشيشاق الرابع) قالوا وفى أيامهم جزئت مصر الى ولايات صغيرة وكان على كل ولاية رئيس من الليبيين تحت حكمهم واشتغل هؤلاء الملوك بجمع الخراج وادارة الامور الداخلية ولم يلتفتوا الى ما كان الرؤساء المذكورون يفعلونه من الاستبداد بالاحكام والتشديد على الرعية ولم يأخذوا حذرهم منهم

ولا

ولا من الاجانب الذين استوطنوا البلاد بسبب ضعف الحكومة وانحطاط قدرها فعظمت شوكة أولئك الحكام وتجاوزت آمالهم الحدود وكانت مساعدهم على ذلك طوائف الجند من الليبيين الذين دخلوا فى خدمة الحكومة المصرية وطمحوا بانظارهم الى الوظائف العالية وانتحلوا الألقاب الملوكية بخلاف الملوك الاصليين وانزووا أولا فى مدينة بسطة ثم هاجروا منها نزارا من أعدائهم الى مدينة منف واتخذوها مقرالهم وقامت الفوضى فى البلاد وتكاثر الخروج والعصيان فكانوا فى شاغل مستمر بدفاع الاعداء من الاشوريين والاتيوبيين ومازالوا على هذه الحال من الضعف والانحطاط حتى مات (شيشاق الرابع) الذى هو آخرهم وانتزعت الملك من بعده طائفة أخرى من التنيسيين وهم المعروفون بالعائلة الثالثة والعشرين فكانت مدة حكم العائلة الثانية والعشرين المذكورة ستا وستين سنة وقيل أكثر من ذلك

(الفصل السادس)

(فى ملوك الدولة الثالثة والعشرين التنيسية)

كان مبدأ ظهور هذه العائلة سنة عشر وثمانمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة وألف قبل الهجرة وعدد ملوكها أربعة ومدة ملكهم تسع وثمانون سنة وكان مركزها فى تنيس وهى المعروفة الآن بصان فى اقليم الشرقية وهؤلاء الملوك الاربعة هم (بوبابست) (وأوسورخون الثالث) (وبساموت) (ودت) ولم يكن من سبب دخول مصر فى حكم هذه العائلة سوى ضعف شوكة شيشاق الرابع الذى هو آخر ملوك الدولة الثانية والعشرين وخروج الاقليم القبلى عن طاعته وانسلاخ الكثير من ملحقات مصر كالشام وغيرها عن حكومته وانزوائه فى مدينة منف واستقلاله بحكم الاقليم البحرى الى أن مات وظهر بعد موته التنيسيون فاستولوا على الاقليم البحرى أولا وأول ملوكهم (بوبابست) الذى يسميه مانيطون المؤرخ (بتوباستيس) فجعل هذا الملك قاعدة مملكته مدينة بسطة ولما استقر به الملك أخذ فى تقوية مملكته وما زال حتى نزع طيبة من أيدى الاتيوبيين وضمها الى ملكه فعظمت شوكته وهابه أبناء جنسه وغيرهم وطالت أيامه فحكم أربعين سنة لم يغفل فيها عن أعدائه ولم يخفض لهم جناحا ثم مات فقام بالامر بعده (أوسورخون الثالث) فجعل مقره طيبة وتنيس وحافظ على مملكته من الاعداء وبالغ فى ذلك ومات بعد أن حكم تسع سنين فقام بالامر بعده (بساموت) الملقب (أوسررع استبن بتاح بموت) وجعل تخت مملكته مدينة منف واتبع طريق أسلافه

فى اليقظة والمحافظة على مملكته ومات بعد أن حكم عشرسنين ثم قام بالامر بعده ﴿دت﴾ وهو آخر ملوك هذه العائلة فحكم احدى وثلاثين سنة حسب مافاله مانيطون * قال بعض المؤرخين * وكان عصر هــذه الدولة عصر محن وإحن وانقسمت فى أيامها مصر الى عشرين ولاية فكانت كل ولاية تشتمل على عدة بلاد وجملة أقسام وعليها أمير مخصوص واستمرت على هــذه الحــال مدة الى أن ظهر جماعة من صا الحجر بالاقليم البحرى فنهضوا الى نزع الحكومة من أيدى هؤلاء الرؤساء وقــد كانوا أضعفوها بسوء تدبيرهــم وما زالوا حتى تم لهم الامر ثم أرادوا أن يؤسسوا عائلة جديدة تقوم بحكم البلاد وتدبير سياستها فعاكسهم الدهر أياما وقام لمعارضــتهم أولئك الرؤساء ثم لم يلبثوا ان عجزوا عن مقاومة الصاويين وأعيتهــم الحيلة فى أمرهم فاســتعانوا بالايتيوبيين فطمع الايتيوبيون فى حكومة البــلاد واستولوا على الاقليــم القبــلى وقاموا على الصاويين يريدون إرجاعهم عن عزمهم فلم يتجددوا واستمرت الحال بين الفريقين على ماهى عليه الى أن ظهر رجل اسمه ﴿تفنخت﴾ فركب على طائفة الايتيوبيين وردهــم وأسكن الفتنة ولم يلبث أن ظهروا عليــه وهزموه شر هزيمة فعاد الى مصالحتهم والاتفاق معهــم على توليتــه حكم البلاد تحت امرتهــم فولوه فأسس الملك للعائلة الرابعة والعشرين وكان هو رأسها وعدد ملوكها خمسة كما سيأتى بيانهم

(الفصل السابع)

﴿فى ملوك الدولة الرابعــة والعشرين الصــاوية﴾

كان مبدأ ظهور هذه الدولة سنة احدى وعشرين وسبعمائة قبل الميلاد أى سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة وألف قبل الهجرة وكان تحت حكمها مدينة صا الحجر التى كانت من أشهر مدن الديار المصرية فى ذلك الحــين ولذلك كانت تعرف بالدولة الصاوية وقيل ولم يملك منها سوى ملك واحــد أو اثنــين أو خمســة وهو أصح على مارواه مانيطون المؤرخ وسنو ملكهم ست وقيل احدى وعشرون سنة وقيل أربع وأربعون ولم يذكر أصحاب التاريخ سوى مآثر اثنين منهم وهــما ﴿ تفنخت ﴾ الذى يقال له أيضا ﴿ تفناكتس ﴾ رأس هذه العائلة وابنه الملك ﴿ باكوريس ﴾ الملقب ﴿ بوح كارع ﴾ وتركوا أخبار الثلاثة الاخر لانفاق وقائعهم مع وقائع وأخبار الملوك الايتيوبيين وهــم ملوك الدولة الخامســة والعشرين السودانية الذين تغلبوا على بلاد مصر ونزعوا حكمها من يد الدولة الصاوية هذه

(فى)

(فى الملك تفنخت)

(الذى يسمى أيضا)

(تخناتس)

ذكرنا فيما تقدم ان مصر الى ذلك الحين كانت منقسمة الى عشرين ولاية صغيرة وكان على كل ولاية منها ملك أو أمير مستقل بحكمها ولكنه يخشى اغارة جاره على ولايته ولذلك كان بعضهم لبعض عدوّا فحصن كل أمير ولايته وأكثر فيها من القلاع والحصون والرجال ومعدات القتال وكان أكثر جندهم من المشواشيين وغيرهم من الاجانب وقد ملؤا أرض مصر من الحصون والمعاقل على الآكام وضفاف النيل والجزر والبحيرات وغير ذلك وكان الملك (تفنخت) هذا حاكما على مدينة (نتر) التى يقال لها باللغة القبطية (منوتى) المجاورة لمدينة (كانوب) على بحر رشيد فتاقت نفسه الى الملك وطمعت فيه فركب بقومه لقتال أقرب الولايات اليه وما زال حتى انتصر على ملكها فى عدة مواقع ولما كثرت جموعه واشتد أزره بهم قام لقتال بقية الملوك وقاموا لقتاله فاشتدت الحرب بينهم وكانوا يوقفونه عند حده ثم صارت بينهم سجالا الى أن قويت شوكته فتغلب عليهم وظفر بهم وأخذ منهم قسم صا الحجر وقسم اتريب وقسم ليبيا وقسم منف ولم يتعرض للتنبسيين الذين هم بقية عائلة الملوك التنبسية الحاكمين على جميع البلاد شرقى الدلتا ثم سار بجيوشه الى الصعيد فأذعن له بعض أمرائه بالرضا والتسليم وبعضهم بالقهر والغلبة وما زال حتى وصل قسم ارمنت واستولى عليه وضرب الضرائب على قسم اهناس الجنوبية وكانت هذه الاصقاع تابعة (لبعنخى) ملك الايتيوبيا فلما بلغ (بعنخى) خبر زحف (تفنخت) المذكور ركب لقتاله واقتتل الفريقان قتالا شديدا للغاية فانتصر (بعنخى) ملك الايتيوبيا على (تفنخت) نصرا مبينا. قال صاحب العقد الثمين ونقش ذلك على حجر وجد بجبل برقل ونقل منه الى متحف بولاق وهذا نص نقوشه التى ترجمها ده روجه

(فى غرة توت) سنة احدى وعشرين من حكم ملك الوجه القبلى والبحرى (بعنخى) ميامون مخلد ذكره صدر أمر منه عما نصه اسمعوا مافعلته زيادة عن أجدادى أنا الملك الخرج من سلالة مقدسة النائب عن المعبود (توم) اشتهرت بأنى ملك منذ خروجى من ظلمة الاحشاء واحترمنى الامراء . . . وميزتى والدتى بسمة الملك من صغرى أنا المقدس الطيب محبوب المعبودات ابن الشمس (بعنخى ميامون) لما بلغنى أن (تفنخت) أمير الجنوب الحاكم الاكبر فى مدينة (نتر) تملك على . . . (قسم اكسوئيتس) وعلى مدينة (حعب . . .) وعلى

مدينة ﴿عين﴾ وعلى مدينة ﴿بنوب﴾ المسماة باليونانية ﴿مومنفيتس﴾ وعلى مدينة ﴿منف﴾ واستولى على جهة الغرب من أول بلاد البحيرات أعنى ﴿بوتو﴾ الى الحدود الفاصلة بين الصعيد والبحيرة وسار نحو الجنوب بجيش جرار واجتمع معه سكان الاقليمين وأطاعته الامراء وأعيان البلاد وصاروا تحت رجليه أذلة كالكلاب ولم يغلق دونه حصن فى الاقسام الجنوبية وسلمت له مدينة ﴿ميدوم﴾ ﴿وبيسخم خبررع﴾ ﴿والبهنسة﴾ ﴿وتكاناش﴾ وباقى المدن التى فى الجهة الغربية خوفا منه ورجع الى أقسام الجهة الشرقية ففتحت له البلاد وهى ﴿سابنو﴾ ﴿وتانوماى﴾ ﴿واطفيح﴾ وزحف متقدما الى أن حاصر مدينة اهناس الجنوبية حصارا تاما من كل جهة ومنع الناس عن الدخول فيها والخروج منها واستمر فى قتالها حتى غلبها وأبقى الامراء الذين اعترفوا له بالسيادة فى أقسامهم وأباح لهم الحكم على البلاد كما كانوا وعظموه بما يستحقه لذكاء عقله فانشرح فؤاده قال ﴿بعنخى﴾ وكانت تأتينى الرسل كل يوم من قبل الامراء وقواد الجيوش سائلة عن سبب سكوتى وعدم مدافعتى عن بلاد وأقسام الوجه القبلى ومخبرة لى بأن ﴿تفنخت﴾ أخذها ولم يعارضه أحد وان النمروذ رئيس الاشمونين وأمير ﴿حاور﴾ أى ﴿هيلوبوليس﴾ هدم حصون ﴿نفروس﴾ ودمر المدينة مخافة أن يأخذها ﴿تفنخت﴾ ثم التجأ الى مدينة أخرى فاقتفى ﴿تفنخت﴾ أثره فاضطر الى الخروج عن حزبى والانضمام اليه وصار من جملة رعاياه وأعطاه قسم اهناس الجنوبية وكافأه وغمره بجميع ما تمناه من الخيرات. فعند ذلك أرسلت الى قوادى وضباط عساكرى الذين كانوا فى مصر بطيبة وهم ﴿بورم﴾ ﴿ولامرسكانى﴾ وغيرهم من بقية ضباطى المقيمين بالجهات المصرية أن يستعدوا لقتاله ويسلبوا رجاله ومواشيه وسفنه التى فى النيل ويمنعوا العمال عن الخروج الى الغيطان والزراع عن الزرع ويحاصروا مدينة ارمنت ويهجموا عليها هجوما متواليا فذهبوا الى حيث أمرتهم وأمددتهم بجنود أرسلتها اليهم ونصحتهم بنصائح عديدة قبل توجههم الى القتال بقولى لاتهجموا أثناء الليل هجوم المتلاعبين بل اهجموا متى رأيتم انه أعد جيوشه وخيوله للسير اليكم واذا قيل لكم انه جمع مشاته وخيالته فى مدينة أخرى فاثبتوا فى مكانكم الى أن تأتى اليكم جنوده وقاتلوهم واهجموا عليه متى قيل لكم انه نزل بجيوشه فى اية مدينة وانضم اليه الرجال الذين أحضرهم لاعانته من رؤساء التهاميين وعساكر الوجه البحرى أو متى تمم هيئة القتال على النمط القديم لاننا لانعلم ما يريده من تشكيل عساكره المشاة وفرسانه الكماة واذا اشتبكت الحرب فاعلموا أن ﴿امون﴾ هو المعبود الذى أرسلنا اليهم واذا وصلتم الى قسم ﴿أوس﴾ امام مدينة طيبة فانزلوا فى النيل وطهروا أنفسكم منه والبسوا ملابس الاعياد فى ساحل ﴿تب﴾ وضعوا عنكم القسى والسهام ولا يتعرض رئيس منكم الى ﴿أمون﴾ صاحب الشجاعة اذ بدونه لايكون لفارسكم قوة لانه يجبر الذراع الكسير ويغنى العدد الكثير وينصر الواحد على الالوف واغتسلوا فى مياه معابده واسجدوا له وقولوا

تب

بن أقــدتنا على الحق لتحارب فى ظل سـيفك لان المقاتلين الذين ترسلهم يبددون الالوف
نعند ذلك واضعوا امامى قائلين اسمك سيفنا وعلمك مرشد لجيوشنا وخبزك فى جسمنا حيثما
ذهب ومشرو باتك تطفئ ظمأنا وشجاعتك ســلاحنا والنصر مقرون باسمك وحاشا أن يثبت
جيش رئيسه معتد باغ فمن يشابهك أيها الملك المنصور الفعال بنفسك الآمر بالحرب وبعدذلك
انحدروا فى النيــل الى أن وصلوا طيبــة ففعلوا كل ماأوصاهـم به ملكهم ثم زحفوا منها
منحدرين أيضا فى النيل فقابلتهم سفن حربية سائرة الى الجنوب مشحونة من الوجه البحرى
بالملاحين والجنود والضباط المـاهرين المدربين وكان مجيئهم لمحاربة جيش الملك ﴿ بعنخى ﴾
فحاربهم رجال الملك المذكور وقتلوا منهم جما غفيرا وأسروا باقى عساكرهم وسفنهم وأرسلوهم
أحياء الى محل اقامة الملك ﴿ بعنخى ﴾ ثم ساروا قاصدين مدينة اهناس الجنوبية لمحاربة
أهلها فبلغ أمرهم الى أمراء مركز الصـعيد وهم النمروذ والملك ﴿ وابوت ﴾ ﴿ وششنق ﴾
ملك الشواشين بمدينة أبى صير ﴿ وتا مناوف عنخ ﴾ ملك المشواشين الاكبر بمدينة تمى
الامديد وابنــه البكرى قائد الجيوش فى ﴿ بانوت ابرعو ﴾ ﴿ وبوكوتق ﴾ ولى العهد
وجنوده وابنه البكرى ﴿ نس نفدى ﴾ رئيس المشواشين فى قسم اتريب وجميع الامراء
المتوجين بريشة الوجه البحرى ﴿ وأوسوركون ﴾ أمير مدينة بسطة ومدينة ﴿ رع نفر ﴾
وجميع أعيان ورؤساء وحكام الاقسام الغربية والشرقية والبـلاد الوسطى وكانوا كلهـم
متفقين على رأى واحد وهو اتباع ﴿ تفنخت ﴾ رئيس الوجه القبـلى الاكبر الحاكم على
أقسام الوجـه البحرى كاهــن المعبودة ﴿ نيت ﴾ سـيدة صا الحجر وكاهن ﴿ بتاح ﴾
فقدمت عليهم رجال ﴿ بعنخى ﴾ وأوقعوا بهم القتل الشديد وأخـذوا سفنهم من النيل
ومن بقى منهـم عبر النهر وأقام جهة الغرب فى محل يدعى ﴿ بايك ﴾ وفى صـباح اليوم
الثانى من تلك الواقعـة اجتاز جيش ﴿ بعنخى ﴾ النيل مقتفيا أثرهم فادركهم واختلطت
الجنود بالجنود وقتلوا كثيرا من رجالهم وخيولهم وحصـل للباقين منهم رعب شـديد فهربوا
الى الوجه البحرى منهزمين شر هزيمة قال المترجم ولم نقف على خسائرهـم لكسر حصـل
فى الحجر قال ولما سمع النمروذ ان جنود الملك ﴿ بعنخى ﴾ شارعـة فى أخـذ بلدة ارمنت
جمع من كان معه من رجاله وخيوله ورجع اليها وتحصن بها وكانت وقتئذ جيوش ﴿ بعنخى ﴾
مصطفة على النهر بساحـل قسم ارمنت فبلغهـم رجوع النمـروذ الى بلده فحاصروها من
جهاتها الاربع ومنعوا الناس من الدخول اليها والخروج منها وأرسلوا مكتوبا الى الملك ﴿ بعنخى
ميامون ﴾ يحتوى على أسماء من قتلوه من الاعداء فعند تلاوته اغتاظ وتلون كالنمر وقال لئن تركوا
الجيوش الوجه البحرى أحياء أومكنوا أحدا منهم من الهرب لمقابلة فرقته ولم يقتلوهم جميعا
ومن هزيمتهم فبحياتى وبحق المعبود ﴿ رع ﴾ وبحق أبى ﴿ أمون ﴾ لأقاتلن بنفسى وأهدمن
جميع ماحصنه أهل الوجه البحرى وأحرمنهم نزول القتال ولكن يلزمنى قبل ذلك أن أعمل موسم
رأس السنة بجبل برقل وأقدم القربان لابى ﴿ أمون ﴾ يوم موسمه العظيم الذى يتجلى فيه

بالظهور عند حلول السنة الجديدة وأتوجه الى طيبة لمشاهدته هناك فى موسمه العظيم وأخرج
صورته فيها ليلة موسمه الجليل الطيبى الذى فرمله المعبود (رع) من قديم الزمان
ثم أرجعه الى معبده وأجلسه على تخته ثانى يوم هاتور المعد لدخوله فى المعبد وبعد ذلك أذيق
الوجه البحرى طعم سطواتى ولما بلغ عساكره الذين كانوا بعمرانه غضب عليهم توجهوا لقتال
مدينة (واب) فى قسم (أوكسرنحوس) فأخذوها كموجة الماء المتطايرة وأرسلوا يخبرون
ملكهم بذلك فلم يسكن غضبه ثم هجموا على (تهنى) وكانت مدينة حصينة فوجدوها غاصة
برجال الوجه البحرى فعملوا متاريس حولها وهدموا أسوارها وأوقعوا القتل فى أهلها ولم يعلم
مقدار من قتل منهم الا انه كان فى زمرة القتلى ابن (تفنخت) أمير المشواشيين فأرسلوا
يخبرون الملك بذلك فلم يسكن غضبه فهجموا على (حينو) وفتحوا أبوابها ودخلوا
فيها وأرسلوا يبشرونه بذلك فلم يسكن غضبه أيضا فلما كان اليوم التاسع من شهر توت أتى
(بعنخى) من بلاده الى طيبة وعمل فيها موسم (أمون) السنوى المعتاد ثم توجه منها
الى ارمنت وخرج من مقعد سفينته ووضع السير على خيوله وركب عرباته فانتشر الفزع
منه فى قلوب الناس الى أقصى بلاد آسية ثم برز للقتال وهجم على الاعداء وزأر عليهم كالاسد
وقال لهم اذا ثابرتم على القتال أخرتم أوامرى بالعفو عنكم وان عزمتم على العصيان أنقذت
الوجه البحرى فزعانى فلم يسمعوا قوله فهزمتهم فرسانه شر هزيمة ووضع معسكره فى الجهة القبلية
الغربية من أرمنت وأخذ فى الهجوم عليها كل يوم وعمل متاريس من تراب لتحجب عنهم
ما يأتى من أسوارها ووضع سلالم للارتقاء اليها ففوقت عليها الرماة سهامهم والقى فيها المقلوت
أحجارهم واستمروا على قتال أهلها مدة ثلاثة أيام حتى فسد هواؤها وحرم أهلها استنشاق
الهواء فسلمت أرمنت عند ذلك مستغيثة بالملك وخرج منها رسل النمروذ حاملين من الاشياء
العظيمة ما يسر الناظر كالذهب والحجارة النفيسة وأقمشة البسوس قائلين لقد ظهر الملك وتاج
الثعبان على رأسه وغيظه مكظوم ولم نلبث الا أياما حتى أطعنا تاجه فأرسل النمروذ
امرأته بنت الملك (مستنتح) لترجو زوجات الملك (بعنخى) وجواريه وبناته وأخواته
(فى العفو عنهم) فسجدت أمام زوجات الملك فى القصر قائلة أيتها الزوجات وبنات الملك
وأخواته أغثنى وسكن غضب الملك صاحب القصر فما أكبر سطوته وما أعظم عدالته

سقط من الاصل خمسة عشر سطرا لكسر حصل فى الحجر

قال الراوى فقال (بعنخى) النمروذ لقد سددت طريق الحياة على نفسك فقال النمروذ
لو كنت صعدت نحو السماء كالسهم لادركتنى وكيف لا وقد غلبت بلاد الجنوب وأطاعتك
بلاد الشمال فهل لنا أن نستظل بظلك فقد أفنى بأسك جميع رجالى ــ سطر ساقط من
الاصل ــ فلا أب يرى مع ابنه حتى امتلأت البلاد بالاطفال ثم تواضع امام جلالة الملك وقال
لقد جعلتنى سطوتك فى هذا الحال فأنا أحد عبيدك الذين يدفعون الجزية لخزينتك فاحسب
جزياتهم وأنا أعطيك أكثر منهم ثم بادر بتقديم الفضة والذهب واللازورد والزبرجد والحديد

والاحجار

والاحجار النفيسة المتنوعة بمقدار وافر حتى ملأ خزينة الملك بجزيته وأحضر حصانا بيده اليمنى وآلة موسيقية مصوغة من الذهب واللازورد بيده اليسرى فخرج الملك عند ذلك من قصره وتوجه الى معبد (هرمس) سيد أرمنت والى هيكل المعبودات الثمانية المسمى باسمهم فاظهر له جنود قسم أرمنت الفرح وقال له الكهنة ما أعظم الملك (بعنخى) سلالة الشمس لقد جئت فى مدينتك فنرجوك باحامى حوزة أرمنت أن تعمل لنا عيدا احتفاء بقدومك فتوجه عند ذلك الى المدينة ودخل قصر النمروذ وطاف على جميع حجراته وعاين الخزينة والمخازن وأمر باحضار زوجات وبنات النمروذ فأتين متواضعات لجلالته حسبما تعلم النساء من شئون التواضع الا أن الملك أعرض بوجهه عنهن ثم توجه الى اصطبل الخيول وبيت المهارى فرأى أنهم كانوا تاركيها من غير أكل فأقسم بحياته وحق (رع) الذى يمنحه أنفاس الحياة الجديدة قائلا ان مجاعة خيولى أقبح ذنب فى الذنوب التى فعلتها أيها النمروذ فقال النمروذ لا تغير قلبك بالغضب سأخبر أيها السيد الخدم بغيظك المتسبب عن مجاعة خيولك فقال (بعنخى) هل كنت تظن انك تنسى ظل وجهى المقدس وانهم يفرون من قولى ولو كان انسان غير معلوم عندى وفعل مثل ذلك لما سامحته أما يعلمون انى مذ خلقة الاحشاء خرجت من بيضة مقدسة ومنى المعبود جوهره فكان جسمى من جسمه فلا أفعل شيأ دونه فهو الذى يرشد أعمالى * ثم وهب أموال أرمنت وما فى مخازنها للخزينة وأملاك (أمون رع) ساكن طيبة ثم جاءه ملك اهناس المدعو (بنابسط) بهدايا من ذهب وفضة وأحجار نفيسة ونجائب من خيول اصطبله وسجد امامه قائلا السلام عليك أيها الملك الحاكم المنصور النور الذى يبطش بالثيران لقد كنت فى مكان ضيق تغشانى الظلمة وقد أضاء لى النور بعد الظلمات ولم أجد يوم الشدة من يساعدنى فى القتال سواك أنت المنصور الذى أبدت الظلمات عنى أنا عبدك ولك جميع ما أملكه وتدفع أهل اهناس الجزية لك فانظر كيف وضعنا تمثال (حورمخى) فوق تماثيل الكواكب وكانت منزلتك عندنا كمنزلته وكما لم تنقص قدره كذا لم تنقص قدرك أنت الملك (بعنخى) مخلد الذكر ثم توجه الى (أين) الى مكان يسمى (روهن) فوجد مدينة (براخم خبرع) أسوارها مرتفعة وأبوابها مغلقة وكانت ممتلئة بابطال الوجه البحرى فأرسل يقول لهم أيها المقيمون فى الموت الضعفاء المحترون أنتم أيها المقيمون فى الموت لئن تأخرتم عن فتح المدينة لترون ما يحل بكم من القتل ولو كان يشق على فلا تغلقوا عليكم الأبواب التى افتحها لخلاصكم من ضيق هذا اليوم ولا تفضلوا الموت وتكرهوا الحياة بين الناس . . . . فأرسلوا يقولون له حيث إن ظل المعبود على رأسك وانابن (نوت) أعانك بيده وكل مارغبته كان مقضيا لك فى وقته ما كأنه الا صادر من فم معبود وكيف لا وأنت ابن معبود كما نرى ذلك من أفعالك فالمدينة وأسوارها طوع يدك وأذن لنا بالدخول والخروج فأذن لهم بما تمنوه فخرجوا ومعهم ابن (تفنخت) رئيس المشواشين ودخلت جنود (بعنخى) المدينة ولم يقتلوا أحدا من الناس الذين كانوا

بها وأرسل فى الحال (بعنخى) أمناء خزائنه ليختموا خزائن صكوك تلك المدينة ثم أحصى بنفسه ما فى خزائنها وأشوانها وقطوع به لقرابين أبيه (أمون) ثم توجه الى مدينة (ملريتوم) مسكن (سوكارى) صاحب النور فوجدها مغلقة الابواب ولما وصل اليها اضطربت قلوب أهلها مما حصل لهم من الرعب والفزع الذى أخرس ألسنتهم فأرسل يقول لهم اختاروا أحد أمرين اما ان تفتحوا الابواب فتحيوا بحياتكم والا فتموتون لانى لا أمر بمدينة مقفلة ففتحوا له أبواب المدينة فى الحال ودخلها وقدم قربانا الى (منهى) فى مدينة (شات) وحصر الخزينة والاشوان وأعدها لقرابين (أمون) ثم توجه الى مدينة (تاوى) فوجد أسوارها مقفلة وحصونها مملوءة بأبطال الصعيد ولكنهم فتحوا أبوابها له ووضعوا امامه قائلين ان أباك أورثك السيادة على الاقليمين فستملكهما وتكون السيد الحاكم على الدنيا ولما مر الملك بالمدينة قدم لمعبوداتها قربانا عظيما من ثيران وعجول وإوز ومن جميع الاشياء العظيمة وحصر خزائنها وأضافها الى خزائنه ووهب ما فيها لقرابين (أمون) ولما قرب من منف أرسل يقول لسكانها لاتغلقوا أبوابكم ولاتحاربوا أيها الناس القاطنون فى المدينة لانى سأدخل وأخرج بدون اساءة أحد كالمعبود (شو) الذى كان موجودا فى القرون الاولى وان لم تتعرضوا لى فانى أتقرب بقربان (لبتاح) وللمعبودات منف وأؤدى فى معبد (شيق) الصلاة (لسكارى) وأشاهد (بتاح) وأذهب بسلام وأرأف بمنف وتنجوا من كل غائلة تبكى أولادكم واعتبروا بسكان الوجه القبلى فانه لم يقتل منهم أحد سوى الذين أغضبوا المعبود ولم يصب العقاب الا من طغى فلم يسمعوا لقوله وأغلقوا أبوابهم دونه وأخرجوا منهم عساكر تقاتل فرقة من رجاله مؤلفة من شغالة ورؤساء عمارة وملاحين وكان ذلك على ساحل منف وأما ما كان من أمر (تفنخت) أمير صا الحجر فانه أتى الى منف أثناء الليل وقال مرارا لجنوده وملاحيه وجميع قواده وكانوا ثمانمائة ألف رجل ان منف صارت مستقر أعظم جنود الوجه البحرى والاشوان خاصة بالشعير والقمح وأنواع الحبوب وجميع عدد الاشغال . . . والسور مبنى والطابية الكبيرة محكمة حسب قوانين الحرب والنهر محيط بشرقى المدينة ولا يجد العدو نقطة للهجوم منها عليكم وأنتم تعلمون أن مراعينا مملوءة بالمواشى وخزائنى خاصة بأنواع الفضة والذهب والنحاس والملبوسات والعطريات والعسل فسأذهب وأعطى جميع ذلك لامراء الوجه البحرى وأفتح لهم أقسامهم فدافعوا عن أنفسكم الى ان أعود اليكم فلما تم قوله ركب جواده لكونه أسرع من عربته وذهب الى الوجه البحرى خائفا من الملك (بعنخى) ولما كان اليوم الثانى صباحا قرب الملك (بعنخى) من منف ورسا على جهتها الشمالية فوجد الماء مرتفعا الى أسوارها والسفن راسية على سواحلها وتأملها فرآها محصنة منيعة لها سور مرتفع قد بنى جديدا واستحكامات قوية ولم يجد فيها منفذا للهجوم عليها فتداولت فى شأنها رجاله عما تقتضيه أصول الحرب وقالوا ان الهجوم عليها أولى . . . ولكن نرى جنودها مستعدة فاستحسنوا رأيا آخر وقالوا نجمع كثبانا

مساويه

مساوية لارتفاع سورها ونضع عليها سلالم وتنصب حولها السوارى وعروق الخشب الطويلة
وتضع فى محيطها متاريس من تراب للتمكن منها وبعد رفع الارض بارتفاع سورها تجدلنا
سبيلا للاستيلاء عليها ولكن تاون ملككم ﴿ بعنخى ﴾ تاون النمر وقال وحياتى وحق المعبود
﴿ رع ﴾ وأبى ﴿ أمون ﴾ أنا أعلم ان ماحصل فى هذه المدينة من تحصين وغيره هو بأمر
﴿ أمون ﴾ أما سمعتم كلام سكان الوجه القبلى الذين قصوا ﴿ لأمون ﴾ الطريق رغم أنفهم
لكونهم لم يذكروه فى قلوبهم ولم يعرفوا قدر أوامره فخذلهم ليبين لهم قوته ويريهم هيبته
فسآخذ هذه المدينة كريح عاصف بأمر ﴿ أمون ﴾ وفى الحال أمر قواده بتقريب
سفنه ومراكبه وجنوده ليهجم على منف من جهة الساحل فأحضروا امتثالا لأوامره
جميع السفن والرواميس ومراكب النقل التى يمكنها المرسى على سواحل منف وربطوا
مقدمات السفن فى بيوت المدينة ولم يشعر أحد بهم ولم ينزعج طفل من أطفالهم ثم أتى
الملك ليسير السفن بنفسه وأمر رجاله بالهجوم على المدينة والاحداق بسورها والدخول فى
بيوتها من النهر وقال لهم اذا تسور أحدكم سورها فلا يقف فى محله ولا تقاتلوا الرؤساء
الذين يتقلون لكم لان هذا مذموم لاسيما وقد حاصرنا الآن الوجه القبلى وقربنا من
الوجه البحري وصرنا فى وسط الاقليمين وبهذا التدبير أخذ منف كريح عاصف وقتل منها
خلقا كثيرا وأحضر بين يديه أسراها ولما كان اليوم الثانى من هذه الواقعة أرسل جماعة
يحافظون على المعابد ثم توجه بنفسه الى هيكل معبودات منف وقدم لهم قربانا من
المشروبات وطهر المدينة بالنطرون والبخور وأرجع الكهنة الى أماكنهم ثم توجه الى
معبد ﴿ بتاح ﴾ وتطهر ببابه وعمل مهرجان المملكة ولما دخل فى المعبد قدم لابيه
﴿ بتاح رسنبيف ﴾ قربانا عظيما من ثيران وعجول واوز وغير ذلك من الاشياء النفيسة ثم
دخل قصرها الملوكى وبلغه ان جميع البلاد التى فى ضواحى منف وهى ﴿ حريسديى ﴾
﴿ وبتنافوعنخ ﴾ ﴿ وبيوخن نيو ﴾ ﴿ وتاوحيبي ﴾ فتحت أبوابها وهربت رجالها ولم
يعلموا أين المفر ثم ان الملك ﴿ وابوت ﴾ وأمير المشواشيين ﴿ موكلنشو ﴾ والامير
﴿ بتيسيس ﴾ وجميع رؤساء الوجه البحرى أتوا بجزيتهم راجين أن يؤذن لهم باجتلاء
أنوار للملك ﴿ بعنخى ﴾ وبعد ذلك تطوع الملك ﴿ بعنخى ﴾ بجزيتة وأشوان منف لقربانات
﴿ أمون ﴾ ﴿ وبتاح ﴾ وباقى معبودات ﴿ حكابتاح ﴾ وفى اليوم الثانى توجه الى الجهة
الشرقية وتقرب الى ﴿ توم ﴾ فى مدينة ﴿ حزاو ﴾ والى معبوداتها فى حيا كلهم
والى معبودات مدينة ﴿ لماح ﴾ بقربان من ثيران وعجول واوز راجيا أن يخصوه السعادة
ثم توجه نحو المطرية من جهة ﴿ خر ﴾ وقصد طريق المعبود ﴿ سب ﴾ من جهة ﴿ خر ﴾
ومر بالعسكر الذى كان فى جنوبى مدينة ﴿ مرتى ﴾ وقدم قربانا لمعبوداتها وتطهر فى
المنبع الرطب وغسل وجهه من ماء ﴿ نو ﴾ حيثما تغسل الشمس وجهها ثم مر نحو
﴿ شيوكامان ﴾ وتقرب الشمس وقت شروقها بقربان من ثيران بيض ولبن وعطريات وبخور

وغير ذلك من أنواع الاخشاب ذات الرائحة الذكية ثم قصد معبد الشمس ودخله وصلى فيه مرتين وطلب له الكاهن الاكبر من المعبود أن يهزم أعداءه وبعد ذلك صلى الملك صلاة الباب. قال المترجم وهي صلاة مخصوصة عندهم. وكسا الضريح وتبخر بالبخور وتقرب للمعبود بمشروب وأحضر له أزهار (الجبنبن) وهي المزروعة في المعبد ليستخرج له منها العطر ثم ارتقى على الدرجات نحو الشباك الكبير لينظر الشمس في ضريحها واختلى وحده ورفع المتاريس وفتح الأبواب ونظر الشمس في ضريحها وعظم السفينة المقدسة المعلقة في مقام (دع وتوم) ثم أقفل الابواب ووضع عليها طين ابليز وختم فوقه بالختم الملوكى وقال الكاهن انى وضعت ختما فلا يجوز لاى ملك من الملوك أتى هنا أن يدخل فى هذا المحل فتواضع امامه الكهنة قائلين سيبقى هذا الختم محفوظا مباركا ولا يحصل له أدنى ضرر أيها الملك الحاكم محب المطرية ثم استعد بعد ذلك للدخول فى معبد (توم) وأدى فيه صلوات (انتا) لابيه (توم خبرع) سيد المطرية وفى أثناء ذلك أتى (اسربون) الى المطرية ليجتلى أنوار الملك (بعنخى) ولما كان اليوم الثانى توجه الملك (بعنخى) الى الساحل الذى فيه سفنه وسار منه الى ساحل قسم اتريب وضرب خيمته فى جنوب مدينة (كهانى) التى كانت فى الجهة الشرقية من هذا القسم فأتاه ملوك ورؤساء الوجه البحرى وجميع الامراء والاعيان الممتازين بوضع الريش والظلل على رؤسهم ومعهم أمراء وأولاد ملوك الوجه القبلى والبحرى والجهات الوسطى ليشاهدوا أنوار جلالته وبعد مثولهم بين يديه تواضع الامير (بتيسبس) لعظمته وقال شرف أيها الملك قسم اتريب حفظتك المعبودة (خونت) لترى المعبود (خنتى خاتى) أى (حور) وقدم له فى معبده قربانا من ثيران وعجول واوز وادخل قصرى وافتح خزائنى وتصرف فى جميع مايكون لابى وسأعطيك من النفائس فوق ماترغب من الذهب والزبرجد ومن الخيول أعظم مافى اصطبلاتى فتوجه الملك أولا الى معبد (خنتى خاتى) سيد مدينة (كامور) وتقرب اليه بثيران وعجول واوز ثم توجه الى قصر الامير (بتيسبس) فقدم اليه هذا الامير فضة وذهبا ولازوردا وزبرجدا وغير ذلك من الملابس الملوكية والسرر المغطاة بالاقمشة الرفيعة ومقدارا عظيما من عطر (انتا) وزيتا طيبا فى أوعية وخيلا وأفراسا من أعظم خيول اصطبلاته وحلف الامير (بتيسبس) امام ملوك ورؤساء الوجه البحرى قائلا ان كل من خبأ خيوله وأخفى شيأ مما يملكه فلا بد من موته والحاقه بأبيه وقد حذرتكم لتمتنعوا من اخفاء شئ من أموالكم وان كنتم تعلمون أنى لم أظهر شيأ مما أملكه فأخبروا الملك بما أخفيته فى بيتى ان كان ذهبا أو فضة أو أحجارا نفيسة أو أوانى أو أساور أو عقود ذهب أو عقودا مرصعة بالحجارة النفيسة أو حليا أو قمصانا أو حلقانا أو زينة ملوكية أو من أوان من ذهب للغسل أو حجارة نفيسة سوى ماقدمته اليه من الاقمشة والملابس والنفائس التى فى قصرى وعلمت أنها تعجبه وأرجوك أيها الملك أن تمر باصطبلى وتختار مايوافقك من الخيول فقبل ذلك الملك منه وأمضاه

ثم قال له الملوك والرؤساء نحن أيضا نذهب الى مدننا ونفتح خزائننا وننتخب منها مايعجبك ونأتى لك بها وبأعظم مافى اصطبلاتنا من نجائب الخيل فأجابهم الى ذلك وانصرفوا وكانوا أربعة عشر ملكا وهم ﴿ اساركون ﴾ ملك مدينتى ﴿ بسطة ورع نفر ﴾ ﴿ ووابوت ﴾ ملك مدينتى ﴿ تنترينو وتاعان ﴾ ﴿ وناتامن اف عنخ ﴾ رئيس مدينتى ﴿ تمى الامديدونا ارع ﴾ وابنه الكبير ﴿ وعنخ حور ﴾ رئيس العساكر فى ﴿ باوت ابرحح ﴾ ﴿ وموكانشو ﴾ رئيس ﴿ سبنوتس ﴾ ﴿ وباحبى ﴾ ﴿ وسمهود ﴾ ﴿ وبتنف ﴾ رئيس المشواشين الاكبر فى جهتى ﴿ بسوبتى ﴾ ﴿ وابن سوبتى حز ﴾ ﴿ وبحو ﴾ رئيس المشواشين الاكبر فى قسم أبى صير ﴿ وناسنا كلق ﴾ رئيس المشواشين الاكبر فى قسم ﴿ حسب ﴾ ولعله قسم ﴿ كربوتيتس ﴾ ﴿ ونخت حورناسنو ﴾ رئيس المشواشين الاكبر فى قسم ﴿ باور ﴾ ﴿ وبتا ار ﴾ رئيس المشواشين ﴿ وبنتاوخن ﴾ رئيس المشواشين وكاهن ﴿ حور ﴾ سيد مدينة ﴿ حضم ستوحارستمو ﴾ ﴿ وحوربسا ﴾ رئيس قسمى ﴿ باحضت بنت سا ﴾ ﴿ وبلحضت نبرا حساوى ﴾ ﴿ ونخيو ﴾ رئيس ﴿ خنتبنفر ﴾ ﴿ وبابس ﴾ رئيس ﴿ خراوو بحاى ﴾ قال الراوى ثم أتوا بهداياهم العظيمة وكانت . . . من ذهب وفضة وسرر مغطاة بالاقمشة الرفيعة وعطر فى أوعية وغير ذلك من الهدايا العظيمة كالخيول ونحوها ولما أتوا قالوا للملك ﴿ بعنخى ﴾ ان رئيس مدينة ﴿ مسى ﴾ أغلق سورها خوفا منك وأحرق خزائنه وتهيأ للقتال على النهر وملأ مدينته بالجنود . . . فعند ذلك أرسل الملك فرسانه لينظروا ماذا حصل من عدو الأمير ﴿ بتنيبس ﴾ فرجعوا اليه قائلين نحن قتلنا جميع الرجال الذين وجدناهم فى تلك المدينة فأعطى الملك أرضها للامير ﴿ بتنيبس ﴾ ولما بلغ هذا الخبر ﴿ تفنخت ﴾ رئيس المشواشين أرسل ﴿ لبعنخى ﴾ رسولا يقول له اكظم غيظك فانى وجل من رؤيتك لعدم مقاومتى نار حربك وامتلأ قلبى بفزعك لانك كمعبود الجنوب ﴿ نبتى ﴾ وكمعبود الشمال ﴿ مونت ﴾ الموصوف بالثور المنصوران أردت شيأ لم يعارضك أحد فيه أنا الآن وصلت جزائر البحر خشية من سطوتك ومن تو يضك المؤلم وتعنيفك الموجع أما يسكن خاطرك بما حصل لى منك ألا ترى انى صرت الآن حقيرا فلا توقعنى فى شرك ذنبى لان دقة الميزان تظهر الفروق الصغيرة فأسألك أن تضاعفها لى بالعفو منك واعلم أنك إن بذرت بذورا حصدت محصولها عند حلول وقتها ولا تخلع الساق حينما يكون مكللا بالازهار ولقد أوقعت الرعب فى قلبى وسرى فزعك فى سائر أعضائى حتى صرت لاأستقر لحظة فى حانة المشروبات ولا أتناول سوى الخبز اذا اشتد جوعى والماء اذا اشتد ظمئى ومذ بلغك اسمى بالعصيان ألم يجيئنى الفزع وتصدع رأسى وخلقت ثيابى وقد التجأت الآن لحى المعبودة ﴿ نيت ﴾ فأتنى وانظر بوجهك نحوى وان جحدت ذنبى أفلا يعفو السيد عن خادمه وخذ لخزائنك جميع ماأملكه من ذهب وحجارة نفيسة وأجود مافى خيلى المعتدة بعددها وأتمنى عليك قدوم رسول من عندك ليزيل الرعب من قلبى وأذهب معه عند المعبود

وأحلف يمينا أمامه بعدم العود فارسل الملك اليه (بتامنستو) الكاهن الا كبر ومعه (بوارما) رئيس الجيوش فاعطاهما (تفنخت) فضة وذهبا وملابس وتجارة نفيسة متنوعة ثم توجه معهما عند المعبود وتاب اليه وحلف يمينا مقدسة بانه لايخالف أوامر الملك ولا يتعدى أقواله ولايبيء رئيسا من غير رضاه وأن يفعل طبق كلامه ويمتثل أمره فرضى الملك بذلك منه وفى الحال جاءه البشير يقول له إن مدينة (تترحانبو) فتحت أبوابها ومدينة (أفروديتو بوليس) أذعنت لطاعتك ولايوجد قسم من أقسام الجنوب والشمال والغرب والشرق مغلقا دون جلالتك وأن الاقاليم الوسطى تواضعت خوفا منك وأتاك أهلها باموالهم واعترفوا أنهم رعيتك ولما كان اليوم الثانى صباحا أتى ملكا الوجه القبلى وملكا الوجه البحرى وتاج الثعبان مضىء على جباههم ومعهم رؤساء الوجه البحرى ليقدموا تحيتهم للملك (بعنخى) ويتشرفوا بلقائه وكانت فرائصهم ترتعد كفرائص النساء فلم يؤذن لهم بالدخول لدى الملك لانهم كانوا مدنسين با كل السمك المحرم أ كله فى محل الملوك وانما أذن فقط للنمروذ بالدخول فى قصر الملك لكونه طاهرا لم يأ كل السمك المنهى عنه وأما الباقون فانهم لبثوا وقوفا على الاقدام من غير أن يؤذن لهم بالدخول و بعد ذلك أراد الملك (بعنخى) الرحيل الى بلاده فشحن سفنه بما أهدى اليه من الذهب والنحاس والملابس والخيرات الواردة اليه من الوجه البحرى ومن الشام ومن بلاد العرب وسار فى النيل وقلبه مسرور وأهل مملكته مستبشرون به من الغرب الى الشرق فكانوا يستقبلونه مظهرين السرور وكان كلما حل فى جهة رفع أهلها أصواتهم بالفرح قائلين أيها الملك المنصور (بعنخى) لقد أتيت وحكمت الوجه البحرى وصيرت رجاله أذلة كالنساء وحل الفرح فى قلب أمك التى ولدتك فصرت شهما وأعطاك (آمون) بجوهره فبشرى لك أيتها البقرة التى ولدت ثورا كان له على ممر الدهور ذكر مخلد وملك مؤبد ألا وهو الملك المحب لقسم طيبة انتهى

وجعل الملك (بعنخى) مصر تابعة لمملكته وأبقى لرؤسائها مالهم من الامتياز وجعل (تفنخت) ملكا عليهم بالاصالة بعد ان كان رئيسا على الجيوش المصرية فاستقر (تفنخت) بمدينة صا الحجر مقر حكومته الاصلية ورجع (بعنخى) الى مقره بمدينة (نبتا) ونقل اليها تخت الملك من طيبة ومنف بعد ان أرجع الاحوال فى مصر الى سابق مجراها ولم يعش عليه بعد رجوعه الى (نبتا) الاقليل حتى أدركه الموت فورثه فى الملك أمير اسمه (كاتشا) لم يكن من بيت الملك وانما كان متزوجا بابنة كاهن مصرى من العائلة الملوكية قبل ولما انتقل الى (كاتشا) المذكور الملك من عائلة (بعنخى) قام عليه أهل مصر وخرجوا عن طاعته فسحب جيوشه من الاقليم البحرى ومن مصر الوسطى وانحاز الى بلاد السودان وفى هذه الاثناء مات أيضا الملك (تفنخت) فقام بالامر بعده ابنه المسمى (باكوريس) الملقب (بوح كارع)

(في الملك باكوريس)

ولما استقر (باكوريس) على كرسي الملك حذا حذو والده (تفنخت) وحارب أمراء الوجه البحري وولاة الاحكام فيه ونزع منهم مصر الوسطى والاقاليم البحرية وجعل مصر كلها تحت حكمه واستقل بملكها وكان عاقلا مدبرا ذا رأي ثاقب وخبرة بالامور قاضيا متشرعا وفي خلال هذه المدة مات (كاشتا) الذي قام بالامر بعد (بعنخي) عن ولدين أحدهما اسمه (سباقون) وثانيهما اسمه (امريتس) فتولى سباقون بعد أبيه ولما علم بما فعله (باكوريس) ملك مصر سار لقتاله وكان (باكوريس) المذكور مبغضا من جميع الامراء المصريين لتغلبه عليهم ونزع حكم البلاد منهم فلما علموا بقدوم (سباقون) انضموا اليه وعاونوه على قتاله كما عاونوا (بعنخي) على قتال (تفنخت) فوقع (باكوريس) في قبضة (سباقون) في مدينة صا الحجر فأمر بالقائه حيا في لهيب النار فمات وكانت مدة حكمه سبع سنين على مارواه مانيطون المؤرخ وزال بموته الملك من العائلة الصاوية وانتقل الى الدولة الاثيوبية ونزح من بقي من العائلة الصاوية المذكورة الى اقليم الدلتا وتفرقوا فيها وقد أخذت أملاكهم وابتنوا باقليم الدلتا بتر بصوف خروج الاثيوبيين من مصر خمسين سنة كما رواه هيرودوتس المؤرخ اليوناني (قال بعضهم) وقد كان السبب في استيلاء ملوك السودان على مصر تغيير الاحوال واختلاف كلمة ملوك الدولة الرابعة والعشرين وبغض بعضهم لبعض واشتداد المنازعات وقيام الفتنة في داخلية البلاد فعمت الرزايا والمحن وكثرت الخطوب والاحن وزادت الانقلابات والدسائس في الاقاليم القبلية والبحرية وقالت التوراة في هذا الصدد مامعناه ان ملوك تنيس صاروا لاعقول لهم وملوك منف ضلوا وأضلوا قومهم فقضينا أن نعطي مصر للشجبار يتولى أمرها ويدبر شأنها ه فقصد الاحبار الملك الجبار بالملك (سباقون) السوداني وهو رأس الدولة السودانية التي تولت ملك مصر وهو الملقب نفر كارع الآتي ذكره بعد

(الفصل الثامن)

(في الدولة الخامسة والعشرين السودانية)

كان مبدأ ظهور هذه الدولة سنة خمس عشرة وسبعمائة قبل الميلاد أي سنة سبع

وثلاثين وثلثمائة وألف قبل الهجرة وعدد من ملك منها أربعة وسنو ملكهم خمسون سنة وقيل ثلاث وخمسون وأول ملوكها الملك سباقون

(فى الملك سباقون)

قد كان ابتداء ملك سباقون هذا نحو سنة خمس عشرة وسبعمائة قبل الميلاد أى سنة سبع وثلاثين وألف قبل الهجرة بعد تغلبه على الملك باكوريس واحراقه إياه وظفره بمملكة مصر فاتسع نطاق سلطنته الى البحر الابيض وتحلى بحلى الملوك المصرية وتلقب بألقابهم الفرعونية وسار فى الرعية سيرا حسنا فدبر أمور البلاد أحسن تدبير وبث روح العدل بين أهلها وأبقى كل أمير واليا على اقليمه تحت سلطنته وملاحظة أمناء من أبناء جنسه وقد نظم الجسور وأصلح القناطر والترع والخلجان ورمم المبانى النافعة واصطنع المصانع العظيمة وبذل الجهد فى تعمير مدينة بسطة ورمم ماتهدم من مدينة منف وأعاد نقوشها الى رونقها القديم وأصلح مدينة طيبة عاصمة الوجه القبلى وكان (سباقون) المذكور اذ ذاك تحت تصرف شقيقته الملكة (أمن ريتس) وأصلح بعض المعابد والهياكل ويقال انه أول من أبطل العقوبة بالقتل من قوانين البلاد فأحبه الناس ومالت اليه قلوب الرعية وعلت كلمته وبعد صيته فاستتبت الراحة فى داخلية البلاد ورفل أهلها فى حلل الرفاهية وظهر فى أيامه ملك أشور على الفنيقيين والاسرائيليين وأهل فلسطين وأقلقهم بغزواته المتتابعة وكان الاشوريون أهل شدة وبأس وصبر على الحروب فاتحدت الممالك الثلاث على أن تتعاهد مع ملك مصر وتحالفه على الذب والدفاع ليتخلصوا من جور الاشوريين وتقدم اليه هوشع ملك اسرائيل فى ذلك وأرسل اليه هدايا ورغب اليه فى معاقدتهم على قتال شلمناصر ملك أشور فعاقدهم سباقون على ذلك طمعا فى ضم بلادهم الى مملكته كما فعل أسلافه وأخذ الهدايا فى مقام الجزية ٭ فلما علم شلمناصر ملك اشور بذلك احتال على هوشع ملك اسرائيل وما زال به حتى أسره وفاجأ قومه وركب عليهم فأخذهم جميعا أسرى وألزمهم الطاعة فاعترفوا له بها ثم سار شلمناصر الى مدينة ساهرية وحاصرها وضيق حصارها ولكنه مات قبل فتحها وهو آخر بيت السلطنة الاشورية ٭ فلما مات اجتمع أعيان دولته واتفقوا على اقامة (سرخون) كبير قواد الجند ملكا عليهم وبايعوه بالملك فلما استقر به المنصب شدد فى حصار ساهرية حتى فتحها وزحف بجيشه على بلاد فلسطين وحارب ملكها (يهوبيد) وقتله فلما علم سباقون بذلك خاف وسار بعسكره الى الشام وانضم الى (حانون) ملك غزة وكان حليفه فالتقى هناك بجنود ملك اشور فى مدينة (رافيا) فانتشبت الحرب بين الفريقين فانهزمت الجنود المصرية والجنود الشامية ووقع (حانون) ملك غزة فى قبضة (سرخون)

ملك

ملك أشور وهرب سباقون ملك مصر وهام فى القفار فضل عن الطريق فلقيه أحد الرعاة فدله على الطريق وسار معه من فلسطين الى أرض مصر فزالت بهزيمته فى هذه المرة هيبته وعصاه أهل الوجه البحرى وخرج أمراؤه عن طاعته وطردوا من كانوا فيه من السودانيين وأخرجوهم الى طيبة واستقلت حينئذ مدن صان وبسطة واهناس وكان ممن بقى من أقارب الملك (با كوريس) آخر ملوك الدولة الرابعة والعشرين الصاوية رجل اسمه (اسطيفانيتس) فلما رأى خروج هذه المدن واستقلالها عمد لارجاعها الى ما كانت عليه ونادى لنفسه بالملك فتم له ذلك وتكنى بكنى الفراعنة وأرسل الى (سرخون) ملك اشور يبشره بهزيمة عدوه (سباقون) وفراره الى الصعيد ويخبره برجوع حكم الاقاليم البحرية الى أصحابه من المصريين أما (سباقون) فانه لما استعصى عليه اخضاع الوجه البحرى فر الى الصعيد ثم مات بعد قليل فقام بالامر بعده ابنه (سيضون) الملقب (بد كودع) وتولى ملك الاثيوبيا والاقاليم القبلية

(فى الملك سيخون)

(ويقال له أيضا)

(شباناق)

(قال أوبرت المؤرخ) بعد كلام ولقد كانت العائلة الصاوية قبل جلوس هذا الملك فى نزاع واختلاف مع العائلة الصانية باسباب ملك الاقاليم البحرية ورغبة كل منهما فى الاستيلاء عليه فلما آل اليه الملك عقد النية على الانتقام منهما جزاء مافعلاه بأبيه سباقون فجيش الجيوش وأعد معدات الحرب وأكثر منها وازداد همة وإقداما بتفرق الكلمة بين المصريين ثم ركب عليهم وقاتلهم وأنشب نار الحرب فيهم فظهر عليهم وبسط يده على جميع الديار المصرية وحكمها ولكنه لم يلبث بعد هذه النصرة حتى ظهر عليه (طهراق) الملقب (نفرتوم خورع) وقتله وتولى الملك بعده

(فى الملك طهراق)

(ويقال له أيضا)

(تاراقوس)

هو ثالث ملوك الدولة السودانية الخامسة والعشرين وكان رجلا محاربا ظافرا ذا شوكة وبأس

ولما استقر به المنصب ركب على العصاة والخوارج فبدد شملهم وزع مدينة منف ﴿ من اسطيفانيتس ﴾ ملكها وكبير العائلة الصاوية قالوا واستقدم أمه من السودان فقدمت فلقبها بالحاكمة أم الاقليمين القبلى والبحرى وسيدة الامم . تقول العلامة ده روجه . وتحرك ملك أشور لقتاله فزحف بالاشوريين على مصر من ناحية الطينة وقاتل طهراق قتالا عنيفا حتى هزمه فتقهقر بعسكره الى مدينة ﴿ نبتا ﴾ تحت الابتيوبيا فتبعه ملك أشور بجيوشه وأخذ منه منف وطيبة ونهب ما فى هيا كلها من الامتعة وأسر كهنتها وبعث بما ناله منها الى بلاد أشور وأمر بوضع بعضها فى هيا كلها لتكون شاهدة على نصرته على ملك مصر واستقر فى بلاد مصر وجعل ينظر فى اصلاح ما فسد من أحوالها وما اختل من أعمالها وأعاد أمراءها العشرين الى مراكزهم وأرجع اليهم امتيازاتهم وضرب عليهم الجزية وجعلهم يتصرفون فى ولاياتهم كما كانوا وأقام من بينهم الامير ﴿ نخاو الاول ﴾ رئيسا عليهم وكان ﴿ اسطيفانيتس ﴾ فى هذا الحين قد مات وترك ابنا اسمه ﴿ نخبشو ﴾ فتولى حكم إقليم صا الحجر بعد أبيه تحت راية ملوك السودان وكان ﴿ نخبشو ﴾ المذكور ساحرا وملكا كبيرا على ما رواه ﴿ غاليان ﴾ ولكنه كان قليل الهيبة فأقام حاكما على الاقليم المذكور حتى مات وخلفه ﴿ نخاو ﴾ الاول فترأس على أمراء البلاد وحكم تحت سلطة الملوك السودانيين مدة من الزمان حتى تغلب ملك أشور على ﴿ طهراق ﴾ فانحلت تابعية ﴿ نخاو ﴾ واستبد بالامر وكان ﴿ نخاو ﴾ المذكور ذا غيرة ونشاط وحمية فلما انفرد بالحكم أخذ فى تتميم ما كان قد شرع فيه أسلافه منذ مائة سنة من اصلاح شؤن البلاد وتوحيد حكومتها وتحالف مع ملك أشور ليحفظ لنفسه الرئاسة على أمراء مصر واسترجع لحكمه مدينة منف ولما تم لملك أشور الامر ومهد الاحوال فى الديار المصرية أراد الرجوع الى وطنه فحصن مصر ووضع فى قلاعها نفرا من عسكره للذب عن البلاد من غائلة السودانيين اذ كان فى عزمه الرجوع لقتالهم وادخالهم تحت الطاعة ثم سار الى نينوى ليعيد لها رونقها وفخرها القديم وكان قد دوخ مصر وأذلها وأهان عاصمتها طيبة الشهيرة كما فعل ﴿ توتميس ﴾ الثالث ﴿ وامنوفيس ﴾ الثانى بمدينة نينوى منذ تسعة قرون

ونقل صاحب العقد الثمين عن أوبرت المؤرخ فقال انه لما وصل ملك أشور الى نهر الكلب نقش على صخرة هناك بالقرب من الحجر الذى نصبه رمسيس الثانى شاهدا على نصرته نقوشا كثيرة بين فيها فتكه بالمصريين والسودانيين ونسب لنفسه السلطنة عليهما ولما كانت سنة تسع وستين وستمائة قبل الميلاد أصيب بمرض شديد منعه عن الدفاع فعاد حينئذ ﴿ طهراق ﴾ الى مصر وهزم أهل أشور فى منف وخلص المدينة منهم بعد ان حاصرها حصارا شديدا فبلغ أمره أشور أخاالدين وكان قد أحس بالعجز عن القيام بواجب مملكته فتنازل عن الملك لابنه البكرى أشور بانيبال ثم سكن بابل ومات فيها بعد ذلك بقليل فقام أشور بانيبال بأعباء الملك وسار الى مصر لمحاربة الابتيوبيين وضم اليه عساكر الاشوريين الذين كانوا بمصر ودخل فى الوجه

المصرى فلم يعارضه أحد وجال فى البلاد الى ان تقابل بالجيوش السودانية بجوار مدينة (كاربانيت) وتغلب على ملكهم (طهراق) وأخرج جيوشه من منف وطيبة خلت بهما عساكره ومكثت فيهما مدة من الزمان وبعد انتهاء الحرب أرجع الحكم الى الامراء العشرين ثانيا وأصلح الاحوال كما كانت عليه منذ خمس سنين فى زمن أشور أخى الدين وظن بعد ذلك أن لا يعود الاشوريون الى الحرب فعاد الى وطنه الا أنه لم يصادف ظنه محله اذ بوصوله الى نينوى نشر (طهراق) لواء العصيان وعزم هذه المرة على الانتقام من المصريين لمساعدتهم أهل أشور عليه فهابه المصريون وأرسلوا له رسلا ليعقدوا معه معاهدة سرية مقتضاها مساعدتهم له على رجوع ملك مصر اليه فبلغ أمر هذه المعاهدة ولاة أشور الحاكمين فى مصر فبادروا بالقبض على رؤساء العصاة وهم (سادلوداري) رئيس اقليم تنيس (وباكرور) رئيس اقليم (باسوربتى) (وتغلاق) رئيس اقليم صا الحجر وأرسلوهم فى الاغلال الى نينوى وحيث كان أول من عصى من الاقاليم المصرية هو اقليم صا الحجر (ومندس) (وتنيس) نهبهم ولاة أشور ليكونوا عبرة لغيرهم ولكن لم يستطع هؤلاء الولاة صد الملك (طهراق) حيث لم يكن لهم قبل بجنوده فرجعوا القهقرى امامه واسترجع طهراق لملكه مدينة طيبة ومنف وأبطل منهما عبادة العجل (ابيس) الذى عكف المصريون على عبادته حديثا ثم أخذ فى تهديد الوجه البحرى فلما بلغ ذلك ملك أشور أراد أن يحسن المعاملة مع أمراء مصر المأسورين عنده ليكونوا أعوانا له على عدوه (طهراق) فطلب (نيخاو) وخلع عليه خلعة الشرف وأعطاه سيفا غمده من ذهب وعربة وخيولا وبغالا ولكن لم يستصوب أن يرده على اقليم صا الحجر بل جعل ابنه (بساميتك) الكبير حاكما على قسم اتريب ورخص له فى الرحيل الى مصر فعاد (نيخاو) ولم يجد فيها (طهراق) حيث كان قد هاجرها وتوجه الى بلاده لرؤيا رآها فى المنام كما رواه هيرودوتس وكان قد حكم مصر عشرين سنة والاتيوبيا خمسين سنة وبإخلائه الوجه البحرى احتله أهل أشور ودخلوا منف بدون قتال ولكنهم لم يتجاسروا على الجولان فى الجهات القبلية خشية من الاتيوبيين دولى على مصر ثانى مرة أمراءها الاصليين فخلفه صهره (أوردأمن) وأعلن لنفسه بالسلطنة فيها على طيبة وجمع قوة وشرع فى مهاجمة أهل أشور حتى ظهر عليهم امام منف فدخلوا فيها وأغلقوا عليهم أبوابها فلما طال عليهم الحصار سلموا أنفسهم اليه ووقع (نيخاو) فى قبضته فقتله ونجا منه (بساميتك) بن (نيخاو) حيث فر هاربا الى الشام كما رواه هيرودوتس ولما طال الامر بهذه الحالة على ملك أشور عزم على قطع دابر الاتيوبيين من مصر وأمر رجاله بالانتقام منهم فظهروا على (أوردأمن) وهرب الى طيبة مؤملا أن يجيش فيها جيشا ويأخذ منهم بثاره فخاب منه الامل اذ كانوا فى أثره ولم يمكنوه من طيبة ولا من تجنيد الجنود فيها فالتجأ الى (كبكيت) بالاتيوبيا ونهب الاشوريون طيبة وكانت آخذة فى اصلاح ما دمر منها مدة الملك أشور أخى الدين سنة اثنتين وسبعين وستمائة قبل

البلاد وأسروا رجالها ونساءها وسلبوا أموالها من ذهب وفضة وحجارة نفيسة وجميع ما كان ادخره (منتوحمع) فى معابدها من أقمشة فاخرة ونحوها وأخذوا أيضا مسلتين نصبوهما فى نينوى حسب ماوراه (أنين مرسلين) وأرجعوا مصر الى الحالة الاشورية التى كانت عليها فحكمها العشرون أميرا ثالث مرة وهم الذين كانوا متولين أمرها منذ ست أو سبع سنين وترأس عليهم هذه المرة (بسامتيك) ولكنه لم يصل الى درجة والده (بخناو)

وأما (أورد أمن) فانه لجأ الى بلاد الاتيوبيا ولم يرجع وبقيت مصر تابعة لمملكة أشور مدة من الدهر كما رواه أوبرت الى ان رأى أشوربانبال ان التملك عليها يحتاج لكبير مشقة فتركها وتنازل عن سيادته فيها فآلت من بعده الى (نوات ميامون) ملك الاتيوبيا بعد ان استقلت بنفسها حينا من الدهر

(فى الملك نوات ميامون)

(الملقب)

(بيكارع)

(قال أصحاب التاريخ) لم يتنازل ملك أشور عن سيادته على مصر الالاضمحلال دولته وضعف شوكته وخروج مصر عن طاعته فحكمت نفسها مدة فلما رأى ملك الاتيوبيا خروج مصر عن طاعته واستقلالها فاجأها وأغار عليها وأدخل المصريين تحت حكمه ويحرر الخبر أنه لما مات (أورد أمن) ملك الاتيوبيا قام بالامر بعده ابنه (نوات ميامون) المذكور وكان حازما قوى البطش فرأى فى منامه انه سيملك اقليمى مصر القبلى والبحرى ففرح بهذه الرؤيا واستبشر بها وأخذ فى اعداد الجند ومعدات القتال وهاجم الوجه القبلى بجيش ضخم فلم ير من أهله مخالفة وكانت طائفة من الاتيوبيين قد أقامت بطيبة وأسست فيها حزبا قويا جدا وكذلك فى ضواحيها وحازت لنفسها رتبة الكهانة فى معبد (أمون) فأمدوا الملك (نوات) المذكور عندما هم بالاغارة على مصر وساعدوه ومهدوا له الموانع والعقبات فكان لملك استيلاؤه على الوجه القبلى بغير مقاومة ولا منازعة وبعد ان رسخت قدمه فى الوجه القبلى سار لقتال الوجه البحرى فركب أمراؤه لقتاله أيضا فحاربهم وردهم خاسئين فانحازوا الى القلاع والحصون ولم يبرزوا لقتاله وقد طال انتظاره فمل وعاد الى منف على غير هدى من أمره واجتمع الامراء المذكورون وتشاوروا فى الامر فأشار كبيرهم وصاحب الرأى

فيهم

نيهم المدعو (بكرور) بوجوب الطاعة الى (نوات) وان لايخالفوا له امرا فوافقوه
وساروا إلى لقاه (نوات) بمدينة منف وقدموا له الطاعة ففرح بذلك فرحا عظيما وتم له الامر
قال صاحب العقد الثمين ونقش هذه القصة على حجر وجده مريت باشا فى الطلال
مدينة (نبتا) بجبل برقل سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف ميلادية وهو محفوظ الآن
بتحف بولاق وهذا تعريبه بديباجته

(الديباجــــة)

ظهر الملك العظيم (نوات ميامون) يوم ولايتــه كالمعبود (توم) وحكم العالم فكان
ملكا عظيما حائزا للسيادة على الدنيا بأسرها ذا ذراع منصور وعـزم مشـهور أول مبارز
فى القتال ومحارب ذى قوة كالمعبود (مونت) فى الصيال وكان شجاعا كالاسـد المهول
فتا (كهمشرت) أى هرمس المشهور ذا أبهـة فى سياحته بالبحر لنوال المقصود
سائدا على كل أرض وحدود كيف لا وقد ملك مصر بدون قتال ولا معارضة له من أمراء
وأبطال ملك الوجه القبلى والبحرى (بيكارع) سلالة الشمس (نوات ميامون) محبوب
(أمون) ساكن (نبتا)

(القصــــة)

(فى السنة الاولى من حكمه) رأى فى المنام أثناء الليل ثعبانين أحدهما على يمينه والآخر
على يساره فلما استيقظ ولم يجدهما طلب من المعبرين تأويل هذه الرؤيا فقالوا له انك ستملك
الوجه القبلى والوجه البحرى ويضىء على رأسك تاجاهما وتدخل مصر تحت يدك طولا وعرضا
ويكون (أمون) مساعدا لك دون غيره فى هذا الأمر فارتقى هذه السنة على كرسى الملك
ثم خرج من محله كالاسـد إذا انطلق من أجمته وصحبه كثير من الخلق فقال لهم أحق
رؤياى فأنال المرام أم هى أضغاث أحلام وأيتها فى المنام ثم توجه الى (نبتا) عاصمة الايتيوبيا
وقتئذ فلم يعارضه أحـد عند دخوله فيها وتمتع بمشاهدة معبودها (أمون) فوق جبله
المقدس وأحضر له الازهار وأخرجه من محله وتقرب إليه بقربان يليق به وهو ستة وثلاثون
ثورا وأربعون كأسا من المشروبات وقطوع له بمائة حمار ثم سار الى مصر فى النيل بعد أن
تضرع كثيرا لهذا المعبود ذى الاسم المكنون زيادة عن غيره من المعبودات ولما قرب من
جزيرة أسوان عبر النيل وتوجه اليها ودخل هيكل (خنوم رع) معبود الشلالات وأخرج
تمثاله وتقرب إليه بقربان كما تقرب بالخبز والمشروبات لمعبودات منبع النيل ثم انحدر من
علقة النيـل هنالك وتوجه إلى مدينة (نخت حبس) بقسم طيبة التابعة (لامون)

وتوجه منها الى مدينة طيبة ودخل هيكل معبودها (أمونرع) فقابله الكهنة والخدم وكللوه بأزهار هذا المعبود ذى الاسم المكنون فانشرح صدره لاسيما لدى مشاهدته المعبد ثم أخرج تمثال (أمون رع) وعمل له موسما كبيرا فى جميع أرجاء البلد وبعد ذلك سافر فى النيل الى الوجه البحرى فقابله سكان الشاطئ الشرقى والغربى مظهرين الفرح والسرور قائلين توجه مصحوبا بالسلامة فى ذاتك الأمن وفى جوهرك حياة الاقليمين توجه لتصلح الهيا كل التى دمرت وتقيم تماثيل المعبودات كما كانت وتصرف لهم المرتبات وتبعث الرحمات الى الاموات وترجع كل كاهن الى محله لاحياء شعائر الدين . هذا ما كان من أمر الحزب المطيع له وأما حزب العصاة الذين كانوا يريدون قتاله فتبدل بغضهم له خوفا منه وخرجوا عليه بمجرد ماقرب من منف وحاربوه فأحدث فيهم مذبحة كبيرة لايعلم فيها عدد القتلى واستولى على منف ثم زار معبد (بتاح رستيف) وتقرب الى (بتاح سوكر) بقربان وتعبد الى المعبودة (سوخت) الشهيرة بالمحبة وانشرح صدره بمحافظته المعبودات من مساعدته رعاية لمعبوده (أمون) ساكن (نبتا) وأمر بتوسيع معبد (بتاح) وأنشأ فيه ايوانا جديدا ولم يكن قبل فيه ايوان فبناه بحجر غشاه بالذهب وكساه بخشب السنط وملأه بالبخور المحضر من بلاد العرب واتخذ أبوابه من النحاس الاحمر اللامع وطرازه من الحديد وبنى خلفه محلا لحلب حيوانات المعبد وكانت مائة وستة عشر رأسا من المعز وكثيرا من العجول المطلقة خلف أمهاتها وبعد أن أتم ذلك توجه لمحاربة أمراء الوجه البحرى فالتجؤا الى أسوارهم وتركوا له الجهات فانتظر مبارزتهم مدة من الايام فلم يبرز أحد لقتاله فعاد الى منف واستقر بقصره هنالك وعزم على أن يرسل فرسانه فى طلبهم الا أنه قبل توجه فرسانه أخبره حجابه بأنهم أتوا الى الجهة التى كان ينتظرهم فيها فسأل ماذا يطلبون هل أتونى محاربين أم طائعين رجاء نجاتهم فسألهم الحجاب فقالوا بل أتينا طائعين لمولانا الملك فقال الملك وجب على شكر (أمون) معبود طيبة العظيم فى جبله الكريم على كل من آمن به الحفيظ لكل من أحبه معطى القوة لكل من اتبع سبيله وأطاع أمره المرشد لكل من سلك طريقه وهو الذى أرانى فى الليل ماتنظرته فى النهار ثم قال ـ ان ماتريده الامراء لايمكن انجازه الآن فقالوا له انهم وقوف بالباب تخرج من قصره وكانوا مؤمنين بالشمس المنيرة فى أفقها فلما رأوه خروا على جباههم احتراما لهيئته فقال لقد تحقق ماأخبرنى به المعبود وتأكد نفاذ أمره الموعود فسأفعل مايأمرنى به ولى عبرة فى ذلك بما حصل لى الآن حيث تحقق لى وقوع ماأمر به وتأكد عندى ان الشمس المعبودة تحبنى وان (أمون) جعلنى مباركا وكيف لا وانى تربصت هذا الامر حتى تحقق لى وقوعه فأنا كخادم يسعى فى مصالح سيده وعلى الخادم أن يعلم مايليق بمولاه وليس لى أن أتعرض لطلب مايعدنى به بل ينبغى أن أتربص لما سيقع لعل عنايته تسعدنى وتسعفنى فقال الامراء نسأل هذا المعبود الذى نحت أول الامر أن يكون

مرشدا لك ودليلا وأن يجرى الخير على يدك وأن لا يكذبك فيما تقوله فأنت ملكنا وسيدنا وبعد ذلك تكلم (بكرور) ولى العهد وأمير مدينة (بسانبو) مخاطبا للملك بقوله

انك تميت وتحيى من تريد بدون أن يلومك أحد فتبعه الرؤساء جميعا قائلين هل لنا أن نستنشق منك أيها الملك نسيم الحياة اذ لا معيشة لاحد من دونه فنحن نروم أن نخدم (أمون) كوابك حسبما غنيت يوم تسلطنت فلما سمع الملك كلامهم انشرح فؤاده وأعطاهم خبزا ومشروبات وخيرات كثيرة وأبقاهم عنده عدة أيام وهو يغمرهم بالعطايا والاحسان مع كثرتهم ثم ملوا فيم الاقامة هنا ألم تتم مقاصد سيدنا وما كنا فقال لهم الملك لماذا تعجلون بالرحيل فقالوا يلزمنا الرجوع الى بلادنا لنقوم بواجبات رعايانا وعبيدنا فأذن لهم بالذهاب الى بلادهم والتمتع بعيشتهم ثم أتاه سكان البلاد القبلية والبحرية مقدمين له الجزية والخيرات من الصعيد والبحيرة وبذا اطمأن قلب الملك (بيكارع) سلالة الشمس (نوات ميامون) سلطان الوجه القبلى والبحرى دام بصحة وعافية وحياة مرضية ودام ملكه الى الابد اهـ

ومات الملك (نوات ميامون) بعد ان حكم ثلاثسنين وبموته زالت الدولة الخامسة والعشرون وقامت بعدها الدولة السادسة والعشرون

(الفصل التاسع)

(فى الدولة السادسة والعشرين الصاوية)

(قال أصحاب التاريخ) قد حصلت فترة بين مدة ملك الدولة الخامسة والعشرين ومبدأ الدولة التى هى السادسة والعشرون عبارة عن خمس عشرة سنة كانت فيها حكومة البلاد حكومة جمهورية التزامية قالوا و بيان ذلك انه لما أحس أمراء البلاد المصرية بما ألم بالبلاد من الذل والعار والانحطاط والبوار بسبب بسط يد الاغراب عليها واستعظامهم البقاء تحت سلطنة الدولة السودانية مع مابذلته هذه الدولة من مزيد العناية بأحوال الرعية وتحسين حالة البلاد بالعمائر العظيمة والمنافع الجليلة قاموا وعقدوا معاهدة بينهم على انقاذ البلاد من أيدى هؤلاء الطامعين واتحدوا قلبا وقالبا وقاتلوا الدولة السودانية قتالا عنيفا أياما كثيرة حتى أجلوها عن البلاد ثم تقاسموا بينهم الملك فصارت بين اثنى عشر حاكما من أمراء المدن المتعاهدين كل أمير يحكم مدينة اقليم ويحكم ذلك الاقليم بتمامه فسميت هذه الحكومة بالمقاسمة الاثنى عشرية فكانت عبارة عن جمهورية التزامية كما تقدم القول وكان من هؤلاء الامراء أمير اسمه (بسامتيك) صاحب مدينة صا الحجر فتاقت نفسه الى الاستقلال بالملك والاستبداد بالعظمة فقام وقاتل الامراء وطال القتال بينهم كثيرا حتى خلص البلاد من

أيديهم واستولى عليها واستبد بحكمها فصارت بعد ذلك مملكة واحدة قالوا وقد استعان بسماتيك هذا على نزع الحكومة من أيدى هؤلاء الامراء بطائفة من جنود اليونان المتطوعة فقد حكى هيرودوتس المؤرخ واقعة تملك پسامتيك على مصر واستبداده بحكمها على وجه غريب فقال ان بعض الكهنة كان قد أنبأ هؤلاء الامراء المتعاهدين انه سيأتى يوم يتقربون فيه جميعا بالشراب الى المعبود (بتاح) فيشرب أحدهم شرابه فى قدح من حديد فمن شرب فى هذه الكاس تولى ملك البلاد المصرية بأسره قال وكانوا يشربون شرابهم فى أقداح من ذهب فبينما كان هؤلاء الامراء الاثنا عشر مجتمعين للتنادم على الشراب تقربا الى المعبود (بتاح) ولم تكن أقداح الذهب الموضوعة بينهم الا احدعشر قدحا لسهو حصل من الكاهن الموكل بتقديمها فبقى أحدهم وهو الامير (بسامتيك) بدون قدح فنزع مغفره من رأسه وكان من حديد فشرب به الشراب فتذكر رفقاؤه ما أنبأ به الكاهن وتنبهوا لذلك فأكرهوه على أن يهاجر الى بعض اجمات الوجه البحرى خشية أن يستبد بالملك دونهم فأقام بتلك الاصقاع منفيا وبينما هو كذلك استقدم اليه أحد الكهان وسأله عما سيقع له فبشره بأنه سيأتى يوم يستبد فيه وحده بحكم البلاد وأن ينصره على أعدائه رجال من حديد يقدمون عليه من جهات البحر الابيض فاتفق أن رسا على سواحل مصر جماعة أصحاب صيال من ملاحى اليونان مسلحين باسلحة من حديد وطلعوا الى البر على مقربة من منازل (بسامتيك) يريدون النهب والسلب فلما علم (بسامتيك) بنزولهم فطن لأمرهم وتذكر بشرى الكاهن له فبادر اليهم ورحب بهم وأكرم نزلهم ووعدهم بالانعام فعاهدوه وحالفهم على أن ينصروه وحالفوه ودخلوا فى خدمته فقام بهم على الامراء وشن الغارة عليهم وانحاز اليه أيضا حزب من أهل البلاد فتلاقى جند الفريقين واقتتلوا فظفر (بسامتيك) بهم وخلعهم من مناصبهم واستبد بالملك وحده فكان هو مبدأ العائلة الصاوية السادسة والعشرين وبه عاد الى مصر مجدها الأول وشوكتها القديمة وطمحت الى الغزوات والفتوحات الجسيمة فنالت من توسيع دائرة ملكها بعد الضعف ماشاءت وقد حقق بعض أهل الاستكشافات الجديدة أن الدولة الاثنى عشرية أقامت متحالفة خمس عشرة سنة ويظهر لبعض المؤرخين أن ملوك الدولة السادسة والعشرين المذكورة بل والامراء الاثنى عشرية أيضا هم من نسل الامراء الاغراب وأنهم من مغاربة برقة وأنه قد جعلهم كثير من المؤرخين من أبناء أمراء مصر المتأصلين ولكنهم مع ذلك كانوا من الشهرة وعلو الهمة بمكان اذ أورثوا البلاد السعادة والرفاهية مدة مائة سنة وثمان وثمانين سنة بما فعلوه من إحياء العلوم والفنون والصنائع وبناء الهياكل القديمة بعد اندراسها وتجديد المعابد العظيمة وغير ذلك من الاعمال الجسيمة التى أحدثوها بمدينة صا الحجر تخت ملكهم (قال بعض كتاب الاخبار) ولم تزل بقايا تلك الأعمال الى الآن تدل على عظم تلك المدينة التى كان حولها مالا يحصى من الحدائق والبساتين والطيور المغردة والوحوش المستانسة والأنهار المطردة والرياض المونقة والقصور المرتفعة مالا يدخل تحت الوصف ويظهور (بسامتيك)

المذكور

المذكور ظهرت الدولة السادسة والعشرون فكان مبدأ ظهورها سنة خمس وستين وستمائة قبل الميلاد أى سنة سبع وثمانين ومائتين وألف قبل الهجرة ومدة حكمها مائة سنة وثمان وثلاثون سنة وعدد ملوكها تسعة وقيل ستة وسيأتى ذكر ما آثر كل منهم بعد

(فى الملك بسامتيك الاول)

﴿ تولى بسامتيك المذكور ﴾ الملك مستقلا سنة خمس وستين وستمائة قبل الميلاد المسيحى أى سنة سبع وثمانين ومائتين وألف قبل الهجرة المحمدية وكان رجلا حازما محمود السيرة محبا للعلوم والفنون والصنائع فلما استقر به المنصب وسع ملكه بالفتوحات ففتح الاقاليم القبلية بدون قتال واتصل بالشلال الاول وتزوج بالاميرة ﴿ شابنت تب ﴾ بنت الملكة ﴿ أمن ريتس ﴾ التى كانت حاكمة على الاقاليم القبلية ليحفظ لنفسه ولذريته من بعده الملك حسب الرسوم القديمة اذ كان لايعتبر الملك ملكا حقيقيا الا اذا كان متأصلا أو متزوجا من بيت الملك كما تقدم الكلام على ذلك فى محله وكانت مصر فى سلطنته قد مات أكثر رجالها وتولاها الخراب باسباب حروبها المتتابعة مع الاشوريين والايتيوبيين فقد حاصر الاشوريون مدينة منف ونهبوها ودمروا مدينة طيبة وأحرقوها مرتين وخربوا أكثر المدن والبلاد العظيمة فاشتغل المصريون بقتال الاعداء والدفاع عن الوطن وتركوا النظر فى المنافع العمومية فطمت الترع وسدت الطرق التى عنى سابقون الملك بفتحها واندرست معالم تلك الاعمال النافعة أوكادت وزالت بهجتها فعمد ﴿ بسامتيك ﴾ الملك الى أحياء البلاد واعادة رونقها القديم فاصلح الترع وسهل الطرق وأعاد الامن والراحة الى سابق مجراهما وبث العلوم والصنائع بين الرعية وعمر بيوت العبادة وبنى واجهات معبد ﴿ بتاح ﴾ فى مدينة منف من الجهتين الشرقية والقبلية وأنشأ فيها طرقات على عمد عديدة وبنى القاعة الكبرى التى كان يعلف فيها الثور ﴿ ابيس ﴾ وأصلح ماتهدم فى معبد الكرنك وحث الناس على اكتساب العلوم والمعارف وشدد عزائم أمرائه وكبار دولته على ذلك فاتقنت فى أيامه صناعة النقش والتصوير والرسم والتمثيل وجمعت التماثيل بين التناسب والاعتدال وتساوت فيها الاعضاء من حيث التناسب وقد كانت فى عصر ملوك منف والملك رمسيس الثانى تصنع إما عريضة وإما كبيرة غير متناسبة الاعضاء وأحسن سياسته مع بقية الممالك وشيد حصون البلاد وحصن قلاعها وأنشأ المعاقل فى مضايق طريق الشام من الجهة الشرقية وفى ضواحى بحيرة المنزلة من الجهة الغربية وفى الشلال الاول من الجهة القبلية اذ كان للمصريين أعداء ثلاثة لاينكفون عن شن الغارة عليهم واختلاس الفرص المناسبة للتغلب عليهم وهم الاشوريون من شمالها والايتيوبيون من جنوبها ومملكة القيروان التى استعمرتها اليونان على شمالها أيضا وقد نزلت بها طوائف من مغاربة ليبيا وحصن مدينة ﴿ دفنه ﴾ القريبة من قلعة ﴿ تسال ﴾ لمنع اغارة الاشوريين ووضع فى

جزيرة (أسوان) و (مربا) مرابطين لمنع اغارة مغاربة برقة والسودان كما رواه هيرودوتس (قال ليبسيوس) فلما أتم هذه الحصون والمعاقل انتقل من حالة الدفاع الى حالة الهجوم فغزا النوبة واستظهر عليها ولم يعلم تفصيل هذه الواقعة غير أن جنود اليونان الذين استأجرهم لهذه الغزوة نقشوا اسمه وأسماء قواد جنوده على جدران التماثيل الموجودة فى معبد (أبى سنبل) اه ويقول المصريون انهم دخلوا (قرقيش) التى على مقربة من الشلال الثانى وأدخلوها تحت حكم مصر وسماها اليونان بعد ذلك (دوديكاشين) أى اثنى عشر شينا وذلك لان المسافة الواقعة بينها من الجهة الجنوبية وبين جزيرة أسوان هى اثنا عشر شينا يعنى ثلاثين مرحلة ثم سار بجنوده أيضا يريد فتح الشام فقاتل أهل فلسطين وملكها وأخذ مدينة (اشدود) احدى مدائن الكنعانيين ولم يتوغل فى داخلية البلاد بعد هذه الغزوات

قال هيرودوتس المؤرخ وبعد هذه الفتوحات حلت بمصر مصيبة عظيمة وداهية جسيمة وذلك ان (بسامتيك) المذكور سلك مسالك أسلافه الفراعنة من تقريب الغرباء اليه وتوطينهم فى بلاده فرغب فى مصر الاغراب وأتوها من كل صوب وحدب ووفد اليه كثير من اليونان والكاريين فأكرم نزلهم وأقطعهم أرضا على سواحل بحر الطينة (قال استرابون) وفى ذلك الوقت جاء الى مصر أيضا أقوام من الميليزيين فى ثلاثين سفينة فرسوا بها على سواحل رشيد ونزلوا هنالك وأنشؤا فى ذلك الموقع العظيم معسكرا كبيرا للغاية وأقاموا لهم أحكاما مخصوصة سموها بالمعسكرى (الميليزى) وانحاز اليهم أيضا آخرون من الاغراب النزلاء فكثروا ونموا وقويت شوكتهم وأرسل لهم (بسامتيك) الملك بعض الغلمان من المصريين ليعلموهم اللغة اليونانية ليترجموا منها مايحتاج اليه الحال باللغة المصرية فتخرج الكثير من هؤلاء الغلمان واتسع بسبب ذلك نطاق التجارة فنهضوا الى تأسيس مدرسة فى الاقليم البحرى لتعليم الشبان فن الترجمة وظن بسامتيك الملك انه باختلاط قومه بأمة برعت فى الصناعة تنبث فيهم بأسباب هذا الاختلاط روح البراعة فيصيرون مع تمادى الوقت بارعين كرجال تلك الامة ولكنه لم يصب ظنه المرمى الصحيح اذ كان الغرباء يسعون منذ قرنين فى تكدير راحة البلاد وايرادها موارد البوار وقد كره المصريون لذلك مخالطتهم ولا سيما مخالطة اليونان الذين أتوا الى مصر فى ذلك الحين وما قبله بقليل * قال بعض المؤرخين * وربما كان للمصريين بعض الميل الى الامم التى كانوا يعرفونها قديما كالفينيقيين والاسرائيليين والاشوريين ولكنهم لايحبون من حدث عليهم من نزلاء اليونان

ولما استقر اليونان بمصر شاهدوا من المصريين التمدن والشلاح فأولعوا بمصر ومالوا الى ديانتها وعلومها فأرادوا أن يذهبوا بعبادتهم مذهب عبادة مصر وأن يخلطوا عائلاتهم الشهيرة بالعائلات الملوكية المصرية فشبهوا معبودهم (أثينه) بمعبود المصريين (نيت) الذى بصا الحجر



كما رواه ديودور الصقلى قال هيرودوتس المؤرخ وأكثروا من تلك التشبيهات حتى ملؤا كتبهم منها وأدخلوا أطفالهم المدارس المصرية ليتعلموا فيها العلوم والحكمة فمن تخرج عليها من مشاهير اليونان ﴿سولون﴾ ﴿وفيساغورس﴾ ﴿وأدوكس﴾ ﴿وأفلاطون﴾ ومع ذلك فقد كان المصريون ينظرون اليهم بعين المقت ويعتبرونهم أمة نجسة فكانوا يجتنبون معاشرتهم كى لاينجسوا منهم بل كانت العامة من المصريين لاتأكل ولا تشرب مع اليونان ولاتستعمل سكاكينهم ولا طناجرهم وكان أصحاب المظاهر يعتبرونهم كطفل جاهل شب بين عائلة أصلها متوحش فكانوا يخفون هذه الكراهة ثم ظهرت بعد ذلك للعيان اذ كثر ميل الملك ﴿بسامتيك﴾ اليهم أى الى اليونان والى الكاريين احدى طوائفهم فكان يعطيهم الرتب العالية ويقربهم منه لمساعدتهم اياه على قهر أعدائه كما تقدم القول واتخذ له منهم حراسا وألف منهم جناح الجيش الايمن الذى هو علامة الشرف والنصرة وأقام منهم المرابطين بعد أن كان المحافظون على البلاد من المصريين والمشواشيين وقد اختصوا بها من قديم الزمان فلما رأوا هذا كله ولا سيما نزع المحافظة على البلاد من أيديهم وبقاء عساكر اليونان المحافظين على ﴿مريا﴾ ﴿ودفنه﴾ وجزيرة أسوان بدون تغيير ولا انتقال من مراكزهم مدة ثلاث سنين خلافا للنظام المتبع فى ذلك هاجوا وماجوا وعزموا على ترك الاوطان فاجتمعوا وتشاوروا فى الامر فاستقر رأيهم على أن الرحيل وترك الاهل والوطن خير من الخروج وشق عصا الطاعة فاجتمع منهم نحو المائتين وأربعين ألفا وكلهم شاكو السلاح وساروا قاصدين بلاد الايتيوبيا ولم يصل خبرهم الى ﴿بسامتيك﴾ الملك الا بعد خروجهم من مصر فسار فى إثرهم فى عدة كثيرة من قومه حتى لحقهم وأخذ يلاطفهم ويستعطفهم أن لايتركوا معبودات بلادهم ولا يفارقوا أهلهم وولدهم فقال له أحدهم لاحاجة لنا بك الآن فانا نرزق بنساء واولاد فى أى أرض كنا وساروا فى طريقهم فرجع بسامتيك على عقبه وما زالوا حتى دخلوا بلاد الايتيوبيا فتلقاهم ملكها بالترحيب وأكرم نزلهم واتخذهم له جندا ثم انزلهم بين النيل الابيض والنيل الازرق فنشأت منهم أمة عظيمة شديدة البأس اشتهرت بطائفة ﴿الاسماخ﴾ أى حجاب ميسرة الملك كما رواه هيرودوتس ثم سماهم السائحون من اليونان ﴿أتومولس وسمبريتس﴾ فبقى هذا الاسم مشهورا بهم الى القرن الاول من الميلاد

وقد عاد بسامتيك الملك فندم على فعله حيث رأى ان المحافظة على بلاده أمست فى قبضة الاجانب من اليونان بعد أن كانت فى أيدى أهلها وشق عليه الامر جدا ولكن هيهات أن يرد مافات فجعل يشتغل بتنظيم جيش جديد من أبناء البلاد وأنشأ سفنا للحرب وغير ذلك من وسائل الدفاع الى أن مات كما رواه هيرودوتس سنة احدى عشرة وستمائة قبل الميلاد ودفن فى مدينة صا الحجر فقام بالامر بعده ابنه ﴿نيخاوس﴾ الثانى المعروف بفرعون الاعرج وكانت مدة حكم بسامتيك نحو أربع وخمسين سنة



(فى الملك نيخاوس الثانى)

(المعروف)

(بفرعون الاعرج)

تولى الملك بعد موت أبيه (بسامتيك) وكان كأبيه له عناية واهتمام بتحسين أحوال الرعية وتوسيع دائرة التجارة وكان ميالا الى الغزو والفتوح واتساع المملكة ونفوذ الكلمة فاهتم بالعساكر والاجناد الذين نظمهم أبوه وأكثر من إنشاء السفن الحربية وفتح على الشام أبواب الحرب وما زالت جنوده تقاتل حتى هزمت جنود الشام وتغلبت على كثير من المدائن وغلك عليها من البر والبحر وقتل ملكها (يوشيا) فى مجدل المذكورة فى التوراة باسم مجدو فبايع أهل الشام ولده يهويا حاز فقاتله (نيخاوس) وظفر به وخلعه وذلك عند رجوعه من غزوة بابل وولى مكانه أخاه (الياقيم) وضرب الخراج على شعب يهوذا فى كل عام مائة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب وجاء بيهويا حاز الى مصر أسيرا وبقى بها الى أن مات وفى أيام (الياقيم) هذا تولى بختنصر الاول ملكا على بابل فجهز الجيوش وأكثر من معدات الحرب وزحف على أورشليم وملكها واسترد ما كان قد أخذه (نيخاوس) فرعون مصر من بلاده فانقطع بذلك حكم فرعون عن أورشليم وخسر ما كان اكتسبه من الممالك والمدن فى آسية وعقد مهادنة مع (بختنصر) وقد كان (بختنصر) على عزم مهاجمة مصر وأخذها عنوة وعاد فى نفر قليل الى بابل من طريق صحراء العرب كما رواه بيروس

قال بعض المؤرخين ولما عاد الملك (نيخاوس) الى مصر لم يسكن غضبه على ملك بابل وقومه الاشوريين ولم يهدأ له بال فجيش جيشا عظيما وأعد كثيرا من سفن الحرب وعمد الى اثارة الفتن بين الاشوريين ودس الى (الياقيم) ملك يهوذا أن يخرج على ملك الاشوريين وكان (الياقيم) يبغض ملك اشور وينقم عليه لتسلطه على مملكة يهوذا فأطاع لذلك (نيخاوس) وعصى (بختنصر) وخرج عن طاعته فسار اليه (بختنصر) فى جيش عظيم وحاربه حتى استظهر عليه وضرب عليه الجزية فعاد (نيخاوس) وحرضه على الخروج ثانية فعصى ونكث عهده مع (بختنصر) فأرسل اليه (بختنصر) قائدا من قواده ومعه عساكر بنى (أمون) (ومواب) فحاصروا أورشليم وشددوا عليها الحصار وفى أثناء ذلك مات (الياقيم) فقام بالامر بعده ابنه وحضر (بختنصر) الى أورشليم وأمر فشددوا عليها الحصار حتى استلمت فخرب بيت المقدس وأخذ مافيه من الخزائن والتحف وكذلك ما فى خزائن ملك يهوذا * قال مانيطون * ومع ذلك فقد مات (نيخاوس) المذكور بعد هذه الغزوات بسنتين ولم يبلغ المراد بأخذ بلاد الشام

وكان (نيضاوس) المذكور ذا عناية شديدة بتدبير داخلية مملكته وتحسين أحوال رعيته وتوسيع نطاق التجارة فتواتر فى أيامه الاختلاط بالاجانب واتسعت فروع المعاملات كما تقدم القول فخطر على باله أن يصل بحر القلزم بالبحر الابيض الرومى بواسطة قطع برزخ السويس بترعة موصلة الى النيل على امتداد أربع مراحل بحرية عرضها يسع سفينتين متحاذيتين ومبدأ هذه الترعة من مدينة بسطة وآخرها بركة التمساح التى كانت تسمى قديما بالبحيرة المرة حيث كان بحر القلزم يومئذ فشرع فى هذا العمل الجسيم وجدّ فيه وبالغ فى الاجتهاد فمات فيه من العمال مائة وعشرون ألفا على ماحكاه هيرودوتس المؤرخ فأوقف (نيضاوس) العمل نظرا لما أخبره به بعض الكهان من ان حظ الانتفاع بهذا المشروع الخطير لايكون الا لدولة أجنبية قال (ارسطاطاليس) انما ترك (نيضاوس) وغيره من الفراعنة هذا العمل بعد ان ابتدؤا فيه لما أعلمهم المهندسون بأن سطح البحر الاحمر أعلى من أرض مصر فلذلك لم ينته العمل الا الى بركة التمساح قال بعض المؤرخين وقد شرع دارا الاكبر ملك فارس فى فتح هذا البرزخ ولكنه عاد فأوقف العمل خوفا من غرق البلاد بسبب ارتفاع سطح البحر الاحمر عن أرض مصر ثم أتى الملوك البطالسة من بعد فتمموه وأوصلوه الى بحر القلزم واستعانوا على حفظ الاراضى المصرية من التلف بأبواب وأقفال ورباطات فسهلت باحداثه أسباب النقل وراجت التجارة ولكنه لم يلبث ان طمّ وبقى كذلك الى دخول عمرو بن العاص مصر بجيوش المسلمين فأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بفتحه ثم سد فى زمن المنصور الدوانقى العباسى قلت وقد فتحه ديلسبس الفرنساوى على عهد الخديو إسمعيل وصار حظ الانتفاع به لدولة أجنبية هى دولة الانجليز ــ كما قاله الكاهن المصرى

ولم يقعد الكف عن فتح البرزخ المذكور للملك (نيضاوس) همة ولا أضعف له عزيمة بل تاقت نفسه الى معرفة محيط قطعة افريقية والوقوف على مسالكها البحرية وكان أهل صور وقرطاجنة قد استكشفوا سواحلها ورأوا فى بعض بلدانها كثيرا من الذهب والعاج والاخشاب النفيسة والخيرات العظيمة ولكنهم لم يأتوا منها بشئ لما بين الأمتين من البغضاء والشحناء وقد حرموها على أنفسهم ومنعوا غيرهم من الوصول اليها فأرسل (نيضاوس) طائفة من ملاحى (الفنيقيين) بسفنهم الى تلك البلدان فطافوا حول افريقية فى ثلاث سنين وكان سيرهم من البحر الاحمر ومنه الى المحيط الهندى ثم الى المحيط الاطلانطيقى حتى بلغوا بوغاز جبل طارق فعبروا منه الى البحر الابيض وساروا حتى وصلوا الى مصر وحرروا بالدقة ماظهر لهم من الاماكن والمسافات فعلمت سواحل افريقية وما حولها من البحار على وجه صحيح ولكن لم يلبث علمها حتى غاب عن العقول وتناساه الناس وكأنه لم يكن شيأ مذكورا

(ومات نيضاوس) الملك بعد ان حكم سبع عشرة سنة كما رواه مانيطون الكاهن وقال

هيرودوتس بل ست عشرة سنة والاول أصح وأشهر فقام بالامر بعده ابنه (بسامتيك) الثانى الملقب بـ (نفرابرح)

(فى الملك بسامتيك الثانى)

(تولى الملك بعد أبيه) ولم يستقر به المنصب حتى قام عليه ملك الايتيوبيا فسار لقتاله فى سنة احدى وتسعين وخمسمائة قبل الميلاد وغزاه وظفر به ومات عند رجوعه من الغزو فى نحو السنة السادسة لملكه ولم يعلم من سيرته شئ سوى انه وجد حجر فى مقبرة العجل (ابيس) بسقارة يستفاد منه ان هذا العجل ولد فى السابع من بؤنه سنة ست عشرة من حكم الملك (نخاوس) الثانى ودخل معبد (بتاح) فى التاسع من أبيب من السنة الاولى من حكم الملك (بسامتيك) الثانى ومات فى الثانى عشر من برمودة سنة اثنتى عشرة من حكم هذا الملك قال صاحب العقد الثمين ومن هذا يتبين ان مدة حياة العجل المذكور كانت سبع عشرة سنة وستة أشهر وخمسة أيام ويستدل منه أيضا بوجه التحقيق على مدة حكم نخاوس الثانى وبوجه التقريب على مدة حكم بسامتيك الثانى اهـ

ولما مات بسامتيك الثانى قام بالامر بعده ابنه (وح أبرع) الملقب (بحمع أبرع)

(فى الملك وح أبرع)

(ويقال له أيضا)

(فرعون حفرع)

قد ذكر هذا الملك فى التوراة باسم حفرى وان (صدقيا) ملك يهوذا استنجد به على بختنصر ملك فارس وكان أرمياء النبى فى هذا الحين حيا وقد أنذر صدقيا بخراب مملكة فلسطين ووقوع اسرائيل فى الأسر ان لم يطع ملك بابل ويخضع اليه فلم يلتفت صدقيا لقول أرمياء النبى وقد عميت بصيرته وخرج عن طاعة ملك فارس وجاهره بالعصيان وامتنع من أداء الجزية وتحالف مع (وح ابرع) هذا على قتال ملك فارس فسار (وح ابرع) لنجدة صدقيا بالشام فى جيش عظيم وقامت الحرب بينهما وبين ملك فارس فلما التقى الجمعان وبرزت جنود فارس وقع الرعب فى قلوب العساكر المصرية وفشلوا فاستظهرت عليهم عساكر بابل وهزمتهم شر هزيمة ثم ركب (بختنصر) بجيوشه على اسرائيل وغزا بلادهم وقبض على صدقيا ملكهم وأولاده وأمر بهم فقتلوا بين يدى أبيهم صدقيا وفقأ

بنى صدقيا فهاجر كثير من اليهود الى أرض مصر فاستقبلهم ﴿ وح ابرع ﴾ وأقطعهم أرضا بقرب ﴿ دفنه ﴾ فانتشروا فى ﴿ مجدل ﴾ ﴿ ومنف ﴾ وسكن بعضهم بصعيد مصر فلما ظفر ﴿ بختنصر ﴾ باليهود وخلص من حروبه بآسية سار نحو مصر يريد الانتقام من ملكها لما فعله صدقيا ملك اسرائيل وقد كان يطمع فى الاستيلاء عليها حيث أخبره أرمياء النبى بالغلبة عليها وادخالها تحت حكمه

قال المؤرخ يوسفوس وقد أغار ﴿ بختنصر ﴾ على مصر وقاتل الملك ﴿ وح ابرع ﴾ وقتله وخرب مصر وأقام عليها واليا من قبله ثم عاد الى وطنه وأخذ معه جميع اليهود الذين استوطنوا بمصر قلت ولم يعول أصحاب التاريخ على ماقاله هذا المؤرخ اذ هو مخالف لما نقله هيرودوتس فقد قال ان المصريين يقولون بأن الهزيمة وقعت على عساكر بابل وان سفن الملك ﴿ وح ابرع ﴾ كانت مسددت بملاحين من اليونان فضربت السفن التى كانت فى خدمة البابليين فى تلك الغزوة وان العساكر المصرية رفعت الحصار عن مدينة صيدا والتجأ أهل الشام الى التسليم بغير قتال فدخلت حينئذ سواحل الشام تحت سلطتهم رغم أنف ﴿ بختنصر ﴾ واحتلت الجنود المصرية جهة يقال لها ﴿ جبل ﴾ وشيدوا فيها معبدا استكشفت آثاره حديثا كما رواه ﴿ رينان ﴾ فلما تم النصر للملك ﴿ وح ابرع ﴾ داخله الغرور وتعاظم وتكبر وادعى انه أكبر أسلافه سطوة وأوسعهم كلمة قال هيرودوتس ولكنه لم يلبث فى الراحة طويلا حتى استنجده سكان سواحل ليبيا على قبائل اليونانيين القاطنين فى القيروان نخاف أن يرسل لنجدتهم جنودا يونانية من الذين كانوا فى خدمته لانهم من أبناء جلدتهم فأرسل لهم فريقا من المصريين فلما التقى الفريقان عند ﴿ ايرانه ﴾ اقتتلا فكانت الغلبة على المصريين وانهزموا شر هزيمة ومن بقى منهم كر راجعا الى مصر فقامت الفتنة عند ذلك على الملك ﴿ وح ابرع ﴾ وخرجت عليه جنوده المصرية وقامت أيضا طوائف الكهنة على الملك اذ ظنوا انه انما أرسلهم الى ليبيا لهلاك من لايحبه واتسع نطاق الفتنة وعمت جميع البلاد وارتفع لهيبها وكان ممن قلده الملك ﴿ وح ابرع ﴾ قيادة بعض الجنود المصرية رجل من العامة اسمه ﴿ أحمس ﴾ وكان قطنا ليبيا مدبرا وأصله من مدينة ﴿ سيوف ﴾ قرية بجوار صا الحجر فأرسله الملك ﴿ وح ابرع ﴾ الى العصاة ليردهم عن عصيانهم فسار اليهم ووقف بينهم خطيبا وأطال النصح وشدد فى القول فبينما هو كذلك اذ تقدم نحوه أحد الجند العصاة ووضع على رأسه مغفرا وصاح بأعلى صوته ﴿ قد رضيناك لنا ملكا ﴾ فلم يمتنع ﴿ احمس ﴾ من قبول ذلك واجتمعوا تحت كلمته فسار بهم لقتال الملك ﴿ وح ابرع ﴾ ولم يكن مع الملك المذكور الا الجنود الاجنبية التى كانت فى خدمته وهى زهاء ثلاثين ألفا فالتقى الفريقان عند مدينة صا الحجر واقتتلا فانهزمت جنود الملك ﴿ وح ابرع ﴾ ووقع هو فى قبضة احمس فحبسه احمس فى مقره الذى كان يسكنه قبل وقوعه فى الاسر وأحسن معاملته وأظهر له غاية الملاطفة وحفظ ناموسه

﴿قال هيرودوتس﴾ فتشق جنود مصر بما حصل لهذا الملك من الضيم والقتل بالعزل والحبس لما كانوا عليه من الحنق والغيظ فأكرهوا الملك ﴿أموزيس﴾ الذى هو احمس خصمه على أن يسلمه اليهم فسلمه فقتلوه خنقا فى الحال اه

وبموته خلا المنصب الملوكى ﴿لاحمس﴾ المذكور فاستقر به وسمى باسم ﴿اموزيس﴾ ولقب نفسه بـ﴿خنوم ابرع﴾ وهو الآتى ذكره بعد

(فى الملك أموزيس)

﴿ويسمى أيضا﴾
(احمس الثانى)

لما جلس هذا الملك على سرير الملك لم تحتفل به الرعية ولم تحترمه العساكر والاحبار لانه لم يكن ذا حسب رفيع ولا نسب عريق قيل ولما علم بما خطر فى بعض النفوس من احتقار صفته وخسة أصله وأحس بما وراء ذلك جمع محفلا كبيرا وتمثل فيه باناء من ذهب كان يستعمل فى كثير من الامور العادية بين أيدى السادة والعبيد ثم صار تمثالا معبودا موقرا مهيبا فعظم من هذا اليوم محله فى النفوس وصار مرعى الحرمة والناموس قال هيرودوتس وتزوج ﴿أموزيس﴾ بحفيدة الملك ﴿بسامتيك﴾ الاول المسماة ﴿عنخ ناس نفرت حت﴾ وكان قد اصطفاها من العائلة الملوكية ليؤسس لنسله منها عائلة ذات حق فى تاج الملك فولدت له ولدا سماه ﴿بسامتيك الثالث﴾ باسم جده وقام بتدبير المملكة خير قيام فحافظ على نفوذ مصر وسلطتها على فنيقيا وأخضع لحكمه جزيرة قبرص وأحسن السياسة مع الدول المعادية لمملكة مصر وأزال عنهم الوحشة فانكفوا عن الاغارة وكان يخشى كثيرا من ملك فارس فلما قامت الحرب بين الملك المذكور وبين الميديين استعمل الحيادة ولم يظهر ميلا لاحد الفريقين ولكنه مع ذلك لم يسلم من شرهما فقد أخذوا منه فنيقيا فلم يعارض تخوفا مما وراء ذلك بل زاد فى حسن السياسة مع ﴿كيروش﴾ ملك فارس والتزم جانب المسالمة ليحافظ على بلاده من غائلته فصفا له بذلك الوقت وتمتع بالراحة خمسا وعشرين سنة نظر فيها الى أوجه الاصلاح وموارد الثروة فوسع الترع وأصلح الجسور وأنشأ الجسور واعتنى بأمر الزراعة والتجارة فاتسع نطاقهما وأثرت البلاد وعادت الى مجدها القديم فبالغ المؤرخون فى أيام هذا الملك حتى هيرودوتس حيث جعلها أعظم من أيام سواه من الملوك وان مصر لم تخصب فى أيام غيره كخصبها فى أيامه الهنية ولم يفض النيل على مصر بالخيرات فى مثل أيامه ولا صارت قبله كما فى عهده مريعة غنية حتى قيل ان مدنها بلغت فى عهده عشرين ألف مدينة عامرة والغالب أن الكفور والقرى كانت معدودة منها وكانت هذه زاهية زاهرة كالمدن

وقد أنعوه بذلك الكهنة الذين كانوا يحبون المغالاة والاطراء فى المدح خصوصا فى أيام تظاهر الفرس

وقد زاد البلاد اثراء فى أيام هذا الملك اختلاط الاجانب بأهلها للاتجار لاسيما طوائف اليونان فانهم كانوا فى ذلك الوقت أصحاب جد واجتهاد فى التجارة فضلا عن الصناعة مما نفاوه عن المصريين بالاختلاط فمال اليهم الملك (أموزيس) وأحبهم وزاد فى مساعدتهم وتزوج بنت رجل يونانى اسمه (اركيز يلاوس) وأهدى الى مدنهم الهدايا النفيسة من التحف المصرية فأرسل الى مدينة القيروان تمثال زوجته (لاديكة) ابنة (اركيز يلاوس) وتمثال المعبودة (نيت) مغشيين بالذهب غشاء جميلا وبعث أيضا الى طائفة الفينيقيين المعروفة باسم (ليندوس) تمثالين من حجر وزردية من كتان والى (يونون سامين) تمثالين من خشب رآهما هيرودوتس بنفسه وأكثر من الاحسان الى اليونان وبالغ فى الترحيب بهم حتى نموا وكثروا وبلغوا مائتى ألف نسمة على مارواه (ليترون) فأنزلهم جميعا فى مدينة (نقراطيس) التى قيل ان محلها الآن بندر فوة وقيل انه كوم نكراش وقد جعل محلها محمود باشا الفلكى بالاستظهار (نقرهة) بالقرب من دمنهور البحيرة لقرائن أثرية دلته على ذلك وقد أباح الملك لهؤلاء الاجانب أن يتمسكوا بأصول دياناتهم وأقطعهم أراضى مخصوصة ليبنوا فيها معابدهم وهيا كلهم ومذابحهم على اختلاف طوائفهم وأديانهم فلما كثروا فى مدينة نقراطيس اختطوا حولها مدنا وكفورا ودونوا لهم قانونا مخصوصا كان من أحكامه أن كل من يستوطن بينهم من التجار أو غيرهم يجب عليه الانقياد لاحكام قانونهم فان لم يقبل ذلك أكرهوه على الرحيل عنهم فيرخص له أموزيس الملك بالاستيطان فى أية بلد شاء من مملكته قال هيرودوتس ولما اتسعت دائرة التجارة اتخذ تجار اليونان لهم وكلاء من أبناء جلدتهم وبعثوا بهم الى الجهات التى تمر منها القوافل فكان بعض الميليزيين فى العرابة المدفونة وبعض الساميين فى الواحات الكبرى وكان وجود هؤلاء الاجانب لايخل بشرفهم ولا يقلل من اعتبارهم اذ كانوا تجارا وعليهم مدار حركة البلد

وعاقد (أموزيس) مملكة أثينا وعاهدها ووطد عروة المودة معها وكان فى أيامه (كيروش) ملك فارس لاينكف عن التجهيزات الحربية والاستعداد للقتال عند سنوح الفرص فلما مات (كيروش) وخلفه ابنه (كبيز) على كرسى المملكة وعلم بما هو عليه (أموزيس) من الضعف والانكماش صار يترقب وقوعه فى الزلل ويتصل لاضرام نار الحرب معه أسبابا ويعظم صغائر الامور واختلفت روايات أصحاب التاريخ عن تعللات (كبيز) للذكور وألبسوها أشكالا وألوانا فقال هيرودوتس ان (كبيز) المذكور طلب أن يتزوج بابنة (احمس) ظنا منه أن أباها لايقبل ذلك فيحاربه فأحس احمس بهذه الحيلة وأرسل له ابنة الملك (وح ابرع) فلما دخل بها كبيز ناداها بابنة (احمس) فقالت أنا لست بابنته فحقد (كبيز) عليه ذلك وغزا مصر وقال هيرودوتس أيضا ان سبب غزو العجم مصر طمعهم فى

ثروتها وما فيها من الخيرات وقد كان للمصريين فى ذلك الوقت أسوار وحصون ومعاقل فى الصحراء والاباطح وكان بين حدود الشام وخان يونس وبحيرة (سربونيس) الضاربة فيها مقدمات الجيوش المصرية فى ذلك الحين مسافة شاسعة قلما يقطعها الجيش فى ثلاثة أيام ومع أن صحراء العرب لم تكن يومئذ فى اتساعها الآن المترتب على تخريب الاشوريين والكلدانيين لبلادها وتركها للعرب الرحالة فنهبوها حتى دمرت وصارت بلقعا غير أن كنبيز كان يخاف على عساكره من التيه فيها فتحير فى أمره فقيض الله له رجلا يونانيا اسمه (فانيس) وفد عليه من ديار مصر وكان قائد جيش فيها فأعلمه (فانيس) المذكور بحقيقة تلك البلاد ودله على الطريق فاشتدت عزيمة (قمبيز) وتقوت أطماعه وعقد عهدا مع مشايخ قبائل العرب الذين كانت لهم اليد على الطريق الموصلة الى مصر ليرخصوا له بالمرور منها ويأتوا لجيوشه بالماء على ظهور نوقهم ثم سار بجيوشه وما زالت حتى حلت أمام الطينة فبلغهم ان (احمس) قدمات وان ولده (بسامتيك) الثالث خلفه على سرير الملك اه

وكان لهذا الملك أعمال مهمة فقد أصلح الكرنك جميعه وقطع الاحجار من محاجر طرا وأسوان ورمم غير الكرنك من المبانى العظيمة بطيبة التى كانت زوجته مقيمة فيها وكانت الحوادث والاحن قد خربت الاقاليم البحرية فوجه عنايته الى تعميرها فأصلح منف وبنى فيها معبدا (لأزيس) اندرست آثاره الآن وقد شاهده هيرودوتس المؤرخ فقال انه لم ير أكبر ولا أعظم منه فى ديار مصر ونصب (أموزيس) المذكور أيضا أمام معبد (بتاح) بمنف عمودا طوله خمس وسبعون قدما وبنى فى صا الحجر مداخل لمعبد (نيت) يقدمها صفوف من تماثيل أبى الهول على هيئة منتظمة ونصب أمام تلك المداخل مسلتين كبيرتين وصنع لذلك المعبد خلوة من الصوان الاحمر المقتطع من محاجر أسوان فنقلها ألفا ملاح من أسوان الى صا الحجر فى ثلاث سنين وطول الخلوة المذكورة من الخارج أحد عشر مترا وعرضها سبعة أمتار وثمانية وثلاثون سنتيمترا وارتفاعها أربعة عشر مترا ووزنها وهى خالية خمسمائة ألف كيلوجرام وقد وضعها خارج المعبد لضخامتها ويقال ان سبب وضعها هنالك هو أن المهندس المكلف بنقلها حين وضعها خارج المعبد أخذ يئن مما قاساه من المشاق فى نقلها فسمعه (أموزيس) وهو على هذا الحال فأمر بابقائها فى محلها * وقال هيرودوتس ان عدم وضعها فى المعبد ناشئ عن هلاك أحد العمال تحتها * وقد كان (لأموزيس) المذكور مراسلات مع الملوك الاجانب وقد روى لنا التاريخ مراسلة منه مع ملك جزيرة (صيصام) التى يقال لها (سيموس) ينصحه فيها بنصيحة خيرية اقتضاها الحال ويقول له لاتأمن صروف الزمان بل استعد لنوائب الحدثان واقمع النفس بالزهد فى الدنيا عن اتباع هواها واعصها ولاتبلغها بالتشهى مناها * قيل فبمجرد وصول هذه النصيحة الى الملك المذكور وكان بأصبعه خاتم جوهر نفيس لايؤثر عليه شيأ من زينة الحياة الدنيا ألقاه فى اليم

وعزم على الزهد فابتلع الخاتم حوت ثم اتفق أن هذا الحوت وقع فى يد أحد الصيادين وكان حوتا عظيما فقدمه لطباخ الملك المذكور فوجد الطباخ فى جوف الحوت خاتم سيده فأعطاه اليه فعلم الملك عند ذلك أن الاشياء سعود ونحوت ☼ وكان له أيضا مراسلات مع (سولون) حكيم اليونان ومع ذلك فقد كان لايحرم نفسه من حظوظها ويوفيها ملاذها وقال ذات يوم لبعض أخصائه أما علمتم أن القوس لاتوتر الا عند الحاجة وترخى متى فرغ القصد منها وهكذا الانسان اذا اشتغل بجد فى أمر ما فعليه أن يعطى نفسه الراحة ويبلغها من الحظ ماتستروح به وتستريح اليه لانها ان استدامت على الجد داخلتها الحماقة والغفلة واستعدت للوساوس والجنون وصارت غير قابلة لادراك الامور اه ومات (أموزيس) بعد أن حكم خمسا وثلاثين سنة على مارواه بعض أصحاب التاريخ وقال مانيطون بل أربعا وأربعين وخلفه ابنه (بسامتيك) الثالث الملقب بـ(رع عنخ كا)

(فى الملك بسامتيك الثالث)

لم يستقر المنصب ببسامتيك هذا حتى جاءت جيوش ملك فارس الى أرض مصر ووقفت أمام الطينة تريد القتال فسار اليهم بسامتيك فى عدة كثيرة من الجيوش المصرية واليونانية الذين فى خدمته وعسكروا أمام العدو وكان (فانيس) اليونانى الذى فر من مصر وذهب الى ملك فارس وحرضه على قتال المصريين قد ترك أولاده بمصر فأحضرهم المصريون الى معسكرهم وذبحوهم بين الصفين وأبوهم ينظر اليهم ويتقطع قلبه حسرة عليهم ووضعوا دمهم فى اناء ثم مزجوه بخمر وشربوه تشفيا وانتقاما من (فانيس) المذكور على فعله وهجموا بعد ذلك هجوما شديدا على جيوش (كمبيز) فحملت عليهم الفرس أيضا والتقى الصفان والتحم الجيشان وكان الملك (كمبيز) قد وضع فى مقدمة جيوشه كثيرا من السنانير والبزاة وغيرهما من الحيوانات التى يجلها المصريون فلم يجسروا على القتال ولم يرموا سهامهم على عدوهم خوفا من أن تصيب تلك الحيوانات المقدسة عندهم فرجعوا القهقرى ولم يثبت منهم فى صفوف القتال سوى العساكر اليونانية والكارية واشتد القتال بينهم وحمى الوطيس فقتل من الفريقين عدد كثير ثم ظفرت الفرس باليونان والكاريين وتمت لهم الغلبة فانهزموا الى منف فأرسل لهم (كمبيز) رجلا من قومه يطلب منهم أن يستسلموا فركب الرسول سفينة يونانية من سفن (مدلين) وسار الى منف فلما وصل اليها ورآه أهلها خرجوا اليه من القلاع زمرا وقبضوا عليه وكسروا السفينة قطعا وذبحوا من كان بها مع الرسول أيضا فلما علم (كمبيز) بما فعله المصريون غضب جدا وجاء الى منف وأحاط بها وحاصرها وضيق عليها حتى أخذها عنوة وقبض على ولد الملك (بسامتيك) وقتله وقتل معه عدة من أكابر المصريين فخضعت البلاد بعد هذه الواقعة لملك فارس (قال بعض أهل التاريخ) ولما استسلمت منف

أمر الملك (كبيز) باحضار أولاد (بسامتيك) وبنته وصورهم أمامه بثياب الرق والعبودية ثم طلب أيضا أولاداً كابر المصريين الذين حكم عليهم بالقتل ليمروا أمامه قبل قتلهم وكان الملك بسامتيك واقفا ينظر الى الجميع مع الثبات والصبر ولم يشفق بهم (كبيز) وفى هـذه الاثناء مر بـ(بسامتيك) أحد ندمائه بلباس الرق فلما رآه (بسامتيك) على هذا الحال تضجر تضجر الآسف الحزين وضرب بيده على جبهته فتعجب (كبيز) من ذلك وسأله عن سبب ثباته أولا مع نظره الى بنيه ثم تضجره وضربه على جبهته عند نظره الى نديمه فقال ان البكاء فى جنب مصائبى قليل واعلم يا ابن (كيروش) انه اذا تجرد الرجل عن مفاخره وحلت به الخطوب وأحاطت به الكروب ولحقه الجوع والهرم استحق الحزن والبكاء عليه قالوا فلما سمع (كيريزوس) أحد قواد العجم هذا الكلام بكى وبكى أيضا (كبيز) الملك وكثير من العجم وحن قلب كبيز وأخذته الشفقة عليه فعامله معاملة الملوك وكاد يرجع اليه تخت الملك ويجعله تابعا لحكومته ولكن علم بعد ذلك أن (بسامتيك) المذكور يغرى الناس على الخروج عليه فأمر به فقتلوه فزالت بموته الدولة السادسة والعشرون وانقرضت دولة الفراعنة وزال ملكها وكانت مدة حكمه كما رواه مانيطون المؤرخ ستة أشهر بحيث لايكاد يعرف له فيها أمر ولا نهى وكانت مدة حكم الدولة السادسة والعشرين المذكورة (مائة سنة وثمانيا وثلاثين سنة)

ولما تم الامر للملك كبيز ومهدت له الاحوال سلم ادارة البلاد بعد قتله بسامتيك الى (اريندس) الفارسى فصارت من هذا الحين تابعة لدولة فارس خاضعة لأحكامها وتجيبت عليها شيأ فشيأ عناكب الذل والهوان وقام السفه والجهل بين أهلها مقام الرشد والتمدن وذبلت نضارة علومها ومعارفها وكادت تبور صنائعها لتوالى المظالم والمحن وتراكم الخطوب والفتن وتصرف الهيئة الحاكمة فى الرعية تصرف السيد فى عبيده أو التاجر فى سلعته وتم ما أوحى الله تعالى به الى حزقيل النبى عند سبى بابل وخراب أورشليم حيث قال (قال الله تعالى لايكون بعد رئيس من أرض مصر وألقى الرعب فى أرض مصر) قلت ومن أصدق من الله قيلا وسيأتى بيان هـذا فى محله ان شاء الله * وقد رأينا قبل الكلام على دولة الفرس وما كان فى أيامها أن نذكر هنا شيأ من ترتيب مملكة مصر فى القدم وفى أقسامها ومعبوداتها وفى سياستها وأخلاق أهلها وعوائدهم وفى كيفية اقامة الحدود والعقوبات عندهم وفى تمدنهم وصنائعهم وأعيادهم ومواسمهم وأحكامهم وشرائعهم تتميما للفائدة وقد جعلنا ذلك فصولا على الترتيب الآتى بعد

(فصـــــل)

(فى ترتيب مملكة مصر فى القدم وفى أقسامها ومعبوداتها)

كانت تنقسم ديار مصر على عهد الفراعنة الى قسمين عظيمين اشتهرت بهما وهما الاقاليم

القبلية

القبلية والاقاليم البحرية وكانت الحدود الفاصلة بين هذين القسمين مدينة دهشور قال أصحاب التاريخ ثم انهم قسموا الاقاليم القبلية الى اثنين وعشرين قسما والبحرية الى عشرين قسما وكان القسم يعرف فى لغتهم باسم (حسب) وكان لكل قسم من هذه الاقسام حاكم وادارة مخصوصة وحدود فاصلة من الحجارة المطرزة بالكتابة وتحت الحكم وهو مقر الجند والكهنة والديانة المتبعة فى ذلك القسم

قال صاحب العقد الثمين وأقسام الوجه القبلى المعروف باسم (بتوريس) هى

أولا ـ (ناخونت الفنتين) وقاعدته مدينة (أب) وتعرف الآن بجزيرة أسوان وأشهر مدنه جزيرة أنس الوجود ومعنى (أب) الفيل وسميت بذلك لانه كان يباع فيها سن الفيل وكان فيها معسكر وسور ومقياس للنيل وهو الموجود الآن بها ولهذا القسم معبودان ـ أحدهما (خنوم) ويرسم بصورة كبش ومعناه مصور الكائنات ـ والآخر (سبت) أى النجمة المعروفة بالشعرى اليمانية وكان فى جزيرة أسوان عدة معابد وهيا كل فاخرة انطمست آثارها ولم يبق منها سوى بعض حجارة مكتوب عليها مافيه تذكرة بهذه المعابد والبيوت المقدسة وبجوار مدينة اسوان جبل الصوان الاحمر المسمى قديما (دودوشر)

والثانى ـ (ادبوابوليتو بوليتس مغنا) وقاعدته مدينة (دب) وتعرف الآن بادفو وكان فيها معبد عظيم لمعبود هذا القسم المسمى (حور) أى العظيم ورسمه على هيئة الباشق وهو الذى تسميه اليونان (ابولون) ويوجد تجاه مدينة ادفو فى الجانب الغربى من النيل بئر ماء حفرها الملك (سيتى الاول) وتسمى عندهم (ناخنوم) ومعناه البئر ولم تزل باقية الى الآن بقرية تدعى (ردسيا) وهى أول محطة للقوافل التجارية التى كانت تمر على الصحراء الى البحر الاحمر وأشهر مدن هذا القسم (خنو) أى جبل السلسلة وكان مركزا للعلوم والمعارف فى تلك الازمان

والثالث ـ (تزلاتو بوليتس) وقاعدته مدينة (نخب) أعنى القرية المعروفة الآن (بالكاب) الموضوعة على الجانب الغربى من النيل وهى أحد الحصون القديمة وكانت الارض المجاورة لها شهيرة بمعادن الملح وموضع هذا القسم الشاطئ الغربى من النيل وكان كل من حكم هذا القسم يلقب بابن الملك (نخب) ولا يكون الا من عائلة ملوكية وأشهر مدنه (حابك) أعنى الكوم الاحمر وكانت سكانه تحترم المعبودة (نخب) ورسمها على شكل عقاب له وجه آدمى وعلى رأسه تاج يسمونه (اتف) وهى معبودة خصوصية لهذا القسم وعمومية للاقاليم الجنوبية وكان أكل السمك فى هذا القسم منهيا عنه وفيه مدن شهيرة منها (سنى) أى اسنا وكان فيها معبد عظيم لم تزل تشاهد آثاره الى الآن

الرابع ـ (امدوسبوليتس) وقاعدته مدينة (فو) أو (نوامون) أى مدينة طيبة ويقال لها نيبة وطيوة وكانت أكبر مدائن الديار المصرية وأشهرها ولم يزل يشاهد فيها الى الآن من المعابد والآثار مايوجب تعجب الناظرين واستغراب المتفرجين ويستدل على حدودها



القديمة بالكرنك ولوقصر والقرنة ومدينة (ابو) الشهيرة قديما بالمبانى النافرة وكانت دار اقامة لعدة ملوك متناوبة بعد مدينة منف واستمرت تختا للديار المصرية نحو ألفى سنة ولهذا القسم معبودان الاول (امون رع) وسمى بهذا الاسم فى عصر العائلة الحادية عشرة وهو معبود خصوصى لهذا القسم وعمومى لكافة مصر ومعنى (امون رع) الشمس الخفية التى لاتدركها الابصار عند مغيبها وهو رمز للمعبود المنظم للكون ومرتبته فى المعبودات بعد (بتاح) منشئ الكائنات والثانى (مونت) ويقال له (مونتو) أو (منت) وهو معبود عمومى لهذا القسم وخصوصى لاشهر مدنه المسماة الآن أرمنت وصورته على شكل انسان له رأس باشق عليها قرص الشمس وريشتان مستقيمتان قابض بيده اليمنى على المدية المسماة (خوبش) اشارة الى كونه اله الحرب ورب الشجاعة ويوجد غربى مدينة القرنة مقابر للفراعنة المعروفة الآن ببيبان الملوك وهذا المكان مشهور باعظم القبور الاثرية التى يهرع لمشاهدتها السياحون فى كل سنة

الخامس ـ (قوبطى قوبطيتس) وقاعدته مدينة (قبطى) أى قفط وموضعها على جانب النيل الشرقى ومعبودها (خم) ورسمه على هيئة رجل واقف رافع ذراعه الايمن اشارة الى كونه يبذر التقاوى ويده اليسرى مستترة مع جسمه باقمشة ملتف بها وعلى رأسه ريشتان طويلتان وقضيبه منتصب دلالة على القوة الموجودة للتناسل والزروع وكان يعمل له عند وفور المحصولات الزراعية وجودتها موسم عظيم بالكيفية المرسومة على آثار مدينة (ابو) وكانت تمتد من تلك المدينة طريق للقوافل التجارية فتمر بالصحراء من جهة القصير الى أن تتصل بالبحر الاحمر وكان فى جنوب قفط مدينتان تعرفان الآن بشنهور وقوص الشهيرة قديما باسم (كوسى)

السادس ـ (تام تنتريتس) وقاعدته مدينة (تنترر) وتعرف الآن بدندره وموضعها على شاطئ النيل الغربى وكان أهل هذا القسم يحترمون الكوكب المسمى (حاتحوم) أى الشعرى اليمانية ويحرمون على أنفسهم أكل العسل والسمك كما كان أهل القسم الثالث يحرمون على أنفسهم أكل السمك

السابع ـ (سوحتم ديوسبوليتس) وقاعدته (حا) وهى مدينة (هو) الآن ومعبودها (نبتا ونفر حتب) وموضعها على جانب النيل الغربى وقد اشتهرت قديما هى والقسم التابع لها بخصوبة الارض ونضارة البساتين

الثامن ـ (ابزو تينيتس) وكانت قاعدته فى الاول مدينة (تنى) أعنى طينة وهى مسقط رأس الملك (منا) ثم صارت قاعدته بعد زوالها مدينة (ابدو) أى العرابة المدفونة وكان أهل تلك الجهة يحترمون المعبود (انحور) ومعناه الذى بيده مقاليد السماء والارض ورسمه على هيئة صبى متوج بتاج فوقه أربع ريشات وبيده حبل وكانت مدينة العرابة المدفونة ذات شهرة عظيمة بسبب المقبرة التى كانوا يعتقدون أن معبودهم (ازوريس)

مدفون فيها ولذا كانوا يأتون اليها فى كل عام زائرين ويتمنون الدفن فى تلك البقعة المقدسة عندهم ولم يزل يشاهد فيها الى يومنا هذا باطراف الصحراء عدة مقابر فاخرة

التاسع ـ (خم بانوبوليتس) وقاعدته مدينة (بنجيم) أى اخميم وهى موضوعة على جانب النيل الشرقى ومعبودها (خم) السابق ذكره الذى من صفاته أيضا انه منزه عما توصف به سائر الذوات وكان لاهل اخميم شهرة عظيمة بالمهارة فى فن صناعة الاقمشة ونحت الحجارة

العاشر ـ (وص افروديتو بوليتس) وقاعدته الاولى (دبو) أعنى مدينة النعال وهى المعروفة الآن بقرية (ادفه) على الجانب الغربى من النيل بجرى سوهاج وكان أهلها يعبدون (حور) أى العلى وقاعدته الثانية (دوكا) أى (قاو) ومعبودها (ست) أى الشيطان وكان لهذا القسم شهرة عظيمة بمعادن الحجارة النفيسة التى كانت تستخرج من الجبال المجاورة له بالجانب الشرقى من نهر النيل

الحادى عشر ـ (معا هبسليتس) وقاعدته مدينة (شس حتب) ويستدل عليها بالقرية المعروفة الآن باسم (شطف) وكانت مستودع الاسرار الدينية ومعبودها (خنوم) أى منشئ الكائنات وبارئها

الثانى عشر ـ (دوف أنتيو بوليتس الشمالى) وقاعدته مدينة (نونت بك) ويستدل على محلها بقاو الكبيرة ومعبود اتها (حور ومق أى أزيس)

الثالث عشر ـ (أتف خونت ليكو بوليتس) وقاعدته مدينة (سيوط) أى أسيوط ومعبودها (أبماتن) أى الحافظ على جميع ما فى الجهة الجنوبية من الاموات والبل وهو على شكل ابن آوى وجثته مدفونة فى الجهة الغربية من أسيوط وكان أهل هذا القسم يحترمون أيضا المعبود (حانحور) يعنى الشعرى اليمانية

الرابع عشر (اتف بحو الفروديتو بوليتس) وقاعدته مدينة قوص ومعناها مدينة الرخام الابيض ويستدل عليها الآن بقرية قوصيه وكان الرخام الذى يستخرج من مقاطع تلك المدينة شهرة عظيمة عند الاقدمين وكان أهل تلك الجهة يحترمون المعبودة (معا) ويرمزونها جالسة ملتفة بأقمشة وعلى رأسها علامة بالهير وغليفية تدل على العدالة ونطق هذه العلامة (معا) ويعتقدون أن هذه المعبودة تقدم الاموات الى محضر الحكم يوم القيامة

الخامس عشر (آن هرموبوليتس) وقاعدته (سنو) يعنى الاشمونين ومعبوده (تحوت) يعنى (هرمس) ومعناه رب الحكمة

السادس عشر (مح هبونن) وقاعدته مدينة (هبون) ويستدل عليها الآن بقرية انصنا ومعبودها (حور) يعنى العظيم وكانت بلدة شهيرة ويشهد لذلك آثار المعابد والخلوات التى كانت معدة للجنائز فى الجبال الغربية منها وأشهر مدنها (سات) يعنى بنى حسان (ذماتوبل) يعنى الكوم الاحمر

السابع عشر (انوسينوبوليتس) وقاعدته مدينة (كاسا) وتعرف الآن باسم قلوصنه ومعبودها (أنوب) وهو ابن آوى وأشهر مدنها مملوط

الثامن عشر (سبوت اكسير تحيتوس الشمالى) وقاعدته مدينة (حاسوتن) ومعبوده (أنوب)

التاسع عشر (وسب اكسير تحيتوس الجنوبى) وقاعدته (بماص) يعنى البهنسة ومعبوده (ست) يعنى الشيطان

العشرون (أم ادخونت هيرا قليوبوليس) وقاعدته (خينتو) يعنى اهناس المدينة وله معبودان هما (نانوم) و (حورشف) أى القادر وأشهر مدنه مدينة بوص

الحادى والعشرون (أبحوا رسينوتيتس) وقاعدته مدينة (صنور) ومعبودها (خنوم) يعنى مصور الكائنات وأشهر مدنه (بى سبك) يعنى الفيوم وكانت تعرف أيضا باسم (بسبومع) يعنى مدينة اليم

الثانى والعشرون (تباحوا حزوديتوبوليتس) وقاعدته (تباح) يعنى اطفيح ومعبوده (حانحور) أى الشعرى اليمانية وآخر حدوده من الجهة البحرية مدينة دهشور وهى الفاصلة بين الوجه القبلى والبحرى كما تقدم

(فى الكلام على أقسام الوجه البحرى)

(المسمى قديما)

(يتومحيت)

أول هذه الاقسام (انبوحز منفيتس) وقاعدته مدينة (منفر) يعنى المكان العظيم أو المينا العظيمة وتعرف عند مؤرخى العرب باسم منف وهى منحصرة فيما بين البدرشين وميت رهينة ومديرية الجيزة ولها معبودان الاول (بتاح) يعنى الفتاح ويلقبه القدماء بالمبرئ منظم الكون ويرسمونه على الآثار تارة متوجا بتاج الجعران واطئا بأرجله تمساحا اشارة الى الانقلاب والتغيير وتارة على شكل موميا مطلقة اليدين يشيرون بذلك الى استحالة الروح بعد خروجها من الجسد الى نور يصعد الى السماء ينضم الى نور الشمس والثانى المعبودة (محت) يعنى حرارة الشمس المهلكة ويقال انها منوطة بعقاب الخاطئين فى النار ورسمها على شكل آدمى له وجه سبع وعلى رأسه الشمس وكان يوجد أمام الكرنك يعنى أمام المعبد جملة من تماثيل هذه المعبودات موضوعة صفين بانتظام ونقل بعضها الآن الى متحف فرنسا ويوجد وراء منف اهرام لعدة ملوك من الطبقة الاولى وكانت منف قاعدة للملك مدة سبعين قرنا وحدها القبلى شنباب والغربى بحر يوسف والشرقى النيل

والبحرى

والبحري الجبيرة وكان فيها قصور ومبان فاخرة بقيت عامرة الى عصر اليونان ويوجد بقربها على الشاطئ الشرقي من النيل محاجر طرا وتعرف قديما باسم ﴿ طروبا ﴾ وكان يستخرج منها الحجارة لبناء الهيا كل وغيرها

الثاني ﴿ افاليتو وبليس ﴾ وقاعدته مدينة ﴿ حنص ﴾ المسماة الآن وسيم وهي على الجانب الايسر من فرع رشيد ومعنى ﴿ حنص ﴾ المكان المنزه عن شوائب التدنيس ومعبود هذا القسم ﴿ حور ﴾ أي الاعلى الفخيم

الثالث ﴿ امنت ﴾ ويقال لها ﴿ ليبيا ﴾ أو ﴿ ماريدس ﴾ أو ﴿ مومنفيتس ﴾ وقاعدته مدينة ﴿ ني نونتحي ﴾ يعني مدينة الثور ﴿ ابيس ﴾ وموضعه جهة مريوط ومعبوده ﴿ سي ﴾

الرابع ﴿ سبريس منيتانتس ﴾ وقاعدته مدينة ﴿ صقع ﴾ يعني ﴿ كانوب ﴾ وموضعها بجوار أبي قير على الجانب الايمن من فرع رشيد وكان أهل هذا القسم يحترمون المعبود ﴿ آمون رع ﴾ والمعبودة ﴿ نيت ﴾

الخامس ﴿ سابى محت سايتس ﴾ وقاعدته مدينة ﴿ صا ﴾ يعني صا الحجر وكانت مدينة شهيرة فيها هيكل فاخر مؤسس لعبادة المعبود ﴿ تحوت ﴾ يعني رب الحكمة ولهذا القسم معبودة تسمى ﴿ بست ﴾

السادس ﴿ كاسيت اكسوتيس ﴾ وله قاعدتان الاولى ﴿ صخاوة ﴾ ومعناها صخاوى الموجودة بمديرية الغربية وكانت مدينة عظيمة اجتهدت في عمارتها العائلة الرابعة عشرة واتخذتها تختا لها مدة من الزمن ومعبودها ﴿ أمون ﴾ والثانية ﴿ عنت عرى حوس ﴾ يعني مدينة السبع الكاسر كناية عن ﴿ أمون ﴾

السابع ﴿ امنت متليتس ﴾ وموضعه بين مديريتي الغربية والبحيرة وله قاعدتان الاولى مدينة ﴿ سنتينفر ﴾ يعني مدينة مسيل والثانية مدينة العطف المسماة قديما ﴿ ديت ﴾ وكان أهل هذا القسم يحترمون المعبود ﴿ حور ﴾ والمعبودة ﴿ ازيس ﴾ ويرسمونها على شكل امرأة جالسة فوق رأسها كرسي

الثامن ﴿ ابوت ستروتيس ﴾ وموضعه في مديرية الدقهلية بجوار بركة المنزلة وقاعدته مدينة ﴿ سوكوت ﴾ المذكورة في التوراة بهذا الاسم ومعبودها ﴿ توم ﴾ ومعناه الشمس وقت غروبها ورسمه على شكل آدمي متوج بتاج يسمى ﴿ بشنت ﴾ وكان فيها قصر للملك ﴿ منفتاح ﴾ وقلعة حصينة بالقرب من مدينة ﴿ رمسيس ﴾ المعروفة قديما باسم ﴿ بيتوم ﴾ وكانت هذه القلعة مفتاح الديار المصرية في العصر القديم

التاسع ﴿ آتي بوصيريتس ﴾ يعني قسم أبي صير وقاعدته مدينة ﴿ بي اسرتب دو ﴾ يعني مدينة أبي صير ومعبوده ﴿ ازوريس ﴾ وهو المقدس الذي يحكم في أحوال الارواح ويصحب الانسان بعد موته فيهديه الى أقدام الرب الاعلى ويوصف بفاعل الخير

العاشر ﴿كاكم اتريبتس﴾ يعنى اتريب فى مديرية القليوبيـة على الشاطئ الشرقى من فرع دمياط ويسـتدل عليه بتل اتريب وقاعدته مدينة ﴿حاتحوراب﴾ يعنى مدينة الارض الوسطى ومعبودها ﴿حور﴾ يعـنى العلى ولقبـه ﴿خنتى‌حتى﴾ وكان له معبد عظيم فى مدينة ﴿حتى﴾ القديمة

الحادى عشر ﴿كاحبس كاسيفس﴾ وقاعدته مدينة ﴿كاحبس﴾ يعنى شبباس وكان سكان هذا القسم يعبدون الشيطان ﴿ست﴾

الثانى عشر ﴿كانب تبنوس﴾ وقاعدته ﴿سب نوتر﴾ يعنى مدينة سمنود ومعبوده ﴿انحور﴾ المسمى عند اليونان ﴿مارس﴾

الثالث عشر ﴿حق آن هيليوبليس﴾ وقاعدته مدينة ﴿آن﴾ يعنى المطرية وكانت دار علوم ومعارف وفيها معبد للشمس ومسلتان احداهما مسلة الملك ﴿أوسرتسن الاول﴾ القائمـة الآن هناك على ساقها وهى تدل على باب المعبد المذكور ولم تزل يشاهـد فى تلك المدينة مافيه تذكرة بعجائبها الفاخرة ولهذا القسم معبودان الاول ﴿حورمخو﴾ يعنى الشمس وقت الشروق والغروب والثانى المعبودة ﴿يوزاس﴾

الرابع عشر ﴿خونت ابعت تانيس﴾ وقاعدته مدينة ﴿صعن﴾ يعنى صان وكانت مدينة شهيرة لاسيما فى عصر ﴿رمسيس الثانى﴾ الذى شيدها وسماها باسمـه وفيها أظهر موسى عليه السـلام المعجزات لفرعون ﴿منفتاح﴾ الاول لاطلاق بنى اسرائيل من مصر فأذن لهم بالرحيـل فخرجوا من تلك المدينـة بعد اجتماعهم فيها وساروا الى ﴿سوكوت﴾ حيث أمرهم الله وكان لهذا القسم معبودان الاول ﴿حور﴾ يعنى العظيم الفخيم والثانى المعبودة ﴿حونت أبوت﴾

الخامس عشر ﴿بحـع هرموبوليتس﴾ وقاعـدته ﴿بى تحوت﴾ وتسميها اليونان ﴿هرموبوليس﴾ يعنى اشمون الرمان ومعبوده ﴿تحوت﴾ يعنى كوكب المريخ

السادس عشر ﴿خامندسيوس﴾ وقاعـدته ﴿بى بى نب دد﴾ ومعناه ﴿مندس﴾ يعنى قرية تمى الامديد وله معبودان الاول ﴿بى نب دد﴾ وتسميـه اليونان ﴿منـدس﴾ والثانية المعبودة ﴿حامحيت﴾

السابع عشر ﴿سمهود دوسبوليتس﴾ وقاعـدته مدينة ﴿باخن أمون﴾ المعروفة عند اليونان باسم ﴿باخناموتيس﴾ ومعبوده ﴿أمون رع﴾ والالهة موت

الثامن عشر ﴿أم نخونت بوبوتيتس﴾ وقاعـدته مدينة ﴿بى بست﴾ أعنى مـدينة بسطة ويسـتدل على محلها الآن بتل بسطة ومعبودها الالهة ﴿بست﴾ المعروفة عنـد اليونان باسم ﴿ديانا﴾ ولعلها دميانا التى تزورها الاقباط فى كل عام

التاسع عشر ﴿امحت بونيكوس بثنوتس﴾ وقاعـدته مدينة ﴿بيوتو﴾ أى كوم الرمان ويعرف عند اليونان باسم ﴿بوتو﴾ وهو اسم لمعبود هذا القسم أيضا

العشرون

العشرون ﴿سبت عربيا﴾ وقاعدته مدينة ﴿باقوسيم﴾ المعروفة عند اليونان باسم ﴿فقوسة﴾ ويستدل على موضعها بالقرية المسماة الآن فقوس ومعبوده ﴿ست﴾ أى الشعرى اليمانية قال وهذه الاقسام متفق عليها فى عصر الفراعنة والبطالسة

(فصـــل)

﴿ فيما كانت عليه سياسة البلاد وفى اقامة القضاة وفى الدعاوى والاحكام ﴾

ولما عرفت الامة المصرية ان لابد من رابطة وثقى لاانفصام لها بين الراعى والرعية والرئيس والمرؤس وتحققت ان الحكومة الملكية التى تكون على مثال ما كانت هى عليه الى ذلك الحين لاتقوى أركانها ولا ينجح لها عمل الا بالشورى قامت بتعضيد ملكها وأمدته بالمال والرجال وضمت الى دوانه جماعة العلماء والحكماء وأصحاب الرأى فكان أمناء الدين فى ذلك الحين فى صدر الهيئة الحاكمة يرتبون ديوان الملك داخلا وخارجا ويشاركونه فى جميع أموره وعليهم معتمده واليهم المرجع فى فض المشكلات فاذا مات حكموا عليه بأنه كان فى أيامه من أهل السعادة أو الشقاء وأنفذوا عليه الحكم * وتحرير الخبر أنه اذا مات الملك وانتشر خبر نعيه مزق الناس ثيابهم وأغلق الكهنة أبواب المعابد والهيا كل ومنعوا من تقريب القربان وامتنعوا من عمل المواسم والاعياد واستمروا على هذا الحال من الحزن اثنين وسبعين يوما اجلالا لمنصبه وكانت فى خلال هذه المدة تنتشر جموع الناس من الذكور والاناث صائحين فى كل يوم فى الشوارع والحارات للندب وانشاء المراثى فكانت هذه المدة عندهم مأتما حافلا يحزن فيه الخاص والعام فاذا انقضت هذه الايام وضعت جثة الملك محنطة مصبرة فى دهليز المقبرة ثم بحثوا عن جميع مافعله من خير أو شر بحضرة الالوف المؤلفة من الناس على اختلاف درجاتهم وأخذ كل يعدد محاسن الملك ومساويه ويذكر ماحسن من سيرته وماقبح ثم يطلب حكم الجمهور فان حكم بدفنه دفن بهذا الاحترام على مقتضى مقامه الملوكى والاحرم وجرد عما يجب لمن واجب التعظيم

ولم يكن للاهالى ولالعامة الناس قط تداخل مع الملك فى حكم البلاد الافى هذا الامر ومع أن هذه المداخلة ليست الا بالامر الهين لاسيما بعد الموت قد كانت نتيجتها من أهم النتائج وأكبرها وأشدها تأثيرا على بيت الملك وقد حرم من الدفن كثير من الفراعنة لقبح سيرتهم فخاف خلفاؤهم العاقبة وأجهدوا النفس فى اصلاح العمل وسلوك مسالك العدل فرارا من هول هذا العقاب وكان المصريون فيما عدا هذه الحالة يخدمون ملوكهم ويقدمون لهم واجب الطاعة بقدر الاستطاعة حتى كانوا يعبدونهم كعبادتهم الآلهة اذ كانوا يعتقدون ان من قدره فى عالم الغيب منصب الملوكية ووفق للعدل بين صنوف الرعية فهو بشر فى مظهر الالوهية

وكانت ملوك المصريين تختار من بين أمناء الدين والكهنة فى محفل من المبعوثين من كل إقليم نوابا وعليهم فى المداولات الاعتماد فكانوا يجتمعون فى البربة التى بين ميت رهينة والفيوم فتتشكل منهم جمعية عمومية تنعقد فى الحوادث المهمة كالصلح والحرب وتجديد التراتيب وتغيير الدولة عند خلو المنصب الملوكى وغير ذلك من الامور الخطيرة * ولم يكن من شأن الملوك يومئذ مباشرة دعاوى الخلق ولا الحكم بأنفسهم فى الوقائع بل كانت المحاكم محلا للاقضية والاحكام فكان القضاة والحكام يخرجون من مدينة منف وعين شمس بالاقاليم البحرية ومدينة ابو بالاقاليم القبلية وكانت كل مدينة من هذه المدن ترسل عشرة من القضاة لاجراء الاحكام فيجتمع من المدن الثلاث ثلاثون قاضيا لمجلس القضاء وكان للقضاة الثلاثين المذكورين الحق فى نصب قاض منهم رئيسا عليهم وبعد نصبه يكملون عدة الثلاثين من مدينة القضاة العشرة الذين اختير منهم ذلك الواحد * وكانت نفقاتهم من خزينة الحكومة ومرتبات رئيسهم من بيت المال * وكانت لا تقام الدعاوى فى مجلس القضاء الا بالكتابة ولا يسمع التداعى أو التخاصم بالمشافهة والمخاطبة مخافة ان تنجذب قلوب القضاة من سماع كلام أحد الخصمين وتستميل قلوبهم فصاحته أو عذوبة ألفاظه اذ ربما ترتب على ذلك الانحراف فى الاحكام فلذلك كان يكتب المدعى شكواه أولا ويبين مقدار ما يلتمس الاعتياض به فى نظير ما خسره أو ما حصل له من الاساءة فيعطى للمدعى عليه صورة ما كتبه خصمه ليعلم ما قاله فيرى كلام خصمه ويناقضه بما شاء ثم يجوز أن يعطى جواب المدعى عليه للمدعى عساه أن يجيب عنه وكذلك يجوز أن يعطى للمدعى عليه بعد ذلك فاذا فرغت المناقشات وجب على مجلس القضاة بعد البحث فى القضية أن يحكم فيها بما يظهر له فيكتب الحكم أيضا ويختمه رئيس القضاة على وجه عجيب وذلك ان الرئيس له سلسلة من ذهب معلق فى عنقه فيه صورة من الجوهر عليها تمثال الحق فعند افتتاح المذاكرة لابد من تعليق الصورة فى عنقه فاذا صدر الحكم من المجلس صدق عليه الرئيس بختمه بصورة الحق ووجهها صوب أحد الخصمين الحاضرين بالمجلس حين الختم علامة على انه ظهر له الحق فعمل به وأنفذه وبقيت الحال على ذلك الى زمن البطالسة أيضا * وقد عثر أهل العلوم الاثرية على شقة من البردى وهى موجودة بتحف مدينة تورينو من أعمال ايطاليا مكتوب عليها باللغة اليونانية ملخص دعوى نظرت بالمحكمة الكبرى بمدينة طيبة وكانت بين أحد المصريين وأحد اليونانيين وتعريب ما فيها * تقدمت هذه الدعوى الى محكمة طيبة عاصمة المملكة المشمولة برئاسة ﴿ هيركليد ﴾ حكمدار الخفر السلطانى وحاكم قسم الضواحى ورئيس جباة الاموال بالقسم ومعه كل من ﴿ بواميون هركليد ﴾ الجباز و ﴿ ابونيوس هرموجين ﴾ صديق الملك عميته و ﴿ بانكرات ﴾ ضابط من الدرجة الثانية و ﴿ بانتكوس ﴾ من أهالى مصر الخ قضاة بالمحكمة المذكورة

(الموضوع)

انه فى الثانى والعشرين من شهر اتيريعق (هاتور) سنة أربع وعشرين من حكم بطليموس أوبرجيطه أى (الرحيم) طلب (هرماس) بن بطليموس حكمدار نقطة امبو الحربية خصمه المدعو (هوروس) بن (أرسيازى) المصرى ومعه فلان * وفلان * الخ الجميع صناعتهم مباشرة تحنيط الاموات الحضور امام هذه المحكمة لان المذكور اغتصب منزله الكائن بمدينة طيبة المحدود من بحرى * الخ * وبعد ماسكنه فى غيبته وأخذ يباشر صنعته به وأبى الخروج منه وان (هرماس) المدعى طلب المدعى عليه وهو (هوروس) جملة مرات للحضور امام المحاكم الاخرى لاجل حصوله على حقه لم يفد ذلك شيأ وان المدعى عليه كان يستعمل المراوغة والحيل كان المدعى كان مجبورا على عدم مباشرة الدعوى لاقامتها بمحل ولبقته الى ان تظرت أخيرا بهذه المحكمة للحكم فيها نهائيا

قال الراوى لهذه الحكاية أما وجه التمليك للمنزل فمذكور فى عمودين ونصف من الورقة المشار اليها * وذكر بعد ذلك أقوال المحامين عن الخصمين وهما (فيلوكليس) النائب عن المدعى و (دنسيون) النائب عن المدعى عليه * قال وملخص ذلك * ان كل واحد منهما كان يبرهن بالاوراق والحجج والعقود والتواريخ المثبتة لصحة تمليكه المنزل متمسكا بنصوص بنود القانون العامى والمدنى وأخذ (فيلوكليس) يزدرى بجمعية المحنطين للاموات مستظهرا بالقوانين والاوامر السلطانية الصريحة المانعة لمباشرة هذه الصنعة بقرب المساجد أما (دينون) فكان يدافع عن جمعية المحنطين وبذكر حالتها الطبيعية وشدة الحاجة اليها وأنها بمكان عظيم فى الهيئة الاجتماعية وشرح نصوصها القانونية وبالغ فى الشرح والتعبير وفند ملعبات خصمه وشدد النكير على (فيلوكليس) اليونانى لانتهاكه حرمة القواعد المقدسة المرعية عند جميع المحاكم على اختلاف درجاتها * وكان فى خلال هذا الدفاع يقول ان موكله يمتلك تلك الدار من أعوام كثيرة وجعل يعددها ثم عطف فى أثناء المرافعة على بعض مواضيع أثنى فيها على حسن الادارة وعلى الكثير من القضاة وما لهم من شرف الوظيفة وعلى الترتيبات النظامية الجارية بالقطر المصرى وذكر أحوالا أخرى لاتخلو عن الفائدة التاريخية * قال الراوى ثم صدر الحكم فى العمود التاسع من الورقة المذكورة برفض دعوى المدعى اليونانى واحقية (هوروس) المصرى بتلك الدار لثبوت وضع يده اه * قلت وطريقة هذه المرافعة لاتختلف فى شئ عما هو جار بالمحاكم الآن فرحم الله تلك الايام ماأعدلها

(فصـــل)

﴿في كيفية الحـــدود والعقوبات عندهم﴾

كانت للمصريين أحكام غريبـــة دونت في كتب شرائعهم وذلك كعقاب الحانث في يمينـــه بقتـــله * قالوا * وسر ذلك ان الحانث يرتكب كبـــيرتين أولاهـــما كونه حلف كاذبا وخان معبوده بسبب حلفه به كذبا وثانيتهـــما لانه غش الناس وخدعهـــم بيمينه الفاجرة ليصدقوه فأوقعهم في تصديق الكذب * ومن أحكامهم ان من رأى في طريقه من يقتل انسانا أو يصول عليـــه ولم يغثه من القتل أو الصيال مع قدرته على ذلك فجزاؤه القتل فاذا كان لا يقـــدر على اغاثته بنفسه وانما يتمكن من طلب الاغاثة بغـــيره وجب عليه أن يطلب اغاثتـــه من القادر عليها فاذا قصر في ذلك قتـــل أيضا وكذلك اذا علم أحد بقتل آخر وجب عليه التبليغ لاولى الامر فان لم يفعل فجزاؤه القتـــل * قالوا * لان وجوده كعدمه * ومنها ان الخـــائن الذى يبلغ الاعداء أسرار الحكومة ويطلعهم على عوراتها جزاؤه قطع لسانه وكذلك من يصطنع النقود الزيف أو يطفف المكاييل والموازين أو يزور في الاختام والمكاتيب والحجج فجزاؤه قطع يده

قلت ولعل قول الراوى ﴿وكذلك من يصطنع النقود الزيف الخ﴾ فيه زيادة عن الاصل حيث اجتمعت كلـــة أهـــل التاريخ عـــلى ان النقود لم تستعمـــل بديار مصر الا في أيام الدولة السابعـــة والعشرين الفارســـية ويدل على صحة ذلك ماقاله هرودوتس المؤرخ من ان دارا بن ﴿هستاسب﴾ هو أول من ضرب نقود الذهب وبالغ في تصفيتها وان دارا المذكور حكم بالقتل على ﴿ارياندس﴾ عامله بمصر حين علم بأنه ضرب نقودا من الفضة اهـ

قال أهل التاريخ وقد كانت النقود المتداولة قبل دارا المذكور اصطلاحية على أشكال مختلفة كالضفادع والحلقات والثيران والعجول الصغيرة المصوغة من الذهب والفضـــة والمعادن الاخرى مرقوما عليها قيمتها ووزنها وعيارها فكانوا يقومون بها السلع والبضائع ويقال هذا يعادل حلقتين من الذهب أو من الفضة وهـــذا بثلاث ضفادع أو أربعة ثيران مثـــلا وكانت جزية الامم الخاضـــعة لمصر كلها من حلقات الذهب أو الفضة تقبضها منهم بالوزن

وكانت الاحكام على النساء أيضا غاية في الشدة وبالنسبة لهن كذلك فان من ثبت عليه أنه اغتصب امرأة حرة غـــير رقيقـــة بالزنا فجـــزاؤه قطـــع آلتـــه قالوا لان في هـــذا الذنب ثلاث كبائر الاولى التعـــدى على امرأة بهتك عرضها الثانية الســـعى خلف إفساد الاخـــلاق السليمة والعوائد في الهيئة الاجتمـــاعية الثـــالثة مايترتب على ذلك من اختلاط الانساب فاذا زنى بها برضـــاها فجزاؤه جلده ألف جلدة وجزاء المرأة قطع أنفها لتشويه خلقتها حتى ينقطع ميل الرجال اليها ولا ينفذ الحكم على الحبالى منهن الا بعـــد الوضع ومن أحكامهم ان الذين

الذى به لايثبت على المدين اذا حلف على رؤس الاشهاد ان ذمته بريئة من ذلك الدين وان الدائن لايستحق فى ذمته شيأ ووجه ذلك ان اليمين أقوى مالم يثبت الدائن عليه دينه بسندات ومن أحكامهم أيضا ان الربح عندهم فى أى شئ كان فى البيع والشراء لايتجاوز رأس المال والا عد من الغبن الفاحش وان من كان عليه دين فأملاكه كافلة لذلك الدين وضامنة له وأما ذات المدين يعنى شخصه فليس لمدينه عليه ولاية قالوا وسر ذلك اتخاذ المدين مملوكا للهيئة الحاكمة بحيث تطلبها فى كل وقت وفى كل حال سواء كان ذلك فى زمن الصلح أو زمن الحرب فلذلك كان لايجوز القبض على أحد من الاهالى ولاحبسه فى الامور الخصوصية كالدين ونحوه ويحكم بقطع عين مطفف الكيل والميزان ومقلد ختم السلطان أو ختم أحد الناس ومزور الخطوط ومغير مواضيع الدعاوى الرسمية ويحكم بالعذاب ثم بالحرق ومن قتل أحد أبويه عمدا أحرق حيا ومن قتل ابنه أو ابنته يحكم عليه بأن يعانق جثة المقتول ثلاثة أيام بلياليها قال هيرودتس وبقى الحكم بالقتل معمولا به الى عهد الملك سباقون الحبشى أحد ملوك العائلة الخامسة والعشرين فأبطله واستبدله بالاشغال الشاقة فى حفر الترع واقامة الجسور ونحو ذلك من المنافع العمومية قال ومن مآثر الملك (مايس) أحد ملوك العائلة السادسة والعشرين انه فرض على كل مصرى أن يثبت اسمه بالكتابة فى آخر كل سنة بمحكمة الجهة الداخل فى دائرة اختصاصها ويبين مهنته ووسائل معيشته وتكسبه فان لم يفعل ذلك أوظهر انه يأكل من طريق الحرام والسحت حكم عليه بالقتل

(فصل)

(فى تمدن المصريين وفى صنائعهم وعقائدهم وبعض عوائدهم)

اعلم أن دلائل الآثار وما جاء به التاريخ المصرى القديم والحديث أثبت ما كان عليه أجدادنا المصريون من المعارف وما وصلوا اليه من درجات المدنية وما حازوه من الفنون العقلية والفلسفية والطبية والكيماوية وكيف تقدموا وبرعوا ونالوا الاسبقية فى علم الهيئة والنجوم والهندسة لاسيما فن الطب الذى اتقنوه اتقانا غريبا جدا اذ كان الطبيب عندهم لايتفرغ الا لمعالجة مرض واحد من الامراض فيتقنه غاية الاتقان قال بعض الكتاب وقد وجد كتاب محرر فى فن الطب من عهد الملك (خوفو) وكتابان آخران أحدهما من عصر الملك (منكورع) كله تذاكر طبية وثانيهما كان قد وجد فى عصر الملك (سيتى) ثم ابنه الملك (سنفا) ثم نقلت هذه النسخ فى مدة العائلة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ولنفاستها تداولتها مدارسهم وحفظت فى مكتبة (امحت) التى بقيت الى عهد اليونان وكان حكماء اليونان يستنبطون منها الصلاح قال هيرودوتس المؤرخ وكان قدماء

المصريين يعتنون بصحة أجسامهم زيادة عن غيرهم من الناس فكانوا كل شهر وثلاثة أيام يتعاطون مقيئات وشربا لتنظيف أجوافهم لانهم كانوا يعتقدون ان أمراض الانسان تنشأ عن المأكولات. قال وإن الطب كان مقسما عندهم الى أقسام متباينة بمعنى ان كل طبيب كان يشتغل بنوع مخصوص من الامراض ولهذا كان حكماؤهم كثيرين اه

وقد برعوا فى عمليات التصبير ووصلوا فيه الى درجة لم يتأت لاحد من بعدهم الوصول اليها ومع ذلك فقد كانوا لايميلون الى البحث فى علم التشريح ولا التفنن فيه لاعتقادهم ان الجسم إذا شرح يكون مشوه الخلقة عند بعثه ولذا كانوا يبغضون كل من كان سببا فى تشريح جثة موتاهم حتى ان المصبر الذى كان من وظيفته عمل الفتحات اللازمة لعملية التحنيط كان عرضة للعن والكراهة وكان اذا عمل الفتحات المذكورة فى الجثة خرج مسرعا فيلحقه الحاضرون ويرجمونه بالحجارة وكان الاطباء لهذا السبب يعالجون المرضى حسبما كانت تقضى به الشريعة عندهم فان خالفوا ذلك أخطؤا وخاطروا بأنفسهم واذا مات المريض حال معالجته حكم على طبيبه بحكم القتل. وقد ورد فى الرسالة القديمة المحفوظة بخزانة التحف ببرلين عدة مسائل مهمة تتعلق بحياة الجسم الانسانى عندهم وتعريب بعض مافى تلك الرسالة

ان الرأس اثنين وثلاثين وعاء توصل النفس الى داخله ثم يسرى منه هذا النفس الى جميع أعضاء الجسم ويوجد أيضا فى الصدر وعاآن يوصلان الحرارة الى الشرج ووعاآن فى القمحدوة واثنان فى قمة الرأس واثنان فى القفا واثنان فى الاجفان واثنان فى الاذن اليمنى ومثلهما فى اليسرى لحصول التنفس واثنان فى الخياشيم اه والنفس هو مايستنشقه الانسان من الاهوية فيدخل فى الاوردة والشرايين ويمتزج بجميع الدم الذى به حركة الانسان وعند موته ينقطع النفس بخروج الروح وتبطل حركة الدم فيموت الانسان. وذكر أيضا فى الرسائل الطبية القديمة أسماء بعض الامراض كالرمد والدوالى والقرح والحمرة والديدان والصرع ونحو ذلك وفيها أيضا باب مخصوص لبعض معالجات نافعة للحمل والولادة وورد فى رسالة قديمة محفوظة بالتكخانة ببرلين بعض علامات لتشخيص الامراض التى هى أهم كل شئ للحكيم من ذلك تشخيص نوع من الالتهاب تعريبه

أن يحس الانسان بألم فى البطن وبضعف فى الابهر وبالتهاب فى القلب ويشتد ضرب النبض وتثقل الملابس عليه بحيث لايدفئه كثيرها وتلتهب بطنه عند قضاء الحاجة ويشتد ظمؤه فى الليل ويتغير معه طعم المأكل فيكون كرجل أكل جميزا ويذبل جسمه كما يذبل جسم الانسان المريض اه وعلاج ذلك منصوص فيها على أربعة أنواع إما أن يعالج بالمراهم أو باللبخ أو بالجرع أو بالحقن حسب الطبائع فمن هذه الاربعة ماتركب من خمسين نوعا منها ماهو من النباتات والاشجار كالعوسج والذرة ومنها ماهو من المواد المعدنية مثل كبريتات النحاس والملح وملح البارود اه وكان بعض علماء الطب يدخلون فى تركيب المراهم المزيلة للالتهاب اللحم والقلب والكبد والمرارة والدم السائل والجاف لبعض الحيوانات لاسيما الثعر

وقرن

وثرن الايل فكانوا كثيرامايستعملونهما فى تركيب بعض المراهم النافعة لمعالجة الالتهاب وكانت أجزاء كل دواء تسحق على حدتها ثم تغلى وتصفى بخرقة وتمزج بعد ذلك بالماء القراح النقى أو بسوائل كغلى الشعير ولبن البقر والمعز وزيت الزيتون النقى وغير ذلك كبول الانسان والحيوان ثم تحلى بالعسل ويتعاطى منها المريض وهى ساخنة فى الصباح والمساء * اما الصرع المعروف عند العوام بالعفريت فكانت معالجته على نوعين اما بالرقية أو بالطب والاولى عبارة عن عزائم كانوا يقرؤنها على المريض فيخرج منه الصرع وسنذكر هنا نص العزيمة المكتوبة فى الرسالة المحفوظة بالانتكخانة الانكليزية بمدينة الليد وتعريبها

(أيها الجنى الساكن فى فلان بن فلان المسمى أولك بضراب الرؤس قد محى ولعن اسمك الى الابد لانه جالب للموت اه وتكرر هذه المقالة أربع مرات فان كانت هذه العزيمة لاتزيل الصرع أتى الطبيب بعزيمة أخرى لازالته فاذا زال من المريض اجتهد الطبيب فى معالجة الجسم بالادوية لدفع ماحصل للمريض من الهزال بذلك الصرع وبهذا نعلم ان الرقية اشتهرت عند قدماء المصريين بازالة المرض الخفى كما ان الطب اشتهر عندهم أيضا بازالة المرض الظاهرى

وكانت درجة العلوم عندهم عظيمة جدا وذات أهمية كبرى قال لبسيوس وجدت نقوشا قديمة على جدار مقبرة من مقابر قدماء المصريين بجوار اهرام الجيزة مضمونها أن صاحب هذه المقبرة كان ناظرا على الكتبخانة الملوكية فى مبدا العائلة الثانية اه وماذلك الا لعنايتهم الكثيرة بكتب العلوم حتى جعلوا لها خزانة وناظرا قال بعضهم ومن هذه الكتب ما كان محررا فى مدة العائلات الثلاث الاول ومنها ما كان مؤلفا فى عهد الملك (منا) ومنها ما كان قبله مما يتعلق بالديانات خاصة ومايتعلق بالهندسة والطب وعلم الفلك وعلم التاريخ المشتمل على قصص الملوك وما حصل فى مدتهم من الوقائع والحوادث المهمة وعلى مدة كل ملك وتاريخ حياته وكان فى الخزانة المذكورة كتب فلسفية وأدب وبعض كتب خرافات وغير ذلك ولم يتيسر للناس من ذلك الا شئ قليل من علم الفلسفة والتاريخ

وكان ما استكشفوه من علم الفلك كما رواه العلامة لبسيوس عبارة عن بعض النجوم السيارة التى هى المشترى والمريخ وزحل والزهرة وعطارد وبعض نجوم ثوابت كالمجموعة وكانوا يشبهون الارض بالكواكب ويقولون انها تنتقل كالمريخ والمشترى وذهب شاباس الى ان الشمس مركز الجميع وأنها تسير سيرا عموميا وتسبح فى السماء مع النجوم السيارة وان السماء لجة ماء تحيط بالأرض من جميع جهاتها وترتكز على الجو فهو لها كالاساس المتين كما جاء ذلك أيضا فى ورقة برلين الاثرية ويدل على ذلك أيضا مايشاهد على الآثار من رسم السماء على هيئة الماء وفيها تسبح الكواكب والنجوم على اشكال بشرية وحيوانية كل منها فى سفينة خلف الشمس وتشاهد فيها أيضا النجوم الثوابت على هيئة مصابيح منتشرة فى القبة السماوية وكانت القدرة الالهية توقدها كل مساء لتضيء الارض أثناء الليل



وجعلوا فى مبدأ هذه الهيئة النجوم التى كانوا يعبدونها وغيرها مما لايمكن مقارنة أسمائها القديمة بالاسماء الحالية كما تشاهد مرسومة فى الرصدخانات القديمة الموجودة بدندرة وصان ومنف والمطرية

وكانوا يهتمون كل سنة بعمل تقاويم سنوية يبينون فيها ظهور وغروب الكواكب ولم تزل آثارها باقية وأشهر هذه الكواكب الشعرى اليمانية حيث كان ظهورها علامة على مبدا فيضان النيل وعلى رأس السنة المصرية ولذا اتخذوها أساسا للتقويم قالوا وكيفية تقويمهم انهم قسموا السنة الى اثنى عشر شهرا كالجارى عند القبط الى الآن وقسموا الشهر الى ثلاثين يوما فتكون السنة ثلثمائة وستين يوما ثم قسموا هذه الشهور الى ثلاثة فصول كل فصل منها أربعة شهور فالاول فصل فيضان النيل والثانى فصل التخضير والثالث فصل الحصيد ثم قسموا أيضا كل شهر الى ثلاثة أقسام وجعلوا كل قسم عشرة أيام وقسموا الليل والنهار الى اثنى عشرة ساعة وعلى هذا الحساب زادت سنتهم خمسة أيام وربما نشأ عن ذلك عدم موافقة الفصول لمنازل القمر فاضطروا الى رصد الشمس ثانيا واستقر رأيهم على اضافة خمسة أيام لكل سنة سموها بأيام النسىء ومع ذلك لايزال يرى فرق بين السنة البسيطة والكبيسة لان عدد السنة البسيطة ثلثمائة وخمسة وستون يوما وعدد الكبيسة ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم فصارت السنة الكبيسة تزيد كل أربع سنين يوما واحدا سماه الكهنة بيوم الشعرى اليمانية وكانوا يجعلون لها مواسم وأعيادا فى معبد (شيسوحور) بمدينة منف وأما علم الرياضة فلم يهتد الى شئ من كتبه وانما دل بناء الاهرام الشامخة وتشييد العمارات المتسعة والمقابر المتقنة على ان فن الهندسة كان متقدما جدا وان المصريين كانوا يعرفون مقاييس الاجسام وجر الاثقال حتى أمكن المهندسين منهم ان يبتنوا تلك الاهرام الجسيمة والبرابى العظيمة الموجودة بسقارة وغيرها على شكل غريب وصنع عجيب وقد وجدت بعد بناء الاهرام بألفى سنة رسالة فى الهندسة أظهرت حقيقة ما كان عليه هذا الفن فى عصر العائلة التاسعة عشرة

وكانت لهم اليد الطولى فى صناعة الذهب والفضة واعمال أشكال الحلى النفيسة وهم الذين اخترعوا آلات الحرث وصنعوا الزجاج بألوان مختلفة وكان لهم اتصال مع بلاد الهند والصين بواسطة بلاد العرب فكانوا يرسلون الى تلك الجهات ما راج عندهم من الحبوب والمواشى والفخار والزجاج ويستبدلونها بالعطر والبهار والياقوت وغير ذلك من النفائس والاصناف العزيزة عندهم

ومن عوائدهم أنه اذا أراد انسان اقتراض مبلغ من المال يجوز له ان يقترض ويرهن فى نظير ذلك أى فى نظير دينه جثة أبيه المدفونة فيكون قبر أبى المدين تحت يد الدائن الى وقت استحقاق الدين فاذا لم يوف المدين دينه ومات حرم من دفنه فى مقابر والديه وتحرم أولاده أيضا مالم يوفوا دين والدهم

ومن

ومن عوائدهم ان الولائم التى يتخـذها الاغنياء يحضرون فيها بعد الطعام فى غير المكان المعد له نعشا مرسوما عليه صورة من الخشب جيدة الصنعة على هيئة جثة الميت ينظر اليها جميع الندماء عند الشراب والطعام ويفرج بعضهم بعضا عليها بالمناوبة فيقول بعضهم لبعض انظر الى هـذه الجثة التى ستكون مثلها بعـد الموت فاشربوا ياهؤلاء هنيأ وتمتعوا بدنيا كم قليلا

ومن عوائدهم احترام الفتيان الشيوخ فاذا قابل الفتى شيخا فى طريقه تأخر عنه فى السير واذا قدم شيخ على مجلس فيه فتيان قاموا اجلالا لشيخوخته واذا تقابل المصرى مع اخوانه فى موضع ولزم التسليم على من لقيه انحنى للآخر وجثا على ركبتيه وقبل كل منهما يد صاحبه

ومن عوائدهم انهم كانوا لايجالسون الاجانب ولايأكلون معهم شيأ ويبغضونهم بغضا شديدا وكانوا اذا مات أحـد أشرافهم مرغ نساء بيته وأولات قرباه الوجوه بالوحل وقرعن صدورهن وطفن بالمدينة صارخات باكيات قلت وهـذه العادة باقية كما هى الى يومنا هذا ٭ وهكذا يفعل الرجال أيضا ثم يأتون بالجثة الى المحنطين وبعد التحنيط ينعقد مجلس القضاء على الميت فيأتون بالجثة امام عرش القضاة فان كان الميت من أهل الصلاح والتقوى ووجد من شهد بذلك صدر الحكم بدفنه مكرما وان كان ذميما دفن على خلاف اللائق ولو كان من أعظم الاشراف أو ملكا من الملوك وقد تقدم الكلام على ذلك فى محله

وكانوا اذا حنطوا الجثة أخرجوا دماغ القحف من المنخرين وأخرجوا الامعاء الا القلب والكليتين من ثقب فى الخاصرة ثم يغسلونها بخمر النخل ويردونها الى أجوافها ويملؤن الرأس وأجواف الامعاء بالمر والقرفة وكل نوع من الأطياب والعطور ويدهنون الجسد بالزيوت العطرية مدة ثلاثين يوما ثم يوضع فى ماء النطرون مدة أربعين يوما ثم يلف بلفائف مغموسة بالمرمدهونة من الخارج بماء الصمغ للوقاية من الهواء ثم يوضع فى تابوت من الخشب أو الحجر ويسلم لاهله فاما ان يبقوه فى بيوتهم واما أن يدفنوه وكان أجدادنا يلبسون الثياب من الكتان ولها طراز وفوقها برانس من الصوف الابيض ولكنهم كانوا لايلبسون تلك البرانس فى المعابد والهيا كل ولا يكفنون بها موتاهم بل يقتصرون على الملابس الكتان لان ديانتهم كانت تحرم عليهم ذلك

ومع انهم كانوا كثيرى الآلهة والمعبودات فقد كانوا أمة موحدة تعرف الله سبحانه وتعالى وتعبده حق عبادته كما يؤخذ من كلام (بورفير) المؤرخ وغيره من المتأخرين وقال هيرودوتس ان أهل طيبة كانوا لايعبدون الا الله وكانوا يقولون انه هو الاول والآخر الحى الابدى الذى لايزول ولا يحول وروى (جامبليك) أنه سمع باذنيه من كهنة المصريين أنفسهم أنهم يعبدون الها واحدا وهو خالق السموات والارض رب كل شئ المالك لكل شئ والخالق لكل شئ الازلى الذى لاموجد له المنزه عن المباضعة الذى لاتراه العيون يعلم ماتكن السرائر

وتخضيه الصدور وهو الفعال لما يريد الموجد لكل شئ والموجود فى كل شئ قال أما ماتراه من كثرة المعبودات وتعدد الالهة فكلها رمز يرجع الى وحدانيته وذاته العلية قال المؤرخ (شمبليون) وقد استنتجنا مما هو منقوش على الآثار صحة ماروا‌ه المؤرخ (جامبليك) وماذكره غيره من المتأخرين من أن الامة المصرية كانت أمة موحدة فى عبادتها الله سبحانه وتعالى غير أنهم كانوا يظهرون صفاته العلية مشخصة فى بعض المحسوسات وأنهم لماتغلغلوا فى سبل التوحيد وقطعوا آخر مرحلة علموا أن الروح أبدية واعتقدوا بصحة الحساب والعقاب قال وعندى أنه لايعتد بما قاله بعض أهل التاريخ من الاغراب الذين تطفلوا على محافل المصريين فنقلوا من أخبار عباداتهم ومعبوداتهم كلاما اكتفوا فى نقله بالظاهر دون الحقيقة لجهلهم بعادات المصريين ولغتهم ومبلغ علمهم بالديانة الصحيحة

ومن المقرر على مارواه بعض المحققين أن موسى النبى عليه السلام لما أخذته ابنة فرعون أبقته فى دار أبيها حتى ترعرع ثم أدخلته احدى مدارس الكهنة ويغلب أنها مدرسة عين شمس فتعلم الحكمة وتخرج على كبار كهنة المصريين وتعلم منهم اسم الله المكنون الذى كانوا يصونونه عن غيرهم من العامة ولذلك قال بعض الكتاب ان لفظة (أدوناى) العبرانية التى قالها موسى عليه السلام ومعناها (الله) هى مشتقة من لفظة (ادن) أو (آتن) المصرية ومعناها عند عامة المصريين الشمس وأما عند الكهنة والخواص فمعناها (الله القادر) قالوا وقد وجد على بعض الاوراق مايدل على أنهم موحدون من ذلك ان الله واحد لاشريك له وهو خالق كل شئ * ومنها الله فرد أزلى كان قبل كل شئ ويبقى بعد كل شئ لابداية له ولانهاية وقس على هذه العبارة مايماثلها

وقال العلامة سيرو نقلا عن بعض المحققين من أهل التاريخ ان من يتأمل فيما بقى من الآثار القديمة بديار مصر وينظر الى ماهو منقوش على اللوحات الدينية الموجودة بالهيا كل وما هو مسطور أيضا على البردى هالته كثرة تلك الآلهة المصورة عليها وأدهشه أمرها جدا لان الانسان لايقع نظره الاعلى صور تماثيل مختلفة الهيا كل والاشكال قد طأطأت لها رؤس كبار ملوكهم وأحبار كهنتهم فيخيل له أن ديار مصر انما كانت مأهولة بهذه الآلهة وان المصريين انما خلقوا لعبادتها وقد كان السبب فى ذلك أن المصريين أمة مخلصة فى العبادة إما بالفطرة واما بالاكتساب فكانوا يرون ان الله تعالى فى كل مكان فهامت لذلك قلوبهم فى محبته واشتغلت أفكارهم به ولهجت ألسنتهم بذكره وملؤا كتبهم بمحاسن أفعاله وكانوا يقولون انه واحد لاشريك له كامل فى ذاته وأفعاله موصوف بالعلم والفهم لاتحيط به الظنون ولا يدخل تحت الكيف والكم قائم بالوحدانية فى ذاته لاتغيره الازمان فهو الذى ملأت قدرته جميع العوالم وهو الاصل والفرع لكل شئ وكلاهما واحد ثم عددوا صفاته العلية وميزوها بالاسماء واشتقوا منها نعوتا خصصوها فى المحسوسات وفى كل شئ نافع وجميعها يرجع اليه ولاجل التمييز بينها جعلوا لكل اسم تمثالا فانتشرت هى وما اشتق منها حتى ملأت المدن

والبلاد

والبلاد فجعلوا لكل ناحية معبودات وميزوها بها لعدم الالتباس فنشأ من ذلك جملة معبودات متباينة فى الشكل مختلفة فى الهيئة منها الحيوان والطير والاسماك والحشرات وجعلوا لكل واحدة وظيفة خاصة ترجع الى صفاته قال من ذلك معبودهم ﴿ أمون ﴾ وهذا عندهم هو الله الذى ينبعث منه كل شئ ويعطى للعقل نور القوة لادراك الخفايا ومنها ﴿ بتاح ﴾ وهو فى معتقدهم الذى أتقن كل شئ ومنها ﴿ أوزيريس ﴾ وهو الله الرحيم فاعل الخير * وعلى ذلك يكون ﴿ أمون ﴾ و ﴿ بتاح ﴾ و ﴿ وأوزيريس ﴾ أسماء لصفات مترادفة ترجع اليه تعالى اه

قال بركش باشا وقد حصروا صفات الله تعالى العلية فى سائر الاشياء النافعة كالنور والشمس مثلا وغيرهما وعبدوه أى عبدوا هذه المنفعة لانه مصدرها وأصلها وكانت الكهنة تعرف حقيقة ذلك جيدا ولاتقصد فى عبادتها الاوجه الله تعالى

أما العامة فقد كانوا على خلاف ذلك فانهم مع توالى الاعصار صاروا يعبدون تلك الاشياء لذاتها ولجهلهم بالحقيقة كانوا يتقربون اليها زلفى وفشت فيهم هذه الزندقة قال وقد دل على ذلك مارواه بعض أهل التاريخ عن بعض الاسفار المصرية القديمة المنسوبة الى هرمس الهرامسة يعنى هرمس المثلث ماصورته * يامصر يامصر يأتى عليك يوم يتغير فيه دينك القديم ويتبدل منهاجك القويم فتعم ربوعك الضلالات وتنبث فى أرجائك الخرافات وتحل عبادة الاوثان محل عبادة الواحد الديان وتطفئ نارالشرك والالحاد نورالهدى والرشاد وتقصر أخبارك فى بعض أحجارك اه وقال ماريت باشا اتفقت كلمة الجم الغفير من متقدمى أهل التاريخ على ان المصريين كانوا يعبدون الله وحده ولكننا مع الأسف لم نجد لذلك شاهدا على الآثار حتى كنا ننزل قولهم منزلة اليقين اذ الشك فى قولهم هذا آخذ كل يوم فى الازدياد اه وكان لملوكهم عناية كبرى ببناء المساجد وانهما كل وبذل النفيس فى تزيينها بالنقوش الفاخرة والرسوم الظاهرة والالوان المختلفة وكانوا يقطعونها الاقطاعات الواسعة ويرصدون عليها الارصادات الكثيرة تقربا للآلهة وتخليدا لذكرهم وذكر أيام ملكهم وكانوا جميعا على اختلاف طبقاتهم شديدى العناية بتربية سائر أنواع الماشية والطيور اذ كان عليها مدار ثروتهم وخصوصا أرباب الزراعة منهم فكانوا يهتمون بشأنها ويحسنون تربيتها ويستخدمون لعلاجها الاطباء والبياطرة والخدم وكانوا يقيمون لكل نوع منها كالمعز والاوز والضأن رعاة مخصوصين ولكل طائفة من أولئك الرعاة رئيس مسؤل عنها وكانوا يبالغون فى حسن تربيتها لاسيما الثيران فان عنايتهم بها كانت أشد بكثير نظرا لتفاخرهم بنطاحها وتحسين نوعها وكان رئيس الرعاة هو المكلف بتمرينها على النطاح وكان من عادة أولئك الرعاة وكبارهم أنهم اذا جاؤا الى ساداتهم ليخاطبوهم فى أمرما وقفوا امامهم بخضوع وخشوع وهم واضعون يدهم اليمنى على كتفهم الايسر علامة على الطاعة وكمال الامتثال أما يدهم اليسرى فرسلة تشير باحترام وكانت تربية هذه السوائم المختلفة فى الاقاليم البحرية أكثر منها فى الاقاليم القبلية لاتساع أرضهم

وكثرة الكلا عندهم * قال صاحب الاثر الجليل * وقد وجدت لوحة فى احدى المقابر بجوار الاهرام عليها رسم صورة صاحب القبر كأنه على قيد الحياة واقفا يتفقد أحوال ماشيته وهو متمنطق ومتقلد بشريط عريض ينزل من كتفه الايسر الى خاصرته اليمنى وبيده عكاز طويل وفوق رأسه راية من القماش المزدوج يحملها خادم ليقيه حر الشمس وبجواره بعض صغار ابناء آوى وفى عنقه قلادة أو عقد وامامه خدم أو رعاة تسوق أنواع الحيوانات وفوق كل فريق منها رقم واضح به كميته وفى مقدمة الجميع قطيع من الحمير يتقدمها جحش وعددها ثمانمائة وستون وعلى كتف الراعى عكاز عليه جلد حمار مات فى الغيط ليطلع سيده على صحة موته ثم يتلو ذلك قطيع من الغنم بقدر تسعمائة وأربعة وسبعين رأسا وخلفه راع يحمل فى يده سلة بها رأس حيوان بلا قرون يظهر من حالها انها رأس ذئب ثم يتلوه سرب من البقر وعدده ثمانمائة وأربعة وثلاثون ثورا ثم مائتان وعشرون مابين عجل وبقرة ثم يتبعه قطيع من المعز وعدده ألفان ومائتان وأربعة وثلاثون قال ووجد على حجر فى مقبرة أخرى لاحد أغنياء مصر الوسطى ان عدد حميره كان يبلغ ألفا وثلثمائة وأربعة وبقره ثمانمائة وثلاثين والغالب ان بقر الملك كان من أجود الانواع واكتشف بعضهم فى مقبرة لاحد وجوه مدينة منف صورة خدم وحشم يقدمون قربانا الى الميت (وهو سيدهم) من محصول أرضه ونتاج ماشيته مثل التمر والتين والعجول والاوز والغزال والفاكهة والازهار ومنهم من يقود ثيرانا عظيمة الجرم منها الابيض والاحمر والاسود وفى أعناقها قلائد بها زينة على شكل نبات البشنين ومنها اثنان من لونين مختلفين موسومان على فخذيهما الايسر بسمتين مربعتين سوداوين مكتوب فى احداهما (المنزل الملوكى نمرة ٤٣) وفى الآخر (المنزل الملوكى نمرة ٨٦) قال الراوى وربما كان هذا الرقم يدل على عدد الثيران التى كانت من نوع كل ثور عليه هذه الوسمة اه

وكان من عادتهم انهم يرسمون رب العائلة واقفا متكئا على عصا طويلة علامة على الحكم والتصرف فى منزله وعائلته * وكانوا يحبون اللعب بالشطرنج والكرة والضامة والمصارعة وكانت المصارعة عندهم مفروضة على سائر الجنود من المشاة وأصحاب العربات وهى عندهم عبارة عن تمرينات ومنازلة مختلفة النوع والشكل فترى المصارعين منهم تارة فى هيئة الهجوم أو الدفاع وتارة فى هيئة الكر والفر يتناوبان ذلك بالدور والترتيب فينهزم المغلوب ثم يعود غالبا ويستعمل كل منهما ضروب المخاتلة والمراوغة وهما عاريان ليس على بدنهما الا منطقة عريضة تستر سوأتهما

وكانت تربية العساكر عندهم تستلزم الايام الطوال وكان يدخل فى تمريناتهم أيضا سائر القواد وكبار الجند فكانوا يتعلمون قواعد الحرب وأركانه وأسباب الهجوم والدفاع ومقارعة العدو وكان سائر أولاد العسكر يتعلمون كآبائهم ويتمرنون فى حداثة سنهم على الحركات

العسكرية

العسكرية والسبب فى ذلك انهم هم الوارثون لآبائهم القائمون بحماية الوطن من بعدهم وكان لايجوز لاى انسان منهم أن يشتغل بحرفة أخرى مادامت فيه قوة على حمل السلاح

وكانت الاسلحة المستعملة عندهم القسى والرماح والمزاريق والنشاب والحراب والحسام والخنجر والسيف والنصل والدبوس والشاطور والبالطة والسكين والدرق والزرد والدروع والمغفر وكان نظام معسكرهم لايختلف كثيرا عن النظام المتبع فى دول هذا الزمان فكان متقنا منتظما مرتبا ترتيبا عسكريا وفيه مضارب الجند ومواقف العربات وبيوت المرضى والمرضين والاطباء ومحضرى العقاقير وأمرائهم والنقالات والاسرة وأصحاب الحملة ودواب النقل من الخيل والحمير والمكلفين بحمل جرار الماء وكانت جندهم تنقسم الى فيالق مسماة بأسماء معبوداتهم فكان منها فيلق ﴿بتاح﴾ وفيلق ﴿امون﴾ وفيلق ﴿ازوريس﴾ ونحو ذلك فاذا باشروا الحرب برا كأن يكون العدو قد جاءهم من طريق البر قاتل الملك فى وسط الجيش وهو على ظهر عربته كآحاد القواد وان باشروا الحرب بحرا اصطفت سفن المصريين امام سفن العدو بقرب الساحل لتجرى وتتحرك بواسطة الشراع والمجاذيف وتصطف عساكر الرماة على الساحل مددا للسفن ويرمى الجميع بالنبل والنشاب على سفن وشوانى العدو والملك واقف على قدميه فى وسط العساكر البرية يدبر حركة القتال ويقوى عزائم الجنود حتى يتم لهم الظفر بالعدو وربما اقتفوا أثره وحرقوا حصونه وقلاعه وهدموا أسوار مدنه أو عاقدوه على الهدنة أو الصلح وغير ذلك مما هو جار الآن على السواء ثم يعودون بعد النصر الى الوطن فيسيرون فرقا فرقا والملك فوق عربته يقود خيلها بنفسه وهى مطقمة بأجمل زينة لها مجللة بأحسن مايكون والاسرى امامه وهم مكبلون بالحديد والضباط تحمل المظلات على رأسه فاذا دخل المدينة واقترب من المسجد ترجل ودخل وأثنى على معبوداته ثم يتوجه الى مقره ويعين يوما للتبريك فتأتى اليه الوفود من أرجاء المملكة فيجتمعون فى قصره ثم يخرج بهم الى المعبد وأمامهم أصحاب البوق والنفير والشبابة والطبول والمغنون والمرتلون ويتلوهم أهل الملك وأقاربه ثم الكهنة وكبار الدولة وعظماؤها ثم ولى عهد الملك ويمشى امام الملك وهو حامل البخور ثم الملك فى هودجه المحلى بأنواع الزينة يحمله اثنا عشر ضابطا من كبار القواد وعلى رأس كل واحد ريشة من ريش النعام وتمشى أولاد الكهنة حول الهودج وهم حاملون قضيب الملك وقوسه وجميع سلاحه والشارات والرتب الملوكية ثم يتلوهم باقى الامراء والكهنة وكبار الجند وحول الجميع فرقة من المشاة تمشى على شكل حلقة لتمنع الناس من العبث بنظام المشهد فاذا دنا من المسجد ترجل فتقابله الكهنة على شكل مخصوص من التجلة والتكريم فيدخل ويتعبد ماشاء ثم يعود الى مقره فى موكبه كما حضر وكان لكل عائلة فى مثل هذه المحافل العمومية نظام وترتيب على ما يناسب الزمان والمكان

وقد اجتمعت كلمة بعض أصحاب التاريخ على أن الجيش المصرى لم يكن به عساكر من الفرسان وبنوا قولهم هذا على أنهم لم يعثروا على شئ من ذلك البتة لافى الآثار ولا

فى اللوحات الحربية ومع أنهم كانوا من الفروسية ومعرفة ركوب الخيل بمكان عظيم لكنهم لم يدخلوا ذلك فى جيوشهم * قال صاحب الاثر الجليل والدليل على ذلك يعنى على معرفة المصريين للفروسية انه وجد فى كثير من النصوص الاثرية صورة فارس يركض جواده ويجاب يعدو مسرعا بفرسه وهو قابض على قراطيس من ورق أو مكاتيب ليسلمها فى محل لزومها ووجد أيضا صورة أجنبى يعدو بفرسه وهو بلا سرج فرارا من الموت اه وأيد هذا المذهب العلامة شمپليون فيجاك حيث قال ماعلمنا انه كان لمصر فرسان وأن الفرض من الفرسان المذكورة فى التوراة هسم راكبو العربات لاراكبو الخيل وان التوراة ذكرت فى موضع آخر ان فرعون غرق فى البحر بخيله وعرباته وفرسانه أى المقاتلة الذين كانوا عليها قال ويؤيد صحة ماقلناه من خلو الجيش المصرى من الجند الفرسان كيفية تربية العساكر وتربيتها المنقوش على الا ثار وجميعها مشاة ولم نر للفرسان فيها أثرا اه

وكانت الجندية عندهم معدودة فى الطبقة الثانية بعد الكهنة وكان الملك هو قائد قواد الجند وعليه تعيين الرؤساء لسائر الفرق من أولاده وأقاربه أو من أولاد ذوى البيوتات وأعاظم العائلات بشرط مراعاة الكفاءة والاهلية وكان الغزاة من ملوكهم الميالون الى الفتح يقودون الجيوش بأنفسهم الى حيث يطوحهم القتال وعليهم تدبيرها فى الحل والترحال وكان الملك منهم يقف فى ساحة الحرب على ظهر عربته كاحد الجند وهو شاك سلاحه وحوله جند الحرس الخاص وكبار الضباط وهم يقذفون سهامهم على العدو ويضربون بأسلحتهم مااستطاعوا وقد شوهد على الآثار ان كثيرا من هؤلاء الملوك كان يقتنص الاسود وهى صغيرة ويربيها حتى تصير داجنة فكانوا يسيرونها امام عربة الملك عند الخروج للحرب فكانت تقاتل وتبلى فى العدو بلاءحسنا

(فصــــل)

(فى أعيادهم ومواسمهم)

وكان المصريون من ذوى البراعة فى علم التقويم ولهم أعياد ومواسم معدودة يقدمون فيها للآلهة من الذبائح والقرابين شيأ كثيرا * قال صاحب العقد الثمين وكانت مواسمهم منقسمة الى أربعة أقسام القسم الاول فى أعياد السنة وفيه ثلاثة أعياد العيد الاول عيد رأس السنة والثانى عيد السنة الكبيرة أى الكبيسة والثالث عيد السنة الصغيرة أى البسيطة * والقسم الثانى فى أعياد الشهور وفيه عيدان الاول عيد الحر الكبير وكان يعمل فى غرة أمشير الثانى عيد الحر الاصغر وكان يعمل فى غرة برمهات * والقسم الثالث فى أعياد الايام وفيه عشرة أعياد عيد غرة الشهر وثانيه ورابعه وخامسه وثامنه وخامس عشره وسابع عشره وتاسع عشره وثلاثيه

من كل شهر وعيد أيام النسىء الخمسة • والقسم الرابع وفيه تسعة أعياد خصوصية • الاول عيد ظهور الشعرى اليمانية فى غرة توت • الثانى عيد (والك) وكان يعمل فى السابع عشر والثامن عشر من كل شهر • الثالث عيد المعبود (تحوت) أى هرمس وكان يعمل فى التاسع عشر من توت • الرابع عيد السفر فى النيل • الخامس عيد أول زيادة النيل وهو الشهير الآن بموسم النقطة • السادس عيد السفينة (ثبت) السابع العيد الكبير • الثامن العيد الطيب وكان يعمل فوق الجبل • التاسع عيد (عمانج) أى عيد الرمل الكبير اه

قال هيرودوتس المؤرخ وكانت أعياد ومواسم المصريين تعمل فى مدن متفرقة بالبلاد البحرية والقبلية من مصر مثل مدينة بسطة وصا الحجر والمطرية (وبوتو) التى من آثارها الآن تلال موجودة فى ساحل البحر المالح مما يلى بحيرة البرلس ومدينة (بابرميس) التى لم يبق الآن لها محل وكانت تلك المواسم والاعياد دينية وسياسية يحضرها الملك أو من ينوب عنه من عائلته والملكة وخلق كثير من الناس وأكبرها يعمل على رأس كل ثلاثين سنة مرة وكان لمن تقع هذه الاعياد فى زمنه من الفراعنة الفخر العظيم والصيت البعيد

قيل وكان يصدر من المصريين فى هذه الأعياد كثير من الفحش والفجور وكانت الاعياد المذكورة مرتبطة بأوقات الزراعة فى كل سنة وأول أعيادهم كان عند شروق كوكب الشعرى اليمانية فى أشعة الشمس وميقاته غرة توت وهو أول شهورهم وكانوا يذبحون فيه واحدة من السمان قربانا لمعبودتهم (ازيس) ويخرج الكاهن من معبد مدينة (أبو) فى هيا كل مقدسة محمولة على هوادج على أعناق جماعة من الكهنة يختلف عددهم من اثنى عشر الى ستة عشر بالنسبة الى ثقل الهيكل وهكذا فى باقى المواسم وبعد مضى أيام من هذا الشهر كان يعمل موسم (تحوت) الشهير (بهرمس) ولذلك كان يسمى هذا الشهر باسمه وكان من عوائدهم فى هذا الموسم أكل التين وشرب العسل ويقال بعد أكله (ما أحلى الحق)

ومن أعيادهم عيد كان يعمل فى السادس من بابه وهو عيد حمل (ازيس) بمولودها (هاربوخرات) يشيرون بذلك الى وضع بذور الزرع فى الارض بعد انحدار ماء النيل عنها وفى هذا الموسم كان يعمل طلسم فى عنق تمثال (ازيس) يسمونه (كلمة الحق) وفى الثامن عشر من هذا الشهر موسم (أمون رع) فى مدينة باريس وكان من عادتهم فيه أن الكاهن فى الليلة المتقدمة عليه يأخذ الهيكل أى هيكل قدسهم ويضعه فى برزخ مذهب بموضع مقدس لهم قريب من المعبد وفى الغد يقربون القرابين وبعد الفراغ منها عند زوال الشمس يقوم بعض الكهنة عند الهيكل ويقف الباقون عند باب المعبد وبأيديهم العصى والمساوق لمنع دخول الهيكل فى المعبد فاذا جاء حاملو الهيكل وجدوا باب المعبد مقفلا فيقع بينهم وبين من به من الكهنة وغيرهم مضاربة وقتال

كبير ويجرح فيه كثير من الناس ويسيل دمهم ولا يتكفون عن القتال حتى يدخل الهيكل فى المعبد ويستقر فى مكانه وزعم الكهنة أنه لم يكن يحصل ضرر لاحد من تلك الجروح وكان المصريون يشيرون بهذه الاحوال الى أن ﴿ حور ﴾ بن ﴿ ازيس ﴾ أراد الدخول على أمه ليزنى بها فنعه حراسها من مرامه فجمع أحبابه وأصحابه وقاتل حتى غلبهم ونال مرامه وسر ذلك هو أن حرارة الشمس المعبر عنها ﴿ بازيس ﴾ دخلت فى جوف الارض لتخصبها وفى الثامن والعشرين من هذا الشهر كانوا يعملون أيضا موسم عصا الشمس ويعنون بها تقدمها فى العمر ونقص حرارتها وضعف قوتها ولذلك جعلوها كأنها احتاجت الى عصا تتوكأ عليها ويعنون فى هذا الموسم موكبا تحمل فيه صورة عجلة صغيرة يطوفون بها حول المعبد سبع مرات اشارة الى أن ﴿ ازيس ﴾ تبحث عن جثة زوجها ﴿ ازوريس ﴾ بعد أن قتله ﴿ تيفون ﴾ وهى الريح الجنوبية

وفى السابع والعشرين من هاتور كان يعمل فى المدن المعروفة الآن باسم بوصير عيد وقوع ﴿ ازوريس ﴾ فى قبضة ﴿ تيفون ﴾ عدوه والقاه الثانى الاول فى النهر ولذا كان هذا اليوم عندهم معدودا من أيام النحوس وفيه يكون ماء النيل قد انحسر عن أرض الزراعة وانحصر فى مجراه بين ضفتيه

وكانت مدة هذا الموسم أربعة أيام يدور فيها المصريون بثور قرونه مذهبة وعلى ظهره قطعة قماش من القطن أو الكتان مصبوغة باللون الاسود مشيرين بالثور الى ﴿ ازيس ﴾ وبقطعة القماش الى مصر لان لونها بعد انحسار النيل عنها يكون أسود وكانوا بعد هذا الموسم يظهرون الحزن والكدر لنقص النيل ولغلبة الرياح الجنوبية المكنى عنها ﴿ بتيفون ﴾ على الرياح الشمالية فى ذلك الوقت ولقصر النهار بطول الليل ولتجرد الارض عن الخضرة وكان الحزن فى هذا الموسم عموميا عند النساء والرجال لحزن ﴿ ازيس ﴾ على زوجها ﴿ ازوريس ﴾ وكانوا يكثرون فيه من الصلاة والصيام وتقريب القرابين من فحول البقر وكان من عادتهم أن لا يؤخذ من هذه القرابين بعد ذبحها الا الجلد والامعاء والفخذان والكتفان والرقبة ولحم الكفل وما عدا ذلك من الجثة يملأ بالدقيق والعسل والتين والعقاقير الطيبة الرائحة ويحرق بالنار ويزيدونه اشتعالا بصب كثير من الزيت عليه وفى ذلك الوقت تكثر النساء من الصياح والنوح والبكاء والعويل ويلطمن وجوههن وصدورهن ويقطعن شعورهن وبعد ذلك يأكل الناس ما أخذوا من لحوم القرابين وكانوا يعملون فى هذا الموسم وغيره من بقية المواسم أعمالا منكرة منها أن يجرح الرجال بعضهم بعضا جروحا بالغة وتشدخ النساء أفخاذهن بحجارة حادة حتى يسيل الدم من هذه الجروح اظهارا لشدة الحزن والجزع قال بعض الكتاب وقد أبطلت جميع هذه العادات قبل خروج بنى اسرائيل من أرض مصر

وفى الثالث والعشرين كان موسم دفن ﴿ ازوريس ﴾ يشيرون بذلك الى انحباس

النيل

النيل فى مجراه مبدأ زراعة الخريف وفى اليوم الاول من شهر كيهك كان يعمل موسم عظيم فى مدينة اسنا لتقديسهم بها ومن رسومهم فى هذا الموسم أن يظهروا بجميع أوانى المعبد والحلى ويتقربوا بالخبز والنبيذ وغيرهمن المشروبات وبالاوز وبعجول البقر وبسائر المزروعات على اختلافها وفى اليوم التاسع من شهر طوبة كان موسم رجوع (ازيس) من بلاد فلسطين وكانت القرابين فيه من فطير فوقه صورة فرس البحر مسلسلة فى القيود وفى هذا اليوم خاصة كان يرخص لاهل مدينة عين شمس التى هى المطرية بأكل لحم التمساح وبعد هذا الموسم بأيام كان يعمل موسم تعويض مذاكير (ازوريس) بمثلها من الخشب والغالب أنهم كانوا يشيرون بذلك الى غرس الاشجار فانه يكون بعد هبوط النيل

وفى التاسع عشر من هذا الشهر كانوا يتخذون بمدينة صا الحجر عيدا كبيرا مشهورا بالوقدة التى كانت تعمل فيه وكانوا يشيرون بها الى زوال الظلمة التى عمت الارض بموت (أزوريس) فكانت الكهنة يذهبون بحرا فى النيل صوب النيل فى موكب عظيم به خلق كثير حاملين هيكل (ازوريس) مزينا بأنواع الزينة والحلى وفيه قدح صغير من الذهب يملؤنه من النيل فى وقت معين وعند ذلك يقول الكاهن وجميع الحاضرين بصوت عال هاهو جسد (ازوريس) قد عثرنا به فكأنهم كانوا يشيرون بذلك الى رجوع الشمس وكان يتخذ كل واحدمنهم صورة هلال يصنعها من الطين المعجون بماء النيل المعطر ببعض الاشياء الذكية وفى شهر أمشير كان عيد مشاهدة (ازيس) (لأزوريس) يشيرون بذلك الى ظهور المحصولات الصيفية على وجه الارض وكان لهم فى شهر برموده أعياد أخر * أولها عيد تطهير (ازيس) قبل البذر * ثانيها عيد الخصب ووقته سادس عشر هذا الشهر وكانت تجعل فيه بهيكل (ازوريس) مذاكير مصنوعة من الخشب أو غيره على صورة أعضاء التناسل الانسان وفى الغد من اليوم المذكور عيد دخول (ازوريس) فى القمر يعنون بذلك اجتماع الشمس والقمر عند الاعتدال * ثالثها موسم ولادة (حور) فى الثامن عشر من هذا الشهر * رابعها موسم تقديسهم (نيت) فى مدينة (بوبست) وهو موسم شهير ولعله هو الذى يعمل الآن فى جهة البرية القديسة دميانة وكان لهم فى شهر بؤنة عيديتقربون فيه بفطير مرسوم عليه صورة حمار مسلسل يشيرون بذلك الى تغلب (ازوريس) على (تيفون) أى الى ابتداء النيل فى الزيادة ويزعمون أن تلك الزيادة ناشئة عما سكبته (ازيس) من الدموع وقت بكائها على (ازوريس) زوجها قال هيرودوتس وهذا الموسم هو موسم مولد الشمس الذى كان يعمل فى مدينة عين شمس لان الانقلاب الصيفى يحصل فى هذا الآن وهو عبارة عن ابتداء الشمس فى النزول بعد انتهائها فى الصعود وقد حافظ قبط مصر على عادة الاحتفال بليلة النقطة التى تكون فى الليلة الثانية عشرة من هذا الشهر * وكان لهم موسم فى شهر مسرى لمولد (هربوخرات) ويعرف عندهم بموسم السكوت واشارته حلقة صغيرة كانت توضع على الفم ولعل هذا العيد هو عيد وفاء النيل

وكانوا يتقربون فيه بكلاب شقر كما كان الرومان واليونان يتقربون بها ثانى يوم مسرى الى كوكب الشعرى اه

ولنرجع الى الكلام على ملوك الدولة السابعة والعشرين وهى دولة الفرس التى قامت بعد انقراض دولة الفراعنة كما تقدم التنبيه على ذلك ونأتى على أخبار كل ملك منها ومن قام بعدها على الترتيب فنقول

(الكتاب الثانى)

(فيمن تغلب على مصر بعد الطبقات الثلاث المتقدمة)

(الباب الاول)

(وفيه فصول)

(الفصل الاول)

(فى العائلة السابعة والعشرين الفارسية ٢٧ وفى الملك كمبيز بن كورش رأس هذه العائلة)

قد أجمع أصحاب التاريخ على أن كبيز هذا هو ابن كورش وكورش رجل خرج والتف عليه جموع من أخلاط آسية الغربية لاظهور لهم ولا ديانة فاجتاز بهم نهر (الرس) هائما على وجهه فكان لايدرى أين يتوجه ثم انضمت اليهم قبائل من أمثالهم من البلاد المجاورة لحدود بلادهم وساروا جهة الشمال الغربى من آسية تحت قيادة كورش المذكور وهو كسرى الاول من ملوك الفرس لايصدهم فى طريقهم أحد ولايعارضهم معارض وكان مع كورش أيضا طوائف من المجوس وضابط من أمراء الفرس يدبر أمر تلك الجموع وكانت الطائفة المقدمة على غيرها من هذه الجموع طائفة الفرس فعبر كورش بهذا الجيش العظيم نهرى الفرات ودجلة وجعل معسكره فى اقليمى خوزستان والعراق واستولى على خورسث وبابل المدينتين العظيمتين ثم تغلب على بلاد الشام بغير ممانع وضرب الجزية على ملكها وجعل على أهل الشام الفرض والمغارم فى نظير الترخيص لهم باستدامة التجارة مع بلاد الجزيرة بين دجلة والفرات وصارت الشام بذلك إيالة تابعة لمملكة كورش المذكور ثم بعث بجنوده لغزو بلاد مصر فلم يتم له الامر ومات يوم كانت جنوده مشرفة على الاستيلاء على مصر فتولى الملك بعده ابنه قمبشش المسمى أيضا كمبيز وسار على سيرة أبيه فى الحكم والاغارة والفتوحات التى كان أبوه مبدأ بها قبل موته فركب على بلاد مصر فى جموعه وحاربها وفتحها عنوة كما تقدم بيان ذلك فى أيام الملك (ابسامتيك الثالث) وسمى نفسه (بختنصر الثانى) قال بعض الكتاب ولعل هذا معنى قول المؤرخين ان

(بختنصر

(بختنصر) خربديار مصر مع أن بختنصر الجبار الذى هو ملك الموصل لم يحكم مصر ولا أتى اليها

أما السبب الذى دفع بجنود الفرس الى الاغارة على مصر فهو أنه لما كانت هذه الأمة قد اتخذت فى أيام كورش الحروب والاغارات ديدنا لها كانت تجوب البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا فى طلب الغنائم والمكاسب شأن الامم المتبربرة والشعوب المتوحشة وكانت ديار مصر فى ذلك الحين مشهورة بالغنى والثروة التى لا مزيد عليها قصد كبيز المذكور أن يتغلب عليها وساق جيوش أبيه الجرارة الذين هم من أخلاط اليونان وغيرهم ممن كان يتبع أباه فى الحل والترحال ولكنه لما كان يخشى من معاكسة قبائل العرب النازلين فى الطريق الموصلة الى مصر عمد الى محالفتهم وسار الى مصر من جهة الفرما حيث كان ملك مصر نازلا بعساكره لصدّه عن الوصول الى داخلية البلاد فلما التقى الجمعان هجم كبيز على ملك مصر وجنوده فهزمه وهرب ملك مصر حتى لحق مدينة منف فأرسل له كبيز سفراء يخاطبونه فى شأن تسليم البلاد وكف القتال فقتلهم فسار كبيز لقتاله وطالت الحرب أياما ثم سلم ملك مصر لخصمه بعد أن فارقه أتباعه ومن هذا الحين انتقل ملك مصر من أيدى أهلها الى قبضة الفرس وقام السفه والجهل مقام الرشد والتمدن وكان هذا مبدأ الدولة السابعة والعشرين

ولما استقر بكبيز منصب ملك مصر عمد الى مسارة أكابرها وأعيانها وميزهم بعلامات الامتياز استجلابا لهم واتخذ لنفسه الالقاب الفرعونية ليوهم الناس أنه من نسل العائلات المصرية وبالغ فى التزلف وسار الى صا الحجر التى دفن فيها (اموزيس) ونبش قبره وأخرج جثته ومثل بها تمثيلا قبيحا بأن ضربها بالمناخيس حتى تمزقت وتفرقت أجزاؤها ثم أحرقها بالنار وأوهم الناس أنه انما فعل ذلك لاغتصاب (أموزيس) المذكور الملك حالة كونه ليس من بيت الملك قال هيرودوتس وهذا سبب ظاهرى أما الحقيقة فان (أموزيس) كان قد أساء كبيز فى حروبه فتشفى بما فعله فى جثته ولعدم اطلاع الناس عليه فى ذلك أكرم (لاديكه) زوجة (أموزيس) المذكور وأحسن معاملتها وبعث بها الى أهلها ثم أمر بعد ذلك ببناء معبد (نيت) الذى بمدينة صا الحجر لتعسكر جنوده فيه وأصلح جميع ما دمره وخربه فى حروبه وقرّب منه أمناء الدين المصرى ليتعلم منهم ما اشتهروا به من العلوم والحكمة وتلقى من الكاهن (اوزاخوسن) الاسرار اللاهوتية الخاصة (بازوريس) كما رواه دروجه وعزم على أن يجعل مصر حصنا يستعين به على غزو افريقية وأكثر فيها من الاستعدادات فهابه المصريون واستؤصلت جرثومة التعصب والتحزب من البلاد واستتبت فيها الراحة وكان لغزوه مصر وفتحها عنوة أثر مخيف عند سائر الامم المجاورين لها فجاء الليبيون وقدموا له الطاعة ودفعوا له الجزية وأهدوا اليه الهدايا والتحف العظيمة لتوطيد علائق السلم والمحبة بينه وبينهم واقتدى بهم فى ذلك القورينيون (سكان مدينة قورين ببلاد العرب) وصفا له الزمان وعلت كلمته وذاع صيته فعزم على غزو القرطاجيين سكان مدينة قرطاجنه والاموزيين سكان واحات امون بالجبال القريبة من ديار مصر والاثيوبيين وهم

الكوش قال هيرودوتس فأرسل الى قرطاجه عمارة بحرية عظيمة فلم تنجح وعادت خاسرة وذلك لان رجال تلك العمارة كانوا من الفنيقيين فوقع بينهم الخلاف لان الصوريين هم الذين عمروا مدائن قرطاجه فكان بين القرطاجيين والصوريين علاقة القرابة فامتنعوا من محاربتهم وعادت العمارة بغير طائل ثم أرسل فى الغزوة الثانية التى هى مع سكان واحات سيوى خمسين ألفا من جنوده لفتح تلك الاصقاع واستعباد أهلها وتمهيد الطريق لجيوشه وهدم هيكل المشترى القائم بها وهو هيكل ﴿أمون﴾ الذى كانت تحج اليه الناس وسار مع جيشه هذا الأدلاء يرشدونه فخانوه وأضاوه عن الطريق حتى نفدت منه الميرة ونفقت الخيل والجمال وضل الجيش فى الصحارى وهبت عليه رياح السموم فأهلكت الجنود عن آخرهم ولم ينج منهم أحد وكانت هذه الغزوة قبل غزوة السودان ثم سار ببقية جيشه الى النوبة فلما وصل الى خمس الطريق نزل بجيشه القحط والمخمصة اذ لم يكن عندهم من الزاد ما يكفى فكانوا يأكلون دواب الحمل فلما فرغت كانوا يتغذون بما يصادفهم فى طريقهم من الاعشاب والحشائش الرديئة فلما توغلوا فى القفار صار يأكل بعضهم بعضا بالاقتراع من كل عشرة واحدا ممن تقع عليه القرعة فكان هذا الامر أشد عليهم هولا من الجوع ولم تكن هذه الاهوال لتردع كبيز عن غيه ولكنه خاف على نفسه وارتد على عقبيه خاسئا ومع ما كانت عليه عساكره من الجوع والمخمصة وأكل بعضهم بعضا كان هو يتلذذ على مائدته بما تحبه نفسه من أنواع المآكل والمشارب وما زالوا على هذا الحال حتى قفلوا راجعين الى مدينة طيبة فى أسوء حال فلما دخل المدينة المذكورة أمر بها كلها فسلبت العساكر ما فيها من الزينة والامتعة والذخائر من الذهب والفضة وغير ذلك وقد كانت مملوأة بالنفائس والاشياء الثمينة

قال صاحب العقد الثمين ــ والغزوة الثالثة كانت مع أهل الاتيوبيا وقبل الكلام عليها يلزمنا أولا أن نصف حال الاتيوبيا وما كانت عليه بلادها فى تلك المدة وذلك أنه منذ هزيمة الملك ﴿نوات ميامون﴾ كانت مملكة الاتيوبيا قد قطعت العلاقات بينها وبين ممالك آسية فلما حاربها بسماتيك الاول والثانى قطعت أيضا علاقاتها مع مصر وحافظت على استقلالها وكانت ولاياتها التى بين الشلال الاول والثانى الشهيرة قديما بكثرة العدد والعمران قد لحقها الخراب والدمار وصارت أشبه شئ بالصحارى والقفار وصارت مدنها التى شيدها ملوك العائلة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة أطلالا وأى أطلال وأوشكت هياكلها أن تعلوها الرمال وأما الجهة التى بعد الشلال الثانى فكانت أخذت فى الظهور والارتقاء وكانت منقسمة الى اقليمين كمصر وكانت مدينة ﴿بينونى﴾ ﴿ودنقلة﴾ فى الجهات العليا منها ومدينة ﴿نبتا﴾ فوق جبل بركل ومدينة ﴿تكاسى﴾ فى مجمع النيل عند الخرطوم وكان فيها أيضا نهر ﴿استابوراس﴾ الشهير الآن باسم ﴿تكاسى﴾ ثم مدينة ﴿مروه﴾ المسماة قديما ﴿بروه﴾ وبعد مروه هذه مملكة ﴿الواح﴾ تمتد على سواحل البحرين الازرق والابيض حتى تصل الى سهل سنار الاكبر وكان فى حدودها الجنوبية طائفة ﴿الاسماخ﴾ وأصلهم من المصريين الذين هاجروا اليها فى عصر بسامتيك الاول وكان بين درفور وجبال الحبشة والبحر الاحمر قبائل ما بين متمدنة ومتبربرة

بعضها

بعضها من بنى الاسود وبعضها من أفريقة وبعضها من (بنى سام) بآسية وكانت طائفة (الرمرينا) قاطنـة جنوبى (مروه) بين البحر الازرق ونهر (تكاسى) وطائفـة (المادى) بين نهر (تكاسى) وسلسلة الجبال المارة بسواحل البحر الاحمر وكانت مطامع ملوك الاتيوبيا تسوقهم الى محاربة تلك الجهات لوجهين الاول عدم وجود صعوبات فيها مانعة لهم الثانى كثرة غنائمها حتى قيـل ان اثنين من ملوك الاتيوبيا المعاصرين لكمبيزوهما (حورسياتف) و (نستوسنن) أخضعا غالب هذه القبائل وأقنعا كل من أظهر المقاومـة والثبات أمامهما قال مريت باشا وكانت بلاد الاتيوبيا مملكة شوروية فاذا أرادأهلها انتخاب ملك يعلون فى معبـد (أمون) بمدينـة (نبتا) مجلسا يجتمع فيـه الكهنة والنواب الذين تنتخبهـم القضاة وبعض العلماء والعساكر والضباط فاذا انعقد المجلس دخلت الاخوة الذين هم من العائلة الملوكية فى معبد (أمون) المذكور ووقفوا أمام هـذا المعبود المشير باصبعه اشارة اتفاقيـة الى الانسان الذى يريد الكهنة انتخابه من العائلة الملوكية لتوليته الملك ومتى تم الانتخاب واستقر الرأى على واحد جعلـوه ملكا عليهم وبقى مدة حياته تحت سلطة الكهنة بحيث لايمكنه اعلان حرب أواجراء شئ مهم فى حكومته الا اذا استأذن المعبود (أمون) وكهنته فان عصى أوأراد الاستبداد أمرت الكهنة بقتله ولامناص من انفاذ ما امروابه وكما كان هـذا القانون مشددا على الملك كان أيضا مشددا على الرعيـة فلو خالف أحد الرعية رأى الكهنة أوغير أدنى شئ من الشعائر الدينية اعتبروا هذا التغيير بدعة سيئة وحكموا على صاحبه بالقتـل * وقداتفق فى آخر القرن السابع أن بعض الكهنـة أبدع فى شعائر الدين المصرية القـديمة بدعا سيئة منها اباحـة أكل لحم القربان نيأ وهى عادة بنى الاسود فتوجه الملك الحاكم حينئذ الى معبد (أمون) (بنبتا) وحكم بطرد من أبدع شيأ فى الديانة وأحرق ماوجـد من آثار تلك البدع السيئة فعلى هـذا الامر خرج أصحاب المذهب الجديد من بلادهم الى جهات متباعدة واتخذوا لهم فيها مساكن وتمكنوا من نشرهذا المذهب كل التمكن لان رؤساء الديانة المصرية كانوا وقتئذ فى غاية الضعف بحيث لايمكنهم ردعهم ولذلك استمروا ناجحين هذا المنهج حتى ظهر السيد المسيح وبقيت هذه العادة الى الآن عند بعض الحبشان فهم يأكلون اللحم النيء ويسمونه (بريندة)

ولما انقطعت العلاقات بين الاتيوبيا ومصر واستبدت الاتيوبيا بأعمالها توفرت فيها أسباب الثروة وصار لها اسم شهير وصيت كبير بين أمم البحر الابيض المتوسط فامتدت مطامع الملك كمبيز الى فتحها فأرسل اليها سفراء من وادى الكنوز يحسنون لغة الاتيوبيا وكان رجال الاتيوبيا حسان الخلقـة طوال القامة غلاظا شدادا أذكياء معروفين بعلو الهمة والشجاعة وكان مما يزيدهم بسطة فى الجسم تدبيرهم للمطاعم والمشارب فلهذا كانوا أطول الناس أعمارا وكثيرا ما كان يعيش الانسان منهـم مائة وعشرين سـنة قال هيرودوتس وكانت فى بلادهم عيون ماء يرتوون منها تنعش أبدانهم ومروج مخضرة يانعة فيها ماتشتهى الانفس وتلذ الاعين وكان

الذهب في بلادهم كثيراجدا حتى انهم كانوا يستعملونه في الاشياء الدنيئة كالسلاسل التي يسحبون بها الاسرى وكان النحاس نادرا ومرغوبا عندهم فدخل سفراء كبيز بلادهم بصفة عيون وجواسيس ليرودوا البلاد ويستكشفوا أحوالها فعرف أهل الاتيوبيا منهم ذلك ولكنهم رحبوا بهم وعاملوهم أحسن المعاملة ولم يظهروا الحذر منهم ولا الاحتراس وكان مع هؤلاء الرسل هدايا لملك الاتيوبيا من المصنوعات الذهبية والحلل الارجوانية وكثير من العطريات وأنبذة التمر فاعجبهم من هذه الهدية الشراب وسربه الملك وأمر فاحضر واله قوسه فأوترها بحضرة سفراء كبيز ثم قال للسفراء أود أن لا يأتي ملككم لحربنا الا وهو على بينة من عدد جندنا وأحب أن لا يقدم عليها قبل أن يرى نفسه أو أحدا من قومه قادرا على أن يوتر هذه القوس بالسرعة التي رأيتموها مني الآن فاذا أعياه الامر ومال الى علاج ذلك حينا من الدهر فليحمد معبوده حيث لم يرزق الاتيوبيين الطمع في الزحف على بلاد فارس وأخذ ملكهم

فلما نقل السفراء لكمبيز هذا الكلام غضب وسار الى بلاد الاتيوبيا (وهي النوبة) ليغزوها فأصاب جنده ما أصابهم كما تقدم فعاد الى مدينة طيبة فلما دخل المدينة أمر العساكر بانتهاب ما فيها من الهياكل كما تقدم أيضا ثم سار الى مدينة منف فاتفق وصوله اليها في وقت كانوا يعملون فيها كلها موسما مشهورا لوجود العجل ﴿ ابيس ﴾ فظن أنهم شامتون بهزيمته فقتل جميع من كان في تلك الهياكل من الكهنة وأمراء الاديان وأرباب الحل والعقد وقد أطنب المؤرخون في وقائع جبروته وبالغوا ومما يحكى عنه أنه سأل يوما أحد وزرائه المسمى ﴿ أبرساسبة ﴾ بقوله ما الذي يقوله الرعايا في شأني وما الذي يذكرونه من مناقبي وأخبار عدلي في هذه الايام فقال هم يصفونك أيها الملك بكل وصف حميد ورأى سديد ويرون أنه لا مثلبة فيك الا الانهماك على الشراب ولولاها لكنت منزها عن جميع العيوب فقال كبيز هم يعتقدون اذن أني أغيب عن الصواب وقت تعاطي الشراب قال نعم فتنقم عليه كبيز ذلك وأمر باحضار الشراب بين يديه ووقف السقاة أمامه وكبيرهم ابن ﴿ أبرساسبة ﴾ فأخذ كبيز يشرب حتى صار كالزق المنفوخ ثم التفت الى ابن ﴿ أبرساسبة ﴾ وقال له قف يا غلام منتصبا وضع يسارك على رأسك فوقف الغلام وكان صبيا جميلا جدا فالتفت كبيز الى ﴿ أبرساسبة ﴾ أبي الغلام وقال أتذكر ما قلته قال نعم قال سآتي لك بالبرهان الآن على أن الخمرة لا تفصل بي ما نقلته عن الرعية وها أنا مفوق سهمي لأصيب فؤاد ولدك هذا فان أصبت المرمى فلا سلطان للخمرة على عقلي مهما أكثرت منها وان أخطأته صح ما يقول الناس عني ثم سدد سهمه صوب فؤاد الغلام فصادمه أحد السهام وأمر به فشقوا بطنه ليرى أبوه محل السهم من فؤاد ولده ثم قال لابيه هل وفق أحد قبلي لمثل هذه الاصابة فقال لا وهي من دلائل البراعة والنجابة ويحكى عن هذا الملك شيء كثير جدا من أمثال ذلك حتى يقال انه كان يتسلى بقتل رعاياه من العجم ذبحا كذبح الغنم وقيل انه غضب على بعض أعيان مملكة فارس فأمر باثني عشر منهم فدفنوهم أحياء وأهالوا عليهم التراب ولما طال مكثه بديار مصر خرج عامله

على

على فارس عن طاعته وأثار الفتنة وولى أخاه ملكا على العجم ادعاءمنه بانه (اسمرديوس) أخو كمبيز وقد كان أشبه الناس به فأطاعه الفرس وملكوه عليهم اعتقادا منهم بانه ابن كورش وأرسلوا السعاة للمبايعة فى جميع الجهات وسمى فى كتب التاريخ (باسمردوس) المجوسى وقيل انه انما سمى بالمجوسى لظهور المدعو (زدرشت) بدين المجوسية فى أيامه وقد كان المجوس يعتقدون نبوة (زدرشت) المذكور وبعضهم يجعل ظهور (زدرشت) قبل كورش

وكان كمبيز فى وقت ظهور الفتنة ببلاد فارس قد خرج من أرض مصر ونزل على الشام فبينما هو هنالك انحضر داعى العجم يدعو أهلها لمبايعة (اسمرديوس) ملكا على فارس فلما سمع كمبيز ذلك اغتم غما شديدا ونادى فى عسكره بالرحيل الى بلاد فارس وأسرع هو الى جواده فبينما هو ركب اندلق سيفه من غمده فجرحه فى فخذه وألزمه الفراش فمات بعد أيام قلائل وهذه رواية هيرودوتس وقال (بهيستون) بل قتل نفسه عمدا ولم يترك أولادا ولاأوصى لاحد بالملك من بعده ولم يذكر جماعة المؤرخين لهذا الملك شيأ من المناقب سوى أنهم قالوا ان أحد قضاته المسمى (سيزمناس) ارتشى فى بعض الوقائع ليحكم بغير الحق فعلم كمبيز بذلك فقتله سلخا وأمر بجلده ففرشوه على منبر القضاء وولى ابنه مكانه وذكرها حاق بأبيه ونهاه عن الرشوة وقيل ان ماحكى عنه من مثل هذه الامور غير صحيح وانما هو من نقل هيرودوتس المؤرخ عن كهنة المصريين وهم أعداء له فكانوا يختلقون عليه مالايخفى من الاكاذيب فنقلها هيرودوتس عنهم كما تلقاها

وكان كمبيز لدى مسيره من مصر الى الشام أناب عنه فى حكم البلاد رجلا اسمه (اريانديس) فلما استقرت به العمالة أخذ يعمل على تعزيز كلمته وتاقت نفسه الى الاستبداد بالحكم والخروج عن طاعة مملكة فارس فلم يفلح وذلك أنه بعد أن قام (اسمرديوس) ملكا على فارس ثلاث سنين انكشف أمره واتضح لاهل البلاد كذبه واغتصابه للملك فقاموا عليه وقتلوه وولوا مكانه (دارا) فلما استقر بدارا المنصب وعلم بما يفعله (اريانديس) المذكور بمصر خلعه وأبعده عن البلاد

(فى الملك دارا الاول)

تولى الملك فى سنة تسع عشرة وخمسمائة قبل الميلاد أى سنة احدى وأربعين ومائة وألف قبل الهجرة ونودى له باسم دارا الاول فلما استقر به المنصب أخذ فى تدبير أمور المملكة وترتيبها على أحسن نظام وقد كانت بلغت فى أيام كورش وكمبيز مبلغا عظيما من الشهرة والاتساع ولم تكن أيامهما كافية للغزو وترتيب أمور المملكة فجاء (دارا) هذا بأحسن التدبير وأتم التنظيم وقسم المملكة جميعها الى عشرين ايالة وقيل ثلاث وعشرين ثم تزايد عدد هذه



الايالات بتزايد الفتوحات حتى بلغت احدى وثلاثين فضرب عليها الخراج من مال وعروض فكان ماضربه من المال بالعملة الحالية ستة وعشرين ألف ألف وخمسمائة وأربعين ألف جنيه وضرب لذلك سكة سماها الدارية وأما العروض التى قررها على تلك الايالات فقد كانت كثيرة جدا فكانت مصر تعطى منها غلالا تكفى لمؤنة الاثنى عشر ألف جندى المرابطين فيها وكان الميديون يقدمون فى كل سنة مائة ألف خروف وأربعة آلاف بغلة وثلاثة آلاف حصان ويقدم الارمن ثلاثين ألف مهر والبابليون خمسمائة غلام من الخصيان وسكان سيسليا ثلثمائة وستة وستين حصانا فيل ولذلك كانت تسميه الفرس بالنقاد لانه كان يعرف من أين يأتى الكسب كما كانوا يلقبون كمبيز بالمتملك وكورش بالاب وكانت مصر السادسة من ايالاته وقال بعضهم بل الثالثة وقد جعلها (دارا) مع قسم النوبة واقليم القيروان واقليم برقة ايالة واحدة وعمالة واحدة وصيرها فى الرتبة بعد بابل والموصل اللتين هما الايالة التاسعة من ايالات فارس وأكثر جميع الايالات خراجا وقد ذهب بعض أصحاب التاريخ الى أن النوبة لم تكن فى هذا العهد ملحقة بمصر ولم تدفع خراجا لمملكة فارس بل كانت انفصلت عنها عند تغلب الفرس على مصر وانه لايعلم من تاريخ الفرس شئ يدل على انهم كانوا يملكون شيأ من البلاد بعد جزيرة أسوان مما يلى الجنوب وانما كانت مملكة الاثيوبيا المصافية لمصر تبعث بشئ من المال الى الفرس اعانة لمصر وتبرعا ليس الا وكانت هذه الاعانة عبارة عن مدين من الذهب الخالص ومائة قضيب من الآبنوس وخمس جوار نوبيات واحدى وعشرين سن فيل فى كل سنة قالوا وقد دلت الآثار على ان الاثيوبيين كانوا يدفعون مثل هذا القدر فى كل عام الى الملك رمسيس الاكبر ولسلفه وخلفه * وكان دارا المذكور شديد البأس صعب المراس فمنع جميع الفرس الذين كانوا معه بديار مصر أن يدينوا بديانة المصريين وأمرهم أن يحافظوا على عبادة النار وحرم عليهم الكتابة بالقلم المصرى القديم ونهاهم عن أن يتداول بينهم هذا اللسان وطلب منهم أن يحافظوا على لغتهم حتى أوشكت أن تكون الشائعة الاستعمال فى مصر وكانت كتابة الفرس المجوسية المقدسة عندهم مأخوذة من لغة الكلدانيين الذين هم السريانيون وهم أهل بابل ثم تلقاها عنهم أهل اذربيجان ثم انتقلت الى فارس فلما تغلب الفرس على مصر بقيت فى مصر آثار من هذه اللغة يعنى من كتابتها

قال ده روجه ولما دخلت مصر فى حوزة دارا أحسن معاملة أهلها ليذهب عنهم ما كمن فى صدورهم من الحنق والغيظ المتسبب عن سوء تصرف كمبيز واضطهاده اياهم وعسفه بهم فاحترم الديانة وأصلح المعابد الخربة وعفا عن القسوس الذين أساءهم كمبيز اه وقال هيرودوتس وقبل أن يبارح دارا مصر زار معبد (بتاح) ومهد طرق التجارة وشرع فى ايصال النيل بالبحر الاحمر بواسطة ترعة احتفرها ولذلك يوجد فى كثير من المواضع ببرزخ السويس القديم كثير من الاحجار القديمة المكتوبة باسم الملك (دارا) ولما اتصل البحران وردت التجار من الهند الى الثغور المصرية بالبحر الابيض المتوسط وفتح أيضا طريق قفط الموصل الى البحر الاحمر

وطريق

وطريق أسيوط الممتد الى العرابة المدفونة ومنها الى أسوان فعاد الى مصر رونقها القديم وغناها الواسع وراجت تجارتها رواجا عظيما واتسع نطاق معاملاتها

وكانت دولة فارس لينة الجانب فى حكم الواحات وغيرها مما جاور مصر رجاء اتساع نطاق التجارة وتعميمها فى سائر الاقاليم الخاضعة لحكمها فكانت تجبى المحصولات من الغلال المفروضة على الاقاليم المسكونة بعساكرها مع غاية اللين والرفق بقدر كفاية عسكرها ولا تعرض لبيت مال الامة بضر ولا تأخذ منه الا ما لزم لتعميم المنافع وتسهيل الطرق الواقعة مابين مصر والحجاز والقصير وغيرها قالوا وقد وجد مايدل على ذلك منقوشا على الصخور ومع ذلك فقد كان المصريون لا يرضون بحكم الاجانب لهم وكانوا يراقبون الفرص للخروج عن طاعة دولة فارس الى أن قامت الفتنة فى العراق وخرج أهلها على ﴿ دارا ﴾ وقومه واشتغل ﴿دارا﴾ بقتالهم فخرج أهل مصر وشقوا عصا الطاعة وطردوا عساكر الفرس المرابطين وولوا عليهم ﴿ خبيش ﴾ ملكا وذلك سنة ست وثمانين وأربعمائة قبل الميلاد وفى السنة الخامسة والثلاثين من حكم ﴿دارا﴾ أى قبل موته بسنة واحدة هم بارجاعهم الى طاعته فحالت بينه وبين ذلك زيادة النيل وفيضانه ومات ﴿دارا﴾ قبل أن يبلغ منها وطرا وذلك سنة خمس وثمانين وأربعمائة قبل الميلاد أى سنة سبع ومائة وألف قبل الهجرة وله من العمر ثلاث وسبعون سنة وكان له قبل جلوسه على سرير الملك ثلاثة بنين من زوجته المسماة ﴿ ارتابازانس﴾ بنت ﴿غوبرياس﴾ وكان على عزم جعل أكبرهم ملكا من بعده فعلمه فنون الحرب ودربه على القتال معه فى غزوة التتار ولكن لما عصت مصر وأراد دارا أن يعين من يرث الملك بعده من أولاده أشارت عليه زوجته الثانية أن يولى ﴿ شيارش﴾ أكبر أولادها ففعل ذلك وصار ولى عهده * أما ﴿خبيش﴾ الذى ولاه المصريون عليهم مكان دارا فيقال انه من ذرية ﴿ بسامتيك ﴾ الملك وكان استواؤه على عرش الملك باتفاق كلمة الامة * قال ماريت ولما استقر به المنصب حصن مصر بالقلاع المتينة حتى استعدت لدفع هجوم الفرس عليها وكان قد مكث ثلاث سنين فى تقوية الوجه البحرى وتحصين الاباطح وأشاتيم النيل حيث كان يظن ان الفرس لاتهاجمه الا من البحر فجعل أقوى استحكاماته على السواحل فلما فاجأه ﴿ شيارش ﴾ ملك فارس بالهجوم لم يثبت أهل الوجه البحرى فى صف القتال الا قليلا حتى استسلموا لعساكر الفرس فعاملهم الفرس معاملة القسوة والجبروت وضربوا على كهنتهم المغارم ونهبوا ما كان فى معبد ﴿ بوتو ﴾ من الامتعة والنفائس وفى خلال تلك الواقعة اختفى ﴿ خبيش ﴾ ولم يعلم له مقر الى الآن اهـ

وعادت مصر بعد ذلك خاضعة الى الملك ﴿شيارش﴾ بن ﴿دارا﴾ وكان من مآثره ماسيذكر بعد



(فى الملك شيارش بن دارا)

تولى الملك بعد أبيه فى سنة خمس وثمانين وأربعمائة قبل الميلاد أى سنة سبع ومائة وألف قبل الهجرة وله من العمر يومئذ أربع وثلاثون سنة وقد كان فاتر الهمة لايكترث بالقوانين ولا بالسياسة فترك تدبير أمور الايالات التابعة لمملكته للامراء الموزعين يتصرفون فيها كما يشاؤن وولى أخاه اخيمينس على مصر فاحكم أمورها وعاقب الخوارج من أهلها وما زال حتى انقادت لحكمه وخضعت لكلمته فاقام فيها بعد أربع سنين قوة عسكرية ثم أعد هذه القوة للغزو فى السنة الخامسة وسيرها للقتال وطلب من مصر المدد فأرسلت اليه مائتى سفينة مكملة العدة والرجال على رأس كل رجل من رجالها خوذة من الحديد ومعه درقة ورمح وكان لهؤلاء الجنود من آلات الحرب أيضا دروع وسيوف

قال أصحاب التاريخ وكان المصريون يكرهون دوام ملك فارس عليهم و يتمنون الخلاص من ربقة عبوديتهم ولو أنه وجد منقوشا على بعض آثار القصير مايعبر عنه بأن الملك شيارش المذكور كان المولى المحسن سيد الجميع قالوا فهذه الكتابة انما كانت صورية لاحقيقية قد جرى بها العرف والتأدب فى حق الملوك فلا يستدل منها على سعادة الرعية ولا شقائها ومع ذلك فقد كان المصريون لاينفكون أبدا عن طلب استقلالهم وانقاذ ملكهم من أيدى الاجانب اذ كانوا مجبولين على الشجاعة والاقدام وحب الوطن فضلا عن التمسك بشرائعهم وعوائدهم والذب عن دينهم ومفاداة حريتهم بالاموال والارواح وكانوا لاينسون قط مرارة ماذاقوه من ظلم الاجانب وعدوانهم وما سلبهم ملوك الاغراب من المنافع الجمة وما فعلوه بهياكلهم ومعابدهم من النهب والحريق وهتك حرمات الدين عند زحف الفاتحين للبلاد فعادوا لذلك الى الخروج والعصيان ولكنهم لم يقدحوا زناده ولم يجاهروا به وجعلوا يترقبون ظروف الاحوال

ولما كانت سنة ثمان وسبعين وأربعمائة قبل الميلاد انحطت شوكة مملكة فارس وتضعضعت فعصى عليها الكرد واليونان وقاموا على شيارش وقاتلوه وأحرقوا سفنه وخرجت كذلك تساليا ومقدونيا وغيرهما من الايالات التى فى قارة أوروبا واشتدت الازمة على شيارش وتحير فى أمره قال هيرودوتس فأخذ يستعمل الدهاء واللين الى سنة ست وستين وأربعمائة قبل الميلاد حتى أتت سفن أثينا الى سواحل القيروان وليكيا وطردت الفرس من هنالك ثم قام بعد ذلك بقليل الاغا (اسباميترس) والقائد (ارتابانوس) وقتلا شيارش وسارا الى ولده (ارتخشارشا) وموها عليه الحقيقة وقالا ان أخاك (داريوس) قتل أباك فلا بد لنا من قتله والاخذ بثار أبيك فأجابهم الى قتله فقاما عليه وقتلاه وبعد أن قتلاه حاولا قتل (ارتخشارشا) أيضا فخانهما أحد أقرانهما وقتلهما غدرا فآل الملك بعد موت

(شيارش

(شيارش) الى ولده (ارتخشارشا) فكانت مدة حكم شيارش تسع سنين لاغير

(فى الملك ارتخشارشا الاول)

(ويقال له أيضا)

(ارتسجار)

تولى (ارتخشارشا) الملك بعد موت أبيه فى نحو سنة خمس وأربعين وأربعمائة قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وستين وألف قبل الهجرة قال (فى سعيد) وفى خلال قيام الفتنة ببلاد الكرد والقيروان وخروج أهلها عن طاعة الفرس وضعضعة سلطنة فارس فى تلك الاصقاع وقيام اسبا ميثرس الطواشى ورفيقه على شيارش وقتله استبد المصريون بحكمهم وأقاموا (ايناروس) بن (بسامتيك) ملكا عليهم وكان اذذاك أمير مدينة ماريا فانضم اليه رؤساء الوجه البحرى ولكنه رأى عدم استطاعته على مغالبة الفرس بهذا الجيش الصغير فاستعان بمملكة اليونان وكان عند اليونان سفن حربية أنشؤها فى جزيرة قبرص فأعانوه وأرسلوا اليه مائتى سفينة فسارت حتى جاءت الى مصر ومعها جنود يونانية من الممالك المعاهدة لاثينة وانضموا الى جنود مصر فتقوت بهم عزائم المصريين وقاتلوا جنود فارس قتالا عنيفا جدا وما زالوا حتى انتصروا على جنود (ارتخشارشا) وقتل (ايناروس) ملك مصر بيده فى وسط المعركة (اخيمنس) نائب مملكة فارس الذى كان بمصر وأرسل جثته الى شقيقه ملك فارس وهجمت السفن اليونانية بقيادة أميرها (خارتيبدس) على السفن الفينيقية التى كانت مع جنود الفرس وكان فى هذه السفن بعض العجم وبعض الجنود من الاهالى الذين حافظوا على طاعة فارس فحاربوهم حتى أسروا منهم ثلاثين سفينة وأغرقوا عشرين وانتصر اليونان والمصريون نصرة عظيمة ثم ساروا على النيل حتى وصلوا الى مدينة منفيس وكان بها بعض العجم وبعض الجيوش الوطنية فحاربوهم حتى استلمت المدينة لهم ولكن بعد قتال طويل تمكن فى خلاله ملك فارس من حشد جيش جديد وقيل انه لما رأى (ارتخشارشا) أنه لابد من هجوم اليونان والمصريين ومن معهم على عساكره بمنفيس عمل على سلخ عساكر اليونان عن عساكر مصر وفصم عرى الاتحاد من بينهم فنجح وفاز حتى رشا بواسطة رسله أهل اسبارطة من اليونانيين ليمتنعوا عن الاشتراك فى الحرب فامتنعوا فأرسل على الفور القائد (مجابيسوس) بجيش جرار الى مصر فقابلته العساكر المصرية وحاربته فحاربها وطاردها الى جزيرة (بروسوبيتس) وكانت هذه الجزيرة فى غاية المنعة لما فيها من القلاع والحصون فلما انحازوا فيها سد (مجابيسوس) فرع النيل الذى

كانت فيه السفن اليونانيـة وهو المحيط بالجزيرة المذكورة ففاض منـه الماء ونصب ثم هجم على المصريين ومن كانوا معهـم من اليونانيـين فأسر (ايناروس) وأمر بقتـله صلبا وهلك أكـثر اليونان قال (فى سبديد) وكان من تمام مصيبة المغلوبين أن جاءت نحو الخمسين سفينة من سفن اليونان لامداد المصريين ورست فى مصب البحر المنديسى فهجمت عليها السفن الفينيقية ودمرت نصفها بل أكثر قال هيرودوتس فدخل عند ذلك (ثانيراس) ابن (ايناروس) تحت طاعة العجم وأظهر الخضوع فقلدته دولة فارس ملك مصر مكان أبيه مكافأة له على طاعته وكان من حزب (ايناروس) المذكور رجل اسمه (أميرتيوس) قد هرب عنـد ماوقع (ايناروس) فى قبضة (مجابيسوس) والتجأ الى أباطح السـاحل باقليم الشرقيـة الذى انحاز فيه الملوك الصاويون غير مرة ودافع هو ومن كان معه من حزبه حينـا مع الظفر والاسـتظهار ولكنه لم يفـلح وعادت مصر الى ما كانت عليـه من الوقوع فى قبضة ملك فارس وأقام عليها عـه (اخمينس) نائبا فاستعبد أهلها وأثلهم وبالغ فى تنكيلهم وأذاقهم مرّ العـذاب وكانت هـذه الوقائع المشؤمة على عهـد كثـير من مؤرخى اليونان المشهورين أى فى أيامهـم فحكوها فى عبارتهم على ماينبغى والاصح منها ماروله مانيطون المؤرخ المصرى وقد تأيد بما وجد على المبانى القديمة والنقوش ومما جاء فى كلامه أن (ارتخشارشا) الملك بعد أن مكن دولته وثبت أركانها حكم مصر ثمانا وثلاثين سنة بعد عصيان المصريين على نائبه مدة سنتين فتكون مدة حكمه جميعها على فارس أربعين سـنة وبقى المصريون خاضعين لنائبه (اخمينس) المذكور الى أن مات (ارتخشارشا) سنة خمس وعشرين وأربعمائة قبل الميلاد أى سـنة سبع وأربعين وألف قبـل الهجرة فخلفه (شيارش) الثانى

(فى الملك شيارش الثانى)
(والملك سوغـــــــديانوس)
(والملك دارا الثانى)

تولى (شيارش) الثانى الملك سنة خمس وعشرين وأربعمائة قبل الميـلاد أى نحو سنة سبع وأربعين وألف قبل الهجرة فلم يستقر به المنصب سوى خمسة وأربعين يوما وقيل ستين يوما حتى قام عليه ابنه (سوغديانوس) فقتله

فولوا (سوغديانوس) المذكور بعده فحكم ستة أشهر ونصفا وقيل سبعة وقام عليه دارا الثانى فخلعه وقتله

فولوا دارا بعده فى نحو سنة أربع وعشرين وأربعمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ست وأربعين وألف قبل الهجرة ولقب بلقب (رع ميامون) ولم يذكر المؤرخون السابقون وعلماء الفلك فى فهرست ملوك فارس اسم (شيارش) الثانى المذكور ولا اسم (سوغدياوس) قال بعضهم وكذلك فى جدول سلسلة تاريخ الملوك الذين ذكرهم بطليوس الفلكى فى طالعة كتابه المحيطى التى جرى عليها زيجه لم يذكروا (كورش) وكبيز (ودارا) الاول (وشيارش) ودارا الثانى ولا غيرهم قالوا فتكون العمدة اذن على ماقاله مانيطون وكان دارا المذكور متزوجا بخالته المسماة (باريساتيس) قال (كتزياس) وكانت امرأة قاسية فاسدة غليظة الطباع وقد اختلت فى أيامه دولة فارس ولحق باهلها الضيم والهوان فلما أحس المصريون بذلك هبوا الى العصيان واستقدموا (أميرتيس) من الاباطح التى كان قد لجأ اليها بعد قتال العجم الاخير ليخلص الوطن من العلوج ثم أقاموه رئيسا عليهم فقام بمن معه من العساكر على نائب دارا وعساكره المحتلة بالديار المصرية وأخذ بطاردهم فمات فى هذه الاثناء دارا وملك المصريون وطنهم واستقل (أميرتيس) بالملك وأعاد الاصول والاحكام القديمة السياسية والدينية على حكم أسلافه من الفراعنة وانقرضت بذلك دولة فارس من مصر التى هى عبارة عن الدولة المصرية السابعة والعشرين فكانت مدة ملك دارا تسع عشرة سنة وكانت مدة حكم هذه الدولة على مصر مائة واحدى وعشرين سنة كما رواه كثير من جماعة المؤرخين وجاءت بعدها الدولة الثامنة والعشرون الصاوية المنسوبة الى مدينة صا الحجر ولم تتعدد ملوكها بل كانت كلها عبارة عن أيام ملك واحد هو الملك (أميرتيس) الذى تقدم الكلام عليه فى آخر أيام الدولة السابعة والعشرين

(الفصل الثانى)

(فى الدولة الثامنة والعشرين الصاوية)

كان رأس هذه الدولة الملك (أميرتيس) الذى يقال له أيضا (أمرته) وقد تولى الملك بعد قتال كبير مع جند فارس الذين كانوا بمصر ويقال انه من نسل بعض العائلات الملوكية المصرية وكان بطلا مهيبا وقائدا مدربا فى الحروب وهو المؤسس للدولة الثامنة والعشرين وقد تكنى بكنى الفراعنة فلما استقر به المنصب اجتهد فى اصلاح ماأفسدته دولة فارس وفى اعادة المراسم والمواسم الدينية القديمة وفى ارجاع ما كان للهياكل من الرونق والبهجة وفى اصلاح ماأفسده العجم أيضا من المعابد والصنائع قال جماعة المؤرخين ولو أمد الله فى حياته



لتمكن من اصلاح جميع ماأفسدته أيدى الغرباء الا أنه أدركه الموت عاجلا وذلك فى سنة ست وأربعمائة قبل الميلاد أى سنة ثمان وعشرين وألف قبل الهجرة فكانت متمكنه على ديار مصر سبع سنين وهى عبارة عن مدة حكم هاته العائلة وقد أبقى بقايا أملهامن أتى بعده من ملوك الدولة التاسعة والعشرين التى أعقبت دولته وبموته زالت الدولة الثامنة والعشرون وقامت بعدها الدولة التاسعة والعشرون التى تعرف بالدولة الاشمونية

(الفصل الثالث)

(فى الدولة التاسعة والعشرين الاشمونية)

قال أصحاب التاريخ لاندرى ماسبب ارتقاء هذه الدولة الى منصة الاحكام بعد زوال الدولة الصاوية التى هى الدولة الثامنة والعشرون رغما عن كل بحث وقد كان ابتداء تمكنها فى سنة ست وأربعمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثمان وعشرين وألف قبل الهجرة وكانت تسمى بالدولة الاشمونية ويقال لها أيضا الدولة الاشمومية نسبة الى مدينة أشموت الرمان التى محلها الآن المدينة القديمة المسماة (منديس) فيقال لهذه الدولة أيضا المنديسية وكان فى أيامها مصب فرع من النيل يسمى الفرع المنديسى ولكنه قد غطته الآن الرمال وكان عدد ملوك هذه الدولة خمسة أولهم الملك (نفريتس) الاول المسمى عند اليونان (نفروطيس) ويلقب (بن رع نترو) وفى رواية أن عدد ملوكها أربعة وهو الاصح نقلا عما جاءت به الآثار وسنو ملوكهم احدى وعشرون سنة

(فى الملك نفريتس الاول)

تولى الملك (نفريتس) الاول فى نحو سنة تسع وأربعمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثمان وعشرين وألف قبل الهجرة وكان ملكا مهيبا جليل القدر فجعل ملك فارس منذ استوائه على سرير الملك يهدده ويخيفه بارسال الجنود الكثيرة لمحاربته ومع ذلك لم تفتر له همة ولا ضعفت له عزيمة فى سلامة وطنه وايراده موارد العز والرفاهية فعقد مع جمهورية اسبارطة اليونانية المعروفة باسم (لقدومنه) معاهدة للذب والدفاع ومهاجمة فارس فزادت بهذه المعاهدة مهابته وارتفعت كلمته وخافه الفرس وحشد جيوشه فى حدود الشام لقتال فارس وأكثر من آلات الحرب ومعدات القتال غير أنه قد حدثت

الفرس

الفرس حروب فى جهات أخرى حالت بينهم وبين قتال المصريين قال بعض أصحاب التاريخ ولما كانت سنة احدى وتسعين وثلثمائة قبل الميلاد طلب يونان بجزيرة قبرس أن يعاهدوا الاثينيين (والهيكاتومنوس) ملك القيروان والمصريين وسعوا وراء ذلك سعيا مجيدا فتعاهدوا وارتبطوا برباط الاتحاد وتألبوا على الذب والقتال وحسب الفرس لهم ألف حساب ولكن لم تطل بعد ذلك أيام الملك نفريتس حيث أدركه الموت فى نحو سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة خمس عشرة وألف قبل الهجرة فخلفه (أخوريس) وكانت مدة حكم نفريتس ست سنوات وأشهرا

(فى الملك أخوريس)

تولى الملك أخوريس المذكور فى نحو سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة خمس عشرة وألف قبل الهجرة ويسمى باسم (هوفود) فلما استقر به المنصب حذا حذو (نفريتس) فى إعلاء شأن البلاد وتعزيز جانبها وجدد المعاهدات مع الامم والملوك مثل أهل قبرس والعرب وأهل الغرب وبرقة وتعاهد مع اليونان على قتال الفرس فأمده اليونان بجيش جرار تحت قيادة (خابرياس) القائد الاثينى فالجأت عساكر فارس لقتال المصريين رأوا من شدة بأسهم مالم يلقوا معه أربا وكان للملك (أخوريس) المذكور عناية تامة باصلاح ماأفسده جور حكومة فارس مما لم يصلحه سلفه والدليل على عنايته هذه الاصلاحات التى أجراها بالاعمدة الموجودة بالايوان الكبير فى مدينة (أبو) فى طيبة بالصعيد وفى مقاطع الحجر بطرا ولكنه مات فى خلال اهتمامه باصلاح شؤن البلاد وترتيب أمورها وذلك فى سنة احدى وثمانين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثلاث وألف قبل الهجرة فكانت مدة حكمه ثلاث عشرة سنة كما جاء فى رواية مانيطون وفى أيام هذا الملك قدم افلاطون وغيره من حكماء اليونان ليتخرجوا على حكماء عين شمس ومنف وطيبة وينشروا علومهم فى بلاد اليونان وبعد موته خلفه بساموتيس

(فى الملك بساموتيس)

تولى بساموتيس فى نحو سنة احدى وثمانين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثلاث وألف قبل الهجرة ولم يحكم غير سنة واحدة ولم يذكر أصحاب التاريخ شيأ من مآثره وأعماله غاية ماقالوه انه وجد اسمه منقوشا بجانب اسم سلفه الملك (اخوريس) فى قصر

الكرنك ومات فى سنة ثمانين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وألف قبل الهجرة وخلفه الملك (نفرتيس الثانى)

(فى الملك نفرتيس الثـانى)

تولى نفرتيس الثانى الملك فى سنة ثمانين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وألف قبل الهجرة ولم يحكم سوى أربعة أشهر وقيل سنة واحدة ولم يبق من آثاره الا صنم أبوالهول المحفوظ بخزانة التحف فى عاصمة الفرنسيس ونفرتيس هذا هو آخر ملوك هذه الدولة فكانت مدة حكمها احدى وعشرين سنة ثم انقرضت وزالت وجاءت بعدها الدولة المتممة الثلاثين وهى الدولة السمنودية المنسوبة لمدينة سمنود القديمة بالاقليم البحرى وهى كبقية الدول المنسوبة الى الاقاليم البحرية اذ كانت قد عميت من مدن الاقاليم القبلية آثار شهرتها العظيمة وانحط صيتها البعيد بعد ان سارت به الركبان وزالت عنها مزية ما كان يعدد فيها من الملوك فان مدينة طيبة التى خرج منها جميع ملوك دولة الفراعنة زمنا طويلا أخنت عليها صروف الزمان وأصبحت شهرتها فى خبر كان

قال بعض المؤرخين وانقطعت طيبة الكهنوتية فانها لما طال بها الاستعباد وثقل عليها الهوان واضمحل شرفها القديم انطفأت أنوار بهجتها وضاعت منها مزيتها من كونها مركز الملك لسرير الفراعنة وانتقلت منها الرئاسة الى مدن الاقليم البحرى فسبحان من يغير ولا يتغير

(الفصــــــل الرابع)

(فى الدولة المتممة للثلاثين السمنودية)

كان مبدأ ملك هذه الدولة سنة ثمان وسبعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة ألف قبل الهجرة وقد سميت هذه الدولة بالسمنودية نسبة الى مدينة سمنود تخت ملكها بالوجه البحرى كنسبة من سبقها من الدول الاخرى الى الاقليم البحرى فان مدن الاقليم القبلى كانت زالت شهرتها العظيمة وانقطع ذكرها وانمحى صيتها البعيد الذى كان يذكر عند ذكر كل مدينة منها وأصبحت مدينة طيوه وهى طيبة التى هى أم سائر ملوك أكثر الدول المصرية مجردة عن هذا الشرف والمجد العظيم وانقطعت الكهنوتية وانتقلت منها الرئاسة الى الاقليم البحرى فنالت كل مدينة من مدنه حظها من ذلك حتى مدينة سمنود القديمة وكانت مدة هذه الدولة التى هى السمنودية ثمانيا وثلاثين سنة وعدد ملوكها ثلاثة وأولهم الملك (نخت حورحب) الملقب (برع سنوزم حت استن انحور) ويقال له (نقطانب الاول)

(فى الملك نقطانب الاول)

تولى نقطانب الاول الملك سنة ثمان وسبعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة ألف قبل الهجرة وهو رأس هذه الدولة ولم يكن جلوسه على سرير الملك الا فى خلال الفتن واشتداد أزمة الخطوب والاحن وكانت دولة فارس لم تزل قلقة البال باسباب خروج مصر من قبضة يدها طامعة فى استرجاعها وكان (نقطانب) يعلم منها ذلك فجهز عسكرا كبيرا وأكثر من معدات الحرب وتأهب لرد الفرس عن مملكته فلما كانت السنة الثانية من ملكه جاءت اليه عساكرهم برا وبحرا تحت قيادة (فرناباز) الفارسى (وافيكراتيس) الاثينى ونزلوا باشتوم أم فرج عند البحر المنديسى فلاقتهم هنالك الجنود المصرية الحافظة على السواحل وقاتلتهم فهزموها وانتصروا عليها وأشار (افيكراتيس) الاثينى بالزحف على مدينة منف قبل أن تصل اليها جنود المصريين فعارضه فى ذلك (فرناباز) الفارسى وأبى الا التربص حتى يأتى اليه المصريون فسار اليهم الملك (نقطانب) فى جيشه وحاربهم وانتصر عليهم نصرة عظيمة وذلك على مقربة من منديس فولوا الادبار الى بلادهم وقيل انهم ركبوا السفن بالنيل وتمنعوا ببعض الجهات بحصن هو مدينة منف وزحف لقتالهم واقتفى أثر (فرناباز) فانهدم الاكبر وحاصره وكان ذلك عند حلول أيام فيضان النيل فوقع الفرس فى أيدى المصريين حيث ضاقت عليهم الارض بمياه النيل وقد مات منهم خلق كثير جدا وتخلصت البلاد من شرهم وعلت كلمة الملك (نقطانب) وظهر نبله وارتاحت البلاد بنهضته بعد أن ذاقت من الفرس من العذاب مدة خمس وعشرين سنة كما رواه (يودور)

وظهرت فى هذه الاثناء طائفة من اليونان تسمى طيبة اليونانية على أهالى (لقدمونة) من أعمال مملكة اسبارطة وعظمت شوكتها فنزل الملك (اجزيلاس) اليونانى الى الملك نقطانب مستغيثا به على أهل طيبة اليونانية فاغاثه وجهز له جيشا كبيرا فسار الجيش المذكور وظفر بأهل طيبة وتفرغ (نقطانب) بعد حروبه وغزواته فى آخر أيامه الى أمور المملكة فأعاد اليها الراحة وأكسبها الطمأنينة بعد الخوف وبقى الآثار الجليلة من الهياكل والمعابد وأحسن ادارة البلاد ورتب أمورها على أحسن ترتيب وأكمل نظام ومات فى سنة أربع وستين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة اثنين وثمانين وتسعمائة قبل الهجرة وقد اختلف فى مدة حكمه فقيل عشر سنوات وقيل وهو الاصح انه حكم ثمان عشرة سنة فخلفه الملك طاخوس الآتى ذكر آثره بعد

(فى الملك طاخوس)

﴿ ويقال له أيضا ﴾

(زيت حر)

تولى طاخوس الملك سنة أربع وستين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ست وثمانين وتسعمائة قبل الهجرة فلما استقر به الملك أخـذ فى تدبير أمور المملكة ودفع غارات الفرس عنها ومكن المعاهدة مع أهل (لقدمونية) من أمم اليونان واستمدهم فبعثوا اليه جيشا كبيرا تحت قيادة كبير من قواد عسكرهم اسمه (اجزيلاس) ففرح (طاخوس) بقدومه وأعجبه منظره قبـل أن يقف على حقيقة مخبره فعزم على أن يسلمه قيادة جميع الجيوش المصرية البرية والبحرية ثم رابه من أمره ريبة فلم يسلمه الا قيادة العساكر البرية وسلم قيادة العساكر البحرية لأحد خواصه (خبرياس) ولقبه بلقب أمير عموم الجيوش المصرية وهم (طاخوس) بمهاجمة فارس وقتالهم فأشار عليه (اجزيلاس) أن لايهاجمهم الا اذا حضروا الى ديار مصر و يجتنبهم ما اجتنبوه فأبى الا قتالهم علاقاتهم فى سواد الشام وقام بجيوشه نحو الشام للقتال فلما سار وابتعد عن مصر قامت عليه العساكر فعزلته وولت مكانه ابن أخيه المسمى (نقطانب) الثانى فهرب (طاخوس) من وجه قومه الى ملك فارس فقابله وهو بطريقه عنـد بلاد العرب فأكرم مثواه وأحسن لقاه وحمله الى بلاده فكانت مدة حكمه الى هربه سنتين اثنتين لاغير وخلفه (نقطانب) الثانى الذى يقال له أيضا نخت نبف

(فى الملك نقطانب الثانى)

تولى نقطانب الثانى الملك نحو سـنة اثنتين وستين وثلثمائة قبـل الميلاد أى نحو سنة أربع وثمانين وتسعمائة قبل الهجرة فلم يسـتقر به المنصب حتى قام من ينازعه فى الملك وهو أمير من أولاد وجوه مدينة اشمون قد خرج ومعه كثير من العساكر المتحزبة له فأجاب دعوته أيضا الجم الغـفير من الاحزاب واستفحل أمره وعلت كلمته وكان (اجزيلاس) قائد الجيوش البرية متحـزبا للملك (نقطانب) فأشار على الملك بسرعة الهجوم على هؤلاء الخوارج وتفريق شملهم كى لايتمكنوا من التألب ولايكـثروا من جلب الامدادات اليهم فلم يفـعل وارتاب فى صـدق النصيحة فلم يكن بأسرع من أن ساجـله عصاة العساكر وغالبوه فامتنع فى احدى المدائن فحاصروه وأحاطوا به ولم يمد اليه (اجزيلاس) يد المساعدة بل خذله وتركه أياما فبعث اليـه يستغيث فأشار عليه بأن يفتح أبواب المدينة ويخرج لمطاردة

العدو ويحمل عليهم حملة شديدة ففعل فظهر عليهم وأبعدهم عن المدينة واقتفى (أجزيلاس) أثرهم ومازال حتى أخذ أميرهم أسيرا وخلا الجو لـ(نقطانب) فاستقر فى منصبه بلا منازع ولا معارض له فى شؤنه

وعقد فى السنة الثانية من حكمه معاهدة مع أهل صيدا وصور وقد كانوا كأهل مصر على خوف من غارات الفرس عليهم والتملك على بلادهم فكان الدفاع قدرا مشتركا بينهم فلما سارت الجيوش الفارسية لقتال المصريين لم يروا بدا من محاربة الصوريين أولا فعاقهم قتالهم عن المسير الى مصر واشتدت الحرب بين الفريقين فبعث (نقطانب) ملك مصر أربعة آلاف مقاتل من اليونانيين على نفقته مددا للصوريين وجعل (منطور) الرودسى رئيسا عليهم وكانت قد دخلت فى هذه المعاهدة أيضا عساكر قبرس فسار فريق منهم لنجدة الصوريين فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا شديدا فانهزمت جيوش فارس شر هزيمة فلما وصل الخبر لملك فارس اغتم غما شديدا وجيش جيشا ثانيا وانطلق به الى مصر ففزع الأمير (منطور) الرودسى من عظم هذه الغزوة وهاله كثرة عساكرها وخشى عاقبة هزيمته فانضم بمن كان معه للعدو واستسلم الى (داراأخوش) ملك فارس المذكور فرحب به دارا وأحسن نزله ولاطفه ليدله على البلاد ويكشف له عن عوراتها فيسهل عليه غزوها

فلما علم فرعون (نقطانب) بما فعله (منطور) جهز من العساكر والاجناد مايكفى لحماية البلاد فقاد جندا مؤلفا من نحو خمس وعشرين ألفا من اليونان وعشرين ألفا من المغاربة وستين ألفا من المصريين وأقام المرابطين فى جميع الثغور والحصون المهمة فكان فى مدينة (الفرمة) منهم خمسة آلاف وكان مع كل من ملكى مصر وفارس رؤساء وقواد من اليونان من حزبه يستشيرهم ويستعين بسالتهم فى الحروب ويثق بأمانتهم فالتحمت الحرب بين الفريقين وكانت سجالا وما زالت الى ان ظهرت الفرس على المصريين فسلم المصريون واليونانيون أنفسهم فلما رأى ملك مصر انهزام جنده وتمزيق شملهم وقرب زوال ملكه ضاقت به الحيل وداخله اليأس والقنوط فلم يسعه الا أن جمع أموالا وفر الى بلاد النوبة وانقطع خبره فكان هو آخر ملوك الدولة المصرية المكملة للثلاثين وكانت مدة حكمه ثمان عشرة سنة وزال بزواله ملك مصر من يد أهلها وسقطت فى أيدى الفرس مرة ثالثة وكان انتهاء هذه الدولة فى سنة أربع وأربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ست وستين وتسعمائة قبل الهجرة بعد ان حكمت ثمانيا وثلاثين سنة كما جاء فى أقوال جماعة من المؤرخين وصارت مصر من هذا الحين مضغة فى أفواه الغرباء يتولاها ملك منهم بعد الآخر الى يومنا الذى نحن فيه ولم يملكها ملك من أهل البلاد بعد ان تخلصت من استعباد الفرس وحفظت استقلالها وأعادت ماندرس من معالم مجدها وحكمت نفسها زهاء ست وستين سنة وقد عدت دولة فارس فى تملكها على مصر فى هذه المرة الدولة الحادية والثلاثين وهى الدولة الثانية الفارسية المنقرضة باغارة اسكندر المقدونى على مصر وأخذها منهم

(الفصل الخامس)

(فى الدولة الحادية والثلاثين)

(وهى دولة الفرس الثانية المنقرضة باغارة الاسكندر المقدونى على ديار مصر)

قال أصحاب التاريخ بعد ان تخلصت مصر من حكم الفرس وفكت قيود استعبادها ولبثت زهاء ست وستين سنة وهى مدة حكم الدول الثلاث السابقة متمتعة بالاستقلال وقد أعادت فى خلال هذه المدة ما كانت خسرته فى أيام دولة فارس من المدنية والعمران وأصلحت ما أفسدته طوارق الحدثان ولمتشعثها بقدر مافى الامكان عادت فسقطت فى أيدى الفرس مرة ثانية فى أيام دولة الملك دارا أخوش الذى هو رأس الدولة الحادية والثلاثين المذكورة وذلك فى سنة أربع وأربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ست وستين وتسعمائة قبل الهجرة ولكن لم تطل مدتها فلم تتجاوز ثمان سنين وكان عدد من تولى الملك منها ثلاثة أولهم الملك أخوش الذى سيأتى الكلام عليه

(فى الملك دارا أخوش الفارسى

تولى دارا أخوش الملك فى سنة أربع وأربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ست وستين وتسعمائة قبل الهجرة بعد انتصاره على (نقطانب) الثانى فلما استقر به المنصب سمى نفسه (ارتخشارشا) الثالث وكان فظا غليظ الطبع متكبرا فأمر بقتل جميع أبناء وبنات الملوك الذين قبله ليمحو أثر أسلافه فقتلوا جميعا وسلب من مصر جميع أموالها واغتنم مافيها وعاث فى الارض فسادا وأقام على مصر نائبا من قبله اسمه (فرنده) وهو أحد أمراء دولة فارس وبنى القصر المعروف بقصر الشمع وجعل فيه هيكلا وهو موضع الكنيسة المعلقة للقبط المتأصلين الآن فان صح ذلك كان القصر المذكور من آثار دولة الفرس لا من آثار المصريين * وكان دارا المذكور قبل تغلبه على ديار مصر قابضا على زمام حكم الفرس نحو العشرين سنة وفى عصره أخذت مقدونية فى الظهور بين الدول ووجهت اطماعها الى التملك على آسية وأخذها من الدولة الفارسية وجعلت تراقب الفرص الملائمة لذلك ومازال الملك دارا المذكور يتصرف فى الامور ويظلم ويجور ويسوم الرعية الخسف حتى أبغضته وكادت تشق عصا طاعته وبدت علامات الفتنة وقلقت لذلك خواطر الولاة والعمال ودارا لا ينكف ولا يقف عند حد حتى دس له (باغواس)

الطواشى

الطواشى السم فى طعامه وقتله فتولى الملك بعده ابنه (ارسيس) فكانت مدة حكم دارا المذكور على مصر سنتين اثنتين لاغير

(فى الملك ارسيس ابن دارا أخوش)

تولى ارسيس الملك سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو أربع وستين وتسعمائة قبل الهجرة فلم تكن مدة حكمه الاسنتين كأبيه ولم يذكرعنه جماعة المؤرخين شيأ وانما ذكره مانيطون المؤرخ فى فهرسته ومات فى سنة أربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وستين وتسعمائة قبل الهجرة فخلفه دارا الثالث الذى هو آخر ملوك هذه الدولة

(فى الملك دارا الثالث)

وتولى دارا الثالث الملك سنة أربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وستين وتسعمائة قبل الهجرة وكان اسمه قبل الولاية (كودوماوس) وكان ارتقاؤه سرير الملك فى نفس السنة التى تولى فيها اسكندر الاكبر المقدونى وكان دارا هذا مشؤم الطالع على مملكة فارس فانه مالرتقى سرير ملكها حتى أخذت فى الضعف والانحطاط فزالت شوكتها وتلاشى أمرها بظهور المقدونيين عليها وذلك لان الامة الصادقة فى حب وطنها المتحمسة فى الذب عن ذمارها متى كانت حائزة على بعض المعرفة بالسياسة حازمة مدبرة تحسب العواقب ولوكان عدد أهلها قليلا فانها تغلب العدد الكثير وتظفر بالجم الغفير من أعدائها هذه مقدونية التى نبغت من بين أمم اليونان فى عهد قريب فدوصلت فى دورها الى درجة عالية من التمدن وتمكنت بعروة الشجاعة وحب الوطن فظهرت على غيرها من الامم وطار صيتها الى أقاصى البلدان وسارت بشهرة مفاخرها الركبان فحكمت اليونان واستولت على جميع أملاكها ودبرت أمورها وأحسنت سياستها وأحكمتها ومازالت تترقى الى أوج المعالى حتى تولاها اسكندربن فلبس المقدونى فوسع ممالكها بسيف فتوحه ولم يعقه عائق عن توسيع دائرة فتحه البلاد وتسخير العباد بل طاف قارة آسية فدخل الهند وبدد شمل قومها وهزم ملكها (بوروس) وكان بوروس المذكور قد حارب الاسكندر راكبا على فيل عظيم فأظهر هذا الفيل من الشجاعة والفروسية مأادهش الاسكندر فلماوقع ملك الهند فى قبضة يد الاسكندر أخذ فيله المذكور وميزه ونذره لكوكب الشمس معبود المقدونيين وسماه باسم (اياكس) الذى هو أحد فحول اليونان ثم حرم ركوب ظهره ماعاش وقد ذكرنا هذه الحكاية هنا على سبيل الاستطراد

وبعد أن تمت للاسكندر غزوة الهند عرج الى فارس وقاتلها ومزقها وورث ملكها وقد ساعده على ذلك بعض أهالى الولايات الفارسية لبغضهم لحكم فارس وميلهم الى الخروج عن ربق عبوديتهم لاسيما مصر فانها كانت قد سئمت نفسها الذل وتاقت الى التخلص من قيود ذلك الاسر فلما كانت سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة قبل الميلاد سيرت الى الاسكندر تستحثه على الحضور الى ديار مصر ونزعها من أيدى أولئك الظلمة القساة فأتى اليها وأجلى الفرس عنها بعد قتال عنيف وأزال ملكهم منها وأباد جميع من كان بها من قوم فارس فأصبحوا كأنهم لم يكونوا شيأ مذكورا فكانت مدة حكم الفرس على مصر فى هذه المرة بقدر المدة الواقعة مابين قمبشاش الذى هو كمبيز الى موت دارا الثالث وهى عبارة عن ثمان سنوات فقط قال بعض الكتاب فكان ما بينهما أى بين كمبيز ودارا الثالث من الدول المصرية غير معتبر اذ كانت دولة فارس لهم بالمرصاد فى المدة المتخللة بين حكمها فى المدتين السابقتين

قال صاحب العقد الثمين ويشهد على هزيمة الاسكندر المقدونى لدولة فارس بمصر نقوش وجدت على حجر محفوظ الآن بمتحف نابولى بايطاليا لكاهن مصرى من عصر دارا الثالث يقال له ﴿سمتاوى تفخت﴾ حيث بدأنا بنقوشه على حرب الفرس مع المقدونيين فى ديار مصر وعلى سقوط الدولة المصرية واضمحلالها وهذا تعريبه على ماترجمه بروكش * الامير الوارث المجيد والحبيب الاعز الاوحد كاهن المعبود حور سيد ﴿هيبون﴾ وكاهن معبودات قسم ﴿هيبونو﴾ وكاهن معبودات ﴿سمتاوى﴾ بمدينة ﴿أجو﴾ وناظر أملاك المعبودات ورئيس قسوس المعبودة ﴿سخمت﴾ فى كافة المملكة أعنى به ﴿سمتاوى تفخت﴾ ابن المكرم ﴿نس سمتاوى أوف عنخ﴾ كاهن المعبود أمون بمدينة ﴿بيشا﴾ وابن المكرمة ﴿عنخت﴾ قال مامعناه ياسيد المعبودات ﴿خنوم﴾ أنت سلطان الوجه القبلى والبحرى وكبير المملكة أنت الذى تنير الدنيا بظهورك وتنير الشمس بعينك اليمنى والقمر بعينك اليسرى والشعاع مقتبس من نور عقلك والريح الطيبة من خياشيمك فهى تنعش حياة كل موجود أنا كنت خادمك وأفعل بارادتك وقلبى ممتلئ بحبك وودادك ولم أزخرف مدينة كمدينتك ولم أقصر أبدا فى تبليغ سرك للبشر مع كثرتهم وفى اظهار معجزاتك للورى بين منازلهم فضاعفت لى ذلك مرارا بالخيرات الجزيلة حتى اشتهرت فى كافة الارض وتقلدت ادارة بيت الملك وما ذاك أيها الملك المحسن الا لتعطف قلبك على واجابة سؤالى حتى رقيت الى أعلى الدرجات من بين كثيرين ولما غضضت نظرك عن المملكة المصرية وجنح قلبك بالمحبة الى ملك آسية أحبنى أصدقاؤك العشرة وقلدتنى أنت الرياسة على كهان المعبودة ﴿سخمت﴾ بدل أخى من أبى ﴿سرحونب﴾ الذى كان رئيسا على كهان تلك المعبودة فى عموم الوجه القبلى والبحرى أنت الذى حميتنى فى حرب المقدونيين حين طردوا أهل آسية من الديار المصرية وقتلوا بجانبى ألوفا عديدة ولم يرفع أحد يده على ولما استتبت الراحة بعد وقوع هذه الحادثة أمرتنى بالتوجه الى اهناس ووعدتنى أن تشملنى بانظارك وتلحظنى بعين عنايتك اذ كنت وحيدا فاقد الاهل فريدا فتوجهت

اليها

اليها فى النيل المبارك ولم يحصل لى خوف لانى كنت متفكرا فيك غير مجاوز لوصيتك حتى وصلت الى مدينة اهناس بدون أن تقشعر شعرة من بدنى وكما كنت مهنا بامرك فى المحل الأول كنت كذلك فى المحل الثانى لانك منحتنى الحياة مع راحة القلب فياأيها الكهنة الذين يخدمون المعبود الجليل (خنوم) ملك الاقليمين والمعبود (حورمخى) العظيم بين معبودات مدينة اهناس والمعبود (توم) ساكن صان وكبير الكباش المقدسة المتصف بقوة الرجال وياأيها الناس والارباب ويامك مصر الاخير اعلموا أن الامير الذى كان يحب ملك الوجه القبلى والبحرى قد صعدت روحه الى السماء لتشاهد هناك المعبود (خنوم) ملك الوجه القبلى والبحرى فى ايوانه والمعبود (توم) فى تخته والمعبود (أونفر) واعلموا أنهم يتشكرون بتخليد ذكركم فى دار الدنيا وانكم تنالون المكافأة من (خنوم) ملك الدارين لوداومتم على المدح والشكر لمعبودات مدينة اهناس وعلى المدح أيضا لتمثال (ميتا) (وتفخت) المقدس المحترم فى قسمه ليكون لكم أعظم رفيق وبمدحكم غيره على ممر السنين بالمدح العريق اه قال ومن نقوش هذا الحجر أنه لما انتشبت الحرب بين المقدونيين والمصريين كانت الدائرة على العجم فانهزم دارا وقتل كثير من رجاله ثم قتله أحد قواده فانتقل بعده حكم مصر الى دولة اليونان اه

وقد أحدث الفرس بديار مصر من أسباب الخراب شيأ كثيرا جدا وأزالوا بهجة المبانى والآثار العظيمة لاسيما ما كان منها بين مدينة طيبة من صعيد مصر ومحلة الدكة من بلاد النوبة على مسافة خط يزيد عن الستين فرسخا فقد تركوها خاوية على عروشها لم يبق منها الا الرسوم والاطلال وكانت أحكامهم فى مصر أحكاما مطلقة فاذاق عمالهم وولاتهم أهل البلاد كأس الذل والهوان وجرعوهم الغصص ومنعوهم من التظاهر بعبادة معبوداتهم وضبطوا أملاك طوائف الكهنة وضربوا المغارم على آلهة المصريين فى نظير اباحة التعبد بها تدفعها لاصنام فارس ولم تكن الفرس تميل بالطبع الى المصريين ولا تحب الاختلاط بهم ولا التقرب منهم شأن الامة الفاتحة الغاصبة بل كانوا بمعزل عن جميع عوائدهم وزيهم وملبسهم وكذلك كان المصريون غير أن الفرس كانوا قد نقلوا عن المصريين الحكومة المستكملة وتعلم ملوكهم طرق الرئاسة وأساليب السياسة وقد كانت قبل تغلبهم على مصر مجهولة عندهم لايرون للوصول اليها سبيلا * قال بعض المؤرخين وبانقراض حكم دولة الفرس من مصر دخلت مصر فى تاريخ جديد على نسق جديد فى الوقائع الزمانية أعاد اليها رونقها القديم وفخرها القويم قالوا فان استيلاء الاسكندر ومن أتى بعده على مصر بعد [illegible] فارس يعدونه للمصريين ونصرة وذلك لما كان بينهم وبين اليونان من روابط المحبة وشرائط المودة باشتراكهم فى العلوم والمعارف الحكمية فضلا عن العهود السابقة والمحالفات التى جعلت الامتين يدا واحدة على الفرس فابادوا حكمهم وضعضعوا شوكتهم فخرجوا من البلاد بعد أن أساؤا السيرة فى أهلها * فسبحان من بيده الملك يؤتيه من يشاء

وبانقراض حكم الدولة الفارسية قامت بعدها الدولة المقدونية الاولى وهى المعروفة بالدولة الثانية والثلاثين فى ترتيب أصحاب التاريخ وعلى هذا الترتيب لم يبق من عدد دول الجاهلية الاثلاث وهى الأخيرة منها الآتى الكلام عليها واحدة فواحدة على النسق الآتى

(البـــاب الثـــانى)

(فى الدولة المقدونية الاولى التى ظهرت بظهور الاسكندر وفيه فصول)

(الفصل الاول)

(فى العائلة الثانية والثلاثين احدى العائلات الثلاث الباقية من الجاهلية)

كان مبدأ ظهور هذه الدولة سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة أربع وخمسين وتسعمائة قبل الهجرة وكانت مدة حكمها سبعا وعشرين سنة وعدد ملوكها ثلاثة ورأس هذه الدولة الاسكندر الاول الملقب بالاكبر ٭ قال بعض المؤرخين وبظهور هذه الدولة انقرضت تماما دول العائلات المصرية التى جاء على ذكرها المؤرخ مانيطون قالوا ولا يفهم من أحوال هذه الدولة وما جاء بعدها من الدول الاخرى الى فتوح الاسلام شئ غير ماهو مكتوب على الآثار القديمة ومفهوم منها مع مابضم الى ذلك مما يستفاد من كتب اليونان والرومان المتداولة

وكان رأس هذه الدولة عصر الاسكندر الاكبر حيث دخلها بعد أخذه مدينة صور وصيدا وفلسطين وغزة من دارا ملك فارس واستولى على ديار مصر جميعها وكان من مآثره ماسيذكر

(فى الملك اسكندر الاكبر المقدونى)

ولما تغلب الاسكندر على دارا ملك فارس تلقاه المصريون بالترحاب وأعانوه على قتال الفرس فرارا من جورهم واستعبادهم فاستولى الاسكندر على جميع ديار مصر وأخرج منها الفرس وعامل المصريين بالرفق واللين وأعاد ادارة البلاد وسياستها القديمة الى ما كانت عليه ولم يغير شيأ من عوائد الاهالى الدينية والمدنية وأطلق لهم حرية العبادة

والقيام

والقيام بشعائرها والجهر بها فى هياكلهم وبيوت عبادتهم ورفع عنهم المغارم والمكوس الثقيلة التى كانوا يؤدونها للدولة الفارسية

واختار من أرض مصر القطعة الواقعة فى البرزخ الكائن بين بحيرة مريوط والبحر المتوسط فى غرب النيل ليبنى فيها مدينة جديدة على نسق المبانى المقدونية وكانت هذه القطعة يومئذ قرية قديمة تسمى (راقودة) فاختطها الاسكندر بمعاونة (ريناوخس) المهندس اليونانى ورسم أماكن المبانى العمومية والهيا كل والمعابد لليونان والمصريين على السواء فكان محيط هذه المدينة لا ينقص عن ثمانين غلوة سهم ودخلت قرية (راقودة) المذكورة فى سورتلك المدينة وسماها (الاسكندرية) وبقى اسم (راقودة) لخطة بالاسكندرية بنيت على آثارها وقد زين الاسكندرية بأحسن الزينة. وعمرها بالجم الغفير من أهالى المدائن المصرية فصارت عامرة آهلة ورتب فيها مرابطين من المقدونيين وأباح لجماعة اليونان وغيرهم من البلاد المشرقية الاستيطان بها وفتح أبوابها لاهل الملل وأعدها مركزا جديدا لتجارة المشرق والمغرب * ثم قلد ولاية مصر للامير (اقليومنوس) وسلمه زمام البلاد وسار هو بجيشه المظفر الى آسية وتوغل فى جوفها وقهر فى طريقه دارا ملك فارس وانتصر عليه النصرة الاخيرة بقرب مدينة (اربل) عند الموصل سنة احدى وثلاثين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة قبل الهجرة ثم سار قاصدا مدينة بابل ولم يزل حتى لم يبق بينه وبينها الا فرسخ ونصف فرسخ فخرج اليه مشايخ أهل العراق العارفون برصد النجوم وتمثلوا بين يديه وأعلموه انه قد ظهر لهم من التنجيم مادلهم على ان دخوله لبابل لا يعود عليه الا بالفشل وموت بها وألحوا عليه فى الرجوع عنها الى غيرها من المدائن فتطير من ذلك وتشاءم فبعث ببعض أمرائه اليها وعاد هو الى معسكره فوصله بعد مسيرة عشرة أيام وكان فى المعسكر جماعة من حكماء اليونان فقدموا عليه للسلام والتبريك وعلموا ما فى نفسه من الوسوسة والتطير وانه عدل لذلك عن دخول بابل لما زالوا به حتى أزالوا عنه ذلك الخوف والارتياب وطمع فى المسير الى بابل مع جميع عساكره وأجناده وكان قد بلغه قدوم الوفود من جميع البلاد المسكونة اليها وانهم ينتظرونه بجد السير واستبشر ومازال حتى دخلها فى أبهة وكبكبة زائدة الغاية ثم اقتبل سفراء الملوك وأفسح لهم صدر الترحاب ولبث فى بابل نحو السنة يجدد فيها الاعياد والمواسم والمآدب والولائم وعكف على اللذات وانهمك فى الشراب فبينما هو ذات ليلة فى مجلس الشراب وقد أسرف كل الاسراف وأفرط فى تعاطى الخمرة حتى أخذت منه مأخذها نظر الى ندمائه فتقدموا اليه فى أن يشرب جاما على صحة كل واحد منهم وكانت عدتهم عشرين نديما ففعل ثم استدعى بقدح كبير كان يسميه (هرقطوس) الجبار فشرب به اثنين وقام يظهر من الضعف قوة فلم يقدر وانكب على محياه وأصيب فى الحال بحمى شديدة ولازمته نوبة بعد أخرى فكانت اذا فارقته أمر ونهى وأرسل الجيوش للغزو وفتح المدائن ظانا ان زمن مرضه قصير فلما رأى أن حياته على شفا جرف وأنه قد ضعفت حواسه

خلع خاتمه من اصبعه وسلمه الى الامير (بردیقا) وأوصاه ان ينقل جثته الى هيكل المشترى بواحات سيوه ليدفن هناك بين الآلهة . وكان قد سار متنكرا عند دخوله مصر الى كاهن المشترى فى واحات سيوه واستجوب الكهانة فعرفه الكهنة وقالوا له انك ابن المشترى صاحب هيكل طيبة اليونانية وانسرك سرى المعبد سيوه . قال أصحاب الآثار وجميع ما حكاه المؤرخون من سير الاسكندر الى تلك الاصقاع فانه لم يوجد من الآثار القديمة مايدل على ذلك سوى انه رؤى اسم الاسكندر منقوشا على مصراعى باب مصنوع من اظفر الصوان عثر عليه من عهد قريب بجزيرة أسوان اه . وكان يظهر التجلد والثبات وقد أسند ظهره يوما الى وسادة وجلس على عادته ويده ممدودة تقبلها الجند فسأله بعض كبار دولته عن يخلفه فقال خليفتى عليكم أصلحكم بحفظ ناموس الملك . ثم قال انى لارى أنه لابد أن يقع بينكم الفشل والشقاق فتنصرم حبال عهدكم وسأله أحد كبار قومه متى تعدك فى عداد الآلهة المعظمين فقال لاأستحق هذا الاعتبار الا اذا سعدتم بعدى ولم تنفصم عروة اتحادكم

ومات وله من العمر اثنتان وثلاثون سنة وثمانية أشهر وذلك نحو سنة ست وأربعين وتسعمائة قبل الهجرة أى نحو سنة أربع وعشرين وثلثمائة قبل الميلاد فكانت مدة حكمه اثنتى عشرة سنة ولم يعقب وارثا لسرير الملك اذ لم يكن له من الاخوة الا أخ لاب يدعى فليبس اريديس وكانت أم هذا الولد رديئة الاصل ليست من ذوى البيوتات العالية وقد تسرى بها فليبس أبو الاسكندر فرزق منها بذلك الغلام وكان للاسكندر أيضا ولد من زوجته (باربسينه) بنت دارا الملك اسمه (هرقولس) وكانت زوجته التى مات عنها وهى (روشنك) بنت ملك همذان حبلى ومشرفة على الوضع فكان يرجى ان تضع ذكرا ولذلك أمست ولاية عهد الاسكندر منحصرة فى اثنين وثالث موهوم ظهوره فأما الاثنان فأحدهما فليبس اريديس أخو الاسكندر كان ضعيف الرأى لايقدر على حمل أعباء هذا الملك الجسيم فلذلك كان لايصلح للخلافة وكان ثانيهما ابنه (هرقولس) لاتجربة عنده ولا خبرة بسياسة الممالك فكان كذلك لايصلح لتولى الملك بعد أبيه فاشتد الطلب لذلك على أمراء جنود الاسكندر وخاف أعيان دولته من ذهاب الملك وتمزيق ماجمعه الاسكندر واختلفوا فيمن يتولى هذا الملك العظيم بعده وكان ممن امتاز من قواد وأمراء الاسكندر بالجد والنسب العريق والامتيازات الجندية والملكية ثمانية أمراء وهم (برديقا) (واليوناط) (وانطباطير) (ولوزيماك) (وبوطون) (وبوطسطس) (ومينارخس) (وبطليموس) فكان من هؤلاء الثمانية أن اجتمعوا فى غداة موت الاسكندر حول سريره ووضعوا عليه علامات الملك المخصوصة وسلاحه وتشاوروا فيمن يخلفه فرأى أحدهم (برديقا) أن يولى مولوده من زوجته (روشنك) حيث كان قد أزف وقت ميلاده ورأى (مينارخس) ان الذى يصلح لذلك هو ابنه (هرقولس) فدفع (بطليموس) القولين وقال انهما من أسباط ملوك العجم فلا يصلحان للملك على انا لو سلمنا الملك لاحدهما

لترتب على ذلك تسليم ملك مقدونيا لملوك فارس والرأى عندى ان تجعل ادارة جميع مملكة الاسكندر شورى بين قواد الجيوش وأمراء الاجناد وبينماهم يتكلمون فى هذا الامر اذا بصوت فى وسطهم يقول انا نبايع أخا الاسكندر خليفة على كرسى أخيه ونلقبه بفيلبس وكان هذا الاسم محبوبا عند المقدونيين ثم انتدب رئيس جنود الاسكندر ونادى بالبيعة فعارضوه واستعانوا عليه بأمراء الفرسان فظهر فى الحال بينهم ﴿ فيلبس اريدس ﴾ أخو الاسكندر وعليه الحلة الملوكية بزى ملوك فارس فبايعه عند ذلك السواد الاعظم والجمهور من الاهالى والجنود ثم أمر بتحنيط جثة الاسكندر وكانت قد ألقيت بلادفن مدة سبعة أيام وأخذ فى تدبير الامور على مايشاء وكان من أمره ماسيذكر بعد

(فى الملك أريديس فلبس)

﴿ ويسمى أيضا ﴾

(ارهيدة فيلبش)

بويع أريديس فلبس بالملك بعد موت أخيه الاسكندر بسبعة أيام وذلك سنة اربع وعشرين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة ست وأربعين وتسعمائة قبل الهجرة فلما استقر به المنصب وزع الايالات والمناصب الملكية على طوائف أمراء الاجناد والعساكر ومشاهير الرجال وقلد ﴿ بطليموس ﴾ النيابة على مملكة مصر وشاركه فى ملك مقدونية ابن أخيه الاسكندر الثانى فكان مغلوبا على أمره وليس له من الملك سوى الاسم فقط وكان الامير ﴿ برديقا ﴾ وصى الاسكندر على ممالكه وهو الذى سلمه خاتمه عند ماأحس بان حياته على شفا وهو صاحب الكلمة على جميع ممالك مقدونية ٠ وقيل بل إن الاسكندر لما احتضر استدعى أربعة من أمراء جنده الذين هم من ملوك الطوائف وجعل بيدهم أمر تقليد ملكه لمن يستحقه فكان من الامير برديقا المذكور أن تغلب على خاتم الاسكندر عند موته وسعى فى أن يستولى على جميع الممالك وطمع فى سلطنته وكان للاسكندر الاكبر أخت تسمى ﴿ قلوبطره ﴾ فتزوج بها الامير برديقا المذكور لظهور أمره فانكر عليه ذلك أربعة من ملوك الطوائف ومنعوه فخاف برديقا على نفسه وسار الى مصر فرارا من أعدائه طمعا فى أخذها من بطليموس نائبها فخرج بطليموس لقتاله فالتقى الجمعان عند مدينة منف واقتتلا قتالا شديدا فانهزم برديقا هنالك شر هزيمة وغرق فى نيل مصر وتبدد من كان معه من الخوارج



ولم تصف الايام لاريديس فلبس بتملكه البلاد والتصرف فى أمورها بعد موت برديقا حتى قامت عليه (لينبادة) زوجة الاسكندر الاكبر فقتلته فى سنة تسع وثلاثين وتسعمائة قبل الهجرة لسبع سنين من حكمه فخلفه الاسكندر الثانى ابن الاسكندر الاول من لينبادة المذكورة

(فى الملك اسكندر الثانى)

تولى اسكندر الثانى ابن اسكندر الأول الملك نحو سنة سبع عشرة وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة تسع وثلاثين وتسعمائة قبل الهجرة وكان قد لقب ملكا فى طفوليته أيام اريديس فلبس فلما مات اريديس المذكور انفرد بالحكم وتمت له البيعة الكبرى ولكنه كان مغلوبا على أمره وكانت الكلمة اذ ذاك للامير (انطيباطير) أحد الاوصياء الاربعة وبقى على هذا الحال حتى مات انطيباطير المذكور فأوصى بها للامير (بيطون) أحد الاوصياء باغراء بطليموس نائب مصر وكان للاميرانطيباطير ابن اسمه (كسندره) فلما رأى من تغلب بيطون على مسند أبيه بغير حق لضعف الملك وعدم قدرته على تدبير أمور المملكة قام على (كسندره) المذكور فقتله وتغلب على مملكة مقدونية وقتل لينباده ام الاسكندر الثانى وحمل الناس على المبايعة له وذلك سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة فكانت مدة حكم الاسكندر الثانى منفردا ست سنين لاغير

وكانت مصر فى أيام كل من اريديس فلبس والاسكندر الثانى المذكورين تابعة لمملكة مقدونية كما كانت فى أيام الاسكندر الاكبر اذ دلت على ذلك آثارهما فى ديار مصر وقد وجدت لفيلبس مقصورة جميلة الصنعة من حجر الصوان بناها فى هيكل الكرنك وسط مقصورة أخرى من بناء الملك (توتميس) الثالث امام محراب هذا الهيكل وكذلك وجدت بعض نقوش بهيكل الكرنك والقصر مرسوم عليها اسم الاسكندر الثانى

وبموت الاسكندر الثانى هذا انقرضت الدولة الثانية والثلاثون فكانت سنو ملكها سبعا وعشرين سنة كما تقدم وقامت من بعدها الدولة الثالثة والثلاثون أعنى بها الدولة اليونانية الملقبة بالدولة البطليموسية وهى رأس الدور الثانى بعد الجاهلية أى دور النصرانية والتدين بالدين المسيحى كما سبق الكلام على ذلك فى محله

(الباب)

(البـــاب الثالث)

(فى الدولة البطليموسية اليونانية وفيه فصول)

(الفصـــــــل الاول)

فى العائلة الثالثة والثلاثين

تسمى هــذه الدولة باليونانيــة وتلقب بالبطليموسيــة أو البطالسة وكان مبــدأ ظهورها فى نحو سنة خمس وثلثمائة قبــل الميلاد أى سنة سبع وعشرين وتسعمائة قبل الهجرة وسبب ظهورها هو انه لما تغلب (كسندرة) بن انطيباطير على الاسكندر الثانى ملك مقدونية وقتله وحمل الناس على المبايعة له لبث نحو ست سنوات يدبر أمور جميع مملكة مقدونيــة وملحقاتها مستبدا بحكمها لايعارضه فيها معارض ولايشاركه مشارك ثم لم يلبث ان جنح الى المشاركة فاقتسم الملك بينه وبين بطليموس نائب مصر فى تلك السنة فصارت مصر من هذا الحين فى حوزة بطليموس المذكور وعقبه من بعده مملكة مستقلة لايشاركهم فى حكمها أحد ثم انضمت اليها مملكة قبرس والقيروان بعــد حروب طويلة هائلة ثم انفصلت عنها ثم اتصلت بها وعادت فانفصلت عنها وهلم جرى وذلك بعد حروب وغزوات متتابعة

وبقى ملك مصر فى أيدى هؤلاء البطالسة ثلاثة قرون متتابعــة لايقوى عليهم فيها محارب وصارت فى هذه المدة الطويلة منفصلة عن مملكة مقــدونية انفصالا تاما وكان ملوك هذه الدولة التى هى دولة البطالسة أربعــة عشر منها ثلاثة عشر ذكرا وواحدة أنثى وهى الملكة قلوبطره وكان رأسها الملك بطليموس الاول الملقب بسوطــير يعــنى المخلص وتعرف هــذه الدولة أيضا بالدولة المقدونية الثانية وسنأتى هنا على ذكر أخبار ملوكها على التعاقب واحدا فواحدا وأولهم بطليموس الاول

(فى الملك بطليموس الاول)

هو أول مــلوك البطالسة ورأس دولتهم وقــد أصاب مصر نصيبا له حــين اقتسم بينهــم ملوك الطوائف ممالك الاسكندر الاكـــبر بعــد موته وبطليموس هذا ابن لاغوس أحــد قــواد جيوش فيلبس أبى الاســكندر الاكــبر فكان بطليموس المــذكور مشاركا فى أيام شبيبته للاسكندر فى الحروب واقتسام الخطوب ولذلك رفع الاسكندر قــدره حتى صار رئيس

فرسانه فأحسن الرئاسة فى جميع غزواته ومازال عالى القدر مرموقا بعين الاعتبار حتى تولى ملك مصر فلما استقر به المنصب أحسن التدبير والسياسة واستمال لمحبته المصريين وأتى اليه أعيان القيروان مستنجدين عما حل بهم من جمهور الرعية لخروجهم عليهم وطردهم من البلاد فأجارهم وقام بنصرتهم بجيش عظيم وعدة من سفن الحرب فهزم أهل القيروان واستولى على بلادهم وعاد الى مصر ظافرا غانما ثم جهز لغزو الشام جيشا وبعث به اليها فاستولى على أصول السواحل الشامية وبقيت فى قبضته مدة ثم أغار عليها انطيغونس أحد ملوك الطوائف فاستلبها وسار دمتريوس بن انطيغونس المذكور قاصدا مصر يريد الاغارة عليها فأحس بطليموس بذلك وسار بجنوده لملاقاة دمتريوس المذكور فالتقى الفريقان عند غزة واقتتلا فيها قتالا شديدا انكشف عن هزيمة دمتريوس شر هزيمة فرق بطليموس لحاله وأعاد اليه جميع الاسرى وسير اليه سفيرا يقول له لم يكن قصدى من محاربة انطيغونس ووالده دمتريوس تحصيل الغنائم والسبايا وانما قامت الحرب بيننا لمخالفتهما العهود وتعديهما على العراق وأخذها من ملكها وتملك بطليموس عقب هذه الموقعة على مدينتى صور وصيدا ولكنهما لم يبقيا تحت حكمه طويلا حتى قام انطيغونس وابنه دمتريوس وجردا جيشا ضخما جدا وقاتلا بطليموس عليهما حتى أخذاهما وفقد بطليموس جميع حصونهما ثم لما رأى بطليموس من توالى الحروب والغزوات وسوء النتائج المترتبة على ذلك عمد الى ترك الحروب والخلود الى السلم وتفرغ بقية أيام حياته لتنظيم أمور المملكة ونهض الى تتميم الهيا كل والقصور والمبانى والمعامل التى أنشأها بمدينة الاسكندرية وبنى للاسكندر الاكبر ضريحا عظيما جدا وقد خفى الآن عن عيون الباحثين وأنشأ منارة الاسكندرية على شاطئ البحر الملح لمنافع الملاحة وهى من العجائب وبنى مدرسة الاسكندرية المعروفة باسم الرواق وجمع فيها جميع علوم تلك الازمان من فلسفة ورياضيات وطب وحكمة وآداب وهيئة وكانت هذه المدرسة موصلة للقصر الملوكى وقد جلب اليها طائفة من علماء اليونان وغيرهم من سائر البلدان فأصبحت مدينة الاسكندرية دارا للعلوم ومركزا لسائر الفنون وكانت هذه المدرسة تحتوى على ايوانات عظيمة ورواقات حسنة البناء والشكل وأنشأ فيها خزانة للكتب جمع فيها أقدم الكتب وأجلها فكثرت عنده الكتب النافعة وبلغت فى الكثرة مبلغا جسيما جدا

وكثرت فى أيامه التجارة وراجت أسبابها بمدينة الاسكندرية وأتى اليها الناس من البلاد القاصية والدانية مثل بلخ وهمذان والسودان والهند والحبشة وغيرها وبلغت البلاد أقصى درجات التقدم والعمران فضاقت مدينة الاسكندرية بالسكان ونزح اليها الناس من جميع الاقطار وكان لا يتعرض للاهالى فى أمر دينهم ولا يجبر عليهم التمسك بعباداتهم القديمة ولا يتعرض للكهنة والاحبار ولما بلغ الثمانين من العمر عهد بولاية الملك من بعده لاكبر أولاده من احدى زوجتيه واسمه بطليموس محب أخيه ثم ولاه أمور المملكة بعد ان تنازل عنها وذلك

سنة

سنة خمس وثمانين ومائتين قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وتسعمائة قبل الهجرة وعمل لابنه المذكور موكبا حافلا جدا فكانت مدة حكم بطليموس الاول المذكور ثمانيا وثلاثين سنة منها سبع عشرة سنة فى منصب النيابة واحدى وعشرون سنة فى منصب الملوكية ومات بعد مضى سنتين من ملك ابنه بطليموس الثانى وهو فى الثمانين من عمره

(فى الملك بطليموس الثانى)

﴿ الملقب ﴾

(بفيلادلفوس)

ثم قام بالامر بعده ابنه بطليموس الثانى الملقب بفيلادلفوس أى محب أخيه تهكما لانه كان يبغض اخوته بويع له بالملك فى حياة أبيه كما تقدم وذلك سنة خمس وثمانين ومائتين قبل الميلاد أى سنة سبع وتسعمائة قبل الهجرة وله من العمر أربع وعشرون سنة فلما استقر به المنصب سار سيرة أبيه وكان ميالا للصلح محبا للسلم ولذلك صرف جل عنايته فى توسيع دائرة العلوم والفنون وتعميم الصنائع والاكثار من تحصيل الكتب فجمع منها عددا عظيما أضافه الى مكتبة الاسكندرية واستمال مانيطون الكاهن المصرى الى تأليف تاريخ مصر باليونانية فمال الى ذلك وجمع تاريخه من الدفاتر والسجلات الرسمية والاوراق القديمة المحفوظة فى الهياكل والمعابد ولكنه لم يبق منها بجماعة المتأخرين الا شذرات قليلة ووسع بطليموس المذكور نطاق التجارة فى ديار مصر فنمت واتسعت أبوابها وراجت أسبابها وبلغت ديار مصر من العمران درجة لم يسبق لها مثال فقد حكى سيوقريطس أن مدن مصر بلغت عدتها فى أيام الملك بطليموس الثانى المذكور ثلاثا وثلاثين ألف مدينة (قلت ربما كان فى قول هذا المؤرخ تغال كما هو دأب جميع أصحاب التاريخ الا الذين تنزهوا عن الهوى وقليل ماهم وربما كان مراده بذلك مايعم القرى والكفور ونحوها)

وجد بطليموس المذكور فى معرفة حقائق البلاد واستكشاف طرق البحار بالاسفار فارسل البعوث لاستكشاف داخلية بلاد أفريقية وبلاد سواحل بحر فارس وبعث القبودان المسمى طيموسيطنس الى قلب النوبة من طريق مصعد النيل لاستكشاف حقيقة مجراه ومنبعه ولكى يسخر بلاد السودان لطاعته فوصل طيموسيطنس بعد مسيرة ستين يوما الى جزيرة مروى بقرب شندى وبعث أحد قواده المسمى ارسطفرون الى تلك الاصقاع أيضا فجال فيها وانعطف من هنالك الى جهة المغرب فنجم عن ذلك اتساع نطاق التجارة بين مصر وتلك الاطراف وانتظم عقدها مع النوبة وظهر علم جغرافية الارض بمظهر جديد لم

يكن يعرف من قبل فسهل معرفة البلاد وعوائد أهلها ومافيها من نبات وحيوان قال ديودور الصقلي لم يسبق لاحد التوغل في بلاد النوبة من أهالي الاعصر الخالية الى عهد بطليموس ولم تصل معرفة أهل تلك الاعصار الالى حدود ديار مصر جهة الجنوب لأن أهل أواسط بلاد النوبة كانوا لايحبون مجيء الاجانب الى بلادهم فكان في الوصول اليها غاية الخطر ومنتهى الضرر ولذلك بقيت حقائقها مستورة الى أن سافر هذا الملك ودخل بها مع جيوشه اه

وعقد العهود بين مصر والممالك الهندية والمشرقية بما يترتب عليه توسيع أبواب التجارة وبدأ بحفر خليج السويس الذي كان قد شرع في حفره (نخاوس) الملك أحد الفراعنة ودارا ملك فارس وجعل فم هذا الخليج من الجهة المعروفة بفرع طينة القريب من تل بسطة وأوصله الى بحر السويس في الجهة الشمالية وأرسل أيضا من يستكشف له سواحل جزيرة العرب الى بلاد الهند وسفنا لاستكشاف سواحل الحبشة وبلاد السودان الداخلية وكانت اللغة اليونانية في أيامه قد امتدت الى أقاصي ممالك الارض فامر بترجمة التوراة من العبرانية الى اليونانية لمنفعة اليهود القاطنين بارض مصر الذين أنساهم الاسر والاسترقاق لغتهم وكان عددهم كثيرا جدا فترجمت وسميت هذه الترجمة من ذلك الحين بالترجمة السبعينية لان مترجميها كانوا سبعين عالما وزوج ابنته المسماة برنيقه لانطيوكوس ملك الشام واشترط عليه أن يكون المذكور من أولادها وارثة ملك الشام بعده ثم جهزها وحملها الى الشام وعمل لها في مدينة انطاكية أفراحا عظيمة للغاية ثم عاد الى مصر مريضا وما زال حتى مات سنة ست وأربعين ومائتين قبل الميلاد أي سنة ثمان وستين وثمانمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه ثمانيا وثلاثين سنة وخلفه ابنه بطليموس الثالث الملقب بالكريم

(في الملك بطليموس الثالث)

الملقب

(بالكريم)

ثم قام بالامر بعده ابنه بطليموس الثالث وبويع له بالملك في نحو سنة ست وأربعين ومائتين قبل الميلاد أي سنة ثمان وستين وثمانمائة قبل الهجرة وكان يلقب بالكريم تهكما وسخرية وقد لقبه العامة أيضا بلقب اطريفون ومعناه المهزول والاول أشهر ولم يكد يستقر به المنصب حتى قامت الحرب بينه وبين ملك الشام فسار في جيش عظيم من المشاة والركبان والفيلة وجهز سفنا حربية وأغار على البلاد التي قبل نهر الفرات واستولى على مملكة أدنه

وماجاورها وعلى سواحل سيواس وعلى ايالة عكا وسواحل اناطولى وجال فى بلاد أعدائه وصال وظفر وأبلى بلاء حسنا للغاية ثم اجتاز الفرات واستولى أيضا على الجزيرة والعراق وخورستان واذربيجان وعزم على غزو فارستان وجميع بلادها الى بلخ وهمذان فوردت عليه الاخبار بقيام الفتنة فى ديار مصر فكر راجعا وترك بتلك البلدان طوائف عسكره وأجناده ودخل مصر مثقلا بالغنائم ومعه تماثيل الاصنام المصرية التى كان استلبها قمبيشاش ملك فارس من مصر ثم عاد سليوقوس ملك الشام لغزو مصر والاخذ بالثار فانهزم وخاب أمله فاقتفى أثره بطليموس ودخل الشام وأخذ دمشق وسيا فارقين وفر رؤساء السليوقية من وجهه الى انطاكية وانزووا فيها ولما كان فى حروبه مع انطيوخوس ملك الشام نذرت زوجته برنيقه انه ان عاد اليها سالما من غزوته تكرس شعر رأسها للزهرة فلما رجع ظافرا غانما وفت نذرها فقصت شعرها ووضعته فى هيكل الزهرة فلم يبق زمنا حتى سرق من الهيكل فخاف الحراس من الملك واستعظموا هذا الامر فلما علم الملك بالخبر التهب قلبه غيظا وأمر بالحراس أن يقتلوا فدخل عليه بعض المنجمين وكان متقدما فى بابه وقال قد سمعت بخبر فقد شعر الملكة من الهيكل فأتيت أخبر بما علمته من ان الزهرة هى التى نقلت شعر الملكة الى السماء ووضعته بين النجوم فلما سمع الملك كلامه سربه وصفح عن الحراس ومن ثم سمى شعر الملكة برنيقه بين الناس من جملة مجاميع النجوم

ومات بطليموس الثالث المذكور فى سنة اثنتين وعشرين ومائتين قبل الميلاد أى نحو سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه خمسا وعشرين سنة وقيل أربعا وعشرين وخلفه ابنه بطليموس الرابع محب أبيه



(فى الملك بطليموس الرابع)

(الملقب)

(محب أبيه)

ثم قام بالامر بعده ابنه بطليموس الرابع الملقب فيلوباتراى محب أبيه بويع بالملك سنة اثنتين وعشرين ومائتين قبل الميلاد أى سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة قبل الهجرة وكان صبيا فكان نفوذ الحكم لوزيره سوسبيوس وكان سوسبيوس هذا طاغية فى السياسة فأرخى للملك عنان السرف فى اللذات وتركه يهيم فى بحبوحة الحظوظ والمسرات وذلك لكولا يكون له شريك فى الملك واحتجب بطليموس عن أرباب دولته وصار لايراهم الا نادرا وصرف وجهه عن الملك والممالك والبلدان التابعة لمصر فكان لايعلم شيأ عن أحكامها



وعمالها ولا عن جندها وكانت مصر الى هذا الحين قد ملكت جميع الاراضى الشامية
الكائنة مابين طرابلس ودمشق ولها عدة مدن خاضعة لها على سواحل بلاد آسية وعلى
الجزائر وكانت الثغور والاربطة فى أيدى ملوك مصر من عكا الى الدردانيل وبوغاز كاليبولى
وفيها من العساكر والاجناد شئ كثير جدا وكان وزيره سوسيبوس المذكور يبالغ فى ابعاد
الملك عن النصحاء وأهل المعارف لئلا يقف منهم على حقيقة حاله وفساد رأيه وخباثته
فكان يوسوس اليه بالاراجيف والاخبار الباطلة التى لاحقيقة لها حتى صار يأخذ حذره
خوفا على نفسه وعلى تخته واشتدبه الخوف والتطير الى أن صار يأخذ الناس بالشبهات فاذا
رابه من أحد ريبة أمر بقتله وكان قد حضر الى مصر فى عهد بطليموس الثالث
اقليومونس ملك اسبارطة مستجيرا ببطليموس فى اعادة ماورثه عن أبيه من الملك وقد
نزعه منه ملك مقدونية فمات بطليموس الثالث قبل ان يقوم بنصرته وبقى عهد بطليموس
اليه بذلك نسيا منسيا فلما استقر ببطليموس الملك راجعه اقليومونس فى الامر ورغب اليه
فى تنفيذ العهد الذى كان بينه وبين أبيه فلم يجبه الى ذلك لاسيما وقد كان انطيغونس ملك
مقدونية فى هذا الحين قد مات وقام بالملك بعده ابنه وكان صغيرا يبلغ الخامسة عشرة من
العمر فألح اقليومونس على بطليموس واستحثه فلم يرض خوفا من العاقبة وأبى أن يعينه مخافة
ان يستولى على جميع بلاد اليونان فيعود ذلك بالضرر على مصر فغضب اقليومونس من
ذلك ووسم بطليموس الرابع بضعف العزيمة وعدم الاكتراث بالعهود وقال لاأهلية لبطليموس
الا فى الاتحاد مع الشبان الذين يلعبون بالمزامير فوصل هذا الكلام الى مسامع سوسيبيوس
الوزير فزعم أن ملك اسبارطه المذكور انما أراد بقوله هذا اثارة الفتنة فى بلاد مصر
فقبض عليه وحبسه وجعله تحت الحرس والمراقبة فالتهب اقليومونس غيظا وأقسم ان
لايموت فى حبس الظلم موت الجبان وأخذ يتربص الفرص حتى علم يوما بسفر بطليموس الملك
الى أبى قير فجمع أحبابه وأتباعه فى وليمة فحضروا فلما تكامل عددهم خرج بهم نهارا
من حبسه شاهرا سيفه من غمده وهو ينادى فى الناس بالخروج وشق عصا طاعة بطليموس فلم
يجبه أحد الى ذلك فصعد الى قلعة الاسكندرية وكسر أبوابها وأخرج من كان فى حبوسها
وسلحهم بالاسلحة ليستعين بهم فلم يفلح حيث قام عليه كبار جند القلعة وهزموه فخشى هو
وأصحابه من الوقوع فى أيدى خصومهم فتقاتلوا وجاء الخبر الى بطليموس بما وقع وهو
بأبى قير فكر راجعا بمن كان معه من كبار قومه ورجال دولته الى الاسكندرية لاخماد نار
هذه الفتنة فلما علم بما جرى لاقليومونس وأصحابه أمر بصلبه ميتا وذبح زوجته تحته
وأم أولاده حيث كان يتوجس منها شرا وذلك سنة عشرين ومائتين قبل الميلاد أى سنة
اثنتين وأربعين وثمانمائة قبل الهجرة وقام على بطليموس بعد ذلك انطيوكوس أخو سليوقوس
صاحب الشام يريد قتاله انتقاما منه بجزاء مافعله أبوه بطليموس الثالث بالديار الشامية من
القتل والنهب وغير ذلك وسار بخيله ورجله الى انطاكية التى هى مدينة السليوقية وكان بها

جند

جند مصر ظفرها بعد نصرة بطليموس الثالث عليها فأخذها ثم سار الى الشام وكان قائد العساكر والاجناد المصرية بها الامير سيبور وطوس اليونانى فلما قرب انطيوكوس منها سلمه سيبور وطوس المذكور ما كان فى خفارته من القلاع والحصون والمدائن كصور وعكا وغيرهما كراهة فى بطليموس الرابع وانتقاما منه فهال بطليموس هذا الامر جدا وأزعجه وأرسل اليه قائدا من قواد جنده الكبار بجيش عظيم الغاية فلما دخل الشام نزل ببيروت وهاجم انطيوكوس فى جبالها فهزمه انطيوكوس شر هزيمة ووقعت جميع بلاد الشام فى يده الى حدود مصر فألح وزراء بطليموس عليه فى أن يذهب بنفسه لقتال انطيوكوس وكشف عار هذه الهزيمة فسار من الفرما الى الشام فى سبعين ألفا من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان وثلاثة وسبعين فيلا وكانت جنود انطيوكوس اثنين وسبعين ألفا من المشاة وستة آلاف من الفرسان ومائة واثنين من الفيلة فالتقى الجمعان تحت أسوار مدينة رافيا بين العريش وغزة واقتتلا قتالا عنيفا فاستظهر انطيوكوس على بطليموس ملك مصر من الجناح الذى كان يدبره انطيوكوس ولم يلتفت الى الجناح الثانى من جيشه وكانت عساكر الجناح الثانى قد انهزمت وعادت القهقرى وهو لا يشعر بهزيمتهم فلما أحس بها أخذ فى تلافى الامر فلم يفلح ودارت عليه رحى الهزيمة ومات من عسكره خلق كثير وولى من بقى منهم فاستولى المصريون على مدينة رافيا ومدن سواحل الشام وفلسطين وطرابلس ودمشق فلم ير انطيوكوس بعد ذلك بدا من عقد متاركة وهدنة مع بطليموس ملك مصر مدة سنة واحدة

ودخل بطليموس يافا وسار الى بيت المقدس وسأل كاهن اليهود أن يريه ما فى البيت فأبى عليه ذلك فحقد بطليموس على اليهود والتهب قلبه غيظا وعد ذلك اهانة وتحقيرا ورسم باستئصال شأفة يهود الاسكندرية وكتب لعامله بذلك فأوقع فيهم القتل والذبح حتى أفنوهم الامن طال عمره فاختفى وعاد بطليموس الى الاسكندرية ورايات النصر تخفق على رأسه وعاد الى الانهماك فى اللذات والشهوات وأسرف فى اللهو وبالغ حتى انتهكت قواه وضعف بدنه فمات فى بحبوحة شبابه سنة خمس ومائتين قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وعشرين وثمانمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وخلفه ابنه بطليموس الخامس الملقب بالماجد

(فى الملك بطليموس الخامس)

﴿ الملقب ﴾

(بالماجد)

ثم قام بالامر بعده ابنه بطليموس الخامس الملقب بالماجد وبويع بالملك بعد أبيه

سنة خمس ومأتين قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وعشرين وثمانمائة قبل الهجرة وكان وقتئذ غير بالغ سن الرشد فأقاموا عليه الامير أغا سقليس وصيا وهو أحد وزراء أبيه وبقى سوسيبوس وزير المملكة ومدبر أمورها وكان أغا سقليس المذكور طائشا سيئ التصرف فلما صفاله الجو ازداد فى ارتكاب الجرائم ومجاوزة الحدود وبالغ وأسرف حتى نفرت منه طباع الاهالى وسئمت نفوسهم وحقد الجند عليه حقدا شديدا فأوجس فى نفسه خيفة لئلا يشقوا عصا الطاعة عليه فراسل أهل مقدونية ليعاهدهم عسى أن يكونوا عونا له على المصريين فلم يفلح ولم يمض بعد ذلك الأيام حتى قامت الفتنة على ساقها وخرج الاهالى والجند عن طاعة أغا سقليس وكان رأس هذه الفتنة طلابوليميس كبير الجند فلم يجد أغا سقليس له نصيرا ولا ظهيرا واشتد الخطب واستفحل أمر الفتنة ﴿قال بوليس المؤرخ﴾ وانقسم أصحاب الفتنة الى طوائف وجماعات واجتمع بعضهم فى ميدان السباق وهم يضجون ويصيحون ويطوف منهم جماعة بين الناس ليهيجوا الخواطر ويحضوا الخلق على الثبات ومعاونة بعضهم لبعض بالخطب والمقالات المهيجة وانزوى بعضهم فى الدور والحصون عند اشتداد الازمة وكان أغا سقليس فى أثناء ظهور الفتنة وتجمع أولئك الجموع نائما فى قصره فأيقظوه فلم يشعر الاوقد امتلأ ما حول القصر المسلوكى وميدان التعليم والرحبات والملاعب من جموع الثائرين والاحزاب على اختلاف درجاتهم فسار عندئذ فى أتباعه وأحزابه الى حيث الملك بطليموس وأمر فسد بابان من أبواب القصر بالاحجار والمتاريس وحصن الباب الثالث بالقوة العسكرية وتترس من خلفه هو والملك بطليموس وسائر أتباعهما فازداد اجتماع الناس وكثرت الضوضى وعلت الاصوات وتقاطر الناس من جميع انحاء المدينة حتى سدوا الطرق وملؤا الميادين وضجوا وعجوا ونادوا بأعلى الاصوات كأنما اعتراهم الجنون وبقى هذا الحال الى ضحوة النهار وطلبوا أغا سقليس ونادوا بخروج الملك وتركه ليسقوا اغا سقليس كأس الهوان واشتد الحماس بالجند المقدونيين وحاصروا دهليز بيت الملك وبحثوا عن المكان الذى كان الملك مختفيا فيه فعثروا عليه فاقتحموا الابواب وطلبوا الملك ليأخذوه فاشتد خوف أغا سقليس واستجار ببعض أعوانه وحراسه ورغب اليهم أن يستميلوا اليه فريق الاهالى وبعض طوائف الجند المقدونيين فى نظير تنازله عن منصب الكفالة والوصاية فلم يجبه أحد لذلك فلما أيس من شفاعة الشفيع والملاف هذا الخطب المريع مد يد السلام الى العساكر المقدونية وسلم وأشار بذلك الى الاستئمان وكذلك تقدمت أخته أغا سقلية التى هى أم بطليموس الرابع وكشفت عن ثديها وقالت لطوائف العسكر هذا الثدى هو الذى أرضع بطليموس واغتذى بلبنه فلا يصح اهانته واذلاله وأكثرت من الاستغاثة والتضرع فلم يرث أحد لحالهما ولم يلتفت اليهما وأخرجوا الملك من مكانه وأركبه الجند على جواد وذهبوا به الى الميدان وساروا به فى وسط الجموع فلما رأوه فرحوا به وضجوا بأصوات التهليل وأقبلوا اليه وأجلسوه على سرير الملك وتقدم اليه من أمراء

الدولة جماعة يسألونه عما يفعلونه باغاسقليس ومن معه فأباح إراقة دمهم فرسموا الى بعض الجند أن ينادوا بذلك بين الناس وصفوف العسكر فرفع أحدهم صوته بالمناداة ففرح العامة وضجوا ضجيج الاستحسان والفرح وتفرقت طوائف الجند وبقيت العامة وبينماهم على هذا الحال اذ برز فى وسطهم رجل من أخصاء اغاسقليس اسمه فيلون وقال ﴿ كيف بكم أيها الناس لو رأيتم اغاسقليس واقفا فى وسطكم لاجناح عليه وأنتم تجاهرونه بهذا العصيان وتقابلون نعمته بالكفران فافقهوا ياقوم ولا تكونوا من الضالين ﴾ فلما سمعوا كلامه هجموا عليه فقاومهم أشد مقاومة فزقوا ثيابه وطعنوه بالرماح وسرى من هذه الساعة الموت والقتل فى حزب اغا سقليس وقومه وأهل بيته والقواجشة تلك الرجل فى الميدان بعد قتله وهاجوا وماجوا وعلت أصواتهم فظهر اغاسقليس مكبلا بالسلاسل والاغلال فلم يمهلوه حتى أكبوه على وجهه وقتلوه ثم أتوا باخته اغاسقلية مع بناتها وأقاربها فقتلوها واباهم شر قتلة ثم قتلوا زوجته المسماة ايشلة وقد كانوا أركبوها عريانة على جواد وقتلوا كذلك أتباعها والمتقربين اليها وكان المتولى القتل جمهور العامة والغوغاء فأفشوا فيه وكانوا يقتلون البعض بعض الانياب والبعض بطعن الحراب وبعضهم كان يفقأ العيون وكانوا كلما قتلوا واحدا مزقوه وقطعوا أعضاءه وألقوها فى الطرقات ولما عم القتل وعلمت النسوة اللاتى كن يخدمن الملكة ارسنوية أم بطليموس بحضور فيلامون الذى قتلها الى مدينة الاسكندرية فمن على ساق وقدم وأحطن ببيته وأردن الفتك به وقبضن عليه وأثخنه ضربا بالعصى والاحجار وقتلن زوجته فى الميدان العام وكان له طفل على يديها فتناولته أيدى العامة وأماتوه خنقا ثم سكنت الفتنة وهدأت العامة وأقاموا الأمير الملاوليموس قيما على بطليموس بدل اغاسقليس واستبشر الناس بالظفر ولكن لم يمض الا القليل من الزمن حتى ظهر الامر على خلاف ما كان يظن وذلك لانه لما كان اطلاوليموس المذكور جنديا بحتا لاخبرة له بفنون السياسة التى عليها حفظ شرف الدولة ومركزها خبط وخلط فترتب على ذلك انحطاط المملكة وضعف سطوتها وقد ساء تدبيره أيضا وانهمك وانكب على الالعاب بالصولجان والترض مع جماعة الشبان وأكثر من المآدب والولائم وأسرف وبالغ فى مثل هذه النفقات وبذر فى العطايا والنح لسفراء ممالك اليونان تزلفا واستصبابا ووصل بنعمائه أرباب الملاهى والملاعب وأمراء العساكر والاجناد وكل من تردد على أبوابه واشتغل بجميع هذه الامور عن النظر فى شؤن المملكة وقضاء مصالح الخلق واحتجب عن الناس ليتفرغ للاذه وشهواته فلما زاد اسرافه على نفسه سلم عنان الحكومة ليد ارسطومينين الروى وأطلق له عنان الحرية ومتعه بالسلطة والنفوذ التام فلما أحس ملك الشام بضعف أحوال المملكة المصرية وعدم قدرتها على دفع من يقصدها بسوء قويت عزيمته للاخذ بالثار جزاء مافعله المصريون فى حرب رافيا فعقد مع فيلبس ملك مقدونية معاهدة دفاع فقام فيلبس بعساكره وأجناده وهجم على بوغاز الدردانيل وبوغاز كاليبولى وعلى بلاد دروم

ايلى التى كان بها المرابطون من عساكر مصر من عهد فتوباتر فيلادلف وقام كذلك ملك الشام وهجم على أملاك مصر فى أرض الشام وعلى جهات الاناضول وكان بتلك الجهات من قبل مصر القائد اسقوباس فلقيه اسقوباس بعسكره وقاتله فانتصرت العساكر المصرية على ملك الشام نصرة عظيمة فى سواحل الشام وبلاد فلسطين ولكنها لم تلبث ان انهزمت على منابع نهر الأردن وأخذ صاحب الشام مدينة ساحرة وغيرها من المدائن كالقدس وما زال حتى أخذ أيضا فى خلال سنة جميع المدن التابعة لمملكة مصر بولاية أدنة وغيرها من ولايات الاناضول

وفرح انطيكوس صاحب الشام بنصراته المتتابعة وأخذه جميع أملاك مصر فى بلاد الشام وتلفت نفسه الى قتال الرومانيين وغزو ايطاليا ولكنه عاد فخاف عاقبة ذلك وجعل نصب عينيه ما بين مصر والشام من أسباب المشاحنة وخشى اذا ان سافر الى ايطاليا قام عليه بطليموس صاحب مصر وظفر به فأخذ من هذا الحين فى التقرب من صاحب مصر وصالحه مصالحة نافعة تقوى روابط المحبة وتؤكد دوام الصلح بينهما وكان لانطيكوس بنت تسمى (قلوبطرة) فكان من شروط الصلح أن يزوجها لصاحب مصر ويمهرها سائر أرض الشام حيث كانت هذه الاراضى محل النزاع بين مصر والشام فجعلها انطيكوس من نصيب ابنته قلوبطرة

ولبثت قلوبطره فى بيت أبيها تنتظر استدعاء بطليموس لها حيث هو لم يدخل بها لعدم بلوغه سن الرشد الى ذلك الحين وبينما هى فى بيت أبيها اذ قامت بمصر فتنة أخرى باسباب البغضاء الواقعة ما بين ارسطومنيوس الوصى على بطليموس ملكها واسقوباس كبير الجند وتمكن اسقوباس من مقاتلة ارسطومنيوس بالاسكندرية وقد انضم اليه جميع العساكر والاجناد الرومية الذين كانوا فى خدمة مصر واشتدت الفتنة وقامت على ساقها وتكاثرت أحزاب اسقوباس وخرجوا عن طاعة بطليموس الملك ووصيه وقام المصريون مع الملك وزاد بهم الغضب على اسقوباس وأحزابه وأبناء جنسه وقبضوا عليه وساقوه الى موقف التحقيق فثبتت خياناته فحكم بقتله مع أحزابه وحرمان جميع أبناء جلدته من الخدمة العسكرية وفاز ارسطومنيوس وظفر بعدوه ومن كان معه من الاحزاب فاولم واحتفل احتفالا عظيما وألبس بطليموس الملك التاج فى محفل عام وسلمه صولجان الملك وهو يومئذ فى الثالثة عشرة من عمره وذلك سنة ست وتسعين ومائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثمانى عشرة وثمانمائة قبل الهجرة هذا ومع أن الفتنة كانت قد سكنت وأمست نارها رمادا وانكشفت عن جلوس بطليموس على سرير مملكته فانه شاع خبر موته وانتشر واتصل بانطيكوس أبى زوجته قلوبطرة فتاقت نفس انطيكوس الى أخذ قبرس والتخلص من رابطة العهد الذى كان بينه وبين بطليموس وكانت قبرس اذ ذاك تابعة لمصر فسير اليها سفنا حربية فعصفت بها الريح وألقتها على سواحل الاناضول ووردت اليه الاخبار بان بطليموس لم يزل على قيد الحياة فانثنى عن عزمه وصمم على عدم حل عقدة التحالف وكان قد مضى على عقد زواج

بطليموس

بطليموس بقـلوبطرة ست سنوات فسار انطيكوس أبوها الى مدينة رافيابين غـزة والعريش ومعه ابنته قلوبطرة وكان بطليموس الملك نازلا بها فالتق الفريقان وبنى بطليموس بزوجتـه واستلم تملم الشام مهرالها

ولمـا استقر ببطليموس المنصب وتخلص من نير الوصاية ساء تدبيره وكثر ظلمه للرعية وتجبر فكان وصيه ينصحه ويحذره عاقبة أفعاله فكان لايلتفت لقوله ولا يسمع لنصحه ويحقد عليه فى تهديده وتخويفه ثم عمد الى قتـله فدس له السم فمات فلما ظفر بقتـل وز يره المـذكور واستبد برأيه ارتكب من المآثم والسيآت مالم تستطع أن تتحمله الاهالى فقاموا على قدم وساق وأثاروا الفتنة حتى كادت تم جميع المدن ونادوا بخلع بيعة بطليموس من أعناقهم فأنتدب بطليموس لقتال أصحاب الفتنـة الجنود اليونانيـة الذين كانوا فى خدمـة الحكومـة فسار بهم قائدهم بولقراطس وضيق على الثائرين حتى استسلموا وكان بطليموس ممتنعا بمدينة صاالحجر فسار رؤساء الاحزاب اليه يطلبون الامان فقبض عليهم جميعا وقتلهم شرقتلة ومثل بهم وذلك سنة خمس وثمانين ومائة قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وثمانمائة قبل الهجرة ولما سكنت الفتنة واستتب له الامر عاد الى عسفه وظلمه للرعية وأخذيجهز جيشا كبيرا لقتال سيلقوس الرابع بن انطيكوس فاخترمته المنية قبل أن يتم هذه الغزوة وذلك فى سنة احدى وثمانين ومائة قبـل الميلاد أى سنة ثلاث وثمانمائة قبل الهجرة سمه بعض الاعيان فمات والسبب فى ذلك أنه لما أكثر من تجنيد الجنود الاجنبية لغزو سيلقوس وبالغ فى الاكثار منهم سئل يوما من أين ندفع جوامك هؤلاء العساكر ونفقات هذا الجيش فقال ما سبب هذا السؤال أما تعلمون أن أموال أحبابنا هى أموالنا فـدخلت من ذلك الحين الوساوس والاراجيف فى قلوب أحبابه ودسوا له السم فى السم فقضى عليه فكانت مدة حكمه أربعا وعشرين سنة وخلفه بطليموس السادس الملقب بمحب أمه على سبيل التهكم

(فى الملك بطليموس السادس)

﴿ الملقب ﴾

(بمحب أمه)

ثم قام بالامر بعـده بطليموس السادس أكبر بنى بطليموس الماجد بويع له بالملك سنة احدى وثمانين ومائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثلاث وثمانمائة قبل الهجرة ولقب فيلوماطور ومعنـاه محب أمـه تهكما وسخرية لانه كان يبغضها بغضا شـديدا تولى الملك قاصرا وكانت مـدة قصوره أقـل اضطرابا من مـدة قصور أبيـه لان أمه قلوبطرة كانت قد أصلحت حال

المملكة ورتبت أمورها ووطدت أركانها بعناية وحزم ولما مات أبوه واتصل الخبر بذلك الى سيليقوس الرابع صاحب الشام تاقت نفسه الى الاستيلاء على ولايات مصر الى سواحل الشام ولم يراع حرمة أخته قلوبطرة ولا طفولية ولدها بطليموس فجهز العساكر وجند الجنود وعزم على الزحف أولا على وادى دمشق ثم على السواحل فبينما هو على أهبة القيام للقتال اذاخترمته المنون وحالت بينه وبين ما كان ينويه وقام بالامر بعده انطيوكوس فلم يلبث ان سار على خطة سيليقوس فجيش الجيوش وجند الاجناد وعزم على تتميم هذه الغزوة فلما أحست قلوبطرة بما نواه انطيوكوس راسلت جمهورية الرومان وطلبت منها حماية مملكة مصر وأن تكون تحت عنايتها وان يكون ولدها بطليموس تحت كفالتها فبعثت الجمهورية المذكورة أميرا اسمه اميلوس لابيدوس وجعلته كفيلا على بطليموس الملك وهو من طائفة الكهنة

ولم تعش قلوبطرة بعدحضور اميليوس الا قليلا وماتت فقام عندذلك أهالى الاسكندرية على اميليوس المذكور وخلعوه وولوا الكفالة اثنين من المصريين هما أوليوس الطوانى ولونيوس أحد أعيان الدولة وكان قد استولى ملك الشام فى هذا الحين على سواحل دمشق التابعة لمصرفراسله الوصيان وطلبامنه رد ما أخذه من البلاد بالتى هى أحسن فاحتج عليهما وطلب كفالة ابن عمته بماله من الاولوية من الاجانب فحدث ان اشتغل الوصيان المذكوران بأمور أخرى عن فض الخلاف الواقع بين مصر والشام فاستفحل أمره بينهما واشتد بينهم الاخذ والرد وقامت الحرب على ساقها ولما كان الرومانيون اذ ذاك مشغولين بالحرب مع برشاوش ملك مقدونية تعذر عليهم اعانة ملك مصر على صاحب الشام فتغلب صاحب الشام على ولاية دمشق ويهوذا وسواحل الشام الى حدود مصر واستولى على قبرس بخيانة القائم بحراستها فتقوى وتشددت عزائمه ورغب فى الاغارة على مصر فقام ملك مصر بعساكره ونزل عند الفرما وقاتل صاحب الشام قتالا شديدا فانهزم عسكر مصر فى هذه الواقعة شر هزيمة ودخل انطيوخوس صاحب الشام الى مصر مؤيدا منصورا وأحسن معاملة بطليموس ملكها وقيل انه اعتذر اليه عما كان من قتاله اياه فلما رأى أهل ديوان الاسكندرية وجندها ماحل بملكهم وقومه من أسر انطيوخوس صاحب الشام اياه قاموا وبايعوا أخاه ولقبوه باو برجيطه الثانى ومعناه الرحيم وتأهبوا للقتال وأكثروا من جمع السلاح ومعدات الحرب وكان او برجيطه هذا صبيا قاصرا فأحس انطيوخوس بذلك وسار بجيشه الى الاسكندرية لقتال من بها من الاحزاب فتجهزوا للدفاع وشمروا عن ساعد الجد وبعث او برجيطه الملك وأخته قلوبطرة سفراء الى الرومانيين يستنجدونهم فوصل صاحب الشام الى الاسكندرية وحاصرها وضيق عليها وأطال مدة حصارها فكان من يهود الشام ان أشاعوا موته تحت اسوار الاسكندرية فقامت بسبب هذه الاشاعة الفتنة فى داخل البلاد واشتدت وعظمت ووصل خبرها الى انطوخيوس وهو تحت أسوار الاسكندرية فعزم على العود وترك الحصار فقام عند ذلك بطليموس السادس الذى كان فى أسر انطوخيوس وسار الى مدينة منف رجاء أن اختلافه مع أخيه

بطليموس

بطليموس اورجيطه يكون داعيا لاستيلائه على تخت السلطنة ثانية وكان انطونيوس قد تخلى عن المحافظة على مدينة الفرما ولم ينجح فى اثارة الفتنة بين الاخوين وقد تمدها وسار الى بيت المقدس فاستولى عليه وسلب ونهب وأراق الدماء وفى أثناء محاربته مع يهود الشام والانتقام منهم بجزاء ما أشاعوه من خبر موته تحت أسوار الاسكندرية اصطلح بطليموس السادس محب أمه مع أخيه اورجيطه بوساطة أختهما قلوبطرة وعقدا الخناصر على دفع العدو عن بلادهما ما استطاعا اذا عاد الى شن الغارة عليها وطلبا من الرومانيين ان يبعثوا اليهما يومئذ مختارا لاصلاح ذات البين بين مصر والشام ثم بعثا بقواد الجنود المصرية لقتال سفن انطونيوس على سواحل قبرص الى أن يأتى الوفد الرومانى

وفى فصل الربيع من سنة ثلاث وسبعين ومائة قبل الميلاد أى سنة خمس وتسعين وسبعمائة قبل الهجرة أتت جيوش صاحب الشام الى حدود مصر وهجمت على البلاد واستولت على جميع ما كان فى طريقهم منها لحد مدينة منف ونصبوا معسكرهم على مقربة من الاسكندرية وكان قد حضر فى هذه الاثناء سفير من قبل الرومانيين اسمه بوبليوس ليناس فأوقف عسكر صاحب الشام عند الاسكندرية وعمل على اخراجهم من جميع أرض مصر فخرجوا منها على أحسن وجه ولكن لم تحصل مع ذلك البلاد على ما كانت تتوق اليه من الراحة بعد خروجهم اذ وقع بين بطليموس وأخيه اورجيطه من الوحشة والخصومة ما ترتب عليه غاية الفشل وتولدت عنه الحروب الداخلية التى لم يصل أصحاب التاريخ الى معرفة تفاصيلها غاية ما قالوه عنها انها كانت سببا فى ذهاب اورجيطه الى رومة مستغيثا بجمهوريتها فأرسلت معه سفارة وطلبت السفارة المذكورة من بطليموس ان يتنازل لاخيه اورجيطه عن مملكة القيروان وبرقة فلم يقنع اورجيطه بذلك وطلب من مجلس رومة ان ينضم اليه أيضا قسما آخر من الايالات التابعة لمملكة مصر فقبل منه ذلك وأضاف اليه جزيرة قبرص أيضا فأبى بطليموس ان يعطى جزيرة قبرص فأغضب امتناعه الرومانيين اذ كانت لهم فى ذلك الحين الكلمة النافذة فى جميع الدول المشرقية وكان لا يتأتى لأحد من ملوك زمانهم ان يعارض لهم فى كلمة أو يزيف لهم رأيا فرسم مجلس رومة لسائر الممالك اليونانية وممالك آسية التى كانت يومئذ معاهدة لرومة ان يمدوا اورجيطه بجميع الامدادات التى يحتاجها وان ينصروه على أخيه بطليموس ما استطاعوا فاستعان اورجيطه بهم وجهز عسكرا لقتال أخيه وهاجمه بجيش ضخم وقاتله قتالا عنيفا انكشف عن هزيمة اورجيطه ووقوعه فى يد أخيه بطليموس فعامله بطليموس خير معاملة وصفح عنه الصفح الجميل واشترط عليه ان لا يتطلع لمملكة قيروان وبرقة وبعض المدائن من جزيرة قبرص وأحكم بينه عرا المحبة والاتحاد بوعده له بزواج ابنته كعادة البطالسة فى ذلك الحين اقتداء بملوك فارس فزالت من بينهما الشحناء واستتبت الراحة فى داخلية البلاد وبقيت آمنة مطمئنة حينا من الدهر

وكان فى جزيرة قبرس من قبل ملك مصر عامل اسمه ارخياس فراسله صاحب الشام ومناه بالامانى الطويلة إذا سلم اليه قبرس فأحس بطليموس بذلك وهاج المصريون وماجوا وكادت نار الحرب تضطرم بين مصر والشام وانكشفت خيانة ارخياس المذكور وخاب سعيه وانضم أمره فقتل نفسه وداخل صاحب مصر الحقد على ديمتريوس صاحب الشام بسبب إغوائه ارخياس وعقد النية على الانتقام منه وكان لبطليموس الملك صهر اسمه اسكندر فدبر له ان يدعى انه ابن انطونيوس صاحب الشام فادعى ذلك وطلب الجلوس على تخت مملكة أبيه فأجلسه على تخت سلطنتها وخلع ديمتريوس سوطير ملكها وسيره الى حرب ديمتريوس وأمده بالعساكر والجنود وقواه بعدات القتال وآلات الحرب وما زال حتى ظفر بالملك وقبض على زمام الاحكام فلما استتب له الامر طلب من بطليموس ملك مصر ان يزوجه قلوبطره ابنته فزوجها له وجهزها وسار بها الى الشام وعمل لها هناك الافراح والولائم العظيمة ولم يمض على الاسكندر المذكور فى منصبه سوى ست سنوات حتى نهض ديمتريوس سوطير يطالب بتاج أبيه وانحاز الى بطليموس صاحب مصر واستعانه فأعانه وجيش له جيشا عظيما وسيره اليه من البر والبحر وسار هو معه فساعدته الأقدار وانتصر على صاحب الشام انتصارا عظيما وأخذ الشام من فلسطين الى عكا وكان كلما ظفر بمدينة أو بلدة رتب فيها المحافظين من الاجناد المصرية وأحكم المحافظة عليها فارتاب من فعله هذا امنيوس وزير صاحب الشام وعقد النية على ان يقتله غيلة حرصا على ملك صاحبه اسكندر فأحس بطليموس بذلك واستشعر بما نواه عدوه فرغب الى اسكندر فى معاقبة وزيره امنيوس فلم يقبل فاتخذ بطليموس اباءه ذريعة للحرب وركب على الاسكندر وقاتله وتغلب على مدن سواحل الشام الى انطاكية وفرق بينه وبين ابنته قلوبطره وساعد ديمتريوس بن سوطير على استرجاع مملكة أبيه وأعادها اليه ثم زوجه ابنته قلوبطره فاتحدت بهذه المصاهرة مصر والشام وصارتا قوة واحدة

وقدم بطليموس صاحب مصر على انطاكية فاستقبله أهلها وألبسوه تاجين أحدهما تاج مصر والثانى تاج الشام فأبى ان يلبس تاج الديار الشامية بل آثر به ديمتريوس صاحبها وكان يومئذ شابا فألبسه اياه فكان مافعله بطليموس مع ديمتريوس مافعله قبله انطيوكوس فى مدينة منف مع ملك مصر سواء بسواء حيث كان صاحب الشام أعطى مملكة مصر لاوريجيطه وهذا من الاتفاقات الغريبة

اما اسكندر فانه سار بمن بقى معه من قومه الى بلاد اليونان وكأنه قد تقوى قليلا فعاد لقتال أعدائه فانهزم اسكندر ثانيا وهرب عند شيخ حى من أحياء العرب والتجأ اليه فخانه ذلك الشيخ وقتله وذلك سنة ست ومائة قبل الميلاد أى سنة ثمان وستين وسبعمائة قبل الهجرة وبعث برأسه الى بطليموس صاحب مصر فلم يصل اليه الا وكان قد مات هو أيضا حيث سقط من ظهر جواده عقب انتصاره فاندق عنقه فكانت مدة ملكه خمسا وثلاثين سنة قضاها بين حروب وغزوات وفى أيامه هرب أونياس الاسرائيلى

الى

الى مدينة الاسكندرية وتقدم الى بطليموس فى بناء هيكل لليهود على آثار معبد فى مدينة تل بسطه لاشهار شعائر اليهود فى مصر على مثال هيكل بيت المقدس فأذن له بذلك

ولما مات بطليموس المذكور خلفه ابنه بطليموس السابع الملقب بأوباطور ومعناه الماجد الاب

(فى الملك بطليموس السابع)

﴿ الملقب ﴾

(بأوباطور)

ثم قام بالامر بعده ابنه بطليموس السابع الملقب بأوباطور أى الماجد الاب وبويع بالملك بعد موت أبيه سنة ست وأربعين ومائة قبل الميلاد أى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة قبل الهجرة وكانت أيام حكمه قصيرة جدا حتى انه لم يذكره بعض المؤرخين فى عداد البطالسة الذين ملكوا مصر وانما نص بعضهم على أنه كان من البطالسة ثم ظهر للمتأخرين منهم استكشاف وثيقة معاهدة يونانية مكتوبة من ديوان مصر يعلم منها انه ابن بطليموس محب أمه وانه تملك على مصر ولقب بالماجد الاب وأنه تولى قاصرا وكفلته أمه قلوبطرة وحكمت البلاد بالنيابة عنه مدة يسيرة جدا لاتعد مدة مستقلة بل متصدة داخلة فى مدة أخيه بطليموس الثامن الملقب اوبرجيطه الثانى يعنى الرحيم

(فى الملك بطليموس الثامن)

﴿ الملقب ﴾

(اوبرجيطه الثانى)

ثم قام بالامر بعده أخوه بطليموس الثامن ولقب باوبرجيطه الثانى ومعناها الرحيم وبيان ذلك أن بطليموس هذا كان فى أيام أخيه بطليموس الماجد الاب ملكا على القيروان فبلغه خبر موت أخيه المذكور قبل حصوله وكان شديد الرغبة فى العود الى مصر وارتقاء سرير ملكها فصدق الاشاعة وعقد النية على الرحيل الى مصر والقبض على زمام ملكها

جهز لذلك جندا كثيرا وهمّ بالمسير فوردت اليه الاخبار بصحة موت أخيه وقد مات حقيقة في أثناء هذه المدّة عن زوجته قلوبطرة التي هي أخته وعن ولدها القاصر منه المسمى بطليموس الماجد الاب فبادرت قلوبطرة بالمبايعة لابنها المذكور ونادت بجلوسه على كرسي مملكة أبيه فلما قدم بطليموس الثامن الى مصر ووجد أخاه قد مات كما وردت اليه الاخبار وان ابن أخيه قد تولى ملك مصر لم يظهر ميلا الى الرئاسة ولم يتطلب الملك بنفسه بل طلب الوصاية على ابن أخيه فأبت قلوبطرة أن تمكنه منها فلم يطق ذلك وهجم بعسكره على مدينة الاسكندرية وفتحها عنوة وتزوج بقلوبطرة التي هي أخته قهرا عنها وذبح في يوم عقده عليها ولدها بطليموس على حجرها بيده وأمر بقتل أحزاب ابن أخيه عن آخرهم ثم تزوج على أخته قلوبطرة المذكورة بنتها من أخيه وبقي مع الزوجين الام وابنتها وأبقى لكلتيهما عنوان ملكة مصر فاوجبت هذه الفعال الشنيعة فضلا عن ظلمه وعسفه وجبروته نفور جميع الرعية منه وبغضهم إياه فخشى عاقبة ذلك واتخذ له جندا أجنبيا لحمايته ورتب لهم الجماكي والمرتبات وولاهم المحافظة على مملكته فاشتدت بذلك كراهية الرعية له ونفورهم منه وكان كثير الانهماك في اللذات والشهوات منعكفا على المعاصي فقبحت في أعين الرعية صورته وكرهوا منظره وكان ضخم البطن قصير القامة لايكاد يقدر على المشي لهذه العلة فلقبه لذلك أهل الاسكندرية بالبطين

وطال حكمه وتعست أيامه وأكثر من الجور والظلم ولم يكن لطول ملكه من سبب سوى أن وزيره هو هيراكس كان حازما محبوبا مهيبا عند الرعية نافذ الكلمة فيهم حسن التدبير والسياسة فكانت مدة وزارته مانعة لعطب المملكة حافظة لها من الاختلال واقية لها من الزوال ومع ذلك فانه لما اشتدت على الرعية وطأة الظلم والاستعباد قاموا في سنة ثلاثين ومائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة قبل الهجرة وأثاروا الفتنة وخرجوا عليه وحرقوا قصره فهرب وسار الى جزيرة قبرس وأخذ معه قلوبطرة الصغيرة وكان الذى أعان على اثارة هذه الفتنة واضطرام نارها قلوبطرة الكبيرة فقد استدل على صحة ذلك أصحاب التاريخ بانه لما عسكر الاهالى تماثيل الملك زوجها ايذانا بعزله وتنزيله عن منصب الملك سلموها زمام الحكومة وولوها أمور المملكة فلم تتأخر وارتقت سرير الملك آمنة وأخذت في تدبير الامور فرحة جزلة

ولما بلغ اوبرجيطه الملك مافعلته قلوبطرة زوجته كاد يتميز من الغيظ وخشى أن تبايع ولدها منه على ملك البلاد فارسل من قبرس من يأخذه منها فبعثت به اليه فلما وصل قام عليه ونجعه ووضع أجزاءه في زنبيل وبعث به الى أمه بالاسكندرية وبينما هى تحتفل وليمة لمولدها اذ جاؤا اليها بجثة ولدها مذبوحا ممزقا فكادت تموت حزنا وتجهزت لحرب اوبرجيطه زوجها وتجهز هو أيضا لقتالها وأكثر كل فريق منهما من الجند ومعدات الحرب وسلم اوبرجيطه قيادة جيشه الى هجلوخس القائد وسلمت قلوبطرة كذلك قيادة جيوشها

الى مرسياس والتقى الجمعان فى ميدان مصر واقتتلا قتالا عنيفا فانهزم جيش قلوبطرة ووقع قائده مرسياس أسيرا فى يد خصمه فبعث به الى اوريجيطه الملك فى جزيرة قبرس فأحسن اوريجيطه معاملته وصفح عنه ليستميل بذلك اليه قلوب المصريين وتحزبت قلوبطرة بعد هزيمة جيوشها فى مدينة الاسكندرية وخلعت تاج الملك على صهرها دمتريوس نيقاطور ملك الشام وسارت هى الى الشام هاربة فجاء دمتريوس الى الاسكندرية سريعا وحاصر الفرما وضيق عليها حتى صارت على وشك التسليم فقامت بالشام فتنة فخاف دمتريوس استفحالها فسلم الاسكندرية صلحا لاوريجيطه فركب اوريجيطه سرير سلفه ثانية وعقد النية على الانتقام من دمتريوس جزاء مافعل فأغرى رجلا اسمه سيداطس على أن يدعى انه ابن انطيوكوس ملك الشام وأن له حق الملك عليها فقام وادعى ذلك ولقب نفسه باسكندر رزابيناس فبايعه خلق كثير ثم قام لقتال دمتريوس فانهزم دمتريوس وهرب الى صور فقتلته زوجته فيها فانتقل اليها ملك الشام وكانت تعلم مابين رزابيناس واوريجيطه من البغض والشحناء فتقربت من اوريجيطه صاحب مصر واستمرت على الحرب مع رزابيناس فانتصرت عليه بعناية اوريجيطه ومعاهدتها له وتزويج بنته طروفانه لابنها انطيوكوس اغروبوس ومن هذا الحين سكنت الفتن والقلاقل واطمأن اوريجيطه الملك واشتغل بزيادة كتب خزانة الاسكندرية على نحو مافعله أسلافه من ملوك البطالسة زيادة كثيرة وكان له مشاركة فى العلوم الحكمية والفنون الادبية اذ كان قد تلقاها عن المعلم ارستارخس الشهير بالمعارف الادبية فانكب عليها وألف بعض الكتب والرسائل المفيدة فى تلك العلوم

وفى أيامه سارت الرحلة العلمية لاستكشاف بحر الهند وكانت هذه أول رحلة ألفت من المصريين وسافرت لاستطلاع أحوال البحر المحيط الهندى تحت رئاسة القائد هودشيش القوزيقى وكان هذا القائد شجاعا قادرا على الاسفار جسورا على اقتحام البحار يحسن الارصاد الفلكية ويتبين مواقع تخطيط الارض فطاف حول افريقية وتم بالارصاد معرفة مافى البحر الهندى من الجزائر والبلدان فى أيام بطليموس اوريجيطه المذكور ثم مات اوريجيطه فى سنة سبع عشرة ومائة قبل الميلاد أى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه تسعا وعشرين سنة وخلفه بطليموس التاسع الملقب بسوطير الثالث

(فى الملك بطليموس التاسع)

(الملقب)

(سوطير الثالث)

ثم قام بالامر بعده الملك بطليموس التاسع الملقب بسوطير بويع بالملك سنة سبع عشرة ومائة قبل الميلاد أى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة قبل الهجرة ولقب بسوطير الثالث ومعناه المخلص ولقب أيضا بوطوفوس بمعنى المحبوب ولاطوروس بمعنى الارقط لانه كان له علامة فى وجهه وهو أكبر ولدى بطليموس البطين من قلوبطرة الصغيرة وكانت أمه تبغضه وتحب أخاه الصغير المسمى اسكندر وتؤثره عليه وكانت متسلطة على قلب زوجها بطليموس البطين فحملته على أن يبعث ولدها الاكبر المذكور الى جزيرة قبرس ليكون حاكما عليها وقصدت بتغريبه وابعاده حرمانه من ولاية العهد وانتقال حق الملك لولدها اسكندر غير أنه قد خاب منها الظن وأخطأها الأمل فانه لما مات بطليموس زوجها قام أهل الدولة ورجالها وألزموها بأن تستدعى ولدها المنفى أبيه فلم تجد بدا من احضاره وألبسته تاج الملك واشترطت طلاق زوجته قلوبطرة أخته وأن يتزوج احدى أخواته المسماة سيلانه لطاعتها لامها وعدم عقوقها فطلق قلوبطرة وتركها فى جزيرة قبرس فلم يهدأ لها حال وصارت تتداخل فى أمور دولة الشام ومصالحها فقتلت بأمر أختها طرفانة صاحبة الشام وتخلص بطليموس منها وتزوج باخته سيلانة وصار فى جميع أموره خاضعا لامه ولم يخالفها فى شئ ولكنها كانت مع ذلك حاقدة عليه مضمرة له العداوة مريدة له التلف فلما ماتت بنتها قلوبطرة صاحبة قبرس ولت بدلها ابنها الصغير اسكندر ملكا لترشحه للجلوس على مملكة مصر وكانت دائما على نية خلع ولدها بطليموس وتنزيله ولا تنكف عن العمل على ذلك وبقى بطليموس المذكور وأمه زمنا طويلا على إدمان العداوة والاصرار على الدسائس الخفية وكل منهما يكل أمره الى حزب من أهل الشام بعضد أغراضه ثم كان من أم الملك المذكورة ان اتهمت ابنها بطليموس بأنه هم بقتلها بالسم وحزبت عليه جميع أهل الاسكندرية ليفتكوا به ففر بطليموس الى قبرس فاستقدمت ابنها اسكندر الى مصر وبايعته فبايعه المصريون كافة وجعلوه ملكا على مصر كاسيذكر فى محله ولم تقف قلوبطرة عند هذا الحد مع ولدها بطليموس بل جيشت لقتاله جيشا كبيرا وسيرت به ليفر به من جزيرة قبرس ويجليه عنها فخرج بطليموس الى سواحل الشام ومعه ثلاثون ألف مقاتل وهجم بهم على سواحل الاردن وهزم اليهود الذين كانوا على خلاف مع انطيوكوس القوزيقى ملك الشام واستولى أيضا على عكا وكانت يومئذ تابعة لمصر فلما علمت قلوبطرة

أمه

أمه بخبر هذه الغزوة ونصرات بطليموس المتتابعة جهزت جيشا ثانيا عظيما وسيرته برا وبحرا الى الشام وقاتلته على عكا فأخذتها منه وسار عسكرها لاخذ مدينة قيصر فلم يقدر واستمرت الحرب سجالا الى أن اصطلح الفريقان وانكفا عن القتال وقد طالت أيام هذه الحرب الى حد قامت معه الفتن فى داخل البلاد المصرية وكثرت فيها الدسائس وكاد يعمها الخلل وتنتشر فيها القلاقل والاضطرابات وكثرت الاحزاب فوجهت قلوبطرة عنايتها الى حسمها بالتى هى أحسن فلم تفلح ورأت أن ولدها اسكندر الذى ولته ملك مصر ولقبته ببطليموس قد خرج عن طاعتها أيضا فحقدت عليه وأضمرت له السوء وقصدت قتله والخلاص منه وأخذت تتربص به السوء فأحس بذلك وخاف سوء العاقبة فتدارك الامر وأسرع هو بقتلها واستبد بحكم البلاد بلا منازع

ولما خلا له الجو وبات مطلق اليدين طغى وتجبر وظهر ظلمه وعسفه وقيل انه نبش قبر الاسكندر الاكبر وسلب تابوته المصوغ من الذهب واستبدل له بتابوت من البلور فلم تطل مدته بعد ذلك اذ غضبت عليه الرعية وأبغضه العساكر وشددوا عليه الوطأة ففر هاربا الى خارج مصر فقرر ديوان الاسكندرية حضور أخيه بطليموس سوطير ثانيا فاستقدموه من قبرس فقدم ففرح الناس بمقدمه وقد شوهد فيه من جيد الطباع وحسن الاخلاق ما أحب الناس فيه واستمالهم اليه وكان الاسكندر بعد أن خرج من مصر سار الى بلاد برقة فاستولى عليها وقصد الاستيلاء على مدينة قبرس فلم يقدر ووقعت بينه وبين الجند المرابطين فيها حروب بحرية هائلة مات فيها وانمحى ذكره وذلك سنة تسع وثمانين قبل الميلاد أى سنة احدى عشرة وسبعمائة قبل الهجرة ولما استقر المنصب ببطليموس سوطير المذكور دانت له البلاد الا مدينة طيبة أم الصعيد فانها لم تبايعه ثانية وامتنع أهلها عليه وشقوا عصا الطاعة فسار اليها فى جنده وقاتل أهلها وهزمهم واستولى على المدينة وقتل وسبى ونهب وسفك الدماء حتى أباد أهلها أو كاد ومحا آثارها وكانت من أعظم مدن مصر وأكثرها عمارة فأصبحت بعد ذلك وكأن لم تغن بالامس

وعادت مصر فى أيام بطليموس سوطير هذا الى شأنها الاول كما كانت وصار لها اليد العليا والكلمة النافذة على ممالك بلاد المشرق اذ أعاد لها شوكتها البحرية بتعمير السفن الحربية والتجارية والاقبال على فن الملاحة فرغبت الدول فى معاهدتها وطلب سطر يداطس ملك قابودوقيا وارمنستان عقد عهود المودة والولاء معها وكذلك الرومانيون فدل هذا كله على ما نالته من الشهرة والرفعة فى ذلك الحين وما وصلت اليه من عزة الجانب

وكان بين ملك قابودوقيا وجمهورية الرومانيين شقاق وخلاف فكان كل منهما يرغب فى معاهدة مصر رجاء الفوز على عدوه ومع الحاحهما بطلب معاهدتها فان بطليموس لم يرض أن يتعاهد مع الفريقين وعقد النية على أن لا يتظاهر بالمداخلة فى حروب الدولتين لانه كان



بخشى اتساع نطاق صولة الرومانيين وقوة دولتهم لاسيما وقد كانت آخذة فى النماء والزيادة شيأ فشيأ فكان الملك يعاون ملك قابودوقيا على عدوه سرا

ومات بطليموس حتف أنفه وترك مملكة مصر فى عز ورفعة عظيمتين جدا وكان موته سنة خمس وثمانين قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وسبعمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه وحده ومع أمه قلوبطره ستا وثلاثين سنة فخلفته ابنته قلوبطره برنيقه على سرير الملك ولكنها لم تحكم الاستة أشهر فتولى الملك بعدها بطليموس العاشر وبطليموس الحادى عشر

(فى الملك بطليموس العاشر وبطليموس الحادى عشر)

وهما اسكندر الثانى وأوليطيس

وتليا الملك بعد برنيقة التى لم تحكم الا ستة أشهر لاغير سنة خمس وثمانين قبل الميلاد أى سنة سبع وسبعمائة قبل الهجرة وكان يعبر عن الاول منهما باسكندر الثانى وعن الثانى بعنوان أوليطيس ومعناه الزامر وتحرير خبر توليتهما أنه لما مات بطليموس التاسع كان الرئيس على جمهورية الرومانيين أميرا اسمه (سولا) وكان لاسكندر الاول البطليموسى ابن يسمى اسكندر الثانى وكان مقيما فى ديوان متريداطس نزيلا فلما جاء الامير (سولا) المذكور الى قابودوقيا قائدا لعسكر الرومانيين الذين أتوا لقتال ملكها متريداطس وتنزيله عن سرير الملك مال اسكندر المذكور الى الامير (سولا) وانضم اليه عسى أن يكون له عونا يوما ما على ارتقاء كرسى مملكة مصر فسار الى (سولا) فأكرم (سولا) نزله وأخذه معه الى رومة بعد انقضاء حرب قابودوقيا فلما شاع الخبر بموت سوطير الثانى أخى الاسكندر المذكور وهو بطليموس التاسع ملك مصر أرسل (سولا) رئيس جمهورية الرومانيين اسكندر المذكور لتولى ملك مصر بدل أخيه فلما وصل اسكندر خشى الفتنة فعمد الى حسم أسبابها ومنع كل خلاف بينه وبين الملكة قلوبطرة برنيقة فتزوج بها وشاركها فى الملك ولم يلبث معها الا ستة أشهر حتى قام عليها وقتلها واستبد بالملك ولقب نفسه ببطليموس العاشر

ولما رأى كبار العساكر المصرية أن بطليموس المذكور معول على دولة اليونان ومعتمد عليها وقد كان المصريون يعتبرونها أجنبية عنهم ولاحق لها فى التداخل فى مصالح بلادهم عقدوا النية على قتله والتخلص منه ودبروا الامر وأحسنوا تدبيره فقتلوه ذبحا فى ملعب بمدينة الاسكندرية بعد تسعة عشر يوما من استقلاله بالملك

ولم يكن انذاك للبطالسة اللاغوسية أولاد ذكور من نكاح صحيح وانما كان لسوطير الثانى ولد من السفاح اسمه بطليموس أوليطيس يعنى الزامر لولوعه بسماع المزمار فولاه

المصريون

المصريون ملكا عليهم ولقبوه ببطليموس الحادى عشر وتولى الملك وهو موسوم بأمرين يعدان من أقبح الصفات (كما قال بعض الكتاب) وأكبرهما عند المصريين أولهما كونه من السفاح وثانيهما ارتقاؤه المنصب الملوكى رغما عن رغبة الجمهورية الرومانية مع الذى كانت الجمهورية انتخبته وانتظم فى عقد معاهديها وكان يتوقع من الجمهورية المذكورة أن لا تعترف بملوكية بطليموس المذكور فلم تلبث أن أعلنت بعدم اعتبارها لولايته وأن سرير ملك مصر لم يزل خاليا من الذات الملوكية التى تستحق التولية المعتبرة وأن المنصب الملوكى قد خلا عن وارث له من السلسلة الملوكية فوجب لذلك أن يكون تحت كفالة جمهورية رومة بمقتضى وصية اسكندر الثانى ملكها قالت وسواء كانت هذه الوصية صحيحة أو دعائية فهى على كلتا الحالتين واجبة التنفيذ طوعا أو كرها

وكان فى هذا الحين بأرض الشام من ذرية بطالسة مصر بعض بنات قد خلفن ذكورا واناثا من ملوك الشام فكن يطالبن أيضا بحقوقهن فى المنصب ويرغبن فى تقديم أولادهن على بطليموس الزامر فأكثرن من الشكوى مما فعله المصريون وكان ممن يطالب أيضا بمثل هذا أخت بطليموس سوطير المسماة سيلانة التى كانت زوجة بطليموس القوزيقى صاحب الشام وكان قد بقى لها من تعلقات ديار مصر بعض مدن على سواحل الشام كمدينة عكا وكان لها ولدان من ملك الشام المذكور أحدهما يسمى انطيوكوس والثانى يسمى سيليقوس فبعثت الى ايطاليا ابنيها لتطلب من جمهورية رومة أن تسعى فى ارتقائهما المنصب الملوكى بدعوى أن المملكة المصرية قد انتقلت اليهما بطريق الميراث من جهة أمهما فأحس بطليموس الزامر بذلك وبعث الى رومية من قبله سرا عدة سفراء ليعارضوا فى مطالب الملكة سيلانة ويمنعوا انطيوكوس وسيليقوس من دعوى ذلك لانهما من أمراء الشام لا من أمراء مصر وليستميلوا بالرشا والبراطيل بعض أمراء الجمهورية الرومانية ليكونوا له عونا على تنفيذ أغراضه فترتب على ذلك أن وقعت المذاكرات والمداولات فى مجلس رومة وتكررت بشأن ما يجب فعله فى مملكة مصر وفيما اذا كان يصح أن ترسل الجمهورية اليها جنودا رومانية ليقيموا فيها اقامة مؤقتة لمنع الاختلال وحفظ قوام المملكة وتثبيت أقدام بطليموس الزامر وكان الحامل على هذه المذاكرات وتوالى الاجتماعات هو ما كان سفراء بطليموس المذكور يدفعونه من الرشوة والهدايا النفيسة فلم تحل هذه العقدة لهذا السبب ولسبب آخر وهو اشتغال الدولة الرومانية بالحرب التى كانت قائمة بينها وبين متريداطس ملك قبادوقيا فكانت هذه الحرب عائقة عن التفاتها لامور المملكة المصرية وتنجيز أغراضها فيها وما زال الحال بين أخذ ورد والسفراء تغدو وتروح بين رومة ومصر حتى تمت هزيمة ملك قبادوقيا وفرغ الرومانيون من قتاله فصرفوا الهمة لمصلحة مصر ووجهوا نحوها سهام أغراضهم وطلب اقراسوس وبولوس قيصر رئيسا رومة يومئذ من مجلس الجمهورية أن يبعثهما من قبله الى بلاد مصر لاجراء ما تقتضيه مصلحتها فلم يقبل المجلس ذلك وفى سنة أربع وستين قبل الميلاد أى سنة ٣٨٦

قبل الهجرة طلب المستشار (دولوس) من المجلس المذكور أن تضاف مملكة مصر للملكة الرومانية وتكون إيالة ملحقة بايالة رومة وكان فى المجلس وقتئذ (فيقرون) الخطيب الذى يقال له أيضا (شيشرون) وهو خطيب مصقع مشهور بالفصاحة وحسن الخطابة فقام وخطب وأكثر من البراهين القاطعة على عدم موافقة اضافتها لما فى ذلك من مخالفة أحوال الملل والدول واحتج على وجوب استقلاليتها وأن تكون قائمة بنفسها مستبدة بأحكامها كما يقتضيه موقعها الجغرافى فحكم المجلس بناء على ذلك بتخليص مصر من ربطة التبعية لرومة وقضى بابقاء استقلالها بنفسها على حاله وعدم التعرض لها بشئ البتة

وبينما كانت الجمهورية المذكورة تتوعد مصر بادخالها فى عداد إيالاتها وتهددها بتبعيتها لها كان من بطليموس ملك مصر أن صرف وجهه عن موالاة الجمهورية المذكورة ومصادقتها فى الباطن ولبث يراقب الحوادث فلما قامت الحرب بين متريداطس وبينها كما تقدم القول عمد بطليموس الى ملازمة الحيادة وعدم التعرض للفريقين ولم يمد المساعدة للرومانيين بشئ ما البتة ولم يساعد دمتريداطس أيضا مساعدة ظاهرة ولكنه كان يكاتبه سرا ويطلعه على بعض الامور فلما عاد جيش الرومانيين من هذه الحرب وكان الرئيس على الرومانيين يومئذ الامير بومبيوس وكان قد نزل بالشام فبلغه فى طريقه موت متريداطس عدو الرومانيين فعرج على حدود الديار المصرية فعلم بطليموس ملكها بوصوله وتخوف منه فأرسل اليه هدايا فاخرة وواساه كل المواساة ورغب اليه أن يعينه على رعيته وكانوا قد قاموا عليه فى هذا الحين وأضرموا نار الفتنة فى جوف البلاد فلم يقبل بومبيوس دخوله مصر وامتنع من اعانة بطليموس فألح عليه وطلب منه العون والمحاماة فعاد لاجابة طلبه وأسكن تلك الفتنة فلما سار بومبيوس لحصار بيت المقدس أعانه بطليموس ملك مصر بالمال وأمده بذخائر الحرب فلما عاد بومبيوس الى رومة وكان قيصر ملكها لم يزل فى منصبه الملوكى وكان بينه وبين بومبيوس محبة أوصاه على بطليموس ملك مصر واستماله الى جانبه فجعله القيصر تحت حمايته وطلب من مجلس رومة أن يقره على ملوكية مصر بعد أن كان قد قضى قبل ذلك بنزع الملك من يده وذلك سنة تسع وخمسين قبل الميلاد أى سنة احدى وثمانين وستمائة قبل الهجرة

وأنفقت السلالة اللاغوسية الاموال الكثيرة فى الحصول على حماية رومة حيث قرر بعض أرباب المجلس الرومانى بعد ذلك بمدة يسيرة اجابة لاغراض بعض أعضاء مجلس الامة نزع ملكية جزيرة قبرص من يد ملكها الذى هو أخو بطليموس الزامر واضافتها الى أملاك رومة فأجيب الى ذلك وابتلعت رومة جزيرة قبرص مضغة لينة فأغضب ذلك ديوان الاسكندرية وأهلها لانهم كانوا الى ذلك الحين شديدى الحرص على المحافظة على ناموس وطنهم وصيانة أملاكهم أكثر من عدل ملوكهم بذلك فطلب أهل الاسكندرية من بطليموس الزامر أن يبذل الجهد فى نقض معاهدة الرومانيين وأن يهب الى نزع قبرص بالقهر والغلبة ويعيد أخاه ملكا عليها كما كان وقد كان بطليموس فى هذا الحين لايقوى على هذا الفعل ولا تؤمل منه القدرة على

حماية

حماية البلاد فلم يوافقهم على ذلك فقاموا عليه وأثاروا الفتنة فهرب من مصر خفية الى رومة يطلب الاعانة والمدد

وكان الرومانيون قد أقاموا الامير (فاطون) حاكما على جزيرة قبرس وسار حتى وصل الى جزيرة رودس فلحق به بطليموس الملك بعد خروجه من مصر ليزوره فلم يحتفل به ولم يكرم وفادته ولامه على ترك مملكته وخروجه منها وأشار عليه أن يركب معه فى سفنه ليوصله الى مصر ويتوسط له فى الصلح مع الرعية وأكد عليه فى ذلك فأبى بطليموس الرجوع وقال ان مثيد السؤال على مساعدة رومة لأهون علىّ من عودى الى مصر وطلب الصلح مع الرعية

واتفق أنه فى خلال هذه المدة انقطعت أخبار بطليموس الزامر عن مسامع أهل مصر ولم يقفوا له على أثر فظنوا موته وكان له بنتان كبيرتان وهما (قلوبطره طروفانه) و(برنيقة) فاتفق أهل البلاد على توليتهما الملك وبعثوا سفراء الى الشام يطلبون من انطيوكوس صاحبها الذى هو خال (قلوبطره) و(برنيقه) المذكورتين أن يحضر الى مصر ويشارك برنيقة وأختها فى أحوال المملكة وكان أنطيوكوس فى هذا الحين قد خلع من ملك الشام وكان الذى خلعه بومبيوس رئيس رومة بعد طرد الرومانيين ملك الارمن فلما ذهب السفراء لطلبه لم يجدوه على قيد الحياة وفاته المنصب الملوكى كافات أهل الاسكندرية غرضهم من التعاون به فعرض السفراء هذا المنصب على فيلبس أحد أقاربه للياقته للتملك على البلاد ورد الاجانب عنها فمنعه غابنيوس كبير العسكر الرومانى عن المسير الى الاسكندرية وحال بينه وبين هذه الامنية فتكلم السفراء مع الامير سيليقوس أخى انطيوكوس صاحب الشام فقبل المنصب وسار الى مصر فوجد قلوبطره طروفانه احدى الملكتين قد ماتت بعد أن حكمت مع أختها برنيقه سنة كاملة وبرنيقه منفردة بحكم البلاد فتزوجها واشترك معها فى المنصب ولكنه لم يعش معها الا قليلا حتى قتلته خنقا وتزوجت بعده ارخيلاوس كاهن هيكل البستان ببلاد الارمن وبقيت معه ويقال ان ارخيلاوس هذا هو ابن متريداطس الاكبر ملك الارمن

أما بطليموس الزامر فكان قد انتقل من جزيرة رودس ووصل الى رومة وتداخل مع أرباب الحل والعقد ورجال الجمهورية ودبر جميع ماقدر عليه من الدسائس والحيل وتوسل الى الرومانيين ليرجعوه الى منصبه ملكا على مصر فأرسلوا معه الامير انطونيوس الشهير الذى تقلد بعد هذا الحين قونصلية رومة وكان وقت بعثته فى هذه السفارة قد تقلد امارة قبادوقيا وبلاد الارمن فتعهد للرومانيين بادخال بطليموس الى مصر ورد تاج الملك اليه رغم أنف كل مكابر

واتفق أن حصل فى ذلك الوقت خلاف وشقاق بين أعضاء جمعية رومة أدى الى المشاجرة والمهاترة فتولد من ذلك قيام الفتنة فى داخل البلاد واستفحال أمرها فغضب بومبيوس رئيسها وخرج من مدينة رومة فعاقت هذه الاحن تجهيز سفر بطليموس الزامر الى مصر وقد كان بومبيوس مظاهرا لبطليموس ومناصرا لاغراضه فبقى بطليموس فى رومة لايحرك ساكنا



أما أهل الاسكندرية فانه لما اتصل بهم ان بطليموس على قيد الحياة وانه يسعى سعيه فى رومة أرسلوا اليها سفراء لاحباط مساعيه والعمل على نقيض مراده وأجازوالهم أن يعقدوا معاينه ويترافعوا معه بالنيابة عن أهل البلاد فى مجلس فاحتال بطليموس الزامر على قتل أكثرهم واستمال رئيسهم المسمى ﴿ ديون ﴾ وباعد بينه وبين مأموريته بالرشا والبراطيل فلم يفعل منها شئ وأبطأت رغائب بطليموس من رجوعه الى منصب الملك الى سنة خمس وخمسين قبل الميلاد أى سنة سبع وسبعين وستمائة قبل الهجرة حتى تولى بومبيوس الحكم على جميع الرومانيين وتلقب بلقب قونصل عليهم فلما استقر به المنصب كتب الى غابنوس قائد العسكر الرومانى المأمور بغزو بلاد الفرس أن يسير ببطليموس الى ديار مصر ويعيد اليه تاج الملك وسير اليه بطليموس المذكور بالشام فلما وصل وجد غابنوس على عزم عبور الفرات ليعيد متريداطس الثالث على احدى ممالك فارس وقد كان طرده أخوه منها فخشى بطليموس العاقبة وتقرب الى غابنوس بالرشا والبراطيل ووعده بالاموال فلما طن فى أذنيه صوت الدرهم والدينار مال الى قضاء مصلحة بطليموس وترك مأمورية متريداطس فصارت نسيا منسيا ومع كون قانون الرومانيين لا يجيز للولاة الخروج عن إيالاتهم بل يجيز لهم أن يرسلوا من يقوم مقامهم فى مثل هذه المهمات فان غابنوس قام مع بطليموس الزامر الى مصر وترك لولده تدبير البلاد فى غيبته وأخذ من اليهود المدد فأمدوه بأصناف الامدادات وسلم قيادة جيشه الى مرقوس انطنيوس محب بطليموس ﴿ الذى سيأتى بيان اشتراكه مع قلوبطره ملكة مصر فى التسلط على المملكة فى محله ﴾ فوصل مرقوس المذكور أمام مدينة الفرما وقاتلها وتغلب عليها وقيل انه أخذها بدون قتال بخيانة من بها من اليهود فتقدم ارخيلاوس زوج الملكة مسرعا الى ساحة القتال وكان شجاعا فى الحروب مستبدا فى الشدائد والخطوب وهجم على جند غابنوس على مقربة من الفرما فانهزم عسكره ودخلت عساكر الرومانيين أرض مصر من البر ودخلت سفنهم قهرا من البحر وعبرت فى النيل وسارت وهى صاعدة بلا ممانع ومع كراهة أهل الاسكندرية لبطليموس الزامر فى الظاهر والباطن وعدم توقعهم منه الا السوء فانهم بمجرد ما رأوه وقد وفد عليهم وصار بين ظهرانيهم ورأوا من ارخيلاوس زوج الملكة تصميما على دفع جيوش الرومانيين وممانعتهم على قدر الاستطاعة وانه على عزم أن يجهز مدينة الاسكندرية للمحاصرة والدفاع خشوا العاقبة وكرهوا المدافعة لظنهم أنها لا تأتى بالاثر المطلوب وكثر تحدثهم فى هذا الامر لاسيما لما رأوا ارخيلاوس المذكور يرسم خطوط الاستحكام ويخطط أخاديد هندسية ويحفر الخنادق المانعة فأحس ارخيلاوس منهم بذلك ولوى عنان جهده عن هذه الخطة وركن الى المهاجمة رجاء الظفر والتأييد ولكنه خاب فى عزيمته وانهزم وقتل فى هزيمته فلما علم انطونيوس قائد العسكر الرومانى بقتل ارخيلاوس رثى لحاله وتأسف عليه وشيع جنازته بأعظم أبهة واحتفال لانه كان أضافه قبل ذلك بمصر فأكرم ضيافته واحتفل به غاية الاحتفال فلم ينس له هذا الجميل

وبموت ارخيلاوس استقر الحال لبطليموس الزامر وجلس على سرير الملك ثانيا وقبض

على

على زمام الحكم بعناية الرومانيين ثم لم يلبث أن سلك فى الانتقام أشنع المسالك وقتل بنته برنيقة وكثيرا من الاغنياء والاعيان وضبط أموالهم وسلمها للرومانيين العاملين معه فعاد غابنوس وقائد عسكره انطنيوس الى أوطانهما منقلين بالذخائر والتحف والاموال الكثيرة وقد ترك غابنوس لبطليموس من يحرسه من ابطال الغالبين الذين هم قدماء الفرنسيس ولم يفعل بطليموس المذكور شيأ لخير البلاد ولا لفائدتها فى مدة حكمه الاولى والثانية ومات فى عنفوان شبابه سنة ثمان وأربعين قبل الميلاد أى نحو سنة سبعين وستمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه مع مدة من حكم قبله وبعد حكمه الاول نحو تسع وثلاثين سنة

وكان قد أرسل قبل موته الى مدينة رومة سفراء ومعهم وصية لمجلس الرومانيين ليحفظها بومبيوس تحت يده تتضمن وصايته بمملكة مصر لاكبر أولاده وبكر بناته بشرط عقد الزواج بينهما عند بلوغهما سن الزواج وأن يشتركا معا فى الملك شيوعا وأن يكون الوصى عليهما الامة الرومانية وأن تعاملهما بمنطوق المعاهدة المبرمة بين الجمهورية والدولة المصرية فقام بومبيوس بتنفيذ هذه الوصية وعمل بحكم مافيها على الوجه الآتى

(فى الملك بطليموس الثانى عشر)

(اللقب)

(بدنيس يعنى الزمار)

ثم قام بالامر بعده ابنه بطليموس الثانى عشر الملقب بدنيس ومعناه الزمار كما أوصى أبوه وذلك سنة ثمان وأربعين قبل الميلاد أى سنة سبعين وستمائة قبل الهجرة ولم يكن عمره يومئذ الا ثلاث عشرة سنة فكان قاصرا وكان عمر قلوبطره الشهيرة الموصى لها بالملك بالمشاركة مع أخيها سبع عشرة سنة فكانت متأهلة للسياسة وتدبير الامور منحصر فيها دون أخيها لعدم أهليته ورشده فأقيم عليه ثلاثة أوصياء من أعيان المملكة المصرية وهم (بوطين الطواشى) و (طيودوطس) وزير الداخلية و (اخيلاس) رئيس الجند وكان هؤلاء الثلاثة أعداء لقلوبطره يكرهونها ولا يرغبون فى اشتراكها مع أخيها فى الملك ولما صدق مجلس رومة على تنفيذ وصية بطليموس الزامر واستقر الملك ببطليموس الثانى عشر وأخته قلوبطره انتظما فى سلك الملوك المعاهدين للرومان وكانت رياسة الدولة الرومانية فى هذا الحين فى يد أميرين وهما (يولس) قيصر و (بومبيوس) وكانت قد ظهرت بينهما العداوة ووقع الفشل والاختلال فانقسم لذلك الرومانيون الى حزبين متخاصمين وانفرد كل من الرئيسين بحزبه فكان من وراء ذلك اشتداد الخصام ووقوع القتال بين الفريقين واراقة الدماء جدا فعزم بومبيوس عند ذلك على أن يهاجر من رومة الى بلاد اليونان وكانت يومئذ معدودة من الايالات الرومانية وتهيأ للارتحال

فارسل أكبر أولاده مع قائد من حزبه اسمه (قورنليوس سيبوس) الى مصر ليجمع منها عسكرا يستعين بهم على خصمه قيصر فأمدته قلوبطره بالزاد والراحلة وأعانته بستين سفينة حربية وبالابطال الغالبين الذين كان انتقاهم غابنيوس لحراسة الملوك البطالسة عند ماأرجع بطليموس الزامر الى منصبه وكان عددهم خمسمائة مقاتل فسار ابن بومبيوس الى أبيه بهذا المدد ولم يكن على غرض الاوصياء فحقدوا لذلك على قلوبطره هذا الصنيع وحرضوا أهل الاسكندرية على الخروج عليها فثارت فتنة عظيمة واتسع نطاقها وكادت تعم البلاد فخافت قلوبطره على نفسها وفرت الى الشام مع أختها الصغيرة المسماة ارسنويه

أما يولس قيصر فانه قاتل بومبيوس وثابر على قتاله حتى هزمه عند مدينة فرسة بولاية ترسالة ففر بومبيوس هاربا الى مصر وكان بطليموس الثانى عشر قد بلغ أشده فعزم على السفر من الاسكندرية ليقفو أثر أخته قلوبطره ويقاتلها فرأى سفن بومبيوس مقبلة وعلم أنه جاء مستنجدا لما له عليه من الايادى البيضاء فلم يحسن بطليموس نزله ولم تستفزه النخوة لأن يأخذ بيد بومبيوس ولاتحرك خاطره لاستصراخه بل قبض عليه وقتله ولم يراع حقوق الذمة

وكان قيصر متتبعا أثر خصمه بومبيوس فى كثير من سفن الحرب فحضر الى الاسكندرية يبحث عنه ليقبض عليه وكان بطليموس اذ ذاك بقرب الفرما يريد المسير الى الشام فرجع على الفور الى الاسكندرية فلما أرسى قيصر بسفنه نزل اليه طيودوس وزير بطليموس ووضع بين يديه رأس بومبيوس فلما رآها قيصر فاضت عيناه بالدموع ورق لحاله وظهرت عليه علامات الحزن والاسف وجهزه بكمال الابهة والاحتفال وغضب مما فعله بطليموس وعزم على الانتقام منه جزاء مافعل ببومبيوس وسيأتى بيان محبته له ثم اطلاقه بشروط ثم اغراقه مع جنده فى النيل فكان مافعله قيصر فى حق بومبيوس بعد موته نظير مافعله الاسكندر الاكبر فى حق دارا ملك فارس خصمه بعد موته بقتل أتباعه له حيث أسف عليه جدا وقتل قاتله

ولما لم يكن لقيصر رغبة سوى الحصول على غريمه بومبيوس وقد قتل سار عن مصر الى مدينة افريقية حيث كان قد اجتمع فيها من بقى من أحزاب بومبيوس ليشتت شملهم فعاقه عن المسير اختلاف الرياح فاضطر الى الاقامة بالاسكندرية زمنا ليس بقصير وقال بعض أهل التاريخ بل لتعلقه بحب قلوبطره التى كان قد أحضرها معه من الشام وأعادها الى منصب الملوكية مع أخيها وقد أخذت بمجامع قلبه لفرط جمالها فأقعده حبها عن الرحيل وكان أهل الاسكندرية مولعين بحب الاستقلال يبالغون فى محبة حريتهم ويكرهون جدا تحرش الرومانيين لامور بلادهم فلما حضر قيصر المذكور الى ديار مصر وأصلح بين قلوبطره وبطليموس أخيها المذكور أغضب ذلك المصريين فشكى (بوطين) الطواشى الوجوه والاعيان من ذلك وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى وقال ان فعل قيصر هذا يعد هتكا لناموس البلاد وشرفها ورسم للأمير

ارخيلاس قائد الجيوش المصرية بان يزحف على مدينة الاسكندرية بجنده ويقاتل بطليموس الملك فقام ارخيلاس بجيشه وهجم على بطليموس وهو فى قصره فهرب بطليموس ولحق بعسكر قيصر وكان قيصر فى هذا الحين قد صرف جنده فرحلوا عن الاسكندرية ولم يبق منهم الا ثلاثة آلاف فلما دخل عليه بطليموس ورأى من كثرة عدد جند ارخيلاس ارتبك فى أمره وخاف على المدينة وما فيها من الارواح والاموال فنشط الى تسكين الفتنة وقرأ على أهل الاسكندرية وصية آخر ملوكهم ووعظهم الموعظة الحسنة ليدفعهم بالتى هى أحسن ورغب اليهم فى أن يعطوا ذرية بطليموس الزامر جزيرة قبرس وهم أرسونية وبطليموس القاصر ليشتركا فى مملكتها وألزمهم بذلك بصفة كونه رئيس الرومانيين والقائم بتنفيذ وصية ملك مصر وأكثر من مسايرة الرعية وتسكين الخواطر حتى انقطعت الفتنة وزالت أسبابها ولكنها لم تلبث أن عادت واضطرمت نارها بتحريض جماعة الوزراء حرصا على منصب وصايتهم وكرها فى انتقاله الى الرومانيين وزادوا نار الفتنة اضراما واتحد (بوطين) الطواشى الوزير مع ارخيلاس قائد الجيوش على اهلاك قيصر ومن معه من الرومان فزحف ارخيلاس بجيشه وكان عدده اثنين وعشرين ألفا الى الاسكندرية ونصب معسكره أمامها وأعلم قيصر بان اطفاء نار الفتنة لايكون الا بتسليم قلوبطره للشعب لينتقم منها كما يشاء فلم يرض قيصر بذلك واختار الاقامة تحت الحصار والتضييق واحتمل مالا يحتمل ولم يرض بتسليمها الشعب يستبيحون دمها فهجم أهل الاسكندرية ليأخذوا سفن حربه فلم يمكنهم من ذلك وأضرم فيها النار فأكلتها وتطاير اللهيب منها الى القصر الملوكى فأحرق دار كتب البطالسة الموصلة الى هذا القصر وقد كانوا جمعوا فيها من نفيس الكتب من جميع الدنيا شيأ كثيرا مع ما تجدد عندهم من التآليف المفيدة * فلذا ولم يقم على صحة هاته الرواية دليل ولا برهان قال بعض الكتاب ومن هنا يتضح أن نسبة إحراقها الى عمرو بن العاص بامر عمر ابن الخطاب محض اختلاق والله سبحانه أعلم بالحقائق

وبينما كانت جند قيصر مع قلة عددهم على شفا الهزيمة اذ جاءهم الفرج بغتة بقدوم فريق من الجنود الرومانية وذخائر مع أشياء كثيرة فتلقاها قيصر بنفسه فرحا مسرورا وركب وقاتل قتالا عنيفا جدا حتى تمت له النصرة وهزم أهل الاسكندرية شر هزيمة حتى التجؤا الى طلب الصلح وأرسلوا الى قيصر رسلا مفوضين فى ذلك فقابلهم وطلبوا منه اطلاق بطليموس الثانى عشر وكان قد اعتقله على شروط معلومة فاتفقوا ثم أطلقه وهو عالم بغدره وخيانته فلما خلص بطليموس من الاسر تأهب لقتال قيصر وأعد لذلك جيشا عظيما فساعد الحظ قيصر اذ قدم عليه دمترا بداطس صاحب (برغام) ومعه جميع الجنود الرومانية الذين كانوا فى هذا الحين فى الاناطول والشام وفلسطين فقويت عزيمة قيصر واشتد أزره وكان قد سار عن معه من الجنود قاصدا الديار الشامية فلحقه بطليموس الثانى عشر فى طريقه وهجم عليه بعسكره المصرى فغلبت على بطليموس عساكر اليهود على ساحل النيل

واحتدم القتال بين الفريقين فانهزمت جنود مصر شر هزيمة وفر بطليموس مع فريق من قومه فأدركهم فرسان قيصر على الساحل فغرقوا جميعا فى النيل وهلك بطليموس فى جملة من غرق وقذفهم اليم بالساحل فعرفت جثته بما وجد عليها من الدروع المصوغة من ذهب وذلك سنة سبع وأربعين قبل الميلاد أى سنة تسع وستين وستمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه خمس سنوات وخلفه أخوه بطليموس الثالث عشر

(فى الملك بطليموس الثالث عشر)

ثم قام بالامر بعده أخوه بطليموس الثالث عشر سنة سبع وأربعين قبل الميلاد أى سنة تسع وستين وستمائة قبل الهجرة بامر قيصر وذلك لانه بعد ان فاجأت جنوده قوم بطليموس الثانى عشر على ساحل النيل واغرقتهم رجع قيصر الى الاسكندرية وتغلب عليها بمن معه من الرومانيين وسار الى مصر فاخذها وصارت البلاد فى قبضة يده ولو شاء يومئذ لضمها لاملاك رومة وجعلها مملكة واحدة قال أصحاب التاريخ ولكنه راعى الذمم وحافظ على العهود وقام بتنفيذ وصية بطليموس الزامر وآثر تنفيذها على اطماعه فولى بطليموس الثالث عشر المذكور وكان قاصرا فاشرك معه أخته قلوبطره فى حكم البلاد وأبقى لحرس قلوبطره وصيانة مملكتها فريقا من الجند الغالبين الذين هم قدماء الفرنسيس واستصحب معه الى رومة أختها ارسنوية اذ لو تركت بمصر لقامت بتركها الفتنة فدخلت المحروسة أسيرة كأنها من غنائم قيصر التى غنمها من مصر وسارت فى الموكب الذى انعقد لقيصر عند دخوله مدينة رومة لخلا الجو لقلوبطره وتصرفت فى ملك مصر التصرف المطلق وكان زوجها الذى هو أخوها ليس له فى الملك الا الاسم فقط

وبعد جلوس بطليموس الثالث عشر المذكور على سرير الملك بسنة واحدة سارت قلوبطره وزوجها لزيارة رومة فتلقاهما الرومانيون بالبشر والايناس وأكرموا وفادتهما ولبثا فيها ماشآ ثم رجعا الى مصر فمات بطليموس بعد رجوعه بسنتين فكانت مدة حكمه ثلاث سنين وقال جماعة ان أخته قلوبطره هى التى دست له السم فى الدسم وبقيت قلوبطره بعد موته ملكة على مصر بحماية قيصر حينا من الدهر وفى خلال ذلك قويت شوكة قيصر وعظم بأسه وظهر منه قصد التعدى على حقوق الجمهورية الرومانية وبدت منه بعض الامور الدالة على ذلك وكان حزب الجمهورية شديد البأس مسموع الكلمة وبينهم شجاع اسمه (برطوس) دعى مجهول الاب الا أنه كان من الشهرة بمكان ميالا للجمهورية محبا لمباديها وكانت أحزاب الجمهورية لما رأت مارأته من قيصر المذكور اضمرت التخلص منه وعزمت على قتله فتقدموا الى

(برطوس)

﴿ برطوس ﴾ فى ذلك وقالوا له لوكنت بطلا كما تزعم الناس لما بقينا فى العبودية على هذه الحالة فتمكن الاغراء من قلبه وقال للاحزاب لاتقنطوا ثم لم يكن باسرع من ان جرد خنجره وأقبل على قيصر وهو فى المحفل العام فطعنه طعنة قاتلة فرفع قيصر عينه اليه وصاح ﴿ قد طعنت أباك ياهذا ﴾ قيل وقد كان ﴿ برطوس ﴾ هذا ابن قيصر المشار اليه من السفاح والى وقت قتله لقيصر كان لايعلم انه ابوه فندم ندما شديدا

وبموت قيصر أصبحت مملكة مصر فاقدة النصير وكانت قلوبطره تخشى من هجوم قسيوس الرومانى صاحب الشام فخاطرت بنفسها والتجأت الى المجلس الرومانى وتوصلت بعد موت أخيها بطليموس الى تمليك أصغر أولادها الذى زعمت أنها ولدته من قيصر ولقبته بطليموس قيصرون يعنى القيصر الصغير (قلت) ويلقبه بعض المؤرخين ببطليموس الرابع عشر وكان انطنيوس أحد الشركاء فى دولة الرومانيين قد رأى قلوبطره فعشقها ووقع فى شرك غرامها بعد موت قيصر فجعلها تحت حمايته ودافع عنها ثم تزوج بها وارتبط تحته بتضها وذلك انه لما أدخلها تحت حمايته أراد غزو مملكة من ممالك العجم فعزم على المسير اليها ولكنه ارتاب فى رئاسة قلوبطره المذكورة واشتبه فى أمرها وخشى أن لاتكون صادقة فى محبتها وربما أعانت أخصامه عليه فأراد أن يتحقق أمرها ويعلم خفى سرها فشدد عليها فى الامتحان وطلب منها شيأ كثيرا من المال فبذلته ولم تقصر فعزم عليها أن تسير من مصر بعد وصوله الى مدينة طرسوس وتلحق به هنالك وكانت هى لاتعلم منزلتها عنده ومالها فى قلبه من شدة المحبة وانها متسلطة على فؤاده فسلكت مسلك الدلال والخفر ولم تبادر كطلبه الى السفر ثم لم تلبث ان حملها الهوى على المسير فسارت حتى وصلت الى ايالة سلفكه فركبت نهر قراصو الذى هو نهر طرسوس وسارت فى سفينة مذهبة الاطراف والا كناف ارجوانية القلاع والستائر وكانت مياه البحر تضطرب بالنسمات على نغمات العيدان والمزامير وروائح البخور يعبق شذاها فى سائر الارجاء فتكتسب الروائح المسكية ويفوح منها الى سائر النواحى روائح الطيب الفتكية حتى امتلأت شواطئ النهر من رياها قال بعض الكتاب فلما لمح أهل طرسوس ان قد هل عليهم كوكب الزهرة المصرية هرعوا جميعا الى هذا النهر لمشاهدتها وحيوها بأعظم تحية ولم يتخلف عن الحضور سوى انطنيوكوس اذبقى فى مجلسه مظهرا التجلد وعزة النفس واستدعاها لتحضر امامه فلم ترض الا بحضوره اليها واقباله عليها فأجاب الى مطلوبها ولبى دعوتها كرغوبها فلما قدم عليها ونظر حسنها وبهاءها تعجب من ذلك وأخذ حبها بمجامع قلبه فأدخلها فى مجلسه الملوكى وهيأ لها الولائم وزين لها المجلس بأفخر زينة وأصبح طوع يدها وأسير هواها وقضت معه أياما ثم جاءت به معها الى الاسكندرية وانعقد بينهما عقد القران بالوجه الرسمى فبقى معها وقد ذهل بجمالها عن كمالها حتى انه غادر الوظيفة وأقام مع هذه الاليفة وما فصله عن مواصلة هذه اللذات ولا أخرجه من التمتع بجمال هذه الذات الا تهديده من مجلس رومة بتجريده من منصب الحكومة وخوفه من

انفراد اقطاوس قرينه بالرئاسة فخرج من مصر مكرهها وسار الى ايطاليا ثم سار منها الى بلاد الشام ليجهز فيها معـدات الحرب لغزو الاعجام فقابلته قلوبطره فى تلك الاقطار لتقضى مافى النفس من الاوطار وطلبت منه أن يضيف الى المملكة المصرية جميع مـدن السواحل الشرقية الواقعـة على بحر سفيد وأن تضاف اليها أيضا جزيرة قبرس وجزء من اناطولى وبلاد يهوذا الموصوفـة بالبلسم فى تلك الازمان وطلبت أيضا أن يعطى لها بـلاد العرب والحجاز الى بحر الهند كى تكون هذه البلاد مضافة لدولة الاسكندرية لان أهلها أرباب صناعة وتجارة قاصدة بذلك أن تعود المعاملات بينها وبين مدينـة الاسكندرية كما كانت فى الازمان القديمة وتعوض مافات اذ كانت فى هذا الحين قد تضعضـعت معاملة الاسكندرية وتلاشت تجارتها أو كادت من عهـد تدمير مدينـة صور وخرابها التى هى شقيقة الاسكندرية على انه من يوم انقراض دولة العجم لم يبق لمدينتى صور والاسكندرية الامجرد الاسم وتجهز انطنيوس لقتال العجـم وسار بجيشـه ولكنـه عرج على مصر ليقوم بما طلبته منه قـلوبطره وأطال المكث معها وهو لايستطيع الخلاص من أسر جمـالها بل نسى مقام وظيفتـه وأخـذ فى أسـباب إضعاف الجمهورية الرومانية فأعطى عنوان الملك لولديه من قلوبطرة المذكورة وقسم الممالك التى عزم على غزوها بينهما دون سواهما وبرد رومـة من جميع هذه الممالك ولم يراع حقوق بلاده وأعماه العشق والغرام فخـالف عوائدها وجعـل ابنـه اسكندر ملكا على ارمينيـة وأذربيجان وفارس وقلد ابنـه الثانى بطلميوس ملك سواحـل الشام ودمشـق وأناطولى ثم أحضرهما امام جمهور الاهالى بالمظهر الملوكى المعتاد فى مثـل هذه الولائم فألبس الاكبر التاج والحـلة الملوكيـة فى زى ملوك الارمن واذربيجان وألبس الثانى التاج والحلة المـلوكية فى زى ملوك الطوائف الذين خلفوا الاسكندر على الممالك اليونانية فصارت قلوبطرة منذ ذلك العهد لاتخرج من قصرها الا بالملابس الملوكية

وكان فى عصمة انطنيوس زوجـة أخرى رفيعة الحسب وهى (أوقطاوية) أخت أقطاوس شريك انطنيوس فى رئاسة الجمهورية الرومانية وكان اقطاوس المذكور يحقد على انطنيوس فعـله ويقبح معاملته لزوجتـه أوقطاوية وبهاه حتى اشـتدت الخصومة بينـهما بسـبب ذلك ففـارق انطنيوس زوجتـه أوقطاوية وقاطعها وبقى مـع قـلوبطرة فشكاه أوقطاوس لمجلس الجمهورية واتهمـه بأنه خرق شمل الدولة الرومانيـة وانه أدخـل قيصرون ولده فى وراثة قيصر مع انه ابن سـفاح فحكم المجلس بنـاء على ذلك بعـزل انطنيوس من منصبه وحكم باشهار الحرب على قلوبطرة صاحبة مصر فلما سمع أوقطاوس ماحكم به المجلس قال متهكما لايصح لنا أن نقاتـل انطنيوس لان الحرة المصرية قـد أسكرته فذهبت بعقله فلا يكون حربنا الذن الا مع قوم قلوبطرة وأمراء جندها يريد بهذا القول ان انطنيوس المذكـور كان دائمـا مخمورا لايكاد يفيق

وتلعب

وتأهب بعد هذا الحكم كل من الفريقين للقتال فخرجت قلوبطرة بنفسها للحرب واصحبت معها انطنيوس الى ساحة القتال فى مدينة (اكسيوم) التى هى مدينة (ازيو) بساحل الروم ايلى وأمدت قلوبطرة انطنيوس وقومه بمائتى سفينة حربية فبالغ فى الاستعداد وعمل على احياء همة الجنود وتنشيطهم رجاء الانتصار وجعلت قلوبطرة مدار الحرب على جنودها البحرية لتظفر بخصمها فانتشبت الحرب بينهم وكانت سجالا فلم ينتصر أحدهم على الآخر وبينما هم على هذه الحال اذا ندفعت ستون سفينة من سفن قلوبطرة بقوة المجاذيف وانفصلت عن بقية الاسطول وسارت تمخر صوب جزيرة المورة وفيها الملكة قلوبطرة هاربة من القتال ٭ قال بعض الكتاب ٭ ولم يعلم ان كان هروبها هذا لفزعها من الحرب والهزيمة أم لاتفاق وقع بينها وبين اقطاوس فغدرت بقرينها حيث وجدته قرين سوء فلما رآها انطنيوس قد أدبرت ولى مدبرا وراءها فاقتفى أوقطاوس أثرهما وتتبعهما فلم تر قلوبطرة بدا من تسليمه مدينة الفرما التى هى مفتاح الديار المصرية قالوا وأرادت بهذه الخيانة التحبب اليه الى أن تتنصل من انطنيوس وكان انطنيوس لنكد حظه وسوء طالعه يعتمد على أمانتها ولم يخطر على باله قط ماقصدته من تسليم مدينة الفرما والعمل على الخلاص منه

ومن غريب الاتفاق انه فى اليوم الذى وصل فيه اقطاوس الى مدينة الفرما ووقف امام أبوابها وصل أيضا انطنيوس الى مدينة الاسكندرية ليطلع قلوبطرة على دفتر أسماء الابطال الذين جاهدوا معه فى حومة القتال وامتازوا بالبسالة والاقدام فلم تر منها الا عينا غامضة وأذنا صماء فبات ليلته تلك وأصبح وقد خانه سائر العربان الذين كانوا يقاتلون معه وأعزوا عليه مع اقطاوس وانفصل عنه الجند المشاة وانضمت سفن الحرب المصرية الى سفن قيصر وهذا كله كان باشارة قلوبطرة ولم يشعر انطنيوس بشئ من ذلك ثم عادت قلوبطرة فاحست بسوء فعلتها وحاك اثمها فى صدرها فخافت من انتقام انطنيوس اذا وقف على حقيقة سرها

ومهما يكن عند امرئ من خليقة ٭ وان خالها تخفى على الناس تعلم

فتوارت مع أموالها وكنوزها فى مدفن حصين كانت قد شيدته لتدفن فيه ثم اشـ عت أنها تريد قتل نفسها وتواتر الخبر بذلك حتى بلغ انطنيوس فعزم هو أيضا على قتل نفـ ـسه لكى لايعيش بعدها فأشار الى مملوك له بان يقتله فسل المملوك سيفه وتظاهر بأنه ير .قتل سيده وطعن نفسه بالسيف ولم تسمح نفسه بقتل مولاه فخجل انطنيوس من ذلـ وطعن نفسه بخنجره فلم يمت فى الحال ثم علم قبل إزهاق روحه أن قلوبطرة لم تزل على قيد الحياة فطلب من خدامه أن ينقلوه الى مقرها ليجتمع بها قبل موته فلم تأذن بفتح البـ ـب له بل ادلته من شباك المعل والزلته فى جهة من المدفن فمات فيه شر ميتة وكان قد لغ اقطاوس أن قلوبطره تريد قتل نفسها فأرسل اليها من جنده من يمنعها من ذلك فعـ ـلوا من ذلك الشباك فوجدوا فى حزامها خنجرا كانها كانت تقربه من بطنها ورأوها

على هيئة من يعمد الى طعن نفسه والامر غير ذلك وانما كانت تقصد أن تفتن أوقطاوس كما فتنت عمه قيصر فخاب ظنها ولم يلتفت الى جمالها ولا مال قلبه اليها فلما آنست منه ذلك صممت على قتل نفسها فامسكت عن الشراب والطعام وواصلت الصيام خوفا من الوقوع فى أسر اقطاوس وذهابها الى رومة أسيرة فقتلت نفسها شر قتلة وكان اقطاوس يكرر عليها القول بعدم قتل نفسها ويتوعدها بقتل أولادها ان هى فعلت فلم ترتدع وقد وجدت ميتة بين بعض النسوة وجميعهن نيام فكانت هى نائمة على فرش من الذهب الابريز وعلى جبينها تاج الملك وكأنها متجملة بجميع زينتها الملوكية فى يوم عيد

واختلف الكتاب وأصحاب التاريخ فى كيفية قتلها لنفسها فقال جماعة انها تعاطت السم الناقع وقال آخرون بل أحضرت ثعبانا عظيما واخفته فى وعاء مملوء من التين مدة طويلة فلما خرج ذلك الثعبان من الوعاء قالت له قدحان وقتك وقد حضرت البلك فافض على فانساب عليها وعجل بوفاتها وشاع هذا الخبر يومئذ وتكلم به الناس كثيرا واعتقد أوقطاوس صحته فلما عاد الى رومة عمل تمثال قلوبطره المذكورة وجعل فى جانبه ثعبانا ينهشها وكان موتها فى سنة ثلاثين قبل الميلاد أى نحو سنة اثنتين وخمسين وستمائة قبل الهجرة

وانتهى بموتها حكم البطالسة فى مصر وصارت من بعدهم إيالة تابعة الى رومة وقتل أوقطاوس أيضا ابنها بطليموس قيصرون بعد موتها وكان قد لقب فى أيامها بلقب ملك الملوك فكانت هى آخر ذرية البطالسة بديار مصر وهى سبب زوال مجدها وسقوط عرشها بمعاهدتها مع قياصرة رومة وقد سمت فى أيامها مع انطنيوس حتى توجت ابنها قيصرون بتاج ملك الملوك يعنى ملك مصر وبلاد العجم مثل أرمنستان وأذربيجان وغير ذلك من بلاد العجم فلهذا اعتبره المؤرخون فى عداد البطالسة قال بعضهم فاذا صح ذلك كان هو بطليموس الرابع عشر وكان ادخاله فى ميراث بعض الاقاليم الرومانية سببا فى حرب أوقطاوس مع انطنيوس وهلاك انطنيوس وقتل قلوبطره لنفسها وزوال دولة البطالسة وقطع دابرها واستئصال نسلها بقتل قيصرون المذكور واستيلاء الدولة الرومانية على جميع ديار مصر قالوا ومع أن مصر عادت فى أيام هذه الدولة القهقرى النسبية ومالت من درجتها العليا الى درجة ثانوية حيث فقدت ما كان لها من رسوخ القدم وعلو الكلمة على سائر الامم الا أنها مع ذلك كانت كثيرة المآثر غزيرة المفاخر وقد زادها شرفا ومجدا تبصرها فى الامور وحسابها للعواقب وإطلاقها عنان الحرية لجميع صنوف الرعية وجعلهم جميعا متساوين أمام الشريعة والقانون وقد اتحد المصريون واليونان بعناية بطليموس لاغوس رأس ملوك هذه الدولة فى التمدن العام والتسوية فى الاحكام وفى احياء المعارف والعلوم فترجموا التوراة من العبرانية الى اليونانية وفى أيامهم كتب مانيطون الحبر المصرى تاريخه المشهور وجمع الكتب بالاسكندرية وأنشأ بعضهم خزانة للتحف والغرائب أحضرها من سائر الأقطار ووضعها برواق فى الاسكندرية يسمى رواق الحكمة حتى قيل انه لم يسبق تنظيم مثل هذا الرواق

فى

فى سائر الاقطار وزادوا فى العمائر العظيمة والمبانى الجسيمة وأتموا مالم يتمه اسلافهم من العمائر الاهلية والمعابد الكبيرة وأضافوا اليه معابد أخرى جديدة فى بلاد النوبة والنا كة وغيرهما وبجزيرة البربا التى هى جزيرة أنس الوجود ومن بنائهم أيضا مدينة ارمنت و بالغوا فى تحصين مدينة طيبة ولم يهملوها وبنوا فيها أيضا هيكلا يعرف الآن بدار المدينة ومعبدا على بركة (آمو) وشيدوا على الجانب الايمن منها الباب الكبير المنفرد فى شمال الكرنك والباب الآخر المناظرله وبنت الملكة قلو بطره بدندره هيكلا عظيما أهدته لآلهة المصريين باسم ولدها قيصرون المولود لها من يولس قيصر الروم سفاحا وبنت أيضا مدينة ادفو القديمة قال بعض الكتاب ولهم غير ذلك من الآثار العظيمة بمنشأة النيدة التى بناها بطليموس فيلادلفس وكذلك بناحية بهبيت بجوار المحلة الكبرى ويغلب على ظن الباحثين عن الآثار القديمة أن من جملة آثار البطالسة المبانى الجميلة القريبة من مقابر العجول الابيسية التى بناحية سقارة وما يوجد فى هذه المقابر من النواويس والتوابيت العجيبة الصنعة

وقد جعلوا تحت حكمهم مدينة الاسكندرية كما تقدم فصارت بذلك موردا للخاص والعام ووفد عليها من البلاد الاجنبية أرباب العلوم والمعارف والعلماء وجماعات الحكماء والأدباء وأصحاب العقول الكاملة فعمرت بهم وبقيت آثار ذلك العمار الى أيام الرومانيين وكان لعلمائها وحكمائها اليد الطولى فى معاكسة النصرانية بعد ظهور المسيح وانتشار الديانة المسيحية فى مشارق الارض ومغاربها

وكانت هذه الدولة ذات كلمة نافذة لدى الامم الاجنبية ولم تزل كذلك الى عهد الاسكندر بطليموس الزامر ثم انه لم يعقب كفؤا لولاية عهده وأوصى بالمملكة كفالة وتمليكا الى الدولة الرومانية من بعده فأخذت فى الذبول والاضمحلال وكانت مدة حكم الملوك البطالسة المذكورين مائتى سنة وخمسا وسبعين سنة كما قاله جماعة المؤرخين لان ابتداء دولتهم كان فى سنة خمس وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة سبع وعشرين وتسعمائة قبل الهجرة وانتهاؤها سنة ثلاثين قبل الميلاد أى سنة اثنتين وخمسين وستمائة قبل الهجرة

وبانقراض دولة البطالسة على ماتقدم بيانه وهى الدولة الثالثة والثلاثون جاءت الدولة الرومانية المعروفة بالدولة الرابعة والثلاثين



(البـاب الرابع)

(فى الدولة الرومانية وهى الدولة اللاتينيـة وفيه فصول)

(الفصل الاول)

(فى الدولة الرابعة والثلاثين)

قال جماعة الكتاب قد اشتهرت هذه الدولة باسم الدولة اللاطينيـة وعرفت أيضا باسم الدولة الرومانية نسـبة الى مدينة رومة التى هى تختها وقد سميت هذه المدينة بهذا الاسم نسبة الى بانيها (روميلوس) بالاشتراك مع أخيـه (ريموس) وقـد أنشأها فى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وثـلاثة آلاف قبـل الميـلاد أى سنة خمس وسبعين وثلثمائة وأربعـة آلاف قبـل الهجرة وبعنـائها يؤرخ الرومانيون تاريخهم وقـد كانت فى مبـدأ أمرها دولة ملكيـة مطلقـة يتولاها ملك بعـد آخر الى زمن العـائلة المعروفـة بالعائـلة (التريكنية) فـنزعت منها وظهرت الحكومـة الجمهورية وكـان الذى رأسها يلقب بالقنصل ومعناه منفذ الاحكام واستقرت الحكومة الجمهورية على هـذا الوجـه مـدة خمسة قرون كاملة نالت فيها الغاية من العزة والظهور وتغلبت على جميع أمم ايطاليـا وأدخلتهـم تحت الطاعـة وحاربت قرطاجـة وقـد كانت دولة عظيمـة للغاية وطالت بينهما أيام القتال وكانت هائلة جـدا سموها بالحروب (البونيقيـة) ثم انجلت عـن نصرة رومـة على قرطاجه فدمرتها تدميرا واستولت على مملكتها وظهرت كذلك على مملكة مقدونية و بقية أمم الرومان وجميع الامم المعروفـة فى تلك الازمان ماعـدا أمة الجرمان ودولة فارس القديمة وكانت مصر فى هـذا الحين من أعظم الدول قوة وأكبرهم شوكة فمدت دولة الرومان اليها انظارها وتاقت الى التغلب عليها فتـداخلت فى تنصيب ملوكها البطالسـة حـين داخلهم الضعف ولازمهـم الانحطاط بالحروب الداخلية ومازالت حـتى تسلطت عليها وجعلتها ايالة تابعة لها فى عهد أغسطس كما سيأتى وأغسطس هـذا هو مبدأ دولة القياصرة الآتى ذكرهم واحـدا بعـد واحد قال أصحاب التـاريخ * و بظهور قياصرتها المذكورين عظمت دولة الرومانيـين وعلت كلمتها وتملكت على الدنيا بأجمعهـا ثم لم تلبث أن اضطرمت فى داخلها نار الحروب الاهليـة فافسـدت حالها وسلك القياصرة بعد ذلك مسالك الترف والانهماك فى اللذات والشهوات وفـساد الاخـلاق وطغوا وبغوا فكان هـذا موجبا لضـعفها وانحطاطهـا وكان ظهور الدولة القيصرية فيها بعـد الجمهورية فى سـنة ثلاثين قبـل الميلاد أى سـنة اثنتين وخمسـين وستمائة قبـل الهجرة وكان أول ملوكها الملك أغسطس الذى سيأتى الكلام

عليه

عليه ثم انقسمت فى سنة احدى وأربعين ومائتين قبل الهجرة الى قيصريتين احداهما بالمغرب وتختها مدينة رومة والثانية بالمشرق وتختها مدينة القسطنطينية وبقيت قيصرية المغرب الى أن زحفت عليها بعض الامم المتبربرة كأمة ﴿ القوطة ﴾ وغيرها وتغلبت عليها وأزالت بهجتها ولم تزل بها حتى زال ملكها بالكلية وبقيت قيصرية المشرق الى أن فتحها الاسلام فغزا القسطنطينية بنو أمية وضربوا عليها الخراج ولم تزل كذلك حتى ركب عليها السلطان محمد خان الفاتح وأخذها كما سيأتى بيانه فى محله انشاء الله تعالى

وأما الديار المصرية فانها دخلت فى حكم الرومانيين وصارت تابعة لها فى سنة ثلاثين قبل الميلاد أى سنة اثنتين وخمسين وستمائة قبل الهجرة كما تقدم وبقيت كذلك الى سنة أربعين وستمائة للميلاد أى سنة تسع عشرة للهجرة وهى السنة التى افتتحها فيها المسلمون على يد عمرو بن العاص فكانت مدة حكم الرومانيين عليها ستمائة سنة واحدى وسبعين سنة منها أربعمائة واحدى عشرة سنة فى الجاهلية ثم صدر أمر الملك ﴿ طيودوسيس ﴾ بوجوب التمسك بالديانة المسيحية فى جميع الايالات الرومانية وسنذكر هنا مآثر كل قيصر على حدته وبيان ماجرى على مصر فى أيامه مبتدئين بالملك أغسطس الذى هو رأس القياصرة المذكورين

(فى الملك أغسطس قيصر)

ولى الملك أغسطس على كرسى المملكة الرومانية سنة تسع وعشرين قبل الميلاد أى سنة احدى وخمسين وستمائة قبل الهجرة ثم استولى على مصر فكان يقيم عليها نوابا من قبله وكان أغسطس المذكور يلقب بامبراطور الرومانيين ومعناه فى الاصل رئيس الجيوش واشتهر كغيره باسم قيصر ولقب بلقب أغسطس ومعناه الرئيس الاعلى ولما ارتقى منصة الملك واستقر به المنصب وفد عليه رسل ملوك المشرق يرغبون فى موالاته و يضرعون اليه فى السلم فأسعفهم ودانت له الارض باسرها وضرب الخراج على أهل الآفاق وكان عامله على اليهود فى الشام يقال له ﴿ هيرودوس ﴾ ولما تغلب على مصر وقتل والدى قلوبطرة بعد قتلها لنفسها كما تقدم بيان ذلك ولى عليها نائبا من قبله اسمه قورنليوس غالوس فكان أول نائب على مصر من نواب الرومانيين ولما استقر منصب النيابة قورنليوس المذكور قام باصلاح ماأفسدته الفتن والحروب الأخيرة وبذل الجهد فى توطيد اركان الراحة بين الرعية وأصلح أراضى الزراعة بالعمليات كتطهير الترع والخلجان واقامة القناطر والجسور ومع ذلك فلم يرض عنه الكثير من أهل البلاد ولم يلبثوا أن قاموا عليه وشقوا عصا طاعته وكان من المدن التى أضرم أهلها نار الفتنة مدينة طيبة بصعيد مصر فركب غالوس المذكور

على أهالى تلك البلاد وارجعها الى الطاعة وضيق على مدينة طيبة ونهبها واستوعب مافيها من الاموال وضبطها لدولة رومة وأخذ لنفسه كثيرا من الامتعة النفيسة كاذكر ذلك بعض المؤرخين وكان هذا الانتصار سببا فى طغيانه وتجبره وفساد أخلاقه فنظم نفسه فى سلك الملوك الفراعنة وقلدهم فى جميع أفعالهم الجوهرية فأمر أن تنحت تماثيل على صورته وتوضع فى الميادين العمومية بمصر وان ترسم وقائع حروبه على المبانى والهيا كل كما كانت تفعل الفراعنة ولكن لم تطل مدته اذ خلعه القيصر ونفاه لأسباب لم يذكرها أصحاب التاريخ ولعلها الخوف من استبداده بملك البلاد وخروجه عن طاعة القيصر فقتل نفسه فى منفاه وقيل ان سبب ذلك ان أغسطس الملك غضب على أحد علماء الآداب وطرده من مدينة رومة فآواه قورنليس الوالى المذكور بمصر فغضب عليه أغسطس لهذا السبب وأمر بخلعه ونفيه

فتولى بعده بطرنيوس فلم تكد تستقربه النيابة حتى قام عليه أهل الاسكندرية وخرجوا عن طاعته لاسباب لم يذكرها المؤرخون فركب عليهم وقاتلهم الى أن ردهم الى الطاعة صاغرين وفى ولاية بطرنيوس هذا هم أغسطس قيصر المذكور بغزو بلاد العرب والتملك عليها وكلف بطرنيوس نائبه على مصر بهذه الحرب فجمع بطرنيوس جيشا لذلك وسلمه الى اليوس غالوس أحد كبار الجنود الرومانية وسيره الى بلاد العرب وقيل ان أغسطس ذهب لهذه الغزوة بنفسه فانتصرت العساكر المصرية على العرب ثم انهزمت وتلاشت أو كادت لصعوبة مزاج الاقطار الحجازية ودامت الحرب قائمة على ساقها سنة كاملة كابدت فيها الجنود المصرية من التعب وفقد الزاد والراحلة مالا مزيد عليه ثم رجع من بقى منهم الى مصر ولم يفز أغسطس بامنيته من الاستيلاء على تلك الاصقاع ولا على بلاد اليمن التى كانت يومئذ مركزا لواردات الهند الشهيرة

وبينما كانت هذه الحروب قائمة بين المصريين والعرب اغتنم أهل السودان فرصة تغيب الجنود عن اقليم الصعيد وكروا على حدود مصر الجنوبية بجيش جرار تحت قيادة (قنداقة) ملكة جبال بركل باقليم دنقله فاستولى قومها على مدينة أسوان وما حولها من الجزائر المصرية كجزيرة الصنم وغيرها ودخلت بلاد الصعيد الاعلى وأهلكت الحرث والنسل وغنمت الغنائم العظيمة فركب عليها بطرنيوس وقاتلها حتى أخرجها من بلاده الى السودان واقتفى أثرها فغلبها على دار ملكها ولم يعقد معها الصلح الا على شرط أن تدفع خراجا سنويا لدولة الرومان وان تبعث من عندها بسفراء للقيصر أغسطس لتتميم قاعدة الصلح وكان قد بلغ ديوان رومة خبر هذه الوقائع وهجوم الملكة (قنداقة) على الديار المصرية فانفعل اغسطس من ذلك وأخذ منه الغضب مأخذه وسار بنفسه الى مصر لينتقم منها فلما بلغ جزيرة صيصام علم بانتصار بطرنيوس على قنداقة وما عقده معها من الصلح وتفويض تتميمه الى ذات أغسطس وان بطرنيوس حمل (قنداقة) على ان تبعث بسفراء من قبلها الى أغسطس فلبث أغسطس فى جزيرة صيصام ينتظر السفراء فلما وفدوا عليه

ثم

تم شروط الصلح معهم على ماقرره بطرنيوس وعاف (قنداقة) من دفع الجزية الى رومة

وعاد بطرنيوس من غزوة السودان ورايات النصر تخفق على رأسه وعكف على ما كان عليه من حسن الادارة وتدبير أمور البلاد وتحسين الاراضى واتساع الزراعة بما تقتضيه احتياجات البلاد وكان كثير الميل الى تحسين مجارى النيل واصلاح مصاريفه وخلجانه وترعه فبذل الجهد فى ذلك حتى تم له ماأراد فكان اذا بلغ النيل اثنى عشر ذراعا كفى لرى جميع الاراضى وكان قبل ذلك لايفى بهذه الغاية الا اذا بلغ أربعة عشر ذراعا وقبل ستة عشر ذراعا

وبقى بطرنيوس واليا على مصر ثمان سنوات ثم خلفه عليها اليوس غالوس الذى كان قائدا على غزوة العرب فى نيابة بطرنيوس فلما استقرت به النيابة سار الى الصعيد الاعلى واستصحب معه اسطرابونس الجغراف لاستكشاف مواقع البلاد ومعرفة حقائقها وطالت مدة ولايته حتى مات فى خلالها أغسطس الملك قال أهل التاريخ * وكان دخول ديار مصر تحت حكم الرومانيين ضربة قاضية على العلوم والمعارف التى كانت يزاولها فضلاء مصر بدار العلوم فى مدينة الاسكندرية اذ تضعضعت أحوالها وزالت بهجتها وانحطت درجة المكاتب الاهلية فلم تكن هذه المضار دون ماسبق من حريقة مكتبتها فى آخر أيام الملوك البطالسة وذلك لان كبار المعلمين الذين كانوا فى هذه الديار ساروا من الاسكندرية الى رومة ليتقربوا من قياصرتها وينالوا منهم الحظوة فخلت منهم ربوع العلوم والمعارف ومع ذلك فان القياصرة لم يتأخروا عن إنشاء بعض المدارس والمكاتب وعينوا لها من الرؤساء والرجال من له السبق فى مضمار الفضائل غير ان أهل البلاد لم تحتفل بتلك المكاتب ولم تقبل على مافيها من العلوم حيث كان قد ألم بهم الفتور والكسل واستولى على خواطرهم الخمول والملل فتأخرت العلوم وتقهقرت الفنون وانحطت درجات الصنائع وقد ساعد على هذا أيضا ان الرومانيين ليسوا فى درجة اهتمام الفراعنة أوالبطالسة بتقويم العلوم وتعضيد الفنون بل كانت همتهم منصرفة الى الحروب والغزوات وتوسيع دائرة الفتوحات ولم تكن مصر عندها من عهد أن بسطت يدها عليها الا عنابة مخزن للدولة تستخرج منه ماتحتاج اليه من محاصيل الزراعة وجعلت الاسكندرية مركزا للتجارة وتكثير البضاعة فكانت لذلك العلوم والمعارف لاتعد عندها الا من الامور الثانوية وقد اقتدى اغسطس الملك بالاسكندر الاكبر حيث أجاز للمصريين التمسك بديانتهم وأباح لهم التعبد بمقتضى أصولهم ولم يتداخل فى شؤون عقائدهم وعوائدهم فجددوا الهياكل فى جميع أنحاء مصر والنوبة وأصلحوا ماتهدم منها وكتبوا على مبانيهم اسم اغسطس قيصر تخليدا لذكره

وفى نحو السنة العشرين من ملك أغسطس ولد السيد المسيح من مريم العذراء فكان

ميلاده قبل الهجرة المحمدية بستمائة سنة واثنين وعشرين سنة وبعد ولادة يوحنا المعمدان * وهو ابن زكريا * بستة أشهر على المشهور

وجاء صريحا فى الكتب السماوية ما محصله وكان فى أيام هيرودوس ملك اليهودية شيخ اسمه زكريا وله زوجة من بنات هرون واسمها اليصابات وكان كلاهما من التقوى والصلاح بمكان عظيم فبينما هو يوما يؤدى ما عليه من الخدمة فى بيت المقدس أصابته القرعة أن يدخل هيكل الله تعالى ويبخر امام المذبح فدخل وبيده الجام واذا به يرى ملكا من عند الله واقفا على يمين مذبح البخور فاضطرب وأخذ منه الخوف مأخذه فقال له الملك يازكريا لاتخف لقد استجاب الله دعاءك وستلد اليصابات امرأتك ذكرا يدعى يوحنا وتفرح بولادته فرحا لايوصف فقال زكريا سبحان ربى القدير كيف يكون ذلك وأنا شيخ وقد وهن عظمى وانحنى ظهرى وامرأتى كذلك فقال الملك يازكريا انى أنا جبريل الواقف امام العرش وقد أرسلنى الله تعالى لابشرك بهذا وحيث انك لم تصدق بما أمرنى الله بتبليغك اياه فانك تخرس باذن الله ولا تتكلم منذ اليوم الى اليوم الذى تلد فيه امرأتك فخرج زكريا من ساعته وهو لايتكلم

ولما كملت أيام خدمته سار الى بيته فحملت اليصابات زوجته وأخفت أمرها وهى لاتصدق أنها حامل * فلما كان الشهر السادس من حملها أرسل الله سبحانه جبريل عليه السلام الى مدينة من الجليل اسمها الناصرة الى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم تلك العذراء (مريم) فظهر لها جبريل وناداها بقوله سلام عليك يامريم سلام عليك أيتها المنعم عليها الله معك مباركة أنت فى النساء يامريم لاتخافى ولا تخشى فقد وجدت نعمة عند الله وستحبلين وتلدين ابنا يسمى (يسوع) ويكون عظيما ويعطيه الله كرسى داود أبيه ويملك على بيت يعقوب الى الابد ولا يكون لملكه نهاية فقالت مريم انى أمة لربى سبحانه وانى يكون لى ذلك ولم يمسسنى بشر فقال يامريم الروح القدس يحل فيك وقوة العلى تظلك وهاهى اليصابات نسيبتك حبلى أيضا بابن فى شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك العاقر وليس على الله شئ عسير فسجدت مريم لله تعالى شكرا وقالت انى أمة الله والله سبحانه فعال لما يريد

وسارت مريم يوما الى مدينة يهوذا ودخلت بيت زكريا ونادت على اليصابات وسلمت عليها فما وقع صوت سلام مريم فى أذنى اليصابات حتى صاحت وقالت مباركة أنت فى النساء يامريم فانه ماوقع صوت سلامك فى أذنى حتى تحرك الجنين بابتهاج فى أحشائى * وتمت أيام اليصابات فوضعت ولدها وسمته يوحنا كما بشر أباه جبريل عليه السلام ولما رآه أبوه زكريا حمله على ذراعيه وبكى من فرحه فانطلق لسانه وقال تبارك الله الذى خلق فسوى * واتفق فى ذلك الوقت ان صدر أمر أغسطس قيصر الى سائر الولاة والعمال باحصاء جميع من فى ايالاتهم وعمالاتهم من الرجال والنساء والاطفال ورسم بأن يكون احصاء كل فى

بلده ومسقط رأسه وكان عامل أغسطس قيصر على الشام يومئذ كيرينيوس فنادى بذلك فى جميع المدن والبلدان والقرى وشدد فى الطلب ولما كانت مدينة بيت لحم بلد يوسف خطيب مريم سار يوسف من الجليل من مدينة الناصرة الى اليهودية الى مدينة داود التى هى بيت لحم لانه من بيت داود ومن عشيرته ليكتتب مع مريم خطيبته وأقاما ببيت لحم أياما تمت فى خلالها أشهر حمل مريم فجاءها المخاض فى يوم الاربعاء خامس عشرى كانون الاول وتاسع عشرى كيهك سنة تسع عشرة وثلثمائة للاسكندر فأنزوت فى معلف البقر ووضعت ولدها وقطعت له السر بيدها ثم قمطته وأضجعته فى المعلف وجلست بجانبه

وكان على مقربة من بيت لحم جماعة من الرعاة يحرسون غنما فى ليلتهم تلك فلم يشعروا الا وقد لمع لامع من السماء وكثر الضوء واشتد من حولهم حتى كاد يغشى أبصارهم فانزعجوا وستروا وجوههم بأيديهم واذا بصوت يقول لاتخافوا فانى مبشركم الليلة بأن قد ولد لكم فى مدينة داود مخلص هو ﴿ المسيح ﴾ وهذه لكم علامة تجدون طفلا مقمطا مضجعا فى معلف البقر ولم ينته الصوت حتى هبط من كبد السماء جمع من الملائكة وهم يسبحون الله تعالى ويقولون بصوت جهورى المجد لله فى الاعالى وعلى الارض السلام وفى الناس المسرة وجعلوا يكررون ذلك مرات كثيرة ثم ارتفعوا واختفوا عن أبصار الرعاة ولما تراجعت الى الرعاة نفوسهم وزال عنهم ذلك الخوف الذى كان قد اشتد بهم قال بعضهم لبعض ماذا علينا اذا سرنا الى بيت لحم لننظر ذلك الامر الواقع وقاموا من ساعتهم وجاؤا الى بيت لحم ودخلوا على مريم ويوسف وهما فى معلف البقر مع الصبى فرأوه وفرحوا به فرحا عظيما وحدثوا مريم ويوسف بما رأوه وسمعوه فتعجب يوسف من ذلك ونظر الى مريم فلم ترد عليه جوابا لانها كانت تعلم من أمر ولدها مالا يعلمه سواها * وجاء مجوس من المشرق الى أورشليم وطفقوا يسألون أين المولود الجديد ملك اليهود فانا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنقدم الطاعة له وشاع خبرهم فى أورشليم وعلم به هيرودوس فانزعج وجمع كل رؤساء الكهنة والكتبة وسألهم أين ياترى يولد المسيح فقالوا يولد فى بيت لحم اليهودية فسير هيرودوس فى طلب المجوس فأتوا اليه فقال لهم متى كان ظهور ذلك النجم * يعنى نجم ذلك المولود فقصوا عليه ماعرفوه من أمره فقال اذهبوا الى بيت لحم وفتشوا عليه فان وجدتموه فارجعوا الى فخرجوا من عنده وساروا واذا بالنجم يتقدمهم ففرحوا به فرحا عظيما جدا وأتوا الى بيت لحم ورأوا الصبى مع أمه فسجدوا لله تعالى شكرا ثم قدموا الى الصبى هدية من الذهب واللبان والمر وباتوا ليلتهم تلك فرأوا فى منامهم من يقول لاترجعوا الى هيرودوس وسيروا من طريق أخرى ففعلوا

واشتد القلق بهيرودس وأخذته الطيرة فرسم بقتل جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وما يتاخمها من ابن سنتين فما دون ذلك وشدد وهدد فرأى يوسف فى منامه جبريل يقول



له قم وخذ الصبي وأمه واذهب الى أرض مصر لان هيرودوس يريد نفسه فقام يوسف غلسا وأخذ مريم وولدها واركبهما على حمار وانحدر بهما الى مصر ولبثوا بها حتى ظهر جبريل ليوسف فى رؤيا وقال له قم وخذ الصبى وأمه وارجع الى أرض اسرائيل فقد مات هيرودوس

قال بعض أصحاب التاريخ وزلت مريم بولدها الى مدينة بوبسط التى هى بسطة فى اقليم الشرقية فى رابع عشرى بشنس فلم يقبلهم أهلها فنزلوا بظاهرها أياما ثم ساروا منها الى مدينة سمنود وعبروا النيل الى اقليم الغربية وساروا الى مدينة الاشمونين فدخلت به وهى لاتعلم لها مأوى ۰ قالوا وظهرت على يده فى الاشمونين آية وهى ان خمسة جمال زاحمتهم فى مرورهم فصرخ فيهم المسيح فصاروا حجارة ثم انهم ساروا من الاشمونين وأقاموا بقرية تسمى منلبس أياما ثم مضوا الى القوصية فطردهم أهلها فمضوا الى ناحية ميرة غربى القوصية ونزلوا بالمكان الذى يعرف اليوم بدير المحرق وأقاموا به ستة أشهر وأياما فرأى يوسف فى منامه قائلا يقول له قم وخذ الصبى وأمه واخرج من أرض مصر فقد مات هيرودوس فقام ومعه الصبى وأمه من ميرة حتى نزلوا حيث الموضع الذى يعرف الآن بكنيسة أبو سرجه ثم خرجوا منها الى عين شمس فاستراحوا هنالك من مشقة السفر بجانب ماء قالوا وقد غسلت مريم من ذلك الماء ثياب المسيح وكانت قد اتسخت وصبت غسالتها بتلك الاراضى فانبتت بلسانا وكان اذ ذاك لاينبت البلسان الا بارض الاردن فانقطع من هنالك وبقى بهذا المكان وكثر الماء بالبئر التى هنالك حيث سال عليها الماء الذى غسلت منه مريم

وقال بعض الكتاب ان من خواص مصر عمل النيدة وهى عسل القمح ولا يمكن اصطناعها الا بديار مصر وقد ذكر بعض الحكماء ان السيدة مريم عليها أشرف السلام صنعت النيدة للمسيح حين قل لبنها فالهمها الله تعالى عملها وأ كثر اتخاذ النيدة فى منشاة اخميم ولذلك يقال لها أيضا منشاة النيدة ولم يزل عملها باقيا الى الآن ولم يذكر جماعة المؤرخين ان السيدة مريم عليها السلام ذهبت بالمسيح الى تلك الجهة من الصعيد وانما قال بعضهم انها نزلت أيضا باهناس المدينة حتى قالوا أيضا انها ولدت المسيح بها وان فيها النخلة التى ذكرت فى القرآن فى آية وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا وان هذه النخلة تسمى نخلة مريم وانها لم تزل باقية باهناس المدينة الى آخر أيام بنى أمية ۰ قلت ۰ وهذا مالا يعتقد صحته جميع النصارى لمخالفته لما جاء به الانجيل والتوراة والذى جاءت به الكتب المنزلة ان المسيح ولد فى بيت لحم اليهودية وسارت به أمه الى مصر وعمره سنتان اثنتان وانه أقام فى مصر أربع سنين ثم عادت به ومعهما يوسف فنزلت به قرية الناصرة من جبل الجليل واستوطنها ونشأ بها حتى بلغ ثلاثين سنة وقيل اثنتين وثلاثين ثم سار مع يوحنا المعمدان الى نهر الاردن فاعتمد وحلت عليه روح

القدس

القدس فمضى الى البرية وأقام بها أربعين يوما لايتناول طعاما ولا شرابا ثم طاف وأبرأ الأكمه والأبرص والمقعد وأحيا الموتى وغير ذلك من العجائب والآيات البينة مما لاموضع هنا لايراده بالتفصيل

ومات أغسطس فى السنة الرابعة عشرة من ميلاد المسيح الموافقة لسنة ثمان وستمائة قبل الهجرة وعمره ست وسبعون سنة فكانت مدة حكمه مستقلا ثلاثا وأربعين سنة غير مدة رئاسته الجمهورية فتولى بعده الملك طباريوس الاول

(فى الملك طباريوس قيصر الاول)

ثم قام بالامر بعده الملك طباريوس قيصر الاول فى سنة أربع عشرة للميلاد أى سنة ثمان وستمائة قبل الهجرة وهو ثانى امبراطرة الرومانيين ولما استقر به المنصب استعمل على مصر عاملا اسمه أميليوس اولوس فزاد اميليوس المذكور فى خراج البلاد زيادة كثيرة عما كان قرره أغسطس و بعث يستأذن طباريوس قيصر فى ذلك فكتب اليه يقول أما بعد فانى لاأشتهى من الراعى الا تسمين ماريعاه ولا أرضى منه أن يذبحه فتأمل فعدل اميليوس عن ذلك وقد خلف اميليوس المذكور عدة ولاة تعاقبت على مصر فى أيام طباريوس الملك منهم اليوس سيان الذى طغى وتجبر وتعاظم وتكبر وسلك مسالك العسف والجور فى الرعية وكان طباريوس الملك كذلك فانه كان جبارا عنيدا ماكرا مخادعا يظهر خلاف مايبطن فلما أن تولى المنصب الملوكى واستقام له الامر أراد أن يخلع نفسه بدعوى انه لاأفضل له فى السياسة ولا هو يقوى على تدبير أمور المملكة مثل أغسطس قيصر وأظهر غاية العجز مع التواضع والانكسار فالح عليه رجال الدولة وشددوا فلم يقبل الا كرها ثم سألهم أن لايلقبوه بلقب امبراطور تواضعا وانكسارا ثم تم له الامر فقبض على زمام الاحكام وسلك مسالك العنف والكبرياء وأورد الرعية موارد الذل والهلكة واستوزر على مصر اليوس سيان المذكور الذى هو على شاكلته فكان اليوس بطانة سوء فأشار على طباريوس قيصر بقتل جميع عائلة أغسطس سالفه فقتلهم واحدا بعد واحد ولم يبق منهم الا طويل العمر وهؤلاء قليلون جدا وما زال اليوس يحسن له القبيح ويغريه على ارتكاب المعاصى وسفك الدماء حتى أحس طباريوس بان اليوس يريد التغلب على الملك وسلب المنصب منه فقبض عليه وقتله وأمر بالقاء جثته فى الميدان العام ففرح الناس بذلك فرحا لايوصف وانقضوا على جثته فزقوها كل ممزق ومثلوا بها

واشتد عبث طباريوس بأمور الرعية وبغضه لاكابر الدولة وأعيانها فكرهته الرعية وازداد بغضها له وتمنوا هلاكه فاعتكف فى جزيرة قريبة من مدينة رومة وانزوى فيها

متكبا على المعاصى والسيئات منغمسا فى الفسق والفجور مع بطانته ملوثا بالخبائث فاوى اليه أرباب الرذائل وأسافل الناس وجعل هذه الجزيرة ميدان قتل وانتهاك محارم فكان اذا أراد قتل أحد أحضره من رومة الى هذا المكان وقتله وأغرق جثته فى ناحية أعد فيها آلة تكبس على الغرقى فتكسر عظامهم ولا تجعلها تطفو على وجه الماء وكان له بهذه الجزيرة قصور فاذا أراد أن يمشى حولها للنزهة سأل الساعى عن حال الطريق هل هى خالية من الناس أولا فان كانت خالية مشى والا رجع على عقبه وكان مع بطشه وشدة فتكه جبانا عظيم الارتياب كثير الخوف مترددا موسوسا ضعيف الرأى فاسد الذمة وكان كثير التمسك بالعرافة والكهانة كبير الاعتقاد بزجر الطير مشغوفا بمعرفة عاقبة أمره وما بقى من أيام عمره

ولما ظهرت عليه علامات الضعف وأخذت قوته فى الانحطاط كان يظهر التجلد ويخفى الضعف وبينما هو ذات يوم خارج من وليمة كان أعدها اذ نظر اليه طبيبه فرأى من تغيير حاله مادل على دنو حينه فأبلغ أهل الديوان ذلك وقال لهم ان القيصر يموت بعد يومين فأرسلوا على الفور سعاة لكبار الجند ليحضروا على عجل فكان أول قادم منهم الامير فاليقود ابن جرمانيقوس فأخذ بزمام الحكومة واستولى عليها وشرع فى تدبير الامور فلم يشعروا الا وقد رجعت للقيصر حواسه وعادت اليه بعض العافية فخاف الناس وهرب من حضر من الامراء فرارا من بطشه فقام فى الحال كبير من الابطال اسمه الامير مقرون ودخل على القيصر بقلب قوى وأمسكه ولفه فى بروجة وثقل عليه بها حتى خرجت روحه وذلك فى سنة سبع وثلاثين بعد الميلاد أى نحو سنة خمس وثمانين وخمسمائة قبل الهجرة وله من العمر نحو الثمانين فكانت مدة حكمه ثلاثا وعشرين سنة وقد اشتهر هذا القيصر بانه هيكل المظالم وتمثال الجبروت ٭ قال بعض الكتاب ٭ ومع ذلك فقد كانت له مزايا أخرى وهى معرفة أساليب السياسة وتدبير الامور فكانت أيامه كلها صلحا وسلاما مع الاجانب ولم يحصل فى مملكته أدنى اختلال وكان بأسه وجبروته رادعا لتعدى الولاة على الرعية فكانت المساواة والعدالة عامة فى جميع الاقاليم والعمالات وكانت أموال الخزينة موفرة مدبرة فوجد فى بيت المال بعد موته خمسمائة وخمسون ألف ألف من الفرنكات وكان شديد الميل الى العلوم والآداب فألف وصنف وتعلم باليونانية واللاطينية الا أنه قد اغتالت تآليفه يد الضياع بعد وفاته واليه تنسب طبرية التى بأرض الشام فهى مأخوذة من اسمه وفى أيامه كان صلب السيد المسيح وقيامته كما جاء فى الكتب المنزلة وولى بعده ابن عمه قاليغولا قيصر

(فى الملك قاليغولا قيصر)

ثم قام بالامر بعده ابن عمه الملك قاليغولا قيصر ولى الملك سنة تسع وثلاثين للميلاد أى سنة ست وثمانين وخمسمائة قبل الهجرة فاستبشر الرومانيون بولايته فى طالعة أمره بعد الذى قاسوه من طغيان طيبيروس عمه وقاليغولا هذا هو ابن جرمانيقوس الذى كان من فحول الرجال المحبوبين عند الرومانيين وله على البلاد الايادى البيضاء فلقبوه بقاليغولا لحبهم اياه تبعا لحبهم لابيه جرمانيقوس المذكور وكان فى مبدا حكمه حسن السيرة كامل الاعتبار حازما كيسا ولبث على هذه الحال مدة ثم مرض مرضا شديدا أشرف منه على التلف فلما عوفى تغيرت طباعه وانقلبت أحواله وتبدلت الى عكس ما كانت عليه فتولت عليه الحماقة ومال الى ارتكاب الكبائر والمآثم وسفك الدماء والغدر والاتصاف بسائر أنواع القبائح وجمع اليه أهل اللهو وأرباب اللعب والسخرية فكانوا يلعبون فى المحافل جهارا وكان يدعو لذلك أرباب المجلس الرومانى فاذا حضروا ولم يظهر أحد منهم استحسانه لهذه الالعاب والاعجاب بها قتله حالا ومن رفع صوته فى ميدان اللعب أمر بان يجلد جلدا عنيفا وهلم جرا

واتفق يوما وهم فى مجلس الالعاب ان قاليغولا المذكور كان يفاخر بالفضائل الرومانية ويفاضل بينها وبين المحاسن اليونانية ويجادل فى التفضيل بينهما فترك عامة الرومانيين مجلس اللعب وخرجوا مغضبين فصاح عليهم قائلا ليته لم يكن للامة الرومانية الا رأس واحد • يشير الى أنه كان يسهل عليه حزه مرة واحدة • وكان كثيرا مايلقى بمن يقصر من اللاعبين الى السباع فتمزقهم بين المتفرجين وكان يقطع لسانه قبل أن يفعل به ذلك كى لايصيح ولا يشوش على الحاضرين

وارتكب غاية التبذير ونهاية الاسراف وأنفق جميع ماتركه طيباريوس قيصر من الاموال الجزيلة فكان يأمر باعمال الجسور والقناطر على المحيط فكان يأمر بالمحال مما تصوره له حالة الاختلال ويعمل الحراقات والزوارق المرصعة بالاحجار الكريمة وصنوف الجواهر ويجعل فيها الحمامات الغريبة والغرف المزينة بأنواع الزينة والاشجار والازهار وعمل اصطبلا بناه من المرمر لفرس كانت عليه عزيزة وعمل لها فى ذلك الاصطبل حوضا من العاج ورصع طقومها باللؤلؤ والمرجان وقيد اسمها فى سجل القسيسين والاحبار • وقال ان الفرس المذكورة ستصير يوما من الايام حاكمة على الرومانيين ويكون لها عليهم الامر والنهى وكان يسقيها الخمر فى أكواب من الذهب الاحمر وغير ذلك من الامور التى لايقبلها العقل وأمر فصنعت صورته واتخذ منها تماثيل عدة فوضعت فى مصاف الاوثان والاصنام فى جميع الهيا كل والمعابد الموجودة فى المدن الرومانية كافة ليكون من جملة

الآلهة والارباب وجعل لنفسه كهنة خصوصيين يتقربون اليه بذبائح الطواويس والسمانى وكل طير نادر الوجود وكان عظيم الجبروت على قدر جسامة حمقه فكان اذا أمر بقتل انسان استحضر والديه وأقاربه ليشهدوا مقتله فاذا اعتذر أحدهم عن الحضور لمرض مثلا بعث بنعش وحمالين ليأتوا به كى يشهد قتله وكان لايحلو له القتل أو التعذيب الا وهو على مائدة الطعام

واتفق انه جلس يوما فى وليمة حافلة وكان فيها أرباب مجلس رومة متكاملين فلم يشعروا الا والملك يغور فى الضحك ويجهد بغير موجب ولا سبب فسأله من كان بجانبه من أرباب المجلس عن سبب ذلك فقال انما هو لانى اذا أردت قتلكم عن آخركم الساعة قتلتكم ومع أنه كان طاغية جبارا وداهية غدارا لم يكن شجاعا ولا هماما بل كان جبانا ضعيف القلب يكره الوقوف فى صفوف القتال وقد سافر فى أيامه كلها فى غزوتين احداهما الى بلاد جرمانية والثانية الى بلاد بريطانية فلم يشتهر فيهما الا بالجبن وضعف العزيمة ولم ترعينه يوما صفوف العدو ومع ذلك فقد كتب يوما الى أعضاء مجلس رومة يقول لهم بينما أنتم عاكفون على اللذات منبسطون على بساط الشهوات فأنا معرض نفسى للاخطار واقتحام العقبات

وكان أشد جميع من سلفه ظلما بل أشد جميع قياصرة الرومانيين غدرا وعدوانا وقد ألزم اليهود نصب تمثاله فى بيت المقدس فلم يقبلوا فضيق عليهم وكذلك ضيق على النصارى الذين ببيت المقدس وزاد فى التشديد الى حد الموت حتى ظهرت من بينه امرأة متمسكة بالديانة النصرانية فدافعت عنهم وردت أذاه فبقى اليهود يقاسون مضض البلوى وقد كان رسم الى والى مصر فى السنة الاولى من ملكه بغزوهم فغزاهم واستبعدهم سبع سنين وفى الرابعة من ملكه أمر عامله أيضا على اليهود بفلسطين أن ينصب الاصنام بمعابدهم فى بيت المقدس ففعل وكانت هذه الفعلة من أشد الضربات على اليهود فلما عظم فى الاساءة حاله وثقلت على جميع قلوب الرعية فعاله قام عليه الامير خرياس وقتله فى قصره فى سنة احدى وأربعين للميلاد أى سنة احدى وثمانين وخمسمائة قبل الهجرة

وكان عامله على مصر اوليوس قلاقوس فأساء السيرة وظلم الرعية فكانت أيام ولايته كلها فتنا وبلايا ومحنا وعلى الخصوص فى مدينة الاسكندرية اذ ضيق عليها وبالغ فى تذليل أهلها وشدد على من كان بها من اليهود فخرجوا عليه وشقوا عصا الطاعة وثابروا على قتاله حتى خلعوه وقتلوه فسكنت بقتله الفتنة واستقرت الاحوال

ولما مات قاليغولا تولى الملك بعده قلودس الاول وسيأتى الكلام عليه

(فى الامبراطور قلودس الاول)

ثم قام بالامر الامبراطور قلودس سنة احدى وأربعين للميلاد أى سنة احدى وثمانين وخمسمائة قبل الهجرة ولقب بلقب امبراطور وكان أمر توليته المنصب الملوكى من الامور العجيبة والصدف الغريبة وذلك انه لما قتل غرياس قاليغولا هاجت العساكر والاجناد ودخلوا قصر الملك لينهبوا مافيه من الاثاث والامتعة فبينما كان أحدهم يفتش على شئ يأخذه اذ عثر على شخص طويل القامة أصلع الناصية مختف وراء الفراش مرتج الجوارح فاقد الحواس فأمسك به الجندى وصاح من الرجل فقال أنا قلودس من آل بيت جرمانيقوس فصاح الجندى على أصحابه هلم الى قلودس فأحاطوا به وسلموا عليه بالقيصرية ولقبوه فى الحال بامبراطور الرومانيين وحملوه على هودج وساروا به الى معسكرهم فوضعوه هناك فلما استقر به المكان أفاق وعادت اليه حواسه فبايعه الحرس الملوكى فأنعم على كل واحد منهم بخمسة وعشرين دينارا ليستميلهم اليه ووعد بقية الجنود بأحسن العطايا فصارت هذه الفعلة من ذلك الحين عادة مستمرة ورسما من رسوم ابتداء التولية للخلافات وصارت سنة متبعة وكان قلودس المذكور مجردا من المكر والحيلة منزها عن الغدر والاذى ولكنه كان فى غاية الحمق والغفلة ولذلك كانت تلقبه أمه فى طفوليته بأضحوكة العالم و بالصورة الخيالية فانه كان وهو فى مهده أيضا مبتلى بداء الهزال فأورثه نحافة الجسم وسخافة العقل ومع ذلك فقد كان ذا باع فى الانشاء والتأليف فألف تاريخ رومة وقرطاجنة وأحسن ضبطه واحكامه ولما كان عاجزا عن حمل أعباء الملك وتدبير الامور سلم ادارة البلاد الى المعاتيق والموالى وقلدهم أموره كلها مع ماهم عليه من الشرور والقبائح فنبغ منهم اثنان أحدهما اسمه بلاص والثانى اسمه نرجا فكانا أعز وزرائه وأعظم أمرائه وقد تملكا على عقله فكانا يغريانه على ارتكاب الفجور والعدوان وعلى قتل خيار الناس من الوجوه والاعيان وكان له زوجة خبيثة الطوية تسمى (مساليته) وكانت ممن يكفرن العشير ويكفرن بالكثير واليسير وكانت تبغضه بغضا شديدا وتميل الى زواج شاب من الامراء تحبه فعقدت يوما النية على قتل زوجها لتولى محبوبها المنصب الملوكى فآنس منها ذلك فقام عليها وقتلها وتخلص من شرها ومن هذا الحين صحا من سكرات غفلته وداخلته بعض الحماسة والفتوة وعدل عن طباعه الاصلية وتزوج بزوجة أخرى اسمها (اغريبينه) وهى بنت جرمانيقوس من نسل أغسطس قيصر فلم تكن فى الخيانة دون الاولى بل تزيد عنها وكان لها من زوجها الاول ولد اسمه نيرون الجبار وكان للقيصر ولد آخر من ضرتها التى ماتت فكانت تغار منه جدا وتحقد عليه وتطمع فى تولية ولدها الملك فعقدت النية على أن تسم زوجها



قلودس ودبرت له سما بطيأ فشربه فلم يمت فى الحال فخافت من ظهور أمرها واستدعت طبيبا اسمه زنفون وكاشفته بسرها فوافقها على ذلك وتقدم للملك فى انه يسقيه صلاحا لاستفراغ مافى جوفه وأدخل ريشة مسمومة فى حلقه فكانت سببا فى تعجيل موته فمات لوقته وذلك سنة أربع وخمسين للميلاد أى سنة ثمان وستين وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه ثلاث عشرة سنة كلها محن وشدائد

وفى أيامه قامت فى مصر فتنة بين أهل الاسكندرية واليهود الذين بها وكانت عظيمة جدا اقتتل فيها الفريقان قتالا عنيفا فبادر الى تسكين الفتنة بالتى هى أحسن ومنح اليهودان ينتخبوا لهم نقيبا منهم يحكمهم على حسب مالهم من العهود والمواثيق فاستتب بذلك الأمن وحصلت الراحة * وفى أيامه أيضا كتب متى أحد حوارى المسيح الانجيل فى بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدى الى الرومية وكذلك كتب بطرس رأس الحواريين الانجيل بالرومية ونسبه الى تلميذه مرقص وكتب لوقا الانجيل بالرومية وبعث به الى بعض الاكابر من الروم تذكرة

ولسبع خلت من ملك قلودس المذكور دخلت امرأة من كبيرات الروم فى الديانة المسيحية على يدى شمعون الصفاء فجاءت الى بيت المقدس لتعزيز جانب الدين ثم عادت الى رومة وكذلك اتسعت فى أيامه بمصر دائرة العلوم والمعارف وأنشئت فى مدينة الاسكندرية دار العلوم وتحسنت بها حالة المدارس والمكاتب وعادت الى ما كانت عليه من علو الشأن قال بعض الكتاب ولكن لم يكن اجتهاد العلماء والفضلاء فيها فى هذا الحين بقدر ما كانت الهيئة الحاكمة تجلهم وتحترمهم وبموت قلودس تولى الملك بعده نيرون قيصر

(فى الملك نيرون قيصر)

ثم قام بالامر نيرون قيصر تولى الملك سنة أربع وخمسين للميلاد أى سنة ثمان وستين وخمسمائة قبل الهجرة وهو ربيب قلودس الملك فتبناه وزوجه بنته المسماة اقطاوه وكان أمر تولية نيرون المذكور المنصب الملوكى عجيبا فى بابه وذلك انه لما احتضر قلودس وكان الطبيب يعالجه فى حالة النزاع أظهرت زوجته اغريبنة أم نيرون غاية الجزع وبالغت فى حزنها وتقدمت الى ابنه من ضرتها المسمى ابريطانيقوس وأخذت تعانقه وتضمه الى صدرها وتقول وعيناها تذرف الدموع انك يابنى على صورة أبيك قلودس الذى لاصبر لى على فراقه ولاسلوان لى عنه الا بك فلاتفارقنى أبدا ولاتتركنى وحيدة لهذه الهموم وأكثرت من عبارات الاسف والحزن فظن ابريطانيقوس أن الامر صحيح فلما آنست منه ذلك منعته من الخروج من القصر وأمرت فاغلق الحراس جميع الابواب والمنافذ وأشاعت بأن الملك قلودس متجه الى الصحة

فلما مات أخفت خبر موته أياما واست فيها الجنود بالهدايا واتحفتهم بالتحف العظيمة وعملت على تولية ابنها نيرون تخت الملك وما زالت حتى تم له الامر على ما أرادت ثم أمرت بفتح الابواب بغتة وخرج نيرون فى وسط جند الحرس القيصري فتلقوه بالترحيب وسلموا عليه بالقيصرية وبايعوه فى الحال فذهب الى المعسكر الرومانى وتلا عليهم خطبة تتضمن تشويقهم واجتذاب قلوبهم ووعدهم بالانعامات العظيمة فسلموا عليه بالقيصرية والامبراطورية الرومانية فلم ير أرباب المجلس بدا بعد هذا كله من مبايعته وكذلك فعل أهل الحل والعقد ثم جهزوا الملك قلوديس وشيعوا جثته مع غاية الاحتفال والاكرام

ولم يكن عمر نيرون اذذاك الاخمس عشرة سنة فحكمت أمه بالنيابة عنه وكانت تظهر عليه علامات النجابة وعلو الهمة وكان لايأتى أمرا فى صباه الا بعد استشارة معلميه بوغوس وسنانخس وقد استوزرهما فكان الاول منهما ممتازا بالمعارف والفنون العسكرية مع الشهامة وحسن الاستقامة وكان الثانى يمتاز بكمال القريحة وقوة الفطنة وحسن السير مع الرعية ومما يحكى عن نجابة نيرون المذكور أنهم عرضوا عليه يوما قضية حكموا فيها على أناس بالموت وطلبوا منه ان يوقع على الحكم فاغرورقت عيناه بالدموع وقال ﴿ ليتنى كنت أميا ﴾ ومدحه أرباب المجلس يوما فقال لهم ﴿ امسكوا عن المدح حتى استحقه ﴾ وكان يظهر من حاله انه يألف الحلم والعدل ولكنه لم يلبث ان تغيرت أحواله وانعكست أعماله وتبدلت أخلاقه الى عكس ما كانت عليه فطغى وظلم وتجبر وتغشمر ولم يتدين بدين ما واضطهد النصرانية غاية الاضطهاد وصار يقتل كل من تمذهب بها ورسم بقتلهم فى جميع الايالات التابعة لرومة فقتل منهم خلقا كثيرا وقتل بطرس رأس الحواريين وقد كان يومئذ بطركا رومة ومضى على بطريكيته مدة خمس وعشرين سنة وأسباب قتله معلومة فلا داعى لذكرها هنا فقام بعده أريوس بطركا على رومة

وفى الخامسة من ملك نيرون هذا يعنى فى التاسعة والخمسين للميلاد كانت بعثة مرقس الحوارى أحد السبعين للدعوة بالاسكندرية ومصر وبرقة وبلاد العرب فطاف فى هذه المدن ونادى بالانجيل وحث وخطب ووعظ فتبعه خلق كثير وكانت ديانة المصريين يومئذ الوثنية وعبادتهم للنجوم والحيوانات كما تقدم بيان ذلك فى محله فدخلت النصرانية فى مصر وأرضها مشحونة بالاهالى عامرة بالسكان يبلغ عدد من فيها اثنى عشر ألف ألف عدا مختلطى الانساب مابين قبطى بحت وحبشى ونوبى واسرائيلى الاصل وغيره واتخذ مرقس الاسكندرية مقرا وأقام يدعو الناس فذاق من الشدائد اشكالا وألوانا وما زال يحض الناس ويعلمهم ويقربهم الى الله تعالى وكان فصيح اللهجة وديعا متواضعا فتبعت تعاليمه وكثرت النصارى واتسع نطاق المسيحية وكادت تعم جميع الديار المصرية والنوبة وكان له رفيق اسمه حنانيا ويقال له أيضا ﴿ انيانو ﴾ فأقامه بطركا بالاسكندرية وهو أول البطاركة بها وجعل معه اثنى عشر قسيسا وأمرهم أنه اذا مات حنانيا البطرك ان يجعلوا عوضه واحدا منهم ويقيموا بدل ذلك



القسيس واحدا من الشعب المسيحي يختارونه حتى يكونوا أبدا اثني عشر قسيسا فنمت المسيحية وظهرت وتمذهب بها الكثير من أرباب المناصب العالية والأكابر والاعيان وبعض رجال الدولة فساء هذا كهنة المصريين وأهل العلم بمدينة الاسكندرية ووقعت بين الفريقين مناظرات ومجادلات دينية أياما طويلة كان الظفر فيها لمرقس وأصحابه فلما كانت السنة الثانية عشرة من ملك نيرون قامت الكهنة وخدام الهيا كل والمعابد المصرية وأهل الاسكندرية وأثاروا الفتنة على النصارى وأضرموا نارها وقبضوا على مرقس الحوارى وقتلوه وكان موته غاية في الشناعة وطافوا بجثته في جميع الطرق مسحوبة على الارض ومثلوا بها أشنع تمثيل وتتبعوا النصارى وأفحشوا في قتلهم والتنكيل بهم فملؤا بجثثهم أكثر الطرقات وكان ذلك اليوم يوما مشهودا

وقتل أيضا نيرون قيصر رئيس كهونية اليهود ببيت المقدس فثار لذلك اليهود على من كان من النصارى ببيت المقدس وقتلوا أسقفهم هناك وهو يعقوب النصار وهدموا البيعة وأخذوا الصليب الذي صلب عليه المسيح والخشبتين اللتين كانتا معه ودفنوهما في مزبلة الى ان جاءت هيلانة أم قسطنطين الملك وأخرجتهما كما سيذكر في محله فولى مكان يعقوب النصار ابن عمه شمعون ثم ثار عليهم اليهود ثانية وأخرجوهم من بيت المقدس لعشرين خلت من ملك نيرون فاجتازوا الاردن وأقاموا هناك فبعث نيرون قائده المسمى وسباسيانوس الى بيت المقدس وأمره بقتل اليهود الذين كانوا هناك كافة وتخريب البيت فأوى اليهود الى ثلاثة حصون بنوها فحاصرهم وسباسيانوس وخرب حصونهم وأحرقها وأقام عليهم سنة كاملة يقاتلهم حتى أذلهم وكاد يفنيهم

ونزع نيرون أمه من النيابة عنه وخالف مشورة وزيريه واتبع هوى نفسه فاستكبرا الامر ولكنهما لم يريا بدا من موافقته على ماوطن نفسه على عمله وكانت أمه اغربينة تحب ان تكون نافذة الكلمة مطاعة الامر والنهي في جميع الاحكام الجنائية وغيرها وكانت تخشى جدا أن يبقى ابريطانيقوس ابن ضرتها حيا فينتزع الملك من ولدها نيرون فشكت أمرها الى رؤساء الجند وبالغت في سوء تصرف ولدها وعجزه عن حفظ صولجان الملك في يده مادام ابريطانيقوس حيا فوافقوها على مارأت وصمموا من ذلك الحين على قتل ابريطانيقوس فبينما هو على المائدة يأكل مع نيرون وبعض الاقارب والحشم اذ سقط مغشيا عليه وذلك لان نيرون وضع له السم في كأس الشراب وسقاها له فلما رأى الحاضرون سقوطه تفرقوا مذعورين ومن بقي منهم صار مبهوتا ينظر الى نيرون شزرا أما نيرون فانه لم يبال بذلك بل اضطجع على فراشه ومد رجليه كأنه لايعلم سبب موت أخيه وقال لاتعجبوا فانه مريض من زمن وان لاشئ في موته ثم أمر فجهزوه ودفنوه ليلا بغير احتفال وقسم أمواله وأملاكه على الذين اتفقوا معه على قتله ومن هذا الحين أحاط بنيرون أرباب الفسق والعصيان وأصحاب اللهو واللعب والالحان وقطاع الطريق وخوان الرفيق فكان يلبس في

الليل

الليل متنكرا فى زى المماليك ويطوف باطراف المدينة صحبة هذه الزمرة الشريرة ينهبون الحوانيت ويؤذون المارة وأبناء السبيل فكانوا اذا أحس بهم أصحاب البيوت أوالحوانيت قاموا عليهم وضربوهم فيقع الضرب بينهم ويصيب القيصر منه شئ كثير وربما شجوا رأسه أوأثخنوه جراحا ثم لم يلبث حتى انكشف حاله وعلم الناس بانه هو الذى يطوف متنكرا ومعه أولئك الاشقياء فاقتدوابه وعملوا على شاكلته فكثر التعدى والسلب والنهب وصارت مدينة رومة فى الليل كأنما هى مدينة قد أخذت عنوة بعد قتال لاعز فيها أحد الاويرجع الى بيته عريانا وقد جرح نيرون المذكور فى ليلة جراحا كبيرة فى قتال اشتبك بينه وبين الاهالى فاحتاط من ذلك الوقت وصار لايطوف الاومعه بعض الجند المتنكرة وبعض المصارعين ولم يزل على هذه الحال زمانا طويلا حتى ضاقت نفوس الرعية منه وتمنوا هلاكه

ولم تطق أمه الصبر على ذلك ولاعلى سقوط نفوذها وذهاب كلمتها فأخذت تعمل على ارجاع ما كان لها من السلطة والنفوذ وتسعى خلف ايقاف ولدها نيرون عند حد الطاعة والرضوخ لكلمتها فلما آنس منها ذلك اشتد بغضه لها وصمم على قتلها وكان من أشد أمرائه فتنة وفسادا الامير انيقاطوس أمير البحر فكاشف انيقاطوس المذكور على مافى خاطره من قتل أمه فوافقه ودبرله الامر بأن أنشأ لها سفينة على شكل عجيب ينفصل منها جزء عن أجزائها الحقيقية ويتصل فى الظاهر بها بحيث لوسقط فى البحر تبقى السفينة بتمامها كاملة لايخشى عليها من الغرق فلما تم بناء السفينة المذكورة على هذا الشكل أظهر القيصر رغبة زائدة فى عمل عيد هيكل عطارد بمدينة (بايس) التى هى ساحل نابولى وكان له فى هذه المدينة قصر وحمامات ومنتزهات فدعا أمه وأعلمها بذلك وطلب منها أن تصفح وتعفو عما فات فحضرت اليه راكبة على سفينة فاستقبلها فى كبكبة وزينة وأخذ بيدها وعانقها وضمها الى صدره وبالغ فى ملاطفتها حتى رقت اليه وحنت عواطفها عليه ولبثت عنده اليوم بطوله فلما قصدت الرجوع الى مستقرها قام معها الى الساحل وكانت السفينة التى أعدها لركوبها هى التى صنعها انيقاطوس مزينة بأحسن الزينة فأنزلها فيها وعانقها فقبلته وودعته وسارت بها السفينة وهى لاتدرى مانصبه لها من الشرك وكان المسير فى ليلة مقمرة تحسن فيها الملاحة فلما توغلت السفينة فى البحر انخسف فى الحال مجلسها وانفصل عن السفينة وسقطت الملكة ومن معها من اتباعها والتهمتهم الامواج وظهرت على وجه الماء احدى النساء المصاحبات للملكة فصاحت خذوا بيدى أنا اغريبنة أم الملك رجاء ان تتخلص من الغرق فضربها أحد الملاحين بمجذاف على أم ناصيتها فقتلها أما اغريبنة أم الملك فانه لم يحصل لها من سقوطها فى البحر الاجرح خفيف وكانت تحسن السباحة والعوم فسبحت وجاهدت حتى وصلت الى بعض سفن التجارة كانت راسية على مقربة واستغاثت فعرفوها وأخرجوها وذهبوا بها الى قصرها سالمة وقدعلمت بما كان دبره لها ولدها من الهلاك ووجدت ان كتمها



لهذا السر أولى وأحسن وتدبرت فى امرها وكتبت لولدها تقول كن مطمئنا بابنى فقد نجوت بالالطاف الالهيـة من الغـرق وتخلصت من الموت فلا يشـغلنك شاغل من جهتى نخاف نيرون من ذلك جدا وعلم أنه قـد خاب أمله وخشى انها ان عاشت أثارت عليـه الفتن واقامت الاحن وأغرت الجنود واستمالت القواد وأرباب الحل والعقد فسعى فى طلب قتلها على أى حال كان وألح فى ذلك على كثـير من أرباب الفساد فبرز له صاحب الحيـلة الاولى وتعهد بقتلها فاقسم له الملك انه ان فعل ذلك ليكافئنه أحسـن مكافأة فقام انيقاطوس وغاب ليلة وعاد الى نيرون فى الصباح وقد قتلها فلما بلغ نيرون خبر قتلها فرح فرحا ماعليهمن مزيد وأشاع أنها قتلت نفسها ومن ذلك الحين صـفا الوقت لنيرون وخـلا له الجو ففـعل بالبلاد وأهلها مالم يفعلهغيره من قبل

وكان له زوجة عفيفة حسـنة الاخلاق حميدة السيرة اسمها ﴿ أوقطاوية ﴾ قل ان يوجـد مثلها فى الخلق والخلق فلم ينظر نيـرون اليها ولم يراع لهـا حقا وتعلق بامرأة اسمها بوبه كانت من العاهرات وشـغف بحبها فعقد عليها وقصـد الخـلاص من أوقطاوية وأمر بقتلهـا فسيقت الى القتـل وماتت شهيدة الغـدر والخيانة وكان فى ساعة قتلها عاكفا على اللهو مشغولا عما فى محافل اللعب والقصف وقد اتخذ له ملعبا عظيمـا ضرب عليه من جميع الجهات الاسوار فكان يأوى اليـه بالليل والنهار ويجرب نفسـه فى اللعب والغناء والرقص وسوق العجـلات ويجمع اليـه خدمه وحشمه فيلعب امامهـم بلا حياء ولا خجل حتى برع وتفنن فى جميع هـذه الالعاب وكان يركب الابل ويعـدو عليها ويجمع الحيوانات للهراش ويعمـل الولائم ويدعو اليها الخواص والعوام وينفـق الاموال بلا حساب فأوى الى ميـدانه الغوغاء وسـفلة الناس الذين لاهم لهم سوى الكسل وكانت جـدران هـذا الملعب مطلية بالذهب الابريز مكسوة بحلل السندس المطرز وعـمل الاشراك والشباك التى كان يصطاد بها من القصب المصنوع من الذهب والفضة وكان اذا ذهب الى اللعب سار بألف عربة تجرهـا البغال المطبقـة بالجين ﴿ الفضة ﴾ وكان يصحبه ساسة الخيـل والسعاة متحلين بالملابس مزدانين بأنواع القمـاش وكان اذا لعب أطلق فى ميدان اللعب أصناف العطور الثمينة كالمسك والعنبر وغير ذلك من أنواع السرف والتبذير

وبينما هوعاكف على اللهو فى ذات يوم اذ وقع بمدينة رومة حريق هائل أخذ بدمر المدينة وسرى فى أطرافها أسرع من البرق فاهلك خلقا كثيرا جدا فضج الناس وخرجوا على وجوههم هائمين وكان كل من اقـترب لاطفاء شئ من تلك النـيران عاد خائفا مذعورا اذ كان يسمع صوتا هائلا مرجفا يتهدده ولا يرى شخصه وكان الناس يبصرون شـعل النيران الملتهبة ترمى فى المدينة وبها أصوات تصيح نحن مأمورون بذلك قيل وكان نيرون فى هذا الحين ينظر الحريق على بعد ويتفرج عليـه مستحسنا ذلك المنظر الهائل وهو اذ ذاك بزى اللاعبين عنـد نشد الاشـعار التى قيلت فى رسوم تروادة ومعالمها واطلالها بعد خرابها وهو يتغنى بها متمثلا فلما

رأى ان الحريق قد دمر البيوت وأهلك الامتعة وأذهب الاموال وقد خرج الناس على وجوههم هائمين لامأوى لهم ولازاد جمع فى ميادين تعليم الجند وفى غيرها من المحال الاخرى جميع الناس وأباح لهم سكنى بساتينه وبنى لهم الدور والمساكن باسرع ما يمكن وفرشها لهم وفرق عليهم بعض الاثاثات والادوات المنزلية وأرخص أثمان الحبوب والاقوات كل هذا ليستميلهم اليه فلم يجد نفعا اذ اتهموه بفعل الحريق وتدمير البلد حيث شرع فى بناء قصر مزين بالذهب والاحجار النفيسة وكان قد رسمه رسما متسعا وأدخل فيه البساتين والحدائق والمزارع والبرك والانهر والغابات والرياض والحياض فلذلك اتهموه بفعل هذا الحريق فلما آنس منهم ذلك وكان يكره النصرانية وأهلها كما تقدم القول أشاع ان هذا الحريق انما هو صادر من النصارى الذين تظاهروا بدين المسيح فى رومة وتتبعهم بالاذى وأنواع التعذيب وبالغ فى ذلك جدا فكان يأمر بهم فيلبسون جلود البهائم ويطرحون للكلاب فتنهشهم وكان يأمر بصلب بعضهم و يأمر بدهن جلود البعض الآخر بالدهون والزيوت والنفط والقطران حتى اذا أظلم الليل أطلقوا فيهم النيران وأوقدوهم كالمشاعيل ليستضيئوا بهم والعياذ بالله

وكانت هذه الفعال الشنيعة تفعل فى حدائق نيرون وبساتينه وقت الالعاب الميدانية وكان يشاهدها بعينى رأسه ويتدرج بين الناس فى زى سائس أو فى صورة أخرى ليعلم مايقولون وشدد الوطأة على النصارى ومات فى خلال هذه الفتنة العظيمة بطرس رأس حوارى المسيح وبولس الحوارى قتلا بعد أن جاهدا فى دين الله ودعيا الناس وصنعا العجائب والآيات العظيمة وقد استشهد بطرس مصلوبا منكس الرأس كما طلب كى لايتشبه بالمسيح وكان استشهاد بولس بضرب عنقه وقد تلطفوا فى قتله لكونه رومانيا ولم يزيدوا فى تعذيبه كما فعلوا ببطرس

ولما عادت رومة الى رونقها وبهجتها بعد الحريق الذى دمرها قامت نار الفتنة فى داخليتها وخرجت الرعية على نيرون وطلبت إبطال الالعاب والملاهى وهدم الميادين العمومية وقام أرباب المجالس والامراء والاعيان بل والنساء وتواثقوا على ذلك وتحالفوا على كتمان الخبر حتى يقوموا عليه قومة واحدة فلم يلبثوا أن ظهر سرهم وانحل عقدهم فقام نيرون وقبض على الاحزاب وبالغ فى تعذيبهم بأنواع العذاب وكان من أعيانهم رجل اسمه (سوبريوس) فلما أتى به امام نيرون قال له بقلب ساكن ترى أيها الملك من يصدق فى خدمتك من هؤلاء الجنود الا بقدر مايريه من المحبة وما تفعله معه من المعروف أما أنا فقد وطنت النفس على بغضك من اليوم الذى قتلت فيه أمك ومن وقت قتلك زوجتك ومن يوم ان صرت عربجيا ومصارعا ومغنيا ومحرقا لمدينة رومة العظمى فقال نيرون خذوه على واقتلوه فقتلوه فى الحال بلا مهل

وقد عذب بعض من اتهمهم بالفتنة من أهل الفضل والآداب تعذيبا شديدا فقطع

عروقهم وفتح أوعية دمهم ولا زال يستفرغه حتى ماتوا واتخذ الغناء وضرب الالحان واللعب فى الافراح العامة حرفة فانه لما بدأ بانشاء الاشعار الحماسية وعزم على الظهور بمظاهر أصحاب هذا الفن قام عليه أهل هذه الصناعة وطلبوا منه الامتحان فتقدم فى الميدان العام بزى لاعب وعلى هيئة مصارع وفى صورة مغن ووقف موقف الخاشع ثم جثا على ركبته بعد ان غنى وتنقل من طبقة الى أخرى فهلل له المتفرجون وفرحوا به وتقيد اسمه فى دفتر أهل هذا الفن وكان كما تقدم القول شديد الحرص على أن يرى ميدان اللعب فى أوقات اللعب ساكنا مرتبا لالغط فيه ولا تشويش فاتفق ان الامير وسباسيانوس الذى ولى بعده حينا منصب الملك كان فى ميدان اللعب فتغلب عليه النعاس وظهر منه غطيط فغضب نيرون وأمر بقتله ولولا شفاعة من لاترد شفاعته لقتل وكذلك (بوبه) زوجته التى كان يحبها كثيرا قالت له يوما على سبيل التهكم انك لاعب من أمهر اللاعبين فغضب وضربها فى بطنها برجله ضربة أزهقت روحها وماتت فى الحال وهو لا يتحرك من موقفه ولم يتأثر

وقصد نيرون المذكور المسير الى بلاد اليونان فسار من رومة يريد بلادها لخطر على باله أن يرى هل لرجالها وأرباب الفن بها براعة فى فن الالحان فنزل بمدينة قورنثية ومعه أعوانه يحملون المزامير والعيدان وكان يونان هذه المدينة وضواحيها لهم شهرة عظيمة بهذه الفنون فانتصر عليهم نيرون نصرة عظيمة وأزل تماثيل فحول رجالهم الذين كانوا اشتهروا فى سالف الاعصار بالسبق فى هذه الالعاب الاولامبيقية * والالعاب الاولامبيقية نسبة الى أولامبيقة * وهى بلدة ببلاد اليونان كان بها موسم يجتمع اليه الناس فى كل أربع سنين كسوق عكاظ عند العرب وفيه تكتسب الامتيازات اليونانية وبهذه المواسم المتكررة فى كل أربع سنوات يؤرخ اليونانيون وقائعهم فيقولون حادثة كذا وكذا وقعت فى الاولامبيق الاول عبارة عن أربع سنوات فكان تنزيل نيرون لتماثيل فحول اليونان تحقيرا لهم وأكنهم صانعوه وصفقوا له نفاقا وكانت هذه الواقعة بمدينة قورنثية باقليم اخايا وكانت هذه المدينة اذ ذاك تحت استعباد الرومانيين ورقهم فأعتق لذلك اقليمهم وأعاد اليه حريته القديمة وذلك سنة سبع وستين للميلاد أى سنة خمس وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة ثم عاد الى رومة وقد أخذ منه الطيش والاعجاب مأخذه فلما دنا من أسوارها أمر فهدموا له جانبا من الاسوار فدخلها من هذا النقب راكبا عجلة تجرها خيول بيض وهو متشح بحلة أرجوانية ملوكية وخوذة مرصعة بنجوم فضية وذهبية وعلى رأسه تاج النصرة اليونانية المصنوع من أغصان الزيتون البرى وفى يده اكليل آخر من شجر الغار وكل هذه علامات على الانتصار وامامه جماعات حاملون ألف اكليل وثمانمائة اكليل مكتوب عليها أسماء القدماء الذين نالوا هذه الاكاليل وامتاز وابها وحول عجلته المفتنون وهم يشيدون بمدحه وامامه المباخر والمعطرات يعبق شذاها واناس كثيرون ينثرون الازهار واللآلئ فى

هذا الموكب وأمر أن يصنعوا تماثيله ويصوروه على هيئة أرباب الطرب والالعاب وأن توضع هذه التماثيل فى الميادين العمومية وأن يرسم بهذا الوجه على النقود والسكة واشتد به الهوس الى درجة أنه أمسك عن كثرة الكلام والتزم الصمت خوفا على صوته من البحة وقلل الكلام مع جنده وخدامه وعبيده

فلما كثرت شروره واشتدت على الرعية مظالمه صمموا على قتله وكان من جملة الاقاليم الرومانية إقليم فرنسا القديم الذى كانت أهله تسمى الغالية وكان على هذا الاقليم نائب يسمى (ونديش) من ذرية ملوك الفرنسيس فحقد على نيرون وأبغضه بغضا شديدا وناواه وقصده بالحرب وعرض تقليد مملكة رومة على نائبها فى اسبانيا المدعو (غلبا) فلما أحس نيرون بذلك استعان بقائد جنود جرمانيا و ركب على ونديش المذكور وقتله وتجهز بعد قتله الى الركوب على غلبا نائب اسبانيا والبطش به أيضا فعاقه مابلغه من مبايعة مجلس رومه لغلبا المذكور وتسليمه صولجان الملك فاحجم قائد جند جرمانيا المذكور عن معاونة نيرون وعن القيام الى اسبانيا أما نيرون فانه لما أيقن أنه لامحيص له عن الهلاك تقاعس عن الحظوظ وانكف عن الشهوات وهرب من رومة مع أربعة من عتقائه ونزل بقصر له فى الخلاء يبعد عن رومة بعض فراسخ فاشار عليه بعض أصحابه أن يقتل نفسه قبل أن تدهمه الاعداء فيقتلوه فلم يجسر على ذلك لانه كان يكره الموت وكان لايكف عن البكاء والنواح ويقول كيف يصح قتلى والعالم بأسره فى حاجة الى

وبينما هو على هذا الحال من البكاء والنواح اذ سمع صهيل الخيل وصرير سنابكها وقد حضر الفرسان وأحاطوا بالقصر وضيقوا عليه فقال لاصحابه هيا بنا فقد أوجبت الشجاعة على أن أقتل نفسى حين لاحيلة لى فيما دون ذلك وهم بقتل نفسه وشجعها فلم يقدر وكان كلما رفع يده بالخنجر ارتعشت وعادت الى جانبه فكان من بعض أصحابه أن أمسك يده وهى قابضة على الخنجر ووضعها على نحره ليشجعه فتجلد لذلك وطعن نفسه فأزهقها فكان موته فى سنة ثمان وستين للميلاد أى نحو سنة أربع وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة وبموته وانقطاع حكمه انقطعت عائلة أوغسطس قيصر وتم الامر لقيصر غلبا كما سيذكر فى محله

قال بعض أهل التاريخ ومع ما كان عليه نيرون من الفسق والطغيان وانغماسه فى دناءة اللهو واللعب وغير ذلك من قبيح الفعال كان لايختار نوابه وعماله فى البلاد التابعة لمملكته الا من أهل الفضائل والكمالات فكانوا جميعا يحسنون سياسة البلاد وتدبير الجمهور وكان حريصا على معرفة الحقائق وكشف تفاصيل الصغائر والكبائر وقد كان استعمل على مصر الامير بلبيلوس فأحسن فيها الصنيع وأصلح أراضيها وأخصبها بتدبير النيل ووسع نطاقها فعمرت وزادت رونقا وبهجة وعمت الراحة ربوعها وانكف اهلها عن المشاغبة وعلى الخصوص منهم يهود الاسكندرية وكان لنيرون المذكور اعتناء زائد بتحسين أحوال مملكة مصر ورغبة كبيرة فى طلب معرفة منبع النيل فبعث من الرومانيين جماعة لاستكشافه فساروا وتوغلوا جوف

السودان وعادوا بما عرفوه من أحوال تلك الاصقاع وموقعها الطبيعى — وحكى أن أحد نبلاء الرومانيين اجتمع باثنين من رجال هذه البعثة بعد رجوعهم فقالاه بهذه العبارة وصلنا بعد سياحة طويلة الى ملك السودان فاعطانا الزاد والراحلة وأمدنا بالذخائر وأعاننا على هذا السفر الطويل بان أوصى علينا الملوك المجاورة لبلاده فأباحوا لنا الجولان فى بلادهم فسرنا حتى انتهى بنا المسير الى محل ذى بحيرات وبطائح وبرك يصعب السير فيها حيث هى مجهولة المعالم مملوءة بالاشجار المتكاثفة * قالا * وقد وجدنا هناك صخرتين عظيمتين تخرج عندهما المياه بغاية القوة فما علمنا هل هما منابع النيل أو أن منابعه بعدهما أو أن هذين المنبعين هما فى طريقه ومنبعه الحقيقى بعيد عنا اه

وكان نيرون يحب مملكة مصر محبة عظيمة فقصد الحضور اليها وتجهز لذلك وكان اذ ذاك عاملا عليها طقسوس أخامن الرضاع فارسل اليه يعلمه بقدومه وأرسل رسلا يجهزون مايليق باستقباله فجهزوا مالزم وعملوا له حمامات خصوصية لنفسه فدخلها طقسوس ليتفرج عليها فاعجبته فاغتسل بها فلما علم نيرون بذلك أمر بقتله ولم يراع اخوة الرضاع ولا حقوق النيابة وحين أشرف نيرون على حد الارتحال الى مصر حلت فى مدينة رومة الفتنة الداخلية وقامت على ساقها فقتل فيها كما تقدم القول فكانت مدة ملكه نحو ثلاث عشرة سنة وخلفه اسليقيوس غلبا المتقدم ذكره

(فى الملك اسليقيوس غلبا قيصر)

ثم قام بالامر اسليقيوس غلبا قيصر بويع بالملك سنة ثمان وستين للميلاد أى سنة أربع وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة عقب موت نيرون وانقراض عائلة أوغسطس قيصر وكان غلبا المذكور من عائلة شهيرة بالحسب والنسب بين عائلات ايطاليا وكان شيخا كبيرا معمرا نحو ثلاث وسبعين سنة وكان سبب ارتقائه هذا المنصب أن جميع الجنود الرومانية اجتمعوا وتشاوروا بينهم فى أمر تولية ملك عليهم من غير مدينة رومة فاجمعوا أمرهم سرا على انتخاب غلبا هذا وكان موسرا بالمال بخيلا صعب الاخلاق مدققا فى الادارة والتدبير مشددا فى الصرف والانفاق لايلائم طبعه طبع الرومانيين فى الكرم ولم تكن رغبة العساكر فى توليته الاليعطيهم من العطايا والمرتبات عوائدهم التى عودهم عليها من سلف من ملوكهم فصارت عندهم رزقا لاتقطعوا ولاتمنعوا فلما ارتقى المسند واستقر به أمسك عن الانعامات المعتادة لعساكر المنتخبة وغيرهم فطالبوه بذلك فقال انى أختار عسكرى أحسن اختيار ولا يجمل بى أن أشترى خدمتهم بدرهم ولا دينار فأسكتهم ثم قبض على وزراء نيرون الملك وعاقبهم وخلعهم واستوزر غيرهم وشدد عليهم بالاقتصاد والتزام طرق الحزم

وعدم الاسراف فى الاموال فضيقوا على العساكر وقتروا عليهم غاية التقتير فشكوا من ذلك فلم يلتفت اليهم فركبوا عليه وقتلوه وقبضوا على وزيره المدعو بسقون وقتلوه أيضا وطافوا به فى شوارع المدينة ومثلوا به تمثيلا

وكان بمدينة رومة رجل من عائلة قديمة ماجدة يبسط الكرم يده ويعد الشجاعة ساعده اسمه مرقوس أوطون وكان مشهورا بسعة الانفاق متقللا بالدون المبذل فى مواساة الرفاق فاتفق أمراء العساكر على توليته المنصب واتحدت كلمتهم على ذلك قولا فكانت مدة تملك غلبا المذكور سنة واحدة فقط

(فى الملك مرقوس أوطون قيصر)

ثم قام بالامر مرقوس أوطون قيصر وبويع بالملك سنة تسع وستين الميلاد أى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة وريثما استقر به المنصب وبايعته رومة والديار المصرية كانت جنود الرومانيين فى بلاد جرمانيا قد بايعت أيضا وبطليوس وهو ابطالس الذى هو قائدهم فانقسمت الملك الدولة وفشل أمرها وقامت بين الفريقين حرب هائلة واجتمع الجمعان واصطف الفريقان فانهزم جماعة أوطون وانتصر أصحاب ابطالس فلما علم أوطون بانهزام أصحابه دخل مخدعه وقتل نفسه فكانت مدة حكمه ثلاثة أشهر لاغير واستقر المنصب للقائد ابطالس المذكور وفى أيام أوطون على قصرها ضربت السكة باسمه فى ديار مصر اذ كانت هى أول من بايعته ونقشت اسمه على بعض المبانى العمومية قال بعض الكتاب وهو باق الى الآن دون سلفه غلبا قيصر وخلفه ابطالس اذ لم يوجد لهما اسم بها ولا رسم وقد استعمل على مصر طيريوس اسكندر اليهودى فطالت مدته وسيأتى الكلام على وسپاسيانوس قيصر الذى مات فى أيامه ابنانو ثانى بطاركة الاسكندرية

(فى الملك ابطالس قيصر)

ثم قام بالامر ابطالس قيصر ارتقى المنصب الملوكى فى اليوم الذى قتل فيه أوطون الملك فى سنة تسع وستين للميلاد أى أواخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة فلما استقر به المنصب ذهب الى مقتل أوطون الذى قتل فيه وأظهر الشماتة والفرح وقال لقواد عساكره إن جثة العدو المقتول هنا لايزال يشم منها على طول الازمان وتداول الايام رائحة طيبة فدل ذلك على خسته وقلة مروءته ولؤم طبيعته اذ قصد بذلك أن هزيمة أوطون ستكون



سببا فى تنعمه وتلذذه بالمطعم والمشرب والانهماك فى اللذات والشهوات الحيوانية وكان ابطالس المذكور ضعيف البدن ضاوى الجسم شره النفس يقضى أكثر أوقاته فى الجلوس على الطعام وباقى ساعات يومه فى الاشتغال بجلب الاطعمة النادرة العزيزة الوجود من الاقطار الشاسعة والبلاد البعيدة وقد أحضرله اخوه فى يوم واحد ألفى سمكة وسبعة آلاف طائر من أغرب الطيور واندرها وجودا وطبخها له وأحضرها على مائدته ليشكره على ذلك فاستخف بها ابطالس وبالغ فى السعى حتى تسنى له ان جلب أكثر من ذلك وأعظم اظهارا لاقتداره وعلو نفسه

ولما لم يكن له هم سوى بطنه وقد ترك أمور البلاد وشؤن المملكة غير ناظر الا اشباع جوفه قامت عليه الرعية والوجهاء والاعيان ونادوا بخلعه فوافقتهم العساكر الرومانية والايالات المشرقية والديار المصرية وأجمعوا على مبايعة الامير وسباسيانوس القائد الشهير فلما أحس ابطالس بذلك أمر قواده بقتال وسباسيانوس والاحزاب فالتقى الفريقان واقتتلا قتالا عنيفا فانهزم أصحاب ابطالس وولوا مدبرين وأتى له الخبر بانكسار أصحابه وهزيمتهم وكان نائما تحت ظلال الاشجار كالبهيمة السائمة فلم يتحرك ولم تأخذه آخذة من الغم فلم يشعر الا وجنود وسباسيانوس قد احتلت رومة فهرب عند ذلك واختفى فى بيت لاحد حجابه فهجموا عليه وأخذوه ثم ساقوه الى أحد الميادين العامة وضربوا عنقه فى ليل ذلك اليوم فكانت مدة حكمه ثمانية أشهر أنفق فيها فى مطبخه ماقيمته نحو مائتى ألف ألف درهم ولم يأت فى هذه المدة بشئ غير التغالى فى جلب المآكل النادرة الوجود من البلاد البعيدة فسبحان من أودع فى كل قلب ماشغله

(فى الملك وسباسيانوس قيصر)

ثم قام بالامر الملك وسباسيانوس قيصر وبويع بالملك فى اليوم الذى قتل فيه ابطالس قيصر سنة تسع وستين للميلاد أى نحو سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة وكان سبب توليته هذا المنصب هوان السلطة الرومانية منذ أن صارت ملكية الى هذا الحين كان قد مضى عليها خمسون سنة وهى محافظة على ما كان لها من العز والفخر وبعد الكلمة ثم مالت بعد ذلك بتعاقب القياصرة الذين لارأى لهم ولاحزم عندهم الى الانحطاط والضعف وتنازلت عن درجتها القديمة وعن رفعة الشأن فتلاعب بها أخصامها داخلا وخارجا فكانت دولة فارس تغير على ملحقاتها المشرقية الكرة بعد الكرة وكان اليهود من رعاياها فى فلسطين يعتقدون ان حكم دين المسيح قدآن وقته وانه لابد من زعزعة أركان الدولة الرومانية عاجلا أوآجلا فكانوا لذلك لاينكفون عن القيام واثارة الفتن ويرفعون راية العصيان ويقاتلون ولاة الامور

قصد القناص وكانت الايالات الاخرى تحاول مثل ذلك وترغب فى الاستقلال وقد قام الامير قيوويليس الغلتكى وتحزب مع ايالة جرمانيا وطالب الدولة الرومانية بانفصال الايالة الغالية وما يتبعها وكذلك قام غيره من بقية الايالات حتى كادت الدولة تنحل وتمزق وكان فيها عائلتان شهيرتان بالمجد والبأس والكلمة احداهما تسمى العائلة الفلاوية والثانية تسمى العائلة الانطونونية فاجتهدتا فى رفع شأن الدولة واحيائه كلتها وأعادتاها كاد يذهب من رونقها وعقدتا الخناصر على ذلك وكان وسباسيانوس هذا رأس العائلة الفلاوية وكبيرها ولكنه لم يكن صاحب مظهر بل كان بألف الخمول والخمالة لم تكن شهرته واسعة ولا صيته بعيدا اذ كان جده من أحد ضباط الجنود فى خدمة بومبيوس وكان أبوه صيرفيا وأما وسباسيانوس المذكور فقد كان بطلا باسلا ومقداما فاضلا له الحظ العظيم فى الفضائل العسكرية والنصيب الوافر فى المعارف الملكية وكان عصاميا لا عظاميا ولكن كان فيه بعض الشح والبخل وكان له مودة كبيرة ومداخلة مع طيباروس الاسرائيلى نائب مصر فلهذه الاسباب كلها وبغض الرعية فى ايطاليا قيصر توسط طيباروس نائب مصر فى مبايعته وخلع بيعة ايطاليا وحمل دوان الاسكندرية على الاعتراف بولاية وسباسيانوس المذكور وسبق جميع دواوين الايالات الرومانية فى ذلك فبايعه وتم لوسباسيانوس الامر ولكنه لم يحفظ هذه الفعلة لطيباروس بل أنكرها وجازاه عليها بقتله اذ لم يمض على توليته الملك الاستقلال حتى أمر بقتله وولى مكانه على مصر لوبوس وذلك سنة سبعين للميلاد أى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة

ولما آل الامر لوسباسيانوس المذكور ضاعف الخراج وزاد العوائد وجاوز الحد فى ضرائب الأموال واحداث المكوس التى لم تكن قبل عهده وبلغ من طمعه انه كان لا يستحى ان يقاسم خدمه وحشمه وأتباعه فى الاموال المستفادة لهم من الشفاعات وكان لا يقيم عمالة الامن المشهورين بالطمع والبخل والشح فاذا استغنى أحدهم مال عليه وصادره واستصفى ماعنده وكان يشبه عماله بالاسفنج ويقول ان الاسفنج اذا عصر خرج مافيه من الماء فكذلك الولاة والعمال وكان مع ذلك حسن التدبير عظيم الرأى مسموع الكلمة قوى السلطان شديد البأس فى القبض على زمام الحكومة وسد أبواب خللها فأحبه الرومانيون كثيرا ومالوا اليه وفرحوا به فزاد همة واقداما وأكثر من الاصلاحات النافعة والاعمال الحسنة فازدانت به أيامه وافتخرت بأحكامه ثم نظر الى الفتوحات والغزوات فغزا بيت المقدس وفتحه واستولى عليه بعد قتال مع اليهود عنيف جدا وكان أقام ولده طيطوس على حصاره وعاد هو الى ايطاليا فضيق عليه وشدد حتى أخذه عنوة وهلك فى هذه الواقعة من اليهود مائة ألف نفس بالقحط والاسر فكانت هذه الحرب تمام تخريب بيت المقدس ونهايتها كما أنذر المسيح رسله حيث قال لا يبقى من هذه المدينة حجر على حجر فهكذا كان ومن هذا الحين تفرق شمل اليهود فى الآفاق وتمزقوا كل ممزق وانتشروا فى الاقطار وتفرقوا أيدى سبا شرقا وغربا وانقرض ملكهم ولم يقم لهم بعدها قائمة فى شام ولا مصر ولا عراق

ولما افتتح طيطوس بيت المقدس وظفر باليهود وقهرهم عاد اليه جميع النصارى الذين كانوا عبروا الاردن وبنوا كنيسة به واستوطنوا فيه آمنين مطمئنين فكان الاسقف فيهم يومئذ سمعان ابن عم يوسف النجار خطيب مريم أم يسوع المسيح وهو الثانى من أساقفة القدس

ومع ما اتصف به وسباسيانوس الملك من حسن السياسة واشتهر به من العدل فان مصر لم تسلم فى أيامه من الجور والعسف بما جدده فيها من المغارم والمكوس التى لم تكن من قبل ووكل بجمعها أرباب الخيانة من أعوانه فكانوا لا يرعون للمصريين إلا ولا ذمة ولا يرحمون فيها ضعيفا فشكوا أمرهم لوسباسيانوس وتظلموا فلم يقبل منهم صرفا ولا عدلا فكانت شدة عظيمة الغاية

ومرض وسباسيانوس مرضا شديدا جدا فكان يتجلد ولا يتأوه من علته وطال مرضه مدة فلما احتضر دخل عليه كاهنه فقال له وسباسيانوس معرضا بمعتقد الرومانيين قد آن وقت تقديس نفسى بالروحانية وتظمى فى سلك الارواح العلوية وكانت عادة الرومانيين انهم اذا مات ملكهم روحنوه ونظموه فى سلك العلويات وعدوه فى عداد الروحانيات فلما شعر بخروج روحه من ضلوعه تجلد وتوكأ على يدى زوجته واستند وقام من فراشه على أقدامه وقال ويحك يازمان يجمل بالقيصران لايموت الا قائما فخرجت روحه لوقته وله من العمر تسع وستون سنة وذلك سنة تسع وسبعين للميلاد أى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه عشر سنين وتولى بعده ابنه طيطوس وكان فى أيامه المتوفى أمر البطريكة بمدينة الاسكندرية حنانيا ثانى بطاركتها بعد مرقس الحوارى كما تقدم الكلام عليه فى محله ولم يحصل فى أيامه للنصرانية أمر يذكر

(فى الملك طيطوس قيصر)

ثم قام بالامر ابنه طيطوس قيصر بويع بالملك سنة تسع وسبعين للميلاد أى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة قبل الهجرة وكان قبل توليته لايعهد فيه الا القسوة والجبروت والسفاهة والاسراف ووضع الامور فى غير موضعها لاسيما مابدا منه عند حصار بيت المقدس وما فعله من كثرة القتل واراقة الدماء والاسر والنهب حتى قيل انه عقل بجميع الخوارج الذين كانوا فى نواحى بيت المقدس مع الاسرى وكان يلقى منهم كل يوم للسباع فريسة الى أن أفناهم فلما صعد على سرير الملك سلك مسالك العدل والرشد وحسنت حاله وحمدت خصاله وحكم بالعدل والاحسان وقرب منه أهل الفضل وصلحاء الناس وكان عالما عاملا فهامة عارفا باليونانية واللاطينية وكان ملازما دائما للخير مخالطا للناس غير محتجب عن أصحاب الحوائج وطرد من

دوانه بطانة السوء وأهل السخرية وتنزه الا عن معاشرة أرباب الفضائل فاحبته الرعية حبا شديدا ولقبوه بنعيم الدنيا

ويحكى انه مضى عليه يوم ولم يعمل فيه عملا صالحا لرعيته فصاح فى الليل قد مضى يومى هذا سدى فوا أسفى واحزنى ووقعت فى أيامه حادثة انفجار بركان ايطاليا أى جبل النار المسمى (وزوف) وكان انفجاره عقب زلزال عظيم جدا وانفتحت منه فرجته فصارت تقذف المواد الملتهبة والرماد الغزير حتى غبر الفضاء واغبر شكله وكان على مقربة منه مدينتان عظيمتان احداهما تسمى (هرقولانوم) والثانية تسمى (بومبايس) فوصل اليهما ماقذفه هذا البركان من المواد الجرية والرماد وتراكمت عليهما هذه المواد حتى اغرقتهما وغطتهما وكان فى هذا العهد (بلينايس) الاكبر الحكيم الطبيعى حيا فذهب ليستكشف حقيقة هذه المواد واسباب هذا الحادث الغريب ودنا من البركان فهلك ولم يبق له من أثر قلت وما زال هذا البركان يهيج الى يومنا الذى نحن فيه ويقذف مافى جوفه من المواد النارية

وبعد حدوث هذا الحادث بنحو السنتين مرض طيطوس الملك بالحمى فدخل الحمام فمات فيه فجأة وذلك سنة احدى وثمانين للميلاد أى سنة احدى وأربعين وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه سنتين اثنتين وشهرين وكأنما كان ظهوره فى الدولة الرومانية ليتم ماانذر به المسيح من خراب بيت المقدس وليكون قدوة لملوك الرومانيين فى التحبب الى الرعية فقد كان عاقلا متواضعا لايحب العظمة ولا يميل الى التفاخر يذهب بنفسه بدون خدم ولا حشم الى حيث أرباب المجلس ليستشيرهم فى أمور الدولة واحتياجات الرعية والبلاد ويذهب وحده الى الميادين العامة بين الاهالى على اختلاف طبقاتهم لسماع المواعظ والخطب الادبية وكان يحب رعيته جدا وهم يحبونه حبا شديدا فلما مات خلفه أخوه دوميطيانوس

(فى الملك دوميطيانوس قيصر)

ثم قام بالامر أخوه دوميطيانوس قيصر بويع بالملك يوم موت اخيه طيطوس سنة احدى وثمانين للميلاد أى سنة احدى واربعين وخمسمائة قبل الهجرة ولم يستقر به المنصب حتى ظهر للناس انه هو الذى قتل أخاه طيطوس بالسم مع انه كان قبل تولّيته يظهر الادب ويتظاهر بطيب الاخلاق وحسن السيرة والرفق ولين الجانب وغير ذلك من المظاهر الكاذبة فلما قبض على زمام الملك عاث وظلم وطغى وتجبر فكان اشبه بنيرون الطاغية فى الميل الى اللهو واللعب والمصارعة والتولع بسفك الدماء والجراءة على قتل النفوس البريئة قال بعض أهل التاريخ وكان

اذا لم يجد من يقتله من الناس اشتغل بقص الذباب حتى لايغلق طرفة عين من اذاقة خلق الله طعم العذاب وكان شديد الجبروت يخترع العقوبات طرائق متنوعة لم تخطر على قلب بشر وكان اذا أراد قتل انسان فى غده أحضره عنده ليتناول معه الطعام و بالغ فى اكرامه وكان له قائد ماهر فى الحروب اسمه اغريقولا فسيره لغزو الابريطانيين الذين هم الانكليز فحمل عليهم وغزاهم بعسكره وانتصر عليهم انتصارا كبيرا وحضرهم الرومانيين وعاد الى رومة ومعه مالا يقدر من الغنائم وخلق كثير من الاسرى فلما دخل رومة وهو على هذا الحال من الابهة والانتصار غار منه الملك وحقد عليه وخشى من عاقبة امره فاستدعاه عنده يوما وسقاه كاسا مسموما فمات لوقته فحقد على الملك لذلك جميع الامراء واهل البلاد وأبغضوه بغضا كبيرا وتمنوا موته وتحرك بعد هذه الغزوة الى قتال ملك الفلاق والبغدان وجهز له الجند وساقهم لقتاله فلاقاه ملك الفلاق فلما احتدم بينهما القتال ترك دوميطيانوس عساكره واهمل أمرهم ولم يمدهم بالميرة ولا الزاد ولم يسعفهم بشئ من معدات الحرب فانخذلوا وانكسروا وانتصرت عساكر الفلاق عليهم وأسرت الكثير منهم وتعقبتهم حتى كادت تصل الى اسوار رومة فشق هذا الامر على الرومانيين وهاجوا ولم تتخلص المدينة من مضض التضييق الا بدفع الخراج لملك الفلاق والبغدان فأغرى الاهالى أميرا اسمه اصطفانوس بقتل دوميطيانوس والتخلص منه فقام اصطفانوس المذكور ودخل على الملك بوسيلة كتاب حضر به اليه وناوله الكتاب ففضه وبينما هو يقرؤه انقض عليه وطعنه بخنجره فازهق روحه وكان ذلك سنة ست وتسعين للميلاد أى سنة ست وعشرين وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة وبموته انقرضت العائلة الفلاوية وقامت بعدها العائلة الانطونوينية وسنأتى على ذكر ملوكها واحدا فواحدا

وفى أيام دوميطيانوس هذا مات حنانيا بطرك الاسكندرية بعد ان أقام فى وظيفته اثنتين وعشرين سنة وكان موته فى العاشر من هاتور سنة سبع وثمانين لظهور المسيح

وأقيم بعده ميليو وهو ثالث بطاركة الاسكندرية وقد كثر النصارى فى أيام ميليو المذكور ونموا وعاد الكثير منهم الى بيت المقدس بعد خرابه على يدى طيطوس بن وسباسيانوس كما تقدم بيانه فى محله واستوطنوه وعمروا ربوعه التى كانت اندرست معالمها وانمحت آثارها قال بعض أهل التاريخ وكان يقال بأن دوميطيانوس هذا هو ابن أخت نيرون قيصر ولذلك كان غشوما كافرا مثله وقد كان أمر بقتل جميع النصارى كما فعل خاله نيرون وحبس يوحنا الرسول مكبلا بالحديد وأمر بقتل جميع اليهود الذين من نسل داود حذرا من ان يقوم منهم ملك وكان يشدد عليهم الوطأة وقتل أبناء ملوكهم كافة ولم يبق منهم أحدا وكان يتعقب النصارى و يقتلهم لانه علم بأنهم يقولون ان المسيح يأتى ثانية فيملك جميع العالم وبحث عن أولاد يهوذا بن يوسف أحد الحواريين وحملهم الى رومة مقيدين بالاغلال وسألهم عن مجيء المسيح فقالوا انما يأتى عند انقضاء العالم فخلى عنهم وفى الثالثة

من ملكه طرد ميليو بطرك الاسكندرية وأقام غيره قلت وهذه الرواية لم يقم على صحتها دليل ولم تتناقلها أقلام الكتاب ونفى من رومة جميع الفلاسفة والمنجمين وأمر ان لايغرس بها كرم ولما مات تولى بعده الملك ﴿ نيرو ﴾ قيصر وهو رأس العائلة الانطونية

(فى الملك نيرو قيصر)

ثم قام بالامر بعده نيرو قيصر وهو رأس العائلة الانطونيسة بويع له بالملك فى اليوم الذى قتل فيه دوميطيانوس سنة ست وتسعين للميلاد أى سنة ست وعشرين وخمسمائة قبل الهجرة وتحرير الخبر انه لما تحزب جمهور الرومانيين على قتل دوميطيانوس انضم المجلس الرومانى الى المتحزبين بعد هلاكه ليولوا غيره فاجتمعت كلمتهم على تولية نيرو هذا وكان شيخا ايطالى المولد كريدى الاصل والجنس يبلغ من العمر سبعين سنة وكان فى السياسة جليل المذهب جيد الرأى يميز الغث من السمين ولكنه كان ضعيف القلب فاتر الهمة لايقوى على تنفيذ الاعمال فلم يستقر به المنصب حتى قامت عليه الرعية وكادت تخلعه حيث لم يكن من بيت الملك فتدبر أمره واستمال اليه ﴿ أولبيوس طريانوس ﴾ حاكم بلاد جرمانيا السفلى ثم تبناه وأشركه معه فى الملك فركب الامير أولبيوس طريانوس المذكور على الاحزاب ومزق شملهم وقتل كبارهم ومحا أثرهم فتمكنت شوكة نيرو وعلت كلمته وهابه الناس فأحسن السيرة وعدل وأمر برد من كان منفيا من المسيحيين وأباح لهم التمسك بدينهم وأرجع يوحنا الانجيلى الى مدينة أفسوس بعد سجنه ست سنين ومحا نيرو آية الظلم والجور وسلك سبل العدل والسداد فكان يصفح عن الجانى وعفا عن قتل الذين اتهموا بالعصيان والخروج عن الطاعة وعاقبهم بالنفى وأجلاهم عن البلاد لدفع الريبة ثم قتل العبيد والعتقاء الذين وشوا بساداتهم اضرارا بهم جزاء ارتكابهم النميمة فى حق مواليهم

ولما تمكن من الملك واستقر به المنصب ودانت له الامور وعلت كلمته لم يمض عليه بعد ذلك أكثر من ثلاثة أشهر حتى مات حتف أنفه فى سنة ثمان وتسعين للميلاد أى سنة أربع وعشرين وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه سنتين اثنتين وولى بعده شريكه أولبيوس طريانوس

(فى الملك أولبيوس طريانوس قيصر)

ثم قام بالامر بعده أولبيوس طريانوس قيصر سنة ثمان وتسعين للميلاد أى سنة أربع

وعشرين وخمسمائة قبل الهجرة وكان يوم وفاة ﴿ نيرو ﴾ قيصر منفيا فى الاقاليم الفرنجية التى على نهر الرين فأخذ له البيعة أرباب مجلس رومة وبعثوا اليه فتأخر عن الحضور وبالنسبة لما كان له فى قلوب الرعية من الهيبة والوقار وعظم الصولة لم تقم فى غيبته عن تخت الملك فتنة ولا حصل خلاف فى بيعته

وكان مولد طريانوس المذكور بمدينة مالقه ببلاد الاندلس وقد اشتهر بترفع النفس والافضلية على جميع أمراء الدولة الرومانية وكانت جميع الرعية تشهد بعلو درجته فى المزايا العسكرية فلما قدم الى مدينة رومة عقدوا له موكبا مجردا من الابهة والطنطنة فدخل المدينة غير مختال ولا معجب بمنصب السلطنة بل ماشيا على الاقدام وكان يبش فى وجه كل من يراه مقبلا التهنئة باسطا يده لمن أراد تقبيلها شاكرا لارباب الادعية والاثنية وما زال حتى استقر به الجلوس فأقبل الى الحاضرين بوجه باش وقال أحب ان أصنع مع جميع الناس ما كنت أحب أن يصنعه معى قيصر رومة لو بقيت فى أيامه معدودا من آحاد الناس فما أحبه لنفسى أحبه لاهل وطنى وأبناء جنسى

ولما استقر به المنصب بذل الهمة والجهد فى اصلاح شؤن البلاد حتى أعاد لها فخرها القديم وأرجع ما فقدته من المزايا والحقوق التى كانت لها على عهد الجمهورية وأباح لمجلس الاحكام التصرف بما تقتضيه مصلحة البلاد ورخص القضاة والحكام السلطة الغير المحدودة كل بحسب وظيفته ونهى عن أن يحكم القضاة على الغائب فى المواد الجنائية لان القضاء على الغائب الذى لا يدفع عن نفسه يعتبر فصل نزاع بدون اثبات ولذلك قال طريانوس فى هذا الشأن ان أصول الاحتياط ترجح جانب البراءة على جانب الجناية فلا يسوغ أن يحكم بعقوبة على متهم غائب لان الاصل عدم الجناية يعنى ان الغائب المتهم الذى يراد الحكم عليه بالجزاء يحتمل أن يكون مذنبا كما يحتمل أن يكون بريئا ولكن المرجح جانب البراءة لانها الاصل

وكان طريانوس المذكور حسن التدبير والادارة متبصرا فى عواقب الامور فخفف المكوس والعوائد وأنشأ القناطر والجسور ومهد الطرق والعقبات وجدد المين وأحسن مواقعها ومنها مينا انكونة على جون البنادقة بايطاليا لتكثير التجارات والمعاملات وأنجز هذا العمل الجسيم فى سنة لا غير فقابله أرباب ديوان رومة والاهالى ببناء هيكل بمدينة انكونة لتخليد ذكره وبقاء اسمه وجدد طريانوس كثيرا من المبانى النافعة وأنشأ مكتبة عظيمة الغاية وأقام فى مدينة رومة العمود المشهور المسمى ﴿ الطريانوس ﴾ وهو من الرخام الابيض ورسم عليه الحروب التى وقعت بين الرومانيين والفلاق والبغدان وجميع ما جرى من نصرة الرومانيين عليهم فى تلك الازمان

وكان لا يخالط الا أهل الادب وذوى الفضائل ولا يحضر مجلسه الا مشاهير الرجال وأكابر أهل الفضل والامتياز من الابطال وكان لارباب القضاء عنده منزلة عظيمة كما أنه كان يجل كثيرا أرباب

الحكمة والفلسفة ومن المقربين اليه الحكيم بلنياس الاصغر وكان هذا الحكيم من فحول الكتاب بجمع مناقب طريانوس قيصر هنا تذكرة للتأخرين

وغزا طريانوس بلاد الفلاق والبغدان وتغلب عليها وضمها الى الممالك الرومانية فاشتهر أمره وبعد ذكره في الآفاق فبعث اليه ملوك الهند سفراء يهنؤنه بهذا الانتصار ثم استعمل على الافلاق والبغدن بلنياس الحكيم المذكور فأحسن تدبيرها ووردت الى طريانوس الاخبار بخروج عرب الحجاز لشن الغارة على أملاك رومة المشرقية لقصد النهب وسبي النساء والاطفال وانهم قد تحركوا لذلك فسار الى آسية في كثير من عساكره وركب عليهم وقاتلهم فوقع بين الفريقين قتال عنيف وبذل العرب الجهد وأظهروا الشجاعة فهزمهم طريانوس شر هزيمة وملك الاقطار الحجازية وضمها الى أملاك رومة وذلك سنة عشر ومائة للميلاد أي سنة اثنتى عشرة وخمسمائة قبل الهجرة وقام بعساكره بعد هذه الغزوة بسنة الى بلاد فارس وغالبهم على ملكهم وأخذ أرمينة والجزيرة وبلاد الاكراد والعراق واليمن فزادت شهرته وعلت كلمته وهابته الملوك واجتمعت قلوب رعيته على محبته فسموه «افطيموس» ومعناه القيصر الكامل ولم تصدق كلمة جماعة المؤرخين على ذمه في شيء ما الا باضطهاده للمسيحيين وتبديد شملهم في الآفاق وقتله لسمعان بن كلاويا أسقف بيت المقدس واغناطيوس بطرك انطاكية فلقى المسيحيون في أيامه شدة عظيمة للغاية وتتبع أحبارهم بالقتل واستعبد عامتهم وسامهم الخسف وأذاقهم مر العذاب وكان كثير الفتوحات والغزوات فجاء في فتوحاته بالمشرق حتى دنا من البحر المحيط الهندي فلما قفل راجعا الى رومة أدركته المنية في طريقه فمات حتف أنفه سنة سبع عشرة ومائة للميلاد أي سنة خمس وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه تسع عشرة سنة وكان له آثار عظيمة جدا بالديار المصرية فحزن عليه جميع الرومانيين وغيرهم ممن حضر بلادهم كما حزنوا على طيطس من قبله

وفي عهده كتب يوحنا إنجيله ببعض الجزائر في السنة السادسة من حكمه وكان قد رجع اليهود الى بيت المقدس وكثروا فيه وصمموا على الانتقاض على طريانوس والخروج عن طاعته فبعث عساكره لحربهم فطالت الحرب بينهم وقاموا على كثير من المدن التابعة لرومة وحاربوها أيضا وزحفوا على مصر والاسكندرية وحاربوا من فيهما من العساكر الرومانية وقهروهم وأخرجوا من الاسكندرية لوبوس نائب مصر فأرسل اليهم طريانوس بدله مرطيوس مع جيش عظيم جدا فاشتدت الحرب بين الفريقين لاستمرار الفتن الداخلية المترتبة على المنازعات الواقعة بين يونان ويهود الاسكندرية وذلك لما بين الفريقين من العداوة واستمرت الحرب سجالا الى ان ملك أدريانوس قيصر وفي أيامه مات ميليو ثالث بطاركة الاسكندرية بعد ان أقام بطركا اثنتى عشرة سنة وتسعة أشهر على المشهور وهذا يدل على عدم تغييره فأقيم بعده كرشانو وهو رابعهم وكان من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله وبموت طريانوس قيصر المذكور خلفه ابن عمه ادريانوس قيصر

(فى الملك ادريانوس قيصر)

ثم قام بالامر ابن عمه ادريانوس قيصر وبويع بالملك بعد موت طريانوس سنة سبع عشر ومائة للميلاد أى سنة خمس وخمسمائة قبل الهجرة ويخبر الخبر أنه لما مات طريانوس ولم يعقب واذا استخلف العسكر بعده ابن عمه ادريانوس المذكور وبايعوه بالملك وكان يومئذ قائد جيوش الديار الشامية فلما بايعته العساكر بايعه أيضا أرباب المجلس والوجهاء والاعيان واستقر به المنصب فكان متباين الاحوال متناقض الخصال اذتارة يكون حليما وأخرى غضوبا وطورا يميل الى الفضائل وآونة الى القبائح والرذائل وكان لايحب الحروب ولا يميل الى الغزو وتوسيع نطاق البلاد بل يؤثر السلم والدعة والمحافظة على حدود بلاده وكان فى أكثر أيام ولايته جوابا ينتقل من ناحية الى أخرى وأكثر من الزيادة فى الضرائب والمكوس وضرب على جميع الاشياء مغارم أخرى فادحة ولم يساوه أحد من أسلافه فى الاكثار من تشييد العمارات والمبانى الجسيمة وكان يحب المعارف والآداب وله فيها مشاركة كبرى وكانت عيشته فى قصره عيشة هنيئة جدا وأشرك معه فى حكم البلاد رجلا يقال له قومودوس وروس من أسافل الخلق فوسمه لذلك الناس بخلل العقل والطيش وغضبوا عليه وقالوا انما أشركه معه لانه اخترع له صنفا من الفطير اللذيذ الطعم يستطيبه الفم ونوعا من الفراش يتمدد على بساط من الورد فى وسط الروائح المعطرة فوقع هذا الاختراع لديه موقعا عظيما فكافأه بهذا الاحسان الجسيم

وكان وروس المذكور أشبه بالنساء فى الحلاقة وقد اخترمته المنية قبل ادريانوس الملك بقليل من الزمن فأشرك بعده طيطوس انطونين وقد فرح الناس بموت وروس المذكور وخلاص البلاد منه

وكانت أيام ادريانوس كثيرة الخير والبركة على الديار المصرية الا أنه قد وقع فى خلالها بالاسكندرية فتنة عظيمة جدا بعد اخماد نار فتنة اليهود بها وذلك أنه ظهر فى ذلك الحين بديار مصر عجل جديد على شكل العجل (ابيس) معبود المصريين وكان المصريون اذا مات عجلهم اجتمع الكهنة منهم وغير الكهنة وتداولوا بينهم فى أمر المكان الذى يوضع فيه هذا العجل لتربيته ورضاعته حتى يتحققوا من ألوهيته وماهيته فكثر لذلك الجدال والخلاف فى تعيين المدينة أوالقرية التى يقيم بها العجل المذكور وقامت لذلك الحرب بينهم على ساق واشتد ضرام الفتنة وعلا لهيبها فى جميع البلاد لاهمية هذا الامر لديهم

فلما طرقت مسامع ادريانوس هذه الاخبار وكان يومئذ باقليم فرنسا سار مسرعا الى مصر ودخلها بعسكره وأخمد نار الفتنة وأزال الجفوة من بين المصريين واليونان واتخذ مدينة الفرما مقره وأصلح بناء تربة بومبيوس وزينها بأجل زينة ثم ساح فى أرجاء مصر

ففرح الاهالى به وضربوا السكة باسمه تخليدا لذكره وكانت هذه السكة من الحديد والرصاص فنقشوا عليها تاريخ سفره وصورة مدينة الاسكندرية على شكل انسان يستقبل الملك وهو قادم فى سفينة وصوروا القيصر يستقبل الزائرين من أهالى الاسكندرية كأنه يمد يديه للاسكندرية وتمد يديها اليه على سبيل المصافحة وصوروا على تلك النقود موكب القيصر وتقريبه للقربان وكذلك رسموا عليها من الجهة الاخرى سير القيصر على النيل وهو فى سفينة مقدمها على شكل قرن الخصب واليمن وضربوا سكة أخرى عليها صورته وصورة زوجته (سابينه) وعليها تاريخ ابتداء ملكه على المملكة الرومانية

ويحكى أنه أثناء سفره فى النيل جهة الصعيد مات ولده انطنيوس فحزن عليه حزناشديداجدا ودفنه هنالك وقد ساعد مملكة مصر على توسيع نطاق المعارف وتكثير العلوم وأنشأ فيها بعض العمائر ايذانا بقدومه الى مصر وكتب وهو يتجول فى انحاء البلاد رسالة الى صاحبله اسمه سربانوس من عظماء الرومانيين يقول قد استقصيت أحوال مصر واستقريت عوائدها واطلعت عليها اطلاعا كليا وكنت فى بادئ أمرى أخصها بالمدح واتحاشى ذمها فتبين لى بعد التأمل والنظر أنها عبرة لمن اعتبر فهى طائشة لاتدوم على حال ولاتنكف عن المشاغبة والمنافرة لاسيما فى أمور الدين ومايتولد منها على أن من لم يعبد منهم الشمس والعجل أبيس عد نصرانيا مع انه ليس كذلك بل الذين يزعمون منهم أنهم أساقفة على دين المسيح هم كغيرهم من المصريين الذين يحترمون الشمس والعجل ولا فرق فى ذلك بين الاسقف وحاخام اليهود وكل قسيس أو راهب أو عامى له فى الشمس والعجل احترام كبير قال وقد يغلب على فكرى انه لو أتى بطرك من بطاركة النصارى الخارجين عن ديار مصر ودخل مصر لشارك أهلها فى التمسك بهذه الاحترامات الدينية وربما اعتقدوا أن العجل والشمس (والمسيح) انما هم أسماء مترادفة وانها فى الحقيقة شئ واحد

واعلم أن أهل مصر دون غيرهم عيلون الى اختلاف الكلمة ويسرعون الى الغضب لاقل سبب أما مدينة الاسكندرية التى هى دار الحكومة ومقرها فهى بلدة مثرية غنية كثيرة الخير والبركات وليس أهلها أهل بطالة وكسل وأغلبهم حاكة الكتان وهم ميالون الى الصناعة لايستثنى منهم الاعرج والاعمى ولا المصاب بأشد الامراض فلايهملون الصناعة ولا يضيعون أوقاتهم الافى الكسب وكلهم عارفون بوحدانية المعبود حتى العامة منهم والحرافيش ولو كانت مدينة رفيعة الدرجة فى التربية والمدنية زيادة عما هى الآن لسادت على جميع المدن ومع ذلك فهى بكثرة أهلها وزيادة مبانيها واتساع أراضيها تستحق بأن تكون كما هى عاصمة الديار المصرية ولذا لم أمنعها شيأ من حقوقها بل منحتها جميع مزاياها القديمة وزيادة لتكون آمنة مطمئنة ولم أخرج منها الا وقد صار أهلها يحضرون بابى و يروس ولايخفاك مايصدر عنهم من المقال لمناسبة موت ابن انطنيوس فانا لاأتمنى لهم الاالنقمة عندهم

من الدجاج ليكسبهم كثرة الباه الموجب لقوة التوليد قال والا فصاح عن ذلك بأ كثر مما قلته يخل بالادب والحياء والواصل لكم بعض كؤس وأكواب مختلفة الالوان قد أهديتها كهان الهيا كل فوهبتها لك ولاخي ليطوف بها السقاة في المواسم والمحافل وانما يجب على صاحبنا افريقانوس أن يحترس من أن يكثر من الشراب بها فيعربد فلا يدع هوى نفسه يستولى عليه ويستعبده انتهى

وقد اضطهد ادريانوس اليهود وأباد منهم خلقا كثيرا جدا وبنى بيت المقدس وسماه مدينة ايليا وكان شديدا على المسيحيين فقتل منهم خلقا كثيرا وأمر بعبادة الاوثان وألزم أهل مصر على مايقال بحفر خليج من مجرى النيل الى مجرى القلزم أجرى فيه الماء الحلو ثم ارتدم بعد ذلك وهذا الخليج هو الذى ألزمهم عمرو بن العاص أيضا بحفره حتى جرى فيه الماء ثم ارتدم ثانية فلما بنى مدينة القدس رجع اليها اليهود واستوطنوها فبلغه أنهم على عزم الانتقاض وانهم أقاموا عليهم زكريا أحدذرية ملوكهم فبعث اليهم جيشا وتتبعهم بالقتل وخرب المدينة حتى عادت صحراء وأمر أن لايسكنها يهودى وأسكن اليونان بيت المقدس فكان هذا الخراب لثلاث وخمسين سنة من خراب طيطوس وهو الجلوة الكبرى وامتلأ بيت المقدس من اليونان فكان المسيحيون يترددون الى موضع القبر والصليب يصلون فيه فكان اليهود يرمون على هذا الموضع الزبل والكناسة ومنعهم اليونان أيضا من الصلاة فيه وبنوا هنالك هيكلا على اسم الزهرة

ثم مات ادريانوس الملك فى سنة ثمان وثلاثين ومائة للميلاد أى سنة أربع وثمانين وأربعمائة قبل الهجرة حتف أنفه

ومات فى أيامه كردونوس بطرك الاسكندرية فى حادى عشر برموده بعد مادبر الكرسى عشر سنين وكان حميد السيرة صافى السريرة ورعا تقيا ناسكا متعبدا محبا للفقراء والغرباء فخلا الكرسى بعده ثلاث سنين وقدم بعده ابريمو وهو خامسهم فأقام اثنتى عشرة سنة ومات فى ثالث مسرى وفى أيامه اشتد الامر على النصارى وضيق عليهم ادريانوس قيصر تضييقا عظيما وبالغ فى التنكيل بهم وقتل منهم خلقا كثيرا وقدم الى مصر وأفنى من بها من النصارى كما تقدم بيانه فى محله ولما مات ابريمو أقيم بعده يسطس وهو سادسهم وكان حكيما فاضلا محبا للخير وفعل البر وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله ان شاء الله تعالى

ولما مات ادريانوس الملك خلفه فى الملك شريكه طيطوس انطينينوس قيصر

(فى الملك طيطوس انطينينوس قيصر)

ثم قام بالامر القيصر طيطوس انطينينوس شريكه وبويع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه

ادريانوس

ادريانوس سنة ثمان وثلاثين ومائة قبل الميلاد أى سنة أربع وثمانين وأربعمائة قبل الهجرة وكانت العائلة الانطونينية التى منها طيطوس هذا من أمة الغالية الذين هم أسلاف الفرنسيس من أهالى مدينة نيمة وكانت هذه العائلة مصاهرة لأعيان ايطاليا وكان طيطوس مشهورا بكرم النفس وحسن التربية ذكيا حاذقا مطبوعا على مكارم الاخلاق محافظا على أسباب الراحة فى البلاد واذاعة الامن بين صنوف الرعية فلما استقر به المنصب بذل النفيس فى تقدم أسباب التجارة والصناعة والاعمال المهمة وكان يدقق النظر فى حسن الادارة والاقتصاد فى مصروفات المملكة فكانت فى أيامه الاموال مدبرة على وجه لم يسبق له مثيل وكان يسلك فى تدبير المملكة طريقة بسيطة خالية من كل زينة وبلغ الاقتصاد منه مبلغا عظيما حتى قيل انه لو تكفل بالانفاق على جميع الرعية على وجه السعة وعدم التقتير لأمكنه ذلك ثم انه أنشأ العمارات العظيمة والابنية الجسيمة النافعة للبلاد فكانت له هيبة عظيمة فى أعين جميع ملوك الامم ولم يكن فى وقته منهم من يساويه فى حسن السياسة والتدبير وظهر فى أيامه ببلاد الصين ملك اشتهر بالسياسة وحسن التدبير والحكمة اسمه (هيا كنغ تى) فكان هذا الملك يضارع طيطوس فى حب الرعية والميل الى عمارة البلاد فكان كثير الاهتمام بأمور الرعية وتحسين أحوالهم حتى حفظ له التاريخ ذكرا حسنا وظهر فى أيامه أيضا بديار مصر بطليموس المنجم صاحب الفلك ، قلت وبعضهم يجعل ظهوره فى أيام البطالسة كما سبقت الاشارة الى ذلك عند الكلام عليهم ، وكانت أيام طيطوس قيصر هينة لينة لاسيما فى ديار مصر اذ نالها منه مالا مزيد عليه من العدل فكثرت بها فى أيامه العمارات الاهلية والمعابد الأن يونان الاسكندرية كانوا كثيرى الفتن والعصيان والخروج على الولاة والعمال وقد خرجوا على نائب القيصر يوما فقتلوه وبالغوا فى الفتنة الى حد لم يسبق له مثيل فقدم عليهم طيطوس فى جيش جرار جدا ودخل الاسكندرية منصورا مؤيدا فقمع العصاة وقتل الاحزاب وأعاد الامور الى سابق مجراها فهابه الناس وخافوا من بأسه وجبروته

ثم مات طيطوس حتف أنفه سنة احدى وستين ومائة للميلاد أى سنة احدى وستين وأربعمائة قبل الهجرة فأسف على موته جميع الرعية لما له عليهم من الايادى البيضاء لاسيما مدينة نيمه وبلاد الفرنسيس لانها كانت مسقط رأسه فخلفه صهره مرقوريلس قيصر

ومات فى أيامه يسطس بطرك الاسكندرية فى ثانى عشرى بؤنة بعد أن أقام عشر سنين ولم يقع فى أيامه من الحوادث الدينية ما يستحق الذكر فخلفه (أوميانو) وهو سابعهم وكان حازما عالما تقيا محبا للفقراء وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

(فى الملك مرفوريلس)
(قيصر)

ثم قام بالامر مرقوريلس قيصر بويع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه طيطوس أى

سنة احدى وستين ومائة للبلاد الموافقة لسنة احدى وستين وأربعمائة قبل الهجرة وكان متمسكا بمذهب زينون الحكيم الفيلسوف المتقشف فكان من شبيبته زاهدا ورعا متقشفا لاينام الاعلى الفراش الخشن مداوما على الاعمال الشاقة وكان قبل توليته قد اشتغل بالآداب والعلوم الفلسفية فاتسعت دائرة علمه واشتهر بالمعارف شهرة عظيمة فلما أتم علومه وتمكن منها دعى للملك ولما استقر بالمنصب بنى على ماأسسه أسلافه الثلاثة من حسن السياسة والتدبير وتمم ماشرعوا فيه من المقاصد النافعة وزاد عنهم فى اتباع القوانين والتمسك بها وشدد فى اجرائها وأكد على العمل بموجبها

وأشرك معه بغير فكر ولاتأمل فى ادارة أمور المملكة ﴿ لوقيوس وبروس ﴾ بن ﴿ وبروس ﴾ الذى كان شريكا مع ﴿ ادريانوس ﴾ فنجم عن ذلك أمور كثيرة سنأتى على ذكرها فى محلها

وكانت أيام مرقوربلس المذكور وأحكامه حسنة ولولا ما وقع فى خلالها من الحوادث القضائية لعدّت كلها من أسعد الايام على البلاد وأهلها فقد وقع فى أيامه وباء عظيم جدا هلك به مالا يحصى من الخلق فكان لايوجد من الاحياء من يدفن جثث الموتى وفاض فى أيامه نهر رومة فأغرق جميع الاقاليم الوسطى بايطاليا وقحط الناس سنتين كاملتين واستسقى لهم المسيحيون يومئذ فاستجاب الله سبحانه لهم وأمطروا وكذلك تضرعوا وصلوا وصاموا فاستجاب لهم وارتفع الوباء والقحط وكان المسيحيون فى هذا الحين فى شدة زائدة جدا من مرقوربلس اذ كان قد تتبعهم بالقتل وأفنى منهم خلقا وهى الشدة الرابعة التى حلت بهم بعد نيرون الملك كما سيأتى الكلام عليها فى محله ✽ وحصل أيضا فى أيامه زلزلة شديدة جدا اضطرب منها العالم بأسره وكادت تدمر المسكونة وأغار ملك العجم على أملاك رومة الشرقية وكذلك أغار الجرمانيون الساكنون بسواحل طونة على الاملاك المغربية وأكثروا من الكر والهجوم المتتابع حتى كادا يقتسمان المملكة ويأخذانها ✽ وكانت مدينة رومة فى هذا الحين يحكمها ما كان يختلفان فى الامر والنهى فى سائر أملاك رومة وتحرير الخبر أنه لما كان مرقوربلس الملك قليل الحزم حريصا بقدر الاستطاعة على شؤن البلاد أشرك معه فى تدبير أمور المملكة لوقيوس وبروس بن وبروس شريك الملك ادريانوس فكان لوقيوس المذكور فى خسة أبيه وبروس ودناءته مجردا من كل صفة جيدة وخصلة طيبة حيث قضى عمره فى الحانات ومحال اللهو واللعب فكان قلما يخلو من السكر والعربدة ومخالطة الاباوش فلما أغار العجم على ماجاورهم من أملاك رومة الشرقية فوض اليه الملك أمر دفعهم وطردهم وأناط به ايقافهم عند حدهم فقام ومعه قائد من القواد اسمه اويدوس قسيوس وكان من أشجع القواد وأكبرهم معرفة بفنون الحرب فسلم لوقيوس الامر اليه فركب أويدوس على الاعداء بجيوشه وهزمهم وطردهم وتتبعهم بالقتل حتى ألجؤا الى حدودهم وحاز فخر الانتصار وشرف الغلبة وقد كان لوقيوس فى أثناء القتال يلعب

مع أرباب الهزء والسخرية لايفكر فيما عسى أن يحل بالجيوش ولم يقترب قط من ساحة الحرب ولا علم بما جرى حتى أتاه أوبدوس القائد وبشره بالنصر على الاعداء وكان أوبدوس المذكور أميرا ماهرا حازما مشددا على جنوده قوىّ البطش متمسكا بالاصول العسكرية وكانت جنود المشرق المقيمون من قبل رومة فى الاقاليم قد ألفوا العوائد المشرقية من الخمول وفتور الهمة والكسل فكان قدوم أوبدوس عليهم غاية فى الاهمية حيث أحكم سياستهم ودبر أمورهم وشدّد عليهم فحسنت حالهم جدا

وكما أن لوقيوس وروس قد أنيطت به حماية البلاد المشرقية ودفع العدو عنها فكذلك قام مرقوريلس شريكه لحماية البلاد المغربية والذب عنها من غارات القبائل الشمالية فوصل اليهم فى وقت الحاجة وذلك أن قبيلة (المرقومان) التى هى احدى القبائل المتبربرة كانت قد اجتازت جبال (الب) كأنها حمر مستنفرة تريد الاغارة على بلاد ايطاليا فسار اليها مرقوريلس وطردها وبدد شملها ومزقها كل ممزق فاستتب الأمن وتوطدت الراحة غير أنه لم يمض على ذلك الا ثلاث سنوات حتى قامت ثانية أمة الجرمان وانضمت الى قبائل أخرى متوحشة كقبائل (الىندوان) وهم قبائل الاملسين والسربرة والالان وسارت الى ايطاليا لقصد حيوش الروماسيين والتغلب على البلاد فبادر الملك مرقوريلس الى جمع الارقاء والمصارعين وجمع أهل الكسل والبطالة ونظمهم فى سلك العسكرية وباع جميع الامتعة التى فى دار الملك لنفقة الجنود وسار الى الاعداء بجيش جرار والتقى الجمعان فحاصرته القبائل هو وعساكره وأحدقوا به من كل جانب وقطعوا عنه الامداد والميرة وسدوا عليه المسالك وكاد يهلك هو وجيوشه عطشا وحرا وبينماهم على هذا الحال من الضيق والموت اذ هبطت الامطار وانهمل الغيث وأغاثهم المولى سبحانه فشربوا وارتووا وزال عنهم البأس وقاموا على الاعداء قومة رجل واحد فانتصروا عليهم وفازوا فوزا عظيما وأعملوا فيهم القتل حتى مزقوا شملهم وكان المسيحيون منهم قد استسقوا لهم بصفاء نية فاعتقدوا جميعا أنه لم تحصل لهم السقيا الا بدعاء القسوس والاحبار وقد آمن القيصر بذلك واعتقد صدقه وعده من كرامات الديانة المسيحية وقد كانت هذه الديانة عنده من أكبر الكبائر فكتب فى الحال الى مجلس رومة يوصيه خيرا بالملة المسيحية وأن لايحصل للنصارى من الآن شئ من التعدى والاذى وندم على ما فرط منه فى حقهم وأباح دخول الدين النصرانى فى جيشه فكثرت النصارى فى معسكره وانكف الأذى عنهم زمنا

ثم عاد الولاة والعمال فتعرضوا لهم فى غيبة الملك ومدت لهم يد العدوان وعلى الخصوص فى بلاد الغلية وكان المسيحيون قد كثروا فيها كثرة بالغة فأضعفوا قوة ظهورهم ودكوا شوكتهم غيرة وحسدا

وقد نقش المصريون على كثير من المبانى اسم مرقوريلس ولوقيوس تخليدا لذكرهما على ممر الايام وقام منهم فى أيام مرقوريلس ولوقيوس المذكورين عدة أحزاب قد شقوا عصا



الطاعة وخرجوا على النائب يومئذ وكان يرأسهم رجل اسمه ﴿ازيدور﴾ باغراء أحد الكهان المصريين فقاتل ﴿أزيدور﴾ وأصحابه عساكر الرومانيين فى جميع البلاد المصرية وهجم على مدينة الاسكندرية وقاتلها قتالا عنيفا جدا فركب النائب وهو أودوس قسيوس وقاتلهم وأجلاهم عن المدينة وسار خلفهم حتى ظفر بهم وبدد شملهم تبديدا وتتبعهم بالقتل أينما حلوا حتى أوشكوا أن يفنوا عن آخرهم ولما رجع الى الاسكندرية مظفرا منصورا أخذته نخوة الانتصار وتاقت نفسه الى الخروج والاستقلال بملك البلاد فسعى فى طلب الملك واستمال اليه الجنود فبايعه العسكر المصرى قيل وأعانته على ذلك زوجة مرقوريلس الملك حيث كانت تميل الى خلع زوجها لغرض من الاغراض

وكان لاودوس قسيوس النائب المذكور ولد اسمه ميطانوس وكان نائبا على الاسكندرية فسعى فى أخذ البيعة لأبيه فأخذها ولم يتمكن أودوس من المنصب الملوكى حتى قامت عليه العساكر وقتلته هو وولده ميطانوس فكفى الله مرقوريلس الملك شر القتال واستتب له الامر

وكان مرقوريلس كريم النفس رفيع الهمة يعفو عن المذنب ويصفح عن الجانى وقام الديار مصر ليصلح ماأفسدته الفتنة من أحوالها فوصلها وقبض على رئيسى الخوارج الاثنين ونفاهما وعفا عن بقية الاحزاب واستجلب قلوب الاهالى واستمال نفوس الرعية وعامل الجميع بحسن المعاملة فارتكز فى قلوبهم أمر مجده وعلو همته وأحبوه محبة عظيمة جدا ثم رجع الى غزو القبائل الشمالية ثالثة اذ كان قد غزاهم غزوتين فلم تتم له الثالثة حيث مات بالوباء فى سنة ثمانين ومائة للميلاد أى سنة اثنين وأربعين واربعمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه نحو تسع عشرة سنة

وكانت أيامه كأيام بقية العائلة الانطونية أزمان صلح وسعادة على الامة المصرية ولكنها لم تتمتع بهذه السعادة صافية بلا كدر باسباب الفتنة العظيمة التى قامت فيها وطالت أيامها فأريق فيها من الدماء شئ كثير جدا وفى أيامه مات ﴿أومانيو﴾ بطرك الاسكندرية بعد أن أقام عشر سنين فأقيم بعده ﴿مركيانو﴾ وهو ثامنهم فلبث تسع سنين وستة أشهر ومات فى السادس من طوبة سنة خمس وخمسين ومائة للميلاد وكان عالما حبرا فهامة ورعا تقيا محبا للخير وأهله فأقيم بعده ﴿كالانيانو﴾ وهو تاسع بطاركة الاسكندرية وكان من أمره ما سيذكر فى محله

ولما مات مرقوريلس الملك كاتقدم تولى الملك بعده ابنه قومودس

(فى الملك قومودس)

﴿قيصر﴾

ثم قام بالامر ابنه قومودس قيصر بويع له بالملك فى اليوم الذى توفى فيه والده سنة ثمانين

ثمانين ومائة للميلاد أى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة قبل الهجرة فكان لايؤمل من ظاهر حاله فعل شئ من الحسنات ولايرجى خيره لما ظهر منه من أيام صباه من الخشونة والجفاء وذلك انه طلب فى يوم من رئيس الحمام أن يهيئه له ففعل فدخل فوجد الماء بالغا من الحرارة حد الزيادة فغضب وأمر بالقاء رئيس الحمام فى نار المستوقد ويضاف الى هذا الفعل الشنيع أيضا كراهة الاهالى له واعتقادهم فيه العقوق والخشونة فانه لما كان مع أبيه فى غزوة النمسا ومات أبوه هناك اتهموه بقتله وقالوا انه دس له السم فى الدسم فكان لذلك ولغير ذلك من الاسباب مغضوبا عليه وقد بويع له بالملك بمدينة فينا ببلاد النمسا فى وسط معسكر أبيه حيث كانت الحرب قائمة وموقد هناك كما تقدم وكان أبوه قد بنى بتلك الجهات قلاعا وحصونا وأعدها للتترس والدفاع فترك قومودس تلك القلاع وانسل من تلك البلاد وعاد الى رومة يختال بنفسه وبيده مرآة ينظر فيها الى حسنه ودخل المدينة بموكب عسكرى على هذه الحالة وهو فى وسط الموكب كانه المؤيد المنصور وكانت أيامه محفوفة بالمكاره فانه لعظم قامته وجليل هامته تعلق بصنعة البهلوانية ومال الى مصارعة أصحاب القوة والبأس فبرع فى هذا الفن وحارب يوما فيلا عظيما فضربه فألقاه على الارض قتيلا وقتل أيضا فى يوم واحد خمسة أفراس بحرية وفى هذا اليوم بعينه طعن أيضا مائة أسد بمائة سهم فقتلهم فزادت نفسه كبرا وعتوا وسمى نفسه (هرقول الرومانيين) تشبها بهرقول اليونان الذى تحكى عنه العجائب والغرائب فى قتل الغيلان وتنظيف البقاع من الاسود ولذلك شوهد اسمه معنونا فى بعض التواريخ بعنوان (هرقليانوس)

وكانت لاتهمه مصالح البلاد ولا حاجات خلق الله ولا يأنس الا بمجانسة المصارعين وأهل المحاطبة والمغالبة وكان يظهر معهم بمظهرهم فى المحافل بلا احتشام ولا كلفة وينازلهم ويصارعهم وهو متزى بزيهم * وكان فى مدينة رومة تمثال للشمس على صورة جسيمة للغاية فرفع قومودس رأس هذا التمثال ووضع مكان الرأس صورة شخصه وكتب على أسفل التمثال ما معناه

(قد انتصر قومودس على ألف مصارع ليخلد ذكر مهارته فى المصارعة)

ولم يعتكف أحد على هذه المثالب اعتكافه وكان اذا خلا بنفسه فى قصره قتل الناس بغير ذنب وأراق الدماء وكان مغرى بسلب الاموال والارواح مغرما باطماع نفسه واتباع هواه وكان يسلى نفسه ويروّحها بتعذيب من يريد قتله من خلق الله فيخترع فى كل يوم نوعا من العذاب جديدا فلما ضاق الاهالى منه ذرعا قاموا عليه وخرجت العسا كرعن طاعته ودسوا الى معشوقته (مرقيا) فسقته سما فلم يؤثر فيه فلما شاع الخبر بذلك قام عليه أحد المصارعين وهو من أشدهم واسمه (نرجس) وطرح نفسه عليه وضمه بين ذراعيه وقدميه فتصارعا حتى صرعه وخنقه وتم مصرعه ففرح الناس بموته وبموته انقطعت العائلة الانطونية وذلك فى سنة ثلاث وتسعين ومائة للميلاد أى سنة تسع وعشرين

وأربعمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة وتولى بعده برطيناش قيصر الذى يقال له أيضا غرديانوس . ولم تكن ديار مصر فى أيام هذه العائلة فى حالة هناء وسعادة كما كانت من قبل فقد قامت فيها الفتن وتتابعت وعمت الاحن وخرجت الرعية على الولاة والعمال فقتلتهم وقتلت الكثير من الجند وفعلت ما لا يدخل تحت حصر . وكانت الديانة المسيحية فى أيام هذه الدولة آخذة فى النمو والانتشار وكان ملوكها يبغضون التمسك بها بغير تهديد ولا تشديد ومع ذلك فقد كان الدين المصرى القديم لم يزل مستعصما به وهو الكثير والغالب فكانت عبادة الشمس والقمر منتشرة فى البلاد يتبعها اليونان والروم والغرباء المتوطنون بلا فرق ولا خلاف

وفى أيامه مات (كلاديو) بطرك الاسكندرية فى التاسع من أبيب بعد أن أقام أربع عشرة سنة وكانت أيامه هادئة مطمئنة لم يحصل فيها للنصرانية ما يكدر صفو راحتها فتقدم بعده (اغريبو) وهو عاشرهم وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

(فى الملك برطيناش)

(قيصر)

(أو غرديانوس)

(قيصر)

ثم قام بالامر برطيناش قيصر سنة ثلاث وتسعين ومائة للميلاد أى سنة تسع وعشرين وأربعمائة قبل الهجرة وكانت مدته قصيرة جدا وتحرير الخبر أنه لما مات قودموس الملك اجتمع الاحزاب وبايعوا برطيناش هذا بالملك وله من العمر يومئذ ستون سنة وكان أبوه تجارا رومانيا من الموالى فرباه وأحسن تربيته فصار فى أول الامر معلما للغة اللاطينية وكان ذا همة عالية فلم يقنع بهذا العيش وانتظم فى جند انطنيوس قيصر واستخدم فى عسكر الشام ثم خدم ويروس الملك ففاق أقرانه واشتهر فى حروب العجم وغيرها من بقية الغزوات فلما تولى مرقوديس الملك كان يبغضه فى أول أمره ثم لم يلبث أن مال اليه وأحبه وجعله من أخصائه وأدخله فى أعضاء مجلس رومة ثم قلده قيادة فرقة من الجنود فهابه أعداء الرومانيين وصار له شهرة كبيرة بحسن السياسة فلقبه مرقوديس بلقب قنصل الرومانيين فلما استقر به المنصب ظهرت عليه علائم الحلم والدعة والتحبب للناس والميل الى العدل ولم يلبث أن أخذ يصلح شأن الدولة ويرتب أمور المملكة مع الحزم والتدبير فى الاموال وشيد أركان المعارف والعلوم بقدر

ماتقتضيه

ماتقتضيه مصلحة البلاد وقلل المصاريف الابغير الحاجة فكان ذلك باعثا لاثارة خواطر الامراء عليه وبعقدهم النية على قتله حيث سد عليهم أبواب الصرف والانفاق فاجتمع من الاحزاب المقاتلين المشاة تحت رياسة أميرامه لوطوس واصطفوا صفوفا منتظمة وأحاطوا بقصره من جميع الجهات وقبضوا عليه وذبحوه فكانت مدة حكمه ثلاثة شهور ليس الا وتولى بعده ديديوس يوليانوس فى نفس هذه السنة فكان حظه من الملك كحظ سلفه كما سيأتى

(فى الملك ديديوس يوليانوس)
(قيصر)

ثم قام بالامر ديديوس يوليانوس بويع له بالملك فى اليوم الذى قتل فيه برطيناش سنة ثلاث وتسعين ومائة للميلاد أى سنة تسع وعشرين وأربعمائة قبل الهجرة وتحرير الخبر أنه لما قتل الاحزاب برطيناش الملك وخلا المنصب من ملك وولى عهد اجتمعت كلمة الامراء والاعيان وقواد الجنود على أن يضعوا المنصب الملوكى فى المزايدة وأن يلتزم به من يشتريه فيكون نوعا من المقاطعات الالتزامية يستفيده من يكثر فى العطاء ولما استقرت القاعدة بينهم على ذلك صعد على أسوار الرباطات العسكرية فى الشوارع والمسالك عدة أشخاص وأخذوا يصيحون على العامة وأبناء السبيل بالنداء ان المملكة الرومانية فى المزاد لمن يسوم ثمن تغالى فى الاموال وتولى منصبها فحضر اثنان من السوّام فى محفل المزايدة أحدهما سولبقيانوس صهر برطيناش الملك والثانى ديديوس يوليانوس فسام الاول المنصب بخمسة آلاف من الدراهم على كل رأس رومانية وجعل العهدة فى ذلك على الفرز والاحصاء وأبلغه الثانى على كل رأس ستة آلاف ومائتين وخمسين فاستقر البيع للثانى فبايعوه فى الحال على التزام هذا الثمن و بايعه كذلك مجلس الاعيان رغما عما يعلمه من فساد هذا الامر ومغايرته للآداب والناموس

فلما استقر المنصب بديديوس على هذا الوجه عقدوا له موكبا وساروا به الى قصر الملك فقام عليه العامة واجتمعوا وصاروا يسبونه ويرجمونه ثم بعد قليل من الايام اجتمع العسكر المرابطون فى الحدود وانتقضوا على أمراء رومة وأعيانها وقوادها وبايع عسكر كل اقليم ملكا اختاره من قوادهم وكادت تتمزق السلطنة كل ممزق فقد بايع العسكر الشامى قائده بالملك وبايع العسكر الابريطانى قائده كذلك وبايع العسكر الايطالى أميرهم سبطيمس سويرس ملكا على سائر الرومان وتفرقت الكلمة وتباينت الاغراض وكثرت المطامع و باتت أمور البلاد فى خلل وارتباك عظيمين وكان ديديوس الملك فى هذا الوقت مستقرا برومة يتمتع بزهوة المنصب ويتصرف فى أمر الحكومة غير مبال بما يتهدده من الفتنة ٭ وبينما

هو على هذا الحال قام عليه أعضاء المجلس الرومانى واتهموه بالخيانة وبفساد الامر وحملوا بالحكم عليه بالقتل فقتلوه فكانت مدة حكمه شهرين اثنين وقد اجتمعت الكلمة فى خلال هذه الحوادث على تولية سبطيمس سويرس أمير العسكر الايطالى وقد ساعده الحظ بقرب معسكره لمدينة رومة وكان موصوفا بحسن التدبير وسداد الرأى فسار صوب رومة ليتم له الامر فبايعوه

(فى الملك سبطيمس سويرس)
(قيصر)

ثم قام بالامر سبطيمس سويرس قيصر وبويع له بالملك عقب موت ديوديوس الملك سنة ثلاث وتسعين ومائة للبلاد أى سنة تسع وعشرين وأربعمائة قبل الهجرة وكان من بلاد المغرب من مدينة (لبوده) احدى مدن افريقية وكان قد تزوج بزوجة شامية قد اشتهر بها ولذلك قال جماعة المؤرخين انه أول سلسلة القياصرة الشامية وكان طاغية من طواغى ملوك الروم وكان فى أيام صباه يحب اللعب بما كان حركات القضاة والحكام ويقلدهم فى ألعابه وهزلياته فكان يجمع أنداده من الصبيان ويجعل نفسه رئيسا عليهم ثم يوزع عليهم مصالح المحكمة ووظائفها ويصفهم على هيئة مجلس قضائى ويصعد على منبر القضاء ويصفهم أيضا حوله ويتذاكر معهم فى قضية يخترعها ثم يقول حكمت بذلك فلما تولى المنصب وكان يومئذ خارج مدينة رومة بادر بالمسير اليها ومعه جيش جرار يبلغ الستين ألف مقاتل فلما أشرف على المدينة شافه أعضاء المجلس وأرسلوا اليه من قبلهم رسلا ليهنؤه بالمنصب فلما وصلوا اليه وهم منهم وخشى أن يكونوا جاؤا لمكيدة وارتاب فى اخلاصهم نظرا لاخذه المنصب بغير استحقاق فأمر بهم ففتشوهم فلم يجدوا معهم شيأ فأمر بحلولهم بين يديه وأجزل انعامهم وبالغ فى اكرامهم فقبلوا انعامه خوفا منه ودخل المدينة بجيوشه غير مبال بما للمجلس من الحرمة والوقار وتكلم فى وسط أرباب المجلس بانه لايحكم الابالعدل ولايسلك الاسبل الانصاف فقبلوا كلامه ولكن على غير اخلاص وهيؤا له موكبا فسار حتى دخل القصر فى كبكبة وأصبح بمجلس النظر فى القضايا فكان أول شئ بدا منه هو ابطال جند الحرس الذين قتلوا برطيناكس الملك وصرفهم الى أوطانهم وعاقب رؤساء تلك الفتنة ومهد أسباب الراحة ثم أخذ فى تنظيم أمور البلاد وترتيب أحوال الرعية وشدد على خروج جند الحرس وأمر بقتل من يتخلف منهم فى المدينة وانتخب خمسين ألفا من الابطال لحراسة تخته ورتب لهم أصولا جديدة

ولما كان لابدله من الخروج لقتال بسقنيوس نيجر قائد عساكر الشام ومصر والبلاد

المشرقيـة (وقلوديوس البينوس) قائد العسكر الابريطانى الذين كانا خرجا طلبا للملك ولم يتم لاحدهمـا أمر وكان لايتأتى له مقاتلة الاثنين فى وقت واحد مع استدعاء الحال لذلك رأى ضرورة مشاركة أحـدهما له فى سياسة البـلاد فأشرك معـه (قلوديوس البينوس) قائد العسكر الابريطانى ولم يشرك بسـقنيوس نيجر حيث كان عـدوًا ألد وخصما لايرد وجـدته وكيل على الايوان القيصرى برومـة وكان بسـقنيوس المذكور قـد تربى فى العسكرية فى أيام ملك مرقوريلس فكان الجنود يحبونه جـدا مع شـدته وحـدته وكانت جميع الديار المصرية قائمة معـه على ساق وقدم وقد بايعته بالملك عليها وعلى جميع المشرق وكتب ديوان الاسكندرية على باب مدينة الاسكندرية (نيجر سيد هذه المدينة وصاحبها) فسار سبطيمس لقتاله سيرا حثيثا ليأخـذه غيلة فلما قدم الى مصر بجيوشه تمثل بين يديه أهـل الاسكندرية وازدحم على بابه عامة الناس ورعاعهم وأظهروا مزيد الفرح باقباله وصاحوا (نيجر سـيد هذه المدينة وأنت يا ملك سيد نيجر) فاستعمل على مصر عاملا من أرباب مجلس رومة وكذلك على مدينة الاسكندرية نائبا من أعضاء المجلس المشار اليـه وخالف فى ذلك قانون أغسطس قيصر الذى لايبيح أن يكون أرباب هذا المجلس نوابا فى الولايات أبدا

وكان نيجر لما أحس بقدوم سويرس الى الاسكندرية فر هاربا فتبعه سويرس وصار يهاجمه أينما لحقه وهو يصد عن نفسه وعن البلدة التى يحتلها فلم تساعده الاقدار وقد أظهر من البسالة والاقدام فنونا وأساليب وقامت عليه أنواء شديدة ترتب عليها انهزام جيشه عند رأس بالبحر فأخذ نيجر فى الفرار الى بلاد العجم فقبض عليه فى الطريق وقتل وذلك فى سنة خمس ومائتين للميلاد أى سنة سبع عشرة وأربعمائة قبل الهجرة وصفا لسويرس ملك البلاد المشرقية بعد قتل نيجر ولم يبق لسويرس بعد ذلك الاخصم واحد وهو قلوديوس البينوس الذى سبق الكلام عليه وكان مجلس رومة يميل فى الباطن الى تقليد قلوديوس المذكور المنصب الملوكى والى نصرته على سويرس وقد كان معدودا من فحول الرجال وكانت جنوده من أبسـل الجنود وأشدها اقداما على اقتحام المهالك وكان فى خـلال هـذه الفطرة قد لقب نفسه بأغسطس فسار سويرس لقتاله والتخلص منه بعـد أن كان قد أشركه معه فى حكم البلاد وادارتها كما تقدم القول فلما تلاقى الجمعان عنـد مدينة (ليون) من بلاد الفرنسـيس تقاتلا قتـالا عنيفا فانهزمت جيوش البينوس شر هزيمة فمال البينوس عن فرسه وقتـل نفسه خوفا من الوقوع بين يدى عـدوه فأمر سويرس بجز رأسـه وأرسله الى أرباب مجلس رومة مع خطاب يتفهم فيه على عدم الأتم لالبينوس وتعصبهـم له فى السر ويعلمهم بشديد غضـبه عليهم وما سيحل بهم عند رجوعه الى رومـة ثم عاد الى رومة فقتـل وفتك وأجرى فيها الدماء كالسـيول ونفى منها من نفى من أكابرها وأعيانها وضرب أعناق مشاهـيرها وأصحاب المظاهـر فيها فعم الخوف وانكمش الناس ومهدت الامور وصفا له الوقت ونام على وسادة الاطمئنان ثم سار بجيوشه الى قتال العجم والانكليز ليدخلهم تحت الطاعة وبعث بجيش جرار الى الجهات المشرقية خارجها

وحاصر مدينة (بوزنيطا) التى هى القسطنطينية وجعل على حصارها أمهر قواده فدافعت ثلاث سنين متوالية ثم فتحوها عنوة ونهبوا مافيها من الاموال ودمروها تدميرا

وبعد أن تغلب على العجم والبلاد المشرقية جاءته الاخبار بأن الانجليز غالبون على جنوده فقدم عليهم من حيث لايشعرون وغزاهم غزوتين خسر فيهما خمسين ألف مقاتل وكان قد أشرك ولديه معه فى الملك وبعث أكبرهما وهو (بسيانوس) مع الجنود المحاربة للانجليز فلما انهزمت جنود أبيه ووقعت الفتنة فى الجند وحصل الفشل بين الرؤساء وتعصب كثيرهم ضد الملك قام بسيانوس المذكور على أبيه سورس واخترط سيفه وهم به على أبيه فلم يتمكن من قتله فخنق سورس والتهب قلبه بنار الغيظ واشتد به الامر اشتدادا عظيما فمات لساعته وذلك سنة احدى عشرة ومائتين للميلاد أى سنة احدى عشرة وأربعمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه ثمان عشرة سنة

وفى أيامه مات (اغريبو) بطرك الاسكندرية بعد أن أقام احدى عشرة سنة وفى أيام (اغريبو) المذكور اتفق رأى بطاركة جميع الامصار على حساب عيد الفصح للنصارى وصومهم ورتبوا كيف يستخرج ووضعوا حساب الابقطى وبه يستخرجون معرفة وقت الصوم والفصح واستمر الامر على مارتبوه الى يومنا الذى نحن فيه وكانوا قبل ذلك يصومون بعد الغطاس أربعين يوما كما صام المسيح ويفطرون وفى عيد الفصح يعملون الفصح مع اليهود فنقل هؤلاء البطاركة الصوم وأحلوه بعد الفصح لان عيد الفصح كانت فيه قيامة المسيح من الاموات وكان الحواريون قد أمروا أن لا يغير عن وقته وأن يعملوه فى كل سنة فى ذلك الوقت ولما مات (اغريبو) قدم بعده (يوليانوس) وهو حادى عشرهم وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

وخلف سورس على سرير الملك بعد موته ابنه بسيانوس فتوسم فيه الناس الخير وأملوا فيه العدل والرفق بالرعية بعد الذى قاسوه من أبيه

(فى الملك بسيانوس قراقله)

(قيصر)

ثم قام بالامر ابنه بسيانوس قراقله بعهد من أبيه فبويع له بالملك هو وأخوه (سبطيموس جيتا) معا حيث كان أبوهما قد عهد لهما به فى حياته فاشتركا فى الملك بعده وذلك سنة احدى عشرة ومائتين للميلاد أى سنة احدى عشرة وأربعمائة قبل الهجرة وكان الناس يعتقدون فى بسيانوس المذكور الشفقة والرفق بالرعية والاعتدال فى السياسة اذ كان كثيرا مايقبح فعال أبيه بلا تحاش ولا اكتراث عند ما كان يعاقب الناس بالقائهم للحيوانات الضارية

وكان

وكان يبكي لذلك بكاء شديدا فلما تولى واستقربه المنصب تغيرت طباعه وانقلبت أحواله وهم أن يقتل أخاه بالسم واحتال على ذلك بكل ما وصلت اليه قدرته فلما لم يتمكن منه أغرى به أعوانه فقتلوه بين ذراعي أمه وتجاهل العلم بما جرى وهرب من قصره تمويها بانه يخاف على نفسه من قاتلي أخيه أيضا وذهب الى حيث جند الحرس وأعلمهم بقتل أخيه فأنكر الجند عليه ذلك وأسفوا وحزنوا على ذلك الطفل فسارهم وأجزل انعامهم تخلصا ولما كان لاخيه المذكور حزب قوى قام ذلك الحزب وأثار على بسيانوس الفتنة وكاد يخرج عليه خروجا تاما فأشار عليه كبار جند الحرس أن يضع لاخيه تمثالا وينظمه في سلك المعبودات على عادة الرومانيين ليقمع الفتنة بالتي هي أحسن ففعل وطلب من وزير أبيه المسمى (بابنياس) مقالة يتلوها على الناس يعتذر فيها عما جرى لاخيه فقال بابنياس قد كان عدم قتل أخيك خيرا من الاعتذار عنه فغضب من ذلك وأمر بقتله من ساعته وكان قتل بابنياس الوزير حاملا لبسيانوس الملك على ركوب متن العتو والطغيان والاكثار من سفك الدماء وضرب الرقاب والفتك بالاكابر والاعيان فكان عدد من قتلهم من هؤلاء نيفا وعشرين ألف نفس ثم تخوف ولازمه الوهم فكان يتخيل له دائما في عالم المنام أن أباه وأخاه يجردان عليه حسام الانتقام فيقوم خائفا منزعجا فلم يستقم له بعد ذلك حال ولم ينعم له بال فكان يسلي نفسه بالذهاب الى الولائم والالعاب ويلعب مع اللاعبين ويلبس ملابسهم أو يتزيا بزي العربجية وفي عنقه ياقة زرقاء كالزنار وهي علامة أهل هذا الفن وكان كثير المداهنة والتدليس فكان غشه مستوعبا لجميع أحواله وأطواره حتى كانت السكة المضروبة باسمه من دراهم ودنانير مغشوشة وقد قال بعض رعيته ما نصه * كان القيصر يعطينا النقود المتخذة من الرصاص مطلية بالفضة على أنها فضة خالصة والنقود المتخذة من النحاس مطلية بالذهب على أنها ذهب خالص اه وكان يحتكر النقود الخالصة ويكنزها لنفسه ولا يخرج منها الا ما كان يدفعه للقبائل الاجنبية المتبربرة في عقود الصلح معهم لكي يتجنبوا حربه ويكونوا له عونا على الرعية

واشتد به الهوس حتى ولع بتقليد الاسكندر الاكبر المقدوني والتشبه به في جميع أحواله فكان يقلده في أموره وأطواره وينسج على منواله في الملبس والمطعم وكان يتكلف التخلق باخلاقه في جميع ما يحكى له عنه وجعل جند حرسه الخاص ستة آلاف كلهم مقدونيون تقليدا لجند الاسكندر وعلق تمثال الاسكندر على جميع الميادين والهياكل والمعابد وسمى نفسه الاسكندر لتكون هذه التماثيل رموزا له معنونة بعنوانه ومال الى الغزو على منوال ما فعله الاسكندر فنزل على بلاد الغالية وأهلك فيها الحرث والنسل وأفنى في محاربتها الجنود وسار في البراري حتى نزل على بلاد جرمانيا فلم يقدر على الجرمانيين اذ تأهبوا لصده وعبروا نهر الرين ليهزموه شر هزيمة ويخلعوه من الملك فلما أحس منهم بذلك واساهم ورشاهم بالمال فرجعوا عنه فدخل بلاد المجر والفلاق وبلاد الاردل المجاورة لبلاد الجرمان فوجدها جميعها



خاضعة للغوطية وكادوا يبطشون به فرجع عنهم ولم يظفر الابملكتين صغيرتين لايفيان بما أهلكه من الرجال ونزل على بلاد فارس فخاب منه الامل وركن الى الصلح بعد الهزيمة ثم وثب على ديار مصر وأعمل السيف فى أهل الاسكندرية بلا موجب ولاسبب سوى مابلغه من أنهم يسمونه بالهوس ويصفونه بالخفة والطيش وقد أباحهم للعسكر فأعملوا فيهم الذبح يوما وليلة لم يرحموا طفلا ولم يحنوا على عاجز وانتهت غزواته بالخيبة والفشل والعجز عن العمل . وقام عليه العجم يريدون أخذ الثار فلما رأى جنوده ماسيلحق بهم من العار ومايزايل ملكهم من الخيبة والبوار أجمعوا الكلمة على قتله فقتلوه وهوراجع من هذه الغزوة وذلك سنة تسع عشرة ومائتين للميلاد أى سنة خمس وأربعمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه ست سنوات ليس فيها غير المذلة والانحطاط للدولة

وكان يلبس على رأسه فى جميع غزواته مغفرا على زى بلاد الفرنسيس من النوع المسمى قراقلة فاشتهر بهذا الاسم فى كتب التاريخ وكان حين اشترك مع أخيه جيكا فى الملك رسم العلامات الملوكية والطغراء فى جميع البلاد باسمه واسم أخيه معا ورسمها أيضا على المبانى فى سائر الجهات فلما مات أخوه قتيلا على ماتقدم ذكره أمر بمحو اسمه من سائر الانحاء وانما بقى فى مصر دون غيرها آثار محو على بعض الاحجار يمكن المتأمل قراءتها وكان بسيانوس آخر قيصر بقيت آثاره على مبانى الديار المصرية ولم يكن لقيصر بعده فيها اسم ولارسم ولما مات تولى الملك بعده (مقرينوس) رئيس جند الحرس الملوكى

(فى الملك أوبليوس مقرينوس)

(قيصر)

ثم قام بالامر أوبليوس مقرينوس بويع بالملك فى ساحة الحرب فى نفس اليوم الذى قتل فيه بسيانوس بايعه الجند ونادوا بملكه سنة سبع عشرة ومائتين للميلاد أى سنة خمس وأربعمائة قبل الهجرة قيل وهو الذى أغرى الجنود وجعل لهم جعلا جسيما فقتلوا الملك وكان الحامل له على ذلك أن كاهنا من أهل العرافة أخبر أوبليوس المذكور أنه سيكون يوما ملكا على جميع الرومانيين ففعل مافعل استعجالا كما يقول ذلك الكاهن

وكان مولد أوبليوس المذكور بمدينة الجزائر بالغرب وكانت تسمى قيصرية وكان مثقوب الاذن فلذلك سموه (مقرينوس) وسمى أيضا (مقرين) ومعنى مقرين فى لغة برابرة المغاربة مثقوب الاذن وكان سعيد الطالع ميمون الطلعة فارتقى المناصب العالية فى زمن يسير جدا وكان صاحب علوم ومعارف متضلعا من الفنون العالية فقد خدم خطيبا فى المجالس فكان له فى الخطابة الباع الطويل وانتدب عدلا فى المحاكم ورئيس محكمة وغير ذلك من المناصب العالية والرتب السامية

وكان

وكان أوبليوس فى أيام (قراقله) الملك قاضيا فأخذه وسلمه منصب امارة الجنود ورياسة الجيوش واستخدمه فى بطانتـه ثم رقاه الى أعلى المناصب وجعله أميرا على جنـد الحرس الخصوصى فتمكن بذلك من فعل مافعله بقراقله

وقـد كان فريق من جند الحرس نكص عن مبايعته فاستعمل معه الحيلة فلم ينجح فتركه واشتغل بأمور المملكة فبدت منه دلائل الجفاء والشدة على الرعية فشكى جميع الناس منه وتمكنت من قلوبهم الوحشة فلم يلتفت اليهم وسار لمحاربة (اردوان) ملك فارس اذ كان قد هجم على الحـدود وكاد يدوخها فلما التقى الجمعان انهـزم أوبليوس هزيمتين متواليتين مات فيهما كثير من جنده فطلب الصلح مع (اردوان) ملك فارس فاستقرت قاعـدته بينهما على أن يدفع أوبليوس ثمانين ألف ألف من دراهـم الفضة فحملها الى (اردوان) من يومـه فنقمت عليـه الرعية وكرهه لذلك أهـل البلاد ووسموه بالجبن والخيانة وتقوى عليـه الفريق الذى كان قد نكص عن مبايعته * ومحا وأثبت فى قوانين المملكة وقواعد العسكرية واستعمل الشدة فى انتخاب شبان الجندية المستجدة وأهمل تسريح العساكر المتمرنة على القتال ونبذهم فحقد عليه الجنود وأبغضوه وصمموا على الانتقام منه ولبثوا يراقبون الفرص

واتفق أن نزل بقرب مدينة حمص فريق من الجنود الرومانية رباطا وكان أهل حمص يومئذ صابئين يعبدون الشمس وكان لهم كهان لخدمة هيكلهم ومن هؤلاء الكهان شماس فمن العمر ثلاث عشرة سنة اسمه (بسيانوس) جميل الشكل حسن الصورة اذا لبس ملابس الكهنوتية المكللة باللؤلؤ والمرجان شخصت اليه الابصار ومالت اليـه القلوب فكانوا يشبهونه بالقمر المنير ويحتفلون به وقت تقديم القربان ويرقصون حوله ويغنون بالألحان وكان لهـذا الغلام جدة اسمها (يوليه موزه) هى أخت (يوليه رومنا) زوجة سويرس قراقله قيصر وكانت جدته من العجائز ربات المكر والدهاء فكانت تدعى أن هذا الغلام ابن قراقله الملك كى تستميل اليه الجنود الحالة هنالك وقد كان مجهول الاب فكان يسمى بسيانوس هيلوغباله يعنى الشمس وهو مشهور فى كتب التاريخ بهذا الاسم فلما تمكن حبه من قلوب الجنود أخذته يوما وذهبت به الى المعسكر وكلمت الجنود فى أمر أبيه قراقله الملك وأن يبايعوه بالملك فأجابها الجنود الى ذلك وبايعوه ولقبوه (أغسطس) فلما وردت الاخبار بذلك الى مقرينوس الملك جمع أحزابه وسار بهم عاجلا لمقاتلة أغسطس المذكور على مقربة من انطاكيـة فكانت الحرب بينهما سجالا وبقى الحال هكذا مدة حتى كلت عزيمـة مقرينوس واستولى على جيوشه الجبن فهرب هو وأصحابه ولم يقف الا عند قاضى كوى فى ايالة بروسه حيث لحقته جيوش أغسطس وفتكوا بأصحابه فتكا وقتلوه فى وسطهم وذلك فى سنة ثمان عشرة وأربعمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعمائة قبل الهجرة وخلا الجو لأغسطس بسيانوس هيلوغباله فتمكن من المنصب وكانت مدة أوبليوس مقرينوس المذكور سنة واحدة وأياما

(فى الملك بسيانوس هيلوغباله)

(قيصر)

ثم قام بالامر بسيانوس هيلوغباله بويع له بالملك بين عساكر حمص ثم بايعته بقية العساكر وصدق على ذلك مجلس رومة وذلك سنة ثمان عشرة وأربعمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعمائة قبل الهجرة فلما استقر به المنصب أمر بأقارب مقرينوس الملك فقتلوا جميعا وتتبع أحزابه وكثيرا من الامراء والاعيان بالقتل حتى انقرضوا ولم يتنازل عن رياسة هيكل الشمس وأبقاها لنفسه كالخلافة فكان جامعا بين الملك والكهنوتية وقد صنع لولايته على الملك مواسم وأعيادا بحيث ستة أشهر وأمر بان يكون أجل المعبودات وأكبرها فى جميع البلاد صنم الشمس ورتب ذلك برومة ومصر فكان هذا الصنم عبارة عن حجر أسود لاصورة به ولا شكل وبنى له برومة هيكلا عظيما وجعله سيد الاصنام وكبيرهم ثم زوجه لصنمة الزهرة التى هى أكبر معبودات بلاد افريقية ورتب لها عرسا عظيما ومواسم وأعيادا سنوية وجعل مصرف هذه الافراح على جميع الاهالى يوزع عليهم وكان هذا الصنم فى بلاد الشام أصل الزيغ والبدع فنقله الى رومة

ودخل بسيانوس المذكور الى رومة وهو فى سن الرابعة عشرة لابسا حلة كهنوتية من الحرير المقصب المنقوش بانفر النقوش فكان أول من لبس الحرير من الملوك فى رومة وكان فى يده أساور من ذهب وفى عنقه أطواق من ذهب أيضا وكان مزجج الحواجب مكحول العينين يتزيا بزى العذارى تارة وبزى المردان أخرى وليس فيه من صفات الرجولية شئ وكان ينشر فى قصره دائما أنواع الزهور والرياحين وينثر تحت رجليه الذهب والفضة فكان فى التكسر أقرب شبها الى النساء منه بالرجال ولم توجد أخلاقه الذميمة فى أحد من القياصرة الذين قبله فكان اذا أراد النزاهة وترويح النفس دعا الى مائدته ثمانية أشخاص من العور ومثلهم من العرج ومثلهم من الصم ويسخر بهم ماشاء وكان فى كثير من الاحيان فى وقت انتظام الديوان واحتفال الجلساء يطلق بغتة الاسود والنمور وقد كانت مقلمة الاظفار مخلوعة الانياب فيضطرب الحاضرون من منظرها الهائل ويسر هو وكان يزعج خواصه وأتباعه على الدوام بهدايا وتحف مملوءة من الهوام والحشرات حتى اذا فرحوا بها وفضوها أرعبتهم وأورثتهم المضار وكان اذا اجتمع الاهالى فى ميادين الالعاب أمر أعوانه فيطلقون الثعابين فتضطرب الناس وتتفرق ❊ وقد تقدم القول على أن بسيانوس المذكور ابن دعىّ منسوب الى سورس قراقله نسبة كاذبة وان قراقله كان زوج خالته وكان لخالته بنت لها ولد يسمى الاكسندرسورس فلما كثرت قبائح بسيانوس وعم ظلمه جميع الرعية

وزاد طغيانه طلبوا منه أن يشرك معه الاكسندر سوبرس في حكم البلاد وتدبير أمورها فقبل ذلك كرها فرأى من الاكسندر خصما عنيدا فدبر لقتله فانكشف سره وفشا أمره فقام الاهالي على ساق وقدم وهموا بقتل بسيانوس فاختفى في مكان خفي ففتشوا عليه وأمسكوه وذبحوه وألقوا جثته بعد تثقيلها بحجر في نهر رومة وذلك سنة اثنتين وعشرين ومائتين للبلاد أي سنة أربعمائة قبل الهجرة فتولى بعده ابن خالته الاسكندر سوبرس الثاني وكانت مدة بسيانوس أربع سنين تقريبا

(في الملك الاسكندر سوبرس)

(قيصر الثاني)

ثم قام بالامر ابن خالته الاسكندر سوبرس الثاني بويع له بالملك في اليوم الذي مات فيه بسيانوس وكان أول من بايعه أرباب مجلس رومة لإطوائف الجنود كاسلافه وذلك سنة اثنتين وعشرين ومائتين للبلاد أي سنة أربعمائة قبل الهجرة وكان حسن السيرة والسياسة كامل التدبير موفقا في جميع أقواله وأفعاله وكانت أمه نصرانية اسمها (مامه) فكان يستشيرها في جميع أطواره وأحواله ويستنصحها في جميع مشروعاته وأفعاله ويعمل برأيها فأبطل جميع الامور المغايرة للآداب التي كان بسيانوس قد أحدثها وأعاد صنم الشمس الى حمص وأخرج جميع الاصنام الاجنبية من رومة ومنع اباحة التعبد بها في غير محالها ولم يرض أن تتمسك رومة من الاديان الاجنبية عنها بغير دين المسيحية يعني أنه أباح لهم التمسك بدين جاهليتهم القديم ولا يباح لهم غيره من الاديان الا الديانة المسيحية وأصدر بذلك أمرا رغما عن معارضة كهنة الاوثان الرومانية

ثم سن القوانين النافعة بالنسبة للاخلاق والعوائد ونظم أحوال بيت المال وسياسة البلاد على أحسن ترتيب وسلك في أحسن المسالك مستمسكا بالاحكام المتينة مراعيا لجانب القوانين فاقتدى به رعاياه وسلكوا سبل العدل والانصاف وطرد من ديوانه أهل السخرية وأرباب اللهو والمغنين ولم يقرب من مجلسه الا أهل المعارف وأصحاب الحكمة وكان لا يضيع أوقاته الا في مطالعة كتب الآداب أو التمرينات الحربية وكان لا يجسر أحد على التكلم في مجلسه بشيء من العوائد القديمة ولا احداث شيء من البدع الذميمة وكان يعظ الناس جهارا بالخطابات والمقالات كما كان يفعل عظماء الدولة الرومانية أيام انتظام دولتهم وكان يستشير مجلس رومة في كافة أمور البلاد ويسترشده في جميع مصالح الرعية وخفف عن الاهالي العوائد والمكوس والجبايات وكان يحيي قلوب أهل الصنائع والفنون بالجوائز تشويقا لهم وترغيبا وكان يقظا نشطا ساهرا على تدارك ما ينجم عن أعمال العمال والولاة كثيرا الاعتناء

بأمور الجند والعساكر وصرف جوامكهم وعلوفاتهم فى أوقاتها وكان يزور المرضى منهم فى خيامهم وكان يقول

يجب على الجندى كال الطاعة بقدر الاستطاعة ويجب له أيضا على الدولة أن يكون حسن اللباس جيد السلاح مستور القدم حاصلا على قوته على الوجه الاتم وأن يكون فى جيبه شئ من الدراهم لحاجة نفسه * فكانت العساكر فى أيامه مستحوذة على جميع ماناله وكان لذلك اذا صدر من أحدهم هفوة شدد فى جزائه وعاقبه بما يقتضيه جرمه من جلد أو قتل

وبينما كان الاسكندر سويرس مشتغلا بأمور البلاد وتهذيب أخلاق الرعية وترويج سوق التجارة وتحسين أحوال الصناعة وتقديم القوانين وتوطيد أركان الشريعة إذ وقع من الانقلاب السريع فى البلاد المشرقية مالم يكن فى حساب وذلك أن ازدشير بابك رأس الدولة الساسانية قام على أمة ﴿ البرث ﴾ وهى أمة قديمة العهد تنسب الى فارس أوهى الفرس الاولى واستولى عليها وأزال دولتها وأخضعها اليه وكان ازدشير هذا قبل وثوبه عاملا على اقليم من أقاليم اصطخر وكان قد أخبره بعض المنجمين أن ملك فارس سيصير اليه يوما فاستمسك بهذا النبأ ووثب على ملوك الطوائف وأخذ منهم بلادهم فملك اصطخر وهمذان والجبل وأذربيجان وأرمينية والموصل والسواد وبنى مدينة على شاطئ دجلة شرق المدائن ثم رجع الى اصطخر ففتح سجستان ثم جرجان ثم مرو وبلخ وخوارزم الى تخوم خراسان ثم رجع الى فارس ونزل جور وأطاعه ملك كرمان ومكران ثم ملك مدينة الحضر بعد حصار طويل ألقى فيه ملكها بنفسه فى البحر ولم يزل مظفرا قاهرا لجميع الملوك الذين حوله * وقد مدّن المدن واستكثر من العمارة وقتل أردوان الاشغانى وغيره من الاردوانيين واستولى على جميع ملك الاردوانيين الذين هم أنباط السواد يعنى السريانيين وكان على طوائف الارمن ملك اسمه ﴿ بابا ﴾ والارمن هم أنباط من نبط الشام وكان بين أردوان وبابا حروب مستمرة فاتحدا على قتال ازدشير المذكور فحارباه مناوبة فكانت الحرب بينهم سجالا فبعث ازدشير الى بابا فى طلب الصلح على أن يدعه فى الملك ويخلى بابا المذكور بينه وبين أردوان واستقرت القاعدة بينهما على ذلك ثم برد أزدشير على اردوان فقتله واستولى على السواد فأطاعه بابا بالشام وانقاد له بعد أن كان تحت طاعة الرومانيين ودان له سائر الملوك وقهرهم قهرا قال أهل التاريخ ثم انقلب على أمراء العرب وكانت بيوتهم على ريف العراق الى الحيرة وكانوا ينقسمون فى هذا الحين الى ثلاث فرق متمايزة الاولى قبيلة تنوخ ومنهم قضاعة وكانوا يسكنون بيوت الشعر والوبر ويضعونها غربى الفرات بين الانبار والحيرة وما فوقها وكانوا واسعى الحرية جدا فلما ملك أزدشير هذه الاصقاع أنفوا من الاقامة تحت قبضته فخرجوا من البرية هائمين الثانية العباد وكانوا يسكنون الحيرة متوطنين فيها الثالثة الاحلاف الذين نزلوا

بهم من غير نسبهم ولم يكونوا من تنوخ الناكصين عن طاعة الفرس ولامن العباد الذين دانوا لهم فتلك الاحلاف المذكورون الحيرة والانبار وكان منهم عمرو بن عدى وقومه فنزلوا بها وعمروها وكانت من بناء العرب من عهد بختنصر ثم عمرها بنو عمرو بن عدى لما صيروها دارا لملكهم الى أن صبحهم الاسلام واختط الخلفاء مدينة الكوفة فدثرت الحيرة كما سيأتى الكلام على ذلك فى محله

ولما زحف ازدشير على ممالك الرومانيين كمملكة الارمن وغيرها وعظم أمره وساعده الاقدار على اتساع ملكه وأسس دولة الفرس الساسانية الجديدة ولقب نفسه (بالملك الاكبر) وعظمت صولته فى البلاد المشرقية وهابه جميع مجاوريه وخشى الاسكندر سوريس بأسه وخاف أن يتسلط على ملكه فسار الى بلاد المشرق مسرعا لايقاف ازدشير عند حده فلم يستقر به المقام حتى أرسل اليه أزدشير سفراء يطلبون منه اعادة جميع بلاد فارس التى كانت ملحقة بها الى زمن كورش وهى الممتدة الى جزائر الروم فتعجب سوريس من غطرسة أزدشير وجراءته وجدّ فى السير لقتاله واتفق وهو فى الطريق أن بعض العساكر خالفوا الاصول والنظامات الجندية فعقد سوريس لذلك مجلسا للحكم عليهم وأحضرهم أمام المجلس فى السلاسل والقيود وقام فى وسط المجلس وقال ان السكوت عن اهمال الجنود واجباتهم يزرى بشرف المملكة ويهدم ناموس الامة وكان العامة فى ذلك اليوم قد اجتمعوا ليروا ماسيكون من أمر المخالفين فلما سمع الناس ماقاله الملك ارتفعت أصواتهم بالصياح وعلت الضوضاء وقالوا لاتحل لك هذه الفعال فأشار أرباب المجلس الى الجنود أن اضبطوا هؤلاء الصائحين ووجهوا بهم صوب الاعداء لقتالهم عوضا عن أن يعارضوا الملك ويقاوموه فاشتد غضب الاهالى وتمادوا على غيهم واستطالوا على الملك وأقاموا فى وجهه السلاح فبرز لهم ووقف فى وسط الضوضاء وقال اغمدوا سلاحكم فانى لا أرهب التهديد ولا أخشى الوعيد فلما رأوه على هذا الحال ألقوا سلاحهم وسكنت الفتنة وحصل الهدوّ والراحة واستقرت هيبته فى قلوبهم ثم سار بعد ذلك بجيوشه الى العجم يريد قتالهم فتلاقى معهم وانتصر عليهم نصرة عظيمة وهرب أزدشير ونكص على أعقابه ولبث لايحرك ساكنا ولا يطلب ثارا ورجع الاسكندر سوريس الى رومة مؤيدا منصورا فتلقاه أهلها بالافراح ودخل المجلس الاعلى بغتة ووقف بين رجاله خطيبا فقال ياأعضاء مجلس رومة قد هزمت لكم الفرس شر هزيمة ولا حاجة لبسط الكلام فى هذا المعنى بل أقتصر على أن أذكر لكم قوة العدوّ وجنوده وما ظفرنا به عند ما أتاح الله لنا النصر عليه والظفر به فقد كان الفرس فى هذه الوقعة سبعمائة من الافيال يقاتلوننا بها فقتلنا منهم مائتى فيل وسلبنا ثلثمائة وقد أحضرنا منهم الى رومة ثمانية عشر وكان معهم ألف عربة مسلحة بالمناجل ملحقة بالعساكر المقاتلين بهذه الآلات فهزمناهم وأخذنا منهم مائتين ولم أحضرهم الى هنا اذلا فائدة فى ذلك وقد هزمنا أيضا فرسانهم وكانوا مائة وعشرين ألفا فبددنا جموعهم وقتلنا منهم عشرة آلاف مدرعين



وسلبنا منهم دروعهم وجعلناها عدة لعساكرنا وأسرنا من عسكرهم رجالا كثيرين يعناهم عبيدا وقد أعدنا ولله الحمد لدولتنا بلاد الجزيرة الفراتية التى أخذت على عهد القيصر سلفنا وقد بددنا شمل أزدشير مع ما اشتهر به فى المشرق باسم (الملك الاكبر) وقد ولى الادبار ذليلا حقيرا وقد رفعنا أعلامنا وبنودنا على جميع البلاد التى كانت تحت سلطاننا واستولينا على جميع أعلام أزدشير فهذه بضاعتنا ردت الينا وقد أنسى عسكرنا المظفر هذا الانتصار ما كابده من المشاق والاخطار فعلى المجلس أن يأمر فى المعابد والمشاهد بنشر أنواع الشكر والمحامد فى مقابلة هذه النعمة التى لاينكرها الا جاحد معاند فأجاب أرباب المجلس عن هذه المقالة بقولهم أيها القيصر قد استحقيت الامتياز بلقب الفارس الاول والاختصاص بهذه المزية حيث انتصرت على الفرس نصرة حقيقية والفضل فى ذلك لحسن تدبيرك

ثم خرج من قاعة المجلس وذهب الى الميدان العام وارتقى منبر الخطابة فاحتفل به الناس وصاحوا صيحة الفرح وعلت الاصوات فقال يا أيها الناس قد هزمنا جند فارس ورجعنا بقومنا سالمين فنعدكم بالانعام والاكرام وستشاهدون غدا الافراح بهذه النصرة العظيمة فصاح الناس قائلين بالسعادة رومة بطول عمر ملكها المنصور

ثم بعد هذه الغزوة جرد عساكره أيضا لغزو جرمانيا وسيرهم اليها جندا بعد جند وكانت قد شقت عليه عصا الطاعة مرة واحدة فلم ينل منهم مراما بل كانت الدائرة عليه وعلى جنوده وذلك أنه لما وصل الى مدينة ميانه من بلاد الفرنسيس وقعت الفتنة بين جنوده فى المعسكر وقام بعضهم على بعض وهاجوا وعصوا ودخلوا على الملك فى خيمته وذبحوه ذبح الشاة وكان مقتله فى سنة تسع وأربعين ومائتين للميلاد أى سنة سبع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة وبموته انقرضت سلسلة القياصرة الشامية الذين هم فى الحقيقة من بلاد افريقية لامن الديار الشامية كما اشتهروا بذلك

وفى أيامه حصلت مصر على نوع من العمارية والتقدم فى المعارف والعلوم من أدبيات وفلسفة وغيرها واكتسبت من النجاح والتمدن أكثر مما اكتسبته رومة وغيرها من المدن الداخلة فى حكم الدولة الرومانية وكذلك حصل فى بقية البلاد التى كانت تابعة له

وفى أيامه مات يوليانوس بطرك الاسكندرية فى ثامن شهر برمهات فكانت مدته عشر سنين فاقيم بعده ديمتريوس وهو ثانى عشرهم وكان فلاحا أميا وله زوجة ذكر أنه لم يقترب منها قط وهو الذى رتب حساب الكرمة وقد وقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله

ولما قتل الملك الاسكندر سوريس تولى بعده مقسيمينوس قيصر الاول

(فى الملك مقسيمينوس)
﴿ قيصر الاول ﴾

﴿ ويسمى أيضا ﴾
(مخشيميان قيصر)

ثم قام بالامر مقسيمينوس الاول وبويع له بالملك سنة تسع وأربعين ومائتين للميلاد أى سنة سبع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة فكان عاتيا فظا غليظا خارجا فى ضخامة الجسم عن حد العادة باقى الطبع والعقل والجسم فكان اذا تختم فى اصبعه تختم باساور زوجته واذا ضرب فرسا بقبضة يده أطار أسنانها وكان يسحق بيده الاحجار ويفلق الشجرة فلقتين بيده وكان يسحب العربة الكثيرة الاحمال بيد واحدة وكان يأكل فى اليوم أربعين رطلا من اللحم ويشرب جرة من الخمر زنتها خمس وعشرون أقة

قال بعض أهل التاريخ فهذه الاوصاف وان كانت تشم منها رائحة الاطراء والمبالغة ولكنها لا تخلو من الصحة

وكان أبوه من القوطيين وأمه من اللانيين وكان عظيم الهيئة وارتقى منصب الملك بنادرة عجيبة جدا وذلك أن سويرس الملك كان قد أقام عيدا مشهورا على ساحل الطونة لولادة ابنه جيطا وكان مقسيمينوس هذا يرعى الماشية بهذا الساحل فحضر يوما الى معسكر الملك وطلب قبوله فى عداد اللاعبين فى تلك الولائم فلما رآه الملك عجب جدا من ضخامة بنيته ومنظره الهائل ورأى أن مثله يليق للنازلات والحروب فأمر أن يتصارع مع أقوياء الجند لتجربته فطرح ممن بارزهم على الارض ستة عشر صنديدا واحدا بعد واحد وغلبهم من غير تخلل زمن للاستراحة فأعجب الملك ذلك جدا وأمر بقيد اسمه فى محل الجنود فبقى فى أفراد العسكرية الى أيام الاسكندر سويرس فسلمه الاسكندر المذكور رياسة أحد الجيوش ليعلمه وينظمه ويربيه التربية العسكرية فرباه أحسن تربية ونظمه أحسن نظام وضبطه ضبطا كاملا وعلم رجاله الحركات العسكرية وتدبيرات الحيل الحربية وكان يناضل الشبان منهم بنفسه فلما مات القيصر الاسكندر سويرس المذكور بايع مقسيمينوس هذا جنوده فى اليوم الذى مات فيه سويرس عند شطوط نهر الرين ثم بايعه الجنود والاعيان وأرباب المجلس طرا

فلما استقر به المنصب عبر نهر الرين وأمر باحراق القرى والبلدان فى طريقه ثم تقدم الى

ايطاليا وجعل معسكره في النمسا وأمر أن يرسلوا اليه على جناح السرعة جميع أعيان ووجهاء ايطاليا فحضروا اليه في المعسكر فأمر بصلب البعض والقاء البعض الآخر للوحوش المفترسة بغير موجب ولاسبب ظاهر ثم اقتفى أثر النصرانية فقتل خلقا كثيرا جدا وكان معظم القتلى من القسيسين والاساقفة فقد كان يلقى بهم للوحوش المفترسة وكان يحتقر النوع البشري ولا يقدره قدره فكان الانسان عنده كالبعوضة أو أدنى وكان ظلوما غشوما بغيضا للعدل فهو أشد القياصرة لؤما وخسة وأقلهم مروءة فقد قال يوما لبعض الأعيان (انى أحب أن لاأحكم الا على رعية مستعبدة ذليلة أسومها الخسف)

فلما اشتدت وطأته على الرعية قاموا عليه ومعهم الجنود وطلبوا خلعه فخلعوه وذلك سنة خمس وأربعين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه أربع سنين لاغير وولوا مكانه اثنين وهما غرديانوس الاكبر وغرديانوس الاصغر

(في الملك غرديانوس الاب)

(والملك غرديانوس الابن)

ثم قام بالامر غرديانوس الاب وابنه غرديانوس الاصغر بويع لهما بالملك عقب خلع مقسيمينوس الاول سنة خمس وأربعين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة وتحرير الخبر أنه كان في افريقية بمملكة قرطاجنه من قبل الرومانيين شيخ هرم من وجوه العائلات وأعيانها اسمه غرديانوس وكان له ابن اسمه غرديانوس الاصغر وكانا حسنى السيرة بين أهل رومة فاستقر رأى مجلس رومة عقب خلع مقسيمينوس الاول على توليتهما معا المنصب الملوكى واشراكهما في حكم البلاد فوليا وبويعا معا وسميت مدتهما بالمدة الغرديانوسية وكان على قرطاجنه نائب للرومانيين اسمه قابليانوس وكان هذا النائب طاغية من دهاة الرجال فخرج عليهما وشق عصا الطاعة فسارا لقتاله فقاتلهما وهزمهما شرهزيمة ثم أوقع الافتتان بينهما حتى اقتتلا وقامت بينهما الفتنة على ساق وقدم واشتد الخلاف واستحكم البغض فقتل كل منهما صاحبه وكانت أيامهما كلها حروبا وكروبا وخطوبا وكان لمقسيمينوس الاول اليد الطولى في اضرام نار هذه الفتنة ليعود هو الى منصب الملك فلما قتل غرديانوس وابنه وخلا المنصب اتفقت كلمة أرباب مجلس رومة على مبايعة بوبيانوس وقلودس بلبينوس بالملك وتشريكهما معا في حكم البلاد فوليا المنصب وبايعهما الوجهاء والاعيان وكلاهما من عائلة خاملة دنيئة الاصل فقد كان والد بوبيانوس اقفاليا يصنع أقفال الابواب ونحوها وكان والد بلبينوس من أولاد الموالى قال بعض أهل التاريخ فلما

بلغ

بلغ مقسيمينوس خبر مبايعتهما وخيبة آماله صاح ومزق ثيابه ولطم وجهه حتى اختبل عقله ثم أفاق وجدّ فى السير مع من بقى معه من العساكر لقتال بوبيانوس وبلبنيوس فافتتن فى الطريق جيشه وعظمت الفتنة بين الجند فقاموا على مقسيمينوس وقتلوه وألقوا جثته فى الطريق وذلك سنة اثنتين وخمسين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة فتم الامر لبوبيانوس وبلبنيوس

ولما استقر بهما المنصب وشرعا فى نظر مصالح البلاد تحركت العساكر وطلبوا خلعهما حيث لم يتوليا الملك الا بمبايعة أرباب المجلس وأعيان البلاد ولم تبايعهما العساكر ولذلك أبوا اقرارهما وطلبوا خلعهما ووسموا المجلس بالاستبداد والخروج عن الحدود واتفق فى هذه الاثناء أن دخل أميران من أمراء الجنود على أعضاء المجلس بغير اذن فغضب أرباب المجلس لذلك وعدّوه اهانة وتحقيرا وحكموا على الأميرين المذكورين بالقتل فوصل الخبر لجميع أمراء الجيوش فقامت الفتنة فى الحرس الملوكى ودخل بعض العساكر على بوبيانوس وبلبنيوس وقتلوهما وذلك فى سنة اثنتين وخمسين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة ونادوا فى الحال بولاية غورديانوس الثالث ابن حفيد غورديانوس الاكبر فكانت مدة بوبيانوس وبلبنيوس أياما لم تذكر ولم تعتبرها جماعة المؤرخين مدة صحيحة

(فى الملك غورديانوس)
(قيصر الثالث)

ثم قام بالأمر غورديانوس الثالث ابن حفيد غورديانوس الاكبر وله من العمر خمس عشرة سنة بايعه الجند فى اليوم الذى قتل فيه بوبيانوس وبلبنيوس سنة اثنتين وخمسين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة فبايعه بعد ذلك أرباب المجلس وأعيان الاهالى ولما كان شابا قاصرا لم يبلغ رشده استوزر له فى المجلس وزيرا حسن التدبير فصيح اللسان كامل المعارف اسمه ميسوطش ليعينه على تدبير الملك وسياسة البلاد فسار هذا الوزير سيرة حسنة وانتظم فى أيامه حال المملكة وارتفع شأنها وقويت شوكتها وهابها العدو وعادت الى ما كانت عليه من بعد الصيت وفى أيامه قامت الفرنجة وهم الامم المتبربرة التى جاءت من البلاد البعيدة وأغارت على بلاد الفرنسيس ونزلت بها فهجموا على اقليم جرمانيا الرومى وقصدوا التغلب عليه فسير لهم غورديانوس جيشا تحت قيادة الامير أورليانوس فهزمهم شر هزيمة وردّوا على أعقابهم خاسرين ثم تجهز أيضا بنفسه لغزو سابور بن ازدشير كسرى فارس وسار فى جيش عظيم جدا فانتصر على سابور المذكور نصرة عظيمة وحارب كذلك أمم السرماطية والقوطية الذين قاموا على بلاد الروم ايلى مع قبيلة الالان فقهرهم وظفر بهم

وبعد شملهم ثم سار الى الشام وأخذها من الفرس وطرد عمال فارس عنها واقتفى أثرهم فاسترد منهم أيضا الجزيرة وعدة مدن أخرى عظيمة وعاد الى رومة يجرّ أذيال الفخر ففرحت به الرعية وقابلوه بغاية الترحيب والسرور وكان قد تزوج بابنة ميسوطش وزيره فبقى نفوذ الوزير المذكور على ماهو عليه بل زادت عند غورديانوس منزلته وكان من أمراء الجيوش الذين شهدوا مع الملك جميع هذه الغزوات أمير اسمه فليبش أصله من العرب فكان هذا الامير يبغض الوزير جدا ويعمل على موته وخلع الملك واختلاس المنصب الملوكى لنفسه وكان هذا الامل يتقوى فيه يوما عن يوم ومازال كذلك حتى دس للوزير السم فى الدسم وكان ذلك فى مأدبة فمات ثم أخذ يعمل على خلع غورديانوس وبالغ فى الدأب والاجتهاد فى ذلك حتى أوقع الفتنة بين عساكره ومازال يقوى ضرامها حتى اقتتلوا فتنة عظيمة فأغراهم على قتل الملك فقاموا عليه وقتلوه وذلك سنة ثمان وخمسين ومائتين للميلاد أى سنة ثمان وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكم غورديانوس الثالث المذكور ست سنوات

فلما مات حمل فليبش الجنود على أن يبايعوه قهرا وولى المنصب فى نفس اليوم الذى قتل فيه غورديانوس

(فى الملك فليبش)

(قيصر)

ثم قام بالامر فليبش وبويع له من الجنود فى اليوم الذى مات فيه غورديانوس سنة ثمان وخمسين ومائتين للميلاد أى سنة ثمان وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة وكان فليبش المذكور عربى الاصل وكانت ولايته ضربة من ضربات الدهر وداعية الى تثبيت أركان الاختلال وسنة سيئة لكل من أراد اغتصاب المنصب الملوكى من ذوى الاقتدار حيث صار المنصب الملوكى منذ ذلك العهد غنيمة يستلبها رؤساء الجنود وقواد العساكر بلا حق ولا اكتراث بحقوق الامة وأهل البلاد فكان يتولى المنصب منهم من غلب ويتصرف فى الملك من قدر على التصرف ولم يستقر بفليبش المنصب حتى ظهر له خصمان معاندان ينازعانه وهما بطيبانوس ودوقيوس أما الاول فانه لم تطل مدته ولم يتم ظهور أمره اذ قام عليه جنده وقتلوه لاسباب لم يذكرها أصحاب التاريخ وأما الثانى وهو دوقيوس وقد كان من أعضاء مجلس رومة فانه استظهر على فليبش بجنود الرومانيين المرابطين فى بلاد البوشناق والصرب والبلغار وكانوا ميالين اليه متحزبين له فقامت الحرب بين الفريقين على قدم وساق وطالت أيامها فعمت الفتنة وسرى عرق الخلل فى أحوال البلاد واستفحل الخطب ومازالت الحرب بينهم حتى مات فليبش فى واقعة على مقربة من مدينة

ويرونه من مملكة البنادقة وسقط تحت سنابك الخيل وذلك سنة ثلاث وستين ومائتين للميلاد أى سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة

وكان قبل موته قدعقد الصلح مع سابور بن أزدشير بلاد الفرس وعاد بعد عقد الصلح الى رومة وسلك سبل التعصب مع كبارها وأعيانها رجاء ميلهم اليه وقد أعطى فى أيامه المناصب العالية لاقاربه وأصحابه ليعضدوه ويكونوا له عونا فلم يفز ولم ينجح له عمل ومات قبل أن يستقر به المنصب فكانت مدة حكمه خمس سنين غير كوامل وتولى بعده دوقيوس المذكور

(فى الملك دوقيوس)

(قيصر)

ثم قام بالامر دوقيوس بويع له بالملك فى نفس اليوم الذى قتل فيه فليبش سنة ثلاث وستين ومائتين للميلاد أى سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة وأصله من بلاد أوستريا من أعمال النمسا وكان من عائلة خاملة الظهور فتولى منصب القنصلية يعنى الحاكم الاكبر بمعارفه وآدابه لابحسبه وكان سفاكا للدم غادرا خائنا غشوما لايبالى بشئ ولايرعوى من شئ وكثرت فى أيامه الحوادث وعظم أمر الخوارج حتى كادت تختلل أركان الدولة وقامت أمم القوطية والهيرولية والبرغولية وخرجوا من بلادهم ناحية الشمال واجتازوا نهر الطونة مع مقدمهم اقليوه فأهلكوا الحرث والنسل فسار دوقيوس بجيشه لقتالهم وردهم عن البلاد فالتقى الفريقان عند روم ايلى واشتبك بينهما القتال فانتصرت جنود دوقيوس عليهم نصرة عظيمة وهزمتهم وظهرت عليهم كمال الظهور فطلبوا الصلح فلم يرض دوقيوس وأصحابه وأبوا الاقتالهم فاقتتلوا فعادت الهزيمة على أصحاب دوقيوس وكانت شر هزيمة هلك فيها دوقيوس ومعظم جيوشه وتشتت من بقى منهم وتفرق أيدى سبا وكانت أيامه كلها محنا ورزايا وفتنا واضطرابات وشقاقا أراق فيها من الدماء شيأ كثيرا واشتد على النصرانية شدة عظيمة جدا فأعمل فى جميع النصارى القتل والصلب وتقطيع الاعضاء والسلب حيث رأى منهم ميلا لذكر فليبش وحفظا لاسمه بعد موته فقد ذاقوا فى أيامه من الرحمة والعدالة ما أنساهم الشدة التى كانوا فيها قبله وكان قد منحهم الحرية المطلقة فى اقامة شعائر دينهم وسهل لهم الامور وخفف عنهم الاثقال فكانت أيام دوقيوس على عكس ذلك فلم يذق النصارى من النكبات شدة أعظم مما ذاقوه فى أيامه ولا ضيقا أشد مما عانوه فى سلطانه حتى كادوا يفنون لولا رحمة الله بهم

وكان المصريون فى هذا الحين شديدى التمسك بعقائدهم القديمة وعوائدهم الدينية لايبغون بها بديلا وكان دعاة الدين المسيحى يعملون على استمالة جميع المصريين الى التمسك



بالديانة المسيحية وكان لهم فى مصر أحزاب يدعون الى الانجيل وكانت أعمالهم ناجحة نامية فظهر فى هذه الاثناء من بين ظهرانى المصريين داع لاحياء الدين القديم فسعى وأجهد النفس وبالغ فى الداب واستمال الكثير من أهالى البلاد على ترك الديانة المسيحية ودعاهم الى الردة فاستفحل أمره واستحكم بسببه الخلاف بين النصارى والوثنيين وقامت قائمة الفتنة فخرج الوثنيون على النصارى ونهبوا بيوتهم وكثر النهب بمدينة الاسكندرية حيث كانت يومئذ مأوى المتنصرين وكان نظام الاسكندرية قد اختل قبل عهد دوقيوس المذكور وعظمت الفتنة الى أن صار أمر اراقة دماء المسيحيين من الواجبات الدينية وتتبعوا أمرهم وكثر الفحص عنهم فخرجوا على وجوههم فى صحارى الصعيد الاعلى وانزووا فى أقطارها وأنكمشوا أياما

ويقال ان الذين أثاروا الفتنة وأوقدوا نارها على المسيحيين هم اليهود والمصريون عباد الاوثان وكانت الحكومة الرومانية بديار مصر تسر جدا باستمرار الشقاق بين صنوف الاهالى بمصر وتأكيد العداوة بين أهل الاديان لتدوم شوكتها وتتأيد دولتها فتقبض على سياسة البلاد بيد من حديد وكان هذا دأبها فى كل بلد ومملكة دوختها وفى خلال هذه الشدائد والمحن ظهر الراهب انطانيوس المصرى وهو أول من ابتدأ بلبس الصوف وعمارة الديارات بالبرارى وابتدع زى الرهبنة وأنزل بدياراته الفرق الهاربة من أهالى مصر ولم تكن الرهبانية اذذاك مشروعة ولا معروفة * واشتد البلاء على النصارى اشتدادا لم يسبق له مثال قال بعض أهل التاريخ وفرّفى هذه الايام الفتية أصحاب الكهف من مدينة افسس واختفوا فى مغارة شرقى المدينة وناموا فضرب الله على آذانهم فلم يزالوا نائمين ثلثمائة سنة وازدادوا تسعا * قلت ولم أر فى كتب النصرانية لهذا الحادث الغريب ذكرا البتة

وفى أيامه أبدل صورة الحكومة المصرية بصورة أخرى فأقام أميرا على العساكر يكون من وظيفته تدبير الجيوش والقيام بأمورهم بدون تداخل فى أمور البلاد السياسية وأقام أميرا آخر مصرى الاصل فى منصب الملوكية يأمر وينهى فى الشؤن الملكية بدون تحرش لما يختص بأمور العساكر وهذان الاميران كانا علاوة على النائب العمومى عن ذات القيصر فى بلاد مصر ولكنه أصبح مع اقامة هذين الاميرين ضعيف الكلمة خامل الشهرة والذكر ليس له من النيابة الا الاسم

وقد كانت عبادة الشمس والقمر بديار مصر الى هذا الحين شديدة الانتشار لم يعترها ضعف ولاوهن لاسيما فى عهد غورديانوس الثالث وفليبش ومن بعدهما أيضا وكان التمسك بها لم يذهب من هيا كل مصر والنوبة فكانت هذه العادة من أكبر الاسباب الدافعة بأمم المصريين الى اثارة الفتن وتعميم المحن والباعثة لهم على القيام على كل من خالف دينهم وشق عصا طاعة الهيئة الحاكمة والخروج عليها من وقت الى آخر وكانوا لايألون جهدا فى تعضيد كل من خرج على الحكومة من أمراء البلاد أو الاعراب ويعاونون كل من أراد اغتصاب المنصب الملوكى وينصرونه على ذلك بالنفس والنفيس قيل والغالب أن أصحاب هذا

الاقليات

الاقتيات انجاهم الاغراب المستوطنون للبلاد فكانت لذلك لاتنقطع من ديار مصر الحروب الداخلية والاضطرابات العمومية ولامايترتب على ذلك من القحط والوباء حتى أهلك أهلها وقلل عددهم وكان الباعث على ذلك أيضا خسة الملوك ودناءة أصولهم واغتصابهم المنصب بغير أهلية ولااستحقاق وسيرد عليك من قبح سيرة مثل هؤلاء الملوك شئ كثير عند الكلام على نوبيه ملكة تدمر عند ذكر أوليانوس قيصر

وكان موت دوقيوس الملك سنة خمس وستين ومائتين للبلاد أى سنة احدى وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه نحو السنتين وخلفه فى الملك غالوس

(فى الملك غالوس)

﴿ قيصر ﴾

﴿ ويقال له أيضا ﴾

(والوس)

ثم قام بالامر غالوس واسمه أيضا والوس بويع بالملك فى اليوم الذى قتل فيه دوقيوس سنة خمس وستين ومائتين للبلاد أى سنة احدى وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة * وتحرير الخبر أنه لما انتصر اقليوه مقدم القبائل الشمالية على دوقيوس وأصحابه وهلك دوقيوس على ماتقدم بيانه خجلت العساكر مما لحقها من العار ولم تسرع بمبايعة أحد من قوادها وانتظرت ما سيكون من أرباب مجلس رومة وكان غالوس هذا معدودا من قواد الجنود الرومانية وقدارتقى بغيرته واجتهاده الى درجة سامية فى المملكة فحمل من معه من العساكر على مبايعته فبايعوه فاشرك معه هوسطليانوس بن دوقيوس فى ادارة أمور المملكة وعهد لابنه وولسيانوس بالملك من بعده وحلفت له العساكر بذلك وقدم هذا كله فى معسكر بلاد التمسا ثم سار من هناك واستصحب معه شريكه هوسطليانوس الى رومة ليأخذ البيعة لنفسه من أرباب مجلسها

وكان اذ ذاك فى البلاد الرومانية وباء عظيم جدا فبينما غالوس وشريكه هوسطليانوس سائران اذ وسوس الشيطان فى صدر غالوس بقتل هوسطليانوس فقام عليه وخنقه وأشاع خبر موته بين الناس بالوباء ثم دخل مدينة رومة فبايعه أرباب المجلس بيعة صحيحة وكانوا يؤملون فيه انقاذ البلاد من أيدى الاعداء فخاب فيه الأمل

ولما استقر به المنصب أمر بقتل البابا (مارقود نيليوس) ولم تذكر جماعة المؤرخين لذلك سببا مع أن قتل البابا فى تلك الظروف لم يكن بالامر اليسير وعقد مع القوطية صلحا ذهب بشرف الامة أدراج الرياح حيث ضرب للقوطية على الرومانيين خراجا يحمل

اليهم فى كل عام كيلا تحصل منهم الاغارة على بلاد رومة ورجع غالوس بعد عقده هذا الصلح الى رومة منهوما مدحورا فكان فى هذا الصلح كال الصغار للرومانيين وحصل لهم كال الخزى والعار وقد قصد غالوس بتعجيله الصلح مع القوطية على هذا الوجه التفرغ لحظوظه وشهواته ولم يراع حاجات الوطن والامة ومع ذلك فان القوطيين لم يحفظوا لهذا الصلح شأنا ولم يحترموا له حرمة بل نقضوه وأغاروا على بلاد البوسناق والصرب والبلغار وكان أمير الجيوش بتلك الجهات يومئذ الامير (امليانوس) المغربى فذب ودافع عنها خير دفاع وضرب القوطيين فهزمهم شر هزيمة وفرحت جنوده بالنصر واستبشروا بطالع قائدهم امليانوس المذكور فبايعوه بالملك فى ميدان الحرب الذى انتصر فيه على أعدائه ونادوا بملكه فلما وردت الاخبار بذلك الى غالوس الملك سار اليه بجيوشه ليوقعه على اعتدائه وتهافته على المنصب بغير استحقاق وبينما هو فى الطريق وقعت الفتنة بين جيوشه فاقتتلوا وقاموا على غالوس وابنه فقتلوهما بطعن الخناجر وذلك سنة ثمان وستين ومائتين للبلاد أى سنة ثمان وستين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه سنتين لاغير وتولى بعده الامير امليانوس المذكور

(فى الملك امليانوس)
(قيصر)

ثم قام بالامر امليانوس سنة ثمان وستين ومائتين للبلاد أى سنة ثمان وستين وثلثمائة قبل الهجرة ولم يبايعه سوى جنوده الذين كانوا معه فى غزوة القوطيين فلم يستقر به المنصب حتى سار لقتاله (والريانوس) قائد العساكر الرومانية ببلاد الغلية بجيشه المرابط فى تلك البلاد فخرج امليانوس لقتاله ومعه جنوده وابنه فلما التقى الفريقان واقتتلا انتصر عليه والريانوس القائد نصرة عظيمة وقتله هو وولده فى ميدان القتال وداست جثتهما سنابك الخيل فى السنة التى تولى فيها فكانت مدة حكمه أربعة أشهر فقط وتولى بعده القائد والريانوس المذكور

(فى الملك والريانوس)
(قيصر)

ثم قام بالامر والريانوس بايعه عساكره بالملك فى اليوم الذى قتل فيه امليانوس وابنه سنة ثمان وستين ومائتين للبلاد أى سنة ثمان وستين وثلثمائة قبل الهجرة وبيان ذلك أنه

لما قتل امليانوس ورأت جيوش والريانوس منه بطلا شجاعا فى الحروب واقتحام المعارك والخطوب فضلا عن أنه شيخ معمر حنكته التجارب توسموا فيه المقدرة على توطيد دعائم المملكة وتمكين شوكتها وتخليصها من غوائل الفتن المتراكمة والخطوب المتوالية فأقاموا له البيعة ونادوا بملكه وسار من ميدان الحرب الى رومة بجيشه فبايعه الاهالى وأرباب المجلس وتم له الامر وارتقى سرير الملك بين مظاهر التعظيم

فلما استقر به المنصب جهز جيشا عظيما وسار لغزوة سابور ملك فارس ابن أردشير فكانت هذه الغزوة من شر الغزوات وأتعسها على الدولة الرومانية وتحرير الخبر أنه لما تقلد سابور الملك بعد أبيه اردشير ورأى اختلاف كلمة الدولة الرومانية وتسلط قواد الجيوش على منصبها الملوكى وزعزعة أركان سياستها الداخلية والخارجية سار بجيوشه الى بلاد أناطلى على مهل وكان كلما مر ببلد أو مدينة قتل ونهب وأحرق وأهلك الحرث والنسل حتى نزل بانطاكية فدمرها وسار منها الى حمص ليخربها أيضا فلما وردت الاخبار بذلك الى رومة قام الملك والريانوس بجيشه مسرعا الى حمص ليدفع سابور عنها فأظهر سابور الخوف والقهقرى ووالريانوس يتبعه بجيوشه حتى دخل والريانوس بجنوده فى موضع حرج للغاية فهجم عليه سابور بعسكره وهزمه شر هزيمة وأخذه أسيرا فعامله معاملة سيئة للغاية وضرب عليه ضروب الذل والصغار فكان يصحبه أينما حل وحيثما ارتحل وكان يلبسه أنظر ثيابه الملوكية وكان اذا أراد ركوب عربته أوجواده استحضره وطرحه على الارض وجعله سلم ركوب فكان يدوسه عند الركوب بقدمه ولاينظر الى شيخوخته ولبث على هذه الحال من الاهانة والتعذيب ثمان سنين كاملة وكان أسره ووقوعه فى يدى سابور فى سنة أربع وسبعين ومائتين للميلاد أى سنة اثنتين وستين وثلثمائة قبل الهجرة

قال بعض أهل التاريخ ومن غرائب الاتفاق أن والريانوس كان أمر بتتبع النصارى وتعذيبهم واذلالهم فقتل منهم خلق كثير وذلك فى السنة الرابعة من ملكه ولم يمض على هذا الفعل الا القليل حتى سار لحرب سابور ووقع فى الاسر والتعذيب فكان صبورا على تحمل هذه البلوى لايتململ ولما مات أمر به سابور فسلخ ودبغ جلده وصبغ باللون الاحمر الارجوانى الذى هو لون لباس الملوك وحشوه بالتبن ليكون دائما على شكله لايتغير تمثيلا به وعبرة لمن يأتى بعده من ملوك الرومان

وفى أيامه ظهرت قبائل الفرنجة وسارت للغزو وتخريب البلاد فوصلوا بعد أسره الى بلاد الغلية واسبانيا وافريقية وانقسموا الى عدة طوائف لكل طائفة منهم ملك وكان كل ملك من ملوكهم يمتاز عن رعيته وقومه بهنداسة فى يده يقبض عليها دائما وكانت وظيفته أن يمشى بهذه الهنداسة أمام جنوده وأن يقضى بين الاخصام على دكة وبيده هذه الهنداسة فيشير بها الى صاحب الحق عند الحكم

وكان لوالريانوس ولد اسمه (غليانوس) واليا على بلاد الغلية فبايعه الرومان من



خلاص والريانوس من أسر سابور ملك فارس سيروا فى طلب غليانوس المذكور ليولوه بدل أبيه فجاء مسرعا الى رومة ودخلها فى موكب حافل للغاية فكانت مدة حكم والريانوس الى يوم أسره خمس سنوات

(فى الملك غليانوس)
(قيصر)

ثم قام بالامر ابنه غليانوس بويع له بالملك سنة خمس وسبعين ومائتين للميلاد أى سنة احدى وستين وثلثمائة قبل الهجرة وقد كان قبل ولايته عاملا للرومانيين على بلاد الغلية فسار منها الى رومة فى موكب حافل جدا فلما دخلها بايعه أرباب المجلس والوجهاء وأهل البلاد واستقر به المنصب فعكف على مالاخير فيه وألهته خمرة المنصب عن غيرها قال بعض أصحاب التاريخ

وبينما كان والريانوس الشيخ الكبير أبو غليانوس هذا يكابد ما يكابد من ذل الاسر ومضض الاهانة والضيق ببلاد فارس كان غليانوس ابنه منهمكا فى الالعاب مولعا بالولائم والاحتفالات يدعو اليها جميع ندمائه وجلسائه لاقتسام اللذات والشهوات وكان يقضى يومه وليلته فى السكر والعربدة ويتسلى ببناء القصور من باقات الزهور والرياحين وزرع البطيخ فى الشتاء حيث تشتهيه نفسه فى ذلك الفصل وقد كانت فى هذه الاثناء تنصب على هامة المملكة أنواع المصائب والنكبات من كل صوب وحدب حتى كادت تشرف على الدمار فقد انتشر بها القحط وطغيان الانهار والوباء والفتن الداخلية فكان يهلك بالطاعون فى مدينة رومة وحدها فى كل يوم خمسة آلاف نفس ومع هذه الخطوب والكروب والمصائب العظيمة كان غليانوس الملك لاينفك عن ملاذه وشهواته متغاضيا عن اغارة الاعداء على بلاده حتى مزقوا المملكة وكادوا يبتلعونها فكان اذا كلمه أرباب الدولة وكبار الجند فى ذلك وحببوا اليه كبح جماح الاعداء وردهم عن البلاد قال لهم لاتكثروا العتب واللوم فانى لاأهتم الا باقليم ايطاليا دون غيره فكانت أيامه شديدة الازمة على البلاد الرومانية بأسرها كثيرة الرزايا والاحن وسار غليانوس للحرب مع افرنج الغلية لشنهم الغارة على حدود المملكة الرومانية فانتهز مليانوس أمير الجنود الرومانية المرابطة بمصر هذه الفرصة فخرج على غليانوس وشق عصا طاعة الدولة فكاتبه غليانوس فى الرجوع الى الطاعة فلم يرجع وأصر على العناد فأرسل اليه طيودوطس القائد فى جيش عظيم فهزمه وقبض عليه وأرسله الى رومة فسجن فيها ثم قتله غليانوس وهو بالحبس صبرا ۞ ومنح ادنياطوس ملك تدمر لقب أغسطس حيث كان محالفا للرومانيين وهو الذى هزم العجم الذين كانوا قد أغاروا على أملاك الدولة الرومانية وطردهم حتى أرجعهم الى بلادهم وكفى الرومانيين شرهم فانتقل هذا اللقب أيضا الى زوجته (زنوبيه)

وأولاده اذ كان متوارثا فيهم بعد موت ادنياطوس فصار كل من يتولى ملك تدمر يلقب بلقب اغسطس فبدأت من هذا الحين مدينة تدمر فى التقدم ورفعة الشأن واتساع نطاق التجارة ولاسيما فى عهد زنوبيه كما سيأتى الكلام عليها مفصلا

وقام عليه فى خلال ملكه كثير من أمراء الجنود الرومانية واغتصبوا منه الملك فكان منهم من قبض عليه وقتل ومنهم من قتله جنوده قبل أن يصل الى رومة ولما اشتد بالرومانيين الخطب وبلاهم الذل والعار بسبب فعال غليانوس المذكور وسوء تدبيره وفساد رأيه أغروا طوائف الجند على الخروج عليه وقتله فقاموا عليه وقتلوه وأقواجيشه أمام قصره وذلك سنة اثنتين وتسعين ومائتين للبلاد أى سنة أربع وخمسين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدته سبع سنين

وفى أيامه مات ديتريوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام اثنتين وثلاثين سنة وفى أيامه طارت الاخبار بقتل جميع النصارى الذين فى ممالك رومة فوقعت فيهم مذبحة عظيمة جدا وكانت هى الشدة الخامسة وقد ابتدأت أولا من بلاد مصر حيث قتل جميع من فيها من النصارى حتى لم يبق الا من لجأ الى الجبال واختفى فى المقابر والكهوف ثم سرت الى بلاد الغلية والى افريقية فقتل فى تلك البلاد مالا يحصى عددا لاسيما فى مدينة ليون احدى بلاد الفرنسيس وفى قرطاجنه ببلاد المغرب فكانت شدة عظيمة للغاية فلما مات ديتريوس أقيم بعده (بادكلوس) أو (بادكلاس) وهو ثالث عشرهم وأصله من مدينة الاسكندرية وهو أول من سمى بابا على المشهور وكان ورعا تقيا ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

ولما مات غليانوس الملك كما تقدم تولى بعده قلودس الثانى

(فى الملك قلودس)

(قيصر الثانى)

ثم قام بالامر قلودس الثانى وبويع بالملك بعد قتل غليانوس سنة أربع وثمانين ومائتين للبلاد أى سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة قبل الهجرة فكان أول سلسلة القياصرة (الليرية) يعنى القياصرة السواحلية وكان أصله من اقليم دلماشيا وكان معدودا من فحول رؤساء الجيوش الرومانية وهو الذى حارب الغوطية وقهرهم وبدد شملهم فكان أول من بايعه بالملك العساكر ثم حضر الى رومة فى عسكره فأقره أرباب المجلس وبايعوه وفرحوا به واستبشروا بولايته ولم يستقر به المنصب حتى جمع الغوطيون جيشا جرارا عند نهر آق كرمان ونزلوا عند سواحل البحر الاسود وأغاروا على المدن الرومانية القريبة منها وزحفوا على بلاد اليونان التابعة لرومة وأغاروا عليها أيضا فسار قلودس الملك مسرعا لقتالهم فانتصر عليهم نصرة عظيمة

سميت نصرة (نسيا) وهى مدينة ببلاد الصرب وقد كثر فيها اراقة الدم عند اشتباك القتال بين الفريقين الى حد تولد عنه وباء عظيم جدا فأصاب قلودس الملك فرض ومات به فى مدينة سرمش جهة بلاد الصقالبة وذلك سنة اثنتين وثمانين ومائتين للميلاد أى ستة خمسين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدته سنتين وتولى بعده أورليانوس قيصر

(فى الملك أورليانوس)

(قيصر)

ثم قام بالامر أورليانوس بايعه العسكر فى اليوم الذى مات فيه قلودس سنة اثنتين وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة خمسين وثلثمائة قبل الهجرة وتحرير خبره أنه لما كان قائدا من قواد الجنود العارفين بأساليب الحروب وكان مقاتلا مهيبا تخشى سطوته ويخاف بأسه طار صيته فى الآفاق فتعلقت الآمال به واجتمعت الكلمة على مبايعته فبايعوه وكان شديد المراس على طوائف الجنود يخافه القريب منهم والبعيد

فلما استقر به المنصب أغارت طوائف الالمان على ايطاليا وظفروا بجيش عظيم من جيوش الرومانيين وبددوا شمله وأعملوا النهب والسلب فى جميع مدن ايطاليا فانتهز أورليانوس اشتغالهم بالنهب وجمع ماتفرق من عساكره وانقض عليهم ولا انقضاض البازالاشهب وبدد شملهم وأعمل فيهم السيف حتى ركنوا الى الفرار وعادوا يعبرون نهر طونة كما حضروا فسلمت البلاد من شرهم

وكان غليانوس قبل موته بنحو سنة اتفق غليانوس مع زنوبيه ملكة تدمر وتحابا حيث كان زوجها محالفا للرومانيين ومظاهرا لهم على الفرس فظهرت زنوبية المذكورة بعد موت زوجها ظهورا عجيبا فى البلاد المشرقية وقويت شوكتها واستفحل أمرها وانتظم ملكها وصارت مدينتها التى هى تخت ملكها فى صحارى الشام الرومانية عامرة آهلة زاهرة بهية حتى كأنها جنة من جنان الدنيا واتسعت دائرة ملكها من ساحل بلاد مصر والشام الى نهر الفرات والعراق برا وبحرا واهتمت باعانة التجارات واتساع دائرة المعاملات فأحرزت بلادها مالامزيد عليه من الرونق والبهجة واكتسبت مدينة تدمر فى أيامها من الفخر والزينة مالم تكتسبه فى أيام سليمان عليه السلام وكانت زنوبية قد تزوجت بالملك اذناطوس الذى هزم سابور ملك فارس وانتصر عليه فى عهد الملك غليانوس كما سبقت الاشارة الى ذلك فى محله فلما مات زوجها سلكت مسالك الجد وتقوت عزيمتها واتصفت بصفات الرجولية وحلت محل زوجها فى الحماسة والشجاعة والبأس والشوكة حتى أحرزت بلادها كمال الشهرة وبعد الصيت وثبتت دعائم ملكها بتلقيبها بلقب

قيصرة وكانت تزعم أنها ماتولت الملك الا باستحقاق وأنها صاحبة أصل ينتهي الى فراعنة مصر وملوكها فكانت في زمانها نادرة تخطب في العساكر بأبلغ خطابة وأفصح لسان وتحثهم على اقتحام الخطوب وتضمن لهم الفوز والغلبة شأن القائد الحازم وكانت تضع على رأسها خوذة الحرب كالابطال حاسرة عن ذراعيها كالفتيان من الرجال وكانت قوية الجأش ثابتة الجنان لها في السياسة اليد الطولى وكانت شديدة الامل كثيرة الطمع في أن تحكم يوما ما جميع الممالك الرومية وكانت بلاد مصر في هذا الحين تحاول الخروج عن طاعة الرومانيين وتزاول الاستقلال بنفسها فلما علمت زنوبيه بذلك وجهت أطماعها نحو ديار مصر وأخذت تبذل الاموال الكثيرة والرشا التي لاتدخل تحت حصر رجاء أخذها بالتي هي أحسن فلم تنجح فاستعملت القوة وسيرت جيشا جرارالغزوها فانتصرت عساكرها على العساكر المصرية واستولت على سرير الاسكندرية فلم يستقربها المقام حتى عادت الجنود المصرية الى مقام الاقتتال وطردتها من مدينة الاسكندرية وزحزحتها عنها فعادت اليها بعد قليل حيث جاءها من تدمر المدد من الرجال والذخيرة ومعدات القتال وتغلبت عليها واستولت على تخت الملك وذلك كله في عهد أورليانوس الملك فقام أورليانوس من رومة وسار الى الشام وحارب زنوبيه واقتتلا قتالا شديدا جدا فانتصر أورليانوس عليها نصرة عظيمة فهربت من حمص الى تدمر وتترست عساكرها وراء حصونها فضيق أورليانوس حصارها ومنع عنها الميرة فنفد مافي المدينة من الزاد وأيست من الذخيرة والامداد فحاولت الخروج والفرار فأحس بها وقبض عليها وهي هاربة فلما مثلت بين يديه قالت له قد ساعدتك بالنصر علينا الاقدار أيها الملك فها أنا معترفة لك بالولاء ولقد كان الخروج على أسلافك من الامور اللازمة اذهم لم يبلغوا ماوصلت أنت اليه من النجابة والبسالة وكانت في هذه الاثناء تحدق بها العسكر من كل جانب فصاحوا جميعا اقتلوها اقتلوها فما هي الا ساحرة ماكرة فأشار أورليانوس أن اسكتوا وقال انى لاأحب الابقاعها فاستبقاها ولكنه أذلها وأدخلها رومة في موكبه ضمن الغنائم ثم أنزلها في قصر في رومة ولبثت هنالك الى أن ماتت وبقيت ذريتها من بعدها الى أن أوشك الاسلام أن يفتتح الشام

وكان أسر زنوبيه وزوال ملكها جميعه في سنة أربع وثمانين ومائتين للميلاد أي سنة خمسين وثلثمائة قبل الهجرة

وبعد هذا الحادث بقليل ظهر تاجر من تجار الاسكندرية وقصد الاستبداد بحكم البلاد وكان صاحب ظهور وخروج على الكلمة فنادى لنفسه بالرياسة وعمل على حكم البلاد فانتهى اليه من ديوان مصر الامر والنهي في جميع الامور وخضع له من أهل البلاد السواد الاعظم وقام يدفع جوامك جميع الجنود وزعم أنه يتكفل بجميع ذلك من ريع صناعة ورق الكتابة المتخذ يومئذ من البردى فلبى دعوته جميع المصريين وعقد المعاهدات مع المجاورين من ملوك العرب وضرب السكة باسمه واستعان بروم الاسكندرية فأطاعوه



وانتصروا له تخلصا من حكم الدولة الرومانية فحارب الدولة وتلاقى مع جندها فى ثلاث مواقع فظهر عليهم فى نصرة ثم انهزم شر هزيمة ووقع فى يد قائد الجيوش الرومانيـة فقتـله وعادت مصر الى قبضة الرومانيين وتقلد نيابتها أمير من قبل أورليانوس اسمه (أوربليوس بروبوس) فاصلح ما أفسدته الحروب والوقائع وعمر المبانى بالتجديد والترميم وأصلح النيل بالعمليات الهندسية وشغل فيها الجنود فسارت السفن وانتظمت أحوال الملاحة بعد أن تعطلت أو كادت زمنا ليس بقليل وكانت سيرة أورليانوس الملك أحسن سيرة وقد دبر البلاد أحسن تدبير فحازت فى أيامه الصدت وكمال الشهرة وسار فى آخر أيامه لغزوة الفرس بعـد انتصاره على عصاة مصر والشام فبينما هو يسير بجيوشه اذ ثار عليه منسيطس كاتب سره فتنة من جنوده فقام الجند على أورليانوس وقتلوه وذلك سنة ثمان وثمانين ومائتين للبلاد أى سنة ثمان وأربعين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه أربع سنين لاغير

وفى السنة الاخيرة من ملكه كان تعذيب النصارى بالشدة السابعة التى سفكت فيها الدماء الهائلة وقتل فيها سلدنيس رئيس أساقفة باريز وكانت من أعظم الشدائد وأنكاها بالنصرانية

ولما مات أورليانوس على ماتقـدم بيانه تولى بعده طاقيطوس أحد أرباب مجلس رومة بعد أن لبثت البلاد بلا ملك مدة ثمانية أشهر

(فى الملك طاقيطوس)
(قيصر)

ثم قام بالامر طاقيطوس وبويع له بالملك بعد فترة ثمانية أشهر فكان ذلك فى سنة سبع وثمانين ومائتين للبلاد أى سنة سبع وأربعين وثلثمائة قبل الهجرة وتحرر الخبر أنه لما قتل الجنود أورليانوس عند ذهابه لغزوة فارس وردهم عن الامالك المشرقية التى كانوا قد أغاروا عليها لم يستطع أحد مبايعة أحد بالملك خوفا وخجلا فبقى سرير رومة خاليا وهذه أول مرة خلا فيها سرير الملك عن يشغله وكانت مدة خلوه ثمانية أشهر فاعتبرت عند جماعة المؤرخين فترة

وقد حدث فى خلال هذه الفترة أن ظهرت طوائف الفرنج وعبروا نهر الرين للتغلب على بلاد ايطاليا واغتيالها فلما أحس أعضاء مجلس رومة بهم اجتمعوا برؤساء الجنود وتشاوروا فى الامر فاتحدت كلمتهم على مبايعة طاقيطوس بالملك وقد كان من أعضاء المجلس فبايعوه وكان حكيما عاقلا كيسا حسن المقاصد سليم النية خالص الطوية يفتخر على غيره من جهة أنه من ذرية طاقيطوس المؤرخ وكان هرما بلغ من العمر خمسا وسبعين سنة ولم يكن مجربا للحروب ولا مارس الخطوب وكان له معرفة تامة بالانشاء والمحاضرات والادبيات والخطابات

فكانت لذلك نفوس العساكر غير مائلة اليه ولم يلبث أن وقعت بينه وبينهم الوحشة والنفور فكانوا لايهابونه ولاينظرون اليه الا بعين المقت والاحتقار ثم لم يمض الا قليل من ولايته حتى أضرموا نار الفتنة وبسطوا راية العصيان فوقف رئيسهم بينهم موقف الخطيب وصار يحضهم على السكون ويستميلهم الى الطاعة ويقول كيف ترضون طاقيطوس ملكا عليكم بالامس واليوم تطلبون خلعه وهو يعدكم بالعطايا والنعم الجزيلة فلم تؤثر فيهم خطابته ولم يقدر على تسكين الفتنة ثم دخل على طاقيطوس فريق منهم وقتله بالقصر وألقوا جثته على باب حجرته فنقل ودفن وذلك سنة ست وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة سبع وأربعين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت أيام ملكه سنة غير كاملة وتولى بعده بروبوس

(فى الملك بروبوس)
(قيصر)

ثم قام بالامر بروبوس وبويع له بالملك فى اليوم الذى قتل فيه طاقيطوس سنة ست وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة سبع وأربعين وثلثمائة قبل الهجرة وقد كان أبوه بستانيا فدخل هو فى خدمة الجندية الرومانية وأقبل على تلق فنونها وضروبها فارتقى درجاتها واحدة بعد واحدة وسمى فيها باسم بروبوس بمعنى الصالح وكان مستقيم الحال حسن الفعال جديرا بذلك العنوان وقد تحققت شجاعته لدى جميع الجنود بحصاره المدائن والثغور وحروبه وفتوحاته العظيمة فكان مهيبا محترما محبوبا

ولما أحضروا له الحلة الملوكية ليلبسها يوم بويع بالملك امتنع وقال هى أكبر منى فألحوا عليه فى ذلك فأخذها وقال لعلكم قلدتمونى المنصب قبل أن تعرفوا أحوالى وتختبرونى وقد أرى أنكم ستندمون على ذلك فانى لاأراعى أحدا منكم فى الاحكام ولاتأخذنى فى الله لومة لائم

فلما استقر به المنصب شرع فى تحصين الحدود وحماية الثغور والعناية بها ودفع الاعداء ومنعهم من الاغارة عليها ثم تجهز بعد ذلك لحرب القوطية والصقالبة والافرنجة والالمان وزحف بجيوشه عليهم مرة واحدة فانتصر على الجميع وأرسل كثيرا من القبائل الرومانية الى ماوراء نهر الرين ليتوطنوا بالبلاد التى وراء ذلك وأرسل قبائل أخرى المانية الى الاقاليم الشرقية الرومانية وأذل الفرس وقهرهم وأهانهم اهانة عظيمة وقاتل أهالى صعيد مصر حتى أدخلهم تحت الطاعة وقد كان خروجهم من عهد أورليانس قيصر وعاقبهم أشد العقاب ولا سيما أهل مدينة قفط واخميم ومنشأة اخميم ثم عاد الى رومة مؤيدا منصورا ودخلها فى موكب عظيم للغاية سار فيه أمامه بعض أسرى الامم وغنائم الدول التى هزمها بسيفه وكان بعد

انتصاره على أهل مصر قدولى عليهم واليا اسمه الامير (ساطرنيوس) فاستعان ساطرنيوس المذكور عن استماله لنفسه من أروام الاسكندرية على الخروج عن طاعة الملك والاستقلال بملك البلاد ولكنه لم يلبث أن قامت عليه فتنة عاجلة فقتل فيها وعادت الكلمة فى البلاد للقيصر فاستعمل مكانه أميرا آخر اسمه (انطيس) فلم يستقر بانطيس هذا أيضا المنصب حتى حدثته نفسه بطلب الاستقلال والخروج عن الطاعة وعمل على ذلك واستمال اليه أرباب المظاهر فى البلاد فبايعوه على ذلك بمصر ثم قامت عليه فتنة فقتل فيها أيضا وعادت كلمة القيصر الى مقامها الاوّل فهابته الدول وخافه سائر الرعية وعلت كلمته وانبسطت يده على جميع أمور الدولة فاستتب الامن فى داخل البلاد الرومانية واستولت الطمأنينة على جميع الاهلين وانتظم حال التجارة والصناعة والفلاحة وكثر غرس الكروم لاسيما فى بلاد الغلية والجرمانية والبلاد الاندلسية وزادت محاصيل العنب زيادة عظيمة للغاية وكان لايترك الجنود فى البطالة والكسل بل كان يستعملهم فى الخدم العمومية كتنشيف البرك وردم المستنقعات وعمارة القناطر والجسور وفتح الترع والخلجان وتطهير الانهر وتحسين مجاريها وكان لايدعهم للاستراحة طرفة عين وقد كان أنذرهم قبل مبايعته بجميع ذلك اذقال لهم * ولعلكم قلدتمونى المنصب بدون روية * فسئم الجند من استدامة الخدمة وأغضبهم استمرارهم على هذا الحال وامتلأت صدورهم حقدا عليه وكرها له فذهب يوما ليرى عملية تطهير بعض الجسرات فقام عليه الجند وقتلوه قيل وكان مما حمل الجند على قتله أنه قال لقوادهم فى محفل (سيأتى علىّ يوم لاأحتاج فيه الى جندى منكم ولا جنود) يريد بذلك أنه بالعدل تقل حاجة الملك الى العساكر مصداقا لقول القائل

* لوأنصف الناس استراح القاضى * وبات كل عن أخيه راضى *

وكان قتله فى سنة ست وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة أربعين وثلثمائة قبل الهجرة وهومن الحوادث المشؤمة على الدولة الرومانية وكانت مدة ملكه سبع سنين وتولى بعده قاروس

(فى الملك قاروس)

(قيصر)

ثم قام بالأمر قاروس بايعه جند الحرس الملوكى عقب قتل بروبوس سنة ست وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة أربعين وثلثمائة قبل الهجرة وقد كان رئيس جند الحرس المذكور فسار الى رومة بعسكره وطلب من أرباب المجلس البيعة له فبايعوه عن اخلاص وقد كان مولده فى مدينة اربونة بمملكة الغلية ولم يكن ذابيت عريق فى المجد وكان له ولدان أحدهما

اسمه قاريئوس والثانى اسمه نومريانوس فلما استقر به المنصب قلد ولديه منصب الاغسطوسية ونادى لهما بذلك

وعاد الفرس والصقالبة فى السنة الاولى من ملكه الى الاغارات على البلاد الرومانية فسار بنفسه الى بلاد آسية وقاتلهم قتالا عنيفا فهزمهم وأخذ بعض مدنهم وعاد الى رومة فقام عليه بعض جنوده فى الطريق وأخذوه غيلة وقتلوه وذلك سنة سبع وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة تسع وثلاثين والثمانمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه سبعة عشر شهرا فتولى الملك بعده ولداه قاريئوس ونومريانوس

(فى الملك قاريئـــــوس)
(قيصر)
(والملك نومريانوس)
(قيصر)

ثم قام بالامر ولداه قاريئوس ونومريانوس بويع لهما بالملك عقب قتل أبيهما فى أثناء سنة سبع وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة تسع وثلاثين والثمانمائة قبل الهجرة وقد كان نمريانوس معتدل المزاج لين العريكة سهل الاخلاق فصيح المنطق بليغ المقال الى حد أكسبه شهادة مجلس رومة بأنه خطيب عصره ونادرة مصره وقد كانت الخطابة عند اليونان والرومان فى ذلك الحين أصلا عظيما من أصول الدولة يعين على التحسين والتمكين وقد خلد التاريخ فصاحة نمريانوس وبيانه وجعل شهادة المجلس له بذلك دليله وبرهانه

وأما قاريئوس فقد كانت أوصافه على خلاف أوصاف أخيه فكان منهمكا على القبيح فاسد الاخلاق مخالطا لاهل السخرية والاغانى لايصحب الامن لاخلاق له وكان يتزيا بزى النساء فيلبس اللآلئ النفيسة والجواهر الكريمة ولاينام الاعلى بساط الزهور والرياحين وكان يتحبب الى الجند وأهل البلاد بالاكثار من الولائم والضيافات فكانوا لذلك يتغاضون أحيانا عن معايبه

ولما استقر المنصب بنومريانوس سار الى بلاد فارس حيث كان أهلها قد قاموا على البلاد الرومانية وأخذ معه آبروس أبا زوجته فلما رأى آبروس المذكور ما عليه نومريانوس من أبهة السلطنة وعزة الملك تاقت نفسه الى ذلك وسولت له القتك بنومريانوس فقام عليه وهو فى طريقه الى فارس وفتك به وكان مع نومريانوس فى هذه الغزوة دقلديانوس رئيس غلمانه فلما علم بما فعله آبروس قام عليه وقطع عنقه انتقاما منه وأخذا بثأر

سيده وفى رواية أنه لم يكن ضربه عنق آبروس محض انتقام لسيده بل ان الاصل فى ذلك أن كاهنة من بلاد الغلية بشرته بأنه سيملك على بلاد عظيمة جدا اذا يسر له القدر قتل الخنزير فكانت كلمة آبروس باللغة اللاتينية معناها خنزير ونقلت الى الغلية من معناها الاصلى فكان قتله لآبروس المذكور تحقيقا لما قالته وبشرته به الكاهنة وقد تولى الملك بعد ذلك ولكن على بلاد الغلية فقط قيل ولم يقصد الاستيلاء على رومة ولا بسط يده على جميع البلاد الرومانية كما كان الناس يظنون

ولما تمكن دقليانوس من الجند وكارهم سار بهم الى قارينوس ودنا من مقره وأضمر له السوء فأحس قارينوس بذلك وصحا من سكر الغفلة وأقلع عما كان عليه من الخفة واللهو والاشتغال بالدنايا وبرز لمحاربة دقليانوس واستعمل البأس والشدة فكانت الحرب بين الفريقين سجالا ثم ظهر على دقليانوس وهزمه وكسر عساكره * وبينما هو يطارد دقليانوس وعساكره قامت فتنة بين جنوده فقتلوه فى الطريق وذلك سنة سبع وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكهما أشهرا قلائل وولى بعدهما دقليانوس واستقل بحكم البلاد

(فى الملك دقليانوس قيصر)

(ويقال له أيضا)

(دقلطيانوس ودقله والملك مقسيميانوس هرقل أغسطس)

ثم قام بالامر دقلطيانوس بويع له البيعة العامة بعد قتل قارينوس سنة سبع وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة وكان مولده بمدينة دقليا لماجيا ببلاد النمسا من عائلة خاملة الذكر عاطلة من حلية المجد والحسب فدخل فى خدمة العسكرية من زمن صباه واشتهر بالبراعة فى الفنون الحربية والسياسة الملكية ولكنه لم يشتهر بالشجاعة فى المواقع المهمة ولا عرف عنه الفتك بالاعداء فكانت سياسته كسياسة أغسطس أول قياصرة الروم يميل الى حسن التنظيم واحكام الامور والتمسك بالحزم والتبصر فى العواقب وكان ميالا الى السلم والصلح وتنسيق الاحوال فكان معدودا لذلك من أكابر مدبرى الدولة الرومانية ولم يسبق له مثيل بين رجالها وكان عمره حين تولى الملك أربعين سنة وقد أحس باحتياجه مع ذلك الى عضد يقوى ساعده وظهير يقتسم معه حمل أعباء المملكة وكان من أمراء شجعان العسكر الرومانى أمير اسمه مقسيميانوس هرقل من أبناء بلد دقلطيانوس ولكنه كان فظا غليظا دنىء الاصل لان أباه كان من رعاة الماشية فقرب مقسيميانوس المذكور فى

الجندية ومازال حتى انتظم فى سلك الشجعان فأدناه دقلطيانوس منه وقاسمه الملك قسمة مهايأة وتراض فأبقى دقلطيانوس لنفسه الاقطار المشرقية وترك لمقسيميانوس تدبير الاقطار المغربية وجعل مقر حكومة مقسيميانوس مدينة ميلان من أعمال ايطاليا

وامتاز دقلطيانوس عن مقسيميانوس بملاحظة عموم المصالح وأمور كافة البلاد الرومانية مشرقية كانت أو مغربية وجعل دار اقامته مدينة ازمير من أعمال بروسه فهجرت عندئذ مدينة رومة وانسلخ عنها كونها دار الملك ومقر السلطنة الرومانية فى عهد هذه المقاسمة وكان ذلك فى سنة ثلاث وثلثمائة للميلاد أى سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة وكان كل من دقلطيانوس ومقسيميانوس فى تدبير أمور المملكة وقضاء مصالح خلق الله على وفاق عام وتواطؤ فى الرأى تام فكان دقلطيانوس يومئذ رأس الدولة ومقسيميانوس عضدها

ولما ذهب مقسيميانوس الى مقر حكومته بالاقطار المغربية رأى من خروج فلاحى بلاد الغلية وعصيانهم واطراحهم الفتن ما ألجأه الى تجهيز الجيوش واعداد معدات الحرب لقتالهم فضربهم وانتصر عليهم وأدخلهم تحت الطاعة ثم سار الى قتال قارسيوس الخارجى ببلاد الانجليز حيث استفحل أمره واجتمع معه عصب الاشقياء من أهل الصيال وقطاع الطرق وتصدى معهم للايذاء والسلب رجاء أن يكثر قومه ويستقل بملك البلاد وفصلها من حكم الرومانيين فحاربه مقسيميانوس وأجهد النفس فى قتاله فلم يقدر على ادخاله ومن معه من الفرنج تحت الطاعة فاضطر أن يشرك معه فى الملك شريكين آخرين أحدهما قسطنقيوس خيورس من أهالى سواحل ايطاليا من بيت مجد وشرف وثانيهما اسمه والبرس الراعى ويقال له أيضا غالبرس وألبسهما حلة الملك ليكونا له عونا على الاعداء وكانت هذه المقاسمة والتشريك فى سنة ست وثلثمائة للميلاد أى سنة ثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة فاجتمع على حكومة الدولة الرومانية فى هذا الحين أربعة ملوك ملكان كبيران يلقب كل منهما بلقب أغسطس وهما مقسيميانوس و دقلطيانوس وملكان دونهما فى الرتبة يلقب كل منهما قيصرا وهما قسطنقيوس وغالبرس وكانت تسمى هذه الحكومة اذذاك بالدولة الرباعية فكان هذا الترتيب المشتمل على قسمة المهايأة تمهيدا لانفصال رومة وقسطنطينية وامتياز كل منهما بعد ذلك بملك مستقل قائم بنفسه كما سترى ذلك فى محله

وكان لهذه الشركة الرباعية أثر مهم جدا اذ تقوت بها الدولة وعظم شأنها وامتدت كلمتها وهابها العدو وصارت فى مأمن من الغارات الخارجية فقهر قسطنقيوس الفرنج وهزمهم ودفع غالبرس الفرس وغلبهم وبدد شملهم وأعاد للدولة مجدها الاول ورونقها القديم وقد كان دقلطيانوس فى هذه الاثناء أيضا يعمل على تحسين أحوال الادارة الملكية وتهذيب الاحكام والقوانين السياسية واقامة حدود العدل للمساواة بين صنوف الرعية وادخال الجند تحت القوانين الرابطة ونشر بنود الضبط والعسكرية وعمل أيضا على تحسين أحوال مدينة ازمير

وأنطاكية وحمص وقرطاجنة وأدخل فى الديوان الرسوم والآداب المشرقية وأبهة الملك على عادة سلاطين المشرق من الفرس وغيرهم ولم تكن هذه الآداب معهودة من قبل فى دواوينهم

ووقعت مصر فى هذه المقاسمة الرباعية من نصيب دقلطيانوس حيث صارت من ضمن بلاد المشرق وكان العامل عليها بوشذ رجل اسمه اخيلوس ويقال له أيضا آخيله وكان فى خلال هذه الحوادث قد تغلب عليها لنفسه واستبد بحكمها فسار دقلطيانوس لقتاله وحاصر مدينة الاسكندرية وضيق عليها تضييقا شديدا فقطع خلجان النيل لتصريف مياه النيل التى تجرى فيها السفن ليمنع الميرة والذخيرة عن المدينة واستولى عليها بعد حصار ثمانية أشهر فلما فتحها استعمل الظلم والعسف وتجاوز الحدود فى ذلك وارتكب مالايخطر لاحد على بال من المآثم والمظالم وأحرق المدينة وسبى أهلها سبيا وأباحها لجنوده ليفعلوا مايشاؤن فعاثوا فى الارض وأهلكوا الحرث والنسل وقتلوا وفتكوا وسبوا ونهبوا وأراقوا الدماء أنهرا واشتدوا اشتدادا لم يسبق لها مثيل * وحكى بعض أخبار مسيحى مصر أن دقلطيانوس ركب ظهر فرسه وأمر جنده أن لايتركوا القتل حتى تسيل الدماء على الارض وتعلو حتى تصل الى ركبة فرسه * قال بعض المؤرخين فكان من الالطاف الالهية أن سقط به فرسه على الارض فتلوثت ركبتاها بالدم فتم قوله معنى وأبطلوا القتل

واعتبر قبط مصر حكم دقلطيانوس على الدولة الرومانية تاريخا تؤرخ به الوقائع ويسمونه تاريخ الشهداء لكثرة ماسفك فيه من الدماء ولاسيما دماء المسيحيين وهذا التاريخ يوافق تسعا وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة وتسعا وثلاثين يوما * قال بعض الكتاب وكانت نصرة دقلطيانوس على آخيله عامل مصر فتوحا جديدا للبلاد ومفتاحا لخير أهلها فانه بعد أن أجرى ماأجراه من الجور والعسف عاد الى سبل الاستقامة والرفق بالرعية فعمل لهم قوانين خصوصية وصالح أهل الصعيد وترك لهم من جنوب اسوان جهة الشلالات يستبقون بحكمه ويرابطون فى الثغور والحدود يحفظونها ورتب لهم الجوامك والعلوفات فى مقابلة ذلك

وأما والسيروس فقد كان فظا غليظا جهوري الصوت مزعجا فى حركاته وسكناته وكان يحسد دقلطيانوس على ماأحرزه من لقب أغسطس فسعى ليحرز هذا اللقب أيضا وقد كان هو علة تعذيب النصارى وتنكيلهم فى الشدة العاشرة التى هى أعظم الشدائد وأفظعها وآخرها فعذبهم بأنواع العذاب بمالم يسبق له قط مثال وكان يحملهم على الردة عن دين المسيح والرجوع لعبادة الاصنام وأحرق القصر الملوكى مرتين واتهم أهل الديوان بتحريض أهالى البلاد على قتاله وأكثر من سفك الدماء فى سائر الاقاليم ثم ان الشدة على النصارى بديار مصر فى أيام دقلطيانوس وان كانت لنكبة المسيحيين دون غيرهم وتمزيق شملهم غيرأنه قدعم جورها جميع أهل البلاد وحلت بسائر أرباب العقائد النكبات ونزلت النقمة بالجميع بلا استثناء فكان ذلك باعثا على تقارب المسيحيين والوثنيين من بعضهم وتودد بعضهم لبعض وعداوتهم للحكومة

الرومانية

الرومانيــة وقد طالت شــدّتهم زهاء عشر سنين فدل هذا الحادث على شدّة ارتباط الفريقين واخلاصهما لبعض فقد أنقــذ الوثنيون يومئذ طائفة المسيحيين الذين ركنوا اليهم ولجؤا الى حماهم ولم يمكروا قط بهم كما كان يؤمّل ولم تكن هذه الشدائد مانعة لانتشار دين المسيحية فى الاقطار بل بالعكس فقــد كان كلما اشــتدّ الضيق وعم الويل وتطاولت على النصارى يد الايذاء كان الدين ينتشر انتشارا عظيما جــدا ولم يكن الدين موجبا لضــعف الدولة الرومانية ورجوعها الى الوراء الا تبعا وانما الذى أضعف بالاصالة هذه الدولة على التــدريج هو تقسيم المملكة بين ملوكها الاربعة كاشارة دقلطيانوس ثم انقسمها على ذلك الوجه وان كان سببا فى رفعة شأنها واتساع نطاق كلمتها وازاحة العدوّ عنها الاأنهقد ترتب عليه طمع رؤساء الاقاليم وعمال البــلاد فى الاســتقلال والخروج عن طاعة الدولة وقد حدث عنه أيضا مالايطاق من الحروب الداخلية والخارجية فضلاعما كان فيه من المصائب الخصوصية فكان ارتقاء هؤلاء الملوك الاربعة على سرير الملك ضربا من ضروب المصائب على الحكومة وبقى الامر على هذا الحال من أيام دقلطيانوس الى أيام قسطنطين الملك

ولما كان دقلطيانوس الملك حين حقــد غالبرس عليه وناوشه الخصام قدكبر سـنه ووهن عظمه وكان لايمكنه مقاومتــه ولاصدّه عن مقــاصده ولا أن يجيبـــه الى مطالبــه الطويلة العريضة ولايستطيع مخالفته خلع نفسه من الملك طوعا فى سنة خمس عشرة وثلثمائة للميلاد أى ســنة احــدى وعشرين وثلثمائة قبــل الهجرة وانزوى فى اقطاعاته واشــتغل بالزراعة والفــلاحة فاقتدى به شريكه الثــانى مقسيميانوس وخلع نفسه وانزوى فى أملاكه أيضا فلم يبق بعدهــما من الشركاء الرباعية الا غالبرس وقسطنقيوس خيورس فصفا الوقت لغالبرس وتصرف فى الامور واستبد كماشاء

قلت وقد قال المقريزى فى خططه عن دقلطيانوس المشار اليه بامحصله ان دقلطيانوس أحد ملوك الروم كان من غير بيت الملك فلما ملك تجــبر وامتــدّ ملكه الى مدائن الاكاسرة ومدينة بابل واتخذ تحت ملكه مدينة أنطاكية واستخلف على مدينة رومة وجعل لنفسه بلاد الشام ومصر الى أقصى المغرب وخالف عليــه أهل مصر والاسكندرية فبعث اليهم جيشا بوارا وقتل منهم خلقا كثيرا جدّا وأوقع بالنصارى فأسال دماءهم وغلق كنائسهم ومنع من دين النصارى وحمل النــاس على الردّة وعبادة الاصنام وأسرف جدّا فى قتل النصارى وهوآخر من عبــد الاصــنام من ملوك الروم ويقال ان رجلا اسمــه آخيلَ ثار بمصر وخرج عن طاعة الروم فسار اليــه دقلطيانوس وحاصر الاسكندرية ثمانية أشهر حتى أخــذ آخيل وقتله وعم أرض مصر كلها بالســبى والقتــل وكانت أيامه كلها شنيعة للغاية قتل فيها من أصناف الامم وهــدم من بيوت العبادة مالا يدخــل تحت حصر وكانت واقعتـــه بالنصارى هى الشــدّة العاشرة وهى أشنع شدائدهم وأطولها لانها دامت عليهم مدّة عشر سنين لايفتر يوما واحدا يحرق فيها كنائسهم ويعذب رجالهم ويطلب من استتر منهم أوهرب ليقتــله يريد بذلك قطع

دابرهم وابطال دين النصرانية من الارض فارتد خلائق كثيرة جدا وصار قتل دقلطيانوس لنصارى مصر تاريخا تؤرخ به قبط مصر الى يومنا الذى نحن فيه * وبين تاريخ دقلطيانوس يعنى أول يوم منه وبين يوم الخميس أول يوم من سنة الهجرة ثلثمائة وثمان وثلاثون سنة قرية وتسعة وثلاثون يوما اه

وبعد خلع دقلطيانوس لنفسه وانصرافه عن الملك وتركه الحكومة لغاليرس خصمه كما تقدم وانعكافه على الفلاحة والزراعة أعاده مجلس رومة ودعاه الى العود للمنصب فتنصل وتنزه وأظهر الأنفة عنه والعزة وأبان أنه لم يكن ترك المنصب وفى نفسه حاجة اليه وأنه ماهجره الا حلما لاسفيها فحسبت له هذه الفعلة من المفاخر عند جماعة المؤرخين وكانت مدة حكمه ثمان عشرة سنة * وفى أيامه مات بادكلاس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ست عشرة سنة فخلا الكرسى بعده سنة وأقيم ديونيسيوس وهو رابع عشرهم وكان وثنيا ثم اعتنق الديانة المسيحية وتعبد وتزهد وعمل صالحا حتى اختاروه لهذا المنصب وكان فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى حينه

قلت وعلى مارواه صاحب الخطط عند تتبعه سير بطاركة الاسكندرية يكون البطرك الذى مات فى أيام دقلطيانوس هو بطرس خاتم الشهداء وهو ثامن عشرهم لابادكلاس مع أننا اذا تتبعنا سنى كل ملك أى مدة حكمه من تاريخ دخول مرقس الحوارى مدينة الاسكندرية ومناداته بالديانة المسيحية الى جلوس دقلطيانوس على سرير الملك يتضح أن موت بادكلاس كان فى أيام دقلطيانوس لافى أيام أورليانوس كما جاء فى كتب الكنيسة القبطية والله سبحانه أعلم بالحقائق

(فى الملك غاليرس)
(قيصر)

(والملك قسطنقيوس خيورس)
(قيصر)

استقل هذان الملكان بالمنصب عقب خلع دقلطيانوس ومقسيميانوس لانفسهما من الملك وذلك سنة خمس عشرة وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة احدى وعشرين وثلثمائة قبل الهجرة ولما استقر بغاليرس المنصب ورأى من أعباء الملك ومشاق المنصب مالايمكن معه الاستقلال بالرياسة أشرك معه قسطنقيوس خيورس الذى كان يومئذ ملكا على بلاد الغلية شركة تامة عامة له ماله وعليه ماعليه فى حكم البلاد ثم انتخب أيضا شريكين آخرين أحدهما

اسمه سوريس أوسوبيانوس وكان جنديا ولكنه مجرد من الفضل والشجاعة والثانى مكسيمينوس وكان من رعاة الغنم انقطع عن الرعاية منــذ عهد ليس ببعيد وانتظم فى سلك العسكرية بلا فضل ولامزية فصادت اذذاك الدولة الرومانية رباعية الحكم كما كانت وكان غاليرس كبيرها ورأسها المشار اليه فى مهام الأمور

ولما تم لغاليرس الامر على ما أراد أحصى أهالى البلاد كلا باسمه وصفاته وضرب عليهم المغارم وصادرهم فى أموالهم فكانت هذه البدعة فى البلاد تعدّ من الغرائب وتحسب من أشدّ المصائب ومسح جميع الاراضى والمزارع وضرب عليها المغارم الجسيمة وقاس كروم العنب وضرب عليها كذلك المغارم وأحصى الاشجار والمواشى وغيرذلك ورسم بأن كل رب عائلة وكبير بيت يحرر سجلا بعــدد أولاده وعبيده وخدمه وتقييد مايمتلكه من العقار والمتاع فى سجلات بيت مال الدولة وكان يستنطق الاولاد والخــدم والعبيد على مايمتلكه آباؤهم وساداتهم عسى أن يخالف قولهم قولهــم ويظهر الخبأ بل ربما أغراهــم المغرون على عدم المطابقــة لعلهم يصيبون أكثر وقد عــين لذلك كله محالّ معــدودة يحضرون فيها المرضى وأرباب الامراض المزمنة والعواجز لتقييدهم فى دفــتر العوائد وتمويلهم وكانت المغــارم مضروبة على المولودين والاموات فلم يكن أحــد فى تلك الايام مســتثنى من المغارم والمصادرات وكان اذا مات أحــد من المسجلــين بسجــل هاته المغارم أونفــق حيوان من الحيوانات التى عليها عوائد وزع مايخصــه على الاحياء بدون ترك شئ من المتأخر منها فلم يخــل انســان ولاحيوان من ظلمه وعســفه حتى شمــل جوره جميع طوائف الشحاذين والمعوزين والفــقراء والمســاكين وكان اذا عجز أحــد عن أداء المطالب وأظهر الفــقر والمسكنــة وسأل النــاس مافى أيديهــم أمر بجمعــه وجمع أمثاله وأنزلهــم فى ســفن وأغرقهــم فى البحر ليجتنب الناس التخلــق بالمسكنة والفقر فكان لا يتخلص أحــد من المغــارم ودفع ماضرب عليــه واشــتد بالناس عسفه وجوره الى حــد لايطاق ولايحتمل * قال أهــل التاريخ أما قسطنقيوس خيورس شريكه فقــد كان على عكس ذلك فانه كان عادلا يحب رعيتــه ويرفق بهــم ويشفق عليهــم ويوردهــم موارد السعادة فى الرفاهيــة ومازال على هذا الحال من الرفق برعيته حتى مات فى مدينــة يورك من أعمال بلاد الانجليز بعــد أن عاش عيشة مرضيــة فخلفــه ابنه قسطنطين الملقب بالاكبر

واتفق فى هذا الحين أن ثارت فتنة عظيمة فى ايطاليا قتل فيها سوريس أحد الشركاء فى المنصب الملوكى فتولى بعده مكسنسيوس بن مكسيميانوس الذى كان شريكا لدقلطيانوس فاغتاظ غاليرس من ذلك غيظا عظيما واستغاث بدقلطيانوس وكان دقلطيانوس مقيما فى مدينة سالونه منزويا مشتغلا بالحرث والغرس وهو فى عيش هنئ فكتب اليه يستقدمه ويعرض عليه المنصب الملوكى بالمشاركة فردّ عليه بقول * أحب أن تحضر الىّ أيها الملك لترى الخس المورق المخضر الذى غرسته بمدينة سالونه فلعلك لوسرّحت الطرف فى هذا الغرس النضير لاتخاطبنى أبدا فى



شأن الملك * فلما رأى منه الامتناع والاصرار على الاباء اختار شخصا اسمه ليقينوس ولقبه بعنوان أغسطس فوافته المنية بعد ذلك حيث مرض مرضا شديدا على حين غفلة واندمل جسمه وتقرح وقاسى ماقاسى من شدة الألم الذى اشتد به ومات ولم ينل من اختياره ليقينوس المذكور أربا ولامغنما وذلك فى سنة خمس عشرة وثلثمائة للميلاد أى سنة احدى وعشرين وثلثمائة قبل الهجرة وولى بعده مقسيمينوس الثانى شريكه واستولى على الرياسة العليا فكانت مدة حكمه نحو ثلاث وعشرين سنة

وفى أيامه مات ديونيسيوس بطرك الاسكندرية وكان موته فى الثالث من توت بعد أن أقام تسع عشرة سنة كابد فيها من الاهوال والشدائد ماﻻيدخل تحت حصر وظهر فى أيامه بولا الخارج فكتب ديونيسيوس الى مجمع أنطاكية رسالة يدحض فيها اعتقاد بولا و يفنده و يبطله فكان لهذه الرسالة وقع حسن جدا فأقيم بعده مكسيموس وهو خامس عشرهم وظهر فى أيامه رجل قال عن نفسه انه الروح البارقليط أى الروح المعزى فتبعه خلق كثير وكادت بدعته تعم وتعاليمه تؤثر فى الكثير من المعترضين ولكنه لم يلبث أن هلك وانمحت آثاره بالكلية

فى الملك مقسيمينوس الثانى وقسطنطين الاكبر ومقسنقوس وليقينوس

ثم قام بالأمر أربعة هم مقسيمينوس الثانى وقسطنطين الاكبر ومقسنقوس وليقينوس فكانوا شركاء فى حكم البلاد وسياسة الجمهور وكان ابتداء حكمهم فى سنة خمس عشرة وثلثمائة للميلاد أى سنة احدى وعشرين وثلثمائة قبل الهجرة ولكنهم لم يثبتوا على حسن الموالاة طويلا حتى اتحد أحدهم قسطنطين مع ثانيهم ليقينوس واتحد ثالثهم مقسنقوس مع رابعهم مقسيمينوس فحدث من هذا الاتحاد أن صاروا حزبين متخالفين قلبا وقالبا وكان مقسنقوس قابضا على زمام ايطاليا فسلك فى الايطاليين مسلك الجور والظلم واشتد عليهم وأنشب فيهم أظفار نكاياته فاستغاثوا بقسطنطين ليخلصهم من ظلمه وكان قسطنطين مشهورا بالرأفة وكمال الشفقة وغاية الشجاعة والبسالة وكان محبا لملة النصرانية محاميا عنها ولكن جيوشه كانت قليلة فلم يكن عنده منها يومئذ سوى أربعين ألف مقاتل وكان عدد جند مقسنقوس نيفا ومائة وستين ألف جندى فلما رأى من كثرة عدد جنود خصمه تردد فى الامر وخشى عاقبة اغاثة الايطاليين ولكنه عاد بعد ذلك وصمم على الاخذ بناصرهم * قال بعض الكتاب ومما حبب اليه القتال أنه رأى يومئذ هو وكثير من عساكره شكل صليب على دائرة كوكب

الشمس

الشمس مكتوبا عليه بالرومية (أنت تغلب عداك) ثم رأى فى المنام أيضا حبرا من أحبار المسيحيين يأمره بأن يتخذ صورة الصليب شعار الملك على سلاح جنوده وعلى أعلامه وبنوده فتقوت عزيمته واشتد أمله بالنصر والغلبة وأمر فجعلوا شعار الصليب على جميع الاسلحة والرايات فى المملكة الرومانية وقد كان قبل هذا شعار القياصرة عبارة عن صورة صنمية فاتخذ قسطنطين لنفسه بيرقا مطرزا بالقصب ومكللا بالجواهر على شكل صليبى ورقم عليه اسم المسيح بالحروف الرومية وصور المسيح متوجا بتاج من الذهب وأمر جميع جنوده أن يرسم كل منهم صورة المسيح على كنانته وسلاحه ففعلوا جميعا وسار بهم حتى اجتازوا جبال البة بايطاليا فالتقى بجيوش عدوه فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم جيش مقسنقوس شر هزيمة فساق قسطنطين خلفه يطارده ويعمل القتل حتى وصل جبلا تحت أسوار مدينة رومة اسمه جبل ميلوس وكان مقسنقوس قد صف هناك جميع عساكره وأجناده ليتقوى بهم على عساكر قسطنطين فحمل عليهم قسطنطين حملة واحدة فهزمهم وانتصرت عساكره عليهم نصرة عظيمة فلما كان صبح اليوم الثانى شوهد مقسنقوس غريقا مع كثير من جنوده وكان ذلك سنة خمس وعشرين وثلثمائة للميلاد أى سنة احدى عشرة وثلثمائة قبل الهجرة

قال أصحاب التاريخ وبعد مضى نحو السنة من هذا الحادث المهم قام مقسيمنوس يريد البطش بليقينوس رفيق قسطنطين انتقاما وأخذا بثار رفيقه مقسنقوس فسار اليه ليقينوس وقاتله وقبض عليه وسجنه وشدد عليه فقتل نفسه فارتفع من هذا الحين شأن قسطنطين واستفحل أمره وقويت شوكته وعظم قدره فغار منه رفيقه ليقينوس وحسده وحقد عليه وناواه الشر وقصد صده ومنعه عن الغزو والفتوح فقامت الحرب بينهما واشتد القتال فانهزم ليقينوس وقتل بين جنوده فى ساحة الحرب فبقى قسطنطين منفردا بالملك وذلك سنة سبع وثلاثين وثلثمائة للميلاد أى سنة تسع وتسعين ومائتين قبل الهجرة فجمع عند ذلك جنوده ودخل مدينة رومة فى موكب عظيم جدا وجعل الصليب زينة موكبه وعلامة طالع كوكبه حيث انتصر به على أعدائه وفاز وعقد النية من هذا الحين على اتخاذ النصرانية دينا له فصور صورة نفسه فى شكل تمثال قابضا بيده على صليب فعد أهل رومة ذلك من أعجب العجائب اذ كانت العادة عندهم أنه اذا دخل الملك رومة منصورا لايقبض بيده الاعلى رمح فلم تبطل هذه العادة عندهم الى أن أحدث قسطنطين عادة استعمال الصليب مع أنه الى ذلك الحين لم يكن قد تنصر

وفى هذه الايام مات مكسيموس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام اثنتى عشرة سنة فأقيم بعده ثاونا وهو سادس عشرهم وكان ورعا صائب الرأى محبوبا مطاع الكلمة وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله



(وصل)
(فى انفراد الملك قسطنطين الاكبر بملك الدولة الرومانية)

وانفرد قسطنطين بملك الدولة الرومانية بعد قتال وحروب تقدم بيانها وذلك سنة سبع وثلاثين وثلثمائة للميلاد أى سنة تسع وتسعين ومائتين قبل الهجرة ودخل مدينة رومة بجيوشه فلم يلق من أهلها بشاشة ولا ترحابا بل كانوا يسخرون منه ويقدحون فيه ويطعنون فى عرضه بلا موجب ولا سبب سوى مارأوه من محاماته عن النصرانية فغضب من وقوعهم فيه ورغبت نفسه عن رومة وصمم على أن يبنى مدينة أخرى عظيمة ويجعلها مقر حكومته ودار ملكه فطمح نظره الى مدينة بيزنيطا لحسن موقعها بين طرفى أوروبا وآسية ولكونها فى منتزه عظيم البقعة واسع الانحاء مطلة على أبحر ثلاثة فرممها وأسرع فى بناء أسوارها وهياكلها وقصورها وحماماتها وسقاياتها وقصباتها وأتمها على أحسن ماوصف فرغب الاهالى فى سكناها وهرع اليها الناس من جميع الاقطار واشتهرت باسم القسطنطينية وكان اتمامها سنة أربع وخمسين وثلثمائة للميلاد أى سنة اثنتين وثمانين ومائتين قبل الهجرة فتحول اليها تخت الدولة الرومانية وعظمت عمارتها واتسعت حتى صارت من أعظم مدن العالم رونقا وبهجة

وكان قسطنطين الملك فى هذه الاثناء يعمل على اصلاح شأن الحكومة وترتيب أمور البلاد التابعة لها فاعتنى باصلاح شأن مصر وهذب حكومتها وأحسن حالها وبذل الجهد فى اصلاح أخلاق أهلها وكذلك أخلاق الرومانيين وأقام للبلاد المشرقية كافة رئيسا عاما يسوسها وينظر فى جميع مصالحها فكانت مصر بمقتضى هذه الحدود الرعية يومئذ داخلة تحت كلمة الرئيس المذكور وحكمه الا عسكرها فانهم كانوا تحت تصرف قائد مخصوص تابع مباشرة لرئيس عموم الدولة الرومانية لاعلاقة له بغيره ● قال بعض الكتاب وذلك لان بلاد مصر كانت مأخوذة من البطالسة كما تقدم فعدها الرومانيون من الحدود والثغور التابعة لمالك رومة وكان للحدود والثغور والرباطات يومئذ أمير مخصوص مرابط من جانب رومة وكان منوطا بتحصيل العوائد وجباية الاموال من الحدود والثغور ليتوزع بعضها على الخزينة الرومانية يعنى بيت مال المملكة وعلى خزينة الملك الخصوصية

وكان لمصر فى هذا الحين أيضا نائب ملكى كالملك على البلاد وعليه حل أشغال العمليات الهندسية مما فيه اصلاح أحوال النيل وعليه ملاحظة رى الاراضى والزراعة والاسفار فى النيل ونقل الغلال من مصر الى القسطنطينية فكان رؤساء الاقاليم المصرية وحكامها وعمالها لاينقادون لهذا النائب فى كثير من الاحيان بل كانوا مولعين بمخالفته وكان حاكم الصعيد يرى نفسه أعظم قدرا وأجل شأنا من النائب المذكور فكان هذا الخلل داعيا

لخلل نظام البلاد وعدم استقرار أمورها على قاعدة منتظمة فكانت الدولة الرومانية لذلك تعمل دائما على تغيير أسماء الاقاليم المصرية وتقسيمها الى أقسام صغيرة وتكثير العمالات لتتمكن دولتها وتتسع كلمتها ويسهل عليها ضبطها وحكمها كاتشاء فترتب على تكثير العمالات والعمال كثرة الظلم فى الرعية وانتشار الجور والعسف بهم فضلا عن كره المصريين الحكومة الرومانية وما يضاف الى ذلك أيضا من اختلاف المذاهب النصرانية وتشعبها الى شعب كثيرة متعادية متخالفة كما سيأتى الكلام عليها • وكان قسطنطين الملك ولعا بتتميم ما قد كان شرع فيه دقلطيانوس قبل موته من جعل المملكة الرومانية دولة ملوكية يستوى فى قوانينها وأحكامها جميع الرعايا فلا يكون هنالك حكومة أشراف ولا قضاة ولاملتزمون وانما تكون الحكام أمراء من طرف القيصر يوليهم ويعزلهم ان شاء فقسم المملكة أقساما ادارية بين أولاده الثلاثة وهم قسطنطين وقسطنطوس وقسطنطقوس وابن عمه دلماقوس وجعل لنفسه الرياسة الكبرى على هؤلاء الاربعة فانصلح حال الدولة وانتظمت أمورها على قاعدة مقررة ثم أصلح حال الجيوش والعساكر بأن قسمها الى فرق وجعل كل فرقة منها ألفا وخمسمائة عسكرى وجعل على كل فرقة أميرا فصار كل أمير فرقة على حدته لايخشى منه على الملك لانحصار امارته فى هذا القدر من العساكر خلافا لما كانت عليه قبلا فكان هذا الترتيب داعيا لادخال كثير من الغرباء فى مصاف العسكرية فقد تناقص عدد أهالى البلاد بالحروب الداخلية والخارجية ووصل الى حد لم يمكن معه تجنيد الجنود اللازمة للدفاع والحرب عند الحاجة • قال أهل التاريخ وكان فى ادخال هؤلاء الغرباء فى صفوف العسكرية الرومانية غاية الضرر على البلاد وأهلها

وفى آخر أيام قسطنطين تحركت دولة فارس لغزو الايالات المشرقية فتهيأ قسطنطين لقتالها بجيش الجيوش وجمع الجموع ومعدات القتال وقبل أن يسير بهم الى العدو سار الى قرب مدينة انمير واستقدم أسقفها وتدين بالديانة النصرانية على يديه فعمده بماء المعمودية وقد كان أصدر قبل عماده وهو فى مدينة ميلان سنة سبع وعشرين وثلثمائة للميلاد أى سنة تسع وثلثمائة قبل الهجرة مرسوما يبيح التدين بالدين المسيحى وبأن النصارى جميعا يكونون تحت حمايته الذاتية فانتشر من هذا الحين دين المسيح وصار دين الحكومة والهيئة الحاكمة ومعتقد أهل الحل والعقد وقد كانوا جميعا قبل ذلك عبدة أوثان ولازال الحال على ذلك الى أن جمع فى سنة تسع وأربعين وثلثمائة للميلاد أى سنة سبع وثمانين ومائتين قبل الهجرة فى مدينة نيقة بايالة بروسه المجمع الاول الذى تهذبت فيه علامة الامانة المسيحية الباقية الى يومنا الذى نحن فيه ولم ير فى القياصرة أشد من قسطنطين حبة على النصرانية لاسيما بعد دخوله فى مصاف أبنائها فكان يعظم الاساقفة ويجلهم ويجمعهم على خوانه ورسم بصلاة يوم الاحد فى جميع أطراف المملكة وجعل هذا اليوم عيدا فى الاسبوع تتعطل فيه جميع الاشغال فصار



العمل على ذلك سنة متبعة الى يومنا هذا عند سائر المسيحيين * وأبطل المصارعة وعيد الزهرة وهدم هياكلها لما فى ذلك من العوائد الذميمة فجعل عباد الاوثان يتزاحمون على الدخول فى النصرانية * وأقام فى جميع أنحاء المملكة المرابطين والحافظين من الامراء وأقطعهم الاراضى نظير ذلك وجعلها وراثة لمن بعدهم فى أعقابهم * ومنع جميع ما فيه مفاسد الاخلاق وخفف العوائد والاموال وعدلها ولطف أمور المصادرات والاسر والاسترقاق وأبطل الربا * وكان محبا جدا للعلوم والفنون فكان يعمل على تقدمها وترقيها وعافى أهلها من جميع الرسوم والعوائد وخصهم بالمزايا العسكرية وأن يسكنوا فى خطط العسكر ومنازلهم وجعل هذه المزية لهم ولأولادهم أيضا وأخرج اليهود من بيت المقدس وأكرههم على التدين بالديانة المسيحية وقتل من امتنع منهم فابى أكثرهم وقتل قيل ومن تنصر منهم لم يخل من النكبة أيضا حيث جمعهم وحشرهم فى كنيسة فى يوم عيد الفصح وأمرهم بأكل لحم الخنزير فامتنع أكثرهم فأمر بقتلهم فقتل الجم الغفير منهم فى هذه المحنة * قلت وهذه فرية من أهل الاقباط لان شدة تدينه بالنصرانية تحول بينه وبين هذه الفعال

قال بعض الكتاب عند الكلام على قسطنطين المشار اليه وكانت أم قسطنطين هيلانه من أهل قرى مدينة الرها قد تنصرت على يد أسقف الرها وتعلمت الكتب فلما مر بقريتها أغسطس صاحب شرطة دقلطيانوس رآها فأعجبته فتزوج بها وحملها الى بيزنطا مدينته فولدت له قسطنطين وكان جميلا فأنذر دقلطيانوس منجموه بأن هذا الغلام قسطنطين سيملك الروم ويبدل دينهم فأراد قتله ففر منه الى الرها وتعلم بها الحكمة اليونانية حتى مات دقلطيانوس فعاد الى بيزنطه فملكها له أبوه قسطس ومات فقام بأمرها بعد أبيه الى أن استدعاه أهل رومة فأخذ يدبر فى مسيره فرأى فى منامه كوكبا فى السماء على هيئة صليب وصوت من السماء يقول * احمل هذه العلامة تنتصر على عدوك * فقص رؤياه على أعوانه وعمل شكل الصليب على أعلامه وبنوده وسار لحرب مقسيميانوس برومة فبرز اليه وحاربه فانتصر قسطنطين عليه وملك رومة وتحول منها فجعل دار ملكه القسطنطينية فكان هذا ابتداء رفع الصليب وظهوره فى الناس فاتخذه النصارى من حينئذ وعظموه

وأكرم قسطنطين النصارى ودخل فى دينهم بمدينة نيقوميديا فى السنة الثانية عشرة من ملكه على الروم وأمر ببناء الكنائس فى جميع ممالكه وكسر الاصنام وهدم بيوتها وعمل المجمع بمدينة نيقيه وسببه أن الاكسندروس بطرك الاسكندرية منع اريوس من دخول الكنيسة وحرمه لمقالته ونقل عن بطرس الشهيد بطرك الاسكندرية أنه قال عن اريوس ان ايمانه فاسد وكتب بذلك الى جميع البطاركة فمضى أريوس الى الملك قسطنطين ومعه أسقفان واستغاث به وشكى الاكسندروس فأمر باحضاره من الاسكندرية فحضر هو وأريوس وجمع له الاعيان من النصارى ليناظروه فقال اريوس * كان الاب اذ لم يكن الابن ثم حدث الابن

فصارت كلة له فهو محدث مخلوق ففوض اليـه الاب كل شئ فخلق الابن المسمى بالكلمة كل شئ من السموات والارض وما فيهما فكان هو الخالق بما أعطاه الاب ثم ان تلك الكلمة تجسدت من مريم وروح القدس فصار ذلك (مسيحا) فاذن المسيح معنيان كلة وجسد وهما جميعا مخلوقان

فقال الاكسندروس أيما أوجب أعبادة من خلقنا أوعبادة من لم يخلقنا فقال أريوس بل عبادة من خلقنا أوجب فقال الاكسندروس فان كان الابن خلقنا كما وصفت وهو مخلوق فعبادته أوجب من عبادة الاب الذى ليس بمخلوق بل تكون عبادة الخالق كفرا وعبادة المخلوق ايمانا وهذا أقبح القبيح

فاستحسن الملك قسطنطين كلام الاكسندروس وأمره أن يحرم أريوس فحرمه وسأل الاكسندروس الملك أن يحضر الاساقفة فأمرهم فاتوه من جميع ممالكه واجتمعوا بعد ستة أشهر بمدينة نيقيه وعدتهم ألفان وثلثمائة وأربعون أسقفا يختلفون فى المسيح فنهم من يقول الابن من الاب بمنزلة شعلة نار تعلقت من شعلة أخرى فلم تنقص الاولى بانفصال الثانية عنها وهذه مقالة سليوس الصعيدى ومن تبعه * ومنهم من قال ان مريم لم تحمل بالمسيح تسعة أشهر بل مر باحشائها كرور الماء بالميزاب وهذا قول اليان ومن تبعه * ومنهم من قال ان المسيح بشر مخلوق وان ابتداء الابن من مريم ثم انه اصطفى فصحبته النعمة الالهية بالمحبة والمشيئة ولذلك سمى ابن الله قال ومع ذلك فالله واحد قيوم وأنكر هؤلاء الكلمة والروح فلم يؤمنوا بهما وهذا قول بولس السمياطى بطرك أنطاكية وأصحابه * ومنهم من قال الآلهة ثلاثة صالح وطالح وعدل بينهما وهذا قول مرقيون وأتباعه * ومنهم من قال المسيح وأمه الهان من دون الله وهذا قول المراتمة من فرق النصارى (قلت) لاندرى أين هذه الفرقة من فرق النصارى وأين موطنها * ومنهم من قال بل الله خلق الابن وهو الكلمة فى الازل كما خلق الملائكة روحا طاهرة مقدسة بسيطة مجردة عن المادة ثم خلق المسيح فى آخر الزمان من أحشاء مريم البتول الطاهرة فاتحد الابن المخلوق فى الازل بانسان المسيح فصارا واحدا * ومنهم من قال الابن مولود من الاب قبل كل الدهور غير مخلوق وهو جوهر من جوهره ونور من نوره وان الابن اتحد بالانسان المأخوذ من مريم فصارا واحدا وهو المسيح وهو قول الثلثمائة وثمانية عشر * قال الراوى فتحير قسطنطين من اختلافاتهم وكثر تعجبه من ذلك وأمرهم فانزلوا فى أماكن وأجرى لهم الارزاق وأمرهم أن يتناظروا حتى يتبين له صوابهم من خطئهم فثبت الثلثمائة وثمانية عشر على قولهم المذكور واختلف باقيهم فمال قسطنطين الى قول الاكثرين وأعرض عما سواه وأقبل على الثلثمائة وثمانية عشر وأمر لهم بكراسى وأجلسهم عليها وسلم اليهم سيفه وخاتمه وبسط أيديهم فى جميع مملكته فباركوا عليه ووضعوا كتاب قوانين الملوك وقوانين الكنيسة وفيهما يتعلق بالمحاكمات والمعاملات والمناكحات وكتبوا بذلك الى سائر الممالك وكان رئيس هذا المجمع



الاكسندروس بطرك الاسكندرية واسطاوس بطرك أنطاكية ومقاريوس أسقف القدس فوجه سالطوس بطرك رومة بقسيسين اتفق معهما على حرمان اريوس فحرموه ونفوه ووضع الثلثمائة وثمانية عشرة الامانة المشهورة وأوصوا أن يكون الصوم متصلا بعيد الفصح على مارتبه البطاركة فى أيام الملك أورليانوس قيصر ومنعوا أن يكون للاسقف زوجة وكانت الاساقفة قبل ذلك اذا كان مع أحدهم زوجة لايمنع منها اذا جعل أسقفا بخلاف البطرك فانه لايكون له امرأة البتة وانصرفوا من مجلس قسطنطين بكرامة جليلة

ويقال ان الاكسندروس هذا هو الذى كسر الصنم النحاس الذى كان فى هيكل زحل بالاسكندرية وكانوا يعبدونه ويجعلون له عيدا فى ثانى عشر هاتور ويذبحون له الذبائح الكثيرة فأراد الاكسندروس كسر هذا الصنم فمنعه أهل الاسكندرية فاحتال عليهم وتلطف فى الحيلة الى أن قرب العيد فجمع الناس ووعظهم وقبح عندهم عبادة الصنم وحثهم على تركه وأن يعمل هذا لميكائيل رئيس الملائكة فان هذا خير من عمل العيد للصنم فلا يتغير عمل العيد الذى جرت عادة أهل البلاد على عمله ولاتبطل ذبائحهم فيه فرضى الناس بهذا ووافقوه على كسر الصنم فكسروه وأحرقه وعمل بيته كنيسة على اسم ميخائيل الملك فلم تزل هذه الكنيسة بالاسكندرية الى أن أحرقتها جيوش المعز لدين الله أبى تميم معد لما قدموا فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة للهجرة واستمر عيد ميخائيل عند النصارى بديار مصر باقيا يعمل فى كل سنة الى يومنا هذا

وفى السنة الثانية والعشرين من ملك قسطنطين سارت أمه هيلانة الى بيت المقدس وبنت به عدة كنائس فدلها مقاريوس الاسقف على الصليب وعرفها ماعملته اليهود به فعاقبت كهنة اليهود حتى دلوها على الموضع فحفرته فاذا به ثلاث خشبات فلم يعرفوا الصليب قبل فوضعت الثلاث خشبات كل واحدة على ميت قد بلى فقام أحدهم حيا عندما وضعت عليه احداها فعملوا لذلك عيدا مدة ثلاثة أيام عرف بعيد الصليب وهو يعمل الى يومنا هذا وعملت له هيلانة غلافا من الذهب الخالص وبنت كنيسة القيامة التى تعرف بكنيسة قمامة وأقامت مقاريوس الاسقف على بناء بقية الكنائس وعادت الى مملكتها فكانت مدة مابين ولادة المسيح وظهور الصليب ثلثمائة وثمانيا وعشرين سنة على المشهور اه

ومات فى أيام قسطنطين الملك ثاونا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام تسع سنين بطركا وفى رواية سبع سنين وهو أول من بنى الكنائس بمدينة الاسكندرية وكانت النصارى قبله تصلى بالاسكندرية فى المغارات والسراديب خوفا من القتل وسفك الدماء فلاطف ثاونا المذكور جماعة الروم وبالغ فى ملاطفتهم وأهدى لهم تحفا جليلة حتى بنى كنيسة السيدة مريم بالاسكندرية فصلى فيها القبط جهارا * وقد ذكر عنه أنه كان يصنع بعض العجائب وكان صاحب عزم وتدبير وحسن سياسة ومعرفة بالامور وطرد فى أيامه أهل الزيغ وأصحاب البدع

وله مناقب كثيرة * فأقيم بعده بطرس المعروف بالاول خاتم الشهداء وهو سابع عشرهم فأقام عشر سنين ومات قتيلا وكانت أيامه كلها شدائد وكروبا وفتنا وخطوبا مات فيها من النصارى خلق كثير على قول بعض المؤرخين

فأقيم بعده ارخلاوس وهو ثامن عشرهم وقيل انه كان تلميذ بطرس فأقام ستة أشهر ومات وكان ورعا تقيا محبا للفقراء

فأقيم بعده الاكسندروس وهو تاسع عشرهم وكان تلميذ بطرس أيضا على المشهور وكان من الحوادث فى أيامه ماقد مر بك عند الكلام على قسطنطين الاول وأمه هيلانة

(فى الملك قسطنطين الثانى والملك قسطنطوس الاول)
(والملك قسطنقوس)

ثم قام بالامر أولاده الثلاثة قسطنطين الثانى * وقسطنطوس الأول * وقسطنقوس بعهد من أبيهم وذلك سنة احدى وخمسين وثلثمائة للميلاد أى سنة خمس وثمانين ومائتين قبل الهجرة وتحرير الخبر أنه لما مات قسطنطين تقاسم أولاده المذكورون الممالك الرومانية بينهم مساهمة ومحاصة وصار كل منهم ملكا على جهة مستقلا بها فأصاب قسطنطوس الايالات المغربية وخص قسطنقوس الايالات المشرقية وأقيم قسطنطين رئيسا على الاقطار المشرقية والمغربية معا فصار بذلك صاحب الكلمة على أخويه قسطنطوس وقسطنقوس

ولما استقر كل منهم المنصب على هذا الوجه خافوا من بقية عائلة قسطنطين أبيهم وخروجهم فى طلب الملك فقتلوهم جميعا حتى لم يبق منهم الا اثنان من الاقارب هما والوس ويوليانوس الملقب بالمرتد اذ تشفع مرقص أحد الاساقفة فى ابقائهما وخلاصهما من القتل * وتلقب بعد ذلك كل من هؤلاء الاخوة بلقب أغسطس ولكنهم لم يلبثوا طويلا حتى وقع بينهم الخلاف وتفاقم حيث لم يرض قسطنطين بنصيبه من المملكة وتأهب لقتال أخيه قسطنطوس وجرد عليه وسار اليه بخيله ورجله وقاتله قتالا هائلا فمات قسطنطين فى حومة القتال وكان ذلك سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة للميلاد أعنى سنة ثلاث وثمانين ومائتين قبل الهجرة وتم التمكين لقسطنطوس ولكن لم يخل له الجو حتى خرج عليه خارجى من ايالاته المغربية اسمه منيقوس وأصله من الاسارى من سبى جرمانيا وتربى عند الرومانيين وترقى فى العسكرية وتقلب فى درجاتها العلية وادعى لنفسه تلك البلاد المغربية فتبعه خلق كثير فسار اليه قسطنطوس وحاربه واقتتل الفريقان قتالا عنيفا فمات قسطنطوس فى الحرب سنة أربع وستين وثلثمائة للميلاد أى سنة اثنتين وسبعين ومائتين قبل الهجرة

فلما أحس أخوه قسطنقوس بذلك تأهب للاخذ بثأر أخيه وبلاده بقتل منيقوس فسار

اليه فى عسكر جرار وركب عليه حتى قتله وانفرد بالملك بعد حرب هائلة ولكنه عاد فأشرك معه أحد أقاربه وهو والوس ولقبه بلقب قيصر وسلمه المحافظة على المشرق جميعه وأبقى لنفسه المغرب وسياسة البلاد كافة وتدبير أمور الدولة بتمامها فلم يفلح والوس المذكور حيث كان حديث نعمة فاسد الاخلاق وكان شره النفس سيّئ التدبير فقام عليه قسطنقوس وقتله وذلك سنة ثمان وستين وثلثمائة للبلاد أى سنة ثمان وستين ومائتين قبل الهجرة * قال بعض أهل التاريخ وصارت الدولة فى هذا الحين على خطر عظيم يخشى عليها من التلف والانحلال بتحويل هذه الاحوال وكانت أمة الافرنجة تكرّ عليها من المغرب وأكاسرة الفرس تتهددها من المشرق وكان الملك قسطنقوس وحده لايستطيع الذب عنها فرأى أنه لابدله من شريك فى الملك يشد به أزره ويصلح به أمره وكان قد بقى من أقارب قسطنطين الاول يوليانوس أخو والوس وكان فى مدرسة مدينة ازمير يتلقى العلوم وكان شابا متدينا بالدين المسيحى مشتغلا بالفلسفة والحكمة وقد حصل على ماامتاز به أبناء الاكابر من العلوم والمعارف والآداب فاستقدمه قسطنقوس وجعله قائدا لجنوده المنتخبة لقتال الفرنجة ورسم له بقتالهم فسار اليهم وقاتلهم قتالا شديدا وظهر عليهم ظهورا عجيبا وظفر بهم وأعمل فيهم القتل والسلب والنهب فحسده قسطنقوس على ذلك وحقد عليه وناواه وقصد أن يقلل جنده ليضعف بذلك شوكته وكان اذ ذاك سابور ذو الاكتاف قد زحف على ممالك الرومانيين بأسه وأخذ مدينة (آمد) بالجزيرة وكان قسطنقوس عاجزا عن هذه البلاد وحمايتها فاغتنم هذه الفرصة مناسبة لما فى نيته وطلب من يوليانوس أن يبعث اليه بفريق من عساكره فلم تقبل العساكر ذلك والترض الانفصال عن رئيسهم يوليانوس لمكانته من قلوبهم وتألفوا على الملك وأحدقوا برئيسهم وعانقوه ولقبوه بلقب اغسطس وبايعوه على ذلك فتمنع من قبول هذا المنصب وتضرع اليهم أن يعفوه وبكى وناح فلم يقبلوا منه وجبروه على الرضا وحملوه على أن يسير بهم الى المشرق عاجلا لقتال خصمه قسطنقوس والانتقام منه فسار اليه على كره والتقى الفريقان ووقع بينهما قتال عنيف الغاية فمات قسطنقوس بمدينة المصيصة وذلك سنة خمس وسبعين وثلثمائة للبلاد أى سنة احدى وستين وثلثمائة قبل الهجرة فتم الامر ليوليانوس واستقل بالملك فى هذه السنة وقد كان يوليانوس حين غزوه الافرنجة فى بلاد الغليسة وما جاورها جعل مقر اقامته وتخت مملكته فى مدينة لوطيقه التى هى الآن مدينة باريس واشتغل مدة الغزو بتحسين حال هذه المدينة واصلاحها وتوسيع العمارة فيها فهى من مآثره الباقية الى يومنا الذى نحن فيه فكانت أحب البلاد اليه وقد بسط يده على ملك المشرق والمغرب وتصرف فى الحكم بلا معارض ولامنازع فكانت مدة حكم أولاد قسطنطين الاول الى انفراد يوليانوس بها نحو أربع وعشرين سنة

وفى أيامهم مات الاكسندروس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام اثنين وعشرين سنة فأقيم بعده اثناسيوس وهو عشريهم وأصله من مدينة الاسكندرية وكان وثنيا متنطعا فى الدين

الوثنى ثم تنصر وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

(فى الملك يوليـانوس)
(قيصر المرتد)

ثم قام بالامر يوليانوس المرتد بايعه العساكر ونادوا بملكه فانفرد بعد موت قسطنقوس بحكم الدولة الرومانية سنة سبع وسبعين ومائتين للبلاد أى سنة تسع وخمسين ومائتين قبل الهجرة وقد فرح به جميع الناس واستبشروا بولايته لرسوخ قدمه فى الفضل وتمسكه بشعار العدل فلما استقربه المنصب أبعد عن ديوانه أهل السخرية وبطانة السوء وأدنى منه أهل الفصاحة وأرباب البلاغة وأصحاب الفلسفة والحكمة فصارت تأوى اليه أرباب المعارف ويتقرب منه أهل الفضل ويأتون اليه من كل فج فكان يؤاكلهم ويبالغ فى تقريبهم منه والحفاوة بهم وكان قبل ارتقائه سدة الملك مظهرا التمسك بالدين النصرانى فلما ملك واستبد بالاحكام ارتد ورفض الدين المسيحى وعاد الى الوثنية ففرح عباد الاوثان بارتداده وانحاز اليه منهم من لاخلاق له فامتلأ ديوانه اذ ذاك من المنجمين وأرباب العيافة والعرافين حتى تقلد بنفسه الكهانة وصار رئيس هذا الدين وكان يفتخر بهذا المنصب ويحن اليه حبا ثم مال عن النصرانية وبالغ فى عداوته لها وبغضه لاهلها ولكنه لم يبطل شيأ من عوائدها وطقوسها وبذل الهمة فى اعلاء دين الاصنام وتعميمه فلم يبلغ مقصوده ولم يتمكن من نيل مراده لاسباب كثيرة

وسار لقتال فارس لشنهم الغارة على الاملاك الرومانية وجهز لذلك جيشا عظيما فرأى فى طريقه بمدينة قيصرية من اقليم قبادوقيه هيكلا للاصنام خربا ورأى من أهالى انطاكية احتقارا للديانة الوثنية فهاله هذا الامر وأغضبه جدا وحقد على النصارى فأمرهم فتتبعوهم بالاذى والقتل والسلب واشتدوا عليهم شدة بالغة ثم دخل أرض فارس وجال فيها وأوغل كل الايغال فلاقته جيوش فارس وصدمته فانهزم ورجع القهقرى فتبعه سابور ذو الاكتاف فتشجع يوليانوس وأرجعه على أعقابه ببسالة واقدام فشهدت له الاعداء وقد كان جرح جرحا بليغا وعلم بذلك سابور فأعاد الكرة على جيوش يوليانوس واشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس والتقت السيوف بالسيوف فقتل يوليانوس فى ساحة الحرب وانفشل جيشه وكان ذلك سنة تسع وثلاثين وثلثمائة للبلاد أى سنة سبع وخمسين ومائتين قبل الهجرة فكانت مدة حكمه واستبداده بالولاية العمومية سنتين لاغير

وكانت مدته فيها رحمة على من لم يكن تنصر من المصريين ممن بقى على دين آبائه فاستمر المصريون الذين لم يتنصروا على عبادة الاوثان بلا معارض ولا منازع وكان يوليانوس

يحترم العجل ابيس الذى هو معبود المصريين احتراما عظيما للغاية فانه لما كان على أهبة الركوب لقتال سابور ملك فارس وبعث اليه أوفديفس نائبه على مصر يخبره بأن المصريين عثروا على شكل العجل ابيس معبودهم الذى مات وأنه تبين لهم أنه معبودهم بعينه فرح بذلك فرحا شديدا واستبشر بالنصر على سابور اذ كان يحب العجل المذكور حبا كثيرا وقد دل على ذلك ماكتبه الى نائبه المذكور فى شأن اثناسيوس بطرك الاسكندرية الذى كان نفى منها وعاد اليها مانصه وحق العجل ابيس ان لم يخرج هذا البطرك من المدينة عاجلا لاضربن على عسكرك مائة رطل من الذهب غرامة وعقابا لهم اه

وكان فى عهده قد رجع دين النصرانية القهقرى وبقى على هذا الحال الى عصر طيودوسيس قيصر كما سيأتى بيانه فى موضعه ولما مات يوليانوس تولى بعده يوبانوس

(فى الملك يوبانوس)
(قيصر)

ثم قام بالامر يوبانوس بايعه أولا الجنود الرومانية كافة وذلك سنة تسع وثلاثين وثلثمائة للميلاد أى سنة سبع وخمسين ومائتين قبل الهجرة وتحرير الخبر أنه لما مات يوليانوس فى ساحة الحرب حصل بموته فزع لجميع العساكر وكرب شديد للغاية وكانت العساكر المنصورة على جيوش سابور ذى الاكتاف يومئذ فى منقطع من الارض ليس عندهم شئ من الميرة ولاالزاد ولم يبق من العائلة الملوكية القوسطنقوسية فى هذا الحين وارث يتولى الملك فاختاروا سالسطوس والى البلاد المشرقية لمنصب الملوكى فامتنع ولم يقبل فألحوا عليه فشدد فى الامتناع فوقع اختيار الجنود على يوبانوس المذكور وقد كان يومئذ رئيس الحرس الملوكى وبايعوه على اتفاق تام وأخلصوا له فى البيعة فلما استقر به المنصب أسرع فى عقد الصلح مع سابور ملك فارس ولكن على شروط مخلة بناموس الدولة وشرف الامة الرومانية ومحا جميع أوامر يوليانوس فى كل مايتعلق بعبادة الاصنام وفيما يتعلق باضرار دين النصرانية ونهى اليهود عن أن يشهروا شعائر دينهم وكان ضعيف العزم والرأى فقامت فى أيامه قبائل المغاربة فى بلاد برقة ونهبوا مدن طرابلس الغرب قال أهل التاريخ وكان من عماله على هذه الجهات الامير أوريقيوس نائب اقليم طرابلس الغرب فلم يتمكن من منع اغارة هذه القبائل ولاردهم عن البلاد ولا بدا من يوبانوس الملك أيضا فى هذا الامر ماتطمئن به قلوب أهالى تلك الانحاء فأبغضوه ونقموا عليه واشتد بالاهالى الغيظ منه الى حد عظيم جدا فلما كان فى أحد الايام دخل عليه خدمه فوجدوه قتيلا على فراشه ونفى أمر قاتله ولم يوقف له على أثر وذلك سنة أربعين وثلثمائة للميلاد أى سنة ست وخمسين ومائتين قبل الهجرة وقيل ان سبب قتله هو

عقده

عقده الصلح مع سابور كسرى فارس فكانت مدة حكمه سنة واحدة لاغير وتولى بعده ولنطنيانوس وأخوه ولنسوس

(فى الملك ولنطنيانوس الاول والملك ولنسوس أخيه)

ثم قام بالامر ولنطنيانوس الاول وأخوه ولنسوس بويع الاول بالملك سنة أربعين وثلثمائة للبلاد أى سنة ست وخمسين ومائتين قبل الهجرة وبيان ذلك أنه لما قتل يوبانوس الملك على ماتقدم بيانه اجتمع أعيان الرومانيين فى مدينة نيقه وبايعوا ولنطنيانوس المذكور بالملك وهو من الامراء وقد كان مولده ببلاد المجار وليس له من الصفات مايحمد فانه كان فظا غليظا شديدا طويل القامة عجيب الخلقة فلما استقر به المنصب ورأى عدم قدرته على حمل أعباء الملك أشرك معه أخاه ولنسوس وخصه بملك البلاد المشرقية وأبقى لنفسه ملك البلاد المغربية واتخذ مقر حكومته وتختها مدينة لوطيقه التى هى الآن مدينة باريس وبعث من هذه المدينة أمراء وقوادا لحفظ حدود المملكة من غارات قبائل الفرنجة والانجليز والمغاربة وكان ممن بعث بهم الأمير طيودوسيس فقاتل هذا الأمير قتال الابطال واكتسب فى قتاله مع هؤلاء الامم منزلة رفيعة واتفق أن صدرت فى هذا الحين من ديوان باريس الاوامر مشددة بأن كل من اتهم بخيانة وطنه وقاتل مع الاعداء يعاقب أشد عقاب فصار التشديد فى البحث عن ذلك وكثر التجسس وبث العيون وتزاحمت أقدام أهل السعاية على أبواب ولنطنيانوس وعمت البلوى البرىء والمتهم وبالغ ولنطنيانوس فى عقاب كل من رمى بالخيانة بلا اثبات بما لا مزيد عليه من العقاب مما لم يخطر على بال بشر فمن ذلك انه حبس دبين عظيمين مفترسين فى قفص وأجاعهما حتى اذا أراد قتل أحد من المتهمين أطلقهما عليه لافتراسه فيمزقانه تمزيقا وكان ظلوما غشوما ميالا لسفك الدماء شديدا على الرعية سريع الغضب حاد الخلق وقد غضب يوما واشتدت به حدة الغضب فمات فى الحال وذلك سنة تسع وثمانين وثلثمائة للبلاد أى سنة سبع وأربعين ومائتين قبل الهجرة

وأما أخوه ولنسوس فقد كان على خلاف ذلك يحب رعيته ميالا الى خيرها وايرادها موارد السعادة والرفاهية بسوسها بحسن السياسة حتى كان يقال انه لم يتول الشرق قيصر خير منه وقد خفف عن رعاياه المكوس والعوائد والخراج وأنقصه قدر الربع شفقة منه فتعلقت به قلوب الرعية وأحبته حبا شديدا

ولما كانت سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة للبلاد أى سنة أربع وأربعين ومائتين قبل الهجرة ظهرت أمة جديدة لم تكن الرومانيون تعرفها قبل الآن وهى أمة تتارية تسمى أمة الهونية خرجت من آسية خروج الجراد المنتشر فنزلت على قبائل القوطية بسواحل نهر

طونة وطردتهم فهرب الغوطيون منها واجتازوا الطونة وأتوا الى بلاد المشرق وزحفوا الى
أملاك الرومانيين وأراضيهم وطلبوا منهم أن يقطعوهم أرضا ليعيشوا فيها فلم يقبلوا فساء الغوطية
ذلك فقام رئيسهم المدعو افريطيجرن وسار بهم الى جهة أدرنه وأوقع بعسكر الرومانيين فسار
ولنسوس الملك لقتاله ورده فأوقع افريطيجرن بولنسوس عند أسوار أدرنه وانتصر عليه نصرة
عظيمة هلكت فيها العساكر الرومانية وجرح ولنسوس جراحا بليغة فنقله عساكره من ساحة
القتال الى وكر وضعوه فيه فعلم بخبره الغوطية فقاتلوا حتى وصلوا الى ذلك الوكر وأضرموا فيه
النار فهلك ولنسوس حرقا وذلك سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعين
ومائتين قبل الهجرة فكانت مدة حكم الاخوين المذكورين نحو أربع عشرة سنة وعادت
بموتهما الدولة الرومانية الى شركة رباعية كما كانت من قبل

فى الملك غرثيانوس والملك ولنطنيانوس الثانى والملك طيودوسيس الاكبر والملك مقسيموس

ثم قام بالامر غرثيانوس بن ولنطنيانوس الاول * وولنطنيانوس الثانى * وطيودوسيس
الاكبر ومقسيموس * وذلك سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعين
ومائتين قبل الهجرة وبيان ذلك أنه لما مات ولنطنيانوس الاول سنة سبع وأربعين ومائتين
قبل الهجرة خلفه ولده غرثيانوس المذكور على ملك الاقاليم المغربية وقد كان عمره يومئذ
سبع عشرة سنة فكان أخوه المدعو ولنطنيانوس الثانى ينازعه الملك فتنازل له عن
ايطاليا وبلاد السواحل الايطالية الخصبة ولم يستقر بغرثيانوس المنصب بعد أبيه حتى
سار لقتال الغوطية اذ كانت الحرب لاتزال قائمة معهم على ساقها فكانوا دائما ظاهرين
عليه لم ينتصر قط يوما فلما أحس بضعفه عن قتالهم اختار معه طيودوسيس ابن الامير
طيودوسيس ولقبه باغسطس المشرق وقلده ملك الجهات المشرقية سنة ثلاث وتسعين
وثلثمائة للميلاد أى سنة ثلاث وأربعين ومائتين قبل الهجرة قال بعض الكتاب فكان
هذا الاختيار من حسنات الدهر على الرومانيين عموما وعلى المسيحيين منهم خصوصا اذ كان
طيودوسيس هذا كابيه طيودوسيس الاول هماما مقداما فى الخطوب على أن أباه كان من
أمهر قواد الرومانيين وأشجعهم وله غزوات كثيرة فى بلاد افريقية وحروب هائلة حيث
أدخل عصاة افريقة فى الطاعة وقتل غيلة فى مدينة قرطاجة وكان ولده طيودوسيس هذا قد
ولد فى بلاد الاندلس وتربى فيها وخدم تحت راية والده وحارب معه وحضر المشاهد العظيمة فى
الحروب والوقائع الهائلة فلما مات والده عاد هو الى موطنه بالاندلس حتى استقدمه غرثيانوس
ليشركه معه فى الملك

وكان طيودوسيس المشار اليه على جانب عظيم من البسالة والشجاعة فى الحروب واقتحام الخطوب وكان يحب الدين المسيحى ويغار عليه ويجله حتى لقب (بالاكبر) فلما استقر به المنصب سار لقتال القوطية فهزمهم شرهزيمة فى وقت يسير جدا وأجلاهم عن المملكة وعكس آمالهم وأفسد ما كانوا يدبرونه فعادوا الى المسايرة وانكفوا عن الغارات ورغبوا فى معاهدة الدولة الرومانية وعقدوا عقد المحبة والوصلة معها ليكونوا يدا واحدة مع الجماعة

أما غرثياتوس فانه سار أيضا للقتال بعسكره فى مدينة ليون من بلاد الفرنسيس فقتل فيها وذلك سنة سبع وتسعين وثلثمائة للميلاد أى سنة تسع وثلاثين ومائتين قبل الهجرة فقام طيودوسيس باعباء الملك وكاد أن يستبد بالملك هو وولنطنياتوس الثانى وكان القائد للعساكر الرومانية المرابطة فى بلاد الانكليز فى هذا الحين الامير مقسيموس فلما وصل اليه خبر موت غرثياتوس وانه لم يبق سوى طيودوسيس وولنطنياتوس تاقت نفسه الى الملك فبايعه العساكر بدلا من غرثياتوس ونادوا به ملكا فشارك طيودوسيس وولنطنياتوس فى حكم البلاد وتدبير الدولة • قال بعض أهل التاريخ وبقى على هذا الحال أكثر من خمسين سنة ثم سار اليه طيودوسيس بجيش جرار وقاتله فانهزم مقسيموس فتبعه طيودوسيس حتى قتله وكان ذلك فى سنة اثنتين وأربعمائة للميلاد أى سنة أربع وثلاثين ومائتين قبل الهجرة فلم يبق من شركاء طيودوسيس الا ولنطنياتوس الثانى وحده مالكا لبلاد المغرب الرومانية ومازال ولنطنياتوس يدبر الملك ويتصرف فى الامور ويغزو ويحارب ويصد الاعداء حتى قام عليه فى سنة أربع وأربعمائة للميلاد أى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين قبل الهجرة رجل اسمه اربوغست الافرنجى وقتله بخنجره فتولى بعده أوجينوس كاتب سر الديوان القيصرى على غير رضا من طيودوسيس فنوى طيودوسيس الانتقام من أوجينوس لتهافته على المنصب فجمع جيوشه وسار اليه وتلاقى به فى بلاد النمسا فقاتله وانتصر عليه نصرة عظيمة وأخذه أسيرا فتم له الانفراد بالملك سنة ثمان وأربعمائة للميلاد أى سنة ثمان وعشرين ومائتين قبل الهجرة • قال أهل التاريخ وهو آخر قيصر تملك على الدولة الرومانية شرقا وغربا

وكان طيودوسيس المذكور محبا للعدل شديد التمسك بالدين النصرانى محبوبا عند أحباره وقد اتحد بالبابا سنت سيريقوس على ابطال عبادة الاوثان فى جميع الاقطار الرومانية و رغب الى مجلس رومة أن يصدر مرسوما فى هذا الشأن فأبى عليه ذلك فأبطل طيودوسيس المجلس وألغاه وخلع أربابه ورسم بهدم جميع معابد الاوثان وهياكلهم ونهى عن تقريب القربان لهم فى البيوت وعن أن تقام فيها شعائر دينية وأن تكون الديانة المسيحية الديانة الرسمية فى سائر الاقطار الرومانية ونهى عن التفرق فى الدين وسلوك مذهب الاعتزال ونصب



جواسيس وعيونا تنقل له الاخبار فإن وجدوه متصفا بالتشيع والهرطقة أخرجوه من رومة وصادروه في أمواله وعقاره ونهى البابا أيضا جميع القسوس أن يتزوجوا وجعل شعارهم الرهبنة على طريقة أنطونيوس المصرى

ورسم طيودوسيس في سنة خمس وتسعين وثلثمائة للميلاد أيضا أى سنة احدى وأربعين ومائتين قبل الهجرة بمحو الديانة المصرية وأن لايباح في بلاد مصر الا التمسك بالدين النصرانى فأغلقت الهياكل والمعابد المصرية وانعدمت شعائر الجاهلية وانمحت آثارها قال بعض الكتاب وكان للمصريين يومئذ أربعون ألف صنم للعبادة فخل محلها دين المسيح الآمر بالتوحيد ومع ذلك فقد بقى من العاكفين على دين الجاهلية كثير بصعيد مصر ولم يمح هذا الدين الابتوالى الايام وكرور الاعوام وكان طيودوسيس عادلا محبا للرعية حائزا لجميع الصفات الفاضلة والخصال الكاملة فتنقعت في أيامه الديار المصرية وحسن حالها الى حد زالت معه الفتن واستتبت الراحة وعمت الطمأنينة واتسع نطاق العمار وعادلها رونقها القديم وراجت تجارتها وعظمت ثروتها * ولم يتم على انفراد طيودوسيس بالملك سوى سنة واحدة حتى فاجأته المنية فمات حتف أنفه سنة تسع وأربعمائة للميلاد أى سنة سبع وعشرين ومائتين قبل الهجرة فكانت مدة حكم هؤلاء الملوك الاربعة نحو سبع وعشرين سنة

وأعقب طيودوسيس ولدين أحدهما اسمه ارقاديوس والآخر اسمه (نوريوس) فأورثهما ملك الدنيا بأسرها أى ملك الدولة الرومانية شرقا وغربا ومن هذا العهد لم يتول على المملكة الرومانية ملك واحد ولم تصر فيها وحدة الحكومة بل صارت مملكتين مستقلتين احداهما قيصرية المشرق وتختها القسطنطينية والثانية قيصرية المغرب وتختها رومة كما كانت وقدتم التقسيم على هذا الوجه في السنة التى مات فيها طيودوسيس فكانت هاته السنة ختام حياة الدولة الرومانية الحقيقية * قال بعض أهل التاريخ وقد تمت الدولة التى كانت على رأس القرون الوسطى بصدور مرسوم طيودوسيس بابطال الديانة الوثنية ومحو آثارها بالدولة الطيودوسيسية وأول قياصرتها في المغرب هولوريوس بن طيودوسيس * قلت ولا حاجة لنا بالكلام عليه فانه ليس ممن ملك الديار المصرية ولاهى مما دخل في حكمه من الممالك * أما أول ملوكها في المشرق فهو الملك ارقاديوس بن طيودوسيس فصارت مصر في قبضة قياصرة المشرق الذين عرفوا بقياصرة الروم وسميت دولتهم بالدولة الطيودوسيسية المشرقية وهي بالنسبة لمصر عبارة عن الدولة الخامسة والثلاثين وسيأتى الكلام عليها مفصلا

وفى نحو السنة السابعة من حكم هؤلاء الملوك الاربعة مات اثناسيوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ستا وأربعين سنة وفى أيامه جرت مناظرات طويلة مع اريانوس الاسقف أفضت الى ضربه وفراره جزاء تعصبه وقال انه لم يقل ان المسيح خلق الاشياء وانما قال به خلق كل شئ لانه كلمة الله التى بها خلق السموات والارض وانما خلق الله

تعالى

تعالى جميع الاشياء بكلمته فالاشياء به كونت لأنه كونها وأما الثلثمائة وثمانية عشر فقد تعدّوا عليه

وتنصر فى أيامه جماعة من اليهود وطعن بعضهم فى التوراة المتداولة بينهم وقال انهم نقصوا منها وان الصحيحة هى التى نشرها السبعون عالما فأمر الملك باحضارها والملك يومئذ قسطنطين وتافهم على ذلك حتى دلوه على موضعها بمصر فرسم باحضارها فحملت اليه فاذا بينها وبين توراة اليهود نقص ألف سنة وثلثمائة وتسع وستين سنة زعموا أنهم نقصوها من مواليد من ذكرفيها لاجل المسيح

وغلبت فى أيامه مقالة أريوس على القسطنطينية والانطاكية والاسكندرية وصار أهل الاسكندرية وأهل مصر أريوسيين ومنانيين واستولوا على ما بها من الكنائس ومال الملك لرأيهم والملك يومئذ قسطنطين الثانى بن قسطنطين الاول وحمل الناس عليه ثم رجعوا عنه وكتب ابرميس أسقف بيت المقدس أنه ظهر من السماء على القبر الذى بكنيسة القيامة شبه صليب من نور يوم عيد القبرة لعشرة أيام خلت من أيار فى الساعة الثالثة من النهار حتى غلب نور الشمس ورآه جميع أهل بيت المقدس عيانا فأقام فوق القبر عدة ساعات والناس تشاهده فآمن يومئذ من اليهود وغيرهم ألوف من الناس

ولما ملك يولياقوس ابن عم قسطنطين اشتد اضطهاده النصارى وقتل منهم خلقا كثيرا جدا ومنعهم من النظر فى الكتب وأخذ أوانى الكنائس والديارات ونصب مائدة كبيرة عليها أطعمة مماذبحه لاصنامه ونادى من أراد المال فليضع البخور على النار ويأ كل من ذبائح الحنفاء ويأخذ ما يريد من المال فامتنع كثير من الروم وقالوا نحن مسيحيون فقتل منهم خلائق ومحا الصليب من أعلامه وبنوده

وفى أيامه أيضا خرج القديس اباقوس الى برية الاردن وسكن فيها وبنى بها الديارات وهو أول من سكن برية الاردن من النصارى فلما ملك طيودوسيس وكان نصرانيا عاد كل من كان قد فرّ من الاساقفة وكتب الى اثناسيوس بطرك الاسكندرية أن يشرح له الامانة الصحيحة بجمع جميع الاساقفة وكتب له أن يلزم أمانة الثلثمائة وثمانية عشر فثار لذلك أهل الاسكندرية على اثناسيوس ليقتلوه ففرّ فأقاموا بدله لوقيوس وهو أريوسى أى على مذهب أريوس فأقام خمسة أشهر ثم اجتمع جميع الاساقفة وقاموا على لوقيوس المذكور وحرموه ونفوه وأعادوا اثناسيوس فأقام الى أن مات فخلفه بطرس الثانى وهو حادى عشريهم فوثب الاريوسيون عليه بعد سنتين من اقامته ففرّ منهم واختفى فأعادوا لوقيوس فلبث ثلاث سنين ووثب عليه أعداء الاريوسيين ففرّ منهم فردّوا بطرس فى نحو العشرين من أمشير فأقام سنة

وقدم أريوس أسقف أنطاكية الى الاسكندرية بمرسوم من الملك فأخرج منها جماعة من الروم وحبس بطرس بطركها ونصب بدله أريوس المعروف بالسمياطى ففرّ بطرس

البطرك من الحبس الى رومة واستعاد بطركيها ثم مات فكانت مدته خمس سنين قضاها في كيد وشدة

فاقيم بعده تيموثاوس وهو ثانى عشريهم وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(وصــــل)

(فيما كانت عليه مصر أيام الدولة الرومانية)

لما صارت ديار مصر فى قبضة الدولة الرومانية على ماتقدم بيانه بذل الرومانيون الجهد فى ابقائها تابعة لهم ونظروا الى أنجح الوسائل الممكنة من ذلك فلم يروا خيرا من أن لايتعرضوا لامورها الدينيــة وأن يتركوها على عوائدها القــديمة وفنونها وصــنائعها وطريقــة كتابتها ولغتها وأن لايعاملوها بما عاملتها به الفرس من الحظر والمنع والتضييق عليها فى أمورها وعلى ذلك بنوا قاعدة سياستهم فأصلحوا ما كان اندرس من معالم الديانات وهيأوا كل العبادات وزادوا عــددها ومحوا ما كان من مشروعات الدولة البطليموسية ولم يقتصروا على العمائر بمصر فقط بل جددوا عمائر أخرى مهمة فى ديار النوبة من بلاد السودان رجاء استمالة المصريين اليهم وبسط ألوية السلطان عليهم وعلى النوبة فتم لهم ذلك الامر ورسخت قدم الدولة الرومانية بمصر رسوخ الاطواد وانبسطت يدها شرقا وغربا وقبضت على زمام الامور داخلا وخارجا وتصرفت تصرف المالك المطلق

وكان جنود مصر وأمراؤها هــم القائمين بحراســة قلاعها وحصونها وثغورهــا وزمام المملكــة بين أيدى جمهورها فلما أمنت الدولة الرومانية من أهل مصر غوائل العصــيان عــابرتهم على مذاهبهم وعقائدهم ولم يبق للمصريين من سبب لاثارة الفتن رجحت بجعل محافظى القــلاع والثغور من عسكرها وأن لايتولى حكم البلاد الانائب رومانى ينتخبه مجلس رومة وأن يكون النائب المذكور متصرفا فى حكم البــلاد تصرف القيصر مرخصا له فى الملكية والعسكرية ليكون شأنه بين المصريين شأن ملكهم القــديم فكان كل من ارتكب من هؤلاء الولاة هفوة عاقبه مجلس رومة بالعزل فلاجل ذلك لم تطل مدة ولاية الولاة المذكورين وكان للنصب والعزل فيهم سريعا جــدا لاقل سبب استرضاء للمصريين وكــان من قواعــد الدولة الرومانيــة المقررة عنــدها أن لايتولى على مصر أحد من أعضاء مجلس رومة ولامن عائلات المجد الاولية خشــية أن يستبد بملكها ويطمع فى الاســتقلال بها فلذلك لم تكن البــلاد فى أيام هــذه الدولة ذات رونق سياسى ولم تكن متمتعة بالثمرات الوطنية ولا حائزة على شئ من الحرية بل كانت على حالة الاســترقاق والاستعباد فلم تلبث أن اندرست مفاخرهــا القــديمة ونسيت أنها كانت ســيدة جميع المدن والبــلاد قال بعض الكتاب ولم يبق لها من رمق الحياة الاهلية الابعض لمحات روحانية اذ كان لمدارس الاسكندرية فى هذه المدة شهرة

لاسيما

لاسيما فى المذاهب الفلسفية وكان لها على رومة ومملكة اليونان سلطة القوة العلية وسطوة الحكمة على حين كانت حالتها الداخلية فى اختلال واعتلال ملازمين ونواب لامثيل له اذ كنت لاترى فى هذا الحين مدينة طيوة والعرابة المدفونة ولا منف ولا عين شمس الا آثارا خربة وأطلالا بالية ولم يبق من هاتيك العمائر العظيمة الا الرسوم من جميع المدن حتى من مدينة الاسكندرية التى كانت تخت السلطنة وصار لاعناية لاهل البلاد الا بالفلاحة والزراعة لتخدم وتنسق لمدينة رومة فتميرها بالميرة وتعينها بالذخيرة كانها مخازن للغلال ومستودع للاقوات * ولم تعز مصر فى أيام هذه الدولة قط بفائدة تذكر غير أنها فى آخر الأمر دانت بالديانة النصرانية وقاست بأسبابها من الشدائد مالايدخل تحت حصر كما سيتلى عليك فى محله

وكان أول ملوك هذه الدولة أغسطس قيصر وآخرهم طيودوسيس وعددهم ست وستون قيصرا منهم من حكم على انفراد مستبدا بالملك ومنهم من كان له شريك ومنهم من كان له شركاء وكانت مدة ملكهم نحو أربعمائة واحدى عشرة سنة تقريبا باعتبار أن مصر ايالة تابعة مثل بقية الايالات المشرقية الداخلة فى حكم دولة الرومان * والى هذا الحين زالت الجاهلية وقامت بدلها المسيحية بصدور أمر الملك طيودوسيس قيصر بالتمذهب بهذا الدين وتعميمه فى جميع أنحاء مملكته فمن ذلك اليوم وانتشر انتشارا سريعا للغاية واشتهر أهل مصر من هذا التاريخ باسم (قبطة مصر) لطائفة الاقباط من أهالى مصر الآن هم المتنصرون من ذرية الامة المصرية القديمة وهم بقية ذلك الشعب الذى قدر واقتدر وفاز واشتهر واستمر الدين المسيحى متسلطنا بمصر مدة المائتين وتسع وخمسين سنة التى هى عبارة عن سنى ملك دولة الروم المسيحية المعروفة عند أصحاب التاريخ العائلة الخامسة والثلاثون

(الباب السادس)

(فى دولة الروم المسيحية التى قامت بالاسكندرية وفيه فصول)

الفصل الاول

(فى العائلة الخامسة والثلاثين)

كان ابتداء هذه الدولة التى هى دولة الروم المسيحية فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة للبلاد أى سنة احدى وأربعين ومائتين قبل الهجرة وكان انتهاؤها بفتوح الاسلام لديار مصر سنة تسع وثلاثين وستمائة للبلاد أى سنة ثمان عشرة للهجرة فكانت مدة سلطنتها مائتى سنة وتسعا



وخمسين سنة كماقاله جماعة المؤرخين وأول ملوكها الملك ارقاديوس بن الملك طيودوسيس قيصر مؤسسها

(فى الملك ارقاديوس)
(قيصر)

تولى ارقاديوس قيصر الملك بعهد من أبيه طيودوسيس سنة تسع وأربعمائة للبلاد أى سنة سبع وعشرين ومائتين قبل الهجرة وقد اعتبره أهل التاريخ رأس هذه الدولة واعتبره آخرون ثانى ملوكها بعد أبيه طيودوسيس الذى شيد أركانها ووطد دعائم بنيانها وكان ارقاديوس هذا ضعيف العقل خامل الفكر فكانت المملكة فى أيامه ضعيفة كأنما ارتسمت فيها مرآة طبعه وقد فوض سياستها وتدبير أمورها الى أحبابه وأمراء عسكره وقواده وكانوا من غير الرومانيين فوقعت بينهم لذلك الفتنة وكان بعضهم عدوا للبعض الآخر فاختل النظام وعز الوئام ثم تسلم زمام الدولة بعد ذلك حلا وعقدا رجلان أحدهما اسمه (روفين) ويلقب برئيس الدولة وثانيهما اسمه (أطروبيس) صاحب ديوان الملك ولم يكن يعلو عليهما فى نفوذ الكلمة الا اروقسية زوجة ارقاديوس الملك وكان لاروقسية هذه شهرة كبيرة فى القسوة وغلظة القلب وهى التى عذبت القديس خروصوصطوموس الذى سيأتى الكلام عليه

ولما عهد طيودوسيس لولده ارقاديوس المذكور بالملك كتب له وصية يقول فيها

لو كنت يابنى من أبناء ملوك فارس وعهد اليك بملكها وآلت اليك دولتها لكان عنوانك الكسروى كافيا فى حفظ سرير ملكك وصيانة تاج دولتك ولكن منبتك أرض الروم وحال أهلها يابنى معلوم فكن حازما فالحزم ينفع فاعله وان كنت ممن يجهل الامر فاسأل فاذا أردت أن تكون أهلا لان تحكم الامة وتسوسها قابضا بنفسك واحكمها وأحسن سياستها قبل ذلك لتعلم كيف تغلبها فالعاقل من هذب نفسه وغلب عقله على هواه

والناس يابنى صنفان سوقة وملوك فالسوقة لاهم لهم الا اسعاد أنفسهم وأما الملوك أمثالك فهمهم اسعاد الرعايا فان سعادة الرعايا هى سعادة الملك فاذا تغلبت عليك يابنى الذنوب وجرتك الى ارتكاب العيوب فأنت عبد هوى ولو تحليت بتاج القياصرة فاحترس من تغلب الشهوات النفسانية وخلها للرعاع من الرعية فان الشهوات الدنيوية تعرض للامراء والملوك وتكون فى كل حال نصب أعينهم فتغلبهم فاذا أردت أن تتخلق باخلاق ملك الملوك وسلطان السلاطين فتخلق برحمته وحلمه واتبع دائما طرق العدل والاحسان ولاتلتفت الى فعل الخير لمجرد المدح أوالقدح من انسان فان العامة لايتحاشون من مدح الملوك أو القدح

فيهم فكن باستكمال الفضائل ومكارم الاخلاق صورة للعدل والاحسان وتخلق بأخلاق الملك الخلاق لكي تكون ذا سلطان على قلوب الرعية تستغنى به عن الارهاب بالسيف وشدة البأس فقد جرت عادة الرومانيين أنهم لا ينقادون لذي كبرياء نخل أبهة الملك لملوك آسية والبلاد المشرقية وتحل بحلية عظماء القياصرة الرومانية وأوصيك اذا عاديت ملكا من الملوك فأحكم قيادة جنودك وأحسن في الامرة والسلوك لتطاع منهم وينفذ أمرك فيهم واقسم اقتحام الاخطار مع الجند فانهم بك يقتدون ويستسهلون المهالك ولا يبالون باقتحامها

ومما تأكد به الوصية ويجب فيه النصيحة أن تواظب على قراءة تاريخ من سبقك من القياصرة لتعرف ما أصابهم من النصرة والهزيمة وتقف على أسباب العزة والهوان لتفقه من ذلك ما يجب فعله وتتفطن لما ينبغي عليك اجتنابه اه

فلم يعمل ارقاديوس بهذه الوصية لسخافة عقله فكان مبغوضا عند سائر الرعية ممقوتا مذموما لا يذكر اسمه الا باللعنات والتقبيح * وقد سبق الكلام على أن الذي كان قابضا على زمام الدولة هو الوزير روفين وأن الحل والعقد كان باستشارة الملكة اورقسية فكان الوزير المذكور يخشاها ويخاف منها جدا وكانت نفسه تحدثه دائما بأن يسلب الملك من زوجها ارقاديوس فكان يمنعه من ذلك شدة بأسها وحرصها ولكنه مع ذلك أخذ يمهد لهذا الامر الاسباب ويعمل سرا على اخراجه من حيز الخفاء الى عالم الظهور فصاغ النياشين باسمه ونقش عليها رسمه كأنه لابس التاج القيصري وأعدها لوقت استقلاله بعد ظفره بخلع ارقاديوس والكفران بنعمته

وكان لطيودوسيس والد ارقاديوس الملك قائد عسكر اسمه اسطيليقوس أقامه في حياته كفيلا على ولديه عند ما قسم الملك بينهما شرقا وغربا فلما وليا الملك بعد أبيهما كان اسطيليقوس مشغولا بقسمة الاموال والعساكر بينهما وكان يسمع بما يفعله روفين الوزير من الاستبداد والجور والعسف بالرعية ويحقد عليه كثيرا ويراقب الفرص الوقيعة به والانتقام منه

واتفق في هذا الحين أن طائفة القوطية اجتازت نهر طونة لحرب ارقاديوس وقتاله وسارت قاصدة بلاد القسطنطينية واقتربت منها ولم يمنعها في الطريق مانع فرأى الامير اسطيليقوس هذه الفرصة موافقة لما في نفسه من الانتقام من روفين الوزير فقام من ايطاليا في جيش عظيم وسار الى مدينة القسطنطينية للانتقام منه فدفع القوطيين عن البلاد وأذاع أنه قادم لرد القوطيين وما زال سائرا حتى وصل الى مدينة سلانيك ثم انعطف بسرعة غريبة وهجم بحركة عجيبة على القوطيين وحصرهم ومازال بهم حتى هزمهم شر هزيمة فلما تم له النصر أشاع الناس بأنه يريد القسطنطينية بجيوشه فأحس الوزير روفين بأنه انما يريد الحضور لقتله واغتياله وعلم ما في نيته فخاف وتقدم الى ارقاديوس الملك في أن يرسم الى اسطيليقوس بسرعة ارسال الجنود الى القسطنطينية وأن لا يحضر هو معهم فرسم له الملك بذلك فامتثل اسطيليقوس



أمره وبعث بجميع العساكر الذين كانوا معه الى القسطنطينية ولكنه كاشف كبارهم بمافى نفسه من نحو روفين الوزير وأسرّ الى غيناس قائدهم أن يقتل الوزير المذكور فعاهدوه على ذلك وعلى كتمان الخبر حتى يتم له الامر ويبطشوا به عاجلا وكتموا ماعاهدوه عليه بحزم شديد ولم يوحوا به لاحد حتى دخلوا مدينة القسطنطينية فحضر الوزير اليهم فاظهروا له غاية الطاعة وقابلوه بغاية الحفاوة والولاء فاغتر بظاهرهم واعتمد عليهم واتخذهم عونا على درك مقاصده من قتل زوجة الملك ومبايعته بالملك وكاشف كبارهم بذلك فوافقوه وأظهروا أنهم أعوانه على جميع مايرغب وكتموا هذا الخبر أيضا عن اركاديوس الملك لما علموه من خفته وطيشه فلما استقر بالعساكر المقام دخل قائدهم الامير غلينان على الوزير المذكور ومثل بين يديه وطلب منه أن يرسم بعرض العساكر على الملك وأن يسيرهم أمامه ليرى فى نظامهم فسر الوزير من ذلك ودخل على الملك وكلمه فى عرض الجند فقام الملك وحضر الى الميدان ومعه الوزير وسلم كالعادة على جميع البيرقدارية ثم صار يمر بين صفوف العساكر وينظر فى نظافة آلاتهم وتظام معداتهم والوزير ينظر لهم بعين التعاظم كأنهم صاروا أعوانه المقيدين بأمره فلما توغلوا الى قلب الصفوف أحاطت بهم العساكر احاطة السوار بالمعصم وبرز من بينهم فتى وانقض على الوزير فطعنه فى صدره فوقع صريعا تحت أقدام الملك * وشاع خبر قتله ففرح الناس فرحا عظيما وعلت الضوضاء فى ذلك الميدان ثم انعطف الامير غيناس ومعه طائفة من الجند الى أعوان الوزير فأوقع بهم وأعمل فيهم القتل والسلب وقامت الغوغاء على من بقى منهم ففتكوا بهم عن آخرهم وأخذوا جثة الوزير وطافوا بها سحبا على الارض فى الاسواق والشوارع ورفعوا رأسه على سنان رمح وطافوا بها وقطعوا يده اليمنى ليمثلوا به وجعلوا كفه ممدودة مبسوطة كأنه يسأل الناس المغارم والمطالب كما كان يفعل قبل موته * وهربت زوجته وابنته الى بيت المقدس فرارا من القتل فضبطت أمواله وأحصيت مقتنياته فكانت شيأ كثيرا وبعد قتله ولى الملك مكانه اطروبيس الطواشى وكان قبل ذلك حاجب الدولة وكان اسطيليقوس زعيم الدولتين يرى أن له حق كفالة قيصر المشرق ويدعيها مستندا على وصاية طيودوسيس والده ثم رأى بعد ذلك أن فى تمسكه بهذا العزم مايوقع العداوة بين الاخوين ويثير نار الحرب بين الدولتين فترك اركاديوس وشأنه مع وزرائه وزوجته ولم يتعرض قط للسياسة ولا للتدبير فكانت كل دولة من الدولتين ليس لها على الاخرى أمر ولا نهى فلم يكن لذلك بينهما جامعة قوية ولا رابطة تذكر * وكان آلاريق ملك القوطية يترقب الفرص للانتقام من الدولة المغربية فلما رأى من ابتعاد اركاديوس عن أخيه تقرب الى اركاديوس واصطلح معه وانتظم فى سلك جنوده وحسب نفسه من أتباعه فجعله اركاديوس رئيس عموم عساكره الرومانية المرابطة بسواحل ايطاليا المشرقية وكانت يومئذ تابعة للقسطنطينية قال بعض أهل التاريخ فأظهر الفرح بذلك وكمال المحبة لاركاديوس وهو فى الحقيقة عدو للطرفين حاقد عليهما ماكر مخادع ومازال حتى

تقوى أمره وتمكن من قلوب عساكره وقوى جأشه على القتال فسار الى رومة في جيش عظيم لقتال قيصرها وظهر عليه وهزمه شر هزيمة وكاد يأخذ ملكه فشق هذا الامر على الامير اسطيليقوس وخشى ضياع الملك من يد القيصر وسقوطه في يدى آلاريق فقام ومعه بعض الجنود وركب على آلاريق ومن معه وصدمه صدمة قوية وهزمه في واقعة شر هزيمة وأخذ زوجته أسيرة وفر آلاريق ونجا بنفسه وتفرق من كان معه من الجنود أيدى سبأ وزال البأس عن القيصر

قال أهل التاريخ وكانت أيام ارقاديوس كلها متاعب ومصاعب وفساد أخلاق وظلما في الرعية وكان العمال في جميع جهات المملكة أرباب ظلم وخيانة منهمكين على اللذات والشهوات غافلين عن أمور البلاد وشؤن الرعية وكان الامر كله في يد اطروبس الطواشي الوزير فكان هو رئيس المجالس والمحاكم وأمير الجيوش كافة وكان بكره القوطية جدا ففرح الناس بتقلده منصب الوزارة ليأمنوا بتدبيره شر أعدائهم اذ كانوا لا يرون من ارقاديوس قدرة على ذلك ومع فرحهم به فقد تكدر خيار الناس وأهل الاستقامة من طوائف الجنود والعساكر والرعية من تقليده هذا المنصب لما يعلمونه فيه من أخذه الرشاوى والبراطيل وضياع حقوق الامة والوطن بل حقوق المملكة نفسها بان يبيع للاعداء من البلاد كل ما يقدر على بيعه وكان من خصاله الاصغاء لوشى الوشاة وأهل السعاية بالنميمة ميالا الى أخذ المغارم غنيمة لنفسه وكان كثير السعى خلف الايقاع بكل من امتاز من أمراء الجنود في أيام طيودوسيس بالاستقامة وشرف النفس والتمسك بالاصول والفتك بهم خوفا على نفسه منهم

وكان يعلم مافى صدور العامة وأهل البلاد من بغضه والحقد عليه ويخشى القدح في عرضه كما هو مذهب الكثير من الحكام فاسدى الاخلاق فكان لذلك يجاوز في غدره ويحترس من الملامة ونشر مرسوما يقول فيه ان كل من طعن في ذات الملك أو في أهل ديوانه جزاؤه القتل وأن من سعى بالشفاعة في مذنب جزاؤه الفضيحة وأذاع هذا المنشور وشدد على الحكام في العمل بموجبه فهاج للناس بما فيه غضبوا كثيرا وقاموا قومة واحدة وأضرموا نار الفتنة فسرى لهيبها في جميع العمالات والاقاليم الرومانية وانحاز رؤساء الاحزاب الى زوجة الملك وطلبوا من القيصر أن يرسم بضرب عنق الوزير المذكور وأن لا تسكن نار الفتنة الا بقتله فلم يقبل فانكبت زوجته على أقدامه وبكت وشكت أيضا من أنه أى الوزير المذكور أساءها وخاض في عرضها فحنق الملك لها ورسم بقتله

ولما ظهر الامر بقتله حتى أظهرله الشماتة كل من كان يتزلف اليه من أهل البلاد وأهل الديوان ولم يبق أحد الاوكان يوسعه سبا وطعنا وضربا وخرجوا به الى الميدان ليقتلوه وعلت الضوضاء وتزاحم الناس وأتوا للتفرج عليه من كل صوب وحدب فبينماهم على هذا الحال والوزير بين أيديهم اذ برز القديس خروصوسطومس وانكب عليه وحال



بينه وبين الجموع المتزاحمة على قتله ونادى قائلا تنحوا عنه أيها الناس فان الدنيا لاتدوم على حال وان الطبيعة البشرية ليست معصومة من النقائص الدنيوية وسوء المقاصد الى آخر ماقاله من المواعظ فى هذا المعنى فانكف الناس عنه وبرز الامر بعد ذلك بتغريبه وابعاده الى جزيرة قبرص ولكنه لم يلبث فيها الاقليلا حتى قام عليه واليها وأهدر دمه وأراح العباد منه

فاستوزر الملك بعده الوزراء من الاجانب والاغراب وسلمهم قيادة المملكة كما كان يفعل مع غيرهم من قبل ثم أفضى الحال بعد ذلك الى أن سلم زمام المملكة لزوجته فحكمت واستبدت وأمرت ونهت وتصرفت فى جميع الامور وكانت تكره الاسقف خروسوصطوس وتعاديه فرسمت يوما بنفيه وتغريبه فنفوه وكان معظما محبوبا من الناس موقرا عندهم فقاموا لذلك جميعا واجتمعت الاهالى أحزابا وأشهروا السلاح وأحاطوا بقصر الملك وعلت الضوضاء فخافت الملكة من ذلك وخشيت عاقبة هذه الفتنة وتمثلت بين يدى الملك وأشهدت على نفسها أنها أخطأت فيما فعلت وندمت وأمرت بعوده عاجلا الى القسطنطينية فرجع فزين الاهالى لقدومه سواحل القسطنطينية شرقا وغربا فلما دخل المدينة ارتقى منبر الخطابة وخطب يعظ الناس بالصلح والسلم . قال بعض الكتاب ولكن أنساه تعاظمه الدنيوى ذل حرفته وأذهله عن حقوق خرقته ولم يعمل بما جاء فى الانجيل حيث عرض بذم النساء كافة وذكر معايبهن وتطرف للخوض فى عرض الملكة وقذفها فقال انها مجبورة لبعض الشام وان عشاقها عبدوها عبادة الاصنام قالوا ومع أن ذكر هذا لايليق من مثل هذا الاسقف فقد أصغى الناس اليه بآذان واعية ولكنهم عادوا بعد ذلك فجمعوا مجمعا آخر وحكموا عليه بالنفى وساعد على نفيه جماعة الاريوسية التابعون لمذهب أريوس اذ كانوا من حزب الملكة ومن أعوانها فاتفق بعد نفيه أن انتابت على البلاد المصائب وأتلف الجراد المزروعات وكثرت بها الزلازل فاعتقد الناس أنها انما حلت بالبلاد بسبب نفى هذا الاسقف

وقد ذكرنا فيما تقدم أن طيودوسيس الملك كان قد خفف فى أيامه عن مصر المحن وقطع أسباب الاحن وأعادلها رونقها القديم بما منحها من المزايا وما جدده فيها من العمائر فلما تولى ارقاديوس منصب أبيه سار على سيرته وأمر بأن تغلق جميع هياكل الاصنام فى ديار مصر ومنع من التدين الا بالدين المسيحى فاستدعى أهل البلاد أن يتولى عليهم ملك من قبل الرومانيين يسوسهم بما فيه المصلحة وحسم الفتن فبعث لهم الملك قائدا شديدا وحث الاهالى على الطاعة تحت حكم عماله ونوابه وأباح لهم بعض اباحات دينية لابد منها ورخص لهم أن يتخذوا كهانا لعبادة الشمس والبقر وأقام على المسيحيين منهم (توفيلس) بطركا بالاسكندرية قال بعض أصحاب التاريخ فكان توفيلس هذا كثير الحمية الدينية قليل الفضل والمعرفة فأظهر العداوة لاصحاب الدين الوثنى وتعرض لرخصتهم فى دينهم وتحصل على مرسوم

آخر من الملك بكسر الاصنام وهدم المعابد والهياكل فعادت الشدة على الوثنيين من المصريين وكان البطريرك توفيلس هو المأمور بذلك وكان تحت أمره متوليها وأميرها فبلغ توفيلس ماتمناه وبالغ فى هدم الهياكل وتخريب المعابد وتبعه فى ذلك كافة أساقفة مصر وقراها فحصل لدين الجاهلية بمصر مذلة وشدة وصار الفخر للبطريرك والاساقفة وفوض لهم الحكم فى الرعية وقد كانوا قبل ذلك من أيام قسطنطين الاول مفوضين فى التعليم والتربية وتهذيب الاخلاق وتحسين العوائد دون تنفيذ الاحكام وكان القضاة مأمورين أن ينفذوا مايحكم به طائفة القسيسين فتم لهم النفوذ فى حكومة البلاد وكمل لهم التداخل فى المصالح كافة وصار الأمر منهم واليهم ولم تبق فوق يدهم يد

قال بعض الكتاب وباضمحلال الديانة الوثنية على التدريج صار يلوح بطرف خفى قرب زوال التمدن القديم وهو تمدن أزمان الجاهلية وقد عم ذلك جميع البلاد الرومانية وأخذت الامة القديمة على التدريج فى استبدال دينها القديم وقد زادها ضررا كثرة تداخل الاجانب فى أهلها لاسيما المتبربرون وتقلدهم المناصب الملكية والوظائف العسكرية فضلا عن احتلال البلاد من الفرنجة والغوطية وانتشارهم فيها من نهر الرين الى حد الفرات بالمشرق وشنهم الغارة على جميع إيالات المملكة من وقت الى آخر وتتبعهم النهب والسلب فيها حتى عمها الخلل ولازمها الارتباك وسرى فيها عرق الفساد الى حد أن تطاولت أيدى الرعية الى معاقبة الملوك والقياصرة تخلصا من تعديهم وظلمهم للاهالى ثم طردهم واستقدامهم للاغراب ليدخلوا بلادهم فانهم اختاروا أن يكونوا مستعبدين للافرنجة والغوطية ورضوا بذلك وآثروه على أن يكونوا أحرارا تحت أحكام ملوكهم الجائرين لاسيما وقد أثقلتهم الضرائب والمغارم بما لايطاق فضلا عن تعرضهم لمذلة عبادة الاوثان وقتل من تمسك بهذا الدين وقد كسر أحد العساكر يوما صنم الشمس وكانوا يعتقدون أنه اله الدنيا بأسرها وأخرج منه جملة من الفيران مع مارسب فيه من فضلاتها فلم يترتب على كسره يومئذ فتنة لضعف أهل هذا الدين وقلتهم وقد اسود هيكل رومة العظيم المحلى بالذهب الخالص وعلاه التراب وصار مهجورا لايدخله عابد ولايواليه بالاشارة راكع ولاساجد وكذلك بقية هياكل الاصنام وتأيد دين المسيح بقدر مالاقاه من الشدة والمذلة وصار الناس يدخلون فيه أفواجا لاسيما فى أيام ارقاديوس على مافيها من العسف والجور

ومات ارقاديوس الملك حتف أنفه فى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة للميلاد أى سنة أربع عشرة ومائتين قبل الهجرة وكانت مدته ثلاث عشرة سنة ويضاف الى هذه المدة أيضا مدة الاربع عشرة سنة التى هى من تاريخ مرسوم طيودوسيس الملك باتباع الملة النصرانية وهى المدة التى حكمها طيودوسيس أبوه فى القسطنطينية وقد أوصى قبل موته أن يكون يزدجرد بن بهرام المعروف بالاثيم كفيلا على ولده طيودوسيس الثانى ولعله قصد بذلك تداخل أهل فارس فى مصالح الروم والقسطنطينية تشفيا غير أن بعض المؤرخين أنكر هذه



الوصية وقال انها لم تصدر منه واستدل على ذلك بان كسرى فارس المذكور لم يطالب بالكفالة ولم يتداخل فى مصلحة البلاد مع ما كان عليه من الفظاظة والغلظة ولؤم الاخلاق قال ولو كان لهذه الوصية أثر لما تنازل عنها كسرى المذكور ولدافع عنها ببذل النفس والنفيس

ومات فى أيام ارقاديوس (تيموثاوس) بطريرك الاسكندرية بعد أن أقام خمس سنين أوسبعا وفى أيام تيموثاوس المذكور كان المجمع الثانى بالقسطنطينية فى سنة اثنى عشرة ومائة لدقلطيانوس فاجتمع فيه مائة وخمسون أسقفا وحرموا مقدونيوس عدو روح القدس وكل من قال بقوله وكان سبب ذلك أنه قال ان روح القدس مخلوق وحرموا معه أيضا أناسا آخرين لعقائد أخرى شنيعة تظاهروا بها فى المسيح وكان رئيس هذا المجمع تيموثاوس بطريرك الاسكندرية

وزاد الاساقفة يومئذ فى الامانة التى رتبها الثلثمائة وثمانية عشر * ونؤمن بالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الاب * وحرموا أن يزاد فيها شئ بعد ذلك أو ينقص منها شئ وكان هذا المجمع بعد مجمع (نقية) بثمان وخمسين سنة وبعد مولد المسيح بمائة وثلاث وسبعين سنة

وفى أيام تيموثاوس بنيت عدة كنائس بالاسكندرية واستتيب جماعة كثيرة من مقالة اريوس وأطلق للاساقفة والرهبان أكل اللحم يوم الفصح ليخالفوا الطائفة المانية فانهم كانوا يحرمون أكل اللحم مطلقا ورد ارقاديوس كل من نفاه الملك والبس من الاساقفة وأمر أن يلزم كل واحد منهم دينه ماخلا المانية ثم أقيم بعد تيموثاوس ثاوفيلاوس وهو ثالث عشريهم وأخو بطرس الثانى ويعرف بابن الحطاب وكان فى أيامه من الحوادث ماسيذكر بعد

(فى الملك طيودوسيس)

(قيصر الثانى)

ثم قام بالامر ابنه طيودوسيس الثانى بعهد من أبيه ارقاديوس وذلك سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة للميلاد أى سنة أربع عشرة ومائتين قبل الهجرة وبويع وهو من العمر تسع سنين وقد كان بحسب الشريعة الرومانية لعمه أرنوريوس قيصر المغرب حق الكفالة عليه فلم يرض أعيان مملكة القسطنطينية بذلك * وكان من الاغنياء المتزمين أصحاب الجاه والبأس بمدينة القسطنطينية رجل اسمه أنطيس وكان ذا معرفة وخبرة بالامور واستقامة وشهرة بالمعارف وكان قد تقلد نيابة المشرق ثم تخلى عنها فولاه وجوه القسطنطينية كفالة طيودوسيس ولكن لم تطل مدته حيث مال الى العزلة واختار الراحة والاشتغال بأموره الخصوصية وآثر ذلك

على

على نيابة الدولة فتنازل لبولخاريه أخت الملك عنها حيث رغبت فى ذلك فاستولت بولخاريه على سرير الملك ولم يكن عمرها اذذاك الاست عشرة سنة فقامت بأعبائه خير قيام مع الشهامة والجلادة ولازمت جادة العدل وساست الامور ودبرتها فأحسنت تدبيرها فلقبها المجلس بلقب (أغسطسة) وحكمت بالنيابة عن أخيها مع الوزراء نحو الاربعين سنة قال بعض المؤرخين فكأنها ورثت فضائل جدها طيودوسيس الاكبر ونالت من مكارم أخلاقه الحظ الاوفر كما ورثت عنه الشجاعة والبسالة فبلغت فى حسن التدبير درجة البراعة

وكان الناس يتوسمون فى طيودوسيس الملك سمة النجابة والخير للبلاد فلما بلغ رشده رأوا أن حاله كحال أبيه فى عدم الثبات وضعف العقل وقلة الادراك والتمييز فكانت بولخاريه تجهد نفسها فى تهذيب أخلاقه واصلاح شأنه وتقويم أوده لعله يقوم بأمر الملك ويحسن تدبير الدولة فلم تنجح وكانت ذات عدل تكره الجور والعسف فأسكنت بعزمها جميع الفتن وأزالت كافة المحن فاطمأنت بها نفوس الرعية وانتظم حال الملك وانقطعت المنازعات واستقامت الامور فتعلقت بها قلوب الرعية وأحبوها حبا جما ‌• ولم يشغلها عن الحوادث الخارجية الا اغارة طائفة الهونية من قبائل التتار وزحفهم من بلاد المجار على ممالك القسطنطينية تحت راية ملكهم آطيلا فصالحتهم بولخاريه بتقرير خراج حتى تمكنت من ردهم وابعادهم عن البلاد ‌• وكان من همها تقدم العلوم والفنون والصنائع وكانت تحسن اللغة اليونانية واللاطينية فشغلت أخاها بتلقى العلوم والمعارف والفنون لتكون الحاكمة عليه زمنا طويلا وجلبت اليه كبار العلماء ومشاهير الحكماء ممن لهم شهرة فى العلوم وكان ارقاديوس مع قلة فطنته مهيبا سالكا سبل الجد بعيدا عن المزاح حافظا لناموسه قابلا للتعليم وان لم يكن مستجمعا لصفات الرجال الراسخين فى صفات الكمال فكان ممدوحا بالعفة والقناعة والرفق والرأفة والحلم غير أن هذه الصفات لم تكن فيه غريزية بل اكتسابية فكان فى حياته كالطفل تحيط به الطواشية والخادمات من كل جانب وكان شغله فى كل يوم النقش والرسم والصيد وماشا كل ذلك وقد لقب بالخطاط لحسن خطه ولطافته وكان فاتر الهمة فى قضاء المصالح العمومية ميالا للكسل والدعة حتى كانوا اذا أحضروا اليه الاوراق ليوقع عليها أهمل قراءتها ووقع عليها بدون التفات ولا اكتراث فدست له أخته بولخاريه يوما خطابا عن لسانه وأظهرت أن فيه مصلحة للبلاد مضمونه ‌• انى خلعت نفسى عن المملكة وخلعت بيعتى من أعناق أهل البلاد ‌• فوقع عليه ولم يقرأه ثم أطلعته عليه ومزقته أمامه ليقف على عيبه ويحاذر فى أموره ‌• وكان ابتداء ملكه يشير بنصر الروم ونجاحهم فانه غلب الهونية فى بلاد الروم ايلى وقهر ملكهم هولدين وضيق عليهم تضييقا كثيرا وحصرهم وقد كان هولدين المذكور أقسم أن لايدع الفتوحات ولايكف عن الغزو الا اذا بلغت فتوحاته مغرب الشمس فحنثه القيصر فى يمينه اذ أوقفه وطرده من روم ايلى فجاز نهر طونه وهرب راجعا لبلاده وقد هلك جميع عسكره ومزق فى هذه الواقعة كل ممزق

فلما رأت بوشارية أن أخاها قد نجح فى أموره واستحق الزواج بحثت له عن زوجة مشهورة بالفضل لا بالنسب وكان فى مدينة أثينا فيلسوف اسمه ديونقوس وله ابنة من أجمل بنات اليونان اسمها أطنايس ذات علم وفصاحة كأبيها وتمتاز فى الخطابة بقوة البرهان وكان لابيها من الذكور ولدان فتبرع لهما بجميع أمواله ولم يورثها شيأ اكتفاء بجمالها ولكنها بعد موت أبيها المذكور وضيق ذات يدها طالبت أخويها بحقوقها وشكت للملكة بوشارية فلما رأتها تعجبت من لطفها وحسنها ووفور عقلها ووجدتها أهلا لان تكون زوجة لاخيها فلما بلغ الملك أمرها ولع برؤيتها فأتى متنكرا عند أخته فوقع بصره عليها وسمع خطابها حتى أخذت بمجامع قلبه فعقد عليها وعمدها وسميت من هذا اليوم (أودقسيه) فلما علم أخواها بأنها صارت زوجة للملك خشيا صولتها فاختفيا فبحثت عنهما وأرسلت من كشف عن حالهما فوجدا وتمثلا بين يديها فلاقتهما بالبشاشة والطلاقة وقلدتهما المناصب العالية وكانت عاقلة واسعة الفكر مواظبة على ماتعوّدت عليه أيام فراغها من مطالعة ودراسة فنظمت مافى التوراة وألفت تآليف جيدية مفيدة جدا وسارت الى بيت المقدس فحجت وذهبت الى أنطاكية وخطبت بمجلسها خطبة بليغة أثرت مواعظها ونصائحها فى القلوب والنفوس حتى أعجب كبار الاساقفة بمقالها وأصحبت معها من بيت المقدس الى القسطنطينية ماتبرك به من آثار الصلحاء والقديسين

وتاقت نفس أودقسيه بعد ذلك أن يكون لها الامر والنهى على زوجها وعلى الدولة بتمامها وقد كان الحل والعقد وتدبير الامور فى يد الملكة بوشارية كما تقدم القول فلم ترض بالتنازل لادوقسية وظلت ممسكة زمام الحكومة فوقع بأسباب ذلك الفشل والخلف بين الاثنتين وترتب على اختلافهما اختلاف الامراء والاحزاب فانقسم الديوان الملوكى الى حزبين أحدهما متعصب لزوجة الملك والآخر منتصر لاخته فغلب حزب الاخت على حزب الزوجة وتم لها النصر وصار لها تمام النفوذ فاتهمت الملكة مع أخصائها المتعصبين معها من أهل الديوان بالعشق والميل عن العفة وأغرت الملك بنفيهم وتغريبهم الى أقصى البلاد فنفوا وغضب على زوجته وأساء الظن بها فاستأذنت بان تخرج من قصر الملك وتعتكف فى بيت المقدس فأذن لها فذهبت واعتكفت هنالك فلم يتركها أخصامها وشأنها بل كانوا لها بالمرصاد فاتهموها أيضا بالزنا مع اثنين من القسيسين فرسم الملك بقتلهما فقتلا فغضبت وسعت فى قتل قاتلهما حيث كانت بريئة من هذه التهمة فتقويت التهمة بذلك وبلغت مبلغ التحقيق • ومكثت ست عشرة سنة معتكفة منزوية فى زوايا الاهمال وهى تشكو ماد همها من الظلم والجور بلاذنب ولا خطيئة

وقامت على طيودوسيس فى هذا الحين قائمة الحرب من كل الجهات منها الحرب مع بهرام جور بن يزدجرد الاثيم والحرب مع آطيلا ملك قبائل الهونية • قال بعض أهل التاريخ وقد كان من أمر بهرام جور المذكور أن أباه سلمه الى النعمان بن امرئ القيس أحد ملوك اليمن

من العرب وهو صاحب الخورنق ليربيه ويعلمه الفروسية فلما مات أبوه وكان هو غائبا تولى الملك كسرى خسرويه من ولد أزدشير فلما بلغ ذلك بهرام جور انتصر بالنعمان ووقع بين بهرام وخصمه مراسلات كثيرة ثم اصطلحوا على أن يجعل تاج الملك بين أسدين شبلين فمن تناوله منهما فهو الملك فوثب بهرام على الشبلين فقتلهما ولبس التاج واستقر على سرير الملك وكان عاقلا شديد البطش على أعدائه وكان يتقن نظم الشعر بالعربية

وكانت مدينة القسطنطينية فى تهديد دائم من قبائل الهونية فكانوا لا ينكفون عن الاغارة على بلادها وتكدير صفو راحتها وقيامهم على قدم الارهاب وكان رئيس هذه القبائل يومئذ أميرا اسمه روجيلاس وكان مقره ببلاد الالمان وكان يبغض طيودوسيس ويتوعده بالاغارة وتخريب ممالكه فخافه طيودوسيس جدا وبعث اليه سفراء يسترضونه ويصدونه عن شن الغارة فلما وصل السفراء وجدوه قد مات وورث الرياسة بعده اثنان من بنى عمه هما آطيلا وابليد فلبثت السفارة أياما تطلب الاذن بمقابلتهما فقابلاهم وهما على ظهور الخيل كعادة ملوك هذه القبائل فلما تمثل السفراء بين أيديهما اشترطا عليهم زيادة الجزية المقررة التى كانت تدفعها القسطنطينية من قبل للهونية وأن يتنازل لهما القيصر عن أحد الميدات الواقعة على نهر طونة لتكون خالصة حرة لا سيادة للرومانيين عليها وأن لا تعقد دولة القسطنطينية أىّ معاهدة مع أحد من أعداء الهونية فرضى القيصر بهذه الشروط مع ماهى عليه من المذلة والحيف بناموس الدولة قالوا فكانت هذه أوّل مرة رأى فيها الرومانيون آطيلا المذكور وقد كان بلغهم قبل الاجتماع به أنه فظ غليظ جبار عنيد مولع بالحروب يحسن سياسة الجنود ورياستهم فلما تأملوه وجدوه على صورة أهالى القلموق الذين يقال لهم الكيماكية عريض الرأس أصفر اللون أفطس الانف قصير القامة مربع القد يكاد الشرر يقدح من عينيه ولم يمض على آطيلا وأخيه فى تدبير أمور قبائل الهونية الا زمن يسير حتى قام آطيلا على أخيه وقتله واستبدّ بالحكم فانقادت له جميع قبائل الهونية وغيرها من القبائل التترية ثم تغلب بعد ذلك على سائر القبائل الجرمانية المعروفين بالالمان واستولى على كافة الامم الشمالية كالاسوج والنروج والدينمارقة وتهيبت منه أمم الغلية والرغونية القاطنون فى بلاد الفرنسيس وزحف على هذه البلاد بجيش جرار وتوغل فيها حتى وصل الى مدينة أورليان فالتحد ابطيوس قائد عساكر رومة ومروبه ملك الفرنسيس وطيودوبراق ملك القوطية معا وحملوا عليه حملة رجل واحد فقهروه وأخرجوه عنوة وأوقعوا به بقرب شالون من بلاد شامبانيا مات فيها ربع جنوده ورجع القهقرى الى بلاد ايطاليا ومع ذلك فقد انبسطت يده على جميع الامم المتبربرة حتى تملك جهة نهرى الاتل وطونة وبحر الشمال ونهر الرين وجبال البه بايطاليا وزادت هيبته فى جميع الممالك وكانوا يعتقدون أنه صاحب خروج وأن له معرفة بالسحر والشعبذة وأنه متى قصد مملكة لا يصده عن التغلب



عليها أحد * قال أصحاب التاريخ وكان اذا قدم مملكة من الممالك شرقا أو غربا سجدت ملوكها بين يديه حتى تصل تيجانهم الى الارض وكانوا يفتخرون بحضورهم فى مجلس مشورته ويحسبون أنفسهم من وزرائه وأمرائه فكان الرؤساء والامراء من جميع القبائل يحدقون بقصره ويتباهون بالمحافظة على ذاته الملوكية وكانت قبائلهم وطوائفهم منظومة فى سلك جنوده داخلة تحت أعلامه وبنوده وكانت عساكره نحو ثلثمائة ألف مقاتل وغزا فارس وأغار على بلادهم فامتدت غزواته فى المشرق حتى وصلت الى الشام ولكنها كانت مجرد اغارات لا فتوحات وكان قد وقع بينه وبين طيودوسيس الملك عقد مصالحة على قاعدة تقررت بينهما كما تقدم فعاد وادّعى أن العهد انتقض بعدم وفاء القسطنطينية بشروطه وزعم الهونية أن الروم سرقوا منهم فى احدى موانى طونة الحرة خزينة أحد أمرائهم وطالبوا القيصر بهذا القدر من المال وأن يسلم لهم أحد أساقفة النصارى ليصنعوا فيه كيف شاؤا فامتنع ديوان القسطنطينية من الاجابة الى شئ من ذلك فأشهروا الحرب وأغاروا على بلاد الروم ودخلوا المدن القريبة من القسطنطينية وسلبوا فى طريقهم ونهبوا وقتلوا وأسروا وهدموا القلاع والقصور وسبوا النساء والاولاد ودمروا المدن التى بين البحر الاسود وخليج البنادقة فكانت جميع هذه النكبات لا تبعث همة طيودوسيس الملك على التحرك من ديوانه والخروج مع عساكره للذب والدفاع لخوفه وجبنه بل ناط أمراءه وقواده بذلك فكانوا اذ ذاك لا يستطيعون جمع العساكر ولا يحسنون تنظيم الجنود ولا ترتيب الصفوف للقتال فكانت هزيمتهم متتابعة وقد انهزموا فى واقعة بقرب نهر طونة وفى أخرى بسفح جبال البلقان وفى أخرى بسواحل روم ايلى وكانت هزيمة عظيمة جدا دمرت عساكرهم تدميرا فلم تبق منهم بقية

وعاث آطيلا فى أرض مقدونيا وأهلك الحرث والنسل وأحرق نحو سبعين مدينة وجال فى أرض روم ايلى حتى وصل الى رساتيق القسطنطينية وضواحيها فلم يمنعه عن دخول المدينة الا أسوارها لانه كان لا يحسن الحرب الا فى السهول والفضاء وكان يجهل محاصرة المدن والقلاع وكانت محاربته تعد من العجائب عادة يعقبها خراب البلاد وهلاك العباد ولذلك تهيبت منه جميع أمم أوروبا وآسية وكان اذا انتصر على قبيلة أو أمة أخرى أباح لقومه أسر أهلها وأدخل فى عسكره كل من كان يصلح للخدمة العسكرية وضرب الرق على الشيوخ والنساء اذا لم يقتلوهم بلا شفقة ولا رحمة وكان الهونية اذا كثرت عندهم الاسرى وزاحموهم على الزاد والراحلة ذبحوا القدر الزائد ومع ذلك كله فقد اتحد بعسكر الهونية كثير من الرومانيين وامتزجوا بهم امتزاج الراح بالماء

وبعد توالى انهزام أصحاب طيودوسيس الملك بات ولم يبق عنده من العساكر ما يدفع به عدوه وكان أضعف من أن يحيى قلوب رعيته وينعش نفوسهم ويقوى عزمهم ويحرضهم على قتال الاعداء ويجعلهم جميعا عسكرا يحامى عن الوطن فلما لم يستطع أن يفعل ذلك

اعتكف

اعتكف فى قصره كالراهب ولم يخرج منه الا للكنيسة ثم عقد بعد ذلك مع آطيلا صلحا يشين بشرفه وشرف دولته وترك لدولة الهونية الارض التى فى جنوب نهر الطونة من مدينة بلغراد الى داخل ترخالة من بلاد روم ايلى وتعهد بأن يدفع فى كل سنة ألفين ومائتى رطل من الذهب وستة آلاف معجلة وذلك غير نفقات الحرب وكان قد ذهب ما فى أيدى الاهالى واشتدت بهم الفاقة لاسيما من فعال جباة الاموال والعوائد والمكوس فلذلك تأخر دفع هذه المغارم عن مواعيدها وتعذر على طيودوسيس دفعها

وكان مابقى من العساكر الرومانية أيضا قد داخله الجبن ولازمه الفتور وارتبك الحال على أهل الديوان فانعكست أحوال الدولة وتشتت أمورها وذهب رونقها ولم تقم لهم من هذا الحين قائمة الا أن أهالى مدينة (أسومدوس) من أعمال روم ايلى دبت فيهم النخوة الجاهلية وتمسكوا بعروة الاتحاد الوثقى ولم يرضوا بالدخول تحت شروط هذا الصلح وأبوا أن يسلموا للهونية الا بحرب ثم خرجوا ووقف جمعهم خارج الاسوار وطلبوا النزال فاجتمع عليهم كثير من العساكر الرومانية الفارين من ساحة الحرب ومن الاسرى الهاربين فعظم جمعهم وفخم جيشهم والتقى بالهونية وأوقع بهم فى واقعة هائلة ولا هول القيامة فهزمهم شر هزيمة وطردهم عن البلاد فشكا آطيلا ملك الهونية للقيصر من خروج أهالى هذه المدينة وطلب منه اكراههم على الانقياد وتسليم المدينة على أصول ما هو فى العقد فأمرهم القيصر بالوفاء فلم ينقادوا وأظهروا الجفاء وعصوه وأجابوا أن الصلح المبنى على الذل والعار والتصغير والصغار لايعد من القوانين الواجبة الامتثال فتركوهم ولم يتعرضوا لهم بعد ذلك بمكروه

وكان من شروط هذا الصلح أن طيودوسيس التزم لآطيلا ملك الهونية أن يسلمه كل من فر عنده من الألمان والغوطية والطوائف التترية وكل من هرب من جيشه ودخل فى خدمة جيش طيودوسيس فلم يستطع الروم أن ينجزوا هذا الشرط لانه يترتب عليه هلاك كثير من ضباط الهونية الكبار الذين أبلوا بلاء حسنا فى حروب الروم وساعدوهم على النصرة على الهونية وامتازوا فى ميادين الحرب بالبسالة والاقدام فألح آطيلا بطلبهم قياما بالعهد فأرسل اليه طيودوسيس سفراء يستعطفونه ويستميلونه الى الاغضاء ودس لبعض وزراء آطيلا ورشاهم بالمال ليقتلوا آطيلا المذكور فلما وصل السفراء الى آطيلا قابلهم بغاية الازدراء والتحقير وأذلهم غاية الاذلال ووضع مقامهم كما كانت الروم تفعل بسفراء الملوك الاجنبية أيام عزهم وأبقاهم أياما خارجا عن مقر الحكومة قبل أن يمثلوا بين يديه حتى أدركوا دلائل الاهانة ودواعى هذا التذليل وبعد عدة أيام دعاهم فساروا اليه يشقون صفوف العساكر حتى وصلوا ديوانه فوجدوه لابسا ملابس الآحادمن التتر ولم يكن سريره الملكى الاكرسيا بسيطا فسجدوا أمامه وخضعوا له وقبلوا الارض وعرضوا عليه رسالتهم وخاطبوه بألفاظ



العظمة والكبرياء على العادة الرومية القديمة فلم يجبهم الا بالفاظ الوعيد والتهديد وقال لهم وهو مغضب أتظنون أنى اذا أردت النكاية هل أبق لكم مدينة من مدنكم على وجه البسيطة فاذا أردتم لمدنكم التدمير ولسلطانكم السقوط فافعلوا ماتريدون فالانوا له القول وتلطفوا معه فى الخطاب فانطبع ورق فتعشموا الخير ودعاهم الى مائدته فاستبشروا بذلك قيل ومن صدف الاتفاق أنه كان بديوانه أيضا يومئذ سفراء من رومة فأجلس سفراء الدولتين فى المجلس بعد أمراء الهونية تحقيرا لهم وتصغيرا وكان الندماء مدة تناول الطعام يطوفون بالشراب على عادة ملوك البلاد الشمالية وكان أصناف اللاعبين وأرباب الهزل والمزاح يكثرون من ألعابهم وحضر أيضا أسرى البلاد المغربية أمام أهل المائدة للمصارعة وعساكر التتار تمثل شكل محاربة والاغانى تتغنى بحروب طوائف الهونية وانتصار ملكهم آطيلا وتغلبه على سائر البلاد وكانت نساء الهونية جالسات على المائدة أيضا مع الرجال يتكلمن مع أهل المشرق بدون استحياء ولا احتفال واختلطن معهم ولا اختلاط الرجال مع الرجال

ثم أجاز لسفراء طيودوسيس بالانصراف وبعث من قبله سفراء الى القسطنطينية كلهم مميزون بعلو المناصب والمراتب وعليهم رئيس اسمه ايديقون وكان فى هذا الحين قد انكسرت شوكة المملكة بولخارية أخت طيودوسيس وضعف نفوذها فى الديوان وصار الامر والنهى بيد خروساف الخصى وكان الملك فى قبضة يده فاتحد خروساف المذكور مع بعض رجال الديوان والمقدم ويجاوس على أن يرشوا ايديقون رئيس السفارة المذكورة بالمال كى يثير فتنة على آطيلا الملك ويقتله ويخلص الروم من شره وأخبر طيودوسيس بما اتفقوا عليه فوافقهم رغما عما جبلت عليه طباعه من المسالمة وبغض الباطل وأهله فعلم آطيلا الملك بمكرهم ولكنه كان أكرم نفسا حيث وقعوا فى يده وعفا عنهم وأعادهم الى القسطنطينية وصفح عن طيودوسيس ليريه أنه أشرف نفسا وأعلى همة وذلك أنه لما انكشف سر التواطئ وقومه واتضح أمرهم بعث طيودوسيس المقدم ديجاوس الى آطيلا ومعه ثلثمائة رطل ذهب فدية المتعصبين على قتل الملك ولما كان ديجاوس المذكور ممن اتفق مع التواطئ على هذه الفعلة قبض عليه آطيلا وسأله فى شأن ذلك وقرره فاعترف فعفا عنه وبعث سفارة أخرى الى القسطنطينية كان فيها الامير اسلار وآخر اسمه أغسطة فلما مثلا بين يدى طيودوسيس تكلم اسلار يقول انى مأمور من طرف ملك الهونية أن أقول لكم ان القيصر طيودوسيس والملك آطيلا كلاهما من سلالة ماجدة ذات نسب رفيع وحسب منيع غير أن آطيلا قد أظهر مقام أجداده فى حروبه وغزواته وأبان مجدهم فى صولاته وغاراته وأثبت فخره بدليل العمل أما طيودوسيس فانه بطيشه وعدم تبصره فى عواقب الامور قد أبان أنه ليس أهلا لحيازة شرفه ونبله وانه لم يخلف آباءه الكرام بل بخس بنفسه وأخل بناموسه وناموس أهل مملكته حيث رضى بالذل والهوان وأن يدفع لملك الهونية جزية توجب الصغار فكأنه بدفعها قد أشهد على نفسه أنه عبد رق لملك الهونية الذى رفع الدهر مقداره وأيد مجده وفخاره فكان يجب على القيصر حينئذ أن يسلك أمام أعين سيده مسلك آحاد الناس من

الرعية

الرعية ويتمسك بالصداقة وحق العبودية ويظهر لسيده (آطيلا) كمال الطاعة والاحترام ولايليق به الكفران بنعمة وليه ويعمل على قتله فانه سار بهذا الفعل الذميم سير عبد السوء اللئيم

وكان طيودوسيس عند سماعه هذا الكلام جالسا على سرير جده طيودوسيس الاكبر المصوغ من الذهب صامتا ولم يكن قبل ذلك قد طرق أذنيه غير المدح والاطراء من قومه فلما أسمعه اسلار كبير السفارة هذا الكلام ثبت نفسه وقوى جاشه وأفرغ أذنه للسماع مع ما كان فيه من الخجل ومزيد الوجل ولم يظهر سآمة ولاملالة ثم دمم بتسليم وزيره خروساف الطواشى لارباب السفارة وانتخب عدة من أمراء دولته منهم ليونيوس خازندار المملكة وانطنيوس رئيس جند الحرس القيصرى وأرسلهم سفارة من عنده الى الملك آطيلا لتسكين غضبه واستجلاب رضاه * قيل وكان لم يزل فى الدولة المشرقية رمق الفخار وبقية من المجد القديم فكان لبعثة هذه السفارة وقع حسن عند ملك الهونية اذرأى فى ذلك غاية التعظيم له فسعى اليهم وسامح القيصر وعفا عنه وعن الطواشى والمقدم وجميع من اشترك فى هذه الفعلة وأحسن على طيودوسيس برد عدة مدن مما كان قد أخذه منه وفك كثيرا من الاسرى الرومانيين عدا ما كان قد طلبه من الهاربين من عساكره الى العسكر القيصرى وجدد عقد الصلح ولكنه طلب كثيرا من المال فدية عن قتل الطواشى لاتقدر الدولة على دفعه يومئذ * واتفق بعد عقد شروط هذا الصلح أن خرج طيودوسيس على جواد للنزهة فكبا به الجواد فسقط على الارض فانكسرت فقار ظهره وفارق الدنيا وذلك سنة أربع وستين وأربعمائة للميلاد أى سنة اثنتين وسبعين ومائة قبل الهجرة وله من العمر ثلاث وخمسون سنة فكانت مدة حكمه نحو ست وأربعين سنة قال بعض الكتاب وفى السنة الخامسة عشرة من ملكه كان ايقاظ أصحاب الكهف من رقدتهم واختلف فى حكايتهم المفسرون وأرباب السير والاخبار وتلخيص ذلك * أن بعض القياصرة الرومانيين شدد وطأة الجور على رعاياه واضطرهم الى عبادة الاوثان والذبح للطواغيت وكان فى الروم كثير من الناس على دين المسيح ومن أولئك القياصرة دوقيوس الملك وهو المسمى أيضا دقليانوس زاد فى العتو والشدة على النصارى وأمر بعبادة الاوثان وقتل كل من خالفه وكان ينزل بلاد الروم ليكره الناس على ذلك فنزل على مدينة افسس التى هى الآن اياصولوق أو مدينة منبج ببلاد أناطلى بقصد اكراه أهلها على ذلك فكبر هذا الامر على أهل الايمان فهربوا منه فى كل جهة فجعل الوثنيون من أهل المدينة يبحثون عن المختفين ليدلوا عليهم دقليانوس فيخيرهم بين القتل والذبح للطواغيت فمن اختار عبادة الله قتله ومن أطاعه فى ذلك تركه

فلما رأى ذلك الفتية الثمانية وكانوا من أبناء أشراف الروم وعظمائهم حزنوا حزنا شديدا واشتغلوا بالعبادة والتضرع الى الله تعالى فبينماهم يصلون فى مكان لهم اذ دخل عليهم

أعوان الملك فوجدوهم سجدا يتضرعون فرفعوا أمرهم الى دقليانوس فأمر باحضارهم فحضروا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا فقال لهم مابالكم لاتقتدون بغيركم من حيث الذبح للآلهة فاما أن تذبحوا لآلهتنا كما يذبح الناس واما أن أقتلكم فقال له كبيرهم مكسلمينا أما الطواغيت فلا نعبدها فاصنع مابدا لك وقال بقية الفتية مثل ذلك فجردهم من ملابسهم ومن حلى الذهب والفضة وقال انى أراكم شبابا فلا أحب أن أهلككم قبل أن أجعل لكم أجلا تراجعون فيه عقولكم

وانطلق دقليانوس بعد ذلك الى مدينة أخرى قريبة لبعض أمور فلما علم الفتية بخروجه وأنه ان رجع يذكرهم فأتمروا بينهم أن يأخذ كل رجل منهم نفقة من بيت أبيه يتصدق منها ثم يتزود بالباقى ثم ينطلقون الى كهف قريب بالمدينة يقال له مخلوس يعتكفون فيه لعبادة الله حتى اذا جاء دقليانوس الملك أتوه ليصنع بهم ماشاء ففعلوا ذلك وانطلقوا بنفقتهم واتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه ليس لهم عمل الا العبادة وجعلوا نفقتهم الى فتى منهم اسمه تمليخا كان من أجلهم وأجلدهم فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرا ويذهب متنكرا ويتجسس لهم الخبر فلبثوا على ذلك مدة

وقدم دقليانوس الملك المدينة فأمر بالمسيحيين فذبحوا للطواغيت وكان تمليخا يومئذ فى المدينة فرجع مسرعا الى أصحابه وهو يبكى وأخبرهم بالخبر فحصل لهم الفزع من ذلك ووقعوا سجدا يتضرعون و يتعوذون بالله من الفتنة وكان تمليخا قد جاءهم بيسير من الطعام فقال لهم ارفعوا رؤسكم وكلوا وتوكلوا على الله تعالى ففعلوا وكان ذلك عند غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون فبينماهم على هذه الحال اذ ضرب الله على آذانهم فى الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد وهو باب الكهف فأصابه ماأصابهم

فلما كان من الغد تفقدهم دقليانوس والتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض أصحابه قد ساءنى هؤلاء الفتية الذين ذهبوا ولو جاؤا فى الاجل المسمى وعبدوا الهى ما كنت لأجهل على أحد منهم ثم أرسل الى آبائهم وتوعدهم بالقتل فاخبروه بانهم انطلقوا الى الكهف فخلى سبيلهم فالقى الله تعالى فى نفس هذا القيصر أن يأمر بسد الكهف عليهم ليموتوا جوعا وأراد الله أن يجعلهم آية لمن بعدهم وأن يبين للناس أن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور. وكان فى بيت الملك دقليانوس رجلان مؤمنان اسم أحدهما مندروس والثانى دوماس فأتمرا أن يكتبا أسماء الفتية وأنسابهم وخبرهم فى لوح من رصاص ويجعلاه فى تابوت من نحاس ثم يجعلا التابوت فى البنيان قالا لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين فيعلم من يفتح عليهم خبرهم

وبقى دقليانوس مابقى ثم مات هو وقومه ومضت عدة أجيال وخلفه عدة من القياصرة الى أن ملك على أهل تلك المدينة ملك صالح اسمه طيودوسيس قيصر الثانى وكان متمسكا

بدين

بدين المسيح فنى أيامـه ألقى الله فى نفس رجل من أهل ذلك الجبل الذى فيـه الكهف أن يبنى فيه حظيرة لغنمه فاستأجر عاملين فجعـلا ينزعان الاحجـار التى على باب الكهف ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى فرغ ماعلى فم الكهف من السدّ وفتح عليهم باب الكهف أذن الله أن يستيقظوا من رقدتهم ويجلسوا فى الكهف فجلسوا فرحين مستبشرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنهم استيقظوا من ساعتهم التى يستيقظون فيها على عادتهم اذا أصبحوا من ليلتهم التى يبيتون فيها ثم صلوا صلاتهم على عادتهم ولم يروا على وجوههم ولا ألوانهم شيئا يكرهونه بل هم كهيئتهم حين رقدوا وهم يظنون أن ملكهم هو دقليانوس

فلما فرغوا من صلاتهـم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم ائتنا يا أخى بالذى قاله النـاس فى شأننا عشية أمس عند الجبار دقليانوس ظنا منهـم أنهم رقدوا كعادتهم وانما خيل لهـم أنهم طالت مدة نومهم عن العادة ثم قال مكسلمينا لتمليخا انطلق الى المدينة لتسمع مايقال فى شأننا بها هذا اليوم وما الذى نذكر به عنـد دقليانوس وتلطف ولا تشعر بنا أحدا وابتع لنا طعاما وائتنا به فانه قد نالنا الجوع وزدنا على الطعام الذى جئتنا به على العادة فانه كان قليلا وقد أصبحنا جياعا فأخـذ تمليخا ورقا من نفقتهـم التى كانت معهـم مما ضرب بطابع دقليانوس الملك وانطلق خارج باب الكهف فلما مر بالباب رأى الحجارة بعيدة عنه فعجب منها ولم يبال بها حـتى أتى باب المدينـة متنكـرا لئـلا يراه أحـد من أهلهـا فيعرفه فلما رأى تمليخا باب المدينة رفع رأسه فرأى فوق ظهر الباب علامة الصليب فجعـل ينظر اليها متعجبا وتلفت يمينا وشمالا فلم ير أحـدا ممن يعرفه فـترك ذلك الباب وتحول الى باب آخر فرأى مثل ذلك فخيل له أن المدينة ليست بالتى كان يعرفها ثم رجع الى الباب الذى أتى منه فجعل يتعجب منه ومن نفسـه ويقول ياليت شعرى أما هـذه عشية أمس وقد كان المؤمنون بالمسيح يخفون هـذه العـلامة ويستخفون بها ثم دخـل المدينة فجعل يمشى فى سوقها فيسمع كـثيرا يحلفون بالله ثم بالمسيح فزاده ذلك عجبا ورأى كأنه حيران ولقى فتى من أهل المدينة فقال ما اسم هذه المدينة فقـال افسس فدنا من الذين يبيعون الطعام فأخرج الورق التى كانت معـه فأعطاها رجلا منهم وقال له ياعبـد الله بعنى بهـذه الورق طعاما فأخـذها الرجـل ونظر الى نقشها وعجب منها ثم طرحها الى آخر فنظر اليها وهكذا فجعلوا يتطارحونها بينهم من رجـل الى رجل وهم يتعجبون منها ثم جعلوا يتسارون ويقول بعضهم لبعض ان هذا الرجل قد أصاب كنزا فلما رآهم يتسارون من أجـله ظن أنهم فطنوا به وعرفوه وأنهم يريدون أن يحملوه الى دقليانوس الجبار فارتعدت مفاصلـه وقال لهم اقضونى حاجتى فقـد أخذتم ورقى والا فأمسكوا طعامكم فلا حاجـة لى به فقالوا من أنت يافتى وماشأنك والله لقـد وجـدت كـنزا من كنوز الأولين وتريد أن تخفيه عنا فانطلق معنا وشاركنا فيه والا أتينا بك الى السلطان فنسلمك اليـه فلما سمع قولهم تعجب فى نفســه وصار لايدرى مايقول فلما رأوه لايتكلم طوقوه بكسائه فى عنقه



وجعلوا يقودونه فى سكك المدينة مكبلا فاجتمع عليه أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم وهم يحدقون به ثم اختطفوه وانطلقوا به الى رؤساء المدينة • وكان للمدينة رئيسان صالحان يدبران أمرها اسم أحدهما أرسوس والثانى اصطفوس فلما انطلق به اليهما ظن تمليخا أنهم انما انطلقوا به الى دقليانوس فجعل يلتفت يمينا وشمالا والناس يسخرون به فلما تمثل بين يدى أرسوس واصطفوس ورأى أنه لم يذهب به الى دقليانوس كما كان يظن أفاق لنفسه فأخذ كل من أرسوس واصطفوس الورق ونظرا اليها وعجبا منها ثم قال له أحدهما أين يا فتى الكنز الذى وجدته ان هذا الورق يشهد عليك أنك قد وجدت كنزا فقال تمليخا ما وجدت كنزا ولكن هذا ورق آبائى من نقش هذه المدينة ووالله ما أدرى ما شأنى ولا ماذا أقول لكم فقال أحدهما من أنت فقال تمليخا أنا من أهل هذه المدينة فقال له من أبوك ومن يعرفك بها فأنبأهم باسم أبيه فلم يجدوا أحدا يعرفه ولا أباه فقال له أحدهما أنت رجل مفتر لا تخبر بالحق فنكس تمليخا رأسه الى الارض فمنهم من قال انه رجل مجنون ومنهم من قال انه يتغابى ليتخلص منكم فنظر اليه أحد الرئيسين نظرا شديدا وقال أتظن أنا نرسلك ونصدقك فى قولك ان هذا مال أبيك ونقش هذا الورق قديم وأنت غلام شاب تظن أنك تسخر بنا ونحن ولاة المدينة وخزائنها بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار فلابد من أن تعذب عذابا شديدا أو توثق حتى تقر بالكنز الذى وجدته • فقال تمليخا أنبئونى عن شئ أسألكم عنه فان فعلتم صدقتكم ما عندى فقالوا سل لا نكتمك شيأ قال ما فعل الملك دقليانوس فقالوا لا نعرف اليوم على وجه الارض ملكا بهذا الاسم وانما كان وهلك من دهر طويل فقال تمليخا فوالله لم يصدقنى أحد من الناس بما أقول لقد كنا فتية الملك دقليانوس وأكرهنا على عبادة الاوثان والذبح للطواغيت فهربنا من عشية أمس فى الكهف فنمنا فلما انتبهنا خرجت لاشترى لاصحابى طعاما وأتجسس لهم الخبر فاذا أنا كما ترون فانطلقوا معى الى الكهف أريكم أصحابى • فلما سمع أرسوس واصطفوس قوله قالا يا قوم لعل هذه آية من آيات الله سبحانه جعلها لكم على يدى هذا الفتى فانطلقوا بنا معه ليرينا أصحابه فانطلق معه أرسوس واصطفوس وانطلق معهما أهل المدينة نحو أصحاب الكهف لينظروهم • ولما رأى أصحاب الكهف أن تمليخا احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن الوقت الذى كان يأتيهم فيه ظنوا أنه قد أخذ وذهب به الى دقليانوس فبينماهم يظنون ذلك ويتخوفونه اذ سمعوا الاصوات وصهيل الخيل فظنوا أن القادمين هم رسل دقليانوس بعثهم اليهم ليأتوا بهم فقاموا حين سمعوا ذلك وقالوا انطلقوا بنا الى أخينا تمليخا فانه الآن بين يدى الجبار دقليانوس ينتظر حتى نأتيه مع الرسل فبينماهم على هذه الحال اذ وفد عليهم ارسوس وأصحابه ووقفوا على باب الكهف وقد سبقهم تمليخا ليطمئنهم فدخل عليهم وهو يبكى فلما رأوه يبكى بكوا معه ثم سألوه عن شأنه فاخبرهم بخبره فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نياما باذن الله ذلك الزمن وانما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور

ثم دخل على أثر تمليخا أرموس فرأى عندهم تابوتا من نحاس مختوما بخاتم فضة فقام بباب الكهف ودعا رجلا من عظماء أهل المدينة وفتح التابوت فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبا عليهما أسماء الفتية وأنهم هربوا من ملكهم دقليانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا فى هذا الكهف وان دقليانوس لما أخبر بمكانهم أمر بسد الكهف عليهم بالحجارة وانا كتبنا شأنهم ليعلمه من بعدهم ان عثر عليهم * فلما قرأوه عجبوا جدا ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا ووجوههم مشرقة ولم تبل ثيابهم فخر ارساروس ومن معه سجدا لله تعالى فأنبأهم الفتيــة عن الذى لقوه من ملكهم دقليانوس فبعث ارسوس وأصحابه بريدا الى الملك طيودوسيس أن عجل بالحضور لعلك تنظر آية فتية بعثهم الله تعالى وكان قد توفاهم منذ دهر طويل فلما اتصل الخبر بالملك قام لساعته ومعه أهل المدينة حتى صعدوا نحو الكهف وأتوه فلما رأى الفتيــة طيودوسيس الملك فرحوا به وخروا سجدا على وجوههم وقام طيودوسيس أمامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الارض ثم قالوا له نستودعك الله ونقرئك السلام حفظك الله وأمد فى أيام ملكك وبينما الملك قائم اذ رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أرواحهم فقام الملك وجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل لكل واحد تابوت من ذهب فلما أمسى المساء ونام أتوه فى المنام وقالوا له لم نخلق من ذهب ولا من فضة ولكن خلقنا من التراب والى التراب نعود فاتركنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله فأمر الملك حينئذ بتابوت من ساج جعلوا فيه وأمر أن يجعل على باب الكهف مسجد يصلى فيه وجعل لهم عيدا كل سنة فهذا حديث أهل الكهف على تعدد رواياته وذلك من نومتهم الاولى فى أيام الملك دقليانوس الى يقظتهم فى أيام الملك طيودوسيس وهو المسمى تاودوسيوس أيضا وقد اشتهرت أيام طيودوسيس هذا بهذه الحادثة التى هى عبرة من العبر

وفى أيامه مات ثاوفيلوس بطرك الاسكندرية فى ثامن عشر بابه وقد أقام سبعا وعشرين سنة وكان صاحب حمية وشدة فى الدين قد خرجت به عن جادة الاعتدال فخرب هيا كل الوثنيين بديار مصر وكسر أصنامهم كما تقدم بيانه ونفى فى أيامه يوحنا فم الذهب واشتد الملك ارقاديوس على الاريوسيين وضيق عليهم وأمر بأخذ الكنائس بعد أن حكموها نحو أربعين سنة وأسقط من جيشه من كان اريوسيا وطرد من كان فى دواوينه وخدمه منهم وقتل من الحنفاء خلقا كثيرا وهدم بيوت الاصنام فى كل موضع * وفى أيامه بنيت كنيسة مريم ببيت المقدس وبنى ارقاديوس الملك دير القصير الذى سمى بعد ذلك بدير البغل فى جبل المقطم شرقى طرا خارج مدينة فسطاط مصر وقد عفت آثاره الآن فلما مات أقيم بعده كيرلس وهو رابع عشريهم وهو أول من أقام القومة فى كنائس الاسكندرية وأرض مصر وكان فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى حينه



ولما مات طيودوسيس الملك على ماتقدم بيانه تولت الملك بعده أخته بونخارية وزوجها مرقانوس

(فى الملكة بونخارية والملك مرقانوس زوجها)

ثم قامت بالامر الملكة بونخارية بويع لها بالملك بعد موت أخيها طيودوسيس وذلك سنة أربع وستين وأربعمائة للميلاد أى سنة اثنتين وسبعين ومائة قبل الهجرة فلما استقر بها المنصب تزوجت بالامير مرقانوس وأشركته معها فى الملك وذلك سنة سبع وستين وأربعمائة للميلاد أى سنة تسع وستين ومائة قبل الهجرة * وتحرير الخبر أنه لما كانت دولة القسطنطينية قد تقهقرت وانحط شأنها على عهد الملك طيودوسيس أخى بونخارية وكان قد طمع فيها العدو وصارت على شفا جرف كما تقدم اتحدت كلمة وجوهها وأعيانها وأمراء عساكرها وأرباب مجلسها وكافة الرعية على مبايعة بونخارية عسى أن تقوى بسياستها شوكة البلاد ويعود لها رونقها ومجدها القديم وقد كانت بونخارية من الحزم وحسن السياسة على جانب عظيم وفى تدبير الامور وضبط مصالح الرعية آية فكانت أول أنثى جلست على سرير ملك الرومانيين فلما قبضت على زمام الملك نظرت فى أمور أعداء الدولة العاملين على تخريبها فأمرت فضرب عنق خروساف الوزير على باب الديوان بدون اقامة دعوى ولا عمل تحقيق ونظرت فى أمور غيره منهم فانطبعت لذلك هيبتها فى قلوب الرعية وخافها أصحاب الغايات وسارت كلمتها فى أرجاء الحكومة ونفذت ومالت اليها قلوب الرعية واستبشروا بأيامها وعظموا قدرها وظلت على هذا مدة * قال بعض أهل التاريخ ولكن لما كانت تعلم أن حكم الانثى على الروم هو على خلاف الاصول والعوائد وكانت تخشى أنه ربما يترتب على استمرار حكمها انفصام عروة الاتحاد التى بين الرعية وانحلال رابطة كلمتهم وكانت لا تنظر الا لخير البلاد وسعادتها تزوجت بأحد أكابر المجلس وأعظمهم قدرا وهو الامير مرقيانوس وكان عمره اذذاك ستين سنة وألبسته الحلة الملوكية وعاهدته على أن يحترم على الدوام ناموس نفوذها وأن يحافظ على حقوقها الاشتراكية ولا يعمل الاعلى تأييدها فى السياسة والتدبير وأن يتجاوز لها عن حقوق المباضعة التى تقتضيها الزوجية لانها كانت نذرت أن لا تمكن أحدا من أن يفتضها وأن تترهب مدة عمرها فعاهدها مرقيانوس على ذلك ووعدها أن لا يمسها ووفى بوعده

وكان لبونخارية أختان وهما مريشة وارقادية فكانتا مثلها فى الرهبانية وقد كتبن صورة تنذر بحفظ توليتهن على لوح مصفح بالجوهر وبعثنه الى كنيسة أيا صوفية كأنه قربان لمريم العذراء أم المسيح عليهما السلام وكن لا يحضرن مجلس الرجال أبدا وكان قصرهن

أقرب

أقرب شبها بالديرودوا نهن عبارة عن معبد المترهبات وهن على غاية من النسك والتعبد مع العفة والتواضع * فلما استقر مرقيانوس المنصب أجرى السياسة فى البلاد على ماتشتهى ونظارية من الحزم وحسن السلوك ورتب من القوانين مامحا به الظلم وصرف به وجه العدوان عن الرعية وتحبب اليهم وتظراليهم نظر الأب الحنون على ولده فعلقت به قلوبهم وأحبوه حبا جما

وبعث اليه آطيلا ملك الهونية يطالبه بالخراج المقرر الذى كان يدفعه الملك طيودوسيس وشدد فى الطلب مع العظمة والكبرياء فردّ عليه يقول قد انجلى الزمن الذى كانت تنتهك فيه حرمة الدولة الرومانية وخلا الدهر الذى كان يخل بناموس المملكة القيصرية وأما فى عهدى هذا فاعلم انى لاأعطى شيأ الابالطوع والاختيار وأن لايكون الا امدادا واعانة على صيانة بلادك كما هى القاعدة بين الملوك المتعاهدين مع الخادمين لحكومتى وليس عندى لغيرهم ممن يهتدى من الاعداء جواب الا أن أرسل عليهم جنودا من الصناديد قلوبهم كالجلاميد وأجسامهم من حديد وأى حديد * وبعث له أيضا سفراء يشافهونه بهذا الكلام فاغتاظ آطيلا وكاد يتميز غضبا وأقسمت قبائل الهونية وتعاهدت على تدمير الدولة الرومانية وتخريبها ومحو اسمها ورسمها من الدنيا * قال أهل التاريخ وكتب آطيلا لملك القسطنطينية وملك رومة يقول

ان آطيلا مولاك وسيدك يأمرك أن تجهز لقصرك عاجلا لتلقاه فيه فهو حاضر ليأمرك بما تقتضيه المصلحة

ثم بعد أن بعث الجواب أتته الاخبار بما عليه ملك القسطنطينية من المنعة وماصارت عليه جنوده من الشدة والبأس فخافه وعاد الى مسالمته وأبقى معه شروط الصلح على ما كانت عليه وعقد النية على أن لايغير على دولة المشرق الا بعد الاستيلاء على مملكة المغرب فسار صوب المغرب وتبعه كثير من ملوك الامم المتبربرة وأمرائهم ورؤسائهم يريدون الحرب مع رومة وجرمانيا فقامت بينهم الحرب على ساق وحمى وطيسها فى ميدان شالون من أعمال بلاد الفرنسيس وبعد واقعة هائلة جدا بذلك الميدان وقف جند الملك آطيلا وجند أعدائه متقابلين فخرج آطيلا من مكانه وبرز فى وسط الصفوف وعليه الهيبة والوقار وخاطب رؤساء عساكره وقد كانوا مختلفى الاجناس فقال لهم لاتخافوا شيأ فانى رئيسكم وقائدكم وصنم الحرب حاميكم وقد تعودت النصر فيما مضى فلا أحرم النصر فيما بقى وقد كفل لكم أيضا النصر والتأييد جبن الروم وفتور همتهم فهزيمتهم لدينا محققة لمن يصادمنا من الاعداء فى حومة الميدان أو يطاردنا فى حلبة الرهان فان كانت الخشية من طائفة الافرنجية فبينهم الشقاق والاختلاس وسترون عن قريب أكثرهم منتظما فى سلك جنودنا داخلا تحت ظل أعلامنا وبنودنا وان خشيتم القوطية والبرغونية فان شوكتهم قد



ضعفت وطالما هربوا خوفا من أصحابنا عند الالتحام فان قلتم انهم نزلوا هنا وهم مصممون على قتالنا فلا وما نزولهم الا لمحض الاستراحة من التعب وليس لهم قصد من حرب وقد اضطرمت بينهم نيران الفتن وظهرت علامات الخلل والمحن ولم يبادروا باطفاء ذلك ولم يعولوا على ماهنالك فسيروا أيها الشجعان على أعدائكم ثقة بالنصر والظفر واعتمادا على التأييد ولا مفر فليس فوق قوتكم قوة بشرية الى أن قال وقد أنطقنى من أنطق كل شئ أن أقول هذه الكلمة انى أطعن العدو برمحى قبل أن تقاتلوه وأقتل كل جبان شر قتلة

فلما فرغ من مقالته اتقدت نار الحمية فى صدور الابطال والتحم الصفان فهجم الرومانيون على الهونية من كل جانب فأذاقوهم عذاب الهون وصبوا عليهم صيب المصائب ومزقوهم كل ممزق فخرج آطيلا الملك وسط الجنود وصار يزأر كالاسد وينادى على عسكره بان يحملوا على العدو حملة رجل واحد فلم يفعلوا وعصوه ولم يصغوا لصوت ندائه وخاب منه الامل وكلت منه العزائم فكانت هذه أول مرة حرم فيها الطاعة من قومه ثم ولوا مدبرين فتبعهم العدو وأعمل فيهم القتل حتى خرجوا عن البلاد وعادوا من حيث أتوا وجعل الروم يقتلون ويأسرون ويذبحون الاسرى صغارا وكبارا ذكورا واناثا ويسلبون ماشاؤا حتى قتلوا من النساء مائة صبية تحت سنابك الخيل وهذا كله من جهة بلاد الفرنسيس وماجاورها من الاقاليم * ولم تضعف الهزيمة عزم آطيلا بل سار الى ايطاليا قاصدا حربها واجتاز الالب وركب على المدينة المنجنيقات وكانت هذه أول مرة أغار فيها الهونية على ايطاليا بقصد فناء الرومانيين وكان قيصر رومة اذ ذاك ضعيف الشوكة والبأس لفتور همة الرومانيين وخمولهم بعد العز حتى صاروا لايستطيعون أن يقاتلوا الهونية بغير الاستعانة بعساكر أجنبية فاستغاثوا بالملك آلاريق القوطى ملك القوطية واستمدوا بجنوده فأمدهم فقويت عساكر الرومانيين واشتدت عزائمهم وهاجوا الهونية مهاجة الابطال ولازالت الحرب سجالا ثلاثة أشهر لم يحصل منها للهونية فائدة فقام العساكر على آطيلا وطلبوا منه أن يرفع الحصار عن المدينة ويرجعوا الى أوطانهم فراجعهم فلم يقبلوا وبينما هم على أهبة الرحيل اذ لمح آطيلا طائرا أهليا يحوم على أبراج المدينة ويبعد عنها ثم يعود فقال لكبار عساكره انظروا ان طيران هذا الطير هو فأل السعادة والخير يبشرنا بقرب النصر والنجاح ويعدنا باليمن والفلاح فكأنه ألهم أن هذه البلاد قريبة الدمار سريعة البوار فلتقو عزائمنا ونحمل عليها حملة رجل واحد والنصر يعادينا * فصدق الجند مقاله واعتقدوا يمن الطائر وفأله وقوى عزمهم وهجموا على مدينة اكيله وكان الملك محصورا بها فاخذوها عنوة ونهبوا وسلبوا وأسروا أهل المدينة ودمروها بالنيران فسهل بذلك الامر على آطيلا وصار يتغلب على جميع مدن ايطاليا ويخضعها قوة واقتدارا حتى وصل بعسكره الى مدينة ميلان فألقت اليه مقاليدها ولم ترفع فى وجه قومه سلاحا * قال بعض أهل التاريخ * فلما دخلها وجد فيها لوحا منقوشا عليه صورة القيصر على سريره وأمامه ملوك التتار يسجدون له فغضب وأحرق هذه الصورة وأمر أن يضعوا مكانها صورته

على

على كرسيه حين يستقبل وفادة القيصريين عند دفعهم الجزية التى تقررت عليهم * ولم تكتف الهونية ومن صحبهم من القبائل المتبربرة بالسلب والنهب والقتل بل أهلكوا الحرث والنسل وخربوا الديار وقطعوا الاشجار وأحرقوا القرى والامصار وكان ملكهم آطيلا يحرضهم على العتو والفساد ويقول لهم انه لاينبت زرع فى مكان وضع فيه جوادى قدمه فكان أهل ايطاليا يهاجرون من بلادهم وهاجر كذلك أهل البنادقة الى جزائر خليجهم وأسسوا بها مدينة البندقية التى يقال لها ونديق وبنوا مساكنهم على سدود وقناطر وعمروا البحر بالمدائن والعمائر واجتمع عليهم من ألجأته الضرورة فصاروا شعبا وتألفت حكومة بلادهم من جمهورية مؤلفة من عشرين جزيرة متصلة وكل جزيرة محكومة بحاكم وكثرت عندهم الصنائع والزراعة واتسع نطاقها ثم قويت تلك الجمهورية وصارت غنية مثرية تسير بذكرها الركبان

وبعد انتصار الهونية هذه النصرة العظيمة على بلاد الرومانيين بعث قيصر رومة الى آطيلا ملك الهونية سفراء يلتمسون منه الصلح على قاعدة تتقرر بينهما فأجابه الى ذلك وعقد صلحا كان من شروطه أن يتزوج آطيلا ببنت من بنات قيصر رومة اسمها الاميرة هو نورية وكان قد سبق له أن خطبها من أبيها ورده فتزوجها فى هذه الدفعة ومادرى أن السم فى الدسم قال أهل التاريخ اذ كانت علة موته وسبب هلاكه * فلما حملت اليه عمل لها الافراح يوما وليلة وأكثر فيها من الشراب ولم يزل يشرب ويتفكه حتى سكر وأخذت منه الخمرة مأخذها ثم قام وأخذ بيدها الى محل فراشه وقد كانت تبغضه جدا وتنفر منه فبات ليلته تلك معها وفى الصباح قام الخدم ينتظرونه فلم يخرج على عادته فلما أبطأ وعلم قومه بابطائه دخل بعضهم خيمته فوجدوه مضرجا بدمائه فقالت عشيرته انه مات بالسكتة وقال الروم انه مات قتيلا قال بعض أهل التاريخ ولو بقيت دولته لكانت أشبه بدولة الاسكندر فى الغزوات والفتوحات ولكنها شابهتها فى الانقراض المترتب على مقاسمتها بين أولاده وأمرائه اذ ضاع بينهم الملك وذهبت شهرته فارتاحت لذلك خواطر الروم فى المشرق والمغرب وزال عنهم البأس بموته وزوال ملكه

وقد كانت دولة القسطنطينية فى أيام مرقيانوس غاية فى الامن والراحة وصفو العيش وكانت الديانة المسيحية منصورة مؤيدة فلما كانت سنة سبع وستين وأربعمائة للميلاد أى سنة تسع وستين ومائة قبل الهجرة ماتت بولخارية فكانت مدة ملكها منفردة ومتحدة مع مرقيانوس زوجها ثلاث سنين فانفرد مرقيانوس بالملك سنة سبع وستين وأربعمائة للميلاد أى سنة تسع وستين ومائة قبل الهجرة الى سنة خمس وستين ومائة ثم مات فى هذه السنة فكانت مدة حكمه منفردا أربع سنين وكانت مدة حكمه وحكم زوجته نحو سبع سنين وكان موته بعد زوجته بثلاث سنين وهو آخر قياصرة عائلة المشرق الاولى التى أولها ارقاديوس * وفى أيامه وأيام زوجته ظهر مذهب أوطاخى أحد القنوميين بمدينة القسطنطينية



وزعم أن جسد المسيح لطيف غير مساو لاجسادنا وان الابن لم يأخذ من مريم شيأ فاجتمع عليه مائة وثلاثون أسقفا وحرموه ونفوا مقالته

واجتمع في هذه الايام بالاسكندرية كثير من اليهود في يوم الفصح وصلبوا جسما على مثال المسيح وعبثوا به فثار عليهم النصارى واقتتلوا فقتل بين الفريقين خلق كثير فبعث مرقيانوس الملك جيشا عظيما فقتل أكثر يهود الاسكندرية ومزق شملهم وأذاقهم من العذاب فانكسروا وخافوا * وفي أيامهما أيضا كان المجمع الرابع من مجامع المسيحيين بمدينة خلقدونيه وسببه أن دسقورس بطرك الاسكندرية قال ان المسيح جوهر من جوهرين وأقنوم من أقنومين وطبيعة من طبيعتين ومشيئة من مشيئتين وكان رأى مرقيانوس الملك أنه جسد وأهل مملكته أنه جوهران وطبيعتان ومشيئتان وأقنوم واحد فلما رأى سائر الاساقفة أن هذا رأى الملك شافوه فوافقوه على رأيه ماخلا دسقورس وستة أساقفة فانهم لم يوافقوه وكتب من عداهم من الاساقفة خطوطهم بما اتفقوا عليه فبعث دسقورس يطلب منهم الكتاب ليكتب فيه فلما وصل اليه كتابهم كتب فيه أمانته هو وحرمهم وحرم كل من يخرج عنها فغضب مرقيانوس وهم بقتله فاشير عليه باحضاره ومناظرته فأمر به فحضر وحضر ستمائة وأربعة وثلاثون أسقفا فأشارت الاساقفة والبطاركة على دسقورس بالاذعان الى رأى الملك واستمراره على رياسته فقال ان الملك لا يلزمه البحث في هذه الامور الدقيقة بل ينبغي له أن يشتغل بأمور مملكته وتدبيرها ويدع الكهنة يبحثون عن الامانة المستقيمة فانهم يعرفون الكتب وخبره أن لا يميل مع الهوى ولا يتبع غير الحق فقالت بولخارية زوجة الملك وكانت جالسة بازائه يادسقورس قد كان في زمان أبي انسان قوى الرأس مثلك فحرم ونفي من كرسيه (تعني به يوحنا فم الذهب بطرك القسطنطينية) فقال لها نعم وقد علمت ماجرى لأمك وكيف ابتليت بالمرض الذى تعرفينه الى أن مضت الى جسد يوحنا فم الذهب واستغفرت فعوفيت * فحنقت بولخارية من قوله ولكمته فانقلع له ضرسان وتناولته أيدى الرجال فنتفوا أكثر لحيته وأمر به مرقيانوس الملك فاجتمعوا عليه وحرموه ونفوه وأقيم عوضه برطاوس وهو من القائلين بمقالة الملك

ومن ذلك اليوم افترق المسيحيون وصاروا ملكية على مذهب مرقيانوس الملك ومتأصلين على رأى دسقورس * وكان ذلك في سنة ثلاث وتسعين ومائتين لدقلطيانوس * وكتب مرقيانوس الى جميع مملكته أن كل من لا يقول بقوله يقتل وكان بين المجمع الثالث وبين هذا المجمع احدى وعشرون سنة على ما قاله بعض الكتاب * وأما دسقورس فانه أخذ ضرسيه وشعر لحيته وأرسلهما الى الاسكندرية وكتب يقول للاحزاب بعد كلام هذه هي بالحقوق نتيجة تعبي على الامانة فتبعه أهل الاسكندرية ومصر وتوجه الى محل نفيه فعبر من بيت المقدس وفلسطين وعرفهم مقالته فتبعوه وقالوا بقوله وقدم عدة أساقفة على أمانته ومات وهو منفي في الرابع من توت فكانت مدته أربع عشرة سنة وبقي كرسيه بغير بطرك بقية أيام مرقيانوس وقيل بل تولاه برطاوس * ولما اختلف دسقورس في مقالته ولم يقل بمقالة

مرقيانوس الملك دعا أصحاب مرقيانوس أصحاب دسقورس باسم المعاقبة أو اليعقوبية وأطلقوا عليهم جميعا هذا الاسم واختلف في تسميتهم بذلك فقيل ان دسقورس كان يسمى قبل بطركيته باسم يعقوب وانه كان يكتب وهو منفي الى أصحابه بأن يثبتوا على أمانة المسكين المنفي يعقوب * وقيل بل كان له تلميذ اسمه يعقوب وكان رسله وهو منفي الى أصحابه فنسبوا اليه * وقيل بل كان يعقوب تلميذ ساويرس بطرك أنطاكية وكان على رأى دسقورس فكان ساويرس يبعث يعقوب الى سائر المسيحيين ويثبتهم على أمانة دسقورس فنسبوا اليه * وقيل بل كان يعقوب هذا كثير العبادة والزهد يلبس خرق البراذع فسمي يعقوب البراذعي من أجل ذلك وانه كان يطوف البلاد ويرد الناس الى مقالة دسقورس فنسب من اتبع رأيه اليه وسموا يعقوبية * ويقال ليعقوب أيضا يعقوب السروجي والله أعلم بالحقيقة * وفي أيام مرقيانوس الملك كان سمعان الحبيس صاحب العامود وهو أول راهب سكن صومعة وكان مقامه بمغارة في جبل أنطاكية * ولما مات مرقيانوس وثب أهل الاسكندرية على برطاوس البطريرك وقتلوه في الكنيسة وجعلوا جثته الى الملعب الذي بناه بطليموس وأحرقوه بالنار لانه ملكي الاعتقاد فكانت مدة بطركيته ست سنين وأقاموا عوضه تيموثاوس الثاني وهو سادس عشريهم وكان متأصلا أي من القائلين بمقالة دسقورس بطرك الاسكندرية ووقع من الحوادث في أيامه ماسيذكر في محله

وقد خلف مرقيانوس الملك بعد موته ليون الاكبر المعروف بالاقدم

(في الملك ليون قيصر الاكبر)

﴿ ويسمى أيضا ﴾

﴿ الاقدم ﴾

ثم قام بالامر ليون الاكبر وبويع له بالملك سنة احدى وستين وأربعمائة للميلاد أي سنة خمس وستين ومائة قبل الهجرة وقد نشأ ليون المذكور ببلاد روم ايلي وكان الذي ساعده على ارتقاء هذا المنصب البطرك الامير اسبار القوطي الذي كان في خدمة الروم وكان معدودا من أماجدهم وأبطال قوادهم وهو رئيس الاساقفة وكان مسموع الكلمة نافذ الاشارة مهيبا فعمل على مبايعة ليون المذكور واستمال اليه الناس والامراء فبايعوه بعد عناء كثير

ولما استقر بليون المنصب أعاد الصلح مع أمراء القوطية المشرقية اكراما لبطركهم الامير اسبار الذي أعانه على ارتقاء سرير الملك واستوثق على دوام الصلح معهم بأخذ طيودوريق بن طيودومير أحد ملوكهم رهنا في القسطنطينية وأدخلهم تحت الطاعة وكان عمر



طيودوريق اذذاك ثمان سنوات ولم يبلغ أمره الا فى زمن الملك زينون ثم سار لقتال طائفة الوندال الذين هم أصول الاندلسيين واشتدت الحرب بينهم وكانت سجالا فبينماهم على هذا الحال من الطعن والنزال واشتداد القتال اذ علم ليون بخيانة الامير اسبار البطرك وعمله على تذليله وتنكيل قومه فسار اليه من فوره وقتله وقتل جميع عائلته ولم يراع له حرمة ولا معروفا فكان لما فعله أسوأ وقع فى قلوب الرعية ثم لم يلبث بعد ذلك أن مات فى سنة خمس وثمانين وأربعمائة للميلاد أى سنة احدى وخمسين ومائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه أربع عشرة سنة وخلفه ليون الثانى الملقب بالساوقى

(فى الملك ليون الثانى) .

(الملقب)
(بالساوقى)

ثم قام بالامر ليون الثانى الملقب بالساوقى بويع بالملك سنة خمس وثمانين وأربعمائة للميلاد أى سنة احدى وخمسين ومائة قبل الهجرة ٭ قال أهل التاريخ وهو سبط ليون الاكبر ابن زينون الساوقى نسبة الى ساوقية ببلاد أناطولى كان أمير العسكر المرابط فى احدى ولايات أناطولى وقد أشركه جده لأمه معه فى الملك متنحيا له ثم خلف جده وكان عمره اذذاك أربع سنين فكفله أبوه زينون وكان يحكم بالنيابة عنه ولم تطل أيام ليون المذكور حيث مات فى السنة التى ولى فيها فى حياة أبيه فانتقلت المملكة الى أبيه بالوراثة من ابنه عند المعتاد فى الممالك فقد ٭ يسمو بطيب الفرع طيب العنصر ٭ فكانت مدة ليون الثانى المذكور عشرة أشهر لاغير

وبعض المؤرخين يسقط ليون الثانى هذا من عداد القياصرة فيجعل مدة التولية لابيه زينون قيصر أصالة

(فى الملك زينون والملك باسيلقوس)

ثم قام بالامر زينون بويع له بالملك فى نحو سنة خمس وثمانين وأربعمائة للميلاد أى فى أواخر سنة احدى وخمسين ومائتين قبل الهجرة وقد كان زينون هذا أمير العسكر المرابط فى اقليم ايسوريا من أعمال أناطولى وكان صهرا لليون الاكبر فلما مات ليون المذكور وانتقل الملك بالوراثة الى ليون الثانى ولده الذى هو سبط ليون الاكبر ولى المملكة بالكفالة عن ابنه

الملمات ابنه فى حياته بعد عشرة أشهر كما تقدم وتولى هو الملك واستقر به المنصب قامت فتنة عظيمة فى المملكة وتطاير شررها فى جميع العمالات وكان الذى قد أثارها على زينون زوجة لبون الاكبر فقام رؤساء الاحزاب على زينون واتهموه بضعف العزيمة وفساد الرأى وعدم قدرته على حماية الومان وتدابير الدولة طردوه وذلك سنة تسع وثمانين وأربعمائة للميلاد أى سنة سبع وأربعين ومائة قبل الهجرة فهرب من القسطنطينية ورجع الى أناطولى ولبث بهاسنتين فقلد أرباب الفتنة بعد هروبه باسيلقوس الخارجى المنصب فكان ما عمله زينون المذكور فى بحر ولايته الاولى التى حسبها له أهل التاريخ مدة أولى أنه أيد الدين المسيحى وعضده ونصره وأثبت وحدته بمرسومه المسمى ﴿ جمع الكاثوليكية واتحادهم ﴾ وعند أهل التاريخ انه لم ينشأ عن هذا المرسوم سوى الاختلاف فى الدين وكثرة الفتن وتوالى المحن بما لم يسبق له مثيل * وبعد لبث زينون عدة سنين باناطولى هب الى استرجاع الملك واستنجد بالقوطية فأنجدوه وأمدوه بالمال والرجال فسار الى القسطنطينية وقاتل رؤساء الاحزاب فقامت الحرب بين الفريقين وانتصر زينون بعساكر القوطية عدة نصرات ومازال حتى دخل المدينة وأعمل فيها السيف فقتل خلقا كثيرا جدا وجلس على سرير الملك ثانية وذلك سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعين ومائة قبل الهجرة * ولم يستقر به المنصب حتى طغى واستعمل الظلم والجور وتجبر وزاد الحدود فى الطغيان ونسى ما صنعه معه القوطية من الجميل فجرد عليهم وحاربهم واشتد فى قتالهم ورجع فقهر جميع أصحاب الفتنة من أمرائه وبدد شملهم تبديدا فلما تمت له الامور على ما أراد انهمك على اللذات وانغمس فى الشهوات فأبغضته الرعية وحقدت عليه وعملت على هلاكه * فبينما هو يوما مضطجع على فراشه سكران لايبى اذدخل عليه بعض قومه فحملوه ودفنوه حيا وذلك سنة خمس وخمسمائة للميلاد أى سنة احدى وثلاثين ومائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه عشرين سنة منها سنتان لباسيلقوس وحده * وقد أعز زينون فى أيامه المتأصلين أصحاب مقالة دسقورس ورفع شأنهم لانه كان على مذهب دسقورس وكان يحمل الى دير بوقنا كل سنة مايحتاج اليه من القمح والزيت وغير ذلك فهرب ساويرس بطريك الاسكندرية الملكى فى أيامه الى وادى هبيب ورجع تيموثاوس بطريك المتأصلين من نفسه الى كرسيه بالاسكندرية فأقام سنتين ومات فكانت مدة بطريكيته كلها اثنتين وعشرين سنة على المشهور فأقيم بعده بطرس الثالث وهو سابع عشريهم وأصله من الاسكندرية وكان ورعا تقيا كابد من الشدائد أكبرها ونفى ثم عاد ثانية فأقام ثمان سنين ثم مات فى رابع هاتور وفى رواية سبع سنين وسبعة أشهر وستة أيام * فأقيم بعده اثناسيوس الثانى وهو ثامن عشريهم فأقام ست سنين وفى رواية سبع سنين ومات فى العشرين من توت ولم يحدث فى أيامه من الحوادث شئ يذكر * فأقيم بعده يوحنا وكان متأصلا وهو تاسع عشريهم وأصله من الاسكندرية وكان تقيا جدا وحدث من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى حينه * ولما مات زينون الملك خلفه انسطاش الأول



(فى الملك انسطاش الاول)

ثم قام بالامر انسطاش الأول وبويع له بالملك سنة حمس وخمسمائة للميلاد أى سنة احدى وثلاثين ومائة قبل الهجرة وقد كان نشأ بمدينة ايليريا من مدن سواحل ايطاليا وهو من عائلة خاملة ثم دخل فى خدمة العسكرية وتقلب فيها الى أن صار من جملة ضباط القصر الملوكى المنوطين بمناظرة عدم رفع الاصوات والغوغاء وتسكين العامة حول القصر والزامهم الصمت فلذلك كان يلقب بالمسكت ومازال الى أن تزوج بالقيصرة اريانة أم القيصر زينون فسعت فى اظهاره واعلاء شأنه وعملت على تقليده المنصب الملوكى واستمالت الى ذلك أرباب المجلس فنادوا بملكه وبايعوه فى السنة المذكورة فكان فى مبدا أمره محترما لدينه وعدله ميالا للعمارية ولما استقربه المنصب سلك مسالك الجور وتغيرت طباعه وانعكست أحواله فظلم الرعية وضيق عليها واستعمل الحرص فى أموره فكرهته الرعية ومقتته وحقدت عليه وتمنت الخلاص منه

وقد كان قبل ولايته حاقدا على بطريرك أنطاكية وكان يريد الايقاع به فصدّ عن عزمه بالولاية فلما تمكن من المنصب وسار سيرته الرديئة من الظلم والعسف أجهد نفسه فى الايقاع بالكاثوليكية وانتصر للاوتودوكسية فعزل مقدونيوس بطريرك الكاثوليكية وضيق على هذه الطائفة وبالغ فى التنكيل بها فخرج فى هذه الاثناء خارجى اسمه ويطاليانوس متعللا بأخذ الثار الكثلكة وهو فى الحقيقة انما يطلب الملك فجمع الجموع الكثيرة وأوقع الفتن وأثار الفتن وحضر بقومه وعساكره تحت أسوار القسطنطينية وأقام على هذه الحال مدة من الزمان حتى كادت تفشل عصابة انسطاش ثم أحس بقرب خروج الرعية عليه وشق عصا طاعته فجعل يستميلها بالرفق وحسن المعاملة وأزال عنها بعض المكوس والمغارم وأنواعا أخرمن المظالم كبيع المناصب والرتب فغضوا عنه ولكنهم مع ذلك حاقدون عليه ومازالت أيامه فى اضطراب حتى مات سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة للميلاد أى سنة أربع ومائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه سبعا وعشرين سنة كلها أكدار وأحزان

وفى أيامه مات يوحنا بطريرك الاسكندرية فخلا الكرسى بعده سنة لتفاقم الخلاف وكانت مدته تسع أو ثمانى سنين وكان موته فى رابع بشنس فخلفه يوحنا الثانى المعروف بالحبيس وهو المتمم الثلاثين وأصله من الاسكندرية ولم يعلم من حوادثه شئ يذكر ومات فى سابع عشرى بشنس فكانت مدته احدى عشرة سنة وكان تقيا ورعا محبا للجميع فخلفه ديسقوروس وهو حادى ثلاثيهم وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى حينه

ولما مات انسطاش خلفه فى الملك يوسطنيوس الاكبر ويقال له أيضا جوسطنيوس الاول

(فى الملك يوسطنيوس الاكبر)

(ويسمى أيضا)
(جوسطنيوس الاول)

ثم قام بالامر يوسطنيوس الاكبر وبويع بالملك خدعة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة للبلاد أى سنة أربع ومائة قبل الهجرة وهو رأس الدولة المشرقية المسماة باسم الدولة (الجوسطيانوسية) وقد كان مولده فى بلاد روم ايلى وكان فى أول أمره راعيا للماشية ثم انتظم فى سلك العسكرية وارتقى المناصب العالية فى خدمة ليون قيصر الاكبر ثم ارتقى سرير الملك بالحيل والخداع والرشاوى والبراطيل فلما استقر به المنصب سلك فى الرعية سبيل العدل والرفق وأسكن الفتنة الدينية التى مات عنها انسطاس الملك وعمل على استتباب الامن وتوطيد دعائم الراحة وأشرك معه فى الملك ابن أخيه المدعو يوسطنيانوس وسار سيرا حسنا للغاية فأحبته الرعية ومالت اليه القلوب ووقعت فى أيامه فتنة عظيمة جدا بين فرقتين من المسيحيين احداهما تسمى الملة الخضراء والثانية الملة الزرقاء وهما من الفرق الزائغة التى لاخلاق لها وكانتا على طرفى نقيض فيما لايستلزمه الدين المسيحى ولا التدين به فاشتدت يومئذ تلك الفتنة وعلا لهيبها وكادت تعم البلاد وتفاقم أمرها فعمل على تسكينها وقطع دابر الاحزاب وقتل ويطاليانوس الذى كان رأس هذه الفتن فعاد الامن وسكنت الخواطر واطمأنت القلوب وبطلت تلك البدعة أو كادت

وكانت طوائف الالاظ الى هذا الحين يدفعون الخراج لكسرى فارس وكان لقيصر الروم حق الرعاية عليهم فكانت الروم تطلب ذلك فجعلت تسعى وتعمل حتى أدخلتهم فى حكم القسطنطينية فكان ذلك سببا لانتقاض الصلح بين فارس والروم وأعقب ذلك وفاة يوسطنيوس الملك وتولى ابن أخيه يوسطنيانوس بعده فهم الفرس عند ذلك بقتال الروم وركبوا عليهم فشبت الحرب بين الفريقين على ما سيذكر فى محله وكان موت يوسطنيوس سنة احدى وأربعين وخمسمائة للبلاد أى سنة خمس وتسعين قبل الهجرة فكانت مدة حكمه تسع سنين فاستقبل ابن أخيه يوسطنيانوس بالملك ولم تنل ديار مصر فى أيامه شيئا من المزايا المادية ولا الادبية غاية الامر أنها كانت حاصلة على بعض الراحة والطمأنينة بعد ازالة ما كان قائما بها من الفتن من الاحزاب • وفى أيامه مات ديسقوروس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام سنتين وقيل سنتين وخمسة أشهر وكان موته فى سابع عشر بابه وفى أيامه كتب ايليا بطرك بيت المقدس الى يوسطنيانوس الملك بأن يرجع عن مقالة ديسقوروس الى مقالة الملكية وبعث اليه جماعة من الرهبان بهدية سنية فقبل هديته وأجاز الرهبان بجوائز جليلة وجهز له مالا جزيلا لعمارة

الكنائس والديارات والصدقات وأوشك أن يقول بمقالة الملكية ويترك مقالة ديسقوروس فلما شاع الخبر بذلك جاءه ساورس الذى كان بطركا للملكية واجتمع به وأعلمه أن الحق هو اعتقاد القائلين بمقالة ديسقوروس لا الملكيين فرسم بأن يكتب الى جميع مملكته بقبول قول ديسقوروس وترك المجمع الخلقدونى فبعث اليه بطرك انطاكية بأن هذا الذى فعلته غير واجب وأن المجمع الخلقدونى هو الحق فكبر هذا الامر على الملك ونفاه وأقام بدله

فأمر ايليا بطرك بيت المقدس بجمع الرهبان ورؤساء الديارات فاجتمع لهم منهم عشرة الاف وحرموا الملك ومن يقول بقوله فأمر الملك بنفى ايليا الى مدينة (آيلة) فاجتمع عندئذ بطاركة الملكية وأساقفتهم وحرموا الملك ومن يقول بقوله فلم يبال وظل على ماهو عليه من الشدة * وبموت ديسقوروس قام بعده تيوتاوس وهو ثانى ثلاثيهم وكان من المتأصلين ووقع من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى حينه

(فى الملك يوسطنيانوس)

(قيصر الاول)

استبد يوسطنيانوس الاول بالحكم بعد موت يوسطنيوس سنة احدى وأربعين وخمسمائة للميلاد أى سنة خمس وتسعين قبل الهجرة وكان مولده فى مدينة طرسيس ولم يستقر به المنصب منفردا حتى قامت الفتنة بين الاحزاب وعظمت وظهر أصحاب الملة الخضراء والملة الزرقاء ثانية وقاموا يتناظرون ويجادلون فى الدين فانعقدت المجامع واشتدت المناظرة ومازالوا على هذا الحال حتى نال أصحاب هذين اللونين بعض الامتيازات ومنحوا من الملك شيأ من الحقوق ولم تكد فتنتهم تزول حتى ظهر بعض المشاكل السياسية وتجرد الملك للغزو والقتال فأرسل قائد جيوشه بليسيرس والطواشى نرسيس للغزو فغزوا قوطية ايطاليا ووندالية افريقية وانتصرا عليهما نصرة عظيمة وسار هو لقتال فارس وظفر بهم فاشتهرت سطوته وعلت كلمته ثم وجه عنايته الى ترتيب الاحكام السياسية وتهذيب القوانين الملكية فرتبها أحسن ترتيب واشتغل باصلاح الامور الدينية وتنقيح العقائد المسيحية وكان متعصبا فى دينه صاحب حمية وغيرة عظيمة * قال بعض الكتاب كانت حميته أقوى من معارفه * وتزوج بزوجة بديعة الجمال اسمها تيودوره فكان لها على قلبه كال السلطة والولاء لايكاد يخالف لها أمرا لاستيلائها على فؤاده فكانت سببا فى تدنيس عهد ولايته وأعمالها كالنقطة السوداء فى تاريخه

وقد أغار كسرى قباذ ملك فارس على عساكر الرومانيين وهم يبنون حصنا فى طريق مدينة دارا على مقربة منها وقصد الفتك بالرومانيين وتخريب ذلك الحصن فسار اليه بليسيرس

قائد جيوش المشرق ونائبه لرده وتخليص الحصن منه فوقعت الحرب بين الفريقين فانتصر أمير الروم على فارس نصرة عظيمة اشتهر بها بين الاقران وماتمت هزيمة الفرس حتى وجهوا عساكرهم صوب ارمينية وكانت يومئذ منقسمة بين الروم والفرس ولما كانت ارمينية قريبة من الديار الشامية خاف الروم على الشام من أهل فارس فحوّل بيليسيرس عساكره صوب أنطاكية لقتالهم هنالك وحاصروا المدينة فلم ينتصر بيليسيرس فى هذه الوقعة ولم يظهر على خصمه ولكنه خلص الديار الشامية ومع ذلك لم تنكف فارس عن محاصرة انطاكية وهى يومئذ تحت الديار الشامية فلما رأى القيصر اشتداد الحال وتضييق فارس الحصار بعث قائده سيطاس بدلا من بيليسيرس فسار الى أنطاكية فلم يستطع أن يرفع الحصار عنها فى أيام قوباز بن فيروز معما كان عليه قوباز المذكور من المشقة والاحتقار بين قومه لعدم استقامته دينا ودنيا وبقى قوباز محاصرا لانطاكية أياما كثيرة الى أن قتله العرب فى مدينة الرى فخلفه ابنه كسرى أنوشروان العادل فى نحو حدود سنة تسعين قبل الهجرة * قال بعض أهل التاريخ فتغيرت بتوليته أحوال دوان فارس بالمدائن * وذلك انه لما جلس على سرير الملك وكان صغيرا قال لاصحابه اعلموا أنى عاهدت الله على أنه ان آل الملك الىّ أعيد آل المنذر الى الحيرة وأقتل طائفة المزدكية الذين أفسدوا أحوال الناس وهم أصحاب مزدك الذى خرج على عهد أبيه قوباز فتبعه أبوه وكان خليفة المزدكية قائما الى جانب السرير فقال هل تقتل الناس جميعا هذا فساد فى الارض والله قد ولاك لتصلح لا لتفسد فذكر أنوشروان للخليفة المذكور معايبه وأمر بقتله فقتل بين يديه وأخرج وأحرقت جثته وأمر بقتل شيعته فقتل منهم خلق كثير وأثبت ملة المجوسية القديمة وكتب بذلك الى عماله وقوى جنده بالاسلحة وعمر البلاد وقسم أموال الزنادقة على الفقراء ورد الاموال الى أصحابها وأرجع المنذر الى الحيرة وطرد الحرث بن حجر جد امرئ القيس عنها * قال بعض أهل التاريخ وكان الحرث كندبا فترتب على ذلك قتل حجر المذكور وزوال دولة الكنديين وماجرى لامرئ القيس بعد قتل أبيه كان فى عهد يوسطنيانوس قيصر الاول المذكور * وسنذكر قصة امرئ القيس على سبيل الاستطراد ومحصلها أن أباه حجرا كان قد طرده لما هوى ابنة عمه فاطمة الملقبة بعنيزة وكان معها يوم بدارة جلجل فنظم معلقته التى مطلعها * قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل * فلما بلغ ذلك حجرا أباه دعا مولى يقال له ربيعة فقال له اقتل امرأ القيس وأتنى بعينه فأخذه ربيعة وانصرف ثم ذبح جؤذرا وأتى بعينه الى أبيه فندم حجر على ذلك فقال ربيعة أبيت اللعن انى لم أقتله قال فأتنى به فانطلق فاذا هو فى رأس جبل وهو يقول

فلا تتركنى يا ربيع لهذه * وكنت ترانى قبلها بك واثقا

فرده الى أبيه ثم قال قصيدته المشهورة التى مطلعها

ألاعم صباحا أيها الطلل البالى * وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وهل يعمن إلا سعيد مخلد * قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وفيها يقول

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة * كفانى ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل * وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وكان أبوه قد نهاه عن قول الشعر والتشبيب بالنساء فلما بلغه انه لم ينتقد لكلامه طرده وبقى مطرودا حتى قتل بنو أسد أباه فبلغه ذلك وهو بجبيل دمون فى أرض اليمن فشق ثيابه وحزن عليه وحلف ان لايشرب خمرا ولايغسل رأسه حتى يأخذ بثأره ثم انه استنجد بكر وتغلب على بنى أسد فأنجدوه ثم هرب بنوأسد وتبعهم فلم يظفر بهم فوضع السلاح فى كنانة وهم بنو عمهم حيث لجأ اليهم بنو أسد ونادى امرؤ القيس بالثارات الملك فقالت له عجوز لسنا لك بثأر فاطلب ثارك فاستمر على وضع السلاح فى كنانة فغناوه وقيل انه أدركهم وقد تقطعت خيله وكثرت القتلى والجرحى وحجز الليل بينهم وهرب بنوأسد فأبى بنو بكر وتغلب أن يتبعوهم وقالوا قد أصبت ثارك فقال ما أصبت من كاهل ولا أسد أحدا وكاهل من كنانة قال بعض الكتاب وهذا معنى قوله فى قصيدة بائية

ألا يالهف هند اثر قوم * هموكانوا الشفاء فلم يصابوا

يعنى يحق لهند أخته أن تتلهف على عدم ادراك بنى أسد وأخذ الثار منهم وقوله من قصيدة أخرى

والله لايذهب شيخى باطلا * حتى أبيد مالكا وكاهلا

ومع تخاذل بكر وتغلب عنه فقد طلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جموع امرئ القيس خوفا من المنذر فلما رأى ضعف أمره وطلب القوم لهذهب يستنصر بقبائل العرب قبيلة قبيلة فلم ينصروه وقصد السموأل بن عاديا اليهودى فأكرمه وأقام عنده مدة ثم سار الى بوسطنيانوس قيصر الروم وأودع دروعه عند السموأل وأنشد فى مسيره قصيدته المشهورة التى منها

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه * وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لاتبك عينك انما * نحاول ملكا أونموت فنعذرا

ومات امرؤ القيس فى عوده من عند قيصر فى بلاد الروم عند جبل يقال له عسيب بقرب مدينة أنقرة بالروم وأنشد عند ما أيقن بالموت بجانب قبر أخبر بدفن امرأة غريبة فيه

أجارتنا ان الخطوب تنوب * وانى مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا انا غريبان ههنا * وكل غريب للغريب نسيب

قال بعض أهل التاريخ ان يوسطنيانوس حمل عليه حلة مسمومة بالزئبق وهو بعيد وأبعد منه قولهم إن السبب فى ذلك اكتشاف يوسطنيانوس عشقه لابنته ونظمه قصيدته التى مطلعها * ألاعم صباحا أيها الطلل البالى * وقد سبق أنه قالها بعد اجتماعه بأبيه قال بعض الكتاب ولعل من قال انه أنشدها عند قيصر بنى ذلك على قوله فيها ولو أنما أسعى

البيتين

البيتين السالفين ولادلالة فيهما على ذلك لاحتمال أنه بعد زوال ملك أبيه عن الحيرة كان يتطلب الملك ويسعى فى الحصول عليه اهـ من بعض المؤلفات .

ولنعد الى ما كنا فيه • فلما تولى كسرى أنوشروان الملك بعد أبيه خابره يوسطانيوس الملك فى أمر الصلح ورفع الحصار عن أنطاكية فأجابه كسرى لذلك حيث كان يومئذ فى شاغل بأمور ملكه الداخلية وعقد مع القيصر شروط المحبة الدائمة والسلم المستمر قالوا والحقيقة أنه لم يكن الا مجرد مهادنة ومتاركة وقد هاب الملوك أنوشروان وهادوه بالهدايا السنية وكان ممن ورد عليه رسول ملك الروم يوسطانيوس بهدايا وتحف فنظر الى ايوانه وحسن بنيانه فرأى اعوجاجا فى ميزانه فسأل عن سبب ذلك فقيل ان عجوزا لها منزل فى جانب الاعوجاج وان الملك رغبها فى الثمن فأبت ولم يكرهها وبقى الاعوجاج من ذلك على ماترى قيل فقال الرومى هذا الاعوجاج أحسن من الاستواء • قال أهل التاريخ ولاربع وعشرين خلت من ملك أنوشروان المذكور ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو صاحب الشريعة الاسلامية فكانت ولادته فى عهد يوسطانيوس الملك وكذلك ولد صاحب الشريعة فى السنة الثانية والاربعين من ملك أنوشروان كسرى فارس المذكور وفى عهد يوسطانيوس الثانى قيصر الروم

ولما تقررت قاعدة الصلح بين أنوشروان فارس ويوسطانيوس القيصر تجهز يوسطانيوس لقتال الوندال فى افريقية وهم قبائل الاندلسية وسار لذلك فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة للميلاد أى سنة تسع وثمانين قبل الهجرة فلبثت الحرب سنة ويوسطانيوس لاينفك عنهم حيث صمم على استرجاع جميع البلاد التى كانوا استولوا عليها وكانت فى هذا الحين قد استحالت شجاعة الوندال الى الجبن والفتور حيث داخلهم الميل الى الزينة الشرقية والتخلق بالترف والارتخاء وقد فقدوا النخوة والشهامة وركب بيليساريوس القائد السفن مع عساكره وسار الى قرطاجنة فانتصر عليهم واستولى على المدينة وأخذ ملك الوندال أسيرا ثم طلبه ديوان القسطنطينية فسار اليها ودخل بموكب النصر الحافل فكان ملك الوندال فى زفاف هذا الموكب تحفة من تحف الموكب يقاد بين الاسرى الوندالية فى وسط الغنائم عرضة للمتفرجين ثم سار بعد ذلك الامير بيليساريوس القائد المذكور الى جزيرة سردانيا لينزعها من قبضة الوندال فظهر عليهم هنالك أيضا واستولى على الجزيرة وصيرها من ملحقات قرطاجنة فلم يقبل المتأصلون من أهل الجزيرة الدخول فى زمرة الرومانيين ولم يرضوا أن يكونوا رعية الروم وأبوا أن يدخلوا فى دين المسيحية وأصروا على العصيان وبقوا على جاهليتهم مدة من الزمان الى أيام موريقوس الملك الذى تولى فى سنة ست وتسعين وخمسمائة للميلاد أى سنة أربعين قبل الهجرة

وتهيأ يوسطانيوس الملك بعد فراغ عساكره من حرب الوندال وظهورهم عليهم لقتال القوطية فرسم الى الأمير بيليساريوس بفتح ايطاليا وأخذها من أيدى القوطية وذلك سنة ثمان وأربعين وخمسمائة للميلاد أى سنة ثمان وثمانين قبل الهجرة فسار الامير بيليساريوس ونزل



الجهد وشدد فى القتال فلم يتم الفتح على يديه فبعث يوسطانيوس الامير نرسيس ففتح الله عليه وظفر بالغوطية وقهرهم وكانت شوكة الغوطية قبل هـذا الحين قوية جـدا فى ايطاليا وكان يخشى منهـا كثيرا ولكن مالبثت أن تقهقرت وانحطت وأخـذت فى التناقص فلم تقو على محاربة الرومانيين فى هذه الحرب الاخيرة * وكان مركز قوة الغوطية فى هذا الحين مملكة اسبانيا وكـان لهم فيها ملوك أصحاب تدبير وحزم فتولى عليهم باسبانيا بعد ذلك ملك اسمه اطانا جلدوس كان قليل الحزم وملك آخر فى ايطاليا اسمه آجيلا فكان خصمـا عنيدا للملك اسبانيا فتجهز كذلك آجيـلا المذكور فى سنة ست وستين وخمسمائة للميلاد أى سنة سبعين قبل الهجرة لقتال جلدوس فاستعان جلدوس بعساكر الروم على آجيلا ففرح يوسطانيوس بذلك وسير البطرك ابريوس الى ايطاليا فهـزم آجيلا شر هزيمة وعاد منصورا فسيره يوسطانيوس الى اسبانيا فسار اليها وقاتل الغوطية فانتصر عليهم وأخذ منهم مدينـة بلنسية وقرطبة وسائر مدن اقليم الاندلس الشرقيـة وأضيفت الى القسطنطينية وبقى قسم عظيم من الاندلس تابعا لدولة القسطنطينية الى سنة عشرين وستمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين قبل الهجرة * ونقض كسرى أنوشروان صلحه مع الروم باغراء الارمن والغوطيـة فقامت الحرب بينهم سنة ثمان وستين وخمسمائة للميـلاد أى سنة اثنتين وسبعين قبل الهجرة وزحفت عساكر فارس على البلاد الشامية وهاجتها فردهم الامير بيليسيرس قائد جنود الروم وطردهم عن البلاد * قال بعض أهل التاريخ فانتهزت قبائل اللاظ هذه الفرصة وألقت بنفسها فى أيدى كسرى أنوشروان هى ومن حولها من بلاد البحر الاسود وخرجت من تبعة الروم فتفوقت بهم عزمة كسرى وأنشأ مراكب الحرب بالبحر الاسود وعقـد النية على تسخيرهم فى تسييرها فلما أحسوا منه بذلك ندموا على دخولهم فى قبضة يده وصمموا على العود الى طاعة الروم فتجمعوا وتم لهـم الامر وتألبوا جميعا على طرد الفرس من بلادهـم ففازوا وذلك سنة تسع وستين وخمسمائة للميلاد أى سـنة سبع وستين قبل الهجرة * واستمرت الحرب بين فارس والروم وطال أمدها وقتل فيها مالايحصى عددا من الابطال ثم انتهت فى سـنة ست وسبعين وخمسمائة للميلاد أى سنة ستين قبل الهجرة بعقد الصلح بين الطرفين واستقرت قاعدته بينهما على رجوع المملكتين الى حدودهما القديمة وارجاع كل شئ الى أصله

واتفق فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة للميلاد أى سنة ثلاث وستين قبـل الهجرة أن اتحد البلغار بالصقالبـة من أهـل الجنوب واجتازوا نهر طونة فى الشـتاء وهو متجمد مثلج وأغاروا على ولاية روم ايلى التابعة لدولة الروم وكان قائد هذه الجموع يومئذ الامير زابرخان وكان فى ذلك العهد قد غضب يوسطانيوس الملك على قائد جيوشه الامير بيليسيرس وصرفه من خدمته فلازم العزلة والانكماش فلما كثر فساد تلك الجموع وتوالت اغاراتهم على البـلاد وعاثوا فيها حتى أهلكوا الحرث والنسـل ضاقت صـدور أهل البلاد واستولى عليهم الخوف

والوجل

والوجل واستغاثوا ولا مغيث وعلم الامير بيليسيرس بما حل بالمملكة وأنها فى خطب شديد فقام واستمال لنفسه جند الحرس الملوكى وكثيرا من الاهالى ممن حملهم على حمل السلاح وسار بهم لقتال تلك الجموع فظفر بهم وطردهم صوب نهر طونة ففرح به الاهالى فرحا عظيما وأحبوه حبا ماعليه من مزيد وفاز بالظفر والشهرة بعد الخمول ولكنه لم يلبث أن اتهمه أعداؤه بأنه يعمل على اثارة الفتن ضد القيصر وانه يحرض أهالى البلاد فقبض عليه يوسطانيوس واعتقله وصادره وسلب أمواله فمات محزونا مقهورا وترك له فى قلوب أهل البلاد أثر الاسى

ثم مات يوسطانيوس حتف أنفه سنة تسع وسبعين وخمسمائة للميلاد أى سنة سبع وخمسين قبل الهجرة وكان موته بعد موت الامير بيليسيرس بأشهر قلائل فكانت مدة ملكه ثمانيا وثلاثين سنة قيل وفى أيامه أناط بعض العارفين من أهل العلوم بتقنين القوانين وتنظيم اللوائح واستنباط القضايا المتنوعة والاحكام المتأصلة والمتفرقة واستخراجها من الكتب الرومانية وتنقيحها وتهذيبها فأجازت تلك القوانين لمن يتولى ملك الروم التصرف المطلق بحيث لايكون مقيدا يفعل فى سياسته مايشاء ويختار ٭ وحدث فى أيامه طاعون هلك فيه كثير من الخلق ووقعت الزلازل الهائلة فكان منها زلزلة سنة خمس وستين التى هدمت أكثر المدن العظيمة ودمرتها تدميرا وقد حازت دولة القسطنطينية فى أيامه شهرة كبيرة جدا ٭ وكان حبه لمصر عظيما ويحب نجاحها وتقدمها ولذلك تعاهد مع نجاشى الحبشة بقصد جلب التجارة الى مدينة الاسكندرية غير أن نائبه عليها كان عاتيا ظالما قد كلف أهل الاسكندرية مالا يطيقونه وأثقلهم بالمغارم وشدد عليهم فى أمورهم فكان ينفى من لايقوم بوفاء تلك المغارم الثقيلة ويبعده وقد كان أقام عليهم بطركا اسمه طيودوسيس فقام جميع أهل الحرف والصنائع والاعيان ولم يقبلوه وتهددوا الوالى بالخروج ان هو أصر على ذلك فأمر قائد جنوده المدعو نرسيس فأحرق مدينة الاسكندرية وأقام طيودوسيس عليهم بطركا جبرا ولكنهم عزلوه وطردوه بعد موت يوسطانيوس الملك

ومات فى أيامه تيموثلوس بطرك الاسكندرية ونفى فكانت مدته سبع عشرة سنة منها ثلاث سنين فى النفى وقاسى شدائد عظيمة جدا فخلفه اوليادوس وكان ملكيا فجد واجتهد فى رجوع المسيحيين بأجمعهم الى رأى الملكية وبذل جهده فى ذلك وألزم نصارى مصر بقبول الامانة الحدثة فوافقوه ووافقه رهبان ديارات ومقاد بوادى هبيب هذا ويعقوب البراذعى يدور فى كل موضع ويثبت أصحابه على الامانة المستقيمة والقول بمقالة دسقورس ٭ وأمر الملك جميع الاساقفة بعمل الميلاد فى خامس عشرى كانون الاول وبعمل الغطاس فى ست تخلو من كانون الثانى وكان كثير منهم يعمل الميلاد والغطاس فى يوم واحد وهو سادس كانون الثانى قلت وعلى هذا الرأى طائفة الارمن الى يومنا هذا

وفى هذه الايام أيضا ظهر يوحنا النحوى بالاسكندرية وزعم أن الاب والابن والروح القدس ثلاثة آلهة وثلاث طبائع وجوهر واحد وظهر وليان وزعم أن جسد المسيح نزل



من السماء وانه لطيف روحانى لايقبل الالم الاعند مقاومة الخطيئة والمسيح لم يقترف خطيئة فلذلك لم يصلب حقيقة ولم يتألم ولم يمت وانما ذلك كله خيال فأمر يوسطانيوس الملك ثيموثاوس البطرك يومئذ أن يرجع الى مذهب الملكية فلم يفعل فأمر بقتله ثم شفع فيه فنفى كاتقدم القول وما زال اوليباديوس يدبر شؤن البطريكية حتى مات فاقيم بعده بولس وكان ملكيا فأقام سنتين فلم يرضه المتأصلون وقيل انهم قتلوه وصيروا عوضاعنه ديلوس بطرركا وكان ملكيا أيضا فأقام خمس سنين ومات فبلغ يوسطانيوس أن المتأصلين غلبوا على الاسكندرية ومصر وأنهم لايقبلون بطاركة فبعث الى الاسكندرية أولنباديوس أحد قواد جنوده وضم اليه عسكرا كثيرا فلماقدمها ودخل الكنيسة نزع ثياب الجند ولبس ثياب البطاركة وقدس فهم الناس برجمه فانصرف وجمع عسكره وأظهر أنه قدأتاه كتاب الملك ليقرأه على الناس وضرب الناقوس فى الاسكندرية يوم الاحد فاجتمع الناس الى الصلاة حتى لم يبق أحد فصعد المنبر وقال

ياأهل الاسكندرية ان لم تتركوا مقالة اليعقوبية والا أخاف أن يرسل الملك من يقتلكم ويبيح أموالكم ونساءكم فهموا برجمه وهو على المنبر فأشار الى العسكر فوضعوا السيف فيهم فقتل من الناس يومئذ مائة ألف نفس وفر منهم خلق الى الديارات بوادى هبيب وأخذ الملكية كنائس المتأصلين ومن يومئذ صار كرسى المتأصلين فى دير بومقار بوادى هبيب ❊ وفى هذه الايام أيضا ثار السامريون على أرض فلسطين وهدموا كنائس النصارى وأحرقوا مافيها وقتلوا جماعة من النصارى فبعث يوسطانيوس جيشا فقتلوا من السامريين خلقا كثيرا ووضع من خراج فلسطين جملة وجدد بناء الكنائس وأنشأ مارستانا ببيت المقدس للمرضى ووسع فى بناء كنيسة بيت لحم وبنى ديرا بطورسيناء وعمل عليه حصنا حوله عدة قلاع ❊ قلت وهو باق الى يومنا هذا وكذلك رتب فيها حرسا لحفظ الرهبان

وفى أيامه كان المجمع الخامس من مجامع المسيحيين ❊ قال بعض أهل التاريخ وسببه أن اريحانس أسقف مدينة نبج قال بتناسخ الارواح وقال كل من أسقف انقره وأسقف المصيصة وأسقف الرها ان جسد المسيح خيال لاحقيق فخافوا الى الاسكندرية وجمع بينهم وبين بطريركها أوطس وناظرهم وأوقع عليهم الحرمان فأمر يوسطانيوس أن يجمع لهم مجمعا ورسم باحضار البطاركة والاساقفة فاجتمع مائة وأربعون أسقفا وحرموا هؤلاء الاساقفة ومن يقول بقولهم فكان بين المجمع الرابع الخلقدونى وهذا المجمع مائة وثلاث وستون سنة وأقام القائد أولنباديوس بطرركا مدة سبع عشرة سنة على المشهور ومات فقام بعده يوحنا وكان منانيا فأقام ثلاث سنين ومات فتقوى المتأصلون بعد ذلك وأقاموا عليهم بطرركا اسمه تاودوسيوس وهو ثالث ثلاثيهم فلم يقف الملكية عند حدهم بل أقاموا أيضا بطرركا ثانيا اسمه اثيوس وشكوا المتأصلين فكتب الملك الى متولى الاسكندرية أن يعرض على بطرك اليعاقبة أمانة المجمع الخلقدونى فان لم يقبلها أخرجه وأقام بدله اثيوس فعرض عليه ذلك

فلم

فلم يقبل فأخرجه وأبعده وأقام بعده بولس التنيسي فلم يقبله أهل الاسكندرية ومات فقفلت كنائس المتأصلين وأصابهم من الملكية مالا يوصف من الاذى والشدة مما لامحل لايراده هنا * ولما مات يوسطانيوس الملك خلفه على سرير الملك يوسطينوس الثانى

(فى الملك يوسطينوس)
(قيصر الثانى)

ثم قام بالامر يوسطينوس الثانى بويع بالملك فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة للميلاد أى سنة سبع وخمسين قبل الهجرة وكان حسن السيرة حميد الخصال مستقيما عادلا منصفا أنسى باستقامة أحواله اعوجاج أسلافه ففرح به الناس وأخلصوا له فى المحبة وحسبوه منة من الله سبحانه على عباده بعد تلك الشدائد والخطوب ولكن لم يلبث أن تغيرت أحواله وتبدلت أطواره فانعكف على اللذات وأسرف فى الشهوات وجار وظلم وترك تدبير الدولة لزوجته صوفيه فترتب على ذلك فساد حال الامة واضمحلال أحوال الدولة وذلك أنه لما كان ركن الدولة الرومية والمدبر لامورها والقائم باعلاء كلمتها انما هو الامير ترسيس الطواشى وكان هذا الامير ارتقى المراتب العلية فى أيام يوسطنيانوس قيصر وكان حازما مدبرا لامور الدولة ساعيا فى الصلح والحرب ميالا لرفعة شأنها واعلاء كلمتها فلما تولى الملك يوسطينوس وسلم زمام الدولة لزوجته صوفيه غارت منه وحقدت عليه وسعت به عند الملك وما زالت حتى غضب عليه وخلعه من منصبه فتقوى بخلعه أعداء المملكة وصاروا يراقبون الفرص للايقاع بها * وقدمت فى هذه الاثناء رسل من طرف خان التتار الهبارة على القسطنطينية يرغبون فى معاهدة يوسطينوس فأظهر التعاظم والابهة ولم يرض بمعاهدتهم وعقد مع خان التركمان معاهدة وتحالف معه على مناصرته على كسرى فارس وكانت هذه المعاهدة تؤذن أيضا بفتح باب التجارة والمعاملة فى وسط بلاد المشرق مع الدولة الرومية وكانت المنافسات بين الروم وفارس مازالت قائمة على بعض الامور فانتشبت الحروب بين يوسطينوس وأنوشروان كسرى فارس لتنازعهما على بلاد أرمينية الفارسية فأغار أهل فارس على أراضى الروم وعاثوا وقتلوا ونهبوا وأسروا ثم انقطع الحرب بموت كسرى وقيصر الى حين فلما مات كسرى أنوشروان تولى الملك بعده ابنه هرمز الذى سيأتى الكلام على ماوقع منه فى محله ان شاء الله تعالى غيرأنا نقول هنا حرصا على الفائدة انه يوم ملك هرمز المذكور نطق بالحكم فى مقالة مطلعها * الحكم عماد الملك * والعقل عماد الدين * والرفق ملاك الامور * والفطنة ملاك الفكرة * أيها الناس ان الله خصنا بالملك وخصكم بالعبودية وكرم مملكتنا فأعتقكم بهامن عبوديتنا وأعزنا وأعزكم بعزنا وقلدنا الحكومة فيكم وقلدكم الانقياد لامرنا * الى ان قال ولا تنسوا النسك برياء

ولا الرياء مراقبة ولا الشر شجاعة ولا الظلم عزما ولا الرحمة ثقة ولا الصنع عفافا ولا الاخذ بالفضل ذلا ولا العناية غفلة ولا الغدر ضرورة ولا الورع اجتهادا ولا الخيانة غنما ولا القصد تقتيرا ولا البخل اقتصادا ولا الزهد مروأة ولا التوانى تؤدة ولا الحياء مهانة ولا السفه صرامة ولا العجب كالا ولا مالايكون كائنا ولا المعاتبة مفاسدة أيها الناس اجتنبوا المرذول من هذه الامور المتشابهات وثابروا على ماتحفظونه عندنا الى آخر ماقاله من الحكم البليغة والنصائح المؤثرة فى النفوس التى لم يسبقه اليها قائل

أما يوسطينوس * فقال أهل التاريخ * انه سار فى الرعية سيرة رديئة جدا بجار وظلم وسامها الخسف وأحت عليه زوجته صوفيه فتبنى طيبروس قسطنطين أمير جند الحرس الملوكى ثم مرض وأصابه الخبال فى عقله ولبث على هذه الحال الى أن مات حتف أنفه فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة أى سنة أربع وأربعين قبل الهجرة فكانت مدة ملكه ثلاث عشرة سنة خلفه فى الملك طيبروس قسطنطين متبناه

(فى الملك طيبروس قسطنطين)

(قيصر)

ثم قام بالامر طيبروس قسطنطين قيصر بويع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه يوسطينوس سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعين قبل الهجرة وكان يوسطينوس قد عهد اليه بالملك من بعده باغراء من صوفيه زوجته كما تقدم القول وكان الحامل لها على ذلك حبها له وتعلقها به ورغبتها فى التزوج به بعد موت يوسطينوس زوجها فلما استقر بطيبروس المنصب أعرض عن التزوج بها وتمادى على اعراضه فطاولته واستمالته وتحببت اليه فلم يقبل فلما أيست أثارت عليه الفتن والشرور وعملت على تذليله وحرضت العساكر على خلعه فلم تظفر بمرامها ولم تنجح فى مسعاها ومع ذلك فانه لم يعاملها الا بالرفق واللين ولم يسلك معها الا سبيل الحلم والصفح وكان حازما كريما متمسكا بالدين المسيحى أشد تمسك وكان يحب الديار المصرية كثيرا فلما علم أن أهلها شديدو التمسك بمذهب ديسقورس بذل الجهد فى تثبيت أركان هذا المذهب فيها وهم بان يجعله معتقد جميع نصارى مصر وأيد كنيستهم وعضدها وجعلها راسخة القدم كما هى الى يومنا هذا

وقد قلنا فيما سبق ان الملك يوسطينوس كان قد ناوى فارس على الحرب وان الحرب تأخرت بموته وبموت أنوشروان فلما تولى طيبروس الملك جرد جنوده على فارس وسار لقتال هرمز بن أنوشروان فقامت الحرب بينهما وكانت سجالا * قال بعض أهل التاريخ وكان هرمز

المذكور عادلا عاقلا كابيه يتنصف للمظلوم من الظالم وقد بالغ فى ذلك جدا حتى أبغضه خواصه ومن مآثره انه اصطنع صندوقا ليلقى المتظلم قصته فيه وكان يختم الصندوق بخاتمه لئلا تصل اليه أيدى بطانته وأمر باتخاذ سلسلة من الطريق نافذة الى مكانه وجعل بها أجراسا فكان المتظلم يجيء فيحرك السلسلة فيعلم به ويتقدم باحضاره وازالة مظلمته وكان مهيبا محسنا للسياسة جوادا أمضى من ملكه عشر سنين ولم يحرك أحد من ولاته ولا خرج خارج من رعيته حيث كان أبوه قد مهد له الملك وحضر له الرعية ورتب له أمور الدولة ولم يخرج عليه الاطيبروس ملك الروم وآخرون من ملوك الخوارج وكان خروج طيبروس فى ثمانين ألف فارس فانتصر على هرمز نصرات متعددة وجند فارس لم تزل مثابرة على الحرب والروم تسعى فى عقد الصلح فلم تتمكن من ذلك وما زالت الحرب قائمة على ساقها الى زمن موريقوس قيصر كما سيأتى ذكر ذلك فى محله * وطرد طيبروس قيصر التتار الهبارة الابفورية عن بلاده أيضا وأبعدهم الى بلاد المجار والافلاق والبغدان وكانت أيامه مسعودة وغزواته موفقة فكانت الرعية تودلوتدوم عليها أيامه وعند سلطانه عسى أن يعيد للبلاد رونقها القديم وبهجتها الاولى الأان المنية اخترمته فى أقرب وقت فمات حتف أنفه سنة ست وتسعين وخمسمائة للبلاد أى سنة أربعين قبل الهجرة فكانت مدة ملكه أربع سنوات وقد عهد قبل موته بالملك لزوج ابنته الامير موريقوس القائد الشهير لخلفه على سرير الملك

(فى الملك موريقوس وهو موريقس)

(ويقال له أيضا)

(موريثيوس طيبروس)

ثم قام بالامر موريقوس زوج ابنة طيبروس بعهد منه فى سنة ست وتسعين وخمسمائة للبلاد أى سنة أربعين قبل الهجرة وكان قائدا لفريق من الجيوش الرومية فاشتهر بالبسالة والاقدام وكان موفقا فى حروبه فانتصر على فارس عدة نصرات فأحبه طيبروس الملك حبا شديدا وزوجه ابنته وعهد اليه بالملك من بعده

فلما استقر به المنصب دبر فأحسن التدبير ورتب الامور وقد حاز غاية الفخر والشهرة لانه أعاد الى كرسى سلطنة فارس ابرويز خسرو بن هرمز بعد أن كان قد نزعها عقب فتنة عظيمة لابأس بايراد خبرها هنا لان لها علاقة بتاريخ بعض القياصرة المتأخرين * وبيان ذلك أنه لما خرج على هرمز ملك الروم وملك الخزر والترك وكانوا كلهم أعداء له وخشى منهم على مملكة فارس أحضر اليه قائدا من قواده صائب الرأى مسموع الكلمة اسمه



بهرام جوبين * ومعنى جوبين اليابس الصلب * وكان بهرام جوبين المذكور شجاعا مبارزا طويلا أعجف كأنه العود اليابس فأعدهلقتال أعدائه فسار لقتال قبائل التركمان فاشتد عليهم وهزمهم ونهب وسلب وأسر وأجلى الجم الغفير منهم عن البلاد واستولى على مدن كثيرة وأرسل بذلك الى هرمز كسرى فخاف عند ذلك هرمز على ملكه من بهرام جوبين المذكور وحقد عليه فقامت بينهما فتنة واشتدت حتى أدت الى القتال فانحاز أكثر العساكر الى جانب بهرام وصاروا له عونا على هرمز وكان ابرويز بن هرمز مطرودا من أبيه مقيما باذربيجان فبلغه ما كان عليه أبوه من حالة الضعف وخشى من استيلاء بهرام جوبين على الملك فقصد ابرويز أباه وأمسكه وسمل عينيه ولبس التاج وجلس على سرير الملك فكان من ابتداء ملك هرمز الى استقرار ابنه ابرويز في الملك نحو ثلاث عشرة سنة ونصف سنة قال أصحاب التاريخ وصار ملك فارس الى ابرويز في السنة التاسعة عشرة من مولد صاحب الشريعة الاسلامية وطال ملكه الى أن خلفه ابنه شيرويه في السنة السادسة من الهجرة كما سيأتي ذكر ذلك في محله * وكان قد بعث اليه صاحب الشريعة الاسلامية كتابه مع دحية الكلبي يدعوه الى الاسلام فمزقه ابرويز شذر مذر فدعا عليه صاحب الشريعة بأن يمزق الله ملكه كما مزق هو الكتاب فأرسل ابرويز الى عامله باذان ملك اليمن أن يقتل صاحب الشريعة فعين باذان الى المدينة قاصدا لينظر في انفاذ هذا الامر بطريق الحيلة فلما جاء القاصد الى صاحب الشريعة أخبره صاحب الشريعة أن كسرى ابرويز قتله أولاده اليوم فعاد القصاد الى باذان خاسرا خائبا وحدثه بالخبر فلما صح قيل ان باذان أسلم وحسن اسلامه وخالف بهرام ابرويز كسرى المذكور وخرج عليه مظهرا أنه يريد الانتقام منه نظير ما فعله بأبيه هرمز فجرت بينهما حروب هائلة كانت نهايتها تغلب بهرام على مملكة فارس وأخذه تاج الملك فخشى ابرويز من بهرام أن يقيم والده الاعمى ملكا بالاسم ويتصرف هو في الملك ويستقل أمره فاتفق مع خواصه على قتل أبيه هرمز فخنقه ولحق بموريقس ملك الروم مستنجدا به على بهرام جوبين فلامه موريقس على ما فعله بأبيه أولا وثانيا ومع أن ابرويز كان من أشد أعداء موريقس فقد أخذ بناصره ولم يرده خائبا وأرسل معه جيشا جرارا مقدمه الامير قومندولس فانتشب القتال بينه وبين بهرام جوبين ولبثت الحرب ثلاث سنين متتابعة حصل فيها ثلاث وقائع هائلة غير الحروب الصغيرة وتم الامر بانتصار خسرو ابن ابرويز على بهرام فهرب بهرام الى خراسان عند ملكها شاريه شاه وكان جد ابرويز لامه فدس لبهرام من يقتله بالسم فهلك بهرام بخراسان وعاد ملك فارس الى ابرويز ففرق في عساكر الروم أموالا جليلة ثم أعادهم الى موريقس بعد ان أقاموا أربع سنين

وكان موريقس قد اشترط على كسرى أن يعيد اليه ما كان قد استلبه بهرام من البلاد الرومية وعاهده على ذلك سنة خمس عشرة وستمائة للميلاد أى سنة احدى وثلاثين قبل الهجرة وبذل موريقس الجهد في اخفاق تثار الهيارة وتمزيق شملهم فبعث اليهم قائد جيوشه

فظفر

فظفر بهم على سواحل نهر طونة فى خمس وقائع غير أنه أسر فيها من عساكر الروم اثنى عشر ألف نفس وطلب خان الهيارة من موريقس الفداء وجعل على كل رأس منهم دينارا وكان موريقس شديد البخل فلم يرض بذلك فطلب نصف دينار فأبى أن يعطيه شيأ قال بعض أصحاب التاريخ فغضب خان التتار من فعال موريقس فامر بالاسرى فذبحوا عن آخرهم فقام الروم وصار يطلب الوالد ولده فلم يجده والولد أباه والزوجة زوجها والاخ أخاه فعلموا أنما أصابهم من قبل التتار وأن السبب فى ذلك موريقس فقاموا عليه وكان الامير فوقاس القرمانى أحد قواد العساكر الرومية خارجا عن القسطنطينية فى هذا الحين فلما علم بخبر الفتنة وتحقق كراهة الرعية للملك وقيامها عليه سعى فى استمالة الجنود الخارجة عن طاعة الملك فمالوا اليه وبايعوه بالملك فزحف بهم على القسطنطينية وناوش من فيها ثم تملكها بعد حروب خفيفة جدا فلما دخلها قبض على موريقس الملك وأولاده وضرب أعناقهم جهارا وجلس على سرير الملك وكان أولاد موريقس الذين قتلوا معه يومئذ ستة كلهم ذكور

وفى أيام موريقس مات تودوسيوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام اثنتين وثلاثين سنة وقيل احدى وثلاثين قضى منها ثمانيا وعشرين سنة منفيا مبعدا عن الاسكندرية فى صعيد مصر وفى رواية أن مدة نفيه كانت أربع سنين لاغير وكان موته فى ثامن عشرى بؤنة وفى أيامه جدد المتأصلون كنيستين فى سنة ثمان وأربعين ومائتين لدقلطيانوس وخلف تودوسيوس المذكور بطرس الرابع وهو رابع ثلاثيهم وكان متأصلا فأقاموه فى خفية بدير الزجاج بالاسكندرية قدمه ثلاثة أساقفة وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله • وظهر فى أيام موريقس الملك أيضا راهب اسمه مارون زعم أن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة وأقنوما واحدا فتبعه أهل حماة وقنسرين والعواصم وجماعة من الروم ودانوا بقوله فعرفوا بين المسيحيين الى يومنا هذا بالمارونية أو الموارنة فلما مات مارون هذا بنوا على اسمه دير مارون بحماة وهو قائم الى يومنا هذا

(فى الملك فوقاس)

(قيصر)

﴿ ويقال له أيضا ﴾

(فوقا)

ثم قام بالامر فوقاس قيصر جلس على سرير الملك فى اليوم الذى قتل فيه موريقس



وجميع أولاده سنة ست وعشرين وستمائة للميلاد أى سنة عشرين قبل الهجرة وكان فوقاس هذا عتلا زنيما منهمكا على اللذات والشهوات كثير الحرص والطمع قليل الحساب جبانا وكان يكره المصريين ويميل الى نكايتهم فرسم بان يحظر عليهم التقليد بالمناصب الملكية والرتب والوظائف وكافة الخدامات الميرية فقامت لذلك فتنة فى مدينة الاسكندرية

قال بعض الكتاب وكان معظم القائمين من يهود هذه المدينة فقام عليهم فوقاس وقهرهم وألزمهم الدخول فى الديانة النصرانية فدخلوها صاغرين وسكنت بذلك الفتنة وعادت الامور الى ما كانت عليه من قبل

وكان ابرويز خسرو بن هرمز ملك فارس قد رسخت قدمه فى ملك البلاد بعد انتصاره بجيوش الروم على عدوه فطغى وبغى واحتقر الاكابر وظلم الأصاغر وأهان الرعية وسامها الخسف وكان قد عقد مع موريقس صلحا كاذبا ولكنه لما علم بقتل فوقاس لصاحبه موريقس أظهر الأسف والحزن عليه وأنه يريد الاخذ بثاره من فوقاس بجرد على فوقاس عسكرا جرارا واسترد من بلاد فارس التى كانت بيد الروم اقليم ارقة والجزيرة وارمينة والشام وقطنة من أعمال أناضلى فنال الفرس من الروم وغلبوهم أشد الغلبة على بلادهم فصار أبرويز أعدى عدو لفوقاس ومع ضعف فوقاس عن مقاومته وعدم قدرته سير جيشا عظيما لقتاله وكانت جنود هذه الحملة جميعها تكره فوقاس وتتمنى انخذاله فساروا للقتال على كره فانتصر عليهم ابرويز وبدد شملهم فهربوا وتشتتوا وتقدم ابرويز بجنوده حتى صار على مقربة من قسطنطينية وكان بها رجل من ذوى الوجاهة والاعتبار اسمه فوتيوس وكان له زوجة بديعة فى الجمال عفيفة قد تعلق بها فوقاس الملك وفضحها لانهماكه على الفسق وانغماسه فى القبائح فلما حاصر ابرويز المدينة وضيق عليها وشدد على فوقاس قام فوتيوس المذكور مع بعض الروم وراسلوا الأمير هرقل والى بلاد افريقية سرا بان يقدم الى القسطنطينية ويخلصها من يدى العدو المحدق بها من كل جانب ويخلع فوقاس ويتولى الملك بدله وشددوا فى طلبه وحذروه من عاقبة التأخير كيلا تسقط البلاد فى أيدى الأعداء فلما وصل الكتاب لهرقل جهز عمارة سفن قرطاجنة وسيرها مع ابنه من افريقية فرسا فى بوغازها وجاء الخبر الى فوتيوس بتقدم هرقل فاندفع فوتيوس ومن معه من الروم الى اضرام نار الفتنة فى جوف البلاد ضد فوقاس وما زالوا حتى اشتدت وعمت سائر الانحاء وقامت الرعية تطلب خلع فوقاس وتنصيب هرقل مكانه

ووصل هرقل وجعل يحتال على فتح البوغاز ودخول المدينة بينما كان فوتيوس يحاول مع أصحابه حصر فوقاس فى قصره فتم لهرقل الدخول من بوغاز المدينة حتى تم لفوتيوس القبض على فوقاس فأتى به الى هرقل فى سفينة وأوقفه بين يديه فنظر فوقاس الى هرقل شزرا وأغلظ فى القول وكانت العامة على الشاطئ تطلب قتل فوقاس فعلت أصواتهم عند ذلك وصاحوا بقتل بقتل الساعة فأمر هرقل أن يسلم لهم فضربوا عنقه فى الحال وعتق

جميع

جميع إخوته وأصحابه كما فعل هو بموريقس سلفه وبايعوا هرقل على ظهر سفينته بالملك وذلك سنة اثنتى عشرة قبل الهجرة أى سنة أربع وعشرين وستمائة للميلاد فكانت مدة ملك فوقاس ثمان سنين

وفى أيام فوقاس المذكور سير كسرى ملك فارس جيوشه الى الشام ومصر فخربوا الكنائس بيت المقدس وفلسطين وكافة بلاد الشام وقتلوا المسيحيين بأجمعهم وأتوا الى مصر فأعانهم يهود مصر على قتال المسيحيين بها وتخريب كنائسهم فقتلوا ونهبوا وعاثوا وفعلوا مالا خير فيه وأقبلوا نحو القدس من طبرية وجبل الجليل وقرية الناصرة ومدينة صور وبلاد القدس بأسرها فنالوا يومئذ من النصارى كل منال وأعظموا النكاية فيهم وخربوا لهم كنيستين بيت المقدس وحرقوا أماكنهم وأخذوا قطعة من عود الصليب وأسروا بطرك بيت المقدس وكثيرا من أصحابه ثم سار كسرى بنفسه من العراق لغزو القسطنطينية كما أشرنا الى ذلك فيما تقدم لحاصرها وضيق عليها أربع عشرة سنة ولم ينل منها

ومات فى أيام فوقاس بطرس بطرك الاسكندرية فكانت مدته سنتين اثنتين لم يدخل فيهما الاسكندرية لتغلب الملكية وضعف المتأصلين فأقام الملكية يوحنا المعروف بالرحيم بطركا عليهم واتخذل المتأصلون فلم يقدروا على اقامة بطرك منهم فدبر يوحنا هذا أرض مصر كلها عشر سنين ومات بقبرس وهو فار من وجه الفرس بعد دخولهم بلاد مصر فخلا كرسى الاسكندرية سبع سنين لخلو أرض مصر والشام من الروم بأسباب الحروب وتوارى من بقى بها من المسيحيين خوفا من الفرس فحدث بسبب ذلك شدة عظيمة جدا

(فى الملك هرقـــل)

(قيصر)

ثم قام بالامر بعد فوقاس الملك هرقل بايعه الاهالى وأعيان المدينة والعسكر على ظهر سفينته ببوغاز القسطنطينية فى اليوم الذى قتل فيه فوقاس الملك سنة اثنتى عشرة قبل الهجرة أى سنة أربع وعشرين وستمائة للميلاد

قال بعض أهل التاريخ فكان مشؤم الطالع وقع فى أيامه من العجائب والحروب مايذهل العقول ويحير الالباب وقد ذكرنا فيما سبق أن ابرويز بن هرمز ملك فارس كان قد حضر على مقربة من القسطنطينية لقتال فوقاس والانتقام منه جزاء مافعله بصاحبه موريقس فلما علم بموت فوقاس وتولية هرقل تقوت عزيمته ولم ينكف عن اثارة الحرب وتقدم الى قتال هرقل فخابره هرقل فى عقد صلح فلم يقبل وتطاولت عساكره الى الاغارة على الشام حيث كانت بلاد الموصل اذذاك فى قبضة ملكهم ثم أغاروا كذلك على ديار مصر وهاجموا



الشام وأحرقوا أنطاكية ودمشق ومدينة بيت المقدس حتى وصلوا الى طريق الحجاز وكان فى عزمه أن يمحس جميع المسيحيين فى هذه الجهات أى يجعلهم عبادا للنار ويمحو آثارهم ويقطع شأفتهم ثم أرسل قائدا من قواده بجيش جرار الى ديار مصر وبلاد المغرب فنال من ذلك مانال وانتصر عليهم نصرات عظيمة ثم صالح مصر على أن تدفع له مالا معلوما كما كانت تدفع الى الروم وأعاد الكرة على بلاد الاناضول فاستولى على بلاد بروسه الواقعة فى بوغاز قسطنطينية سنة ثمان وعشرين وستمائة للميلاد أى قبل الهجرة بثمان سنوات واستعان ابرويز على تدويخ الروم بقبائل التتار الهيارة الذين هم الاوارة وتعاهد معهم على أن يشنوا الغارة على اقليم روم ايلى فأغاروا عليه حتى وصلوا الى أسوار القسطنطينية وذلك قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين فتمت الهزيمة على الروم فى بلادهم بآسية وأوروبا وحوصروا برا وبحرا فأيس هرقل من النصرة وارتياع البلاد وعقد النية على المهاجرة الى تونس ببلاد المغرب اذ كانت يومئذ من أملاك الروم وأن ينقل سريره اليها فصده عن هذه النية بطرك القسطنطينية وما زال به حتى كف عنها

ولما منع بطرك القسطنطينية هرقل عن الفصل عن المملكة وعن الذهاب الى المغرب جمع البطريرك المذكور أموال الكنيسة وأمتعتها الثمينة وأمد بها هرقل على حفظ ما بقى من دولة الروم من الزوال وكان هرقل قد استيقظ من غفلته فقوى جيشه وجأشه ونقل ميدان الحرب خلف جبل طوروس وقاتل الفرس فانتصر عليهم فى الموضع الذى انتصر فيه الاسكندر على دارا فكانت هذه أول غزوة انتصر فيها الروم على الفرس بعد التغلب فى السنة الثانية من الهجرة ثم سير جنده بحرا حتى أرسى على طرابزان وتعاهد مع الخزر وأغار على خسرو ابرويز حتى كاد يتغلب على حدود مملكته وبعد شمل التتار المعاهدين لفارس وهزمهم على مقربة من القسطنطينية وكان قد تقوى بأربعين ألفا من الخزر فغزا فارس وأعاد جميع المدن والولايات التى كانت ملوكهم قد أخذوها وسار جنوده بعد ذلك الى المدائن بعد هزيمة الفرس عند الموصل * قال بعض الكتاب وكان بعض المنجمين قد أنذر ابرويز بان بعض ولده يغتاله فتشاءم ابرويز من جميع أولاده فحبسهم وكان فى سجونه ستة وثلاثون ألفا موثقين بالحديد فأمر لعتوه بقتلهم جميعا فنقم ذلك عليه أهل الدولة وأطلقوا جميع المسجونين مع أولاده ولم يقتلوا أحدا منهم وجمعوهم الى شيرويه أحد أولاده فجرى بين شيرويه وبين أبيه مراسلات وتقريع وقد قال شيرويه لابيه فى ختام المراسلة لاتعجب ان أنا قتلتك فانى انما أفعل كما فعلت أنت وأرسل شيرويه بعض أولاد الاساورة الذين قتلهم ابرويز وأمرهم بقتله فقتلوه فى السنة السادسة من الهجرة وكان قد خلف ابرويز ثمانية عشر ولدا غير شيرويه المذكور فقتلهم شيرويه كلهم وجلس على سرير الملك فلما استقر به المنصب عقد الصلح مع الروم على الشروط التى اقترحها هرقل كما شاء بلا خلاف فانحسم النزاع بين الفريقين وبطلت الحرب فى هذا العهد

ولم

ولم تكن أم شيرويه بنت موريقس قيصر الروم كما زعم كثيرون من مؤرخي الفرس وغيرهم حيث قالوا ان اسمها مارية وانه زوجها لخسرو ابروز حين استنجد به على أعدائه فان هذا بعيد * ولم تطل مدة شيرويه ولم يتمتع بالملك الاقليلا من الاشهر فانه لما سكنت الفتنة وانقطعت الحروب واستقر به المنصب الملوكى وكان قد علق بحب شيرين زوجة أبيه فراودها عن نفسها فامتنعت فضيق عليها ورماها بالزنا وأراد قتلها ان لم تفعل فقالت أفعل على ثلاث خصال قال وماهي قالت تسلم لى قتلة زوجي فأقتلهم وتصعد المنبر فتبرئني مما قذفتني به وتفتح لى ناوس أبيك فان له عندى وديعة عاهدني ان تزوجت بعده أن أردها اليه فدفع لها قتلة زوجها فقتلتهم وبرأها مما قاله لها وفتح ناوس أبيه وبعث معها الخدم فخلت الى ابروز فعانقته ومصت فصا مسموما كان معها فماتت من وقتها وأبطأت على الخدم فصاحوا فلم ترد عليهم فدخلوا فوجدوها معانقة لابروز ميتة رحمها الله

وكان شيرويه المذكور سيء المزاج كثير الاعراض وكانت اخوته على خلاف ذلك قد كملوا فى الخلق والخلق والادب قبل فندم على مافرط منه من قتلهم وجزع عليهم جزعا شديدا واتفق انه دخل لينظر مافى خزينة أبيه فرأى فيها برنية مكتوبا عليها (نافع مجرب لتقوية الباه) وكان شيرويه المذكور مغرما بالنساء مولعا بحبهن فتناولها وكان الذى فيها سما وضعه أبوه ابروز فلما ذاق منها مات لساعته فكانت مدة حكمه ثمانية أشهر لاغير ومات وعمره اثنتان وعشرون سنة فخلفه ابنه اردشير * قلت وعلى ذكر مافعله شيرويه المذكور بأبيه ابروز وما جرى له بعد قتله لأبيه نذكرهنا حادثة ماجرى لمحمد المنتصر العباسى بعد قتله لابيه المتوكل وهى أنه لما قتل محمد المنتصر المذكور أباه المتوكل ليتولى الملك بعده تحدث الناس بانه لايطول عمره بعده وشبهوه بشيرويه بن ابروز حين قتل أباه ولم يتمتع بالملك بعده فقيل انه بعد أن جلس المنتصر على سرير الخلافة بعد أبيه فرش له بساط لم ير مثله وعليه كتابة عجيبة بالفارسية فنظر اليها المنتصر نظر الاستحسان فاستحضر من يعرف الفارسية وأمره بقراءتها فأحجم عن ترجمتها فقال له المنتصر قل وما عليك من بأس فقال مكتوب على هذا البساط أنا شيرويه بن كسرى قتلت أبى فلم أتمتع بالملك بعده فتطير المنتصر من ذلك ونهض من مجلسه غضبان فلم تتم له مدة شيرويه حتى مات اهـ فان صح ذلك كان من غريب الاتفاق

هذا ولما اطمأن الروم من اغارات الفرس وارتاح هرقل الملك من العناء تفرغ لتحقيق العقائد الدينية التى كانت فى أيامه محلا للنزاع وأخذ يجمع الجموع من العلماء ويعقد المحافل وغير ذلك وظهر المتأصلون بديار مصر بعد الانكماش فأقاموا لهم بطركا منهم بعد خلو كرسى الاسكندرية مدة وهو داميانوس خامس ثلاثيهم وكان راهبا بدير أبى مقار فلم يدخل الاسكندرية لقيام الملكيين وأخذهم جميع كنائسها فما زال يعمل مع قومه حتى دخلها واسترد مااستولت عليه الملكية من كنائس المتأصلين ورمم منها ماتشعث فى أيام الفرس وجعل من ذلك العهد اقامته بالاسكندرية وأرسل اليه اناسيوس بطرك انطاكية هدية صحبة جماعة من



الاساقفة ثم قدم عليه زائرا فتلقاه وسرّ جدا بقدومه وصارت أرض مصر فى أيامه جميعها للتأصلين لخلوها من الروم

وثار اليهود فى أثناء ذلك بمدينة صور وراسلوا الباقين منهم وتواعدوا على الايقاع بالمسيحيين وقتلهم فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفا وهدموا كنائس النصارى خارج صور فتقوى النصارى عليهم وكاثروهم فانهزم اليهود شر هزيمة وقتل منهم خلق كثير وكان هرقل الملك قد خرج من قسطنطينية ليمهد الشام ومصر ويجدد ما خربه الفرس بعد تلك الحروب الهائلة فخرج اليه اليهود من طبرية وغيرها وقدموا له الهدايا الجليلة وطلبوا منه أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك فأمنهم وحلف لهم ثم دخل بيت المقدس وقد تلقاه المسيحيون بالصلبان والبخور والشموع المشعلة فوجد المدينة وكنائسها وقيامتها خرابا فساءه ذلك وتوجع له فأعلمه المسيحيون بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وايقاعهم بالمسيحيين وتخريبهم الكنائس وأنهم كانوا أشد نكاية عليهم من الفرس وقاموا قياما كبيرا فى قتلهم عن آخرهم وحثوا هرقل على الوقيعة بهم وحسنوا له ذلك فاحتج بما كان من تأمينه لهم وحلفه فأفتاه القسوس بان لاحرج عليه فى ذلك فانهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم وانهم يقومون عنه بكفارة يمينه بان يلتزموا ويلزموا المسيحيين كافة بصوم جمعة فى كل سنة عنه على ممر الازمان والدهور فمال الى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء جدا حتى أبادهم جميعا ولم يبق فى ممالك الروم بمصر والشام منهم الامن فر واختفى فكتب البطاركة والاساقفة الى الآفاق بالزام المسيحيين بصوم أسبوع فى السنة فالتزموا بصومه الى يومنا الذى نحن فيه وعرف عندهم بجمعة هرقل وتقدم هرقل بعد ذلك بعمارة الكنائس والديارات وأنفق عليها مالا جزيلا حتى أعاد الكثير منها الى ما كان عليه من الرونق والبهجة ثم مات حتف أنفه سنة تسع عشرة للهجرة أى سنة أربعين وستمائة للميلاد فكانت مدة ملكه احدى وثلاثين سنة وهو آخر من ملك مصر من ملوك القسطنطينية وكان فى أيامه فتح جيوش المسلين لديار مصر كما سيأتى بيانه فى محله ان شاء الله

(خاتمـــة)

(فى ملاحظات تتعلق بديار مصر فى أيام هذه الدولة)

(التى هى دولة الروم المسيحية)

(وفيها كان سببا لسهولة فتحها على يدى عمرو بن العاص وخذلة الروم)

اعلم أنه وان كانت ديار مصر لم تنـل فى أيام دولة الروم تمام حظها من الراحة والعمار والتمدن وذلك لتوالى المصائب وعدم استقرار الامور على حال من الاحوال غير أنها قد نالت مزية أخرى وفائدة كبرى ألا وهى انسلاخها من دين الجاهلية وتدينها بالدين المسيحى فى جميع مدنها وقراها واشتهر من هـذا العهد أهلها باسم القبط فكانت الديانة الرسمية فيها الديانة المسيحية وكان ابتداء ذلك من اليوم الذى أصدر فيه الملك طيودوسيس الاول مراسيمه بوجوب اعتناق ذلك الدين وجعله الدين الرسمى كما تقدم الكلام فبقيت بها الحكومة مسيحية الى السنة الثامنة عشرة من الهجرة أى سنة تسع وثلاثين وستمائة للميلاد عبارة عن مائتين وتسع وخمسين سنة وكانت مصر الى هذا الحين معدودة من الايالات التابعة لدولة الروم بمدينة القسطنطينية وكانت فى جميع هـذه المدة محافظة على لغتها القديمة لاتتكلم الابها ولكنها أهملت طريقة الكتابة بالقلم البربائى واعتاضت عنه بالكتابة اليونانية على الطريقة المستعملة بمدينة الاسكندرية فكانت لغتها قبطية قديمة وطريقة كتابتها يونانيـة ولازالت على هذا الحال الى يومنا هـذا وقد تأخرت جدا الى أن صار لايستعمل منها الا العبارات الدينية عند المتأصلين من الامة القبطية * قال بعض الكتاب واعترى بعض ألفاظها تغيير يسير بحكم التلق وبقى الباقى منها على ما كان عليه

فلما انتشرت الديانة المسيحية واتسع نطاقها وعمتها الراحـة واستتبت الطمأنينة حينا عادت فصارت علة للحروب والمنافسات وسببا فى اشتداد الخطوب والمجادلات وتفاقم المحن الداخلية وميدانا للخلاف بين أساقفة القسطنطينية وأساقفة الاسكندرية الى حد افترقت معه الفرق وخرجت بسببه الخوارج واعتزلت معـه المعتزلة وصرفت الاموال الطائلة من شيعة الاحزاب وأصحاب الحل والعقد * وكان لفريق الاساقفة فى هذا الحين غاية النفوذ والاعتبار فى الدولة فكان ملوك الروم يعضدونهم على أغراضهم ويقومون بتنفيذ سائر رغائبهم ويبالغون فى تعظيمهم واجلالهم ويخضعون لهم الخضوع التام بصفة كونهم أمناء الدين وكانوا يجنحون الى صاحب الشوكة والاعتبار منهم ويميلون الى حزبه ويساعدونه على تأييده ونصره فنجم عن



ذلك ضعف نفوذ الحكام وتعطيل سير الاحكام وعجزهم عن العمل الابشورة أولئك القوم حتى انهم كانوا اذا استقلوا برأيهم فى شئ وعملوا بما تقتضيه مصلحة البلاد والشعب مثلا كان ذلك الطامة الكبرى على أولئك الحكام فيعزلون أويقتلون أويبعدون الى أقصى البلاد ولم يزل الحال على هذا الوصف حتى قامت الغيرة الدينية والحمية المذهبية بين الفرق على اختلافها وانتصر لكل مذهب من تلك المذاهب ملك من الملوك فى أيام سلطانه وحقد على باقى المذاهب وخالفها وعمل على تذليلها أومحو آثارها فكانت الفتنة لاتكف الا أياما ثم تهب باشد مما كانت عليه حتى افتتنت العائلات وحقد الاب على ولده والزوجة على زوجها والاخ على أخيه والابنة على أمها * هذا ما كان فى القسطنطينية وقد امتد عرقه الى ديار مصر وسرى فى أهلها وأمناء الدين بها فاختلفت فيها أيضا المذاهب وتشعبت المشارب وتفرقت الفرق وتحزبت الاحزاب وكان كل حزب منها له كمال النفوذ والسلطة على الحاكم السياسى فقامت من وراء ذلك الفتن وعمت الخطوب والاحن وأريقت الدماء هدرا فى الشوارع والازقة لاسيما بمدينة الاسكندرية وليس ذلك بين أمناء الدين والمتجادلين من المسيحيين فقط بل بين اليهود والمسيحيين أيضا لما بين الفريقين من البغضاء والشحناء الكامنة فى الصدور وتربص كل فريق منهم الفرص للايقاع بالآخر * قال بعض الكتاب وبلغت سلطة أمناء الدين ونفوذهم يومئذ الى حد أن جماعة الاساقفة أوواحدا منهم افتات على نائب مصر من قبل الروم وجمع جموعا كثيرة جدا من رهبان دير البرية فصاروا جيشا ضخما وسار بهم لقتال يهود الاسكندرية فهم النائب بمنع ذلك فلم يقدر اذ قام على أصحابه أولئك الرهبان وضربوا وجرحوا منهم خلقا كثيرا وقبضوا على خدامه ففر هاربا هو ومن كان معه الى مصر واستصرخ أهلها واستنصرهم فقاموا لنصرته وقبضوا على رئيس الفتنة فحوكم وحكم عليه بالجلد ومازالوا يجلدونه حتى قضوا عليه

وقد عظم الهول فى ديار مصر واشتد عليها الكرب فى القرن الذى قبل الهجرة اشتدادا عظيما رغما عن كل مابذله بعض ملوك الروم من العناية بمنع الشقاق والخصام وتوحيد رابطة الدين فى جميع البلاد المشرقية حتى انهم كانوا كلما شددوا فى ذلك زادت الشحناء وقويت حميتهم المذهبية وتزايد عنادهم وتفرقت كلمتهم لاسيما وقد كانوا لايعترفون لملوك الروم بحق التعرض للامور الدينية بوجه ما * قال بعض الكتاب وقد بلغ التعصب الى حد أن فرقة المتأصلين بكنيسة الاسكندرية تفرقت الى عشرة مذاهب مختلفة كان يسميها الملكيون قسوس الهراطقة كما كان المتأصلون يسمون أيضا الملكيين هراطقة ومعناها خوارج وكان القسيسون العشرة المذكورون فى كنيسة الاسكندرية فى أيام الملك زينون قيصر فلما علم بأمرهم وماهم عليه من الخلاف غضب وزاد المال المقرر على مصر فبلغ خمسمائة رطل ذهب فلما ملك انسطاش قيصر بعد زينون نظم دفتر العوائد تنظيما حتى آكثر الايراد كثرة بالغة واشتدت وطأة هذه العوائد على أهل البلاد فأصبحوا فى قلق دائم وكد ملازم ثم نهضوا الى

شق

شق عصا الطاعة فاشتدت نار الفتنة وحدث من الحوادث ذات الشأن مالايكاد يسمع بنظيره فى غابر الزمان فعمت بلك الفوضوية وتوالى قيام الاهالى فى الازقة والحارات وكثر الخوف بقطع الطرقات وتتابع الحريق والتخريب ونتج من ذلك كله ماترتب على حصول الفتن الداخلية من البلايا والرزايا والخراب ودرس معالم العمران والمدنية وماهذا الااختلاف المذاهب وتفرق الشيع وتحزب الاحزاب وتعصب ولاة الامور لفريق دون الاخر وقد اجتمعت كلمة أصحاب التاريخ على انه لم يدب عرق هذا الفساد فى ديار مصر الا بعد أن فضها ملوك القسطنطينية حيث كثر فيها الخلل وعمت القلاقل وفشا فيها الانهماك على الكبائر من الأعيان والأكابر والعربدة من الجنود والاصاغر ولم يكن لديها باعث آخر لاثارة نار هذه الفتن غير ماأوجبه الدين فكان هذامن أسباب فتوح الاسلام للبلاد ودخولها فى دور آخر غريب لم يكن لعامتها فى حساب وفى خلال هذه الخطوب المهمة والكروب المدلهمة وطئ العرب أرض الشام وطرقوها وقصد المغاربة ديار مصر وكادوا يحتلونها فقام عليهم عامل الروم ودهمهم بالعساكر المصرية وأبعدهم فكانوا يعاودون الكرة عليها حينا بعد حين ولاينفكون عنها طمعا فيمابانت فيه من الضعف وتفريق الكلمة

ولما اشتدت المنازعات الدينية وعلا لهيبها بين فريقى المتأصلين والملكية وطالت أيام الفتنة وضاق خناق أهل البلاد وأعيتهم الحيل من الاخذ والرد نهضوا الى الاستنجاد بالعرب على التخلص من الروم كما استنجد شاور وزير العاضد العلوى على الترك بالروم فذهبوا الى المقوقس عظيمهم أن يراسل صاحب الشريعة الاسلامية ويخاطبه فى الامر ففعل وبقى السر مكتوما لايعلم به أحد حتى استخلف عمر بن الخطاب فكان من قدوم العرب الى مصر ونزولهم على بلادها ومعاونة القبط لهم على قتال الروم وتمهيدهم السبل والعقبات أمام جيوش المسلمين وامدادهم بالمال والميرة وبجميع الاحتياجات الجندية ماسيذكر فى محله

وكان آخر ملوك القسطنطينية على ديار مصر قبل الفتح الاسلامى الملك هرقل وكان نائبه عليها المقوقس عظيم القبط فكان عدد ملوك القسطنطينية خمسة عشر ملكا أولهم طيودوسيس وآخرهم هرقل المذكور وكانت مدة ملكهم مائتين وتسعا وخمسين سنة كما رواه أكثر أهل التاريخ

﴿ تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى ﴾
مبتدئا بفذلكة من تاريخ العرب فى الجاهلية الى ظهور صاحب الشريعة الاسلامية ثم تاريخهم فى الاسلام الى مجىء السلطان سليم بجيوشه وأخذه البلاد عنوة ولبسه شعار الخلافة فى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية
أى سنة سبع عشرة وخمسمائة وألف
ميلادية والله سبحانه
المستعان



(فهرست)

الجـــــــزء الاول

من

تاريخ الـكافى

(فهرست الجزء الاول من تاريخ الكافى)


تمت

تصويب فى الجزء الاول

من الكافى

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
١١	٧	بألف وستمائة وست وخمسين	بألفين ومائتين وست وخمسين
١٣	٧	أربعة آلاف وخمسين	خمسة آلاف وأربع
٢٠	٥	عليا	عتليا
٢٠	١٢	احاذ	احاز
٢٠	١٥	لاحاذ	احاز
٢٠	٢٥	لاحاذ	احاز
٢١	٩	يهوياحاذ	يهوياحاز
٢١	١٩	يوشيا	يهوياحاز
٢١	٢١	يهوياحاذ	يهوياحاز
٢١	٢٢	يهوياحاذ	يهوياحاز

صحيفة

صحيفة





خطأ وصواب الجزء الاول من الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث

صحيفة	سطر	خطـــأ	صـــواب
١١	٧	بألف وستمائة وست وخمسين	بألف ومائتين وست وخمسين
١٣	٧	أربعة آلاف وخمسين	خمسة آلاف وأربع
٢٠	٥	عليا	عثليا
٢٠	١٢	أحاذ	احاز
٢٠	٥	لاحاذ	احاز
٢٠	٢٥	لاحاد	احاز
٢١	٩	يهوياحاذ	يهوياحاز
٢١	١٩	يوشيا	يهوياحاز
٢١	٢١ ٢٢	يهوياحاذ	يهوياحاز
٢٨	٥	فانه	فانه
٣٥	٤	تركنى	تركتى
٤١	٣٠	امن	من
٤١	٣٠	الملولـ	الملوك
٥٩	١٤	المخفذ	المنفذ
٦١	٢	تستة	ستة
٧٠	٢٢	تسكوا	تسكنوا
٧١	٧	قاصر	قاصرا
٧١	٧	القصد	لقصد
٧٥	١٢	ورآه	ورائه
٧٦	٢٧	اقصرو *	لقصر * وتحرير
٨٠	٢	وحيث	وبحث
٨٣	١٢	ايليا	اخنوخ
٨٣	١٣	ايليا	اخنوخ
٨٣	١٥	ايليا	اخنوخ

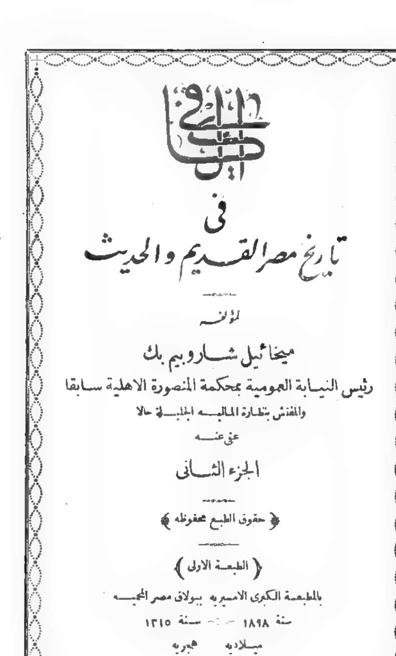
(تابع الخطا والصواب)

صحيفة	سطر	خطـــا	صـــواب
٨٤	٣٠	ضبروا	يضبروا
٨٩	١٨	سور	صور
٩٠	١٨	وعليه	عليه
٩٣	٧	رحل	لرجل
١٠١	١٦	الملك	علك
١٠٨	١٧	وقدمات	ومات
١١٧	٧	تصل اليه	تصل الى رمسيس السادس عشر
١١٨	٢٨	الى	التى
١٢٣	١٤	للملوك	الملوك
١٢٤	١٩	وقيل	قيل
١٢٧	٢٩	لاقتاتلن	لاقاتلن
١٣٣	١٣	وسزر	وسرر
١٤٧	٢٦	وقدعاد	وعاد
١٦٣	٦	ولما	لما
١٦٣	١٢	السعاذة	السعادة
١٦٤	١٩	معلق	معلقة
١٦٤	١٩	فيه	فيها
١٦٥	٢٢	عن	من
١٦٨	٥	التصير	التصبير
١٧١	١٢	بالمدنية	بالمدنية
١٧٢	١٩	سيرو	سيرو
١٧٩	١١	فكانت	فكان
١٩٢	١٦	ملوكهم	ملكهم
١٩٤	٤	عمانين	ثمانين
٢٠٩	١١	ساسيرة	سار سيرة
٢١٨	١٤	من	عن
٢١٩	٢٣	لهم فى كلة	لهم كلة
٢٢٠	١٧	اباءه	اباءته
٢٢٢	١٢	كراهية	كراهة

(تابع الخطا والصواب)

صحيفة	سطر	خطـــــا	صـــواب
٢٢٥	٢	ويجر	ويجرا
٢٢٧	١٠	حلفى	خلفن
٢٢٨	١٢	دمتريداطس	متريداطس
٢٤١	٢٤	منصب	بمنصب
٤٣	٥	مصاريفه	مصارفه
٢٤٦	١٣	هيردوس	هيرودوس
٢٦٤	٧	ذنه	ذمة
٢٧٦	١٩	الانطونية	الانطونيوة
٢٧٧	٣١	الانطونية	الانطونيوة
٢٨٩	٨	وخشى	نخشى
٢٩٠	١٥	متهم	منها
٣٠٢	١٧	انفق غلياندس مع	انفق مع
٣٠٧	١٣	مريانوس	نومريانوس
٣١١	١١	ضربا	ضربة
٣١٣	٢٣	فى الرفاهية	والرفاهية
٣١٨	١٩	بيزنيطه	بيزنطيا
٣٢١	١٩	ولم يلبثوا	ولم يلبثوا
٣٢١	٢٥	علك	ملك
٣٢٧	٩	يستبد بالملك	يستبد به
٣٢٨	٢٢	لودوس	نوديوس
٣٤٨	١٩	والخس	والنجس
٣٤٩	٦	ارسادوس	اريوس
٣٥٠	٢٦	توليهن	بتوليهن
٣٥٧	٤	طردوه	وطردوه
٣٥٩	٢١	فشبت	فنشبت
٣٦١	٧	تحت	تخت
٣٧٠	١٧	القصاد	القاصد
٣٧١	٥	فعلوا ان ما	فعلوا ما
٣٧٤	١٣	عن	ومن
٣٧٤	٢١	وسار	وسارت
٣٧٦	١٤	عر	مر

(تم التصويب)



الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه

ميخائيل شاروبيم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية سابقا

والمفتش بنظارة الماليه الجليلة حالا

عفى عنه

الجزء الثانى

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الاميريه ببولاق مصر المحميه

سنة ١٨٩٨ — سنة ١٣١٥

ميلاديه — هجريه

(بالقسم الادبي)

﴿تنبيه﴾

قد وضعنا ضمن هذا الجزء ورقة بما ظهر من الخطأ والصواب فى الجزء الاول من هذا الكتاب فالمرجو من القارئ وضع تلك الورقة فى محلها من الجزء الاول المذكور اه مؤلفه

(فهرس الجزء الثانى من تاريخ الكافى)

﴿تمت﴾



في

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه

ميخائيل شاروبيم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية سابقا

والمفتش بنظارة المالية الجليلة حالا

عفى عنه

الجزء الثانى

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الاميريه ببولاق مصر المحميه

سنة ١٨٩٨ — سنة ١٣١٥

ميلاديه هجريه

(بالقسم الأدبي)





لما كان من الواجب معرفة بعض شئ من أخبار العرب فى الجاهلية وطباعهم وعوائدهم ونسبهم وسكناهم وغير ذلك مما يتعلق بتاريخ أيامهم قبل الاسلام تتميما للفائدة المقصودة من التاريخ ولكى لا يكون اتياننا على تاريخ دولهم بعد الاسلام قليل الفائدة فسنذكر هنا فذلكة من تاريخهم القديم نقلا عما جاءت به كبار أصحاب التاريخ من الشرقيين والغربيين لتكون مقدمة يتوصل بها القارئ الى معرفة حوادث أيامهم فى مصر بعد الفتح

وقد قسمنا هذا الجزء الى ست مقالات وفى كل منها عدة فصول وبالله سبحانه الاستعانة وهو نعم المولى ونعم النصير

(المقالة الاولى)

(فى أخبار العرب فى الجاهلية)

وفيها فصول

(الفصل الاول)

(فى نسب العرب وطوائفهم)

قال المقريزى اختلف الكتاب فى نسب العرب وأصل تسميتهم فقال جماعة ان اسمهم اشتق من الاعراب بمعنى الابانة لقولهم أعرب الرجل عما فى ضميره اذا أبان عنه والاصح

انهم

أنهم نسبوا الى عربة وهي من تهامة ودعى جيلهم جيل الجاهلية لما كان عليه العرب من الجهل بالله وشرائع الدين والكبر والتجبر اه وقد قسم المؤرخون العرب الى ثلاثة أقسام عاربة ومتعربة ومستعربة * أما العاربة فهم العرب الاول الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم لتقادم عهدهم وفى رواية أنهم قوم أتوا فى غابر الازمان من الحبشة وعبروا الى اليمن من بحر القلزم بالقرب من الموضع الذى فيه الآن عدن فاستوطنوا تلك الناحية ثم صار لهم بها مملكة ولم تزل دار ملكهم الى أن خربت بسيل العرم * وأما العرب المتعربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان * وأما العرب المستعربة فهم ولد اسمعيل وفى رواية أنهم من افريقية أيضا ولكنهم عبروا الى الحجاز من خليج العقبة وانتشروا فى البلاد حتى تاخموا العراق من جهة والشام من أخرى وخالطوا السريان والفرس واليهود ولذا كانت لغتهم الى السريانية أقرب واختلط بها شئ من ألفاظ الفرس والعبريين أيضا * وكان العرب العاربة شعوبا كثيرة وهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الاولى وقد سمى أصحاب التاريخ هذا الجيل أيضا بالعرب البائدة بمعنى الهالكة لانه لم يبق على وجه الارض أحد من نسلهم قالوا وربما سموا بالعرب العاربة اما بمعنى الراسخة فى العروبية كما يقال ليل أليل وصوم صائم أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت فى أول أجيالها وقد استدل بعض المحققين على أصلهم الحبشى بشكل جماجمهم وما فى لغتهم من ألفاظ الحبشة كتبع من أسماء ملوكهم ومعناه القوى وحمير ومعناه الاحمر

وأما بنو عاد فقد كانت مواطنهم الاولى بأحقاف الرمل بين اليمن وعمان الى حضرموت والشحر وكان أبوهم عاد أول ملك من العرب وذكر المسعودى أن الذى ملك منهم بعد عاد شداد وهو الذى سار فى الممالك واستولى على كثير من بلاد الشام والهند والعراق ولما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتوهم وانتحلوا عبادة الاصنام والاوثان أبادهم الله وهلكوا عن آخرهم

وأما ثمود فكانت ديارهم بالحجر ووادى القرى فيما بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم فى الجبال فكانوا أهل كفر وبغى فأنذرهم بعض الانبياء فلم يصغوا الى دعائه فهلكوا جميعا حيث كانوا من الارض ودرجوا فى الغابرين

وأما جديس وطسم فكانت ديارهم اليمامة وهى اذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها ثمارا وحدائق وقصورا وكان ملك طسم غشوما مصابرا لجديس مستذلا لهم حتى قام الاسود وقتله غيلة

وأما جرهم الاولى فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالعربية فكانوا على عهد عاد ولتقادم انقراضهم ذهبت حقائق أخبارهم وانقطعت أسباب العلم بآثارهم قال بعض المحققين وأما جرهم الثانية فليسوا من البائدة بل هم من ولد قحطان وبهم اتصل اسمعيل ابن ابراهيم



وانما سمى بنو قحطان الذين هم القسم الثانى بالمتعربة لنزولهم بالبادية مع العرب العاربة وتخلقهم بأخلاقهم وهم بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام قال بعض أهل التاريخ وقحطان هذا معرب يقطان وهو أول من ملك أرض اليمن ولبس التاج قبل الميلاد المسيحى بألفين وثلاثين سنة وكان بنو قحطان معاصرين لاخوانهم من العرب العاربة ومظاهرين لهم على أمورهم ولم يزالوا مجتمعين فى مجالات البادية مبعدين عن رتبة الملك وترفهه الذى كان لاولئك فأصبحوا بنجاة من الهرم الذى يلزمه الترف والنضارة فتشعبت فى أرض الفضاء فصائلهم وتعددت فى جو القفر أفخاذهم وعشائرهم ونمى عددهم وكثر اخوانهم من العمالقة فى آخر جيلهم وزاحموهم بمناكبهم واستبدّوا على الدولة بما استأنفوه من عزهم وكانت الدولة لبنى قحطان متصلة فيهم قالوا وكان يعرب بن قحطان من أعاظم ملوك العرب ويسمى أيضا يمنا وبه سميت اليمن وهو أول من حيا والده بقولهم ﴿ أبيت اللعن ﴾ و ﴿ أنعم صباحا ﴾ وقيل انه أول من نطق بالعربية وملك بعد يعرب ابنه يشجب وكان واهى العزيمة فاستبدّ أعمامه بما فى أيديهم من الممالك وملك من بعده ابنه عبد شمس وأكثر الغزو فى أقطار البلاد فسمى سبأ لكثرة ماسبى وكانت قاعدة ملكه مدينة صنعاء ومن مدنه مأرب على ثلاث مراحل منها

وعظم أمر سبا المذكور وعلت كلمته فبنى فى مأرب سدّا مابين جبلين بالصخر والقار حقن به ماء العيون والامطار وساق اليه سبعين واديا وترك فيه خروقا على قدر مايحتاجون اليه فى سقيهم وهو الذى يسمى العرم ومات قبل أن يتمه فأتمه ملوك حمير من بعده وأقاموا فى جناته عن اليمين وعن الشمال ودولتهم يومئذ أوفر مما كانت وأترف وأبذخ وأعلى يدا وأظهر فلما طغوا وأعرضوا أجحفهم السيل وأغرق جناتهم وخربت أرضهم وتمزق ملكهم وصاروا أحاديث وكان هؤلاء التبابعة ملوكا عدة فى عصور متعاقبة وأحقاب متطاولة لم يضبطهم الحصر ولاتقيدت منهم الشوارد وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن الى مابعد عنهم من العراق والهند والمغرب فاختلفت لذلك أحوالهم ووقع اللبس فى نقل أخبار أيامهم ومع ذلك فسنأتى بايراد ماصح منها على قدر الاستطاعة لعدم الوقوف على أخبارهم مدوّنة فى مؤلف واحد

وكان لسبا المذكور كثير من الاولاد وأشهرهم حمير وعمرو وكهلان فكانت التبابعة تعزى الى حمير والمناذرة الى عمرو وتنتهى الغسانية الى كهلان * قال المسعودى قيل لملوك اليمن تبابعة لانه يتبع بعضهم بعضا كلما هلك واحد قام آخر ولم يسموا الملك منهم بتبع حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت ومن لم يكن له شئ من هذا يسمى ملكا ولا يقال له تبع اه قلت وهذا خلاف مايقوله غيره فى معنى تبع التى هى من الكلمات الحبشية وأما حمير فقد يعرف أيضا بالعرنجج وكان ظهوره قبل الميلاد المسيحى بألف وأربعمائة وثلاثين سنة وقيل هو أول من تتوج بالذهب وأخرج ثمود من اليمن الى الحجاز ثم ملك بعده ابنه وائل ولم يزل

ملكهم

ملكهم على اليمن حتى مضت قرون وآل الامر الى شداد فغزا البلاد الى أن بلغ أقصى المغرب وبنى المدائن والمصانع وأبقى الآثار العظيمة ثم اضطربت أحوال حمير وصار ملكهم فى طوائف الى أن استقر فى الحارث وهو تبع الاول ثم فى بقية التبابعة وقد لقب الحارث بالرائش لانه راش الناس بالعطاء مما كان أصابه فى غزواته من السلب والغنائم

ثم ملك أبرهة ذو المنار ثم افريقش وذلك قبل الميلاد بألف وثمان وتسعين سنة وذهب بقبائل العرب الى افريقية وبه سميت وساق البرابرة اليها ولما افتتح المغرب وسمع رطانتهم قال ما أكثر بربرتهم فسموا البرابرة ثم ملك بعد افريقش أخوه عمرو ذو الاذعار ولم يحسن السيرة فى الرعية ولم يعبأ بوصاية أبيه أبرهة وكان أنشده عند وفاته

يا عمرو انك ما جهلت وصيتى * اياك فاحفظها فانك ترشد
يا عمرو لا والله ما ساد الورى * فيما مضى الا اللعين المرفد
يا عمرو من يشرى العلا بنواله * كرما يقال له الجواد السيد
كل امرئ يا عمرو حاصد زرعه * والزرع شئ لا محالة يحصد

ولما نفرت حمير من جوره خلعت طاعته وقلدت الملك شرحبيل فجرى بين شرحبيل وذى الاذعار قتال شديد قتل فيه خلق كثير واستقل شرحبيل بالملك حتى مات ثم ملك بعده ابنه الهدهاد وذلك سنة خمس وستين وألف قبل الميلاد المسيحى ثم ملكت بلقيس ابنة الهدهاد وكانت على عهد سليمان عليه السلام ووفدت عليه بنفيس الهدايا وبقيت فى ملك اليمن عشرين سنة وماتت ثم قام بعدها بالملك مالك ناشر النعم لانه قلد أعناق رعيته أطواق النعم والمنن وسار غازيا الى المغرب فبلغ وادى الرمل فلم يجد فيه مجازا لكثرة الرمل وعبر بعض أصحابه فلم يرجعوا فأمر بصنم من نحاس نصب على شفير الوادى وكتب فى صدره بالخط المسند هذا الصنم لناشر النعم الحميرى ليس وراءه مذهب فلا يتكلف أحد ذلك فيعطب * قلت ومن رام معرفة ماهو الوادى المذكور فليراجع ماقاله ابن خلدون فى مبدا مقدمة تاريخه * ثم ملك بعد ناشر هذا ابنه أبو كرب شمر مرعش سمى بذلك لارتعاش كان به وهذا هو تبع الآخر وهو المشهور من ملوك التبابعة ذوى المغازى والآثار البعيدة وكان من أشد ملوك العرب نكاية بالاعداء وأبعدهم مغارا وقد حكم قبل الميلاد بمائتين وخمسين سنة قال بعض أصحاب التاريخ ووطئ أرض العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنهم وخرب مدينة الصغد وراء جيحون فقالت العجم شمركند (أى شمر خرب) يعنى خرب البلاد وبنى مدينة هنالك فسميت باسمه هذا وعربته العرب فصار سمرقند وشخص من اليمن غازيا ومر بالحيرة فتحير عسكره ثم رجع الى اليمن وهابه الملوك وهادنوه وأخذ بدين اليهودية باغراء بعض أحبار اليهود من بنى قريظة ثم عاد الى غزو بلاد فارس فوطأ الممالك وذللها وعمد الى الصين قال النويرى وكان لملك الصين فى ذلك الزمان وزير شديد البأس سامى الهمة فلما بلغه مسير ملك اليمن جدع أنفه ولحق بأبى كرب وسعى اليه بأمره وشكى من ملك الصين وتظاهر أنه



يدل أباكرب على خلل يمكنه من الفرصة فى القاء بلادهم بالقياد وقصها فسربه تبع وبالغ فى اكرامه وأصاخ لقوله فنهض الوزير بجيشه وهو يقدمهم حتى انتهى بهم الى أرض مسبخة فتوغلوا فى فلوات مضيقة لاماء فيها فاجهدهم العطش فماتوا اﻫ ٭ ثم قام بعده ابنه أبو مالك وهلك فى بعض غزواته وتعاقبت الملوك على اليمن دهرا طويلا حتى ملك عمرو بن عامر الازدى وقيل له مزيقيا لانه كان يلبس كل يوم حلة فاذا أراد الدخول الى مجلسه رمى بها فمزقت لئلا يجد أحد فيها مايلبسه وقيل انه على عهده كان سيل العرم أى بعد الميلاد بثلثمائة سنة وسنتين اثنتين فانفجرت مياه سد مأرب فاحتمل السيل أنعامهم وخرب ديارهم فتفرقت القبائل المجاورة له أيدى سبأ

ولم تزل تتوالى الملوك على حمير حتى آل الملك فى سنة ثمانين وأربعمائة ميلادية الى ذى نواس واتفق أهل الاخبار كلهم على أن ذا نواس هو ابن تبان أسعد واسمه زرعة وأنه لما تغلب على ملك آبائه التبابعة سمى يوسف وتعصب لدين اليهودية وحمل عليه قبائل اليمن فاستجمعت معه حمير على ذلك وأراد أن يكون أهل نجران عليها أيضا وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية ولهم فضل فى الدين واستقامة ولهم رأس يقال له عبد الله بن ثامر وكان هذا الدين وقع اليهم قديما من بقية أصحاب الحواريين من رجل سقط لهم من ملك التبابعة يقال له ﴿ فيمون ﴾ وكان رجلا صالحا ورعا مجتهدا فى العبادة مجاب الدعوة وظهرت على يديه الكرامات فى شفاء المرضى وكان يطلب الخفاء عن الناس جهده وكان لايأكل الامن كسب يده ويعظم يوم الاحد فلا يعمل فيه شيأ ففطن لشأنه رجل من أهل الشام اسمه صالح فلازمه وخرجا فارين بأنفسهما حتى وصلا بلاد العرب فاختطفتهما سيارة فباعوهما بنجران وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة لهم طويلة ويعلقون عليها فى الاعياد من حليهم وملابسهم ويعكفون عليها أياما وكان قد ابتاع ﴿ فيمون ﴾ رجل من أشرافهم وابتاع صالحا آخر فكان فيمون اذا قام فى الليل فى بيت له أسكنه اياه سيده استسرج له البيت نورا وهو فى غير مصباح حتى يصبح الصباح فأعجب سيده مارأى منه فسأله عن دينه فأخبره به وقال له انما أنتم على باطل وهذه الشجرة لاتضر ولاتنفع ولودعوت عليها الهى الذى أعبده لأهلكها وهو وحده لاشريك له فقال له سيده افعل فانك اذا فعلت هذا دخلنا فى دينك وتركنا مانحن عليه قال الراوى فدعا فيمون فأرسل الله ريحا فقلعت النخلة من أصلها وأطبق أهل نجران على اتباع دين المسيح فانتشرت من ذلك العهد النصرانية بنجران وأما عبد الله بن ثامر فكان يجلس الى فيمون كل يوم ويسمع منه شيأ عن المسيح حتى فقهه وظهرت على يده الخوارق والمعجزات ودان الكل بدينه فسار اليهم ذونواس بجنوده واستدعى رأسهم عبد الله بن ثامر وقال له أفسدت علىّ أهل بلدى وخالفت دينى ودين آبائى ثم أمر به فقتل وعرض على أهل نجران القتل فلم يزدهم الاثباتا فى النصرانية فخدلهم الاخاديد وأوقدلهم نارا ثم امتحنهم فجعل يقول للرجل والمرأة إما أن تترك دينك واما أن نقذفك فى النار فيقول ماأنا تارك دينى لشئ

فيقذف

فيقذف فيها فيحرق فبقيت امرأة ومعها صبى رضيع عمره سبعة أشهر فجزعت وتهيبت فقال لها الغلام يا أماه لاتنافقى فانك على الحق ولم يتكلم من ذى قبل فاحترقت قالوا وقتل وأحرق ذو نواس حتى أهلك منهم فيما قال ابن اسحق عشرين ألفا أو يزيدون وأفلت منهم رجل اسمه دوس وكان من سبا ويقال له أيضا دوس ذو ثعلبان فسلك الرمل على فرسه فأعجزهم فقدم على قيصر صاحب الروم يستنصره على ذى نواس * فلما علم القيصر حقيقة الخبر أخذ من ساعته فى التأهب لقتال ذى نواس وبعث الى ملك الحبشة يأمره بنصره فجاءته السفن وأجاز فيها العساكر من الحبشة وأمر عليهم رجلا منهم اسمه ارباط وعهد اليه بقتلهم وسبيهم وخراب بلادهم فركبوا البحر ونزلوا ساحة اليمن فلقيهم ذو نواس فيمن معه فانهزم فلما رأى ذو نواس مانزل به وبقومه وجه بفرسه الى البحر وخاض ضحضاحه ثم أفضى به الى غمرة فأغرقه فيها فكان آخر العهد به وانقرض بموته أمر التبابعة وذلك سنة تسع وعشرين وخمسمائة للميلاد * وولى من ثم ارياط اليمن بالحبشة وأذل رجالات حمير وهدم حصون الملك ثم انتقض على ارياط أبرهة أحد رؤساء جيشه وجذب معه رعاع الحبشة وغطاريفهم فاقتتلوا فحمل ارياط على أبرهة وعلا وجهه بالحربة فشرم أنفه وبذلك لقب بالاشرم وحمل أبرهة على ارياط بالسيف وعلا به رأسه فأسرع السيف فى دماغه وسقط عن جواده فالوا حينئذ جميعا وصاروا مع أبرهة وأقاموه ملكا * قال أهل التاريخ وكان أبرهة رجلا قصيرا حادرا لحيما ومداحا ذا دين فى النصرانية فبنى بصنعاء الى جانب غمدان كنيسة محكمة العمل وسماها القليس * قال ابن اسحق وكان القليس مربعا مستوى التربيع وجعل طوله فى السماء ستين ذراعا وجعل بين ذلك كله حجارة تسميها أهل اليمن الجردب منقوشة مطبقة لايدخل بين أطباقها الابرة وكان له باب من نحاس يفضى الى بيت فى جوفه طوله ثمانون ذراعا فى أربعين ذراعا معلق العمل بالساج المنقوش ومسامير الذهب والفضة وعقوده مضروبة بالفسيفساء (شجرة بين أضعافها كواكب الذهب ظاهرة) ثم يدخل من البيت الى قبة جدرها بالفسيفساء وفيها جلب منقوشة بالذهب والفضة وفيها رخامة مما يلى مطلع الشمس من البلق مربعة تعشى عين من نظر اليها من بطن القبة تؤدى ضوء الشمس والقمر الى داخل القبة وكان تحت الرخامة منبر من خشب اللبخ وهو الآبنوس مفصل بالعاج ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهبا وفضة اه

وانتشر خبر بناء هذا البيت فى العرب فلما كانت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة للميلاد مات أبرهة فملك بعده ابنه يكسوم وبه كان يكنى واستفحل ملكه وعلت كلمته وأذل حمير وقبائل اليمن فقتل رجالهم واستخدم أبناءهم * ثم مات يكسوم فملك مكانه أخوه مسروق وكان طاغية جبارا ساءت سيرته وكثر عسفه * قال ابن خلدون ولما طال البلاء من الحبشة على أهل اليمن خرج سيف ذى يزن الحميرى من الاذواء بقية ذلك السلف وعقب أولئك الملوك وذبال الدولة المقوض بالطرد وقدم على قيصر يوستينس يستنجده على الحبشة فأبى وقال الحبشة على دين

النصارى فرجع الى كسرى وقدم الحيرة على النعمان بن المنذر عامل فارس على الحيرة وما يليها من أرض العرب فشكا اليه واستمهله النعمان الى حين وقادته على كسرى ووفد معه وسأله النصر على الحبشة وشاور أهل دولته فقالوا فى سجونك رجال حبستهم للقتل ابعثهم معهم فان هلكوا كان الذى أردت بهم وان ملكوا كان ملكا ازددته على ملكك فأحصوا بثمانمائة وقدم عليهم أفضلهم وأعظمهم بيتا وأكبرهم نسبا واسمه وهزر الديلى فتوافقوا العرب وأمر وهزر ابنه أن يناوشهم القتال فقتلوه وأحفظه ذلك فقال أرونى ملكهم فأروه اياه على فيل عليه تاجه وبين عينيه ياقوتة حمراء فرماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه وتغلغل فى دماغه وتنكس عن دابته وداروا به فحمل القوم عليهم وانهزمت الحبشة فى كل وجه وفنى ملكهم فى اليمن بعد أن توارثه أربعة فى ثنتين وسبعين سنة وانصرف وهزر الى كسرى بعد أن خلف سيف بن ذى يزن على اليمن فى جماعة من الفرس ضمهم اليه على فريضة يؤديها كل عام وجعله لنظر ابن ذى يزن وأنزله بصنعاء وانفرد ابن ذى يزن بسلطانه ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان يقال ان الضحاك بناه على اسم الزهرة وهو أحد البيوت السبعة الموضوعة على أسماء الكواكب وروحانيتها (وقد خرب فى خلافة عثمان) ولما استوثق لذى يزن الملك جعل يعتسف الحبشة ويقتلهم حتى اذا لم يبق الا القليل جعلهم خولا واتخذ منهم طوابير يسعون بين يديه بالحراب فخرج يوما وهم يسعون بين يديه فلما انفردوا به عن الناس رموه بالحراب فقتلوه فأرسل كسرى عاملا على اليمن واستمرت عماله الى أن كان آخرهم باذان فأسلم وصارت اليمن للاسلام بعد ذلك

قال الاصفهانى أما أخبار العرب بالعراق فى الجيل الاول فلم تصل الينا تفاصيلها وشرح حالها الا أنه لما حدث سيل العرم تمزقت عرب اليمن من مدينة مأرب الى العراق والشام فكانت تنوخ وقضاعة وهما حيان من أحياء الازد من بنى كهلان ممن تمزق الى العراق فقال مالك بن فهم الازدى لمالك بن القضاعى نقيم بالبحرين ونتحالف على من ناوانا فتحالفوا فسموا تنوخ وذلك فى أيام ملوك الطوائف فنظروا الى العراق وعليها طائفة من ملوكها وهى شاغرة فخرجوا من البحرين وسارت الازد الى العراق مع مالك بن فهم الازدى وسارت قضاعة الى الشام مع مالك القضاعى

وأول من ملك على تنوخ فى العراق مالك بن فهم وذلك سنة خمس وتسعين ومائة للميلاد وكان منزله بالانبار فبقى بها الى أن رماه سليمة بن مالك رمية بالليل وهو لا يعرفه فلما علم أن سليمة راميه قال

جزانى لاجزاه الله خيرا * سليمة انه شرا جزانى
أعلمه الرماية كل يوم * فلما اشتد ساعده رمانى

فلما قال هذين البيتين فاظ (أى مات) وهرب سليمة ثم ملك من بعد مالك جذيمة الابرش سنة احدى وخمسين ومائتين للميلاد وكان ثاقب الرأى بعيد المغار شديد النكاية ظاهر الحزم وهو أول من غزا بالجيوش وشن الغارات على قبائل العرب وكان به برص فأكبرته العرب

على



على أن تنعته به اعظاما له فسمته جـذيمة الابرش وجـذيمة الوضاح واستولى على السواد مابين الحيرة والانبار وسائر القرى المجاورة لبادية العرب وكان يجبي أموالها وغزا طسما وجديسا في منازلهما من اليمامة وفيه قال الشاعر

أضحى جذيمة في أشراف منزلة • قد حاز ماجمعت في عصرها عاد

وطال ملكه الى أن أدرك ملك سابور بن أشك وكان جذيمة قد ملك معدا وبعض اليمن وغزا في آخر عمره الشام وقتل عمرو بن حسان بن أذينة والد الزباء ملكة الطوائف فانطوت له الزباء على طلب الثار حتى قتلته وكان ملك جذيمة نحو ستين سنة بالتقريب اه

ولما مات جذيمة المذكور ورث الملك بعده ابن اخته عمرو بن عدى وذلك سنة ثمان وستين ومائتين للميلاد وأمه رقاش وهو الذى اتخذ الحيرة منزلا من ملوك العرب وأول ملك يعده الحيريون في كتبهم من ملوك عرب العراق وملوك العراق ينتسبون اليه فلما استقرت به السلطنة هم بطلب الثار من الزباء لخاله جذيمة فلما أحست الزباء بذلك تحصنت في معقل فصارت أمنع من عقاب فعمد عمرو الى قصير وزيره فجدع أنفه بمواطأة منه على ذلك وألحقه بالزباء يشكو ما أصابه من عمرو وأنه اتهمه بمداخلة الزباء في أمر خاله جـذيمة وقال لها وما رأيت بعد مافعل بي أنكى له من أن أكون معك فأكرمته وقربته فلما تحقق منها الوثوق به غرها وأسلم حصنها الى عمرو فلاحها بالسيف وأصاب ما أصاب من المدينة وانكفأ راجعا فبقي عمرو ملكا مدة عمره منفردا بملكه مستبدا بأمره يغزو المغازي ويفوز بالغنائم وتجبي اليه الاموال وتفد عليه الوفود ولايدين لملوك الطوائف بالعراق حتى قدم أزدشير بن بابك في أهل فارس أرض العراق فضبطها وقهر من كان له بها مناويا حتى حملهم على ما أراد مما يوافقهم ومما لايوافقهم فكره كثير من تنوخ مجاورة العراق على الصغار فخرج من كان منهم من قبائل قضاعة الذين كانوا أقبلوا على مالك في أيام ملكه فلحقوا بالشأم وانضموا الى من هنالك من قضاعة فكان اذا أحدث ناس من العرب أحداثا في قومهم أوضاقت معيشتهم يخرجون الى الريف العراق وينزلون الحيرة • قال أهل التاريخ فكان ذلك على أكثرهم هجنة وصار أهل الحيرة ثلاثة أثلاث الثلث الاول تنوخ وهم من كان يسكن المظال وبيوت الشعر والوبر في غربي الفرات مابين الحيرة الى الانبار فما فوقهما والثلث الثاني العباد وهم الذين سكنوا رقعة الحيرة فابتنوا بها والثلث الثالث الاحلاف • وعمرت الحيرة أيام ملك عمرو ابن عدى باتخاذه اياها منزلا وعظم شأنها الى أن وضع في الكوفة ونزلها عرب الاسلام

ولما مات عمرو ملك بعده امرؤ القيس البدء وهو الاول في كلامهم وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر وعمال الفرس ثم ولى مكانه ابنه عمرو سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة للميلاد ثم أعقبه أوس بن قلام العمليقي خمس سنين ثم ثار به جحجبي أحد بني فزان فقتله سنة ثمان وستين وثلثمائة وولى مكانه مدة ثم ولى من بعده امرؤ القيس الثاني سنة ثمان وستين وثلثمائة للميلاد ويعرف امرؤ القيس هذا بالمنذر والمحرق لانه أول من عاقب بالنار وهو الذى ذكره

الاسود بن يعفر فى قوله * ماذا أؤمل بعد آل محرق * ثم ملك بعده ابنه النعمان الاعور السائح صاحب الخورنق والسدير وكان النعمان هذا فى أيام يزدجرد فدفع اليه ابنه بهرام ليربيه وأمر ببناء الخورنق مسكنا لابنه فأسكنه اياه وأحسن تربيته وتأديبه وجاء بمن يلقنه الخلال من العلوم والآداب والفروسية حتى نبغ وفاز بما رضيه وكان النعمان من أشد ملوك العرب نكاية فى الاعداء وأبعدهم مغارا قد أتى الشام مرارا كثيرة وأكثر المصائب فى أهلها وسبى وغنم وكان ملك فارس ينفذ معه كتيبتين من المقاتلين الشهباء وأهل الفرس ودوس وأهلها تنوخ فكان يغزو بهما من لايدين له من العرب وكان صارما حازما ضابطا لملكه قد اجتمع له من الاموال والخيول والرقيق مالم يملكه أحد من ملوك الحيرة والحيرة يومئذ ساحل الفرات * ولما أتى على النعمان ثلاثون سنة تنصر على يد بعض وزرائه ثم زهد وترك الملك ولبس المسوح وخرج على وجهه فلم يوقف له على أثر * حكى عن سبب زهده أنه لما بنى الخورنق والسدير أشرف عليهما يوما فأعجبه ماأوتى من الملك والسعة ونفوذ الامر واقبال الوجوه عليه فقال لاصحابه هل أوتى أحد مثل ما أوتيت أنا فقال له حكيم من حكماء أصحابه أهذا الذى أوتيت شئ لم يزل ولا يزول أو شئ كان لمن قبلك وزال عنه وصار اليك قال بل شئ كان لمن قبلى زال عنه وصار الى وسيزول عنى فقال الحكيم فسررت بشئ تذهب عنك لذته وتبقى تبعته قال فاين المهرب قال اما أن تقيم وتعمل بطاعة الله أوتلبس أمساحا وتلحق بجبل تعبد ربك فيه وتفر من الناس حتى يأتيك أجلك قال فاذا فعلت ذلك فمالى قال حياة لاتموت وشباب لايهرم وصحة لاتسقم وملك جديد لايبلى قال فأى خير فيما يفنى والله لأطلبن عيشا لايزول أبدا فانخلع من ملكه ولبس الامساح وساح فى الارض وتبعه الحكيم وصارا يسيحان ويعبدان الله تعالى حتى ماتا وفيه يقول عدى بن زيد

وتفكر رب الخورنق اذ أشرف يوما وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقال فما غبطة حى الى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والنعمة وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

ولما تزهد النعمان تولى الامر بعده ابنه المنذر الاول سنة عشرين وأربعمائة للميلاد وكان أهل فارس ولوا عليهم شخصا من ولد أزدشير وعدلوا عن بهرام لنشئه بين العرب وخلوه من آداب العجم فاستنجد بهرام بالعرب فجهز المنذر لبهرام المذكور وقام يطلب له ملكه وحاصر تخت الملك فأذعن له فارس وأطاعوه واستوهب المنذر ذنوبهم من بهرام فعفا عنهم واجتمع أمره ورجع المنذر الى بلاده واشتغل باللهو الى أن مات سنة اثنتين وستين وأربعمائة ميلادية * فقام بالامر بعده النعمان الثانى وكان وزيره عدى بن زيد النصرانى وكان عدى المذكور ورعا فتزهد ولبس المسوح سنة تسع وستين وأربعمائة للميلاد ويروى عن سبب

تزهـده أنه خرج متصيدا ومعه عـدى بن زيد وزيره المذكور فمرا بشجرة فقال عدى أيها الملك أتدرى ماتقول هذه الشجرة قال لا قال انها تقول

مـــن رآنا فليحـدث نفسه * أنه موف على قـرب زوال
فصروف الدهر لاتبقى لها * ولما تأتى به صم الجبـــال
رب ركب قد أناخوا حولنا * يشربون الخمر بالماء الزلال
والاباريق عليها فـــــدم * وجياد الخيل تجرى بالجلال
عمروا الدهـــر بعيش حسن * ثم أفنى دهرهـــم غير مجال
عصف الدهر بهم فانقرضوا * ولذاك الدهر حال بعـد حال

ثم جاوزا الشجرة فمرا بمقبرة فقال له عـدى أتدرى ماتقول هـذه المقبرة قال لا قال فانها تقول

أيها الركب المخبـونا * على الارض المجـدونا
كما أنتم كنا كما * كما نحـن تكونونا

فقال النعمان قد علمت أن الشجرة والمقبرة لايتكلمان وقـد علمت أنك انما أردت عظتى فجزاك الله عنى خيرا فما السبيل الذى تدرك به النجاة قال تدع عبادة الاوثان وتتنصر وتعبد الله تعالى وحده قال وفى هذا النجاة قال نعم قال فترك عبادة الاوثان وتنصر حينئذ وأخذ فى العبادة والاجتهاد ثم تزهد كما تقـدم فملك مكانه أخوه الاسود وهو الذى انتصر على عرب الشام وأسر عدة من ملوكهم ثم مات سنة احدى وتسعين وأربعمائة * فملك بعده أخوه المنذر الثانى سبع سنين ثم ابن أخيه فى سنة ثمان وتسعين وهو النعمان الثالث ثم استخلف أبو يعفر بن علقمة الزميلى سنة ثلاث وخمسمائة قال أهل التاريخ وزميل بطن من لخم ثم ملك امرؤ القيس الثالث سـنة ست وخمسمائة وامرؤ القيس هـذا هو الذى غزا بكرا يوم دارة فى دارها فكانت بكر قبله تقيم أود ملوك الحيرة وتعضـدهم وهو أيضا بانى الغريب والصنبر وفيهما يقول جبير بن بلوغ

ليت شعرى متى تخب بنا النا * قة نحـو الغريب والصنـبر

ولما مات امرؤ القيس الثالث قام بعده المنذر الثالث ابنه وهوذوالقرنين لضفيرتين كانتا له من شعره وأمـه ماء السمـاء قال الجنابى وكان هذا لقبا لابى عامر الازدى لانه كان يقيم ماله مقام القطر أى عطاء وجودا فغلب على بنيـه لانهم خلف منه وذكر أن مرة بن كلثوم قتله لخمسين سنة من ملكه وذلك سنة اثنتين وستين وخمسمائة ثم ملك من بعـده الحارث بن عمرو الكندى الملقب بآكل المرار وكان شديد السلطان غزا تميما فى دارها فقتل مائة من بنى دارم يوم دارة الثانى بأخيه أسـعد بن المنذر وكان ملكه ست عشرة سـنة أى الى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة للميلاد ثم ولى شقيقه قابوس أربع سنين فى زمن أنوشروان وكان فيه لين وكان ضعيفا مهينا فقتله ابن يشكر وسلبه سنة ثنتين وثمانين ثم ملك المنذر الرابع أخوه ثلاث

سنين ثم النعمان الرابع أبوقابوس سنة ثنتين وثمانين وهو صاحب النابغة الذبيانى الذى بنى الغريين وتنصر أى اعتنق الديانة النصرانية

وكان المنذر بن ماء السماء الملقب بأبى قابوس هذا تنادمه رجلان من بنى أسد أحدهما خالد بن المضلل والآخر عمرو بن مسعود فأغضباه فى بعض المنطق فأمر بأن يحفر لكل واحد حفرة بظهر الحيرة ثم يجعلا فى تابوتين ويدفنا فى الحفرتين ففعل ذلك بهما حتى اذا أصبح سأل عنهما فأخبروه بهلاكهما فندم على ذلك وغمه جدا وفى عمرو بن مسعود وخالد بن المضلل المذكورين يقول شاعر بنى أسد

يا قبر بين بيوت آل محرق • جادت عليك رواعد وبروق
أما البكاء فقل عنك كثيره • ولئن بكيت فللبكاء خليق

وركب المنذر حتى نظر الى قبرهما فأمر ببناء الغريين عليهما فبنيا وجعل لنفسه يومين فى السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمى أحدهما يوم نعيم والآخر يوم بؤس فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الابل شوما أى سودا وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان أسود ثم يأمر به فيذبح ويغرى بدمه الغريين فلبث على هذا الحال برهة من دهره حتى مر به رجل من طيئ يقال له حنظلة بن أبى عفراء كان آوى النعمان فى خبائه يوم خرج الى الصيد وانفرد عن أصحابه بسبب المطر فرحب به حنظلة وهو لا يعرفه وذبح له شاة فأطعمه من لحمها وسقاه لبنا فلما نظر اليه النعمان واقدا اليه ساءه ذلك جدا وقال له يا حنظلة هلا أتيت فى غير هذا اليوم فقال أبيت اللعن لم يكن لى علم بما أنت فيه فقال له أبشر بقتلك فقال له والله لقد أتيتك زائرا ولاهلى من خيرك مائرا فلا تكن ميرتهم قتلى فقال لابد من ذلك فاسأل حاجة أقضها لك فقال تؤجلنى سنة أرجع فيها الى أهلى وأحكم من أمرهم ما أريد ثم أصير اليك فأنفذ فىّ حكمك فقال ومن يتكفل بك حتى تعود فنظر فى وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمرو فأنشد

يا شريك يا ابن عمرو • يا أخا من لا أخا له
يا أخا شيبان فك الـيـوم رهنا قد أناله
يا أخا كل مصاب • وحيا من لا حيا له
ان شيبان قبيل • أكرم الله رجاله
وأبوك الخير عمرو • وشراحيل الحماله
رقياك اليوم فى المجـد وفى حسن المقاله

فوثب شريك وقال أبيت اللعن يدى بيده ودمى بدمه وأمر للطائى بخمسمائة ناقة وقد جعل الأجل عاما كاملا من ذلك اليوم الى مثله من القابل فلما حال الحول وقد بقى من الاجل يوم واحد قال النعمان لشريك ما أراك الا هالكا غدا فداء لحنظلة فقال شريك

فان يك صدر هذا اليوم ولى • فان غدا لناظره قريب

فذهب

فذهب قوله مثلا ولما أصبح النعمان وقف بين قبرى نديميه وأمر بقتل شريك فقال له
وزراؤه ليس لك أن تقتله حتى يستوفى يومه فتركه النعمان وكان يشتهى أن يقتله لينجو
الطائى فلما آذنت الشمس بالمغيب قام شريك مجردا فى ازار على النطع والسياف بجانبه وكان
النعمان قد أمر بقتله فلم يشعر الا وراكب قد ظهر فاذا هو حنظلة الطائى تكفن وتحنط وجاء
بنادبته فلما رآه النعمان قال ما الذى جاء بك وقد أفلت من القتل قال الوفاء قال وما دعاك
الى الوفاء قال ان لى دينا يمنعنى من الغدر قال وما دينك قال النصرانية قال فاعرضها على
فعرضها عليه فتنصر النعمان وترك تلك السنة من ذلك اليوم وعفا عن شريك والطائى وقال
ما أدرى أيكما أكرم وأوفى أهذا الذى نجا من السيف فعاد اليه أم هذا الذى ضمنه وأنا لا أكون
ألأم الثلاثة قال الميدانى وتنصر مع النعمان أهل الحيرة أجمعون ● وبنى النعمان فى حاضرة
ملكه الكنائس العظيمة ثم قتله كسرى بن هرمز أبرويز سنة أربع وستمائة للميلاد وانقطع
الملك عن لخم ولم يلبث أن ظهر الاسلام بعد زمان وكان آل جفنة عمال القياصرة على عرب
الشام كما كان المناذرة آل نصر فى آخر أمرهم عمالا للاكاسرة على عرب العراق وأصلهم من
اليمن من الازد بنى كهلان قال أهل التاريخ لان الازد لما أحست بمأرب انتقاض العرم
وخشيت السيل تفرقت فتشام قوم فنزلوا على ماء يقال له غسان فصيروه شربهم فسموا غسان
ثم أنزلهم ثعلبة بن عمرو الغسانى ببادية الشام والملوك بها من قبل القياصرة وكانوا يدينون
بالنصرانية فلما نزلت غسان بأرض الشام كان لها قوم من سليح فضربوا على الغساسنة الاتاوة
وكان الذى يلى جبايتها رجلا منهم اسمه سبيط فسار لجبايتها فاستبطؤه فقصد ثعلب كبيرهم
وقال له لتعجلن لى الاتاوة أولا آخذن أهلك وكان ثعلب حليما فقال هل لك فيمن يربح عليك
بالاتاوة قال نعم قال عليك بأخى جذع بن عمرو وكان جذع فاتكا فأتاه سبيط وخاطبه بما
خاطب به ثعلبة فخرج عليه ومعه سيف مذهب وقال فيه عوض من حقك الى أن أجمع
لك الاتاوة قال نعم قال فخذه فتناول سبيط جفن السيف واستل جذع نصله وضربه به فقيل
خذ من جذع ما أعطاك فذهبت مثلا فوقعت الحرب بين سليح وغسان فأخرجت غسان
سليحا من الشام وصاروا ملوكا واستقر ملك الغساسنة أربعمائة سنة ونيفا وكان أول
ملوكهم جفنة بن عمرو المذكور وآخرهم جبلة بن الايهم وهو الذى بنى مدينة جبلة بين
طرابلس واللاذقية وسماها باسمه وكان قد أسلم فى زمن عمر بن الخطاب عند افتتاح الشام
فسار الى مكة يريد الحج بمائتين وخمسين نفرا من أصحابه فلما قرب من المدينة قلد أعناق
خيله بقلائد الفضة والذهب ووضع تاجا على رأسه فلما بلغ عمر بن الخطاب قدومه تلقاه بموكب
عظيم ورفع مقامه حتى كان يوم الطواف فبينما جبلة يطوف بالبيت اذ وطئ رجل من
بنى فزارة طرف ازاره فانحل عنه الازار فغضب جبلة من ذلك ولطم الفزارى لطمة هشم بها
أنفه فتعلق به الرجل وانطلق الى عمر ودمه يسيل على وجهه وشكا اليه حاله فقال عمر لجبلة
أنت فى خيرة اما أن يلطمك هذا الرجل كما لطمته أو تفتدى اللطمة منه بالمال فقال جبلة

لعمر أفلا يفضل عندكم ملك على سوقة قال كلا بل كلاهما فى الحق سيان فغضب جبلة من ذلك وصبر الى الليل فاجتمع بغلمانه وخرج بهم حتى لحق بالشام وارتد الى دينه ثم سار من هنالك الى قيصر وأقام عنده فتشعبت أولاده فى تلك البلاد وتسموا بالارنؤد * قلت وقد عد أهل النقد ماوقع من عمر فى هذه الحادثة من الاسباب التى ترتب عليها شئ فى الاسلام

ومن ملوك العرب ملوك بنى كندة الذين منهم امرؤ القيس الشاعر وهم من بنى زيد بن كهلان قال أصحاب التاريخ كانت كندة قبل أن علك حجر عليهم بغير ملك فأكل القوى منهم الضعيف حتى ملك حجر وكان تبع حين أقبل سائرا الى العراق استعمله عليهم فسدد أمورهم وساسهم أحسن سياسة وانتزع من اللخميين أرضهم وبقى وحده فى مملكته مطاعا لحسن سيرته الى سنة ثلاث وخمسمائة للميلاد ثم ملك بعده ابنه المقصور لانه اقتصر على ملك أبيه ثم استخلفه الحارث وهذا عظم أمره وكبر شأنه حتى طرده أنوشروان وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وبأربعين نفسا من بنى حجر فقتلهم المنذر عن آخرهم وكان منهم اثنان من ولد الحارث وفى ذلك يقول امرؤ القيس

بنو أسد قتلوا ربهم * ألا كل شئ سواه جلل

ثم استنجد امرؤ القيس ببكر وتغلب على بنى أسد فانجدوه وهرب بنو أسد منهم فتبعهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جموع امرئ القيس خوفا من المنذر وخاف امرؤ القيس من المنذر وصار يدخل على قبائل العرب وينتقل من أناس الى أناس حتى قصد السموأل بن عادياء اليهودى فاكرمه وأنزله وأقام امرؤ القيس عند السموأل ماشاء الله ثم سار امرؤ القيس الى قيصر ملك الروم مستنجدا به وأودع دروعه عند السموأل بن عادياء المذكور ومر على حماة وشيزر وقال فى مسيره قصيدته المشهورة

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه * وايقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لاتبك عينك انما * نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومات امرؤ القيس بعد عوده من عند قيصر عند جبل يقال له عسيب ولما علم بموته هنالك قال

أجارتنا ان الخطوب تنوب * وانى مقيم ما أقام عسيب

ولما مات امرؤ القيس سار الحارث بن أبى شمر الغسانى الى السموأل وطالبه بدروع امرئ القيس وماله عنده وكانت تلك الدروع مائة وكان الحارث قد أسر ابن السموأل فلما امتنع السموأل عن تسليم ذلك الى الحارث قال الحارث اما أن تسلم الدروع واما قتلت ابنك فقال السموأل لست أخفر ذمتى فافعل ماشئت فذبح ابنه والسموأل ينظر اليه وانصرف الملك على يأس فضرب العرب به المثل فى الوفاء

أما العرب المستعربة الذين هم القسم الثالث وهم بنو عدنان بن اسمعيل فكانوا قد نزلوا بالحجاز وتولوا سدانة الكعبة وكانت الحجاز والكنان ديار العمالقة وكان لهم ملك هنالك

وكانت

وكانت جرهم من تلك الطبقة وكانت ديارهم اليمن مع اخوانهم من حضرموت وأصاب اليمن قحط ففروا نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى قال أصحاب التاريخ وعثروا فى طريقهم باسمعيل مع أمه هاجر فاحتلوا أسفل مكة واقتتلوا مع العمالقة فأبادوهم ونشأ اسمعيل بين جرهم وتكلم بلغتهم وتزوج منهم قلت وهذا القول غير معوّل عليه عند جماعة من المتأخرين وتوفى لمائة وثلاثين سنة من عمره ولم يزل أمر جرهم يعظم بمكة ويستفحل حتى ولوا البيت الحرام وكانوا ولاته وحجابه وولاة الاحكام بمكة ولما طالت ولاية جرهم استحلوا من الحرم أمورا عظاما واستخفوا بحرمة البيت العتيق فأبادهم الله قالوا لانه لما خرب سد مأرب سار عمرو بن عامر وقومه من بلد الى بلد لايطؤن بلدا الاغلبوا عليها فلما قاربوا مكة أبت جرهم أن تفسح لهم واستكبروا فى أنفسهم وقالوا مانحب أن تنزلوا فتضيقوا علينا مراتعنا ومواردنا فارحلوا عنا حيث أحببتم فلاحاجة لنا بجواركم فاقتتلوا ثلاثة أيام وانهزم جرهم فلم يفلت منهم الا الشريد فيهدر دمه وذلك سنة سبع ومائتين للميلاد ● ثم تفرقت قبائل اليمن وانخزعت خزاعة بمكة فولوا أمر مكة وحجابة الكعبة وسألهم بنو اسمعيل السكنى معهم فأذنوا لهم وأقاموا عليهم لحيا وهو ربيعة بن حارثة ملكا وكان فيهم شريفا سيدا مطاعا وبلغ بمكة من الشرف مالم يبلغ عربى قبله وذهب اسمه فى العرب كل مذهب وقوله فيهم دينا متبعا ● قال أصحاب التاريخ وكان أول من أطعم الحاج بمكة سنائف الابل ولحمانها على الثريد وكسا فى تلك السنة جميع حاج العرب كل واحد بثلاثة أثواب من برود اليمن وهو الذى بحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحامى وسيب السائبة ونصب الاصنام حول الكعبة فكانت قريش والعرب تستقسم عنده بالازلام وهو أول من غير الحنيفية دين ابراهيم

وأقامت خزاعة ثلثمائة سنة فى سدانة البيت حتى قام قصىّ القرشىّ من بنى اسمعيل وعظم شرفه فرأى أنه أحق بالكعبة وبأمر مكة وكانت ولاية الكعبة لابى غبشان الخزاعى فباعها من قصى بزق خمر فقيل فيه أخسر من صفقة أبى غبشان ثم دعا قصىّ اليه رجالات قريش وأجمع لحرب خزاعة فتبارزوا وكثر القتل ثم صالحوه على أن يحكموه الكعبة وكان ذلك سنة سبع وخمسمائة للميلاد فصار لقصىّ لواء الحرب وحجابة البيت وتيمنت قريش برأيه وصرفوا مشورتهم اليه فى قليل الامور وكثيرها واتخذوا دار الندوة إزاء الكعبة فكانت مجمع الملا من قريش فى مشاوراتهم ومعاقدهم ثم تصدّى لاطعام الحاج وفرض على قريش خراجا يؤدونه ومازال على هذا الحال حتى مات وقام بالامر بعده بنوه بالقيادة فى كل موسم حتى جاء الاسلام

وكان فى الجاهلية من كبارهم وأشرافهم بيوت معلومة يشار اليها ويقال ان أكبرهم وأشرفهم عبد مناف من ولد قصى بن كلاب القرشى وبنوه عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ثم كانوا كذلك فى الاسلام وكان عبد مناف يدعى عندهم أيضا القمر والسيد والفهد واسمه المغيرة واخوته عبد الدار وعبد العزى وكان اسمه أوّلا عبد مناة بن كنانة بن خزيمة فأحيل



الى عبد مناف ومن أشرافهم أيضا عبد المدان بن الريان بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة الحارثى رهط من بنى الحرث بن زياد وأهل بيته بنو قنان وأولاده أخوال بنى العباس قالوا وهم من أشراف العالم وأكابر الدنيا وبه يضرب المثل للرجل العظيم فيقال أشرف من ابن عبد المدان قال لقيط بن زرارة

شربت الخمر حتى خلت أنى * أبو قابوس أو عبد المدان

أسير فى بنى عبس بن زيد * رخىّ البال منطلق اللسان

وكان العرب يعدون البيوتات المشهورة الكبيرة المعروفة بالشرف من القبائل بعد بيت هاشم الذى تقدم ذكره فى قريش ثلاثة بيوت وقيل سبعة أولها بيت حذيفة بن بدر الفزارى وبيت قيس وبيت آل زرارة بن عدى الداريين وبيت تميم وبيت آل ذى الجدين بن عبدالله ابن همام وبيت شيبان وبيت بنى الديان من بنى الحرث بن كعب بيت اليمن وأما كندة فلا يعدون من أهل البيوتات وانما كانوا ملوكا كما تقدم أما علو شأن القرشيين فقد كان مترتبا على أن خزانة الكعبة كانت بيدهم فأثروا ثم نمت ثروتهم بالتجارة وكانوا من المعاقين فيها فأصبح لهم بذلك ضرب من السودد وعلو الكلمة على باقى القبائل وزادهم مكانة أن سوق عكاظ كانت تقام ببلدهم مكة وكانت العرب تأتيها من كل صوب وحدب لا للتجارة فقط بل للمفاخرة واثارة الحرب وابرام الصلح وفعل مايشجر بينها كما سيذكر ذلك مفصلا فى محله

(الفصل الثانى)

(فى أديان العرب فى الجاهلية)

كانت العرب فى أول أمرها على غير دين مقرر حتى قدم عمرو بن لحى بصنم يقال له هبل فعكفوا على عبادته وبالغوا فى ذلك وكان من أعظم أصنام قريش عندها فكان الرجل اذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده وكان هبل هذا من خرز العقيق على صورة انسان وكانت يده اليمنى مكسورة فأدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب وكانت له خزانة القربان وسبعة قداح يضربون بها اذا مستهم الحاجة ويقولون

إنا اختلفنا فهب السراحا * ان لم تقله فمر القداحا

وزعم قوم أن هبل هذا انما هو صورة ابراهيم الخليل التى كسرها صاحب الشريعة الاسلامية عند مادخل الكعبة معما كسره من بقية الاصنام قالوا وكان حولها عدد كثير من صور الملائكة والانبياء وفيهم اسمعيل نفسه وفى يده الازلام

ولما دخل صاحب الشريعة الاسلامية الكعبة يوم فتح مكة كان بها ثلثمائة وستون

صنما

منها قالوا فجعل يطوف على راحلته ويطعنها ويقول جاء الحق وزهق الباطل فجمعت ثم أحرقت بالنار وكان بالكعبة على يمينها حجر أسود وما زال هذا الحجر معظما فى الجاهلية والاسلام يتبرك به الناس ويقبلونه اجلالا * وقد كانت الكعبة قبل ظهور صاحب الشريعة الاسلامية بقرون بيت عبادة العرب يعظمونه غاية التعظيم ويجلونه وفيه مصاف أصنامهم فلما ظهر الاسلام زاد هذا البيت تعظيما واعتقد جمهور المسلمين أنه قديم العهد جدا ويقال انه لما أهبط آدم من الجنة دعا ربه أن يأذن له فى بناء بيت يكون قبلة لصلاته ومطافا لعبادته كما كان قد عهد فى السماء من البيت المعمور الذى يقال له الضراح أيضا وهو مطاف الملائكة فأنزل الله عليه مثال ذلك البيت على شكل سرادق من نور وضعه فى مكة تحت البيت المعمور حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل كما جاء فى الاصطخرى وأمر آدم أن يطوف به و يتوجه اليه فلما مات آدم تولى ابنه ووصيه شيث بناءه من حجر وطين على ذلك الرسم ثم انطمس فى الطوفان كما هو مذكور فى كتاب الملل والنحل فأمر الله تعالى ابراهيم واسمعيل فجددا بناءه فى موضعه وعلى رسمه ثم مازال يتشعث فيرمم الى أن جددت قريش بناءه على الاسس القديمة بعد ميلاد صاحب الشريعة ببضع سنين * وكان قد نصب بأسفل مكة صنم يعرف بالخلصة فكانوا يلبسونه القلائد ويعلقون له الشعير والحنطة ويصبون عليه اللبن ويذبحون له ويعلقون عليه بيض النعام وكانت لهم أصنام أخر نصبوها على السيارات من الكواكب وهى المشترى قيل ان أصل اسمه ذوشرا أى ساطع النور والزهرة وزحل والمريخ وغيرها من الثوابت

ومن معبوداتهم أيضا مناة واللات والعزى وكانت مناة على ساحل البحر مما يلى قديد وكانت صخرة تراق عليها دماء الذبائح ويلتمسون منها المطر فى الجدب وكانت اللات أيضا صنما للشمس اذا مر عليها الحاج لوتها بالسويق وقيل أصلها من (لاه) أى علا وعظم ومنه اسم الجلالة * وكان الذى اختص من العرب بعبادة اللات ثقيف وكان بيت عبادتها فى نخلة فوجه صاحب الشريعة فى السنة التاسعة من هجرته المغيرة وأبا سفيان الى نخلة فكسروا الصنم فحزن الثقفيون أهل الطائف لاسيما نساؤهم أشد الحزن عليه وسألوا صاحب الشريعة عند عقد الصلح أن يدع لهم اللات ولا يهدمها الى ثلاث سنين فأبى عليهم ذلك فنزلوا الى شهر فلم يجبهم * ويقال ان تاء اللات ليست أصلية بل هى هاء تأنيث وانما كره البدل فيها لئلا تشبه اسم الله تعالى كما ذكر ابن درستويه * وأما مناة فكانت تعبدها هذيل وخزاعة ومنازلهما بين مكة والمدينة وقيل عبدتها الاوس والخزرج وثقيف قاله الشهرستانى وأبو الفداء وغيرهما * وكانت صخرة عظيمة فكسرها رجل اسمه سعد فى السنة الثامنة من الهجرة وهى سنة شؤم على أصنام العرب ويقال ان اسم مناة مشتق من أمنى أى أراق لكثرة ما كان يراق عندها من دماء الاضاحى ومن هذا الاصل اشتق أيضا اسم وادى منى على مقربة من مكة حيث ينحر الحجاج هديهم فى يومنا هذا * وأما العزى فكانت شجرة تعظمها

قريش وبنو كنانة ويطوفون بها بعد طوافهم بالكعبة ويعكفون عندها يوما * قال الكلبي وكان في كل واحدة من اللات والعزى شيطان يتكلم وبتراءى للسدنة وهم الحجبة وذلك من صنيع ابليس وكيده وكان بنوحنيفة في الجاهلية قد اتخذوا إلها عبدوه دهرا طويلا ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقيل في ذلك

أكلت حنيفة ربها * زمن التقحم والمجاعه

لم يحذروا من ربهم * سوء العقوبة والتباعه

ومن أديانهم المجوسية والصابئية وقد نصب الصابئية بحسب تلك الآراء أصنام الذهب للشمس وأصنام الفضة للقمر ونسبوا المعادن والاقاليم للكواكب وزعموا أن قوى الكواكب تفيض على تلك الاصنام فتتكلم وتفهم وتوحي للناس وتعلم الناس منافعهم وكذلك قالوا في الاشجار التي هي من قسمة تلك الكواكب اذا أفردت تلك الشجرة لذلك الكوكب وغرست له وفعل لها كذا فاضت روحانية ذلك الكوكب على تلك الشجرة فتوحي للناس وتكلمهم في النوم * ومن مزاعمهم في هذا المذهب أي الصابئية أن نفس الفاسق تعذب تسعة آلاف دور ثم تصير الى رحمة الاله الاعلى وقد فرض عليهم في اعتقادهم ثلاث صلوات أولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة أو أقل من ذلك بحيث ينقضي مع الطلوع ثمان ركعات في كل ركعة ثلاث سجدات والثانية صلاة الظهر وهي خمس مثل تلك الركعات وسجداتها وتنقضي مع الزوال والثالثة كالثانية وتنقضي مع الغروب وكان لهم أيضا ثلاث صيامات في السنة أولها ثلاثون يوما والثاني تسعة أيام والثالث سبعة وكانوا يكثرون من تقديم القرابين لا لهتهم ولكنهم لا يأكلون منها شيأ بل كانوا يحرقونها وكذلك كانوا لا يأكلون الباقلاء والثوم وبعض البقول والقطاني قاله أبو الفرج الملطي المعروف بابن العبري وجاء أيضا في كتاب الملل والنحل للشهرستاني * وقد اختلف أهل التاريخ في تعيين قبلتهم التي كانوا يؤمونها ويقصدونها فقال ابن العبري انها القطب الشمالي وقال غيره انها القطب الجنوبي وقال آخر بل هي مكة وقال رابع بل كانوا يستقبلون النجم الذي اليه يصلون * قلت ولعل الصحيح في ذلك أنهم لم يكونوا في أمر القبلة على سنن واحد * وكانوا يحجون على مقربة من حوران بالجزيرة وهي مابين النهرين ويعظمون الكعبة وأهرام منف زاعمين أن الاهرام مقابر شيث وابنيه ادريس وصابئ ويزعمون أن هؤلاء وضعوا دين الصابئية فكانوا يتقربون عند تلك الاهرام بعجل أسود وديك ويحرقون شيأ من البخور وكانوا يقولون انهم انما سموا بالصابئة نسبة الى صابئ ولد شيث المذكور والمرجح عند بعض أهل التاريخ أنهم سموا بهذا الاسم من لفظ صبأت أوصباءوت بمعنى الجنود السماوية لعبادتهم اياها ويسميهم أيضا أهل السياحة بنصارى مارى يوحنا المعمدان وهم يدعون ذلك أيضا ولهم ضرب من المعمودية تشبه معمودية النصارى ولذلك كان العرب الآخرون يسمونها المغتسلة ويقال ان هذا الدين هو أحد الاديان التي تغاضى عنها صاحب الشريعة الاسلامية بشرط أداء الجزية * ومن أديانهم اليهودية أيضا

في

فى حمير وكنانة وبنى الحارث بن كعب وكندة وأماالنصرانية فكانت قد انتشرت فيهم وتمكنت تمكنا قال الفيروزابادى واجتمعت على النصرانية قبائل شتى من بطون العرب بالحيرة وهم العباد وتنصر كثير من ملوك اليمن والحيرة وكذا كان ملوك غسان كلهم نصارى وكانت النصرانية فى ربيعة وقضاعة وبهروتنوخ وتغلب وبعض طئ وكانت قريش نصبت فى جملة أصنامها فى الكعبة تمثال مريم العذراء أم عيسى المسيح مزوّقا وابنها عيسى فى حجرها قاعدا وذلك فى العمود الذى يلى باب الكعبة ولم تطمس صورتهما لما دخل صاحب الشريعة الكعبة بل بقيتا الى عهد ابن الزبير فاحترقتا فى الحريق ذكره النويرى والازرقى * ومن أصنامهم أيضا إساف فى صورة رجل ونائلة فى صورة امرأة جوء بهما من الشام ووضع أحدهما فى الصفا والآخر فى المروة وزعم العرب أنهما جرهميان وان إسافا هو ابن عمرو ونائلة بنت سهل فجرا فى الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ذكره ابن الجنانى

(الفصل الثالث)

﴿ فى علوم العرب وآدابهم ﴾

وكان العرب يفاخرون بعلم لسانهم واحكام لغتهم ونظم الاشعار وتأليف الخطب وكانوا موصوفين بين الامم بالبيان فى الكلام والفصاحة فى المنطق والذلاقة فى اللسان وكانت لهم مع ذلك معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بانواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله سبحانه شيأ منه ولاهيأ طباعهم للعناية به وكان الشعر ديوان خاصة العرب ومنتهى حكمها والمنظوم من كلامها والمقيد لأيامها والشاهد على حكامها به يأخذون واليه يصيرون وكانوا لايهنؤن الابغلام يولد أوشاعر ينبغ فيهم أوفرس تنتج * قال الصفدى بل ما كان للعرب ماتفتخر به الا السيف والضيف والبلاغة * وكانوا كل حول يتقاطرون الى سوق عكاظ ويتبايعون ويتناشدون ويتفاخرون ويتعاكظون ولقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت الى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة فقيل لها مذهبات ويقال لها أيضا معلقات لانها علقت فى أستار الكعبة * وكان أسلوبهم فى الخطابة مخالفا لخطباء الروم واليونان والفرس فكانت فقراتهم مثل الجواهر المنثورة لاارتباط لبعضها ببعض ولذا كانت أكثر ماتروع مستمعيها بتبريزهم على غيرهم فى هذا الاسلوب فكانوا يزعمون أنه ليس فى الامم كلها من يعرف فن الخطابة حق معرفته سوى العرب ويتلوهم الفرس

وكانت عكاظ التى يتفاخرون باشعارهم فى سوقها قرية بصحراء بين نخلة والطائف على ثلاث مراحل من مكة وكان لها سوق أسبوعية يوم الاحد وسوق سنوية كانت تقوم هلال ذى القعدة ويستمر موسمها عشرين يوما تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون أى يتفاخرون ويتناشدون قالوا وكان من فوائدها أن العرب يتعارفون فى هذه الاسواق ويتصاهرون وكانت فرسانهم اذا كانت سوق عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا أن يتقنعوا حتى لايعرفوا وان كانت هذه السوق يؤذن فيها بالتعامل والاخذ والعطاء الا أنه كان الغرض الاهم منها اجتماع فحول الشعراء والفصحاء والبلغاء من أهل العربية لابداء نتائج أفكارهم واظهار محاسن فصاحتهم وبلاغتهم ومثل عكاظ فى ذلك مثل سوق ذى المجاز خلف عرفات ولهم أسواق أخر غير هذه ولكنها كانت غاية فى المهابة والاحترام يزورهم فيها الشعراء من كل صوب وحدب فيقوم الشاعر منهم ويبرز فى الميدان وأرباب المجلس ثابتون فى أماكنهم فينشد الاشعار من قريضه وهم يصغون الى سماعها منه ويحرصون على التقاطها من فيه بمجرد النطق بها فيحفظونها عن ظهر قلب

وكان أول مايبرز الشاعر يظهر بمظهر الشجاعة والحماس ويتماشى قبل أن ينشد الشعر مشية التيه والاعجاب ليتحقق من حماس بنات فكره ثم يصعد الى مرتفع فينشد بصوت جهورى قصيدته بتمامها بدون أن يقطعها عليه أحد فتارة تكون مرتجلة بالبديهة وتارة يكون قد نظمها بالروية قبل ذلك وهيأها لينشدها فى الجمع ولكن كان الغالب على فحول شعرائهم أنهم كانوا يرتجلون الشعر بدون روية فيأتون فيه بما لايقتدر غيرهم على الاتيان به ومنهم من كان بخلاف ذلك كما روى عن زهير بن أبى سلمى أنه كان ينظم القصيدة فى أربعة أشهر ويهذبها بنفسه فى أربعة أشهر أخرى ويعرضها على الشعراء من أصحابه فى أربعة أشهر ثالثة فلايشهرها حتى يأتى عليها حول كامل ولذلك كانت تسمى قصائده بالحوليات ومع هذا فقد قيل انه كان أشعر الجميع * وكان اذا فرغ الشاعر من الانشاد أمعن الحاضرون النظر فى شعره فاما أن يستحسنوه واما أن يعيبوه

وكان الشاعر يجلس جلسة خطيب للاستراحة ثم يعود الى اتمام انشاده بهمة ونشاط ويجلى عن بنات أفكاره فرائد فيكتب فى ذلك المحفل ما يستحسن من القصائد بحروف الذهب على منسوج الحرير ولهذا بقيت شهرة المعلقات السبع محفوظة الى هذا الحين وقد مضى عليها أجيال طويلة وكان يجتمع بسوق عكاظ أيضا سادات العرب وملوكهم ورؤساء قبائلهم وعرفاؤهم وكان لمدح الشعراء وقدحهم تأثير فى النفوس يترتب عليه كثير من الامور الخطيرة كالخفض والرفع والاعزاز والاذلال وغير ذلك * قيل ان الاعشى كان يأتى عكاظ فى كل سنة فمر على بنى كلاب وكان المحلق الكلابى فقيرا خامل الذكر وله بنات لم يخطبهن أحد من الازواج رغبة عن أبيهن لفقره فقالت له امرأته مايمنعك ياابن كلاب من التعرض لهذا الشاعر والتعرف به واكرامه فما رأيت أحدا آواه اليه وجذبه الا واكسبه خيرا فقال ويحك

ماعندى

ماعندى الاناقى فقالت الله يخلفها عليك فتلقاه قبل أن يسبق اليه أحد من الناس وكان الاعشى بصيرا وله ابن يقوده فأخذ المحلق بخطام ناقة الاعشى فقال الاعشى من هذا الذى غلبنا على خطامنا فقيل المحلق فقال شريف كريم ثم سلمه ابنه اليه فأنزله ونحرله المحلق ناقته وأحاطت به بناته يخدمنه فقال ماهذه الجوارى حولى قال بنات أخيك وهن ثمان نصيبهن قليل فقال الاعشى هل لك حاجة قال المحلق تشيد بذكرى فلعلى أشهر فتخطب بناتى فنهض الاعشى من عنده ولم يقل فيه شيأ فلما وافى سوق عكاظ اذهو بمكان قد اجتمع الناس عليه فأنشد قصيدته القافية التى منها

لعمرى لقدلاحت عيون كثيرة * الى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها * وبات على النار الندى والمحلق

فاشتهرت هذه الابيات فى العرب وما أتت على المحلق سنة حتى زوج البنات وكانت تضرب للنابغة الذبيانى قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ وتأتيه الشعراء فتنشده أشعارها وأول من أنشده الاعشى ثم أنشدته الخنساء فكان للنابغة التقدم على جميع شعراء عصره وهو من فحول الطبقة الاولى المقدمين على سائر الشعراء قال ربعى بن خراش قال لنا عمر رضى الله عنه يامعشر غطفان من الذى يقول

أتيتك عاريا خلقا ثيابى * على خوف تظن بى الظنونا

قلنا النابغة قال ذاك أشعر شعرائكم وقال عمر بن المنتشر المرادى وفدنا على عبد الملك ابن مروان فدخلنا عليه فقام رجل فاعتذر اليه من أمر وحلف عليه فقال له عبد الملك أما كنت حريا أن تفعل ولا تعتذر ثم أقبل على أهل الشام فقال أيكم يروى من اعتذار النابغة الى النعمان

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

فلم يجد فيهم من يرويه فأقبل على فقال أترويه قلت نعم فأنشدته القصيدة كلها فقال هذا أشعر العرب وكان الشاعر الجيد يحسب فخرا لقبيلته وكانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر صنعت الاطعمة وأتت القبائل فهنأتها بذلك واجتمعت النساء يضربن بالمزاهر كما يصنعن فى الاعراس وتتباشر الرجال والولدان لانه يكون حماية لاعراضهم وذودا عن أحسابهم وتخليدا لمآثرهم وصيانة لنسائهم واشادة بذكرهم ذكره ابن رشيق فى العمدة * وكان العرب اذا أتوا الموسم يضعون سلاحهم عند أهل السدانة من قريش قبل دخولهم فى السوق ومن لم يضع سلاحه عندهم عرض نفسه للقتل وكانت هذه السوق أيضا مجمع مكارم الاخلاق كما كانت مجمع الفصاحة والفروسية فقد حكى أن عامر بن الطفيل العامرى النجدى أحد أشراف الشعراء كان ينادى مناديه فى هذه السوق هل من راجل فنحمله أو جائع فنطعمه أو خائف فنؤمنه ومن شعره

فانى وان كنت ابن فارس عامر * وسيدها المشهور فى كل موكب



فما سودتنى عامر عن وراثة * أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى * أذاها وأرمى من رماها بمنكب

وكانت أيضا هذه السوق فى أيام هذا الموسم كدوان ملوك العرب فقد كان بعض ملوكهم يأخذ مالهم من الاتاوة والمرتبات على القبائل كل سنة بالموسم مثل جذيمة العبسى فانه كان يأخذ الاتاوة من هوازن فى هذه السوق فاذا تأخروا هددهم بالحرب وكانت العرب تقيم بهذه السوق شهر شوال جميعه أو عشرين يوما منه ثم تنتقل من تلك السوق بعد انفضاضها الى سوق مجنة فتقيم فيها عشرين يوما من ذى القعدة ثم تنتقل منها الى سوق ذى المجاز فتقيم فيها الى أيام الحج * وكانت هذه السوق أيضا من مسببات القتال بين العرب كما وقع ذلك فى الفجار الاول والفجار الثانى روى أن سبب الفجار الاول أن بدر بن معشر الغفارى كان له مجلس يجلس فيه فى سوق عكاظ ويفتخر على الناس فبسط يوما رجله وقال أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف فوثب عليه رجل من أشراف العرب فضربه بالسيف على ركبته فأدماها فاقتتلوا وسبب الفجار الثانى أن امرأة من بنى عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فأطاف بها شاب من قريش من بنى كنانة فسألها أن تكشف عن وجهها فأبت فجلس خلفها وهى لا تشعر وعقد ذيلها بشوكة فلما قامت وانحسر ذيلها من خلفها ضحك الناس وقيل لها قد منعت بكشف وجهك فبان غيره فنادت يا آل عامر فثاروا بالسلاح ونادى الشاب يا بنى كنانة فثاروا كذلك فقامت الحرب بين الفريقين على ساقها ثم فجار ثالث ثم رابع قيل ان صاحب الشريعة الاسلامية شهد هذا الفجار وهو فى الرابعة عشرة من عمره وقد خرج مع عمومته ورمى فيه بالنبل رواه ابن سعد

وأما الكتابة فقد حكوا أن ثلاثة نفر من طيئ وكانوا على دين المسيح وضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلمه قوم من الانبار وجاء الاسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر انسانا ولقلة القراطيس عندهم عمدوا الى كتف الحيوان فكتبوا عليها وكان الناس فرقتين أهل كتابة وأميون والأمى من لا يعرف الكتابة فكان اليهود والمسيحيون بالمدينة والاميون وهم الوثنيون بمكة

وأما الطب عندهم فقد كانت معارفهم فيه قليلة جدا وكانت تغلب عليهم التجربة والاستقراء أو التقليد أحيانا وكان المشهور من أطبائهم رجل يقال له لقمان بن عاد يزعمون أن أباه عاد بن ملطين بن عاد بن عوص بن ارام بن سام بن نوح وان لقمان المذكور عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة وذلك عمر سبعة أنسر ثم آخر من تيم الرباب اسمه ابن حذيم ويضربون به المثل بالحذاقة فى الطب فيقولون لمن أرادوا وصفه بذلك أطب من ابن حذيم وهو أطب العرب عندهم ويفضلونه على الحرث قال أوس بن حجر

فهل لكم فيها الى فاننى * بصير بما أعيا النطاسى حذيما

أما الحرث المذكور فهو الحرث بن كلدة من بنى ثقيف من أهل الطائف رحل الى أرض

فارس وأخذ الطب عن أهله بجند يسابور وغيرها فى الجاهلية وطبب فى أهل فارس وحصل مالا ثم تاقت نفسه الى الرجوع الى بلده فرجع وقيل انه مات سنة ثلاث عشرة للهجرة وقيل سنة عشرين مسموما * ومن أطبائهم أيضا ابن أبى رومية التيمى وكان معاصرا لحرث المذكور ونصر بن الحرث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى كان من الجاهلية أخذ أسيرا يوم بدر فقتل وهؤلاء كانوا أشهر أطباء العرب فى الجاهلية وقد بقى من كلامهم فى الطب ماقاله لقمان بن عاد المتقدم كل داء حسم بالكى ولذلك قالوا فى أمثالهم * آخر الطب الكى * وماقاله الحرث بن كلدة أيضا من سره البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء وليقل من غشيان النساء قال بعضهم يريد بخفة الرداء أن لايكون عليه دين ومن أنواع معالجتهم أيضا معالجة الاحول بادامة النظر الى حجر الرحى فى حال دورانها يزعمون أن العين تستقيم به ويعالجون الخدر وهو التشنج الذى يعترى الاعضاء فلاتطيق الحركة بأن يدعو صاحبه أحب الناس اليه قال بعضهم وعليه قول بعضهم يخاطب محبوبته

رأى الله ياسلمى حياتى * وفى يوم الحساب كما أراك
الى كم تهجرين فتى معنى * اذا خدرت له رجل دعاك

فلما جاء الاسلام اتسع نطاق الطب وعلت منزلته وتعلمه الكثير من العرب عن علماء النصرانية واليهودية والفارسية ونبغوا فيه وتفشى بينهم

وأما السيف والفروسية فقد كانوا غاية فى التمرن عليهما والندب اليهما وذلك لكثرة ما كان يشجر بينهم وكانوا يقولون ان الله ميزهم باربعة أبدلهم العمائم من التيجان والخيام من الدور والجدران والسيوف من الخنادق والشعر من كتب الشرائع ولم يكن لهم فى الجاهلية لعلم العروض قانون يضبط قواعده ويقرر أحواله وانما تم لهم ذلك بعد ظهور صاحب الشريعة الاسلامية ببضع سنين أى حينما ظهر الخليل بن أحمد الفراهيدى فى خلافة الرشيد العباسى ودون أصول العروض * روى الصفدى أن عروضيا بمصر يدعى أبا جعفر جلس يوما عند مقياس النيل فى سنة لم يرتفع الماء فيها كعادته وكان لذلك يخشى القحط فيها فأخذ ذلك العروضى يقطع بيت شعر على تفاعيله فمر به رجل لم يفهم قصده من هذا التقطيع فظن أنه يتلو سحرا على الماء حتى لايرتفع فقذفه فى النيل فغرق

(الفصل الرابع)

(فيما كانت عليه قريش قبل الاسلام)

اجتمعت كلمة جماعة من أصحاب التاريخ على أن قريشا فى الجاهلية اختصوا بكثير من

المزايا منها أن اللسان العربى العذب الفصيح الذى نطقت به فحول الخطباء والشعراء هو لسان قريش ومنها أنهم كانوا سكان بيت الله الحرام ولذلك كانوا دائما آمنين فى أسفارهم وتنقلاتهم فى رحلتى الشتاء والصيف والناس يتخطفون من حولهم فاذا عرض لهم عارض قالوا نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد وكان هاشم يؤالف الى الشام وعبد شمس الى الحبشة والمطلب الى اليمن ونوفل الى فارس فكان تجار قريش يختلفون الى هذه الامصار بحبال هؤلاء الاربعة الاخوة ولا يتعرض لهم أحد وكان كل أخ منهم قد أخذ حبلا من ملك ناحية سفره أمانا له كالاجازة وكانت قبائل قريش قبل ظهور قصى بن كلاب متفرقة فى البوادى فجمعها وأسكنها الحرم وكانت تدعى قبل هذا التجميع النضر بن كنانة فلما جمعهم وأسكنهم فى البيت سموا قريشا من التقريش وهو التجميع * وقال بعضهم انما سميت قريش قريشا لدابة فى البحر هى أعظم دواب البحر خطرا لا تظفر بشئ من دواب البحر الا أكلته فسميت قريش قريشا لانها أعظم العرب فعالا وأعزهم جانبا

قال بعض أصحاب التاريخ وأول دار بنيت بمكة دار الندوة وتسمى دار المنتدى بناها قصى لتكون مجلس القوم نهارا يجلسون فيها للمشاورة فى الامور المهمة فلم يكن لهم أمر مهم الا اجتمعوا فيها وقصى هو الذى بنى المسجد الحرام بأشراف المزدلفة وكان يسرج عليه أيام الحج فسمى مشعرا وأمروا بالوقوف عنده وتم لقريش فى ذلك العهد أن صارت لهم الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة * قالوا فالحجابة هى سدانة البيت الحرام أى تولية مفتاح بيت الله * والسقاية سقى الحاج كلهم الماء العذب وكان نادرا بمكة يجلب اليها من الخارج لسقاية الحاج بل وينبذ لهم التمر والزبيب للشراب أيضا * وأما الرفادة فهى الطعام الطعام لسائر الحجاج فكانت تمد لهم الاسمطة فى أيام الحج * وأما الندوة فهى المشورة فكان يجتمع فيها من قريش وغيرهم من العرب من أهل الرياسة من بلغ فى العمر أربعين سنة ولا يعقد عقد نكاح لقرشى الا فيها * وأما اللواء فراية معقودة على رمح ينصبونه علامة على اجتماع الجيش لحرب الاعداء فيجتمعون تحت هذه الراية ويقاتلون عندها * والقيادة امارة الجيش ورياسة الحرب * قيل كانت هذه المناصب كلها لقريش وانتهت الى عشرة أبطن منها وبقيت لهم فى الاسلام أيضا والعشرة الابطن هم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم قالوا فكان من بنى هاشم العباسيون وعبد المطلب بسقى الحجيج وبقى له ذلك فى الاسلام ومن بنى أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش وكانت اذا حفظت عند رجل أخرجها اذا حميت الحرب فان اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه * ومن بنى نوفل الحرث ابن عامر وكانت اليه الرفادة وهى ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج * ومن بنى عبد الدار عثمان بن طلحة له اللواء والسدانة أى خدمة الكعبة مع الحجابة ويقال والندوة أيضا فى بنى عبد الدار * ومن بنى أسد يزيد بن زمعة بن الاسود وكانت اليه المشورة وذلك أن

رؤساء

رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه عليه فان وافقه ولاهم عليه والا تخيروا وكانوا له أعوانا واستشهد يزيد المذكور وهو مع صاحب الشريعة بالطائف * وكان من بنى تيم أبوبكر الصديق وكانت اليه فى الجاهلية الاشناق وهى الديات والمغرم وكان اذا احتمل شيأ فسأل فيه قريشا صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وان احتملها غيره خذلوه * ومن بنى مخزوم خالد بن الوليد وكانت له القبة والاعنة فأما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها مايجهزونبه الجيش وأما الاعنة فانه كان على خيل قريش فى الحرب * ومن بنى عدى عمر بن الخطاب وكانت اليه السفارة فى الجاهلية وذلك أنهم كانوا اذا وقعت بينهم حرب بعثوه سفيرا وان نافرهم فى المفاخرة جعلوه منافرا ورضوا به * ومن بنى جمح صفوان بن أمية وكانت اليه الايسار والازلام فكان لايسبق بأمر عام حتى يكون هو الذى تيسيره على يديه * ومن بنى سهم الحرث بن قيس وكانت اليه الحكومة والاموال المحجرة التى سموها لاصنامهم قالوا فهذه الوظائف كلها كانت فى قريش على النحو المذكور

وكان لبنى هاشم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر فأما حلوان النفر فلكون العرب لم يكونوا ليرضوا فى الجاهلية أن يملك عليهم ملك فاذا حدثت لهم حرب مع أحد أقرعوا بين أهل الرياسة فمن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيرا كان أو كبيرا وأمروه بالنفر للحرب * وكان للعرب جميعا فى الجاهلية كثير من العوائد والاوابد وكانوا ينزلونها منزلة عظمى ويتنافسون فى تعظيمها فمنها البحيرة والسائبة والوصيلة والحام والخمر والميسر والانصاب والازلام ووأد البنات والزيادة فى الحج (أما البحيرة) فهى ناقة كانت اذا انتجت خمسة أبطن وكان الاخير ذكرا بحروا أذنها أى شقوها وامتنعوا عن ذكاتها ولا تمنع من ماء ولامرعى (وأما السائبة) فهى أن الرجل اذا أعتق عبدا قال هو سائبة فلايبقى بينهما عقد ولا ميراث (وأما الوصيلة) فتكون فى الغنم فاذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم وان ولدت ذكرا جعلوه لاصنامهم فان ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلا يذبحون الذكر لآلهتهم (وأما الحام) فهو الذكر من الابل كان اذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى (وأما الخمر) فهو ماخامر العقل ومنه سميت الخمر خمرا وكان باعة الخمر فى الجاهلية ينصبون رايات ليعرف مكانهم بها ويسمونها الغاية وكان العرب يفتخرون بشربها وبالمقامرة أيضا لانها من دلائل الجود عندهم وقد بلغ تنافسهم فى شرب الخمر درجة يستدل عليها بما فعله أبوغبشان من بيع مفاتيح الكعبة بزق خمر كما تقدم بيان ذلك فى محله ومازالت هذه العوائد مرعية بينهم مألوفة فى مذهبهم حتى ظهر صاحب الشريعة الاسلامية محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشى وكان من أمر تحريمها والنهى عنها مالا موضع لذكره هنا الآن

(المقـــالة الثانية)

(فيما كان بظهور الاسلام وفيه فصول)

(الفصـــــل الاول)

(فى ظهور صاحب الشريعة الاسلامية)

قال أهـل التاريخ وابن اسحق عن قيس مخرمة وقثاث بن أشيم وابن عباس ان صاحب الشريعة الاسلامية ولد عام الفيل وقال ابن الكلبي ولد عبدالله بن عبـد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم لاربع وعشرين سـنة مضت من سلطان كسرى أنوشروان وولد رسول الله صلى الله عليــه وسلم سنة اثنتين وأربعين من سلطانه وأرسـله الله لمضى اثنتين وعشرين من ملك كسرى ابرويز بن كسرى هرمز بن كـــسرى أنوشروان وهاجر لاثنتين وثلاثين سنة مضت من ملك ابرويز * وقال ابن اسحق ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الاول وكان مولده بالدار التى تعرف بدار ابن يوسف قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبها عقيل بن أبى طالب فلم تزل فى يده حتى توفى فباعها ولده من محمـد بن يوسـف أخى الحجاج فبنى داره التى يقال لها دار ابن يوسـف وأدخل ذلك البيت فى الدار حتى أخرجته الخيزران فجعلته مسجدا يصلى فيه * وقيل ولد لعشر خلون منه وقيل لليلتين خلتا منه * وأول من أرضع صاحب الشريعة ثويبة مولاة أبى لهب بلبن ابن له يقال له مسروح وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبدالمطلب وأرضعت بعـده أبا سلمة بن عبد الاسد المخزومى فكانت ثويبة تأتى صاحب الشريعة بمكة قبل أن يهاجر فيكرمها وتكرمها خـديجة فأرسـلت الى أبى لهب أن يبيعها اياها لتعتقها فأبى فلما هاجر صاحب الشريعـة الى المدينة أعتقها أبولهب قال ثم أرضعت صاحب الشريعة بعد ثويبة المذكورة حليمة بنت أبى ذؤيب واسمه عبـدالله بن الحرث بن شجنة من بنى سـعد بن بكر بن هوازن واسم زوجها الحرث بن عبـد العزى واسم اخوته صـلى الله عليه وسلم من الرضاعة عبدالله وأنيسة وخـذامة وهى الشيماء عرفت بذلك وكانت الشيماء تحضنه مع أمـه حليمة وردته حليمة الى أمه وجده عبد المطلب وعمره خمس سنين فى قول ا هـ قال ابن اسحق هلك عبدالله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليــه وسلم وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة حامل به * وقال ابن هشام توفى عبـد الله أبو رسول الله بعد ماأتى على رسول الله ثمانية وعشرون يوما * وقال الواقدى ثبت عندنا أن عبد الله بن عبـد

المطلب

المطلب أقبل من الشام فى عير لقريش ونزل بالمدينة وهو مريض فأقام بها حتى توفى ودفن فى دار النابغة الصغرى * وقال ابن اسحق وتوفيت آمنة وله صلى الله عليه وسلم ست سنين بالابواء بين مكة والمدينة كانت قدمت به المدينة على أخواله من بنى النجار تزورهم فماتت وهى راجعة * وقيل ان عبد المطلب زار أخواله من بنى النجار وحمل معه آمنة وصاحب الشريعة فلما رجع توفيت بمكة ودفنت فى شعب أبى ذر قيل والاول أصح * ولما سارت قريش الى أحد يعنى الى حرب أحد وقلوبهم تلتهب غيظا من صاحب الشريعة وهم فى أشد مايكون من النكاية به هموا باستخراج آمنة من قبرها يعنى بنبشه فقال بعضهم ان النساء عورة وربما أصاب محمد من نسائكم فكفوا بهذا القول وقال ابن اسحق وتوفى عبد المطلب ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن ثمان سنين وقيل ابن عشر سنين اه ولما مات عبد المطلب صار صاحب الشريعة فى حجر عمه أبى طالب بوصية من عبد المطلب اليه بذلك لما كان يرى من بره به وشفقته وحنوه عليه

وأما نسبه وأخبار آبائه وأجداده فهو محمد بن عبد الله ويكنى عبد الله أبو قثم وقيل محمد وقيل أحمد بن عبد المطلب وكان عبد الله أصغر ولد أبيه فكان عبد الله وأبو طالب واسمه عبد مناف والزبير وعبد الكعبة وعاتكة وأميمة وبرة ولد عبد المطلب أمهم جميعا فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم بن يقظة وكان عبد المطلب نذر حين لقى من قريش العنت فى حفر زمزم أنه ان ولد له عشرة نفر وبلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة لله تعالى فلما بلغوا عشرة وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه وقالوا كيف نصنع قال يأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ففعلوا وأتوه بالقداح فدخلوا على هبل فى جوف الكعبة وكان أعظم أصنامهم وهو على بئر يجمع فيه مايهدى الى الكعبة وكان عند هبل سبعة قداح فى كل قدح كتاب فقدح فيه العقل اذا اختلفوا فى العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة وقدح فيه نعم للامر اذا أرادوه يضرب به فان خرج نعم عملوا به وقدح فيه لا فاذا أرادوا أمرا ضربوا به فاذا خرج لا لم يفعلوا ذلك الامر وقدح فيه منكم وقدح ملصق وقدح فيه من غيركم وقدح فيه المياه اذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به * وكانوا اذا أرادوا أن يختنوا غلاما أو ينكحوا جارية أو يدفنوا جثة أو شكوا فى نسب أحد منهم ذهبوا به الى هبل وبمائة درهم وجزور فاعطوها صاحب القداح الذى يضربها ثم قربوا صاحبهم الذى يريدون به مايريدون ثم قالوا باالهنا هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه ثم يقولون لصاحب القداح اضرب فيضرب فان خرج عليه منكم كان وسيطا وان خرج عليه من غيركم كان حليفا وان خرج عليه ملصق كان على منزلته منهم لانسب له ولا حلف وان خرج عليه شئ سوى هذا مما يعملون به فان خرج نعم عملوا به وان خرج لا أخروه عامهم ذلك حتى يأتوه به مرة أخرى ينتهون فى أمورهم الى ذلك مما خرجت به القداح

وقال عبد المطلب لصاحب القداح اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره



الذى نذر وكان عبد الله أصغر بنى أبيه وأحبهم اليه فلما أخذ صاحب القداح يضرب قام
عبد المطلب يدعو الله تعالى ثم ضرب صاحب القداح فخرج قدح على عبدالله فأخذ عبد
المطلب بيده ثم أقبل الى اساف ونائلة وهما الصنمان اللذان ينحر الناس عندهما فقامت
قريش من أنديتها فقالوا ماتريد قال أذبحه فقالت قريش وبنوه والله لاتذبحه أبدا حتى
تعذر فيه لئن فعلت هذا لايزال الرجل منا يأتى بابنه حتى يذبحه فقال له المغيرة بن عبد الله
ابن عمرو بن مخزوم والله لاتذبحه حتى تعذر فيه فان كان فداؤه بأموالنا فديناه وقالت له قريش
وبنوه لاتفعل وانطلق الى كاهنة بالحجر فسلها فان أمرتك بذبحه ذبحته وان أمرتك بما لك
وله فيه فرج قبلته فانطلقوا اليها وهى بخيبر فقص عليها عبد المطلب خبره فقالت ارجعوا
اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله فرجعوا عنها ثم غدوا عليها فقالت نعم قد جاءنى الخبر فكم
الدية فيكم قالوا عشر من الابل وكانت كذلك قالت ارجعوا الى بلادكم وقربوا عشرا من
الابل واضربوا عليها وعليه بالقداح فان خرجت على صاحبكم فزيدوا عشرا حتى يرضى ربكم
وان خرجت على الابل فانحروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم فخرجوا حتى أتوا مكة فلما
اجتمعوا لذلك قام عبد المطلب يدعو الله ثم قربوا عبدالله وعشرا من الابل فخرجت القداح على
عبدالله حتى بلغت الابل مائة ثم ضربوا فخرجت القداح على الابل فنحرت ثم تركت لايصد
عنها انسان ولاسبع

وأما تزويج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة ابنة وهب أم صاحب الشريعة فانه لما
فرغ عبد المطلب من الابل انصرف بابنه عبد الله وهو آخذ بيده وخرج به حتى أتى وهب
ابن عبد مناف بن زهرة وهو سيد بنى زهرة فزوجه ابنته آمنة بنت وهب وهى لبرة بنت
عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى وبرة لام حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى
وأم حبيب لبرة بنت عوف بن عبيد بن عريج بن عدى بن كعب فدخل عبد الله عليها حين
أملكها مكانها فحملت بمحمد صاحب الشريعة الاسلامية • وقال الزهرى أرسل عبد المطلب
ابنه عبد الله الى المدينة يمتار لهم تمرا فمات بالمدينة وقيل بل كان بالشام فأقبل فى عير قريش
فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها ودفن فى دار النابغة الجعدى وله خمس وعشرون سنة
وقيل ثمان وعشرون سنة وتوفى قبل أن يولد له محمد صلى الله عليه وسلم وهو محمد بن عبد الله
ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن غالب بن فهر
ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان
اه وكانت وفاة عبد المطلب بعد الفيل بثمان سنين أعنى بعد حرب الفيل بثمان سنين
وأوصى أبا طالب بمحمد فكان أبو طالب هو الذى قام بأمره بعد جده ثم ان أبا طالب خرج
الى الشام فلما أراد المسير لزمه صاحب الشريعة فرق له وأخذه معه وله يومئذ تسع سنين
ثم عادا معا الى مكة فلما بلغ الخامسة والعشرين تزوج خديجة بنت خويلد وهى يومئذ ابنة
أربعين سنة وكانت أوسط نساء قريش نسبا وأكثرهن مالا وشرفا فولدت له أولاده كلهم الا

ابراهيم

ابراهيم وهم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم وبه كان يكنى وعبدالله والطاهر والطيب فلما بلغ الاربعين من عمره دعا الناس الى الاسلام وأخذ ينذرهم بعذاب الله وينهاهم عما هم فيه من عبادة الاوثان * قال ابن اسحق وكان يذكر ذلك سرا الى من يطمئن اليه من أهله فكان أوّل من آمن به وصدقه من خلق الله تعالى خديجة بنت خويلد زوجته اه فتبعه نفر وكانوا اذا أرادوا الصلاة ذهبوا الى الشعاب فاستخفوا فبينما سعد بن أبى وقاص وعمار وابن مسعود وخباب وسعد بن زيد يصلون فى شعب اذ اطلع عليهم نفر من المشركين منهم أبو سفيان بن حرب والاخنس بن شريق وغيرهما فسبوهم وعابوهم حتى قاتلوهم فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جمل فشجه قيل فكان أول دم أريق فى الاسلام

وقال جعفر بن عبد الله بن أبى الحكم لما أنزل الله على رسوله وأنذر عشيرتك الاقربين اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعا فجلس فى بيته كالمريض فأتته عماته يعدنه فقال ما اشتكيت شيأ ولكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الاقربين فقلن له فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم فانه غير مجيبك فدعاهم صلى الله عليه وسلم فحضروا ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلا فبادره أبو لهب وقال هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة يعنى الخروج عن عبادة الاصنام * واعلم انه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وان أحق من أخذك فحبسك بنو أبيك وان أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب فما رأيت أحدا جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتكلم فى ذلك المجلس اه

ولبث يدعو الناس سرا ثلاث سنين ثم ظهر ونادى قومه بالاسلام قيل فلم يبعدوا منه ولم يردوا عليه الابعض الرد حتى ذكر آلهتهم وعابها فلما فعل ذلك أجمعوا على خلافه وحدب عليه عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ومضى صاحب الشريعة على ما هو عليه فلما رأت قريش أنه لا يعتبهم من شئ يكرهونه وان أبا طالب قد قام دونه ولم يسلمه لهم مشى رجال من أشرافهم الى أبى طالب عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان صخر بن حرب وأبو البخترى بن هشام والاسود بن المطلب والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل ونبيه ومنبه ابنا الحجاج أو من مشى منهم فقالوا يا أبا طالب ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فاما أن تكفه عنا واما أن تخلى بيننا وبينه فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فقال لهم أبو طالب قولا جميلا وردهم ردا رفيقا فانصرفوا عنه ومضى محمد لما هو عليه ثم سرى الامر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال فتضاغنوا وأكثرت قريش من ذكر محمد وما يأتيه فى كل يوم وقد تآمروا فيه ومشوا الى أبى طالب مرة أخرى وطلبوا أن يخلى لهم عنه والا قاتلوا حتى يهلك أحد الفريقين فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم له فبعث الى صاحب الشريعة فاعلمه ما قالت قريش وقال له أبق على نفسك وعلىّ ولا تحملنى من



الامر مالا أطيق ثم ان قريشا اشتدت على من فى القبائل من الصحابة الذين أسلموا فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم و يفتنونهم عن دينهم وقام أبو طالب فى بنى هاشم فدعاهم الى منع محمد فأجابوا الى ذلك واجتمعوا اليه الا ما كان من أبى لهب عم صاحب الشريعة واشتد القوم على من أسلم فجعلوا يحبسونهم ويضربونهم ويعذبونهم بالجوع والعطش و رمضاء مكة والنار ليفتنوهم واشتد أبولهب عبد العزى بن عبد المطلب على صاحب الشريعة شدة بالغة وكذلك اشتد على المسلمين وكان عظيم التكذيب لصاحب الشريعة دائم الاذى فكان يطرح العذرة والنتن على باب محمد وكان جاره فكان محمد يقول أى جوار هذا يابنى عبد المطلب

ولما رأى صاحب الشريعة مايصيب أصحابه من البلاء وماهو فيه من الشدة وانه لاقبل له بمنع خصومه وقد كثروا جمع اليه المسلمين وقال لهم لوخرجتم الى أرض الحبشة فان فيها ملكا لايظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجا فخرجوا جميعا مهاجرين فكانت أول هجرة فى الاسلام فخرج عثمان وزوجته رقية ابنة صاحب الشريعة معه وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وامرأته معه سهلة بنت سهيل والزبير بن العوام وغيرهم ثمانية عشر رجلا وقيل أحد عشر رجلا وأربع نسوة قيل وكان سيرهم فى رجب سنة خمس من نبوة صاحب الشريعة قالوا وهى السنة الثانية من اظهار الدعوة فأقاموا شعبان وشهر رمضان وقدموا فى شوال سنة خمس المذكورة ولكن لم يدخل أحد منهم الى مكة الا بجوار أومستخفيا فدخل عثمان فى جوار أبى أحيحة سعيد بن العاص بن أمية فأمن بذلك ودخل أبوحذيفة بن عتبة فى جوار أبيه ودخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة وأقام المسلمون بعد ذلك بمكة يؤذون فلما اشتد بهم الحال رجعوا مهاجرين الى الحبشة ثانية فخرج جعفر بن أبى طالب وتتابع المسلمون الى الحبشة فتكمل بها تمام اثنين وثمانين رجلا وصاحب الشريعة مقيم بمكة على ماهو عليه من دعوة الناس الى الاسلام ولم يقو الاسلام قليلا الا بدخول حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب فيه وقد اختلف الرواة فى سبب اسلامهما ولا سيما عمر فقال بعضهم قال عمر لما أسلمت أتيت باب أبى جهل بن هشام فضربت عليه بابه فخرج الى وقال مرحبا بابن أختى ماجاء بك قلت جئت لأخبرك أنى قد أسلمت وآمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم وصدقت بما جاء به قال فضرب الباب فى وجهى وقال قبحك الله وقبح ماجئت به

ولما رأت قريش الاسلام يفشو و يزيد ائتمروا فى أن يكتبوا بينهم كتابا يتعاقدون فيه على أن لاينكحوا بنى هاشم و بنى المطلب ولاينكحوا اليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيأ فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا لذلك الامر على أنفسهم فلما فعلت قريش ذلك انحاز بنوهاشم و بنو المطلب الى أبى طالب فدخلوا معه فى شعبه واجتمعوا وخرج من بنى هاشم أبولهب بن عبد المطلب الى قريش فلقى هندا بنت عتبة فقال كيف رأيت نصرى اللات والعزى قالت لقد أحسنت فأقاموا على

ذلك

ذلك سنتين وقيل ثلاثا حتى جهد المسلمون فكان لايصل الى أحد منهم شئ الاسرا وكانوا نازلين بالشعب مع صاحب الشريعة ثم قام بعد ذلك نفر من قريش فى نقض الصحيفة وشقوها فخرج المسلمون من الشعب وبعد خروجهم بقليل مات أبو طالب فعظمت مصيبته على صاحب الشريعة واشتدت قريش بعد موته على صاحب الشريعة شدة بالغة ونالت منه حتى كان ينثر بعضهم التراب على رأسه وبعضهم كان يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلى وغير ذلك من الايذاء فلما اشتد عليه الأمر خرج ومعه زيد بن حارثة الى ثقيف يلتمس منهم النصر فلما انتهى اليهم عمد الى ثلاثة نفر منهم هم يومئذ سادة ثقيف وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير فدعاهم الى الاسلام وكلمهم فى نصرته والقيام معه على من خالفه فلم ينصروه وقد حضروا به وأغروا به سفهاءهم فاجتمعوا عليه وألجؤه الى حائط (١) لعتبة وشيبة ابنى ربيعة وهما فيه ثم رجع السفهاء عنه وعاد هو الى مكة فجعل يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب فلم يقم منهم أحد لنصرته

(الفصـــــــل الثانى)

(فى هجرة صاحب الشريعة وفى غزواته وما وقع بعد ذلك)

واشتد القوم بمكة على صاحب الشريعة وكان معه على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق وخافت قريش خروجه من مكة وما يكون من وراء ذلك فاجتمعوا فى دار الندوة وهى دار قصى بن كلاب وتشاوروا فيها فتقررت القاعدة بينهم على قتله وقد علم صاحب الشريعة بذلك فخرج من مكة ولم يشعر به أحد وخرج معه أبو بكر من خوخة فى بيت أبى بكر ثم عمدا الى غار ثور فدخلاه وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع لهما بمكة نهاره ثم يأتيهما ليلا فكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بطعامهما مساء فأقاما فى الغار ثلاثا وجعلت قريش مائة ناقة لمن يرده عليهم فلما مضت الثلاث وسكن الناس أتاهما دليلهما وهو وثنى اسمه عبد الله بن أرقط كانوا قد استأجروه ليدلهم على الطريق بعيريهما فركبا وأردف أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة ليخدمهما فى الطريق وساروا قاصدين المدينة فنزلوا بها وكان على قد تخلف عنهم بمكة ليؤدى الودائع لاربابها فلما أداها وافاهم الى المدينة بعد ثلاث ولحق بهم من أسلم فلما كان بعد سبعة أشهر عقد صاحب الشريعة لعمه حمزة لواء أبيض فى ثلاثين رجلا من المهاجرين ليتعرضوا لعير قريش فلقى أبا جهل فى ثلثمائة رجل فحجز بينهم مجدى ابن عمرو الجهنى وكان يحمل اللواء أبو مرثد وهو أول لواء عقده ثم عاد فعقد لواء لعبيدة بن الحرث بن المطلب وكان أبيض يحمله مسطح بن أثاثة فالتقى هو والمشركون فكان بينهم

(١) الحائط هو البستان

الرمى دون المسابقة بجرح من الفريقين ثم عقد لواء ثالثا لسعد بن أبى وقاص وسيره الى الابواء وكان يحمل اللواء المقداد بن الاسود وكان مسيره فى ذى القعدة وجميع من معه من المهاجرين فلم يلق حربا (جعل الواقدى هذه السرايا جميعها فى السنة الاولى من الهجرة) وجعلها ابن اسحق فى السنة الثانية فقالا على رأس اثنى عشر شهرا من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة خرج غازيا واستخلف على المدينة سعد بن عبادة فبلغ ودّان يريد قريشا وبنى ضمرة من كنانة وهى غزاة الابواء بينهما ستة أميال فوادعتهم فيها بنو ضمرة ورئيسهم مخشى بن عمرو ثم رجع الى المدينة ولم يلق حربا اه وذكرا بن اسحق بعد هذه الغزوة غزوة عبيدة بن الحرث ثم غزوة حمزة بن عبد المطلب وابتنى فى هذه بالمدينة مسجدا ودارا لسكناه فى قطعة أرض كانت قبل ذلك مربدا وقيل مقبرة وكانت فى ملك يتيمين يقال لهما سهل وسهيل ابنا عمرو فاشتراها صلى الله عليه وسلم منهما ثم ان المدينة كانت تسمى يثرب قبل استيطان صاحب الشريعة بها ثم سميت بالمدينة بعد استيطانه اياها

وخرج صاحب الشريعة بعد ذلك يريد غزاة بواط فى مائتين من أصحابه فى شهر ربيع الآخر يعنى سنة اثنتين يريد قريشا حتى بلغ بواط من ناحية رضوى وكان فى عير قريش أمية ابن خلف الجمحى فى مائة ومعهم ألفان وخمسمائة بعير فرجع ولم ينل منهم وكان حامل اللواء فى هذه الغزوة سعد بن أبى وقاص وقد كان استخلف على المدينة قبل خروجه منها سعد بن معاذ ثم غزا غزوة العشيرة من ينبع فى جمادى الاولى يريد قريشا حين ساروا الى الشام فلما وصل العشيرة وادع بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ورجع ثم غزا غزوة أخرى ليست من الاهمية بشئ * وزوّج علىّ بن أبى طالب فاطمة فى صفر من السنة الثانية * وفى هذه السنة فى شهر رمضان منها فى سابع عشره وقيل تاسع عشره كانت غزوة بدر الكبرى وسببها قتل عمرو بن الحضرمى واقبال أبى سفيان بن حرب فى عير لقريش عظيمة من الشام وفيها أموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلا أو أربعون وقيل قريب من سبعين رجلا من قريش منهم مخرمة ابن نوفل الزهرى وعمرو بن العاص فمات فيها كثير من قريش وانهزمت قريش شر هزيمة

ولما كان لهذه الغزوة ذكر مشهور فى التاريخ رأيت أن ألخص خبرها هنا * خرج أبو سفيان متاجرا الى الشام فى ألف من عير قريش فسمع به صاحب الشريعة ومن معه من الانصار والمهاجرين ومن لاذ بهم من العرب فهموا بالخروج اليه فتحرز وتأهب للقتال فلم ينالوا منه فانتظروا الى أن عاد قافلا يريد مكة فكمنوا له فأعلم بذلك قريشا واستنفرهم الى أموالهم فأسرعوا اليه بخيلهم ورجلهم وكانوا فى نحو مائة فارس وثمانمائة راجل وكان صاحب الشريعة فى ثلثمائة وثلاثة عشر راجلا سبعة وسبعون من المهاجرين والباقون من الانصار فلما بلغ صاحب الشريعة وادى بدر جاءه الخبر أن العير مقبلة من جهة وقريشا مقبلة من جهة أخرى فشاور أصحابه فى أى الطائفتين يتصدى لها أوّلا فأجمع رأيهم على ترك العير ومقابلة قريش أوّلا فنزلوا على أدنى ماء من القوم وصف رجاله وشدّد عزائمهم ووعدهم

بالنصر

بالنصر ان صـدقوا فى القتال ثم بنى له عريش فصار عليـه مع أبى بكر وجعـل يناشد ربه فى النصر فقال اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد واشتد المشركون على أصحاب صاحب الشريعـة حتى كادوا ينالون منهم قيل فنزل صاحب الشريعة عن العريش وأخذ حفنة من الحصـباء فاستقبل بها قريشا ثم رماهـم بها وقال شاهت الوجوه قيل فسمعوا صوته فانخلعت قلوبهـم وخيـل لهم أن الملائكة تقاتلهـم فانهزموا وقتـل من صناديدهم سبعون فاعينت جثثهم وأسر سـبعون فافتدوا أنفسهم بأربعـة آلاف درهم الاأبا معيط والنضر بن الحارث وكانا شديدى الاذى لصاحب الشريعـة فأمر بهما فقتـلا صبرا ثم أدرك أصحابه عير قريش فانتهبوها وكان خمس صاحب الشريعة منها عشرين ألف درهم فقفل الى المدينة غانما

ثم كانت بعدذلك غزوة قينقاع ثم غزوة الكدر ثم غزوة السويق ثم غزوة أحد وكانت من أشد الغزوات مات فيها من الفريقـين خلق كثير وكانت نساء قريش يحرضن الرجال على اصطلاء نار الوغى ويضربن خلفهم بالدفوف وبينهن امرأة تقول هذه الابيات

نحـن بنات طارق * نمشى على النمارق
مثى القطا البوارق * والمسك فى المفارق
والدر فى المخانـق * ان تقبلوا نعانق
ونفـرش النمارق * أوتدبروا نفارق
* فـراق غـير وامق *

وكانت تقول أيضا

ويها بنى عبد الدار * ويها حماة الديار * ضربا بكل بتار

فكانت تندفع أبطال قريش فى ميـدان القتال اندفاع الاسود الضوارى غير هيابين ولا حاسبين للموت حسابا * ثم كانت غزوة الرجيع وقد قتل فيها كثير من المسلمين وبينهم خبيب أخـذ أسـيرا فبقى أياما ثم قتلوه صبرا ثم كانت غزوة ذات الرقاع وسميت بذلك لجبل كانت الواقعة فيه ثم غزوة بدر الثانية وتعرف أيضا بغزوة السويق ثم غزوة الخندق وهى غزوة الاحزاب كانت فى شوال وكانت من الغـزوات الكبيرة وذلك أن يهود بنى قريظة كان بينهـم وبين صاحب الشريعـة عهدأن لايعينوا عليه أحـدا ولا يثيروا عليه حربا ويتركهم وشأنهم فخالفوا ونقضوا وحزبوا العرب لاستئصال المسلمين فاجتمع منهم خلق كثير جدا وساروا الى المدينة فخنـدق المسلمون حولهـم وتترسوا بالمدينـة وقاتلوا فبينماهم كذلك اذقامت ريح عاصـفة فاقتلعت خيام الاعداء فانخذلوا ثم اختلفوا وتفرقوا وساروا عن المدينـة وتركوا متاعهم وكان من وراء ذلك غزوة يهود بنى قريظة وموت الكثير منهم ثم غزوة بنى المصطلق من خزاعة قال بعض أهل التاريخ كانت هـذه الغزوة بعد غزوة ذى قرد وكانت فى شعبان من سـنة ست فلما كانت سنة سبع وقد تقوت عزيمة صاحب الشريعة وعلت كلمته بعث رسـلا من عنده

الى ملوك الارض يدعوهم الى الاسلام فأرسل حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس بمصر وأرسل شجاع بن وهب الاسدى الى الحرث بن أبى شمر الغسانى وأرسل دحية الى قيصر وأرسل سليط بن عمرو العامرى الى هوذة بن على الحنفى وبعث عبدالله بن حذافة الى كسرى وأرسل عمرو بن أمية الضمرى الى النجاشى وأرسل العلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوا أخى عبد القيس وكان لكل من هؤلاء الملوك مع الرسل المذكورين شأن لامحل له هنا فاما المقوقس عظيم القبط بمصر فقيل انه قبل الكتاب وأهدى اليه مع الرسول أربع جوار منهن مارية ام ابراهيم ولد صاحب الشريعة ثم كانت غزوة خيبر سار اليها صاحب الشريعة فى ألف وأربعمائة رجل معهم مائتا فارس وكان مسيره اليها فى المحرم سنة سبع واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى فمضى حتى نزل بالرجيع ليحول بين أهل خيبر وغطفان لانهم كانوا مظاهرين لهم وكانت هذه الغزوة من الغزوات الكبرى وفتحت البلدة فى صفر من هذه السنة فلما استقربها أهدت اليه زينب بنت الحرث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية مسمومة فوضعتها بين يديه فأخذ منها مضغة قيل فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور فأكل منها * قال الراوى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان هذه الشاة تخبرنى أنها مسمومة ثم دعا المرأة فاعترفت فقال ماحملك على ذلك قالت بلغت من قومى مالم يخف عليك فقلت ان كان نبيا فسيخبر وان كان ملكا استرحنا منه قال فتجاوز عنها اه

ومات بشر من تلك الاكلة وكان صاحب الشريعة يقول فى مرضه الذى مات به لقد وجدت الآن انقطاع أبهرى من أكلة خيبر فكان المسلمون يرون أنه مات شهيدا مع كرامة النبوة * ولم يمض على صاحب الشريعة الابضع سنين حتى ظهرت كلمته وعلت شهرته ونال الظفر فى أكثر مغازيه * ومنها غزوة أحد فلما كانت السنة الثانية من هجرته خرج معتمرا الى مكة فى ألف وأربعمائة رجل وكان مسالما لايريد حربا فلما بلغ الحديبية وهى موضع بعضه فى الحل وبعضه فى الحرم أرسل اليه قريش يعلمونه أنهم لايأذنون له فى دخول مكة أو يدخلها عنوة فجمع رجاله وأخذ عليهم عين الطاعة وبايعوه بيعة الرضوان وعزم على مناجزة القوم بمكة فجاءه من قبلهم عروة بن مسعود كبير الثقفيين يسأله الصلح * وفى رواية ان الذى جاءه فى ذلك سهيل بن عمرو وان عروة انما ذهب اليه أولا يقول انهم لايدعونه يدخل مكة الاعنوة أى بعد قتال * فاتفقا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين وكتبا بذلك عهدا وكان مما جاء فى العهد ان من أحب أن يدخل فى عقد محمد دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش دخل فيه * ولما عاد عروة بن مسعود الى قريش قال لهم انى جئت كسرى وقيصر فى ملكهم فوالله مارأيت ملكا فى قومه مثل محمد فى أصحابه كان لايتوضأ الا ابتدروا وضوءه ولايبصق الا ابتدروا بصاقه ولا يسقط من شعره شئ الا أخذوه تبركا * ذكره ابن الاثير وأبو الفداء وابن هشام والقاضى عياض

وفى ذى الحجة من السنة أى سنة سبع اعتمر صاحب الشريعة عمرة القضاء وساق معه

سبعين بدنة وخرج معه المسلمون ممن كان معه فى عمرته الاولى فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه وتحدثت قريش أنه وأصحابه فى عسر وجهد فاصطفوا له عند دار الندوة فلما دخلها اضطبع بردائه فأخرج عضده اليمنى ثم قال رحم الله امرأ أراهم اليوم قوة ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه وكان بين يديه لما دخل مكة عبدالله بن رواحة آخذا بخطام ناقته ويقول

خلوا بنى الكفار عن سبيله * خلوا فكل الخير فى رسوله
يارب انى مؤمن بقيله * أعرف حق الله فى مقوله
نحن قتلناكم على تأويله * كما قتلناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله * ويذهل الخليل عن خليله

ولما كانت سنة ثمان غزا غزوة ذات السلاسل ثم غزوة الخبط وغيرهما ثم غزوة مؤتة وكانت فى جمادى الاولى من هذه السنة وهى من الغزوات الكبرى ومؤتة قرية انحاز اليها المسلمون يوم القتال ثم ان بنى بكر بن عبد مناة غدت على خزاعة وهم على ماء لهم باسفل مكة يقال له الوتير وكانت خزاعة فى عهد صاحب الشريعة وبكر فى عهد قريش فى صلح الحديبية وكان سبب ذلك أن رجلا من بنى الحضرمى اسمه مالك بن عباد كان حليفا للاسود بن رزن الديلى ثم البكرى فى الجاهلية خرج تاجرا فلما كان بأرض خزاعة قتلوه فعدت خزاعة على بنى الاسود بن رزن وهم سلمى وكلثوم وذؤيب فقتلوهم بعرفة وكانوا من أشراف بنى بكر فبينما خزاعة وبكر على ذلك اذ جاء الاسلام واشتغل الناس به فلما كان صلح الحديبية ودخلت خزاعة فى عهد صاحب الشريعة ودخلت بكر فى عهد قريش اغتنم بنو بكر تلك الهدنة وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم بقتل بنى الاسود فخرج نوفل بن معاوية الديلى بمن تبعه من بكر حتى بيت خزاعة على ماء الوتير وقيل كان سبب ذلك أن رجلا من خزاعة سمع رجلا من بكر ينشد هجاء صاحب له فشجه فهاج الشر بينهم وثارت بكر بخزاعة حتى بيتوهم بالوتير وأعانت قريش بنى بكر على خزاعة بشئ من السلاح والدواب وقاتل معهم جماعة من قريش أيضا مختفين قيل منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهل بن عمرو فانحازت خزاعة الى الحرم فقال بنو بكر يانوفل انا قد دخلنا الحرم الهك الهك فقال لا اله له اليوم يابنى بكر أصيبوا ثأركم فلعمرى انكم لتسرقون فى الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه فلما نقضت بكر وقريش العهد الذى بينهم وبين صاحب الشريعة خرج عمرو بن سالم الخزاعى ثم الكعبى حتى قدم على صاحب الشريعة المدينة فوقف عليه ثم أنشد

يارب انى ناشد محمدا * حلف أبينا وأبيه الاتلدا
فوالدا كنا وكنت الولدا * ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصرا أعتدا * وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا * أبيض مثل البدر ينمى صعدا

ان سيم خسفا وجهه تربدا * فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا
ان قريشا أخلفوك الموعدا * ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوالى فى كداء رصدا * وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا * هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعا وسجدا

فقال صاحب الشريعة لقد نصرت ياعمرو بن سالم

(الفصل الثالث)

(فى فتح مكة)

تأهب صاحب الشريعة وأمر الناس بالتأهب لفتح مكة فلما شاع الخبر كتب حاطب ابن أبى بلتعة كتابا الى قريش يعلمهم الخبر وسيره مع امرأة من مزينة اسمها كنود وقيل مع سارة مولاة لبنى المطلب تعلمهم الخبر وسيره معها فعلم صاحب الشريعة بذلك فارسل عليا والزبير فأدركاها وأخذا منها الكتاب وجاآبه اليه فأحضر حاطبا وقال ماحملك على هذا فقال والله انى مؤمن مابدلت ولاغيرت ولكن لى بين أظهرهم أهل وولد وليس لى عشيرة فصانعتهم عليهم فقال عمر دعنى أضرب عنقه فانه قدنافق وجاء الخبر بتأهب صاحب الشريعة لقتالهم على مكة فخافوا وخشوا العاقبة وسيروا أبا سفيان الى صاحب الشريعة لتلافى الامر وتجديد العهد فلم يأذن له صاحب الشريعة فى الدخول عليه فقصد أبابكر وعليا فلم يلبياه فرجع الى مكة خائبا وتجهز صاحب الشريعة يريد أخذ قريش قبل أن يتأهبوا وخرج لعشر مضين من رمضان واستخلف على المدينة أبارهم كلثوم بن حصين الغفارى فلم يصل مكة حتى بلغ جيشه عشرة آلاف ولما رأى أهل مكة أن لاقبل لهم بمثل هذا الجيش العظيم نزلوا على حكم صاحب الشريعة ودانوا بدينه وأسلم كذلك أبوسفيان وقتل من المشركين ثمانية وعشرون رجلا قتلهم خالد وأسلم أهل مكة كافة الا ستة رجال وأربع نسوة كانوا أشد جرما عند صاحب الشريعة من غيرهم وكان بعضهم قد ارتد عن الاسلام ثم قتلوا منهم ثلاثة رجال وامرأة واحدة وأسلم الباقون وفازت واحدة من النسوة بالهرب فلم يوقف لها على أثر الا بعد حين فكان فتح مكة لعشر بقين من رمضان

ولما فتحت مكة بعث صاحب الشريعة الزبير وأمره أن يدخل ببعض الناس من كدى قال سعد حين وجهه * اليوم يوم الملحمه * اليوم تستحل فيه الكعبه * قال فسمعها رجل من المهاجرين فأعلم صاحب الشريعة فقال لعلىّ بن أبى طالب أدركه فخذ الراية وكن أنت الذى تدخل بها وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من الليط فى بعض

الناس

الناس وكان معه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب فلما وصل صاحب الشريعة الى ذى طوى وقف على راحلته وهو معتجر بشقة برد حبرة أحمر ثم تقدم ودخل من أذاخر بأعلاها وضربت قبته هنالك

ووقف صاحب الشريعة على باب الكعبة وقال يامعشر قريش ماترون أنى فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء فعفا عنهم فلذلك سمى أهل مكة (الطلقاء) وطاف صاحب الشريعة بالكعبة سبعا ودخلها وصلى فيها ثم جلس للبيعة فى الصفا وعمر بن الخطاب تحته واجتمع الناس لبيعته فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا فكانت هذه بيعة الرجال ثم أخذ يبايع النساء فأتاه منهن نساء من قريش منهن أم هانئ بنت أبى طالب وأم حبيبة بنت العاص بن أمية وكانت عند عمرو بن عبد ود العامرى وأروى بنت أبى العيص عمة عتاب بنت أسيد وأختها عاتكة بنت أبى العيص وكانت عند المطلب بن أبى وداعة السهمى وأمية بنت عفان بن أبى العاص أخت عثمان وكانت عند سعد حليف بنى مخزوم وهند بنت عتبة وكانت عند أبى سفيان وبسيرة بنت صفوان بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى وأم حكيم بنت الحرث بن هشام وكانت عند عكرمة ابن أبى جهل وفاختة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد وكانت عند صفوان بن أمية بن خلف وريطة بنت الحجاج وكانت عند عمرو بن العاص وغيرهن وكانت هند متنكرة لصنيعها بحمزة فهى تخاف أن تؤخذ به وقال لهن تبايعننى على أن لاتشركن بالله شيأ قالت هند انك والله لتأخذ علينا مالاتأخذه على الرجال فسنؤتيكه قال ولا تسرقن قالت والله ما كنت أصيب من مال أبى سفيان الا الهنة بعدالهنة فقال أبو سفيان وكان حاضرا أما مامضى فأنت منه فى حل فقال صاحب الشريعة أهند قالت أنا هند فاعف عما سلف عفا الله عنك قال ولا تزنين قالت وهل تزنى الحرة قال ولا تقتلن أولادكن قالت ربيناهم صغارا وقتلتم يوم بدر كبارا فأنت وهم أعلم فضحك عمر قال ولاتأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن قالت والله ان اتيان البهتان لقبيح وما تأمرنا الا بالرشد ومكارم الاخلاق قال ولاتعصينى فى معروف قالت ماجلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فقال صاحب الشريعة لعمر بايعهن ففعل * قال أهل التاريخ ولما جاء وقت الظهر أمر صاحب الشريعة بلالا أن يؤذن على ظهر الكعبة وقريش فوق الجبال فلما أذن وقال أشهد أن محمدا رسول الله قالت جويرية بنت أبى جهل لقد أكرم الله أبى حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة وقال خالد بن أسعد لقد أكرم الله أبى فلم ير هذا اليوم وقال الحارث بن هشام ليتنى مت قبل هذا اليوم وقال جماعة نحو هذا القول تحاملا واستخفافا

(الفصل الرابع)

﴿فى ذكر مرض صاحب الشريعة ووفاته﴾

ابتدأ المرض بصاحب الشريعة فى أواخر صفر فى بيت زينب بنت جحش وكان يدور على نسائه حتى اشتد مرضه فى بيت ميمونة فجمع نساءه فاستأذنهن أن يمرض فى بيت عائشة وبينما هو فى مرضه اذ وصلت الاخبار بظهور الاسود العنسى باليمن ومسيلمة باليمامة وطليحة فى بنى أسد وعسكر بسميراء فتأخر مسير أسامة وكان قد عقدله لواء وأمره بالغزوقبل أن يثقل به مرضه وكذلك تأخر خبر الاسود العنسى ومسيلمة فخرج صاحب الشريعة عاصبا رأسه من الصداع وأمر بانفاذ جيش أسامة ولعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وخرج أسامة فضرب بالجرف المعسكر وتمهل الناس وثقل صاحب الشريعة ولم يشغله شدة مرضه عن انفاذ الغزوة فأرسل الى نفر من الانصار فى أمر الاسود فأصيب الاسود فى حياة صاحب الشريعة قبل وفاته بيوم فأرسل الى جماعة من الناس يحثهم على جهاد من عندهم من المرتدين وقد اشتد به المرض شدة بالغة وازداد ألمه * قال ابن مسعود نعى الينا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر فلما دنا الفراق جمعنا فى بيت عائشة فنظر الينا فشدد ودمعت عيناه وقال مرحبا بكم حياكم الله رحمكم الله آواكم الله حفظكم الله رفعكم الله وفقكم الله سلمكم الله قبلكم الله أوصيكم بتقوى الله وأوصى الله بكم وأستخلفه عليكم حذركم الله انى لكم منه نذير و بشير أن لاتعلوا على الله فى عباده وبلاده فانه قال لى ولكم تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الارض ولافسادا والعاقبة للمتقين * قلنا فمتى أجلك قال دنا الفراق والمنقلب الى الله وسدرة المنتهى والرفيق الاعلى وجنة المأوى فقلنا من يغسلك قال أهلى قلنا فيم نكفنك قال فى ثيابى أوفى بياض قلنا فمن يصلى عليك قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا فبكينا وبكى ثم قال دعونى على سريرى على شفير قبرى ثم اخرجوا عنى ساعة ليصلى علىّ جبريل واسرافيل وميكائيل وملك الموت مع الملائكة ثم ادخلوا علىّ فوجا فوجا فصلوا علىّ ولاتؤذونى بتزكية ولارنة أقرؤا أنفسكم منى السلام ومن غاب من أصحابى فأقرؤه منى السلام ومن تابعكم على دينى فأقرؤه منى السلام اه قال ابن عباس يوم الخميس ومايوم الخميس * ثم جرت دموعه على خديه * اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه ووجعه فقال ائتونى بدواة وبيضاء أكتب لكم كتابا لاتضلون بعدى أبدا فتنازعوا ولاينبغى عند نبى تنازع فقالوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهجر فجعلوا يعيدون عليه فقال دعونى فما أنا فيه خير مما تدعونى اليه فأوصى أن يخرج

المشركون من جزيرة العرب وأن يجاز الوفد بنحو مما كان يجيزهم وسكت عن الثالثة عمدا أو قال نسيتها اه

وخرج على بن أبى طالب من عند صاحب الشريعة فى مرضه فقال الناس كيف أصبح رسول الله فقال أصبح بحمد الله بارئا فأخذ بيده العباس فقال أنت بعد ثلاث عبد العصا وان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفى فى مرضه هذا وانى لاعرف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب فاذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسأله فيمن يكون هذا الامر فان كان فينا علمناه وان كان فى غيرنا أمره فأوصى بنا فقال على لئن سألناها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعناها فلا يعطيناها الناس أبدا والله لاأسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فلما اشتد الضحى حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم * وكان موته يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الاول * ولما توفى كان أبو بكر بمنزله بالسنح لانه كان قد تخلف عن الخروج فى جيش أسامة لما تحقق من شدة مرض صاحب الشريعة وقرب وفاته وعمر حاضر فلما شاع خبر موته كثر توارد العرب من كل صوب وحدب وعلت الضوضاء وارتفعت الجلبة واشتد الهرج والمرج وظهرت دلائل الردة وقام كل ذى مرض فى الصدر وافتتنوا أو كادوا فقام عمر بينهم فقال ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى وانه والله مامات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقطع أيدى وأرجل رجال زعموا أنه مات وأقبل أبو بكر وعمر يكلم الناس وهم فى ضجة فدخل على صاحب الشريعة وهو مسجى فى ناحية البيت فكشف عن وجهه ثم قبله وقال بأبى أنت وأمى طبت حيا وميتا أما الموتة التى كتب الله عليك فقد متها ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فأمره بالسكون فأبى وعلا صوته وشدد القول فأقبل أبو بكر على الناس فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لايموت ثم تلا هذه الآية * وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيأ وسيجزى الله الشاكرين * قال الراوى فوالله لكأن الناس ماسمعوها الا منه وقال عمر فوالله ماهو الا اذ سمعتها فعقرت حتى وقعت على الارض ماتحملنى رجلاى وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات اه

ولما مات صاحب الشريعة ووصل خبره الى مكة وعامله عليها عتاب بن أسيد بن أبى العاص بن أمية استخفى عتاب وارتجت مكة وكاد أهلها يرتدون واجتمعوا حول الكعبة وكثر ضجيجهم فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا اليه فقال ياأهل مكة لاتكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمن الله هذا الامر كما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد رأيته قائما مقامى هذا وحده وهو يقول قولوا معى لااله الا الله كلمة تدين لكم بها العرب

وتؤدّى لكم العجم الجزية والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر فى سبيل الله فمن بين مستهزئ ومصدق فكان مارأيتم والله ليكونن الباقى فامتنع الناس من الردة وقل الهرج واطمأنت القلوب واجتمع الانصار فى سقيفة بنى ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة فبلغ ذلك أبا بكر فأتاهم ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح فقال ماهذا فقالوا منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر منا الامراء ومنكم الوزراء ثم قال أبو بكر قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر وأبا عبيدة أمين هذه الامة * فقال عمر أيكم يطيب نفسا أن يخلف قدمين قدمهما النبى صلى الله عليه وسلم فبايعه عمر وبايعه الناس فقالت الانصار لانبايع الاعليا وتخلف علىّ وبنو هاشم والزبير وطلحة عن البيعة وقال الزبير لاأغمد سيفا حتى يبايع على فقال عمر خذوا سيفه واضربوا به الحجر ثم أتاهم عمر فأخذهم للبيعة وقيل لما سمع على ببيعة أبى بكر خرج فى قميص ماعليه ازار ولا رداء عجلا حتى بايعه ثم استدعى ازاره ورداءه فتجلله * قال بعض أهل التاريخ والصحيح أن عليا مابايع الا بعد ستة أشهر وقيل لما اجتمع الناس على بيعة أبى بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول انى لارى عجاجة لايطفئها الادم يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم أين المستضعفان أين الاذلان على والعباس مابال هذا الامر فى أقل حى من قريش ثم قال لعلى ابسط يدك أبايعك فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجلا فأبى على عليه فتمثل بشعر المتلمس

ولن يقيم على خسف يراد به * الا الاذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته * وذا يشج فلا يرثى له أحد

قيل فزجره على وقال والله انك ماأردت بهذا الا الفتنة وانك والله طالما بغيت للاسلام شرا لاحاجة لنا فى نصيحتك * وقال ابن عباس كنت أقرئ عبد الرحمن بن عوف القرآن فحج عمر وحججنا معه فقال لى عبد الرحمن شهدت أمير المؤمنين اليوم بمنى وقال له رجل سمعت فلانا يقول لومات عمر لبايعت فلانا فقال عمر انى لقائم العشية فى الناس أحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغتصبوا الناس أمرهم قال فقلت يا أمير المؤمنين ان الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم وهم الذين يغلبون على مجلسك وأخاف أن تقول مقالة لايعوها ولايحفظوها ويطيروا بها ولكن أمهل حتى تقدم المدينة وتخلص بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقول ماقلت فيعوا مقالتك فقال والله لأقومن بها أول مقام أقومه بالمدينة قال فلما قدمت المدينة هجرت يوم الجمعة لحديث عبد الرحمن فلما جلس عمر على المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال بعد أن ذكر الرجم وما نسخ من القرآن فيه * انه بلغنى أن قائلا منكم يقول لومات أمير المؤمنين بايعت فلانا فلا يغرن امرأ أن يقول ان بيعة أبى بكر كانت فلتة فقد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها وليس منكم من تقطع اليه الاعناق مثل أبى بكر وانه كان خيرنا حين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وان عليا والزبير ومن معهما تخلفوا عنا فى بيت فاطمة وتخلف عنا الانصار واجتمع المهاجرون الى أبى بكر فقلت له انطلق بنا الى اخواننا من الانصار فانطلقنا نحوهم فلقينا رجلان صالحان من الانصار أحدهما

عويم بن ساعدة والثانى معن بن عدى فقالا لنا ارجعوا اقضوا أمركم بينكم قال فأتينا الانصار وهم مجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة وبين أظهرهم رجل مزمل قلت من هذا قالوا سعد بن عبادة وجع فقام رجل منهم فحمد الله وأثنى عليه وقال * أما بعد فنحن الانصار وكتيبة الاسلام وأنتم يامعشر قريش رهط بيننا وقد دفت الينا دافة من قومكم فاذاهم يريدون أن يغصبونا الامر فلما سكت وكنت قد زورت فى نفسى مقالة أقولها بين يدى أبى بكر فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر على رسلك فقام فحمد الله وماترك شيأ كنت زورت فى نفسى الاجاء به أو بأحسن منه وقال * يامعشر الانصار انكم لاتذكرون فضلا الاوأنتم له أهل وان العرب لاتعرف هذا الامر الالقريش وهم أوسط العرب دارا ونسبا وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ بيدى وبيد أبى عبيدة بن الجراح وانى والله ما كرهت من كلامه كلمة غيرها ان كنت أقدم فتضرب عنقى فيما لايقربنى الى اثم أحب الى من أن أؤمر على قوم فيهم أبو بكر * فلما قضى أبو بكر كلامه قام منهم رجل فقال أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا أمير ومنكم أمير وارتفعت الاصوات واللغط فلما خفت الاختلاف قلت لابى بكر ابسط يدك أبايعك فبسط يده فبايعته وبايعه الناس ثم نزونا على سعد بن عبادة فقال قائلهم قتلتم سعدا فقلت قتل الله سعدا وانا والله ماوجدنا أمرا هو أقوى من بيعة أبى بكر خشيت ان فارقت القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة فاما أن نتابعهم على ما لانرضى واما أن نخالفهم فيكون فسادا اه

وقال أبو عمرة الانصارى لما قبض النبى صلى الله عليه وسلم اجتمعت الانصار فى سقيفة بنى ساعدة وأخرجوا سعد بن عبادة ليولوه الامر وكان مريضا فقال بعد أن حمد الله * يامعشر الانصار لكم سابقة وفضيلة ليست لاحد من العرب ان محمدا صلى الله عليه وسلم لبث فى قومه بضع عشرة سنة يدعوهم فما آمن به الاالقليل ما كانوا يقدرون على منعه ولاعلى اعزاز دينه ولاعلى دفع ضيم حتى اذا أراد الله بكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة ورزقكم الايمان به وبرسوله والمنع له ولاصحابه والاعزازله ولدينه والجهاد لاعدائه فكنتم أشد الناس على عدوه حتى استقامت العرب لامر الله طوعا وكرها وأعطى البعيد المقادة صاغرا فدانت لرسوله باسيافكم العرب وتوفاه الله وهو عنكم راض قرير العين استبدوا بهذا الامر دون الناس فانه لكم دونهم * فأجابوه بأجمعهم قد وفقت وأصبت الرأى ونحن نوليك هذا الامر فانك مقنع ورضاء للمؤمنين ثم انهم ترادوا الكلام وأبى المهاجرون من قريش وقالوا نحن المهاجرون وأصحابه الاولون وعشيرته وأولياؤه فقالت طائفة منهم فانانقول منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا أبدا فقال سعد هذا أول الوهن وسمع عمر الخبر فأتى منزل صاحب الشريعة وأبو بكر فيه فأرسل اليه أن اخرج الى فأرسل اليه انى مشتغل فقال عمر قد حدث أمر لابدلك من حضوره فخرج اليه فأعلمه الخبر فمضيا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة قال عمر فأتيناهم وقد كنت زورت كلاما أقوله لهم فلما دنوت أقول أسكتنى أبو بكر وتكلم

بكل ماأردته فحمد الله وقال • ان الله قد بعث فينا رسولا شهيدا على أمته ليعبدوه ويوحدوه
وهم يعبدون من دونه آلهـة شتى من حجر وخشب فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم
فخص الله المهاجرين الاولين من قومه بتصديقه والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومه
وتكذيبهم اياه وكل الناس لهم مخالف زار عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس
لهم فهم أول من عبد الله فى هذه الارض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق
الناس بهذا الامر من بعده لاينازعهم الاظالم • وأنتم يامعشر الانصار من لاينكر فضلهم فى
الدين ولاسابقتهم فى الاسلام رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله وجعل اليكم هجرته فليس بعد
المهاجرين الاولين عندنا بمنزلتكم فنحن الامراء وأنتم الوزراء لاتفاوتون بمشورة ولا تقضى
دونكم الامور • فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال • يامعشر الانصار املكوا عليكم
أمركم فان الناس فى ظلكم ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ولايصدروا الاعن رأيكم أنتم أهل
العز وأولو العدد والمنعة وذوو البأس وانما ينظر الناس ماتصنعون ولاتختلفوا فيفسد
عليكم أمركم أبى هؤلاء الاماسمعتم فمنا أمير ومنكم أمير فقال عمر هيهات لايجتمع اثنان
والله لاترضى العرب أن تؤمركم ونبينا من غيركم ولاتمتنع العرب أن تولى أمرها من كانت
النبوة فيهم ولنا بذلك الحجة الظاهرة من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته فقال
الحباب بن المنذر يامعشر الانصار املكوا على أيديكم ولاتسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا
بنصيبكم من هذا الامر فان أبوا عليكم فأجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذا الامر
فأنتم والله أحق بهذا الامر منهم فانه بأسيافكم دان الناس لهذا الدين أنا جذيلها المحكك
وعذيقها المرجب أنا أبو شبل فى عرينة الاسد والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة فقال عمر اذن
ليقتلك الله فقال بل اياك يقتل • فقال أبو عبيدة يامعشر الانصار انكم أول من نصر فلا
تكونوا أول من بدل وغير • فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال • يامعشر الانصار انا
والله وان كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى الدين ماأردنا به الارضاء ربنا وطاعة نبينا
والكدح لانفسنا فما ينبغى أن نستطيل على الناس بذلك ولانبتغى به الدنيا ألاان محمدا صلى
الله عليه وسلم من قريش وقومه أولى به وايم الله لايرانى الله أنازعهم هذا الامر فاتقوا الله
ولاتخالفوهم • فقال أبو بكر هذا عمر وأبو عبيدة فان شئتم فبايعوا فقالا والله لانتولى هذا
الامر عليك وأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة وهى
أفضل دين المسلمين ابسط يدك نبايعك فلما ذهبا ليبايعانه سبقهما بشير بن سعد فبايعه فناداه
الحباب بن المنذر عققت عقاق أنفست على ابن عمك الامارة فقال لاوالله ولكنى كرهت أن
أنازع القوم حقهم • ولما رأت الاوس ماصنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد قال
بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان نقيبا والله لئن وليتها الخزرج مرة لازالت لهم
عليكم بذلك الفضيلة ولاجعلوا لكم فيها نصيبا أبدا فقوموا فبايعوا أبا بكر فبايعوه فانكسر
على سعد والخزرج ماأجمعوا عليه وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب ثم تحول سعد

ابن

ابن عبادة الى داره فبقى أياما وأرسل اليه ليبايع فان الناس قد بايعوا فقال لاوالله حتى أرميكم بما فى كنانتى وأخضب سنان رمحى وأضرب بسيفى وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى ولو اجتمع معكم الجن والانس مابايعتكم حتى أعرض على ربى فقال عمر لاتدعه حتى يبايع فقال بشير بن سعد انه قدلج وأبى ولا يبايعكم حتى يقتل وليس بمقتول حتى يقتل معه أهله وطائفة من عشيرته ولايضركم تركه وانما هو رجل واحد فتركوه * وجاءت أسلم فبايعت فقوى أبو بكر بهم وبايع الناس بعد * قيل ان عمرو بن حريث قال لسعيد بن زيد متى بويع أبو بكر قال يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم كرهوا أن يبكوا بعض يوم وليسوا فى جماعة * قال الزهرى بقى على وبنو هاشم والزبير ستة أشهر لم يبايعوا أبا بكر حتى ماتت فاطمة رضى الله عنها فبايعوه فلما كان الغد من بيعة أبى بكر جلس على المنبر وبايعه الناس بيعة عامة ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال * أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى وان أسأت فقومونى الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق ان شاء الله تعالى لايدع أحد منكم الجهاد فانه لايدعه قوم الا ضربهم الله بالذل أطيعونى ماأطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا الى صلاتكم رحمكم الله اه

ولما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز صاحب الشريعة ودفن يوم الثلاثاء وقيل يوم الاربعاء وقيل بقى ثلاثة أيام لم يدفن وكانت مدة مرضه أربعة عشر يوما وقيل سبعة أيام بذات الجنب فلما كان اليوم السابع من مرضه مات * قال ضمران مات وتحته فى مرضه شملة حمراء وعليها مات وفيها أدرج بعد موته ووورى التراب بغير غسل ولا أكفان * وروى عمران بن حضير الخزاعى أنه غسل وأدرج فى ثلاثة أثواب سحولية أى بيض يمانية وان الذى ولى ذلك معه على بن أبى طالب والفضل بن العباس بن عبد المطلب عمه واختلفوا أين يدفنونه فقال أبو بكر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ماقبض نبى الادفن حيث قبض فرفع فراشه ودفن موضعه حفرله أبو طلحة الانصارى لحدا ودخل الناس يصلون عليه أرسالا الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد ودفن ليلة الاربعاء وقيل ليلة الخميس واختلفوا فى عمره يوم مات فقال ابن عباس وعائشة ومعاوية وابن المسيب كان عمره ثلاثا وستين سنة وقال ابن عباس أيضا ودغفل بن حنظلة كان عمره خمسا وستين سنة وقال عروة بن الزبير كان عمره ستين سنة والله أعلم بالحقيقة

(المقــالة الثالثة)

(في الخلفاء الراشدين وفيها فصول)

(الفصل الاول)

(في خلافة أبي بكر الصــديق)

لما تولى أبو بكر الامر بعـد وفاة صاحب الشريعـة كان قد استفحل أمر الخلاف بين العرب وظهر النفاق وتأخر سير جيش أسامة بن زيد الى الشام بأسباب وفاة صاحب الشريعة وظهور الفتنة في العرب وارتداد الخاصة والعامة من كل قبيلة وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة لفقد صاحبهم وقلتهم وكثرة عدوهم وكان أبو بكر قد نادى في جيش أسامـة بالخروج الى الشام كما أمر صاحب الشريعة وكرر أبو بكر النـداء بالتعجيل فقال الناس لابي بكر ان هؤلاء (يعنون جيش أسامة) جند المسلمين والعرب على ماترى فقـد انتقضت بك فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك فقـال أبو بكر والذى نفسي بيده لو ظننت أن السـباع تخطفني لانفذت جيش أسامة كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم فخاطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة الى معسكره بالجرف فخرجوا كما أمرهم وحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهـم الهجرة في ديارهم فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل فلما خرج الجيش الى معسكرهم بالجرف وتكاملوا أرسل أسامـة عمر بن الخطاب وكان معه في جيشـه الى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس وقال ان معي وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفه رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون وقال من مع أسامـة من الانصار لعمر بن الخطاب ان أبا بكر خليفة رسول الله ألا فامض فأبلغـه عنا واطلب اليه أن يولى أمرنا أقدم سنامن أسامة فخرج عمر بأمر أسامة الى أبي بكر فأخبره بما قال أسامة فقال لو خطفتني الـكلاب والذئاب لانفذته كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أرد قضاءقضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق في القرى غيرى لانفذته * قال عمر فان الانصار تطلب رجلا أقدم سنا من أسامة * فوثب أبو بكر وكان جالسا وأخذ بلحية عمر وقال ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني ان أعزله * ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامـة راكب فقال له أسامـة يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن فقال والله لا نزلت ولا أركب وما عليّ أن أغـبر قدمي ساعـة في سـبيل الله فلما أراد أن يرجع قال لاسامة ان رأيت أن تعينني بعمر فافعـل فأذن له ثم وصاهم فقال لهم * لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخـلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا

بعيرا

بعيرا وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تمرون بأقوام قد فحصوا أواسط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا اندفعوا باسم الله * وأوصى أسامة أن يفعل ما أمره به صاحب الشريعة فساروا وأوقع بقبائل من ناس قضاعة التى ارتدت وغنم وعاد وكانت غيبته أربعين يوما وقيل سبعين يوما

قال أصحاب التاريخ وكان انفاذ جيش أسامة أعظم الامور نفعا للمسلمين فان العرب قالوا لولم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه وقال بعضهم لما مات صاحب الشريعة ارتدت العرب ومنعت الزكاة فجمع أبوبكر الصحابة وشاورهم فى الامر وفى قتال العرب فاختلفوا عليه وقال له عمر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لااله الا الله فمن قالها فقد عصم منى دمه وماله الا بحقه وحسابه على الله عز وجل فقال أبوبكر والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لومنعونى عناقا كانوا يؤدونها رسول الله لقاتلهم على منعها قال عمر فوالله ماهو الا أن شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق * وفى رواية قال عمر فقلت تألف الناس وارفق بهم فقال أجبارا فى الجاهلية وخوارا فى الاسلام ياعمر انه قد انقطع الوحى وتم الدين أينقص وأنا حى ثم خرج لقتالهم

وقال ابن قتيبة ارتدت العرب الا القليل منهم فجاهدهم الصديق حتى استقاموا وفتح اليمامة وقتل مسيلمة الكذاب بها والاسود العنسى الكذاب بصنعاء وبعث الجيوش الى الشام والعراق * وأخرج ابن عبد الحكم عن على بن رباح اللخمى قال بعث أبوبكر الصديق رضى الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا الى المقوقس بمصر فمر على ناحية قرى الشرقية فهادنهم وأعطوه فلم يزالوا على ذلك حتى دخلها عمرو بن العاص فقاتلوه وانتقض ذلك العهد * وقال عبد الملك بن مسلمة وهى أول هدنة كانت بمصر (قلت) ولم أر فى قول أحد من أهل التاريخ شيأ من نحو ذلك البتة * وأقام أبوبكر يدبر الامر ويبعث البعوث والسرايا الى الآفاق ويشدد على من ارتد من القبائل ويعمل فى رقاب أصحاب الفتنة بالسيف حتى استقام له الامر وعلت كلمة الاسلام ولاحت طوالعه فى سماء السعادة ومازال حتى مرض وثقل به المرض ومات وله ثلاث وستون سنة قيل ولما مرض ترك التطبب تسليما للامر فعاده الصحابة وقالوا ألا ندعو لك طبيبا ينظر اليك فقال نظر الى فقالوا وما قال لك قال قال لى انى فعال لما أريد * وتوفى ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ودفن فى حجرة عائشة مع صاحب الشريعة وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام

(الفصـــــل الثـــانى)

(فى خلافة عمر بن الخطاب)

ثم قام بالامر بعده عمر بن الخطاب بويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أبو بكر بوصية من أبى بكر اليه ، فهو عمر الفاروق وهو أول من سمى بأمير المؤمنين وهو أول المهاجرين الاولين قبل صلى الى القبلتين وشهد بدرا وبيعة الرضوان وجميع المشاهد مع صاحب الشريعة ولما أسلم تعزز به الاسلام ، واختلف الكتاب فى اسلام عمر فمن قائل أسلم بعد تسعة وثلاثين رجلا وثلاث وعشرين امرأة ومن قائل بعد أربعين رجلا واحدى عشرة امرأة ومن قائل بل أسلم بعد خمسة وأربعين رجلا واحدى وعشرين امرأة ، وكان رجلا جلدا منيعا شديد البأس جبارا وكان اسلامه بعد هجرة من هاجر من أصحاب صاحب الشريعة الى الحبشة قبل وكان أصحاب صاحب الشريعة لا يقدرون أن يصلوا عند الكعبة حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى صاحب الشريعة عندها وصلى معه أصحابه وكان قد أسلم قبل عمر حمزة ابن عبد المطلب فقوى بهما الاسلام وتحقق المسلمون أنهما سيمنعان صاحب الشريعة والمسلمين واختلفوا أيضا فى سبب اسلامه بعد الذى كانوا يرونه من شدته وجبروته على المسلمين ، قالت أم عبدالله بنت أبى حثمة وكانت زوج عامر بن ربيعة انا لنرحل الى أرض الحبشة وقد ذهب عامر لبعض حاجته اذ أقبل عمر وهو على شركه حتى وقف على وكنا نلقى منه البلاء أذى وشدة فقال أتنطلقون يا أم عبدالله قالت قلت نعم والله لنخرجن فى أرض الله فقد آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجا قالت فقال صحبكم الله ورأيت له رقة وحزنا فلما عاد عامر أخبرته وقلت له لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا قال أطمعت فى اسلامه قلت نعم فقال لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب لما كان يرى من غلظته وشدته على المسلمين قالت فهداه الله تعالى فأسلم فصار على الكفار أشد منه على المسلمين

وقال جماعة ان سبب اسلامه ان أخته فاطمة بنت الخطاب كانت تحت سعيد بن زيد ابن عمرو العدوى وكانا مسلمين يخفيان اسلامهما من عمر وكان نعيم بن عبدالله النحام العدوى قد أسلم أيضا وهو يخفى اسلامه خوفا من قومه وكان خباب بن الارت يختلف الى فاطمة يقرئها القرآن فخرج عمر يوما ومعه سيفه يريد قتل صاحب الشريعة وأصحابه وهم مجتمعون فى دار الارقم عند الصفا وعنده من لم يهاجر من المسلمين فى نحو أربعين رجلا فلقيه نعيم بن عبد الله فقال أين تريد يا عمر فقال أريد محمدا الذى فرق أمر قريش وعاب دينها فأقتله فقال نعيم والله لقد غرتك نفسك أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الارض وقد قتلت محمدا أفلا ترجع الى أهلك فتقيم أمرهم فقال وأى أهلى فقال ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة فقد والله أسلما فرجع عمر اليهما وعندهما خباب بن الارت

يقرئهما

يقرئهما القرآن فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب وأخذت فاطمة الصحيفة فألقتها تحت فخذها وقد سمع عمر قراءة خباب فلما دخل قال ماهذه الهينمة قالا ماسمعت شيأ قال انكما تابعتما محمدا وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت اليه أخته تكفه فضربها فشجها فلما فعل ذلك قالت له أخته قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ماشئت فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم وقال لها أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤن فيها الآن حتى أنظر الى ما جاء به محمد فقالت انا نخشاك عليها فحلف أنه يعيدها قالت وقد طمعت في اسلامه انك نجس على شركك ولا يمسها الا المطهرون فقام فاغتسل فأعطته الصحيفة وقرأها وفيها طه وكان كاتبا فلما قرأ بعضها قال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه فلما سمع خباب خرج اليه وقال ياعمر انى والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فانى سمعته أمس وهو يقول اللهم أيد الاسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى الحكم بن هشام فالله الله ياعمر فقال عمر عند ذلك فدلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم فدله خباب فأخذ بسيفه وجاء الى صاحب الشريعة وأصحابه وضرب عليهم الباب فقام رجل منهم ينظر من بالباب فرآه متوشحا بسيفه فأخبر صاحب الشريعة فقال حمزة ائذن له فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له وان أراد شرا قتلناه بسيفه فأذن له فنهض اليه صاحب الشريعة حتى لقيه فأخذ بمجامع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة وقال ماجاء بك ما أراك تنتهى حتى ينزل الله عليك قارعة فقال عمر يارسول الله قد جئت لأومن بالله وبرسوله فكبر صاحب الشريعة تكبيرة شديدة * قال عمر ولما أسلمت أتيت باب أبى جهل بن هشام فضربت عليه بابه فخرج الىّ وقال مرحبا يابن أخى ما جاء بك قلت جئت لأخبرك أنى قد أسلمت وآمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم وصدقت ماجاء به قال فضرب الباب فى وجهى وقال قبحك الله وقبح ماجئت به اه وقيل فى اسلامه غير ذلك * وكانت العرب لاتحب تولية عمر الخلافة بعد أبى بكر لغلظته وشدته فلما نزل بأبى بكر الموت دعا عبد الرحمن بن عوف فقال أخبرنى عن عمر فقال انه أفضل من رأيت الا أن فيه غلظة فقال أبو بكر ذلك لانه يرانى رقيقا ولو أفضى الامر اليه لترك كثيرا مما هو عليه وقد رمقته فكنت اذا غضبت على رجل أرانى الرضا عنه واذا لنت الى رجل أرانى الشدة عليه ثم دعا عثمان بن عفان وقال له أخبرنى عن عمر فقال سريرته خير من علانيته وليس فينا مثله فقال أبو بكر لهما لاتذكرا مما قلت لكما شيأ ولو تركته ماعدوت عثمان والخيرة له الآن أن يلى من أموركم شيأ ولوددت أنى كنت من أموركم خلوا وكنت فيمن مضى من سلفكم * ودخل طلحة ابن عبيدالله على أبى بكر فقال استخلفت على الناس عمر وقد رأيت مايلقى الناس منه وأنت معه وكيف به اذا خلا بهم وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك * فقال أبو بكر أجلسونى فأجلسوه فقال أبالله تخوفنى اذا لقيت ربى فسألنى قلت استخلفت على أهلك خير أهلك ثم ان أبا بكر أحضر عثمان بن عفان خاليا ليكتب عهد عمر فقال له اكتب * بسم الله الرحمن الرحيم * هذا ماعهد أبو بكر بن أبى قحافة الى المسلمين أما بعد ثم أغمى عليه فكتب عثمان

أما بعد فانى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ على فقرأ عليه قال الراوى فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس ان مت فى غشيتى قال نعم قال جزاك الله خيرا عن الاسلام وأهله فلما كتب العهد أمره أن يقرأه على الناس فجمعهم وأرسل الكتاب مع رسول له ومعه عمر فكان عمر يقول للناس أنصتوا واسمعوا لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يألكم نصحا فسكن الناس فلما قرئ عليهم الكتاب سمعوا وأطاعوا وكان أبو بكر أشرف على الناس وقال أترضون بمن استخلفت عليكم فانى ما استخلفت عليكم ذا قرابة وانى قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له وأطيعوا فانى والله ما ألوت من عهد الرأى فقالوا سمعنا وأطعنا ثم أحضر أبو بكر عمر وقال له انى قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصاه بتقوى الله ثم قال له * ياعمر ان لله حقا بالليل لايقبله فى النهار وحقا فى النهار لايقبله فى الليل وانه لايقبل نافلة حتى تؤدّى الفريضة ألم تر ياعمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم وحق لميزان لايوضع فيه غدا الا حق أن يكون ثقيلا * ألم تر ياعمر أنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان أن لايوضع فيه الا باطل أن يكون خفيفا * ألم تر ياعمر انما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغبا راهبا لايرغب رغبة يتمنى فيها على الله ماليس له ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه * ألم تر ياعمر أن الله ذكر أهل النار بأسوإ أعمالهم فاذا ذكرتهم قلت انى لارجو أن لاأكون منهم وانه انما ذكر أهل الجنة باحسن أعمالهم لانه تجاوز لهم عما كان من سيئ فاذا ذكرتهم قلت أين عملى من أعمالهم فان حفظت وصيتى فلايكونن غائب أحب اليك من حاضر من الموت ولست بمعجزه اه * وتوفى أبو بكر فلما دفن صعد عمر بن الخطاب فخطب الناس ثم قال انما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده لينظر قائده حيث يقوده وأما أنا فورب الكعبة لاحملنكم على الطريق قال بعض الكتاب وهو أوّل من عس فى عمله أى كان يمشى ليلا لحفظ الدين والناس فهابه الناس هيبة عظيمة حتى تركوا الجلوس بالافنية فلما بلغه هيبة الناس له جمعهم ثم قام على المنبر حيث كان أبو بكر يضع قدميه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال قد بلغنى أن الناس قد هابوا شدّتى وخافوا غلظتى وقالوا قد كان عمر يشتدّ علينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ثم اشتدّ علينا وأبو بكر رضى الله عنه والينا دونه فكيف الآن وقد صارت الامور اليه ولعمرى ان من قال ذلك فقد صدق كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض والحمد لله وأنا أسعد الناس بذلك ثم ولى أمر الناس أبو بكر رضى الله عنه فكنت خادمه وعونه أخلط شدّتى بلينه فأكون سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فما زلت معه كذلك حتى قبضه الله تعالى وهو عنى راض والحمد لله وأنا أسعد الناس بذلك ثم انى وليت أموركم فاعلموا أن تلك الشدة قد تضاعفت ولكنها انما تكون على أهل الظلم والتعدّى على المسلمين وأما أهل

السلامة

السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ولست أدع أحدا يظلم أحدا ويتعدى عليه حتى أضع خده على الارض وأضع قدمى على خده حتى يذعن للحق ولكم علىّ أيها الناس أن لاأخبأ عنكم شيأ من خراجكم واذا وقع عندى أن لايخرج الا بحقه ولكم علىّ أن لاألقيكم فى المهالك واذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا أقول قولى هذا وأستغفرالله العظيم لى ولكم اه قال سعيد بن المسيب وفىّ والله عمر وزاد فى الشدة فى مواضعها واللين فى مواضعه * قيل ولما رجع من الشام الى المدينة انفرد عن الناس ليتعرف أخبار رعيته فمر بعجوز فى خبائها فقصدها فقالت ياهذا مافعل عمر قال قد أقبل من الشام سالما فقالت لاجزاه الله عنى خيرا قال ولم قالت لانه والله مانالنى من عطائه منذ ولى أمر المؤمنين دينار ولا درهم فقال وما يدرى عمر بحالك وأنت فى هذا الموضع فقالت سبحان الله والله ماظننت أن أحدا يلى على الناس ولا يدرى مابين مشرقها ومغربها فبكى عمر وقال واعمراه كل أحد أفقه منك حتى العجائز ياعمر ثم قال لها ياأمة الله بكم تبيعينى ظلامتك من عمر فانى أرحمه من النار فقالت لاتهزأ بنا يرحمك الله فقال لست بهازئ فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين دينارا فبينما هو كذلك اذ أقبل على بن أبى طالب وابن مسعود فقالا السلام عليك ياأمير المؤمنين فوضعت العجوز يدها على رأسها وقالت واسوأتاه شتمت أمير المؤمنين فى وجهه فقال لها عمر لابأس عليك رحمك الله ثم طلب رقعة يكتب فيها فلم يجد فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها * بسم الله الرحمن الرحيم هذا مااشترى عمر من فلانة ظلامتها مذ ولى الى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين دينارا عما تدعى عند وقوفها فى المحشر بين يدى الله تعالى فعمر منه برىء وشهد على ذلك على بن أبى طالب وابن مسعود * ثم دفع الكتاب الى ولده وقال اذا أنا مت فاجعله فى كفنى ألقى به ربى * قال بعض الكتاب وهو أول من أرخ التاريخ وذلك فى سنة ست عشرة وفيها كان فتح بيت المقدس صلحا وفيها نزل سعد بن أبى وقاص على الكوفة ومصرها وهو أول من دون الدواوين ومصر الامصار وفتح الفتوحات الكثيرة ففتح دمشق ثم الروم ثم فارس ثم انتهى الفتح الى حمص وحلوان والرقة والرها وحران ورأس العين والخابور ونصيبين وعسقلان وطرابلس وما يليها من الساحل وبيسان واليرموك والاهواز وقيسارية

قال ابن عبد الحكم حدثنا عثمان بن صالح أنبأنا ابن لهيعة عن عبد الله بن أبى جعفر وعياش بن عباس القتبانى وغيرهما يزيد بعضهم على بعض قالوا ولما كانت سنة ثمان عشرة وقدم عمر بن الخطاب الجابية قام اليه عمرو بن العاص فخلا به فقال يا أمير المؤمنين ائذن لى أن أسافر الى مصر وحرضه عليها وقال انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم وهى أكثر الارض أموالا وأعجزهم على القتال والحرب فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن لذلك عمر فعقد له على أربعة الاف رجل كلهم من عك ويقال على ثلاثة آلاف وخمسمائة فقال عمر سر



وأنا مستخير الله فى مسيرك وسيأتى اليك كتابى مسرعا انشاء الله تعالى فان أدركك كتابى وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيأ من أرضها فانصرف وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين فى وجههم ذلك فكتب الى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين فأدرك الكتاب عمرا وهو برفح فتخوف عمرو بن العاص ان هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد اليه عمر فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش فسأل عنها فقيل انها من مصر فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين فقال عمرو ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر قالوا بلى فقال ان أمير المؤمنين عهد الىّ وأمرنى ان لحقنى كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا مصر فسيروا وامضوا على بركة الله فتقدم عمرو بن العاص فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو توجه الى الفسطاط وكان أول موضع قوتل فيه الفرما قاتلته الروم قتالا شديدا نحو شهر حتى فتح الله على يديه وكان بالاسكندرية أسقف للقبط اسمه بنيامين فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص كتب الى القبط يعلمهم انه لايكون للروم دولة وان ملكهم قد انقطع و يأمرهم بتلقى عمرو ومعاونته على الروم فصار القبط الذين فى الفرما يومئذ لعمرو أعوانا ثم توجه عمرو لايدافع الا بالامر الخفيف حتى نزل القواصر فنزل ومن معه ثم تقدم وهو لايدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى بلبيس فقاتلوه بها نحوا من شهر حتى فتحها ثم مضى لايدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى أم دنين فقاتلوه بها قتالا شديدا وأبطأ عليه الفتح فكتب الى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف رجل تمام ثمانية آلاف فسار عمرو بمن معه حتى نزل على الحصن فحاصرهم بالقصر الذى يقال له باب ليون حينا وقاتلهم فلما أبطأ عليه الفتح كتب الى عمر بن الخطاب يستمده فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل وكتب اليه انى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الالف الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد واعلم ان معك اثنى عشر ألفا ولن تغلب اثناعشر ألفا من قلة * وكان الروم قد خندقوا حول حصنهم وجعلوا للخندق أبوابا وجعلوا سكك الحديد موتدة بأفنية الابواب فلما قدم المدد الى عمرو بن العاص أتى الى القصر ووضع عليه المنجنيق وكان على القصر رجل من الروم يقال له الاعيرج واليا عليه وهو مندفور فرمى عمرو بالمنجنيق على الروم وطال القتال بين الفريقين أياما كثيرة والقبط يعاونون العرب على القتال سرا كرها فى الروم فلما أبطأ الفتح قال الزبير انى أهب نفسى لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلما الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام وأمرهم ان سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا فما شعروا الا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا من أن ينكسر فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبر وكبر من معه وأجابهم المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن أن العرب قد

اقتحموا

اقتحموا جميعا فهزموا فصد الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن فحينئذ سأل المقوقس عمرو بن العاص الصلح ودعاه اليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم فأجابه عمرو الى ذلك قيل وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر وكان قد تنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلى فلحقوا بالجزيرة وأمروا بقطع الجسر وذلك فى جرى النيل وتخلف الاعيرج فى الحصن ثم ركب هو وأهل القوة والشرف بعد قليل وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ولحقوا بالمقوقس فى الجزيرة فأرسل المقوقس الى عمرو بن العاص يقول * انكم قوم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم فى قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وانما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا عليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وانما أنتم أسارى فى أيدينا فأرسلوا لنا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الامر فيما بيننا على ماتحبون ونحب وتنقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلاينفعنا الكلام ولا نقدر عليه * فرد عليهم عمرو مع رسله أن ليس بينى وبينكم الا احدى ثلاث خصال اما ان دخلتم فى الاسلام فكنتم لنا اخوانا وكان لكم مالنا وان أبيتم أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين فرد اليه المقوقس رسله وقال ابعثوا الينا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم على ماعسى أن يكون فيه صالح لنا ولكم فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وهو أقدم من أدرك الاسلام من العرب وطوله عشرة أشبار وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم فلما ركبوا السفن الى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة وتكلم معه وقال انظر الذى تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منكم ولا نجيبكم اليها الا خصلة من ثلاث فاختر أيها شئت بذلك أمرنى الامير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل الينا فلم يقبل أصحاب المقوقس ذلك وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة فعاد الفريقان بعد ذلك القتال وانحازت السفن كلها الى الجزيرة وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه لايقدرون على أن ينفذوا أو يتقدموا نحو الصعيد ولا الى غير ذلك من المدائن والقرى وراسل عمرو بن العاص المقوقس ويح فأجابه المقوقس وقال نجتمع أنا وأنت فى نفر من أصحابى ونفر من أصحابك فان استقام الامر بيننا تم لنا ذلك وان لم يتم رجعنا الى ما كنا عليه فاستشار عمرو أصحابه فى ذلك وقال قد علمتم ماعهد الىّ أمير المؤمنين فى عهده فان أجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التى عهد الىّ بها أجبتهم اليها وقبلت منهم مع ما قد حال بيننا وبين ماتريد من قتالهم فأذعنوا واجتمعوا على عهد بينهم وتقررت القاعدة على أن يفرضوا على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ومن بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شئ وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك



كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام وان لهم أرضهم وأموالهم لايتعرض لهم فى شئ منها قط ووافق المقوقس على ذلك وفرض عمرو بن العاص على نفسه القيام بكرامة المقوقس وأن لايشاغبه على مافى يده ولايسلبه حقه وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس فكانت فريضتهم اثنى عشر ألف ألف دينار كل سنة وقيل بلغت غلتهم ثمانية آلاف ألف

وشرط المقوقس للروم أن يخيروا فمن أحب منهم أن يقيم على هذا الشرط أقام على هذا الأمر الذى هو مفترض عليه ممن أقام بالاسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها ومن أراد الخروج منها الى أرض الروم خرج على أن للمقوقس الخيار فى الروم خاصة حتى يكتب الى ملك الروم يعلمه مافعل فان قبل ذلك ورضيه جاز عليهم والا كانوا جميعا على ما كانوا عليه وكتبوا به كتابا وكتب المقوقس الى ملك الروم يعلمه على وجه الامر كله * قال الراوى فكتب اليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه مافعل ويقول فى كتابه انما أتاك من العرب اثناعشر ألفا وبمصر من بها من كثرة عدد القبط مالايحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا ولا أراهم الا فاعلون ذلك فان عندك بمصر من الروم و بالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ماقد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم على قدر قلتهم وضعفهم كاكلة فناهضهم القتال ولايكون لك رأى غير ذلك * وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتابا لجماعته واتفق المقوقس وعمرو بن العاص على أن يكون القبط له أعوانا ويقيموا له الانزال والضيافة والاسواق والجسور مابين الفسطاط الى الاسكندرية ففعلوا واستعدت الروم وجاشت وقدم عليهم من أرض الروم جمع عظيم ثم التقوا ببلدة سلطيس فاقتتلوا بها قتالا شديدا ثم انهزموا ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بها بضعة عشر يوما وكان عبد الله ابن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو واشتد الروم فى قتال المسلمين شدة بالغة وأبلى المسلمون بلاء حسنا وما زال القتال حتى بلغ الروم الاسكندرية فتحصنوا بها وكانت عليهم حصون مبنية لاترام حصن دون حصن فنزل المسلمون مابين حلوة الى قصر فارس الى ماوراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا اليه من الاطعمة والعلوفة وغير ذلك ورسل ملك الروم تختلف الى الاسكندرية فى المراكب بمادة الروم وتجهز هرقل ملك الروم لقتال المسلمين بمدينة الاسكندرية فأدركته المنية قبل قيامه ومات سنة خمس وأربعين وستمائة للميلاد أى سنة ثلاث وعشرين للهجرة * وما زالوا على قدم القتال حتى فتحت الاسكندرية وهرب الروم فى البر والبحر فخلف عمرو بن العاص بالاسكندرية من أصحابه ومضى بمن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر فرجع من كان هرب من الروم فى البحر

الى

الى الاسكندرية فقتلوا من كان بها من المسلمين الا من هرب منهم وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعا ففتحها وأقام بها وكتب الى عمر بن الخطاب ان الله قد فتح علينا بالاسكندرية عنوة بغير عقد ولاعهد فكتب اليه عمر بن الخطاب يقبح رأيه ويأمره أن لايجاوزها * قال ابن عبد الحكم وحدثنا عثمان بن صالح عن أبي لهيعة قال بعث عمرو بن العاص معاوية بن حديج وافدا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بشيرا له بالفتح فقال له معاوية ألا تكتب معي كتابا قال له عمرو وما تصنع بالكتاب ألست رجلا أعرابيا تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت فلما قدم على عمر وأخبره بفتح الاسكندرية خر عمر ساجدا وقال الحمد لله * قال وحدثنا ابراهيم بن سعد البلوى قال كتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أما بعد فاني فتحت مدينة لا أصف مافيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودي وأربعمائة ملهى للملوك * وأخرج عن ابراهيم بن سعد البلوى المذكور ان سبب فتح الاسكندرية أن رجلا كان يقال له ابن بسامة كان بوابا فسأل عمرو بن العاص أن يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب فأجابه عمرو الى ذلك ففتح له الباب فدخل

(مطلب)

(في الخلاف بين العلماء في مصر بل فتحت صلحا أو عنوة)

فمن قائل انها فتحت صلحا قال ابن عبد الحكم حدثني عثمان بن صالح أخبرنا الليث قال كان يزيد بن أبي حبيب يقول مصر كلها صلح إلا الاسكندرية فانها فتحت عنوة

وأخرج عن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد قال فتح الله أرض مصر بصلح غير الاسكندرية وثلاث قريات ظاهروا الروم على المسلمين سلطيس ومصيل وبلهيت * وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب قال كانت قرى من قرى مصر قاتلت ونقضوا العهد فسبوا منها قرية يقال لها بلهيت وقرية يقال لها الخيس وقرية يقال لها سلطيس وقرطا وفرق سباياهم بالمدينة وغيرها فردهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة * وأخرج يحيى بن أيوب ان أهل سلطيس ومصيل وبلهيت ظاهروا الروم على المسلمين في جمع كان لهم فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم وقالوا هؤلاء لنا فيء مع الاسكندرية فكتب عمرو بن العاص بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وكتب اليه عمر أن يجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ويضربون عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولايجعلون فيئا ولا عبيدا ففعل ذلك

ومن قائل انها فتحت عنوة قال ابن عبد الحكم حدثنا عبد الملك بن مسلمة وعثمان بن

صالح قال أخبرنا ابن لهيعة عن ابن هبيرة أن مصر فتحت عنوة وقال أخبرنا عبد الملك بن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قال سمعت أشياخنا يقولون ان مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد وقال أنبأنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن وهب عن داود بن عبد الله الحضرمى أن أبا حيان أيوب بن أبى العالية حدثه عن أبيه أنه سمع عمرو بن العاص يقول لقد قعدت مقعدى هذا وما لاحد من قبط مصر علىّ عهد ولا عقد الا أهل انطابلس فان لهم عهدا يوفى لهم به * حدثنا عبد الملك حدثنا ابن لهيعة عن أبى قنبان به وزاد ان شئت قتلت وان شئت خمست وان شئت بعت * وأخرج عن ربيعة بن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص قال فتحت مصر بغير عهد ولا عقد وان عمر بن الخطاب حبس درها وصرها أن يخرج منه شئ نظرا للاسلام وأهله * وأخرج عن زيد بن أسلم قال كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل ما كان بينه وبين أحد ممن عاهده فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد * وأخرج عن الصلت بن أبى عاصم أنه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز الى حيان بن شريح ان مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد

ومن قال ان بعضها صلح وبعضها عنوة قال ابن عبد الحكم حدثنا يحيى بن خالد عن راشد بن سعد عن عقيل بن خالد عن ابن شهاب قال كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب جميعا ذمة وحملهم على ذلك فمضى فيهم ذلك الى اليوم ﴿قلت﴾ وقد أثبت أصحاب التاريخ من غير العرب من المتقدمين والمتأخرين أن مصر فتحت كلها صلحا باتفاق مع المقوقس عظيم القبط يومئذ تخلصا من ربقة ظلم الروم وعسفهم وقد لخص القضاعى فى كتابه الخطط قصة فتح مصر تلخيصا وجيزا هو أقرب للصواب * قال لما قدم عمرو بن العاص رضى الله عنه من عند عمر رضى الله عنه كان أول موضع قاتل فيه الفرما قتالا شديدا نحوا من شهر قال قال أبو عمرو الكندى وكان أول من شد على باب الحصن حتى اقتحمه اسميقع بن وعلة السبائى واتبعه المسلمون فكان الفتح وتقدم عمرو لايدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى أم دنين وهى المقس فقاتلوه بها قتالا شديدا وكتب الى عمر يستمده فامده باثنى عشر ألف نفر فوصلوا اليه أرسالا يتبع بعضهم بعضا وكان فيهم أربعة آلاف عليهم أربعة وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة ثم أحاط المسلمون بالحصن وأمير الحصن يومئذ المندقور الذى يقال له الاعيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى وكان المقوقس ينزل الاسكندرية وهو فى سلطان هرقل غير أنه كان حاضرا الحصن حين حاصره المسلمون ونصب عمرو فسطاطه فى موضع الدار المعروفة باسرائيل التى على باب زقاق الزهرى ويقال فى دار أبى الوزام التى فى أول زقاق الزهرى ملاصقة لدار اسرائيل وأقام المسلمون على باب الحصن محاصرين للروم سبعة أشهر * ورأى الزبير خللا مما يلى دار أبى صالح الحورانى الملاصقة لحمام ابن نصر السراج عند سوق الحمام فنصب سلما وأسنده الى الحصن وقال انى أهب نفسى لله عز وجل فمن شاء أن يتبعنى فليتبعنى فتبعه جماعة حتى أوفى على الحصن فكبر وكبروا ونصب شرحبيل

ابن

ابن حسنة المرادى سلما آخر عما يلى زقاق الزمامرة ويقال ان السلم الذى صعد عليه الزبير كان موجودا فى داره التى بسوق وردان الى أن وقع حريق فاحترق ولما رأى المقوقس أن العرب قد ظفروا بالحصن جلس فى سفنه هو وأهل الرفعة من القوم وكانت ملصقة بباب الحصن الغربى فلحقوا بالجزيرة وقطعوا الجسر وتحصنوا هنالك والنيل حينئذ فى مده وتكلموا فى أمر الصلح فبعث عمرو بعبادة بن الصامت الى المقوقس فصالحه المقوقس على القبط والروم على أن الروم الخيار فى الصلح الى أن يوافى كتاب ملكهم فان رضى تم ذلك وان سخط انتقض ما بينه وبين الروم وأما القبط فبغير خيار قال وكان الذى انعقد عليه الصلح أن فرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس فى كل سنة من البالغين شريفهم ووضيعهم دون الشيوخ والاطفال والنساء على أن للمسلمين عليهم النزل والضيافة حيث نزلوا وضيافة ثلاثة أيام لكل من ينزل منهم وأن لهم أرضهم وبلادهم لايتعرضون فى شئ منها أبدا اهـ ﴿ قلت ﴾ فمن قال ان مصر فتحت صلحا تعلق بهذا الصلح وقال الامر لم يتم الاعلى ما جرى بين عبادة ابن الصامت وبين المقوقس وعلى ذلك أكثر العلماء من أهل مصر منهم عقبة بن عامر ويزيد ابن أبى حبيب والليث بن سعد وغيرهم وذهب الذين قالوا ان مصر فتحت عنوة الى أن الحصن فتح عنوة فكان جميع الارض كذلك وكان فتحها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين وذكر يزيد بن أبى حبيب أن عدد الجيش الذى كان مع عمرو بن العاص خمسة عشر ألفا وخمسمائة وقال عبد الرحمن بن سعد بن مقدام ان الذين جرت سهامهم فى الحصن من المسلمين اثنا عشر ألفا وثلثمائة بعد من أصيب منهم فى الحصار من القتل والموت ويقال ان الذين قتلوا فى مدة هذا الحصار من المسلمين دفنوا فى أصل الحصن ثم سار عمرو الى الاسكندرية فى شهر ربيع الاول سنة عشرين وقيل فى جمادى الآخرة فأمر بفسطاطه أن ينزع فاذا بيمامة قد باضت فى أعلاه فقال قد تحرمت فى جوارنا أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها فأقروا الفسطاط فى موضعه فلذلك سميت الفسطاط . وقال ابن قتيبة وانما العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط اهـ ونقل عمرو بن العاص الى الاسكندرية بعد افتتاحها والمقام بها فى ذى القعدة سنة عشرين قال الليث أقام عمرو بالاسكندرية فى حصارها وفتحها ستة أشهر ثم انتقل الى الفسطاط فاتخذها دارا اهـ

وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها هم أن يسكنها وقال مساكن قد كفيناها فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذن فى ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بينى وبين المسلمين ماء قال نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل فكتب عمر الى عمرو بن العاص انى لا أحب نزول المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط . ولما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية ونزل موضع الفسطاط



انضمت القبائل بعضها الى بعض وتقاسموا فى المواضع فولى عمرو على الخطط معاوية بن حديج التجيبى وشريك بن سمى الغطيفى بن مراد وعمرو بن قحزم الخولانى وحيويل بن ناشرة المعافرى فكانوا هـم الذين أنزلوا الناس وفصـلوا بين القبائل وذلك فى سنة احدى وعشرين • ذكره الكندى • وقد كان المسلمون حين اختطوا تركوا بينهـم وبين البحر والحصن فضاء لتفريق دوابهم وتأديبها فلم يزل الامر على ذلك حتى ولى معاوية بن أبى سفيان فأقطع فى الفضاء وبنيت به الدور • وأما الاسكندرية فلم يكن بها تخطيط وانما كانت أخائذ من أخذ منزلا نزل فيه هو وبنوه وبنو بنيه وفى قول ليزيد بن أبى حبيب ان الزبير بن العوام اختط الاسكندرية • وفتح عمر بن الخطاب فى خلافتـه أيضا عدا ماتقدم ذكره تستر ونهاوند والرى ومايليها واصبهان وبلاد فارس واصطخر وهـمذان والنوبة والبرلس والبربر وغـير ذلك قيل وكانت درته أهيب من سـيف الحجاج ومع ذلك كله بقى على حاله كما كان قبل الولاية فى لباسه وزيه وأفعاله وتواضعه يسير منفردا فى حضره وسـفره من غير حرس ولا حجاب لم تغيره الامرة ولم يستطل على مسلم بلسانه ولا حابى أحدا فى الحق

وقتل عمر بن الخطاب سنة ثلاث وعشرين للهجرة قتله أبو لؤلؤة غلام المغـيرة بن شعبة واسمه فيروز وكان المغـيرة يستغله كل يوم أربعة دراهـم لانه كان يصنع الارحاء فلقى عمر يوما فقال ياأمير المؤمنين ان المغيرة قد أثقـل علىّ غلتى فكلمه لى ليخفف عنى فقال له عمر اتق الله وأحسن الى مولاك فغضب أبو لؤلؤة وقال ياعجباه قد وسع الناس عدله غيرى وأصر على قتله واصطنع له خنجرا له رأسان وسمه وتحين به عمر فجاء عمر الى صلاة الغداة • قال عمرو بن ميمون انى لقائم فى الصـلاة وما بينى وبين عمر الا ابن عباس رضى الله عنهما فما هو الا أن كبر فسمعتـه يقول قتلنى الكلب حين طعنـه وطار العلج بسكين كانت ذات طرفين لايمر على أحد يمينا وشمالا الا طعنـه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات سبعة وقيـل تسعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما علم أنه مأخوذ نحر نفسه فقال عمر قاتله الله لقد أمرت به معروفا ثم قال الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الاسلام وكان أبو لؤلؤة مجوسيا توفى فى ذى الحجة لاربع عشرة ليـلة مضت منه فى السـنة المذكورة بعـد طعنه بيوم وليلة عن ثلاث وستين سنة ودفن مع صاحبه فى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم اه

قال صاحب حياة الحيوان فى باب الدال المهملة روى مسلم وغيره أن عمر رضى الله عنه خطب الناس يوما فحمد الله وأثنى عليـه ثم قال انى رأيت رؤيا لم أرها الالحضور أجلى وهى أن ديكا نقرنى ثلاث نقرات • وفى لفظ رأيت كأن ديكا أحمر نقرنى نقرة أو نقرتين فحدثتها أسماء بنت عميس فحدثتنى بأنه يقتلنى رجل من الاعاجم وكان هـذا القول منه يوم الجمعـة فطعن يوم الاربعاء رضى الله عنه اه قال وروى الحاكم عن سالم بن أبى الجعد عن معدان ابن أبى طلحـة عن عمر رضى الله تعالى عنـه أنه قال على المنـبر رأيت فى المنام كأن ديكا نقرنى ثلاث نقرات فقلت أعجمى يقتلنى وانى جعلت أمرى لهؤلاء الستة الذين توفى رسول الله

صلى

صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وهو عثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص فمن استخلفوه فهو الخليفة * وذكر ابن خلكان وغيره أن عمر لما طعن اختار من الصحابة ستة نفروهم المتقدم ذكرهم وكان سعد بن أبي وقاص غائبا وجعل عبد الله ابنه مشيرا وليس له من الامر شئ وأقام المسور بن مخرمة وثلاثين نفسا من الانصار وقال ان اتفقوا على واحد الى ثلاثة أيام والا فاضربوا رقاب الكل فلا خير للمسلمين فيهم وان افترقوا فرقتين فالفرقة التي فيها عبد الرحمن بن عوف * وأوصى أن يصلى صهيب بالناس ثلاثة أيام فأخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه من الشورى واختار عثمان فبايعه الناس (قلت) وقد نسب أهل التاريخ هذه الفعلة لعمر من أشنع الفعال وأشدها ضررا بالاسلام وأهله * ونقل ابن العباس بن عبد المطلب انه قال لعلى يا ابن أخي لاتدخل نفسك في الشورى مع القوم فاني أخاف أن يخرجوك منها فتبقى وصمة فيك فلم يقبل منه * قال ولما طعن عمر سئل ماأحب الاشربة اليك ياأمير المؤمنين قال النبيذ فسقوه نبيذا فخرج من جرحه فقال قوم نبيذ وقال قوم دم فسقوه لبنا فخرج من جرحه فقيل له أوص ياأمير المؤمنين فأوصى بالشورى قال ويقال ان عبيد الله بن عمر وثب على الهرمزان فقتله وقتل معه رجلا نصرانيا من أهل نجران كانا قد اتهما باغراء أبي لؤلؤة بعمر رضى الله عنه وقتل بنتا طفلة لابي لؤلؤة ووارهم عثمان رضى الله عنه ولحق عبيد الله بمعاوية في خلافة على رضى الله عنه * قال وكان في أيام عمر الفتوحات العظام وهو الذي سمى الغزوات الشواتى والصوائف وهو أول من أرخ التاريخ بعام الهجرة وأول من دعى أمير المؤمنين وأول من ختم الكتب وكان في يده خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول من ضرب بالدرة وحملها وأول من قال أطال الله بقاءك قالها لعلى رضى الله عنهما وهو الذي أخر المقام الى موضعه اليوم وكان ملصقا بالباب وهو أول من جمع الناس على امام واحد في التراويح وحج بالناس عشر سنين متوالية آخرها سنة ثلاث وعشرين ومعه نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهوادج ورجع الى المدينة فرأى الرؤيا المتقدمة اه

واستعمل عمر بن الخطاب في خلافته على مصر بعد فتحها في سنة تسع عشرة للهجرة عمرو بن العاص فضرب عمرو على أهلها الجزية كما تقدم بك بيانه وبالغ في ارهاب الناس واذلالهم وجمع ماعندهم من الاموال والكنوز واختط مصر قبل والاسكندرية والجيزة وكان الى هذا الحين قد تم له فتح سائر البلاد الا دمياط وكان العامل عليها يومئذ من قبل الروم (الهاموك) أحد أقارب المقوقس فراسله عمرو في الاذعان والتسليم فامتنع وقال لاسبيل الى ذلك فطاوله فلم يذعن وأصر على ماهو عليه فأنفذ له عمرو المقداد بن الاسود في جماعة من المسلمين فلاقاه (الهاموك) في عسكر واقتتل الفريقان قتالا شديدا فكانت بينهم سجالا ومات ابن الهاموك في ساحة القتال فارتد الهاموك الى دمياط وجمع اليه أصحاب الرأى وكلهم في الامر قيل وكان بينهم رجل حكيم مسموع الكلمة فقال أيها الاميرانا لم نسمع عن هؤلاء القوم

منذ جاؤا الى هذه الديار ووطؤا أرضها الا مايدل على تأيدهم ونصرهم وهاهم قد فتحوا البلاد وقهروا العباد وبسطوا يدهم على تلك الممالك الواسعة فالرأى عندى أن نعقد مع القوم صلحا تحقن به الدماء وتحفظ الاعراض والاموال وانظر الى ماجرى مع المقوقس وأصحابه فقد صالحوا القوم وكفاهم الله شرهم قبل فلم يقبل الهامولك كلامه وباتوا ليلتهم تلك وأصبح الهامولك فنادى فى عسكره بالخروج لقتال المسلمين فلم يتكامل خروجهم حتى سمعوا تكبير المسلمين على أسوار المدينة فسقط الهامولك فى يده وتسلم المسلمون المدينة وجاء الخبر الى عمرو بن العاص بالفتح ففرح فرحا لا يوصف وسار المقداد بن الاسود بمن بقى معه من المسلمين الى فتح تانس فقاتله أهلها قتالا شديدا وما زال يقاتلها أياما حتى تم له فتحها فلم يبق بعد ذلك شئ بغير فتح واشتد عمرو بن العاص فى احصاء أهل البلاد وتقدير الجزية عليهم فكان يحبس منها مايحتاج اليه ويبعث الى عمر بن الخطاب بما بقى منها • قال ابن عبد الحكم وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الامر أقر قبطها على جباية الروم فكانت جبايتهم بالتعديل اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم وان قل أهلها وخربت نقصوا فيجتمع عرفاء كل قرية ورؤساؤها فيتناظرون فى العمارة والخراب حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ثم ترجع كل قرية الى قسمتهم فيجمعونها وخراج كل قرية وما فيها من الارض العامرة فيبدؤن فيخرجون من الارض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الارض ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان فاذا فرغوا نظروا الى ما فى كل قرية من الصناع والاجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم فان كانت فيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها وقلما كانت الا للرجل الشاب أو المتزوج ثم نظروا فيما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الارض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم فان عجز أحد منهم وشكى ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ماعجز عنه على ذوى الاحتمال وان كان منهم من يريد الزيادة أعطى ماعجز عنه أهل الضعف فان تشاحنوا قسموا ذلك على عدتهم وكانت قسمتهم على قراريط الدينار أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الارض على ذلك وجعل عليهم عمرو بن العاص لكل فدان نصف اردب قمح وويبتين من شعير الا القرط فلم يكن عليه ضريبة • قال عبد الملك بن الليث بن سعد كانت ويبة عمر بن الخطاب فى ولاية عمرو بن العاص ستة أمداد

واستقامت الامور لعمرو فعمد الى اصلاح ما أفسدته الحروب وعبثت به أيدى الجور والعسف من العمائر والترع والخلجان والجسور فمهد الطرق وسهل المسالك وحفر الخلجان لرى الاراضى وأصلح مقياس النيل وأعاده الى ما كان عليه من قبل وأقام العرفاء والمشايخ للقرى والبلاد من أبنائها فاستقامت الاحوال واطمأنت قلوب الرعية وخلدوا الى السكون والطاعة ورتب المحاكم للفصل فى الخصومات بين أهل البلاد فلم يكن لعمرو ولا لغيره من أصحاب الفتح دخل فى ذلك البتة ولا كلمة مقولة وأوسع صدره للعظماء والكبراء من أهل

البلاد

البلاد فأحبوه ومالوا اليه وأخلصوا له النيـة فعلت كلمتـه وعظمت شهرته ودانت له عظائم
الامور وعمرت القرى وازدهت البلاد واتسعت مادة ثروتها وعادت الى رونقها القديم وضاقت
بأهلها أوكادت * حدثنا عثمان بن صالح وعبدالله بن صالح قالا حدثنا الليث بن سعد قال لما
ولى ابن رفاعة مصر خرج ليحصى عدة أهلها ويتطرق تعديل الخراج عليهم فقام فى ذلك ستة
أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ومعه جماعة من الاعوان والكتاب يكفونه ذلك بجد وتشمير
وثلاثة أشهر بأسفل الارض فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية فلم يحص فيها
فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية قال وحدثنا
عبدالله بن صالح عن الليث بن سعد أن عمرا جبى مصر اثنى عشر ألف ألف وجباها المقوقس
قبله ستة وعشرين ألف ألف فعند ذلك كتب اليه عمر بن الخطاب * بسم الله الرحمن الرحيم
من عبدالله عمر أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص * سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا اله
الا هو * أما بعد فانى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه فاذا أرضك أرض واسعة عريضة
رفيعة وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها
عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف
ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى
الذى على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر ورجوت أن تفيق فترفع
الىّ ذلك فاذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى فى نفسى ولست قابلا منك دون
الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى وقبضك
فلئن كنت مجربا كافيا صحيحا ان البراءة لنافعة وان كنت مضيعا نطعا ان الامر لعلى غير
ما تحدث به نفسك وقد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع الىّ
ذلك وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك الا أن عمالك عمال السوء وما توالس عليك وتلفف اتخذوك
كهفا وعندى باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبدالله أن يؤخذ منك
الحق وتعطاه فان النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعنى وما عنه تتلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام
فكتب اليه عمرو بن العاص * بسم الله الرحمن الرحيم * لعبدالله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن
العاص سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو * أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى
الذى استبطأنى فيه من الخراج والذى ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلى واعجابه من خراجها
على أيديهم ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام ولعمرى الخراج يومئذ أوفر وأكثر والارض أعمر
لانهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام وذكرت أن
النهر يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع درها وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرضت وثربت وعلمت
أن ذلك عن شئ تخفيه على غير خبر فجئت لعمرى بالمقطعات المقذعات ولقد كان لك فيه
من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ولقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم
ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لاماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نرى غير ذلك

قبيحا والعمل به شينا فتعرف ذلك لنا وتصدق فيه قيلنا معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم فامض عملك فان الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنيئة والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا ولم تكرم فيه أخا والله يا ابن الخطاب لانا حين يراد ذلك منى أشد غضبا لنفسى ولها انزاها وا كراما وما عملت من عمل أرى على فيه تعلقا ولكنى حفظت مالم تحفظه ولو كنت من يهود يثرب مازدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت بها عالما وكان اللسان بها منى ذلولا ولكن الله عظم من حقك مالا يجهل والسلام

فكتب اليه عمر بن الخطاب من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا إله الا هو * أما بعد فانى قد تعجبت من كثرة كتبى اليك فى ابطائك بالخراج وكتابك الى بثنيات الطرق وقد علمت أنى لست أرضى منك الا بالحق البين ولم أقدمك الى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فاذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فانما هو فىء المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون والسلام

فكتب اليه عمرو بن العاص * بسم الله الرحمن الرحيم * لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا إله الا هو * أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ويزعم أنى أحيد عن الحق وأنكب عن الطريق وانى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ولكن أهل الارض استنظرونى الى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من أن نخرق بهم فيصيروا الى بيع مالا غنى بهم عنه والسلام

فلما استبطأ عمر بن الخطاب الخراج كتب اليه أن ابعث الى رجلا من أهل مصر فأرسل اليه رجلا قديما من القبط فاستخبره عمر عن مصر وخراجها قبل الاسلام فقال يا أمير المؤمنين كان لا يؤخذ منها شئ الا بعد عمارتها وعاملك لا ينظر الى العمارة وانما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدها الا لعام واحد فعرف عمر مقاله وقبل من عمرو بن العاص ما كان يعتذر به * وقال ابن عبد الحكم حدثنا هشام بن اسحق العامرى قال كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عمرو بن العاص أن يسأل المقوقس عن مصر من أين تأتى عمارتها وخرابها فسأله عمرو فقال له المقوقس تأتى عمارتها وخرابها من خمسة وجوه أن يستخرج الخراج فى إبان واحد عند فراغ أهلها من زرعها ويدفع خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومها وتحفر فى كل سنة خلجها وتسد ترعها وجسورها ولا يقبل محل أهلها يريد البغى فاذا فعل هذا فيها عمرت وان عمل فيها بخلافه خربت * قال ابن عبد الحكم حدثنا عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب قال كانت فريضة مصر لحفر خلجها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفا معهم الطوريات والمساحى والاداة يعتقبون ذلك لا يدعونه شتاء ولا صيفا اه

وكان فى خلال المدة من مجىء هرقل ملك الروم الى مصر واشتداده على المتأصلين من

أهل

أهل البلاد كما تقدم الكلام على ذلك فى محله الى فتوح مصر على يدى عمرو بن العاص قد مات اطناسيوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام اثنتى عشرة سنة وقد اختلف الكتاب فيما اذا كان هو الذى هاداه اطناسيوس بطرك انطاكية وقدم عليه زائرا أوهو داميانوس خامس ثلاثى بطاركة الاسكندرية فلما مات أقاموا بعده اندرونيقون وهو سابع ثلاثيهم فلبث ست سنين ومات فى ثامن طوبة ، وفى أيامه خربت جميع الديارات واشتد الامر على النصارى شدة عظيمة للغاية وأبق الكثير من الرهبان والراهبات الى بعض الجبال فرارا ثم أقاموا بعده بنيامين وهو ثامن ثلاثيهم وكان متأصلا وهو من مريوط وكان ورعا تقيا فعمر فى أيامه دير أبو بشاى ودير سيدة أبو بشاى وهما فى وادى هبيب فلما جاءت الفرس ديار مصر كما تقدم بيان ذلك فى محله واشتدوا على النصارى فر هاربا منهم وبقى مختفيا حتى زالت دولة الفرس على يدى هرقل وذلك أن هرقل المذكور لما نزل على مصر وحارب الفرس وطردهم من أرضها أقام بطركا من الملكيين بالاسكندرية اسمه نيرش وكان منانيا مع أن هرقل كان مارونيا وطلب بنيامين البطرك المذكور وسعى خلفه ليقتله فلم يتمكن منه فظفر باخيه مينا فقبض عليه وأحرقه بالنار تشفيا وانتقاما وبنيامين هذا هو الذى راسل المقوقس وعظماء القبط فى أمر المسلمين ومعاونتهم على قتال الروم وامدادهم بالذخرة والميرة فلما استتب الامر لعمرو بن العاص أرسل اليه فى سنة عشرين هجرية فقدم على عمرو بالقاهرة فأكرمه وأجله وبالغ فى تعظيمه لانه كان عونه على الروم فجلس فى منصب البطريكية بعد غيابه عنه ثلاث عشرة سنة منها عشر سنين فى ملك فارس على مصر وباقيها بعد ذلك وأخذ يتصرف فى الأمور فأحسن التدبير وكاد يعيد للقبط ماأزالته عنهم الحروب والخطوب المتراكة من العز والسودد وظل مهيبا معظما موقرا مسموع الكلمة حتى مات كماسيأتى ذكر ذلك فى محله

وكانت خلافة عمر بن الخطاب عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال وفى رواية وثلاثة عشر يوما فقام بالامر بعد موته عثمان بن عفان

(الفصل الثالث)

﴿ فى خلافة عثمان بن عفان ﴾

ثم قام بالامر بعده عثمان بن عفان تشاور أهل الحل والعقد بعد دفن عمر بثلاثة أيام واتفقوا على مبايعته وهو ابن عم صاحب الشريعة الاعلى بويع له بالخلافة فى أول يوم من سنة أربع وعشرين للهجرة أى سنة أربع وأربعين وستمائة للميلاد ، قال أصحاب التاريخ انه لم يزل اسمه فى الجاهلية والاسلام عثمان ويكنى بأبى عمرو وأبى عبد الله والاول أشهر وينسب الى أمية بن عبد شمس فيقال الاموى يجتمع مع صاحب الشريعة الاسلامية فى

عبد مناف ويدعى بذى النورين قيل لانه تزوج بابنتى صاحب الشريعة رقية وأم كلثوم
وهو أول من هاجر الى الحبشة فارا بدينه ومعه زوجته رقية وعدّ من البدريين ومن أهل
بيعة الرضوان ولم يحضرهما وكان غنيا كثير المال وكانت له شفقة ولما تولى زاد تواضعه
وشفقته برعيته وكان يطعم الناس طعام الامارة ويأكل الخل والزيت وجهز جيش العسرة
بتسعمائة وخمسين بعيرا باحلاسها وأقتابها وأتم الالف بخمسين فرسا * قال ابن قتيبة وافتتح
فى أيامه الاسكندرية (قلت لخروجها فى خلافته) وسابور وافريقة وقبرص وسواحل الروم
واصطخر الاخرى وفارس الاولى وخورستان وفارس الاخرى وطبرستان وكرمان وسجستان
والاساورة وافريقة من حصون قبرص وساحل الاردن ومرو ولما عمرت المدينة وصارت
وافرة من الانام وكثرت فيها الخيرات والاموال وجىء اليها بالخراج من الممالك وبطرت
الرعية من كثرة الاموال والخير والنعم وفضوا أقاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا جعلوا ينقمون على
خليفتهم عثمان لانه كان له الاموال العظيمة وكان له ألف مملوك ولانه كان يعطى المال
لاقاربه ويوليهم الايالات الجليلة فأحس عثمان بذلك وسير فى طلب عماله وكتب الى أهل
الامصار انى آخذ عمالى بموافاتى كل موسم وقد رفع الىّ أهل المدينة أن أقواما يشتمون
ويضربون فمن ادعى شيأ من ذلك فليواف الموسم يأخذ حقه حيث كان منى أو من عمالى
أو تصدقوا فان الله يجزى المتصدقين قيل فلما قرئ ذلك بالامصار بكى الناس ودعوا لعثمان
وقدم عليه فى الموسم بعض عماله وهم عبد الله بن عامر وعبد الله بن سعد ومعاوية وأدخل
معهم أيضا سعيد بن العاص وعمرا فقال ويحكم ما هذه الشكاية والاذاعة انى والله لخائف أن
تكونوا مصدوقا عليكم وما يعصب هذا الابى فقالوا ألم تبعث ألم يرجع اليك الخبر عن العوام
ألم يرجع رسلك ولم يشافههم أحد بشئ والله ما صدقوا ولا بروا ولم نعلم لهذا الامر أصلا ولا يحل
الاخذ بهذه الاشاعة فقال عند ذلك أشيروا علىّ فقال سعيد هذا أمر مصنوع يلقى فى السر
فيتحدث به الناس ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذين خرج هذا من عندهم * وقال عبد الله بن
سعد خذ من الناس الذى عليهم اذا أعطيتهم الذى لهم فانه خير من أن تدعهم * وقال معاوية
قد وليتنى فوليت قوما فلا يأتيكم عنهم الا الخير والرجلان أعلم بناحيتهما والرأى حسن الادب
وقال عمرو أرى أنك قد لنت لهم ورخيت عليهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم
طريقة صاحبيك فتشتد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين * قال عثمان قد سمعت كل ما
أشرتم به علىّ ولكل أمر باب يؤتى منه ان هذا الامر الذى يخاف منه على هذه الامة كائن وان
بابه الذى يغلق عليه ليفتحن فنكفكفه باللين والمواتاة الا فى حدود الله فان فتح فلا يكون لاحد
علىّ حجة وقد علم الله أنى لم آل الناس خيرا وان رحى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان ان مات ولم
يحركها سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم فاذا تعوطيت حقوق الله فلا تداهنوا فيها * ثم افترقوا
على ذلك واتفق المنصرفون على عثمان على يوم يخرجون فيه بالامصار جميعها اذا سار عنها الامراء
وخلت منهم فلم يتهيأ لهم ذلك وكان بمصر محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة يحرضان على

عثمان

عثمان فلما خرج المصريون خرج فيهم عبد الرحمن بن عديس البلوى فى خمسمائة وقيل فى ألف وفيهم كنانة بن مبشر الليثى وسودان بن حمران السكونى وقتيرة بن فلان السكونى وتقدمهم جميعا الغافقى بن حرب العكى وخرج أيضا أهل الكوفة وهم فى عداد أهل مصر أو مايقرب منه وخرج أهل البصرة وهم بعداد أهل مصر وأميرهم حرقوص بن زهير السعدى وكان خروجهم جميعا فى شوّال وأظهروا أنهم انما يريدون الحج فلما كانوا بالمدينة على ثلاث مراحل تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب وكانوا يميلون الى طلحة وتقدم ناس من أهل الكوفة وكان هواهم مع الزبير ونزلوا الاعوص وجاءهم ناس من أهل مصر وكانوا يميلون الى علىّ ونزل جميعهم بذى المروة ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر وعبدالله بن الاصم وقالا لهم لاتعجلوا حتى ندخل المدينة ونرتاد لكم فقد بلغنا انهم عسكروا لنا فوالله ان كان هذا حقا واستحلوا قتالنا بعد علم حالنا ان أمرنا لباطل وان كان الذى بلغنا باطلا رجعنا اليكم بالخبر فذهبا ودخلا المدينة فلقيا أزواج صاحب الشريعة وطلحة والزبير فكلمهما أبىّ ونهاهما فرجعا الى أصحابهما وكتب عثمان الى أهل الامصار يستنجدهم ويأمرهم بالبعث لمنع عنه ويتعرف ماالناس فيه من الهرج والتألب على خلع بيعته واقامة خليفة غيره * قال بعض أهل التاريخ فخرج أهل الامصار على الصعب والذلول وسير كل عامل جماعة من عنده الى المدينة فلما كانت الجمعة التى على اثر دخولهم المدينة خرج عثمان فصلى بالناس ثم قام على المنبر فقال * ياهؤلاء الله الله فوالله ان أهل المدينة ليعلمون انكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فامحوا الخطأ بالصواب * فقام عند ذلك محمد بن مسلمة فقال أنا أشهد بذلك فاقعده حكيم بن جبلة فقام زيد بن ثابت فأقعده محمد بن أبى كثيرة وثار القوم بأجمعهم وقامت الضوضاء واشتد اللجاج فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد عنوة وحصبوا عثمان حتى صرع من المنبر مغشيا عليه فأدخل داره * واستقتل جماعة من أهل المدينة مع عثمان منهم سعد بن أبى وقاص والحسين بن على وزيد بن ثابت وأبو هريرة فأرسل اليهم عثمان فى الانصراف فانصرفوا وأقبل علىّ وطلحة والزبير فذهبوا الى عثمان يعودونه من صرعته ويشكون اليه مايجدون وكان عند عثمان نفر من بنى أمية فيهم مروان بن الحكم فقالوا كلهم فى وجه علىّ وقالوا أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع والله لئن بلغت الذى تريد لنمررن عليك الدنيا فقام مغضبا وعاد هو ومن كان معه الى منازلهم * قال أهل التاريخ وصلى عثمان بالناس بعد ذلك ثلاثين يوما ثم منعوه الصلاة وصلى بالناس أميرهم الغافقى واشتد بعض الناس لعثمان وكثرت أعداؤه وطالبوه ونزلوا ذا خشب كما تقدم القول يريدون قتله ان لم يقلع عما يكرهونه منه فاشتد قلق عثمان وجاء الى علىّ بن أبى طالب فدخل عليه بيته فقال له يا ابن عم ان قرابتى قريبة ولى عليك حق عظيم وقد جاء ماترى من هؤلاء القوم وهم مصبحىّ ولك عند الناس قدر وهم يسمعون منك وأحب أن تركب اليهم فتردهم عنى فان فى دخولهم علىّ توهينا لأمرى وجراءة علىّ فقال علىّ على أى شئ أردهم عنك قال

على أن أصبرانى ماأشرت اليه ورأيتملى فقال علىّ انى قد كلمتك مرة بعد أخرى فكل ذلك تخرج فتقول ثم ترجع عنه وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبدالله بن سعد فانك أطعتهم وعصيتنى قال عثمان فانا أعصيهم وأطيعك فى أمر الناس قيل فركب علىّ ومعه من المهاجرين والانصار ثلاثون رجلا فأتوا المصريين فكلموهم وكان الذى يخاطبهم علىّ ومحمد ابن مسلمة فسمعوا مقالتهما ورجعوا الى مصر ورجع علىّ الى المدينة وأخبر عثمان برجوعهم وكلمه بما فى نفسه فلما كان اليوم الثانى دخل مروان على عثمان فقال له تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا وانهم تحققوا بطلان مابلغهم عن امامهم (يعنى عثمان) فأطاعه عثمان فى ذلك فلما خطب الناس قال له عمرو بن العاص اتق الله ياعثمان فانك قد ركبت أمورا وركبناها معك فتب الى الله تب فناداه عثمان وانك هنالك ياابن النابغة قلت والله جبتك منذ عزلتك عن العمل فصاح صائح من جهة أخرى تب ياعثمان الى الله فرفع يديه وقال اللهم انى أول تائب فخرج عمرو بن العاص الى الشام وجعل يحرض الناس على خلع بيعة عثمان ٭ قال عمرو والله انى كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان ٭ ولم يكن بأسرع من أن عاد المصريون الى المدينة فانطلق اليهم محمد بن مسلمة يسألهم عن سبب عودهم فأخرجوا صحيفة فى أنبوبة رصاص وقالوا وجدنا غلام عثمان بالبويب على بعير من ابل الصدقة ففتشنا متاعه فوجدنا فيه هذه الصحيفة يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحق وعروة بن البياع وحبسهم وحلق رؤسهم ولحاهم وصلب بعضهم ٭ وفى رواية أخرى ان الذى كان يحمل الصحيفة الاعور السلمى فلما رأوه سألوه عن مسيره وهل معه كتاب فقال لاتسألونى فى أى شئ هو ففتشوه وأخذوا الكتاب منه وعادوا وعاد الكوفيون والمصريون فلما عاد أهل مصر أخبروا بذلك محمد بن مسلمة فدخل علىّ ومحمد بن مسلمة على عثمان وأخبراه بما قاله أهل مصر فاقسم بالله ما كتبته ولا علم لى به فقال محمد صدق هذا من عمل مروان ودخل عليه المصريون فلم يسلموا عليه بالخلافة فعرفوا الشر فيهم وتكلموا فذكر ابن عديس مافعل عبد الله بن سعد بالمسلمين فى مصر وبأهل البلاد فيها أيضا والاستئثار فى الغنائم فاذا قيل له فى ذلك قال هذا كتاب أمير المؤمنين وذكروا شيأ مما وقع بالمدينة أيضا ثم قال له وخرجنا من مصر ونحن نريد قتلك فردنا علىّ ومحمد بن مسلمة وضمنالنا النزوع عن كل ما تكلمنا فيه فرجعنا الى بلادنا فرأينا غلامك وكتابك وعليه خاتمك تأمر عبدالله بجلدنا والمثلة بنا وطول الحبس فعند ذلك حلف عثمان انه ما كتب ولا أمر ولا علم ٭ قال أصحاب التاريخ فقال علىّ ومحمد صدق عثمان فقال المصريون فمن كتبه قال لاأدرى قالوا فيجترأ عليك ويبعث غلامك وجمل من الصدقة (يعنى من جمال عثمان المعدة للصدقة) وينقش على خاتمك ويبعث الى عاملك بهذه الامور العظيمة وأنت لاتعلم قال نعم فقال ماأنت الا صادق أو كاذب فان كنت كاذبا فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا بغير حق وان كنت صادقا فقد استحققت أن تخلع نفسك لضعفك عن هذا الامر وغفلتك وخبث بطانتك ولا ينبغى لنا أن

تترك

تترك هذا الامر بيد من تقطع الامور دونه لضعفه وغفلته فاخلع نفسك منه كما خلعك الله فقال عثمان لا أنزع قميصا ألبسنيه الله ولكنى أتوب وأنزع قالوا لو كان هذا أول ذنب تبت منه قبلنا ولكنا رأيناك تتوب ثم تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك أو تلحق أرواحنا بالله تعالى وان منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص اليك فقال أما أن أتبرأ من خلافة الله فالقتل أحب الى من ذلك وأما قولكم تقاتلون من منعنى فانى لا آمر أحدا بقتالكم فمن قاتلكم فبغير أمرى قاتل ولو أردت قتالكم لكتبت الى الاجناد فقدموا على أو لحقت ببعض أطرافى * وكثرت الاصوات واللغط وعلت الضوضاء فقام على فخرج وأخرج المصريين ومضى على الى منزله فحاصر المصريون عثمان واشتد الحصار عليه قيل فأرسل الى على وطلحة والزبير فحضروا فأشرف عليهم عثمان وقال أيها الناس اجلسوا فجلسوا المحارب والمسالم فقال لهم يا أهل المدينة أستودعكم الله وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدى ثم قال أنشدكم بالله هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم أتقولون ان الله لم يستجب لكم وهنتم عليه وأنتم أهل حقه أم تقولون هان على الله دينه فلم يبال من ولى والدين لم يتفرق أهله يومئذ أم تقولون لم يكن أخذ عن مشورة انما كان مكابرة فوكل الله الامة اذ عصته ولم يتشاوروا فى الامامة أم تقولون ان الله لم يعلم عاقبة أمرى * وأنشدكم بالله أتعلمون لى من سابقة خير وقدم خير قدمه الله لى * يحق على كل من جاء بعدى أن يعرفوا لى فضلها فمهلا لا تقتلونى فانه لا يحل الا قتل ثلاثة رجل زنى بعد احصانه أو كفر بعد ايمانه أو قتل نفسا بغير حق فانكم اذا قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفع الله عنكم الاختلاف أبدا فقالوا أما ما ذكرت من استخارة الناس بعد عمر ثم ولوك فان كل ما صنع الله خيرة ولكن الله جعلك بلية ابتلى بها عباده وأما ما ذكرت من قدمك وسلفك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كنت كذلك وكنت أهلا للولاية ولكن أحدثت ما علمته ولا نترك اقامة الحق عليك مخافة الفتنة عاما قابلا وأما قولك انه لا يحل الا قتل ثلاثة فانا نجد فى كتاب الله قتل غير الثلاثة الذين سميت * قتل من سعى فى الارض فسادا وقتل من بغى ثم قاتل على بغيه وقتل من حال دون شئ من الحق ومنعه وقاتل دونه وقد بغيت ومنعت وحلت دونه وكابرت عليه ولم تقد من نفسك من ظلمت وقد تمسكت بالامارة علينا فان زعمت أنك لم تكابرنا عليها فان الذين قاموا دونك ومنعوك منا انما يقاتلون لتمسكك بالامارة فلو خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال معك * قيل فسكت عثمان ولزم الدار وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم فرجعوا الا الحسن بن على وابن عباس ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وأشباههم واجتمع اليه ناس كثير فكانت مدة الحصار أربعين يوما وقد اشتدوا فى الحصار بعد ثمان عشرة ليلة مضت شدة بالغة ومنعوا كل شئ حتى الماء * قيل ان طلحة هو الذى أمر بذلك وثاروا الى باب دار عثمان يريدون الدخول عليه وقتله فلم يمنعهم أحد منه والباب مغلق لا يقدرون على الدخول منه فجاؤا بنار فأحرقوه والسقيفة التى على الباب وثار أهل الدار وعثمان يصلى فلما فرغ

جلس الى المصحف يقرأ فيه وقرأ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فقال لمن عنده بالدارات رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد الىّ عهدا فأنا صابر عليه ولم يحرقوا الباب الا وهم يطلبون ماهو أعظم منه فاقتحم الناس الدار من الدور التى حولها ودخلوا من دار عمرو بن حزم الى دار عثمان حتى ملؤها ولم يشعر من بالباب وغلب الناس على عثمان وندبوا رجلا يقتله فانتدب له رجل يدخل عليه فدخل عليه البيت فما سمع كلامه حتى عاد مدحورا وولى عن أصحابه ثم دخل آخر وآخر وكان آخر من دخل عليه ممن رجع محمد بن أبى بكر فقال له عثمان ويلك أعلى الله تغضب هل علىّ لك جرم أو حق أخذته منك فأخذ محمد بلحيته أى لحية عثمان وقال قد أخزاك الله يانعثل فقال لست بنعثل ولكنى عثمان وأمير المؤمنين فقال محمد ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان فقال عثمان ياابن أخى فما كان أبوك ليقبض عليها يعنى على لحيته فقال محمد لو رآك أبى تعمل هذه الاعمال أنكرها عليك والذى أريد بك أشد من قبضى عليها فقال عثمان أستنصر الله عليك وأستعين به فتركه وخرج وقيل بل طعن جبينه بمشقص كان فى يده فلما خرج محمد وعرفوا انكساره ثار قتيرة وسودان بن حمران والغافقى فضربه الغافقى بحديدة معه وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف واستقر بين يدى عثمان وسالت عليه الدماء وجاء سودان ليضربه فانكبت عليه امرأته واتقت السيف بيدها فقطع أصابعها فولت وضرب عثمان فقتله * وقيل ان الذى قتله كنانة بن بشر التجيبى ودخل غلمة لعثمان لينصروه على القوم فانقضوا على سودان فضربوا عنقه ووثب قتيرة على الغلام الذى قتل سودان فقتله وانتهبوا مافى البيت وخرجوا ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى فلما خرجوا وثب غلام لعثمان على قتيرة فقتله وثار القوم فأخذوا ماوجدوا حتى أخذوا ماعلى النساء وأخذ كلثوم التجيبى ملاءة على نائلة فضربه غلام لعثمان فقتله وأتوا بيت المال فانتهبوه وماج الناس وكثر الضجيج والصياح قيل ووثب عمرو بن الحمق على صدر عثمان وبه رمق فطعنه تسع طعنات قال فأما ثلاث منها فانى طعنتهن اياه لله تعالى وأما الستة فلما كان فى صدرى عليه * وأرادوا قطع رأسه فوقعت نائلة زوجته عليه وأم البنين فصحن وضربن الوجوه فقال ابن عديس اتركوه وأقبل عمير بن ضابئ فوثب عليه فكسر ضلعا من أضلاعه وقال سجنت أبى حتى مات فى السجن * أخرج ابن عساكر عن أبى خلدة قال سمعت عليا رضى الله عنه يقول ان بنى أمية يزعمون أنى قتلت عثمان لا والله الذى لا إله الا هو ماقتلت ولا مالأت وقد نهيت فعصونى وعن سمرة قال ان الاسلام كان فى حصن حصين وانهم ثلموا فى الاسلام ثلمة بقتلهم عثمان لاتسد الى يوم القيامة وان أهل المدينة كانت تتم الخلافة فيهم فأخرجوها ولم تعد اليهم اه وقال المدائنى قتل رضى الله تعالى عنه * يعنى عثمان * يوم الاربعاء بعد العصر ودفن يوم السبت قبل الظهر وقيل يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين * وقال المهدوى قتل فى وسط أيام التشريق وأقام ثلاثة أيام لم يدفن ولم يصل عليه رضى الله تعالى

عنه

عنه وقيل صلى عليه جبير بن مطعم ودفن ليلا واختلف فى مدة الحصار فقيل أكثر من عشرين يوما وقيل تسعة وأربعون يوما * وكانت خلافته اثنتى عشرة سنة الا اثنى عشر يوما وقتل وهو ابن ثمانين سنة قاله ابن اسحق * وقال غيره كانت خلافته احدى عشرة سنة وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما وقتل وعمره ثمان وثمانون سنة * وقيل كانت خلافته اثنتى عشرة سنة وقتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة وقيل ابن ثلاث وثمانين سنة وقيل تسعين وقيل غير ذلك

وفى أيامه انتقض عهد الاسكندرية * قال ابن عبد الحكم حدثنا ابن صالح عن الليث بن سعد قال عاش عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ثلاث سنين قدم فيها عليه عمرو قدمتين استخلف فى احداهما زكرياء بن جهم العبدى على الجند ومجاهد بن جبير مولى بنى نوفل على الخراج فسأله عمر عمن استخلف فذكر له مجاهد بن عبيد فقال عمر مولى بنى غزوان قال نعم انه كاتب فقال عمر ان العلم ليرفع صاحبه واستخلف فى القدمة الثانية عبد الله بن عمر قال حدثنا ثوبان بن أبى رقية عن حيوة بن شريح عن الحسن بن ثوبان عن أبى رقية قال كان سبب نقض الاسكندرية العهد أن صاحب اخنا قدم على عمرو بن العاص فقال أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فقال عمرو لو أعطيتنى من الركن الى السقف ما أخبرتك انما أنتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم فغضب صاحب اخنا فخرج الى الروم فقدم بهم فهزمهم الله وأسر القبطى فأتى به الى عمرو فقال له الناس اقتله قال لا بل انطلق فجئنا بجيش آخر اه وقال عبد الله بن صالح كانت الاسكندرية انتقضت وجاءت الروم وعليهم منويل الخصى فى المراكب حتى أرسى بالاسكندرية فأجابهم من بها من الروم ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث وكان عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه قد عزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد فلما نزلت الروم بالاسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم فان له معرفة بالحرب وهيبة فى قلب العدو ففعل وكان على الاسكندرية سورها فحلف عمرو بن العاص لئن أظفره الله عليهم ليهدمن سورها حتى يكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان فخرج عمرو فى البر والبحر وضموا الى المقوقس من أطاعه من القبط فأما الروم فلم يطعه منهم أحد فقال خارجة بن حذافة لعمرو ناهضهم القتال قبل أن يكثر عددهم ولا آمن أن تنتقض مصر كلها فقال عمرو لا ولكن أدعهم حتى يسيروا الىّ فانهم يصيبون من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض فخرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى فجعلوا ينزلون القرى فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها وينهبون ما مروا به فلم يتعرض لهم عمرو حتى بلغوا نيقوس فلاقوهم فى البر والبحر فبدأت الروم فرموا بالنشاب فى الماء رميا حتى أصاب النشاب يومئذ فرس عمرو فى لبته وهو فى البر فعقر فنزل عنه عمرو ثم خرجوا من البحر فاجتمعوا هم والذين فى البر فنضحوا المسلمين بالنشاب فاستأخر المسلمون عنهم فحملوا على المسلمين حملة شديدة فولى المسلمون منها وانهزم شريك بن سمى فى



خيله وكانت الروم قد جعلت صفوفا خلف صفوف ثم شد المسلمون عليهم فكانت هزيمتهم فطردهم المسلمون حتى ألحقوهم بالاسكندرية ففتح الله عليهم وقتل منويل الخصى وهدم سور الاسكندرية كله * فلما هزمت الروم أراد عثمان عمرا أن يكون على الحرب وعبد الله ابن سعد على الخراج فقال عمرو أنا اذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها فأبى عمرو * ولما قتل عثمان بن عفان تولى الخلافة بعده علي بن أبي طالب وكان من أمر ولاية مصر ماسيذكر في محله

(الفصل الرابع)

(في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب)

ثم قام بالامر بعد قتل عثمان بن عفان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد اختلف أهل التاريخ في كيفية بيعته فذهب بعضهم الى أنه لما قتل عثمان اجتمع أصحاب صاحب الشريعة من المهاجرين والانصار وفيهم طلحة والزبير فأتوا عليا وضربوا عليه الباب ودخلوا وقالوا ان هذا الرجل قد قتل ولابد للناس من امام ولانعلم أحدا أحق بها منك قال لاحاجة لى في أمركم فمن اخترتم رضيت به فقالوا مانختار غيرك فردهم عن ذلك فأبوا فقال ان أبيتم الابيعتى فان بيعتى لاتكون سرا ولا تكون الافى المسجد وكان في بيته وقيل في حائط لبنى عمرو بن مبذول

ولما أصبحوا يوم البيعة وهو يوم الجمعة حضر الناس المسجد وجاء علىّ وعليه ازار وطاق وعمامة خز ونعلاه في يده متوكئا على قوس فصعد المنبر وقال * أيها الناس عن ملا واذن ان هذا أمركم ليس لاحد فيه حق الا من أمرتم وقد افترقنا بالامس على أمر وكنت كارها لامركم فأبيتم الا أن أكون عليكم ألا وانه ليس لى دونكم الا مفاتيح مالكم معى وليس لى أن آخذ درهما دونكم فان شئتم قعدت لكم والا فلا آخذ على أحد * فقالوا نحن على ما فارقناك عليه بالامس * فقال اللهم اشهد ولما جاؤا بطلحة ليبايع فقال انما أبايع كرها فبايع وكان به شلل فقال رجل يعتاف وقيل حبيب بن ذؤيب إنا لله وإنا اليه راجعون أوّل يد بايعت يد شلاء لا يتم هذا الامر ثم جيء بالزبير فقال مثل ذلك وبايع وفى الزبير اختلاف وقيل ان عليا قال لطلحة والزبير ان أحببتما أن تبايعانى وان أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك * قال بعض أهل التاريخ وقد قالا بعد ذلك انما فعلنا ذلك خشية على نفوسنا وعرفنا أنه لايبايعنا ثم هربا الى مكة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر ولم يبايعه كثير من أهل مكة والمدينة وكان ممن لم يبايعه النعمان بن بشير وكان قد أخذ أصابع نائلة امرأة عثمان التى قطعت في دفاعها عن عثمان يوم قتله وقميص عثمان الذى قتل فيه وهرب به فلحق بمعاوية

في

فى الشام فكان من وراء ذلك ماسيذكر فى محله * وقيل ان صهيبا وسلمة بن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد لم يبايعوا عليا ولم يعدوا له يدا * ثم جئ بعده بقوم كانوا قد تخلفوا فقالوا نبايع على اقامة كتاب الله فى القريب والبعيد والعزيز والذليل فبايعهم ثم قام العامة فبايعوا وصار الامر أمر أهل المدينة وكانهم كما كانوا فيه وتفرقوا الى منازلهم وبويع يوم الجمعة لخمس بقين من ذى الحجة والناس يحسبون بيعته من قبل عثمان وأول خطبة خطبها حين استخلف حمد الله وأثنى عليه ثم قال * ان الله أنزل كتابا هاديا يبين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر * الفرائض الفرائض أدوها الى الله تعالى يؤدكم الى الجنة ان الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق لايحل دم امرئ مسلم الا بما يجب * بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فان الناس أمامكم وان ماخلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فانما ينتظر بالناس أخراهم * اتقوا الله عباد الله فى بلاده وعباده انكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم * أطيعوا الله فلا تعصوه واذا رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الارض ولما فرغ من الخطبة وهو على المنبر قالت السبئية

خذها اليك واحذرن أبا حسن * انا نمر الأمر امرار الرسن
صولة أقوام كاسداد السفن * بمشرفيات كغدران اللبن
ونطعن الملك بلين كالشطن * حتى يمرن على غير عنن

فقال على

انى عجزت عجزة لا أعتذر * سوف أكيس بعدها وأستمر
أرفع من ذيلى ماكنت أجر * وأجمع الامر الشتيت المنتشر
ان لم يشاغبنى العجول المنتصر * ان تتركونى والسلاح يبتدر

ثم نزل ورجع الى بيته وجعل يفرق عماله على الامصار فبعث عثمان بن حنيف على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة وعبيد الله بن عباس على اليمن وقيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام فلم يفعلوا وظهر معاوية بمن معه ليفسد الامر على على وأرسل رجلا من بنى عبس يدعى قبيصة الى على ومعه طومار مختوم عنوانه من معاوية الى على وقال له اذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار ثم أوصاه بما يقول فقدم الرجل الى المدينة فى ربيع الاول فدخلها وقد رفع الطومار فتبعه الناس ينظرون اليه وعلوا أن معاوية معترض * قال ابن عباس أتيت عليا بعد قتل عثمان عند عودى من مكة فوجدت المغيرة بن شعبة مستخليا به فخرج من عنده فقلت له ماقال لك هذا فقال قال لى بعد مرته هذه ان لك حق الطاعة والنصيحة وأنت بقية الناس وان الرأى اليوم تحرز به مافى غد وان الضياع اليوم يضيع به مافى غد أقرر معاوية وابن عامر وعمال عثمان على

أعمالهم حتى تأتيك ببيعتهم ويسكن الناس ثم اعزل من شئت فأبيت عليه ذلك وقلت لأداهن في ديني ولا أعطي الدنية في أمري قال فان كنت أبيت عليّ فانزع من شئت واترك معاوية فان في معاوية جراءة وهو في أهل الشام يستمع منه ولك حجة في اثباته كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام * فقلت لا والله لاأستعمل معاوية يومين ثم انصرف من عندي وأنا أعرف فيه أنه يود أني مخطئ ثم عاد الى الآن فقال اني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت وخالفتني فيه ثم رأيت بعد ذلك أن تصنع الذي رأيت فتعزلهم وتستعين بمن تثق به فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كان * قال ابن عباس فقلت لعلي أما المرة الاولى فقد نصحك وأما المرة الثانية فقد غشك قال ولم نصحني قلت لان معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى تثبتهم لايبالون من ولي هذا الامر ومتى تعزلهم يقولون أخذ هذا الامر بغير شورى وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك فتنتقض عليك الشام وأهل العراق مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية فان بايع لك فعليّ أن أقلعه من منزله فقال علي والله لأعطيه الا السيف ثم تمثل

وما ميتة ان متها غير عاجز * بعار اذا ماغالت النفس غولها

فقلت ياأمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الحرب خدعة فقال بلى فقلت أما والله لئن أطعتني لاصدرنهم بعد ورد ولاتركنهم ينظرون في دبر الامور ولايعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولااثم لك * فقال ياابن عباس لست من هناتك ولامن هنات معاوية في شيء * قال ابن عباس فقلت له أطعني وألحق بمالك بينبع وأغلق بابك عليك فان العرب تجول جولة وتضطرب ولاتجد غيرك فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غدا فأبى علي فقال تشير علي وأرى فاذا عصيتك فأطعني قال فقلت افعل ان أيسر مالك عندي الطاعة فقال له علي تسير الى الشام فقد وليتكها فقال ابن عباس ماهذا برأي معاوية رجل من بني أمية وهو ابن عم عثمان وعامله ولست آمن أن يضرب عنقي بعثمان وان أدنى ماهو صانع أن يحبسني فيتحكم علي لقرابتي منك وان كل ماحمل عليك حمل علي ولكن اكتب الى معاوية فمنه وعده فقال لاوالله لاكان هذا أبدا * وكان المغيرة يقول نصحته فلم يقبل فغششته وخرج الحق بمكة وجعل علي يتجهز لاهل الشام وبكثر من جمع الرجال اذ جاءه الخبر عن طلحة والزبير وعائشة وأهل مكة بنحو آخر وانهم على الخلاف فاعلم علي الناس ذلك وان عائشة وطلحة والزبير قد سخطوا امارته ودعوا الناس الى الاصلاح * وكان سبب اجتماع طلحة والزبير وعائشة بمكة أن عائشة كانت خرجت اليها وعثمان محصور ثم خرجت من مكة تريد المدينة فلما كانت بسرف لقيها رجل من أخوالها من بني ليث يقال له عبيد بن أبي سلمى وهو ابن أم كلاب فقالت له عائشة مهيم قال قتل عثمان وبقوا ثمانيا قالت ثم صنعوا ماذا قال اجتمعوا على بيعة علي فقالت ليت هذه انطبقت على هذه ان تم الامر لصاحبك ردوني ردوني

فانصرفت

فانصرفت الى مكة وهى تقول قتل والله عثمان مظلوما والله لاطلبن بدمه فقال لها ولم والله ان أول من أمال حرفه لأنت ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر قالت انهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولى الاخير خير من قولى الاول فقال لها ابن أم كلاب

فمنك البداء ومنك الغير * ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الامام * وقلت لنا انه قد كفر
فهبنا أطعناك فى قتله * وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا * ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرا * يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها * وما من وفى مثل من قد غدر

فانصرفت الى مكة فقصدت الحجر فسترت فيه فاجتمع الناس حولها فقالت * أيها الناس ان الغوغاء من أهل الامصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالامس ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه وقد استعمل أمثالهم قبله ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام والله لاصبع من عثمان خير من طباق الارض أمثالهم ووالله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه اذ ماصوه * فقال عبدالله بن عامر الحضرمى وكان عامل عثمان على مكة ها أنا أول طالب فكان أول مجيب وتبعه بنو أمية على ذلك وكانوا هربوا من المدينة بعد قتل عثمان الى مكة ورفعوا رؤسهم وكان أول ماتكلم بالحجاز وتبعهم سعيد ابن العاص والوليد بن عقبة وسائر بنى أمية * وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ويعلى بن أمية وهو ابن منية من اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم فأناخ بالابطح وقدم طلحة والزبير من المدينة فلقيا عائشة واتفقوا على الشخوص الى البصرة فجهزهم يعلى بن منية بستمائة بعير وستمائة ألف درهم وجهزهم ابن عامر بمال كثير ونادى مناديها ان أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون الى البصرة فمن أراد اعزاز الاسلام وقتال المحلين والطلب بثار عثمان وليس له مركب وجهاز فليأت فحملوا ستمائة على ستمائة بعير وساروا فى ألف وقيل فى تسعمائة من أهل المدينة ومكة ولحقهم الناس فكانوا فى ثلاثة آلاف رجل فبعثت أم الفضل بنت الحرث أم عبد الله بن عباس رجلا من جهينة يدعى ظفرا فاستأجرته على أن يأتى عليا بالخبر فقدم على على بكتابها فلما جاءه الخبر سار فى تعبيته التى تعباها لاهل الشام آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين فى تسعمائة وهو يرجو أن يدرك أصحاب عائشة فيحول بينهم وبين الخروج أو يأخذهم وساروا حتى انتهوا الى الربذة فلما انتهوا اليها أتاهم خبر سبق عائشة ومن معها أمام بها يأتمر مايفعله وأتاه ابنه الحسن فى الطريق فقال له لقد أمرتك فعصيتنى فتقتل

غدا بمعصية لاناصر لك فقال له علي انك لاتزال تخن خنين الجارية ومالذى أمرتنى فعصيتك
قال أمرتك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ثم أمرتك يوم قتل
أن لا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فانهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبيت
على وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا
فان كان الفساد كان على يد غيرك فعصيتنى فى ذلك كله * فقال أى بنى قد بايعونى طائعين غير
مكرهين فأنا مقاتل من خالفنى بمن أطاعنى حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين فكف عنك
يابنى * وأرسل الى المدينة فأتاه ماير يده من دابة وسلاح وأمر أمره وقام فى الناس فخطبهم وسار
من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح والراية مع محمد بن الحنفية وعلى
على ناقة حمراء يقود فرسا كميتا فلما التقى الجمعان ترددت الرسل بينهما وطال الكلام فى أمر
الصلح ووضع الحرب فأبى قوم عائشة الا القتال وأقبل كعب بن سور فأتى عائشة فقال أدركى
فقد أبى القوم الا القتال لعل الله أن يصلح بك فركبت وألبسوا هودجها الادراع فلما برزت
من البيوت وهى على الجمل بحيث تسمع الغوغاء وقفت واقتتل الناس قتالا عظيما جدا

وقاتل الزبير فحمل عليه عمار بن ياسر فجعل يحوزه بالرمح والزبير كاف عنه ويقول
أتقتلنى ياأبا اليقظان فيقول لا ياأبا عبد الله * قال أهل التاريخ وانما كف الزبير عنه
لقول صاحب الشريعة تقتل عمارا الفئة الباغية قالوا ولولا ذلك لقتله * وبينما عائشة
واقفة اذ سمعت ضجة شديدة فقالت ماهذا قالوا ضجة العسكر قالت بخير أو بشر قالوا بشر فما
فجأها الا الهزيمة فمضى الزبير من وجهه الى وادى السباع وأما طلحة فأتاه سهم فأصابه
فشك رجله بصفحة الفرس وهو ينادى الى الى عباد الله الصبر الصبر ثم دخل البيوت ودمه
يسيل وهو يقول اللهم خذ لعثمان منى حتى ترضى فلما امتلأ خفه دما وثقل قال لغلامه
أردفنى وأمسكنى وأبلغنى مكانا أنزل فيه فدخل البصرة فأنزله فى دار خربة فمات فيها وقيل
انه اجتاز به رجل من أصحاب على فقال له أنت من أصحاب أمير المؤمنين قال نعم فقال امدد
يدك أبايعك له فبايعه فخاف أن يموت وليس فى عنقه بيعة ولما قضى دفن فى بنى سعد وكان
الذى رمى طلحة مروان بن الحكم وقيل غيره وأما الزبير فانه مر بعسكر الاحنف بن قيس
فلما رآه الاحنف قال من يأتينى بخبر هذا وأشار اليه فقال رجل اسمه عمرو بن جرموز أنا
ثم تبعه فلما لحقه نظر اليه الزبير قال ما وراءك قال انما أريد أن أسألك فقال غلام للزبير
كان معه انه معد قال الزبير ما يهولك من رجل وحضرت الصلاة فقال ابن جرموز
الصلاة الصلاة فقال الزبير الصلاة ونزل ليصلى فاستدبره ابن جرموز وطعنه فقتله وأخذ
فرسه وسلاحه وخاتمه وخلى عن الغلام فدفنه بوادى السباع ورجع الى الناس بالخبر ثم سار
الى على ودفع اليه سيف الزبير فنظر اليه وقال طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله
صلى الله عليه وسلم

وقالت عائشة لما انجلت الوقعة وانهزم الناس لكعب بن سور خل عن الجمل وتقدم

بالمصحف

بالمصحف فدعاهم اليه وناولته مصحفا فاستقبل القوم فرموه بالسهام فقتلوه ورموا عائشة في هودجها فجعلت تنادى البقية البقية يابنىّ ويعلو صوتها الله الله اذكروا الله والحساب فلم يمتنعوا عنها فجعلت تحرض الناس فحملت مضر البصرة حتى قصفت مضر الكوفة حتى زحم على وكانت راية على مع ابنه محمد فنخس على قفا ابنه محمد وقال له احمل فتقدم وأخذ علىّ الراية من يده وقال يابنىّ بين يدى واشتدت الحرب وكثر الهول والكرب وتساقطت النبال تباعا وأبى أهل الكوفة الا القتال ولم يريدوا الا عائشة وتزاحف الناس بعضهم على بعض ونظرت عائشة من يسارها فقالت من القوم عن يسارى فقال لها صبرة بن شيمان بنوك الازد فصاحت ياآل غسان حافظوا اليوم جلادكم الذى كنا نسمع به وتمثلت

وجالد من غسان أهل حفاظها ٭ وكعب وأوس جالدت وشبيب

فكان الازد يأخذون بعر الجمل يشمونه ويقولون بعر جمل أمنا ريحه ريح المسك وقالت لمن عن يمينها من القوم عن يمينى قال بكر بن وائل قالت لكم يقول القائل

وجاؤا الينا فى الحديد كأنهم ٭ من العزة القعساء بكر بن وائل

واشتدّ الفريقان فى القتال شدة بالغة فكثرت الجرحى والقتلى فى العسكر جميعا فقال قوم لاتزال الحرب أو يصرع الجمل وكره القوم بعضهم بعضا وأخذ عميرة بن يثربى برأس الجمل فكان لايتقدم اليه أحد الا قتله حتى قتل هو دون زمام الجمل ولم يزل الامر كذلك حتى قتل على خطام الجمل أربعون رجلا ٭ قالت عائشة مازال جملى معتدلا حتى فقدت أصوات بنى ضبة ٭ قيل وأخذ الخطام سبعون رجلا من قريش وكلهم يقتل وأحدق أهل النجدات والشجاعة بعائشة فكان لايأخذ الخطام أحد الا قتل وما زال حتى ضاع الخطام ونادى علىّ اعقروا الجمل فانه ان عقر تفرقوا فضربه رجل فسقط واجتمع القعقاع وزفر على قطع بطان البعير وحملا الهودج فوضعاه وفر من كان وراءه من الناس وتمت هزيمة أصحاب عائشة فلما انهزموا أمر علىّ مناديا فنادى ألا لاتتبعوا مدبرا ولاتجهزوا على جريح ولاتدخلوا الدور ثم رسم الى نفر أن يحملوا الهودج من بين القتلى فوضعوه وليس قربه أحد وأتى علىّ الى عائشة فقال كيف أنت ياأمه قالت بخير قال يغفر الله لك قالت ولك فلما كان الليل أدخلها أخوها محمد بن أبى بكر البصرة فأنزلها فى دار عبد الله بن خلف الخزاعى وتسلل الجرحى من بين القتلى ليلا ودخلوا البصرة فأقام علىّ بظاهر البصرة ثلاثا وأذن للناس فى دفن موتاهم قيل وكانت القتلى زهاء عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علىّ ونصفهم الآخر من أصحاب عائشة وقيل ثلاثة عشر ألفا وقيل غير ذلك

ودخل علىّ البصرة يوم الاثنين فبايعه أهلها على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة ثم جهز على عائشة بكل ماينبغى لها من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها الا من أحب المقام واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة والمعروفات وسير

معها أخاها محمد بن أبي بكر وخرجت يوم السبت غرة رجب فشيعها على أميالا وسرح بنيه معها يوما فكان وجهها الى مكة ووقف على مودعا لها وحضر الناس فودعتهم فقالت وهى خارجة يا بنى لايعتب بعضنا على بعض انه والله ما كان بينى وبين على فى القديم الا ما يكون بين المرأة وبين أحمائها وانه على معتبتى لمن الاخيار فقال على صدقت والله ما كان بينى وبينها الا ذاك وانها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة

قلت واختلف الكتاب وأهل التاريخ فيما دعا عائشة وعليا الى هذه الحرب المشؤمة وركوب هذا المركب الخشن فمنهم من قال ان الحرب انما كانت منها أخذا بثأر عثمان لانها كانت ترى عليا بقتله أو بالتألب عليه ❁ ومنهم من قال بل لكراهتها فيه وحقدها عليه منذ كانت تحت صاحب الشريعة خصوصا ما كان من على بعد خروجها مع صاحب الشريعة الى غزوة بنى المصطلق وتشديده على صاحب الشريعة فى طلاقها بعد الذى قاله أهل الافك فيها ❁ وتحرير الخبر كما روته عائشة ❁ أن صاحب الشريعة كان اذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه فلما كانت غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه فخرج سهم عائشة فخرجت معه فلما قفل صاحب الشريعة من سفره ذلك وكان قريبا من المدينة بات بمنزل بعض الليل ثم ارتحل بالناس وكانت عائشة قد خرجت لحاجتها وفى عنقها عقد من جزع أظفار انسل من عنقها ولاتدرى فلما رجعت التمست العقد فلم تجده فخرجت الى المكان الذى كانت فيه تلتمسه فوجدته وجاء القوم الذين يرحلون بعيرها فأخذوا الهودج وهم يظنون أنها فيه وانطلقوا ورجعت هى الى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب فالتفت بجلبابها واضطجعت وهى تنتظر احدى خلال ثلاث اما هلاكها جوعا وعطشا أو أن يفترسها سبع من سباع البر أو يرجع اليها منشد ❁ وبينما هى على هذا الحال اذ أقبل عليها صفوان بن المعطل السلمى وكان قد عرس وراء العسكر لحاجته فلم يبت مع الناس فوقف عليها وكان يعرفها جيدا قبل أن يضرب الحجاب فقال لها ماخلفك ههنا ثم قرب بعيره وقال اركبى فركبت وأخذ برأس البعير وسلرا حتى أتيا الجيش وبينما كان يقودها اذ مر ببعض المنافقين وبينهم عبدالله بن أبى الذى كان يدعوه صاحب الشريعة رأس النفاق فقال من هذه فقيل له عائشة زوج النبى مع صفوان فقال والله مانجت منه ولا نجا منها وقال امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها ❁ وقال هو وغيره ماقالوه افكا وخاضوا فى الحديث ❁ وعلم بالامر صاحب الشريعة فأقلقه فقام فى الناس فخطبهم ثم قال ❁ أيها الناس مابال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهن غير الحق ويقولون ذلك لرجل والله ماعلمت عليه الا خيرا وماد خل بيتا من بيوتى الا معى اه وكان قد كبر ذلك عند عبدالله بن أبى ابن سلول فى رجال من الخزرج مع الذى قاله مسطح وحمنة بنت جحش وهما من أهل الافك ❁ وذلك أن زينب أختها كانت عند صاحب الشريعة فأشاعت حمنة من ذلك كلاما كثيرا ❁ فلما قال صاحب الشريعة تلك المقالة وقع الهرج وعلت الضوضاء بين الناس وتشاوروا حتى كاد يكون بينهم شر فنزل صاحب الشريعة ودعا

على

على بن أبى طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما فأما أسامة فأثنى خيرا وأما على فقال ان النساء لكثير وسل الخادمة تصدقك فدعا صاحب الشريعة بريرة الخادمة يسألها فقام اليها على فضربها ضربا مبرحا وهو يقول اصدقى رسول الله فقالت والله ما أعلم الا خيرا ثم قالت ماقالت * وهبط جبريل بثمان عشرة آية من سورة النور فى براءة عائشة * قال الزمخشرى فى تفسير هذه الآيات * لو قلبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ فى شئ تغليظه فى إفك عائشة ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف ما أنزل فى إفك عائشة على طرق مختلفة وأساليب مفتنة فأوجز فى ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر وجاء بما لم يقع فى وعيد المشركين عبدة الاوثان الا ماهو دونه فى الفظاعة اه وأقامت عائشة على بغضها لعلى والتألب عليه فى خلافته فكانت لاتنكف عن التشنيع عليه بالقول انه حذف من القرآن وأسقط وبدل وحرف فمن ذلك آية المتعة قالت انه أسقطها بتة وكان يجلد من يقرؤها وينهى عنها * وكانت عونا لمن خرج على على من الاعراب حتى مات

وبعث على قيس بن سعد أميرا على مصر وقيس هذا كان صاحب راية الانصار على عهد صاحب الشريعة وكان من ذوى الرأى والبأس فقال له على سر الى مصر فقد وليتكها واخرج الى رحلك واجمع ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها وأحسن الى المحسن واشدد على المريب وارفق بالعامة والخاصة فان الرفق يمن * فخرج قيس حتى دخل مصر فى سبعة من أصحابه ودخل المسجد وصعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب على فقرئ على أهل مصر بامارته ويأمرهم بمبايعته ومساعدته واعانته على الحق ثم قام قيس خطيبا فقال الحمد لله الذى جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين * أيها الناس انا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله فان نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم * فقام الناس فبايعوا واستقامت مصر واطمأنت القلوب وبعث عليها عماله الا قرية اسمها خربتا هذه فيها ناس قد أعظموا قتل عثمان واستكبروه وكانوا قبلا يدعونه الى الطلب بدم عثمان وطال بينهم وبينه الاخذ والرد ثم تهادنوا وكان قيس ذا تدبير وحيلة فلما ناض الخبر بما وقع بين عائشة وعلى ونهض معاوية بن أبى سفيان الى شق عصا الطاعة كان معاوية يخشى كثيرا من قيس المذكور مخافة أن يقبل على فى أهل العراق وقيس فى أهل مصر فيقع بينهما معاوية فكتب معاوية الى قيس كتابا يقول فيه سلام عليك * أما بعد فانكم نقمتم على عثمان ضربة بسوط أوشتيمة رجل أوتسيير آخر واستعمال فتى وقد علمتم أن دمه لايحل لكم فقد ركبتم عظيما وجئتم أمرا إدا فتب الى الله ياقيس فانك من المجلبين على عثمان فأما صاحبك فانا استيقنا أنه الذى أغرى الناس وحملهم حتى قتلوه وانه لم يسلم من دمه عظم قومك فان استطعت ياقيس أن تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين اذا ظهرت مابقيت ولمن أحببت من أهلك سلطان الحجاز مادام لى سلطان

وسلنى ماشئت فانى أعطيك واكتب الىّ برأيك اه فلما جاءه الكتاب أحب أن يدافعه ولا يبدى
له أمرا ولا يتعجل الى حربه * قال أصحاب التاريخ فكتب اليه يقول * امابعد فقد فهمت ما
ذكرته من قتلة عثمان فذلك شئ لم أقاربه وذكرت أن صاحبى هو الذى أغرى به حتى قتلوه
وهذا مما لم أطلع عليه وذكرت ان عظم عشيرتى لم تسلم فأوّل الناس كان فيه قياما عشيرتى
وأما ماعرضته من متابعتك فهذا أمر لى فيه نظر وفكرة وليس هذا مما يسرع اليه وأنا كاف
عنك وليس يأتيك من قبلى شئ تكرهه حتى ترى ونرى انشاء الله تعالى * قالوا فلما قرأ معاوية
كتاب قيس رآه مقاربا مباعدا فكتب اليه * أمابعد فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدك سلما
ولا متباعدا فأعدك حربا وليس مثلى يصانع المخادع و ينخدع للمكايد ومعه عدد الرجال وأعنة
الخيل والسلام * قالوا فلما قرأ قيس كتابه ورأى أنه لا تفيد معه المدافعة والمماطلة أظهر له ما
فى نفسه فكتب اليه * أمابعد فالعجب من اغترارك بى وطمعك فىّ واستسقاطك اياى أتسومنى
الخروج عن طاعة أولى الناس بالامارة وأقولهم بالحق وأهداهم سبيلا وأقربهم من رسول
الله صلى الله عليه وسلم وسيلة وتأمرنى بالدخول فى طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الامر
وأقولهم بالزور وأضلهم سبيلا وأبعدهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلة ولد ضالين
مضلين طاغوت من طواغيت ابليس وأما قولك انى مالئ عليك مصر خيلا ورجالا فوالله
ان لم أشغلك بنفسك حتى تكون أهم اليك انك لذو جد والسلام * فلما رأى معاوية كتابه
أيس منه وثقل عليه مكانه فجعل يكيده وافتعل كتابا عن قيس اليه بالطلب بدم عثمان
والدخول معه فى ذلك وقرأه على أهل الشام وطير خبره الى الآفاق فبلغ ذلك عليا أبلغه
اياه محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر بن أبى طالب وأعلمته عيونه بالشام فكبر عليه هذا
الامر جدا وأعظمه فدعا ابنيه وعبد الله بن جعفر فأخبرهم بالخبر فقال ابن جعفر يا أمير
المؤمنين دع ما يريبك الى ما لا يريبك اعزل قيسا عن مصر فقال علىّ انى والله ما أصدق بهذا
عنه فقال عبد الله اعزله يا أمير المؤمنين فان كان هذا حقا لا يعتزل لك فبينما هم على هذا
الحال اذ جاءهم كتاب من قيس يخبر أمير المؤمنين بأمر المعتزلين الطالبين بدم عثمان وأنه
كف عن مشاغبتهم وقتالهم فقال ابن جعفر ما أخوفنى أن يكون ذلك ممالأة منه فمره
بقتالهم فكتب اليه علىّ يأمره بقتالهم فلما قرأ الكتاب كتب جوابه * أما بعد فقد
عجبت لامرك تأمرنى بقتال قوم كافين عنك مفرغيك لعدوك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك
عدوك فأطعنى يا أمير المؤمنين واكفف عنهم فان الرأى تركهم والسلام * قيل فلما قرأ علىّ
الكتاب قال ابن جعفر يا أمير المؤمنين ابعث محمد بن أبى بكر على مصر واعزل قيسا فقد
بلغنى أن قيسا يقول ان سلطانا لا يستقيم الا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء فأطاعه علىّ
وبعث محمد بن أبى بكر لمصر وقيل بعث قبله الاشتر النخعى فمات بالطريق فبعث محمدا فلما
قدم على قيس بمصر قال له قيس ما بال أمير المؤمنين ما غيره أدخل أحد بينى وبينه قال
لا وهذا السلطان سلطانك فقال لا والله لا أقيم وخرج منها مقبلا الى المدينة وهو غضبان لعزله



فلقيه حسان بن ثابت وكان عثمانيا يشمت به فقال له قتلت عثمان ونزعك على فبقى عليك الاثم ولم يحسن لك الشكر فقال له قيس يا أعمى القلب والبصر والله لو ألق بين رهطى ورهطك حربا لضربت عنقك اخرج عنى ثم خاف من مروان بن الحكم بالمدينة فرحل عنها

ولما قدم محمد بن أبى بكر مصر قرأ كتاب على على أهل مصر ثم قام فخطب فقال ✽ الحمد لله الذى هدانا واياكم لما اختلف فيه من الحق وبصرنا واياكم كثيرا مما كان عمى عنه الجاهلون ✽ الا ان أمير المؤمنين ولانى أمركم وعهد الى ما سمعتم وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب فان يكن ماترون من امارتى وأعمالى طاعة لله فاحمدوا الله على ما كان من ذلك فانه هو الهادى له وان رأيتم عاملا لى عمل بغير الحق فارفعوه الى وعاتبونى فيه فانى بذلك أسعد وأنتم جديرون ✽ وفقنا الله واياكم لصالح الاعمال برحمته ✽ ثم نزل وابتشهرا كاملا حتى بعث الى اولئك المعتزلين من الطالبين بدم عثمان وقال لهم اما أن تدخلوا فى طاعتنا واما أن تخرجوا من بلادنا فأجابوه انا لانفعل هذه ولاهذه وامتنعوا وأخذوا حذرهم فسير اليهم الحرث بن جمهان الجعفى فى جمع كبير فاتلهم فقاتلوه وقتلوه فبعث اليهم أيضا ابن مضاهم الكلبى فقتلوه ووصل الخبر بذلك الى معاوية فكتب اليه يسبه ويقبح فعاله ويتوعده

وكتب على الى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والانصار على بيعته ونكث طلحة والزبير وحربه اياهما ويدعوه الى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والانصار من طاعته فاستشار معاوية عمرو بن العاص فى ذلك وكان قد لحق بمعاوية قبل قتل عثمان بقليل كى لايقتل عثمان وهو فى المدينة فقال عمرو اجمع أهل الشام وقاتله أخذا بثار عثمان حتى تظفر ففعل معاوية ذلك وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان الذى قتل فيه مخضوبا بالدم بأصابع زوجته نائلة اصبعان منها وشئ من الكف واصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الابهام وضع معاوية القميص على المنبر وجمع الاجناد اليه وكلهم فى أمر القتال والخروج على على والزامه بدم عثمان فبكوا جميعا مدة وهو على المنبر والاصابع معلقة فيه وأقسم رجال من أهل الشام ان لايمسهم الماء الا للغسل من الجنابة وان لايناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن قام دونهم قتلوه وكان هذا كله بحضرة رسول على فرجع الرسول اليه وأخبره بالخبر وان أهل الشام اجمعوا على قتاله فكبر الامر على على ونادى فى عسكره بالخروج فخرجوا وعسكروا بالنخيلة ففرق فيهم الاعطية وجهز معاوية وتجهز الناس وحضهم عمرو بن العاص على القتال وقال لمعاوية سر الى على بنفسك ولاتغب عنه برأيك ومكيدتك فبالغ معاوية فى التأهب والاستعداد ووقف عمرو وسط القوم وناداهم انما سار اليكم على فى شرذمة قليلة وقد قتل خليفتكم فالله الله فى حقكم ان تضيعوه وفى دمكم أن تطلوه ✽ فعقد له معاوية لواء ولواء لابنيه عبدالله ومحمد ولواء لغلامه وردان وجاءهم الخبر بان عليا عقد لواء لغلامه المدعو قنبر فأنشد عمرو بن العاص فى ذلك



هل يغنين وردان عنى قنبرا * أو تغنى السكون عنى حميرا
اذا الكماة لبسوا السنورا

وساروا حتى التقوا جميعا وسير على جماعة من كبار قومه الى معاوية ليعظوا عليه ويدعوه الى الطاعة فدخلوا عليه وكلموه فى الامر طويلا فقال ليس بينى وبين على الا السيف فعادوا وأخبروا عليا بما جرى وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اصطف الفريقان ودارت الحرب بينهما على السهل الخفيف اذ كرهوا أن يجمعوا أهل العراق بأهل الشام فى قتال خوفا من الاستئصال والهلاك فكانوا يخرجونهم بجماعات قليلة فاقتتلوا على هذا الحال أيام ذى الحجة كلها من سنة ست وثلاثين وربما اقتتلوا فى اليوم الواحد مرتين ثم عادوا بعد المحرم فى سنة سبع وثلاثين الى القتال فرتب على أصحابه وحضهم على القتال حتى يموتوا أو يحكم الله من عدوهم * وضرب معاوية له قبة عظيمة وألقى عليها الثياب فبايعه أكثر أهل الشام على الموت وأحاط بقبته خيل دمشق ودارت الحرب بين الفريقين فاقتتلا قتالا عنيفا وكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه أصابع نائلة زوجته فاذا رأى ذلك أهل الشام ازدادوا غيظا وحدة فى أمرهم فاذا أحس منهم بفتور يقول له عمرو بن العاص حرك لها حوارها تحن فيعلق القميص * واشتد أهل الشام فى قتالهم لاصحاب على وأجهزوا عليهم وأطبقوا من كل صوب وحدب وما زالوا كلما انهزمت طائفة من أصحاب على وانكشفت عنه سار الى استنهاض الاخرى وكان الاشتر أحد كبار أصحاب على ينادى فى الناس ويقول انصروا أمير المؤمنين واصدقوا عدوكم اللقاء ان الله مع الصادقين * وكثر القتل فى أصحاب على وكذلك فى أصحاب معاوية واشتد على بمن معه فى القتال فلما رأى عمرو بن العاص ماصاروا اليه قال لمعاوية هل لك فى أمر أعرضه عليك لايزيدنا الا اجتماعا ولايزيدهم الا فرقة قال نعم قال نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها هذا حكم بيننا وبينكم فان أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول ينبغى لنا أن نقبل فتكون فرقة بينهم وان قبلوا مافيها رفعنا القتال عنا الى أجل فأجابه معاوية الى ماطلب وأمر فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم فلما رآها الناس قالوا نجيب الى كتاب الله فقال لهم على ان معاوية وعمرا ومن معهما ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالا ثم رجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم والله مارفعوها الا خديعة ووهنا ومكيدة * فقالوا له لايسعنا أن ندعى الى كتاب الله فنأبى أن نقبله وقال جماعة أجب الى كتاب الله عز وجل اذ دعيت اليه والا دفعناك برمتك الى القوم أو نفعل بك مافعلنا بابن عفان * فقال لهم احفظوا عنى نهيى اياكم واحفظوا مقالتكم لى فان تطيعونى فقاتلوا وان تعصونى فاصنعوا مابدا لكم * واختلفوا فيما بينهم حتى كادوا يفترقون وسب أهل الكوفة الاشتر وضربوا وجه دابته بسياطهم لانه كان يحض عليا على القتال وعدم وضع الحرب ويقول لهم ان رفع المصاحف انما هى حيلة ومشورة من ابن النابغة يعنى به عمرو بن العاص * فلما رأى على اشتداد الخلاف وتفريق الكلمة سير الاشعث بن

قيس

قيس الى معاوية يسأله عما يريد فقال معاوية انما أريد أن نرجع نحن وأنتم الى ماأمر الله به فى كتابه تبعثون رجلا ترضون به ونبعث نحن رجلا نرضى به نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لايعدوانه ثم نتبع مااتفقا عليه * فرجع الاشعث الى عليّ وأخبره بما قاله معاوية وفاض الخبر بذلك بين أصحاب عليّ فقالوا قد رضينا وقبلنا وقال أهل الشام قد رضينا عمرا وقال أصحاب عليّ ونحن قد رضينا بأبي موسى الاشعرى فمانعهم على فى ذلك فأصروا على تحكيم أبي موسى * وجاء أبوموسى حتى دخل المعسكر وحضر عمرو بن العاص عند عليّ ليكتبوا القضية بحضوره فكتبوا * بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماتقاضى عليه أميرالمؤمنين فقال عمرو هو أميركم وأما أميرنا فلا * فقال الاحنف لاتمح اسم أمير المؤمنين فانى أخاف إن محوتها أن لاترجع اليك أبدا لاتمحها وان قتل الناس بعضهم بعضا قيل فأبى ذلك عليّ مليا من النهار ثم ان الاشعث بن قيس قال امح هذا الاسم فمحاه فقال عليّ الله أكبر سنة بسنة والله انى لكاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية فكتبت محمد رسول الله وقالوا لست برسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فأمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحوه فقلت لاأستطيع فقال أرنيه فأريته فمحاه بيده وقال انك ستدعى الى مثلها فتجيب * فقال عمرو بن العاص سبحان الله أنشبه بالكفار ونحن مؤمنون ووقع بينه وبين أمير المؤمنين علي كلام كثير ثم كتب الكتاب * هذا ماتقاضى عليه علىّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى على على أهل الكوفة ومن معهم وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم اننا ننزل عند حكم الله وكتابه وأن لايجمع بيننا غيره وان كتاب الله بيننا من فاتحته الى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان فى كتاب الله وهما أبوموسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملا به ومالم يجداه فى كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة اه ثم أخذ الحكمان من عليّ ومعاوية ومن العسكرين من العهود والمواثيق انهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والامة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه واتفقوا على أن يكون الحكم فى رمضان أوبعده وشهد بذلك جماعة من أصحاب على وآخرون من أصحاب معاوية وكتب الكتاب يوم الاربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين واتفقوا على أن يوافى عليّ على موضع الحكمين بدومة الجندل أوبأذرح فى شهر رمضان وتفرقت جموع كثيرة من أصحاب عليّ وسار بمن بقى معه عن صفين الى الكوفة ونزل بها

ولما جاء وقت اجتماع الحكمين أرسل عليّ أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثى وأوصاه أن يقول لعمرو بن العاص ان عليا يقول لك ان أفضل الناس عند الله عزوجل من كان العمل بالحق أحب اليه وان نقصه من الباطل وان زاده ويحك لاتكن للخائنين خصيما وللظالمين ظهيرا * وأرسل معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام حتى توافقوا جميعا على دومة الجندل بأذرح فلما اجتمع عمرو بن العاص وأبوموسى الاشعرى قال عمرو لابى موسى ياأبا موسى ألاتعلم أن عثمان قتل مظلوما قال أشهد قال ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه



قال بلى قال فما يمنعك منه وبينه في قريش كما قد علمت فان خفت أن يقول الناس ليست له سابقة وجدته ولى عثمان المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة والتدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتبه وقد صحبه وعرض له بسلطان * فقال أبو موسى يا عمرو اتق الله فأما ماذكرت من شرف معاوية فان هـذا ليس على الشرف تولاه أهله ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح انما هو لأهل الدين والفضل مع انى لو كنت معطيه أفضل قريش شرفا أعطيته على بن أبى طالب * وأما قولك ان معاوية ولى دم عثمان فوله هذا الامر فلم أكن لاوليه وأدع المهاجرين الاولين * وأما تعريضك لى بالسلطان فوالله لو خرج معاوية لى من سلطانه كله لما وليته وما كنت لارتشى فى حكم الله ولكنك ان شئت أن تحيي اسم عمر بن الخطاب رحمه الله * قال له عمرو وما يمنعك من ابنى وأنت تعلم فضله وصلاحه فقال ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة * فقال عمرو ان هذا الامر لا يصلح الا لرجل يأكل ويطعم وكانت فى ابن عمر غفلة فقال له ابن الزبير أفطن فانتبه فقال والله لا أرشو عليها شيأ أبدا وقال يا ابن العاص ان العرب قد أسندت اليك أمرها بعد ماتقارعوا بالسيوف فلا تردهم فى فتنة فلما اختلفوا فيمن يتولاها قال عمرو بن العاص لابى موسى خبرنى مارأيك قال أبو موسى أرى أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الامر شورى فيختار المسلمون لانفسهم من أحبوا فقال عمرو الرأى مارأيت فقاما وأقبلا الى الناس وهـم مجتمعون وكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدمه فى الكلام ويقول أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسن منى فقال حينئذ يا أبا موسى اعلم الناس أن رأينا قد اتفق فتكلم أبو موسى فقال ان رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الامة فقال عمرو صدق وبر تقدم يا أبا موسى فقال له ابن عباس ويحك والله انى لاظنه قد خدعك ان كنتما اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم به قبلك ثم تكلم به بعده فانه رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما فاذا قمت فى الناس خالفك * قال بعض الكتاب وكان أبو موسى مغفلا فقال إنا قد اتفقنا والتفت الى الناس وقال * أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الامة فلم نر أصلح لامرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه وهو أن نخلع عليا ومعاوية ويولى الناس أمرهم من أحبوا وانى قد خلعت عليا ومعاوية ثم تنحى وأقبل عمرو وقال * ان هذا قد قال ماسمعتموه وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية فانه ولى ابن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه * فعند ذلك وقع الهرج بين الناس وعلت الضوضاء وتشاتم أبو موسى وعمرو بن العاص وتسابا وضرب شريح بن هانئ عمرو بن العاص بسوط كان فى يده فقام عليه ابن لعمرو فضربه كذلك وكثر الصياح من الفريقين وطلب أهل الشام أبا موسى فهرب الى مكة وعاد عمرو بن العاص بأهل الشام الى معاوية فسلموا عليه بالخلافة ورجع ابن عباس وشريح الى على وأخبره بما كان فاغتم غما شديدا وصار اذا صلى الغداة يقنت فيقول اللهم العن معاوية وعمرا وأبا الاعور وحبيبا وعبد الرحمن

ابن

ابن خالد والضحاك بن قيس والوليد فبلغ ذلك معاوية فكان اذا قنت أيضا سب عليا وابن عباس والحسن والحسين والاشتر * وتالب أصحاب عليّ على قتال معاوية وأصحابه وأتوا عليا فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت * وكتب عليّ الى أهل النهر * بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علىّ أمير المؤمنين الى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس * أما بعد فان هذين الرجلين اللذين ارتضيناهما حكمين قد خالفا كتاب الله واتبعا هواهما بغير هدى من الله فلم يعملا بالسنة ولم ينفذا القرآن حكما فبرئ الله منهما ورسوله والمؤمنون فاذا بلغكم كتابى هذا فاقبلوا الينا فانا سائرون الى عدونا وعدوكم ونحن على الامر الاول الذى كنا فيه فكتبوا اليه * أما بعد فانك لم تغضب لربك وانما غضبت لنفسك فان شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا و بينك والا فقد نبذناك على سواء ان الله لا يحب الخائنين * فلما قرأ الجواب أيس منهم وسار بمن مال معه حتى نزل على أهل الكوفة واستنصرهم فاجتمع له منهم زهاء ثلاثة آلاف مقاتل وقيل ثلاثة آلاف ومائتين وخرج معه من أهل الكوفة اربعون ألف مقاتل وسبعة عشر ألفا من الابناء ممن أدرك وثمانية آلاف من الموالى والعبيد فكان جميع أهل الكوفة خمسة وستين ألفا فسار بهم عليّ لقتال من خرج عن دعوته من أهل النهر وغيرهم فقاتلهم واستظهر عليهم ثم نادى فيمن معه بالخروج لقتال معاوية فراجعه فى ذلك الاشعث بن قيس وقال يا أمير المؤمنين لقد نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصدا فارجع الى مصرنا نستعد ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا فان عدونا أقوى منا فأجابه عليّ الى ذلك وما زالوا حتى نزلوا بالنخيلة فأمر الناس بأن يلزموا العسكر ويتأهبوا للزحف على العدو وأن يقلوا من زيارة أبنائهم ونسائهم حتى يسيروا الى عدوهم فلبثوا على هذا الحال أياما ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا البيوت الا نفرا من وجوه الناس وأصبح عليّ وقد رأى المعسكر خاليا فحزن واشتد به الحزن ودخل الكوفة وقد انكسر عليه رأيه فى المسير ولكنه قد كبر عليه الامر واستعظمه فجعل يستنفرهم ويحثهم على الخروج فلم يطيعوا وبقوا على هذا الحال أياما فجمع رؤساءهم وكبارهم وقام فيهم فقال عباد الله ما بالكم اذا أمرتكم أن تنفروا تثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة وبالذل والهوان من العز خلفا وكلما ناديتكم الى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت فى سكرة وكأن قلوبكم مألوسة وأنتم لا تعقلون فكأن أبصاركم كمه وأنتم لا تبصرون لله أنتم ما أنتم الا أسد الشرى فى الدعة وثعالب رواغة حين تدعون الى البأس انكم تكادون ولا تكيدون وينتقص أطرافكم وأنتم لا تتحاشون ولا تنام أعينكم وأنتم فى غفلة ساهون الى أن قال * فلم يلتفتوا الى مقالته وكادوا يخذلونه

وبينما كان عليّ على هذا الحال من الضعف والوهن وتفريق كلمة أصحابه اذ جاءه الخبر بفساد أهل مصر على محمد بن أبي بكر عامله بها وخروج معاوية بن خديج السكونى بها يطالب بدم عثمان واجتماع الكثير اليه فكبر الامر على عليّ * قال بعض الكتاب فكتب

الى الاشتر وهو بنصيبين يستدعيه فلما حضر أخبره خبر أهل مصر وقال له ليس لها غيرك فاخرج اليها فانى قد وليتك اياها واستعن بالله فخرج الاشتر يتجهز الى مصر وأتت معاوية عيونه بذلك فعظم عليه الامر وخشى عاقبته لانه علم أن الاشتر ان قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبى بكر فأرسل معاوية الى المقدم على أصحاب الخراج بالقلزم يقول ان الاشتر قد ولى مصر فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجا مابقيت وبقيت فقام الرجل من ساعته وسار حتى أتى القلزم وأقام به وخرج الاشتر من العراق يريد مصر فلما انتهى القلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه الضيافة فنزل عنده فأتاه بطعام فأكل فأتاه بشربة من عسل قد وضع له فيها سما فشرب فمات لساعته وجاء الخبر بموته الى معاوية ففرح فرحا لايوصف وقام فى الناس خطيبا فقال بعد كلام قد كانت لعلىّ يمينان فقطعت احداهما بصفين يعنى بموت عمار بن ياسر وقطعت الاخرى اليوم يعنى بموت الاشتر وعلم محمد بن أبى بكر بما فعله علىّ من ارساله الاشتر مكانه فكبر عليه الامر جدا وأرسل الى علىّ فى ذلك فكتب اليه علىّ يقول • أما بعد فقد بلغنى موجدتك من تسريحى الاشتر الى عملك وانى لم أفعل ذلك الا استبطاء لك فى الجهاد ولا ازديادا منى لك فى الجد ولو نزعت ماتحت يدك لوليتك ماهو أيسر عليك مؤنة منه وأعجب اليك ولاية • ان الرجل الذى كنت وليته أمر مصر كان لنا نصيحا وعلى عدونا شديدا وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضى الله عنه وضاعف له الثواب اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ماولاك • فكتب اليه محمد أما بعد فقد انتهى الىّ كتابك وفهمته وليس أحد من الناس أرضى برأى أمير المؤمنين ولا أجهد على عدوه ولا أرأف بوليه منى وقد خرجت فعسكرت وأمنت الناس الا من نصب لنا حربا وأظهر لنا خلافا وأنا متبع أمير المؤمنين وحافظه والسلام وقيل انما تولى الاشتر مصر بعد قتل محمد بن أبى بكر وقيل غير ذلك • وكان معاوية شديد الخوف من أهل مصر يهابهم جدا لقربهم منه وشدتهم على من قام يطالب بدم عثمان ولم يكن يخشى غيرهم لاسيما بعد اختلاف الناس على علىّ بالعراق فجعل يدبر الحيلة فى ذلك ثم دعا عمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وبسر بن أرطاة وآخرين وشاورهم فى أمر مصر ومن بها من أصحاب علىّ فأشار عليه عمرو بن العاص بفتحها والركوب على من بها من الاحزاب حتى يتم النصر فكاتب معاوية الى بعض من خالف عليا بمصر فى أمر ذلك فمنوه بالنصر واستنهضوه فأمر عمرو بن العاص ليتجهز اليها وسير معه ستة آلاف رجل فنزلوا على مقربة من أرض مصر فاجتمع اليه من قام يطالب بدم عثمان فتقوت بهم عزيمته وكتب الى محمد بن أبى بكر أما بعد فتنح عنى بدمك ياابن أبى بكر فانى لا أحب أن يصيبك منى ظفر ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مسلموك فاخرج منها انى لك من الناصحين وبعث معه كتابا من معاوية أيضا فأرسل محمد الكتابين الى علىّ وأخبره بنزول عمرو بن العاص على حدود مصر وطلب

منه

منه المدد لتثاقل الناس وتقاعدهم فوعده علىّ بارسال نجدة عاجلة وحضه على أن يضم شيعته اليه

واشتبك القتال بين محمد بن أبي بكر وعمرو بن العاص ومن بمصر من أصحاب عثمان واشتد شدة بالغة واجتمع أهل الشام حول محمد وأصحابه وأخذوهم بالرماح والسيوف من كل صوب وكان كنانة بن بشر على مقدمة أصحاب محمد فلما رأى ذلك كنانة نزل عن فرسه ونزل معه أصحابه فضارب أهل الشام بسيفه حتى قتل وبلغ محمد بن أبي بكر خبر موته فانزعر وتفرق عنه أصحابه وأطبق عليه عمرو بن معه ففر محمد على وجهه حتى انتهى الى خربة فى الطريق فأوى اليها وساق عمرو بن العاص عن معه يريد الفسطاط وخرج معاوية بن حديج فى طلب محمد بن أبي بكر فدل عليه رجل فأخرجوه من الخربة وقد كاد يهلك عطشا فقال يا ابن حديج اسقنى فقال له لاسقانى الله ان سقيتك قطرة أبدا انكم منعتم عثمان شرب الماء والله لاقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والغساق فقتله ابن حديج ثم ألقاه فى جيفة حمار ثم أحرقه بالنار وجاء الخبر الى علىّ بفتح مصر وقتل محمد بن أبي بكر فحزن كثيرا وحزنت عائشة وجزعت عليه جزعا شديدا وجعل عمرو يدبر الامور بمصر وقد أخذ البيعة لمعاوية بن أبي سفيان وجمع اليه كلمة الاحزاب فقويت بهم شوكته واتسعت كلمته وهابه علىّ فاحجم عن تسيير الجند لقتاله بعد أن نادى فيهم بالرحيل ✽ واختلفت كلمة أصحاب علىّ وتفرقوا عنه أوكادوا ومعاوية يبعث البعوث الى الآفاق لتتم دعوته وتعلو كلمته فلما دخلت سنة ست وثلاثين للهجرة فرق معاوية جيوشه فى العراق ورسم لهم بقتال كل من لم يذعن لسلطانه فعاثوا وقتلوا ونهبوا وسبوا وفعلوا مالا خير فيه وكذلك فعلوا باهل البوادى وبلغوا مكة والمدينة وفعلوا بهما مافعلوا وكبر الامر على علىّ وكاد يسقط فى يده فكانت الاخبار تأتيه فى كل يوم بتثاقل الناس عن الخروج لقتال عدوه فكان يخطب ويحض ويعذر ويؤنب ويقول يا أيها الناس انصروا من هو على الحق ويحكم المغرور من غررتموه ومن فاز بكم فاز بالسهم الاخيب إنا لله وإنا اليه راجعون والناس مع ذلك فى تثاقل وسلطانه فى إدبار ✽ فلما اشتد الحال وعظم الخلاف بين المتضاربين اجتمع عبد الرحمن بن ملجم المرادى والبرك بن عبد الله التميمى الصريمى وقيل اسم البرك الحجاج وعمرو بن بكر التميمى السعدى وهم من الخوارج فتذاكروا أمر الناس وعابوا عمل ولاتهم ثم ذكروا قتلى النهر فترحموا عليهم وقالوا مانصنع بالبقاء بعدهم فلو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضلالة وأرحنا منهم البلاد لكان فى ذلك المصلحة فقال ابن ملجم ويحكم أنا أكفيكم عليا وكان ابن ملجم هذا من أهل مصر وقال البرك بن عبد الله وأنا أكفيكم معاوية وقال عمرو ابن بكر وأنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا أن لاينكص أحدهم عن صاحبه الذى توجه اليه حتى يقتله أو يموت فأخذوا سيوفهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة من رمضان وقصد كل منهم الجهة التى يريد فأتى ابن ملجم الكوفة فلقى أصحابه بالكوفة وكتمهم أمره ورأى يوما



أصحابا له من تيم الرباب وكان علىّ قد قتل منهم يوم النهر عدة فتذاكروا قتلى النهر ورأى معهم امرأة من تيم الرباب اسمها قطام وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أخذت قلبه فخطبها فقالت لاأتزوجك حتى تشتفى لى فقال وما تريدين قالت ثلاثة آلاف وعبدا وقينة وقتل علىّ فقال أماقتل علىّ فما أراك ذكرتيه وأنت تريدينى قالت بلى التمس غرته فان أصبته شفيت نفسك ونفسى ونفعك العيش معى وان قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها قال والله ماجاءبى الاقتل علىّ فلك ماسألت قالت سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك وبعثت الى رجل من قومها اسمه وردان وكلمته فأجابها وأتى ابن ملجم رجلا من أشجع اسمه شبيب بن بجرة فقال له هل لك فى شرف الدنيا والآخرة قال وماذا قال قتل علىّ قال شبيب ثكلتك أمك لقد جئت شيأ إدًا كيف تقدر على قتله قال أكمن له فى المسجد فاذاخرج الى صلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه فان نجونا فقد شفينا أنفسنا وان قتلنا فما عند الله خير من الدنيا ومافيها قال ويحك لو كان غيرعلىّ كان أهون * فلما كانت ليلة الجمعة سابع عشرة رمضان سنة أربعين استيقظ علىّ سحرا وقال لابنه الحسن رأيت الليلة النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله ماذا لقيت من أمتك من الاود واللدد فقال لى ادع الله تعالى عليهم فقلت اللهم أبدلنى بهم خيرا لى منهم وأبدلهم بى شرا لهم منى ودخل المؤذن فقال الصلاة فخرج علىّ من الباب ينادى أيها الناس الصلاة الصلاة فاعترضه ابن ملجم فضربه بالسيف فأصاب جبهته ووصل الى دماغه فشد عليه الناس من كل جانب فأمسك وأوثق وأقام علىّ الجمعة والسبت وتوفى ليلة الاحد وغسله الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر ومحمد بن الحنفية وصلى عليه الحسن ودفن بدار الامارة بالكوفة ليلا وأخفى قبره لئلا ينبشه الخوارج وأما البرك فانه ضرب معاوية فأصاب أورا كه وكان معاوية عظيم الاوراك فقطع منه عرق النكاح فلم يولد له بعد ذلك ولد فأمر معاوية باتخاذ المقصورة فى الجوامع من ذلك الوقت وأما عمرو بن بكر فانه رصد عمرو بن العاص بمصر فاشتكى عمرو بطنه فلم يخرج الى الصلاة فصلى بالناس رجل من بنى عامر يقال له خارجة فضربه ابن بكر فقتله واليه أشار ابن عبدون فى قصيدته الرائية

فليتها اذ فدت عمرا بخارجة * فدت عليا بمن شاءت من البشر

وقيل ان عليا كان اذا رأى ابن ملجم يتمثل بهذا البيت

أريد حياته ويريد قتلى * عذيرك من خليلك من مرادى

وأخذوا ابن ملجم فعذبوه وقطعوه اربا بعد موت علىّ قال غير واحد انه لما ضربه ابن ملجم أوصى الحسن والحسين وصية طويلة وفى آخرها * يابنى عبد المطلب لاتخوضوا دماء المسلمين خوضا تقولون قتل أمير المؤمنين ألالايقتلن بى غير قاتلى اضربوه ضربة بضربة ولا تمثلوا به فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اياكم والمثلى * ولما مات علىّ قتل الحسين ولده عبد الرحمن بن ملجم المذكور فقطع يديه ورجليه وكحل عينيه بمسمار محمى فى النار قبل

كل

كل ذلك ولم يتأوه ولم يجزع فلما أرادوا قطع لسانه تأوه وجزع فسئل عن ذلك فقال والله ماأتأوه فزعا ولاجزعا من الموت وانما أتأوه لان تمر على ساعة من ساعات الدنيا لاأذكر الله تعالى فيها فقطعوا لسانه فمات بعد ذلك * ومات على وعمره سبع وقيل ثمان وخمسون وقيل ثلاث وقيل ثمان وستون سنة وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ويوما واحدا وكانت مدة اقامته بالمدينة أربعة أشهر ثم سار الى العراق وقتل بالكوفة قيل وكان قبل موته قد بايعه أربعون ألفا من عسكره على الموت فقتل قبل أن يخرج بهم لقتال عدوه * وكان يجتمع على مع صاحب الشريعة فى عبد المطلب الجد الادنى وينسب الى هاشم فيقال القرشى الهاشمى ولم يزل اسمه فى الجاهلية والاسلام عليا ويكنى أبا الحسن أسلم وهو ابن سبع سنين وقيل ابن تسع وقيل ابن عشر وقيل ابن خمس عشرة وقيل غير ذلك والصحيح الاول وشهد المشاهد كلها الاتبوك فان صاحب الشريعة خلفه فى أهله وكان غزير العلم ولما هاجر صاحب الشريعة أقام بعده ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عنه الودائع وكان لعلى شفقة على رعيته فكان متواضعا ورعا ذاقوة فى الدين وكان قوته من دقيق الشعير يأخذ منه قبضة فيضعها فى القدح ثم يصب عليه ماء فيشربه وقد تفرق عليه الخوارج واعتقد فيه الناس الالوهية قيل ولما بلغ عائشة قتل على قالت

فالقت عصاها واستقربها النوى * كما قرعينا بالاياب المسافر

قالت من قتله فقيل رجل من مراد فقالت

فان يك نائيا فلقد نعاه * نعى ليس فى فيه التراب

فقالت زينب بنت أبى سلمة أتقولين هذا لعلى فقالت انى أنسى فاذا نسيت فذكرونى ومات فى أيامه بنيامين بطرك الاسكندرية بعد أن أقام تسعا وثلاثين سنة على المشهور وكان فيها من الحوادث والمحن ما مر بك ذكره فاقيم بعده اغاثو وهو تاسع ثلاثيهم وكان فى أيامه من الحوادث ماسيذكر بعد * ولما مات أمير المؤمنين على بن أبى طالب خلفه ابنه الحسن

(الفصل الخامس)

﴿ فى خلافة أمير المؤمنين حسن بن على ﴾

ثم قام بالامر بعد أمير المؤمنين على الحسن ابنه وكنيته أبو محمد ولقبه الذكى وأمه فاطمة الزهراء بويع له بالخلافة بعد موت أبيه فى شهر رمضان سنة أربعين للهجرة أى سنة احدى وستين وستمائة ميلادية فكان الناس فى ريب من بيعته لانه كان يقول لهم أشترط عليكم فى بيعتى انكم مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت فقالوا ماهذا لكم بصاحب



ومايريد هذا الا القتال ثم سار الى المدائن واستقربها فبينما هو بالمدائن اذ نادى مناد ان قيسا قتل وكان الحسن قد جعله على مقدمة الجيش وهو قيس بن سعد بن عبادة فخرج الحسن لذلك وخرج معه الكثير من الناس وانفشلوا وقد نهبوا متاع الحسن حتى نازعوه بساطا كان تحته فازداد لهم بغضا وكاد يسقط فى يده وكان بينهم الجراح الاسدى فهزأ الجراح على الحسن وهو يسير معه ووجأه بالخنجر فى فخذه فقال الحسن قتلتم أبى بالامس ووثبتم علىّ اليوم تريدون قتلى زهدا فى العادلين ورغبة فى القاسطين والله لتعلمن نبأه بعد حين * وسار وهو يريد تسليم الامر الى معاوية بغضا فى القوم لخذلهم اياه ثم كتب الى معاوية بتسليم الامر اليه واشترط عليه شروطا فأجابه معاوية الى ماالتمسه منه وسر له مااشترط عليه فسلم الامر الى معاوية وبايع له لخمس بقين من ربيع الاول قال بعض الكتاب لانه رأى المصلحة فى جمع الكلمة وترك القتال ويقال انه أخذ من معاوية ألف ألف درهم وقال قوم انه صالحه باذرح فى جمادى الاولى وأخذ منه مائة ألف دينار ويقال أربعمائة ألف درهم وقيل انه شرط عليه أن يمكنه من بيت المال يأخذ منه حاجته وأن يكون ولى العهد من بعده ففرح معاوية بذلك فخلع الحسن نفسه وسلم الامر الى معاوية وصالحه ودخل هو واياه الكوفة فسمى هذا العام عام الجامعة لاجتماع الامة بعد الفرقة على خليفة واحد وقيل انه لما راسل معاوية فى تسليم الخلافة اليه خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال انا والله مايثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم وانما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع وكنتم فى سيركم الى صفين ودينكم أمام دنياكم وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ألا وقد أصبحتم بين قتيلين قتيل بصفين تبكون له وقتيل بالنهر وان تطلبون بثأره وأما الباقى فخاذل وأما الباكى فثائر ألا وان معاوية دعانا لامر ليس فيه عز ولا نصفة فان أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه الى الله عز وجل بظبا السيوف وان أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا * فعند ذلك ناداه الناس من كل جانب البقية البقية فأمضى الصلح * قال الليث شهدت خطبة الحسن رضى الله تعالى عنه حين صالح معاوية وخلع نفسه من الخلافة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فان أكيس الكيس التقى وأحمق الحمق الفجور وان هذا الامر الذى اختلفت أنا ومعاوية فيه ان كان له فهو أحق به منى وان كان لى فقد تركته له ارادة لاصلاح الامة وحقن الدماء عن سفكها والعار على النار

قال بعض أصحاب التاريخ لما مرض الحسن رضى الله تعالى عنه كتب مروان بن الحكم الى معاوية بذلك فكتب اليه معاوية أن أقبل المطى الىّ بخبر الحسن فلما بلغ معاوية موته سمع تكبيره من الخضراء فكبر أهل الشام لذلك التكبير فقالت فاختة بنت قرظة لمعاوية أقر الله عينك ماالذى كبرت لاجله فقال مات الحسن فقالت أعلى موت الحسن بن فاطمة تكبر فقال والله ما كبرت شماتة فى موته ولكن استراح قلبى * ودخل عليه ابن عباس

فقال

فقال له يابن عباس هل تدرى ما حدث فى أهل بيتك فقال لا أدرى ما حدث الا أنى أراك مستبشرا وقد بلغنى تكبيرك فقال مات الحسن فقال ابن عباس يرحم الله أبا محمد ثلاثا والله يامعاوية لاتسد حفرته حفرتك ولايزيد عمره فى عمرك ولئن كنا قد أصبنا بالحسن فلقد أصبنا بامام المتقين وخاتم النبيين فجبر الله تلك الصدعة وسكن تلك العبرة وكان الله الخلف علينا من بعده

وكان الحسن قد سمته امرأته جعدة بنت الاشعث فمكث شهرين يرفع من تحته فى اليوم كذا وكذا مرة طست من الدم وكان يقول سقيت السم مرارا وما أصابنى فيها ما أصابنى فى هذه المرة وكان قد أوصى لاخيه الحسين وقال اذا أنا مت فادفنى مع جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان وجدت الى ذلك سبيلا وان منعوك فادفنى فى بقيع الغرقد فلما مات لبس الحسين ومواليه السلاح وخرجوا ليدفنوه مع جده فخرج مروان بن الحكم فى موالى بنى أمية وهو يومئذ عامل على المدينة فمنع الحسين من ذلك وكانت وفاته فى شهر ربيع الاول سنة تسع وأربعين وقيل سنة خمسين وصلى عليه سعيد بن العاص ودفن مع أمه فاطمة وقيل دفن بالبقيع فى قبر بقبة العباس ودفن فى هذا القبر أيضا على زين العابدين وابنه محمد الباقر وابن ابنه جعفر بن محمد الصادق فهم أربعة فى قبر واحد * فكانت خلافة الحسن ستة أشهر وخمسة أيام وقيل ستة أشهر الا أياما ومات وعمره سبع وأربعون سنة فتم بموته الامر لمعاوية وانقطع بموته حبل الخلفاء الراشدين وقامت بعدهم الخلافة الاموية فكانت مدة خلافة الراشدين عبارة عن ثلاثين سنة هجرية وبعض أشهر وكان عددهم خمسة خلفاء أولهم أبوبكر وآخرهم الحسن بن علىّ بن أبى طالب

(المقالة الرابعة)

﴿ فى الخلفاء الامويين وفيها فصول ﴾

(الفصل الاول)

﴿ فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ﴾

لما خلع الحسن نفسه من الخلافة على الشروط التى تقدم الكلام عليها تم الامر لمعاوية واستقام له الملك وصفت له الخلافة وعلت كلمته وطارت شهرته وكان قد بويع له بالخلافة يوم التحكيم بايعه أهل الشام واختلف عليه أهل العراق الى أن صالحه الحسن بن على فأجمع



الناس على بيعته فى جمادى الاولى سنة اثنتين وأربعين هجرية أى سنة اثنتين وستين وستمائة ميلادية

وكان مولد معاوية بالخيف من منى أسلم قبل أبيه أبى سفيان وصحب صاحب الشريعة وكتب له وكان فى عسكر أخيه يزيد بن أبى سفيان وكان عاملا لعمر بن الخطاب فى سنة عشرين هجرية على الشام فلم يزل متوليا عليه عشرين سنة وذلك بقية خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان وفى خلافة على متغلبا عليها الى أن أسلم اليه الحسن الخلافة فاجتمع له الامر وبعث نوابه الى البلاد وذلك فى سنة احدى وأربعين للهجرة أى سنة احدى وستين وستمائة للميلاد فسمى هذا العام عام الجماعة قالوا لان الامة اجتمعت فيه بعد الفرقة على امام واحد

قال بعض الكتاب وكانت امرأة استشارت صاحب الشريعة فى أن تتزوج بمعاوية فقال لها صعلوك لامال له ثم بعد هذا القول باحدى عشرة سنة صار نائب دمشق ثم بعد الاربعين صار ملك الدنيا ٭ فلما استقرت به الخلافة وتصرف فى الامور خرج عليه فروة بن نوفل الاشجعى الحرورى وورد الكوفة وهو أول الخوارج فكتب معاوية الى أهل الكوفة لاذمة لكم عندى حتى تكفونى أمره فقاتلوه وقتلوه بشهرزور وقيل ببعض السواد ثم خرج بعده معن الخارجى وهو معن بن عبد الله رجل من محارب فقبض عليه المغيرة وحبسه وبعث الى معاوية يخبره أمره فكتب اليه ان شهد أنى خليفة فخل سبيله فأحضره المغيرة وقال له أتشهد أن معاوية خليفة وأنه أمير المؤمنين فقال أشهد أن الله عز وجل حق وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور فأمر به فقتل ثم خرج أبو مريم مولى بنى الحرث بن كعب ومعه امرأتان قطام وكحيلة فكان أول من خرج معه النساء على الخليفة فعاب ذلك عليه بعض قومه فقال قد قاتل النساء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع المسلمين بالشام قال وسأردهما فردهما فوجه اليه المغيرة رجالا فقاتلوه وقتلوه

ولما كانت سنة اثنتين وأربعين سير معاوية جندا ضخما لبلاد الروم للغزو فاقتتلوا قتالا شديدا ثم دخل بسر بن أرطاة أرضهم سنة ثلاث وأربعين قيل وبلغ القسطنطينية ثم دخل عبد الله بن خالد وكان على حمص فشتى بهم وغزاهم بسر تلك السنة بحرا ثم دخل اليها عبد الرحمن السبيعى سنة ست وأربعين فشتى بها وشتى أبوه على أنطاكية ثم دخلوا سنة ثمان وأربعين فشتى عبد الرحمن بانطاكية ودخل عبد الله بن قيس فى تلك السنة بالصائفة وغزاهم مالك بن هبيرة سنة تسع وأربعين فشتى بأرض الروم ودخل عبد الله بن كرز البجلى بالصائفة وشتى يزيد بن ثمرة الرهاوى فى بلاد الروم بأهل الشام فى البحر وعقبة بن نافع بأهل مصر كذلك ٭ وسير أيضا فى سنة ثمان وأربعين للهجرة الى سنة خمسين أى سنة ثمان وستين وستمائة للميلاد جيشا كثيفا الى قسطنطينية مع سفيان بن عوف فأوغلوا فى بلاد الروم وألقوا الحصار على المدينة وكان فى الجيش يومئذ ابن عباس وعمرو بن الزبير وأبو أيوب الانصارى الذى شهد بدرا وأحدا وحرب صفين فمات أيام الحصار ودفن بقرب سور القسطنطينية

وبعد

وبعد أن هاجموا المدينة هجمات كثيرة وشددوا عليها من كل جانب هزمهم الروم شرهزيمة وعرقلت النار الاغر يقية مراكبهم فكانت تحرق وتبيد وتهلك من فوق ومن تحت الماء وكان معاوية قد أمر ابنه يزيد بالغزو معهم فتثاقل واعتل فأمسك عنه أبوه وأصاب الناس في غزوتهم هذه جوع ومرض شديد وفاض الخبر بذلك وتحدث الناس فيه فأنشأ يزيد يقول

ما ان أبالي بما لاقت جموعهم * بالفرقدونة من حمى ومن شوم
اذا اتكأت على الانماط مرتفقا * بدير مران عندي أم كلثوم

وأم كلثوم هي امرأته ابنة عبد الله بن عامر فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليلحقن بسفيان من أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس فسار ومعه جمع كثير أضافهم اليه أبوه ثم رجع يزيد والجيش الى الشام * قال أصحاب التاريخ فكانت هذه أول مرة لقيت فيها عساكر المسلمين صقلا * وكان معاوية قد عقد لعمرو بن العاص النيابة على مصر في مدة اختلافه مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كما تقدم القول وكتب الى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج وهما كبراء العاملين على أخذ ثار عثمان بن عفان بمصر يخبرهم بقدوم عمرو بن العاص ومن معه من الجند لاخذ مصر فأجابوه فجهز معاوية عمرو بن العاص في ستة آلاف فسار اليها واجتمعت عليه العثمانية وهم عشرة الاف فكتب عمرو الى محمد بن أبي بكر ما كتب وكان ما كان من أمر قتل محمد بن أبي بكر واحراق جثته مما سيأتي بيانه في محله فلما تم الامر الى عمرو ابن العاص ودانت له الامور كتب الى معاوية يخبره بما كان من الامر وأن الله قد فتح عليه بلاد مصر فأقام عمرو أميرا عليها الى أن مات بها ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين على المشهور ودفن بالمقطم من ناحية الفج وكان طريق الناس يومئذ الى الحجاز فأحب أن يدعو له من مر به وهو أول أمير مات بمصر وفي ذلك يقول عبدالله بن الزبير

ألم تر أن الدهر أخنى بريبه * على عمرو السهمي تجبى له مصر
فأضحى نبيذا بالعراء وضلت * مكايده عنه وأمواله الدثر
ولم يغن عنه جمعه المال برهة * ولا كيده حتى أتيح له الدهر

ولما مات عمرو بن العاص ولى معاوية على مصر ولده عبد الله بن عمرو المذكور * قال الواقدي فعمل له عليها سنتين وقال غيره بل أشهرا ثم عزله وولى عقبة بن عامر سنة أربع وأربعين فأقام الى سنة سبع وأربعين فعزله وولى معاوية بن حديج فأقام الى سنة خمسين فعزله وولى مسلمة بن مخلد وجمعت له مصر والغرب وهو أول وال جمع له ذلك * قال ابن عبد الحكم حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن بعض شيوخ أهل مصر قال أول كنيسة بنيت بفسطاط مصر الكنيسة التي خلف القنطرة أيام مسلمة بن مخلد المذكور فأنكر ذلك الجند على مسلمة وقالوا له أتقر لهم أن يبنوا الكنيسة حتى كاد يقع بينهم وبينه شر فاحتج عليهم يومئذ مسلمة فقال انها ليست في قيروانكم وانما هي خارجة في أرضهم فسكتوا عن ذلك

فأقام مسلمة أميرا الى سنة تسع وخمسين وكان عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفى المشهور بابن أم حكيم وهى أخت معاوية أميرا على الكوفة فأساء السيرة فى أهلها فأخرجوه من بين أظهرهم طريدا فرجع الى خاله معاوية فقال لأولئك مصر خيرا منها فولاه مصر فلما سار اليها تلقاه معاوية بن حديج على مرحلتين من مصر فقال ارجع الى خالك فلعمرى لاتسير فينا سيرتك فى أهل الكوفة فرجع ابن أم حكيم ولحقه معاوية بن حديج وافدا على معاوية فلما دخل عليه وجد عنده أخته أم حكيم وهى أم عبد الرحمن الذى طرده من مصر فلما رآه معاوية قال بخ بخ هذا معاوية بن حديج فقالت أم حكيم لامرحبا تسمع بالمعيدى خير من أن تراه فقال معاوية بن حديج على رسلك يا أم حكيم أما والله لقد تزوجت فما أكرمت وولدت فما أنجبت أردت أن يلى ابنك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار فى أهل الكوفة فما كان الله ليريد ذلك ولو فعل لضربنا ابنك ضربا يطأطئ منه وان كره هذا الجالس فالتفت اليها معاوية فقال كفى فاستمر مسلمة على امرة مصر الى أن مات فى خلافة يزيد فى ذى الحجة سنة اثنتين وستين

ولما كانت سنة ست وخمسين بايع الناس يزيد بن معاوية بولاية عهد أبيه وكان الذى أشار على معاوية بذلك المغيرة بن شعبة وذلك لان معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضه سعيد بن العاص فبلغه ذلك فقال الرأى أن أشخص الى معاوية فأستعفيه ليظهر للناس كراهتى للولاية فسار الى معاوية وقال لاصحابه حين وصل اليه ان لم أكسبكم الآن ولاية وامارة لاأفعل ذلك أبدا ومضى حتى دخل على يزيد وقال له انه قد ذهب أعيان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وآله وكبراء قريش وذوو أنسابهم وانما بقى أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدرى مايمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة قال أو ترى ذلك يتم قال نعم فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المغيرة فأحضر المغيرة وقال له مايقول يزيد فقال يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد منك خلف فاعقد له فان حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولاتسفك دماء ولاتكون فتنة قال ومن لى بهذا قال أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك قال فارجع الى عملك وتحدث مع من تثق اليه فى ذلك وترى ونرى فودعه ورجع الى أصحابه فقالوا مه قال لقد وضعت رجل معاوية فى غرز بعيد الغاية على أمة محمد وفتقت عليهم فتقا لايرتق أبدا وتمثل

بمثلى شاهدى النجوى وغالى ٭ بى الاعداء والخصم الغضابا

وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق اليه ومن يعلم أنه شيعة لبنى أمية أمر يزيد فأجابوا الى بيعته فأوفد منهم عشرة ويقال أكثر من عشرة وأعطاهم ثلاثين ألف درهم وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة وقدموا على معاوية فزينوا له بيعة يزيد ودعوه الى عقدها فقال معاوية لاتعجلوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم ٭ وجعل معاوية يعطى المقارب ويدارى

المباعد

المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس وبايعه فلما بايعه أهل العراق والشام سار الى الحجاز فى ألف فارس فلما دنا من المدينة لقيه الحسين بن على أول الناس فلما نظر اليه معاوية قال لامرحبا ولا أهلا بدنة يترقرق دمها والله مهريقه قال مهلا فانى والله لست بأهل لهذه المقالة قال بلى ولشر منها ولقيه ابن الزبير فقال لامرحبا ولا أهلا خب ضب تلعة يدخل رأسه ويضرب بذنبه ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه ويدق ظهره نحياه عنى فضرب وجه راحلته ثم لقيه عبد الرحمن بن أبى بكر فقال له معاوية لاأهلا ولامرحبا شيخ قد خرف وذهب عقله ثم أمر فضرب وجه راحلته ثم فعل بابن عمرو نحو ذلك فاقبلوا معه لايلتفت اليهم حتى دخل المدينة فحضروا بابه فلم يؤذن لهم على منازلهم ولم يروا منه مايحبون فخرجوا الى مكة فأقاموا بها * وخطب معاوية بالمدينة فذكر يزيد فمدحه وقال من أحق منه بالخلافة فى فضله وعقله وموضعه وما أظن قوما بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أنذرت ان أغنت النذر ثم أنشد متمثلا

قد كنت حذرتك آل المصطلق * وقلت ياعمرو أطعنى وانطلق

انك ان كلفتنى مالم أطق * ساءك ماسرك منى من خلق

دونك ماأستسقيته فاحس وذق

ثم دخل على عائشة وقد بلغها أنه ذكر الحسين وأصحابه فقال لاقتلنهم ان لم يبايعوا فشكاهم اليها فوعظته وقالت له بلغنى أنك تتهددهم بالقتل فقال ياأم المؤمنين هم أعز من ذلك ولكنى بايعت ليزيد وبايعه غيرهم أفترين أن أنقض بيعة قد تمت قالت فارفق بهم فانهم يصيرون الى ماتحب ان شاء الله قال أفعل ومكث بالمدينة ماشاء الله ثم خرج الى مكة فلقيه الناس قال بعض الكتاب فقال أولئك النفر نتلقاه فلعله قد ندم على ما كان منه فلقوه ببطن مر فكان أول من لقيه الحسين فقال له معاوية مرحبا وأهلا ياابن رسول الله وسيد شباب المسلمين وأمر له بدابة فركب وسايره ثم فعل بالباقين مثل ذلك وأقبل يسايرهم لايسير معه غيرهم حتى دخل مكة فكانوا أول داخل وآخر خارج ولايمضى يوم الا ولهم صلة ولايذكر لهم شيأ حتى قضى نسكه وحمل أثقاله وقرب مسيره فقال بعض أولئك النفر لبعض لاتخدعوا فما صنع بكم هذا لحبكم وما صنعه الا لما يريد فأعدوا له جوابا فاتفقوا على أن يكون المخاطب له ابن الزبير فأحضرهم معاوية وقال قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لارحامكم وحملى ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه لايعارضكم فى شئ من ذلك فسكتوا فقال ألاتجيبون مرتين ثم أقبل على ابن الزبير فقال هات لعمرى انك خطيبهم فقال نعم نخيرك بين ثلاث خصال قال اعرضهن قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر قال معاوية ماصنعوا قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحدا فارتضى الناس أبا بكر قال ليس فيكم مثل أبى بكر وأخاف الاختلاف قالوا صدقت فاصنع كما صنع أبو

بكر فانه عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه وان شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الامر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه * قال معاوية هل عندك غير هذا قال لا * ثم التفت الى من لم يتكلموا وقال فانتم قالوا قولنا قوله قال فانى قد أحببت أن أتقدم اليكم انه قد أعذر من أنذر انى كنت أخطب منكم فيقوم الىّ القائم منكم فيكذبنى على رؤس الناس فأحمل ذلك وأصفح وانى قائم بمقالة فأقسم بالله لئن ردّ علىّ أحدكم كلمة فى مقامى هذا لاترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه فلا يبقين رجل الاعلى نفسه * ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فان ذهب رجل منهم يرد علىّ كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال * ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لايبتز أمر دونهم ولايقضى الا عن مشورتهم وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله * فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب رواحله وانصرف الى المدينة فبايعه أهل المدينة ثم انصرف الى الشام وقد تم له ما أراد وقضى الامر ولم يختلف فيه اثنان

وخطب معاوية قبل مرضه فقال انى كزرع مستحصد وقد طالت إمرتى عليكم حتى مللتكم ومللتمونى وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى ولن يأتيكم بعدى الامن أنا خير منه كما أن من قبلى كان خيرا منى وقد قيل من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه اللهم انى قد أحببت لقاءك فأحبب لقائى وبارك لى فيه فلم يمض غير قليل حتى ابتدأ به مرضه فلما مرض المرض الذى مات فيه دعا ابنه يزيد فقال يابنى انى قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الامور وذللت لك الاعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك المال يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فانهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فان عزل عامل أيسر من أن يشهر عليك مائة ألف سيف وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فان رابك من عدوك شئ فانتصر بهم فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم وانى لست أخاف عليك أن ينازعك فى هذا الامر الا أربعة نفر من قريش الحسين بن علىّ وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر فأما ابن عمر فانه رجل قد وقذته العبادة فاذا لم يبق أحد غيره بايعك وأما الحسين بن علىّ فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فان خرج وظفرت به فاصفح عنه فان له رحما ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم وأما ابن أبى بكر فان رأى أصحابه صنعوا شيأ صنع مثله ليس له همة الا فى النساء واللهو وأما الذى يجثم لك جثوم الاسد ويراوغك مراوغة الثعلب فان أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فان هو فعلها بك فظفرت به فقطعه اربا اربا واحقن دماء قومك ما استطعت اه قال ابن الاثير الجزرى * ذكر فى هذه الرواية

عبد

عبد الرحمن بن أبي بكر وليس ذلك بصحيح فان عبد الرحمن بن أبي بكر كان قد مات قبل معاوية اه وقال بعض أهل التاريخ ان يزيد كان غائبا في مرض أبيه وموته وان معاوية أحضر الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المري فأمرهما أن يؤديا عنه هذه الرسالة الى يزيد ابنه * قلت وهذا هو المشهور * ولما حضرته الوفاة جمع أهله فقال ألستم أهلي قالوا بلى فداك الله بنا فقال وعليكم حزني ولكم كدي وكسبي فقالوا بلى فداك الله بنا قال فهذه نفسي قد خرجت من قدمي فردوها علي ان استطعتم فبكوا وقالوا والله مالنا الى هذا سبيل فرفع صوته بالبكاء ثم قال فمن تغره الدنيا بعدي * قال بعض أهل التاريخ ولما ثقل به الضعف وتحدث الناس أنه الموت قال لاهله احشوا عيني اثمدا وأسبغوا رأسي دهنا ففعلوا وبرقوا وجهه بالدهن ثم مهدوا له مجلسا وأسندوه وأذنوا الناس فدخلوا وسلموا عليه قياما ولم يجلس أحد فلما خرجوا عنه قالوا هو أصح الناس فقال معاوية عند خروجهم

وتجلدي للشامتين أريهم * اني لريب الدهر لا أتضعضع

فسمعه رجل من العلويين فأجابه

واذا المنية أنشبت أظفارها * ألفيت كل تميمة لا تنفع

قيل انه أوصى أن تدق قلامة أظافر صاحب الشريعة وكانت عنده وتجعل في منافذ وجهه وان يكفن في ثوب صاحب الشريعة * ومات بدمشق في نصف رجب وقيل في مستهل رجب سنة ستين هجرية أي سنة ستين وثمانمائة ميلادية وصلى عليه الضحاك بن قيس لغيبة الخليفة يزيد ابنه ببيت المقدس واختلف في عمره فقيل ثمانون وقيل خمس وسبعون سنة وقيل خمس وثمانون وقيل ثمان وثمانون وقيل تسعون سنة * وكانت خلافته منذ خلص له الامر تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام وكان أميرا وخليفة أربعين سنة منها أربع سنين في خلافة عمر بن الخطاب وكان مليح الشكل عظيم الهيبة وافر الحشمة يلبس الثياب الفاخرة والدقة الكاملة ويركب الخيل المسومة وكان كثير البذل والعطاء محسنا الى رعيته كبير الشأن له في العلم أخبار كثيرة وهو أول من اتخذ المقاصير وأقام الحرس والحجاب وأول من مشى بين يديه صاحب الشرطة بالحربة وأول من تنعم في مأكله ومشربه وملبسه وكان حلبيا يجتمع مع صاحب الشريعة في عبد مناف بن قصي وينسب الى أمية بن عبد شمس فيقال الأموي

(الفصل الثاني)

(في خلافة يزيد بن معاوية)

ثم قام بالامر بعد معاوية ابنه يزيد بويع له بالخلافة يوم موت أبيه في رجب سنة احدى

وستين هجرية أى سنة ثمانين وستمائة ميلادية وقيل سنة ستين هجرية وقد كان بحمص فقدم منها وبادر الى قبر أبيه ثم دخل دمشق الى الخضراء وكانت دارا للسلطنة فخطب الناس بها وبايعوه بالخلافة وكتب الى الآفاق بذلك فبايعوه ولم يبايعه الحسين بن على ولا عبد الله ابن الزبير واختفيا من عامله الوليد بن عقبة بن أبى سفيان وأقاما مصرين على الامتناع وبيان ذلك * أنه لما امتنع الحسين وابن الزبير من البيعة ليزيد خرج الحسين الى مكة فلقيه عبد الله بن مطيع فقال له جعلت فداك أين تريد قال أما الآن فمكة وأما بعد فانى أستخير الله قال خار الله لك وجعلنا فداك فاذا أتيت مكة فاياك أن تقرب الكوفة فانها بلدة مشؤمة بها قتل أبوك وخذل أخوك الزم الحرم فانك سيد العرب لاتعدل بك أهل الحجاز أحدا وتتداعى اليك الناس من كل جانب ولا تفارق الحرم * فسار الحسين الى مكة ونزل بها فكان أهلها يختلفون اليه ويأتونه وعبد الله بن الزبير بها لايريد الا خروج الحسين عنها لأن أهل الحجاز لايبايعون الزبير مادام الحسين باقيا بالبلد * ولما بلغ أهل الكوفة امتناع الحسين ومن امتنع عن مبايعة يزيد وأنه سار الى مكة ونزل بها اجتمع جماعة من كبارهم وكتبوا الى الحسين يقولون * بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك فانا نحمد اليك الله الذى لااله سواه * أما بعد فالحمد لله الذى قصم عدوك الجبار العنيد الذى انتزى على هذه الامة فابتزها أمرها وغصبها دنياها وتأمر عليها بغير رضا منها ثم قتل خيارها واستبقى شرارها وانه ليس علينا امام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق والنعمان بن بشير فى قصر الامارة لسنا نجتمع معه فى جمعة ولاعيد ولوبلغنا اقبالك الينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام ان شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته * وسيروه اليه ثم كتبوا كتابا آخر وسيروه بعد ليلتين فكتب الناس معه نحوا من مائة وخمسين صحيفة ثم أرسلوا اليه رسولا ثالثا يحثونه على المسير اليهم فتاقت نفس الحسين عند ذلك الى الامارة وسير مسلم بن عقيل الى الكوفة وأمره بكتمان أمره واللطف فان رأى الناس مجتمعين له عجل اليه بذلك فسار مسلم حتى أدرك الكوفة وأقبلت الشيعة تختلف اليه فبلغ ذلك النعمان بن بشير وهو يومئذ أمير الكوفة فخطب فى الناس وحذرهم من العاقبة وكتب عبدالله بن مسلم من سعيد الحضرمى حليف بنى أمية الى يزيد يعلمه بخبر قدوم مسلم بن عقيل الكوفة ومبايعة الناس له ويقول له ان كان لك فى الكوفة حاجة فابعث اليها رجلا قويا ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك فى عدوك فان النعمان ضعيف أوهو يتضعف فخلع يزيد النعمان وولى عبيدالله بن مرجانة فسار اليها وتمكن من مسلم بن عقيل فقتله وأعلم يزيد بالخبر فسربه جدا وكتب اليه يقول بلغنى أن الحسين قد توجه نحو العراق فضع المراصد والمسالح واحترز واحبس على التهمة وخذ على الظنة غير أن لاتقتل الا من قاتلك * ولما أراد الحسين المسير الى الكوفة حسب كتب أهل العراق أتاه الكثير من أشياعه يسألونه العدول عن المسير ويحذرونه العاقبة فلم يقبل وسار وهو لايعلم ماجرى بمسلم بن عقيل وبينما هو فى طريقه الى الصفاح اذ لقيه الفرزدق

الشاعر

الشاعر فقال له أعطاك الله سؤلك وأملك فيما تحب فقال له الحسين بين لى خبر الناس خلفك فقال الخبير سألت قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء * فقال الحسين صدقت لله الامر يفعل مايشاء وكل يوم ربنا فى شأن ان نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر وان حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحق نيته والتقوى سريرته

وجعل الحسين يرسل الرسل وهو فى الطريق الى أهل الكوفة يعرفهم بقدومه ويأمرهم بالجد فى أمرهم فكان أصحاب يزيد يقبضون عليهم فيقتلونهم وجاء الخبر الى الحسين بمقتل ابن عقيل بالثعلبية فتكدر جدا ووثب بنو عقيل مع الحسين يطلبون بثار عقيل وأتاه أيضا خبر مقتل أخيه من الرضاعة عبدالله بن يقطر وكان سرحه الى مسلم بن عقيل من الطريق وهو لايعلم بقتله فأخذته خيل الحصين وأعلم الحسين الناس بخبر قتل أخيه من الرضاعة ومسلم بن عقيل وقال قد خذلنا شيعتنا فمن أحب أن ينصرف فلينصرف ليس عليه منا ذمام فتفرقوا يمينا وشمالا حتى بقى فى أصحابه الذين جاؤا معه من مكة فلما سار من شراف وانتصف النهار كبر رجل من أصحابه فقال له م كبرت قال رأيت النخل * يريد نخل العلقة وانهم قريبون فيها * فقال رجل من بنى أسد مابهذه الارض نخلة قط فقال الحسين فما هو قال هى هوادى الخيل فقال الحسين وأنا أيضا أراه ذلك أما لنا ملجأ نلجأ اليه فنجعله فى ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد ثم مال بمن معه الى ذو حسم وهو جبل هناك فلم يكن بأسرع من أن ظهر أصحاب يزيد وهم ألف فارس فوقفوا مقابل الحسين وأصحابه فى نحر الظهيرة وكان مقدم قوم يزيد الحر بن يزيد التميمى فوقع بينه وبين الحسين كلام عملهم فيه ثم سار الفريقان كل فى ناحيته حتى أتى الحسين قرية اسمها العقر فنزل بها هو ومن معه وذلك يوم الخميس الثانى من المحرم سنة احدى وستين فلما كان الغد قدم عليهم عمر بن سعد ابن أبى وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف وجاء عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس من قبل اليزيد من مرو فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وبين الماء وذلك قبل قتل الحسين بثلاثة أيام فلما اشتد العطش على الحسين وأصحابه أمر أخاه العباس بن علىّ فسار فى عشرين راجلا يحملون القرب وثلاثين فارسا فدنوا من الماء فقاتلوا عليه وملؤا القرب وعادوا ثم بعث الحسين الى عمر بن سعد عمرو بن قرظة بن كعب الانصارى أن القنى الليلة بين عسكرى وعسكرك فخرج اليه عمرو فاجتمعا وتحادثا طويلا ثم انصرف كل واحد منهما الى عسكره فتحدث الناس فى ذلك وقالوا ان الحسين قال لعمر اختاروا منى واحدة من ثلاث اما أن أرجع الى المكان الذى أقبلت منه أو أضع يدى فى يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بينى وبينه رأيه واما أن تسيروا بى الى أىّ ثغر من ثغور المسلمين شئتم فأكون رجلا من أهله لى مالهم وعلىّ ماعليهم فكتب عمر الى ابن زياد عامل يزيد يعلمه بالخبر ويسأله أن يجاوب الحسين الى خصلة من هذه الثلاث فلما علم ابن زياد مافى كتاب عمر وقد حرضه شمر بن ذى الجوشن

على أن لايمكّن الحسين من شئ مما سأل كتب ابن زياد الى عمر يقبح فعله ويقول له انى لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه ولا لتطاول ولا لتقعد له عندى شافعا انظر فان نزل هو وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعثه الىّ سالما وان أبوا فازحف اليهم واقتلهم ومثل بهم فان قتل الحسين فأوطئ الخيل صدره فانه عاق شاق قاطع ظلوم أوتعتزل ويكون الامر لذى شمر وسلم الكتاب لشمر المذكور فلما جاء عمر الكتاب ركب والناس معه بعد العصر وساروا الى الحسين فأرسل لهم الحسين العباس فى عشرين فارسا فتقررت القاعدة بينهم على أن يلتقوا فى غداة غد فافترقوا على ذلك وباتوا ليلتهم تلك فلما كانت عشية الليلة سمعته أخته زينب وهو فى خباء له يقول وعنده حوىّ مولى أبى ذر الغفارى يعالج سيفه

يادهر أف لك من خليل ● كم لك بالاشراق والاصيل

من صاحب أو طالب قتيل ● والدهر لايقنع بالبديل

وانما الامر الى الجليل ● وكل حىّ سالك السبيل

فاعادها مرتين أو ثلاثا فلما سمعته لم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها حتى انتهت اليه وصاحت واثكلاه ليت الموت أعدمنى الحياة اليوم ماتت فاطمة أمى وعلى أبى والحسين أخى ياخليفة الماضى وثمال الباقى ● فلما سمعها قام اليها وقال يا أخية لايذهبن حلمك الشيطان فقالت بأبى أنت وأمى استقتلت نفسى لنفسك الفداء فترقرقت عيناه وقال لوترك القطا لنام فلطمت وجهها وقالت واويلتاه أفتغصبك نفسك اغتصابا فذلك أقرح لقلبى وأشد على نفسى ثم لطمت وجهها وشقت جيبها وخرت مغشية عليها فقام الحسين فصب الماء على وجهها وقال اتقى الله وتعزى بعزاء الله واعلمى أن أهل الارض يموتون وأهل السماء لايبقون وان كل شئ هالك الاوجه الله أبى خير منى وأمى خير منى وأخى خير منى ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة ثم قال لها ياأخية انى أقسم عليك لاتشقى علىّ جيبا ولاتخمشى علىّ وجها ولا تدعى علىّ بالويل والثبور ان أنا هلكت ● وأصبح الحسين وقد أمر أصحابه أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض وأن يدخلوا الاطناب بعضها فى بعض ويكونوا بين أيدى البيوت فيستقبلون القوم من وجه واحد والبيوت على أيمانهم وعن شمائلهم ومن ورائهم وباتوا ليلتهم تلك وفى غداة السبت وقيل الجمعة يوم عاشوراء خرج عمر بن سعد فيمن معه من الناس وعبى الحسين أصحابه وهم اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا فجعل زهير بن القين فى ميمنة أصحابه وحبيب بن مطهر فى ميسرتهم وأعطى رايته العباس أخاه وجعلوا البيوت فى ظهورهم ثم ركب دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه ونادى الحسين عمر وأصحابه ونهاهم عن قتاله وبالغ فى النهى وقال دعونى أنصرف الى مأمنى من الارض فقال له قيس بن الاشعث أولاتنزل على حكم ابن عمك يعنى ابن زياد فانك لن ترى الا ماتحب فقال له الحسين أنت أخو أخيك أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم ابن عقيل لاوالله ولا أعطيهم بيدى عطاء الذليل ولاأقر اقرار العبد ثم التفت الى القوم وقال

عباد

عباد الله انى عـذت بربى وربكم أن ترجمونى أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ثم أناخ راحلته ونزل عنها وخرج زهير بن القين أحد أصحابه على فرس له فى السلاح فقال مقالة طويلة ونهى أصحاب يزيد عن القتال وجعل يعرّض بذكر ابن زياد ويسبه فغضب القوم ومالوا على زهير بالسب والشتم وقالوا والله لانبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ونبعث به وبأصحابه الى الامير عبيدالله بن زياد

ورتب عمر أصحابه وأحكم ترتيبهـم ثم اشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس وكثر الرمى بالنبال والحجارة وسالت الدماء وحملت رجال عمر بن سعد على أصحاب الحسين فأعملوا فيهم السيف حتى أفنوهم واشتد العطش بالحسين فدنا من الفرات ليشرب فرماه حصين بن نمير بسهم فوقع فى فمه فجعل يتلقى الدم بيده ورمى به الى السماء وقال اللهم انى أشكو اليك مايصنع بابن بنت نبيك اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولاتبق منهم أحدا ثم ان شمر ابن ذى الجوشن أقبل فى نفر نحو العشرة من رجالهم نحو منزل الحسين فحالوا بينه وبين رحله وأحاطوا بالحسين وهو يطاردهم ويدفعهم عنه فنادى شمر فى الناس ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم فحملوا عليه من كل جانب وطعنه سنان بن أنس النخعى برمح فوقع يخبط فى دمه ونزل اليه فذبحه وأخذ رأسه فرفعه الى خولى وسلب الحسين ما كان عليه ومال الناس على الفرش والحلل والابل فانتهبوها ونهبوا ثقله ومتاعه وما على النساء حتى ان كانت المرأة لتنزع ثوبها من ظهرها فيؤخذ منها ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية ثم انتهوا الى علىّ بن الحسين زين العابدين فأراد شمر قتله فمنع عمر بن سعد قتله ومنع الناس من الدخول الى بيوت النساء وانتدب عمر بن سعد المذكور عشرة من أصحابه فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره وكان عدة من قتل مع الحسين من أصحابه اثنين وسبعين رجلا منهم من أولاد علىّ أربعة العباس وجعفر ومحمد وأبو بكر ومن أولاد الحسين أربعة ثم ان عبيدالله بن زياد جهز علىّ بن الحسين ومن كان مع الحسين من النساء الى يزيد بن معاوية وهو يومئذ بدمشق مع شمر بن ذى الجوشن فى جماعة من أصحابه فساروا حتى قدموا دمشق ودخلوا على يزيد بن معاوية ومعهم رأس الحسين فرمى به بين يدى يزيد ثم تكلم شمر بن ذى الجوشن فقال ياأمير المؤمنين ورد علينا هذا يعنى الحسين فى ثمانية عشر رجلا من أهل بيته وستين من شيعته فسرنا اليهم وسألناهم النزول على حكم أميرنا عبيدالله بن زياد أو القتال فاختاروا القتال فغدونا عليهم عند شروق الشمس وأحطنا بهم من كل جانب فلما أخذت السيوف مأخذها جعلوا يلوذون كما يلوذ الحمام من الصقور فما كان الامقدار جزر جزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم فهاتيك أجسادهم مجردة وثيابهم مزملة وخدودهم معفرة تسفى عليهم الرياح زوارهم العقبان ووفودهم الرخم

فلما سمع يزيد ذلك دمعت عيناه وقال ويحكم قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل

الحسين لعن الله ابن مرجانة أما والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه ثم قال يرحم الله أبا عبد الله وتمثل بقول الشاعر

يفلقن هاما من رجال أعزة * علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ثم أمر بالذرية فادخلوا دار نسائه وكان يزيد اذا حضر غداؤه دعا علىّ بن الحسين وأخاه عمر بن الحسين فأكلا معه ثم وجه الذرية صحبة علىّ بن الحسين الى المدينة ووجه رجلا فى ثلاثين فارسا يسير أمامهم حتى انتهوا الى المدينة * قال أصحاب التاريخ * وكان بين وفاة صاحب الشريعة وبين اليوم الذى قتل فيه الحسين خمسون عاما وقيل ان الحسين لما وصل كربلا سأل عن اسم المكان فقيل له كربلا فقال ذات كرب وبلاء لقد مر أبى بهذا المكان عند سيره الى صفين وأنا معه فوقف وسأل عنه فأخبروه باسمه فقال ههنا محط رحالهم وههنا مهراق دمائهم فسئل عن ذلك فقال نفر من آل محمد ينزلون ههنا ثم أمر بأثقاله فحطت فى ذلك المكان * وكان قتل الحسين يوم عاشوراء سنة ستين للهجرة وقيل احدى وستين أى نحو سنة ثمانين وستمائة ميلادية ذكره أبو حنيفة فى الاخبار الطوال وقتل مع الحسين فى هذه الواقعة سبعون رجلا وقتل معه العباس بن علىّ وأمه أم البنين بنت حزام وقتل جعفر بن على وأمه أم البنين أيضا وقتل عبدالله بن على وأمه أم البنين أيضا وقتل عثمان بن علىّ وأمه أم البنين أيضا وقتل محمد بن علىّ وأمه أم ولد وقتل أبو بكر بن علىّ وأمه ليلى بنت مسعود الدارمية وقتل علىّ بن الحسين بن علىّ وأمه ليلى ابنة أبى مرة بن عروة الثقفى وقتل عبدالله بن الحسين بن علىّ وأمه الرباب ابنة امرئ القيس الكلبى وقتل أبو بكر ابن أخيه الحسن وقتل القاسم بن الحسن وقتل عون بن أبى جعفر بن أبى طالب وقتل محمد ابن عبد الله بن جعفر وقتل جعفر بن عقيل بن أبى طالب وقتل عبد الرحمن بن عقيل وقتل عبد الله بن عقيل وقتل مسلم بن عقيل بالكوفة كما تقدم القول وقتل عبد الله بن مسلم بن عقيل وقتل محمد بن أبى سعيد بن عقيل * وفى هذه السنة أى سنة ستين دعا ابن الزبير الى نفسه بالخلافة بمكة وعاب يزيد بشرب الخمر واللعب بالكلاب والتهاون بالدين وأظهر ثلبه وتنقصه فبايعه أهل تهامة والحجاز * فلما بلغ يزيد ذلك ندب له الحصين بن نمير السكونى وروح بن زنباع الجذامى وضم الى كل واحد جيشا واستعمل على الجميع مسلم بن عقبة المزى وجعله أمير الامراء ولما ودعهم قال يامسلم لاتردون أهل الشام من شئ يريدونه بعدوهم واجعل الطريق على المدينة فان حاربوك فحاربهم فان ظفرت بهم فأبحها ثلاثا فسار مسلم بن عقبة حتى نزل الحرة فخرج أهل المدينة وعسكروا بها وأميرهم عبد الله بن حنظلة وهو غسيل الملائكة فدعاهم مسلم ثلاثا فلم يجيبوه فقاتلهم فغلب أهل الشام وقتلوا أمير المدينة عبد الله بن حنظلة وسبعمائة من المهاجرين والانصار ودخل مسلم المدينة وأباحها ثلاثة أيام ثم شخص بالجيش الى مكة وكتب الى يزيد بما صنع بالمدينة فلما بلغ مسلم (هرشى) اعتل ومات فتولى امرة الجيش الحصين بن نمير السكونى فسار حتى

وافى مكة فتحصن منه ابن الزبير فى المسجد الحرام بجميع من كان معه فنصب الحصين المنجنيق على أبى قبيس ورمى به الكعبة فبينماهم كذلك إذ ورد الخبر للحصين بموت يزيد بن معاوية فأرسل الى ابن الزبير يسأله الموادعة فأجابه الى ذلك وفتح الابواب واختلط العسكران يطوفان بالبيت فبينما الحصين يطوف ليلة بعد العشاء اذ استقبله ابن الزبير فأخذ الحصين بيده وقال له سرًّا هل لك فى الخروج معى الى الشام فأدعو الناس الى بيعتك فان أمرهم قد مرج ولاأدرى أحدا أحق بها اليوم منك ولست أعصى هناك فاجتذب ابن الزبير يده وقال وهو يجهر بقوله دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام فقال الحصين لقد كذب الذى يزعم أنك من دهاة العرب أ كلك سرا فتكلمنى علانية وأدعوك الى الخلافة وتدعونى الى الحرب ثم انصرف بمن معه الى الشام

ومات يزيد بن معاوية فى ربيع الاول سنة أربع وستين أى سنة ثلاث وثمانين وستمائة للميلاد ودفن بمقبرة باب الصغير وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر وقيل وثمانية أشهر وترك من البنين أحد عشر ذكرا لامهات شتى * ومما يحكى عن نجابته وشدة حذقه ماقاله محمد بن عبيد الله بن عمرو العتبى قال * نظر معاوية ومعه امرأته ابنة قرظة الى يزيد وأمه ترجله فلما فرغت منه قبلته فقالت ابنة قرظة لعن الله سواد ساقى أمك فقال معاوية أماوالله لما تفرجت عنه وركاها خير مما تفرجت عنه وركاك وكان لمعاوية من ابنة قرظة عبد الله وكان أحمق فقالت له لا والله ولكنك تؤثر هذا فقال سوف أبين لك ذلك فأمر فدعى له عبدالله فلما حضر قال أى بنىّ انى أردت ان أعطيك ماأنت أهله ولست بسائل شيأ الا أجبتك اليه فقال حاجتى أن تشترى كلبا فارها وحمارا فقال أى بنىّ أنت حمار وأشترى لك حمارا قم فاخرج * ثم أحضر يزيد وقال له مثل قوله لاخيه فخر ساجدا ثم قال حين رفع رأسه الحمد لله الذى بلغ أمير المؤمنين هذه المدة وأراه فى هذا الرأى حاجتى أن تعتقنى من النار لان من ولى أمر الامة ثلاثة أيام أعتقه الله من النار فتعقد لى العهد بعدك وتوليق العام الصائفة وتأذن لى فى الحج اذا رجعت وتولينى الموسم وتزيد لاهل الشام كل رجل عشرة دنانير وتفرض لايتام بنى جمح وبنى سهم وبنى عدى لانهم حلفائى * فقال معاوية قد فعلت وقبل وجهه ثم نظرالى امرأته ابنة قرظة وقال كيف رأيت فقالت أوصه به يا أمير المؤمنين قبل فعل * وله لطائف أخرى واستعمل فى أيامه على مصر فى أواخر سنة اثنتين وستين سعيد بن يزيد بن علقمة الازدى فبقى الى خلافة الزبير وعزل

ومات فى أيامه أغاثو بطرك الاسكندرية تاسع ثلاثيهم بعد أن أقام سبع عشرة سنة ولم يحدث فى أيامه شئ يذكر فاقيم بعده يوحنا وهو الاربعون من بطاركتهم وأصله من مدينة سمنود وفى أيامه صارت الشدة على النصارى وعظم عليهم الخطب واشتد الكرب وكثر البلاء وتتبعهم أهل الفساد بالقتل والنهب والسلب فكان حازما وقورا صبورا لايتزعزع حسن السياسة كثيرالتفكر

ولما مات يزيد تولى الخلافة بعده ابنه معاوية



(الفصل الثالث)

(فى خلافة معــاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيــان)

ثم قام بالامر بعد يزيد معاوية ابنه بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة أربع وستين هجرية أى نحو ثلاث وثمانين وستمائة ميلادية فأقام فيها أربعين يوما وكان خيرا من أبيه فيه دين وعقل وقيل أقام خمسة أشهر وأياما ثم خلع نفسه عن رضا ورغبة * قال أصحاب التاريخ * ان معاوية بن يزيد هذا لما خلع نفسه صعد المنبر فجلس طويلا ثم حمد الله وأثنى عليه بأبلغ مايكون من الحمد والثناء ثم ذكر النبى بأحسن مايذكر به ثم قال * أيها الناس ماأنا بالراغب فى الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم وانى لأعلم أنكم تكرهوننا أيضا لانا بلينا بكم وبليتم بنا الا أن جدى معاوية رضى الله عنه قد نازع فى هـذا الامر من كان أولى به منه ومن غيره لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعظم فضله وسابقته أعظم المهاجرين قدرا وأشجعهم قلبا وأكثرهم علما وأولهم ايمانا وأشرفهم منزلة وأقدمهم صحبة ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وأخوه زوجه صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة وجعله لها بعلا باختياره لها وجعلها له زوجة باختيارها له أبو سبطيه وسيدى شباب أهل الجنة وأفضل هذه الامة تربية الرسول وابنى فاطمة البتول من الشجرة الطيبة الطاهرة الزكية فركب جدى معه ماتعلمون وركبتم معه مالا تجهلون حتى انتظمت لجدى الامور فلما جاءه القدر المحتوم واخترمته أيدى المنون بقى مرتهنا بعمله فريدا فى قبره ووجد ماقدمت يداه ورأى ماارتكبه واعتداه ثم انتقلت الخلافة الى يزيد أبى فتقلد أمركم لهوى كان أبوه فيه ولقد كان أبى يزيد بسوء فعله واسرافه على نفسه غير خليق بالخلافة على أمة محمد فركب هواه واستحسن خطاه وأقدم على ماأقدم من جراءته على الله وبغيه على من استحل حرمته من أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت مدته وانقطع أثره وراجع عمله وصار حليف حفرته رهين خطيئته وبقيت أوزاره ومعايبه وحصل على ندم وندم حيث لاينفعه الندم وشغلنا الحزن له عن الحزن عليه فليت شعرى ماذا قال وماذا قيل له هل عوقب باساءته وجوزى بعمله وذلك ظنى * ثم اختنقته العبرة فبكى طويلا وعلا نحيبه * ثم قال وصرت أنا ثالث القوم والساخط على أكثر من الراضى وما كنت لاتحمل آثامكم ولا يرانى الله جلت قدرته متقلدا أوزاركم وألقاه بتبعاتكم فشأنكم أمركم فخذوه ومن رضيتم به عليكم فولوه فلقد خلعت بيعتى من أعناقكم والسلام * فقال له مروان بن الحكم وكان تحت المنبر أسنة عمرية بالبالى * فقال اعزب عنى أعن دينى تخدعنى فوالله ماذقت حلاوة خلافتكم حتى أتجرع مرارتها ائتنى برجل مثل رجال عمر رضى الله تعالى عنه على أنه ما كان من حين جعلها شورى وصرف بها عمن لايشك فى عدالتـه ظلوما والله لئن كانت الخلافة مغنما لقد نال أبى منها

معرما

مغرما ومأثما ولئن كانت سوأ فحسبه منا ماأصابه * ثم نزل فدخل عليه أقاربه وأمه فوجدوه يبكى فقالت له أمه * ليتك كنت حيضة ولم أسمع بخبرك * فقال وددت والله ذلك * ثم قال ويلى ان لم يرحمنى الله * ثم ان بنى أمية قالوا لمؤدبه عمر المقصوص أنت علمته هذا ولقنته اياه وصرفته عن الخلافة وزينت له حب على وأولاده وحملته على ماوسمتنا به من الظلم وحسنت له البدع حتى نطق بما نطق وقال بما قال فقال والله مافعلته ولكنه مجبول ومطبوع على حب على فلم يقبلوا منه ذلك وأخذوه ودفنوه حيا حتى مات

وتوفى معاوية بن يزيد بعد خلعه نفسه باربعين ليلة وقيل بتسعين وكان عمره ثلاثا وعشرين سنة وقيل احدى وعشرين سنة وقيل ثمان عشرة ولم يعقب واجتمع بنو أمية وانتخبوا مروان بن الحكم ليقوم بالامر بعده وكان ذلك فى سنة أربع وستين للهجرة

(الفصل الرابع)

(فى خلافة مروان بن الحكم المعروف بالطريد)

ثم قام بالامر بعد معاوية مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بويع له بالخلافة بالجابية سنة أربع وستين للهجرة أى سنة ثلاث وثمانين وستمائة للميلاد ثم دخل الشام فاذعن أهلها له بالطاعة وكان يقال له ابن الطريد لان صاحب الشريعة كان قد طرد أباه الى الطائف ورده عثمان حين ولى وكان مروان قد لحق صاحب الشريعة وهو صبى وولى نيابة المدينة مرات وهو قاتل طلحة أحد العشرة وكان كاتب السر لعثمان وبسببه جرى عليه ماجرى كما تقدم الكلام عنه * ولما بويع لمروان بالشام قام أهل مكة بمبايعة عبدالله بن الزبير وكان مروان وقتئذ بالمدينة فقصد السير الى عبدالله ومبايعته فسار مع من سار من بنى أمية الى الشام * وبايع لابن الزبير أهل البصرة واجتمعت له أهل الحجاز واليمن وبعث الى بلاد العراق فبايعه أهلها وبايع له فى الشام سرا الضحاك بن قيس بحمص النعمان بن بشير الانصارى وبقنسرين زفر بن الحارث قال بعض أهل التاريخ ولو صانع الزبير بنى أمية قليلا لاستقر له الامر * وكان ابن الزبير شجاعا كثير العبادة هذا ما كان من أمر ابن الزبير * أما ماكان من أمر بنى أمية فانهم لم يقبلوا به وكان مروان كما تقدم القول بالشام فاجتمع بنو أمية وافترق أهل الشام الى يمانية مع مروان والى قيسية مع الضحاك بن قيس وجرت بينهما أمور يطول شرحها ثم اقتتلوا بمرج راهط قتالا شديدا فانهزم الضحاك وأصحابه شر هزيمة وقتل كثير من فرسان قيس وقتل الضحاك وقتل معه أيضا ثمانون رجلا من أشراف أهل الشام وذلك فى المحرم سنة خمس وستين وقيل فى أواخر سنة أربع وستين ودخل * مروان دمشق وذهب الى دار الخلافة واجتمع اليه الناس وانحاز له زفر بن الحرث وكان بقنسرين يبايع لابن الزبير

واستوثق الشام لمروان والحجاز والعراق واليمن لابن الزبير فلما استقر مروان بالشام ودانت له أمورها سار الى مصر فقدمها وعليها عبد الرحمن بن جحدم القرشي يدعو الى ابن الزبير فخرج الى مروان فيمن معه فبعث مروان عمرو بن سعيد من وراء عبد الرحمن حتى دخل مصر فأمسى عبد الرحمن وكأنه بين منتطح عنزين فلما أحس بذلك رجع خائبا فبايع الناس مروان ودانت له الامور بمصر أيضا كما دانت له بالشام

وفي هذه الايام هدم ابن الزبير الكعبة وحفر أساسها وأدخل الحجر الاسود فيها وأعادها الى ما كانت عليه فأمر مروان قومه بان لايحجوا الى هنالك بل الى جامع عمر بالقدس وانقسم عرب الشام مع مروان وبني فاطمة فقام مروان ومزق الفاطميين وأبادهم وتفرغ لحرب الشيعة من العجم فبددهم أيضا من سهول عين ومازال حتى استقبله الامر ودانت له المصاعب * فلما كانت سنة خمس وستين هجرية رسم بالبيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز وكان السبب في ذلك أن عمرو بن سعيد بن العاص لما هزم مصعب بن الزبير عند ماوجهه أخوه عبد الله الى الشام لقتال معاوية ومن معه من الاحزاب ورجع عمرو الى دمشق ظافرا غانما بلغ مروان أن عمرا يقول ان الامر لي من بعد مروان فأكبر ذلك جدا وأرسل في طلب حسان بن مالك بن بحدل فلما حضر اليه أخبره بخبر عمرو ومايقوله وقال انى أريد أن أبايع ولدى عبد الملك وعبد العزيز فقال له حسان أنا أكفيك عمرا فلما اجتمع الناس عند مروان عشيا قال * انه قد بلغنا أن رجالا يتمنون أماني * قوموا فبايعوا لعبد الملك وعبد العزيز من بعده فقاموا جميعا لساعتهم و بايعوا عن آخرهم وكان مروان قبلا قد حلف أنه بعهد لخالد بن يزيد فعتب عليه خالد فغضب وسماه ابن زانية وكان مروان متزوجا بام خالد بن يزيد المذكور فقام خالد ودخل على أمه فأخبرها بما كان من مروان فقالت له لايعلمن ذلك منك الا أنا أنا أكفيكه فدخل عليها مروان فقال لها هل قال لك خالد فيّ شيأ فقالت لا انه أشد لك تعظيما من أن يقول فيك شيأ فصدقها ولبث أياما * ثم انه نام عندها ليلة فقامت عليه ووضعت على وجهه رداء مشربا بالسم وفوق الرداء وسادة ثم جلست فوقها حتى مات فكانت خلافته عشرة أشهر وقيل تسعة أشهر وعمره ثلاث وستون سنة وقيل احدى وستون سنة * روى الحاكم في كتاب الفتن والملاحم من المستدرك عن عبد الرحمن بن عوف قال * كان لايولد لاحد مولود الا أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدعو له فأدخل عليه مروان بن الحكم فقال هو الوزغ ابن الوزغ الملعون بن الملعون اهـ وكان مروان قصيرا أحمر أوقص يكنى أبا الحكم وأبا عبد الملك قيل وأعتق في يوم واحد مائة رقبة وهو أول من قدم الخطبة في صلاة العيد قبل الصلاة ولما مات بويع لولده عبد الملك في اليوم الذى مات فيه

(الفصل)

(الفصل الخامس)

(في خلافة عبد الملك بن مروان)

ثم قام بالامر بعد مروان ابنه عبد الملك بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة ست وستين الهجرة أى سنة خمس وثمانين وستمائة للميلاد وهو أول من سمى بعبد الملك فى الاسلام وأول من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الاسلام وكان على الدنانير قبل ذلك نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية * قيل انه لما أتته الخلافة كان قاعدا والمصحف فى حجره فأطبقه وقال هذا آخر العهد بك * وكان عامله بمصر أخوه عبد العزيز بطاعة عبد الملك ولم يكد يستتب له الامر بالشام ومصر حتى خرج فى سنة ست وستين المختار من العلوية بالكوفة وأراد الاخذ بثار الحسين فبايعه الناس واجتمع اليه خلق كثير واستولى على الكوفة وأراد الاخذ بدم أهل البيت وطلب شمر بن ذى الجوشن فظفر به وقتله وأحاط بدار خولى الاصبحى صاحب رأس الحسين وقتله وأحرقه بالنار ثم قتل عمرو بن سعد بن أبى وقاص صاحب الجيش الذى قتل الحسين وقتل جعفر بن عمرو المذكور وبعث برأسيهما الى محمد بن الحنفية بالحجاز واتخذ له كرسيا وادّعى أن فيه من السر ما كان فى تابوت عهد بنى اسرائيل ومن خبر هذا الكرسى ماهو غريب * قال الطفيل بن جعدة بن هبيرة أضقنا اضاقة شديدة * يعنى أنه كان فى حاجة القوت * فخرجت يوما فاذا بجار لى زيات عنده كرسى ركبه الوسخ فقلت فى نفسى لو قلت للمختار فى هذا شيأ فأخذته من الزيات وغسلته فخرج عود نضار قد شرب الدهن وهو يبض قال الراوى فقلت للمختار انى كنت أكتمك شيأ وقد بدالى أن أذكره لك * ان أبى جعدة كان يجلس على كرسى عندنا ويروى أن فيه أثرا من على قال سبحان الله أخرته الى هذا الوقت ابعث به فأحضرته عنده وقد غشى فأمر لى باثنى عشر ألفا ثم دعا الصلاة جامعة فاجتمع الناس فقال المختار انه لم يكن فى الامم الخالية أمر الا وهو كائن فى هذه الامة مثله وانه كان فى بنى اسرائيل التابوت وان هذا فينا مثل التابوت فكشفوا عنه وقامت السبئية فكبروا ثم لم يلبثوا أن أرسل المختار الجند لقتال ابن زياد وخرج بالكرسى على بغل وقد غشى فقتل أهل الشام مقتلة عظيمة فزادهم ذلك فتنة وكبر اعتقادهم فى ذلك الكرسى وارتفعوا حتى تعاطوا الكفر قال ابن جعدة فندمت على ماصنعت اه ثم أرسل المختار عسكرا لقتال عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان وكان عبيدالله واليا على البصرة فولاه يزيد على الكوفة فقدم عليها ليرى ما كان الناس عليه وهو الذى قتل مسلم بن عقيل بن أبى طالب الذى كان الحسين قد أرسله الى الكوفة ليأخذ له البيعة كما تقدم بيان هذا كله فى محله وكان المختار قد استولى على الموصل لما أرسل لقتال عبيدالله وقدم على الجيش ابراهيم بن الاشتر فاقتتلوا قتالا شديدا وانهزم أصحاب ابن زياد وقتل وكان القاتل له ابراهيم المذكور وأخذ رأسه ثم أحرقوا جثته بالنار ورميت بالتراب

وولى ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة فاستدعى مصعب المهلب بن أبي صفرة من خراسان فأتاه بمال ورجال كثيرة وسارا الى قتال المختار وحصراه فى قصر الامارة بالكوفة وما زالا يقاتلانه حتى قتل المختار وأصحابه وكانوا سبعة آلاف وكان عبد الملك بن مروان يراقب الفرص ويتحين انتفاعها فلما علم بظفر مصعب وقتله للمختار خشى استفحال أمر مصعب واتساع كلمته فتجهز وسار فى جيش عظيم الى العراق فالتقى الجمعان واقتتلا وكان أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك سرا فتخلفوا عن مصعب وقتل مصعب وابنه بدير الجاثليق عند نهر دجيل وله من العمر ست وثلاثون سنة وكان مصعب هذا صديق عبد الملك قبل خلافته فدخل عبد الملك الكوفة وبايعه الناس واستوثق ملك العراق واستناب عليها أخاه بشر بن مروان وكر راجعا الى دمشق ثم جهز الحجاج بن يوسف الثقفى فى جيش لحرب ابن الزبير وكان السبب فى تسيير الحجاج المذكور دون غيره أن الحجاج قال لعبد الملك قد رأيت فى المنام انى أخذت عبدالله بن الزبير فسلخته فابعثنى اليه وولنى قتاله فبعثه فى ثلاثة آلاف من أهل الشام وكتب معه أمانا لابن الزبير ومن معه ان أطاعوا فسار فى جمادى الاولى سنة اثنتين وسبعين ولم يتعرض للمدينة ونزل الطائف فكان يبعث الخيل الى عرفة ويبعث ابن الزبير أيضا فيقتتلون بعرفة فتنهزم خيل ابن الزبير فى كل ذلك وتعود خيل الحجاج بالظفر ثم كتب الحجاج الى عبد الملك يستأذنه فى دخول الحرم وحصر ابن الزبير ويخبره بضعفه وتفرق أصحابه ويستمده فكتب عبد الملك الى طارق يأمره باللحاق بالحجاج فقدم المدينة فى ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين وأخرج عامر بن الزبير عنها وجعل عليها رجلا من أهل الشام اسمه ثعلبة فكان ثعلبة يخرج المخ وهو على منبر صاحب الشريعة ثم يأكله ويأكل عليه التمر ليغيظ أهل المدينة وكان مع ذلك شديدا على أهل الزبير ‌* وقدم طارق على الحجاج بمكة فى سلخ ذى الحجة فى خمسة آلاف فحاصر الحجاج ومن معه ابن الزبير ونصب المنجنيق على أبى قبيس وهو جبل هنالك ورمى به الكعبة وحج ابن عمر تلك السنة فأرسل الى الحجاج يقول اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فانك فى شهر حرام وبلد حرام وقد منعت الناس عن الطواف فبطل الرمى حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسعوا فنادى منادى الحجاج انصرفوا الى بلادكم فانا نعود بالحجارة على ابن الزبير الملحد فكانت الحجارة تقع بين يدى ابن الزبير وهو يصلى فلا ينصرف وكان أهل الشام يقولون عند الرمى بالمنجنيق هذه العبارة

* يابن الزبير طالما عصيكا * وطالما عنيتنا اليكا * لتجزين بالذى أتيكا *

يعنون عصيت وأتيت * وطال القتال بين الفريقين واشتد الشاميون أصحاب الحجاج على ابن الزبير وأصحابه فغلت الاسعار عنده وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح فرسه وقسم لحمها فى أصحابه وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمد الذرة بعشرين درهما وكانت بيوت ابن الزبير مملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمرا * وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده وكان يحفظ ذلك ولا ينفق منه الا بما يمسك الرمق ويقول نفوس أصحابى قوية مالم يفن * فلما كان

قبيل

قبيل مقتله تفرق الناس عنه وخرجوا الى الحجاج بالامان فكانوا نحو عشرة آلاف فلما تفرق
أصحابه عنه خطب الحجاج الناس وقال * قد ترون قلة من مع ابن الزبير وما هم عليه من الجهد
والضيق ففرح أصحاب الحجاج واستبشروا وتقدموا فملؤا ما بين الحجون الى الابواء فقال ابن
الزبير الامر ودخل على أمه فقال يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى الا
اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونى ما أردت من الدنيا فما رأيك
فقالت أنت أعلم بنفسك ان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو فامض له فقد قتل عليه
أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية وان كنت انما أردت الدنيا فبئس
العبد أنت أهلكت نفسك ومن قاتل معك وان قتلت كنت على حق فلما وهن أصحابك
ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين كم خلودك فى الدنيا القتل أحسن فقال يا أماه
أخاف ان قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى قالت يا بنى ان الشاة لا تتألم بالسلخ فامض
على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وخرج يقاتل الحجاج وطارقا وأصحابهما فكانت مدة
القتال أربعة أشهر وقيل سبعة وبينما هو يحمل عليهم سقطت عليه شرافة من شراريف
المسجد فخر منها فبادروا اليه واحتزوا رأسه وذلك يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة من السنة
المذكورة وله ثلاث وسبعون سنة * وسير الحجاج رجلين الى عبد الملك بالخبر فلما شاع الخبر بين
أهل الشام كبروا وفرحوا بقتله وأمر الحجاج بجثته فصلبوها على الثنية اليمنى بالحجون قبل
وكان ابن الزبير قبل موته بقى أياما يستعمل الصبر والمسك لئلا ينتن فلما صلب ظهرت منه
رائحة المسك فقيل ان الحجاج صلب معه كلبا ميتا فغلب على ريح المسك وقيل بل صلب معه
سنورا * قال بعض أصحاب التاريخ ولما قتل عبدالله ركب أخوه عروة ناقة ليس لها مثيل
فسار الى عبد الملك فقدم الشام قبل وصول رسل الحجاج بخبر قتل عبدالله فأتى باب عبد الملك
فاستأذن فأذن له فلما دخل سلم عليه بالخلافة فرد عليه عبد الملك السلام ورحب به وعانقه
وأجلسه على السرير فقال عروة

متت بأرحام اليك قريبة * ولا قرب للارحام مالم تقرب

ثم تحدثا حتى جرى ذكر عبدالله فقال عروة انه كان فقال عبدالملك وما فعل قال قتل
فخر ساجدا فقال عروة ان الحجاج صلبه فهب جثته لامه فقال نعم وكتب الى الحجاج يعظم
صلب عبدالله وكان الحجاج لما غاب عروة كتب الى عبد الملك يقول له ان عروة كان مع
أخيه فلما قتل عبد الله أخذ مالا من مال الله فهرب فكتب اليه عبد الملك انه لم يهرب
ولكنه أتانى مبايعا وقد أمنته وحللته مما كان وهو قادم عليك فاياك وعروة * وعاد عروة الى
مكة وسلم الى الحجاج كتاب عبدالملك فأنزل الحجاج جثة عبدالله ودفعها الى أمه فغسلته ودفنته
وقيل ألقيت جثته فى مقابر اليهود ثم دخل الحجاج مكة فأخذ البيعة من أهلها لعبد الملك
ابن مروان وأمر بكنس المسجد الحرام من الحجارة والدم وسار الى المدينة وكان عبد الملك قد
استعمله على مكة والمدينة فكانت خلافة ابن الزبير بالحجاز واليمن تسع سنين لاغير

ودانت لعبد الملك الامور فعلت كلمته وكبرت هيبته وقاتل الخوارج من أصحاب العباسيين وأقام المستشفيات للرضى والخانات للغرباء بدمشق فامتلأت فى عهده وكثرت بعد ذلك فى جميع بلاد المسلمين وقد كانت لاتعرف قبله * ولما كانت سنة اثنتين وثمانين هم عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد ومبايعة ابنه الوليد وكان عبدالعزيز يومئذ عاملا على مصر فكلم قبيصة بن ذؤيب فى ذلك وكان قبيصة المذكور صاحب الخاتم فنهاه قبيصة عن ذلك وقال لاتفعل فانك تبعث على نفسك صوت عاد ولعل الموت يأتيه فتكف عبد الملك عن أخيه وفى نفسه مافيها وبينماهو على هذا الحال اذ دخل عليه روح بن زنباع وكان روح هذا أجل الناس عند عبدالملك فكلمه عبد الملك فى ذلك فقال يا أمير المؤمنين لوخلعته ما انتطح فيه عنزان وأنا أول من يجيبك الى ذلك ففرح عبد الملك وقال نصبح انشاء الله وبات روح عند عبد الملك ليلته تلك فدخل عليهما قبيصة بن ذؤيب وقد جاءه الخبر بموت عبد العزيز فلما دخل سلم عليهما فقال عبدالملك ماوراءك ياقبيصة قال آجرك الله فى عبد العزيز أخيك قال هل توفى قال نعم فاسترجع ثم أقبل على روح وقال كفانا الله ما كنا نريد فقال قبيصة ياأمير المؤمنين ان الرأى كله فى الاناة فقال عبدالملك وربما كان فى العجلة خير * وكانت وفاة عبد العزيز فى جمادى الاولى فى مصر سنة خمس وثمانين فضم عبدالملك عمله الى ابنه عبد الله وولاه مصر وكان حين ولى على مصر حدثا فكان أهل مصر يسمونه تكيس قاله ابن خلكان وقيل ان الحجاج كتب الى عبد الملك يزين له بيعة الوليد وسير اليه فى ذلك وفدا فلما أراد عبد الملك خلع عبدالعزيز والبيعة للوليد كتب الى عبد العزيز يقول رأيت أن يصير هذا الامر لابن أخيك فأبى فكتب اليه ليجعل الامر له ويجعله له أيضا من بعده فكتب اليه عبد العزيز انى أرى فى ابنى أبى بكر ماترى فى الوليد فكتب اليه عبدالملك ليحمل له خراج مصر فأجابه عبدالعزيز * انى واياك ياأمير المؤمنين قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك الا كان بقاؤه قليلا وانا لاندرى أينا يأتيه الموت أولا فان رأيت أن لاتفسد على بقية عمرى فافعل فرق له عبدالملك وتركه وكان عبد الملك قبل الخلافة متعبدا ناسكا عالما تقيا واسع العلم حازما لايكل أمره الى سواه محبا للفخر مقداما على سفك الدماء ولذلك كان عماله الحجاج بالعراق ومحمد بن يوسف أخو الحجاج باليمن ومحمد بن مروان بالجزيرة وكل من هؤلاء ظلوم غشوم جبار * قال الليث بن سعد * وعبدالله ابن عبد الملك أول من نقل فى عمالته على مصر الدواوين الى العربية وانما كانت بالقبطية (قلت) وقد قال بعض أصحاب التاريخ انها بقيت بالقبطية والعربية معا زمنا طويلا حتى زالت القبطية من جميع الدواوين وبقيت العربية فاشية الى يومنا الذى نحن فيه * وهو أول من نهى الناس عن لباس البرانس وشدد فى المنع وأقام الى سنة تسعين هجرية أى سنة عشر وسبعمائة ميلادية حتى عزله أخوه الوليد

ومن غريب ماسمع فيما حكاه ابن خلكان أن على بن عبدالله بن عباس ومحمدا ابنه دخلا على عبد الملك بن مروان وعنده قائف فأجلسهما ثم قال للقائف أتعرف هذا قال لاولكن

أعرف

أعرف من أمره أن هـذا الذى معـه ابنه وانه يخرج من عقبه فراعنـة يملكون الارض لايناويهم مناو الا قتلوه فتغيرلون عبد الملك ثم قال زعم راهب إيليا وكان قد رآه عندى أنه يخرج من صلبه ثلاثة عشر ملكا ووصفهم بصفاتهم ● وذكر أبوحنيفة فى الاخبار الطوال أن عبد الملك أوصى ابنه الوليد لما ثقل فى مرضه فقال ياوليد لاألفينك اذا وضعتنى فى حفرتى تعصر عينيك كالامـة الولهاء بل اتزر وشمر والبس جلد النمر وادع الناس الى البيعة فمن قال برأسه كذا أى لا فقل بالسيف كذا أى اضرب عنقه اه

وكان عبد الملك طويل العنق رقيق الوجه مشدود الاسنان بالذهب شديد البخل يلقب برشح الحجر لبخله ويلقب أيضا بأبى ذباب لبخره وكان يلقب بحمامة المسجد لقبه به ابن عمر قيل لابن عمر أرأيت لوتفانى أصحاب صاحب الشريعة فمن نسأل بعدهم فقال سلوا هذا الفتى يعنى عبد الملك ● وحج بالناس عبد الملك فخطب الناس بالمدينة فقال بعد حمدالله والثناء عليه أما بعـد فانى لست بالخليفة المستضعف يعـنى عثمان ولابالخليفة المداهن يعـنى معاوية ولابالخليفة المأفون يعنى يزيد ألا وانى لاأداوى هذه الامة الابالسيف حتى تستقيم لى قناتكم وانكم تحفظون أعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثـل أعمالهم وانكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم والله لايأمرنى أحد بتقوى الله بعـد مقامى هذا الا ضربت عنقه ثم نزل فأكبر الناس أمره ● ومات عبـد الملك فى شوال سـنة ست وثمانين وقيـل سـنة خمس وثمانين هجرية أى سنة أربع وسبعمائة ميلادية وله ثلاث وستون سـنة وقيل ستون سنة وخلف سبعة عشر ولدا ولى الخلافة منهم أربعة وكانت خلافته احدى وعشرين سـنة وخمسة عشر يوما منها ثمان سـنين مزاحما لابن الزبـير ثم انفرد بالملك الى أن مات وكان عاقـلا حازما أديبا لبيبا عالما قال عمـران بن موسى المـؤدب كان يروى أن عبـد الملك المذكور لما اشتد مرضـه قال ارفعونى على شرف ففعلوا ذلك فتنسم الروح ثم قال ياذنيا ما أطيبك ان طويلك لقصـير وان كبيرك لحقير وان كنا منك لفى غرور وتمثل بهذين البيتين

ان تناقش يكن نقاشـك يارب عـذابا لاطوق لى بالعذاب
أوتجاوز فانت رب صـفوح ● عـن مسئ ذنوبه كالـتراب

ويروى أن هذه الابيات تمثل بها معاوية

وفى أيامـه مات يوحنا بطرك الاسكندرية فكانت مدته ثمان سنين وفى أيامـه صارت الشدة على النصارى وكبر عليهم الامر وعظم الخطب وكانت أيام هذه الشدائد طويلة فأقيم بعده ايسالك وهو اسحق وكان متأصلا وهو حادى أربعيهم وأصـله من اقليم الغربيـة فأقام سنتين وأحـد عشر شهرا وفى رواية سنتين فقط ومات وكان تقيا وهو الذى أعاد الصلح بين ملك الحبشة وملك النوبة وعمل على اعزاز الدين وجمع المتشردين من المسيحيين فأقيم بعـده سيمون وهو سمعان وكان متأصـلا من اقليم الشرقيـة ويلقب بالسريانى وهو ثانى أربعيهم

فأقام بطركا سبع سنين وقيل سبع سنين وستة أشهر ومات وفى أيامه قدم رسول أهل الهند فى طلب أسقف يقيمه لهم فامتنع من ذلك حتى أذن له الخليفة ففعل وكان ورعا تقيا جدا صالحا متعبدا ذكر انه دعا الله سبحانه وتضرع اليه فأحيا على يديه قبطيا كان ميتا وخلا الكرسى بعده ثلاث سنين بغير بطرك ثم قدم المتأصلون بعده الاكسندروس من أهالى تبامواسير وهو ثالث أربعيهم وكان راهبا فى دير الزجاج مرت به متاعب وشدائد عظيمة للغاية وقد صودر فيها مرتين أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار نقرة فكانت أول جزية أخذت من الرهبان خلافا للعهود * قال أصحاب التاريخ واشتد عبدالله بن عبد الملك بن مروان على القبط بمصر وضيق عليهم واقتدى به قرة بن شريك أيضا فى ولايته على مصر فقتلا وأحرقا وخربا وأراقا الدماء بحورا وأنزلا بالنصارى شدائد لم يبتلوا بمثلها فكانت أيامهما كلها بلايا واحنا ورزايا ومحنا

ولما مات عبد الملك بن مروان تولى الخلافة بعده ولده الوليد

(الفصل السادس)

﴿ فى خلافة الوليد بن عبد الملك ﴾

ثم قام بالامر بعد عبد الملك ابنه الوليد بعهد منه بويع له بالخلافة يوم مات والده فى شوال سنة ست وثمانين للهجرة أى سنة خمس وسبعمائة للميلاد ولم يدخل دار الخلافة حتى صعد المنبر فقال الحمد لله انا لله وانا اليه راجعون والله المستعان على مصيبتنا بأمير المؤمنين والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة قوموا فبايعوا فكان أول من عزى نفسه وهنأها وقيل انه لما صعد المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال * أيها الناس لا مقدم لما أخر الله ولا مؤخر لما قدم وهذا كان من قضاء الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه وهو الموت والمصار الى منازل الابرار وولى هذه الامة بالذى يحق لله عليه فى الشدة على المريب واللين لاهل الحق والفضل واقامة ما أقام الله من منار الاسلام وأعلامه من حج البيت وغزو الثغور وشن الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزا ولا مفرطا * أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فان الشيطان مع الفرد أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ومن سكت مات بدائه * ثم نزل وجعل يتصرف فى الامور وفتح الفتوحات العظام مثل الهند والأندلس واتسع ملكه فى الاندلس وافريقية اتساعا عظيما بما منحه لاهلها من الحرية والمساواة حتى ضعفت النصرانية فيها وانحسمت أو كادت تنحسم منها وانمحت آثارها من افريقية كلها وصار نصارى اسبانيا يختتنون ويمتنعون من شرب الخمر وأكل الخنزير ونحو ذلك من المحرمات الاسلامية حتى كان يقال لهم ميزارابى ومعناها ﴿انصاف عرب﴾ وحارب الروم وغزاهم عدة غزوات وامتد حكمه فى مسافة مائة يوم من المشرق الى المغرب من التتارية الهندية الى الاقيانوس وقد وصلت فتوحات

العرب

العرب ويمتد الى العجم والشام وافريقية وسردينيا واسبانيا ونحوها وامتدوا الى نواحى الصين وكان أهل سرقوسة وقرطبة وغيرهما يتكلمون بالعربية وهى فاشية بينهم

ورسم الوليد بالاقلاع عن استعمال اليونانية وأرقامها فى الحساب فامتدت لذلك الارقام الهندية التى تلقتها العرب عن الهنود وراجت بذلك الامور الحسابية واتسع نطاق الرياضة ونحوها وكان الوليد يركب المركوب الحسن الجيد ويتقى الركوب والسفر فى الحرب فى أيام معلومة فى كل شهر وينهى عن ذلك قال الحافظ ابن عساكر وكان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلفائهم بنى مساجد بدمشق وأعطى الناس وفرض للمجذومين وقال لاتسألوا الناس وأعطى كل مقعد خادما وكل أعمى قائدا وكان يبرحلة الكتاب ويقضى عنهم ديونهم وبنى الجامع الاموى وهدم كنيسة مارى يوحنا وزادها فى الجامع المذكور وذلك سنة ست وثمانين فى ذى القعدة وذكر أنه كان فى الجامع وهو يبنى اثنا عشر ألف مرخم وتوفى الوليد ولم يتمه فاتمه سليمان أخوه فكان جملة ما أنفق على بنائه أربعمائة صندوق فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار وكان فيه ستمائة سلسلة ذهبا للقناديل وما زالت الى أيام عمر ابن عبد العزيز فجعلها فى بيت المال واتخذ عوضها صفرا وحديدا وبنى قبة الصخرة ببيت المقدس وبنى المسجد النبوى ووسعه حتى دخلت حجرة صاحب الشريعة فيه قيل وله آثار حسنة كثيرة جدا * قلت وقوله ان الوليد بنى قبة الصخرة فيه نظر وانما بنى قبة الصخرة عبد الملك ابن مروان فى أيام فتنة ابن الزبير لما منع عبد الملك أهل الشام من الحج خوفا من أن يأخذ منهم ابن الزبير البيعة له فكان الناس يقفون يوم عرفة بقبة الصخرة الى أن قتل ابن الزبير وكان الوليد أراد أن يخلع أخاه سليمان ويبايع لولده عبد العزيز فأبى سليمان فكتب الى عماله ودعا الناس الى ذلك فلم يجبه الا الحجاج وقتيبة وخواص من الناس فكتب الوليد الى سليمان يأمره بالقدوم عليه فابطأ فعزم الوليد على المسير اليه ليخلعه وأخرج خيمه ففاجأته المنية قبل أن يسير اليه وكان موته فى خامس عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعين للهجرة أى سنة أربع عشرة وسبعمائة للميلاد عن ست وأربعين سنة وقيل ثمان وأربعين وقيل خمسين سنة وترك أربعة عشر ولدا وحمل على أعناق الرجال ودفن فى مقابر باب الصغير وتولى دفنه عمر بن عبد العزيز فكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر وقيل عشر سنين وروى أن عمر بن عبد العزيز قال لما لحدت الوليد ارتكض فى أكفانه وغلت يداه الى عنقه نسأل الله العافية

واستعمل على مصر فى خلافته بعد عزله لاخيه عبد الله كما تقدم قرة بن شريك العبسى فقدمها يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الاول فقال فى ذلك أحد الشعراء

عجب ما عجبت حين أتانا * أن قد أمرت قرة بن شريك
وعزلت الفتى المبارك عنا * ثم ضللت فيه رأى أبيك

وكان قرة ظلوما غشوما عسوفا قيل كان يدعو بالخمر والملاهى فى جامع مصر * أخرج أبو



نعيم فى الحلية قال قال عمر بن عبد العزيز الوليد بالشام والحجاج بالعراق وقرة بمصر وعثمان ابن حيان بالحجاز امتلأت واقه الارض جورا وقال ابن عبد الحكم أنبأنا سعد بن عفير ان عمال الوليد بن عبد الملك كتبوا اليه ان بيوت الاموال قد ضاقت من مال الخمس فكتب اليهم أن ابنوا المساجد فأول مسجد بنى بفسطاط مصر المسجد الذى فى أصل حصن الروم عند باب الريحان قبالة الموضع الذى يعرف بالفلوس يعرف بمسجد العيلة ❊ وأقام قرة واليا بمصر الى أن مات سنة ست وتسعين فولى بعده عبد الملك بن رفاعة القينى فأقام الى سنة تسع وتسعين فى خلافة سليمان بن عبد الملك ومات ولما مات الوليد خلفه أخوه سليمان ابن عبد الملك

(الفصل السابع)

(فى خلافة سليمان بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد الوليد أخوه سليمان وذلك لان أباهما عقد لهما جميعا بالامر من بعده فبويع له بالخلافة يوم موت أخيه الوليد فى خامس عشرى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين هجرية أى سنة أربع عشرة وسبعمائة ميلادية وكان سليمان بالرملة فلما جاءته الخلافة عزم على الاقامة بها ثم توجه الى دمشق وكمل عمارة الجامع الاموى وجهز أخاه مسلمة بن عبد الملك فى سنة سبع وتسعين الى غزو الروم فانتهى الى القسطنطينية فنازلها على عهد انسطاسيوس قيصر وكان عدد أصحاب مسلمة مائة وعشرين ألفا من العرب والعجم وحارب فى طريقه طيان وعمورية وفرغانة من آسية الصغرى ودخل بوغاز كليبولى وتجاوز البحر من المكان المدعو ممر العرب ودخل أوروبا وقطع على سواحل بحر مرمرة الى أن قابل القسطنطينية من الجنوب وأقام مضارب جنوده وأعلن الحرب على الروم وألقى على المدينة الحصار وكان انسطاسيوس قيصر قد علم قيام العرب عليه فاستعد لقتالهم وأمر الروم بالتأهب لحصار ثلاث سنين وأن يترك الذين لاقدرة لهم القسطنطينية وملأ الساحات والاهراء بالذخائر وأصلح الاسوار وحصنها وجعل عليها المنجنيقات والدوافر لرشق النار الرومية والسهام والاحجار ونحوها ثم لم يلبثوا أن بعثوا بقوم ليحرقوا عمارة العرب ويناوشوا العدو قبل أن يناوشهم هو فلم يفلحوا اذ افتتنوا وقتلوا رئيسهم وتركوا راياتهم فى رودس وتفرقوا فى تلك الاطراف أشتاتا الى أن قام الملك تودوسيوس ولم يكن أهلا لهذا المنصب اذ كان من آحاد الحراس على بيت المال وكان ساذجا غير مدرب فعفا عن أولئك القوم ولم يؤاخذهم بما فعلوه فلم يستقر به المنصب الاشهرا وخلع وقام بعده ليون اسوريكوس وكان مهيبا مقداما عريقا بالملك فلما قدمت عساكر مسلمة وتظرهم الروم بالقسطنطينية داخلهم الخوف واستولى عليهم الجبن فعرضوا على المسلمين الصلح بأن يؤدوا لهم الجزية فى كل سنة عن كل نفس دينارا فلم يقبل مسلمة وداخله الطمع وتقوى

حيث

حيث قدمت عليه عمارته البحرية من الشام وكانت قد مرت بعمارة المصريين التى كانت يومئذ على ثغور بلاد الفرنسيس وأتت بها فكانت جميعها نحو ألف وثمانمائة سفينة أكبرها كانت تحمل مائة رجل بجهازهم

أما الروم فانهم لما شاهدوا تلك السفن الكثيرة أمروا فرفعت السلسلة الحامية للمينا لكى تدخل السفن المذكورة وتستأمن من داخل البوغاز وأمر مسلمة قومه بالتأهب لمصادمة الروم فى تلك الليلة برا وبحرا فتقدمت السفن الى جانب السلسلة ووقفت مترددة بين أن تدخل المينا وبين أن تقضى ليلتها فى مكانها خوفا من الحيلة فبينماهم على هذا الحال اذ اشتعلت النار الاغريقية من كل جانب وتساقطت عليها تساقط المطر فأحرقتها كلها ولم تنج منها واحدة وهلك من فيها من الجند ثم أتى بعيد ذلك النبأ بموت سليمان بن عبد الملك وذلك فى سنة تسع عشرة وسبعمائة للميلاد أى سنة تسع وتسعين للهجرة فانفشل من بقى منهم وفترت هممهم وانجلوا عن مواقفهم وكادوا يتمزقون أشتاتا ● وكان سليمان عادلا حكيما طويلا جميلا به عرج مولعا بالنساء شديد الغيرة وفى عهده خصى أبو بكر محمد بن عمرو الانصارى المخنثين بالمدينة قيل وكان العامل على المدينة أبا بكر عمر بن حزم فكتب اليه سليمان يقول أحص من عندك من المخنثين واتفق أن نقطة من السطر الاول وقعت على الحاء فصارت خاء فخصاهم ● ومما يحكى من محاسنه أن رجلا دخل عليه فقال ياأمير المؤمنين أنشدك الله والاذان فقال له سليمان أما أنشدك الله فقد عرفناها — فما الاذان قال قوله تعالى فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين فقال له سليمان ما ظلامتك فقال ضيعتى الفلانية غلبنى عليها عاملك فلان فنزل سليمان عن سريره ورفع البساط ووضع خده على الارض وقال والله لارفعت خدى من الارض حتى يكتب له برد بيعته فكتب الكتاب وهو واضع خده وقيل انه أطلق من سجن الحجاج ثلثمائة ألف مابين رجل وامرأة وصادر آل الحجاج وأعمل فيهم القتل والتشريد واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيرا ومشيرا وأراد أن يستكتب يزيد بن أبى مسلم وزير الحجاج فقال له عمر بن عبد العزيز سألتك الله ياأمير المؤمنين لاتحى ذكر الحجاج باستكتابك يزيد فقال ياعمر انى لم أجد عنده خيانة فى درهم ولا دينار فقال يا أمير المؤمنين ان ابليس أعف منه فى الدرهم والدينار وقد أغوى الخلق كلهم جميعا فأضرب سليمان عما عزم عليه

وفى كامل المبرد وغيره أن يزيد هذا دخل على سليمان بن عبد الملك وكان يزيد دميما قبيحا فقال له سليمان قبح الله رجلا أجرك رسنه وأشركك فى أمانته فقال ياأمير المؤمنين لاتقل هذا قال ولم قال لانك رأيتنى والامر عنى مدبر ولو رأيتنى والامر على مقبل لاستحسنت مااستقبحت منى ولاستعظمت مااستصغرت منى فقال له سليمان ويحك أو قد استقر الحجاج فى قعر جهنم بعد أم لا فقال ياأمير المؤمنين لاتقل ذلك فى الحجاج قال ولم قال لان الحجاج وطأ لكم المنابر وأذل لكم الجبابرة وأنه يأتى يوم القيامة عن يمين أبيك ويسار أخيك فحيثما كانا كان

وكان سليمان فصيحا بليغا أديبا محسنا لعلم العربية مترفعا عن سفك الدماء قال ابن خلكان في ترجمته انه كان يأكل في كل يوم نحو مائة رطل شامي ولما ولي رد الصلاة الى ميقاتها الاول وكان من قبله من خلفاء بني أمية يؤخرونها الى آخر وقتها ولذلك قال محمد بن سيرين ان سليمان افتتح خلافته بخير اختتمها باقامة الصلاة لميقاتها واختتمها باستخلافه لعمر ابن عبد العزيز وذكر المفضل وغيره أن سليمان بن عبد الملك خرج من الحمام في يوم الجمعة فلبس حلة خضراء واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر وبسط ما حوله بالخضرة ثم نظر في المرآة وكان جميلا فأعجبه جماله فشمر عن ذراعيه وقال ٭ كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا وكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه صديقا وكان عمر رضي الله تعالى عنه فاروقا وكان عثمان رضي الله تعالى عنه حييا وكان علي رضي الله تعالى عنه شجاعا وكان معاوية رضي الله تعالى عنه حليما وكان يزيد صبورا وكان عبد الملك سائسا وكان الوليد جبارا وأنا الملك الشاب ثم خرج لصلاة الجمعة فوجد حظية له في صحن الدار فانشدته هذه الابيات

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ٭ غير أن لابقاء للانسان

ليس فيما بدالنا منك عيب ٭ عابه الناس غير أنك فاني

فلما فرغ من الصلاة ودخل داره قال لتلك الحظية ماقلت لي في صحن الدار وأنا خارج قالت ماقلت لك شيأ ولا رأيتك وأنى لي بالخروج الى صحن الدار فقال إنا لله وإنا اليه راجعون نعيت الي نفسي فما دارت عليه جمعة أخرى حتى مات وقيل انه صعد المنبر وخطب وان صوته ليسمع في أقصى المسجد فأخذته الحمى فمازال صوته يخفى حتى لم يسمعه من تحته وقال ابن خلكان انه سم ومات من ليلته وقيل انه مات بذات الجنب وقيل انه قبل موته أكل زنبيلين من التين والبيض ألطفه بهما بعض المسيحيين فأمر بأن يقشر البيض وجعل يأكل بيضة وتينة حتى أتى على الزنبيلين ثم أتوه بمخ وسكر فأكل فاتخم ومرض ومات ٭ مات في عاشر صفر سنة ثمان وتسعين هجرية وقيل سنة تسع وتسعين بمرج دابق من أرض قنسرين وله تسع وثلاثون سنة وقيل خمس وأربعون سنة وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر واستعمل في أيامه على مصر عبد الملك بن رفاعة الفهمي الى سنة تسع وتسعين التي مات فيها سليمان

(الفصل الثامن)

(في خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز)

ثم قام بالامر بعد سليمان الخليفة الراشد أبو حفص عمر بن عبد العزيز وبويع له بالخلافة يوم

مات

مات سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين هجرية أى سنة سبع عشرة وسبعمائة ميلادية وكانت خلافته بعهد من سليمان له وذلك أنه لما كان سليمان بدابق ومرض مرضه الذى مات فيه عهد فى كتاب كتبه لاحد أولاده وهو غلام لم يبلغ أشده فعلم رجاء بن حيوة بالخبر فدخل عليه وقال له ماتصنع ياأمير المؤمنين ان مما يحفظ الخليفة فى قبره أن يستخلف على الناس الرجل الصالح فقال سليمان يارجاء انى مستخير الله وسأنظر ولم أعزم ولبث سليمان يوما أو يومين ثم مزق الكتاب ودعا رجاء فقال له يارجاء ماترى فى ولدى داود فقال رجاء هو غائب عند القسطنطينية ولا ندرى أحى أم لا قال فمن ترى قال رجاء رأيك ياأمير المؤمنين قال فكيف ترى فى عمر بن عبد العزيز قال رجاء فقلت أعلمه والله خيرا فاضلا سليما فقال سليمان هو على ذلك والئن وليته ولم أول أحدا سواه لتكونن فتنة ولا يتركونه أبدا يلى عليهم الا أن يجعل أحدهم بعده قال وكان عبد الملك قد عهد الى الوليد وسليمان أن يجعلا أخاهما يزيد ولى عهد فأمر سليمان أن يجعل يزيد بن عبد الملك بعد عمر وكان يزيد غائبا فى الموسم قال رجاء فقلت رأيك فكتب سليمان * بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز انى قد وليتك الخلافة بعدى ومن بعدك يزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولاتختلفوا فيطمع فيكم * قال وختم الكتاب ثم أرسل الى كعب بن جابر العبسى صاحب شرطته فقال ادع أهل بيتى فجمعهم كعب فلما اجتمعوا قال سليمان لرجاء اذهب اليهم بكتابى وأخبرهم بما فيه ومرهم فليبايعوا من وليت فيه ففعل رجاء فلما علموا مافى الكتاب قالوا ندخل فنسلم على أمير المؤمنين ثم دخلوا فقال لهم سليمان فى هذا الكتاب الذى فى يد رجاء بن حيوة عهدى فاسمعوا وأطيعوا لمن سميت فيه فبايعوا عمر رجلا رجلا ثم تفرقوا وثقل المرض بسليمان فمات قال رجاء بن حيوة فغمضته وسجيته وأغلقت الباب وأجلست على الباب من أثق به ثم خرجت فأرسلت الى كعب بن جابر فجمع أهل بيت سليمان فى مسجد دابق فقلت بايعوا فقالوا قد بايعنا مرة قلت وأخرى هذا عهد أمير المؤمنين فبايعوا الثانية قال فلما بايعوا بعد موته رأيت أن قد أحكمت الامر فقلت قوموا الى صاحبكم فقد مات

ذكر غير واحد عن محمد المروزى قال أخبرت أن عمر بن عبدالعزيز رضى الله تعالى عنه لما دفن سليمان بن عبد الملك وخرج من قبره سمع للارض هدة أو رجة فقال ماهذه فقيل هذه مراكب الخلافة قربت اليك ياأمير المؤمنين لتركبها فقال مالى ولها نحوها عنى وقربوا الىّ دابتى فقربت اليه فركبها فجاء صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادة الخلفاء قبله فقال له تنح عنى مالى ولك انما أنا رجل من المسلمين ثم سار مختلطا بين الناس حتى دخل المسجد فصعد المنبر فاجتمع اليه الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال * أيها الناس انى ابتليت بهذا الأمر بغير رأى منى فيه ولاطلبة ولامشورة من المسلمين وانى قد خلعت مافى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لانفسكم غيرى فصاح المسلمون صيحة عظيمة قد

اخترناك ياأمير المؤمنين ورضيناك أميرنا باليمن والبركة فلما سكتوا حمد الله وأثنى عليه وصلى
على نبيه ثم قال * أوصيكم بتقوى الله فان تقوى الله تعالى خلف من كل شئ وليس من
تقوى الله خلف واعملوا لآخرتكم فان من عمل لآخرته كفاه أمر دنياه وآخرته وأصلحوا
سرائركم يصلح الله علانيتكم وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل بكم
فانه هادم اللذات وانى والله لاأعطى أحدا باطلا ولاأمنع أحدا حقا * ياأيها الناس من أطاع
الله وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له أطيعونى ماأطعت الله فان عصيته فلا
طاعة لى عليكم * ثم نزل ودخل دار الخلافة فأمر بالستور فهتكت وبالبسط فرفعت وأمر
ببيع ذلك وادخال ثمنه فى بيت مال المسلمين ثم ذهب يتبوأ مقيلا فأتاه ابنه عبد الملك فقال
ماتريد أن تصنع ياأبت قال يابنى أقيل قال تقيل ولا ترد المظالم قال أى بنى انى قد سهرت
البارحة فى أمر عمك سليمان فاذا صليت الظهر رددت المظالم فقال ياأمير المؤمنين من أين
لك أن تعيش الى الظهر فقال ادن منى يابنى فدنا منه فقبله بين عينيه وقال الحمد لله الذى
أخرج من ظهرى من يعيننى على دينى فخرج ولم يقل وأمر مناديه أن ينادى ألا كل من
كانت له ظلامة فليرفعها قيل فتقدم اليه ذمى من أهل حمص فقال ياأمير المؤمنين أسألك
كتاب الله قال وماذاك قال ان العباس بن الوليد اغتصبنى أرضى والعباس جالس فقال عمر
ماتقول ياعباس فقال ان أمير المؤمنين الوليد أقطعنى اياها وهذا كتابه فقال عمر ماتقول
ياذمى قال ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى فقال عمر كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب
الوليد أردد اليه أرضه ياعباس فردها اليه ثم جعل لايدع شيأ مما كان فى يد أهل بيته من
المظالم الارده مظلمة مظلمة فلما بلغ الخوارج سيرته وما رد من المظالم اجتمعوا وقالوا ماينبغى
لنا أن نقاتل هذا الرجل وبلغ عمر بن الوليد خبر رد الضيعة التى كانت للذمى كتب الى
عمر بن عبد العزيز * انك قد زريت على من كان قبلك من الخلفاء وعبت عليهم وسرت
بغير سيرتهم بغضا لهم وشينا لمن بعدهم من أولادهم وقطعت ماأمر الله به أن يوصل
اذ عمدت الى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جورا وعدوانا ولن تترك على هذا
الحال والسلام * فلما قرأ كتابه كتب اليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ من عبد الله عمر بن
عبد العزيز الى عمر بن الوليد السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين * أما بعد فقد بلغنى
كتابك أما أول شأنك ياابن الوليد فامك بنانة أم السكون كانت تطوف فى سوق حمص وتدخل
فى حوانيتها ثم الله أعلم بها ثم اشتراها زبان من بيت مال المسلمين فأهداها لابيك فحملت بك
فبئس المولود ثم نشأت فكنت جبارا عنيدا تزعم أنى من الظالمين اذ حرمتك وأهل بيتك مال
الله الذى فيه حق القرابة والمساكين والأرامل وان أظلم منى وأترك لعهد الله من استعملك
صبيا سفيها على جند المسلمين تحكم فيهم برأيك ولم يكن له فى ذلك نية الاحب الوالد
لولده فويل لابيك ماأكثر خصماءه يوم القيامة وكيف ينجو أبوك من خصمائه وان أظلم
منى وأترك لعهد الله من جعل لغالية البربرية فى خمس العرب نصيبا فرويدا ياابن بنانة فلو

التقيت

التفت حلقتا البطان وردّ النيء لاهله لتفرغت لك ولاهل بيتك فوضعتهم على المحجة البيضاء فطالما تركتم الحق وأخذتم فى الباطل ومن وراء ذلك ماأرجو أن أكون رأيته من بيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والارامل فان لكل فيك حقا والسلام على من اتبع الهدى ولا ينال سلام الله القوم الظالمين

قيل انه وقع فى زمانه غلاء عظيم فقدم عليه وفد من العرب فاختاروا رجلا منهم لخطابه فتقدم اليه وقال ياأمير المؤمنين انا وفدنا اليك من ضرورة عظيمة وراحتنا فى بيت المال وماله لايخلوا اما أن يكون لله أولعباده أولك فان كان لله فالله غنى عنه وان كان لعباده فآتهم اياه وان كان لك فتصدق به علينا ان الله يجزى المتصدقين * قيل فتغرغرت عينا عمر بالدموع وقال هو كما ذكرت وأمر بحوائجهم فقضيت فهمّ الاعرابى بالانصراف فقال عمر كما أوصلت أيها الرجل حوائج عباد الله الىّ فأوصل حاجتى وفاقتى الى الله فقال الاعرابى الهى اصنع بعمر بن عبد العزيز كصنيعه فى عبادك قيل فما استتم كلامه حتى ارتفع غيم عظيم وأمطرت السماء مطرا كثيرا فجاء فى المطر بردة كبيرة فوقعت على جرة فانكسرت فخرج منها كاغد مكتوب فيه * هذه براءة من الله العزيز الغفار لعمر بن عبد العزيز من النار * قلت ولعل هذا من مبالغات الكتاب تذكرة وعبرة

ولما استقامت لعمر الامور ودانت له الخلافة لم يوجه عنايته الى تتميم الغزوات التى بدأ بها سليمان وترك مسلمة بمن معه من المسلمين فى حصار قسطنطينية طول الشتاء كراهة فى مسلمة وكان ذلك الشتاء قارسا جدا شديدا دامت فيه الثلوج مغطية للارض مائة يوم فمات خلق كثير من المسلمين ولبثوا على هذا الحال يقاسون العناء حتى دخل الربيع وورد على من بقى منهم الخبر بقدوم عمارتين فيهما من الرجال والذخائر شئ كثير لنجدتهم احداهما أربعمائة سفينة مشحونة قمحا من الاسكندرية وثانيتهما ثلثمائة وستون سفينة من افريقية ولكنه لم يتم فرحهم بقدوم تلك العمارة حتى شاع الخبر ثانية بانه حل بهما ماحل بالعمارة الاولى فلم يحصلوا منهما الاعلى ماقل ففشا الجوع والمرض فى جند المسلمين وعادوا يأكلون مايجدونه من الميتة وغيرها واستنصر ليون قيصر الروم على من بقى منهم بالبلغاريين واستأجرهم لذلك فجاءه منهم عدد كثير واقتتلوا مع المسلمين قتالا عنيفا فقتلوا منهم زهاء عشرين ألفا وطيروا الاخبار بتجهيز الفرنجة برا وبحرا للنجدة فتشددت بذلك عزائم الروم وخافت العرب جدا ولبثوا يتوقعون الشر من كل جانب فوردت الى مسلمة الاخبار بأن يرجع بمن معه من المسلمين فقام على الفور وسار بمن بقى معه وهم قليلون فى بوغاز كليبولى من حيث أتى فلم يعارضه معارض فلما وصل بثينة قام عليه أهلها وقتلوا ممن كان معه خلقا كثيرا ولم يصل من جميع تلك العمارة الكبيرة الا خمسة فقط جاءت بالاخبار الى الاسكندرية فكانت مدة حصار مسلمة لقسطنطينية فى هذه الغزوة ثلاثة عشر شهرا * قال أهل التاريخ وكان اخفاق مسلمة فى غزوته هذه سببا فى منع العرب من تخطى أوروبا من جهة المشرق ولكنهم

لم يلبثوا أن عادوا فشنوا الغارة على بلاد الفرنسيس من جهة المغرب بمعاونة عرب الاندلس وجعلوا يتهددونها فى كل آونة ولا ينكفون عن مناوشتها كلما تمكنوا من ذلك * وكان عمر يكره الحروب جدا ولا يهتم بالفتوحات فلم ينضم الى دولتـه فى خلافته الاجرجان وطبرستان وكتب فى سنة مائة هجرية الى ملوك السند يدعوهم الى الاسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ماللمسلين وعليهم ماعلى المسلمين وقد كانت سيرته وأجناده وصلت اليهم فأسلم جيشبة بن زاهر وتسمى بعض ملوكهم من هذا الحين بأسماء العرب وكان عمر قد استعمل على ذلك الثغر عمرو بن مسلم أخا قتيبة بن مسلم فغزا بعض الهند فظفر وبقى ملوك السند مسلمين على بلادهم أيام عمر بن عبدالعزيز ويزيد بن عبد الملك فلما كان أيام هشام ارتدوا عن الاسلام وكان سببه ماسنذكر فى محل ان شاء الله

وتحالف بنو أمية لاسباب عدة على بغض عمر بن عبدالعزيز فرشوا عبدا أسود فسقاه السم وروى أنه دعا بخادمه الذى سقاه السم فقال له ويحك ماحملك على أن سقيتنى السم قال ألف دينار أعطيتها قال هاتها فجاء بها فأمر بطرحها فى بيت المال وقال لخادمه اخرج بحيث لايراك أحد ولما ثقل به مرضه قالوا له لوتداويت قال لو كان دوائى فى مسح أذنى ماصحتها نعم المذهوب اليه ربى * قال مسلمة بن عبد الملك دخلت على أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رضى الله تعالى عنه أعوده فى مرضه الذى مات فيه فاذا عليه قميص وسخ فقلت لفاطمة بنت عبد الملك يافاطمة اغسلى قميص أمير المؤمنين فقالت نفعل ان شاء الله تعالى ثم عدت فاذا القميص على حالته فقلت يافاطمة ألم آمرك أن تغسلى قميص أمير المؤمنين فان الناس يعودونه فقالت والله ماله قميص غيره قال وكان عمر رضى الله عنه كثيرا يتمثل بهذه الابيات

نهارك يامغرور سهو وغفلة * وليلك نوم والردى لك لازم

يغرك مايفنى وتفرح بالمنى * كما غر باللذات فى النوم حالم

وشغلك فيما اليوم تكره غبه * كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

وكان مرضه بدير سمعان بأرض حمص وكانت شكواه عشرين يوما فلما احتضر قال أجلسونى فأجلسوه فقال * الهى أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ولكن لااله الا الله وتوفى لخمس وقيل لست مضين وقيل لعشرة بقين من رجب الفرد سنة احدى ومائة للهجرة وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر وقيل وهو ابن أربعين سنة وقبره بدير سمعان ظاهر يزار فكانت مدة خلافته سنتين وخمسة أشهر وكان يقال له أشج بنى أمية وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فعمر جده من قبل أمه وهو تابعى روى الحديث عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد وروى عنه جماعة ومولده بمصر سنة احدى وستين * قال الامام أحمد ليس أحد من التابعين قوله حجة الا عمر بن عبد العزيز اه وكان عمر عفيفا زاهدا ناسكا عابدا مؤمنا تقيا صادقا وهو أول من اتخذ دار الضيافة وأول من فرض لابناء السبيل وأزال ما كانت بنو أمية تذكر به عليا على المنابر من اللعن وجعل مكان ذلك ان الله يأمر بالعدل

والاحسان

والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون فقال فيه كثير عزة الملك

وليت ولم تسبب عليا ولم تخف * بريا ولم تقبـــل مقالة مجرم
وصادقت بالقول الفعال مع الذى * أتيت فأمسى راضيا كل مسـلم
فما بين شرق الارض والغرب كلها * منـاد ينادى من فصيح وأعجمى
يقول أميـر المؤمنـين ظلمتنى * بأخذك دينارى وأخذك درهمى
فاربح بها من صفقة لمبـائع * وأكرم بها من بيعة ثم أكرم

قال ميمون بن مهران قال عمر بن عبد العزيز لما وضعت الوليد فى حفرته نظرت فاذا وجهه قد اسود فاذا مت ودفنت فاكشف عن وجهى قال ميمون ففعلت فرأيته أحسن مما كان أيام تنعمه ورثاه الشعراء فأكثروا فى رثائه وبالغوا جدا

واستعمل على مصر فى خلافته أيوب بن شرحبيل الاصبحى فأقام بها عاملا الى سنة احدى ومائة وعزل فى خلافة يزيد بن عبد الملك * وبعد موت عمر بن عبد العزيز خلفه فى الملك يزيد بن عبد الملك بن مروان

(الفصل التاسع)

(فى خلافة يزيد بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك بن مروان وبويع له بالخلافة يوم مات ابن عمه عمر سنة احدى ومائة للهجرة أى سنة تسع عشرة وسبعمائة للميلاد بعهد له من أخيه سليمان فى ذلك لما ولى قال خذوا بسيرة عمر بن عبد العزيز فساروا بسيرته أربعين يوما فدخل عليه أربعون رجلا من مشايخ دمشق وحلفوا له أنه ليس على الخلفاء حساب ولا عقاب فى الآخرة وخدعوه بذلك فانخدع لهم وكان طائفة من جهال الشاميين يعتقدون ذلك * قال بعض أهل التاريخ ان يزيد هذا هو المعروف بالفاسق وهو غلط وانما الفاسق ولده الوليد كما اشتهر اه وقيل انه لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال له اكتب الى يزيد فأوصه بالامة قال بماذا أوصيه انه من بنى عبد الملك ثم كتب اليه * أما بعد فاتق يا يزيد الصرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة ولا تقدر على الرجعة انك تترك ما تترك لمن لا يحمدك وتصير الى من لا يعذرك والسلام * ولما استقرت بيزيد الخلافة عمد الى كل ما عمده عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فرده ورد المكوس التى أزالها عمر بن عبد العزيز عن أهل اليمن وغير ذلك وجهز جيشا عظيما لقتال يزيد بن المهلب بن أبى صفرة وسيره مع أخيه مسلمة والعباس ابن أخيه وكان ابن المهلب قد كثرت لمومه واجتمع اليه من أهل الكوفة والبصرة والثغور وغيرها

فالتقى مسلمة بأهل الشام وابن المهلب فى قومه وعسكره الجرار فاقتتلوا قليلا وكان يزيد بن عبد الملك قد أمر باحراق جسر كان على الفرات ليأخذوا الطريق على ابن المهلب وأصحابه فلما علا دخان الحريق سأل أصحاب ابن المهلب عنه فقيل لهم حرق الجسر فانهزموا فقيل لابن المهلب انهزم الناس فقال لم انهزموا هل كان قتال ينهزم من مثله فقيل له قالوا أحرق الجسر فلم يلبث أحد فقال قبحهم الله بق دخن عليه فطار ثم خرج ومعه أصحابه وقال اضربوا وجوه المنهزمين ففعلوا ذلك بهم وبينما هو على هذا الحال اذ جاءه الخبر بموت أخيه حبيب فاغتم غما شديدا واستقل وتقاعس عن الحرب فتسلل عنه من يكره القتال وبقى معه جماعة من جنسه فانقض عليه أهل الشام وعلى أصحابه فقتلوه وقتلوا أخاه محمد بن المهلب وآخرين معه واختلفوا فيمن قتله واحتزوا رأس يزيد بن المهلب وأتوا بها الى مسلمة فسيرها الى يزيد ابن عبد الملك وأسر أهل الشام من أصحاب يزيد بن المهلب خلقا فسيرهم مسلمة الى الكوفة فجاء كتاب يزيد بن عبد الملك الى محمد بن عمرو بن الوليد يأمره بضرب رقابهم فأمر صاحب شرطته أن يخرجهم عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين فقام نحو ثلاثين رجلا من تميم فقالوا نحن انهزمنا بالناس فابدؤا بنا قبل الناس فضرب رقابهم ثم جاء محمد بن عمرو كتاب من عند مسلمة يأمره بترك قتل الاسرى وأقبل مسلمة حتى نزل الحيرة واجتمع أهل المهلب بالبصرة فأعدوا السفن وتجهزوا للركوب فى البحر وحملوا أموالهم وعيالاتهم حتى وصلوا الى حبال وساروا فى البر فسير مسلمة فى أثرهم مدرك بن ضب الكلبى فأدركهم فى عقبة فعطفوا عليه وقاتلوه واشتد قتالهم فقتل أكثر أصحاب ابن المهلب وقتل أولاد المهلب عن آخرهم وحملت رؤسهم والأسرى الى مسلمة بالحيرة فبعثهم الى يزيد بن عبد الملك فسيرهم يزيد الى العباس بن الوليد وهو على حلب فنصب الرؤس وفرح يزيد بقتل آل المهلب فرحا عظيما وقد كان يتمنى قتلهم وقطع شأفتهم لعداوة سابقة بينه وبين يزيد بن المهلب قبل تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ❊ قال صاحب الكامل ان ابن المهلب خرج من الحمام أيام سليمان بن عبد الملك وقد تضمخ بالغالية فاجتاز بيزيد بن عبد الملك وهو الى جانب عمر بن عبد العزيز فقال يزيد قبح الله الدنيا لوددت أن مثقال غالية بألف دينار فلا ينالها الا كل شريف فسمع ابن المهلب فقال له بل وددت أن الغالية لو كانت فى جبهة الاسد فلا ينالها الا مثلى فقال له يزيد بن عبد الملك لئن وليت يوما لاقتلنك فقال له ابن المهلب والله لئن وليت هذا الامر وأنا حى لاضربن وجهك بخمسين ألف سيف فهذا كان سبب البغض بينهما وقيل غير ذلك اه وكان قد جىء الى يزيد ابن عبد الملك بثلاثة عشر رجلا من الاسرى فلما أدخلوهم عليه وعنده كثير عزة أنشد

حليم اذا ما نال عاقب مجملا ❊ أشد العقاب أو عفا لم يثرب

فعفو أمير المؤمنين وحسبه ❊ فما تأته من صالح لك يكتب

أساؤا فان تصفح فانك قادر ❊ وأفضل حلم حسبة حلم مغضب

فقال يزيد بن عبد الملك هيهات يا أبا صخر طف بك الرحم لا سبيل الى ذلك ان الله عز وجل

أقاد

أفاد منهم بأعمالهم الخبيثة ثم أمر بهم فقتلوا وبقى غلام صغير فقال اقتلونى فما أنا بصغير فأمر به يزيد فقتل أيضا * وكان أهل المهلب مشهورين بالكرم والجود والفتوة ولهم أخبار طويلة لامحل لذكرها هنا

وبينما كان مسلمة بن عبد الملك أخو يزيد والعباس بن أخيه يقاتلان آل المهلب اذ دخل على يزيد بن عبد الملك جماعة من المتقربين اليه وقالوا ياأمير المؤمنين ان أهل العراق أهل غدر وارجاف وقد توجهنا محاربين والحوادث تحدث ولا نأمن من أن يرجف أهل العراق فيقولون مات أمير المؤمنين فيفت ذلك فى أعضادنا فلو عهدت الى عبد العزيز بن الوليد لكان رأيا صوابا فبلغ ذلك مسلمة بن عبد الملك فأتى أخاه يزيد فقال ياأمير المؤمنين أيما أحب اليك أخوك أم ابن أخيك فقال بل أخى فقال فأخوك أحق بالخلافة فقال يزيد اذا لم تكن فى ولدى فأخى أحق بها من ابن أخى كما ذكرت قال فابنك لم يبلغ فبايع لهشام بن عبد الملك ثم بعده لابنك الوليد وكان الوليد يومئذ ابن احدى عشرة سنة فبايع بولاية العهد لهشام ابن عبد الملك أخيه وبعده لابنه الوليد بن يزيد وعاش اليزيد حتى بلغ ابنه الوليد أشده فكان اذا رآه يقول الله بينى وبين من جعل هشاما بينى وبينك وظلت ولاية العهد لهشام حتى ولى الخلافة * وفى أيام يزيد بن عبد الملك ولد أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن محمد بن على فى ربيع الآخر وهو السفاح وقدم على أبيه محمد بن على أبو محمد الصادق من خراسان وجماعة من أصحابه فأخرج اليهم أبا العباس مقمطا بقماط ولفائف وله خمسة عشر يوما وقال لهم هذا صاحبكم الذى يتم الامر على يده فقبلوا أطرافه وقال لهم والله ليتمن الله هذا الامر حتى تدركوا ثاركم من عدوكم

وخرج فى أيام يزيد كثير من طوائف الترك وقاتلوا المسلمين وأجلوا من كان منهم بارمينية والجزيرة والمتولى عليهما يومئذ ابن هبيرة فجهز يزيد الجراح لقتالهم وردهم الى الطاعة فقاتلهم قتالا شديدا وأثخن فى قتلهم وسبى ذراريهم وقاتل سائر الخوارج حتى أرجعهم الى الطاعة وكاتب يزيد بالفتح وطلب المدد فوعده ولكن المنية عاجلته وكانت وفاة يزيد باربد من أرض البلقاء وقيل بالجولان وحمل على أعناق الرجال الى دمشق ودفن بين باب الجابية وباب الصغير لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة وله أربعون سنة وقيل خمس وثلاثون سنة وكانت خلافته أربع سنين وشهرا وأياما * ذكر الحافظ ابن عساكر أن سبب موت يزيد ابن عبد الملك هذا أنه كان اشترى فى أيام أخيه سليمان جارية من عثمان بن سهل بن حنيف باربعة آلاف دينار وكان اسمها حبابة وأحبها حبا شديدا فبلغ أخاه سليمان ذلك فقال هممت أن أحجر على يزيد فبلغ ذلك يزيد فباعها خوفا من أخيه سليمان فلما أفضت الخلافة اليه قالت له زوجته ياأمير المؤمنين هل بقى فى نفسك من الدنيا شئ قال نعم فقالت وما هو قال حبابة فاشترتها له وهو لايعلم وزينتها وأجلستها من وراء ستر لها ثم قالت ياأمير المؤمنين هل



بقي في نفسك من الدنيا شئ قال أو ما أعلمتك أنها حبابة فرفعت الستر وقالت هاأنت وحبابة وتركته وإياها فحظيت عنده وغلبت على عقله ولم ينتفع به في الخلافة وانه قال يوما ان بعض الناس يقولون انه لن يصفو لاحد من الملوك يوم كامل من الدهر وانى لا كذبنهم فى ذلك ثم أقبل على لذاته واختلى بحبابة وأمر أن يحجب عن سمعه وبصره كل ما يكدره فبينما هو على تلك الحالة فى صفو عيشه وزيادة فرحه وسروره اذ تناولت حبابة حبة رمان وهي تضحك فغصت بها فماتت فاختل عقل يزيد وتكدر عيشه وذهب سروره ووجد عليها وجدا شديدا وتركها أياما لا يدفنها وهو يقبلها ويترشفها حتى أنتنت وفاحت فأمر بدفنها ثم نبشها من قبرها وله معها أخبار طوال أضربنا عن ايرادها وغنته يوما

وبين التراقى واللهاة حرارة * وما طفئت يوما بسوغ فتبردا

فأهوى عند سماعه قولها ليطير فقالت يا أمير المؤمنين ان لنا فيك حاجة فقال والله لأطيرن فقالت على من تخلف الامة والملك قال عليك والله وقبل يدها فخرج بعض خدمه وهو يقول سخنت عينك ما أسخفك

ولما عاد من دفنها سمع جارية له تتمثل بعدها

كفى حزنا بالهائم الصب أن يرى * منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى بكاء مرا واشتد به النحيب ولم يعش بعدها الا خمسة عشر يوما وكان مرضه بالسل وقال فيها

فان تسل عنك النفس أوتدع الهوى * فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد

وكل خليل زارنى فهو قائل * من أجلك هذا هامة اليوم أوغد

قال صاحب الكامل ولم يعلم بموت يزيد أحد حتى ناحت سلامة حظيته * هي حظية أخرى غير حبابة كان يحبها فقالت

لا تلمنا ان خشعنا * أو هممنا بخشوع

قد لعمرى بت ليلى * كأخى الداء الوجيع

ثم بات الهم منى * دون من لى بضجيع

للذى حل بنا اليو * م من الامر الفظيع

كلما أبصرت ربعا * خاليا فاضت دموعى

قد خلا من سيد كا * ن لنا غير مضيع

ثم نادت وا أمير المؤمنيناه فعلموا بموته قال والشعر لبعض الانصار اه واستأمر يزيد على مصر فى خلافته بشر بن صفوان الكلبى فأقام الى سنة ثلاث ومائة ثم خلعه وولى أخاه حنظلة فأقام الى سنة خمس ومائة وهى السنة التى مات فيها يزيد بن عبد الملك ثم عزل ولما مات يزيد خلفه فى الملك هشام بن عبد الملك

(الفصل العاشر)

﴿ فى خلافة هشام بن عبد الملك ﴾

ثم قام بالامر بعد يزيد أخوه هشام بن عبد الملك بن مروان وبويع له بالخلافة يوم مات أخوه يزيد سنة خمس ومائة هجرية أى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ميلادية بعهد منه اليه ولما أتته الخلافة كان بالرصافة فسجد وسجد أصحابه لما بشر بها وسار الى دمشق * قال مصعب الزبيرى زعموا أن عبد الملك بن مروان رأى فى منامه أنه بال فى المحراب أربع مرات فدس من يسأل سعيد بن المسيب وكان يعبر الرؤيا فقال يملك من صلبه أربعة فكان آخرهم هشاما اه

فلما كانت السنة الاولى من خلافته سير مسلم بن سعيد لغزو الترك فعبر النهر وعاث فى بلادهم وخرب وأتلف وأراق الدماء وقفل فتأثره الترك فعبر النهر ولم ينالوا منه أربا ثم غزا افشين فلم يروا بدا من مصالحته على ستة آلاف رأس وسلموا اليه القلعة ثم غزا غزوة أخرى فى سنة ست ومائة فأبطأ عنه الناس وكان ممن أبطأ البخترى بن درهم فأرسل مسلم نصر بن سيار الى بلخ وأمره أن يخرج الناس اليه وكان العامل على بلخ يومئذ عمرو بن مسلم فذهب نصر وأحرق باب البخترى وزياد بن طريف الباهلى ومنعهما عمرو من دخول بلخ فقامت بسبب ذلك فتنة عظيمة فانهزم نصر المذكور وأمرهم بأن يلحقوا بمسلم بن سعيد * ولما قطع مسلم النهر ولحقه من لحقه من أصحابه سار الى بخارى فجاءه كتاب خالد بن عبدالله القسرى بولايته ويأمره باتمام الغزوة فسار الى فرغانة وبلغه أن خاقان كان قادما عليه بخيله ورجله فارتحل فلحقه خاقان بعد ثلاث مراحل وأحاط بالمسلمين ونازلهم وقتل المسيب بن بشر الرياحى والبراء من فرسان المهلب وغيرهما من الابطال وسار مسلم بالناس ثمانية أيام والترك مطيفون بهم وكان مسلم قد أحرق ما ثقل من أمتعة المسلمين ماقيمته ألف ألف وأصبحوا فى اليوم التاسع قريب النهر ودونه أهل فرغانة والشاش فأمر مسلم أصحابه أن يخترطوا سيوفهم ويحملوا على الاعداء فأفرج أهل فرغانة والشاش عن النهر فعبر مسلم وأصحابه واتبعهم ابن خاقان فكان حميد بن عبد الله على الساقة من وراء النهر مثخنا بالجراح فبعث الى مسلم بالتربص وعطف على جموع الترك وقاتلهم قتالا شديدا وأسر قائدهم وقائد الصغد وبينما هو يدبر أمر أصحابه اذ أصابه سهم فمات ثم أتى مسلم وقومه خجندة وقد أهلكهم الجوع

ولما كانت سنة اثنتين وعشرين ومائة ظهر زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب يريد منصب الخلافة وأقبل الى الكوفة ولبث بها مستخفيا يتنقل فى المنازل وأقبلت الشيعة تختلف اليه تبايعه فبايعه أناس من وجوه أهل الكوفة قال أهل التاريخ * وكانت بيعته انا ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وجهاد الظالمين ونصر أهل البيت

أتبايعون على ذلك فاذا قالوا نعم وضع يده على أيديهم ويقول ٭ عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم لتفين ببيعتى ولتقاتلن عدوى ولتنصحن لى فى السر والعلانية فاذا قال نعم مسح يده على يده ثم قال ٭ اللهم اشهد ٭ فبايعه خمسة عشر ألفا وقيل أربعون ألفا فأمرهم بالاستعداد ولما شاع خبر خروجه أتاه سلمة بن كهيل فذكر له قرابته من صاحب الشريعة الاسلامية وحقه فأحسن و بالغ ثم قال له أنشدك الله كم بايعوك قال أربعون ألفا قال فكم بايع جدك قال ثمانون ألفا قال فكم قتل معه قال ثلثمائة قال أنشدك الله أنت خير أم جدك قال جدى قال فهذا القرن خير أم ذلك القرن قال ذلك القرن قال أفتطمع أن يفى لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك قال قد بايعونى و وجبت البيعة فى عنقى وأعناقهم قال أفتأذن لى أن أخرج من هذا البلد فلا آمن أن يحدث حدث فلا أملك نفسى فأذن له فخرج الى اليمامة وأكثر زيد من دعاء الناس الى بيعته فبايعه ناس كثير منها ورسم لاصحابه فيها بالخروج فخرج معه من كان يريد الوفاء له بالبيعة فعلم يوسف بن عمر بخبره وهو على الحيرة يومئذ وبعث فى طلبه وكان على الكوفة الحكم بن الصلت فخاف جماعة ممن خرج مع زيد واجتمع كبارهم وتكلموا مع زيد فيما هو فيه ثم فارقوه ونكثوا بيعته وقالوا سبق الامام ٭ يعنون محمد الباقر ٭ وكان قد مات وقالوا جعفر ابنه امامنا اليوم بعد أبيه فسماهم زيد بن على لذلك الرافضة ٭ قال صاحب الكامل ٭ وهم يزعمون أن المغيرة سماهم الرافضة اه وكانت طائفة أتت جعفر بن محمد الصادق قبل خروج زيد فأخبروه ببيعة زيد فقال بايعوه فهو والله أفضلنا وسيدنا فعادوا وكتموا ذلك وخرج زيد فيمن بقى معه من أهل الكوفة واقتتل مع أصحاب يوسف والريان وأهل الشام فتخلى عنه نفر ممن بقى معه فلما رأى زيد خذلان الناس اياه قال لنصر بن خزيمة وقد كان يقاتل مع زيد أنا أخاف أن يكونوا قد فعلوها حسينية ٭ يعنى كما فعلوا بالحسين ٭ فقال نصر بن خزيمة أما والله لاقاتلن معك حتى أموت وان الناس فى المسجد فامض بنا نحوهم فساروا حتى انتهوا الى باب المسجد بعد قتال فجعل أصحابه يدخلون راياتهم من فوق الابواب و يقولون يا أهل المسجد اخرجوا من الذل الى العز اخرجوا الى الدين والدنيا فانكم لستم فى دين ولا دنيا فرماهم أهل الشام بحجارة من فوق المسجد فانصرفوا ثم عادوا بعد ذلك الى القتال فاشتد أصحاب يوسف بن عمر على أصحاب زيد بن على واشتد كذلك أصحاب زيد واقتتلوا قتالا عنيفا فقتل نصر بن خزيمة ومعاوية بن اسحق الانصارى بين يدى زيد ورمى زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى فثبت فى دماغه وأحضر أصحابه طبيبا فانتزع النصل فضج زيد ومات لساعته واختلف أصحابه فى أين يدفنونه فقال بعضهم نطرحه فى الماء وقال بعضهم بل نحتز رأسه ونلقيه بين القتلى فمانع ابنه يحيى وقال والله لايأكل لحم أبى الكلاب فقال بعضهم ندفنه فى الحفرة التى يؤخذ منها الطين ونجعل عليه الماء ففعلوا فلما دفنوه أجروا عليه الماء وقيل انه دفن بنهر يعقوب سكر أصحابه الماء ودفنوه ثم أجروا الماء وكان معهم مولى لزيد بن على من أهل السند قيل انه

رآهم

رآهم فلما تفرق الناس وتتبع يوسف بن عمر الجرحى دله السندى المذكور على موضع زيد فنبشه وقطع رأسه وسيرها الى الحيرة وأمر فصلبوا جثته بالكناسة ومعه نصر بن خزيمة ومعاوية بن اسحق وزياد النهدى وسيروا رأس زيد الى هشام بن عبد الملك فأمر بها فصلبت على باب دمشق ثم أرسلها الى المدينة وبقيت الجثة مصلوبة الى أن مات هشام وولى الوليد فأمر بانزالها واحراقها

وكثرت فى أيام هشام الخوارج والدعاة وكان لهم مع عماله وقائع مشهورة يطول شرحها وكان هشام حازما عاقلا صاحب سياسة حسنة ورأى ودهاء وحزم وفيه حلم فكان لذلك موفقا وكان يوصف بالبخل والحرص ويقال انه جمع من الاموال مالم يجمعه خليفة قبله * قال عقال ابن شبة دخلت على هشام وعليه قباء فنك أخضر فوجهنى الى خراسان وجعل يوصينى وأنا أنظر الى القباء ففطن فقال مالك فقلت رأيت عليك قبل أن تلى الخلافة قباء مثل هذا فجعلت أتأمل أهو هذا أم غيره فقال هو والله ذلك وأما ماترون من جمعى المال وصونه فهو لكم * قال وكان محشوا عقلا اه وكان حسن الخلق قال مجمع بن يعقوب الانصارى شتم هشام رجلا من الاشراف فوبخه ذلك الرجل وقال أما تستحى أن تشتمنى وأنت خليفة الله فى أرضه فاستحى منه وقال اقتص منى فقال اذا أنا سفيه مثلك قال فخذ منى عوضا من المال قال ما كنت لأفعل قال فهبها لله قال هى لله ثم نكس هشام رأسه واستحى وقال والله لاأعود الى مثلها أبدا *

ذكر صاحب الكامل أن الجعد بن درهم أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام فأخذه هشام وسيره به الى خالد القسرى وهو يومئذ على العراق وأمره بقتله فحبسه خالد ولم يقتله فبلغ الخبر هشاما فكتب الى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله فأخرجه خالد من الحبس فى وثاقه فلما صلى العيد يوم الاضحى قال فى آخر خطبته انصرفوا وضحوا يقبل الله منكم فانى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم فانه يقول ما كلم الله موسى ولا اتخذ ابراهيم خليلا تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل وذبحه اه وكان هشام شديد التمسك بدينه قيل انه تفقد بعض ولده فلم يحضر الجمعة فقال مامنعك من الصلاة قال نفقت دابتى قال أفعجزت عن المشى وأمر فمنعوه الدابة سنة ومات هشام بالرصافة لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة وكان مرضه الذبحة وعمره خمس وخمسون سنة وقيل ست وخمسون فكانت خلافته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وأحدا وعشرين يوما

واستعمل على مصر فى خلافته أخاه محمد بن عبد الملك وعزله وولى بعده الحر بن يوسف ثم ولى حفص بن الوليد فأقام الى آخر سنة ثمان ومائة وولى بعده فى سنة تسع ومائة عبد الملك ابن رفاعة ثم صرفه فى سنته وولى أخاه الوليد فأقام الى أن توفى سنة تسع عشرة فولى بعده عبد الرحمن بن خالد النهمى فأقام سبعة أشهر وصرف وأعيد حنظلة بن صفوان فى سنة عشرين ثم صرفه وأعاد حفص بن الوليد فأقام ثلاث سنين ثم عزل وكان عبد الله بن الحبحاب متولى الخراج بمصر فى سنة سبع ومائة للهجرة أى سنة سبع وعشرين وسبعمائة للميلاد فاشتد



على القبط فى تحصيل الخراج شدة بالغة وزاد قيراطا فى كل دينار فاسترجوه فلم يقبل فانتقض عليه عامة الحوف الشرقى من القبط فحاربهم وقتل وسبى ونهب وخرب وأراق الدماء أنهرا وقد كان قبله فى سنة أربع ومائة للهجرة اشتد أسامة بن زيد التنوخى متولى الخراج عليهم وأوقع بهم وأخذ أموالهم ووسم أيدى الرهبان بحلقة حديد منقوش عليها اسم الراهب وديره وتاريخه فكان اذا وجد أحدهم بغير وسم قطع يده وشهره وكتب الى جميع العمال بان من وجد من النصارى وليس معه منشور يؤخذ منه عشرة دنانير ثم كان منه بعد ذلك أن كبس دياراتهم وقبض على كثير من الرهبان بغير وسم فضرب أعناقهم وضرب باقيهم بالسياط حتى ماتوا تحت الضرب ثم أمر فهدموا الكنائس ونهبوا مافيها فكانت شدة عظيمة للغاية ووصل الخبر بذلك الى هشام بن عبد الملك فكتب هشام الى مصر بان يجرى النصارى على عوائدهم وما بأيديهم من العهد فلم يعمل حنظلة بن صفوان بما رسم به هشام بل شدد عليهم فى ولايته الثانية وزاد فى الخراج وأحصى الناس والبهائم وجعل على كل رجل منهم وسما صورة أسد وتتبعهم فمن وجد يده بغير وسم قطع يده فازدادت الشدة وعظم أمرها أياما كثيرة وكادت تهب الفتنة وتعم سائر البلاد فخاف العمال وانكفوا وسكنت الاحوال

ومات فى خلافة هشام الاكسندروس بطرك الاسكندرية فكانت مدته اربعا وعشرين سنة قاسى فيها من البلايا والمحن مامر بك بيانه فخلا الكرسى بعده أربع سنين فأقيم بعده قسما أوهو قزمان وهو رابع أربعيهم وأصله من نبا موسير فأقام سنة ومات ولم يعرف من أخباره شئ فقام بعده تاودورو وهو خامس أربعيهم وكان فى دير أبو يحنس وفى أيامه أحدثت كنيسة بوقنا بخط الحمرة ظاهر مدينة مصر فقام جماعة من المسلمين فى سنة سبع عشرة ومائة للهجرة أى نحو سنة سبع وثلاثين وسبعمائة للميلاد على الوليد بن رفاعة أمير مصر يومئذ بسببها وشددوا فى طلب هدمها وكادت الفتنة تنتشر ويعظم ضرامها وبقى الحال هكذا أياما كثيرة ثم سكنت * وفى سنة سبع ومائة أى فى خلافة هشام بن عبد الملك تمكن ملك الروم يومئذ من اقامة بطرك للملكية بالاسكندرية فمضى ومعه هدية سنية للغاية الى هشام فكتب له برد كنائس الملكية اليهم فأخذوا يومئذ من المتأصلين كنيسة البشارة وكان الملكيون أقاموا سبعا وسبعين سنة بغير بطرك فى أرض مصر من عهد عمر بن الخطاب الى خلافة هشام بن عبد الملك فغلب المتأصلون فى هذه المدة على كنائس مصر كافة وأقاموا منهم بها أساقفة وبعث اليهم أهل بلاد النوبة فى طلب أساقفة فسيروا اليهم جماعة فصارت النوبة من ذلك العهد على مذهب دسقورس وبقيت كذلك الى أن تفشت فيها الديانة الاسلامية وعمت سائر أرجائها فدانت بها الى هذا الحين * ولما مات هشام بن عبد الملك تولى الخلافة بعده ابن أخيه الوليد بن يزيد المعروف بالفاسق

(الفصل الحادى عشر)

(فى خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد هشام ابن أخيه الوليد بن يزيد المعروف بالفاسق بويع له بالخلافة فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة للهجرة أى نحو سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة للميلاد يوم موت عمه هشام بالرصافة وقد كان أبوه حين احتضر عهد بالامر الى هشام أخيه بأن يكون العهد من بعده لولده الوليد فلما مات هشام بويع له وهو اذ ذاك بالبرية فارا من عمه هشام لانه كان بينه وبين عمه منافسة بسبب استخفافه بالدين وشربه الخمر واشتهاره بالفسق فهم هشام بقتله ففر منه وصار لايقيم بأرض خوفا من هشام فلما كانت الليلة التى قدم عليه البريد فى صبيحتها بالخلافة قلق تلك الليلة قلقا شديدا فقال لبعض أصحابه ويحك انه قد أخذنى الليلة قلق فاركب بنا حتى نتنفس فسارا مقدار ميلين وهما يتحدثان فى أمر هشام وما يتعلق به مما كتبه اليه بالتهديد والوعيد ثم نظرا فرأيا من بعد رهجا وصوتا ثم انكشف ذلك عن بريد يطلبونه فقال لصاحبه ويحك ان هذه رسل هشام اللهم اعطنا خيرهم فلما قرب البريد منهما وأثبتوا الوليد معرفة ترجلوا وجاؤا فسلموا عليه بالخلافة فبهت وقال ويحكم أمات هشام قالوا نعم ثم أعطوه الكتب فقرأها وسار من فوره الى دمشق وكتب الى الآفاق بأخذ البيعة فجاءته بيعتهم وكتب اليه مروان بن محمد ببيعته واستأذنه فى القدوم عليه فلما استقرت به الخلافة أجرى على زمنى أهل الشام وعميهم وكساهم وأمر لكل انسان منهم بخادم وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزاد فى العطاء وزاد الوفود قال صاحب الكامل ولم يسئل فى شئ الاوقال

ضمنت لكم ان لم يعقنى عائق ✽ بأن سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك الحاق بعن زيادة ✽ وأعطية منى عليكم تبرع
فيجمعكم ديوانكم وعطاؤكم ✽ به تكتب الكتاب شهرا وتطبع

وقال حكم الوادى المغنى كنا مع الوليد وأتاه خبر موت هشام وهنئ بولاية الخلافة وأتاه القضيب والخاتم ثم قال فأمسكنا ساعة ونظرنا اليه بعين الخلافة فقال غنونى

طاب يومى ولذ شرب السلافه ✽ وأتانا نعى من بالرصافه
وأتانا البريد ينعى هشاما ✽ وأتانا بخاتم الخلافه
فاصطبحنا من خمر عانة صرفا ✽ ولهونا بقينة عرافه

قال وحلف لايبرح من موضعه حتى يغنى فى هذا الشعر ويشرب عليه ففعلنا ذلك ولم نزل نغنى الى الليل اه وعقد فى هذه السنة يعنى السنة التى تولى الخلافة فيها لولديه الحكم

وعثمان البيعة من بعده وجعلهما ولي عهده أحدهما بعد الآخر وجعل الحكم مقدما وكتب بذلك الى الآفاق وجعل يتنسم خبر أولاد الحسين بعد خروج زيد بن علي وقتله في خلافة هشام عمه * فلما كانت سنة خمس وعشرين جاء الخبر الى الوليد بالقبض على يحيي ابن زيد بن علي بن الحسين بخراسان وقد كان هرب اليها بعد موت أبيه زيد وسار منها الى بلخ مختفيا فأقام بها عند الحريش بن عمرو بن داود فكتب الوليد يأمره أن يؤمنوه ويخلوا سبيله وسبيل أصحابه فأطلقوهم فساروا الى نيسابور وبها عمرو بن زرارة وكان مع يحيي سبعون رجلا فرأى يحيي تجارا وجماعة من أبناء السبيل فسلبهم متاعهم وأخذ هو وأصحابه دوابهم ولحق بالجوزجان فسار في أثره سالم بن أحوز فلحقه بها فقاتله قتالا شديدا فقتل أصحاب يحيي عن آخرهم وأصاب يحيي بسهم في جبهته فاحتزوا رأسه وسلبوه قميصه وصلبوا جثته بالجوزجان * قال صاحب الكامل فلم يزل مصلوبا حتى ظهر أبو مسلم الخراساني واستولى على خراسان فأنزله وصلى عليه ودفنه وأمر بالنياحة عليه في خراسان وأخذ أبو مسلم ديوان بني أمية وعرف منه أسماء من حضر قتل يحيي فمن كان حيا قتله ومن كان ميتا خلفه في أهله بسوء وكانت أم يحيي ريطة بنت أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنيفة

وكان الوليد يتظاهر بالكفر والزندقة منهمكا على شرب الخمر واللذات والقصف واللهو قليل الاهتمام بأمور الرعية * قال الحافظ ابن عساكر وغيره انهمك الوليد في شرب الخمر ولذاته ورفض الآخرة وراء ظهره وأقبل على القصف واللهو والتلذذ مع الندماء والمغنين وكان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ويمشي بالدف وكان قد انتهك محارم الله تعالى حتى قيل له الفاسق وكان مع ذلك أكمل بني أمية أدبا وفصاحة وظرفا وأعرفهم بالنحو واللغة والحديث وكان جوادا مفضالا ولم يكن في بني أمية أكثر ادمانا للشراب والسماع ولا أشد مجونا وتهتكا واستخفافا لامر الامة من الوليد المذكور * ويقال انه واقع جارية له وهو سكران وجاءه المؤذنون يؤذنون بالصلاة فحلف أنه لا يصلي بالناس الا هي فلبست ثيابه وتنكرت وصلت بالمسلمين وهي جنب سكرى قال ويقال انه اصطنع بركة من خمر فكان اذا طرب ألقى بنفسه فيها وشرب منها حتى يبين النقص في أطرافها اه * ولما كثر مجونه وزاد حبه وولوعه للمعاقرة وشرب الخمر واتيان المنكرات والاستخفاف بأمور الرعية قام عليه أهل دمشق واجتمعوا على خلعه وبايعوا ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك الملقب بالناقص فخرج عليه يزيد وتغلب على دمشق وكان الوليد يومئذ بناحية تدمر في الصيد فجهز يزيد عسكرا وسار بهم نحوه فحاربوه الى أن أحاطوا به بحصن البخراء من أرض تدمر وشددوا في القتال وأخذوا عليه جميع الطرق وتسوروا عليه وذبحوه وأتوا برأسه على رمح فأمر به يزيد فنصبوه على سور دمشق * وقيل لما حصره أصحاب يزيد هم أصحابه بالقتال فنهاهم عن ذلك فأفلتوا من حوله فدخل عليه أصحاب يزيد في قصره فقال يوم كيوم عثمان فقيل له ولا سواء فقطع رأسه وطيف به في دمشق ثم نصب على قصره ثم على

أعلى

أعلى سور دمشق • وكان أكثر الناس بغضا اليه وأكبرهم حقدا عليه أهل اليمن فسعوا في قتله وأغروا به يزيد حتى ركب عليه وقتله • وقال حمزة بن بيض في الوليد

وصلت سماء الضر بالضر بعدما • زعمت سماء الضر عنا ستقلع
فليت هشاما كان حيا يسومنا • وكنا كما كنا نرجى ونطمع

وقال أيضا

ياوليد الخنا تركت الطريقا • واضحا وارتكبت فجا عميقا
وتماديت واعتديت وأسرفـ • ـت وأغويت وانبعثت فسوقا
أبدا هات ثم هات وهاتى • ثم هاتى حتى تخر صعيقا
أنت سكران ماتفيق فما تر • تق فتقا وقد فتقت فتوقا

وحكى الماوردى فى كتاب أدب الدين والدنيا عن الوليد بن يزيد المذكور أنه تفاءل يوما فى المصحف فخرج له قوله تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد فمزق المصحف وأنشأ يقول

أتوعد كل جبار عنيد • فها أنا ذاك جبار عنيد
اذا ماجئت ربك يوم حشر • فقل يا رب مزقنى الوليد

قال فلم يلبث الا أياما قليلة حتى قتل شرقتلة وصلب رأسه على قصره ثم على أعلى سور بلده اه قتل فى جمادى الاولى سنة ست وعشرين ومائة وكانت خلافته سنة واحدة وقيل سنة وشهرين وبموته اضطربت الامور واختل نظام البلاد واضطرمت نار الفتنة واستنصر على بنى أمية أعداؤهم فزالت هيبتهم وذهبت شوكتهم فلم تقم لهم قائمة بعده كاسيذكر فى محله • ومع مااشتهر به الوليد من الزندقة والتظاهر بالمنكرات فقد كان له محاسن أخرى فمما نقل عنه من حسن الكلام ماقاله لما مات مسلمة بن عبد الملك لهشام وهو جالس للعزاء فقد أتاه الوليد المذكور وهو نشوان يجرّ مطرف خز عليه فوقف على هشام فقال ياأمير المؤمنين ان عقبى من بقى لحوق من مضى وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى • واختل الثغر فهوى وعلى اثر من سلف • يمضى من خلف • فتزودوا فان خير الزاد التقوى اه فأعرض هشام ولم يحر جوابا وسكت القوم فلم ينطقوا • قيل وقد نزه قوم الوليد عما قيل فيه وأنكروه ونفوه عنه وقالوا انه قيل عنه وألصق به وليس بصحيح • وكان من فتيان بنى أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم وأشدائهم وله شعر جيد للغاية لاسيما فى الخمر والغزل والعتاب وقد أخذ كثير من الشعراء معانيه فى وصف الخمر فسرقوها وأدخلوها فى أشعارهم وخاصة أبا نواس فانه أكثرهم أخذا لها • قال المدائنى دخل ابن للغمر بن يزيد أخى الوليد على الرشيد فقال له ممن أنت فقال من قريش قال من أيها فأمسك فقال قل وأنت آمن ولو أنك مروان فقال أنا ابن الغمر بن يزيد فقال رحم الله عمك الوليد ولعن يزيد الناقص فانه قتل خليفة مجمعا عليه ارفع حوائجك فرفعها فقضاها

وفى أيامه انتقض القبط بصعيد مصر من جور العمال وشقوا عصا الطاعة فوقعت الحرب بينهم وبين الجند المرابط بمصر واقتتلوا أياما كثيرة فقتل خلق ثم خرج يحنس القبطى وكان من فحول زمانه وكبار القوم وعظمائهم فى مدينة سمنود فحارب العمال وقاتلهم قتالا عنيفا ودامت الفتنة أياما كثيرة اشتد فيها المسلمون على النصارى شدّة بالغة وطال الاخذ والرد وعمت الصعيدين ثم انجلت بموت يحنس المذكور وخلق معه فكانت فتنة عظيمة للغاية على جميع النصارى وبموت الوليد بن يزيد تولى الخلافة بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك

(الفصل الثانى عشر)

(فى خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان)

ثم قام بالامر بعد الوليد يزيد بن الوليد بن عبد الملك بويع له بالخلافة يوم قتل ابن عمه الوليد سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ميلادية وهو أول خليفة كانت أمه أمة وكان بنو أمية يتحرزون ذلك تعظيما للخلافة ولماسقط اليهم أن ملكهم يزول على يد خليفة أمه أمة كانوا يتخوفون من ذلك الى أن ولى الخلافة الوليد بن يزيد فعلموا أن ملكهم قد انقضى * وكان يزيد المذكور يسمى الناقص وانما سمى بذلك لانه نقص أعطيات الناس وردهم الى ما كانوا عليه أيام هشام وقيل لنقصان كان فى أصابع رجليه وأول من سماه بهذا الاسم مروان بن محمد * ولما تولى الخلافة خطب الناس فذم الوليد وذكر الحاده وانه انما قتله لفعله الخبيث ثم قال * أيها الناس ان لكم على أن لاأضع حجرا على حجر ولا لبنة ولا اكترى نهرا ولا أكثر مالا ولاأعطيه زوجة وولدا ولا أنقل مالا عن بلد حتى أسد ثغره وخصاصة أهله بما يغنيهم فما فضل نقلته الى البلد الذى يليه ولا أجمركم فى ثغوركم فأفتنكم ولا أغلق بابى دونكم ولا أحمل على أهل جزيتكم ولكم أعطياتكم كل سنة وأرزاقكم فى كل شهر حتى يكون أقصاكم كأدناكم فان وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن الوزارة وان لم أف فلكم أن تخلعونى الا أن أتوب وان علمتم أحدا ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيكم وأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه أيها الناس لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق اه

وأقام يزيد فى الخلافة والامور مضطربة عليه اذ قامت الفتنة على ساقها وهاجت وخرج أهل حمص واختلف أهل فلسطين ووثبوا على عمالهم ووثب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعمان وكان قد حبسه الوليد بها فخرج من الحبس وأخذ ما كان بها من الاموال وأقبل الى دمشق وجعل يلعن الوليد ويسبه وخرج أهل اليمامة أيضا على عاملهم يوسف ابن عمر واقتتلوا واشتد الاضطراب وعم الخلل ولم تكن لتستقر به الخلافة حتى مرض فى سنة ست وعشرين ومائة هجرية فلما علم جماعة القدرية وهم شيعته بمرضه دخلوا عليه وما زالوا

به

به حتى وسم بالبيعة لاخيه ابراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ومات لعشر بقين من ذى الحجة وقيل فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة هجرية وهو ابن أربعين سنة وقيل ست وأربعين وقيل سبع وثلاثين سنة فكانت خلافته ستة أشهر وليلتين وقيل ستة أشهر واثنى عشر يوما وقيل خمسة أشهر واثنى عشر يوما وكان موته بدمشق وكان يظهر التنسك وقراءة القرآن وأخلاق عمر بن عبد العزيز وكان ذا دين وورع قال الشافعى ولى يزيد بن الوليد فدعا الناس الى القدر اه وهو أول من خرج بالسلاح يوم العيد خرج بين صفين يحملون السلاح وكان آخر ماتكلم لما احتضر واحسرتاه وا أسفاه ولما مات تولى الخلافة بعده أخوه ابراهيم بن الوليد

(الفصل الثالث عشر)

(فى خلافة ابراهيم بن الوليد)

ثم قام بالامر بعد يزيد أخوه ابراهيم بعهد من يزيد بويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أخوه سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة للميلاد ولم يثبت له الامر لاضطراب الأمور ووقوع الخلاف فكان جمعة يسلم عليه بالخلافة وجمعة بالامارة وجمعة لايسلم عليه لابالخلافة ولا بالامارة وما زالت الامور مضطربة والفتنة يتقد لهيبها من بلد الى آخر الى أن قتله مروان بن محمد وصلبه وكان مروان المذكور واليا على الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان ولاه عليها الوليد خوفا من خروجه عليه فقد كان حضر فى جيش عظيم لقتال الوليد ورده عن الملك ولم يبايعه حتى ولاه ماذكر فخرج فى ثمانين ألفا من أهل الجزيرة وأهل قنسرين وأهل حمص فسير لقتالهم ابراهيم بن الوليد جندا من دمشق مع سليمان بن هشام فنزل عين الجر فى مائة وعشرين ألفا ونزلها أيضا مروان فى ثمانين ألفا ودعاهم مروان الى الكف عن قتاله واطلاق ابنى الوليد الحكم وعثمان من السجن وضمن لهم أنه لايطلب أحدا من قتلة الوليد فلم يجيبوه الى شئ من ذلك وجدوا فى قتال بعضهم وكثر القتل بينهم واشتد فانهزم أصحاب سليمان بن هشام ووضع أهل حمص السلاح فيهم فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأتوا مروان من أسرائهم بمثل القتلى فأخذ مروان عليهم البيعة لولدى الوليد الحكم وعثمان وكانا معتقلين وهرب سليمان بن هشام مع من بقى واجتمعوا مع ابراهيم وعبد العزيز بن الحجاج فقال بعضهم لبعض ان بقى ولدا الوليد حتى يخرجهما مروان ويصير الامر اليهما لم يستبقيا أحدا من قتلة أبيهما فأمروا بقتلهما وأخرج يوسف بن عمر فضربت عنقه وأرادوا قتل أبى محمد السفيانى فدخل بيتا من بيوت السجن وأغلقه فلم يقدروا على فتحه فأرادوا احراقه فلم يؤتوا بالنار لاحراقه حتى قيل قد دخلت

خيل مروان المدينة فهربوا واختفى ابراهيم وانتهب مروان مافى بيت المال فكان شيأ كثيرا وكانت خلافة ابراهيم شهرين وعشرة أيام فبايع الناس مروان على ماسيذكر فى محله واستوثق له الامر قبل ظهور ابراهيم بن الوليد ودخل عليه ونزل له عن الخلافة وذلك سنة سبع وعشرين ومائة هجرية أى سنة أربع وأربعين وسبعمائة ميلادية * واستعمل على مصر فى خلافته حسان بن عتاهية التجيبى ثم عزله وأعاد حفص بن الوليد فبقى الى أن عزل فى سنة ثمان وعشرين ومائة هجرية

(الفصل الرابع عشر)

(فى خلافة مروان بن محمد)

لما قتل ابراهيم بن الوليد بويع لمروان بن محمد المنبوز بالحمار بالخلافة سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ميلادية * وتحرير الخبر أنه لما دخل مروان دمشق وهرب ابراهيم بن الوليد ومن معه كما تقدم القول ثار من بدمشق من موالى الوليد الى دار عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فقتلوا الحجاج ونبشوا قبر يزيد بن الوليد وأخرجوا جثته وصلبوها على باب الجابية وكثرت الفتنة وأتى مروان بولدى الوليد الحكم وعثمان مقتولين وبيوسف بن عمر فدفنهم وأخرج محمد السفيانى من محبسه يجر فى قيوده فلما وقف السفيانى بين يديه سلم عليه بالخلافة وقد كان يسلم على مروان الى ذلك اليوم بالامرة فأسكته مروان فقال محمد السفيانى انهما جعلاها لك بعدهما * قال صاحب الكامل وأنشده شعرا قاله الحكم

ألا من مبلغ مروان عنى * وعمى الغمر طال به حنينا
بأنى قد ظلمت وصار قومى * على قتل الوليد مشايعينا
أيذهب كلهم بدمى ومالى * فلا غثا أصبت ولا سمينا
ومروان بأرض بنى نزار * كليث الغاب مفترس عرينا
أتنكث بيعتى من أجل أمى * فقد بايعتم قبلى هجينا
فان أهلك أنا وولى عهدى * فمروان أمير المؤمنينا

ثم قال لمروان أبسط يدك أبايعك وسمعه جميع من حضر فكان أول من بايع معاوية ابن يزيد بن حصين بن نمير وعظماء أهل حمص والناس بعدهم فلما استقر له الامر رجع الى أهل بحوران فتقدم اليه جماعة فى طلب الأمان لابراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام فأمنهما فقدما عليه وبايعاه كما تقدم القول * ولم تستقر به الخلافة حتى ظهر الاضطراب وظهر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة ودعا الناس الى نفسه وتغلب

على حلوان والجبال وهمدان وأصبهان والرى وكثرت لمومه وخرج اليه عبيد أهل الكوفة وانتقض أهل حمص فقاتلهم مروان ودخل حمص وأعمل فى أهلها السيف وهدم من سورها نحو غلوة وخالف أهل الغوطة فحصروا دمشق ومقدمهم يومئذ يزيد بن خالد فسير اليهم مروان عشرة آلاف من حمص فقاتلوهم قتالا شديدا وأخذوا مقدمهم يزيد بن خالد المذكور فاحتزوا رأسه وبعثوا به الى مروان بحمص * واختلف أيضا أهل فلسطين وانتقضوا فسير لهم مروان عسكرا ومقدمهم أبو الورد فقاتلوهم وشدد أبو الورد فى قتالهم حتى هزمهم وجاء مروان الخبر وهو يومئذ بدير أيوب ففرح بذلك وبايع لابنيه عبيدالله وعبدالله وزوجهما ابنتى هشام بن عبد الملك * قال أصحاب التاريخ فجمع لذلك بنى أمية واستقام له الشام ماخلا تدمر فسار اليها وأرسل من يقاتلها فاستأمن من بها بعد القتال وهدم سورها * وأرسل مروان الى الشام بعد ذلك فى طلب الجند لقتال الضحاك بالعراق وقد كان خرج عن طاعة مروان وتقدم مروان الى قرقيسيا فبينما هو بها اذ رجع عشرة آلاف ممن كان أخذهم من أهل الشام لقتال الضحاك فنزلوا بالرصافة وحببوا الى سليمان بن هشام بن عبد الملك خلع مروان بن محمد ومنوه بالخلافة ان هو فعل ذلك فأجابهم وسار باخوته ومواليه معهم فعسكر بقنسرين وكاتب أهل الشام فأتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان فرجع اليه من قرقيسيا واجتمع الى سليمان بن هشام نحو من سبعين ألفا من أهل الشام وغيرهم وعسكر بقرية خساف من أرض قنسرين فجاءه مروان عند وصوله واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم سليمان ومن معه واتبعتهم خيل مروان تقتل وتأسر واستباحوا عسكرهم فبلغ قتلى أصحاب سليمان زهاء ثلاثين ألفا وقتل ابراهيم بن سليمان وأكبر ولده ومضى سليمان حتى دخل حمص وانضم اليه من بقى من عسكره فتحصن بها ورم ماتخرب من أسوارها فتبعه مروان وقاتله فهزمه فخرج سليمان ومضى الى تدمر فأقام بها ونزل مروان على حمص فحاصر أهلها عشرة أشهر قال أصحاب التاريخ ونصب عليهم نيفا وثمانين منجنيقا يرمى بها الليل والنهار فلما تتابع عليهم البلاء طلبوا الامان فأمنهم

وفى خلال هذه الخطوب والحروب ظهر أبومسلم الخراسانى وهو عبد الرحمن صاحب الدعوة العباسية بخراسان وظهر السفاح بالكوفة فلما استقر للسفاح الامر وظهرت آثار الدعوة لبنى العباس على ماسنذكره فى محله ان شاء الله جهز السفاح عمه عبدالله بن على بن عبدالله بن عباس لقتال مروان بن محمد فالتقى الجمعان بالزاب زاب الموصل وجعل كل فريق يرتب عسكره ويبالغ فى ترتيبها فقال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ياعبد العزيز ان زالت اليوم الشمس ولم يقاتلونا كنا الذين ندفعها الى المسيح عليه السلام وان قاتلونا فأقبل الزوال فانا لله وانا اليه راجعون * وأرسل مروان الى عبدالله بن على مقدم عسكر السفاح يسأله الموادعة فقال عبدالله كذب ابن رزيق لاتزول الشمس حتى أوطئه الخيل ان شاء الله فقال مروان لاهل الشام



فقفوا الاتبدؤهم بالقتال وجعل ينظر الى الشمس فحمل الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم وهو ختن مروان بن محمد على ابنته فغضب مروان من ذلك وشتمه وأمر عبدالله الناس بان ينزلوا عن خيلهم فنزلوا وأشرعوا الرماح وجثوا على الركب ولم يظهروا عزما على القتال فاندفع عليهم أصحاب مروان وقاتلوهم فجعل أهل الشام يتأخرون كأنهم يدفعون فنادى عند ذلك عبد الله بن علىّ بأهل خراسان بالثارات ابراهيم يامحمد يامنصور واشتد بينهم القتال وحمى الوطيس وضعفت همم أصحاب مروان وتثاقلوا عن القتال فكان مروان ذلك اليوم لايدبر شيأ الاكان فيه الخلل وانفل عسكره فشلا عظيما وانهزموا وانهزم مروان وقطع الجسر فكان من غرق يومئذ عند عبور ذلك الجسر أكثر ممن قتل * وكتب عبدالله بن علىّ الى السفاح بالفتح وحوى عسكر مروان بما فيه فكان فيه من السلاح والكراع والاموال شيأ كثيرا للغاية فلما وصل الكتاب الى السفاح فرح فرحا لايوصف وخر ساجدا لله تعالى وأمر لمن شهد الواقعة بخمسمائة دينار ورفع أرزاقهم الى ثمانين * ولما تمت هزيمة مروان تبعه عبد الله الى أن وصل نهر الاردن فلقى جماعة من بنى أمية وكانوا نيفا وثمانين رجلا فقتلهم عن آخرهم ثم أمر عبد الله بسحبهم فسحبوا وبسط عليهم بساط وجلس هو وأصحابه فوقهم واستدعى بالطعام فأكلوا وهم يسمعون أنينهم من تحتهم فقال عبد الله يوم كيوم الحسين ولا سواء ولما رأى مروان اشتداد الفتنة واستفحال الخطب وان الاعداء كادوا يطبقون عليه من كل جانب وكان قد نزل بحوران قام منها قاصدا أباعون عبد الملك بن يزيد الاسدى الذى ولاه السفاح على شهرزور فلاقاه جند عبد الله بن علىّ العباسى فرقى أشهر أمة بالموصل فرأى الرايات سودا وهى رايات العباسيين فذهب الى حوران وأقام نيفا عن عشرين يوما حتى دنا منه عسكر السفاح فسار الى حمص ثم الى دمشق ثم الى فلسطين وكان السفاح قد كتب الى عمه عبدالله فتبعه عبدالله الى دمشق وجهز السفاح أيضا عمه صالح بن علىّ على طريق السماوة فلحق بأخيه عبد الله وقد نزل دمشق وافتتحها عنوة وأباحها ثلاثة أيام ونقض عبد الله سورها فلم يبق فيه حجرا على حجر وهرب مروان الى مصر فتبعه صالح بن علىّ ومروان ينهزم أمامه حتى أدركه أبوعون وجماعة أصحاب صالح ببعض فى كنيسة بأبى صير من صعيد مصر وقد تبددت أصحابه ولم يبق معه الا القليل جدا فقاتلوه ليلا وكان أصحاب صالح قليلين فخافوا ان هم أصبحوا ورأوا أصحاب مروان قلتهم أهلكوهم فتحالفوا على القتال ليلا وكسروا أجفان سيوفهم وحملوا على أصحاب مروان فانهزموا وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لايعرفه وصاح صائح صرع أمير المؤمنين فابتدروه واحتزوا رأسه وبعثوا به الى صالح فلما وصل اليه أمر أن ينفض لسانه فقطعوا لسانه وتركوه لحظة لطيفة فأتت هرة فأخذته فقال صالح ماذا ترينا الايام من العجائب والعبر هذا لسان مروان قد أخذته هرة وذلك فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية وقيل ثلاث وثلاثين ومائة أى نحو سنة خمسين وسبعمائة ميلادية وهو ابن ست وخمسين سنة فكانت خلافته خمس سنين وشهرين

وعشرة أيام وهو آخر خلفاء بنى أمية فكانوا أربعة عشر خليفة أولهم معاوية بن أبى سفيان وآخرهم مروان الجعدى المنبوز بالحمار وكانت مدة خلافتهم نيفا وثمانين سنة وهى ألف شهر * ورجع صالح الى الشام ومعه رأس مروان وخلف أبا عون بمصر فلما رفع صالح رأس مروان الى السفاح سجد لله شكرا * وذكر أنه بينما كان مروان يحارب على الزاب ترجل عن فرسه لحاجة طبيعية فرجع الفرس الى الوراء فظن عسكره انه قتل فوقع فيهم الخوف وانفشلوا وهربوا فصار ذهاب ملكهم مثلا فقيل * انتهى ملك بنى أمية ببولة * ولما قتل مروان هرب ولداه عبيد الله وعبدالله الى أرض الحبشة فقتل عبيد الله قتله الحبشان ونجا عبدالله فى عدد من أصحابه وبقى الى خلافة المهدى حتى قبض عليه نصر بن محمد بن الاشعث عامل فلسطين وبعث به الى المهدى * وكان مروان المذكور بطلا شديدا شجاعا ذاهيبة أبيض ربعة أشهل ضخما كث اللحية وكان حازما سياسيا واستعمل على مصر فى خلافته الحوثرة بن سهيل الباهلى ثم ولى بعده المغيرة بن عبيد الفزارى سنة احدى وثلاثين ومائة ثم ولى عبد الملك بن مروان مولى لخم سنة ثنتين وثلاثين ومائة فلما قامت الدولة العباسية واستقام الامر للسفاح على ماسيذكر فى محله وانهزم مروان الحمار وهرب الى مصر ولى السفاح نيابة الشام ومصر صالح بن على بن عبد الله بن عباس فسار صالح بعد قتل مروان الى الشام واستخلف على مصر أبا عون عبد الملك بن يزيد الاسدى كما تقدم القول

(فصـــــل)

(فى كيفية الدعوة لبنى العباس وفى ظهور دولتهم)

لما كان ظهور الدولة العباسية من الاهمية التاريخية بمكان لاسيما وفى ذكر حوادث ذلك الظهور وأصل الدعوة لبنى العباس وما ترتب عليها تذكرة وعبرة رأيت أن لابأس بايراد تفصيلها هنا اظهارا لاصل الدعوة وكيف كان كتمانها بين الاحزاب أعواما مع كثرة الدعاة وتخلفهم على الناس * قال أصحاب التاريخ لما كان محمد بن على بن عبد الله بن عباس نازلا بأرض الشراة من أعمال البلقاء بالشام خرج أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الى الشام يريد لقاء سليمان بن عبد الملك فاجتمع به محمد بن على بن عبدالله بن عباس المذكور فأحسن صحبته واجتمع أبو هاشم بسليمان فأكرمه وقضى حوائجه ورأى من علمه وفصاحته ماحسده عليه وخافه فوضع عليه من وقف على طريقه فسمه فى لبن فلما أحس أبو هاشم بذلك قصد الحمية وبها محمد بن على بن عبد الله المذكور فنزل عليه فأخبره بخبره وأعلمه أن أمر الخلافة صائر الى ولد محمد بن على بن عباس المذكور وعرفه مايعمل وأوصاه بكتمان الامر



وكان أبو هاشم قد أعلم شيعته من أهل خراسان والعراق عند ترددهم اليه أن أمر الخلافة صائر الى ولد محمد بن علىّ وأوصاهم بقصده بعده * فلما مات أبو هاشم قصدت شيعته محمد بن علىّ وبايعوه وعادوا فدعوا الناس اليه فأجابوهم وسير محمد بن عبد الله الى الآفاق بجماعة فوجه ميسرة الى العراق ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وهو أبو محمد الصادق وحيان العطار وخال ابراهيم بن سلمة الى خراسان وعليها الجراح الحكمى وأمرهم بالدعاء اليه والى أهل بيته فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم الى محمد بن علىّ فدفعوها الى ميسرة فبعث بها ميسرة الى محمد بن علىّ ففرح بها واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علىّ اثنى عشر نقيبا وسبعين رجلا أخر فكتب لهم محمد بن على كتابا ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها وذلك سنة مائة للهجرة فعملوا به وجعلوا يدعون الناس فظهر أمرهم بخراسان فجاء رجل الى سعيد بن خزيمة عامل خراسان فقال له ان ههنا قوما قد ظهر منهم كلام قبيح وأعلمه حالهم فبعث سعيد اليهم فأتى بهم فقال من أنتم قالوا ناس من التجار قال فما هذا الذى يحكى عنكم قالوا لاندرى قال جئتم دعاة قالوا ان لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا فقال من يعرف هؤلاء فجاء ناس من أهل خراسان أكثرهم من أهل ربيعة واليمن فقالوا نحن نعرفهم وهم علينا ان أتاك منهم شئ تكرهه فخلى سبيلهم فظلوا على ما كانوا عليه من الدعوة الى محمد بن علىّ وابن خزيمة لاه عنهم

فلما كانت سنة أربع ومائة هجرية ولد (أبو العباس عبدالله) بن محمد بن على بن محمد بن على فى ربيع الآخر وهو السفاح وجاء الى أبيه محمد بن على (أبو محمد الصادق) من خراسان فى عدة من أصحابه فأخرج اليهم محمد بن على ولده أبا العباس المذكور فى خرقة وله خمسة عشر يوما وقال لهم هذا صاحبكم الذى يتم الامر على يده ففرحوا به وقبلوا أطرافه وقال لهم والله ليتمن الله هذا الامر حتى تدركوا ثاركم من عدوكم * قالوا وكان أول من قدم خراسان من دعاة بنى العباس زياد أبو محمد مولى همدان فى ولاية أسيد بعث به محمد بن على ابن عبد الله بن عباس وقال له انزل فى اليمن والطف بمضر ونهاه عن رجل بنيسابور يقال له غالب لانه كان مفرطا فى حب بنى فاطمة ويقال أول من أتى خراسان بكتاب محمد بن على حرب بن عثمان مولى بنى قيس بن ثعلبة من أهل بلخ فلما قدم زياد دعا الى بنى العباس وذكر سيرة بنى أمية وظلمهم وأطعم الناس الطعام فقدم عليه غالب من نيسابور فتناظرا فى تفضيل آل علىّ وآل العباس ثم افترقا وأقام زياد بمروشتوة فكان يختلف اليه من أهلها جماعة فعلم أسيد بخبره فدعاه وقال ما هذا الذى بلغنى عنك قال الباطل انما قدمت الى تجارة وقد فرقت مالى على الناس فاذا اجتمع خرجت فقال له أسيد اخرج عن بلادى فانصرف من عنده وعاد الى ما كان عليه من دعوة الناس فرفعوا أمره الى أسيد ثانية وخوفوه من جانبه فأحضره وقتله وقتل معه عشرة من أهل الكوفة ولم ينج منهم الا صغيران

وقيل

وقيل بل أمر زياد أن يوسط بالسيف أى يقطع نصفين فضربوه بالسيف فلم يعمل فيه فكبر الناس فقال أسيد ما هذا قيل نبا السيف عنه ثم ضرب أخرى فنبا السيف عنه ثم ضربه الثالثة فقطعه اثنتين وعرض البراءة على أصحابه فمن تبرأ خلى عنه وذلك قبل الاضحى بأربعة أيام * فقام بالامر بعدهم رجل من أهل الكوفة يسمى كثيرا فنزل على أبى النجم فكان يأتى اليه كل من تبع مقالة زياد وبقى على هذا الحال سنة أوسنتين * واشتد ابن أسيد والى خراسان على من بها من الاحزاب فقتل وجلد وحبس منهم خلقا ووجه بكير بن ماهان فى نحو سنة ثمان عشرة ومائة هجرية عمار بن يزيد واليا على شيعة بنى العباس فنزل مرو وغير اسمه وتسمى بخداش ودعا الى محمد بن على فتسارع اليه الناس وأطاعوه فلما ظهرت كلمته غير مادعاهم اليه وأظهر دين الخرمية ورخص لبعضهم فى نساء بعض وقال لهم انه لاصوم ولا صلاة ولاحج وان تأويل الصوم أن يصام على ذكر الامام فلا يباح باسمه والصلاة الدعاء له والحج القصد اليه وكان يتأول بعض آيات القرآن وكان ممن اتبعه على مقالته مالك بن الهيثم والحريش بن سليم الاعجمى وغيرهما فأخبرهم أن محمد بن على بن عبدالله بن العباس أمر بذلك فبلغ خبره أسيد بن عبدالله والى خراسان فظفر به فأغلظ القول لأسيد فقطع لسانه وسمل عينيه ثم صلبه * وكان لما ظهر أمر خداش المذكور وأطاعه من أطاعه من الاحزاب بخراسان أهمل محمد بن على بن عبد الله أمرهم وترك مكاتبتهم ومراسلاتهم فلما قتل خداش وجهوا اليه سليمان بن كثير ليعلمه أمرهم وماهم عليه فعنفه محمد فى ذلك ثم صرفه الى خراسان ومعه كتاب مختوم فلما فضوه لم يروا فيه الا بسم الله الرحمن الرحيم فعظم ذلك عليهم وعلموا مخالفة خداش لأمره ثم وجه اليهم بكير بن ماهان بعد ذلك وكتب معه اليهم يعلمهم كذب خداش فلم يصدقوه واستخفوا به فعاد بكير الى محمد فبعث معه بعصى مضببة بعضها بحديد وبعضها بنحاس فجمع بكير النقباء والشيعة ودفع الى كل واحد منهم عصا فعلموا أنهم مخالفون لسيرته فتابوا ورجعوا

وما زال السر مكتوما والدعوة الى ولد العباس جارية والنقباء يعملون على جمع القلوب واستمالة الناس حتى كانت سنة تسع وعشرين ومائة هجرية ظهر أبومسلم الخراسانى فكان تمام الامر على يديه * قال جماعة الكتاب وأبومسلم هذا هو ابراهيم بن عثمان بن بشار بن سدوس بن جودرزه من ولد بزرجمهر الفارسى ويكنى أبا اسحق ولد باصبهان ونشأ بالكوفة وكان أبوه أوصى الى عيسى بن موسى السراج فحمله الى الكوفة وهو ابن سبع سنين وقال بعضهم انه من أهل ضياع بنى معقل العجلية باصبهان أوغيرها من الجبل وكان اسمه ابراهيم ويلقب حيكان وكان مع أبى موسى السراج صاحبه يخرز الاعنة ويعمل السروج وله معرفة بصناعة الأدم والسروج فكان يحملها الى اصبهان والجبال والجزيرة والموصل ونصيبين وآمد وغيرها يتجر فيها فاتصل بابراهيم بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس الامام أحد الائمة الاثنى عشر من ولد العباس فتخيل فيه النجابة والفتوة وتحقق أن الامر يتم على يديه لبنى العباس

فقال له غير اسمك فانه لايتم لنا الامر الا بتغيير اسمك فسمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم ويكنى أبا مسلم وكان له من العمر يومئذ تسع عشرة سنة ثم زوجه ابراهيم الامام ابنة عمران بن اسمعيل الطائى المعروف بأبى النجم وهى بخراسان مع أبيها فبنى بها أبومسلم بخراسان وولدت له ابنتين فاطمة وأسماء وفاطمة هى التى تذكرها الخرمية فى مذهبهم الذى دعاهم اليه خداش • قال ابن خلكان ونشأ أبو مسلم عند عيسى بن معقل بن عمير أخى ادريس بن معقل جد أبى دلف العجلى برستاق فابق فلما ترعرع اختلف مع ولده الى المكتب فخرج أديبا لبيبا يشار اليه فى صغره ثم انه اجتمع على عيسى بن معقل وأخيه ادريس بقايا من الخراج تقاعدا من أجلها عن حضور مؤدى الخراج باصبهان فأنهى عامل اصبهان خبرهما الى خالد بن عبدالله القسرى والى العراقين فأنفذ خالد من الكوفة من حملهما اليه بعد قبضه عليهما فتركهما خالد فى السجن فصادفا فيه عاصم بن يوسف العجلى محبوسا بسبب من أسباب الفساد وقد كان عيسى بن معقل قبل أن يقبض عليه أنفذ أبا مسلم الى قرية من رستاق فابق لاحتمال غلتها فلما اتصل به خبر عيسى بن معقل باع ما كان احتمله من الغلة وأخذ ما كان اجتمع عنده من ثمنها ولحق بعيسى بن معقل فأنزله عيسى بداره فى بنى عجل وكان يختلف الى السجن ويتعهد عيسى وادريس ابنى معقل وكان قد قدم الكوفة جماعة من نقباء الامام محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب مع عدة من الشيعة الخراسانية فدخلوا على العجليين السجن مسلمين فصادفوا أبا مسلم عندهم فأعجبهم عقله ومعرفته وكلامه وأدبه ومال هو اليهم ثم عرف أمرهم وأنهم دعاة واتفق مع ذلك أن هرب عيسى وادريس من السجن فعدل أبومسلم من دور بنى عجل الى هؤلاء النقباء ثم خرج معهم الى مكة حرسها الله تعالى فأورد النقباء على ابراهيم بن محمد الامام وكان قد تولى الامامة بعد وفاة أبيه عشرين ألف دينار ومائتى ألف درهم وأهدوا اليه أبا مسلم فأعجب به وبمنطقه وعقله وأدبه وقال لهم هذا عضلة من العضل وأقام أبومسلم عند الامام يخدمه حضرا وسفرا ثم ان النقباء عادوا الى الامام وسألوه رجلا يقوم بأمر خراسان فقال انى جربت هذا الاصبهانى وعرفت ظاهره وباطنه فوجدته حجر الارض ثم دعا أبا مسلم وقلده الامر وأرسله الى خراسان فكان من أمرهما كان وكان ابراهيم الامام قد أرسل الى أهل خراسان سليمان بن كثير بن الحرانى يدعوهم الى أهل البيت فلما بعث أبا مسلم أمر من هنالك بالسمع والطاعة وأمره أن لايخالف سليمان بن كثير فكان أبومسلم يختلف مابين ابراهيم وسليمان اهـ

ويقال ان أبا مسلم المذكور ولد بمدينة جى الاصبهانية وكان أول ظهوره بمرو يوم الجمعة لتسع بقين من رمضان سنة تسع وعشرين ومائة والوالى بخراسان يومئذ نصر بن سيار الليثى من قبل مروان بن محمد المنبوز بالحمار آخر خلفاء بنى أمية فكتب نصر يومئذ الى مروان يقول

أرى جذعا ان يثن لم يقو ريض • عليه فبادر قبل أن يثنى الجذع

وكان

وكان مروان يومئذ مشغولا عن أبى مسلم بغيره ممن خرج بالجزيرة وغيرها فلم يجبه عن كتاب نصر بن سيار ولم يكن أبو مسلم يومئذ الا فى خمسين رجلا فكتب نصر ثانية الى مروان يقول

أرى خلل الرماد وميض نار * ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالزندين تورى * وان الحرب أولها كلام
لئن لم يطفها عقلاء قوم * يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعرى * أأيقاظ أمية أم نيام
فان كانوا لحينهم نياما * فقل قوموا فقد حان القيام

فلم يرد عليه الجواب ولما علم مروان بخبر ابراهيم الامام وتخلف الناس اليه وتقربهم منه سير رجلا للقبض عليه ووصف له صفته وهى صفة أبى العباس لأنه كان يسمع أن فى الكتب أن من كانت هذه صفته يقتلهم ويسلبهم ملكهم * قال ابن أشعث قال خالد بن يزيد ابن معاوية لعبد الملك بن مروان أما انا كان الفتق من سجستان فليس عليك منه بأس انما كنا نتخوف لو كان من خراسان يعنى حيث غلب أبو مسلم * وقال محمد بن على بن عبدالله لنا ثلاثة أوقات موت الطاغية يزيد بن معاوية ورأس المائة وفتق افريقية فعند ذلك يدعو لنا دعاة ثم تقبل أنصارنا من المشرق حتى ترد خيلهم ويستخرجون ما كنز الجبارون اه وقال مروان لرسوله ان اسم الذى تقبض عليه ابراهيم بن محمد فلما وصل الرسول أخذ أبا العباس بالصفة التى قال له عنها مروان وقد كان ابراهيم مختفيا فظهر وأمن جانب الرسول فقال جماعة لرسول مروان انك انما أمرت بالقبض على ابراهيم وهذا الذى قبضت عليه عبدالله فأخذ الرسول بقولهم وخلى عن أبى العباس وقبض على ابراهيم فانطلق به الى مروان وتحقق ابراهيم أنه مقتول فنعى نفسه الى أهل بيته وأمرهم بالمسير الى الكوفة مع أخيه أبى العباس عبد الله وبالسمع له والطاعة وأوصى الى أبى العباس وجعله الخليفة بعده فسار أبو العباس بمن معه من أهل بيته حتى قدموا الكوفة فى صفر وشيعتهم من أهل خراسان بظاهر الكوفة * ولما وصل رسول مروان ومعه ابراهيم دخل به على مروان فقال مروان ليست هذه الصفة التى وصفت لك فقال هذا ابراهيم الذى سميته فأمر به مروان فحبسوه وأعاد جماعة أخر فى طلب أبى العباس

وكان من تمام حظ أبى مسلم وقوع الخلاف بين الكرمانى ونصر عاملى مروان على مرو فسير أبو مسلم النقباء الى طخارستان فما دون بلخ ومرو الروذ والطالقان وخوارزم يدعون الناس الى طاعة بنى العباس وقال لهم ان أعجلكم عدوكم دون الوقت بالاذى والمكروه فقد حل لكم أن تدفعوا عن أنفسكم وتجردوا السيوف وتجاهدوا أعداء الله ومن شغله منكم عدوه عن الوقت فلا حرج عليكم أن تظهروا بعد الوقت * وكان قد اشتد الخلاف بين الكرمانى ونصر عاملى مروان وقامت الحرب بينهما وحمى وطيسها فاشتدت



عزيمة أبى مسلم وبث دعاته بين الناس وأظهر أمره بلاتحاش فأتاه فى ليلة واحدة أهل ستين قرية فلما كانت ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان من السنة أى سنة تسع وعشرين ومائة عقد اللواء الذى كان الامام بعث به الذى يسمونه الظل على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعا وهو يتلو ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ﴾ ولبسوا السواد هو وسليمان ابن كثير واخوة سليمان ومواليه ومن كان أجاب الدعوة من أهل سفيذنج وأوقدوا النيران ليلتهم تلك لشيعتهم وكانت علامتهم فتجمع اليه الناس حين أصبحوا معدين فقال لهم انى مؤوّل لكم الظل والسحاب ﴿ ان السحاب يطبق الارض وان الارض كما لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسى الى آخر الدهر ففرحوا بمقالته واشتدت عزائمهم

وقدم على أبى مسلم الدعاة عن أجاب للدعوة فكان أول من قدم عليه أهل التقادم مع أبى الوضاح فى تسعمائة راجل وأربعة فرسان ومن أهل هرمز فره جماعة وقدم مع أبى القاسم محرز بن ابراهيم الجوبانى ألف وثلاثمائة راجل وستة عشر فارسا ودخلوا جميعا المعسكر أبى مسلم وهم يصيحون بأصوات التهليل والتكبير وكان أبو مسلم قد عسكر بسفيذنج فلما رأى هذه الجموع فرح بها وحصن حصن سفيذنج ورمه وسد دروب سفيذنج ولبث على هذا الحال الى يوم عيد الفطر فأمر أبو مسلم فى ذلك اليوم سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة صلاة العيد ونصب له منبرا بالعسكر ورسم له أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا اقامة ﴿ قال بعض الكتاب وكان بنو أمية يبدؤن بالخطبة قبل الصلاة وبالاذان والاقامة ﴾ ورسم له أيضا بست تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسابعة ويكبر فى الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتح الخطبة بالتكبير ثم يختمها بالقرآن وكان بنو أمية يكبرون فى الاولى أربع تكبيرات يوم العيد وفى الثانية ثلاث تكبيرات فلما قضى سليمان الصلاة نهض أبو مسلم والشيعة الى طعام قد أعده لهم فأكلوا فرحين مسرورين ﴿ ولم يمض الا القليل حتى خرج الكرمانى ونصر الى القتال فى واقعة يقال لها واقعة الخندقين فاقتتلوا قتالا شديدا فلما استيقن أبو مسلم أن كلا الفريقين قد أثخن صاحبه وأنه لا مدد لهم جعل يكتب الى أصحاب الكرمانى يذم أصحاب نصر والى أصحاب نصر يذم أصحاب الكرمانى حتى صار هوى الفريقين معه وأقبل حتى نزل بين خندق الكرمانى وخندق نصر فهابه الفريقان وبعث الى الكرمانى يقول له انى معك ففرح الكرمانى بذلك فانضم أبو مسلم اليه فلما علم نصر بذلك أكبره جدا وأرسل الى الكرمانى يقول ويحك لا تغتر فوالله انى لخائف عليك وعلى أصحابك منه وطال بين الفريقين الاخذ والرد فمال الكرمانى الى مقالة نصر وخرج ليكتب كتاب الصلح بينه وبين نصر فأبصر نصر منه غرة فوجه اليه نحوا من ثلاثمائة فارس فالتقوا بها واشتد القتال بينهما فطعن الكرمانى فى خاصرته فخر عن دابته فأخذوه وقتلوه وأمر نصر فصلبوا جثته وصلبوا معها سمكة فانضم حينئذ على بن الكرمانى بمن كان مع أبيه الى عسكر أبى مسلم وقاتلوا نصرا قتالا شديدا وطالت الحرب بين أبى مسلم ونصر بن سيار فكانت

سجالا والدعوة قائمة والاحزاب تكثر واختلفت كلمة العرب وتفرقوا عن قتال أبى مسلم وأصحابه بعد أن كانوا يدا واحدة عليه ثم دخل أبو مسلم الى مرو والقتال قائم فيها بين على ابن الكرمانى وأصحابه ونصر بن سيار ومضى أبو مسلم الى قصر الامارة وأرسل الى الفريقين أن كفوا ولينصرف كل فريق الى عسكره فلم يروا بدا من الكف عن القتال وصفت مرو لابى مسلم فأمر بأخذ البيعة من الجند وكان الذى يأخذها أبو منصور طلحة بن رزيق أحد النقباء عالما بحجج الهاشمية ومعايب الاموية وكان النقباء اثنى عشر رجلا عدد حوارى المسيح اختارهم محمد بن على من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله الى خراسان سنة ثلاث ومائة وأربع ومائة ۞ وكانت البيعة أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى الى بيت الله الحرام وعلى أن لاتسألوا رزقا ولا طمعا حتى يبتدئكم به ولاتكم

ووردت الاخبار الى أبى العباس بما صار اليه أمر أبى مسلم وكان يومئذ بالحمية فهم بالمسير منها الى الكوفة فأعلم أهل بيته بعزمه فوافقوه وخرجوا معه وكانوا أخوه أبو جعفر المنصور وعبدالوهاب ومحمد أبناء ابراهيم الامام وأعمامه داود وعيسى وصالح واسمعيل وعبدالله وعبد الصمد بنو على بن عبدالله بن عباس ومازالوا حتى قدموا الكوفة فلقيهم أبو سلمة الخلال أحد مقدمى شيعتهم فأنزلهم دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم وكتم أمرهم عن الناس نحوا من أربعين ليلة فلم يعلم بهم أحد لامن القواد ولا من الشيعة وكان اذا سئل عن الامام أبى العباس يقول لاتعجلوا وكان أبو سلمة يميل الى جعل أمر الخلافة فى آل أبى طالب ولكنه كان يرى دون ذلك صعوبات وجعل جماعة من الشيعة يترددون على الامام فى خفاء ويأتمرون بأمره حتى اتفق جماعة من القواد على أن يلقوا الامام ويتفقوا معه على مافيه المصلحة والظهور بعدهذا الانكماش فساروا اليه ودخلوا عليه وسلموا عليه بالخلافة وعزوه فى أخيه ابراهيم الامام ورجعوا فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الاول فلبسوا السلاح واصطفوا لخروج أبى العباس وأتوا بالدواب فركب أبو العباس وركب من معه من أهل بيته ودخلوا دار الامارة فلبث بها برهة لطيفة ثم خرج الى المسجد فخطب وصلى بالناس ثم صعد المنبر فقال مقالته التى سيأتى ذكرها فى محلها ۞ قيل التقى داود بن على وابنه موسى بأبى العباس وأهل بيته وهم فى طريقهم الى الكوفة فسألهم داود عن خبرهم فقص عليه أبو العباس قصتهم وأنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها ويظهروا أمرهم فقال له داود ياأبا العباس تأتى الكوفة وشيخ بنى أمية مروان بن محمد بحران مطل على العراق فى أهل الشام والجزيرة وشيخ العرب يزيد بن هبيرة بالعراق فى جند العرب فقال ياعمى من أحب الحياة ذل ثم تمثل بقول الاعشى

فما ميتة ان متها غير عاجز ۞ بعار اذا ماغالت النفس غولها



فالتفت داود الى ابنه موسى وقال صدق والله ابن عمك فارجع بنا معه نعش أعزاء ونموت كراما فرجعوا جميعا فكان عيسى بن موسى يقول اذا ذكر خروجهم من الحميمة يريدون الكوفة ان نفرا أربعة عشر رجلا خرجوا من دارهم وأهلهم يطلبون ماطلبنا لعظيمة همتهم كبيرة أنفسهم شديدة قلوبهم اه وتمت البيعة بعد ذلك لابى العباس على ما سيذكر فى محله

(المقالة الخامسة)

(فى الخلفاء العباسيين وفيها فصول)

(الفصل الاول)

(فى خلافة أبى العباس السفاح)

كان أول خلفاء الدولة العباسية السفاح وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس الهاشمى بويع له بالخلافة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة يوم الجمعة ثالث عشرى ربيع الأول أى سنة تسع وأربعين وأربعمائة ميلادية وصعد المنبر حين بويع له فقام فى أعلاه وصعد محمد بن داود بن على فقام دونه فتكلم أبو العباس فقال الحمد لله الذى اصطفى الاسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا فأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه والناصر بن له فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته وأنشأنا من آبائنا وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته جعله من أنفسنا عزيزا عليه ماعنتنا وأنزل بذلك على أهل الاسلام كتابا يتلى عليهم فقال تبارك وتعالى فيما أنزل من محكم كتابه انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا وقال تعالى قل لاأسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى وقال وأنذر عشيرتك الاقربين وقال وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى وقال واعلموا أنما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى فاعلمهم جل ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا وأجزل من الفىء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا وفضلا علينا والله ذوالفضل العظيم وزعمت الشامية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم ولم أيها الناس وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحق ودحض الباطل وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا ورفع بنا الخسيسة وتمم بنا النقيصة وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل

التعاطف

التعاطف والبر والمواساة فى دنياهم واخوانا على سرر متقابلين فى آخرتهم فتح الله ذلك منة
وبهجة لمحمد صلى الله عليه وسلم فلما قبضه الله اليه وقام بالامر من بعده أصحابه وأمرهم
شورى بينهم حووا مواريث الامم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا
خماصا منها ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها فجاروا فيها واستأثروا بها
وظلموا أهلها فأملى الله لهم حينا حتى آسفوه فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا
حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا ليمن بنا على الذين استضعفوا فى الارض
وختم بنا كما افتتح بنا وانى لارجو أن لايأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير ولا الفساد من حيث
جاءكم الصلاح وماتوفيقنا أهل البيت الابالله يأهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا
أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا
وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة
درهم فاستعدوا فانا السفاح المبيح والثائر المبير اه وكان موعوكا فاشتد عليه الوعك فجلس على
المنبر وقام عمه داود على مراقى المنبر فقال ● الحمد لله شكرا الذى أهلك عدونا وأصار الينا
ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ● أيها الناس الآن أقشعت حنادس الدنيا وانكشف
غطاؤها وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها وبزغ القمر من مبزغه وأخذ
القوس باريها وعاد السهم الى منزعه ورجع الحق فى نصابه فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة
والرحمة بكم والعطف عليكم ● أيها الناس إنا والله ماخرجنا فى طلب هذا الامر لنكثر لجينا
ولا عقيانا ولانحفر نهرا ولانبنى قصرا وانما أخرجتنا الانفة من ابتزازهم حقنا والغضب
لبنى عمنا وما كرهنا من أموركم فلقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا
سوء سيرة بنى أمية فيكم واستنزالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم
لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله علينا
أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة والخاصة بسيرة رسول
الله صلى الله عليه وسلم تبا تبا لبنى حرب بن أمية وبنى مروان آثروا فى مدتهم العاجلة على
الآجلة والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم
وغشوا بالجرائم وجاروا فى سيرتهم فى العباد وسنتهم فى البلاد ومرحوا فى أعنة المعاصى
وركضوا فى ميدان الغى جهلا باستدراج الله وأمنا لمكر الله فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون
فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق فبعدا للقوم الظالمين وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله
الغرور أرسل لعدو الله فى عنانه حتى عثر فى فضل خطامه أظن عدو الله أن لن نقدر عليه
فنادى حزبه وجمع مكايده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر
الله وبأسه ونقمته ماأمات باطله ومحا ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد
الينا حقنا وارثنا ● أيها الناس ان أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا انما عاد الى المنبر بعد
الصلاة لانه كاره أن يخلط بكلام الجمعة غيره وانما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعك

فادعوا الله لامير المؤمنين بالعافية فقد بدلكم الله مروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع السفلة الذين أفسدوا فى الارض بعد اصلاحها بابدال الدين وانتهاك حريم المسلمين بالشاب المكتهل المتمهل المقتدى بسلفه الابرار الاخيار الذين أصلحوا الارض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج التقوى * فعج الناس له بالدعاء ثم قال يا أهل الكوفة إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا وأبلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا وأراكم الله بهم ما كنتم تنتظرون فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل الشام ونقل اليكم السلطان وأعز الاسلام ومنّ عليكم بامام منحه العدالة وأعطاه حسن الايالة فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولا تخدعوا عن أنفسكم فان الامر أمركم وان لكل أهل بيت مصرا وانكم مصرنا الا وانه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين على بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد * وأشار بيده الى أبى العباس السفاح * واعلموا أن هذا الامر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم عليه السلام والحمد لله على ما أبلانا وأولانا

ثم نزل أبو العباس ومشى داود بن على أمامه حتى دخل القصر وأجلس أخاه أبا جعفر المنصور ليأخذ البيعة على الناس فى المسجد فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم المغرب وجنهم الليل فدخل القصر ولما تمت له البيعة على وجه ما ذكر أنفذ أخاه المنصور واليا على الجزيرة وأذربيجان وارمينيا وولى عمه داود المدينة ومكة واليمن واليمامة وولى ابن أخيه عيسى الكوفة وسوادها وكان على الشام عمه عبد الله وعلى مصر أبو عون بن يزيد وعلى خراسان والجبال أبو مسلم وجعل عمه سليمان على البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان واستعمل عمه اسمعيل بن علىّ على الاهواز واشتد فى الانتقام من بنى أمية وبالغ فى تنكيل من بقى من الذرارى ومحا آثارهم وقتل سليمان بن هشام وغيره من كبار القوم الذين كانوا مع الأمويين باغراء الشريف وكان خصيصا به حيث أنشده يوما هذه الابيات

لا يغرنك ما ترى من رجال * ان تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرها أمويا

وقد كان السفاح أمن سليمان بن هشام المذكور * وتطاولت أيدى العباسيين الى نبش قبور جميع بنى أمية بدمشق وهتكوا حرمة الاموات فلما أتوا الى قبر هشام وجدوا جسمه صحيحا فأمر بصلبه ثم حرقه بالنار فحرق وأفلت من الامويين عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل حيث فر هاربا الى الاندلس فقبلوه وأسس الخلافة الأموية فى قرطبة سنة تسع وثلاثين ومائة هجرية أى نحو سنة ست وخمسين وسبعمائة ميلادية وكان من أمره وأمر من ملك بعده مالا علاقة لنا به هنا * وقتل سليمان بن على بن عبد الله بن عباس جماعة من بنى أمية وألقاهم فى الطرق فأكلتهم الكلاب وصارت تطوف بحشاش عظامهم فى الازقة وأخذ بثأر ابراهيم بن محمد والحسين بن على بن أبى طالب من قاتليهما بالكيل الوافى

ولما

ولما قتل مروان بأبي صير بمصر كما تقدم بقيت نساؤه وذراريه بالكنيسة وكان قد وكل بهن خادما وأمره أن يقتلهن جميعا اذا هو قتل فلما قتل مروان كبس أصحاب صالح بن علي بن عبدالله بن العباس على من بالكنيسة وأخذوا نساء مروان وبناته وسيروهن الى صالح بن علي فلما دخلن عليه تقدمت ابنة مروان الكبرى فقالت ياعم أمير المؤمنين حفظ الله لك من أمرك ماتحب حفظه نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك فليسعنا من عفوكم ماوسعكم من جورنا فقال والله لاأستبقي منكم واحدا ألم يقتل أبوك ابن أخي ابراهيم الامام ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين وصلبه في الكوفة ألم يقتل الوليد ابن يزيد يحيي بن زيد وصلبه بخراسان ألم يقتل ابن زياد الدعي مسلم بن عقيل ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي وأهل بيته ألم يخرج اليه بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا فأوقفهن موقف السبي ألم يحمل رأس الحسين وقد قرع دماغه فما الذى يحملني على الابقاء عليكن * قالت فليسعنا عفوكم فقال أما هذا فنعم وان أحببت زوجتك ابني الفضل فقالت وأي عز خير من هذا بل تلحقنا بحران فحملهن اليها فلما دخلنها ورأين منازل مروان رفعن أصواتهن بالبكاء وأكثرن من العويل * وخاف العمال الذين كانوا على عهد بني أمية فمنهم من استأمن وتخلى عن العمالة ومنهم من تحصن وقاتل مع أهل عمالته كأبي الورد مجزءة بن الكوثر بن زفر بن الحرث الكلابي وكان من أصحاب مروان وقواد عسكره فلما شاع خبر خروجه انضم اليه جماعة كثيرة من أهل قنسرين وأهل حمص وتدمر ومعهم أبو محمد ابن عبد الله بن يزيد بن معاوية فدعوا اليه وقالوا هذا السفياني الذى كان يذكر وهم في نحو من أربعين ألفا فعسكروا بمرج الاخرم فسار عبد الله بن علي لقتالهم وكان يقاتل حبيب بن مرة المري بالبثنية وحوران فاقتتلوا قتالا شديدا وثبت أبو الورد وأصحابه وقتل من أصحاب عبد الله خلق كثير فاشتد عبد الله في قتال أبي الورد وثبت حتى انهزم أصحاب أبي الورد وانكشف ولم يبق معه الا خمسمائة من فرسانه فقتلوا جميعهم وهرب أبو محمد ومن معه حتى جاؤا تدمر فأمن عبد الله أهل قنسرين ودخلوا تحت الطاعة وبايعوه فرحل عنهم الى دمشق وقد خرج أهلها فلما علموا بحضوره اليهم خافوا وعادوا الى الطاعة فأمنهم ولم يؤاخذهم بما كان منهم * قال أصحاب التاريخ وكان حرب عبد الله وأبي الورد في سلخ ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة

ولما رأى قسطنطين ملك الروم من اختلال الامور وسقوط الدولة الأموية وقيام العباسيين وعدم استقرار أمرهم نشط الى رد ما أخذه المسلمون من أملاك الروم فجهز جيشا على ملطية وكمخ فنازل كمخ أولا وقاتلها قتالا عنيفا فهزم من بها من المسلمين شر هزيمة وانقلب على ملطية وراسل أهلها في الاستسلام والخروج من البلد الى أى بلد أخرى من بلاد المسلمين فلم يقبلوا فنصب المنجنيقات وعزم على الرمى على البلد فأذعنوا وسلموا البلد على الامان وانتقلوا الى بلاد الاسلام وحملوا ماقدروا على حمله من متاعهم وألقوا مالم يقدروا على حمله بالآبار



والجبارى وتفرقوا فى الجزائر ثم سار ملك الروم الى قاليقلا وحاصرها وفتحها عنوة على يد قائد جيوشه كوشان الارمنى وغنم وسبى منها ثم رحل عنها واسترجع صقلية وعمر فيها الحصون والمعاقل وعززها بمراكب الحرب تطوف بالجزيرة وتذب عنها وتغزو ماتصادفه من مراكب المسلمين التى تحمل التجارة * ومع هذا كله فقد دانت للسفاح الامور وعلت كلمته واستوزر أبا مسلمة حفصا الخلال وهو أول من لقب بالوزير واستمر اللقب لمن بعده الى زمن الصاحب واستمر الوزراء من بعده على هذا الحال ولما كانت سنة ست وثلاثين ومائة عقد السفاح لاخيه أبى جعفر عبد الله بن محمد بالخلافة من بعده وجعله ولى عهد المسلمين ومن بعد أبى جعفر ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على وجعل العهد فى ثوب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه الى عيسى بن موسى فلم يتم عليه هذا الحول حتى مات بالانبار لثلاث عشرة ليلة مضت من ذى الحجة وقيل لاثنتى عشرة مضت منه بالجدرى وعمره ثلاث وثلاثون سنة وقيل ست وثلاثون وقيل ثمان وعشرون فكانت ولايته من وقت قتل مروان الى أن مات أربع سنين ومن يوم أن بويع بالخلافة الى أن مات أربع سنين وثمانية أشهر وقيل وتسعة أشهر وقد كان قبل موته تحول من الحيرة الى الانبار * قال ابن خلكان فى ترجمة السفاح ان السفاح نظر يوما فى المرآة وكان من أجمل الناس وجها فقال اللهم انى لا أقول كما قال سليمان ابن عبد الملك ولكنى أقول اللهم عمرنى طويلا فى طاعتك متمتعا بالعافية قال فما استتم كلامه حتى سمع غلاما يقول لغلام آخر الأجل بينى وبينك شهران وخمسة أيام فتطير من كلامه وقال حسبى الله ولا حول ولا قوة الا بالله عليه توكلت وبه استعنت فما مضت الايام المذكورة حتى أخذته حمى فمرض ومات بعد شهرين وخمسة أيام بالجدرى بالانبار بالمدينة التى بناها وسماها الهاشمية وكان أبيض مليحا جميلا حسن اللحية والهيئة قال الامام أبو الفرج بن الجوزى وغيره ان السفاح خطب يوما فسقطت العصا من يده فتطير من ذلك فقام رجل من أصحابه ومسح العصا وناوله اياها وأنشد

فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما قر عينا بالاياب المسافر

فسرى عنه وسر بذلك

ومات فى أيام السفاح تاودوروس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام احدى عشرة سنة فأقيم بعده ميخائيل وهو سادس أربعيهم وأصله من دير بومقار وفى أيام تاودوروس المذكور خالفت القبط من مدينة رشيد من جور العمال وظلمهم فقاتلهم عبد الملك بن موسى بن نصير عامل مصر يومئذ وقاتلوه قتالا عظيما ومازالوا حتى هزمهم وقبض على ميخائيل البطرك فاعتقله وألزمه بمال كثير فسار باساقفته فى أعمال مصر يسأل أهلها فوجدهم فى شدة عظيمة وعبودية لاتطاق فعاد الى الفسطاط حيث عبدالملك ودفع له ماحصل عليه فأفرج عنه ثم لم يلبث أن قبض عليه بعد أيام قلائل وأنزل به بلاء كبيرا وبطش بالنصارى وأعمل فيهم السيف وأحرقت فى هذه الاثناء مصر وجميع غلاتها وأسر كثيرا من

النساء

النساء الراهبات ببعض الديارات ونهب ماقيها وخربها تخريبا وراود عبد الملك احدى النساء الراهبات عن نفسها فاحتالت عليه ودفعته عنها بان رغبته فى دهن معها اذا دهن به الانسان جسده لايعمل فيه السيف ووثقته بان مكنته من التجربة فى نفسها فتمت حيلتها عليه وأخرجت زيتا ودهنت به نفسها ثم مدت عنقها فضربها عبد الملك بسيفه أطار رأسها فعلم أنها اختارت الموت على الزنا رحمها الله ومازال البطرك وكبار القبط فى الاعتقال مقيدين بالحديد يتجرعون مضض الشدة وألم الضيق حتى أفرج عنهم فى خلافة السفاح أى بعد زوال دولة بنى أمية وذهاب ملكهم وظهور الدولة العباسية * وقد خلع السفاح أبا عون عبد الملك المذكور وولى بدله صالح بن علىّ ثم صرفه وأعاد أبا عون المذكور سنة سبع وثلاثين ومائة الهجرة حيث مات السفاح وبموت السفاح قام بالامر بعده أخوه أبو جعفر المنصور

(الفصل الثانى)

(فى خلافة أبى جعفر المنصور)

ثم قام بالامر بعد السفاح أخوه أبو جعفر المنصور وهو عبد الله بن محمد المنصور بويع له بالخلافة يوم وفاة أخيه سنة ست وثلاثين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ميلادية بعهد منه وكان السفاح قد ولاه امرة الحاج فأتته الخلافة بمنزل صفية فقال صفت لنا ان شاء الله * وكتب الى أبى مسلم الخراسانى يستدعيه فأقبل أبو مسلم عليه فأخبره أبو جعفر بخبر موت السفاح ثم بكى وجزع جزعا شديدا فقال له أبو مسلم ولم هذا الجزع وقد أتتك الخلافة قال أتخوف شر عمى عبد الله بن علىّ وشغبه علىّ فقال لاتخفه فأنا أكفيكه ان شاء الله فسرى عنه وبايع له أبو مسلم والناس وأقبلا حتى أتيا الكوفة وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق وأرسلوا فى طلب البيعة الى المنصور فلما جاء الخبر بذلك الى عبدالله بن علىّ وكان عبدالله يومئذ بدلوك وهى بأفواه الدروب فى عسكر الصائفة أمر مناديه أن ينادى الصلاة جامعة فاجتمعوا عليه فقرأ عليهم الكتاب بوفاة السفاح ثم دعا الناس الى بيعته وقال لهم اعلموا انه لما أراد السفاح أن يوجه الجنود لقتال مروان بن محمد دعا بنى أبيه فأرادهم على المسير اليه فقال من انتدب منكم فسار اليه فهو ولىّ عهدى فلم ينتدب غيرى وعلى هذا خرجت من عنده وقتلت من قتلت * وشهد له بعض قواده بذلك فبايعوه ثم سار عبد الله حتى نزل حران وقاتل من بها وضيق عليها وكان أبو جعفر المنصور قد عاد من مكة ومعه أبو مسلم الخراسانى فسيره لقتال عبدالله فسار أبو مسلم فى جنوده فقاتل عبدالله عند نصيبين خمسة أشهر وحمل أهل الشام حملة رجل واحد على عسكر أبى مسلم فأزالوا صفهم وجالوا جولة فانهزم عسكر أبى مسلم فأمر أبو مسلم مناديا فنادى يا أهل خراسان ارجعوا فان العاقبة لمن اتقى فتراجع الناس وارتجز أبو مسلم يومئذ فقال

من كان ينوى أهله فلا رجع * فرّ من الموت وفى الموت وقع

فلما كان يوم الثلاثاء أو الاربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ومائة التقوا فاقتتلوا فمكر بهم أبومسلم وأمر أحد قواده أن يعبى الميمنة أكثرها الى الميسرة ويترك فى الميمنة أشد الجند بأسا فلما رأى ذلك أهل الشام كشفوا ميسرتهم وانضموا الى ميمنتهم بازاء ميسرة أبى مسلم فأمر أبومسلم أهل القلب فحملوا على من بقى فى ميمنته على ميسرة أهل الشام فحطموهم فانهزم أصحاب عبد الله وتركوا عسكرهم فأخذ أصحاب أبومسلم مافيه وأرسل أبومسلم الخبر بذلك الى المنصور وهرب عبدالله الى البصرة ونزل عند أخيه سليمان ابن علىّ فأقام زمانا مختفيا وأمّن أبومسلم الناس بعد هزيمة عبدالله وكف عنهم فلما علم المنصور بما جرى لعبدالله أرسل أبا الخصيب الى أبى مسلم ليكتب ما أصاب من أموال عبدالله فأراد أبومسلم قتله وقال أنا أمين على الدماء خائن فى الاموال وشتم المنصور فرجع أبوالخصيب الى المنصور فأخبره بما جرى له فخاف المنصور من رجوع أبى مسلم الى خراسان لئلا يفسد عليه الامر فكتب اليه يقول انى قد وليتك مصر والشام فهى خير لك من خراسان فوجه الى مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين فانى أحب لقاءك * فلما أتاه الكتاب غضب وقال يولينى الشام ومصر وخراسان لى * فكتب الرسول الى أبى جعفر المنصور بذلك وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعا على الخلاف وسار يريد خراسان فانتقل المنصور من الانبار الى المدائن * قال صاحب الكامل * وكتب الى أبى مسلم فى المسير اليه فكتب اليه أبو مسلم وهو بالزاب انه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدوّ الا أمكنه الله منه وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان ان أخوف مايكون الوزراء اذا سكنت الدهماء فنحن نافرون عن قربك حريصون على الوفاء لك ماوفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة فان أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك وان أبيت الا أن تعطى نفسك ارادتها نقضت ماأبرمت من عهدك ضنا بنفسى * فلما وصل الكتاب الى المنصور كتب الى أبى مسلم قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم فانما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة فلم سوّيت نفسك بهم فأنت فى طاعتك ومناصحتك واطلاعك بما حملت من أعباء هذا الامر على ما أنت به وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سمعا ولا طاعة وحمل اليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن اليها ان أصغيت وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من الباب الذى فتحه عليك

فخرج أبو مسلم مراغما وأخذ طريق حلوان فقال المنصور لعمه عيسى بن علىّ ومن حضر من بنى هاشم اكتبوا الى أبى مسلم فكتبوا اليه يعظمون أمره ويشكرونه ويسألونه أن يتم على ما كان منه وعليه من الطاعة ويحذرونه عاقبة البغى ويأمرونه بالرجوع الى المنصور وبعث المنصور الكتاب مع أبى حميد المروروذى وقال له كلم أبا مسلم بألين ماتكلم به أحدا

منه

منه وأعله أنى رافعه وصانع به مالم يصنعه به أحد ان هو صلح وراجع ماأحب فان أبى أن يرجع فقل له يقول لك أمير المؤمنين لست من العباس وانى برىء من محمد ان مضيت مشاقا ولم تأتنى ان وكلت أمرك الى أحد سواى وان لم آل طلبك وقتالك بنفسى ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أوأموت قبل ذلك ولاتقولن هذا الكلام حتى تيأس من رجوعه ولاتطمع منه فى خير * قال فسار أبو حميد فقدم على أبى مسلم بحلوان فدفع اليه الكتاب وقال له الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين مالم يقله وخلاف ماعليه منك حسدا وبغيا يريدون ازالة النعمة وتغييرها فلا تفسد ما كان منك وكلمه وقال ياأبا مسلم انك لم تزل أمير آل محمد يعرفك بذلك الناس وما ذخر الله لك من الاجر عنده فى ذلك أعظم مما أنت فيه من دنياك فلا تحبط أجرك ولايستهوينك الشيطان * فقال له أبو مسلم متى كنت تكلمنى بهذا الكلام فقال انك دعوتنا الى هذا الأمر والى طاعة أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم بنى العباس وأمرتنا بقتال من خالف ذلك فدعوتنا من أرضين متفرقة وأسباب مختلفة فجمعنا الله على طاعتهم وألف مابين قلوبنا وأعزنا بنصرنا لهم ولم نلق منهم رجلا الا بما قذف الله فى قلوبنا حتى أتيناهم فى بلادهم ببصائر نافذة وطاعة خالصة أفتريد حين بلغنا غاية منانا ومنتهى أملنا أن تفسد أمرنا وتفرق كلمتنا وقد قلت لنا من خالفكم فاقتلوه وان خالفتكم فاقتلونى فأقبل أبو مسلم على أبى نصر مالك بن الهيثم فقال أما تسمع مايقول لى هذا ما كان بكلامه يامالك قال لاتسمع قوله ولايهولنك هذا منه لعمرى ما هذا كلامه ولما بعد هذا أشد منه فامض لامرك ولاترجع فوالله لئن أتيته ليقتلنك ولقد وقع فى نفسه منك شئ لايأمنك أبدا ثم شاور أبو مسلم غيره من أصحابه فأشاروا عليه بأن لايذهب الى أبى جعفر المنصور وأن ينزل الرى ويقيم بها فان استقام له المنصور استقام هو له أيضا وان أبى المنصور كان أبو مسلم فى جنده بالرى فدعا أبا حميد فقال له ارجع الى صاحبك فليس من رأيى أن آتيه وقد عزمت أن لا أعود اليه أبدا فلما يئس من رجوعه معه قال له ماأمره به أبو جعفر المنصور فوجم طويلا ثم قال قم وقد أخذه الخوف وأوجس من المنصور الشر * وكان المنصور قد كتب الى أبى داود خليفة أبى مسلم بخراسان يقول له ان لك امرة خراسان مادمت على قيد الحياة فكتب أبو داود المذكور الى أبى مسلم يقول ما هذا إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله فى أرضه وأهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم فلا تخالفن امامك ولاترجعن الا باذنه * واتفق وصول كتاب أبى داود لدى أبى مسلم وهو على تلك الحال مع رسول أبى جعفر المنصور فزاده خوفا وهما فأرسل الى أبى حميد فقال له اعلم انى كنت عازما على المسير الى خراسان ولكنى عدلت عن ذلك حتى أوجه أبا اسحق الى أمير المؤمنين فيأتينى برأيه فان أبا اسحق ممن أثق به فلما مثل بين يدى المنصور أجله وقال له اصرف أبا مسلم عن وجهه ولك منى ولاية خراسان وأجازه فانصرف أبو اسحق وقال لأبى مسلم ماأنكرت قط شيأ ومارأيت بنى هاشم الامعظمين لحقك يرون لك مايرون لانفسهم ومازال به حتى حبب اليه الشخوص الى حيث أمير المؤمنين والاعتذار اليه عما كان

منه فلما قصد المسير قال له نيزك أحمد قواده هل أجمعت على الشخوص الى أمير المؤمنين قال نعم وتمثل

ما للرجال مع القضاء محالة * ذهب القضاء بحيلة الاقوام

فقال له نيزك هذا ما اختاره الله تعالى لك واحفظ عنى واحدة اذا دخلت عليه فاقتله وبايع من شئت فان الناس لا يخالفونك * وسار أبو مسلم قاصدا الخليفة فى ثلاثة آلاف رجل واستخلف أبا نصر فى عسكره وقال له أقم حتى يأتيك كتابى فان كان مختوما بنصف ختم فأنا الذى كتبته وان أتاك بخاتم كامل فلم أكتبه فلما علم أبو أيوب وزير المنصور بقدوم أبى مسلم خاف منه ومن أصحابه وخشى انهم يقتلون المنصور ثم يقتلونه هو أيضا فدبر الحيلة على اغتيال أبى مسلم قبل أن يتمكن من الفتك بالخليفة وبه فدعا سلمة بن سعيد بن جابر وقال له تأتى أبا مسلم فتلقاه وتكلمه فى أن يعطيك كسكر اقطاعا اذا ولاه أمير المؤمنين عند قدومه جميع ما وراء بابه فان أمير المؤمنين على عزم أن يوليه ذلك ويريح نفسه فقال حتى يأذن لى أمير المؤمنين فأذن له المنصور وأمره أن يبلغ سلامه وشوقه الى أبى مسلم فسار اليه سلمة ولقيه فى الطريق وأخبره الخبر فطابت نفس أبى مسلم وزال عنه الخوف والغم فلما وصل تلقاه بنو هاشم والناس ثم قدم فدخل على المنصور فقبل يده وأمره أن ينصرف ويروح نفسه لثلاثة فانصرف فلما كان الغد دعا المنصور عثمان ابن نهيك وأربعة من الحرس منهم شبيب بن واج وأبو حنيفة حرب بن قيس قال صاحب الكامل فرسم لهم بقتل أبى مسلم اذا صفق بيده وتركهم خلف الرواق وأرسل الى أبى مسلم يستدعيه وكان عنده عيسى بن موسى يتغدى فدخل على المنصور فقال له المنصور أخبرنى عن نصلين أصبتهما مع عبدالله بن على فقال أبو مسلم هذا أحدهما قال أرنيه فانتضاه وناوله اياه فوضعه المنصور تحت فراشه وأقبل عليه يعاتبه وقال له أخبرنى عن كتابك الى السفاح تنهاه عن الموات أردت أن تعلمنا الدين فقال ظننت أن أخذه لا يحل فلما أتانى كتابه علمت انه أهل بيت معدن العلم قال فأخبرنى عن تقدمك اياى بطريق مكة قال كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس فتقدمتك للرفق قال فقولك لمن أشار اليك بالانصراف الىّ بطريق مكة حين أتاك موت أبى العباس الى أن تقدم فنرى رأينا ومضيت فلا أنت أقمت حتى ألحقك ولا أنت رجعت الىّ قال منعنى من ذلك ما أخبرتك من طلب الرفق بالناس وقلت تقدم الكوفة وليس عليك من خلاف قال فجارية عبد الله أردت أن تأخذها فقال لا ولكنى خفت أن تضيع فحملتها فى قبة ووكلت بها من يحفظها قال فمن أرفقك وخروجك الى خراسان قال خفت أن يكون قد دخلك منى شئ فقلت آتى الى خراسان فاكتب اليك بعذرى فأذهب ما فى نفسك قال فالمال الذى جمعته بخراسان قال أنفقته بالجند تقوية لهم واستصلاحا قال ألست الكاتب الى تبدأ بنفسك وتخطب عمتى آمنة ابنة علىّ وتزعم أنك ابن سليط بن عبدالله ابن عباس لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعبا ثم قال وما الذى دعاك الى قتل سليمان بن

كثير مع أثره فى دعوتنا وهو أحد نقبائنا قبـل أن يدخلك فى هذا الامر قال أراد الخلاف وعصانى فقتلته

فلما طال عتاب المنصور قال أبو مسلم لايقال هذا الحق بعـد بلاقى وما كان منى فقال له المنصور يا ابن الخبيثـة والله لو كانت أمـة مكانك لأجزأت انما عملت فى دولتنا وبريحنا فلو كان ذلك اليك ماقطعت فتيلا ، فعند ذلك أخذ أبو مسلم بيد المنصور وجعل يقبلها ويعركها ويعتذر اليه فقال له المنصور مارأيت كاليوم والله ما زدتنى الا غضبا فقال أبو مسلم دع هذا فقد أصبحت ما أخاف الا الله تعالى فغضب المنصور وقال له قتلنى الله ان لم أقتلك ثم صفق باحدى يديه على الاخرى فخرج اليه القوم وخبطوه بسيوفهم والمنصور يصيح اضربوه قطع الله أيديكم ، وكان أبو مسلم قد قال عنـد أول ضربة استبقنى يا أمير المؤمنين لعدوّك قال لا أبقانى الله أبدا ان أبقيتك وأىّ عدو أعدى منك ، وكان قتله يوم الخميس لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة هجرية أى سنة أربع وخمسـين وسبعمائة ميلادية ، ولما قتـل أبو مسلم أمر المنصور فأدرجوه فى بساط فدخل على المنصور جعفر بن حنظلة فقال له ماتقول فى أمر أبى مسلم فقال يا أمير المؤمنين ان كنت أخذت من رأسه شعرة فاقتل ثم اقتل ثم اقتل فقال المنصور وفقك الله ها هو فى البساط فلما نظر اليه قتيـلا قال يا أمير المؤمنين عدّ هـذا اليوم أول خلافتك فأنشد المنصور

فألقت عصاها واستقربها النوى ، كما قرّ عينا بالاياب المسافر

ثم أقبل المنصور على من حضره وأبو مسلم طريح بين يديه وأنشد

زعمت أن الدين لا ينقضى ، فاستوف بالكيل أبا مجرم
اشرب بكأس كنت تسقى بها ، أمرّ فى الحلق من العلقم

ثم كتب أبو جعفر المنصور بعد قتل أبى مسلم الى أبى نصر مالك بن الهيثم الذى استخلفه أبو مسـلم فى عسكره كما تقـدم بأمره على لسان أبى مسلم بنقل الانقال وما خلف عنده وأن يقـدم وختم الكتاب بخاتم أبى مسـلم فلما رأى الخاتم تاما علم أن أبا مسـلم لم يكتب فقـال فعلتموها ثم انحدر الى همـذان يريد خراسان فكتب المنصور لابى نصر عهده على شهر زور وكتب الى زهير بن التركى وهو على همذان ان مر بك أبو نصر فاحبسه فسبق الكتاب الى زهير وأبو نصر فى همذان فلما وصل أبو نصر قال له زهير قد صنعت لك طعاما فلو أكرمتنى بدخول منزلى فأجابه الى ذلك فقبض عليه زهير وحبسه ثم خلى عنه لما رأى عهد أمير المؤمنين معه ، ولما قتل المنصور أبا مسلم خطب الناس فقال ، أيها الناس لاتخرجوا من أنس الطاعة الى وحشـة المعصية ولاتمشوا فى ظلمة الباطل بعـد سعيكم فى ضـياء الحق ان أبا مسلم أحسن مبتـدا وأساء معقبا وأخذ من الناس نبا أكثر مما أعطانا ورجح قبيح باطنه على حسن ظاهره وعلمنا من خبث سريرته وفساد نيته مالو علمه اللائم لنا فيه لعذرنا فى قتله وعنفنا فى امهالنا وما زال ينقض بيعتـه ويخفر ذمتـه حتى أحل لنا عقوبته وأباحنا دمه



فحكمنا فيه حكمه لنا في غيره ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه وما أحسن ماقال النابغة الذبياني للنعمان

فمن أطاعك فانفعه بطاعته * كما أطاعك وادلله على الرشد

ومن عصاك فعاقبه معاقبة * تنهى الظلوم ولاتقعد على ضمد

وقد تقدم الكلام على أبي مسلم المذكور بما فيه الكفاية ونقول هنا أيضا انه كان طاغية داهية جبارا ذا رأي وعقل وتدبير * قيل انه خطب يوما فقام اليه رجل فقال ماهذا السواد الذي أرى عليك فقال على الفور حدثني أبو الزبير عن جابر بن عبدالله أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة ياغلام اضرب عنقه فضرب عنقه فأطاحها * قتل في أيامه ستمائة ألف نفس صبرا ماعدا من قتل في الحروب * ولم يمض على قتل أبي مسلم الا القليل حتى خرج رجل اسمه سنباذ من خراسان يريد الاخذ بثأر أبي مسلم فكثرت جموعه وكان عامتهم من أهل الجبال فسار بهم الى نيسابور فغلب عليها وعلى قومس والري وقتل وسبا وتسمى فيروز اصبهبذ وأخذ خزائن أبي مسلم من الري وكان قد تركها بها عند ذهابه الى المنصور فسير اليه المنصور عسكرا كبيرا مع جهور بن مرار العجلي فالتقوا بين همذان والري وعزم جهور على مطاولته لكثرة قومه فأمر سنباذ فحملوا السبايا من النساء المسلمات على الجمال فلما رأين عسكر المسلمين صحن وقمن في المحامل ونادين وامحمداه ذهب الاسلام وبينما هما على هذا الصياح والعويل والنداء على عسكر المسلمين اذ ارتفعت ريح ووقعت في أثوابهن فنفرت الابل وعادت على أعقابها الى عسكر سنباذ فانفشلوا وتفرقوا وكان ذلك سبب الهزيمة وتبع المسلمون الابل ووضعوا السيوف في أصحاب سنباذ فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا كذلك وسبوا نساءهم وذراريهم ثم قتل سنباذ بين طبرستان وقومس

ولما كانت سنة أربع وأربعين ومائة ظهر أمر محمد وابراهيم ابني عبد الله بن الحسن ابن الحسين بن علي بن أبي طالب بالمدينة فاهتم المنصور بأمر محمد حيث أعلموه بأن محمدا كان يزعم أن المنصور ممن بايعه بالخلافة يوم تشاور بنو هاشم بمكة فيمن يعقدون له الخلافة حين اضطرب أمر مروان بن محمد فخافه المنصور وخشي عاقبة ظهوره وشدد في طلبه ووكل أمر البحث عنه لجماعة من رقيق الاعراب فخرجوا في طلبه في ظهر المدينة واستعمل المنصور كل حيلة ودهاء في طلب ابني عبدالله فأدرك عبد الله فحبسه وضيق عليه ونزل محمد في بني راسب بالبصرة فعلم المنصور بخبره فسار اليه فرحل محمد عن البصرة قبل وصول المنصور اليها فرجع المنصور واشتد خوف محمد وابراهيم ابني عبد الله وضاقت الدنيا عليهما فخرجا حتى أتيا عدن ثم سارا الى السند ثم الى الكوفة ثم الى المدينة فكان اذا ظهر محمد بين الناس صاحوا وهللوا وقالوا هاهو المهدي وكان اذا أرسل المنصور في طلبه اختفى فكتب للمنصور الى محمد بن خالد بن عبد الله القسري وقد ولاه المدينة أن اكشف المدينة وأعراضها

فى طلب محمد فطاف بيوت الناس وكبس على من بها فلم يجد محمدا فخلعه المنصور واستعمل رياح بن عثمان بن حيان المرى مكانه وألزمه بالقبض على ابنى عبد الله فجد رياح فى طلبهما وشدد فأخبر أن محمدا فى شعب من شعاب رضوى جبل جهينة من أعمال ينبع فرسم الى عامله هنالك بطلب محمد فلما أحس محمد بذلك هرب على الاقدام وكان معه ولد صغير ولد له وهو فى الهرب وجارية له أيضا فسقط ولده المذكور من الجبل عند ماهم بالهرب فتقطع فبكى عليه وأنشد

منخرق السربال يشكو الوجى ٭ مسكنه أطراف مرو وحداد
شرّده الخـــوف فأزرى به ٭ كذلك من يكره حرّ الجلاد
قـد كان فى الموت له راحـة ٭ والموت حتم فى رقاب العباد

وما زال رياح يجد فى الطلب وينفق الاموال الطائلة للعيون والارصاد حتى قبض على جميع بنى الحسين وقيدهم بالحديد وكان محمد قد بعث بابنه علىّ الى مصر يدعو اليـه الناس فقبض عليه عامل مصر وشيعه الى المنصور فاعترف له وأخبره باسماء أصحاب أبيـه فأمر به فحبـس وبقى محبوسا الى أن مات المنصور ٭ وقتل المنصور أكثر بنى الحسن صبرا ولم يظفر بمحمد فلما كانت سنة خمس وأربعين ومائة ظهر محمد بالمدينة فى جمع من أصحابه فكسر أبواب السجن وأخرج من به وقبض على رياح وأخيه عباس وابن مسلم بن عقبة المرى فحبسهم فى دار الامارة ثم خرج الى المسجد فصعد على المنبر فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ٭ قال صاحب الكامل ٭ ثم قال أما بعد فانه قد كان من أمر هـذا الطاغية عدو الله أبى جعفر مالم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندا لله فى ملكه وتصغيرا للكعبة الحرام وانما أخذ الله فرعون حين قال ٭ أنا ربكم الاعلى ٭ وان أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين والانصار المواسين اللهم انهم لأحلوا حرامك وحرموا حلالك وأمنوا من أخفت وأخافوا من أمنت اللهم فأحصهم عـددا واقتلهم بددا ولاتغادر منهـم أحدا ٭ أيها الناس انى والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ولا شدة ولكن اخترتكم لنفسى والله ما جئت هـذه وفى الارض مصر يعبد الله فيه الا وقد أخذ لى فيه البيعة اه

واسـتولى محمد على المدينـة واستعمل عليها عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير ومال اليـه الناس واسـتفتوا مالك بن أنس فى الخروج مع محمد وقالوا ان فى أعناقنا بيعـة لابى جعفر المنصـور فقال انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين فأسرع الناس الى محمـد ثم تفرق بعضهم لما سمعوا عن اسمعيل بن عبـد الله بن جعفر بن أبى طالب وكان شيخا كبيرا انه يقول ان محمدا مقتول لامحالة قيل فدس له محمد من قتله ٭ فلما ظهرت كلمة محمد بالمدينة أخـذ المنصور فى التأهب لقتاله وشاور أصحاب الرأى فى أمره فحسنوا له التعجيل فى الخروج اليـه وأخذه فكتب اليه المنصور يقول ٭ بسم الله الرحمن الرحيم ٭ انما جزاء الذين يحاربون الله

ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أويصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض الآية * ولك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله أن أؤمنك وجميع ولدك واخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم وأسوّغك ما أصبت من دم أو مال وأعطيك ألف ألف درهم وما سألت من الحوائج وأنزلك من البلاد حيث شئت وأن أطلق من فى حبسى من أهل بيتك وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك أو دخل فى شئ من أمرك ثم لا أتبع أحدا منهم بشئ كان منه أبدا فان أردت أن تتوثق لنفسك فوجه الىّ من أحببت يأخذ لك منى الامان والعهد والميثاق وما تتوثق به والسلام * فلما وصل الكتاب الى محمد كتب اليه بقول طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * الى يحذرون * وأنا أعرض عليك من الامان مثل ما عرضت علىّ فان الحق حقنا وانما ادّعيتم هذا الامر بنا وخرجتم له بشيعتنا وحظيتم بفضله فان أبانا عليا كان الوصى وكان الامام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ثم قد علمت انه لم يطلب الامر أحد مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء وليس يمتّ أحد من بنى هاشم بمثل الذى نمتّ به من القرابة والسابقة والفضل وانا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية وبنو بنته فاطمة فى الاسلام دونكم ان الله اختارنا واختار لنا فوالدنا من النبيين محمد أفضلهم ومن السلف أوّلهم اسلاما علىّ ومن الازواج أفضلهن خديجة الطاهرة وأول من صلى الى القبلة ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء العالمين وأهل الجنة ومن المولودين فى الاسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة وان هاشما ولد عليا مرتين وان عبد المطلب ولد حسنا مرتين وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين وانى أوسط بنى هاشم نسبا وأصرحهم أبا لم تعرق فىّ العجم ولم تنازع فىّ أمهات الاولاد فما زال يختارلى الآباء والامهات فى الجاهلية والاسلام حتى يختار لى فى الاشرار فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة وأهونهم عذابا فى النار ولك الله علىّ ان دخلت فى طاعتى وأجبت دعوتى أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته الاحدا من حدود الله أوحقا لمسلم أومعاهد فقد علمت مايلزمنى من ذلك وأنا أولى بالامر منك وأوفى بالعهد لانك أعطيتنى من الامان والعهد ما أعطيته رجالا قبلى فأى الامانات تعطينى أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبدالله بن علىّ أم أمان أبى مسلم * قال صاحب الكامل فلما ورد كتابه يعنى كتاب محمد على المنصور قال له أبو أيوب الوريانى دعنى أجبه عليه قال لا اذا تقارعنا على الاحساب فدعنى واياه ثم كتب اليه المنصور * بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغنى كلامك وقرأت كتابك فاذا جلّ فخرك بقرابة النساء لتضلّ به الجفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ولا كالعصبة والاولياء لان الله جعل العم أبا بدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا ولو كان اختار الله لهن على قدر قرابتهن كانت آمنة أقربهن رحما وأعظمهن حقا وأولى من يدخل الجنة ولكن اختار الله لخلقه على علمه فيما مضى منهم

واصطفائه

واصطفائه لهم وأما ماذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها فان الله لم يرزق أحـدا من ولدها الاسلام لابنتا ولا ابنا ولو أن رجلا رزق الاسلام بالقرابة لرزقه عبد الله ولكان أولاهم بكل خير من الدنيا والآخرة ولكن الله يهـدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ولقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وله عمومة أربعة فأنزل الله عزوجل * وأنذر عشـيرتك الاقربين فانذرهم ودعاهم فأجاب اثنان أحدهما أبى وأبى اثنان أحدهما أبوك فقطع الله ولايتهما منه ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولاذمه ولا ميراثا * وزعمت أنك ابن أخف أهـل النار عذابا وابن خير الاشرار وليس فى الكفر بالله صغير ولا فى عذاب الله خفيف ولا يسير وليس فى الشر خيار ولا ينبغى لمؤمن يؤمن بالله أن يفتخر بالنار وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون * وأما أمر حسن وأن عبد المطلب ولده مرتين وأن النبى صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين فخير الاولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسـلم لم يلده هاشم الا مرة ولا عبد المطلب الا مرة * وزعمت أنك أوسـط بنى هاشم وأصرحهم أما وأبا وانه لم يلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الاولاد فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا فانظر ويحك أين أنت من الله غدا فانك قد تعديت طورك وفخرت على من هو خير منك نفسا وأبا وأولادا وأما ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما خيار بنى أبيك خاصة وأهل الفضل منهم الا بنو أمهات الاولاد ما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن الحسين وهو لام ولد ولهو خير من جدك حسن بن حسين وما كان فيكم بعده مثل محمد بن على وجدته أم ولد ولهو خير من أبيك ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد وهو خير منك * وأما قولك انكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فان الله تعالى يقول فى كتابه ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكنكم بنو بنتـه وانها لقرابة قريبة ولكنها لا يجوز لها الميراث ولا ترث الولاية ولا يجوز لها الامامة فكيف تورث بها ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرج فاطمة نهارا ومرضها سرا ودفنها ليلا فأبى الناس الا الشيخان ولقد جاءت السنة التى لا اختلاف فيها من المسلمين أن الجد أبا الام والخال والخالة لا يورثون * وأما ما فخرت به من على وسابقتـه فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة فأمر غيره بالصلاة ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعا له عنها ولم يروا له حقا فيها * وأما عبـد الرحمن فقـدم عليه عثمان وهو له متهم وقاتله طلحة والزبير وأبى سعد بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها وتفرق عنه أصحابه وشك فيه شيعته قبـل الحكومة ثم حكم حكمين رضى بهما وأعطاهما عهـد الله وميثاقه فاجتمعا على خلعه ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية ودفع الامر الى غير أهله وأخذ مالا من غير ولائه ولاحله فان كان لكم فيها شئ فقد بعتموه وأخذتم ثمنه ثم خرج عمك حسـين على ابن مرجانة فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه اليه ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم وصـلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان حتى قتل يحيى بن زيد



بخراسان وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء وحملوهم وطاء فى المحامل كالسبى المجلوب الى الشام حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم وسنينا سلفكم وفضلناه فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا انما ذكرنا أباك لتقدمة ما له على حمزة والعباس وجعفر وليس ذلك كاظننت ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين متسلما منهم مجتمعا عليهم بالفضل وابتلى أبوك بالقتال والحرب وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة فاحتججنا وذكرناهم فضله وصفاته وظلمناهم بما نالوا منــه فلقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحاج الاعظم وولاية زمزم فصارت للعباس بين اخوته فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر فلم نزل نليها فى الجاهلية والاسلام ولقد قحط أهل المدينة فلم يتوسل عمر الى ربه ولم يتقرب اليه الا بأبينا حتى يغيثهم الله فسقاهم الغيث وأبوك حاضر لم يتوسـلوا به ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره فكانت وراثته من عمومته ثم طلب هذا الامر غير واحـد من بنى هاشم فلم ينله الا ولده فالسـقاية سقايته وميراث النبى له والخلافة فى ولده فلم يبق شرف ولا فضـل فى جاهليـة ولااسلام فى الدنيا والآخرة الا والعباس وارثه ومورثه وأما ماذكرت من بدرفان الاسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله وينفق عليهم للازمة التى أصابته ولو أن العباس أخرج الى بدركارها لمات طالب وعقيل جوعا وللحسا جفان عتبة وشيبة ولكنه كان من المطعمين فأذهب عنكم العار والسبة وكفاكم النفقة والمؤنة ثم فدى عقيلا يوم بدر فكيف تفخر علينا وقدغلبنا كم فى الكفر وفديناكم وحزنا عليكم مكارم الآباء وورثنا دونكم خاتم الانبياء وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ماعجزتم عنه ولم تدركوا لانفسكم والسلام عليكم ورحمة الله اه فلم يرد عليه محمد ثم سير أبو جعفر المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى لقتال محمد بن عبد الله المذكور بالمدينة واستحثه فى ذلك وشدد عليــه فقال عيسى شاور عمومتك ياأمير المؤمنـين ثم قال فأين قول ابن هرمة

زوراامرأ لايمحض القوم سره ✽ ولا ينتجى الادنـين عما يحاول
اذا ماأتى شيأ مضى كالذى أتى ✽ وان قال انى فاعل فهو فاعل

فقال المنصور امض أيها الرجـل فوالله مايراد غيرى وغـيرك وماهوالا أن تشخص أنت أو أشخص أنا فسار وسير معه الجنود فلما صار عيسى بن موسى على قيد أربعـة أميال من المدينـة رتب عسكره وأرسـل الى محمد بن عبـد الله بأمان أبى جعفر المنصور ان هو أطاع وانكف عما هو فيه فأبى محمد الطاعة وبرز عيسى بن موسى بعسكره للقتال وكذلك محمد بن عبـد الله فاقتتلوا قتالا عنيفا للغاية فتفرق أكثر أصحاب محمد بن عبـد الله حتى لم يبق معه الازهاء ثلثمائة رجل وذهب عيسى بن حضير وهو من أصحاب محمد فأحرق السجل الذى فيه أسماء الذين بايعوا محمدا خوفا من وقوعه فى يد عيسى بن موسى اذا هو دخل المدينة بعسكره وجعل محمد يقاتل بمن بقى معـه حتى ضربه أحد أصحاب عيسى بن موسى دون شحمة أذنه

البمنى

اليمنى فبرك لركبته وجعل يذب عن نفسه ويقول ويحكم ابن نبيكم مجرح مظلوم فطعنه ابن قحطبة فى صدره فصرعه ثم نزل اليه فأخذ رأسه وأتى به عيسى وهو لايعرف من هو لكثرة الدماء فأرسل عيسى الرأس الى المنصور مع محمد بن أبى الكرام بن عبد الله بن علىّ بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فأمر المنصور فطيف برأس محمد فى الكوفة وسيره الى الآفاق وكان قتل محمد المذكور فى يوم الاثنين بعد العصر لاربع عشرة خلت من شهر رمضان وكان محمد هذا يلقب بالمهدى وبالنفس الزكية ورثاه هو وأخاه عبد الله بن مصعب بن ثابت بهذه القصيدة

يا صاحبىّ دعا الملامة واعلما * أن لست فى هذا بألوم منكما
وقفا بقبر للنبى فسلما * لابأس أن تقفا به وتسلما
قبر تضمن خير أهل زمانه * حسبا وطيب سجية وتكرما
رجل نفى بالعدل جور بلادنا * وعفا عظيمات الامور وأنعما
لم يجتنب قصد السبيل ولم يحد * عنه ولم يفتح بفاحشة فما
لو أعظم الحدثان شيأ قبله * أحدا لكان قصاره أن يسلما
ضحوا بابراهيم خير ضحية * فتصرمت أيامه فتصرما
بطلا يخوض بنفسه غمراته * لاطائشا رعشا ولامستسلما
حتى مضت فيه السيوف وربما * كانت حتوفهم السيوف وربما
أضحى بنو حسن أبيح حريمهم * فينا وأصبح نهبهم متقسما
ونساؤهم فى دورهن نوائح * سجع الحمام اذا الحمام ترنما
يتوصلون بقتله ويرونه * شرفا لهم عند الامام ومغنما
والله لو شهد النبى محمد * صلى الاله على النبى وسلما
اشراع أمته الاسنة لابنه * حتى تقطر من ظباتهم دما
حقا لأيقن أنهم قد ضيعوا * تلك القرابة واستحلوا المحرما

ولما قتل محمد نصب عيسى بن موسى بعض الألوية بالمدينة ونادى مناديه من دخل تحت لواء منها فهو آمن ثم أخذ أصحاب محمد فصلبهم مابين ثنية الوداع الى دار عمر بن عبد العزيز صفين وبقوا على هذا الحال ثلاثا فأمر بهم عيسى فالقوهم على مقابر اليهود ثم بعد ذلك فى خندق فى أصل ذباب وزال عن أبى جعفر المنصور ما كان يلاقيه من خروج محمد ابن عبد الله

وخرجت فى خلافة المنصور أيضا الراوندية وهم قوم من خراسان على مذهب أبى مسلم كانوا يقولون بالتناسخ ويزعمون أن روح آدم حلت فى عثمان بن نهيك وان ربهم الذى يقيتهم هو الخليفة أبو جعفر المنصور فلما ظهروا وأتوا الى قصر المنصور فى سنة احدى وأربعين ومائة للهجرة أى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة للميلاد قالوا هذا ربنا فحبس المنصور

رؤساءهم وكانوا نحو ما ئتين فهاجوا وماجوا وأخذوا نعشا وحملوه ومشوا به كأنهم يشيعون جنازة حتى بلغوا باب السجن فرموا بالنعش وكسروا باب السجن وأخرجوا أكابرهم ثم طلبوا المنصور وهم نحو ستمائة رجل فتنادى الناس وأغلقت الابواب ووقع خوف عظيم وخرج المنصور ماشيا واجتمع عليه خلق كثير وكان معن بن زائدة مستخفيا خوفا لانه كان حارب مع ابن هبيرة الشيبانى فظهر وحارب الراوندية بين يدى المنصور فعفا عنه وكان ذلك يوم استئصال الراوندية وقطع دابرهم * وكره المنصور بعد واقعة الراوندية الاقامة بالهاشمية فدلوه على أن تكون اقامته على نهر الفرات ليكون متوسطا مابين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد وتكون دجلة والفرات خنادق مدينته فوقع اختياره على مكان اسمه بغداد ومعناه بستان دار واستشار المنجمين فى اختيار وقت البناء فأخبروه فوكل البناء لأربعة من القواد وأمر أن يكون عرض أساس القصر من أسفله خمسين ذراعا ومن أعلاه عشرين ذراعا ووضع بيده أول لبنة وهو يقول باسم الله والحمد لله والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * ثم قال ابنوا على بركة الله وأمر بايوان كسرى فنقض ونقل الى المدينة الجديدة ونقضت شرفة من القصر الابيض فوجد أنه يلزم لنقض ذلك أكثر من كلفة الجديد فعدل عن ذلك فتمت على أحسن مثال ووارد اليها السكان من العراقيين والشام والجزيرة والعجم والعرب ومصر وغيرها وسميت دار السلام ثم تحوّل المنصور عن مدينة أبى هبيرة الى بغداد مدينته الجديدة ونقل أبواب مدينة واسط اليها وخلع ابن أخيه عيسى بن موسى عن ولاية العهد وبايع لابنه محمد المهدى بعد أمور أضربنا عن ايرادها هنا صفحا

وظهر فى أيامه رجل ادّعى النبوّة اسمه استاذسيس فى جهة خراسان فاجتمع اليه نحو ثلثمائة ألف مقاتل من أهل هراة وباذغيس وسجستان فسار اليه الاجثم عامل مروروذ فى عسكر فقاتل الاجثم وأصحابه وتتابع القواد فى هيمانه حتى هزمهم شر هزيمة فبعث المنصور وهو بالراذان خازم بن خزيمة الى المهدى فى اثنى عشر ألفا فولاه المهدى حربه فزحف عليه فى عشرين ألفا وبعد قتال شديد تقوّى المسلمون عليه وقتلوا من عسكره نحو سبعين ألفا وأسروا نحو أربعة عشر ألفا وأسر استاذسيس المذكور وبنوه وتفرق الباقون من قومه قيل ان استاذسيس هذا هو أبو مراجل أم المأمون وابنه غالب خال المأمون وهو الذى قتل الفضل بن سهل * ثم خرج المنصور قاصدا الحج فى سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة أى سنة أربع وسبعين وسبعمائة للميلاد فخرج ولده المهدى معه ليودعه فقال له يابنى انى أحس بالموت ولا أدرى اذا كنا نجتمع بعد هذا فانى ولدت فى ذى الحجة ووليت فى ذى الحجة وأخشى أن أموت فى ذى الحجة من هذه السنة وانى لذلك عزمت على الحج والآن أوصيك بخصال وما أظنك تفعل واحدة منها * وكان له سفط قيل ان فيه أوراق عمه وعليه قفل لايفتحه غيره فقال للمهدى انظر الى هذا السفط فاحتفظ به فان فيه علم آبائك ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة

فان أحزنك أمر فانظر فى الدفتر الكبير فان أصبت فيه ماتريد والا ففى الثانى حتى بلغ سبعة فان ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فانك واجد فيها ما تريد وما أظنك تفعل • وانظر هذه المدينة واياك أن تستبدل بها غيرها وقد جمعت لك فيها من الاموال ماان انكسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لارزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث فاحتفظ بها فانك لاتزال عزيزا مادام بيت مالك عامرا وماأظنك تفعل • وأوصيك بأهل خراسان خيرا فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى دولتك ومن لاتخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم وتخلف من مات منهم فى أهله وولده وما أظنك تفعل • واياك أن تبنى مدينة الشرقية فانك لاتتم بناءها وأظنك ستفعل • واياك أن تستعين برجل من بنى سليم وأظنك ستفعل • واياك أن تدخل النساء فى أمرك وأظنك ستفعل • فاتق الله فيما أعهد اليك من أمور المسلمين بعدى يجعل الله لك مخرجا فى كربك ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لاتحتسب • يابنى احفظ محمدا صلى الله عليه وسلم فى أمته يحفظك الله ويحفظ عليك أمورك • واياك والدم الحرام فانه حوب عند الله عظيم وعار فى الدنيا لازم مقيم والزم الحدود فان فيها خلاصك فى الآجل وصلاحك فى العاجل ولاتعتد فيها فتبور فان الله تعالى لوعلم أن شيأ أصلح منها لدينه وأزجرعن معاصيه لأمر به فى كتابه • واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أنه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الارض فسادا مع ماذخر له من العذاب العظيم فقال انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أويصلبوا . الآية . فالسلطان حبل الله المتين وعروته الوثقى ودينه القيم فاحفظه وحصنه وذب عنه وأوقع بالملحدين واقمع المارقين منه وقابل الخارجين عنه بالعقاب ولاتتجاوز ماأمر الله به فى محكم القرآن واحكم بالعدل ولاتشطط فان ذلك أقطع للشغب وأحسم للعدو وأنجع فى الدواء وعف عن الفىء فليس بك اليه حاجة مع ماخلفه لك وافتتح بصلة الرحم وبرّ القرابة واياك والاثرة والتبذير لاموال الرعية واشحن الثغور واضبط الاطراف وأمن السبل وسكن العامة وأدخل المرافق عليهم وادفع المكاره عنهم وأعدّ الاموال واحرزها فان النوائب غيرمأمونة وهى من شيم الزمان وأعدّ الاكراع والرجال والجند مااستطعت واياك وتأخير عمل اليوم الى الغد فتتدارك عليك الامور وتضيع وجدّ فى احكام الامور النازلات فى أوقاتها أوّلا فأولا واجتهد وشمر فيها وأعدّ رجالا بالليل لمعرفة مايكون فى النهار ورجالا بالنهار لمعرفة مايكون بالليل وباشر الامور بنفسك ولاتضجر ولاتكسل واستعمل حسن الظن وأسئ الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من تثبت على بابك وسهل أذنك للناس وانظر فى أمر النزاع اليك وكن بهم عينا غير نائمة ونفسا غير لاهية ولاتنم فان أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ولادخل عينه الغمض الاوقلبه مستيقظ • هذه وصيتى اليك والله خليفتى عليك • ثم ودعه وبكى وبكى وله المهدى • وسار المنصور فاشتدت به علته وأدركته منيته ببئر ميمونة محرما بعرضه وهو القيام وذلك فى ذى الحجة وهوابن ثلاث وستين سنة فكانت خلافته احدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما وأمه بربرية وكان طويلا

أسمر نحيفا خفيف اللحية رحب الجبهة وكأن عينيه لسانان ناطقان صارمان مهيبا ذا جبروت وسطوة وحزم ورأى وشجاعة وكمال عقل ودهاء وعلم وفقه وخبرة بالامور

قيل ولما قرب من مكة فى حجته التى مات فيها رأى على جدار سطرين مكتوبين وهما

أباجعفر حانت وفاتك وانقضت * سنونك وأمر الله لا بدّ واقع

أبا جعفر هل كاهن أو منجم * لك اليوم من ريب المنية دافع

فلما قرأها تيقن فراغ أجله قيل فمات بعد ثلاثة أيام وقيل غير ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم

ومات فى أيامه خائل بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ثلاثا وعشرين سنة فأقيم بعده مينا وهو سابع أربعيهم وفى أيام مينا هذا اشتدت الولاة والعمال على القبط وضيقوا عليهم وساموهم الخسف فخرج منهم جماعة بناحية سخا وأخرجوا العمال وطردوا أرباب الجباية وذلك سنة سبعين ومبعمائة للبلاد أى سنة خمسين ومائة للهجرة فبعث اليهم يزيد بن حاتم ابن قبيصة أمير مصر اذ ذاك عسكرا عظيما فأتاهم القبط ليلا وقتلوا منهم عدة كثيرة وهزموا باقيهم شر هزيمة وشردوهم فاشتد البلاء بأسباب ذلك على النصارى فى الأقاليم القبلية والبحرية وزادوا فى التضييق عليهم حتى احتاجوا الى أكل الميتة والجيف وهدمت جميع الكنائس بمصر فكان منها كنيسة العذراء التى بجوار أبى شنودة بمصر وهدمت أيضا كنائس محارب قسطنطين فبذل أهل البلاد لسليمان بن على أمير مصر يومئذ فى تركها خمسين ألف دينار فأبى فلما ولى بعده موسى بن عيسى أذن لهم فى بنائها فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة قاضى مصر يومئذ واحتجا بأن بناءها من عمارة البلاد وبان الكنائس التى بمصر لم تبن الا فى الاسلام فى زمن الصحابة والتابعين * واستعمل جعفر المنصور فى أيامه على مصر موسى بن كعب التميمى بعد ولاية أبى عون التى كانت الى سنة احدى وأربعين ومائة فأقام موسى المذكور سبعة أشهر ومات وولى بعده محمد بن الاشعث الخزاعى ثم عزل سنة اثنتين وأربعين وولى نوفل بن الفرات ثم عزل نوفل وولى بعده حميد بن قحطبة الطائى ثم صرف سنة أربع وأربعين وولى يزيد بن حاتم المهلبى فأقام الى سنة اثنتين وخمسين فعزل وولى محمد بن سعيد فأقام الى أن استخلف المهدى فعزله فى سنة تسع وخمسين ومائة * ولما مات أبو جعفر المنصور ولى الخلافة بعده محمد المهدى ابنه

(الفصل الثالث)

(فى خلافة محمد المهدى)

ثم قام بالامر بعد أبى جعفر المنصور ابنه أبو عبد الله محمد المهدى بالله وبويع له بالخلافة يوم مات

مات أبوه المنصور بعهد منه وهو يومئذ ببغداد ثم بويع له البيعة العامة بها لاحدى عشرة خلت من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة أى نحو سنة أربع وسبعين وسبعمائة للميلاد * قال صاحب الكامل ذكر على بن محمد النوفلى عن أبيه قال خرجت من البصرة حاجا فاجتمعت بالمنصور بذات عرق فكنت أسلم عليه كلما ركب وقد أشفى على الموت فلما صار ببئر ميمونة نزل به ودخلنا مكة فقضيت عمرتى وكنت أختلف الى المنصور فلما كان فى الليلة التى مات فيها ولم نعلم صليت الصبح بمكة وركبت أنا ومحمد بن عون بن عبد الله بن الحرث وكان من مشايخ بنى هاشم وساداتهم فلما صرنا بالابطح لقينا العباس بن محمد ومحمد ابن سليمان فى خيل الى مكة فسلمنا عليهما ومضينا فقلت لمحمد أحسب الرجل قد مات فكان كذلك ثم أتينا العسكر فاذا موسى بن المهدى قد صدر عن عمود السرادق والقاسم بن المنصور فى ناحية السرادق وسمعنا منهما بكاء وخرج أبو العنبر خادم المنصور مشقق الاقبية وعلى رأسه التراب وصاح وا أمير المؤمنيناه فما بقى أحد الا قام ثم تقدموا ليدخلوا عليه فمنعهم الخدم وقال ابن عياش المنتوف سبحان الله أما شهدتم موت خليفة قط اجلسوا فجلسوا وقام القاسم فشق ثيابه ووضع التراب على رأسه وموسى على حاله ثم خرج الربيع وفى يده قرطاس ففضه فقرأه فاذا فيه * بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المنصور أمير المؤمنين الى من خلف من بنى هاشم وشيعته من أهل خراسان دعاته المسلمين ثم بكى وبكى الناس ثم قال قد أمكنكم البكاء فانصتوا رحمكم الله ثم قرأ * أما بعد فانى كتبت كتابى هذا وأنا حى فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة أقرأ عليكم السلام وأسأل الله أن لا يفتنكم بعدى ولا يلبسكم شيعا ولا يذيق بعضكم بأس بعض * ثم أخذ فى وصيتهم بالمهدى واذ كارهم البيعة له وحثهم على الوفاء بعهده * ثم تناول يد الحسن بن زيد وقال قم فبايع فقام الى موسى فبايعه الناس الاول فالاول ثم أدخل بنو هاشم على المنصور وهو فى أكفانه مكشوف الرأس فحملناه حتى أتينا به مكة ثلاثة أميال قال فكأنى أنظر اليه والريح تحرك شعر صدغيه وذلك أنه كان وفر شعره للحلاق وقد نصل خضابه حتى أتينا به حفرته وكان أول شئ ارتفع به على بن عيسى بن ماهان أن عيسى بن موسى أبى من البيعة فقال على بن عيسى ابن ماهان والله لتبايعن أو لاضربن عنقك فبايع ثم وجه موسى بن المهدى الى المهدى بخبر وفاة المنصور وبالبيعة له مع منارة مولى المنصور وبعث أيضا بالقضيب والبردة وبخاتم الخلافة وقدم الخبر مع منارة فى منتصف ذى الحجة فبايعه أهل بغداد * قال بعض أهل التاريخ ان الربيع كتم موت المنصور وألبسه ثيابه على أحسن ما كان يلبس وأسنده وجعل على وجهه كلة خفيفة يرى شخصه منها ولا يفهم حاله وأدخل أهله عليه وأدناهم منه ثم قرب منه هو (أى الربيع) كأنه يخاطبه ثم رجع اليهم وقال لهم أمير المؤمنين يقول لكم جددوا البيعة الى المهدى فبايعوه ثم أخرجهم ولم يلبث أن خرج اليهم باكيا مشقق الجيب لاطما رأسه وهو يصيح وا أمير المؤمنيناه فعلموا بأن أمير المؤمنين مات * قالوا فلما بلغ ذلك

المهدى أنكره على الربيع وقال أما منعتك جلالة أمير المؤمنين أن تفعل به مافعلت وضربه * وقال آخرون لم يصح ضربه * ولما استقر بالمهدى الخلافة تقرب منه جماعة من بنى هاشم وشدوا أزره وكلموه فى خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة لموسى الهادى بن المهدى ووافقته شيعة المهدى على ذلك أيضا فسر المهدى هذا الامر وأعجبه جدا وكتب الى عيسى بن موسى بالقدوم وهو بقرية الرحبة من أعمال الكوفة فأحس عيسى بالذى يراد منه فامتنع من القدوم فسير المهدى روح بن حاتم الى الكوفة وولاه عمالتها وأمره أن يتصرف فى عيسى بن موسى ويضره فلم يجد روح سببا للاضرار به لانه كان لايأتى من القرية الى الكوفة الا نادرا وألح المهدى على عيسى انك ان لم تجبنى الى أن تخلع نفسك من ولاية العهد لموسى وهرون استحللت دمك بمعصيتك مايستحل من أهل المعاصى وان أجبتنى عوضتك منها ماهو أجدى عليك وأعجل نفعا * فلم يقدم عليه وخاف انتقامه فوجه اليه المهدى عمه العباس بن محمد برسالة وكتب يستدعيه فلم يحضر معه فلما عاد العباس وجه اليه المهدى أبا هريرة محمد بن فروخ القائد فى ألف من أصحاب المهدى المتشيعين له وجعل مع كل واحد منهم طبلا وأمرهم أن يضربوا طبولهم جميعا عند مايدخلون القرية التى بها عيسى فوصلوا اليها سحرا وضربوا طبولهم فخاف عيسى واضطرب اضطرابا شديدا ودخل عليه أبو هريرة وأمره بالشخوص معه فاعتل بالشكوى فلم يقبل منه وأخذه معه وأنزله دار محمد بن سليمان فى عسكر المهدى فأقام أياما يأتى فيها الى المهدى فلا يكلمه بشئ ولا يرى مايروعه

واتفق أنه حضر الدار يوما قبل حضور المهدى فجلس فى مقصورة الربيع وقد اجتمع شيعة رؤساء المهدى على خلعه فثاروا به وهو فى المقصورة فأغلق الباب دونهم فضربوا الباب بالعمد حتى كسروه وشتموا عيسى أقبح الشتم وجاء المهدى الى مجلسه فأظهر انكارا لما فعلوه فلم يرجعوا فبقوا على هذا الحال أياما الى أن كلمه فى ذلك أهل بيته وألح عليه المهدى فأبى وقال ان عليه أيمانا فى أهله وماله فأحضر له من القضاة والفقهاء عدة فأفتوه بما رأوا فأجاب الى خلع نفسه فأعطاه المهدى عشرة آلاف ألف درهم وضياعه بالزاب وكسكر فكان خلعه لنفسه لاربع بقين من المحرم وبايع للمهدى ولابنه موسى الهادى ثم جلس المهدى من الغد وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم ثم خرج الى الجامع وعيسى معه وخطب الناس وأعلمهم بخلع عيسى والبيعة للهادى ودعاهم الى البيعة فسارع الناس اليها وأشهد على عيسى بالخلع * قال صاحب الكامل * فأنشد فى ذلك بعض الشعراء

كره الموت أبو موسى وقد * كان فى الموت نجاة وكرم
خلع الملك وأضحى ملبسا * ثوب لؤم ماترى منه القدم

ولما دانت للمهدى الامور وتم له ماأراد من البيعة للهادى تفرغ للغزو والجهاد فأرسل فى سنة تسع وخمسين ومائة عبد الملك بن شهاب المسمعى فى جمع كثير من الجند والمتطوعة الى بلاد الهند فركبوا البحر من فارس ونزلوا بأرض الهند وفتحوا باربد عنوة فلجأ أهلها الى

البلد فأحرقوه عليهم ثم أصاب المسلين يومئذ وباء عظيم فرجع من بقى منهم وبرجوعهم عصفت بهم الرياح عند ساحل حوران فكسرت جميع سفنهم ولم ينج الا النزر اليسير

وتجهز أيضا لحرب الروم فى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة للميلاد أى سنة ثلاث وستين ومائة للهجرة وجمع عسكره من خراسان ونحوها وقام الى البدندون وترك ولده موسى ببغداد وأخذ معه هرون الرشيد ثم سمع وهو فى طريقه أن بحلب من الزنادقة شئ كثير فعرج اليها وأقام بها أياما فجمع سائر من بها من هذه الطائفة وقتلهم وأحرق كتبهم ثم نهض الى جيحان وجيش ولده هرون الرشيد للغزو فتغلغل هرون فى البلد وفتح وأخضع وظفر وغنم وعاد بالغنائم * وظهر فى هذا الحين رجل اسمه يوسف ادعى الولاية واستغوى خلقا كثيرا وظهر أيضا يوشيا وادعى النبوة فبعث اليه المهدى جيشا عظيما وأتى به بعد قتال فصلبه ثم ظهر المقنع الخراسانى واسمه عطاء وكان رجلا غريبا قيل انه خيل للناس صورة قمر يطلع وراء الناس عن بعد شاسع نحو شهرين فتبعه خلق كثير جدا فأرسل اليه المهدى جيشا وما زال يقاتله والحرب بينهم سجال حتى قتله وقد أشار ابن سينا الى ما كان يصنع المذكور فقال

البك فما بدر المقنع طالعا * بأسحر من ألحاظ بدرى المعمم

قيل وتغالى المقنع فادعى الربوبية واستمال جماعة وكان يقول بالحلول الالهى فى الانبياء كلهم الى أن حل فيه فاتسعت كلمته وطارت شهرته وكبرت هيبته وعمر قلعة تسمى بسيام وقيل تكس مما وراء النهر من رستاق كش وتحصن بها وكان يقول بالتناسخ فاجتمع اليه أصحاب المهدى وحصروه فى قلعته وشددوا فى الحصار أياما كثيرة فلما يئس من نفسه سقى نساءه سما فقتن ثم تناوله لنفسه فمات ودخل العسكر قلعته وقتلوا من بها من أصحابه بحد السيف قال بعض الكتاب وبعد أن تناول السم رمى بنفسه الى النار خوفا من أن العدو يلقى جسده وتبعه جنده فصارت القلعة خالية خاوية وكانت فعلته هذه سببا فى زيادة افتتان من بقى من شيعته مما وراء النهر حتى قالوا انه صعد الى السماء وكان قبل ذلك قد أعلمهم بأن روحه ستتحول الى هيكل رجل أشمط على برذون أشهب وانه يعود اليهم ويملكهم سائر المعمور من الارض فكانوا ينتظرونه وهم يعرفون الى ذلك الحين (بالمبيضة) وكان المقنع المذكور فى بداية أمره قصارا من أهل كاوه من أعمال مرو وكان مشوه الخلق قصيرا أعور اتخذ له برقعا من الذهب فكان لايسفر عن وجهه أبدا ولذلك سمى بالمقنع

وكان المهدى مولعا باللهو ويأذن بالشرب فى حضرته فنهاه عن ذلك وزيره يعقوب ابن داود بن طهمان فألقاه فى السجن فقال فيه بشار بن برد

بنى أميــة هبوا طال نومكم * ان الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا * خليفة الله بين الناى والعود

وبقى يعقوب مسجونا الى خلافة الرشيد فأخرجه وقد عمى فلحق بمكة وقتل المهدى

بشارا المذكور لقوله هذين البيتين وهو أول من رتب البريد بين مكة والمدينة واليمن من بغال وابل

ومات المهدى بقرية من قرى ماسبذان وذلك أنه ساق خلف صيد فدخل خربة فدق ظهره باب الخربة من قوة سوق الفرس فتلف لوقته * وقيل بل سمته جاريته حسنة وذلك أنه خرج بريد الهادى بجرجان فلما بلغ ماسبذان عمدت حسنة جاريته الى كمثرى فأهدتها الى جارية أخرى كان المهدى يحبها وكانت سمت كمثراة منها وهى الاطيب فرالمهدى وكان يحب الكمثرى فأخذ تلك الكمثراة المسمومة وأكلها فصاح من وقته جوفى جوفى فسمعت حسنة وجاءت تبكى وتلطم وجهها وتقول قصدت أن أنفرد بك فقتلتك ومات من يومه وقيل فى موته غير ذلك وهو أنه لما خرج الى ماسبذان كان يريد خلع ابنه موسى الهادى والبيعة للرشيد بولاية العهد وتقديمه على الهادى فبعث اليه وهو بجرجان فى أن يخلع نفسه فأبى فبعث اليه فى القدوم عليه فضرب الرسول وامتنع فسار المهدى يريده فلما بلغ ماسبذان أكل طعاما ثم قال انى داخل الى البهو أنام فلا توقظونى حتى أكون أنا الذى أنتبه فدخله فنام ونام أصحابه فاستيقظوا ببكائه فأتوه مسرعين فقال وقف على الباب رجل فقال

كأنى بهذا القصر قد باد أهله * وأوحش منه ربعه ومنازله
وصار عميد القوم من بعد بهجة * وملك الى قبر عليه جنادله
فلم يبق الا ذكره وحديثه * تنادى عليه معولات حلائله

فبقى بعد ذلك عشرة أيام ومات * ويحكى أيضا أنه لما هم المهدى بالخروج الى ماسبذان تقدم الى حسنة حظيته أن تخرج معه فأرسلت الى طوفيل بن توما النصرانى المنجم الرهاوى وكان رئيس المنجمين تقول أشرت على أمير المؤمنين بهذا السفر فجشمنا سفرا لم يكن فى الحساب فعجل الله موتك وأراحنا منك فلما بلغته الرسالة قال للجارية ارجعى اليها وقولى لها ان هذه الاشارة ليست منى وأما دعاؤك على بتعجيل الموت فهذا الشئ قد قضى الله به وموتى سريع فلا تتوهمى أنه بدعوتك ولكن أعدى لنفسك ترابا كثيرا فاذا مت أنا فاجعليه على رأسك * قيل فما زالت متوقعة تأويل قوله هذا الى أن مات المهدى بعد عشرين يوما * قال أبو الفرج وكان طوفيل هذا على مذهب الموارنة الذين فى جبل لبنان من مذاهب النصارى وله كتاب فى التاريخ حسن ونقل كتاب أوميروس الشاعر على فتح مدينة ايليون فى قديم الدهر من اليونانية الى السريانية بأبلغ ما يكون من العبارات اه

وكان موت المهدى لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة للهجرة أى نحو سنة خمس وثمانين وسبعمائة للميلاد ولم يوجد له نعش يحمل عليه فحمل على باب ودفن تحت شجرة جوز وله اثنتان وأربعون سنة ونصف وقيل ثلاث وأربعون سنة وكانت خلافته عشر سنين وشهرا وكان جوادا ممدوحا محببا للرعية حسن الخلق والخلق يقال ان أباه خلف فى الخزائن مائة ألف ألف درهم وستين ألف ألف ففرقها ويقال انه أجاز شاعرا بمائة ألف درهم

واستعمل

واستعمل في أيامه على مصر بعد عزله محمد بن سعيد في سنة تسع وخمسين أبا ضمرة محمد بن سليمان كذا في تاريخ ابن كثير وأما الجزار فقال انه ولى بعد يزيد بن حاتم عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التجيبي ثم ولى بعده أخوه فأقام سنة وشهرين ثم ولى بعده موسى ابن على اللخمى سنة خمس وخمسين فأقام الى سنة احدى وستين ثم ولى عيسى بن اللخمى ثم ولى واضح مولى المنصور سنة اثنتين وستين ثم صرف من عامه وولى منصور بن يزيد الحميرى ثم ولى بعده يحيى بن داود أبو صالح الخراسانى ثم ولى سالم بن سوادة التميمى سنة أربع وستين ثم ولى ابراهيم بن صالح العباسى سنة خمس وستين ثم ولى موسى بن كعب مولى خثعم ثم ولى الفضل بن صالح العباسى سنة تسع وستين وهى السنة التى مات فيها المهدى كما تقدم

ومات فى خلافة المهدى مينا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان سنين فأقاموا بعده يوحنا وهو ثامن أربعينهم وأصله من نبا وأبو صير وكان راهبا بدير أبو مقار * وفى أيامه خرج القبط بناحية بلهيت فبعث اليهم موسى بن على أمير مصر يومئذ جندا فقاتلوهم وطال القتال بينهم أياما ثم سكنت الفتنة وعاد العمال الى مجاملتهم خوف اشتداد الفتنة فعادوا الى ما كانوا عليه من الطاعة والسكون وكان فى أيام يوحنا هذا من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل الرابع)

﴿ فى خلافة موسى الهادى ﴾

ثم قام بالامر بعد محمد المهدى ابنه موسى الهادى بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة تسع وستين ومائة هجرية أى سنة خمس وثمانين وسبعمائة ميلادية وكان مقيما بجرجان يحارب أهل طبرستان وكان الرشيد مع المهدى بماسبذان فسار منها الى بغداد بالجند وأرسل أحد القواد الى الهادى بالخاتم والقضيب والتعزية والتهنئة * فلما جاء الخبر الى الهادى نادى فى عسكره بالرحيل وركب هو على البريد مجدا فبلغ بغداد فى عشرين يوما فتلقاه الناس وبايعوه وكتب الى الآفاق بوفاة المهدى والبيعة له واستوزر الربيع وجعل يتصرف فى الامور فلم يمض على خلافته حول كامل حتى ظهر الحسين بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب بالمدينة * قال صاحب الكامل * وكان سبب ذلك أن الهادى استعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فلما وليها أخذ أبا الزفت حسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن ومسلم بن جندب الشاعر الهذلى وعمر بن عبد السلام مولى آل عمر على نبيذ لهم فأمر بهم فضربوا جميعا وجعل فى أعناقهم حبال وطيف بهم فى المدينة فجاء الحسين بن على الى العمرى وقال له قد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لان أهل العراق لا يرون به بأسا فلم تطوف بهم فأمر بهم فردوا وحبسهم ثم ان الحسين بن

علىّ ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفلا الحسن بن محمد فأخرجه العمرى من الحبس وكان قد ضمن بعض آل أبى طالب بعضا وكانوا يعرضون فغاب الحسن بن محمد عن العرض يومين فأحضر العمرى الحسين بن علىّ ويحيى بن عبد الله وسألهما عنه وأغلظ لهما فحلف له يحيى أنه لاينام حتى يأتيه به أو يدق عليه باب داره حتى يعلم أنه جاءه به فلما خرجا قال له الحسين سبحان الله مادعاك الى هذا ومن أين تجد حسنا تحلف له بشئ لاتقدر عليه فقال والله لانمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف فقال له الحسين ان هذا ينقض ما كان بيننا وبين أصحابنا من الميعاد وكانوا قد تواعدوا على أن يظهروا بمنى وبمكة فى الموسم فقال يحيى قد كان ذلك فانطلقا وعملا فى ذلك من ليلتهم وخرجوا فى آخر الليل وجاء يحيى حتى ضرب على العمرى باب داره فلم يجده وجاؤا فاقتحموا المسجد وقت الصبح فلما صلى الحسين وقت الصبح أتاه الناس فبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه للمرتضى من آل محمد وجاء خالد البريدى فى مائتين من الجند وجاء العمرى ووزير بن اسحق الازرق ومحمد بن واقد الشروى ومعهم ناس كثير فدنا خالد منهم فقام اليه يحيى وادريس ابنا عبد الله بن الحسن فضربه يحيى على أنفه فقطعه ودار له ادريس من خلفه فضربه فصرعه ثم قتلاه فانهزم أصحابه ودخل العمرى فى المسودة فحمل عليهم أصحاب الحسين فهزموهم من المسجد وانتهبوا بيت المال وكان فيه بضعة عشر ألف دينار وقيل سبعون ألفا وتفرق الناس وأغلق أهل المدينة أبوابهم فلما كان الغد اجتمع عليهم شيعة بنى العباس فقاتلوهم وفشت الجراحات فى الفريقين واقتتلوا الى الظهر ثم افترقوا ثم ان مباركا التركى أتى شيعة بنى العباس من الغد وكان قدم حاجا فقاتل معهم فاقتتلوا أشد قتال الى منتصف النهار ثم تفرقوا ورجع أصحاب الحسين الى المسجد وواعد مبارك الناس فى الرواح الى القتال فلما غفلوا عنه ركب رواحله وانطلق وراح الناس فلم يجدوه فقاتلوا شيأ من قتال الى المغرب ثم تفرقوا وقيل ان مباركا أرسل الى الحسين يقول له والله لأن أسقط من السماء فتخطفنى الطير أيسر علىّ من أن تشوكك شوكة أو أقطع من رأسك شعرة ولكن لابد من الاعذار فبيتنى فانى منهزم عنك فوجه اليه الحسين وخرج اليه فى نفر فلما دنوا من عسكره صاحوا وكبروا فانهزم هو وأصحابه وأقام الحسين وأصحابه أياما يتجهزون فكان مقامهم بالمدينة أحد عشر يوما ثم خرجوا لست بقين من ذى القعدة فلما خرجوا عاد الناس الى المسجد فوجدوا فيه العظام التى كانوا يأكلون وآثارهم فدعوا عليهم ولما فارق المدينة قال يا أهل المدينة لاأخلف الله عليكم بخير فقالوا بل أنت لاأخلف الله عليك ولاردك علينا وكان أصحابه يحدثون فى المسجد فغسله أهل المدينة * ولما أتى الحسين مكة أمر فنودى أيما عبد أتانا فهو حر فأتاه العبيد فانتهى الخبر الى الهادى وكان قد حج تلك السنة رجال من أهل بيته منهم سليمان بن المنصور ومحمد بن سليمان بن علىّ والعباس بن محمد بن علىّ وموسى واسمعيل ابنا عيسى بن موسى فكتب الهادى الى محمد بن سليمان بتوليته على الحرب وكان قد سار بجماعة وسلاح من البصرة لخوف الطريق فاجتمعوا بذى طوى وكانوا قد

أحرموا بعمرة فلما قدموا مكة طافوا وسعوا وأحلوا من العمرة وعسكروا بذى طوى وانضم اليهم
من حج من شيعتهم ومواليهم وقوادهم ثم انهم اقتتلوا يوم التروية فانهزم أصحاب الحسين وقتل
منهم وجرح وانصرف محمد بن سليمان ومن معه الى مكة ولايعلمون ما حال الحسين فلما بلغوا
ذاطوى لحقهم رجل من أهل خراسان يقول البشرى البشرى هذا رأس الحسين فأخرجه
وبجبهته ضربة طولى وعلى قفاه ضربة أخرى وكانوا قد نادوا الامان فجاء الحسن بن محمد بن
عبد الله أبو الزفت فوقف خلف محمد بن سليمان والعباس بن محمد فأخذه موسى بن عيسى
وعبد الله بن العباس بن محمد فقتلاه فغضب محمد بن سليمان غضبا شديدا وأخذ رؤس القتلى
فكانت مائة رأس ونيفا وفيها رأس الحسين بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ
وأخذت أخت الحسين فتركت عند زينب بنت سليمان واختلط المنهزمون بالحاج وأتى الهادى
بستة أسرى فقتل بعضهم واستبقى بعضهم وغضب على موسى بن عيسى فى قتل الحسن بن
محمد وقبض أمواله فلم تزل بيده حتى مات وغضب على مبارك التركى وأخذ ماله وجعله سائس
الدواب فبقى كذلك حتى مات الهادى ✻ وأفلت من المنهزمين ادريس بن عبد الله بن الحسن بن
الحسن بن علىّ فأتى مصر وعلى بريدها واضح مولى صالح بن المنصور وكان شيعيا لعلىّ فحمله
على البريد الى أرض المغرب فوقع بأرض طنجة بمدينة وليلة فاستجاب له من بها من البربر
فضرب الهادى عنق واضح وصلبه وقيل ان الرشيد هو الذى قتله وان الرشيد دس الى ادريس
الشماخ اليمامى مولى المهدى فأتاه وأظهر أنه من شيعتهم وعظمه وآثره على نفسه فمال
اليه ادريس وأنزله عنده ثم ان ادريس شكا اليه مرضا فى أسنانه فوصف له دواء وجعل
فيه سما وأمره أن يستن به عند طلوع الفجر فأخذه منه وهرب الشماخ ثم استعمل ادريس
الدواء فمات منه فولى الرشيد الشماخ بريد مصر ✻ قال أصحاب التاريخ وولد لادريس
المذكور ولد جاءت منه الدولة الادريسية ثم المغربية ثم المهدية ثم المراكشية عند بناء
مراكش وكان تأسيسها فى سنة ثلاث وستين وأربعمائة هجرية أى نحو سنة سبعين وألف
ميلادية

ولما وضع رأس الحسين بين يدى الهادى قال كأنكم قد جئتم برأس طاغوت من
الطواغيت ان أقل ما أجزيكم أن أحرمكم جوائزكم فلم يعطهم شيأ ✻ وكان الحسين شجاعا
كريما قدم على المهدى فأعطاه أربعين ألف دينار ففرقها فى الناس ببغداد والكوفة وخرج
من الكوفة لايملك مايلبسه الا فروا ليس تحته قميص ✻ ولما فرغ الهادى من قتال الحسين
وأصحابه ودانت له الامور جد فى خلع هرون الرشيد والبيعة لابنه جعفر فوافقه على ذلك
جماعة من قواده وجعلوا يعيبون الرشيد وينتقصونه فى مجالسهم وأمر الهادى أن لايسار
بين يدى الرشيد بالحربة فاجتنبه عند ذلك الناس وتركوا السلام عليه وكان الذى يتولى
أمور الرشيد بأمر الهادى يحيى بن خالد بن برمك فخوفوا الهادى منه وقالوا ان الذى يفسد
عليك أمرك انما هو يحيى لا هرون فبعث اليه الهادى يتهدده ثم استدعاه ليلة فخاف وأوصى



وتحنط وتمثل بين يديه فقال له يا يحيى مالى ولك قال مايكون من العبد الى مولاه الا طاعته فقال لاتدخل بيني وبين أخي وتفسد عليّ فقال من أنا حتى أدخل بينكما انما صيرني المهدى معه ثم أمرتني أنت بالقيام بأمره فانتهيت الى أمرك فسكن غضب الهادى وقد كان هرون أذعن لخلع نفسه فمنعه يحيى فلما أحضره الهادى وكلمه فى خلع هرون قال له يا أمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم أيمانهم وان تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة فقال الهادى صدقت يا يحيى وسكت عنه فلم يرض بذلك القواد والشيعة الذين بايعوه وعادوا وحملوا الهادى على معاودة الرشيد بالخلع فقبض على يحيى بن خالد وحبسه فأرسل اليه يحيى يقول عندى نصيحة فأحضره بين يديه فقال له يا أمير المؤمنين أرأيت ان كان الامر لا نبلغه ونسأل الله أن يعدمنا قبله * يريد بذلك موت الهادى * أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحنث أويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم قال ما أظن ذلك فقال يا أمير المؤمنين أفتأمن أن يسمو اليها أكابر أهلك مثل فلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك والله لوأن هذا الامر لم يعقده المهدى لاخيك لقد كان ينبغى أن تعقده أنت له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدى ولكنى أرى أن تقر الامر على أخيك فاذا بلغ جعفر أتيت بالرشيد فخلع نفسه له وبايعه فقبل قوله وقال له نبهتنى الى أمر لم أنتبه له وأطلقه ثم ان القواد عاودوا القول فى خلع الرشيد فأرسل الهادى الى الرشيد فى ذلك وشدد وضيق فقال يحيى للرشيد استأذن أمير المؤمنين فى الخروج الى الصيد فاذا خرجت فابعد ودافع الايام ففعل فأذن له فمضى الى قصر بنى مقاتل فقام أربعين يوما ثم استدعاه فتعال فشدد فى طلبه فحضر ثم خرج الهادى الى حديثة الموصل فمرض بها واشتد مرضه فلما ثقل أجمع جميع القواد الذين كانوا بايعوا جعفرا على قتل يحيى بن خالد ولكنهم عدلوا عن ذلك وخافوا من الهادى ان تراجعت اليه صحته ولم تطل أيام مرض الهادى حتى مات فى ربيع الاول سنة سبعين ومائة هجرية فكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر وقيل كانت أربعة عشر شهرا وكان عمره ستا وعشرين سنة وقيل ثلاثا وعشرين سنة ودفن بعيساباذ الكبرى فى بستانه * قيل ان وفاته كانت من قبل جوار لامه الخيزران كانت أمرتهن بقتله وكان سبب ذلك أنه لما ولى الخلافة جعلت تستبد بالامر حتى مضى أربعة أشهر فتزاحم الناس على بابها وكانت المواكب تغدو وتروح الى بابها فكلمته يوما فى حاجة لم يجد الى اجابتها اليها سبيلا فقالت لابد من اجابتى فقال والله لاقضيتها لك قالت اذن والله لاأسألك حاجة أبدا قال لاأبالى والله فغضبت وقامت فقال مكانك والله والا أنا نفى من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن بلغنى انه وقف ببابك أحد من قوادى وخاصتى لاضربن عنقه ولاقبضن ماله ماهذه المواكب التى تغدو وتروح الى بابك أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك اياك واياك لاتفتحى بابك لمسلم ولاذمى فانصرفت وهى لاتعقل من الغيظ فوضعت جواريها عليه لما مرض فقتلنه بالغم والجلوس وقيل بل مات بقرحة فى جوفه * وكان طويلا

جسيما

جسيما أبيض مشربا بحمرة وكان بشفته العليا نقص وتقلص وكان أبوه قد وكل به خادما يقول له موسى أطبق فيضم شفته فلقب لذلك موسى أطبق * وكان شديدا جدا على الزنادقة أصحاب مانى فأعمل فيهم القتل والتشريد والصلب بوصية من أبيه المهـدى وذلك أنه قال له يوما يابنى اذا صار الامر اليك فتجرد لهـذه العصابة يعنى أصحاب مانى فانها تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها من هذا الى تحريم اللحوم ومس الماء الطهور وترك قتـل الهوام تحرجا ثم تخرجها الى عبادة اثنين أحـدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعـد هـذا نكاح الاخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الاطفال من الطرق لتنقذهم من ضـلال الظلمة الى هـداية النور فارفع فيها الخشب وجرد السيف فيها وتقرب بامرها الى الله فانى رأيت جدى العباس رضى الله عنه فى المنام قلدنى سيفين لقتل أصحاب الاثنين * فلما ولى الهادى أعمل فيهم القتل وأمر أن يهيأ له ألف جذع ليرفع عليها كل من يأتون به من أصحاب مانى فمات ولم يدرك منشوده

واستعمل على مصر فى خلافته علىّ بن سليمان العباسى فى سـنة تسع وستين بعد عزله الفضل بن صالح العباسى ثم ولى موسى بن عيسى العباسى فبقى الى أن مات الهادى فى سنة سبعين ومائة كما تقدم القول

(الفصـــــل الخـــامس)

(فى خلافة هرون الرشيد)

ثم قام بالامر بعد الهادى أخوه هرون الرشـيد بن محمد المهدى وكان أبوهما قد أخذ لهـما ولاية العهـد معا كامر بويع له بالخلافة فى الليلة التى مات فيها أخوه فى رابع عشر ربيع الاول سـنة سبعين ومائة هجرية أى سنة ست وثمانين وسبعمائة ميلادية وله من العمر اثنتان وعشرون سنة وكان مولده بالرى وولد له فى تلك الليلة المأمون فكانت ليـلة عجيبة لم ير مثلها فى بنى العباس وذلك لانه مات فيها خليفـة وولد خليفة وولى خليفـة * قيل لما مات الهادى جاء يحيى بن خالد الى الرشيد وهو نائم فى فراشه فقال له قم يا أمير المؤمنين فقال كم تروعنى اعجابا منك بخلافتى فكيف تكون حالى مع الهادى ان بلغه هذا فأعلمه بموته وأعطاه خاتمه فلبس ثيابه وخرج فصلى على الهادى بعيساباذ * ودخل خزيمة بن خازم فى الليـلة التى مات فيها الهـادى على جعفر بن الهادى فحمله من فراشه وقال له لتخلعنها أو لاضربن عنقك فلم ير بدا من الاجابة الى الخلع وركب من الغد خزيمة وأظهر جعفرا للنـاس فأشهدهم جعفر بالخلع وأقال النـاس من بيعتهم * ولما بويع الى هرون بالخـلافة قلد يحيى بن خالد البرمكى وزارته وقال له قد قلدتك أمر الرعيـة فاحكم فيها بما ترى واعزل من رأيت واسـتعمل من رأيت ودفع اليه خاتمه فقال ابراهيم الموصلى فى ذلك



ألم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولى هرون أشرق نورها
بيمن أمين الله هرون ذى الذى * فهرون واليها ويحيى وزيرها

ورسم بعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحدا وسماها العواصم وعمر مدينة طرسوس وبذل الجهد فى مد نطاق ملكه وتأييد سلطانه وكان سعيد الطالع موفقا فى جميع أعماله وعزل عمر بن عبد العزيز العمرى عن المدينة وولى مكانه اسحق بن سليمن بن عبد الله بن عباس ثم حج الرشيد ودخل مكة محرما وقسم فى الحرمين مالا كثيرا * وفى سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة قامت الفتنة بدمشق بين المضرية واليمانية فى ولاية عبد الصمد بن على فجمع الرؤساء وسعوا فى الصلح فتكلموا مع بنى القين فأجابوا اليه وكلموا اليمانية فحاولوا وساروا الى بنى القين وقتلوا منهم ستمائة نفر فاستنجد بنو القين قضاعة وسليما فلم ينجدوهم فاستغاثوا قيسا فأجابوهم وقتلوا من اليمانية نحو ثمانمائة واشتد القتال فعزل الرشيد عبد الصمد عن دمشق وولاها ابراهيم بن صالح فأحسن سياستها * وحج فى سنة ست وثمانين ومائة ومعه أولاده الثلاثة محمد الامين وعبد الله المأمون والقاسم وكان قد ولى الامين العهد وأعطاه العراق والشام الى آخر المغرب وولى المأمون العهد بعده وضم اليه همذان الى آخر المشرق وبايع لابنه القاسم من بعد المأمون ولقبه المعتصم وجعل خلعه واثباته للمأمون وجعله فى حجر عبد الملك بن صالح وضم اليه الجزيرة والثغور والعواصم ومرّ بالمدينة فأعطى فيها ثلاثة أعطية واحد منه وآخر من الامين وآخر من المأمون فبلغ ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ثم سار الى مكة فأعطى مثلها وأحضر الفقهاء والقضاة والقواد وكتب كتابى العهد وأشهد فيهما بالوفاء للامين والمأمون وعلقهما فى الكعبة * فتطير الناس من ذلك وخافوه جدا وأشهد على أن ما فى عسكره من الاموال والخزائن والسلاح والكراع للمأمون وجدد له البيعة عليهم فى طبرستان وأرسل الى بغداد فجدد له العهد على الامين

قال الكسائى دخلت على الرشيد يوما فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام فقال اقعد فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان فى مجلسه ولم يبق الا خاصته فقال لى يا على ألا تحب أن ترى محمدا وعبد الله قلت ما أشوقنى اليهما يا أمير المؤمنين وأسرّنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما فأمر باحضارهما فلم ألبث ان أقبلا ككوكبى أفق يزينهما هدو ووقار وقد غضا أبصارهما وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس فسلما على أبيهما بالخلافة ودعوا له بأحسن الدعاء فأمرهما بالدنو منه فسير محمدا عن يمينه وعبد الله عن يساره ثم أمرنى أن أستقرئهما وأسألهما ففعلت فما سألتهما عن شئ الا أحسنا الجواب فيه والخروج منه فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه ثم قال لى يا على كيف ترى مذهبهما وجوابهما فقلت يا أمير المؤمنين كما قال الشاعر

أرى قرى مجد وفرعى خلافة * يزينهما عرق كريم ومحتد

يا أمير المؤمنين هما فرع زكا أصله وطاب مغرسه وتمكنت فى الثرى عروقه وعذبت

مشاربه

مشاربه أبوهما أغر نافذ الامر واسع العلم عظيم الحلم يحكمان بحكمه ويستضيئان بنوره وينطقان بلسانه ويتقلبان فى سعادته فامتع الله أمير المؤمنين بهما وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب لسانا ولاأحسن ألفاظا ولا أشد اقتدارا على تأدية ماحفظا منهما ودعوت لهما دعاء كثيرا وأمّن الرشيد على دعائى ثم ضمهما اليه وجمع يديه عليهما فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ثم أمرهما بالخروج فلما خرجا أقبل علىّ فقال كأنك بهما وقد عم القضاء ونزلت مقادير السماء وبلغ الكتاب أجله قد تشتت كلمتهما واختلف أمرهما وظهر تماديهما ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء وتقتل القتلى وتهتك ستور النساء * ويتمنى كثير من الاحياء أنهم فى عداد الموتى * قلت أيكون ذلك ياأمير المؤمنين لامر رؤى فى أصل مولدهما أو لاثر وقع لامير المؤمنين فى مولدهما فقال لا والله الا بأثر واجب حملته العلماء عن الاوصياء عن الانبياء اه ويقال ان العمانى الشاعر قام بحضرة الرشيد فلم يزل يحرضه على محمد ويحضه على تجديد العهد له فلما فرغ من كلامه قال له أبشر باعمانى بولاية العهد له فقال اى والله يا أمير المؤمنين سرور العشب بالغيث والمرأة النزور بالولد والمريض المدنف بالبرء لانه نسيج وحده وحامى مجده وشبيه جده قال فما تقول فى عبدالله قال مرعى ولا كالسعدان فتبسم الرشيد وقال قاتله الله ما أعرفه بمواضع الرغبة أما والله انى لأتعرف فى عبد الله حزم المنصور ونسك المهدى وعز نفس الهادى والله لوشاء الله أن أنسبه الى الرابعة لنسبته اليها * وقال الاصمعى بينما أنا سائر الى الرشيد ذات ليلة اذ رأيته قد قلق قلقا شديدا فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكى ثم أنشأ يقول

قلد أمور عباد الله ذا ثقة * موحد الرأى لانكس ولا برم

واترك مقالة أقوام ذوى خطل * لايفهمون اذا ما معشر فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمرا عظيما ثم قال لمروان الخادم علىّ بيحيى فما لبث أن أتاه فقال يا أبا الفضل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فى غير وصية والاسلام جذع والايمان جديد وكلمة العرب مجتمعة قد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر وكان من خبره ماقد علمت وان أبا بكر صير الامر الى عمر فسلمت الامة له ورضيت بخلافته ثم صيرها عمر شورى فكان بعده ماقد بلغك من الفتن حتى صارت الى غير أهلها وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره الى من أرضى سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته وآمن ضعفه ووهنه وهو عبدالله وبنو هاشم مائلون الى محمد بأهوائهم وفيه مافيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته والتبذير لما حوته يده ومشاركته النساء والاماء فى رأيه وعبد الله المرضى الطريقة الاصيل الرأى الموثوق به فى الامر العظيم فان ملت الى عبد الله أسخطت بنى هاشم وان أفردت محمدا بالامر لم امن تخليطه على الرعية فأشر علىّ فى هذا الامر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها لانك محمد الله



مبارك الرأى لطيف النظر • فقال يا أمير المؤمنين ان كل زلة مستقالة وكل رأى يتلافى خلا
هـذا العهـد فان الخطأ فيه غير مأمون والزلة فيه لاتستدرك والنظر فيه مجلس غير هذا فعلم
الرشـيد أنه يريد الخلوة فأمرنى بالتنحى فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما فما زالا فى
مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليـل وافترقا على أن عقد الامر لعبد الله بعد محمد •
ودخلت أم جعفر على الرشـيد فقالت ما أنصفت ابنك محمدا حيث وليته العراق وأعريته
من العدد والقواد وصيرت ذلك الى عبد الله دونه فقال لها وما أنت وتمييز الاعمال وأخبار
الرجال انى وليت ابنك السلم وعبد الله الحرب وصاحب الحرب أحوج الى الرجال من المسالم
ومع ذلك فانا نتخوف ابنك على عبد الله ولا نتخوف عبد الله على ابنك ان بويع • ويحكى
عن سـعيد بن عامر البصرى قال حججت فى هذه السنة يعنى سنة ست وثمانين ومائة التى
حج فيها الرشـيد وولداه وقد كتب الشرطين بينهـما وعلقهما فى الكعبة وقد استعظم الناس
أمر الشرط والايمـان فى الكعبة فرأيت رجلا من هذيل يقود بعيرا ويقول

وبيعة قد نكثت أيمانها • وفتنة قد سعرت نيرانها

فقلت له ويحك ماتقول قال أقول ان السيوف ستسل والفتنة ستقع والتنازع فى الملك
سيظهر قلت وكيف ترى ذلك قال أما ترى البعير واقفا والرجـلان يتنازعان والغربان قد
وقعا على الدم والتطخا به والله لايكون آخر هذا الامر الا محاربة وشرا • ويروى أن الأمين
لما حلف للرشيد بما حلف له به وأراد الخروج من الكعبة رده جعفر ابن يحيى وقال له فان
غدرت بأخيك خـذلك الله حـتى فعـل ذلك ثلاثا كلها يحلف له فاستعضت لذلك أم جعفر
وحقدت على جعفر بن يحيى فكانت ممن حرض الرشيد على أمره وبعثه على مانزل به • وقد
كان من أمر الفتنة بينهما ماسيأتى ذكره فى محله ان شاء الله تعالى

ولمـا كانت سـنة ست وثمانين ومائة للهجرة أى سنة ست عشرة وثمانمائة للميلاد أوقع
الرشـيد بالبرامكة وأبادهـم وقد اختلف الكتاب فى الاسباب وتباينت أقوالهم والاكثر انه
لاتيان جعفر عباسة أخت الرشيد فانه كان زوجها من جعفر ليحل له النظر اليها لان الرشيد
لم يكن يصبر على أخته ولا غنى له عن جعفر فباشرها جعفر فحبلت منه وجاءت بغلام وقيل
انها ولدت توأمين وقيل لان الرشيد كان حبس يحيى بن عبدالله بن الحسن عند يحيى فأسراه
وقيـل قتـل البرامكة خوفا منهم على ملكه لانهم كانوا عظموا واشتهروا بالجود والكرم ومال
اليهم النـاس وأحبوهم • وعندى أن ذلك أقرب الى الصواب • قال ابن خلدون وانما نكب
البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتيازهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب
اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ولم يكن له معهم تصرف
فى أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم
وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم يقال انه كان بدار
الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا

فيها

فيما أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هرون ولىّ
عهد وخليفة حتى شب فى حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه بالأب فتوجه
الايثار من السلطان اليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه
وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت اليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك
وتحف الامراء وتسربت الى خزائنهم فى سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية وأفاضوا فى
رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الاشراف المعدم
وفكوا العانى ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات واستولوا على
القرى والضياع من الضواحى والامصار فى سائر الممالك حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة
وأغصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت الى مهادهم الوثير من
الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم
تعطفهم لما وقع فى نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولاردعتهم أواصر القرابة وقارن ذلك
عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من الحجر والانفة وكانت الحقود التى بعثتها منهم
صغائر الدالة وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كبائر المخالفة كقصتهم فى يحيى بن عبد الله
ابن حسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب أخى محمد المهدى الملقب بالنفس الزكية الخارج
على المنصور ويحيى هذا هو الذى استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد
بخطه وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبرى ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل
اعتقاله بداره والى نظره فحبسه مدة ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبداد بحل عقاله
حرما لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان فى حكمه وسأله الرشيد عنه لما وشى به اليه
ففطن وقال أطلقته فأبدى له وجه الاستحسان وأسرها فى نفسه فأوجد السبيل بذلك على
نفسه وقومه حتى ثل عرشهم وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت الارض بهم وبدارهم وذهبت
سلفا ومثلا للآخرين أيامهم الى أن قال * وانظر ما نقله ابن عبد ربه فى مفاوضة الرشيد
عمه داود بن علىّ فى شأن نكبتهم وما ذكره فى باب الشعراء فى كتاب العقد فى محاورة
الاصمعى للرشيد وللفضل بن يحيى فى سمارهم تفهم أنهم انما قتلتهم الغيرة والمنافسة فى
الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين
من الشعر احتيالا على اسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم وهو قوله

ليت هندا أنجزتنا ما تعد * وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة * انما العاجز من لايستبد

وأن الرشيد لما سمعها قال اى والله انى عاجز حتى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته
وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال اه

قال صاحب الكامل لما رجع الرشيد من الحج نزل العمر الذى عند الانبار سلخ المحرم وأرسل

مسرورا الخادم ومعه جماعة من الجند الى جعفر ليلا وعنده ابن بختيشوع الطبيب وأبو زكار المغنى وهو فى لهوه وأبو زكار يغنى

فلا تبعد فكل فتى سيأتى * عليه الموت يطرق أويغادى

وكل ذخيرة لابد يوما * وان كرمت تصير الى نفاد

قال مسرور فقلت له ياأبا الفضل الذى جئت له هو والله ذاك قد طرقك أجب أمير المؤمنين فوقع على رجلى يقبلها وقال حتى أدخل فأوصى فقلت أما الدخول فلا سبيل اليه وأما الوصية فاصنع ماشئت فأوصى بما أراد وأعتق مماليكه وأتتنى رسل الرشيد تستحثنى فمضيت به اليه فأعلمته وهو فى فراشه فقال ائتنى برأسه فأتيت جعفرا فأخبرته فقال الله الله والله ما أمرك الا وهو سكران فدافع حتى أصبح أوراجعه فى ثانية فعدت لاراجعه فلما سمع حسى قال ياماص بظر أمه ائتنى برأسه فرجعت اليه فأخبرته فقال آمره فرجعت فقذفنى بعمود كان فى يده وقال نفيت من المهدى ان لم تأتنى برأسه لاقتلنك قال فخرجت فقتلته وحملت رأسه اليه * وكان قتل جعفر بالانبار فى صفر وبعد قتله أرسل من أحاط بيحيى ولده وجميع أسبابه وأخذ جميع ماوجد للبرامكة من مال ومتاع وضياع وغير ذلك وكتب الى كافة البلاد بقبض أموالهم وأرسل رأس جعفر وجثته الى بغداد وأمر بوضع الرأس على جسر وجثته على جسر آخر ولكنه مع ذلك لم يتعرض لمحمد بن خالد بن برمك قالوا لبراءته * وكان عمر جعفر لما قتل سبعا وثلاثين سنة وكانت الوزارة فيهم سبع عشرة سنة والبرامكة عائلة من فارس واسعة السمعة كانت لهم رتبة الامامة والكهانة قبل الاسلام بمائتى سنة وقد قال يحيى بن خالد عند مانكب * الدنيا دول والمال عارية ولنا بمن قبلنا أسوة وفينا لمن بعدنا عبرة * وشوهد بعد قتله فى حضنه رقعة مكتوب فيها * المقرف يذهب والمعرق يتبعه قريبا وسينتصب الاثنان أمام قاض عدل حيث لاتغنى الكتابات والاعذار شيأ * وسار الرشيد الى الرى ثم رجع الى العراق ودخل بغداد وأمر باحراق جثة جعفر ثم مضى الى الرقة ومات يحيى بن خالد فى هذا الحين فى السجن فى الرقة وعمره سبعون سنة ومات الفضل بن يحيى ابن خالد بن برمك مسجونا فى السنة الثانية وعمره خمس وأربعون سنة قيل ولم ير أجل منه فلم يكن الرشيد بعد قتل البرامكة يطيق المقام ببغداد فبارح السنة المذكورة الرقة الى خراسان ثم سار طالبا حرب رافع بن الليث بما وراء النهر لخروجه بسمرقند فلما كان فى طوس جيء ببشر بن الليث أسيرا فقال له الرشيد والله لولم يبق من أجلى الا أن أحرك شفتى بكلمة لقلت اقتلوه ثم أمر قصابا ففصل أعضاءه ومثل به تمثيلا * وكان الرشيد قد غضب على عبد الملك بن صالح بن على بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب فأمر به فألقوه فى السجن مكبلا على غير سبب ظاهر فلما كان فى بعض الايام استحضره وجعل يعنفه ويوبخه شديدا قال غوث بن المدرع عن الرياشى قال سمعت الاصمعى يقول كنت عند الرشيد وأتى

بعبد

بعبد الملك بن صالح يرفل فى قيوده فلما نظر اليه قال هيه ياعبد الملك كأنى أنظر الى شؤبوبها قد همع وعارضها قد لمع * وكأنى بالوليد قد أقلع عن براجم بلامعاصم ورؤس بلا غلاصم مهلا مهلا بنى هاشم والله والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر وألقت اليكم الامور أزمتها فخذوا حذركم منى قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل * فقال له عبد الملك أفذا أتكلم أوتوأما فقال بل توأما قال فاتق الله ياأمير المؤمنين فيما ولاك وراقبه فى رعاياك التى استرعاك * قد سهلت والله لك الوعور * وجمعت على طاعتك القلوب فى الصدور * وكنت كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب * يعنى لبيدا *

ومقام ضيق فرجته * ببيان ولسان وجدل

لا يقوم الفيل أو فياله * زل عن مثل مقامى أورحل

قال فأراد يحيى بن خالد البرمكى أن يضع من مقام عبد الملك عند الرشيد فقال له ياعبد الملك بلغنى أنك حقود فقال أصلح الله الوزير ان يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندى فانهما لباقيان فى قلبى فالتفت الرشيد الى الاصمعى فقال يا أصمعى حررها فو الله ما احتج أحد للحقد بمثل ما احتج به عبد الملك ثم أمر به فرد الى محبسه ثم التفت الى الاصمعى وقال والله ياأصمعى لقد نظرت الى موضع السيف من عنقه مرارا ويمنعنى من ذلك ابقائى على قومى فى مثله اه

وكان هرون الرشيد موفق الغزوات ميمون الطالع كتب اليه نيقوفور ملك الروم الذى قام بعد خلع ارميق الملك كتابا يقول فيه * من نيقوفور ملك الروم الى هرون الرشيد ملك العرب أما بعد فان الملكة التى كانت قبلى قد أقامتك رخا وأقامت نفسها بيدقا فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه اليها وما ذاك الا من ضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابى فاردد علينا ما سلبته من أموالنا والا فالسيف يقضى فيما بيننا * فلما تقدم السفراء بالكتاب أخذه الرشيد وقرأه ولما وصل الى قوله فالسيف يقضى فيما بيننا ألقى السفراء المذكورون ضمة سيوفهم أمامه فنظر اليها الرشيد وهو يتبسم قليلا واستل سيفه وضرب به تلك السيوف الرومية فبراها كما يبرى الكاتب القلم ثم كتب على ظهر الجواب * بسم الله الرحمن الرحيم * من هرون الرشيد أمير المؤمنين الى نيقفور كلب الروم قد قرأت كتابك ياابن الكافرة والجواب ماتراه لاما تسمعه * وعندى أن هذا من مبالغة الكتاب لان الرشيد كان أديبا مهيبا حسن السياسة غير مشاغب ولا متسرع الى فحش القول وهو من الحلم وسعة الصدر بمكان * قالوا ثم ركب الرشيد على نيقفور من يومه حتى نزل هرقلة ففتح وغنم وخرب وبعث داود بن عيسى بن موسى فى سبعين ألفا غازيا فى أرضهم وفتح شرحبيل ابن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودلسة وفتح يزيد بن مخلد حصن الصفصاف ومقلونية وأناخ عبد الله بن مالك على حصن ذى الكلاع واستعمل الرشيد حميد بن معيوف على الاساطيل من سواحل الشام ومصر الى قبرص فهزم وخرب وسبى من أهلها سبعة عشر

ألفا وجاء بهم الى الرافقة فبيعوا بها وبلغ فداء أسقف قبرص يومئذ ألفى دينار * وسار الرشيد الى طوانة فنزل بها وحاربها وحاصرها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر فسأله نيقفور الصلح على خراج يحمله فى كل سنة فصالحه ورجع الى قصره على الفرات ثم لم تلبث الروم حتى انتقضوا فى الشتاء فركب عليهم ثانية ولم تمنعه ثلوج الجبال وقاتلهم قيل فقتل منهم أربعين ألفا وجرح نيقفور فى ثلاثة محال ثم عصى ثالثة فجيش عليه وأخضعه * وكان الرشيد يركب على مائة وخمسة وثلاثين ألفا من العساكر المرتزقة سوى من لا ديوان له والمتطوعة الجميع نحو ثلثمائة ألف وقد تجاوز بجميع هذه الجنود مدن آسية الصغرى حتى أنقرة وحاصر هرقلة شهرا وخربها وأخذ ما فيها من الخيرات والكنوز وما زال يخرب ويسلب ويأسر ويشدد على نيقوفور الى أن تصالحا على أن تبقى مدينة هرقلة خربة أمثولة وذكرا لظفر الرشيد وعلى أن يكون المال المدفوع مسكوكا عليه اسمه واسم أولاده الثلاثة فكان ذلك

ومات الرشيد فى سنة ثلاث وتسعين ومائة لثلاث خلون من جمادى الآخرة فى ليلة السبت بطوس وهو ابن سبع وأربعين سنة وقيل خمس وأربعين وكان به مرض فاشتدت علته بجرجان فسار الى طوس ومات فيها وكان قد سير ولده المأمون الى مرو وكان قد حفر قبره فى وسط الدار التى كان فيها قيل ولما احتضر خاف وانزعج وغشى عليه ثم أفاق فرأى الفضل بن الربيع فقال يافضل

أحين دنا ما كنت أخشى دنوه * رمتنى عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوما وكنت محسدا * فصبرا على مكروه تلك العواقب
سأبكى على الوصل الذى كان بيننا * وأندب أيام السرور الذواهب

فبكى الفضل عند سماعه هذه الابيات وترك الرشيد اثنى عشر ابنا وخمس عشرة بنتا وكان جوادا ممدوحا غازيا مجاهدا شجاعا مهيبا مليحا أبيض طويلا جميل الجسم قد وخطه الشيب ويقال انه منذ استخلف كان يصلى كل يوم وليلة مائة ركعة ويتصدق من ماله الخاص بألف درهم وكان له معرفة جيدة بالعلوم وكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وأشهرا وقيل ثلاثا وعشرين فقط وكان مولده بالرى

واستأمر على مصر فى خلافته مسلمة بن يحيى الأزدى بعد خلعه موسى بن عيسى العباسى فى سنة اثنتين وسبعين ثم ولى بعده محمد بن زهير الأزدى سنة ثلاث وسبعين ثم ولى داود بن يزيد المهلبى سنة أربع وسبعين ثم أعاد موسى بن عيسى سنة خمس وسبعين ثم عزله الرشيد سنة ست وسبعين وولى عليها جعفر بن يحيى البرمكى فاستناب عليها عمر بن مهران شيعيا ردىء الشكل أحول وكان سبب ذلك أن الرشيد بلغه أن موسى بن عيسى عزم على خلعه فقال والله لأولين عليها أخس الناس فاستدعى عمر بن مهران هذا وولاه عليها نيابة عن جعفر فسار عمر اليها على بغل وغلامه أبو درة على بغل آخر فدخلها كذلك فانتهى الى مجلس

موسى

موسى بن عيسى فجلس فى أخريات الناس حتى انفضوا فأقبل عليه موسى وهو لا يعرف من هو فقال ألك حاجة ياشيخ قال نعم أصلح الله الامير ثم مال بالكتب فدفعها اليه فلما قرأها قال أنت عمر بن مهران قال نعم قال لعن الله فرعون حين قال أليس لى ملك مصر ثم سلم اليه العمل وارتحل عنها

ثم فى سنة سبع وسبعين ومائة عزل الرشيد جعفرا عن مصر وولى عليها اسحق بن سليمن كذا فى تاريخ ابن كثير وغيره وذكر الأديب أبو الحسن الجزار فى أرجوزته فى أمراء مصر خلاف ذلك فانه قال أعيد موسى بن عيسى سنة خمس وسبعين ثم أعيد ابراهيم بن صالح العباسى سنة ست وسبعين ثم ولى عبد الله بن المسيب الضبى ثم ولى اسحق بن سليمان العباسى سنة سبع وسبعين كذا قال اه ثم عزل اسحق سنة ثمان وسبعين وولى هرثمة بن أعين فأقام نحوا من شهر ثم عزل وولى عبد الملك بن صالح العباسى فأقام الى سلخ سنة ثمان وسبعين وولى عبد الله بن مهدى العباسى سنة تسع وسبعين ثم أعيد موسى بن عيسى سنة ثمانين ثم أعيد عبيد الله المهدى وصرف فى رمضان سنة احدى وثمانين ثم صرف وولى الليث بن الفضل البيوردى ثم ولى أحمد بن اسمعيل العباسى سنة سبع وثمانين ثم ولى عبيد الله بن محمد العباسى ثم ولى الحسين بن جميل الازدى سنة تسعين ثم ولى مالك بن دلهم الكلبى سنة اثنتين وتسعين ثم ولى الحسن سنة ثلاث وتسعين وهى السنة التى مات فيها الرشيد

ومات فى أيامه يوحنا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ثلاثا وعشرين سنة وكان تقيا محبا للفقراء ولم تصبه شدائد بل كانت أيامه كلها سلاما فأقيم بعده مرقس المعروف بالجديد وهو تاسع أربعيهم وأصله من مدينة الاسكندرية ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل السادس)

(فى خلافة محمد الامين بن هرون الرشيد)

ثم قام بالأمر بعد هرون الرشيد ابنه محمد الأمين بويع له بالخلافة يوم توفى أبوه بطوس سنة ثلاث وتسعين ومائة هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة ميلادية واستناب أخاه على ممالك خراسان وهو اذ ذاك ببغداد فورد عليه بها خاتم الخلافة والبردة والقضيب وهما لصاحب الشريعة ثم بويع له بها البيعة التامة فى سائر الآفاق وكان الرشيد قد جدد البيعة بطوس بولاية العهد لابنه المأمون بعد الامين كما تقدم القول وأشهد على نفسه أن جميع مامعه من مال وسلاح وغير ذلك للمأمون وأوصى أن يكون مامعه من الجيوش مضمومين معه بخراسان فلما مات الرشيد نادى الفضل بن الربيع فى عسكر الرشيد بالرحيل الى بغداد وخالف وصية



الرشيد فعظم ذلك على المأمون وكتب الى الفضل يذكره بالعهود التى أخذها عليه الرشيد ويحذره البغى ويسأله الوفاء فلم يلتفت الفضل اليه فكان هذا الامر سبب ابتداء الوحشة بين الأمين والمأمون * وكان الأمين عديم السياسة فلم يلبث على كرسى الخلافة طويلا حتى أمر بابطال ذكر اسم المأمون من الخطبة واستبدله باسم ابنه موسى ولقبه الناطق بالحق وكان يومئذ طفلا فأدى ذلك الى وقوع الوحشة واشتداد الخلاف بينه وبين المأمون وطال الاخذ والرد بين الفريقين حينا فكثرت أحزاب المأمون وانضم اليه ناس من كبار الدولة وأمراء الجند بعد أمور قد أضربنا عن ايرادها هنا وتجهز كل منهما لقتال الآخر فارسل الأمين علىّ بن عيسى بن ماهان بجيش عظيم لقتال المأمون فى خراسان وجهز المأمون كذلك طاهر بن الحسين بعسكر قليل وأرسله الى الرى فخلع طاهر بيعة الأمين عن معه من الجند وبايع المأمون فقامت الحرب بينه وبين علىّ بن عيسى وقاتل عليا قتالا شديدا وقتل علىّ وأخذت رأسه الى طاهر وانهزم عسكره فارسل الأمين عسكرا آخر صحبة أحمد بن مرشد وعبد الله بن حميد بن قحطبة وكان مع كل واحد عشرون ألفا وساروا الى حلوان لقتال طاهر فلما وصلوا الى خانقين وقع فيهم الخلاف فرجعوا دون قتال فتقدم طاهر ونزل فى حلوان ولحقه هرثمة بجيش آخر من عند المأمون وكتب يأمره بالقيام الى الاهواز ولما بلغ المأمون قتل ابن ماهان أمر أن يخطب له بامرة المؤمنين وعقد للفضل بن سهل على المشرق من همذان الى التبت طولا ومن بحر فارس الى بحر الديلم وجرجان عرضا ولقبه بذى الرياستين يعنى رياسة الحرب ورياسة القلم * وولى الحسن بن سهل ديوان الخراج ثم استولى طاهر على الاهواز وواسط والمدائن ونزل صرصر فى سنة ست وتسعين ومائة أى نحو سنة احدى عشرة وثمانمائة للميلاد وفى التى بعدها ألقى هرثمة وطاهر الحصار على بغداد وأوقعا فيها النهب والحريق ومنعا الميرة فغلا فيها سعر كل شئ ودام الحصار وشدة الحال السنة بطولها وهجم طاهر بعد ذلك على بغداد وبعد قتال شديد انجلى عن تمزيق شمل جند الأمين وتفريقهم أيدى سبا وخذلهم للخليفة نادى منادى طاهر من لزم بيته فهو آمن وتحصن الأمين فى مدينة المنصور وتفرق عنه عامة جنده وخصيانه فحاصره طاهر وسد عليه المنافذ ثم طلب الأمين الامان من هرثمة وأن يطلع اليه فلم يقبل فروجع طاهر فى ذلك فأبى فلما كانت ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة للميلاد خرج الأمين وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود فارسل اليه هرثمة يمنعه من ذلك وأن يبقى الى الليلة القابلة فلم يقبل ودعا الأمين بابنيه وضمهما لصدره وقبلهما وبكى ثم مضى راكبا الى الشط فوجد حراقة هرثمة فصعد اليها فاحتضنه هرثمة وضمه اليه وقبل يديه ورجليه وقد علم أصحاب طاهر بخبره فشدوا على حراقة هرثمة حتى أغرقوها فأخرج الملاح هرثمة من الماء أما الأمين فانه لما سقط شق ثيابه وعدا سابحا الى الجانب الثانى فأمسكوه وأخذوه عريان ووضعوه فى بيت حتى جاء الليل وأرسل اليه طاهر بعض الاعجام فقتلوه وأخذوا رأسه فنصبه طاهر على برج من أبراج بغداد

الى

الى أن أرسلت الى المأمون وكتب له بالفتح وأرسل له البردة والقضيب ودخل طاهر المدينة وأقام خطبة المأمون نهار الجمعة واستتبت له الخلافة واستوثق له الامر مشرقا ومغربا بعد أمور أضربنا عن ايرادها هنا

قال أبو حنيفة فى الاخبار الطوال وغيره عن الكسائى انه قال ان الرشيد ولانى تأديب الأمين والمأمون فكنت أشدد عليهما فى الادب وآخذهما به أخذا شديدا وخاصة الأمين فأتتنى ذات يوم خالصة جارية زبيدة وقالت يا كسائى ان السيدة تقرأ عليك السلام وتقول لك حاجتى اليك أن ترفق بابنى محمد فانه قرة عينى وثمرة فؤادى وانى أرق عليه رقة شديدة فقلت لخالصة ان محمدا مترشح للخلافة بعد أبيه ولايجوز التقصير فى أمره فقالت خالصة ان لرقة هذه السيدة سببا أنا أخبرك اياه انها فى الليلة التى ولدته فيها رأت فى منامها كأن أربع نسوة أقبلن اليه فاكتنفنه عن يمينه وشماله وأمامه ووراءه فقالت التى بين يديه ملك قليل العمر كثير الكبر ضيق الصدر واهى الامر كبير الوزر شديد الغدر * وقالت التى من ورائه ملك قصاف مبذر متلاف قليل الانصاف كثير الاسراف * وقالت التى عن يمينه ملك عظيم البذل قليل الجهل كثير الاثم قطوع الرحم * وقالت التى عن يساره ملك غدار كثير العثار سريع الدمار * قال ثم بكت خالصة وقالت يا كسائى وهل ينفع الحذر من القدر اه

ولما هم محمد بخلع المأمون شاور عبد الله بن حازم فقال له أنشدك الله باأمير المؤمنين أن لا تكون أول الخلفاء نكث عهده ونقض ميثاقه واستخف بيمينه فقال اسكت لله أبوك فعبد الملك بن صالح كان أفضل منك رأيا حيث يقول لايجتمع فحلان فى أجمة ثم جمع القواد وشاورهم فاتبعوه فى مراده الى أن بلغ الى هرثمة بن حازم فقال باأمير المؤمنين لن ينصحك من كذبك ولن يغشك من صدقك لا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك ولا تحملهم على نكث العهود فينكثوا عهدك وبيعتك فان الغادر مخذول والناكث مفلول فأقبل الامين على على بن عيسى بن ماهان فتبسم محمد وقال لكن شيخ هذه الدعوة ونائب هذه الدولة لايخالف إمامه ولايوهن طاعته ثم رفعه الى موضع مارفعه اليه فيما مضى فكان على بن عيسى هذا أول من أجاب الى خلع المأمون فأكبره الأمين وقربه وسيره فى جيش عظيم نحو المأمون فلما قرب من الرى قيل له ان طاهر بن الحسين مقيم بها وقد كان يظن أن طاهرا لا يثبت له فقال ماطاهر الاشوكة من أغصانى وشرارة من نارى وما مثل طاهر يؤمر على جيش وما بينه وبين الأمين الا أن تقع عينه على سوادكم فان السخال لاتقوى على نطاح الكباش والثعالب لاتقدر على لقاء الأسد فقال له ابنه ابعث طلائع وارتد موضعا لعسكرك فقال ليس طاهر يستعد له بالمكائد والتحفظ ان حال طاهر يؤدى الى أمرين اما أن يتحصن بالرى فيثب به أهلها ويكفونا مؤنته أو يخليها ويدبر راجعا اذا قربت خيولنا منه فقال له ابنه ان الشرارة ربما صارت ضراما فقال ان

طاهرا ليس قرنا فى هذا الموضع وانما يحترس الرجال من أقرانها * وسار على بن عيسى وبث عساكره من الرى وتبين ماعليه طاهر من الجد وأهبة الحرب وضم الاطراف فعدل الى رستاق من رساتيق الرى متياسرا عن الطريق فنزل وانبسطت عساكره وأقبل طاهر فى نحو من أربعة آلاف فارس فأشرف على عساكر على وتبين كثرتها وعدة مافيها فعلم أن لاطاقة له بذلك الجيش فقال لخواصه ومن معه نجعلها خارجية وكردس خيله كراديس وصمد فى نحو القلب فى سبعمائة من الخوارزمية وغيرهم من فرسان خراسان وخرج اليه من القلب العباس بن الليث مولى المهدى وكان فارسا فقصده طاهر وضع يده على سيفه فأتى عليه وكان على على برذون فسقط كبث بين أرجل الرجال فتمالوا على رأسه وتنازعوا فى خاتمه ورأسه فذبحه رجل يعرف بطاهر بن الراجى وقبض آخر على خصلة من شعر لحيته وآخر على خاتمه وكان سبب هزيمة الجيش ضربة طاهر بيديه جميعا العباس بن الليث وبذلك سمى طاهر ذا اليمينين لجمع السيف بيديه * وذكر أحمد بن هشام وكان من وجوه القواد قال جئت الى مضرب طاهر وقد توهم انى قتلت فى المعركة ومعى رأس على فقلت البشرى هذه خصلة من رأس على مع غلامى فى المخلاة فطرحتها قدامه ثم أتى بجثته وقد شدت يداه ورجلاه كما يفعل بالدواب اذا ماتت فأمر به طاهر فألقى فى بئر وكتب الى ذى الرياستين فكان فى الكتاب * أطال الله بقاءك وكبت أعداءك كتابى اليك ورأس على بن عيسى بين يدى وخاتمه فى أصبعى والحمد لله رب العالمين * فسر المأمون بذلك وسلم عليه فى ذلك الوقت بالخلافة * وحدث ابراهيم بن المهدى قال بعث الى الأمين وهو محاصر فصرت اليه فاذا هو جالس فى طارمة خشبها من عود وصندل عشرة فى عشرة واذا سليمان بن أبى جعفر المنصور معه فى الطارمة وهى قبة كان اتخذ لها فراشا مبطنا بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الاحمر وغير ذلك من أنواع الابريسم فسلمت فاذا قدامه قدح بلور محروز فيه شراب ينفذ مقداره خمسة أرطال وبين يدى سليمان قدح مثله فجلست بازاء سليمان فأتيت بقدح كالأول والثانى قال فقال الامين انما بعثت اليكما لما بلغنى قدوم طاهر ابن الحسين الى النهروان وما قد صنع فى أمرنا من المكروه وقابلنا به من الاساءة فدعوتكما لأفرج بكما وبحديثكما فأقبلنا نحدثه ونؤنسه حتى سلا عما كان يجده وفرح ودعا بجارية من خواص جواريه تسمى ضعفا قال فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال فقال لها غنينا فوضعت العود فى حجرها وغنت

كليب لعمرى كان أكثر ناصرا * وأكثر جرما منك ضرج بالدم

فتطير من قولها ثم قال لها اسكتى قبحك الله ثم عاد الى ما كان عليه من الغم والاقطاب فأقبلنا عليه نحادثه ونبسطه الى أن سلا وضحك ثم أقبل عليها وقال هات ما عندك فغنت

هم قتلوه كى يكونوا مكانه * كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

فأسكتها

فأسكتها وزأرها وعاد الى الحالة الاولى فسليناه حتى عاد الى الضحك فأقبل عليها الثالثة فقال غنى فغنت

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود العواثر

وقيل بل انها غنت

أما ورب السكون والحرك * ان المنايا كثيرة الشرك

فقال لها قومى غضب الله بك وصنع بك فقامت فعثرت بالقدح الذى كان بين يديه فكسرته فأهريق الشراب وكانت ليلة قمراء ونحن على شاطئ دجلة فى قصره المعروف بالخلد فسمعنا قائلا يقول قضى الامر الذى فيه تستفتيان * قال ابن المهدى فقمت وقد وثب فسمعت منشدا من ناحية القصر ينشد هذين البيتين

لا تعجبن من العجب * قد جاء ما يقضى العجب
قد جاء أمر فادح * فيه لذى عجب عجب

قال فما قمنا معه بعدها الى أن قتل

ومات محمد الأمين وهو ابن ثمان وعشرين سنة وقيل سبع وعشرين وكان طويلا أبيض بديع الحسن وكانت خلافته أربع سنين وثمانية شهور وقيل ثلاثة أعوام وأياما لانه خلع فى رجب سنة ثمان وتسعين ومائة ومن حسب له الى موته فخلافته خمس سنين خلا أشهرا وكان مبذرا للأموال لعابا لا يصلح للخلافة مشتغلا باللهو والقصف والاقبال على اللذات فقال فيه بعضهم

اذا غدا ملك باللهو مشتغلا * فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس فى الميزان هابطة * لما غدا وهو برج اللهو والطرب

قال صاحب الكامل وأكثر الشعراء فى مراثى الأمين وهجائه فما قيل فى مراثيه قول الحسين بن الضحاك وكان من ندمائه وكان لا يصدق بقتله ويطمع فى رجوعه

يا خير أسرته وان زعموا * انى عليك لمثبت أسف
الله يعلم أن لى كبدا * حرى عليك ومقلة تكف
ولئن شجيت لما رزئت به * انى لأضمر فوق ما أصف
هلا بقيت لسد فاقتنا * أبدا وكان لغيرك التلف
فلقد خلفت خلائفا سلفوا * أوليس يعوز بعدك الخلف
لا بات رهطك بعد هونهم * انى لرهطك بعدها شنف
هتكوا لحرمتك التى هتكت * حرم الرسول ودونها السجف
ونبت أقاربك التى خذلت * وجميعها بالذل معترف
تركوا حريم أبيهم نفلا * والمحصنات صوارخ هتف

أبدت مخلخلها على دهش • أبكارهن ورنت النصف
سلبت معاجرهن واختلست • ذات النقاب ونوزع الشنف
فكأنهن خلال منتهب • درّ تكشف دونه الصدف
ملكٌ تخوّن ملكه قدر • فوهى فصرف الدهر مختلف
هيهات بعدك أن يدوم لنا • عز وأن يبقى لنا شرف
أفبعد عهد الله تقتله • والقتل بعد أمانة سرف
فستعرفون غدا بعاقبة • عز الاله فأوردوا وقفوا
يامن يخوّن نومه أرقا • هدت الشجون وقلبه لهف
قد كنت لى أملا غنيت به • فمضى وحل محله الأسف
مرج النظام وعاد منكرنا • عرفا وأنكر بعده العرف
والشمل منتشر لفقدك والدنيا سدى والباب منكشف

وأسرف الحسين بن الضحاك فى مراثى الأمين وذم المأمون فلهذا حجبه المأمون عنه ولم يسمع مديحه مدة ثم أحضره وقال له أخبرنى هل رأيت يوم قتل أخى هاشمية قتلت وهتكت قال لا قال فما قولك

ومما شجى قلبى وكفكف عبرتى • محارم من آل النبى استحلت

الابيات فقال ياأمير المؤمنين لوعة غلبتنى وروعة فاجأتنى ونعمة سلبتها بعد أن غمرتنى واحسان شكرته فأنطقنى وسيد فقدته فأقلقنى فان عاقبت فبحقك وان عفوت فبفضلك فدمعت عين المأمون وقال قد عفوت عنك وأمرت بادرار أرزاقك عليك وعطائك ما فاتك منها وجعلت عقوبة ذنبك امتناعى من استخدامك اه

واستعمل الامين على مصر فى خلافته حاتم بن هرثمة بن أعين ثم صرفه فى سنة خمس وتسعين ثم ولى المطلب بن عبد الله الخزاعى سنة ثمان وتسعين ثم صرفه وولى العباس بن موسى فى السنة التى قتل فيها الأمين أى سنة ثمان وتسعين ومائة للهجرة

(الفصل السابع)

(فى خلافة عبد الله المأمون بن هرون الرشيد)

ثم قام بالامر بعد الأمين أخوه عبد الله المأمون بويع له بالخلافة البيعة العامة صبيحة الليلة التى قتل فيها الأمين باجماع من الامة على ذلك سنة ثمان وتسعين ومائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ميلادية خلا ما كان من أمير الأندلس فانه كان هو والامراء قبله وبعده لم يتقيدوا بطاعة العباسيين لبعد الديار واستبدادهم بالأمر فيها

فلما استوثق الامر للمأمون تمم مابدأ به أبو جعفر المنصور جده من تعميم المعارف بين الرعية واستجلب ما تصل اليه قدرته من كتب الفلسفة والرياضيات وغيرها واستأجر لترجمتها من اللغات الاعجمية مهرة المترجمين ونجباء العلماء ورتب المجالس للمناظرة فى الأديان والفلسفة والنجوم وحث الرعية على ترك مارغب فيه الصبين والترك ومن نحا نحوهم من التنافس فى دقة الصنائع العلمية وغيرها فارتقت العرب فى أيامه الى أرقى درجات العلوم والمعارف وفارقتهم أو كادت العوائد البدوية القديمة فى عهد قريب جدا لم يكن فى حسبان

وظهر فى أيامه بالكوفة محمد بن ابراهيم بن اسمعيل بن ابراهيم بن الحسن العلوى المعروف بابن طباطبا ودعا الناس اليه وكان القائم بامره أبو السرايا فبايعه أهل الكوفة واستوثقوا له فأرسل اليه المأمون الحسن بن سهل الضبي فى عشرة آلاف فهزمهم ابن طباطبا واستباحهم ولكنه لم يلبث أن مات فجأة وقيل سمه أبو السرايا ليستبد بالامر وأقام غلاما من أولاد علىّ يقال له ابن زيد صورة والكلمة لابى السرايا ثم قام ففتح البصرة وواسطا وجرى بينه وبين جند المأمون عدة وقائع انجلى الامر فيها عن فرار أبى السرايا من الكوفة بثمانمائة فارس بعد أن حصره هرثمة ودخل هرثمة الكوفة ونادى بالامان فسار أبو السرايا الى جلولاء فتفرق عنه أصحابه وظفر به حماد الكندغوش وقبض عليه وعلى من بقى معه وأتى بهم الى الحسن بن سهل وهو فى النهروان فقتله وسير برأسه الى المأمون

وكان المأمون يميل لآل علىّ ويحب عليا الرضا بن موسى الكاظم فعهد اليه بالخلافة من بعده وأمر جنده بخلع الاسود ولبس الاخضر وكتب بذلك الى الآفاق فشق الأمر على بنى العباس ووقع الخلاف وهاج الناس وهموا فى بغداد ببيعة ابراهيم بن المهدى وخلع المأمون لهذا السبب ولتقدمه الحسن بن سهل فبايعوا ابراهيم المذكور فى سنة اثنتين ومائتين ولقب بالمبارك وكان القيم على أمور ابراهيم المطلب بن عبد الله بن مالك فاستولى ابراهيم على الكوفة وجمع عسكره الى المدائن واستعمل على الجانب الغربى من بغداد العباس ابن موسى الهادى وعلى الجانب الشرقى اسحق بن الهادى فسار يومئذ المأمون من مرو الى العراق واستخلف على خراسان غسان بن عباد وعند وصوله الى سرخس وثب أربعة رجال بالفضل بن سهل فقتلوه وعمره يومئذ ستون سنة فغضب المأمون وجعل لمن يقبض عليهم عشرة آلاف دينار فأمسكهم العباس بن الهيثم الدينورى فأمر المأمون بضرب أعناقهم وقام طالبا العراق فبلغ ذلك ابراهيم بن المهدى والمطلب وأصحابه فترك المطلب ابراهيم وتمارض وسار الى بغداد واشتغل سرا بجانب المأمون وخلع ابراهيم فعلم ابراهيم بذلك وكان فى المدائن فقصد بغداد وأمر بالمطلب فنهبت دور أهله ولم يظفروا به وعظمت الفتنة وكاد يتسع نطاقها وكان المأمون قد زوج ابنته من على الرضا الذى عهد اليه بالخلافة بعده فلم يلبث حتى مات فى السنة التالية لزواجه فدفن عند قبر الرشيد وكتب المأمون الى بغداد يعلم أهلها بموته ويقول لهم ان من نقمتم علىّ بسببه قد مات فارجعوا الى خليفتكم فرجعوا

وخلعوا بيعة ابراهيم بن المهدى ودعوا للمأمون فاختفى ابراهيم وقدم المأمون الى بغداد وانقطعت بعودته الفتن وكان لابسا الاخضر فدخل عليه الناس وسلموا بالاخضر ثم رجعوا الى اللباس الاسود كما رسم هو

وظهر فى أيامه القول بخلق القرآن وقيل ظهر فى أيام الرشيد وكان الناس فيه بين أخذ وترك الى زمن المأمون فحمل الناس على القول بخلق القرآن وكل من لم يقل بخلقه عاقبه أشد عقوبة وكان الامام أحمد امام أهل السنة من الممتنعين عن القول بخلق القرآن فحمل الى المأمون مقيدا فمات المأمون قبل وصوله اليه * ودخل المأمون بلاد الجزيرة والشام وأقام بها مدة طويلة ثم غزا الروم وفتح فتوحات عظيمة الغاية وبث العيون بعد ذلك فى طلب ابراهيم بن المهدى فظفر به لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة سبع ومائتين فى الدرب المعروف بالطويل ببغداد فادخل الى المأمون وهو فى زى امرأة ومعه امرأتان أخذه حارس أسود فى الدرب المذكور فلما رآه المأمون على هذه الحالة قال له هيه ياابراهيم فقال أمير المؤمنين ولى الثار يحكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الزمان واستولى عليه الاغترار بما مدله من أسباب الشقاق أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذى عفو كما جعل كل ذى ذنب دونى فان تعاقب فبحقك وان تعف فبفضلك * قال بل العفو ياابراهيم فكبر ابراهيم ثم خر ساجدا ثم أمر المأمون بالاحتفاظ به الى بكرة فلما كان الغد أقعد ابراهيم فى دار المأمون والمقنعة التى تقنع بها فى عنقه والملحفة على صدره ليرى الناس الحال التى أخذ عليها ثم حوله الى أحمد بن أبى خالد ثم عفا عنه من بعد أن كان وكل به فقال ابراهيم فى ذلك من كلمة له

ان الذى قسم الخلافة حازها * من صلب آدم للامام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها * وحوى رداؤك كل خير جامع
فبذلت أعظم ما يضيق ببذله * وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله * عفو ولم يشفع اليك بشافع

وهى طويلة ومطلعها

ياخير من رقلت يمانية به * بعد النبى لآيس أوطامع

فذكر أن المأمون قال حين أنشده هذه القصيدة * أقول كما قال يوسف لاخوته لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين

واختلف أهل مصر فى أيام المأمون وخرج عن طاعته عبد الله بن السرى واستقل بحكم البلاد فأكبر المأمون هذا الامر جدا وسير عبد الله بن طاهر الى قتال ابن السرى فقدم ابن طاهر فى سنة عشر ومائتين فلما قرب من مصر وصار على مرحلة قدم قائدا من قواده اليها لينظر موضعا يعسكر فيه وكان ابن السرى قد خندق على مصر وبث العيون والارصاد فجاءه الخبر بوصول قائد ابن طاهر الى ماقرب منه فخرج اليه فى أصحابه فالتقى هو والقائد

واقتتلوا قتالا شديدا وكان القائد فى قلة فسير بريدا الى عبد الله بن طاهر يخبره بما هو عليه فحمل عبدالله الرجال على البغال وجنبوا الخيل وأسرعوا السير فلحقوا بالقائد وهو يقاتل ابن السرى فلما رأى ابن السرى ذلك خاف ولم يقدر على الصبر فى القتال فانهزم وتساقط أكثر أصحابه فى الخندق فكان من هلك منهم بسقوط بعضهم على بعض أكثر ممن قتله الجند بالسيف ودخل ابن السرى مصر وأغلق الباب عليه وعلى أصحابه وحاصره عبد الله فلم يعد ابن السرى يخرج اليه واشتد على ابن السرى الامر فأرسل الى عبد الله ألف وصيف ووصيفة مع كل واحد منهم ألف دينار وكان ارسالهم ليلا فردهم عبدالله وكتب اليه لوقبلت هديتك نهارا لقبلتها ليلا بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون فعند ماوصل الكتاب الى ابن السرى خاف كثيرا وطلب الامان

وبعدأن فرغ عبد الله من قتال ابن السرى وتم له فتح مصر سار بعسكره الى الاسكندرية لاستخلاصها من أيدى المتغلبين عليها فقد كان خرج جمع من الاندلس فتغلبوا عليها واستتبت قدمهم فيها وأحدثوا بها من الاحدوثات ما راق لهم فلم يكن لاهل الاسكندرية قبل على ردهم لقيام فتنة ابن السرى وغيره ممن خرج وكان يقدم هؤلاء القوم رجل يدعى أبا حفص وكان داهية حسن السياسة فلما رأى أبوحفص كثرة عسكر عبدالله وأن لاقبل له على قتاله أجاب الى الطاعة وسأله الأمان على أن يرتحل بمن معه عن الاسكندرية الى حيث أطراف الروم فأعطاهم الامان على ذلك فرحلوا ونزلوا بجزيرة اقريطش واستوطنوها وأقاموا بها فأعقبوا وتناسلوا وجعل عبدالله يدبر الامور ويسوس البلاد حتى استوثقت منه الرعية بالطاعة فولاه المأمون الولاية على مصر والشام والجزيرة وأطلق كلمته فكبرت هيبته وحسده الناس وقال للمأمون بعض اخوته ان عبد الله بن طاهر يميل الى ولد علىّ بن أبى طالب ويتمنى أن تكون الخلافة فيهم وكذا كان أبوه قبله فأنكر المأمون ذلك ولم يصدقه فعاوده أخوه المعتصم وبالغ فى الامر لكراهته فى عبد الله فوضع المأمون رجلا وقال له امش فى هيئة القراء والنساك الى مصر فادع جماعة من كبرائها الى القاسم بن ابراهيم بن طباطبا ثم سر الى عبد الله بن طاهر فادعه اليه واذكر له مناقبه ورغبه فيه وابحث عن باطنه وائتنى بما تسمع ففعل الرجل ذلك فاستجاب له جماعة من الاعيان فقعد بباب عبد الله بن طاهر فلما خرج عبد الله يريد الركوب نهض اليه الرجل وناوله رقعة فتناولها وسار فلما عاد الى منزله أرسل يطلب الرجل فلما دخل عليه الرجل قال له قد فهمت مافى رقعتك فهات ماعندك فقال ولى أمانك قال نعم فدعاه الى القاسم من ولد علىّ بن أبى طالب وذكر فضله وزهده وعلمه فقال عبد الله أتنصفنى يا هذا قال نعم قال هل يجب شكر الله على العباد قال نعم قال فتجيء الىّ وأنا فى هذه الحالة من النعم لى خاتم فى المشرق جائز وخاتم فى المغرب جائز وفيما بينهما أمرى مطاع ثم ما ألتفت عن يمينى ولا شمالى وورائى وأمامى الا رأيت نعمة لرجل (يعنى المأمون) أنعمها علىّ ومنة ختم



بها رقبتى وبدا لائحة بيضاء ابتدأنى بها تفضلا وكرما فهل اذن تدعونى الى أن أكفر بهذه النعم
وهذا الاحسان وتقول اغدر بمن كان أولى بهذا وأحرى واسع فى ازالة خيط عنقه وسفك دمه
أتراك لو دعوتنى الى الجنة عيانا أكان الله يحب منى أن أغدر به وأكفر احسانه وأنكث
بيعته فسكت الرجل فقال له عبد الله ماأخاف عليك الا نفسك فارحل عن هذا البلد فان
السلطان الاعظم اذا بلغه ذلك كنت الجانى على نفسك ونفس غيرك فلما أيس منه جاء الى
المأمون فأخبره فاستبشر وقال ذلك غرس يدى والف أدبى وقراب سبق ثم كتم الامر على
عبد الله حتى مات المأمون

ولما كانت سنة اثنتى عشرة ومائتين نادى منادى المأمون برئت الذمة من أحد من
الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أحد من أصحاب الرسول وتكلم فى أشياء من التلاوة
انها مخلوقة وغير ذلك * قلت * وتنازع الكتاب فى السبب الذى من أجله أمر بالنداء
فى أمر معاوية فقيل فى ذلك أقاويل منها أن بعض سماره حدث بحديث عن مطرف بن
المغيرة بن شعبة الثقفى وقد ذكر هذا الخبر ابن بكار فى كتابه فى الاخبار المعروفة بالموفقيات
التى وضعها للموفق وهو ابن الزبير * قال سمعت المدائنى يقول قال مطرف بن المغيرة بن شعبة
وفدت مع أبى المغيرة الى معاوية فكان أبى يأتيه يتحدث عنده ثم ينصرف الىّ فيذكر معاوية
ويذكر عقله ويعجب مما يرى منه اذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء فرأيته مغتما فانتظرته
ساعة وظننت أنه لشئ حدث فينا أو فى عملنا فقلت له مالى أراك مغتما منذ الليلة قال يابنى
انى جئت من عند أخبث الناس قلت له وما ذاك قال قلت له وقد خلوت به انك قد بلغت
منا يا أمير المؤمنين فلو أظهرت عدلا وبسطت خيرا فانك قد كبرت ولو نظرت الى اخوتك
من بنى هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ماعندهم اليوم شئ تخافه فقال لى هيهات هيهات
ملك أخوتيم فعدل وفعل ما فعل فوالله ماغدا أن هلك فهلك ذكره الا أن يقول قائل أبو
بكر ثم هلك أخو عدى فاجتهد وشمر عشر سنين فوالله ماغدا أن هلك فهلك ذكره الا أن
يقول قائل عمر ثم ملك أخونا عثمان فلك رجل لم يكن أحد فى مثل نسبه فعمل ماعمل وعمل به
فوالله ما غدا أن هلك وهلك ذكره وذكر ما فعل به وان أخا هاشم يصرخ به فى كل يوم خمس
مرات (أشهد أن محمدا رسول الله) فأى عمل يبقى مع هذا * لاأم لك * والله الا دفنا دفنا
قال وان المأمون لما سمع هذا الخبر بعثه ذلك على أن أمر بالنداء على حسب ماوصفنا
وانتشرت الكتب فى الآفاق بلعنه على المنابر فأعظم الناس ذلك وأكبروه واضطربت العامة
فأشير عليه بترك ذلك فتركه

قال صاحب مروج الذهب أخبرنا القاضى أبو محمد عبد الله بن أحمد بن يزيد الدمشقى
بدمشق قال لما توجه المأمون غازيا ونزل البذندون جاء رسول ملك الروم فقال له ان الملك
يخيرك بين أن يرد عليك نفقتك التى أنفقتها فى طريقك من بلدك الى هذا الموضع وبين أن
يخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم بغير فداء ولا درهم ولا دينار وبين أن يعمر لك كل بلد

للمسلمين مما خربت النصرانية وبرده كما كان وترجع عن غزاتك فقام المأمون ودخل خيمة فصلى ركعتين واستخار الله عز وجل وخرج فقال للرسول قل له أما قولك ترد على نفقتى فانى سمعت الله تعالى يقول فى كتابنا حاكيا عن بلقيس * وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون * وأما قولك انك تخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم فما فى يدك إلا أحد رجلين اما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة فقد صار الى ماأراد واما رجل الدنيا فلا فك الله أسره * وأما قولك انك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربته الروم فلو أنى قلعت أقصى حجر فى بلاد الروم ما اعتضت بامرأة عثرت عثرة فى حال أسرها فقالت وامحمداه وامحمداه * عد الى صاحبك فليس بينى وبينه الا السيف ياغلام اضرب الطبل فرحل فلم ينثن عن غزاته حتى فتح خمسة عشر حصنا وانصرف فنزل على عين البديدون المعروفة بالقشيرة فأقام هنالك حتى ترجع رسله من الحصون فوقف على العين ومنع الماء فأعجبه ماؤها وبرده وصفاؤه وبياضه وطيب حسن الموضع وكثرة الخضرة فأمر بقطع خشب طوال وأمر به فبسط على العين كالجسر وجعل فوقه كالازج من الخشب وورق الشجر وجلس تحت الكنيسة التى عقدت له والماء تحته وطرح فى الماء درهم صحيح فقرأ كتابته وهو فى قرار الماء لصفاء الماء ولم يقدر أحد أن يدخل يده فى الماء من شدة برده * فبينما هو كذلك اذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنها سبيكة فضة فجعل لمن يخرجها سيفا فبادر بعض الفراشين فأخذها وصعد فلما صارت على حرف العين أوالخشب الذى عليه المأمون اضطربت وأفلتت من يد الفراش فوقعت فى الماء كالحجر فنضح من الماء على صدر المأمون ونحره وترقوته فبلت ثوبه ثم انحدر الفراش ثانية فأخذها ووضعها بين يدى المأمون فى منديل تضطرب فقال المأمون تقلى الساعة ثم أخذته رعدة من ساعته فلم يقدر أن يتحرك من مكانه فغطى باللحف والدواويج وهو يرتعد كالسعفة ويصيح البرد البرد ثم حول الى المضرب ودثر وأوقدوا النيران حوله وهو يصيح البرد البرد ثم أتى بالسمكة وقد فرغ من قليها فلم يقدر على الذوق منها وشغله ماهو فيه عن تناول شئ منها ولما اشتد به الامر سأل المعتصم بختيشوع وابن ماسويه فى ذلك الوقت عن المأمون وهو فى سكرات الموت وما الذى يدل عليه علم الطب من أمره وهل يمكن برؤه وشفاؤه فتقدم ابن ماسويه وأخذ احدى يديه وأخذ بختيشوع يده الاخرى وأخذا المجسة من كلتا يديه فوجدا نبضه خارجا عن الاعتدال منذرا بالفناء والانحلال والتزقت أيديهما ببشرته لعرق كان يظهر من سائر جسده كالزيت أولعاب بعض الافاعى فأخبرا المعتصم بذلك فسألهما عن ذلك فأنكرا وانهما لم يجداه فى شئ من الكتب وانه دال على انحلال الجسد * ثم أفاق المأمون من غشيته وفتح عينيه من رقدته فأمر باحضار ناس من الروم فسألهم عن اسم الموضع والعين فأحضروا له عدة أسرى وأدلاء وقيل لهم فسروا هذا الاسم (القشيرة) فقيل له تفسيره مد رجليك فلما سمعها اضطرب من هذا الفأل وتطير منه وقال سلوهم مااسم الموضع بالعربية

فقالوا الرقة وكان فيما علم من مولد المأمون أنه يموت بالموضع المعروف بالرقة وكان المأمون كثيرا مايحيد عن المقام بمدينة الرقة فرارا من الموت فلما سمع هذا من الروم علم أنه الموضع الذى وعد به فيما تقدم من مولده وان فيه وفاته وقيل ان اسم البذيدون تفسيره مدّ رجليك والله أعلم بكيفية ذلك وأحضر المعتصم الاطباء حوله يؤمل خلاصه مما هو فيه فلما ثقل قال أخرجونى أشرف على عسكرى وأنظر الى رجالى وأتبين ملكى وذلك فى الليل فأخرج فأشرف على الخيام والجيش وانتشاره وكثرته وما أوقدوا من النيران فقال ٭ يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه ثم ردّ الى مرقده ٭ وأجلس المعتصم رجلا يلقنه الشهادة لما ثقل مرضه فرفع الرجل صوته ليقولها فقال له ابن ماسويه لاتصح فوالله لا يفرق بين ربه وبين مانى فى هذا الوقت ففتح عينيه من ساعته وبهما من العظم والكبر والاحمرار ما لم ير مثله قط وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه ورام مخاطبته فعجز عن الكلام فرمى بطرفه الى السماء وقد امتلأت عيناه دموعا فانطلق لسانه وقال يامن لا يموت ارحم من يموت وقضى من ساعته وذلك يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين وحمل الى طرسوس فدفن بها فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وقيل فى سبب علته وموته غير ذلك أيضا ٭ قال ابن خلكان وكان المأمون عظيم العفو جوادا بالمال عارفا بالنجوم والنحو وغيرهما من أنواع العلوم خصوصا علم النجوم وكان يقول لو يعلم الناس ما أجده فى العفو من اللذة لتقربوا الىّ بالذنوب وقال غيره انه لم يكن فى بنى العباس أعلم من المأمون وكان يشتغل بعلم النجوم كثيرا وفى ذلك يقول أبو سعد المخزومى

هل رأيت النجوم أغنت عن المأ ٭ مون شيأ وملكه المأنوس
خلفوه بعرصتى طرسوس ٭ مثلما خلفوا أباه بطوس

وكان أبيض مليح الوجه مربوعا طويل اللحية دينا عارفا بالعلم فيه دهاء وسياسة وخبرة بالامور

واستأمر على مصر فى خلافته المطلب فى سنة تسع وتسعين ومائة ثم ولى السرى بن الحكم سنة مائتين ثم ولى سليمان بن غالب سنة احدى ومائتين ثم أعيد السرى بن الحكم فى السنة فما زال الى أن مات فى سنة خمس ومائتين فولى بعده أبو نصر محمد بن السرى ثم تغلب عليها عبدالله بن السرى فى سنة ست وأقام مستبدا بحكمها الى سنة عشرة وقد استفحل أمره وكادت تظهر كلمته ويستقل بملكها فوجه اليه المأمون عبد الله بن طاهر فى عسكر عظيم فقاتله وطال القتال بينهما واشتد ومازالا حتى استنقذها منه ابن طاهر بحروب يطول ذكرها وقد ذكر الوزير أبو القاسم المغربى أن البطيخ العبدلاوى الذى بمصر منسوب الى عبدالله ابن طاهر هذا قال ابن خلكان اما لانه كان يستطيبه أولانه أول من زرعه بها ٭ ثم ولى بعده عيسى بن يزيد الجلودى ثم فى سنة ثلاث عشرة ومائتين ثار رجلان بمصر وهما عبد السلام وابن حليس فخلعا طاعة المأمون واستحوذا على الديار المصرية وتبعهما طائفة من القيسية

والبمانية

والبهائية القاطنين بمصر وقطعا الخطبة للمأمون واستبدا بالحكم فشق ذلك على المأمون واستعظمه جدا وولى أخاه أبا اسحق بن الرشيد نيابة مصر مضافة الى الشام فقدمها سنة أربع عشرة ومائتين وقاتل عبد السلام المذكور وابن حليس قتالا عنيفا ومازال حتى فتحها عنوة وقبض على عبد السلام وابن حليس وقتلهما وأقام بمصر ثم ولى عليها عمر بن الوليد التيمى ثم صرف وولى أبو عبيد عيسى بن يزيد الجلودى ثم ولى عبدويه بن جبلة سنة خمس عشرة ومائتين ثم صرف وولى عيسى بن منصور مولى بنى نصر وفى أيامه قدم المأمون الى مصر وزار الكثير من مدنها وقراها وبقى عيسى الى سنة ثمان عشرة ومائتين وهى السنة التى مات فيها المأمون كما تقدم

ومات فى خلافة المأمون مرقس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام عشرين سنة وقيل عشرين سنة وسبعين يوما فأقيم بعده يعقوب وهو خسيم وأصله من مدينة الاسكندرية وهو راهب من دير أبو مقار وفى أيام مرقس هذا كانت الفتنة بين الامين وعبد الله المأمون ولدى هرون الرشيد كما تقدم بيانه فى محله فانتهبت النصارى يومئذ بالاسكندرية وأحرقت لهم مواضع كثيرة جدا وأحرقت أيضا ديارات وادى هبيب ونهبت فلم يبق من رهبانها الا نفر قليل وكانت شدة عظيمة * وفى أيامه مضى بطرك الملكية الى بغداد وعالج بعض حظايا أهل الخليفة وقد كان طبيبا ماهرا عارفا بالطب جيدا حاذقا فيه فلما عوفيت تقدم الى الخليفة فى رد كنائس الملكية التى كانت القبط تغلبت عليها وأخذتها منهم فكتب الى عامله بمصر بردها فاستردها قهرا وتغلب الملكيون وقهروا المتأصلين وعلت كلمتهم وولى البطرك المذكور بطركية الملكية أربعين سنة ثم مات واشتد الجور على القبط لذلك وسامهم العمال الخسف وضيق عليهم أصحاب جباية الاموال فلما ضاق بهم الخناق انتقضوا فى سنة ست عشرة ومائتين فأوقع بهم الأوفشين وقاتلهم قتالا عنيفا حتى نزلوا على حكم عبد الله المأمون ورجعوا الى الطاعة فحكم فيهم بقتل الرجال وبيع النساء والذرية فبيعوا وسبى أكثرهم ومن هذا الحين ذلت القبط فى أرضهم وغلبهم المسلمون على عامة القرى وشددوا عليهم وضيقوا وبالغوا فى تذليلهم فاتخذوا كتابة الخراج حرفة يستعينون بها على الوقت بعد أن كانوا سادة البلاد وأصحاب حقولها ومزارعها وغياضها وبساتينها وكان لهم بعد ذلك مع المسلمين أخبار كثيرة سيأتى ذكرها فى محلها

(الفصل الثامن)

(فى خلافة أبى اسحق ابراهيم المعتصم بن هرون الرشيد)

ثم قام بالامر بعد المأمون أخوه أبو اسحق ابراهيم المعتصم بن هرون الرشيد وبويع له



بالخلافة يوم موت أخيه سنة ثمان عشرة ومائتين هجرية أى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ميلادية بعهد منه فلما استوثق له الامر قام ملك الروم المسمى طيوفيل قيصر فى جمع عظيم وبلغ زبطرة فسبى وقتل وحرق وخرب وسبى من المسلمين والمسلمات خلقا كثيرا حتى بلغ ملطية وغيرها فقام المعتصم لقتاله وكان مغازيا مُصابا ليس فى بنى العباس أشجع ولا أقوى قلبا منه وقصد عمورية التى كانت أعظم المدن عند الروم فوصلها وحاصرها خمسة وخمسين يوما وخرب أسوارها ودخلها عنوة قيل وقتل فيها ثلاثين ألفا وسبى مثلها وفعل أفعالا قد أضربنا عن ايرادها هنا * وكان المعتصم قد وجه عجيف بن عنبسة الى بلاد الروم لقتالها ولكنه لم يطلق يده فى النفقات كما أطلق يد الافشين ولم يمدحه على شئ فعله البتة وقد استقصر أمره فأحس عجيف بذلك وأكبره جدا فدخل على العباس بن المأمون يوما وجعل يوبخه على فعله من مبايعة المعتصم عند وفاة المأمون ثم أخذ يشجعه على خلع بيعة المعتصم وارجاع الامر لنفسه فقبل العباس قوله وتاقت نفسه الى الاستبداد بالامر فدس رجلا اسمه الحرث السمرقندى أحد أقارب عبيد الله بن الوضاح وكان العباس يأنس به ويميل اليه وكان الحرث أديبا له عقل ومداراة فجعله العباس رسوله وسفيره الى القواد فجعل يدور فى العسكر حتى استمال له جماعة من القواد وبايعوه وجماعة من خواص المعتصم فكان يقول لكل من بايعه اذا أظهرنا أمرنا فليثب كل منكم بالقائد الذى هو معه ووكل من بايعه من خواص المعتصم بقتل المعتصم وكذلك فعل مع غيرهم من بقية الخواص الذين بايعوه فضمنوا له ذلك فلما كان اليوم الذى دخل فيه المعتصم الدرب بعسكره يريد أنقرة وعمورية أشار عجيف الى العباس أن يثب بالمعتصم فى الدرب ويقتله ويرجع الى بغداد فان الناس يفرحون بانصرافهم من الحرب فأبى العباس ذلك وقال لا أفسد هذه الغزوة حتى دخلوا بلاد الروم وافتتحوا عمورية فعاود عجيف العباس فى الركوب على المعتصم وقتله ودس الى العسكر بأن ينتهبوا الغنائم التى غنموها من عمورية كى لا يبقى مع المعتصم أحد فيتمكن العباس من قتله فلم يطاوعه العباس ولم يأذن أحدا ممن بايعوه بالوثوب وعلم المعتصم بما ينويه العباس وبالحال جميعه وبجميع من بايعه من القواد وغيرهم فأحضر العباس ليلة فى مجلس الشراب وجعل يسقيه حتى سكر ثم استحلفه أن لا يكتمه من أمره شيأ فشرح له أمره كله فأمر به فقيدوه فى الحال وسلمه الى الافشين فحبسه وتتبع المعتصم أولئك القواد فلما نزل بمنبج طلب العباس الطعام فقدم اليه طعاما كثيرا فأكل ومنع الماء وأدرج فى مسح فمات من يومه وفعلوا كذلك بعجيف ومن كان معه ثم قدم راجعا الى الثغور

وتمم المعتصم المدينة التى كان أنشأها الرشيد ولم يتممها وذلك فى سنة عشرين ومائتين وسماها سرمن رأى ففرحها الناس وقالوا سامرا وصارت دارا لملك العباسيين من خلافة المعتصم * والمعتصم هذا أول من استخدم الترك فى جنده لشدتهم وبأسهم وخبرتهم بالحروب اذ كانت قد قلت حماسة العرب وارتاحوا للعيشة الرافهة حتى انهم لم يجسروا على مقابلة

الروم

الروم عند ماقام ملكهم طيوفيل لقتال المعتصم ولم يرده الا الترك وكان لذلك يحب الاتراك وشراهم من أيدى مواليهم فاجتمع له منهم أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزى عن سائر جنوده وقد كان اصطنع قوما فى حوف مصر من حوف اليمن وحوف قيس فسماهم المغاربة واستنفذ رجال خراسان من الفراغنة وغيرهم من الاشروسية فكثر جيشه وضخم وكانت الكلمة بين عساكره للترك فتكبروا وجاروا وظلموا وكانوا يؤذون العوام بمدينة بغداد بجريهم الخيول فى الاسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمة لامرأة أوشيخ كبير أوصبى أو ضرير فأغضب ذلك المعتصم وعزم على النقلة منهم والجلاء عن بغداد وأن ينزل فى فضاء من الارض فنزل الراذان على أربع فراسخ من بغداد فلم يستطب هواءها فلم يزل يتنقل ويتقر المواضع والاماكن الى دجلة وغيرها حتى انتهى الى الموضع المعروف بالقاطول فاستطاب الموضع وكان هنالك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر المعروف بالقاطول آخذا من دجلة فبقى هنالك قصرا وبنى الناس وانتقلوا عن مدينة السلام وخلت من السكان الا اليسير وكان فيما قاله بعض العيارين فى ذلك معيرا للمعتصم بانتقاله عنهم

أياساكن القاطول بين الجرامقه * تركت ببغداد الكباش البطارقه

وكان المعتصم داهية كبير السياسة مقداما صعب المراس طلب الامام أحمد قبل غزوته لعمورية وكان الامام فى سجن المأمون وامتحنه بخلق القرآن بناء على وصية أخيه المأمون وعقد له مجلسا للمناظرة وفيه عبد الرحمن بن اسحق والقاضى أحمد بن أبى دواد وغيرهما فناظروه ثلاثة أيام ولم يزل معهم فى جدال الى اليوم الرابع فأمر بضربه فضرب بالسياط قيل ولم يزل عن الصراط الى أن أغمى عليه ونخسه بعجيف بالسيف ورمى عليه بارية وديس عليه ثم حل وصار الى منزله وكانت مدة مكثه فى السجن ثمانية وعشرين شهرا ولم يزل بعد ذلك يحضر الجمعة والجماعات ويفتى ويحدث الى أن مات المعتصم وولى الواثق فأظهر ما أظهره المأمون والمعتصم من القول بخلق القرآن وقال للامام أحمد لاتجمعن اليك أحدا ولا تساكنى فى بلد أنا فيه فأقام الامام أحمد مختفيا لايخرج الى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولى المتوكل فرفع المحنة وأمر باحضار الامام أحمد واكرامه واعزازه وأطلق له مالا كثيرا قيل فلم يقبله وفرقه وأجرى المتوكل على أهل الامام وولده فى كل شهر أربعة آلاف درهم قيل فلم يرض الامام بذلك * وذكر العراقى فى مجمع الاخبار وغيره ان الامام أحمد فوظر فى الايام الثلاثة وان المعتصم كان يحاوبه ويقول له ويحك يا أحمد أنا والله عليك شفيق وانى لاشفق عليك مثل شفقتى على ابنى هرون يعنى الواثق فأجبنى فوالله لئن أجبتنى لأطلقن غلك بيدى ولأطأن عتبتك ولأركبن اليك بجندى فيقول يا أمير المؤمنين أعطونى شيأ من كتاب الله تعالى أوسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا طال به المجلس ضجر وقام ورد أحمد فى الموضع الذى كان فيه وتتردد اليه رسل المعتصم يقولون يا أحمد أمير المؤمنين يقول لك



ماتقول فى القرآن فيرد عليهم كما ردّ أولا فلما كان فى اليوم الثالث طلب للمناظرة فأدخل على المعتصم وعنده محمد بن عبد الملك الزيات والقاضى أحمد بن دواد فقال المعتصم كلموه وناظروه فلم يزالوا معه فى جدال الى أن قالوا يا أمير المؤمنين اقتله ودمه فى أعناقنا فرفع المعتصم يده ولطم بها وجه الامام أحمد فخر مغشيا عليه فتمعرت وجوه قواد خراسان وكان عم أحمد منهم فخاف الخليفة منهم على نفسه فدعا بماء ورش على وجهه فلما أفاق من غشيته رفع رأسه الى عمه وقال ياعم لعل هذا الماء الذى رش على وجهى غصب عليه صاحبه فقال المعتصم ويحكم أما ترون مايتهيم به علىّ هذا وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم لارفعت السوط حتى يقول القرآن مخلوق ثم التفت الى أحمد وقال وأعاد عليه القول فرد أحمد كالاول فلم يزل كذلك حتى ضجر وطال المجلس فعند ذلك قال عليك لعنة الله لقد كنت طمعت فيك غير هذا خذوه اخلعوه اسحبوه فأخذ وسحب وخلع ثم قال المعتصم السياط قال العراقى وشدوا يديه فخلعت ولم يزل أحمد يتوجع منها حتى مات ثم قال المعتصم للجلادين تقدموا ونظرالى السياط فقال ائتوا بغيرها ثم قال لاحدهم زمه وأوجع قطع الله يدك فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى ثم قال لآخر أزمه وشد قطع الله يدك فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى ولم يزل يدعو رجلا رجلا فيضربه كل واحد سوطين ويتنحى ثم قام المعتصم وجاء وهم محدقون به وقال ياأحمد تقتل نفسك أجبنى حتى أطلق عنك بيدى وجعل بعضهم يقول له يا أحمد امامك على رأسك قائم فأجبه وعجيف ينخسه بالسيف ويقول أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم وبعضهم يقول ياأمير المؤمنين اجعل دمه فى عنقى فرجع المعتصم الى الكرسى ثم قال للجلاد زمه قطع الله يدك ثم جاء المعتصم اليه ثانيا وقال يا أحمد أجبنى فقال كالاول فرجع المعتصم وجلس على الكرسى ثم قال للجلاد شدّ عليه قطع الله يدك * قال أحمد فذهب عقلى فما عقلت الا وأنا فى حجرة مطلق عنى قال الراوى وكل ذلك وهو صائم لم يفطر رضى الله عنه وضرب ثمانية عشر سوطا * ووجه المعتصم رجلا ينظر الضرب والجراحات ويعالجه فنظر اليه وقال والله لقد رأيت من ضرب ألف سوط فما رأيت أشد ضربا من هذا ثم عالجه وبقى أثر الضرب بينا فى ظهره الى أن مات والكلام على المحنة بخلق القرآن كثير جدا أضربنا عن ايراده هنا خوف الاطالة

ومات المعتصم فى سنة سبع وعشرين ومائتين على دجلة فى قصره المعروف بالخاقانى يوم الخميس لثمان عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الاول وقيل لساعتين من ليلة الخميس وهو ابن ثمان وأربعين سنة وقيل ست وأربعين سنة وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية شهور وثمانية أيام وهو الثامن من خلفاء بنى العباس قيل وخلف من الذهب ثمانية آلاف دينار ومن الدراهم ثمانية عشر ألف ألف درهم ومن الخيل ثمانية آلاف فرس ومثلها من الجمال والبغال ومن المماليك ثمانية آلاف مملوك وثمانية آلاف جارية وكان يقال له الثمانى لاجل ذلك وكان أميا وذلك أنه كان له مملوك صغير يذهب معه الى الكتاب فمات فقال له

الرشيد

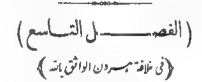
الرشيد مات مملوكك يا ابراهيم فقال استراح من الكتاب يا أمير المؤمنين فقال الرشيد أو بلغ منك الكتاب الى هـذا الحد اتركوا ولدى لاتعلموه فكان أميا لذلك * قال زنام الزامر أفاق المعتصم فى علتـه التى مات فيها فركب فى الزلال فى دجـلة وأنا معـه فمر بازاء منازله فقال يازنام ازمر لى

يامنزلا لم تبل أطــلاله * حاشى لاطلالك أن تبـلى
لم أبك أطــلالك لكننى * بكيت عيشى فيـك اذولى
والعيش أولى مابكاه الفتى * لابد للمحزون أن يبــلى

قال فمازلت أزمر له هذا الصوت وأكرره وقد تناول منديلا بين يديه فما زال يبكى فيه وينتحب حتى رجع الى منزله اه ولما احتضر جعل يقول ذهبت الحيل ليست حيـلة حتى أصمت ثم مات ودفن بسامرا

واستعمل المعتصم على مصر فى خلافته نصر بن كيدر الصعيدى سـنة تسع عشرة ثم ولى المظفر بن كيدر ثم ولى موسى بن أبى العباس الحنفى ثم ولى مالك بن كيدر سـنة أربع وعشرين ومائتين وبقى أميرا عليها فى خلافة الواثق بالله الى سنة تسع وعشرين ومائتـين كما سيأتى ذكره فى محله

ومات فى خلافة المعتصم يعقوب بطرك الاسكندرية بعد اقامته بطركا عشر سنين وقيل عشر سنين وثمانية أشهر فأقيم بعـده سيماون وهو سمعان حادى خمسيهم وفى أيام يعقوب البطرك المذكور خفت الشدة وزال اليأس عن المسيحيين فعمرت ديارات القبط وعاد رهبانهم الى مواطنهم وعمرت كنيسة بيت المقدس لمن يرد اليها من الحاج من نصارى مصر وقدم على يعقوب المذكور ديونوسيس بطرك انطاكية زائرا فأكرم وفادته ولبث طويلا ثم عاد الى كرسيه ومات أيضا سمعان البطرك بعد أن أقام سنة وقيل سبعة أشهر وستة عشر يوما وقيـل غير ذلك وكان راهبا من رهبان دير أبو مقار فخلى كرسى البطركية بعده سنة وسبعة وعشرين يوما ثم أقيم بعده يوساب وهو يوسف ثانى خمسيهم وأصله من رهبان دير أبو مقار أيضا وكان تقديمه فى سنة سبع وعشرين ومائتين بدير أبو مقار بوادى هبيب وهى السنة التى مات فيها الخليفة المعتصم بن هرون الرشيد كما تقدم



(الفصـــل التاسع)

(فى خلافة هرون الواثق بالله)

ثم قام بالامر بعد المعتصم ابنه هرون الواثق بالله بويع له بالخلافة بسر من رأى التى



هى مدينة السامرة يوم موت أبيه المعتصم سنة سبع وعشرين ومائتين هجرية * أى سنة
احدى وأربعين وثلثمائة ميلادية وتقدمت البيعة الى بغداد واستقرله الأمر ببغداد وغيرها
وكان واسع المعروف متعطفا على أهل بيته محبا للرعية ولكنه سلك مسلك أبيه وعمه فى القول
بخلق القرآن على انه فى سنة ثلاثين ومائتين لما كانت الفدية بين المسلمين والروم على نهر
اللامس على مسيرة يومين من طرسوس بعد ماوقع بين الفريقين من الحروب الهائلة أمر
الواثق خاقان خادم الرشيد الذى كان الفداء على يديه يومئذ أن يسأل أسرى المسلمين واحدا
فواحدا فمن قال منهم بخلق القرآن وان الله سبحانه وتعالى لايرى فى الآخرة بالابصار فودى
به وأعطى دينارا ومن لم يقل ذلك ترك فى أيدى الروم * فلما كان فى يوم عاشوراء أتت
الروم ومن معهم من الاسرى وكان الامر بين الفريقين فكان المسلمون يطلقون أسيرا
والروم أسيرا فيلتقيان وسط الجسر ومازالوا حتى فرغوا قيل وكانت عدة أسارى المسلمين أربعة
آلاف وأربعمائة وستين والصبيان ثمانمائة ومائة من أهل الذمة فلما فاض الخبر عما فعله الواثق
من اكراه الناس على القول بخلق القرآن أكبروا هذا الامر وأعظموه جدا فخرج على الواثق
لذلك أحمد بن نصر أحد الفقهاء وقام معه آخر اسمه هرون السراج وآخر اسمه طالب وغيرهما
ودعوا الناس الى أحمد بن نصر فبايعه خلق على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وفرقوا
الاموال فى الناس دينارا لكل واحد ففشا أمره وعلم فأرسل الواثق من قبض على أحمد بن
نصر المذكور وعلى طالب ومن نحا نحوهما وأرسلوا الى الواثق فى سامرا قيل فجلس لهم
مجلسا عاما حضر فيه أحمد بن أبى دواد فلم يسأله الواثق عن خروجه بل سأله عن خلق القرآن
فقال هو كلام الله ثم سأله عن رؤية الله عزوجل فى الآخرة فقال جاءت بها الاخبار الصحيحة
وتصحيح أن لايخالف حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل الواثق العلماء حوله فقالوا
باستباحة دمه فدعا الواثق بالصمصامة وهو سيفه المشهور فانتضاه ومشى اليه وضربه على
حبل عاتقه ثم على رأسه ثم وخزه فى بطنه ثم أمر سيما الدمشقى بان يحز رأسه فحزها ونصبه
ببغداد وصلب شلوه عند بابها فزالت الفتنة واختنق أمرها * وكان الواثق محبا للنظر مكرما
لاهله مبغضا للتقليد وأهله محبا للاشراف على علوم الناس وآدابهم ممن تقدم وتأخر من
الفلاسفة والمتطببين فجرى بحضرته أنواع من العلوم فى الطبيعيات وما بعد ذلك من
الالهيات فقال لهم الواثق قد أحببت أن أعلم كيفية ادراك معرفة الطبيب ومأخذ أصوله
أذلك من الحس أم من القياس والسنة أم يدرك من جهة العقل أم علم ذلك وطريقه يعلم
عندكم من جهة السمع كما يذهب اليه جماعة من أهل الشريعة وقد كان ابن بختيشوع
وابن ماسويه وميخائيل فيمن حضر وقيل ان حنين بن اسحق وسلمويه فيمن حضر فى هذا
المجلس فقال منهم قائل * زعم طوائف من الاطباء وكثير من متقدميهم أن الطريق الذى
يدرك به الطب هو التجربة فقط وحدّوه بان يتكرر الحس على محسوس واحد فى أحوال
متغايرة فيوجد بالحس فى آخر الاحوال كما يوجد فى أولها والحافظ لذلك المجرب وزعموا أن

التجربة ترجع الى مباد أربعة هن لها أوائل ومقدمات وبها علت وصحت واليها تنقسم التجربة فصارت بذلك أجزاء لها فزعموا أن قسما من تلك الاقسام طبيعي وهو ماتفعله الطبيعة في الصحيح والمريض من العرق والرعاف والاسهال والقيء التي تعقب في المشاهدة منفعة أوضررا وقسما اراديا وهو مايقع من قبل النفس الناطقة وذلك كمثل منام يراه الانسان وهو أن يرى كأنه عالج مريضا به علة مشاهدة معقولة بشيء من الاشياء معروف فيبرأ ذلك المريض من مرضه أو يخطر مثل ذلك بباله في حال فكره فيتردد ويغلب ظنه بعطبه فيجربه بان يفعله كما يرى في منامه فيجده كما يرى أو يخالف ذلك فيفعله مرارا فيجده كذلك وقسما هو نقل وهو على ثلاثة أقسام اما أن ينقل الدواء الواحد من مرض الى مرض يشبهه وذلك كالنقلة من ورم الحمرة الى الورم المعروف بالنملة واما من عضو الى عضو يشبهه وذلك كالنقلة من السفرجل الى الزعرور في علاج انطلاق البطن وكل ذلك لايعمل به عندهم الا بالتجربة وذهب طائفة أخرى منهم الى أن الحيلة في تقريب أمر صناعة الطب وتسهيلها أن ترد أشخاص من العلل ومولداتها الى الاصول الحاصرة الجامعة لها اذا كان لاغاية لتولدها وأن يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر الموجود في الحال والوقت دون الاسباب الفعالة التي عدمت ودون الازمان والأوقات والاسباب والعادات ومعرفة طبائع الاعضاء وحدودها الى آخر ماقال مما لاموضع هنا لايراده * قال المسعودي * وللواثق أخبار حسان مما كان في أيامه من الاحداث وما كان يجرى من المباحثة في العقليات والسمعيات في جميع الفروع والاصول مما لايسع المقام شرحها

واعتل الواثق فصلى بالناس يوم النحر أحمد بن أبي دواد وكان قاضي القضاة يومئذ فدعا في خطبته للواثق فقال اللهم اشفه مما ابتليته قيل وكان الواثق مؤثرا لكثرة الجماع فقال لطبيبه اصنع لي دواء لذلك فقال الطبيب ياأمير المؤمنين لاتهدم بدنك بهذا الفعل واتق الله في نفسك فقال لابد من ذلك فأمر الطبيب أن يؤخذ لحم سبع فيغلى عليه سبع غليات بخل خمر ويتناول منه عند الشراب وزن ثلاثة دراهم ولايتجاوز هذا القدر فأمر بذبح سبع فذبح وطبخ لحمه وصار يتنقل منه على شرابه فلم يكن الا قليل حتى استسقى فأجمع رأى الاطباء على أن لادواء له سوى أن يبزل بطنه ثم ينزل في تنور قد سجر بحطب زيتون حتى يصير جمرا ثم يلج فيه ففعل ذلك ومنع من الماء ثلاث ساعات فجعل يستغيث ويطلب الماء فلم يسقوه فصار في جسده نفاطات مثل البطيخ ثم أخرجوه فجعل يقول ردوني في التنور والا مت فردوه فسكن صياحه ثم انفجرت تلك النفاطات وقطر منها ماء فأخرج من التنور وقد اسود جلده ومات بعد ساعة قيل ولما احتضر جعل يقول

الموت فيه جميع الناس تشترك * لاسوقة منهم يبقى ولاملك
ماضر أهل قليل في مقابرهم * وليس يغني عن الملاك ماملكوا

ثم أمر بالبسط فطويت وألصق خده بالارض وجعل يقول يامن لايزول ملكه ارحم من

قد زال ملكها * فلما مات غطوه بثوب واشتغل الناس بالبيعة للمتوكل فجاء جرذ من البستان فاستل عينيه وذهب بهما ولم يعلموا به حتى غسلوه وهذا من أغرب ما سمع * قال صاحب حياة الحيوان * حكى أن ذلك له سبب وهو أن أحمد بن محمد الواثق قال كنت أمرض الواثق اذ لحقته غشية فما شككت أنه قد مات فقال بعضنا لبعض تقدموا فما جسر أحد منا فتقدمت أنا فلما أردت أن أضع اصبعى على أنفه فتح عينيه فكدت أن أموت فزعا وتأخرت الى خلفى فعلقت قبيعة السيف بالعتبة وذعرت فاندق السيف فكاد أن يدخل فى لحمى فخرجت وطلبت سيفا غيره ثم رجعت فوقفت عنده فوجدته مات بلا شك فشددت لحيته وغمضته وأخذ الفراشون تلك الفرش الثمينة ليردوها الى الخزانة وترك وحده فى البيت فقال لى أحمد بن أبى دواد القاضى إنا نشتغل بعقد البيعة فاحفظه حتى يدفن فرجعت وجلست عند الباب فسمعت بعد ذلك حركة أرعبتنى فدخلت فاذا بجرذ قد جاء فاستل عينيه فأكلهما فقلت لااله الاالله هذه العين التى فتحها من ساعة فعثرت واندق سيفى هيبة لها اه * ومات الواثق بسر من رأى فى رجب سنة اثنتين وثلاثين ومائتين هجرية أى سنة تسع وستين وثمانمائة للميلاد وهو ابن ست وثلاثين سنة وأشهر وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وكان أبيض مليحا يعلوه اصفرار حسن اللحية فى عينه نكتة عالما أديبا جيد الشعر شجاعا مهيبا حازما فيه جبروت كأبيه

واستعمل على مصر فى خلافته عيسى بن منصور حيث أعاده اليها ثانية بعد خلع مالك ابن كيدر فى أخريات سنة تسع وعشرين ومائتين وبقى أميرا عليها الى خلافة جعفر المتوكل فى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين كما سيأتى ذكره فى محله

(الفصل العاشر)

(فى خلافة جعفر المتوكل على الله)

ثم قام بالامر بعد الواثق أخوه جعفر المتوكل على الله بويع له بالخلافة بسر من رأى التى هى سامرا يوم موت أخيه الواثق بعهد منه فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين للهجرة أى سنة ست وأربعين وثمانمائة للميلاد وذلك أنهم كانوا أولا بمحمد ولد الواثق ليبايعوه خلافا للعهد فألبسوه قلنسوة سوداء وكان حدثا صغيرا فلما رأوه على هذا الحال عدلوا عن رأيهم وأحضروا جعفرا أخا الواثق بن المعتصم وبايعوه وأخلوا عن ولده محمد المذكور ولقبوا جعفرا بالمتوكل وكان عمره يوم بويع ستا وعشرين سنة وأول من سلم عليه بالخلافة أحمد بن أبى دواد وألبسه الطويلة وعممه وقبل بين عينيه وقال له السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله

وبركاته

وبركاته فلما استقرت به الخلافة رفع المحنة بخلق القرآن وأظهر السنة وأمر بنشر آثار صاحب الشريعة قال ابن خلكان فى ترجمته انه قال ركبت الى دار الواثق فى مرضه الذى مات فيه لاعوده فجلست فى الدهليز أنتظر الاذن فبينما أنا جالس اذ سمعت النياحة عليه واذا بايتاخ ومحمد بن عبد الملك الزيات يأتمران فى أمرى فقال نقتله فى التنور وقال ايتاخ بل ندعه فى الماء البارد حتى يموت ولا يرى عليه أثر القتل فبينماهما على ذلك اذ جاء أحمد بن أبى دواد القاضى فدخل وحدثهما كلاما لاأعقله لما دخلنى من الخوف وشغل القلب باعمال الحيلة فى الهرب فبينما أنا كذلك واذا بالغلمان يتعادون ويقولون انهض يامولانا فلم أشك أنى داخل لأبايع ولد الواثق ثم ينفذ فى ما قدر فلما دخلت بايعونى فسألت عن الحال فأعلمت أن ابن أبى دواد كان السبب فى ذلك ثم ان المتوكل قتل ايتاخ بالماء البارد وابن الزيات فى التنور وهذا من أغرب الاتفاق وعجيب الظفر ومن العجب أيضا أن محمد بن عبد الملك الزيات هو الذى صنع التنور ليعذب فيه الناس فعذبه الله فيه • انتهى

وكان المتوكل شديد البغض لعلى بن أبى طالب وذريته فأمر فى سنة ست وثلاثين ومائتين بهدم قبر الحسين بن علىّ وهدم ماحوله من المنازل والدور وأن يبذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من اتيانه فنادى بالناس فى تلك الناحية من وجدناه عند قبر الحسين بعد ثلاثة أيام حبسناه فى المطبق فخاف الناس وهربوا وتركوا زيارته وخرب وزرعوا موضعه فلم يبق له أثر وكان للمتوكل نديم اسمه عبادة المخنث فكان اذا حضر عند المتوكل فى مجلس شراب يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع ثم يرقص بين يدى المتوكل والمغنون يغنون قد أقبل الاصلع البطين خليفة المسلمين يريدون بذلك علىّ بن أبى طالب فانه كان كذلك والمتوكل يشرب ويضحك ففعل ذلك يوما والمنتصر حاضر فأومأ الى عبادة يتهدده فسكت عبادة خوفا منه فقال المتوكل ماحالك ياعبادة فقام وأخبره فقال المنتصر ياأمير المؤمنين ان الذى يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس انما هو ابن عمك وشيخ أهل بيتك وبه فخرك فكل أنت لحمه اذا شئت ولاتطعم هذا الكلب وأمثاله منه فقال المتوكل للمغنين غنوا جميعا

غار الفتى لابن عمه • رأس الفتى فى حرآمه

قيل فكان ذلك من الاسباب التى استحل بها المنتصر قتل المتوكل وقيل ان الذى أغراه على بغض علىّ وأهل بيته انما هم جماعة ممن اشتهروا بالتعصب والبغض لعلى • قال صاحب الكامل منهم علىّ بن الجهم الشاعر الشامى من بنى شامة بن لؤى وعمرو بن فرخ الرخجى وأبو السمط من ولد مروان بن أبى حفصة من موالى بنى أمية وعبد الله بن محمد بن داود الهاشمى المعروف بابن أترجة وكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بابعادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ثم حسنوا له الوقيعة فى أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم فى الدين ولم




يبرحوا به حتى ظهر منه ما كان فغطت هذه السيئة جميع حسناته وكان من أحسن الناس سيرة ومنع الناس من القول بخلق القرآن الى غير ذلك من المحاسن اهـ

وفى خلافة المتوكل جاءت الروم الى دمياط فى ثلثمائة مركب حربية مع ثلاثة من كبار البحر وأرسوا على مقربة من دمياط واتفق قبل وصولهم أن عنبسة بن اسحق الضبى الذى كان يوشد على معونة مصر لما حضر العيد أرسل فى طلب جميع الجند الذين بدمياط الى مصر فساروا منها فجاءها الروم وهى خالية فدخلوها وأعملوا فى أهلها القتل وأحرقوا وسبوا ودمروا جامعها وأخذوا مابها من سلاح وكراع وغيرذلك وسبوا من النساء المسلمات والمسيحيات زهاء ستمائة امرأة وأوقروا سفنهم من ذلك وكان عنبسة قد حبس بشر بن الاكشف بدمياط لامر نقمه عليه فلما أحس بشر بدخول الروم الى البلد كسر قيوده وخرج فقاتلهم وتبعه فى ذلك جماعة وسارت الروم الى اشتوم (تنيس) وكان عليه سور وبابان من حديد قد بناه المعتصم فى خلافته فنهبوا مافيه من السلاح والمتاع وأخذوا البابين وأقبلوا راجعين ولم ينل منهم أحدا * وفى خلافته قامت الفتنة بين البجاة أهل النوبة وأهل مصر وقد كان بينهما هدنة من أيام الفتح وكان فى بلاد البجاة معادن الذهب يؤدون منها الخمس الى مصر فامتنعوا أيام المتوكل وقاموا على من كان من أهل مصر بتلك المعادن فقتلوه فكتب صاحب البريد بذلك الى المتوكل فاستشار فى غزوهم فقالوا له انهم أهل ابل وشاه وان بين بلادهم وبلاد المسلمين مسيرة شهر ولابد فيها من الزاد وان فنيت الازواد هلك الجند فأمسك عنهم وخاف أهل الصعيد من شرهم فولى المتوكل محمد بن عبدالله القمى على اسوان وقفط والاقصر واسنا وأرمنت وأمره بحرب البجاة وكتب الى عنبسة بن اسحق الضبى عامل مصر يومئذ بتجهيز العساكر معه فسيره فى عشرين ألفا من الجند والمتطوعة وحملت المراكب من القلزم دقيقا وتمرا وأدما الى سواحل بلاد البجاة فلما انتهوا الى حصونهم وقلاعهم زحف عليهم ملكهم واسمه على بابا فى أضعاف جند القمى على المهارى وطاول على بابا عسكر القمى كى تفنى أزوادهم فيهلكون بلا حرب ولا قتال فلما جاءت المراكب بالمؤنة وفرق القمى فى أصحابه ناجزهم البجاة الحرب وكانت ابلهم نفورة فأمر القمى جنده باتخاذ الاجراس بخيلهم ثم حملوا عليهم فانهزموا وأثخن فيهم قتلا حتى استأمنوا على أداء الخراج عما مضى ولما يأتى

وكانت أيام المتوكل أحسن الايام وأنضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالامن والعدل ولم يكن المتوكل يوصف فى عطائه وبذله بالجود ولابتركه وامساكه بالبخل ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بنى العباس ظهر فى مجلسه اللعب والمضاحك والهزل مما قد استفاض فى الناس تركه الا المتوكل فانه السابق الى ذلك والمحدث له وأحدث أشياء من نوع ماذكر اتبعه فيها الكثير من خواصه وأكثر رعيته فلم يكن فى وزرائه والمتقدمين من كتابه وقواده من يوصف بجود أو افضال أو يتعالى عن مجون وطرب وكان الفتح بن خاقان

التركى

التركى مولاه أغلب الناس عليه وأقربهم منه وأكثرهم تقدما عنده ولم يكن الفتح المذكور مع هـذه المنزلة من الخلافة ممن يرجى فضله أويخاف شره ولما كانت سـنة خمس وثلاثين ومائتين هجرية عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة وهم محمد ولقبه المنتصر بالله وأبو عبد الله محمد وقيل طلحة وقيل الزبير ولقبه المعتز بالله وابراهيم ولقبه المؤيد بالله وعقد لكل منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل وأقطع كلا منهم اقطاعا محدودا وطير الاخبار بذلك الى الآفاق فزاد الناس فى تعظيمهم وصارت المواكب تغدو وتروح على أبوابهم

وخرج الجند فى خلافته وكادوا يشقون عصا الطاعة لولا مااستعمله من الدهاء والحيلة قال سعيدبن نكيس كنت واقفا بين يدى المتوكل فى مضربه بدمشق اذ سمعت الجند واجتمعوا وتحجوا يطلبون الأعطية ثم خرجوا الى تجريد السلاح والرمى بالنشاب وأقبلت أرى السهام ترتفع فى الرواق فقال لى ياأبا سعد ادع لى رجاء الحضارى فدعوته فقال له يارجاء أما ترى ماخرج اليه هؤلاء فما الرأى عندك فقال ياأمير المؤمنين قد كنت مشفقا فى هذا السفر من مثل هذا فاشرت بما أشرت من تأخيره فقال المتوكل اليه وقال دع مامضى وقل الآن بما حضر برأيك فقال ياأمير المؤمنين لتوضع الأعطية فقال له فهذا ماأرادوا وفيه مع ماخرجوا اليه مايعلم قال ياأمير المؤمنين مر بهذا فان الرأى بعده فأمر عبد الله بن يحيى بوضع الأعطية فيهم فلما خرج المال وبدئ بانفاقه دخل رجاء فقال مر الآن ياأمير المؤمنين بضرب الطبل للرحيل الى العراق فانهم لايأخذون مما أخرج اليهم شيأ ففعل ذلك فترك الناس الاعطية حتى ان المعطى ليتعلق بالرجل ليعطيه رزقه فلايأخذه * قال سعيد وقد كان الاتراك رأوا انهم يقتلون المتوكل بدمشق وكان حالا بها فلم يمكنهم فيه حيلة بسبب بغا الكبير فدبروا فى ابعاده عنه وطرحوا فى مضرب المتوكل وهو بدمشق الرقاع يقولون فيها ان بغا دبر أن يقتل أمير المؤمنين والعلامة فى ذلك أن يركب فى يوم كذا فى خيله ورجله فيأخذ عليه أطراف عسكره ثم يأخذ جماعة من الغلمان العجم يدخلون عليه فيفتكون به فقرأ المتوكل الرقاع فبهت بما تضمنته ودخل فى قلبه من بغا كل مدخل وشكا الى الفتح ذلك وقال له فى أمر بغا والاقدام عليه وشاوره فى ذلك فقال ياأمير المؤمنين ان الذى كتب الرقاع قد جعل للأمر دلائل فى وقت بعينه من ركوب الرجل الاطراف من العسكر وتوكيله بنواحيه فبعدذلك يتبين الأمر وأنا أرى أن تمسك فان صح هذا الدليل نظرنا كيف يفعل وان بطل ما كتب به فالحمد لله وأقبلت بعد ذلك الرقاع تطرح فى كل وقت على جهة النصح والصدق فلما علموا بما علم به الخليفة وتمكن به ماعندهم من الأمر كتبوا رقاعا فطرحوها فى مضرب بغا يقولون فيها ان جماعة من الغلمان والاتراك قد عزموا على الفتك بالخليفة فى عسكره ودبروا ذلك واتفقوا عليه وتعاقدوا على أن يأتوه من نواحى كذا ونواحى كذا فالله الله الا مااحترست لامير المؤمنين وحرسته فى هذه الليلة من هذه المواضع



وحصنتها بنفسك ومن تثق به فانا قد نصحنا وصدقنا وأكثروا طرح الرقاع بهذا المعنى
والتوكيد فى حراسة الخليفة فلما وقف بغا عليها وتتابعت عليه لم يأمن أن يكون ما كتب
اليه فيها حقا مع ما كان وقف عليه من الامر قبل ذلك فلما كانت الليلة التى ذكروها جمع
جيوشه وأمرهم بالركوب بالسلاح وركب بهم الى المواضع التى ذكرت فأخذها على المتوكل
وحرسها واتصل الخبر بالمتوكل فلم يشك أن ما كتب له حق فأقبل يتوقع من يوافيه فيفتك
به وسهر ليلته وامتنع عن الأكل والشرب فلم يزل على تلك الحال الى الغداة وبغا يحرسه
والأمر عند المتوكل على خلاف ذلك وقد اتهم بغا واستوحش من فعله فلما عزم المتوكل على
الانصراف قال له يابغا قد أبت نفسى مكانك منى ورأيت أن أقلدك هذا الصقع وأقر عليك
ما كان لك من رزق وجاه ونزل ومعونة وكل سبب فقال أنا عبدك ياأمير المؤمنين فافعل ماشئت
وأمرنى بما أحببت فخلفه بالشام وانصرف فاحدث الموالى عليه ماأحدثوا فلم يعلم المتوكل
وجه الحيلة ولم يعرف كل واحد منهما الحيلة فى ذلك الى أن تمت الحيلة وذلك انه لما عزم بغا الصغير
على قتل المتوكل دعا بباغر التركى وكان قد اصطنعه واتخذه وملأ عينه من الصلات وكان
مقداما أهوج فقال له ياباغر أنت تعلم محبتى لك وتقديمى اياك وايثارى لك واحسانى عليك وانى
قدصرت عندك فى حد من لا يعصى له أمر ولا يخرج عن محبته وأريد أن آمرك بشئ فعرفنى
كيف قلبك فيه فقال أنت تعلم كيف أفعل فقل لى كيف شئت حتى أفعله قال ان ابنى فارسا
قد أفسد على عملى وعمل على قتلى وسفك دمى وقد صح عندى ذلك منه قال فتريد منى ماذا
قال أريد أن يدخل على غدا فالعلامة بيننا أن أضع قلنسوتى فى الارض فاذا أنا وضعتها فى
الارض فاقتله قال نعم ولكن أخاف أن يبدو لك أو تجد فى نفسك على قال قد آمنك الله
من ذلك فلما دخل فارس حضر باغر ووقف موقف الضارب فلم يزل يراعى بغا أن يضع
قلنسوته فلم يفعل وظن أنه نسى فغمزه بعينه أى افعل قال لا فلما لم ير العلامة وانصرف
فارس قال له بغا اعلم أنى فكرت فى أنه حدث وانه ولدى وقد رمت أن أستخلصه هذه المرة
فقال له باغر أنا قد سمعت وأطعت وأنت أعلم ومادبرت وقدرت عليه فيه صلاحه ثم قال
له وههنا أمر أكبر من ذلك وأهم فعرفنى كيف تريد أن تكون فيه قال له قل ماشئت حتى
أفعله قال أخى وصيف قد صح عندى أنه يدبر على وعلى رفقائى وان مكاننا قد ثقل عليه
وانه عوّل على أن يقتلنا ويغنينا وينفرد بالامر قال فماذا تريد أن يصنع به قال افعل هذا فانه
يصير الى غدا فالعلامة أن أنزل عن المصلى الذى يكون معى قاعدا عليه فاذا رأيتنى نزلت
عنه فضع سيفك عليه واقتله قال نعم فلما صار وصيف الى بغا حضر باغر وقام مقام المستعد
فلم ير العلامة حتى قام وصيف وانصرف قال فقال له بغا ياباغر انى فكرت فى أنه أخى وانى
قد عاقدته وحلفته فلم أستجرئ أن أفعل مادبرته ووصله وأعطاه ثم أمسك عنه مدة مديدة
ودعابه فقال ياباغر قد حضرت حاجة أكبر من الحاجة التى قدمتها فكيف قلبك قال قلبى
على ماتحب فقل ماشئت حتى أفعله فقال هذا المنتصر قد صح عندى أنه على ايقاع التدبير

على

عليّ وعلى غيرى حتى يقتلنا وأريد أن أقتله فكيف ترى نفسك فى ذلك ففكر باغر فى ذلك
ونكس رأسه وقال هذا لا يجيء منه شئ قال وكيف قال يقتل الابن والأب باق اذن
لا يستوى لكم شئ ويقتلكم أبوه كلكم به قال فما ترى عندك قال نبدأ بالاب أولا فنقتله ثم
يكون أمر الصبى أيسر من ذلك فقال له ويحك ويفعل هذا ويتهيأ قال نعم أفعله وأدخل
عليه حتى أقتله فجعل يردد عليه فيقول لا تفعل غير هذا ثم قال له فادخل أنت فى أثرى فان
قتلته والا فاقتلنى وضع سيفك علىّ وقل أراد أن يقتل مولاه فعلم بغا حينئذ أنه قاتله وتوجه
له فى التدبير فى قتل المتوكل وكانت الوحشة قائمة بين المتوكل وابنه المنتصر على ما تقدم بيانه
فعمل المنتصر مع بغا على قتل أبيه المتوكل والتخلص منه فبينما المتوكل فى قصره يشرب
مع ندمائه وقد سكر اذ دخل عليه بغا الصغير وأمر الندماء بالانصراف ولم يبق عنده الا الفتح
ابن خاقان فاذا الغلمان الذين عينهم المنتصر لقتله قد دخلوا عليه وبأيديهم السيوف فهجموا
فقال الفتح بن خاقان ويلكم أمير المؤمنين ثم رمى بنفسه عليه فقتلوهما معا ثم خرجوا الى
المنتصر فسلموا عليه بالخلافة • ذكر عن علىّ بن يحيى المنجم أنه قال كنت أقرأ على المتوكل
قبل قتله بأيام كتابا من كتب الملاحم فوقفت على موضع فيه ان الخليفة العاشر يقتل فى
مجلسه فتوقفت من قراءته فقال مالك فقلت خير قال لابد من أن تقرأه فقرأته وحدت عن
ذكر الخلفاء فقال ليت شعرى من هذا الشقى المقتول • قال أبو الوارث قاضى نصيبين رأيت
فى النوم آتيا وهو يقول

يا نائم العين فى جثمان يقظان • ما بال عينك لا تبكى بتهتان
أما رأيت صروف الدهر ما فعلت • بالهاشمىّ وبالفتح بن خاقان

فأتى البريد بعد أيام بقتلهما • وكان قتل المتوكل فى شوال سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة
وعمره نحو أربعين سنة وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام وكان
أسمر رقيقا مليح العينين خفيف اللحية ليس بالطويل فيه قصف وانهماك على اللهو والمفاكهة
ولكنه أحيا السنة وأمات بدعة القول بخلق القرآن وكان قد عزم على خلع ولده المنتصر من
ولاية العهد وتقديم ابنه المعتز عليه لفرط محبته لامه وأخذ يؤذيه ويتهدده ان لم يخلع
نفسه واتفق مصادرته لوصيف وبغا فعملا مع المنتصر على قتله كما تقدم • حدث البحترى قال
اجتمعنا ذات يوم مع الندماء فى مجلس المتوكل فتذاكرنا أمر السيوف فقال بعض من حضر
بلغنى يا أمير المؤمنين أنه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له مثيل فأمر
المتوكل بكتاب الى عامله بالبصرة يطلبه بشرائه بما يبلغ فنفذت الكتب على البريد وورد
جواب عامل البصرة ان السيف اشتراه رجل من أهل اليمن فأمر المتوكل بالبعث الى اليمن
بطلب السيف وابتياعه فنفذت الكتب بذلك قال البحترى فبينما نحن عند المتوكل اذ دخل
عليه عبيد الله والسيف معه وعرّفه أنه ابتيع من صاحبه باليمن بعشرة آلاف درهم فسرّ بوجوده
وحمد الله على ما سهل من أمره وانتضاه فاستحسنه وتكلم كل واحد منا بما يجب وجعله تحت



ثنى فراشه فلما كان من الغداة قال للفتح اطلب لى غلاما تثق بشجاعته ونجدته أدفع له هذا السيف ليكون واقفا به على رأسى لايفارقنى فى كل يوم ما دمت جالسا قال فلم يستتم الكلام حتى أقبل باغر التركى فقال الفتح ياأمير المؤمنين هذا باغر التركى قد وصف لى بالشجاعة والبسالة وهو يصلح لما أراده أمير المؤمنين فدعا به المتوكل فدفع اليه السيف وأمره بما أراد وتقدم أن يزاد فى مرتبه وأن يضعف له الرزق قال البحترى فوالله ما انتضى ذلك السيف ولا خرج من غمده من الوقت الذى دفع اليه الا فى الليلة التى ضربه فيها باغر به قال ولقد رأيت من المتوكل فى الليلة التى قتل فيها عجبا وذلك أننا تذاكرنا أمر الكبر وما كانت تستعمله الملوك من الجبروت فجعلنا نخوض فى ذلك وهو يتبرأ منه ثم حول وجهه الى القبلة فسجد وعفر وجهه بالتراب خضوعا لله عز وجل ثم أخذ من ذلك التراب فنثره على لحيته ورأسه وقال انما أنا عبد الله وان من صار الى التراب لحقيق أن يتواضع ولا يتكبر قال البحترى فتطيرت له من ذلك وأنكرت مافعله من نثر التراب على رأسه ولحيته ثم قعد للشراب فلما عمل فيه غنى من حضره من المغنين صوتا استحسنه ثم التفت الى الفتح فقال يافتح مابقى أحد سمع هذا الصوت من مخارق غيرى وغيرك ثم أقبل على البكاء قال البحترى فتطيرت من بكائه وقلت هذه ثانية فانا فى ذلك اذ أقبل خادم من خدم قبيحة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها اليه قبيحة فقال له الرسول ياأمير المؤمنين تقول لك قبيحة انى استعملت هذه الخلعة لأمير المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها قال فاذا فيه دراعة حمراء لم أر مثلها قط ومطرف خز أحمر كأنه دبق من رقته قال فلبس الخلعة والتحف المطرف قال فانى على ذلك اذ تحرك المتوكل فيه وقد كان التف عليه المطرف فجذبه جذبة فخرقه من طرفه الى طرفه قال فأخذه ولفه ودفعه الى خادم قبيحة الذى جاءه بالخلعة وقال قل لها احتفظى بهذا المطرف عندك ليكون كفنا لى عند وفاتى فقلت فى نفسى انا لله وانا اليه راجعون انقضت والله المدة قال وسكر المتوكل سكرا شديدا وكان من عادته أنه اذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه فبينما نحن كذلك ومضى من الليل ثلاث ساعات اذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الاتراك وهم متلثمون والسيوف فى أيديهم تبرق فى ضوء تلك الشموع فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الاتراك على السرير فصاح بهم الفتح ويلكم مولاكم فلما رآهم الغلمان ومن كان حاضرا من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم فلم يبق أحد فى المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم قال البحترى فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذى كان المتوكل دفعه اليه على جانبه الايمن فقده الى خاصرته ثم ثناه على جانبه الايسر ففعل مثل ذلك وأقبل الفتح يمانعهم عنه فبعجه واحد منهم بالسيف الذى كان معه فى بطنه فأخرجه من متنه وهو صابر لاينتحى ولايزول قال البحترى فما رأيت أحدا كان أقوى نفسا ولا أكرم منه ثم طرح بنفسه على المتوكل فماتا جميعا فلفا فى البساط الذى قتلا فيه وطرحا ناحية فلم يزالا على حالتهما فى ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت

الخلافة للمنتصر فأمر بهما فدفنا جميعا وقيل ان قبجة كفنته بذلك المطرف المرق بعينه اه
وكان أوتامش غلام الواثق مع المنتصر فكان المتوكل يبغضه لذلك وكان بغا الصغير توحش من المتوكل فكان المنتصر يجتذب قلوب الاتراك اليه وأوتامش يساعده على ذلك وكان عبيدالله ابن خاقان الوزير والفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر مائلين الى المعتز بن المتوكل وكانا قد أوغرا قلب المتوكل على ولده المنتصر فكان المتوكل لايبعد أحدا من الاتراك الا اجتذبه المنتصر اليه حتى استمال قلوب الاتراك وكثير من الفراغنة والاشروسنية الى أن كان من الامر ماتقدم وقال البحترى فى غدر المنتصر بأبيه وفتكه به من قصيدة له

أكان ولىّ العهد أضمر غدره * فمن عجب أن ولى العهد غادره
فلا ملّى الباقى تراث الذى مضى * ولا حملت ذاك الدعاء منابره

واستعمل المتوكل على مصر فى خلافته هرثمة بن النضر الجبلى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ثم ولى ابنه حاتم فى السنة فأقام شهرا وصرف ثم ولى على بن يحيى سنة أربع وثلاثين وصرف ثم ولى أخوه اسحق بن يحيى الجبلى سنة خمس وثلاثين ثم ولى عبد الواحد بن يحيى مولى خزاعة سنة ست وثلاثين ثم ولى عنبسة بن اسحق الضبى سنة ثمان وثلاثين ثم عزله وولى يزيد بن عبدالله من الموالى سنة اثنتين وأربعين وبقى الى خلافة المعتز بالله فعزله وولى مكانه من سيأتى ذكرهم فى محله ان شاء الله

ومات فى خلافة المتوكل يوساب بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وفى أيام يوساب هذا قدم الى مصر يعقوب مطران الحبشة وقد كانت نفته زوجة النجاشى لامرنقمته عليه وأقاموا عوضه أسقفا آخر فبعث النجاشى يطلب من البطرك اعادته وشدد فى ذلك فبعث به اليه وبعث أيضا عدة أساقفة الى افريقية وفى أيامه مات بطرك أنطاكية الذى كان قدم الى مصر فى السنة الخامسة عشرة من بطركيته وفى أيامه أيضا أى فى سنة خمس وثلاثين ومائتين أمر المتوكل الخليفة أهل الذمة يعنى القبط بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرتين فى مؤخر السرج وعمل رقعتين على لباس الرجال مخالفة للون الثوب قدر كل واحدة منهما أربع أصابع ولون كل واحدة منهما غير لون الاخرى ومن خرجت من النساء لبست ازارا عسليا * ولم يقف المتوكل عند هذا الحد من الشدة والجبروت حتى منعهم أيضا من لبس المناطق وهدم البيع المحدثة ورسم بأخذ العشر من المنازل وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب ونهى أن يستعان بهم فى أعمال السلطان وأن لا يعلم أحد منهم مسلما وكانوا يومئذ هم أصحاب المعارف والعلوم على اختلافها وأن لايظهروا فى عيد الشعانين صليبا ولاأن يشعلوا فى الطريق نارا وأن تسوى قبور موتاهم بالارض حتى لايظهر لها رسم وكتب بذلك جميعه الى الآفاق ولما كانت سنة تسع وثلاثين ومائتين هجرية أمر أيضا بأن يلبس الرجل منهم دراعتين عسليتين على الدراريع والاقبية وبالاقتصار فى مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين



وغير ذلك من صنوف الشدائد والبلايا مما لايسعنا ايراده هنا * ولما مات يوساب البطرك في خلال هذه المحن والبدع الغريبة خلا الكرسي بعده ثلاثين يوما ثم أقيم قسيس بدير بوحنس اسمه ميخائيل وهو المعروف أيضا بخائيل ثلث خسيهم وأصله راهب بالدير المذكور وكان من الحوادث في أيامه ماسيذكر في محله

(الفصل الحادى عشر)

(في خلافة محمد المنتصر بالله)

ثم قام بالامر بعد المتوكل ابنه محمد المنتصر بويع بالخلافة في الليلة التي قتل فيها أبوه وبويع له من الغد البيعة العامة وذلك في شهر شوال سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة أى نحو سنة احدى وستين وثمانمائة للميلاد فلم تطل مدته ولم يتمتع بالملك وكانت بيعته بالقصر المعروف بالجعفرى الذى أحدث بناه المتوكل وهو ابن خمس وعشرين سنة وقيل ست وعشرين

ذكر عن أبى عثمان سعيد الصغير أنه قال * لما كانت الليلة التي قتل فيها المتوكل كنا في الدار مع المنتصر فكان كلما خرج الفتح خرج معه واذا رجع قام لقيامه واذا ركب أخذ بركابه وسوى عليه ثيابه في سرجه وكان اتصل بنا الخبر أن عبيدالله بن يحيى قد أعد قوما في طريق المنتصر ليغتالوه عند انصرافه وكان المتوكل قد أسمعه وأحفظه ووثب عليه فانصرف غضبان وانصرفنا معه الى داره وكان واعد الاتراك على قتل المتوكل اذا ثمل من النبيذ قال فلم ألبث اذ جاءنى رسوله أن احضر فقد جاءت رسل أمير المؤمنين الى الأمير ليركب قال فوقع في نفسى ما كنا سمعنا من اغتيال المنتصر فركبت في سلاح وعدة وجئت باب المنتصر فاذاهم يموجون واذا واجن قد جاءه فأخبره أنهم قد فرغوا من المتوكل فركب فلحقته في بعض الطريق وأنا مرعوب فرأى منى ذلك فقال ليس عليك بأس أمير المؤمنين قد شرق بقدح شربه فمات رحمه الله تعالى فشق علينا ومضينا ومعنا أحمد بن الخصيب وجماعة من القواد حتى دخلنا القصر ووكل بالأبواب فقلت له يا أمير المؤمنين لا ينبغى أن تفارقك مواليك في هذا الوقت قال أجل وكن أنت خلف ظهرى فأحطنا به وبايعه من حضر وكل من جاء بوقف حتى جاء سعيد الكبير فأرسله خلف المؤيد وقال امض أنت الى المعتز حتى يحضر فأرسلنى فمضيت وأنا آيس من نفسى ومعى غلامان لى فلما صرت الى باب المعتز لم أجد به أحدا من الحرس والبوابين فصرت الى الباب الكبير فدققته دقا عنيفا فأجبت بعد مدة من أنت فقلت رسول أمير المؤمنين المنتصر فمضى الرسول وأبطأ وخفت وضاقت على الأرض ثم فتح الباب وخرج بيدون

الخادم

الخادم وأغلق الباب ثم سألني عن الخبر فأخبرته أن المتوكل شرق بكأس شربه فمات لساعته وأن الناس قد اجتمعوا وبايعوا المنتصر وقد أرسلني لأحضر الأمير المعتز ليبايع فدخل ثم خرج فأدخلني على المعتز فقال لي ويلك ما الخبر فأخبرته وعزيته وقلت تحضر وتكون في أول من يبايع وتأخذ بقلب أخيك فقال حتى نصبح قال فما زلت به أنا وبيدون حتى ركب وسرنا وأنا أحدثه فسألني عن عبيد الله بن يحيى فقلت هو يأخذ البيعة على الناس والفتح قد بايع فأيس وأتينا باب الجسر ففتح لنا وصرنا الى المنتصر فلما رآه قربه وعانقه وعزاه وأخذ البيعة عليه ثم وافى سعيد الكبير بالمؤيد ففعل به مثل ذلك فأصبح الناس وأمر المنتصر بدفن المتوكل والفتح ولما أصبح الناس شاع الخبر في الماخورة وهي مدينة المتوكل وفي أهل سامرا بقتل المتوكل فتوافى الجند والشاكرية بباب العامة والجعفرية وغيرهم من الغوغاء والعامة وكثر الناس وتسامعوا وركب بعضهم بعضا وتكلموا في أمر البيعة فخرج اليهم عتاب بن عتاب وقيل زرافة فوعدهم عن أمير المؤمنين المنتصر فأسمعوه فدخل عليه فأعلمهم فخرج المنتصر وبين يديه جماعة من المغاربة فصاح بهم وقال خذوهم فدفعوهم فتفرقوا وقد مات منهم ستة أنفس

ولما استقام له أمر الخلافة اجتمع أحمد بن الخصيب ووصيف وبغا وهم يومئذ أصحاب الرأي في دولة المنتصر بالله وتآمروا على خلع المعتز والمؤيد ابني المتوكل من ولاية العهد خوفا منهما لامور كانت بينهم وتعاهدوا على ذلك ووكلوا جماعة الاتراك بالعمل فجدوا في ذلك وألحوا على المنتصر وقالوا لابد من خلعهما من الخلافة ومبايعة ولدك عبد الوهاب ولم يزالوا به حتى أجابهم وسير الى المعتز والمؤيد من أحضرهما بعد أربعين يوما من خلافته وجعلا في دار فأحس المعتز بما وراء ذلك وعلم أنهم انما أتوا بهما للخلع فكلم أخاه المؤيد في ذلك فقال المؤيد لا أظن أن أمير المؤمنين يفعل ذلك فبينماهما على هذا الحال اذ دخل عليهما جماعة من قواد المنتصر يطلبون منهما الخلع فقال المؤيد السمع والطاعة وقال المعتز لا أخلع نفسي أبدا فان أردتم القتل فشأنكم فأعلموا الخليفة بذلك ثم عادوا وهم أشد مما كانوا عليه وقالوا لابد من الخلع وقبضوا على المعتز بعنف وأدخلوه بيتا وأغلقوا عليه الباب فلما رأى المؤيد ذلك خشي العاقبة وصاح في وجوههم ويلكم يا كلاب تفعلون بمولاكم هذه الفعال خلوا عنه ودعوني واياه حتى أكلمه فسكتوا عنه وسألوا المنتصر في ذلك فأذن له فدخل عليه المؤيد وقال يا جاهل كيف تأبى الخلع وأنت تعلم أنهم نالوا من أبيك وهو هو ما نالوا ويحك لا تراجعهم فقال المعتز وكيف أخلع وقد جرى في الآفاق فقال هذا الامر كان سبب قتل أبيك وهو يقتلك لامحالة فان كان في سابق علم الله أنك تلي الخلافة يوما لتلين فقال أفعل فخرج المؤيد وقال قولوا لأمير المؤمنين انه أجاب الى الخلع فذهبوا وعادوا ومعهم كاتب فجلس وقال للمعتز اكتب بخطك خلعك فامتنع فقال المؤيد للكاتب هات قرطاسك أمل عليّ ما شئت فأملى عليه كتابا الى المنتصر يعلمه فيه ضعفه عن هذا الامر وأنه لا يحل له أن يتقلده وكره أن

بأمر المتوكل بسببه اذ لم يكن موضعا له ويسأله الخلع ويعلمه أنه قد خلع نفسه وأحل الناس من بيعته ثم ناول الورقة المعتز وقال له اكتب فأبى فقال اكتب ويلك فكتب وخرج الكاتب عنهما فلم يكن بأسرع من أن دعاهما المنتصر فدخلا عليه فأجلسهما وقال هذا كتابكما فقالا نعم يا أمير المؤمنين فقال لهما وطوائف الترك وقوف بين يديه أتراني خلعتكما طمعا في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له والله ما طمعت في ذلك ساعة قط واذا لم يكن لي في ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبي أحب الي من أن يليها بنو عمي ولكن هؤلاء الترك وأومأ اليهم بين قائم وقاعد ألحوا علي في خلعكما وشددوا في ذلك فخفت ان لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما فما تراني صانعا اذن أقتله فوالله ماتفي دماؤهم كلهم بدم بعضكم فكانت اجابتهم الى ماسألوا أسهل علي وأقرب الى المصلحة فقبلا يده فضمهما الى صدره ثم انهما أشهدا على أنفسهما القضاة وبني هاشم والقواد ووجوه الناس وغيرهم بالخلع وكتب بذلك المنتصر الى محمد بن عبد الله بن طاهر والى غيره * حكي عن أبي العباس محمد بن سهل قال كنت أكتب لعتاب بن عتاب على ديوان جيش الشاكرية في خلافة المنتصر فدخلت الى بعض الاروقة فاذا هو مفروش ببساط سوسنجرد ومسند ومصلى ووسائد بالحمرة والزرقة وحول البساط دارات فيها أشخاص ناس وكتابة بالفارسية وكنت أحسن القراءة بالفارسية واذا عن يمين المصلى صورة ملك وعلى رأسه تاج كأنه ينطق فقرأت الكتابة فاذا هي صورة شيرويه القاتل لابيه ابرويز الملك ملك ستة أشهر ثم رأيت صور ملوك شتى ثم انتهى بي النظر الى صورة عن يسار المصلى عليها مكتوب صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك قاتل ابن عمه الوليد بن يزيد ابن عبد الملك ملك ستة أشهر فعجبت من ذلك واتفاقه عن يمين مقعد المنتصر وعن شماله فقلت لا أرى أنه يدوم ملكه أكثر من ستة أشهر فكان والله كذلك فخرجت من الرواق الى مجلس وصيف وبغا وهما في الدار الثانية فقلت لوصيف أيعجز هذا الفراش أن يفرش تحت أمير المؤمنين الا هذا البساط الذي عليه صورة يزيد بن الوليد قاتل ابن عمه وصورة شيرويه قاتل أبيه ابرويز وعاشا ستة أشهر بعد ماقتلا فجزع وصيف من ذلك وقال علي بأيوب بن سليمان النصراني خازن الفرش فمثل بين يديه فقال له وصيف لم تجد مايفرش في هذا اليوم تحت أمير المؤمنين الا هذا البساط الذي كان تحت المتوكل ليلة الحادثة وعليه صورة ملك الفرس وغيره وقد كان ناله آثار الدماء قال سألني أمير المؤمنين المنتصر عنه وقال مافعل البساط فقلت عليه آثار دماء فاحشة وقد عزمت أن لا أفرشه من ليلة الحادثة فقال لم لا تغسله وتطويه فقلت خشيت أن يشيع الخبر عند من يرى ذلك البساط من أثر الحادثة فقال ان الامر أشهر من ذلك يريد قتل الاتراك لابيه المتوكل فطويناه وبسطناه تحته فقال وصيف وبغا اذا قام أمير المؤمنين من مجلسه فخذه وأحرقه بالنار فلما قام أحرق بحضرة وصيف وبغا فلما كان بعد أيام قال المنتصر لايوب بن سليمان افرش ذلك البساط فقال وأين ذلك البساط فقال وما الذي كان من أمره قال ان وصيفا وبغا أمراني باحراقه فسكت المنتصر ولم يعد في أمره

شيأ الى أن مات * وكان خلع المنتصر لاخويه المعتز وابراهيم من ولاية العهد بعده فى سنة ثمان وأربعين ومائتين هجرية وقد كان المتوكل أخذ لهم العهد فى كتب كتبها وشروط اشترطها وأفرز لكل واحد منهم جزأ من الاعمال رسمه له وجعل ولى عهده والتالى للملكة محمدا المنتصر وتالى المنتصر وولى عهده المعتز وتالى المعتز وولى عهده ابراهيم المؤيد وأخذت البيعة على الناس بذلك وفرق فيها أموالا وعم الناس بالجوائز والصلات وتكلم فى ذلك الخطباء ونطقت به الشعراء وكان من الاعمال المشهورة فلم تلبث أن زالت وانطوى خبرها وخرج فى أيام المنتصر بناحية اليمن والبوازيج والموصل أبو العمود الشادى فحكم واشتد أمره فيمن انضاف اليه من المحكمة من ربيعة وغيرهم من الاكراد فسرح اليه المنتصر جيشا عليهم سيما التركى فكانت له مع الشادى حروب فأسر الشادى وأتى به المنتصر فجاد عليه بالعفو وأخذ عليه العهد وخلى سبيله * أخبر أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال رأى بعض الكتاب فى المنام فى الليلة التى استخلف فى صبيحتها المنتصر كأن قائلا يقول

هذا الامام المنتصر * والملك الحادى عشر
وأمره اذا أمر * كالسيف مالاقى بتر
وطرفه اذا نظر * كالدهر فى خير وشر

وأظهر المنتصر الانصاف فى الرعية فمالت اليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة الهيبة منها له واستوزر أحمد بن الخصيب ثم ندم على ذلك ونفى عبد الله بن خاقان وذلك أن ابن الخصيب ركب ذات يوم فتظلم اليه متظلم بقصة فأخرج رجله من الركاب فزج بها فى صدر المتظلم فقتله فتحدث الناس بذلك وقال بها بعض الشعراء يومئذ * حكى عن أبى العباس أحمد بن محمد بن موسى بن الفرات قال كان أحمد بن الخصيب سيء الرأى فى والدى وكان عاملا له فجاءنى مخبر من خدم الخاصة فقال ان الوزير قد ندب لاعمالكم فلانا وقد أمره فى والدك بكل مكروه وأن يصادره على جملة من المال غليظة ذكرها فقعدت وعندى بعض أصدقائنا من الكتاب أبادر بالكتاب الى والدى بذلك فاشتغلت عن جليسى الكاتب فاتكأ على الوسادة وغفا فانتبه مرعوبا وقال قد رأيت رؤيا عجيبة رأيت أحمد بن الخصيب واقفا فى هذا الموضع وهو يقول يموت الخليفة المنتصر الى ثلاثة أيام * قال قلت له الخليفة فى الميدان يلعب بالصولجان وهذه الرؤيا ضرب من البلغم والمرار * وقد قدمنا الطعام فما استتممنا الكلام حتى دخل علينا داخل فقال رأيت الوزير بدار الخاصة غير مسفر الوجه وانى سألت عن سبب ذلك فقيل لى ان الخليفة المنتصر انصرف من الميدان وهو عرق فدخل الحمام ونام فى الباذهنج فضربه الهواء وركبته حمى هائلة فدخل عليه أحمد بن الخصيب فقال ياسيدى أنت متفلسف وحكيم الزمان تنزل من الركوب تعبا فتدخل الحمام ثم تخرج عرقا فتنام فى الباذهنج فقال له المنتصر أتخاف أن أموت رأيت فى المنام البارحة آتيا أتانى فقال لى تعيش خمسا وعشرين سنة فعلمت أن ذلك بشارة فى المستقبل من عمرى وانى أبقى

فى الخلافة هذه المدة قال فمات فى اليوم الثالث فنظروا فاذا هو قد استوفى خمسا وعشرين سنة * وفى رواية ان المنتصر ضربته الريح يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الاول ومات مع صلاة العصر لخمس ليال خلون من ربيع الآخر وصلى عليه أحمد بن محمد المستعين وكان أول خليفة من بنى العباس أظهر قبره وذلك أن أمه حبشية سألت ذلك فأذن لها وأظهرته بسامرا وقيل أيضا ان الطيفورى الطبيب سمه فى مشرط حجمه به وقد كان عزم على تفريق جمع الاتراك فأخرج وصيفا فى جمع كثير الى غزاة الصائفة بطرسوس ونظر يوما الى بغا الصغير وقد أقبل فى القصر وحوله جماعة من الاتراك فأقبل على الفضل بن المأمون فقال قتلنى الله ان لم أقتلهم وأفرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله فلما نظر الاتراك الى مايفعل بهم وما قد عزم عليه وجدوا منه الفرصة وقد شكا ذات يوم حرارة فأراد الحجامة فخرج له من الدم ثلاثمائة درهم لما كان فى المبضع من السم وشرب شربة بعد ذلك خلت قواه * ويقال ان السم كان فى مبضع الطبيب حين فصده * وذكر ابن أبى الدنيا عن عبد الملك بن سليمان بن أبى جعفر قال رأيت فى نومى المتوكل والفتح بن خاقان وقد أحاطت بهما نار وقد جاء محمد المنتصر فاستأذن عليهما فمنع الوصول ثم أقبل المتوكل على فقال ياعبد الملك قل لمحمد بالكاس الذى سقيتنا تشرب قال فلما أصبحت غدوت على المنتصر فوجدته محموما فواظبت على عيادته فسمعته فى آخر علته يقول عجلنا فعوجلنا فمات من ذلك المرض وذلك فى سنة ثمان وأربعين ومائتين وكانت خلافته ستة أشهر وأياما وعمره ستا وعشرين سنة وقيل خمسا وعشرين وأمه رومية وكان مربوعا سمينا أعين أقنى الانف مليحا مهيبا كامل العقل محب الخير سخيا أديبا عفيفا وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق وكثرة الانصاف وحسن المعاشرة بما لم يسبقه خليفة الى مثله قيل ولما احتضر أنشد يقول

وما فرحت نفسى بدنيا أخذتها * ولكن الى الرب الكريم مصيرى

وكان محبا لعلى بن أبى طالب وأولاده فأمر الناس بزيارة قبر على والحسين وأمن العلويين وكانوا فى خوف أيام أبيه وأطلق وقوفهم وردلهم كثيرا مما أخذ منهم ومن كلامه والقماعز ذو باطل ولو طلع القمر من جبينه ولاذل ذو حق ولو اتفق العالم عليه

ومات فى أيامه ميخائيل بطرك المتأصلين بعد أن أقام سنة وقيل سنة وخمسة أشهر ودفن بدير أبو مقار وهو أول بطرك دفن بالدير المذكور فخلا الكرسى بعده أحدا وثمانين يوما ثم أقيم بعده شماس بدير أبو مقار اسمه قسيما وهو قزمان رابع خمسيهم وأصله من مدينة سمنود باقليم الغربية وكان جليل القدر متواضعا ووقع من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل)

(الفصـــــــل الثـــانى عشر)

(فى خلافة أحمـــد المستعين بالله)

ثم قام بالامر بعد المنتصر ابن عمه أحمد المستعين بالله بن محمد المعتصم وبويع له بالخلافة ليلة الاثنين لست خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين هجرية أى سنة اثنتين وستين وثمانمائة للميلاد وعمره اذ ذاك ثمان وعشرون سـنة * قال أصحاب التاريخ * لما مات المنتصر اجتمع غلمانه ومواليه ومماليكه وبينهم بغا الصغير وبغا الكبير وأوتامش وغيرهم من كبار المماليك واتفقوا على أن لايولوا الخلافة أحدا من أولاد المتوكل خوفا على أنفسهم من أولاد المتوكل وشدد أحمد بن الخصيب فى ذلك فاستحلفوا قواد الترك والمغاربة والاشروسية على ذلك وأجمعوا على أحمد بن محمد بن المعتصم كى لاتخرج الخلافة من ولد مولاهم المعتصم فبايعوه فى الليلة المذكورة فلما كان يوم الاثنين سار المستعين الى دار العامة فى زىّ الخلافة وسار ابراهيم بن اسحق بين يديه بالحربة واصطف له بعض الجند صفين وحضر الدار أصحاب المراتب العالية من العباسيين والطالبيين وغيرهم فبينما هم على هـذا الحال إذ جاءت صيحة من ناحية الشارع والسوق واذا نحو من خمسين فارسا قالوا انهم من أصحاب محمد بن عبد الله ابن طاهر ومعهم جماعة من أخـلاط الناس والغوغاء والسوقة وشهروا السلاح وصاحوا النفير يامنصور وشـدوا على من كان هنالك من الجنـد واختلط بعضهم ببعض فحمل عليهـم الجند فهزموهم حتى أدخلوهم أحـد الدروب وتبعوهم فقتل جماعة من الفريقـين ثم تفرقوا وقد كانت البيعة تمت للمستعين وانصرف من حضر من جماعة الاتراك والهاشميين وغيرهم فدخل الغوغاء والمنتهبة دار العامة فانتهبوا ما كان فى خزانتها من الاسلحة والسـيوف والتروس وغير ذلك فأدركهم بغا فى طائفة من الترك فقتل منهم خلقا وأجلاهم عن الخزانة واشـتد القتال بين الفـريقـين ثم تفرقوا وطـيروا الخـبر بالبيعة الى الآفاق فبايعوا جميعا * ولما قامت الفتنة وخرجت الغوغاء وانتهبوا دار العامـة همّ الاتراك بقتـل المعتز والمؤيد فنعهم أحمد بن الخصيب من ذلك وأشار بحبسهما فحبسوا فى الجوسق ووكل بهما فلم تتم على ابن الخصيب سنة حتى غضب عليه المستعين واستصفى ماله ومال ولده ونفاه الى اقريطش ثم كادت الامور تعتل ونظام الخلافة يختـل اذ ظهرت الفتنة ببغداد وسامرا وقامت الغوغاء وانضم اليـهم بعض الجنود ففتحوا الحبوس وأخرجوا من بها فبعثوا فى طلبهم طائفـة من الموالى فوثب العامة بهم فهزموهم فرسم الخليفة بركوب بغا وأوتامش ووصـيف وعامة الترك فقتـلوا من العامة جماعة وصارت العامة تضرب بالاحجار وما زالوا بهم حتى فرقوهم وانقضت الفتنة * واستوزر المسـتعين بالله أبا موسى أوتامش المذكور فعلت كلمتـه واتسعت شهرته وأباح له الخليفـة

التصرف فى بيت المال وأطلق يده فأخذ وادخر والموالى تنظر الى الاموال تؤخذ وهم فى ضيق وشدة فثاروا على أوتامش وانضم اليهم جماعة من العامة وزحفوا اليه وهو فى الجوسق مع المستعين فأراد الهرب فلم يمكنه فاستجار بالمستعين فلم يجره وأقاموا على ذلك يومين ثم دخلوا الجوسق وأخذوا أوتامش فقتلوه وقتلوا كاتبه ونهبوا داره فأخذوا منه أموالا كثيرة وتحفا وثيابا فاخرة فلما قتل أوتامش استوزر المستعين أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد ثم وقعت بين بغا الصغير وأبى صالح المذكور وحشة فهرب أبو صالح الى بغداد واستوزر المستعين محمد بن الفضل الجرجرائى بعده

وظهر بالكوفة أبو الحسن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن عبد الله بن اسماعيل ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب الطيار فخشى المستعين أمره وسير اليه من قتله وحمل رأسه الى بغداد فأمر بصلبه فضج الناس من ذلك لما كان فى نفوسهم من المحبة له لانه استفتح أموره بالكف عن الدماء والتورع عن أخذ شئ من أموال الناس وأظهر العدل والانصاف قيل وكان خروجه لذل نزل به وشدة لحقته ومحنة نالته من المتوكل وطوائف الترك ودخل الناس الى محمد بن طاهر يهنؤنه بالفتح وهم مع ذلك فى ضجر من مقتل أبى الحسن يحيى ودخل عليهم أبو هاشم الجعفرى وهو داود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بينه وبين جعفر الطيار ثلاثة آباء ولم يكن يعرف فى ذلك الوقت أقعد نسبا فى آل أبى طالب وسائر بنى هاشم وقريش منه وكان ذا زهد وورع ونسك وعلم صحيح العقل سليم الحواس منتصب القامة فقال لابن طاهر ايها يا ابن طاهر وخرج من داره وهو يقول يا بنى طاهر

فــذل الحياة وعــز الممات * وكلا أراه طعاما وبيـــلا

فان كان لابد من واحــــد * فسيرى الى الموت سيرا جميلا

فلما أحس ابن طاهر بما وراء نصب الرأس من قيام الفتنة وخروج الناس أمر بانزالها قال بعض الكتاب وكان قتل يحيى عند الناس من أكبر الكبائر فجزعت عليه النفوس جزعا كثيرا ورثاه القريب والبعيد وحزن عليه الصغير والكبير * ولما كانت سنة تسع وأربعين ومائتين هجرية عقد المستعين لابنه العباس على مكة والمدينة والبصرة والكوفة وعزم على البيعة له ولكن منعه من ذلك صغر سنه فطلب عيسى بن فرخانشاه وهو وزير المستعين يومئذ من أبى النصر الشاعر أن يقول فى ذلك شعرا يشير فيه بالبيعة له فقال فى ذلك قصيدة طويلة منها هذه الابيات

بك الله حاط الدين وانتاش أهله * من الموقف الدحض الذى مثله يردى

فول ابنك العباس عهـــدك انه * له موضع واكتب الى الناس بالعهد

فقد كان يحيى أوتى العــلم قبله * صبيا وعيسى كلم النــاس فى المهد

وخرج فى سنة خمسين ومائتين بالرى محمد بن جعفر بن الحسن ودعا للحسن بن زيد صاحب طبرستان وكانت له حروب بالرى مع أهل خراسان من المسودة فأسر وحمل الى نيسابور الى محمد بن عبد الله بن طاهر فمات فى محبسه قبل حتف أنفه * ثم ظهر بها أيضا أى بالرى أحمد بن عيسى بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب ودعا الى الرضا من آل محمد وحارب محمد بن طاهر بالرى وقام معه ناس كثير ثم انهزم عن الرى وسارعنها الى مدينة السلام فدخلها ولم تكد تسكن الفتنة حتى ظهر أيضا بقزوين الكركى وهو الحسن بن اسمعيل بن أحمد بن عبدالله بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وهو من ولد الاوسط وقيل ان اسم الكركى الحسن بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن عبدالله بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب فسير المستعين لقتاله جماعة ومعهم موسى وبغا فرحل الكركى الى الديلم ثم وقع فى قبضة الحسن بن زيد الحسنى فأهلكه وخرج كذلك بالكوفة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب فسرح اليه محمد بن عبد الله بن طاهر جيشا من بغداد فانكشف الحسين واختفى لترك أصحابه له وتخلفهم عنه وذلك سنة احدى وخمسين ومائتين

واشتد الخليفة المستعين فى غضون هذه الحوادث على باغر التركى أحد كبار الاتراك الذين فى خدمته لاسباب نقمها عليه لاموضع لايرادها هنا فانقبضت نفس باغر من الخليفة وأصر على قتله وجعل يدبر الحيلة فى ذلك وكاشف جماعة من الترك الذين كانوا معه فى قتل المتوكل على مافى خاطره فوافقوه ومنوه فانكشف الى المستعين أمرهم وماخفى من سرهم فعاجل باغرا وأركب عليه جماعة من خواصه ومواليه فقبضوا عليه وحبسوه فى حمام ثم قتلوه وبلغ الخبر طوائف الترك فوثبوا على اصطبل الخليفة فانتهبوه وركبوا مافيه من الخيول وغيرها وحصروا الجوسق وشددوا فى الحصار فانحدر المستعين الى بغداد فى حراقة ومعه بغا ووصيف وشاهك الخادم وأحمد بن صالح بن شيرزاد ودليل فلما علم الترك بانحداره انعطفوا نحو دار دليل ودور أهله وجيرانه فانتهبوا مافيها ومنعوا الناس من الانحدار الى بغداد وشددوا فى المنع فلم يجسر أحد على الانحدار ثم وصل الى بغداد جميع القواد وكبار الجند وجلة الكتاب والعمال وبنى هاشم وغيرهم فأغضب جماعة الترك فعل المستعين فاختاروا منهم وفدا فدخلوا عليه وألقوا أنفسهم بين يديه وجعلوا مناطقهم فى أعناقهم تذللا وخضوعا وسألوه الصفح عنهم فأغلظ عليهم فى القول وقال انما أنتم أهل بغى وفساد واستقلال للنعم ألم ترفعوا الىّ فى أولادكم فألحقتهم بكم وهم نحو من ألفى غلام وفى بناتكم فأمرت بتصييرهن فى عداد المتزوجات وهن نحو من أربعة آلاف وغير ذلك كله أجبتكم اليه وأدررت عليكم الارزاق فعملتم آنية الذهب والفضة ومنعت نفسى لذتها وشهوتها وأنتم تزدادون شغبا وفسادا فعادوا وتضرعوا وسألوه العفو فقال قد عفوت فارجعوا الى سامرا وأنظر أنا فى أمرى فانصرفوا آيسين منه وأخبروا من وراءهم بماجرى وزاد بغضهم له وحرضوا بعضهم على خلعه والبيعة للمعتز ولد أخيه وكان هو والمؤيد

فى حبس الجوسق وعليهم من يحرسهم كما تقدم فساروا فى جمع عظيم وأخرجوا المعتز من الحبس وقد طال شعره وتغيرت أحواله فأخذوا من شعره وأصلحوا حاله وبايعوه بالخلافة فامر للناس برزق عشرة أشهر للبيعة فلم يجدوا من المال مايكفى فأعطوا شهرين وذلك فى يوم الاربعاء لاحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة احدى وخمسين ومائتين وركب من ذلك اليوم الى دار العامة فأخذ البيعة على الناس وخلع على أخيه المؤيد وعقد له عقدين أسود وأبيض فكان الاسود لولاية العهد بعده والابيض لولاية الحرمين وتقلدهما وأتت الكتب فى سامرا بخلافة المعتز بالله من سائر الامصار وأرخت باسم جعفر بن محمد الكاتب وأحدر أخاه أبا أحمد مع عدة من الموالى لحرب المستعين الى بغداد فكان أول حرب جرت بينهم ببغداد بين أصحاب المعتز والمستعين وهرب محمد بن الواثق الى المعتز بالله ولم تزل الحروب بينهم وبين أهل بغداد للنصف من صفر من هذه السنة واشتدت الحرب بينهم فكانت أمور المعتز تقوى وحالة المستعين تضعف والفتنة قائمة فلما رأى محمد بن عبدالله بن طاهر ذلك كاتب المعتز وجنح اليه ومال الى الصلح على خلع المستعين وعلمت العامة ببغداد بما قد عزم عليه محمد بن عبدالله من خلع المستعين فثارت منكرة لذلك مضيرة الى المستعين ناصرة له فما زال محمد بن عبدالله بالمستعين حتى أظهره على أعلى قصره فخاطبته العامة وعليه البردة فأنكر مابلغهم من خلعه وشكر محمد بن عبدالله بن طاهر ثم التقى محمد بن عبدالله وأبو أحمد الموفق بالشماسية فاتفقا على خلع المستعين على أن له الامان ولاهله وولده وما حوت أيديهم من أملاكهم وعلى أنه ينزل مكة هو ومن يشاء من أهله وأن يقيم بواسط العراق الى وقت مسيره الى مكة فكتب له المعتز على نفسه شروطا أنه متى نقض شيأ من ذلك فالله ورسوله منه براء والناس فى حل من بيعته وعهودا غير هذه لا يسعها هذا المقام قبل وقد خذل المعتز بعد ذلك لمخالفتها حين عاجل فى نقضها فخلع المستعين نفسه من الخلافة وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين فكان له مذ وافى مدينة السلام الى أن خلع سنة كاملة وكانت خلافته مذ تقلد الامر على ما بيناه آنفا الى أن زال عنه ثلاث سنين وثمانية أشهر وثمانية وعشرين يوما فقال بعض الشعراء فى خلعه

خلع الخليفة أحمد بن محمد * وسيقتل التالى له أو يخلع
ويزول ملك بنى أبيه ولا ترى * أحدا تملك منهم يتمتع
ايها بنى العباس ان سبيلكم * فى قتل أعبدكم سبيل مهيع
رقعتم دنياكم فتمزقت * بكم الحياة تمزقا لا يرقع

وقال البحترى الشاعر ومحمد بن مروان بن أبى الجنوب وغيرهما فى خلعه أبياتا كثيرة كلها حكم أضربنا عن ايرادها هنا * وأحدر الى دار حسن بن وهب ببغداد وجمع بينه وبين أهله وولده ثم أحدر الى واسط وقد وكل به أحمد بن طولون التركى وذلك قبل ولايته مصر

وعلم عجز محمد بن عبدالله بن طاهر عن قيامه بأمر المستعين حين استجاربه وخذلانه إياه وميله الى المعتز ﷺ ولما كان من الامر ماتقدم من خلع المستعين انصرف أبوأحمد الواثق من بغداد الىسامرا فخلع عليه المعتز وتوجه ووشحه بوشاحين وخلع على من كان معه من القواد وقدم على المعتز عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بالبردة والقضيب والسيف وبجوهر الخلافة ومعه شاهك الخادم وكتب محمد بن عبدالله الى المعتز فى شاهك المذكور ان من أنالك بارث رسول الله صلى الله عليه وسلم لجدير أن لاتخفر ذمته * واستتب الامر الى المعتز وانطلقت كلمته واتسعت وجعل المعتز يتوقع الغدر بأخيه المستعين والايقاع به * فلما كان فى شهر رمضان من السنة أى سنة اثنتين وخمسين ومائتين بعث المعتز سعيد بن صالح الحاجب الى واسط ليغتال المستعين ووقع له وكان حين خلع من الخلافة سيربه اليها مع جملة من أحزابه فسار اليه سعيد ونزل واسطا وما زال يراقب الفرص حتى مال عليه وقتله واحتز رأسه وحمله الى المعتز وترك جثته ملقاة على الطريق حتى تولى دفنها جماعة من العامة وقيل فى موته غير ذلك * ووصلت الرأس الى المعتز وهو يلعب بالشطرنج فقيل له هذا رأس المخلوع فقال ضعوها حتى أفرغ من الدست فلما فرغ نظر اليه وأمر بدفنه

(الفصل الثالث عشر)

(فى خلافة المعتز بالله بن جعفر المتوكل)

ثم قام بالامر بعد المستعين ابن عمه محمد المعتز بالله وهو الزبير بن جعفر المتوكل وأمه أم ولد يقال لها قبيحة ويكنى أبا عبدالله وله من العمر يومئذ ثمان عشرة سنة بويع له بالخلافة لما خلع المستعين نفسه وذلك فى يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرم وقيل لثلاث خلون منه سنة اثنتين وخمسين ومائتين هجرية أى سنة ست وستين وثمانمائة ميلادية وبايعه القواد والموالى والشاكرية وأهل بغداد وخطب له فى المسجد الجامع ببغداد فى الجانبين وكان على وزارته جعفر بن محمد ثم صرفه واستوزر جماعة فكانت بعد ذلك تخرج الكتب باسم صالح بن وصيف التركى كأنه مرسوم بالوزارة وما زال على هذا الحال يدبر الامر حينا فلما كان بعد ذلك بقليل أنهى الى المعتز أن أخاه المؤيد يدبر عليه وانه قد احتال على جماعة من الموالى لينصروه فقبض على المؤيد فى الحال وحبسه وحبس معه أخاه أبا أحمد وهما لاب وأم وطولب المؤيد بأن يخلع نفسه من ولاية العهد فلم يقبل فضرب أربعين عصا الى ان أجاب وأشهد على نفسه بذلك * ثم اتصل بالمعتز أيضا أن جماعة من الترك اجتمع رأيهم على اخراج المؤيد من حبسه والانتصار له فأكبر المعتز هذا الامر وخشى عاقبته وجعل يدبر على هلاك المؤيد فلما كان يوم الخميس لثمان بقين من رجب سنة اثنتين وخمسين ومائتين أخرج المؤيد وأحضر القضاة

والفقهاء فرأوه ولا أثر فيه ثم أمر بعد ذلك فأدرج فى لحاف مسموم وشد طرفاه حتى مات فيه وضيق فى حبس أبى أحمد فكان بين دخوله سامرا وما لقى بها من الاكرام وبين حبسه ستة أشهر وثلاثة أيام ثم شخص المعتز الى البصرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان بعد قتل المؤيد بخمسين يوما ورتب اسمعيل بن قبيحة وهو أخو المعتز لابيه وأمه مكان المؤيد فى ولاية العهد ٭ واجتمع بعد ذلك بايام سائر قواد الموالى على المعتز فسألوه الرضا عن وصيف وبغا وكانا على ماهما عليه من الذل والضيق فأجابهم الى ذلك كارها وكانت هذه حيلة منهم للايقاع به لما نقموه عليه فلما كان رجب سنة خمس وخمسين ومائتين دخلوا عليه فى عدة وافرة بغير استئذان وجعلوا يقرعونه بذنوبه ويوبخونه على اعمال الحيلة على افنائهم وقتل كبارهم واصطناعه للمغاربة والفراغنة دونهم وقد كانوا أحسوا منه بذلك وطالبوه بالاموال وكان المدبر لهذه الفتنة صالح بن وصيف مع قواد الترك فلج المعتز وأنكر أن يكون قبله شئ من المال وقد كانوا يطلبون خمسين ألف دينار وأرسل المعتز الى أمه أن تعطيه ذلك القدر فأرسلت تقول ما عندى شئ وقد كان عندها من المال والنفائس والجواهر الثمينة شئ كثير الغاية ٭ فلما رأى الاتراك أنهم لم يحصل لهم من المعتز ولا من أمه شئ وليس فى بيت المال شئ اتفقت كلمتهم وكلمة المغاربة والفراغنة على خلعه فجلس على بابه جماعة منهم بالسلاح وأرسلوا اليه أن اخرج الينا فامتنع واعتذر بأنه تناول دواء فأمر صالح أن يدخل عليه بعضهم فدخلوا وجروه برجله الى باب حجرته وضربوه بالدبابيس ومزقوا ثيابه وأوقفوه فى الشمس فى صحن الدار فكان لشدة حرارتها يرفع رجلا ويضع أخرى وكان بعضهم يلطمه على وجهه ويقول له اخلعها وهو يتقى بيديه ثم أدخلوه الى حجرته وأشهدوا عليه جماعة بالخلع وبعثوا الى مدينة السلام فى طلب محمد بن الواثق الملقب بالمهتدى وقد كان المعتز نفاه اليها واعتقله فيها فأتى به فى يوم وليلة الى سامرا فتلقاه الاولياء فى الطريق ودخل الجوسق فأعلموه بأنهم سيبايعونه فى الحال وسألوه الموافقة على ذلك فامتنع وقال لا أقبل البيعة حتى أرى المعتز وأسمع كلامه فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل فلما رآه محمد بن الواثق وثب اليه وعانقه وأجلسه بجانبه على السرير وقال له يا أخى ماهذا الامر فقال المعتز أمر لا أطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له فأراد المهتدى أن يتوسط فى أمره ويصلح الحال بينه وبين مقدى الاتراك فقال المعتز لا حاجة لى فيها ولا يرضونى لها فقال المهتدى فانا فى حل من بيعتك قال أنت فى حل وسعة فلما جعله فى حل من بيعته حول وجهه عنه فأقيم من حضرته ورد الى محبسه فقتل فى محبسه بعد أن خلع بستة أيام تسلمه صالح بن وصيف ومنعه من الطعام والشراب ثلاثة أيام ثم أنزله فى سرداب وأطبقه عليه حتى مات ثم أخرجه وأشهد عليه أن لا أثر به وقيل أيضا انه بعد خلعه بخمسة أيام أدخله الحمام ومنعه الماء حتى عاين التلف ثم أتوه بماء مالح فشربه فسقط ميتا وذلك فى رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وكان عمره ثلاثا وعشرين سنة فكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وقيل وثلاثة وعشرين يوما وكان عمره كله أربعا وعشرين

سنة وكان أبيض أسود الشعر كثيفه حسن العينين والوجه أحمر الوجنتين حسن الجسم طويلا فصيحا كبير المعرفة واسع الدراية والخبرة له فى الفصاحة وحسن الالقاء كلام كثير يدل على مبلغ علمه ﴿ وهو أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب وكان من سبقه من الخلفاء من بنى العباس وكذلك جماعة من بنى أمية لا يركبون الا بالحلية الخفيفة من الفضة والمناطق واتخاذ السيوف والسروج واللجم فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس فى ذلك وفشت هذه العادة بينهم ثم تغالى فيها الخلفاء والسلاطين من بعده وبالغوا جدا

واستعمل المعتز على مصر فى خلافته أحمد بن مزاحم بن خاقان سنة ثلاث وخمسين ومائتين وهو طاغية جبارا عسوفا فولى الشرطة أرجوز التركى وكان أرجوز هذا أكبر وبلا منه وأشد عسفا وجورا فأكثر من الارهاب والتشديد على الرعية وبالغ فى ايذاء الناس بطرق وأنواع مختلفة ومنع النساء من الدخول الى الحمامات ومن زيارة قبور الاموات والولولة فى الجنازات وضيق على المخنثين والنوائح وحبسهم وأكثر من الاحداثات والبدع الغريبة * فلما كانت سنة أربع وخمسين ومائتين منع من الجهر بالبسملة فى الصلاة بالجامع وكان أهل مصر يجهرون بها منذ الاسلام الى ذلك الحين وأخذ أهل الجامع بتمام الصفوف فكان الموكل بذلك رجل من العجم يقوم وبيده السوط الى مؤخر المسجد وأمر أهل الحلق بالتحول عن القبلة قبل اقامة الصلاة ومنع من المساند التى كان المصلون يستندون اليها ومن الحصر التى كانت للمجالس بالمساجد ورسم بأن تصلى التراويح فى رمضان خمس تراويح وكان أهل مصر يصلونها ستا الى أن منعهم من ذلك فى تلك السنة ومنع من التشويب ورسم بالاذان يوم الجمعة فى مؤخر المسجد وأن يغلس بصلاة الصبح * ونادى مناديه أن لايشق ثوب على ميت أو يسود وجه أو يحلق شعر أو تصيح امرأة أو تولول فمن فعل شئ من ذلك عوقب وعاقب على ذلك وشدد فيه وكبر عسفه وظلمه فضاق خناق الناس وابتهلوا الى الله تعالى وما زالوا على هذا الحال معه حتى مات مزاحم وتولى بعده الولاية باكيالك التركى وقيل باكيال فالتمس باكيال من يستخلفه بمصر لقيامه هو بخدمة ركاب الخليفة * وقد كانت العادة أن من يتولى ولاية كمصر أو غيرها من العمالات الكبيرة من الامراء والكبراء فلا يأتيها بل يبقى فى خدمة الركاب ويوليها من يشاء من مواليه أو صنائعه أو غيرهم ممن يثق به * فأشير على باكيال المذكور بأحمد بن طولون فولاه اياها فكان من أمره وسعد أحواله واقبال الدنيا عليه بحذافيرها وظهور دولته ما سيذكر فى ترجمته فى وصل بعد

﴿ فى ترجمة أحمد بن طولون ﴿ وفى ظهور دولته بديار مصر ﴾

هو أبو العباس أحمد بن طولون كان أبوه من الاتراك الذين أهداهم نوح ابن أسد الساماني عامل بخارى الى المأمون بن هرون الرشيد فى سنة مائتين هجرية ويقال الى الرشيد فى سنة



تسعين ومائة وولد ابنه أحمد هذا فى سنة أربع عشرة وقيل سنة عشرين ومائتين ثم مات طولون فى سنة ثلاثين وقيل سنة أربعين ومائتين هجرية * وحكى ابن عساكر عن بعض مشايخ مصر أن طولون لم يكن أبا أحمد ولكنه تبناه وأمه جارية تركية يقال لها هاشم * وكان الترك قد طلبوا منه أن يقتل الخليفة المستعين لما سيروه معه الى واسط مبعدا فأبى وقال والله لا تجارأت على قتل أولاد الخليفة فلما جاء مصر قال لقد وعدنى الترك ان قتلت المستعين أن يولونى واسطا فخفت الله ولم افعل فعوضنى ولاية مصر والشام وسعة الاحوال * وكان سبب ولايته على مصر وظهور دولته أنه لما تولى الخلافة المعتز بالله بن جعفر المتوكل استعمل على ديار مصر مزاحم بن خاقان أحد مقدمى الترك فى دولة المعتز وكان مزاحم هذا طاغية جبارا فولى الشرطة أرجوز التركى فكان أرجوز أشد وبلا وأكبر عسفا وجورا فأكثر من الارهاب والتهديد وبالغ فى ايذاء الناس ومنع النساء من الدخول الى الحمامات وزيارة قبور الاموات وغير ذلك من البدع والاحداث الغريبة كما مر بيان ذلك فى موضعه فلما مات وتولى مكانه الامير باكباك وقيل باكيال واتصل به خبر ما يفعله أرجوز من الجور والعسف التمس من يستخلفه بمصر فاشير عليه بأحمد بن طولون لما ظهر عنه من حسن السيرة وطيب السريرة فولاه مصر وسرحه اليها وكان بها ابن المدبر على الخراج وقد تحكم فى البلد وأحدث الاحداثات الغريبة وكان قهرمانا من دهاة الرجال وأبالسة الكتاب فضرب على الناس الضرائب الكثيرة وقرر المغارم الفادحة وابتدع بدعا صارت سنة من بعده مرعية الى يومنا هذا منها أنه أحاط بالنطرون ومنع الناس منه بعد أن كان مباحا * وقرر على الكلا الذى ترعاه الماشية مالا سماه المراعى وقرر على مايطعمه الله من صيد البحر أيضا مالا سماه المصائد فانقسم مال مصر من حينئذ الى قسمين خراجى وهلالى فالخراجى مايؤخذ فى كل سنة من الارض التى تزرع حبوبا ونخيلا وكروما وفاكهة وما شاكل ذلك والهلالى قسمه الى قسمين سماهما المرافق والمعاون وهو ما يؤخذ على الضرائب المحدثة كالمراعى والمصائد ونحوهما فكانت هذه المغارم وقرا ثقيلا على الناس فكثر بغضهم لابن المدبر وجعلوا يدبرون له المكائد ويتربصون الفرص للبطش به فلما أحس منهم بذلك جعل فى خاصته نحوا من مائة غلام هندى ممتازين وزججهم بالسلاح فكانوا فى خدمته لايفارقونه فى حله وترحاله * فلما قدم أحمد بن طولون الى مصر واستقر به منصب النيابة كف يد ابن المدبر واستولى على البلد وكان باكبال قد استعمل أحمد على مصر وحدها دون باقى الاعمال كالاسكندرية ورشيد والصعيد الاعلى فلما قتل باكبال وصارت مصر الى ليارجوج التركى وكان بين ليارجوج وأحمد بن طولون مودة متأكدة استعمله على ديار مصر جميعها وكان المتولى على الاسكندرية يومئذ عيسى بن دينار فأقره ابن طولون على ولايتها وزالت هى وغيرها من بقية الثغور تحت حكم ابن طولون فلما تم له أمر ذلك قدم عليه ابن المدبر فى حاشيته وغلمانه ومعه شقير الخادم غلام قبيحة أم أمير المؤمنين المعتز وهو يومئذ على البريد فنظر ابن طولون واذا بين يدى ابن المدبر مائة غلام لهم خلق

حسن وطول أجسام وبأس شديد وعليهم أقبية ومناطق ثقال عراض وبأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من الفضة وهم يقفون بين يديه فى حافتى مجلسه اذا جلس ويركبون بين يديه اذا ركب فيصير لهم بهم هيبة وجلالة فى صدور الناس فداخل ابن طولون شئ من ذلك وكبرت هذه النعمة فى عينيه وحسد ابن المدبر عليها * وقدم اليه ابن المدبر الهدايا النفيسة والتحابى الثمينة استجلابا لرضاه فلم يقبلها وردها على ابن المدبر فنظر ابن المدبر الى شقير وقال ان هذه لهمة عظيمة ومن كانت هذه همته لايؤمن على طرف من الاطراف وخافه ابن المدبر وخشى عاقبة التقرب منه وكره المقام معه فى مصر ثم اجتمع بشقير الخادم وتناجيا فى أمر ابن طولون وكتبا الى الخليفة المعتز يطلبان خلع ابن طولون عن مصر فلم يكن الا أيام حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول له * قد كنت أعزك الله أهديت لنا هدية وقع الغنا عنها ولم يجز أن يغتنم مالك كثره الله فرددناها توفيرا عليك ونحب أن تجعل العوض منها الغلمان الذين رأيناهم بين يديك فانا اليهم أحوج منك * فقال ابن المدبر لما بلغته الرسالة هذه أخرى أعظم مما تقدم قد ظهرت من هذا الرجل اذ كان يرد الاموال والاعراض ويستهدى الرجال ويثابر عليهم ثم لم يجد ابن المدبر بدا من أن يبعث بالغلمان كارها فزالت بعد ذلك هيبة ابن المدبر وكبرت هيبة ابن طولون وخافه الناس وجعل ابن المدبر يدبر الحيلة على خلع ابن طولون ويكاتب الخليفة فى ذلك وأحمد يعلم بالامر ويكتمه عن ابن المدبر حتى انقضت خلافة المعتز بالله

وظهرت كلمة ابن طولون واتسعت شهرته فأضيفت اليه نيابة الشام والعواصم والثغور وافريقية فعمد الى الفتح ففتح أنطاكية وعدة مدن أخرى وطالت ولايته فرتب الامور وأحكم السياسة وأمن الطرق ووسع أبواب الخير فكانت ظاهرة بينة وابتنى بالقاهرة جامعه المشهور والبيمارستان والعين التى أنشأها بالمعافر وقد وقعت عند جميع أهله وجيرانه أحسن موقع لانهم فى حاجة زائدة الى الماء * قيل وكان السبب فى انشائه اياها أنه ركب يوما فى مسجد الاقدام وحده وتقدم عسكره وقد كده العطش وكان فى المسجد خياط فقال ياخياط أعندك ماء فقال نعم وأخرج له ركوة صغيرة وقال اشرب ولا تمد يعنى لاتشرب كثيرا فتبسم أحمد بن طولون وشرب فمد فيه حتى شرب أكثرها ثم ناوله اياها وقال يافتى سقيتنا وقلت لاتمد فقال نعم أعزك الله موضعنا هنا منقطع وأنا أخيط بشئ حتى أجمع ثمن راوية فقال له أو الماء عندكم ههنا معوز فقال نعم قال الراوى فمضى أحمد بن طولون ولما رجع الى داره قال على بالخياط الذى فى مسجد الاقدام فجاؤا به فلما رآه أحمد قال له سر مع المهندسين حتى يخطوا عندك موضع سقاية ويجروا الماء وهذه ألف دينار خذها ثم ابتدأ بالانفاق وأجرى على الخياط فى كل شهر عشرة دنانير وقال له بشرنى ساعة يجرى الماء فيها فجدوا فى العمل فلما جرى الماء أتاه مبشرا فخلع عليه وحمله واشترى له دارا يسكنها وأجرى عليه الرزق السنوى بكثرة قال بعض أهل التاريخ وكان قد أشير عليه بأن يجرى الماء من عين أبى خليد المعروفة



بالنمش فقال هذه العين لاتعرف الا بأبى خليد وانى أريد أن أستنبط بئرا فعدل عن العين الى الشرق فاستنبط بئره هذه وبنى عليها القناطر وأجرى الماء الى الفسقية التى بقرب درب سالم وتولى بناء هذه السقاية قبطى من أقباط مصر حسن الهندسة حاذق ماهر قيل انه دخل على ابن طولون عشية من العشايا فقال له اذا فرغت مما تحتاج اليه فاعلمنى لنركب اليها فنراها فقال يركب الامير اليها فى غد فقد فرغت وتقدم المهندس المذكور فرأى موضعا بها يحتاج الى قصرية جير وأربع طوبات فبادر الى عمل ذلك وأقبل ابن طولون يتأمل العين فاستحسن جميع ما شاهده فيها ثم أقبل الى الموضع الذى فيه قصرية الجير فوقف بالاتفاق عليها فلرطوبة الجير غاصت يد الفرس فيه فكبا بأحمد ولسوء ظنه قدر أن ذلك لمكروه أراده به المهندس فأمر به فشق عنه ماعليه من الثياب وضربه خمسمائة سوط وأمر به الى المطبق فوضع فيه وانصرف ابن طولون وأقام المهندس بالمطبق الى أن أراد ابن طولون بناء جامعه فقدر له ثلاثمائة عمود فقيل له ما تجدها أو تنفذ الى الكنائس فى الارياف والضياع فتحمل ذلك فأنكره ولم يختره وتعذب قلبه بالفكر فى أمره وبلغ المهندس القبطى وهو بالمطبق الخبر فكتب الى ابن طولون يقول أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد الا عمودى القبلة فسر ابن طولون بذلك وأحضر القبطى وقد طال شعره حتى تدلى على وجهه وقال له ويحك ماتقول فى بناء الجامع فقال أنا أصوره للامير حتى يراه عيانا بلا عمد الا عمودى القبلة فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت وصوره له فأعجبه واستحسنه وأطلق القبطى وخلع عليه وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار وقال له أنفق وما احتجت اليه بعد ذلك أطلقناه لك فوضع البناء يده فى الموضع الذى هو فيه وهو المعروف بجبل يشكر فكان ينشر من الحجر ويعمل الجير ويبنى الى أن فرغ من جميعه وبيضه وخلقه وعلق عليه القناديل بالسلاسل الحسان الطوال وفرش فيه الحصر وحمل اليه صناديق المصاحف ونقل اليه القراء والفقهاء وصلى فيه وتصدق بصدقات عظيمة وأجاز المهندس بعشرة آلاف دينار وأجرى عليه الرزق الواسع الى أن مات

وذهب ابن طولون فى يوم الجمعة الى الجامع فلما رقى الخطيب أبو يعقوب البلخى المنبر وخطب دعا للخليفة وولده ونسى أن يدعو لأحمد بن طولون ونزل عن المنبر فأشار أحمد الى نسيم الخادم أن اضربه خمسمائة سوط فذكر الخطيب سهوه وهو على مراقى المنبر فعاد وقال بعد الحمدلة والديباجة ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما اللهم وأصلح الامير أبا العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين وزاد فى الشكر والدعاء له بقدر الخطبة ثم نزل فنظر أحمد الى نسيم أن اجعلها خمسمائة دينار قال القضاعى وذكر أن السبب فى بنائه يعنى فى بناء ذلك الجامع أن أهل مصر شكوا اليه ضيق الجامع يوم الجمعة من جنده وسودانه فأمر بانشاء الجامع المذكور بجبل يشكر بن جديلة من لخم فابتدأ فى بنائه فى سنة ثلاث وستين ومائتين وفرغ منه سنة خمس وستين ومائتين • وقيل ان

أحمد

أحمد بن طولون قال انى أريد أن أبنى بناء ان احترقت مصر بقى وان غرقت بقى فقيل له يبنى بالجير والرماد والآجر الاحمر المشوى بالنار الى السقف ولا يجعل فيه أساطين رخام فانها لاصبر لها على النار فبناه هذا البناء وكان من أمره واعادة ترميمه فى أيام دولة خليل بن قلاون ما كان مما لا موضع هنا لذكره

وبعد أن تم بناء السقاية رسم فكانت تفتح طول النهار لمن كشف وجهه للاخذ منها ولمن كان له غلام أو جارية والليل للفقراء والمساكين واتخذ لها مستغلا فيه فضل وكفاية لمصالحها ثم بلغه أن قوما لا يستحلون شرب مائها . قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الفقيه كنت ليلة فى دارى اذ طرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون فقال لى الامير يدعوك فركبت مذعورا مرعوبا فعدل بى عن الطريق فقلت أين تذهب بى فقال الى الصحراء فأيقنت بالهلاك وقلت للخادم الله الله فىّ فانى شيخ كبير ضعيف مسن فتدرى ما يراد منى فارحمنى فقال احذر أن يكون لك فى السقاية قول وسرت معه واذا بالمشاعل فى الصحراء وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية وبين يديه الشموع فنزلت وسلمت عليه فلم يرد علىّ فقلت أيها الامير ان الرسول قد أعيانى وكدنى وقد عطشت فيأذن لى الامير فى الشرب فأراد الغلمان أن يسقونى فقلت أنا آخذ لنفسى فاستقيت وهو يرانى وشربت وزدت فى الشرب حتى كدت أنشق ثم قلت أيها الامير سقاك الله من أنهار الجنة فلقد أرويت وأغنيت ولا أدرى ما أصف أطيب الماء فى حلاوته وبرده أم صفاءه أم طيب ريح السقاية قال فنظر الىّ وقال أريدك لامر وليس هذا وقته فاصرفوه فصرفت فقال لى الخادم أصبت فقلت أحسن الله جزاءك فلولاك لهلكت وكان مبلغ ما أنفق على هذه العين فى بنائها ومستغلها أربعين ألف دينار ثم كان من أمر ابن طولون ما سيذكر فى محله فى خلافة المهتدى ومن جاء بعده من الخلفاء

ومات فى خلافة المعتز قسيما بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وقيل سبع سنين وخمسة أشهر فخلا الكرسى بعده أحدا وخمسين يوما وفى أيام هذا البطرك أمر نوفل قيصر الروم بمحو الصور من الكنائس لامور فبعث اليه قسيما وناظره حتى ألقمه ورجع به الى حسن الاعتقاد فرسم باعادة الصور الى ما كانت عليه فلما مات قسيما أقيم بعده ساونيرو أو هو شنوده خامس خمسيهم وبلده البتانون وكان راهبا بدير أبى مقار ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله

(الفصل الرابع عشر)

(فى خلافة جعفر المهتدى بالله بن هرون)

ثم قام بالامر بعد المعتز ابن عمه جعفر بن هارون الواثق بن المعتصم ولقب بالمهتدى

وقيل ان اسمه محمد ويلقب بأبى اسحق وبويع له بالخلافة قبل الظهر من يوم الاربعاء لليلة
بقيت من رجب الفرد سنة خمس وخمسين ومائتين هجرية أى سنة ثمان وستين وثمانمائة
ميلادية وأمه أم ولد رومية يقال لها قرب ويكنى بأبى عبدالله وله يومئذ سبع وثلاثون سنة
وقيل تسع وثلاثون ولما استقر به المنصب أخرج الملاهى وحرم سماع الغناء والشراب
وأمر بنفى المغنيات وطرد الكلاب والسباع وألزم نفسه الاشراف على الدواوين والجلوس
للناس وازالة المظالم وتغيير المنكرات وقال انى أستحى من الله أن لايكون فى بنى العباس
مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية وكان صالح بن وصيف بعد خلع المعتز وقتله قد خرج
هاربا فلم يهتد له على محل فلما كان لثلاث بقين من المحرم زعم المهتدى ان امرأة دفعت
الى سيما الشرابى كتابا وقالت ان فيه نصيحة وان منزلها بمكان كذا وطلبت المرأة فلم توجد
ودعا المهتدى القواد وسليمان بن وهب فأراهم الكتاب فزعم سليمان أنه خط صالح بن
وصيف فقرأه على القواد فاذا فيه انه مستخف بسامرا وانما استتر طلبا للسلامة وابقاء
الموالى وطلبا لانقطاع الفتن وذكر ما صار اليه من أموال الكتاب ويدل فيه على قوة نفسه
فلما فرغوا من قراءته جعل المهتدى يحث الجماعة على الصلح مع ابن وصيف والاتفاق
والنهى عن التباغض والتباين فاتهمه الاتراك بأنه يعلم بمكان ابن وصيف ويميل اليه وطال
بينهم وبينه الاخذ والرد فلما كان الغد اجتمعوا بدار موسى بن بغا واتفقوا على خلع
المهتدى وكان بينهم الامير باكيال فقال لهم ويحكم انكم قتلتم ابن المتوكل وهو فتى
حسن الوجه سخى الكف فاضل النفس وتريدون اليوم قتل هذا وهو مسلم تقى يصوم
ولا يشرب النبيذ من غير ذنب والله لئن قتلتم هذا لالحقن بخراسان لأشيع أمركم هنالك
فاتصل خبر ذلك الى المهتدى فتحول من مجلسه وهو متقلد سيفه وقد لبس ثيابا نظافا
وتطيب وأمر بادخالهم عليه فدخلوا فقال لهم بلغنى ما أنتم عليه ولست كمن تقدمنى
مثل المستعين والمعتز والله ماخرجت اليكم الا وأنا متحنط وقد أوصيت الى أخى بولدى وهذا
سيفى والله لاضربن به ما استمسك قائمه بيدى والله لئن سقط منى شعرة ليهلكن وليذهبن
أكثركم كم هذا الخلاف على الخلفاء والاقدام والجراءة على الله سواء عليكم من قصد
الابقاء عليكم ومن كان اذا بلغه هذا منكم دعا بالنبيذ فشربه مسرورا بمكروهكم حتى
تعلمون أنه وصل الى شئ من دنياكم أما انكم لتعلمون أن بعض المتصلين بكم أيسر من
جماعة من أهلى وولدى سوأة لكم يقولون انى أعلم بمكان صالح وهل هو الا رجل من
الموالى فكيف الاقامة معه اذا ساررتكم فيه واذا أبرمتم الصلح فيه كان ذلك ماأنفذه
لجميعكم وان أبيتم فشأنكم واطلبوا صالحا وأما أنا فما أعلم مكانه فعند ذلك علت
ضوضاء القوم وقالوا له احلف لنا على ذلك فقال أما اليمين فنعم ولكنها تكون بحضرة بنى
هاشم والقضاة غدا اذا صليت الجمعة فلم يتم شئ من ذلك وقد اشتد بعض الترك له وهموا
بخلعه فمنعهم من ذلك خوف الاضطراب وقلة الاموال فأتاهم مال من فارس عشرة آلاف

ألف درهـم وخمسمائة ألف درهـم وانتشر الخبر بين العامة أن القوم قد اتفقوا على خلع المهتـدى والفتك به وانهم قـد أرهقوه فجعلوا يكتبون الرقاع ويرمونها فى الطرق والمساجد مكتوبا فيها يامعشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العـدل الرضا المضاهى لعمـر بن الخطاب أن ينصره الله على عـدوه ويكفيـه مؤنة ظالمـه وتتم النعمة عليه وعلى هـذه الامة ببقائه فان الاتراك قد أخذوه بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام وصلى الله على سيدنا محمد * واشتد الاتراك على المهتـدى وبالغوا فى اهانتـه حـتى يخلع نفسه فلم يفعـل وظهـر بابك التركى ومن معـه بشق عصا الطاعة والخروج على الخليفة فأمر الخليفة بقتله فقتـل فهاج الترك ووقع الحرب بينهـم وبين المغاربة أنصار الخليفة واشـتد الحـال وطالت أيام القتال فقتـل من الفريقـين أربعـة آلاف على رواية بعض أصحاب التاريخ وخرج المهتـدى والمصحف فى عنقه وهو يدعو الناس الى نصرته على الترك ومعه طوائف المغاربة وبعض العامة فحمل عليهم طيبغا أخو بابك فهزمهم ومضى المهتدى وهومهزوم والسيف فى يده وقد جرح جرحين حتى دخـل دار محمـد بن يزداد فتجمع الترك وهجموا على الدار وأخذوه أسيرا وجعله أحمد بن خاقان وجعـلوا يصفعونه ويقولون اخلعها وهو لايفعل فسلم الى رجـل فوطئ مذاكيره حتى قتـله وقيـل مات بالخناجر ومنهم من روى أنه جعـل بين لوحـين عظيمين وشـد بالحبال الى أن مات وقيل قتـل خنقا وقيل كبس عليـه بالبسط والوسائد حتى مات فلما مات داروا به ينـوحون ويبكون عليـه وندموا على ما كان منهـم من قتـله لما تبينوه من نسكه وقتل وله من الولد سبعة عشر ذكرا وست بنات قيل وكان قـد ذهب فى أمره الى القصد والدين فقـرب العلماء ورفـع من منازل الفقهاء وعمهـم ببره وكان يقول يابنى هاشم دعونى حـتى أسلك مسلك عمـر بن عبـد العزيز فى بنى أمية وقلل من اللباس والفـرش والمطعم والمشرب وأمر باخراج آنيـة الذهب من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهـم وعمد الى الصـور التى كانت فى المجالس فحيت وذبح الكباش التـى كان يناطح بها بين يدى الخلفاء والدولة وقتـل السـباع المحبوسـة ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعـة باباحتـه وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدهـا فى كل يوم عشرة آلاف درهم فأزال ذلك وجعـل لمائدته وسائر مؤنتـه فى كل يوم نحو مائة درهم قيل وكان يواصل الليل بالنهار فى التهجد والعبادة وأنه لما قتل أخرج رحل من الموضع الذى كان يأوى اليه فأصيب له سفط مقفل فتوهموا أن فيـه مالا أوجوهرا فلما فتح وجدوا فيـه جبـة صوف وغل وقيل جبة شعر فسألوا من كان يخدمه فقال كان اذا جن الليـل لبسها وغل نفسه وكان يركع ويسجد الى أن يدركه الصباح رحمه الله

وعرضت على المهتدى يوما دفاتر خزائن الكتب فاذا على ظهر كتاب منها هـذه الابيات قالها المعتز بالله وكتبها بخطه

الى عرفت عـلاج الطب من وجعى * وما عرفت عـلاج الحب والخدع



جزعت للحب والحمى صبرت لها • انى لاعجب من صبرى ومن جزعى
من كان يشغله عن إلفه وجع • فليس يشغلنى عن حبكم وجعى
وما أمل حبيبى ليتنى أبدا • مع الحبيب وياليت الحبيب معى

فقطب وجه المهتدى بالله وقال حدث وسلطان الشباب وكان كثيرا ماينشد البيت الاول من هذا الشعر • وقال عبد الله بن ابراهيم الاسكافى جلس المهتدى للمظالم فاستعداه رجل على ابن له فأمر باحضاره فأحضر وأقامه الى جانب خصمه ليحكم بينهما فقال الرجل للمهتدى والله ياأمير المؤمنين ما أنت الا كما قيل

حكتموه قاضيا بينكم • أبلج مثل القمر الزاهر
لايقبل الرشوة فى حكمه • ولا يبالى بغبن الخاسر

فقال المهتدى أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك وأما أنا فما جلست حتى قرأت ونضع الموازين القسط ليوم القيامة الآية • قال فما رأيت باكيا أكثر من ذلك اليوم وقال أبو العباس بن هاشم بن القاسم الهاشمى كنت عند المهتدى بعض عشايا شهر رمضان فقمت لانصرف فأمرنى بالجلوس فجلست حتى صلى المهتدى بنا المغرب وأمر بالطعام فأحضر وأحضر طبق خلاف عليه رغيفان وفى اناء ملح وفى آخر زيت وفى آخر خل فدعانى الى الأكل فأكلت مقتصرا ظنا منى أنه يحضر طعاما جيدا فلما رأى أكلى كذلك قال أما كنت صائما فقلت بلى فقال أفلست تريد الصوم غدا قلت وكيف لا وهو شهر رمضان فقال كل واستوف عشاءك فليس ههنا غير ماترى فعجبت من قوله وقلت ولم ياأمير المؤمنين قد أسبغ الله عليك النعمة ووسع رزقه فقال ان الامر على ماوصفت والحمد لله ولكنى فكرت فى أنه كان من بنى أمية عمر بن عبد العزيز فغرت لبنى هاشم أن لا يكون فى خلفائهم مثله وأخذت نفسى بما رأيت له ومات ولم يستكمل الاربعين سنة وكان موته فى سنة ست وخمسين ومائتين هجرية فكانت خلافته أحد عشر شهرا وخمسة عشر ليلة ودفن بسامرا وقيل كان مولده فى سنة ثمان عشرة ومائتين للهجرة

وفى خلافته كانت الامور قد انتظمت لاحمد بن طولون بمصر واتسعت شهرته وبسط يده على مشرق الارض ومغربها مع ما انضاف الى مصر من البلاد الشامية وأنطاكية والجزيرة فلما كانت أخريات سنة ست وخمسين ومائتين هجرية خرج على ابن طولون ابراهيم الصوفى عامل اقليم اسنا بالصعيد الاعلى وبالغ فى العصيان وأكثر من الشدة وبسط يده على سائر بلاد ذلك الصقع وعاث وظلم وقتل من لم يطعه فأنفذ ابن طولون طائفة من العسكر لقتاله فاجتمع الفريقان واقتتلا فكانت الدائرة على أصحاب ابن طولون فانحدروا الى اخميم مدحورين فسير اليهم ابن طولون نجدة فقاتلت الصوفى وشددت فى قتاله حتى ظفرت وقهرت قومه ومزقت شملهم كل ممزق ففر ابن الصوفى فى نفر من أصحابه وسار فى عرض البرية طلبا للنجاة واختفى أمره وانقطع ذكره ولم يكد يخفى خبره ويتناسى

النّاس

الناس فتنته حتى خرج أيضا ابن شيخ على أعمال فلسطين والأردن واستبد بها بعد موت أبيه أحمد بن عيسى بن شيخ الشيبانى وقد كان أبوه يتقلد جند تلك الانحاء وطمع ابن شيخ المذكور فى الاستقلال بملك الشامات والتغلب عليها وأكثر أصحابه من الارجاف ووردت الاخبار الى ابن طولون بأنه يريد ديار مصر ليأخذها وقد خرج والامور مضطربة ببغداد والفتنة قائمة بين الاتراك والمغاربة وعامة أهل بغداد فلم يهم ابن طولون ذلك ولا أحمله محملا واتفق أن أرسل ابن المدبر صاحب خراج مصر سبعمائة وخمسين ألف دينار حملا من مال مصر الى بغداد فقبض ابن شيخ عليها وفرقها فى أصحابه فتقوت بها قلوبهم واشتدت عزائمهم وطمعوا فى الحال من التغلب والفوز وتأهبوا للنزول على مصر وأخذها من ابن طولون ثم كان من أمر الفريقين بعد ذلك ما كان مما سيذكر ان شاء الله فى خلافة أبى القاسم أحمد المعتمد بن المتوكل حسب ترتيب حوادث كل خلافة وزمن وقوعها

(الفصل الخامس عشر)

(فى خلافة أبى القاسم أحمد المعتمد على الله بن المتوكل)

ثم قام بالامر بعد المهتدى ابن عمه أحمد المعتمد على الله بن المتوكل على الله بن المعتصم بالله بويع له بالخلافة يوم قتل ابن عمه المهتدى بسامرا سنة ست وخمسين ومائتين هجرية أى سنة تسع وستين وثمانمائة ميلادية فكان له اسم الخلافة فقط ولأخيه الموفق بن المتوكل تدبير الملك وما زال كذلك الى أن مات الموفق فقام بتدبير الملك بعده ابنه أحمد المعتضد وغلب على عمه المعتمد كما كان أبوه غالبا عليه قيل فكان المعتمد يطلب الشئ الحقير فلا يناله ولم يكن له سوى الاسم فضاق به الحال واشتد عليه الامر يوما فقال فى ذلك متوجعا

أليس من العجائب أن مثلى ٭ يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ٭ وما من ذاك شئ فى يديه

وكانت أيام المعتمد كلها حروبا هائلة وكروبا مستمرة وخروج الكثير من الخوارج مثل يعقوب بن الليث الصفار وصاحب الزنج وغيرهما وقد بالغ جماعة الكتاب فى عدد من قتل فى هذه الحروب والفتن فكانوا بين مكثر ومقلل فأما المكثر فكان يقول انه أفنى من الناس مالا يدركه العد ولا يقع عليه الاحصاء ولا يعلم ذلك الا علام الغيوب فيما فتح من هذه الامصار والبلدان والضياع وأباد أهلها والمقلل يقول أفنى من الناس خمسمائة ألف ألف وكلا الفريقين يقول فى ذلك ظنا وحدسا اذ كان شيأ لم يدرك ولم

بضبط وكان ممن تم خروجه فى أيامه واستفحل أمره بتانا ابن شيخ فانه استبد بحكم الشامات وقطع الحمل عن بغداد فسير اليه المعتمد حسينا الخادم فكلمه فى ذلك فاعتذر فأعطاه حسين عهده على أرمينية ليقيم الدعوة للمعتمد وكان قد بالغ فى الامتناع فأجابه الى ذلك بعد أمور وأخذ العهد وأقام الدعوة ولبس السواد الذى هو زى العباسيين ظنا منه أن الشام تكون بيده فلم يلبث على ذلك طويلا حتى أنفذ المعتمد أماجور التركى وقلده دمشق وأعمالها فسار اليها فى ألف رجل فلما قرب منها أنهض عيسى اليه ولده منصورا فى عشرين ألف مقاتل فلما التقوا انهزم عسكر منصور وقتل منصور فوهن عيسى وسار الى أرمينية من طريق الساحل فخلا الجو لأماجور التركى وولى دمشق وجعل يتصرف فى الامور على ما يهواه وكان الخليفة المعتمد قد أرسل الى أحمد بن طولون فى مناجزة ابن شيخ وقتاله حتى يظفر به وسير الى ابن المدبر أن يطلق النفقة لابن طولون فتجهز ابن طولون وخرج فى عسكر عظيم وجنائب ومواهى وطبول وغير ذلك واستخلف على ديار مصر أخاه موسى فبينما هو فى طريقه اذ جاءه مرسوم الخليفة بالعودة الى مصر وأن أماجور قد ولى قتال ابن شيخ فعاد أحمد بن طولون ودخل القاهرة فى شعبان من هذه السنة

وداخل قلب ابن طولون من حب الاستبداد بملك مصر وشق عصا طاعة العباسيين ما أقلقه وعظمت رغبته فى ذلك فجعل يشيد الحصون ويبنى القلاع وينشئ المعاقل ويكثر من الكراع وآلات القتال وابن المدبر صاحب خراج مصر يحفظ له كل ذلك وكان ابن طولون الى هذا الحين يسكن خارجا عن سور الفسطاط فى دار الامارة التى كانت لمن سلف من الامراء وهى فى ضاحية العسكر وكانت ضاحية العسكر فيها الاسواق والبنايات العظيمة والطرق الواسعة فلم تكف موالى وغلمان وأتباع ابن طولون وضاقت بأدواته وآلات حربه فصعد يوما الى المقطم ونظر الى ما حوله فرأى بين ضاحية العسكر وبين المقطم فضاء لاشئ فيه من البناء الا بعض المدافن اليهود والنصارى فاختارها للبناء قيل ورسم بحرث المدافن ونبشها واختط فى موضعها قصرا عظيما وميدانا وتقدم الى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لانفسهم حوله ففعلوا فاتصل بناؤهم الى عمائر الفسطاط فلما رأى ابن طولون كثرة البناء أعجبه وأمر بقطع القطائع وسمى كل قطيعة منها باسم من سكنها فكانت لغلمان النوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ولغلمان الروم قطيعة مفردة وللفراشين قطيعة وكذلك لغيرهم من بقية الموالى والاتباع * وابتنى كذلك القواد مواضع متفرقة فزادت القطائع ضخامة وتشعبت فيها الطرق والمسالك وبنيت المساجد العظيمة والافران والحامات والطواحين واختص كل سوق منها باسم مخصوص فكان منها سوق الشوايين وسوق البقالين وصارت من هذا الحين هذه القطائع مدينة عظيمة آهلة للغاية فكانت غلمان ابن طولون تضرب فى الميدان بالصوالجة ثم عاد بعد حين فسمى القصر والميدان باسم الميدان وعمل له أبوابا لكل

باب

باب اسم فكان منها باب الميدان ومن هذا الباب كان يدخل ويخرج معظم الجيش وباب الصوالجة وباب الخاصة ولم يدخل منه الا خاصة ابن طولون وباب الجبل لأنه مما يلى المقطم وباب الحرم ولايدخل منه الا النساء والخصيان وباب الدرمون قال بعض الكتاب وهذا كان يجلس عنده حاجب أسود ضخم الجثة يتقلد جنايات السود الرجالة فقط ويقال له الدرمون وباب دعناج وكان يجلس عنده حاجب اسمه دعناج وباب الساج لانه عمل من خشب الساج وباب الصلاة وهو فى الطريق الموصل الى الجامع ويسمى أيضا بباب السباع لأنه كان عليه صورة سبعين من الجص وكانت جميع هذه الابواب تفتح فى يوم عيد أويوم عرض الجيش أويوم صدقة وما عدا هذه الايام لاتفتح الا فى أوقات معلومة على ترتيب مقرر معلوم وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض ويوم الصدقة لينظر من يدخل ومن يخرج وكان الناس يدخلون من باب الصوالجة ويخرجون من باب السباع وكان على باب السباع مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع لمدى حركات الغلمان وتأهبهم وتصرفهم فى حوائجهم وكان يشرف منه أيضا على البحر وعلى باب مدينة الفسطاط وما يلى ذلك فكان منتزها حسنا للغاية * ولما تم تأهب ابن طولون واستعداده للاستبداد بملك مصر وشاع خبر ذلك خافه أماجور صاحب الشام وخشى عاقبة جواره وقيل بل حسده فكانت تأتى الى أماجور الاخبار تترى بعزم ابن طولون على قتاله وأخذ الشام منه فسير الى الخليفة المعتمد من يخبره بخبر ابن طولون ويحذره من شره ويقول انه اذا ترك وشأنه ولم يعاجله الخليفة استفحل أمره واستعصى اخضاعه وتبعه فى ذلك غيره من الولاة والعمال فأرسل الخليفة الى ابن طولون يقول تنح عن مصر عاجلا الى سامرا واستخلف عليها من تشاء من أصحابك فهم ابن طولون أن يفعل ذلك وجعل يتأهب للخروج فنعه من ذلك أحد خواصه وأعلمه بما يبطنه له الخليفة ففطن ابن طولون للامر وسير الى سامرا أحمد الواسطى أحد خواصه وكبار دواته ومعه من الهدايا النفيسة والتحابى الثمينة لوزير الخليفة مايجل عن الوصف وأوصاه بأن يبالغ فى استمالة الوزير وفى استرضائه فلما وصل ابن الواسطى الى سامرا تمثل بين يدى الوزير ودفع اليه الهدايا فأعجبته جدا وسر بها سرورا عظيما ومال الى ابن طولون وأحبه وكلم الخليفة فى أمره واستماله اليه واسترضاه عنه فعفا الخليفة عما سلف من ابن طولون ورسم بتجديد الولاية له على مصر وأجاز له حمل نسائه وأولاده الى مصر وقد كانوا الى ذلك الحين فى سامرا وعاد ابن الواسطى ومعه كتب ابن المدبر وشقير الخادم التى كانا يبعثان بها الى الوزير بالوشاية فى حق ابن طولون فجعل ابن طولون من هذا الحين يدبر على الفتك بهما فلم تكن الا أشهر حتى هلك شقير الخادم ففرح ابن طولون بموته وجعل يكيد لابن المدبر فأرسل ابن المدبر الى أخيه وهو على خزائن الخلافة يومئذ يعلمه بما هو عليه من الشدة والخوف ويسأله أن يوليه خراج الشام والرحيل عن مصر خوفا من بطش ابن طولون فعلم ابن طولون بذلك وأن ابن المدبر سائر عنه الى الشام فخفف عنه فجعل ابن المدبر يحسن

السيرة معه و يتقرب اليه ويلاطفه وتزوج ابنتـه لخماروبه بن أحمد ووهب لها جميع ماله فى ديار مصر من دور ومزارع واقطاعات ثم جاء مرسوم الخليفة بعد ذلك بقليل بالجـلاء عن مصر فرحل عنها الى الشام وتولى أمور خراجها وخلا الجو لابن طولون فبسط يده على مشرق البلاد ومغربها وأبطل بعض المغارم والمكوس واستشار ابن دسومة عبدالله أمين متولى الخراج يومئذ فى ازالة الخراج الهلالى وهو ماكان يؤخذ على المصائد والمراعى ونحوهما مما أحدث ابن المدبر وكانت قيمته يومئـذ مائة ألف دينار فقال أيها الامير ان الدنيا والآخرة ضرتان والحازم من لايخلط بينهما والمفرط من خلط بينهما فتتلف أعماله و يبطل سعيه وأفعال الامير أيده الله الخير وتوكله توكل الزهاد وليس مثله من ركب خطة لم يحكمها ولوكنا نثق بالنصر دائما طول العمر لما كان شئ عندنا أكثر من التضييق على أنفسنا فى العاجل معاداة الآجل ولكن الانسان قصير العمر كثير المصائب مـدفوع الى الآفات وترك الانسان ما قد أمكنه وصار فى يده تضييع ولعل الذى جاء من نفسه يكون سعادة لمن يأتى من بعده فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو ويجتمع للامير أيده الله بما قد عزم على اسقاطه من الهلالى فيضبط به الامير أيده الله أمر دنياه وهذه طريقة أمور الدنيا واحكام أمور الرياسة والسياسة وكل ما عنّ للامير من أمر غير هذا فهو مفسـد لدنياه وهذا رأيى والامير أيده الله على ماعساه يراه ‌* وكان ابن دسومة هـذا طاغية شيطانا من شياطين جباة الاموال وكان يكره أن ابن طولون يزيل هذه البدعة فأشغل قلب ابن طولون كلامـه وقال سننظر ان شاء الله تعالى ونام ليلته تلك وهو مشغول البال بمقالة ابن دسومة فيل فرأى فى منامه رجلا من اخوانه الزهاد فى طرسوس يقول ليس فيما أشار به عليك ابن دسومة مصلحة ومن ترك شيأ لله عزوجل عوّضه الله خيرا منه فأمض ما كنت عزمت عليه فأصبح وقد طير الخبر الى الآفاق بازالة ذلك الخراج ففرح الناس ومدحوه

ولما كانت سنة تسع وخمسين ومائتين هجرية عاد ابن الصوفى العلوى وظهر بمصر وقد كان ظهر فى سنة ست وخمسين وهرب الى الواحات واختفى خبره فـدعا الناس لنفسه فتبعه خلق عظيم وسار بهم الى الاشمونين فاهتم ابن طولون بأمره وسير اليه جيشا كبيرا ومقدمه ابن أبى الغيث فوجده قد صعد الى لقاء ابن أبى عبد الرحمن العمرى وكان العمرى هـذا قد ظهر بالنوبة وهو عبدالحميد بن عبدالعزيز بن عبـدالله بن عمر بن الخطاب وكان سبب ظهوره بمصر أن البجاة الذين هم أهل النوبة أقبلوا يوم العيد فنهبوا وقتلوا وعادوا غانمين وفعلوا ذلك مرات فخرج هذا العمرى غضبا لله وللمسلمين وكمن لهـم فى طريقهـم فلما عادوا يشنون الغارة خرج عليهم وقتل مقدمهم وأثخن فيمن كان معـه من القوم ودخل بلادهم فنهبها وأعمـل فى أهلها السيف ثم تابع عليهم الغارات وسبى وأفحش فى القتل حتى أدوا له الجزية ولم يكونوا قبـل ذلك أدوها لأحد ولا دانوا الى ملك من الملوك فظهرت كلمة العمرى واتسعت شهرته فلما لاقاه العـلوى اقتتلا قتالا عنيفا فانجلت الواقعة عن انهزام العلوى فولى منهزما الى أسوان فعاث

فيها وقطع كثيرا من نخلها وعلم بان ابن أبي الغيث قائد عسكر ابن طولون يطلبه أيضافولى هاربا الى عيذاب وعبر البحر الى مكة وتفرق أصحابه فى أرض الله الواسعة فلما وصل مكة بلغ خبره الى واليها فقبض عليه وسجنه ثم سيره الى ابن طولون فأمر به فطيف به فى البلد ثم سجنه أياما كثيرة ثم أطلقه فرجع الى المدينة فأقام بها الى أن مات * وصعد ابن أبي الغيث بمن معه من العسكر ومن جاء نجدة من ابن طولون لقتال العمرى أيضا حيث علم بقتله أصحابه بعد قتاله للعلوى فلما التقى الفريقان تقدم العمرى وقال لابى الغيث مقدم عسكرابن طولون ان ابن طولون لايعرف خبرى على حقيقته فانى لم أخرج للفساد ولم يتأذ بى مسلم ولا ذمى وانما خرجت طالبا للجهاد فاكتب الى الامير أحمد وعرّفه كيف حالى فان أمرك بالانصراف فانصرف وان أمرك بغير ذلك كنت معذورا فلم يجبه أبو الغيث الى ذلك وقاتله وكان العمرى من القوة وكثرة القوم على غير ما كان بلغته أبوالغيث فشدّ فى قتال أبى الغيث حتى هزمه شرهزيمة ورجع من بقى من عسكره الى مصر وأخبروا بحال العمرى فقال ابن طولون كنتم أنبئتم حاله الىّ فانه نصر عليكم ببغيكم وتركه فلما كان بعد مدة وثب على العمرى غلامان من غلمانه فقتلاه وحملا رأسه الى أحمد بن طولون فسألهما عن سبب قتله فقالا أردنا التقرب من الامير أيده الله فأمر بقتلهما فقتلا وأمر برأس العمرى فغسل وكفن ودفن * ولم تكد تخمد فتنة ابن الصوفى العلوى والعمرى حتى خرج آخر اسمه أبوروعة ودعا الناس لنفسه فانضم اليه خلق عظيم فسار بهم فى عرض البلاد فقتل وسبى وأراق الدماء فسير اليه ابن طولون طائفة من الجند فقاتلها وظفر بها وكاد يمزقها تمزيقا فأنجدها ابن طولون فقهرته وظفرت به وعادت غانمة

ولما كانت سنة احدى وستين ومائتين هجرية عصى أيضا على ابن طولون أهل برقة فأخرجوا أميرهم محمد بن الفرج الفرغانى فسير اليهم ابن طولون جيشا وعليه غلامه لؤلؤ وأمره بالرفق بهم وترك الشدة فان عادوا الى الطاعة فبها ونعمت والا فالسيف حتى يؤدوها صاغرين فسار لؤلؤ حتى نزل على برقة وحاصرها وفعل ما أمره به ابن طولون فطمع أهل برقة فى عسكر ابن طولون وخرجوا يوما على بعض العسكر وهم نازلون على باب البلدفأوقعوا بهم وقتلوا منهم فأرسل لؤلؤ الى ابن طولون فى أمرهم فرسم له بالجد فى قتالهم فنصب عليهم المجانيق وجدّ فى قتالهم فطلبوا الامان فأمنهم ففتحوا له أبواب البلد فدخل وقبض على جماعة من رؤسائهم وضربهم بالسياط وقطع أيدى بعضهم وأخذ معه جماعة منهم وعاد الى مصر واستعمل على برقة عاملا فلما دخل لؤلؤ القاهرة بعسكره خلع عليه ابن طولون خلعة فيها طوقان من ذهب فوضعهما فى عنقه وركب فى موكب حافل وأمامه الغنائم والأسرى وطاف المدينة فكان يوما مشهودا * واتفق أن مات فى هذه السنة أيضا أماجور مقطع دمشق فتولى ابنه مكانه وجاء الخبر بذلك الى ابن طولون فتاقت نفسه الى أخذ الشام وضمها الى ديار مصر فكتب الى ابن أماجور يذكر له أن الخليفة المعتمد على الله قد أقطعه الشام وسائر

الثغور ويسأله النزول على حكمه فأجابه ابن أماجور بالسمع والطاعة اذ كان يرى أن لا قبل له على مخالفته فسار ابن طولون في عسكر عظيم الى الشام واستخلف بمصر ولده العباس فلقيه ابن أماجور بالرملة فأقره عليها وسار الى دمشق فملكها وأقر قواد أماجور على أقطاعهم وسار الى حمص فملكها وملك كذلك حماة وحلب وكان المتولى على أنطاكية يومئذ سيما الطويل فراسله ابن طولون يدعوه الى طاعته ليقره على ولايته فامتنع فعاوده فلم يطعه فسار اليه وحاصر أنطاكية وشدد في حصارها وكان سيما المذكور سيئ السيرة مع أهل البلد فكاتبوا ابن طولون ودلوه على عورة البلد فنصب عليه المجانيق وقاتله فملك البلد عنوة والحصن الذى له فركب سيما وقاتل قتالا شديدا حتى قتل ولم يعلم به أحد فاجتاز بجثته بعض قواده فعرفها فحمل رأسه الى ابن طولون فساءه قتله ورحل عن أنطاكية الى طرسوس فدخلها وعزم على المقام بها وملازمة الغزاة فلم يتمكن من ذلك لغلاء الاسعار وقلة المأكول بها وقد ضاقت البلد عنه وعن عسكره فركب أهلها اليه بالخيم وقالوا له قد ضيقت بلدنا وأغليت أسعارنا فاما أقمت في عدد يسير واما رحلت عنا وأغلظوا له في القول وشغبوا عليه فقال ابن طولون لاصحابه لتنهزموا من الطرسوسين وترحلوا عن البلد ليظهر للناس وخاصة العدو أن ابن طولون على بعد صيته وكثرة عسكره لم يقدر على أهل طرسوس وانهزم عنهم ليكون أهيب لهم في قلب العدو وعاد الى الشام فأتاه الخبر أن ولده العباس الذى استخلفه بمصر قد شق عصا الطاعة وأخذ الاموال وسار الى برقة مشاققا لابيه فلم يهمه ذلك ولم يزعجه وقضى أشغاله وحفظ أطراف بلاده وترك عسكرا بحران وكذلك بالرقة مع غلامه لؤلؤ وكانت حران يومئذ لمحمد بن أتامش وكان بطلا شجاعا مقداما فأخرجه ابن طولون عنها وهزمه شر هزيمة فاتصل خبر ما جرى له بأخيه موسى بن أتامش وكان بطلا كذلك شديد المراس فجمع عسكرا عظيما وسار نحو حران وبها عسكر ابن طولون ومقدمهم أحمد بن جيعويه فلما اتصل به خبر مجىء موسى بن أتامش أقلقه ذلك وأزعجه ففطن له رجل من الاعراب يقال له أبو الاغر فقال أيها الامير أراك مفكرا منذ أتاك خبر ابن أتامش وما هذا محله فانه طياش قلق ولو شاء الامير أن آتيه به أسيرا لفعلت فغاظه قوله وقال قد شئت أن تأتى به أسيرا قال فاضمم الىّ عشرين رجلا أختارهم قال افعل فاختار عشرين رجلا وسار بهم الى عسكر موسى فلما قاربهم كمن بعضهم وجعل بينهم وبينه علامة اذا سمعوها ظهروا ثم دخل المعسكر في الباقين في زى الاعراب وقارب مضارب موسى وقصد خيلا مربوطة فأطلقها هو وأصحابه فيها فنفرت وصاح هو ومن معه من الاعراب وأصحاب موسى غارون وقد تفرق بعضهم في حوائجهم فانزعج العسكر وركبوا وركب موسى فانهزم أبو الاغر بين يديه فتبعه حتى أخرجه من المعسكر وجازبه الكمين فنادى أبو الاغر بالعلامة التى بينهم فثاروا من النواحى وعطف أبو الاغر على موسى فأسروه فأخذوه وساروا به الى ابن جيعويه فسيره الى ابن طولون فاعتقله وعاد الى مصر وجعل يدبر الحيلة للقبض على ولده العباس فعلم أنه انما خرج عن الطاعة باغراء جماعة من أصحابه وقد حسنوا له أخذ الاموال

والخروج الى برقة ففعل ذلك ووصل برقة فى ربيع الاول من السنة فأرسل اليه أبوه يلاطفه ويستعطفه فلم يرجع وخاف من كان مع العباس من ابن طولون فأشاروا على العباس بقصد افريقية فسار اليها وكاتب وجوه البربر فأتاه بعضهم وامتنع بعضهم وكتب الى ابراهيم ابن الاغلب يقول ان أمير المؤمنين الخليفة المعتمد على الله قد قلدنى أمر افريقية وأعمالها وسار حتى أتى حصن لبدة ففتحه أهله له فعاملهم أسوأ معاملة ونهبهم فمضى أهل الحصن الى الياس بن منصور والناقوسى مقدم الاباضية واستغاثوا به فكبر هذا الامر عليه وأعظمه جدا وسار فى لوم عظيمة لقتال العباس وكان ابراهيم بن الاغلب قد سير الى عامل طرابلس جيشا عظيما ورسم له بقتال العباس أيضا فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا عنيفا قاتل فيه العباس بيده فلما كان الغد وافاهم الياس بن منصور الاباضى فى اثنى عشر ألفا من الاباضية فاجتمع هو وعامل طرابلس على قتال العباس فقتل من أصحاب العباس خلق عظيم وانهزم شر هزيمة وكاد يسقط فى يد الياس ونهبوا سواده وجميع ما حمله من مصر فعاد الى برقة وهو فى أسوء حال * وجاء الخبر الى مصر بانهزامه فاغتم أبوه غما شديدا وسير اليه عسكرا لما علم بسلامته فقاتلوه قتالا صبر فيه الفريقان فانهزم العباس ومن معه وكثر القتل فى أصحابه وأخذ العباس أسيرا وحمل الى أبيه فحبسه فى حجرة فى داره الى أن قدم باقى الأسرى من أصحابه فلما تكاملوا أتى بهم بين يدى ابن طولون وبينهم العباس فأمر ابن طولون ولده العباس أن يقطع أيدى أعيانهم وأرجلهم ففعل ولم يتأخر خوفا من أبيه فلما فرغ من ذلك نظر اليه أبوه نظرة الاسف ووبخه وذمه وقال هكذا يكون الرئيس والمقدم لقد كان الاجدر بك أن تلقى بنفسك بين يدىّ وتطلب الصفح عنك وعنهم فيكون أعلى لمحلك من القلوب وتكون قد قضيت حقهم فيما أعانوك وفارقوا أوطانهم لاجلك ثم أمر به فضرب مائة مقرعة ودموعه تجرى على خده رقة لولده ثم رده الى الحجرة واعتقله

وأما الخليفة المعتمد على الله فانه بايع بالخلافة لابنه جعفر وسماه المفوض الى الله وكان المعتمد قد آثر اللذة فغلبت عليه وغلب أخوه أبو أحمد الموفق على الامور كلها كما تقدم ثم لم يلبث أن حصر المعتمد وحبسه فكان أول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به فلما اشتد به الحال وزاد به الضيق هرب وسار الى حديثة الموصل فسير أبو أحمد الموفق صاعدا الى سامرا وكتب الى اسحق بن كنداج فرده من الموصل واستفحل أمر الخلاف بين المعتمد وأخيه الموفق فتطرق الخلل الى مقام الخلافة وكادت تزول هيبتها وتنفصم عروتها وتحرك عقيب ذلك أيضا بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة وتمذهبوا بمذهب دعاهم اليه رجل كان قدم مرض بقرية من سواد الكوفة فأخذه رجل من أهل القرية اسمه كرميتة ومعناه باللغة النبطية أحمر العينين فلما عوفى من مرضه دعا باسمه ثم اختصر الى أن قالوا قرمط ثم كان من قرمط هذا أنه دعا قوما من السواد والبادية ممن لا يدينون بشئ الحديثه فأجابوه اليه * قال بعض الكتاب والمعروف من مذهبهم وتعليمهم أنه جاء بكتاب فيه * بسم الله الرحمن الرحيم يقول الفرج بن



عثمان وهو من قرية يقال لها نصرانة انه داعية المسيح وهو عيسى وهو الكلمة وهو المهدى وهو أحمد بن محمد بن الحنفية وهو جبريل * وذكر أن المسيح تصور بجسم انسان وقال له انك الداعية وانك الحجة وانك الناقة وانك الدابة وانك يحيى بن زكريا وانك روح القدس وعرفه أن الصلاة أربع ركعات ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان بعد غروبها وان الاذان فى كل صلاة أن يقول المؤذن الله أكبر ثلاث مرات أشهد أن لا اله الا الله مرتين أشهد أن آدم رسول الله أشهد أن نوحا رسول الله أشهد أن ابراهيم رسول الله أشهد أن موسى رسول الله أشهد أن عيسى رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله * كل ذلك مرة وأن القبلة الى بيت المقدس والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيها شئ وأن يقرأ فى كل ركعة الاستفتاح المنزل على أحمد بن محمد بن الحنفية وهو * الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه المتخذ لاوليائه بأوليائه قل ان الاهلة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام وباطنها لاوليائى الذين عرفوا عبادى سبلى اتقونى يا أولى الالباب أنا الذى لا أسأل عما أفعل وأنا العليم الحكيم وأنا أبلو عبادى وأمتحن خلقى فمن صبر على بلائى ومحنتى واختبارى أدخلته فى جنتى وأخلدته فى نعيمى ومن زال عن أمرى وكذب رسلى أخلدته مهانا فى عذابى وأتممت أجلى وأظهرت أمرى على ألسنة رسلى * أنا الذى لم يعل علىّ جبار الا وضعته ولا عزيز الا أذللته وبئس الذى أصرّ على أمره ودام على جهالته وقال لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين أولئك هم الكافرون * ثم يركع * ومن شرائعه أن يصام يومان فى السنة وهما المهرجان والنيروز وحرّم النبيذ وحلل الخمر ومنع أكل ذى ناب وذى مخلب وقال لا غسل بعد جنابة والوضوء كوضوء الصلاة وغير ذلك من الاحكام والنواهى

وبلغت سيطرة الموفق وتصرفه فى أمور الخلافة مبلغا عظيما جدا فعلت شهرته وكبرت هيبته فجعل يدس الدسائس بين عمال ابن طولون فى الشامات وغيرها رجاء أن يفسد عليه الامر لما علمه من تقربه الى الخليفة المعتمد وتقرب الخليفة اليه ودس الى لؤلؤ غلام ابن طولون وفى يده يومئذ حمص وقنسرين وحلب وديار مضر من الجزيرة لخرج عن طاعة مولاه وسار الى بالس فنهبها وكاتب الموفق فى المسير اليه واشترط شروطا فأجابه اليها وكان بالرقة فسار الى الموفق ونزل قرقيسا وبها ابن صفوان العقيلى فحاربه وأخذها منه وسلمها الى أحمد ابن مالك بن طوق وسار الى الموفق فوصل اليه وهو يقاتل الخبيث العلوى وجاء الخبر بذلك الى ابن طولون فأهمه جدا وأكبره للغاية وجعل يدبر على الموفق وكاتب المعتمد سرا فى أمر الموفق ومايفعله وكان المعتمد قد ضجر وصغرت نفسه مما يلاقيه من الموفق اذلم يكن له من الخلافة غير اسمها ولا ينفذ له توقيع لا فى قليل ولا فى كثير وكان الحكم كله للموفق والاموال تجبى اليه فكتب المعتمد الى ابن طولون يعلمه بمقدمه عليه بمصر فأشار عليه ابن طولون باللحاق به ووعده النصرة وسير عسكرا الى الرقة ينتظر وصول المعتمد اليهم فاغتنم المعتمد غياب

الموفق

الموفق عنه فسار فى جمادى الاولى ومعه جماعة من القواد فأقام بالكحيل يتصيد فلما صار الى
على اسحق بن كنداجيق وكان عامل الموصل وعامة الجزيرة وثب ابن كنداجيق بمن مع المعتمد
من القواد فقبض عليهم وهم تينك وأحمد بن خاقان وخطارمش فقيدهم وأخذ أموالهم
ودوابهم وكان قد كتب اليه صاعد بن مخلد وزير الموفق فى ذلك فقبض عليهم وحملهم مع
المعتمد حتى أدخلهم سامرا وعلم الموفق بما جرى فاشتد بغضه لابن طولون ووهب لاسحق بن
كنداجيق سائر البلاد التى كانت تحت حكم ابن طولون فامتد ملك ابن كنداجيق الى أطراف
افريقية واتسعت كلمته وعلم ابن طولون بالامر فجعل يكيد للموفق وجمع اليه القضاة والعلماء
بدمشق وكلمهم فى أمر الخليفة المعتمد وما يقاسيه من الشدائد وكيف يغلب الموفق عليه ويبسط
يده على جميع الامور فلم يترك له من الخلافة الا الاسم فتقررت القاعدة بينهم على أن يذكر
الخطيب كل ذلك عند صلاة كل جمعة ويدعو الله الى نصرته ويلعن الموفق فعلم الموفق بالخبر
فأكبره وأعظمه جدا وتقدم الى الخليفة المعتمد فى لعن ابن طولون على المنابر فأجابه الى ذلك
كارها فصاروا يلعنونه على منابر العراق باللهم العنه لعنا يفل حده ويتعس جده واجعله مثلا
للغابرين انك لاتصلح عمل المفسدين * واشتد البغض بين الفريقين وجعل كل يتربص الفرص
للايقاع بصاحبه ثم عادا فتوادا وتحابا وتناسيا مافات فعادت الامور بين مصر ودار الخلافة
الى سابق مجراها وفرح الخليفة المعتمد على الله بذلك لميله الى ابن طولون وايثاره على الموفق ولم
يكن ليطمئن قلب ابن طولون بعقد الصلح مع الموفق وزوال الوحشة من بينهما حتى جاءه الخبر
بخروج يزماز وشقه عصا الطاعة فسار من فوره فى عسكر الى طرسوس لقتاله وارجاعه الى
الطاعة فلما بلغ أذنة كاتبه وراسله يستميله فلم يلتفت يزماز الى ذلك فسار اليه ابن طولون
ونازله وحصره فخرق يزماز نهر البلد على معسكر ابن طولون فكادوا يهلكون جميعا فرحل
ابن طولون مغيظا حنقا وكان الزمان شتاء وأرسل الى يزماز يقول انى لم أرحل الا خوفا أن
تخترق حرمة هذا الثغر فيطمع فيه العدو وعاد الى أنطاكية ولبث بها أياما وطلب لبنا فأتوه بشئ
من لبن الجواميس فأكثر منه فأصابته هيضة فأشار عليه طبيبه سعيد بن شيوفيل النصرانى
بالحمية أياما فلم يمتثل فكبرت الهيضة حتى صارت ذربا وكان الطبيب يعالجه وهو يأكل مايشاء
سرا فلم ينجع الدواء واشتدت علته واستعصت فكر راجعا الى مصر محلا على أعناق الرجال
ووصل الى الفرما فأنزلوه فى حراقة فى النيل فصعدت به الى الفسطاط وقد اشتدت علته
فجعل يتصدق على الفقراء والمساكين وخرج العلماء والمشايخ وبطرك المتأصلين الى المقطم
يدعون الله ويبتهلون اليه فى شفاء ابن طولون فلما كان يوم الاحد عاشر ذى القعدة سنة
سبعين ومائتين هجرية توفى فكانت امارته نحو ست وعشرين سنة وكان حازما عاقلا
كثير المعروف والصدقة متدينا وعمل كثيرا من أعمال البر ومصالح الخلق وترك من
الاموال عشرة آلاف ألف دينار ومن العبيد المزججين بالسلاح سبعة آلاف وبغير سلاح أربعة
وعشرين ألفا وشيأ كثيرا جدا من الخيل والبغال والجمال ودواب الحمل وكان يجلس للنظر



فى مظالم الرعية بنفسه ويتصدق فى كل شهر بشئ كثير من المال وكان من تولى توزيع صدقاته ابراهيم بن قراطغان فدخل عليه يوما وقال أيد الله الأمير انى أقف فى المواضع التى تفرق فيها الصدقات فتخرج لى الكف المخضوبة نقشا والمعصم الرائع فيه الحديدة والكف فيها الخاتم فقال ابن طولون ويحك كل من مد اليك يده فأعطه فهذه والله هى الطبقة المستورة التى ذكرها الله سبحانه فى كتابه فقال يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف فاحذر أن ترد يدا امتدت اليك * ومات عن ثلاثين ولدا ذكرا وثلاث عشرة أنثى وحزن عليه الخليفة المعتمد وبكاه * وكان أحمد قد عهد بالولاية من بعده الى ابنه خمارويه فتولاها فى ثانى يوم موت أبيه فى ذى القعدة وله من العمر يومئذ عشرون سنة ولقب بأبى الجيش خمارويه وجعل يتصرف فى الأمور على أحسن ما يكون من الرفق بالرعية والنظر فى الظلامات ونصرة الضعيف على القوى فأحبته الرعية ومالت اليه القلوب فلم يكن ليستقر به منصب الولاية حتى طمع فى أملاك مصر اسحق بن كنداجيق صاحب الموصل والجزيرة وكلم ابن الساج صاحب الشام فى الخروج معه على خمارويه وأخذ البلاد منه فأجابه ابن الساج الى ذلك وكاتبا الموفق بالله فى ذلك فرسم لهما بقصد البلاد ووعدهما انفاذ الجيوش فجمعا وقصدا ما يجاورهما من البلاد فاستوليا عليه وأعانهما نائب خمارويه بدمشق ووعدهما بالانحياز اليهما فرحل من بالشام من نواب خمارويه الى أنطاكية وحلب وحمص وعصى متولى دمشق المذكور واستولى ابن كنداجيق على تلك الانحاء وجاء الخبر الى خمارويه بمصر بما جرى فأكبره جدا ورسم الى من كان بدمشق من العساكر بالزحف على ابن كنداجيق واجلائه عن البلاد فطاولهم ابن كنداجيق حتى يأتيه المدد من العراق فهجم الشتاء على الفريقين وأضر بأصحاب خمارويه ضررا عظيما فتفرقوا فى المنازل بشيرز ووصل المدد من العراق الى عسكر ابن كنداجيق وعليهم أبو العباس أحمد بن الموفق وهو المعتضد بالله فسار بهم ابن كنداجيق مجدا الى عسكر خمارويه بشيرز فلم يشعروا حتى كبسهم بالمنازل ووضع السيف فيهم فقتل منهم خلقا وفر من بقى الى دمشق فساق ابن الموفق خلفهم بعسكره فجلوا عنها الى الرملة فملك ابن الموفق دمشق ودخلها فى شعبان سنة احدى وسبعين ومائتين وأقام عسكر خمارويه بالرملة وسيروا الخبر بما جرى الى خمارويه فهاله الأمر وأزعجه وخرج من فوره من مصر فى عسكر عظيم للغاية يريد الشام فلم يصل اليها حتى جاءه الخبر بوقوع الخلاف بين محمد بن أبى الساج واسحق بن كنداجيق وقد كانا على اتفاق فى الخروج عن طاعة خمارويه وكان سبب الاختلاف بينهما أن ابن أبى الساج نافر اسحق فى الأعمال وأراد أن يتقدم عليه فلم يرض اسحق بذلك وامتنع عليه فأرسل ابن أبى الساج الى خمارويه فى طلب الطاعة والرجوع الى خدمة خمارويه فأجابه خمارويه الى ذلك فخطب له ابن أبى الساج بقنسرين وسير ولده ديوداد الى خمارويه رهينة فمال اليه خمارويه وأرسل اليه مالا كثيرا له ولقواده وطلبه فحضر اليه ببالس ثم عبر ابن أبى الساج الفرات الى الرقة فلقيه ابن كنداجيق واقتتلا قتالا عنيفا فكانت الدائرة على ابن كنداجيق

وعبر

وعبر خمارويه الفرات ونزل الرقة ومضى ابن كنداجيق منهزما الى قلعة ماردين فحصره ابن أبي الساج فيها ثم سار عنها فخرج ابن كنداجيق من ماردين نحو الموصل فلقيه ابن أبي الساج وكان قد كمن له فانهزم وعاد فارا الى ماردين وقوى ابن أبي الساج وظهر أمره واستولى على الجزيرة والموصل وخطب لخمارويه فيها ثم لنفسه بعده وما زال على هذا الحال الى أن كانت سنة خمس وسبعين ومائتين خالف ابن أبي الساج وخرج عن طاعة خمارويه واستبد بالامر وقطع الخطبة لخمارويه فى أعماله كلها ووردت الاخبار بذلك الى خمارويه فسار عن مصر فى عسكر عظيم يريد الشام فلاقاه ابن أبي الساج عند ثنية العقاب بقرب دمشق واقتتلا قتالا شديدا فانهزمت ميمنة خمارويه وأحاط باقى عسكره بابن أبي الساج ومن معه فمضى منهزما واستبيح معسكره فأخذت دوابه وآلات حربه وجميع مافيه وكان ابن أبي الساج قد ترك بحمص شيأ كثيرا من الأموال والكراع وخمارويه يعلم بذلك فسير خمارويه الى حمص عسكرا فسبقوا ابن أبي الساج اليها ومنعوه من دخول البلد واستولوا على جميع ماله هنالك فمضى منهزما الى حلب ومنها الى الرقة فتبعه خمارويه بعسكره ففارق الرقة فعبر خمارويه الفرات فى أثر ابن أبي الساج فلم يدركه فسير خلفه اسحق بن كنداجيق فى عسكر عظيم وكان قد رضى خمارويه عن اسحق المذكور فكان بين اسحق وبين ابن أبي الساج أمور قد أضربنا عن ايرادها هنا خوف الاطالة

ولما كانت سنة ثمان وسبعين ومائتين هجرية مات الموفق فقام المعتضد بأمور الناس فى التدبير مكان أبيه الناصر وهو الموفق وخلع جعفر المفوّض بن المعتمد من ولاية العهد وقيل بل بايعه الناس بولاية العهد بعد المفوّض بن المعتمد وخطب له يوم الجمعة بعد المفوض وذلك لسبع ليال بقين من صفر واجتمع عليه أصحاب أبيه وولى ما كان أبوه ولاه وجعل يتصرف كما يحب ويختار فأقام اسمعيل بن بلبل فى الوزارة بعد شغب كثير كان فى مدينة السلام ثم لم يلبث أن قيد اسمعيل بن بلبل ووجه الى العباس بن أبي عبد الله بن سليمان بن وهب فأحضره وخلع عليه وردّ اليه أمر كتابته وذلك يوم الثلاثاء لثمان بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين ولم يزل اسمعيل بن بلبل يعذب بأنواع العذاب وجعل فى عنقه غلا فى رمانة حديد والغل والرمانة مائة وعشرون رطلا وألبس جبة صوف قد صبغت فى ودك الاكارع وعلق معه رأس كلب ميت فلم يزل على ذلك حتى مات فى جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين ومائتين ودفن بغله وقيوده وأمر المعتضد بضرب جميع الآنية التى كانت فى خزائنه فضربت وفرقت فى الجند

وخرج الخليفة المعتمد على الله يوما فى المحرم افتتاح سنة تسع وسبعين وجلس للقواد واستدعى القضاة والوجوه وأرباب الدولة فلما تكامل مجلسهم أعلمهم أنه خلع ابنه المفوض الى الله جعفرا من ولاية العهد وعهد بها للمعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق فأكبروا هذا الامر وأعظموه وشهدوا على المفوض أنه قد تبرأ من العهد وأسقط اسمه من السكة



والخطبة والطرز وغير ذلك فلم ينقض شهر رجب من هذه السنة حتى مرض المعتمد ومات ليلة الاثنين لاحدى عشرة ليلة بقيت منه وكان سبب موته أنه شرب يوما على الشط ببغداد شرابا كثيرا وتعشى فأكثر أيضا فمات ليلا فأحضر المعتضد القضاة وأعيان الناس فنظروا اليه وحمل الى سامرا فدفن بها وكان عمره خمسين سنة وكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر ذكره ابن الأثير ٭ وقال المسعودى فى كتابه مروج الذهب ٭ وقد كان المعتمد قعد للغداء واصطبح يوم الاثنين لاحدى عشرة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين فلما كان عند العصر قدم الطعام فقال باموشكيره للموكل به مافعلت الرؤس بأرقابها وقد كان قدّم من الليل أن يقدّم له رأسا جملين وقد فصل فيهما رقابهما فقدمتا وكان معه على المائدة رجل من ندمائه يعرف بقف الملقم ورجل آخر يعرف بخلف المضحك فأول من ضرب بيده الى الرؤس الملقم فانتزع أذن واحدة منها وأما المضحك فانه يقتلع الهازم والاعين فأكلوا وأكل المعتمد وأتموا يومهم فأما الملقم صاحب اللقمة الأولى فانه تهرى فى الليل وأما المضحك فانه مات قبل الصباح وأما المعتمد فانه أصبح ميتا وقد لحق بالقوم ودخل اسمعيل بن حماد القاضى على المعتضد وعليه السواد فسلم عليه بالخلافة وكان هو أول من سلم عليه بها وحضر الشهود منهم أبو عوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول حتى أشرفوا على المعتمد ومعهم بدر غلام المعتضد يقول هل ترون به من بأس أو أثر مات فجأة وقتلته مداومته على شرب النبيذ فنظروا اليه فاذا ليس به من أثر فغسل وكفن وحمل فى تابوت أعدّ له الى سامرا فدفن بها وذكروا أيضا أن سبب موته أنه سق نوعا من السم فى شرابهم الذى كانوا يشربونه وهو نوع يقال له البيش يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والتبت وربما وجد فى سنبل الطيب وهو ألوان ثلاثة

ومات فى خلافة المعتمد سانيوتيو بطرك الاسكندرية بعد أن أقام احدى عشرة سنة فأقيم بعده خائيل وهو سادس خمسيهم واشتدّ أحمد بن طولون فى أيامه على خائيل المذكور شدّة بليغة وألزمه بحمل عشرين ألف دينار ٭ وكان سبب ذلك أن أسقفا اسمه سكا كانت بكنيسة الاسكندرية فزاغ عن الأمانة المستقيمة وظهرت له تعاليم جديدة فاستتابه خائيل البطرك المشار اليه فلم يتب فنهاه فلم ينته فخلعه وأبعده عن الكنيسة فمضى الأسقف المذكور الى ابن طولون ووشى فى حق البطرك وبالغ فى الوقيعة فيه وقال لابن طولون انلدى البطرك من الأموال والتحف والنفائس ما لايدخل تحت الحصر وكان ابن طولون فى ذلك الحين فى حاجة الى المال النفقة على العسكر الذاهب الى الشام لرد الخوارج فسير ابن طولون فى الحال فى طلب خائيل البطرك فلما تمثل بين يديه طلب منه عشرين ألف دينار نقرة فاعتذر البطرك وقال من أين يكون لى هذا المال وأنا انما أعيش من صدقات أهل البر وحسنات ذوى البيوتات فشدّد ابن طولون فى الطلب وبالغ فى التشديد ثم أمر بخائيل البطرك فألقوه فى السجن هو وتلميذه ابن المنذر فمضى عليهما حول وهما معتقلان وكان لابن طولون ديوانى اسمه موسى وله ولدان هما

يوحنا

يوحنا وابراهيم فتقدما الى ابن طولون فى كفالة البطرك فى وفاء المال المطلوب بشرط الافراج عنه ليتمكن من جمعه فأجابهما ابن طولون الى ذلك وأطلق البطرك وتلميذه وضرب للوفاء أجلا فجعل خائيل يبيع جميع متاع الكنائس الموقوفة عليها وباع كذلك أرض الحبش بظاهر الفسطاط والكنيسة الكائنة بجوار المعلقة من قصر الشمع لليهود وهى باقية فى تصرفهم الى هذا اليوم وقرر الديارية على كل واحد من القبط قيراطا فى السنة فلم يقم مع هذا كله الا بنصف القرر عليه فانكمش فى كنيسة العذراء بالمعلقة فعاد ابن طولون وقبض عليه وألقاه فى السجن فلم يمض على ابن طولون بعد ذلك الا أيام قلائل حتى مات وخلفه ابنه خماروبه وكان خماروبه يعلم بأصل الفتنة وأن خائيل البطرك بريء مما اتهم به فأطلق سبيله وكف عن مطالبته بشئ بعد الذى أداه فعد على خماروبه هذا حسنة من حسناته الكثيرة

(الفصل السادس عشر)

(فى خلافة ابى العباس احمد المعتضد بالله بن الموفق)

ثم قام بالامر بعد المعتمد ابن أخيه أبو العباس أحمد المعتضد بالله بن الموفق بالله بويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه عمه المعتمد على الله وهو يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين للهجرة أى نحو سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة للميلاد * فلما أفضت الخلافة اليه واستوثق له الامر سكنت الفتنة وصلحت شؤن البلاد فارتفعت الحروب ورخصت الأسعار وهدأ الهرج وسالمه كل مخالف ودانت له الأمور وانفتح له الشرق والغرب وأديل اليه أكثر المخالفين له والمنابذين لطاعته وأقر عبيد الله بن سليمان على وزارته ومازال عبيد الله وزيرا حتى مات فاستوزر بعده القاسم ابنه وولى غلامه بدرا الشرطة ومحمد بن الشاه بن مالك الحرس

وفى السنة التى تولى الخلافة فيها المعتضد قدم الحسن بن عبد الله المعروف بابن الجصاص رسولا من مصر لخماروبه بن أحمد بن طولون ومعه هدايا كثيرة وأموال جليلة فوصل الى المعتضد فخلع عليه وعلى سبعة نفر معه ثم سعى فى تزويج ابنة خماروبه المسماة قطر الندا من على المكتفى فقال المعتضد انما أراد أن يتشرف بنا وأنا أزيد فى تشريفه أنا أتزوجها فتزوجها وتولى ابن الجصاص أمرها وحمل جهازها فيقال انه حمل معها جواهر لم يجتمع مثلها عند خليفة قط فاقتطع ابن الجصاص بعضه وأعلم قطر الندا أن ما أخذ مودع لها عنده الى وقت حاجتها اليه فماتت والجوهر عنده فكان ذلك سبب غناه واستغلاله قيل وكان ما كان لابن الجصاص من بعد ذلك فى أيام المقتدر من المحن والقبض عليه وما أخذ منه من الأموال

بهذا السبب وغيره * وحمل المعتضد صداق قطر الندا وهو بمدينة بلد الى أبى الجيش وكان
الصداق ألف ألف درهم وغير ذلك من المتاع والطيب ولطائف الصين والهند والعراق وكان
مما خص به أبا الجيش فى نفسه وحباه به بدرة من الجوهر الثمين فيها در وياقوت وأنواع من
الجوهر ووشاح وتاج واكليل وقيل قلنسوة وكردف وكان وصولهم الى مصر فى رجب سنة
ثمانين ومائتين وانحدر المعتضد من مدينة بلد والموصل بعد أن حمل ماوصفنا الى مدينة السلام
فى البحر * فلما اطمأن قلب أبى الجيش خمارويه بمصاهرة الخليفة المعتضد عكف على اللهو
والترف فبنى القصور العالية والميادين الفسيحة وأقبل على قصر أبيه فزاد فيه وجعل ميدانه
بستانا وغرس فيه أنواع الرياحين والشجر المطعم العجيب وأنواع الورد والزعفران والنخيل
والأعناب وكسا أجسام النخيل بالنحاس المذهب وجعل بين النحاس وأجسام النخيل مزاريب
الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر وغرس فيه الريحان على نقوش وأشكال غريبة وكتابات
مكتوبة يتعاهدها البستانى بالمقراض حتى لاتزيد ورقة على ورقة وبنى فى البستان برجا
من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الاقفاص وسرح فيه من أنواع القمارى
والدباسى والزرزورات وكل طائر مستحسن حسن الصوت وسرح فى البستان من الطير العجيب
مثل الطاوس ودجاج الحبش ونحوها وعمل فى داره مجلسا سماه بيت الذهب قد طلى حيطانه
كلها بالذهب المحلول باللازورد على أحسن نقش وجعل فى حيطانه صورا بارزة من خشب
مصنوع على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتى تغنينه بما عليهن من الحلى والزينة
والثياب بألوانها ولم يعرف ملك قط تقدم خمارويه فى عمل مثل هذا البستان * واشتكى يوما
الى طبيبه مما يلاقيه من الارق فأشار عليه بالتمريز فأنف من ذلك فأشار بعمل بركة من زئبق
فعملها خمسين ذراعا فى خمسين وملأها من الزئبق وجعل فى أركان البركة سككا من الفضة
الخالصة وجعل فى السكك زنانير من حرير فى حلق من الفضة وعمل فراشا من أدم يحشى بالريح
حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التى فى حلق الفضة
بسكك الفضة وينام على هذا الفراش فلايزال هذا الفراش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق مادام
عليه * ولم يعش على مصاهرة أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون للمعتضد سوى نحو
عامين حتى ذبح أبوالجيش فى دمشق فى ذى القعدة سنة اثنتين وثمانين وقد كان بنى فى سفح
الجبل أسفل من دير مروان قصرا وكان يشرب فيه فى تلك الليلة وعنده طغج التركى وكان
الذى تولى ذبحه غلاما من خدمه وحمل أبو الجيش فى تابوت الى مصر فلما وصلها أخرج من
التابوت وجعل على السرير وذلك على باب مصر وخرج ولده الأمير جيش وسائر الامراء
والأولياء وتقدم القاضى أبو عبيد الله محمد بن عبدة المعروف بالعبدانى وصلى عليه وذلك
فى الليل * حكى أبو بشر الدولابى عن أبى عبد الله الحضارى وكان شيخا من أهل العراق
وكان يقرأ فى دور آل طولون ومقابرهم أنه بات فى تلك الليلة مع من يقرأ عند القبر وقد

فدّم أبو الجيش ليدلى فى القبر ونحن نقرأ وجماعة من القراء سبعة سورة الدخان فأحدر من السرير ودلى فى القبر وانتهينا من السورة فى هذا الوقت الى قوله عز وجل * خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق انك أنت العزيز الكريم * قال فخفضنا أصواتنا وأذعرنا حياء ممن حضر اه

وكانت مدة ولاية خمارويه اثنتى عشرة سنة وثمانية عشر يوما فقام بالامر بعده ولده جيش تولى الملك ثانى يوم وفاة أبيه فلم تستقم له الامور وشاغب القوّاد عليه لحداثة سنه واحتقره الجند وكادت تخرج عليه عمال البلاد الشامية وغيرها من بقية العمالات التابعة لمصر وعصاه ابن طغج بن جف والى الشام ولم يبايع له وكان سبب ذلك أنه لما ولى اجتمع اليه الاحداث والسفل فأخلد الى استماع أقوالهم فأفسدوا بينه وبين قوّاده وأصحابه فجعل يذمهم جهارا ويظهر العزم على استبدالهم ثم قطع أعطية بعضهم وأخذ نعمهم فلما اشتدّ بهم الحال اتفقوا على قتله وأن يقيموا عمه بدله فبلغه خبر ذلك فلم يقدر على كتمانه وأطلق لسانه فيهم ففارقه بعضهم وساروا الى بغداد وتقدموا الى الخليفة المعتضد فخلع عليهم وأحسن اليهم وبقى الجند على خلافهم لابن خمارويه وأحاطوا بقصره يوما يريدون خلعه وشددوا فى الطلب فسألهم كاتبه علىّ بن أحمد المردانى أن ينصرفوا يومهم ذلك فانصرفوا فأرسل ابن خمارويه فى الحال جماعة فقبضوا على اثنين من عمومته وقتلوهما وأصبح الجند وقد اجتمعوا حول القصر يريدون خلعه فلما تكامل حضورهم رمى بالرأسين اليهم فهاجوا وماجوا وهجموا على القصر ودخلوا على ابن خمارويه فقتلوه ونهبوا داره وعاثوا فى البلد فنهبوا ماقدروا على نهبه ثم أحرقوها فكان المنظر مرعبا والخطب شديد النكاية ثم أتوا بأخيه هرون وولوه الامرة فكانت ولاية جيش تسعة أشهر لاغير * وجعل هرون يتصرف فى الامور فغلب عليه هواه ولم يمض على ولايته الا القليل حتى افتتن الناس وظهر بغضهم له فاختل نظام الدولة وانعكست الامور على هرون وطمع الولاة والعمال فى الاستقلال وبلغ المعتضد خبر هذا كله فتاقت نفسه الى استرداد سائر المدن والبلدان التى كان ابن طولون قد ضمها الى ديار مصر وسار فى عسكر عظيم أولا الى أجيدة فأطاعه صاحبها محمد بن أحمد بن عيسى بن شيخ وعاهده على الوفاء ثم سار عنها الى قنسرين فملكها ووردت الأخبار بذلك الى هرون فكاد يسقط فى يده وسير الى المعتضد يستعطفه ويسترضيه بعد أمور وعهود وجعل يعمل على تسكين القلاقل والفتن جهد الاستطاعة فلم يتم له كل ما أراد وكان من أمره ما سيذكر فى خلافة المكتفى بالله بن المعتضد

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين ومائتين أمر المعتضد بالكتابة الى جميع الأعمال والبلاد كلها بترك افتتاح الخراج فى النيروز الفارسى وتأخير جبى الخراج الى الحادى عشر من حزيران وسماه بالنيروز المعتضدى وأنشئت الكتب بذلك من الموصل والمعتضد يومئذ بها قالوا وانما أراد بذلك الترفيه على الناس والرفق بهم وكتب أيضا الى جميع البلدان برد الفاضل من سهام المواريث الى ذوى الارحام وأبطل ديوان المواريث ففرح الناس بذلك



وصدحوه ثم نزل فى سنة ثلاث وثمانين ومائتين الى تكريت وسار الحسن بن حمدان فى
الاولياء لحرب هرون الشارى فكانت بينهم حروب عظيمة كانت للحسن بن حمدان عليه فأتى
به الى المعتضد أسيرا بغير أمان ومعه أخوه فدخل المعتضد بغداد وقد نصبت له القباب وزينت
له الطرقات وعبى المعتضد جيوشه بباب الشماسية على أحسن مايكون من التعبية وأكمل
هيئة ثم خلع على الحسن بن حمدان خلعا شرفه بها وطوقه بطوق من ذهب وخلع على
جماعة من فرسانه ورؤساء أصحابه وأهله وشهرهم فى الناس كرامة لما كان من فعلهم وحسن
بلائهم ثم أمر بالشارى فاركب فيلا وعليه دراعة ديباج وعلى رأسه برنس خز طويل
وخلفه أخوه على جمل وعليه دراعة ديباج وبرنس خز وسيرهم فى أثر الحسن بن حمدان
وأصحابه ثم دخل المعتضد فى أثره عليه قباء أسود وقلنسوة محدودة على فرس ضاف وعن
يساره أخوه عبد الله الموفق وخلفه بدر غلامه وأبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب
وزيره وابنه القاسم بن عبد الله فأكثر الناس من الدعاء له وتكاثف الناس فى منصرفهم من
الجانب الشرقى الى الجانب الغربى فانخسف بهم كرسى الجسر الأعلى وسقط على زورق مملوء
ناسا فغرق فى هذا اليوم نحو من ألف نفس ممن عرف دون من لم يعرف واستخرج الناس
من دجلة بالكلاليب والغواصة وارتفع الضجيج وكثر الصراخ من الجانبين فبينما الناس على
هذا الحال من الصراخ والعويل اذ أخرج بعض الغواصة صبيا عليه حلى فاخرة من ذهب
وجوهر فبصر به شيخ من النظارة طرار فجعل يلطم وجهه حتى دمى أنفه ثم تمرغ على
التراب وأظهر أنه ابنه وجعل يقول ياسيدى لم تمت اذ أخرجوك صحيحا سويا لم يأكلك
السمك ولم تمت حبيبى اذ كلت عينى بك مرة قبل الموت وأخذه فحمله على حمار ثم مضى به
فما برح القوم الذين رأوا من الشيخ مارأوا حتى أقبل رجل معروف باليسار مشهور من
التجار حين بلغه الخبر وهو لايشك الا أن الصبى فى أيديهم وليس يهمه ما كان عليه من حلى
وثياب وانما أراد أن يكفنه ويصلى عليه ويدفنه فأخبره الناس بالخبر فبقى هو ومن معه من
التجار متعجبين مبهوتين وسألوا عنه واستبحثوا فاذا لاعين ولا أثر وعرف تواتوا هذا الجسر
هذا الشيخ المحتال فأيأسوا أبا الغريق منه وذكروا أنه شيخ قد أعياهم أمره وحيرهم كيده
وانه بلغ من حيله وخبثه ودهائه أنه أتى يوما من أول الصباح الى باب بعض العدول الكبار
المشهورين بالرياسة واليسار ومعه جرة فارغة على عاتقه وفأس وزنبيل فقام فى ثوب خلق
ولم يتكلم حتى وضع الفأس فى الدكاكين التى على باب ذلك العدل فهدمها وجعل ينقى
الآجر ويعزله فسمع ذلك العدل بهدمها ووقع الفأس والهدم فخرج لينظر فاذا الشيخ دائب
يهدم دكاكينه التى على باب داره فقال ياعبد الله أى شئ تصنع ومن أمرك بهذا فجعل
الشيخ يعمل عمله ولا يلتفت الى العدل ولايكلمه فاجتمع الجيران وهما فى المحاورة فأخذوا بيد
الشيخ فوكزه هذا ودفعه هذا فالتفت اليهم فقال ويلكم أى شئ تريدون منى أما تستحيون
تعبثون بى وأنا شيخ كبير فقالوا مالنا والعبث بك ويحك من أمرك بهذا قال ويحكم أمرنى

صاحب

صاحب الدار فقالوا هــذا صاحب الدار بكلمك قال لا والله ماهــذا صاحب الدار فلما سمعوا كلامه وغلفته رحوه وقالوا هــذا مجنون أو مخدوع خدعه بعض جيران هذا العدل ممن قد حسده على ماأنعم الله تعالى به عليه وهم الذين حملوا هــذا الشيخ على هذا الفعل فلما منعوه من الهدم مضى الى الجرة التى جاء بها وقــد كان وضعها الى جانب الباب فأدخـل يده فيها كأنه قد خبأ ثيابه فيها فصرخ وبكى فلم يشك العدل أن محتالا خدعه وأخذ ثيابه فقال وأى شئ ذهب لك قال قيص جديد اشــتريته أمس وملحفة لبيتى وسراويل فرقوا له جميعا ودعاه العدل فكساه ووهب له دراهم كثــيرة ووهب له الجيران دراهم كثيرة وانصرف غانما وهــذا الشيخ كان يعرف بالعقاب ويكنى بأبى البازولهأخبار عظيمة وحيل عجيبة * قال بعض الكتاب وهذا الشيخ هو الذى احتال للمتوكل حين بايعه بختيشوع الطبيب أنه ان سرق من داره شئ يعرفه فى ثلاث ليال ذكرت من ذلك الشهر فعليــه أن يحمل الى خزانة أمير المؤمنين عشرة آلاف دينار وان خرجت هذه الليالى ولم يتم عليه ماذكر فله الضيعة المعين ذكرها فى المبايعة فأتى بهذا الشيخ فى عنفوان شــبابه الى المتوكل فضمن للمتوكل أن يأخــذ من دار بختيشــوع شيأ لاينكره وقد كان بختيشوع حرس داره وحصنها فى هذه الليالى فاحتال العقاب المــذكور بحيل لطيفة الى أن سرق بختيشوع نفسه وجعله فى صندوق وأتى به المتوكل فى خبر ظريف وانه رسول لعيسى بن مريم نزل الى بختيشوع بشمع أسرجــه وتخليط عمله وبنج فى طعام اتخذه وأطعمه الحراس اداره فى تلك الليلة الى آخر القصة مما لاحاجة لايرادها هنا

وكان المعتضد حازما كيسا كثيرالحساب حكى عبد الله بن حمدون وكان من ندماء المعتضد وخاصته ومن كان يأنس به فى الخلوة انه أمر أن ينقص من مرتب حشمه ومن كان يجرى عليه من الاتراك من كل رغيف أوقية وان يبتدأ بأمر خبزه لان الوصائف عددا من الرغفان فيها ثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك قال ابن حمدون فتعجبت من ذلك فى أول أمره ثم تبينت القصــة فاذا انه يتوفر من ذلك فى كل شهر مال عظيم * وتقدم الى خانه أن يختار له من الثياب التسترية والدبيقية أحسنها لتقطيعها لنفسه وكان مع ذلك قليل الرحمة كثير الاقدام سفا كا للدماء شديد الرغبة فى أن يمثل بمن يقتله وكان اذا غضب على القــائد النبيل والذى يختصــه من غلمانه أمر أن تحفــر له حفرة ثم يدلى على رأســه فيها ويطرح الـتراب عليه ونصفه الاسفل ظاهر على التراب ويداس التراب فلا يزال كذلك حتى تخرج روحه من دبره وذكر من عــذابه أنه كان يأخــذ الرجــل فيكتف ويقيــد ويؤخــذ القطن فيحشى فى أذنه وخيشومه وفمه وتوضع المنافخ فى دبره حتى ينتفخ ويعظم جسمه ثم تسد دبره بشئ من القطن ثم يفصد وقد صار كالجمل العظيم من العرقين المعروفين فوق الحاجبين فتخرج النفس من ذلك الموضع وربما كان يوضع الرجــل فى أعــلى السطح مجردا موثقا ويرمى بالنشاب حــتى يموت واتخــذ المطامير وجعــل فيها أصناف العذاب وجعل عليها الحربى المتولى لعــذاب الناس ولم يكن له رغبة الا فى النساء والبناء فانه أنفق على قصره المعروف بالثريا أربعمائة ألف دينار وكان طول قصره المعروف بالثريا ثلاثة فراسخ



وبما ذكر من حزمه فى الأمور وحيله وصبره أنه أطلق يوما من بيت المال لبعض الرسوم فى
الجند عشر بدر فحملت الى منزل صاحب عطاء الجيش ليصرفها فيهم فنقب منزله فى تلك الليلة
وأخذت العشر بدر فلما أصبح الصباح نظر الى النقب ولم ير المال فأمر باحضار صاحب الحرس
وكان على الحرس يومئذ مؤنس الفحل فلما أتاه قال له ان هذا المال للسلطان والجند ومتى لم
تأت به أو بالذى نقبه وأخذ المال ألزمك أمير المؤمنين غرمه فجد فى طلبه وطلب اللص الذى
جسر على هذا الفعل فسار الى مجلسه وأحضر التوابين والشرط ٭ والتوابون هم شيوخ من
أنواع اللصوص الذين كبروا وتابوا فاذا جرت حادثة علموا من فعلها فدلوا عليه وربما قاسموا
اللصوص ما سرقوه ٭ فتقدم اليهم فى الطلب وتهددهم وأوعدهم وطالبهم فتفرق القوم
فى الدروب والأسواق والفرق والمواخير ودكاكين الرواسين ودور القمار فما لبثوا أن أحضروا
رجلا نحيفا ضعيف الجسم رث الملابس هين الحالة فقالوا ياسيدى هذا صاحب الفعلة وهو
غريب من غير هذا البلد وأطبق القوم كلهم على أنه صاحب النقب ولص المال فأقبل عليه
مؤنس الفحل فقال ويلك من كان معك ومن أعانك وأين أصحابك ما أظنك تقدر على عشر بدر
وحدك فى ليلة ما كنتم الا عشرة وأقل ذلك خمسة فأقر لى بالمال ان كان مجتمعا وعلى أصحابك
ان كان المال قد قسم فما زاده على الانكار شيأ فأقبل يترفق به ويعده أن ينيبه ويرزقه ويعظم
جائزته ويعده بكل جميل على رده والاقرار به ويتوعده بكل مكروه على جحوده وانكاره فلما فاته
ذلك وأنكره ويئس من اقراره أخذ فى عقوبته ومساءلته فضربه بالسوط والقلاوس والمقارع
والدرة على ظهره وبطنه وقفاه ورأسه وأسفل رجليه وكعابه وعضله حتى لم يكن الضرب فيه
موضع وبلغ به ذلك الى حالة لا يعقل فيها ولا ينطق فلم يقر بشئ فبلغ ذلك الخليفة المعتضد
فأرسل فأحضر صاحب الجيش فقال له ما صنعت فى المال فأخبره الخبر فقال له ويلك تأخذ
لصا قد سرق من بيت المال عشر بدر فتبلغ به الموت والتلف حتى يهلك الرجل ويضيع المال
فأين حيل الرجال فأتى به وقد حمل فى جل فوضع بين يديه وقد عقل فسأله فأنكر فقال له
ويلك ان مت لم ينفعك وان برئت من هذا الضرب لم أدعك تصل اليه فلك الأمان والضمان
على ما تصلح به حالتك وتحمد به أمرك فأبى الا الانكار فقال علىّ بأهل الطب فأحضروا
فقال خذوا هذا الرجل اليكم فعالجوه بأرفق العلاج وواظبوا عليه بالمراهم والغذاء والتعاهد
واجتهدوا أن تبرئوه فى أسرع وقت فأخذوه اليهم وأخرج مالا مكان المال وأمر بتفريقه على
الجند فيقال انه برئ وصلح فى أيام يسيرة ثم واظبوا عليه بالطعام والشراب والوطاء والطيب
حتى صح وقوى جسمه وظهر لونه ورجعت اليه نفسه ثم ذكر به فأمر باحضاره فلما حضر
بين يديه سأله عن حاله فدعا وشكر وقال أنا بخير ما أبقى الله أمير المؤمنين ثم سأله عن المال
فعاد الى الانكار فقال له ويلك لست تخلو من أن تكون أخذته وحدك كله أو وصل اليك
بعضه فان كنت أخذته كله فانك تنفقه فى أكل وشرب ولهو ولا أظنك تفنيه قبل موتك
وان مت فعليك وزره وان كنت أخذت بعضه سمحنا لك به فأقر على أصحابك فانى أقتلك ان

لم تقر ولا ينفعك بقاء المال بعدك ولا يبالى أصحابك بقتلك ومتى أقررت دفعت اليك عشرة
آلاف درهم وأخذت لك من أصحاب الجسر مثل ذلك ورسمتك من التوابين وأجريت لك فى
كل شهر عشرة دنانير تكفيك لا كالك وشربك وكسوتك وطيبك وتكون عزيزا وتنجو من
القتل وتتخلص من الاثم فأبى الا الانكار فاستحلفه بالله وأظهر له مصحفا فحلف عليه فقال
انى سأظهر على المال فان أنا ظهرت عليه بعد هذه اليمين قتلتك ولم أستبقك فأبى الا الانكار
فقال له فضع يدك على رأسى واحلف بحياتى فوضع يده على رأسه وحلف بحياته أنه ماأخذه
وانه مظلوم متهم وان التوابين قد تبرؤا به فقال له المعتضد فان كنت قد كذبت قتلتك وأنا
برىء من دمك قال ثم فأمر باحضار ثلاثين أسود بحيث يراهم ويرونه وأمرهم أن يتناوبوا
فى ملازمته فأقمت عليه أيام وهو قاعد لايتكئ ولا يستلق ولا يضطجع وكلما خفق خفقة
وجئ فكه ووقع رأسه حتى اذا ضعف وقارب التلف أمر باحضاره فأعاد عليه ما كان خاطبه
به واستحلفه بالله وبغير ذلك من الايمان فحلف على ذلك كله وعلى ما لم يستحلفه به أنه ماأخذ
المال ولايعرف من أخذه فقال المعتضد لمن حضر قلبى يشهد أنه برىء وأن مايقول حق
وأن التوابين قد عرفوا صاحبه وقد أثمنا فى هذا الرجل وسأله أن يجعله فى حل ففعل ثم
أمر باحضار مائدة عليها طعام وأحضر بارد الشراب وأمره بالجلوس والأكل والشرب فأقبل
يأكل ويشرب وحث على الاكل ويلقم ويعاد الشراب عليه ويكرر حتى لم يبق للاكل
والشرب موقع ثم أمر ببخور وطيب فبخر وطيب وأتى له بحشية ريش فوطئ له ومهد فلما
استلقى واستراح وغفا أمر بازعاجه وسرعة ايقاظه فحمل من موضعه حتى أقعد بين يديه
وفى عينيه الوسن فقال له حدثنى كيف صنعت وكيف نقبت ومن أين خرجت والى أين
ذهبت بالمال ومن كان معك قال ما كنت الا وحدى وخرجت من النقب الذى دخلت منه
وكان مقابل الدار حمام له كوم شوك يوقد به فأخذت المال ورفعت ذلك الشوك والقش
والقصب فوضعته تحته وغطيته وهو هناك فأمر برده الى فراشه فردوه وأضجعوه عليه ثم
أمر باحضار المال فأحضر عن آخره وأحضر مؤنس العجلى وأحضر الوزير والجلساء وقد
غطى المال بالبساط ناحية من المجلس ثم أمر بايقاظ اللص وقد اكتفى من النوم وذهب عنه
الوسن فقال له بحضرة الجميع مثل قوله الأول فجحد وأنكر فأمر بكشف البساط وقال له ويلك
أليس هذا المال ألست فعلت كذا وكذا وأخذ يصف له ما كان حدثه به ثم أمر فقبض على
يديه ورجليه وأوثق ثم أمر بمنفاخ فنفخ فى دبره وأتى بقطن فحشى فى أذنيه وفمه وخيشومه
وأقبل ينفخ وخلى عن يديه ورجليه من الوثاق وأمسك بالايدى وقد صار كأعظم مايكون
من الزقاق المنفوخة وقد ورم سائر أعضائه وعظم جسمه وعيناه قد امتلأتا وبرزتا فلما كاد
أن ينشق أمر بعض الأطباء فضربه فى عرقين فوق الحاجبين وهما فى الجبين فأقبلت الريح
تخرج منهما مع الدم ولها صوت وصفير الى أن خمد وتلف وكان ذلك أعظم مارؤى فى ذلك
اليوم من العذاب

ولما كثرت مظالم المعتضد وكثر سفكه الدماء قيل انه ظهر له شخص فى صور مختلفة فى داره فكان تارة يظهر فى صورة راهب ذى لحية بيضاء وعليه لباس الرهبان وتارة يظهر شابا حسن الوجه ذا لحية سوداء بغير تلك البزة وتارة يظهر شيخا أبيض اللحية ببزة التجار وتارة يظهر بيده سيف مسلول وضرب بعض الخدم فقتله فكانت الابواب تؤخذ وتغلق فيظهر له أين كان فى بيت أوصحن أوغيره وكان يظهر له فى أعلى الدار التى بناها فأكثر الناس القول فى ذلك واستفاض الأمر واشتهر فى خواص الناس وعوامهم والقول فى ذلك على حسب ما كان يقع لكل واحد منهم فن قائل ان شيطانا مريدا أصعد له يظهر فيؤذيه ومنهم من يقول ان بعض مؤمنى الجن رأى ماهو عليه من المنكر وسفك الدماء فظهر له رادعا وعن المنكر زاجرا ومنهم من رأى أن ذلك من بعض خدمه كان قد هوى بعض جواريه فاحتال بحيلة فلسفية من بعض العقاقير الخاصة يضعها فى فمه فلا يدرك بحاسة البصر وكل ذلك ظن وحسبان فلما اشتد أمر ذلك على المعتضد أحضر المعزمين وقد كبر قلقه واستوحش وحار عليه أمره فقتل وغرق جماعة من خدمه وجواريه وضرب وحبس جماعة منهم وعمل أعمالا لايسعنا ذكرها هنا لشناعتها

ومات المعتضد لاربع ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين فى قصره المعروف بالحسنى بمدينة السلام وقيل ان وفاته كانت بسم دسه اليه اسماعيل بن بلبل قبل قتله اياه فكان يسرى فى جسده ومنهم من ذكر أن جسمه تحلل فى مسيره فى طلب وصيف الخادم ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته فى منديل أعطته اياه يتنشف به وقيل غير ذلك مما لم نذكره هنا وقد كان أوصى أن يدفن فى دار محمد بن عبد الله ابن طاهر فى الجانب الغربى من الدار المعروفة بدار الرخام فلما اعتراه الغشى ووقع الموت شكوا فى وفاته فتقدم الطبيب الى بعض أعضائه يجسه فأحس به وهو على ما به من السكرات فأنف من ذلك وركله برجله فقلبه أذرعا فيقال ان الطبيب مات منها ومات المعتضد من ساعته وسمع ضجة وهو على ما به من الحال ففتح عينه وأشار بيده كالمستفهم فقال له مؤنس الخادم ياسيدى الغلمان قد ضجوا عند القاسم بن عبيد الله فأطلقنا لهم العطاء فقطب وجهه وهمهم فى سكرته فكادت أنفاس الجماعة أن تخرج من هيبته وحمل الى دار محمد ابن عبد الله بن طاهر فدفن بها * قال صاحب مروج الذهب وللمعتضد أخبار وسير وحروب وسير فى الارض غير ماذكر وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر ويومين قيل ولما حضرته الوفاة أنشد

تمتع من الدنيا فانك لاتبقى * وخذ صفوها ماان صفت ودع الرنقا
ولا تأمنن الدهر انى أمنته * فلم يبق لى حالا ولم يرع لى حقا
قتلت صناديد الرجال ولم أدع * عدوا ولم أمهل على طغيه خلقا
وأخليت دار الملك من كل نازع * فشردتهم غربا ومزقتهم شرقا

فلما بلغت النجم عزا ورفعة ٭ وصارت رقاب الخلق أجمع لى رقا
رمانى الردى سهما فأخمد جمرتى ٭ فها أنا ذا فى حفرتى عاجلا ألق
ولم يغن عنى ماجمعت ولم أجد ٭ لذى الملك والأحياء فى حسنها رفقا
فياليت شعرى بعد موتى ما ألقى ٭ الى نعم الرحمن أم ناره ألقى

وكان المعتضد أسمر نحيف الجسم معتدل الخلق قد وخطه الشيب وكان شهما شجاعا مقداما ذا عزم وفيه شح مهيبا عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفا منه وبعد موته ولى الخلافة بعده ولده أبو محمد على المكتفى بالله

(الفصل السابع عشر)

(فى خلافة أبى محمد على المكتفى بالله بن المعتضد)

ثم قام بالامر بعد المعتضد ابنه أبو محمد على المكتفى بالله بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم بويع له بالخلافة يوم مات أبوه وهو يوم الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين هجرية أى سنة احدى وتسعمائة للميلاد وأخذ له البيعة القاسم بن عبيد الله والمكتفى يومئذ بالرقة وله من العمر نيف وعشرون سنة فلما وصله الخبر أخذ البيعة على من عنده من الاجناد ووضع لهم العطاء وسار الى بغداد ووجه الى النواحى من ديار ربيعة ومضر ونواحى العرب من يحفظها وكان وصوله الى مدينة السلام يوم الاثنين لسبع ليال بقين من جمادى الاولى سنة تسع وثمانين ومائتين وكان دخوله اليها فى البحر ونزل قصر الحسنى على دجلة وخلع على القاسم بن عبيد الله ولم يخلع على أحد من القواد وفى اليوم الذى دخل فيه مدينة السلام قتل عمرو بن الليث الصفار قتله صبرا صافى الحرمى وكان أمر قتله من أغرب الامور وذلك أنه لما قبض على عمرو المذكور فى أيام المعتضد وأودع فى السجن مدة مرض المعتضد قد ذكره المعتضد عند امتناعه من الكلام واحتضاره فأشار بيديه يريد صافيا الحرمى فلما حضر اليه أمره بقتل عمرو المذكور بالايماء والاشارة بان وضع يده على رقبته وعلى عينه يعنى بذلك أذبح الاعور فلم يفعل ذلك صافى لعلمه بقرب وفاة المعتضد وكره قتل عمرو المذكور فلما دخل المكتفى مدينة السلام سأل القاسم بن عبيد الله الوزير عنه فقال هو حى يرزق فسر بذلك وأراد الاحسان اليه لانه كان يكثر من الهدية اليه لما كان بالرى فكره الوزير ذلك فبعث اليه من قتله وعلم المقتدر بما جرى فأكبر الامر وأعظمه جدا وكان دائما يذكر هذه الفعلة للقاسم ولابنائها ٭ ولم تستقر الخلافة بالمكتفى حتى أمر بهدم المطامير التى كان المعتضد اتخذها لعذاب الناس وأطلق من كان

محبوسا فيها وأمر برد المنازل التى كان المعتضد اتخذها لموضع المطامير الى أهلها وفرق فيهم أموالا فمالت قلوب الرعية اليه وكثر الداعى له بهذا السبب وغلب عليه القاسم بن عبيد الله وفاتك مولاه فكان بعد ذلك لايعمل الا بمشورتهما * وجاءته الكتب تترى من أهل مصر والشام يشكون مايلقون من القرمطى من القتل والسبى والتخريب وقد كان عاث هو وأصحابه فى سائر البلاد وأفحش فى القتل واراقة الدماء بلا رحمة ولا شفقة وحصر دمشق وضيق عليها فجاءت اليها النجدة من مصر وبغداد وسير المصريون لقتاله بيدرا القائد وغيره من كبار القواد فقاتلوا شيخا مقدم القرامطة وشددوا فى قتاله وألحوا فقتل على باب دمشق وأحرق وقتل خلق كثير من القرامطة وتفرق من بقى منهم ثم عادوا فاجتمعوا على الحسين أخى شيخ المذكور فسمى نفسه أحمد وكنى بأبى العباس ودعا الناس فأجابه أكثر أهل البوادى وغيرهم فاشتدت شوكته وجعل عزه على الناس وأظهر شامة فى وجهه وزعم أنها آية وسار بجيوشه الى دمشق فخافه أهلها وصالحوه على خراج دفعوه اليه وانصرف عنهم ثم سار الى أطراف حمص فأخذها وخطب له على منابرها وتسمى المهدى أمير المؤمنين وأتاه ابن عم له اسمه عيسى المهدى فلقبه المدثر وعهد اليه وزعم انه المدثر المذكور فى القرآن ولقب غلاما من أهله المطوق وقلده قتل أسرى المسلمين ثم سار الى حماة ومعرة النعمان وغيرهما فقتل وسبى وأحرق وخرب وقتل النساء والصبيان ثم سار الى بعلبك فقتل عامة أهلها فلم يبق منهم الا اليسير ثم سار الى السلمية فمنعه أهلها ثم صالحهم وأعطاهم الامان ففتحوا له بابها فبدأ بقتل من فيها من الهاشميين وكانوا جماعة ثم قتل البهائم والصبيان بالمكاتب ثم خرج منها وليس بها عين تطرف وسار فيما حولها من القرى يسبى ويقتل فضج الناس وعجوا الى الله تعالى وخاف الخليفة المكتفى شر العاقبة فجهز فى رمضان من السنة أى سنة ست وتسعين ومائتين جندا عظيما وخرج بهم من بغداد فى الشهر بعينه وجعل طريقه على الموصل وقدم بين يديه أبا الاغر فى عشرة آلاف رجل فنزل قريبا من حلب فكبسهم القرمطى صاحب الشامة فقتل منهم خلقا كثيرا وسلم أبو الاغر فدخل حلب فى ألف رجل فسبقه القرمطى الى باب حلب فقاتله أبو الاغر بمن بقى معه وأهل البلد فرجع عنهم وما استهل شوال حتى وصل بدر مولى ابن طولون فى عسكره وانقض على القرمطى وقاتله قتالا شديدا فانهزم القرمطى وقتل من أصحابه خلق كثير ومضى من سلم منهم نحو البادية فوجه الخليفة المكتفى فى أثرهم الحسين بن حمدان وجماعة من القواد فلم يدركهم وما زال الحال هكذا الى مستهل سنة سبع وتسعين ثم شدد المكتفى فى قتال القرمطى وولى محمد بن سليمان الكاتب أمر حربه ورسم له بمناهضة القرمطى فسار اليه محمد فى عسكر الخليفة فلاقاه على مقربة من حماة فسير اليهم القرمطى جماعة من أصحابه وبقى هو فى جماعة ومعه أمواله وسواد عسكره فالتحمت الحرب بين الفريقين واشتدت فانهزمت القرامطة وقتل منهم مقتلة عظيمة وتمزق من بقى وفر الى البوادى فتبعهم أصحاب الخليفة فلما رأى القرمطى ماحل بأصحابه

ركب هو وابن عمه المسمى بالمدثر والمطوق صاحبه وغلام له رومى وسار يريد الكوفة عرضا فى البرية فلما وصل الى الدالية من أعمال الفرات نفد ما كان معهم من الزاد والعلف فوجه بعض أصحابه الى الدالية المعروفة بابن طوق ليشترى لهم مايحتاجون اليه فلما صار فى سوق البلد أنكروا حاله فسألوه عن أمره فكتمه فرفعوه الى متولى تلك الناحية فسأله عن خبره فأعلمه أن القرمطى صاحب الشامة خلف رابية هنالك مع ثلاثة نفر فسير اليهم الوالى من قبض عليهم ثم وجهه بهم الى المكتفى بالرقة ورجعت الجيوش بعد أن قتلوا وأسروا وفى يوم الاثنين لاربع بقين من المحرم أدخل صاحب الشامة الرقة على جمل ظاهر الناس وبين يديه المدثر والمطوق ثم سار من هنالك مع الخليفة المكتفى الى بغداد فادخل اليها على فيل وأصحابه على الجمل فأودعوهم السجن حتى قدم محمد بن سليمان الكاتب فى عسكره ومعه جماعة من أعيان القرامطة ورؤسهم فأمر الخليفة بقطع أيديهم وأرجلهم وقطع أعناقهم وضرب صاحب الشامة ألفى سوط وقطعت يداه وكوى فغشى عليه وأخذوا حطبا ووضعوا فيه نارا ووضعوه على خواصره فجعل يفتح عينه ويغمضها فلما خافوا موته ضربوا عنقه ورفعوا رأسه على خشبة فكبر الناس لذلك كثيرا وفرحوا بموته فرحا عظيما

وكان هرون بن خمارويه لما عاقد الخليفة المعتضد وعاهده على الولاء والطاعة أيام خلافته خوفا من زحفه على أملاك مصر ونزعها منه جعل يراقب الفرص ليتخلص من ربقة تلك العقود فلما ظهر القرمطى صاحب الشامة وكان من أمر خروج الخليفة المكتفى ومعه محمد بن سليمان الكاتب فى مقدمة عسكره وظهر أمر ابن الكاتب واتسعت كلمته بعد ظفره بالقرمطى عمد هرون بن خمارويه الى استمالة ابن الكاتب سرا وأوعز الى بدر الحمامى غلام أحمد بن طولون وفائق أحد أصحابه وهما بدمشق أن يكاتبا ابن الكاتب فى ذلك ويدعوانه الى قصد البلاد بالعساكر فكتبا اليه ووعداه بالمساعدة على أخذها فكتم ابن الكاتب أمر ذلك ولما عاد الى بغداد أنهاه الى الخليفة المكتفى فكاد الخليفة يتميز غيظا وأمر ابن الكاتب بالعود وسير معه الجنود والاموال ووجه دميانة غلام بازمار أيضا وأمره بركوب البحر الى مصر ودخول النيل وقطع الوارد عنها فسار دميانة ووصل اليها وشدد فى حصار المدينة وضيق على أهلها وزحف اليهم محمد بن سليمان فى عسكره فى البر حتى صار على مقربة من مصر وكاتب من بها من القواد فكان أول من طلب الامان بدر الحمامى وهو مقدمهم فانحلت عقدتهم وانفشلوا جميعا وتتابع المستأمنة من القواد فلما رأى ذلك هرون بن خمارويه خرج فيمن معه لقتال محمد بن سليمان فكانت بينهم وقائع كثيرة واتفق فى هذه الاثناء أن وقع بين عسكر هرون خلاف وعظم شر هذا الخلاف فاقتتلوا فخرج هرون يسكنهم فرماه بعض المغاربة بمزراق فقتله فلما قتل استقدموا عمه شيبان وولوه مكان هرون فبذل المال للجند فأطاعوه واجتمعوا عند كلمته وحاربوا معه فأتتهم كتب بدر الحمامى يدعوهم الى الامان فأجابوه الى ذلك ووصل الخبر الى محمد بن سليمان بما جرى فسار الى



مصر فأرسل اليه شيبان يطلب الامان فأجابه فخرج اليه ليلا ولم يعلم به أحد من الجند فلما أصبحوا لم يجدوه فى داره فقيل ان محمد بن سليمان الكاتب قبض عليه وقتله وقيل بل هرب فى أرض الله الواسعة الفضاء ودخل ابن الكاتب مصر واستولى على دور آل طولون وأموالهم وقبض عليهم جميعا وهم بضعة عشر رجلا فقيدهم وحبسهم واستقصى أموالهم وكتب بالفتح الى الخليفة المتوكل فأمره باشخاص آل طولون وأسبابهم وجميع متاعهم من مصر والشام الى بغداد وأن لايترك منهم أحدا ففعل وقد عاث أصحابه وأفسدوا وأحرقوا وقتلوا من السودان سكان قطائع ابن طولون خلقا عظيما الغاية وولى معونة مصر عيسى النوشرى فبادت من ذلك اليوم دولة بنى طولون وخلت منهم الديار وعفت الآثار وتعطلت منهم المنازل وحل بهم التنكيل والذل فرثاهم الشعراء وبكاهم الناس كثيرا فمن رثاهم من الشعراء المعاصرين أحمد بن اسحق الجفر واسماعيل بن أبى هاشم ومحمد بن طسويه وسعيد القاص وأحمد بن محمد الحبيشى وأحمد بن يعقوب فمما قاله القاص من قصيدة طويلة هذه الابيات

يرى دمعه مابين مصر الى نحر * ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى * يبيت على جمر ويضحى على جمر
تتابع أحداث يضيعن صبره * وغدر من الايام والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الانوف وجدعها * ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر
وفقد بنى طولون فى كل موطن * أمر على الاسلام فقدا من القطر
وكان أبو العباس أحمد ماجدا * جميل المحيا لايبيت على وتر
كأن ليالى الدهر كانت لحسنها * واشراقها فى عصره ليلة القدر

الى أن قال

ترى أثرا لم يبق من يستطيعه * من الناس فى بدو البلاد ولا حضر
وقام أبو الجيش ابنه بعد موته * كما قام ليث الغاب فى الاسل السمر
أتته المنايا وهو فى أمن داره * فأصبح مسلوبا من النهى والامر

الى أن قال

فمن يبك شيأ ضاع من بعد أهله * لفقدهم فليبك حزنا على مصر
ليبك بنى طولون اذ بان عصرهم * فبورك من دهر وبورك من عصر

ثم ظهر بعد ذلك بقليل رجل يعرف بالخلنجى وهو من قواد آل طولون وكان تخلف عن محمد بن سليمان فاستمال جماعة من المصريين وقاموا معه وخالفوا على السلطان وكثر جمعه وعلت كلمته وعجز النوشرى عن رده فسار النوشرى الى الاسكندرية ودخل الخلنجى مصر وجعل يتصرف فى الامور فكتب النوشرى الى الخليفة المكتفى بالخبر وطلب منه النجدة فسير اليه الجنود مع فاتك التركى مولى المعتضد وبدر الحمامى فساروا فى شوال ووصلوا الى نواحى مصر وتقدم أحمد بن كيغلغ فى جماعة من القواد فلقيهم الخلنجى بالقرب

من

من العريش فى جيش عظيم فلقتتلوا فانتصر عليهم الخلنجى وهزمهم شر هزيمة فطلبوا من الخليفة بعض القواد فسير اليهم جماعة منهم واتصلت الاخبار بقوة الخلنجى فبرز المكتفى الى باب الشماسية ببغداد ليسير الى مصر واهتم لذلك جدا ونادى بالتأهب للسير فبينما هو على هذا الحال اذ جاءه كتاب من فاتك فى شعبان يذكر أنه هو والقواد جدوا فى قتال الخلنجى فكانت بينهم حروب كثيرة قتل فيها خلق كثير وان آخر حرب كانت بينهم قتل فيها معظم أصحاب ابراهيم الخلنجى وانهزم الباقون وظفروا بهم وغنموا عسكرهم وهرب الخلنجى فدخل فسطاط مصر فاستتر بها عند رجل من أهل البلد فدخلوا المدينة فدلوا عليه فأخذوه ومن استتر عنده وألقوهم فى الحبس فكتب المكتفى الى فاتك فى حمل الخلنجى ومن معه الى بغداد وعاد المكتفى فدخل بغداد وأمر برد خزائنه وآلات حربه وكانت قد سارت فبلغت تكريت فوجه فاتك بالخلنجى الى بغداد فدخلها هو ومن معه فى شهر رمضان من السنة فأمر المكتفى بحبسهم ورجع النوشرى الى مصر فأقام واليا عليها خمس سنين وشهرين وخمسة عشر يوما ومات سنة سبع وتسعين ومائتين أى فى خلافة المقتدر بالله كما سيأتى بيانه فى محله

ولما كانت سنة خمس وتسعين ومائتين هجرية مرض المكتفى بالله وثقل به مرضه الى شهر ذى القعدة فتوفى فى ثالث عشره وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة وقيل اثنتان وثلاثون سنة فكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوما وكان ربعة جميلا رقيق البشرة حسن الشعر وكنيته أبو محمد ودفن بدار محمد بن طاهر وكان يحب على بن أبى طالب ويميل الى ذريته ٭ يحكى أن يحيى بن على الشاعر أنشده بالرقة قصيدة يذكر فيها فضل أولاد العباس على أولاد على فقطع المكتفى عليه انشاده وقال يا يحيى كأنهم ليسوا بنى عم ما أحب أن يخاطب أهلنا بشئ من ذلك وان كانوا خلفاء ولم يسمع القصيدة ولا أجازه عليها ٭ قال بعض أصحاب التاريخ ولكنه لم يمض على خلافته قليل حتى تبدلت طباعه وتغيرت أحواله وركب متن هواه فسلك مسالك أبيه ومالت نفسه الى الايذاء والعبث بحقوق الرعية وأمر أن يتخذ له قصر بناحية الشماسية بازاء قطربل فأخذ بهذا السبب ضياعا كثيرة ومزارع كانت فى تلك النواحى بغير ثمن من ملاكها فكثر الداعى عليه فلم يستتم ذلك البناء حتى توفى وكان هذا الفعل مشاكلا لفعل أبيه المعتضد فى بناء المطامير وكان وزيره القاسم بن عبيد الله عظيم الهيبة شديد الاقدام سفاكا للدماء وكان الكبير والصغير على رعب منه لا يعرف أحد منهم لنفسه نعمة معه وكانت وفاة القاسم المذكور عشية الاربعاء لعشر خلون من شهر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين ومائتين وله نيف وثلاثون سنة قيل وكان ممن قتله القاسم بن عبيد الله المذكور عبد الواحد بن الخليفة الموفق وكان معتقلا عند مؤنس فبعث اليه حتى أخذ برأسه فى أيام المكتفى وقد كان المعتضد يعزه ويميل اليه ميلا شديدا اذ لم يكن لعبد الواحد المذكور همة فى خلافة ولا طموح الى رياسة بل كانت همته فى اللعب مع الاحداث وقد كان المكتفى أخبر عنه انه أرسل عدة من غلمانه

الخاصة فوكل به من يراعى خبره وما يظهر من قوله اذا أخذ الشراب منه فسمع منه وقد طرب وهو ينشد شعر العتابى حيث يقول

تلوم على ترك الغناء بأهله * طوى الدهر عنها من طريف وتالد
رأت حولها النسوان يمشين حلقة * مقلدة أجيادها بالقلائد
يسرك أنى نلت ما نال جعفر * من الملك أو ما نال يحيى بن خالد
وان أمير المؤمنين أغصنى * مغصهما بالمرهفات البوارد
ذرينى تجئنى ميتتى مطمئنة * ولم أتجشم هول تلك الموارد
فان نفيسات الامور مشوبة * بمستودعات فى بطون الاساود
وان الذى يسمو الى درك العلا * ملقى باسباب الردى والمكايد

فقال له بعض ندمائه وقد أخذ منه الشراب ياسيدى أين أنت مما تمثل به يزيد ابن المهلب

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد * حياة لنفسى مثل أن أتقدما

فقال له عبد الله مه لقد أخطأت الغرض وأخطأ ابن المهلب وأخطأ قائل هذا البيت وأصاب أبو فرعون التميمى حيث يقول قال النديم حيث يقول ماذا قال قال

وما بى شئ فى الوغى غير أننى * أخاف على فخارتى أن تحطما
فلو كنت مبتاعا من السوق مثلها * لدى الروع ما باليت أن أتقدما

فلما انتهى ذلك الى المكتفى ضحك وقال قد قلت القاسم ليس عمى عبد الواحد ممن تسمو همته الى الخلافة هذا قول من ليس له همة غير فرجه وجوفه وأمرد يعانقه وكلاب يهارش بها وكباش يناطح بها وديوك يقاتل بها أطلقوا لعمى كذا وكذا فلم يزل القاسم المذكور بعبد الواحد حتى قتله كما تقدم وقد كان المكتفى لما أن مات القاسم وتبين قتله لعبد الواحد أراد نبش القاسم من قبره وضربه بالسوط وحرقه بالنار وقيل غير ذلك

ومات فى أيامه أيضا خائيل بطرك الاسكندرية فكانت مدته نحو خمس وعشرين سنة ووقع فيها من الحوادث والمحن شئ كثير جدا أضربنا عن ايراده هنا فخلا الكرسى بعده أربع عشرة سنة الى سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة هجرية أى نحو سنة خمس وسبعين وتسعمائة ميلادية اشتد فيها الخطب على المتأصلين وعظمت نكايتهم ثم قدموا غبريال كما سيأتى بيان ذلك فى خلافة المتقى بالله ابراهيم بن المقتدر بن المعتضد واحترقت فى خلال هذه الفترة أيضا كنيسة القيامة الكبرى بالاسكندرية فى يوم الاثنين لسادس شوال سنة ثلاثمائة أى نحو سنة أربع وأربعين وتسعمائة ميلادية وهى التى كانت هيكل زحل قبل المسيحية وكانت من بناء قلوبطره ملكة مصر وهى معظمة عند المسيحيين فلم يبق منها حجر على حجر

(الفصل الثامن عشر)

(فى خلافة أبى الفضل جعفر المقتدر بالله)

ثم قام بالامر بعد المكتفى بالله أخوه أبو الفضل جعفر المقتدر بن المعتضد بويع له بالخلافة فى يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين هجرية أى نحو سنة سبع وتسعمائة ميلادية وكان له يوم بويع ثلاث عشرة سنة * قال أصحاب التاريخ وكان السبب فى ولاية أبى الفضل جعفر المقتدر المذكور أنه لما ثقل المرض بالمكتفى فكر العباس ابن الحسن وزير المكتفى يومئذ فيمن يصلح للخلافة بعد المكتفى وكان الذين يتولون الدواوين أربعة هم أبو عبد الله بن محمد وداود بن الجراح وأبو الحسن محمد بن عبدان وأبو الحسن على ابن محمد بن الفرات فكان اذا ركب العباس بن الحسن الوزير المذكور سار فى ركابه أحد الاربعة ليوصله الى دار الخلافة فسأل الوزير يوما ابن الجراح فيمن يصلح للخلافة بعد المكتفى فقال عبد الله بن المعتز وأخذ يصفه بالعقل وأصالة الرأى مع الوقار والحشمة ثم استشار أبا الحسن بن الفرات فى ذلك أيضا فلم يبد رأيا فألح عليه فقال فليتق الله الوزير ولا يولى الخلافة الا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ولا ينصب بخيلا يضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعا يشره فى أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ولا قليل الدين لا يخاف العقوبة والآثام ولا يرجو الثواب فيما يفعله ولا يولى من عرف نعمة هذا وبستان هذا وضيعة هذا وفرس هذا ومن قد لقى الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه وتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم فقال الوزير صدقت ونصحت فبمن تشير قال أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد قال ويحك هو صبى قال ابن الفرات ولكنه ابن المعتضد ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج الينا ثم استشار الوزير أيضا ابن عيسى فيمن يولى الخلافة فلم يذكر له أحدا فأعجب الوزير رأى ابن الفرات ومال الى تولية أبى الفضل جعفر فلما مات المكتفى بايعوا أبا الفضل ولقبوه المقتدر بالله واستقرت به الخلافة فاستصغره الوزير وجعل يتصرف هو فى الأمور ثم عزم على خلعه وتقليد الخلافة لابى عبدالله محمد بن المعتمد وكان حسن السيرة جميل الوجه والعمل فراسله فى ذلك وبقى الامر مستورا ليتمكن الوزير من التغلب على غلمان المعتضد ان همّ بخلع المقتدر * واتفق أن وقعت منازعة بين أبى عبد الله المذكور وبين ابن عمرويه صاحب الشرطة بسبب ضيعة مشتركة بينهما فأغلظ له ابن عمرويه فغضب ابن المعتمد غضبا شديدا وأغمى عليه وأفلج فى المجلس فحمل الى بيته فى محفة فمات فى اليوم الثانى فأراد الوزير البيعة لابى الحسين بن المتوكل فمات أيضا بعد خمسة أيام وأبى الله الا أن يتم الأمر للمقتدر فلما كانت سنة ست وتسعين ومائتين استمال الوزير العباس بن



الحسن الى رأيه جميع القواد والقضاة والكتاب فتعاهدوا على خلع المقتدر والبيعة لابن المعتز وأرسلوا الى ابن المعتز فى ذلك فأجابهم على أن لايحصل حرب ولا سفك دم فوافقوه على ذلك وجعلوا يتأهبون وعاد المقتدر فتودد الى العباس الوزير ورأى العباس أمره صالحا مع المقتدر فاحجم عن خلعه وتزلف اليه فلما آنس منه ذلك جماعة القواد قاموا عليه وقتلوه وقتلوا معه فاتكا المعتضدى وأصبحوا وقد خلعوا المقتدر وبايعوا ابن المعتز وساروا الى المقتدر ليقتلوه فلم يتمكنوا من ذلك فأحضروا ابن المعتز ولقبوه المرتضى بالله وأجلسوه على كرسى الخلافة فاستوزر محمد بن داود بن الجراح وقلد علىّ بن عيسى الدواوين فكتب الكتب الى الآفاق من أمير المؤمنين المرتضى بالله أبى العباس عبد الله بن المعتز بالله * وسير الى المقتدر من يلزمه بالانتقال الى دار ابن طاهر التى كان مقيما فيها لينتقل هو الى دار الخلافة فطلب الامهال الى الليل وعاد الحسين بن حمدان يطلب المقتدر ليقتله وأحاط بدار الخلافة فقاتله الخدم والغلمان والرجالة من وراء الستور عامة النهار فانصرف عنهم ولما دخل الليل أخذ ماله وعياله وانصرف عن بغداد الى الموصل ولم يبق مع المقتدر من القواد أحد سوى مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال وحاشية دار الخلافة وقد صمموا على قتال ابن المعتز فبل قتلهم فجهزهم المقتدر بالاسلحة والدروع وركبوا فى السميريات وأصعدوا فى الماء يريدون مقر ابن المعتز فلما رآهم من عند ابن المعتز على هذا الحال هالهم أمرهم وكثرتهم وخافوا وهربوا على وجوههم قبل أن يصلوا اليهم وعلم ابن المعتز بذلك فركب ومعه وزيره محمد بن دواد وهربا وغلام له ينادى بين يديه يامعشر العامة ادعوا لخليفتكم السنى البربهارى * قال بعض الكتاب وانما نسب هذه النسبة لان الحسين بن القاسم بن عبيد الله البربهارى كان مقدم الحنابلة والسنة من العامة ولهم فيه اعتقاد عظيم فأراد استمالتهم بهذا القول * وسار ابن المعتز ومن معه نحو الصحراء وكان يظن أن الجند الذين بايعوه يقومون لنصرته ويتبعونه حيث سار فلم يلحقه منهم أحد فلما خذل ابن المعتز نزل عن دابته ومعه غلامه وانحدر الى دار أبى عبد الله الجصاص مستجيرا به واختفى محمد بن داود فى داره واختفى كل من بايع ابن المعتز فبرز ابن عمرويه وجمع أصحابه ونادى بشعار المقتدر تدليسا فقام عليه العامة وقاتلوه وسبوه فاختفى وتفرق أصحابه

وتقوت عزيمة المقتدر بعد ذلك فقلد الشرطة مؤنسا الخازن فخرج مؤنس بالعسكر وقبض على وصيف بن صوارتكين وغيره من أصحاب الفتنة فقتلهم وقتل القاضى المثنى أحمد بن يعقوب وأرسل المقتدر الى ابن الفرات وكان مختفيا وقلده الوزارة وخلع عليه وفتشوا على المعتز فدلهم غلام لابن الجصاص أنه عند مولاه ومعه جماعة فكبست دار ابن الجصاص وأخذ ابن المعتز منها وحبس الى الليل وعصرت خصيتاه حتى مات ولف فى كساء وسلم لاهله ونهبت أموال ابن الجصاص وقتل محمد بن دواد وزير ابن المعتز ونفى على بن عيسى الى واسط وسيرت العساكر من بغداد فى طلب الحسين بن حمدان ثم ظفروا به فعادوا فكتب الوزير

الى

الى أبي الهيجاء أخي الحسين بن حمدان وهو الأمير على الموصل يومئذ بأمره بطلب الحسين والاتيان به الى بغداد فسار خلفه وتبعه الى حيث سار فكانت بينهما وقائع وأمور يطول شرحها ثم تقدم أبو الهيجاء الى الوزير فى طلب العفو عن الحسين بن حمدان فأجابه الوزير الى ذلك وعفا المقتدر عنه وعن آخرين ودخل الحسين بغداد وقام بها الى أن ولى قم فسار اليها

وجعل ابن الفرات الوزير يتصرف فى الأمور فبسط العدل والاحسان وأخرج الارزاق والاموال للعباسيين والطالبيين وفرق الاموال فى القواد وأرضاهم وصرف عنهم ما يكرهون فمالوا اليه وأحبوه * ومما حكى عن مكارم أخلاق ابن الفرات المذكور أنه كان بينه وبين سليمان بن الحسن بن مخلد مودة وصحبة قديمة فلما دانت للخليفة المقتدر الأمور بعد قتل ابن المعتز واستوزر ابن الفرات عثر ابن الفرات على كتب البيعة لابن المعتز فتأملها فاذا هى بخط سليمان لقرابة كانت بينه وبين ابن الجراح فلم يظهر عليها المقتدر وكتم أمرها عنه وأحسن الى سليمان وقلده المناصب العالية فلما تمكن وظهرت كلمته سعى بابن الفرات الى المقتدر وكتب بخطه مطالعة تتضمن ذكر أملاك الوزير وضياعه ومستغلاته وما يتعلق بأسبابه وأخذ الرقعة ليوصلها الى الخليفة المقتدر فلم يتهيأ له ذلك وجاء دار الوزير والرقعة معه فسقطت من كمه فظفر بها بعض الكتاب فأعطاها للوزير فلما قرأها تعجب جدا وقبض على سليمان وجعله فى زورق وأحدره الى واسط ووكل به هناك وصادره فى جميع أمواله ثم أراد العفو عنه فكتب اليه * نظرت أعزك الله فى حقك علىّ وجرمك الىّ فرأيت الحق موفى على الجرم وتذكرت من سالف خدمتك ما عطفنى عليك وثنانى اليك وأعادنى لك الى أفضل ما عهدت وأجمل ما ألفت * ثم أطلق له عشرة آلاف درهم وعفا عنه وأكرمه واستعمله ولم تطل وزارة ابن الفرات هذا حتى وشى به الوشاة عند الخليفة المقتدر فقبض عليه واستصفى أمواله وهتك حرمته واعتقله ووكل به ونهبت دور أصحابه ومن يتعلق به ووقعت الفتنة ببغداد لقبضه ولقى الناس شدة عظيمة ثلاثة أيام ثم سكنوا وكانت مدة وزارته هذه ثلاث سنين وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما وتولى الوزارة بعده أبو على محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان فرتب أصحاب الدواوين وتولى الأمور وجعل يتصرف فيها ولكنه لم يفلح لانه كان ضجورا ضيق الصدر مهملا لقراءة كتب العمال وجباية الاموال وكان يظهر التواضع ويتقرب من العامة والخاصة وكان اذا رأى جماعة من العامة أو غيرهم يصلون جماعة نزل عن دابته وصلى معهم واذا سأله أحد حاجة دق صدره وقال نعم وكرامة فسماه الناس دق صدره وقصر فى اطلاق الاموال للجند والقواد فتفرقوا عنه وانحط قدر الوزارة واستصغرها الناس وكان أولاده كثيرو التحكم عليه فكانوا يأخذون الرشاوى ويسألونه قضاء حاجات الراشين لهم فقال فيه بعض الشعراء

وزير قد تكامل فى الرقاعه * يولى ثم يعزل بعد ساعه
اذا أهل الرشا اجتمعوا لديه * تخير القوم أو فرهم بضاعه
وليس بسلام فى هذا بحال * لان الشيخ أفلت من مجاعه

ثم زاد الامر به حتى تحكم أصحابه فكانوا يطلقون الاموال ويفسدون الاحوال فانحطت عقدة الوزارة وضعف أمرها وخرجت الممالك وطمع العمال فى الأطراف فلما زاد الحال أحضر الخليفة الوزير ابن الفرات من محبسه فجعله عنده فى بعض الحجر مكرما فكان يعرض عليه مطالعات العمال وغير ذلك من الاعمال وأحسن اليه ثم عزل الخاقانى وسلم الوزارة لعلى ابن عيسى والى مكة فأحسن التصرف وأصلح الأمور ورتب الاشغال وأطلق الاموال وعمر المساجد وفرشها ورتب لها المرتبات وأبطل بعض المكوس والمغارم التى أحدثها الخاقانى ثم خلعه وأعاد ابن الفرات ثم خلعه

ولما كانت سنة ثلاثمائة هجرية جهز المهدى صاحب المغرب عسكرا عظيما من افريقية وسيرهم مع ولده أبى القاسم الى الديار المصرية يريد غزوها وسلبها عن أملاك الخليفة المقتدر فساروا الى برقة واستولوا عليها وانحدروا منها الى مصر فملكوا الاسكندرية ومدينة الفيوم ومابينهما وتصرف أبو القاسم فيما نزل عليه من البلاد وضيق على أهلها وجباهم وزاد فى المغارم والمكوس فسير اليه الخليفة المقتدر بالله مؤنسا الخادم فى جيش عظيم فحاربهم وطالت الحرب بينهم ومازالت سجالا حتى أجلاهم مؤنس عن مصر فعادوا الى المغرب مهزومين فلم تكن الا سنة سبع وثلاثمائة حتى أعاد المهدى ابنه أبا القاسم الى مصر فى جيش فخم للغاية فوصل الى الاسكندرية فى ربيع الآخر فخرج عامل المقتدر عنها هاربا ودخلها القاسم وأقام بها المرابطين من أصحابه وانحدر الى مصر فدخل الجيزة وملك الاشمونين ومدنا كثيرة من الصعيد الأوسط وكتب الى أهل مكة يدعوهم الى الدخول فى طاعته فلم يقبلوا منه ووردت بتلك الاخبار الى بغداد فسير المقتدر مؤنسا الخادم فى جيش لقتال أبى القاسم فوقعت بينهما عدة وقائع وقدم من المغرب ثمانون مركبا لنجدة أبى القاسم بن المهدى فأرست بالاسكندرية وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتامى وهما من أشجع قواد صاحب المغرب وأعرفهم بفنون الحرب فخشى الخليفة المقتدر العاقبة وأمر فسيروا الى الاسكندرية مراكب طرسوس وعدتها خمسة وعشرون مركبا وفيها النفط والعدد ومقدمها أبو اليمن فالتقت بمراكب صاحب المغرب واقتتلوا على رشيد قتالا عنيفا فظفر أصحاب مراكب المقتدر وأحرقوا كثيرا من مراكب صاحب المغرب وهلك أكثر من فيها من الجند وأسر منهم خلق وبينهم سليمان الخادم ويعقوب ومات سليمان بالحبس بمصر وحمل يعقوب الى دار السلام ثم هرب منها وعاد الى افريقية وطالت أيام الحرب بين مؤنس الخادم وأبى القاسم بن المهدى ووقع الوباء فى عسكر أبى القاسم فمات منهم كثير فعاد من سلم الى افريقية وتبعهم عسكر مصر حتى أبعدوهم وسكنت الفتنة واطمأنت القلوب

وعسكر

وكثر عزل الخليفة المقتدر للوزراء وكبار الدولة وقواد الجند فكان يعزل الواحد منهم ويولى غيره ثم لايلبث أن يعزله ويولى غيره وهكذا حتى ضجر أصحابه وعسكره وقامت الوحشة بينه وبين مؤنس الخادم ونازوك صاحب الشرطة وبعض قواده فتآمروا على خلعه من الخلافة والبيعة لأخيه القاهر بالله محمد بن المعتضد فخرج مؤنس فى عسكره وخرج معه بقية المشاغبين وأحاطوا بدار الخلافة فتفرق من كان بها مع المقتدر وهرب جميع الخدم والاتباع والوزير أبو علىّ بن مقلة ودخل مؤنس الدار وأخرج المقتدر ووالدته وخالته وخواصه من الجوارى وأولاده من دار الخلافة وحملوا الى دار مؤنس فاعتقلوا بها وأحضروا محمد بن المعتضد وبايعوه بالخلافة ولقبوه القاهر بالله وأحضروا القاضى أبا عمر عند المقتدر ليشهد عليه بالخلع فأشهد عليه القاضى بالخلع فقام ابن حمدان وقال للمقتدر ياسيدى يعز علىّ أن أراك على هذه الحال وقد كنت أخافها عليك وأحذرها وأنصح لك وأحذرك عاقبة تقرّب الخدم والنساء منك فتؤثر أقوالهم على قولى وكأنى كنت أرى هذا وبعد فنحن عبيدك وخدمك ودمعت عيناه وعينا المقتدر بالله وشهد الجماعة على المقتدر بالخلع وأودعوا الكتاب بذلك عند القاضى أبى عمر فكتمه ولم يظهره لأحد وأخرج مؤنس الخادم علىّ بن عيسى من الحبس ورتب أبا علىّ بن مقلة فى الوزارة وأضاف الى نازوك مع الشرطة حجبة الخليفة وكتب بذلك الى الآفاق ونهبت دار الخليفة وأخرجوا من قبر لوالدة المقتدر قد بنته لنفسها ستمائة ألف دينار فحملت الى دار الخلافة وكان خلع المقتدر فى النصف من المحرم ثم سكنت الحال وبطل النهب وقد كان عم بغداد كلها وتطاولت أيدى العامة الى فعل مالا خير فيه • ولما تم لنازوك أمر حجبة الخليفة أمر الرجالة المصافية بقلع خيامهم من دار الخلافة وأمر أصحابه أن يقيموا بمكانهم فعظم ذلك على المصافية وتقدم نازوك الى خلفاء الحجاب أن لا يمكنوا أحدا من الدخول الى دار الخليفة الا من له مرتبة فلما كان يوم الاثنين سابع عشر المحرم بكر الناس الى دار الخلافة ليروا موكب الخليفة الجديد فامتلأت المراحات والرحبات والطرق وشاطئ دجلة بالناس وكثر الزحام واختلط الناس بعضهم ببعض وحضر الرجالة المصافية شاكى السلاح يطالبون بحق البيعة وجوامك سنة وكان الحامل لهم على ذلك غيظهم مما فعله بهم نازوك صاحب الشرطة والحجابة من قلع خيامهم واخراجهم من دار الخلافة ثم صاحوا وارتفعت زعقاتهم فسمع بها نازوك فخاف أن يقع بينهم وبين أصحابه فتنة وقتال فتقدم الى أصحابه وأمرهم أن لا يتعرضوا لهم ولا يقاتلوهم فزاد شغبهم وهجموا يريدون صحن الدار فلم يمنعهم أصحاب نازوك فدخلوا جميعا وبأيديهم السلاح ووصلت أصواتهم الى مجلس القاهر بالله وعنده أبو علىّ بن مقلة الوزير ونازوك وأبو الهيجاء بن حمدان فقال الخليفة لنازوك اخرج الى أولئك القوم فسكنهم وطيب قلوبهم فخرج اليهم وهو مخمور قد شرب طول ليلته فتقدم اليه الرجالة ليشكوا حالهم ويطلبوا مالهم من الجوامك فلما رآهم يقصدونه وبأيديهم السيوف خافهم على نفسه فهرب فطمعوا



فيه وتبعوه فانتهى به الهرب الى باب مسدود فأدركوه عنده فقتلوه بالسيوف وقتلوا خادمه وصاحوا يامقتدر ٭ يامنصور ٭ فهرب كل من كان فى الدار من الوزير والحجاب وسائر الطبقات وبقيت الدار فارغة فحملوا نازوك وصلبوه هو وخادمه أمام دجلة ثم ساروا الى دار مؤنس وهم فى ضجة شديدة وزعقات متتابعة وطالبوه بالمقتدر وغلمانه وأراد أبو الهيجاء بن حمدان أن يخرج من الدار فتعلق به القاهر وقال أنا فى ذمامك فأخذ بيده وهما بالخروج فوجدا الابواب مغلقة ورأى القاهر كثرة الجمع فاشتد خوفه وحار فى أمره واختفى فى بستان الدار ودخل بعض الخدم فقتلوا أبا الهيجاء واحتزوا رأسه وحملوها واشتدت زعقات الرجالة المصافية على مؤنس الخادم فقال وماذا تريدون قالوا نريد المقتدر بالله الساعة فأمر بتسليمه اليهم فلم يقبل المقتدر الخروج وخاف على نفسه وامتنع فدخلوا عليه وحملوه وأخرجوه فحمله الرجالة على رقابهم حتى أدخلوه دار الخلافة فسأل عن أخيه القاهر وابن حمدان فقيل له هما حيان فكتب لهم أمانا بخطه وأمر خادما بالسرعة بكتاب الامان لئلا يحدث على أبى الهيجاء حادث فجىء له برأس أبى الهيجاء فأسف عليه كثيرا وأحضروا اليه القاهر فأدناه منه وأجلسه بجانبه وقبل جبينه وقال له يا أخى قد علمت أن لاذنب لك وأنك قهرت ولو لقبوك بالمقهور لكان أولى من القاهر والقاهر يقول يا أمير المؤمنين نفسى نفسى اذكر الرحم التى بينى وبينك فقال له المقتدر لا بأس عليك ولا تخف وأقسم له الايمان فسكن خوفه واطمأن قلبه وأخرجوا رأس نازوك ورأس أبى الهيجاء وشهرا ونودى عليهما هذا جزاء من عصى مولاه وأحضر المقتدر أبا علىّ بن مقلة وأعاده الى وزارته وكتب الى الآفاق بما تجدد له وسكنت الفتنة وأطلق للجند أرزاقهم وزادهم وأتم أعطياتهم قالوا وأمن مؤنسا الخادم ولم يفعل به شيأ لان ارجاع المقتدر الى منصب الخلافة بعد خلعه كان بارشاد مؤنس وتدبيره ٭ وجعل الخليفة المقتدر يتصرف فى الأمور ويعزل ويولى فى الوزراء وأصحاب الرتب العالية ولم يقلع عما كان فيه حتى وقعت الوحشة بينه وبين مؤنس الخادم بسبب ذلك وحقد مؤنس على المقتدر وناواه الشر وجعل يراقب الفرص حتى فرغ بيت المال ولم يبق فيه مايسد طلبات الجند وأرزاقهم فأشار عليهم مؤنس بالخروج وطلب أرزاقهم فخرجوا جميعا وشغبوا وطلبوا من الخليفة المال فخاف وأراد أن ينحدر الى واسط ويكاتب العساكر من جهة البصرة والاهواز وفارس وكرمان وغيرها ويترك بغداد لمؤنس وأصحابه الى أن يجتمع به العسكر ويعود الى قتاله فردوه عن ذلك وزينوا له البقاء والخروج بمن عنده من الجند لقتال مؤنس وأصحابه فخرج كارها وبين يديه الفقهاء والقراء معهم والمصاحف منشورة وعليه البردة والناس حوله فوقف على تل عال بعيد عن المعركة فأرسل قواد أصحابه يسألونه التقدم وأكثروا الرسل وهو واقف فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه فانهزم أصحابه قبل أن يقترب منهم ولقيه على بن بليق وهو من أصحاب مؤنس فترجل وقبل الارض وقال له الى أين تمضى

ارجع فلعن الله من أشار عليك بالحضور فأراد الرجوع فلقيه قوم من المغاربة والبربر فتركه علىّ معهم وسارعنه فشهروا عليه سيوفهم فقال ويحكم أنا الخليفة فقالوا قد عرفناك ياسفلة أنت خليفة ابليس تبذل فى كل رأس خمسة دنانير وفى كل أسير عشرة دنانير وكان قبل هزيمة أصحابه نادى مناديه بذلك ثم ضربه أحد المغاربة بسيفه على عاتقه فسقط على الارض وذبحه بعضهم قيل ان على بن بليق هو الذى غمز عليه فقتلوه ورفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون و يلعنونه وأخذوا جميع ماعليه حتى سراويله وتركوه مكشوف العورة الى أن مرّ به رجل من الاكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وأخفى قبره وكان قتله وقت صلاة العصر يوم الاربعاء لثلاث ليال بقين من شوال سنة عشرين وثلاثمائة هجرية أى نحو سنة أربع وستين وتسعمائة ميلادية وكان وزيره يومئذ أبا الفتح الفضل بن جعفر ذكر أن الفضل المذكور أخذ الطالع فى وقت ركوب المقتدر بالله الى الواقعة التى قتل فيها فقال له المقتدر أىّ وقت هو قال وقت الزوال فتطير المقتدر وأراد أن لايخرج فلم يقدر على ذلك فكان آخر العهد به من ذلك الوقت * قال بعض الكتاب وهذا دليل القائلين أن كل سادس من بنى العباس مخلوع مقتول * قلت فكان السادس منهم محمد بن هارون مخلوع والسادس الآخر المستعين والسادس الآخر المقتدر بالله وهو ثامن عشرهم وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وستة عشر يوما وله من العمر ثمان وثلاثون سنة وخمسة عشر يوما وقيل غير ذلك * وكان كثير الطاعة والانقياد الى النساء والخدم يأخذ بأقوالهم ويعمل بمشورتهم * قال صاحب النشوان وغيره ان صافيا مولى المقتدر قال مشيت يوما بين يدى المعتضد يعنى أبا المقتدر بالله وهو يريد دار الحرم فلما بلغ باب دار المقتدر وقف وتسمع وتطلع من خلل فى الستر فاذا هو بالمقتدر وله اذ ذاك خمس سنين أونحوها وهو جالس وحوله قدر عشرة وصائف من أترابه فى قدر سنه وبين يديه طبق فضة فيه عنقود عنب فى وقت فيه العنب عزيز جدا والصبى يأكل عنبة واحدة ثم يطعم الجماعة عنبة عنبة على الدور حتى اذا بلغ الدور اليه أكل واحدة مثل ما أكلوا حتى فنى العنقود والمعتضد يتميز غيظا ثم رجع ولم يدخل الدار فرأيته مهموما فقلت يامولاى ما سبب ما فعلت فقال ياصافى والله لولا العار والنار لقتلت هذا الغلام اليوم يعنى المقتدر فان فى قتله صلاحا للامة فقلت يامولاى ماشأنه وأىّ شئ عمل أعيذك بالله يامولاى من هذا فقال ويحك أنا أبصر بما أقول أنا رجل قدسست الأمور وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد ولابد من موتى وأنا أعلم بعدى لايختارون أحدا على ولدى وأنهم سيجلسون ابنى عليا يعنى المكتفى وما أظن عمره يطول للعلة التى به يعنى الخنازير التى كانت فى حلقه فيتلف عن قريب ولا يرى الناس اخراجها عن ولدى ولايجدون بعده أمثل من جعفر يعنى المقتدر وهو صبى وله من الطبع والسخا هذا الذى رأيته من أنه أطعم الوصائف مثل ما أكل وساوى بينه وبينهن فى شئ عزيز فى العالم والشح على مثله فى طباع الصبيان غالب فتحتوى عليه النساء لقرب عهده



بهن فيقسم ماجمعته من الاموال كما قسم العنب وبذر ارتفاع الدنيا فتضيع الثغور وتعظم الأمور وتخرج الخوارج وتحدث الاسباب التى يكون منها زوال الملك عن بنى العباس رأسا فقلت يامولاى يبقيك الله حتى ينشأ فى حياتك ويصير كهلا فى أيامك ويتأدب بأدبك ويتخلق بأخلاقك ولا يكون هذا الذى ظننت فقال ويحك احفظ عنى ما أقول لك فانه كما قلت قال ومكث يومه مهموما مغموما وضرب الدهر ضرباته ومات المعتضد وولى المكتفى فلم يطل عمره فمات وولى المقتدر فكانت الصورة كما قال مولاى المعتضد بعينها فكنت كلما ذكرت قوله أعجبت منه فوالله لقد وقفت على رأس المقتدر وهو فى مجلس لهو فدعا بالأموال فأخرجت اليه ووضعت البدر بين يديه فجعل يفرقها على الجوارى والنساء ويلعب بها ويمحقها ويهبها فتفكرت قول مولاى المعتضد اهـ

واستعمل المقتدر على مصر فى خلافته أبا منصور تكين الخاص ثم صرفه فى سنة ثلاث وثلاثمائة وولى ذكاء أبا الحسن ثم صرف وأعيد تكين ثم صرف سنة تسع وولى هلال ابن بدر ثم صرف فى سنة احدى عشرة وولى أحمد بن كيغلغ ثم صرف من عامه وأعيد تكين الخاص فأقام الى أن مات سنة احدى وعشرين وثلاثمائة فى خلافة القاهر بن أحمد المعتضد كما سيذكر فى محله

(الفصل التاسع عشر)

(فى خلافة القاهر بالله محمد بن احمد المعتضد)

ثم قام بالامر بعد المقتدر أخوه أبو منصور محمد بن أحمد المعتضد بالله بويع بالخلافة ببغداد لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلاثمائة هجرية أى نحو سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ميلادية ولقب بالقاهر وكان الذى أشار بالبيعة له أبو يعقوب اسحق بن اسمعيل النوبختى ومازال بمؤنس الخادم حتى استماله اليه فأحضروه وبايعوه وكان مؤنس يخافه ويعرف شره فلما قتله استحلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق ولعلى بن بليق وأخذوا خطه بذلك تحرزا من بطشه وأرسل القاهر الى فارس فى طلب ابن مقلة فحضر فاستوزره واستحجب على بن بليق وجعل يتصرف فى الامور فأحضر والدة المقتدر وطالبها بما عندها من الاموال فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشئ من المال والجوهر فضربها أشد مايكون من الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها فحلفت أنها لم تملك غير ماأطلعته عليه وقالت لو كان عندى مال لما أسلمت ولدى للقتل ثم صادر جميع حاشية المقتدر وأصحابه وحل جميع أوقاف والدة المقتدر وباعها وقد كانت موقوفة على البر والخير وشدد

ق

فى البحث على أولاد المقتدر فكبس أعوانه الدور وفتشوها وأزعجوا الناس ومازالوا حتى عثروا على أبى العباس الراضى وهرون وعلى والعباس وابراهيم والفضل فحملوهم الى دار الخلافة فصودروا على مال كثير ثم وكل بهم من يناظرهم واشتد القاهر بالله على أصحاب المراتب فى دولته وأهل الوظائف فى بابه ولاسيما مؤنس الخادم وابن مقلة وابن بليق فكبر عليهم الامر وخشوا العاقبة فأوعز مؤنس الى أصحابه أن يأتوه بأخبار القاهر ووكل ابن بليق على دار القاهر أحمد بن زيرك وأمره بالتضييق على القاهر وتفتيش كل من يدخل الى الدار ويخرج منها وأن يكشف وجوه النساء المتنقبات وان وجد مع أحد رقعة دفعها الى مؤنس الخادم ففعل ذلك وبالغ فى التشديد وأخرجوا من كان محبوسا فى دار الخلافة وبينهم والدة الخليفة المقتدر فأخذها ابن بليق وتركها عند والدته وقد اشتدت بها علتها من ضرب القاهر لها فماتت فى جمادى الآخرة وكانت مكرمة مرفهة فدفنت فى تربتها بالرصافة فاضطرب القاهر من ذلك وعلم بأن ذلك انما هو برأى مؤنس وابن مقلة فأخذ فى تدبير الحيلة وقد تمكن من القاء الفتنة بين الاحزاب ومازال حتى افتتنوا وتفرق عن مؤنس أصحابه من طوائف الجند الذين كان معتمده عليهم ثم قبض على مؤنس وحبسه فى دار الخلافة وأراد القبض على ابن مقلة فاختفى فقلد الخليفة الوزارة أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيدالله وختم على دور مؤنس الخادم وابنه ودور ابن مقلة وأحمد بن زيرك والحسن بن هرون وجميع من كان له يد فى المشاغبة ونقل دوابهم ووكل بنسائهم وأمر باحراق دار ابن مقلة فأحرقت ونهبت دور أتباعهم ونادى على المستترين منهم واباحة مال من أخفاهم وهدم داره واجتهد فى طلب أحمد بن المكتفى فظفر به فبنى عليه حائطا وهو حى فمات وقد كانوا على عزم البيعة له وخلع المقتدر قبل ظهور أمرهم بأيام

ولما طال على مؤنس الحبس دس الى أصحابه من يحرضهم على الخروج على الخليفة والنداء بشعار مؤنس فثاروا وتبعهم سائر الجند وشغبوا وأحرقوا روشن دار الوزير أبى جعفر وقالوا لانرضى الا باطلاق مؤنس فلما عظم شغبهم دخل القاهر على علىّ بن بليق فأمر به فذبح واحتز رأسه فوضعوه فى طشت ثم مضى القاهر والطشت يحمل بين يديه حتى دخل على بليق فوضع الطشت بين يديه وفيه رأس ابنه فلما رآه بكى وأخذ يقبله ويرتشفه فأمر به القاهر فذبح أيضا وجعل رأسه فى طشت وحمل بين يدى القاهر حتى دخل على مؤنس فوضعهما بين يديه فلما رأى الرأسين تشهد واسترجع ولعن قاتلهما فقال القاهر جروا برجل الكلب الملعون فجروه وذبحوه وجعلوا رأسه فى طشت وأمر بالرؤس فطيف بها فى جانبى بغداد ونودى عليها هذا جزاء من يخون الامام ويسعى فى فساد دولته ثم أعيدت ونظفت وجعلت فى خزانة الرؤس كما هى العادة فى مثل هذه الاحوال عند الخلفاء • وكثر عسف القاهر بالله وسفكه للدماء ونكثه العهود والايمان التى حلفها الى كبار العسكر الساجية وغيرهم من الذين قاموا لنصرته فأبغضوه وعملوا على خلعه وزادت رغبتهم فى ذلك بظهور علىّ بن مقلة بينهم



والاجتماع بهم ليلا تارة فى زى أعمى وتارة فى زى مكدى وتارة فى زى امرأة ويغريهم به ويخوفهم من شره ويذكر لهم غدره ونكثه وشره وخبثه وبالغ فى تحذير سيما كبير العسكر الساجية وتخويفه حتى بادروا جميعا وهموا بخلعه فجمع سيما جميع العسكر الساجية وأعطاهم العدة والسلاح وتحالفوا مع العسكر الحجرية أيضا على أن يكونوا جميعا على قلب رجل واحد وقتل من خالف منهم فاتصل ذلك بالقاهر ووزيره الخصيبى فأعملا الحيلة على افساد أمرهم فلم يقدرا فلما كان يوم الاربعاء لست خلون من جمادى الاولى اجتمع الساجية والحجرية ومقدمهم سيما وزحفوا الى دار الخلافة ووكل سيما بأبوابها من يحفظها وبقى هو على باب العامة وهجموا على الدار من سائر الابواب وكان القاهر نائما مخمورا قد شرب أكثر ليلته فلما علا الضجيج وتتابعت زعقات الجند استيقظ مخمورا وطلب بابا يهرب منه فقيل له ان الابواب جميعها مشحونة بالرجال فهرب الى سطح حمام ودخل الجند فلم يجدوه فأخذوا الخدم وسألوهم عنه فدلوهم عليه فقصدوه فوجدوه وبيده السيف فاجتهدوا به فلم ينزل لهم فتلاينوا له فلم يقبل منهم وقال من صعد الىّ قتلته فأخذ أحدهم سهما وقال ان نزلت والا وضعته فى نحرك فنزل حينئذ اليهم فأخذوه وساروا به الى الحبس فحبسوه ثم سملوا عينيه وهرب وزيره الخصيبى ولبث القاهر معتقلا الى أن تمت البيعة لابى العباس أحمد بن المقتدر بالله ثم كان من أمره ماسيذكر فى محله ان شاء الله

وكان القاهر كثير التقلب سريع الغضب شديد البطش سفاكا للدم فخافه الناس وخشوا سطوته واتخذ حربة عظيمة يحملها فى يده اذا سعى فى الدار ويطرحها بين يديه فى حال جلوسه ويباشر الحرب بها لمن يريد قتله وكان قليل التثبت فى أمره ۞ قال محمد بن علىّ العبدى الخراسانى الاخبارى وكان القاهر به آنسا قال خلا بى يوما فقال أصدقنى أوهذه وأشار الىّ بالحربة فرأيت والله الموت عيانا بينى وبينه فقلت أصدقك ياأمير المؤمنين فقال لى انظر يقولها ثلاثا فقلت نعم يا أمير المؤمنين قال عما أسألك عنه ولاتغيب عنى شيأ ولاتحسن القصة ولا تسجع فيها ولا تسقط منها شيأ قلت نعم يا أمير المؤمنين قال أنت علامة بأخبار بنى العباس من أخلاقهم وشيمهم من أبى العباس فمن دونه فقلت على أن لى الامان ياأمير المؤمنين قال ذلك لك قال قلت أما أبو العباس السفاح فكان سريعا الى سفك الدماء واتبعه عماله فى المشرق والمغرب فى فعله واستنوا بسيرته مثل محمد بن الاشعث بالمغرب وصالح بن علىّ بمصر وخازم بن خزيمة وحميد بن قحطبة وكان مع ذلك بحرا سمحا وصولا جوادا بالمال وسلك من ذكرنا ممن كان فى عصره سبيله وذهبوا مذهبه مؤتمين به ۞ قال وأخبرنى عن المنصور قلت الصدق يا أمير المؤمنين قال الصدق قلت كان والله أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس ابن عبد المطلب وبين آل أبى طالب وقد كان قبل ذلك أمرهم واحدا وكان أول خليفة قرّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى المنجم وأسلم على يديه وهو أبو هؤلاء النوبختية وابراهيم الفزارى المنجم صاحب القصيدة فى النجوم وغير ذلك من علوم النجوم

وهيئة

وهيئة الفلك وعلىّ بن عيسى الاسطرلابى المنجم وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الاعجمية الى العربية منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السندهند وترجمت له كتب ارسطاطاليس من المنطقيات وغيرها وترجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الارثماطيقى وكتاب اقليدس وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية وخرجت الى الناس فنظروا فيها وتعلقوا الى علمها • وفى أيامه وضع محمد بن اسحق كتاب المغازى والسير وأخبار المبتدا ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنفة وكان أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم فى مهماته وقدمهم على العرب فاتخذت ذلك الخلفاء من بعده من ولده فسقطت وبادت العرب وزال باسها وذهبت مراتبها وأفضت الخلافة اليه وقد نظر فى العلوم وقرأ المذاهب وارتاض فى الآراء ووقف على النحل وكتب الحديث فكثرت فى أيامه روايات الناس واتسعت عليهم علومهم

قال القاهر قد قلت فأحسنت وعبرت فبينت فأخبرنى عن المهدى كيف كانت خلافته قلت كان سمحا سخيا كريما جوادا فسلك الناس فى عصره سبيله وذهبوا فى أمرهم مذهبه واتسعوا فى مساعيهم وكان من فعله فى ركوبه أن يحمل معه بدر الدنانير والدراهم فلا يسأله أحد الا أعطاه وان سكت ابتدأه المفرق بين يديه وقد تقدم بذلك اليه وأمعن فى قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم فى أيامه واعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبدالله بن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية وما صنف فى ذلك ابن أبى العرجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن اياس من تأييد المذاهب المانية والديصانية والمرقونية فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم فى الناس • وكان المهدى أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم وأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكين • وشرع فى بناء المسجد الحرام ومسجد النبى صلى الله عليه وسلم على ما هما عليه الى هذه الغاية وبنى بيت المقدس وقد كان هدمته الزلازل • قال فأخبرنى عن الهادى على قصر مدته كيف كانت أخلاقه وشيمه • قلت كان جبارا عظيما وأول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والاعمدة المشهورة والقسىّ الموترة فسلكت عماله طريقه ويمموا منهجه وكثر السلاح فى عصره • قال لقد أجدت فى وصفك وبالغت فيما ذكرت من قولك فأخبرنى عن الرشيد كيف كانت طريقته • قلت كان مواظبا على الحج والغزو واتخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور فى طريق مكة وأظهر ذلك بها وبمنى وعرفات ومدينة النبى صلى الله عليه وسلم فعم الناس احسانه مع ماقرن به من عدله ثم بنى الثغور ومدن المدن وحصن فيها الحصون مثل طرسوس وأدنة وعمر المصيصة ومرعش وأحكم بناء الحرب وغير ذلك من دور السبيل والمواضع للرابطين واتبعه عماله وسلكوا طريقته ونحته رعيته مقتدية بعمله مستنة بامامته فقمع الباطل وأظهر الحق وأنار الاسلام وبرز على سائر الامم وكان أحسن الناس

فى أيامه فعلا أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة واتخاذ المصانع والبرك والآبار بمكة وطريقها المعروف الى هذه الغاية وما أحدثته من الدور للتسبيل بالثغر الشامى وطرسوس وما أوقفت على ذلك من الوقوف وما ظهر فى أيامه من فعل البرامكة وجودهم وافضالهم وما اشتهر عنهم من أفعالهم وكان الرشيد أول خليفة لعب بالصولجان فى الميدان ورمى بالنشاب فى البرجاس ولعب بالاكرة والطبطاب وقرب الحذاق فى ذلك فعم الناس ذلك الفعل وكان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بنى العباس والنرد وقدم اللعاب وأجرى عليهم الرزق فسمى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها أيام العروس وله كثير مما يتجاوز النعت ويتفاوت فيه الوصف * قال القاهر فأراك قد قصرت فى تفصيل أم جعفر فلم ذلك قلت يا أمير المؤمنين ميلا الى الاختصار وطلبا للايجاز قال فتناول الحربة وهزها فرأيت الموت الاحمر فى طرفها ثم برق عينيه مع ذلك فاستسلمت وقلت هذا ملك الموت ولم أشك أنه يقبض روحى فأهوى بها نحوى فزغت منه فاسترجع وقد أخطأنى فقال ويلك أبغضت ما فيه عيناك ومللت الحياة قلت ما هو يا أمير المؤمنين قال أخبار أم جعفر زدنى منها قلت نعم يا أمير المؤمنين كان من فعلها وحسن سيرتها فى الجد والهزل مابرزت فيه عن غيرها فأما الجد والآثار الجليلة التى لم يكن فى الاسلام مثلها مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز فانها حفرتها ومهدت الطريق لمائها فى كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثنى عشر ميلا الى مكة فكان جملة ما أنفق عليها مما ذكر وأحصى ألف ألف وسبعمائة ألف دينار وما قدمت ذكره من المصانع والدور والبرك والآبار بالثغور والحجاز وانفاقها الألوف على ذلك دون ما كان فى وقتها من البذل وما عم أهل الفاقة من المعروف والخصب وأما الوجه الثانى مما تتباهى به الملوك فى أعمالهم وينمون به فى أيامهم ويصونون به دولهم ويدون فى أفعالهم وسيرهم فهو أنها أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر وصنع لها الرفيع من الوشى حتى بلغ الثوب من الوشى الذى اتخذ لها خمسين ألف دينار وهى أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجوارى يختلفون على الدواب فى جهاتها ويذهبون فى حوائجها برسائلها وكتبها وأول من اتخذ القباب الفضة والآبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسمور والديباج وأنواع الحرير من الاحمر والاصفر والاخضر والازرق واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر وتشبه الناس فى سائر أفعالهم بأم جعفر ولما أفضى الأمر الى ولدها يا أمير المؤمنين قدم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم ككوثر وغيره من خدمه فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤسهن وجعلت لهن الطرر والاصداغ والاقفية وألبستهن الاقبية والقراطق والمناطق فبانت قدودهن وبرزت أردافهن وبعثت بهن اليه فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه اليهن وأبرزهن للناس من الخاص والعام واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المطمومات وألبسوهن الاقبية والمناطق وسموهن

الغلاميات

الغلاميات * فلما سمع القاهر ذلك الوصف ذهب به الفرح والطرب والسرور ونادى بأعلى صوته ياغلام قدح على وصف الغلاميات فبادر اليه جوار كثيرة قدهن واحد توهمتهن غلمانا بالقراطق والاقبية والطرر ومناطق الذهب والفضة فأخذ الكأس بيده فاقبلت أتأمل صفاء جوهر الكاس ونورية الشراب وشعاعه وحسن أولئك الجوارى والحربة بينيديه وأسرع فى شربه فقال هيه قلت نعم ياأمير المؤمنين ثم أفضى الأمر الى المأمون فكان فى بدء أمره لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره يستعمل النظر فى أحكام النجوم وقضاياها وينقاد الى موجباتها ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كاردشير بن بابك واجتهد فى قراءة الكتب القديمة وأمعن فى دراستها وواظب على قراءتها فتفنن فى فهمها وبلغ درايتها فلما كان من الفضل بن سهل ذى الرياستين ما اشتهر وقدم العراق فانصرف عن ذلك كله وأظهر القول بالتوحيد والوعد والوعيد وجالس المتكلمين وقرب اليه كثيرا من الجدليين والنظارين كأبى الهذيل وأبى اسحق وابراهيم بن سيار النظام وغيرهم ممن وافقهم وخالفهم وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الادباء وأقدمهم من الامصار وأجرى عليهم الارزاق فرغب الناس فى صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ووضع كل فريق منهم كتبا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله وكان أكثر الناس عفوا وأشدهم احتمالا وأحسنهم مقدرة وأجودهم بالمال الرغيب وأبذلهم للعطايا وأبعدهم عن التسافه واتبعه وزراؤه وأصحابه فى فعله وسلكوا سبيله وذهبوا مذهبه * ثم المعتصم فانه ياأمير المؤمنين سلك فى النحلة رأى أخيه المأمون وغلب عليه حب الفروسية والتشبه بالملوك الاعاجم فى الآلة ولبس القلانس والشاشيات فلبسها الناس اقتداء بفعله وائتماما به فسميت المعتصميات وعم الناس افضاله وأمنت به السبل فى أيامه وشمل احسانه * ثم هرون بن محمد الواثق فانه اتبع ديانة أبيه وعمه وعاقب المخالف وامتحن الناس وكثر معروفه وأمر القضاة فى سائر الامصار أن لايقبلوا شهادة من خالفه وكان كثير الأكل واسع العطاء سهل الانقياد متصببا الى رعيته * ثم المتوكل ياأمير المؤمنين فانه خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد ونهى عن الجدل والمناظرة فى الآراء وعاقب عليه وأمر بالتقليد وأظهر الرواية للحديث فحسنت أيامه وانتظمت دولته ودام ملكه وغير ذلك ياأمير المؤمنين مما اشتهر من أخلاقه * فقال القاهر قد سمعت كلامك وكأنى مشاهد القوم على ماوصفت معاين لهم فيما ذكرت ولقد سرنى ماسمعت منك ولقد فتحت أبواب السياسة وأخبرت عن طرق الرياسة قال المحدث ثم أمر لى بجائزة عجل لى عطاءها فى وقتها ثم قال لى اذا شئت فقم فقمت وقام على أثرى بحربته فخيل لى والله أنه يرميني بها من ورائى ثم عطف نحو دار الخدم فما مضت الا أيام يسيرة حتى كان من أمره ما ظهر اه

قال ابن البطريق فى تاريخه وكان القاهر قد ارتكب أمورا قبيحة لا يسمع بمثلها فى الاسلام وذكر منها طرفا طويلا أضربنا عن ايراده هنا * وحكى أن رجلا قال صليت فى جامع المنصور ببغداد فاذا أنا بانسان عليه جبة عابية وقد ذهب وجهها وبقى بعض



قطن بطانتها وهو يقول أيها الناس تصدقوا عليّ بالامس كنت أمير المؤمنين وأنا اليوم من فقراء المسلمين فسألت عنه فقيل لى انه القاهر بالله اهـ قلت وفى هذه الحكاية تذكرة وعبرة والله ليس بظلام للعبيد

واستعمل القاهر بالله على ديار مصر فى خلافته بعد موت تكين الخاص سنة احدى وعشرين وثلاثمائة محمدا ابنه وصبر اليه بتنفيذ الولاية واستقرارها فخرج عليه الجند وشقوا عصا الطاعة فقاتلهم محمد بن تكين واشتدت الفتنة وكادت تعم البلاد وكثر شغب الغوغاء وتطاولت أيديهم الى النهب والسلب وذهب الامن وكثر الخوف وانكمش الناس بمصر أياما حتى ظفر محمد بالخوارج وأرجع الاحزاب الى الطاعة فلم تستقر به الولاية حتى صرف وولى أبو بكر محمد بن طغج الملقب بالاخشيد ثم صرف من عامه وأعيد أحمد بن كيغلغ الى أن صرف سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة فى خلافة الراضى بالله كما سيذكر فى محله ان شاء الله

(الفصل العشرون)

(فى خلافة أبى العباس أحمد الراضى بالله بن المقتدر)

ثم قام بالامر بعد القاهر ابن أخيه أبو العباس أحمد الراضى بالله بن المقتدر بن المعتضد بويع له بالخلافة يوم خلع عمه القاهر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة هجرية أى سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ميلادية فاستوزر عليّ بن مقلة وأطلق كل من كان فى حبس القاهر وكان قبل توليته محبوسا هو ووالدته فى حبس القاهر فأخرجوه وأجلسوه على سرير الخلافة يوم الاربعاء لست خلون من جمادى الاولى ولقبوه بالراضى بالله وبايعه القواد والناس وجعل يتصرف فى الامور واستقدم عليّ بن عيسى وأخاه عبد الرحمن وأدناهما منه وأخذ بمشورتهما وهم باعطاء الوزارة الى عليّ فامتنع لشيخوخته وأشار بابن مقلة فاستحضر ووليها بعد أن أرسل يؤمنه فأحسن ابن مقلة التدبير وأعاد الامن الى ربوع الخلافة وضم اليها المشاغبين والخوارج وزاد فى تمكين صلاتها مع الروم وغيرهم * ولم يمض الا القليل حتى ظهر ابن رائق وغلب على الراضى وتمكن من مسند الخلافة فصارت الكلمة له فلم يبق للوزير ابن مقلة من الامر شئ فوقعت الوحشة بينه وبين ابن رائق واستحكم الخلاف فجعل ابن مقلة يدبر على هلاك ابن رائق وهم باجراء ذلك فمنعه منها ظهور فتنة الحنابلة ببغداد وذلك أن جماعة الحنابلة قويت شوكتهم وعظمت عصابتهم فجعلوا يبالغون فى اظهار عقيدتهم ويسوقون الناس كرها الى احترام شيعتهم والعمل بقولهم فكانوا يكبسون دور العامة وقواد الجند فان وجدوا نبيذا أراقوه وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا

الناس

الناس فى بيعهم وشرائهم ومنعوا مشى الرجال مع النساء والصبيان فاذا رأوا أحدا من الناس مع امرأة أو صبى سألوه عن الذى معه من هو فأخبرهم والا ضربوه وخرجوا يوما على صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة وكادوا يبطشون به جهارا فاضطربت بغداد من فعالهم وضج الناس فركب بدر الخرشنى وهو صاحب الشرطة المذكور ونادى فى جانبى بغداد فى أصحاب أبى محمد البربهارى بان لا يجتمع من الحنابلة اثنان ولا يناظرون فى مذهبهم ولا يصلى منهم امام الا اذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى صلاة الصبح والعشاءين فلم يفد فيهم وزاد شرهم وكثر تعرضهم للناس وعظمت فتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد وكانوا اذا مر بهم شافعى المذهب أغروا به العميان فيقومون عليه ويضربونه حتى يكاد يموت فخاف الراضى شر العاقبة وأخرج توقيعه بما يقرأ على الحنابلة وهو ينكر عليهم فعلهم ويقبح عليهم اعتقاد التشبيه وغيره فكان منه قوله * انكم معاشر الحنابلة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته وتذكرون الكف والاصابع والرجلين والنعلين المذهبين والشعر القطط والصعود الى السماء والنزول الى الدنيا تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ثم طعنكم على خيار الائمة ونسبتكم شيعة آل محمد صلى الله عليه وسلم الى الكفر والضلال ثم استدعاؤكم المسلمين الى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن وانكاركم زيارة قبور الائمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الانبياء وكرامات الاولياء فلعن الله شيطانا زين لكم هذه المنكرات وما أغواه واعلموا أن أمير المؤمنين يقسم بالله قسما جهدا اليه يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقكم ليوسعنكم ضربا وتشريدا وقتلا وتبديدا وليستعملن السيف فى رقابكم والنار فى منازلكم ومحالكم اه فخافوا عند ذلك وانكمشوا ولم يحركوا يومئذ ساكنا فلما سكنت الحال عاد ابن مقلة الى مشاغبة ابن رائق وكاتب الخليفة الراضى فى أمر هلاك ابن رائق وحبب له ذلك فوافقه أولا ثم خالفه وأظهر خطه الى ابن رائق ثم أمر به فقطعت يده ثم عولج فبرئ فعاد يكاتب الراضى ويطلب الوزارة ويقول ان قطع يده لم يمنعه من عمله وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب واستوزر الراضى بعده عبد الرحمن بن عيسى وسلم اليه ابن مقلة فصادره حتى استصفى ماله وخلع بعد بدر الخرشنى من الشرطة فلم تطل أيام عبد الرحمن وظهر عجزه وعدم فلاحه فضاق عليه أمر الوزارة واستعفى فلما ظهر عجزه الى الخليفة الراضى ووقوف أمور الخلافة قبض عليه فصادره على مائة ألف دينار وصادر أخاه عليا بسبعين ألف دينار وكان ابن مقلة يدعو على من ظلمه وقطع يده فأوصلوا خبره الى الراضى والى ابن رائق فأمرا بقطع لسانه ثم نقلوه الى محبس ضيق وألقوه فيه فأصابه ذرب فى الحبس ولم يكن معه من يخدمه فآل به الحال الى أن كان يستقى الماء من البئر بيده اليسرى ويمسك الحبل بفيه وما



زال على هــذا الحال من الشــدة والضيق حتى مات ودفن بدار الخليفة ثم ان أهــله نبشوه ودفنوه فى داره ثم نبش ونقل الى دار أخرى * قال بعض الكتاب ومن العجب أنه ولى الوزارة ثلاث دفعات ووزر لثلاث خلفاء وسافر ثلاث سفرات اثنتين منفيا الى شيراز وواحدة فى وزارته الى الموصــل ودفن بعــد موته ثــلاث مرات وخص به من خــدمه ثلاث وهو من عجيب الاتفاق

وكان القاهر قد عمد الى كثير من الأموال عند قتله لمؤنس الخادم وبليق وابنه علىّ وغيرهم فغيبها كما تقــدم القول فلما قبض عليــه وسملت عيناه وأفضت الخلافة الى الراضى وطولب القاهر بالأموال أنكر أن يكون عنده شئ من ذلك فأوذى وعذب بأنواع من التعذيب وكل ذلك لايزيده الا انكارا فأخــذه الراضى وقرّبه وأدناه وطالت مجالسته اياه واكرامه له وأعطاه حق العمومة والسن والتقدم فى الخلافة ولاطفه وأحسن اليه غاية الاحسان وكان القاهر فى بعض الحصون بــستان من ريحــان وغرس من النارنج قد حمل اليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من أحمر وأصفر وبين ذلك أنواع الغروس والرياحــين والزهر وقد جعــل مع ذلك فى الصحن أنواع الاطيار من القمارى والدبابى والشحارير والببغا مما قــد جلب اليــه من الممالك والأمصار وكان القــاهر كثــير الشرب كما تقــدم فكان يشرب فى ذلك البــستان ويجلس كثيرا فى تلك المجالس فلما أفضت الخلافة الى الراضى اشتدّ شغفه بذلك الموضع فكان يداوم الجلوس والشرب فيــه ثم ان الراضى رفق بالقاهر وأعلمــه بما هو فيه من مطالبة الرجال بالأموال والحاجــة اليها ولا شئ قبله منها وسأله أن يسعفه بما عنده منها اذ كانت الدولة له وأن يدبر تدبيره ويرجع فى كل الأمور الى قوله وحلف له بالايمان الاكيدة أن لايسعى فى قتله ولا الاضرار به ولا بأحد من ولده فأنعم له القاهر بذلك وقال ليس لى مال الا فى بــستان النارنج فسار به الراضى الى البستان وسأله عن الموضع فقال له القاهر قــد حجب بصرى فلــست أعرف موضعه ولكن مر بحفره فانك تظهر على المــوضع ولا يخــفى عليــك فكان ذلك بحفر البــستان وقلع تلك الأشجــار والغروس والازهار حتى لم يبــق منه موضع الاحفره وبولغ فى حفره فلم يجد شــيئا فقال له القاهر وهل عندى من المال شئ وانما كانت حسرتى جلوسك فى هذا الموضع وتمتعك به وكان لذتى من الدنيا فتأسفت على أن يتمتع به غيرى فتأسف الراضى على ماتوجه عليه من الحيلة فى أمر ذلك البستان وندم على قبوله منه وأبعد القاهر فلم يكن يدنو منه خوفا على نفسه أن يتناول بعض أطرافه

وضعفت أمور الراضى واضطربت واختل نظام الخلافة فاستدعى بالامير محمد بن رائق فجعله أمير الامراء وفوض اليه تدبير المملكة وخلع عليه وأعطاه اللواء فبطل من ذلك اليوم أمر الوزارة ببغــداد ولم يبق الا اسمها فقط والحكم للامراء والملوك المتغلبين اذ كان ملك الخلافة جميعه فى أيديهم وهم ملوك الارض فكان كل من حصل فى يده بلد ملكه وما نع عنه

فاصبحت



فأصبحت البصرة وواسط والاهواز فى يد عبد الله البريدى وأخويه وفارس فى يد عماد الدولة ابن بويه والموصل وديار بكر وديار ربيعة وديار مضر فى يد بنى حمدان ومصر والشام فى يد الاخشيد بن طغج والمغرب وافريقية فى يد المهدى والاندلس فى يد بنى أمية وخراسان وما والاها فى يد نصر بن أحمد السامانى واليمامة وهجر والبحرين فى يد أبى طاهر القرمطى وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ولم يبق فى يد الراضى وابن رائق الا بغداد وما والاها فبطلت دواوين المملكة ونقص قدر الخلافة وضعف ملكها واختلت الأمور كافة وتقهقر مسند الخلافة كما سيذكر فى محله ان شاء الله

ومات الراضى ليلة السبت خامس عشر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة هجرية بعلة الاستسقاء وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة وشهورا فكانت خلافته ست سنين وعشرة أشهر وكان أديبا شاعرا ظريفا وله أشعار حسان منها

يصفر وجهى اذا تأمله * طرفى ويحمر وجهه خجلا
حتى كأن الذى بوجنته * من دم جسمى اليه قد نقلا

ومنها أيضا

كل صفو الى كدر * كل أمر الى حذر * ومصير الشباب للـ * ـموت فيه أو الكبر
درّ درّ المشيب من * واعظ ينذر البشر * أيها الآمل الذى * تاه فى لجة الغرر
أين من كان قبلنا * درس العين والاثر * سيرد المعاد من * عمره كله خطر
رب انى ذخرت عنـ * ـدك أرجوك مدخر * انى مؤمن بما * بين الوحى فى السور
واعترافى بترك نفـ * ـعى وايثارى الضرر * رب فاغفرلى الخطيـ * ـئة يا خير من غفر

وكان حاضر الذاكرة حاد الذهن لا يغيب عن معرفته شئ من أحوال المملكة يحب المناظرة والبحث فى أخبار القدماء ومن ذلك ماذكر الصولى قال * قال الراضى ما كان السبب فى لبس المأمون الخضرة ورفعه السواد ثم لبسه السواد بعد ذلك قلت هوما أخبرنا به محمد بن زكريا العلائى قال حدثنا يعقوب بن جعفر بن سليمان قال لما قدم المأمون بغداد اجتمع الهاشميون الى زينب بنت سليمان بن علىّ وكانت أقعد ولد العباس نسبا وأكرمهم بيتا فسألوها أن تكلم أمير المؤمنين فى تغييره الخضرة فضمنت لهم ذلك وجاءت الى المأمون فقالت يا أمير المؤمنين انك على بر أهلك من ولد علىّ بن أبى طالب أقدر منك على برهم لنا من غير أن تزيل سنة من مضى من آبائك فدع لباسك الخضرة ولا تطمعن أحدا فيما كان منك فقال لها ياعمى ما كلمنى أحد فى هذا المعنى بكلام أوقع من كلامك ولا أقصد لما أردت لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى فولى الامر أبو بكر فقد عرفت ما كان من أمره فينا أهل البيت ثم وليها عمر فلم يتعدّ فيها فعل من تقدّمه ثم وليها عثمان فأقبل على بنى أمية وأعرض عن غيرهم ثم آل الامر الى علىّ بن أبى طالب من غير صفو كصفوها لغيره بل مشوبة بالأكدار فولى مع ذلك عبد الله بن العباس البصرة وولى عبيد الله بن العباس اليمن

وولى قثم البحرين وما أحد منهم الا ولاه فكانت هذه فى أعناقنا حتى كافأته فى ولده بما فعلت ولا يكون بعد هذا الا ما تحبون قال ثم رجع الى لبس السواد وللمأمون بأمير المؤمنين شعر يشا كل معنى ماذكرت من هذا الخبر وهو قوله

ألام على شكر الوصى أبى الحسن * وذلك عندى من عجائب ذا الزمن
خليفة خير الناس والاول الذى * أعان رسول الله فى السر والعلن
ولولاه ما عدت لهاشم إمرة * وكانت على الايام تقضى وتمتهن
فولى بنى العباس ما اختص غيرهم * ومن فيه أولى بالتكرم والمنن
فأوضح عبدالله بالبصرة الهدى * وفاض عبيد الله جودا على اليمن
وقسم أعمال الخليفة بينهم * فلازلت مربوطا بذا الشكر مرتهن

وكان الراضى كثير الاستعمال للطيب حسن الهيئة سخيا جوادا فلم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه فى كل يوم الا بصلة أو خلعة أو طيب وكانوا عدة ندماء منهم محمد بن يحيى الصولى وابن حمدون النديم وغيرهما فعوتب على كثرة افضاله على من يحضره من الجلساء فقال أنا أستحسن فعل أمير المؤمنين أبى العباس لأنه كانت فيه فضائل لاتكاد تجتمع فى أحد لايحضره نديم ولا مغن ولا قينة فينصرف الا بصلة أو كسوة قلت أو كثرت وكان لايؤخر احسان محسن لغد ويقول العجب من انسان يفرح انسانا فيتعجل السرور ويؤخر ثواب من سره تسويفا وعدة فكان أبو العباس فى كل ليلة أو يوم يقعد لشغله ولا ينصرف أحد ممن حضره الا مسرورا ونحن وان لم تتأت لنا الامور كتأتيها لمن سلف فانا نواسى جلساءنا واخواننا ببعض ماحضرنا * وكان لايستكثر على أحد من ندمائه ما يصل اليه على طول الايام حتى كان بعضهم ربما يتأخر عن الحضور لما يترادف عليه من فضله وختم الخلفاء فى عدة أمور فنها أنه آخر خليفة له شعر يدون وآخر خليفة خطب كثيرا على المنبر وآخر خليفة جالس الجلساء ووصل اليه الندماء وآخر خليفة كانت له نفقة وجوائز جمة وكانت عطاياه وجراياته وخزائنه ومطابخه ومجالسه وخدمه وحجابه على ترتيب الخلفاء المتقدمين

واستعمل على مصر فى خلافته بعد أحمد بن كيغلغ الذى صرفه فى سنة ثلاث وعشرين محمد بن طغج الاخشيدى وقد أصبحت ديار مصر فى يد ابن طغج المذكور لتغلب جميع العمال على ما بأيديهم من البلاد كما تقدم ذكر ذلك فأقام محمد بن طغج فى مصر الى أن مات فى ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة فى خلافة المستكفى بالله كما سيأتى ذكر ذلك فى محله

وصل

(وصـــــل)

(فى مبدأ الدولة الاخشيدية وفى كيفية ظهورها)

لما عظم حب الخليفة المعتصم بن هرون للاتراك وكثر اعتماده عليهم جعل يأتى بهم من البلاد البعيدة ويبذل فى ذلك الاموال الطائلة فيوليهم المناصب العالية والوظائف السامية ويجند منهم الجند ويولى القواد ويكثر من نعمته عليهم وعلى بنيهم وبناتهم ويفضلهم على سائر الغلمان والاتباع وقد علم بأن فى فرغانة جماعة من الترك موصوفين بالبأس والشجاعة والتدرب على الحرب والقتال ومنهم شاب اسمه جف من أولاد ملوكهم فسير فى طلبهم فجاؤا وجاء جف المذكور معهم فلما رآه المعتصم مال اليه وأحبه وأدناه من بابه وأقطعه اقطاعا بسر من رأى وما زال فى نعمة وافرة الى أن مات ببغداد سنة سبع وأربعين ومائتين هجرية فخرج أولاده فى طلب العيش والاسترزاق واتصل أحدهم وهو طغج بلؤلؤ غلام أحمد بن طولون بمصر فمال اليه لؤلؤ واستخدمه على مصر وأقام على هذا الحال حينا ثم انحاز الى أحمد بن كنداج فلم يزل معه الى أن مات أحمد بن طولون ووقع الصلح بين ابنه خماروية وبين ابن كنداج ونظر خماروية الى طغج فأعجبه فأخذه من ابن كنداج وقربه اليه وقدمه على سائر من معه ثم قلده دمشق وطبرية وما زال على نعمة من خماروية حتى قتل خماروية فلحق طغج بالخليفة المكتفى فاحبه وخلع عليه خلعة الرضا وكان وزير الخليفة يومئذ العباس بن الحسن فطلب من طغج أن يجرى معه مجرى التذلل كغيره من أرباب المناصب فاكبر طغج هذا الأمر وأعظمه فأغرى به الخليفة المكتفى فحبسه وحبس معه ابنه أبا بكر محمدا فما زال طغج معتقلا حتى مات بالسجن وبقى أبو بكر محمد مسجونا أياما ثم ذكره الخليفة المكتفى فأطلقه وخلع عليه فجعل هو وأخوه عبد الله يرصدان العباس بن الحسن الوزير ليأخذا بثار أبيهما حتى تمكنا من قتله وخرجا الى الشام فى سنة ست وتسعين ومائتين هجرية وقيل هرب طغج الى الشام وأخوه عبد الله الى ابن أبى الساج وأقام أبو بكر محمد متغربا فى البرية حولا كاملا ثم اتصل بأبى منصور تكين الجزرى فكان من أعاظم المقربين اليه ومن كان عليهم معتمده وولاه عمل عمان وجبل الشراة فأحسن السيرة وأخلص لابى منصور السريرة فسيره سرية الى قوم قطعوا طريق الحاج فقاتلهم حتى ظفر بهم ومزق شملهم وأسر منهم جماعة وفتح الطريق للحجاج وكان ممن سار مع الحج فى تلك السنة امرأة من دار الخليفة المقتدر يقال لها العجوز فلما عادت حدثت المقتدر بما رأت من أبى القاسم محمد فأنفذ اليه خلعا وزاد فى رزقه ولبث أبو بكر محمد فى صحبة تكين الى ان كانت سنة ست عشرة وثلاثمائة هجرية فارقه لاسباب وسار الى الرملة

فجاءته كتب الخليفة المقتدر بالولاية عليها فتولاها وأقام يتصرف فيها الى سنة ثمان عشرة وثلاثمائة هجرية فكتب اليه المقتدر بولاية دمشق فسار اليها ولم يزل بها الى أن ولاه القاهر بالله ولاية مصر فى رمضان سنة احدى وعشرين وثلاثمائة بعد موت تكين ولى على الصلات ولم يدخلها أميرا عليها الا فى ولايته الثانية ودعى له فيها على المنابر وهو بدمشق اثنين وثلاثين يوما وقيل ثلاثين يوما ثم صرف عنها وولى مكانه ابن كيغلغ من قبل الراضى بالله بن المقتدر وصرف عنها ثم وليها أبو بكر محمد فدخلها أميرا فى رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وقد ضم اليه البلاد الشامية والجزيرة والحرمين وغير ذلك وقيل كان على مصر فقط كل أيام الراضى والذى ضم اليه ماذكر من البلاد المتقى أخو الراضى وزاد فى نعته واضاف الى ألقابه « الاخشيد » والاخشيد لقب ملوك فرغانة وهو من أولادهم كما تقدم ومعناه ملك الملوك وكان هذا اللقب عند ملوك فرغانة ككسرى عند فارس وقيصر عند الروم ودعى له بهذا اللقب على المنابر واشتهر به حتى نسب اليه ورثته المعروفون بالدولة الاخشيدية وتعرف أيضا بدولة بنى طغج وقد اكتسب شهرة واسعة وعم ذكره الآفاق وهابه الملوك وتقربوا منه وهادوه وتوادوا اليه وخرج من صلبه ملوك على ديار مصر عرفوا بالدولة الاخشيدية فهو الامير أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن يلتكين وقيل بلكتكين بن فوران بن فورى بن خاقان الفرغانى الاصل صاحب سرير الذهب ويقال له فى بعض التواريخ إخشيذ بالذال المعجمة ثم كان من أخباره وحوادث أيامه ما سيذكر فى محله ان شاء الله

(الفصل الحادى والعشرون)

(فى خلافة أبى اسحاق ابراهيم المتقى لله بن المقتدر)

ثم قام بالامر بعد الراضى ابن أخيه أبو العباس ابراهيم المتقى لله بن المقتدر بن المعتضد بويع له بالخلافة فى العشرين من ربيع الاول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة هجرية أى سنة أربعين وتسعمائة ميلادية وعرضت عليه ألقاب فاختار منها المتقى لله وبايعه الناس كافة فصلى بالناس وصعد على سرير الخلافة وسير الخلع واللواء الى بجكم بواسط وكان بجكم هذا واسع الكلمة كبير الشهرة فلما ارتقى منصب الصدارة لم يبق للخليفة معه سوى الاسم فقط وغلب أبو الوفا تورون التركى على مابقى من الامر للخليفة وظل حال المتقى هكذا مابين بجكم وأبى الوفا تورون حتى خرج بجكم يوما يتصيد فبلغ نهر جور فسمع أن هناك أكرادا لهم مال وثروة فشرهت نفسه الى أخذ المال فقصدهم فى قلة من أصحابه فهرب الاكراد من بين يديه ورمى هو أحدهم فلم يصبه فرمى آخر فأخطأه أيضا وكان سهمه لايخيب فأتاه غلام من

الاكراد

الاكراد من خلفه وطعنه فى خاصرته فقتله لاربع بقين من رجب فلما قتل بجكم تفرقت
جنوده وانحدر الديلم منهم الى أبى عبد الله البريدى وكان قد خرج عن طاعة الخليفة وكانوا
منتخبين ليس فيهم حشو ولا دخيل فقوى بهم وعظمت شوكته فترفعوا الى واسط وعلم
الخليفة المتقى بحالهم فأرسل اليهم يأمرهم بأن لايصعدوا فقالوا نحن محتاجون الى
مال فان أنفذ لنا منه شئ تربصنا فأنفذ اليهم مائة ألف وخمسين ألف دينار فلم يقنعوا
فخافهم واستمال اليه جماعة الاتراك وبعض أجناد بغداد القدماء وبذل فيهم مالا قدره
أربعمائة ألف دينار وجعل عليهم سلامة الطولونى مقدما فاصلحوا حالهم ودبروا أمرهم
وبرزوا مع المتقى الى نهر ديالى ووصل البريدى من واسط الى بغداد فاختلف عند وصوله
جماعة الاتراك واستأمن بعضهم اليه وسار بعضهم الى الموصل واختفى سلامة الطولونى
وخاف أهل بغداد فهمّ الكثير منهم الى الخروج خوفا من البريدى وعسفه وظلمه ودخل
الى بغداد فلقيه الوزير أبو الحسن والقضاة والكتاب وأعيان الناس وكان معه عدة
سفن كثيرة فانفذ اليه المتقى يهنئه بسلامته وأظهر له اللين والتلطف عليه لينكف وأنفذ
اليه طعاما وغيره عدة ليال وجعل يخاطبه بالوزير ثم أنفذ البريدى الى المتقى يطلب
خمسمائة ألف دينار ليفرقها فى الجند فامتنع من ذلك فارسل اليه يتهدده ويذكره
ماجرى على المعتز والمستعين والمهتدى وترددت الرسل فانفذ اليه تمام خمسمائة ألف دينار
ولم يلق البريدى الخليفة المتقى مدة مقامه ببغداد فلما صار اليه المال انصرفت أطماع
الجند عن الخليفة الى البريدى وناووه الشر وعادت مكيدته عليه فشغبوا وكان الديلم قد
قدموا على أنفسهم كورتكين الديلى وقدم الاتراك تكينك التركى غلام بجكم فاتفقوا معا
على الايقاع بالبريدى ونهب ماعنده فساروا الى مقره وتبعتهم العامة فقطع البريدى الجسر
ووقعت الحرب فى الماء ووثب العامة بالجانب الغربى من بغداد على أصحاب البريدى
فهرب هو وأخوه وابنه أبو القاسم وأصحابه وانحدروا الى واسط فنهبت داره ودور قواده
فدخل كورتكين على الخليفة المتقى وأخبره بخبر البريدى وما جرى عليه ففرح بذلك وقلده
امارة الامراء وخلع عليه فتاقت نفس كورتكين الى التفرد بالامر فقبض على تكينك
التركى وغرّقه وتفرد بالامر فعلت كلمته وطغت جماعة الديلم وزاد شرهم فاخرجوا الناس
من دورهم وسكنوا هم فيها فشكا الناس منهم الى كورتكين فلم يلتفت اليهم فثارت العامة
ومنعت الخطيب من الصلاة وقاموا على جماعة الديلم فاقتتلوا قتالا عنيفا فقتل من
الفريقين جماعة كثيرة ولما كثر شر الديلم واتسعت كلمة كورتكين ضاقت أمور المتقى لله
وحار وكتب الى ابن رائق بدمشق يستقدمه الى بغداد ليوليه امارة الامراء مكان كورتكين
فجمع اليه ابن رائق جماعة كثيرة من الاتراك وكان فيهم من القواد توزون وفشتكين
وغيرهما وسار بهم من دمشق بعد أن استخلف أبا الحسن أحمد بن علىّ بن مقاتل فلما علم
كورتكين بقدومه خرج من بغداد الى عكبرا ووصل اليه ابن رائق فوقعت الحرب



بثهم واتصلت عدة أيام ثم سار ابن رائق من عكبرا ليلا مع عسكره فاصبح ببغداد دخلها من الجانب الغربى وعبر من الغد الى الخليفة المتقى فلقيه وركب معه فى دجلة ثم عاد فلحقه فى ثانى يوم كورتكين بجيوشه من الجانب الشرقى ثم دخل بغداد فأيس ابن رائق من ولايتها وخاف شر العاقبة فامر بحمل أثقاله والعود الى الشام وترك الخليفة وكورتكين وشأنهما فلما شاع هذا الخبر أخذ الناس أيضا فى رفع أثقالهم يريدون الخروج عن بغداد ثم ان ابن رائق عزم أن يناوش كورتكين وأصحابه شيأ من قتال قبل مسيره فرسم لطائفة من عسكره أن يعبروا دجلة ويأتوا الاتراك من ورائهم وركب هو سميرية وركب معه جماعة من أصحابه فى عشرين سميرية ووقفوا يرمون الاتراك بالنشاب ووصل أصحابه وصاحوا من خلفهم واجتمعت العامة مع أصحاب ابن رائق يضجون فظن كورتكين أن العسكر كبس عليه من خلف ومن أمام فانهزم هو وأصحابه شر هزيمة واختفى كورتكين ورجم العامة أصحابه بالآجر والاحجار فقوى أمر ابن رائق وأخذ من استأمن اليه من الديلم فقتلهم عن آخرهم وكانوا زهاء أربعمائة فلم يسلم منهم غير رجل واحد اختفى بين القتلى وحمل معهم وألقى فى دجلة فنجا وعاش طويلا وقتل جميع الاسرى من القواد وكانوا بضعة وعشرين رجلا فخلع عند ذلك المتقى على ابن رائق وجعله أمير الامراء وبث ابن رائق العيون حول كورتكين حتى قبض عليه واعتقله فى دار الخليفة وكان البريدى فى غضون هذه الحوادث بواسط فاستعظم أمر ابن رائق وحسده فأخر عنه حمل المال فكاتبه ابن رائق فى ذلك فلم يرسل شيأ فانحدر ابن رائق الى واسط فهرب بنو البريدى الى البصرة ثم عادوا وضمنوا بقايا واسط وعاد ابن رائق الى بغداد فخرجت عليه الجنود وفيهم توزون وغيره من القواد فلم يقدر على ردهم فتركوه ورحلوا الى ابن البريدى بواسط وتحزبوا اليه ففرح بقدومهم وقوى بهم وعزم على الشخوص الى دار السلام ثم لم يلبث أن سيّر الى بغداد جيشا عظيما من الاتراك والديلم ومقدمه أخوه أبو الحسين البريدى فلما أحس ابن رائق بقدومهم تحصن بدار الخليفة ورمّ سورها ونصب عليه المنجنيقات والعرادات وحصن دجلة وحرك العامة للقتال وجند منهم جماعة فثاروا فى بغداد وأحرقوا ونهبوا وأخذوا الناس ليلا ونهارا قبل أن تصل جيوش ابن البريدى وخرج المتقى لله وابن رائق وتبعهما أصحابهما فاقتتلوا مع البريدى وأصحابه فانهزم أهل بغداد واستولى أصحاب البريدى على دار الخليفة وهرب المتقى وابنه الامير أبو منصور فى نحو عشرين فارسا ولحق بهما ابن رائق فى جيشه فساروا جميعا نحو الموصل وقتل أصحاب البريدى من وجدوه فى دار الخليفة من الحاشية فنهبوها ونهبوا دور الحرم وكثر النهب وعم بغداد ليلا ونهارا وأخذوا كورتكين من حبسه وأنفذه أبو الحسين بن البريدى الى أخيه عبد الله البريدى بواسط فكان آخر العهد به * واشتد البلاء على أهل بغداد وعظم الامر

ووقع الغلاء وعزت الاقوات وأخذ القوى بالضعيف ووقعت الفتن بين الناس فضجوا وعجوا وابتهلوا الى الله

ولما عظم أمر البريدى وأراد الشخوص من واسط الى دار السلام فى جيوشه وعرف الخليفة المتقى ما وراء ذلك أنفذ الى ناصر الدولة بن حمدان يستمده على البريدى فأرسل أخاه سيف الدولة علىّ بن عبد الله بن حمدان نجدة له فى جيش عظيم فلقى المتقى وابن رائق فى تكريت منهزمين فسار معهما الى الموصل ففارقها صاحبها ناصر الدولة وعبر الى الجانب الشرقى من دجلة وكان بينه وبين ابن رائق وحشة قديمة وكان كل منهما يضمر للآخر السوء فترددت الرسل بينهما على الصلح فاصطلحا وعبر الأمير أبو منصور بن المتقى وابن رائق يسلمان على ناصر الدولة فنثر الدنانير والدراهم على ولد المتقى فلبثا عنده برهة فلما أراد الانصراف ركب ابن المتقى وأراد ابن رائق الركوب فقال له ناصر الدولة تقيم اليوم عندى لنتحدث فيما نفعله فاعتذر ابن رائق بابن المتقى فألح عليه ابن حمدان فاستراب ابن رائق من الحاحه وجر بكمه من يده فقطعه وأراد الركوب فشب به الفرس فسقط فصاح ابن حمدان بأصحابه اقتلوه وألقوه فى دجلة * وأرسل ابن حمدان الى المتقى يقول انه علم بأن ابن رائق أراد أن يقتاله ففعل به ذلك فرد عليه المتقى ردا جميلا ورسم اليه بالحضور لديه فسار اليه فخلع عليه المتقى ولقبه ناصر الدولة وجعله أمير الامراء وخلع على أخيه أبى الحسين علىّ ولقبه سيف الدولة * وجاء الخبر الى الاخشيد صاحب مصر بموت ابن رائق ففرح وسار من مصر الى دمشق فى عسكر كثيف يريد أخذها من خليفة ابن رائق فلما وصلها استأمن اليه خليفة ابن رائق وتسلمها الاخشيد فبسط يده على ماجاورها مضافا ذلك الى ديار مصر وطال مكث ابن البريدى ولومه ببغداد وزاد عسفه وظلمه وجوره فكرهته العامة وكانت لاتنكف عن مشاغبته ففارقه الجند وانضموا الى الخليفة المتقى لله وابن حمدان فكثرت جموعهما وقويت عزيمة الخليفة فزحفوا جميعا الى بغداد فهرب ابن البريدى واضطرب العامة ببغداد ونهب الناس بعضهم بعضا ودخل المتقى الى بغداد ومعه بنو حمدان فى جيوش عظيمة فأقام بها والكلمة لبنى حمدان ثم لتورون وغيره من كبار الاتراك وعظماء الديلم والخليفة فى أيديهم كالآلة الصماء فلما ضاقت عليه المذاهب خرج من بغداد الى الموصل وأرسل الى الاخشيد محمد بن طغج متولى مصر يشكو حاله ويستقدمه فأتاه من مصر ووصل اليه وهو بالرقة فأكرمه المتقى وأجله ووقف الاخشيد وقوف الغلمان ومشى بين يدى المتقى وحمل اليه هدايا عظيمة وكذلك لوزيره أبى الحسين بن مقلة وسائر الاصحاب وتقدم الى المتقى فى أن يسير معه الى مصر والشام ويكون بين يديه فلم يفعل لخوفه من الرجوع الى بغداد وحذره من توزون التركى وغدره وقال له يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الاتراك وغدرهم فلا تأمن على نفسك فلم يقبل فقال له فأقم هنا وأنا أمدك بالمال والرجال فلم يقبل المتقى وصمم على الرجوع الى دار السلام وكان قد أنفذ رسلا الى توزون فى الصلح فتم الصلح وحلف توزون



على الطاعة لأمير المؤمنين فانحدر المتقى من الرقة فى الفرات الى دار السلام لاربع بقين من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وعاد الاخشيد الى مصر فلما وصل المتقى الى هيت أقام بها وأنفذ من يجدد اليمين على توزون فعاد وحلف وسارعن بغداد ليلتقى مع المتقى فالتقى معه بالسندية فنزل توزون وقبل الارض وقال ها أنا قد وفيت بيمينى والطاعة لك ثم وكل به وبالوزير وبالجماعة وأنزلهم فى مضربه مع نساء المتقى وأنفذ رسله الى دار ابن طاهر ليحضروا المستكفى فلما حصل فى المضرب قبض على المتقى وسمل عينيه فصاح وصاح من عنده من النساء والخدم فأمر توزون بضرب الدبادب حول المضرب لئلا تظهر أصواتهم فخفيت أصواتهم وعمى المتقى لله وانحدر توزون من الغد الى دار السلام ومعه المتقى ووزيره ابن مقلة وقاضيه أحمد بن عبد الله بن اسحق فكانت خلافة المتقى لله ثلاث سنين وخمسة أشهر وثمانية عشر يوما وكان خلعه فى يوم السبت لعشربقين من صفر وبقى الى أن مات سنة سبع وسبعين وثلثمائة

ولما امتنع المتقى من المسير مع الاخشيد الى ديار مصر ومن البقاء فى الرقة تحول عنه الاخشيد الى دمشق فجرى للخليفة ما جرى ووصل الاخشيد الى دمشق وولى عليها الحسين بن لؤلؤ ثم صرفه من عامه الى نيابة حمص وولى على دمشق يانس المؤنسى وعاد الى مصر فدخلها فى جمادى الاولى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ثم ورد عليه الخبر بخلع المتقى ومبايعة المستكفى فأسف لذلك جدا وكان من أمره بعد ذلك ماسيذكر فى خلافة المستكفى

وفى سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة أى فى خلافة المتقى المذكور قدم المتأصلون غبريال بطركا للاسكندرية بعد الفترة التى خلا فيها المنصب البطريكى وقدرها أربع عشرة سنة كما تقدم الكلام على ذلك فكان غبريال هذا سابع خسيهم وأصله راهب من دير أبى مقار وهو من أهل المنوفية وقد أخذت فى أيامه الديارية على النساء والرجال تخلصا من طلبات ابن طغج الاخشيد وفرارا من الشدة التى نالتهم جميعا بسبب ذلك فحصل منها شئ كثير جدا وعم لذلك الضيق وكثرت الكوارث وبلغت الشدة الى حد لا يطاق

(الفصل الثانى والعشرون)

﴿ فى خلافة المستكفى بالله بن المكتفى ﴾

ثم قام بالامر بعد المتقى ابن عمه أبو العباس عبد الله المستكفى بالله بن المكتفى بالله على ابن المعتضد بالله بويع له بالخلافة بالسندية يوم خلع المتقى لله سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة هجرية أى سنة أربع وأربعين وتسعمائة ميلادية وهو يوم السبت لثلاث خلون من صفر حكى أبو العباس التميمى الرازى وكان من خواص توزون قال كنت أنا السبب فى البيعة

المستكفى

للمستكفى وذلك أنه دعانى ابراهيم بن الزوبندار الديلمى فمضيت اليه فذكر لى أنه تزوج الى قوم وأن امرأة منهم قالت له ان هــذا المتقى قد عاداكم وعاديتموه وكاشفكم ولا يصفو قلبه لكم وههنا رجل من أولاد الخلفاء من ولد المكتفى وذكــرت عقله وأدبه ودينه تنصبونه للخلافة فيكون صنيعتــكم وغرسكم ويدلكم على أموال جليلة لايعرفها غيره وتستريحون من الخوف والحراسة قال فعلمت أن هذا الأمر لا يتم الا بك فدعوتك له فقلت أريد أن أسمع كلام المرأة فجاءنى بها فرأيت امرأة عاقلة جزلة فذكرت لى نحوا من ذلك فقلت لابد أن ألقى الرجل فقالت تعود غدا الى ههنا حتى أجمع بينكما فعدت اليها من الغد فوجدته قد أخرج من دار ابن طاهر فى زى امرأة فعرفنى نفســه وضمن اظهار ثمانمائة ألف دينار منها مائة ألف لتوزون وذكر وجوهها وخاطبنى خطاب رجل فهم عاقل ورأيته يتشيع قال فأتيت توزون فأخــبرته فوقع كلامى بقلبه وقال أريد أن أبصر الرجــل فقلت لك ذلك ولكن اكتم أمرنا من ابن شيرزاد فقال أفعل وعدت اليهم وأخبرتهم بالذى ذكر ووعدتهــم حضور توزون من الغد فلما كان ليلة الأحد لأربع عشرة خلت من صــفر مشيت مع توزون مستخفيين فاجتمعنا به وخاطبه توزون وبايعــه تلك الليلة وكتم الأمر فلما وصــل المتقى قلت لتوزون لما لقيــه أنت على ذلك العزم قال نعم قلت فافعله الساعة فانه ان دخل الدار بعــد عليك مهامه فوكل به وسمله وجرى ماجرى وبويع المستكفى بالخلافة يوم خلع المتقى وأحضر المتقى فبايعه وأخــذ منه البردة والقضيب وصارت تلك المرأة قهرمانة المستكفى وسمت نفسها عــلم وغلبت على أمره كله واستوزر المستكفى أبا الفرج محمــد بن علىّ الشارى فلم يكن له من الوزارة الا الاسم فقط والكلمة لابن شــيرزاد وحبس المتقى وخلع المستكفى بالله على توزون خلعة وتاجا اهـ

فلما كان يوم الاثنــين انحــدر المستكفى فى الماء راكبا فى الطيار المسمى الغزالة وعليه قلنسوة طويلة محــدودة يقال انها كانت لابيه المكتفى بالله وعلى رأسه توزون التركى ومحمد ابن محمد بن يحيى شيرزاد وجماعة من غلمانه وسلم اليه المتقى ضريرا وأحمد بن يحيى القاضى مقبوضا عليه وحضر بعد ذلك جميع القضاة مع الهاشميين فبايعوا له وجلس للناس وسأل عن القضاة وكشف عن أمور شهود الحضرة فأمر باسقاط بعضهم وقبول بعضهم لاشياء كان قد علمها منهم قبل الخلافة واستتابة بعضهم من الكذب فامتثل القضــاة ما أمر به من ذلك واستقضى على الجانب الشرقى محمد بن عيسى المعروف بابن أبى موسى الحنفى وعلى الجانب الغربى الحسن بن أبى الشوارب الأموى الحنفى فتطيرت من ذلك العامــة وقالت يومئــذ الى ههنا انتهى سلطانه وانتهى فى الخــلافة أمره ونهيــه * وما دخلت ســنة أربع وثلاثين وثلاثمائة حــتى مرض توزون التركى وانقطع بداره فى بغــداد أياما ثم مات ففرح الخليفة المستكفى بخــبر موته وظن رجوع الامر والكــلمة اليــه فكانت مــدة امارة توزون على ما قاله أصحاب التــاريخ سنتين وأربعة أشهر وتسعة عشريوما



ولما مات توزون كان ابن شيرزاد بناحية هيت لتخليص أموالها فلما جاء الخبر عزم على عقد الامارة لناصر الدولة ابن حمدان فاضطربت الاجناد لذلك وعقدوا الرياسة عليهم لابن شيرزاد فحضر الى بغداد ونزل خارجها فخرج اليه جميع الجند واجتمعوا عليه وحلفوا ووجه الى الخليفة المستكفي بالله ليحلف له فأجابه الى ذلك وحلف له بحضرة القضاة والعدول ودخل اليه ابن شيرزاد فأكرمه وأجله وخرج فزاد في مرتبات الجند زيادة عظيمة فضاقت الأموال عليه وعز نوالها فأرسل الى ناصر الدولة مع أبي عبد الله محمد بن أبي موسى الهاشمي وهو بالموصل يطالبه بالمال ويعده برد الرياسة اليه فأنفذ له خمسمائة ألف درهم وشيأ من الاقوات كثيرا ففرقها في العسكر فلم تكف فقسط الاموال على العمال والكتاب والتجار وغيرهم لأرزاق الجند وظلم الناس ببغداد وكثرت طلباته فظهر اللصوص وارتفع الأمن وكثر العسف والعربدة فهرب التجار وأصحاب الاموال وجعل يعزل ويولي الولاة والعمال فاستعمل ينال كوشه على واسط والشكري على تكريت فاما ينال فانه كاتب معز الدولة بن بويه واستقدمه الى بغداد وحلف له بالطاعة اليه ان هو قدم على بغداد وكان ابن بويه يومئذ بالاهواز فسار منها الى بغداد في جمع عظيم فلما شاع خبر قدومه اضطرب الناس في بغداد واختفى المستكفي بالله وابن شيرزاد أياما ثم ترددت الرسل بين المستكفي وبين ابن بويه فظهر وعاد الى دار الخلافة ببغداد ووصل عز الدولة في جموعه فدخل من باب الشماسية واجتمع بالخليفة المستكفي وبايعه وحلف له المستكفي وخلع عليه ولقبه في ذلك اليوم معز الدولة ولقب أخاه عليا عماد الدولة ولقب أخاه الحسن ركن الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم وجعل يتصرف في الامور كما يشاه ورتب للمستكفي بالله كل يوم خمسة آلاف درهم وأمن ابن شيرزاد فظهر وحضر الى بغداد ولقي معز الدولة فولاه الخراج وجباية الاموال

ولما سكنت الامور واطمأنت الخواطر أولمت علم قهرمانة المستكفي وليمة عظيمة دعت اليها جماعة من قواد الديلم والاتراك ولم تعلم معز الدولة بخبرها فاستعظم معز الدولة ذلك منها واتهمها بأنها انما فعلت ذلك لتأخذ عليهم البيعة للمستكفي فيزيلون معز الدولة عن منصبه وجعل من ذلك اليوم يعمل على خلع المستكفي ويدبر الحيلة على الايقاع به فلما كان ثاني عشري جمادى الآخرة حضر معز الدولة والناس عند الخليفة ثم حضر رجلان من نقباء الديلم يصيحان فتناولا يد المستكفي بالله فظن أنهما يريدان تقبيلها فمدها اليهما فجذباه عن سريره وجعلا عمامته في حلقه فنهض عند ذلك معز الدولة وخرج من الدار وساق الرجلان المستكفي بالله ماشيا الى دار معز الدولة فاعتقل بها واضطرب الناس ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شيء وأخذت علم القهرمانة فقطع لسانها فكانت مدة خلافة المستكفي بالله سنة واحدة وأربعة أشهر كان فيها مغلوبا على أمره مع توزون وابن شيرزاد حدث أبو اسحق ابراهيم بن اسحق المعروف بابن الوكيل وهو ممن كان في خدمة

المستكفي

المستكفى قال كان المستكفى فى سائر أوقاته فازعا وجلا من المطيع أن يلى الخلافة ويسلم اليه فيحكم فيه بما يريد فكان صدره يضيق لذلك فيشكو الامر فى بعض الاوقات الى من كان يألفه من ندمائه فيشجعونه ويهونون عليه أمر المطيع الى أن قال لهم فى بعض الايام قد اشتهيت أن نجتمع فى مكان كذا وكذا فنتذاكر فى أنواع الأطعمة وما قال الناس فى ذلك منظوما فاتفق معهم على ذلك فلما كان فى اليوم الذى حضروا أقبل المستكفى فقال هاتوا ما أعددتم كل واحد منكم فقال بعضهم أبياتا طوالا فى وصف سلة سكادج كوامخ فأمر المستكفى أن تحضر هذه الجونة بعينها على ما وصفها القائل ثم قال آخر وآخر والمستكفى يأمر باحضار كل ما يجرى فى وصفه ما يمكن احضاره قال أبو اسحق فلم أر المستكفى منذ ولى الخلافة أشد سرورا منه فى ذلك اليوم وأجاز جميع من حضر من الجلساء والندماء والملهين ثم أحضر ما حضره فى وقته من عين وورق عند ضيق الأمر عليه فوالله مارأيت له بعد ذلك يوما مثله حتى قبض عليه أحمد بن بويه الديلمى وسمل عينيه اه

وبقى المستكفى معتقلا فى دار معز الدولة بن بويه الى أن مات فى سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة وهو ابن ست وأربعين سنة وكان أبيض حسن الوجه قد وخطه الشيب * ولما قبض عليه بويع بعده للمطيع لله

وكان لما ولى المستكفى الخلافة أرسل الى محمد بن طغج الاخشيد فأمره على ولاية مصر والشام فلم يحفل بذلك لعلمه أن أركان دولته ثابتة لاتتزعزع فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وقعت بينه وبين سيف الدولة منافرة واشتدت شدة بالغة ثم اصطلحا على أن يكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص وباقى بلاد الشام للاخشيد ولتوكيد الصلح بينهما تزوج سيف الدولة بنت أخى الاخشيد ولكن لم يلبثا طويلا على هذا الحال حتى وقع النفور بينهما ثانية فجهز الاخشيد جيشا عظيما لقتال سيف الدولة وسيره مع خادمه كافور وأبى شجاع فاتك المجنون ثم خرج الاخشيد خلفهم فى شعبان من السنة واستخلف أخاه أبا المظفر وسار حتى لقى سيف الدولة بقنسرين فحاربه وقهره وفرق جموعه وأخذ منه حلب ثم بلغه خلع المستكفى فعاد الى دمشق وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر فى خلافة المطيع

(الفصل الثالث والعشرون)

(فى خلافة أبى الفضل المطيع لله بن المقتدر)

ثم قام بالامر بعد المستكفى ابن عمه أبو الفضل المطيع لله بن المقتدر بن المعتضد بويع

له بالخلافة لسبع بقين من شعبان سنة أربع وثلاثين وثلثمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وتسعمائة ميلادية وهو يوم خلع ابن عمه المستكفى بالله وله من العمر يومئذ أربع وثلاثون سنة وأحضر المستكفى عنده فسلم عليه بالخلافة وأشهد على نفسه بالخلع وقد سمل معز الدولة عينيه وأعماه كما تقدم فلم يكن للطيع من الخلافة الا الاسم فقط فقد ازداد أمر الخلافة إدبارا وزالت حرمتها أو كادت على يدى معز الدولة بن بويه فلم يبق فى يد المطيع لا أمر ولا نهى ولا خلافة تعرف ولا وزارة تذكر واختل النظام واستخف الديلم بمقام الخلافة فكانوا يقولون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها وكانوا يتشيعون ويغالون فى التشيع فلم يبق عندهم وازع دينى يحثهم على الطاعة * قال صاحب الكامل حتى لقد بلغنى أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه فى اخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوى أو لغيره من العلويين فكلهم أشار عليه بذلك ما عدا بعض خواصه فانه قال ليس برأى فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لقتلوك فأعرض عن ذلك قال فهذا كان من أعظم الاسباب فى زوال أمرهم ونهيهم مع حب الدنيا وطلب التفرد بها اه

وتزع معز الدولة من الخليفة العراق بأسره وما والاه فلم يبق مع الخليفة منه شئ البتة الا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجة الخلافة فاشتد الحال على المطيع وعظم الخطب ولبث على هذا الحال طويلا وكان معز الدولة اذا أراد غزو جهة حمل معه الخليفة المطيع ليوهم الناس أنه انما يحارب بالخليفة ومعه والامر على عكس ذلك واشتد فى التشيع للعلويين فأمر أصحابه ببغداد فكتبوا على المساجد ما هذه صورته * لعن الله معاوية بن أبى سفيان ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها فدكا ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ومن نفى أبا ذر الغفارى ومن أخرج العباس من الشورى اه فأغضب ذلك الخليفة ولكنه كان محكوما عليه لا يقدر على المنع فلما كان الليل محا الكتابة بعض الناس فغضب معز الدولة وأراد اعادة ما محى فأشار عليه الوزير أبو محمد المهلبى بأن يكتب مكان ما محى لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يذكر أحدا فى اللعن الا معاوية ففعل ذلك * وسار معز الدولة فى سنة ست وخمسين الى واسط ليجهز فيها الجيوش لمحاربة عمران بن شاهين صاحب البطائح فلما هم بالمسير ابتدأ به مرض الاسهال وقوى عليه فأحجم عن الخروج الى ابن شاهين وسار الى بغداد وخلف أصحابه ووعدهم أن يعود اليهم فلما وصل الى بغداد اشتد به مرضه فلما أحس بالموت عهد الى ابنه عز الدولة بختيار وأظهر التوبة وتصدق بأكثر ماله وأعتق مماليكه ورد شيأ كثيرا على أصحابه مما كان قد اغتاله ثم مات ودفن بمقابر قريش فكانت امارته احدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا ويومين فجعل ابنه بختيار

يتصرف فى الامور فأساء السيرة وجار وظلم وصرف عنه كبار الترك والديلم وأبغض صغارهم وضيق على الخليفة المطيع وطالبه بمال كثير فاعتذر وقال من أين لى ذلك ولم يبق لى من حكم البلاد سوى الاسم والخطبة فان شئتم أن أعتزل فعلت فلم يقبل منه وتهدده فبذل له المطيع أربعمائة ألف درهم واحتاج الى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك وبلغ فساد الامور الى حد لا يطاق فكثر ادلال الجند على بختيار واطراحهم لجانبه وشغبهم عليه ومطالبتهم له بالارزاق والجوامك المتأخرة وقد قلت عنده الاموال وتعذر عليه تسكين خواطر الجند ولم يجد دوانه ووزيره جهة يحتال منها بشئ فسار الى الموصل بهذا السبب فلم يفتح عليه فسار منها الى الاهواز ليتعرض الى متوليها ويأخذ منه مالا وتخلف عنه سبكتكين التركى أحد كبار الجند الاتراك ولم يسر معه فلما وصل الى الاهواز لاقاه متوليها وخدمه وقدم له الطاعة وحمل له أموالا جليلة المقدار وبختيار يفكر فى طريق يأخذه به فاتفق أنه جرت فتنة بين الاتراك والديلم سببها مضاربة بين غلام تركى وآخر ديلمى فاتصل خبر ذلك بأصحاب كل واحد منهما فقام بعضهم على بعض واقتتلوا فقتل منهم خلق كثير وخرجوا الى ظاهر البلد فاجتهد بختيار فى تسكين الفتنة فلم يفلح فاستشار جماعة الديلم فى ذلك وفيما يفعله وكان أذنا يتبع كل قائل فأشاروا عليه بالقبض على كبار الاتراك لتصفو له البلاد فمال الى ذلك وقبض على جميع كبارهم وقيدهم وأطلق الديلم فى الاتراك فقتلوا ونهبوا أموالهم وهرب الاتراك ولحقوا بسبكتكين وكان بختيار قد دبر الحيلة للقبض على سبكتكين أيضا فلم يفلح وظهرت حيلته فركب سبكتكين عند ذلك فيمن جاءه من الاتراك وحصروا دار بختيار يومين ثم أحرقوها ودخلوها وأخذ ابنى عز الدولة ووالدتهما ومن كان معهما وسيرهم الى واسط فانحدر معهم الخليفة المطيع لله فاسترجعه سبكتكين ورده الى داره واستولى على ما كان لبختيار جميعه ببغداد ونزل الاتراك فى دور الديلم وتتبعوا أموالهم وأخذوها وثارت العامة من أهل السنة ينصرون سبكتكين لانه كان سنيا فخلع عليهم وجعل لهم العرفاء والقواد فتقووا وثاروا بالشيعة وحاربوهم فكانت كأنها حرب دينية وسفكت بينهم الدماء وأحرقت الدور وزال الامن وكثر السلب والنهب فى الليل والنهار واشتد البلاء وعظمت الفتنة وما زالت نارها تتأجج حتى تم الامر لسبكتكين فجعل يتصرف ثم لم يلبث أن آنس من الخليفة المطيع التكره له وكان المطيع به مرض الفالج وقد ثقل لسانه وتعذرت الحركة عليه فدعاه سبكتكين الى أن يخلع نفسه من الخلافة ويسلمها الى ابنه الطائع ففعل وأشهد على نفسه بالخلع ثالث عشر ذى القعدة سنة ثلاث وستين وثلثمائة فكانت خلافته تسعا وعشرين سنة وخمسة أشهر الا أياما وكان وطىء الجانب كثير الصدقات حسن الاخلاق

ولما سار الاخشيد من حلب الى دمشق بعد انتصاره على سيف الدولة وورد الخبر اليه بخلع المستكفى وبيعة المطيع كما تقدم لبث بها أياما فمرض واشتدت علته ومات يوم الجمعة لثمان بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة فحملوا تابوته الى بيت المقدس

فدفن هنالك وكانت ولادته فى سنة ثمان وستين ومائتين هجرية ببغداد بشارع باب الكوفة وكان ملكا حازما متيقظا حسن التدبير عارفا بالحروب مكرما للجند شديد البطش ذا قوة عظمية لايكاد أحد يجرّ قوسه وله هيبة فى قلوب الرعية وكان متجملا فى مركبه وملبسه فكان موكبه يضارع موكب الخليفة وبلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف وعدد جيوشه أربعمائة ألف وكان بكره سفك الدماء شديد التحرز على نفسه فكانت تحرسه مماليكه بالمناوبة واذا نام حرسه ألف مملوك وعاش ستين سنة وقيل ستا وستين وخلف عدة ذكور ولما مات تولى الملك بعده ابنه أبو القاسم آنوجور الاخشيد فى ثانى يوم وفاة أبيه ولاه الخليفة المطيع على سائر ما كان لابيه مع حداثة سنه وجعل مدبر مملكته كافورا الخادم الاسود فكان آنوجور مغلوبا على أمره ليس له من الملك سوى الاسم والكلمة لكافور فكان كافور يطلق لآنوجور فى كل سنة أربعمائة ألف دينار ويتصرف بما يبقى واتسعت كلمة كافور وهابه الناس فالتمس من أبى بكر محمد بن علىّ بن مقاتل صاحب خراج مصر وحشة فقبض عليه فى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة وخلعه وولى مكانه محمد بن على المادرانى * وسار آنوجور الى دمشق ولبث بها ماشاء ثم رحل عنها الى مصر فلم يستقر به المقام حتى جاء الخبر باستيلاء سيف الدولة على دمشق وضمها الى أملاكه فأكبر هذا الامر وأعظمه وكر راجعا الى دمشق فى عسكر عظيم ومعه عمه الحسن بن طغج وكافور الخادم وقصدهم سيف الدولة فى عسكر وجموع كثيرة فالتقوا بالرملة فى يوم الجمعة ولم يهتم بنو حمدان بلقاء عسكر آنوجور وجعلوا يطلقون فى ذلك اليوم فى أرباض البلاد فاستغنم كافور الخادم فرصة غيابهم وزحف على معسكرهم بخيله ورجله وكبسهم من كل صوب وحدب وغنم مؤنهم وذخيرتهم وسائر متاعهم ففر سيف الدولة هاربا الى الشام فتبعه كافور فى عسكره فانهزم الى حلب ثم الى الرقة فلما تم النصر لعسكر آنوجور عادوا الى ديار مصر وبينماهم عائدون جاءهم الخبر بخروج غلبون متولى الريف ونزوله على ديار مصر وتغلبه على الكثير من البلاد فأسرع آنوجور فى المسير ودخل مصر فى قلة فهرب غلبون وعادت الامور الى ما كانت عليه وسير كافور جيشا خلف أصحاب غلبون فأجلوهم عن سائر بلاد مصر وعادوا ظافرين غانمين وما زال آنوجور على حاله حتى مات فى ذى القعدة سنة تسع وأربعين وثلثمائة فكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة وعشرة أيام ودفن ببيت المقدس عند أبيه * فقام بالامر بعده أخوه علىّ الملقب بأبى الحسن فلم يكن له من حظ الملك فى جانب كافور الخادم غير ما كان لاخيه آنوجور وبقى مغلوبا على أمره * وفى أيامه قصر النيل فى زيادته سنتين متواليتين فحصل بسبب ذلك غلاء شديد ثم قحط تسع سنوات فاشتد الحال بالناس شدة بالغة وكثر الخطف والنهب وعاث اللصوص فى مصر وبقية البلاد وأفسدوا فارتفع الامن وعم الخلل وكاد الناس يفتتنون فتنة كبرى

ووقع بين أبى الحسن الاخشيد وكافور الخادم منافرة وعظمت فشاغب بعضهما بعضا أياما كانت أشد هولا على الرعية من الغلاء والقحط وقطع الطرق ثم تصالحا وما زال كافور يتصرف

فى



فى الصغير والكبير من الامور ولا كلمة لابى الحسن علىّ حتى مات سنة خمس وخمسين وثلثمائة هجرية فاستقر الملك باسم كافور وصار يدعى له على المنابر بالديار المصريه والشامية والحجاز فلم تطل أيامه ومات بمصر فى جمادى الاولى سنة سبع وخمسين وثلثمائة فكانت مدة تصرفه منفردا سنتين وأربعة أشهر * وكان عاقلا ذا رأى وتدبير واسع المعرفة كبير السياسة كيسا حازما كثير التبصر فى العواقب * قال الذهبى كان كافور هذا خصيا حبشيا اشتراه الاخشيد من بعض أهل مصر بثمانية عشر دينارا ثم تقدم عنده لعقله ورأيه الى أن صار من كبار القواد ثم لما مات استنابه صار اتابك ولده آنوجور وكان صبيا فغلب كافور على كافة الامور وصار الاسم للولد والحسن لكافور ثم استقل بالامر ولم يبلغ أحد من الخصيان مابلغ كافور ومدحه المتنبى بقوله

قواصد كافور توارك غيره * ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عين زمانه * وخلت بياضا خلفها ومآقيا

وهجاه بقوله

من علم الاسود المخصى مكرمة * أقومه البيض أم آباؤه الصيد
وذاك أن الفحول البيض عاجزة * عن الجميل فكيف الخصية السود

قال محمد بن عبد الملك الهمدانى كان بمصر واعظ يقص على الناس فقال يوما فى قصصه انظروا الى هوان الدنيا على الله تعالى فانه أعطاها لمخصوصين ضعيفين ابن بويه ببغداد وهو أشل وكافور عندنا بمصر وهو خصى فرفع اليه قوله وظنوا أنه يعاقبه فتقدم اليه بخلعة ومائة دينار وقال لم يقل هذا الا لجفائى له فكان الواعظ يقول بعد ذلك فى قصصه ما أنجب من ولد حام الا ثلاثة لقمان وبلال المؤذن وكافور * قال أبو جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوى كنت أساير كافورا يوما وهو فى مركب خفيف فسقطت مقرعته من يده فبادرت بالنزول وأخذتها من الارض ودفعتها اليه فقال أيها الشريف أعوذ بالله من بلوغ الغاية ما ظننت أن الزمان يبلغنى حتى يفعل بى هذا وكاد يبكى فقلت أنا صنيعة الاستاذ ووليه فلما بلغ باب داره ودعته وسرت فاذا أنا بالبغال والجنائب بمراكبها وقال أصحابه أمر الاستاذ بحمل هذا اليك وكان ثمنها يزيد عن خمسة عشر ألف دينار اهـ ولكافور أخبار أخرى كثيرة أضربنا عن ايرادها هنا * ولما مات كافور ولى المصريون مكانه أبا الفوارس أحمد بن علىّ بن الاخشيد وهو يومئذ ابن اثنتين وعشرين سنة وكان بالشامات التابعة لمصر حسين بن الاخشيد فلما وصل أهل الشام خبر موت كافور الخادم وولاية أبى الفوارس أحمد لم يرضهم ذلك وولوا عليهم حسينا المذكور ولكنه لم يلبث حتى قام عليه القرامطة وانتزعوا منه البلاد فجاء هاربا الى مصر وفى نفسه نزعها من يد أبى الفوارس فلم تساعده الايام على نوال ذلك وخانته الاقدار ولم يتم على ولاية أبى الفوارس حول

كامل حتى أتى جوهر القائد بجيوش المعز لدين الله المهدى المغربى صاحب افريقية فانتزعها منه كما سيذكر تفصيل ذلك فى محله

ومات فى خلافة المطيع أيضا غبريال بطرك المتأصلين فكانت مدته احدى عشرة سنة كابد فيها من البلايا والمحن ما لا يطاق فأقاموا بعده قسيما أو هو قزمان ثامن خمسيهم فلبث اثنتى عشرة سنة ومات وفى أيامه أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق الشام ونهبوا مافيها من الاوانى وغيرها وكانت قيمتها كثيرة ونهبوا كذلك ديرا للنساء بجوارها وقتلوا وسبوا ونهبوا كنائس النسطورية والمتأصلين ولم يبقوا فيها شيأ فكانت أيامه كلها شدائد فلما مات أقيم بعده مكاريوس أو هو مقار تاسع خمسيهم وهو راهب من دير أبى مقار وأصله من شبرى ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله

(وصـــــل)

﴿ فيما قال أصحاب التاريخ فى أصل الفاطميين وفى ظهور دولتهم بديار مصر وفى اعتبارنا لهم ملوكا عليها لا خلفاء كما يدعون ﴾

قال أصحاب التاريخ قد كان مبدأ ظهور هذه العائلة ببلاد المغرب سنة ست وتسعين ومائتين هجرية وقد أجمعوا على هذا وعلى أن عدد من ملك منهم أربعة عشر نفرا منهم ثلاثة ظهروا بالمغرب وماتوا أولهم أبو محمد عبيد الله فقيل هو محمد بن عبدالله بن ميمون بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب * قال بعضهم ومن ينسب هذا النسب يجعله عبد الله بن ميمون القداح الذى ينسب اليه القداحية وقال آخرون بل هو عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل الثانى بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب فيكون أبو محمد عبد الله هذا على مقتضى القول الاول أو عبيدالله على مقتضى القول الثانى رأس هذه العائلة ومؤسسها وقد اختلفوا فى صحة نسبه فقال هو وأصحابه القائلون بامامته ان نسبه صحيح على ما ذكرنا ولم يرتابوا فيه قال صاحب الكامل وذهب كثير من العلويين العالمين بالانساب الى موافقتهم أيضا ويشهد بصحة هذا القول ما قاله الشريف الرضى

ما مقامى على الهوان وعندى * مقول صارم وأنف حمى
ألبس الذل فى بلاد الاعادى * وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا * ى اذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيد النا * س جميعا محمد وعلى

ان ذلى بذلك الجـــــذعـــز * وأوامى بذلك الربـــــع رىّ

قال وانما لم يودعها فى بعض دواوينه خوفا ولا حجة بما كتبه فى المحضر المتضمن القدح فى أنسابهم فان الخوف يحمل على أكثر من هـذا قال وسألت جماعة من أعيان العلويين فى نسبه يعنى فى نسب محمد أبى عبيد الله هذا فلم يرتابوا فى صحته اهـ وذهب آخرون الى غير هذا المذهب فقالوا بل ان نسبه مدخول ليس بصحيح وانه كان يهوديا وكذلك كتبوا فى الايام القادرية محضرا يتضمن القدح فى نسبه ونسب أولاده ووقع عليه جماعة من العلويين وغيرهم أن نسبه الى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب غير صحيح وكان ممن كتب فيه من العلويين المرتضى وأخوه الرضى وابن الطحاوى وابن الأزرق العلويون ومن غيرهم ابن الاكفانى وابن الخرزى وأبو العباس الابيوردى وأبو حامد والكشفلى والقدورى والصيمرى وأبو الفضل النسوى وأبو جعفر النسفى وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وزعم القائلون بصحة نسبه أن العلماء ممن كتب فى ذلك المحضر انما كتبوا خوفا وتقية وأن نسبه الى علىّ صحيح لامراء فيه * وأما من رفع نسبه الى الحسين بن محمد القداح ثم تغالوا حتى قالوا انه لم يكن من ولد الحسين المذكور ولكنه ابن لامرأة يهودية كان قد أحبها الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القـداح فقـد اعتمدوا فى ذلك على ما رواه أهل التاريخ ونقله الكتاب من أخبار أيام القداح جد هذه العائلة وكيفية ظهوره أنه لما ظهرت كلمة أبى عبد الله الشيعى يعنى ابن ميمون القداح وكثرت أحزابه وانتشرت حواشيه فى بلاد أفريقية جعل يغرى الناس بأبى مضر ويعيبه ويسفه أحلامه وما زال حتى فشت دعوته بين سائر وزراء زيادة الله صاحب افريقية فمالوا اليه وأحبوا نصرته فلما كاد يتم له ذلك مات عبدالله ميمون المذكور وظهر ولده فجعلوا يقولون انهم من ولد عقيل بن أبى طالب ولكنهم لم يجسروا على الظهور بين الناس فكانوا يخفون أشخاصهم ولبثوا على هذا الحال حينا وكان ولده أحمد هو المشار اليه منهم فتوفى وخلف ولده محمدا وكان محمد هذا هو الذى يكاتبه الدعاة فى البلاد فتوفى محمد وخلف أحمد والحسين فسار الحسين الى سلمية من أرض حمص اذ كان له بها ودائع وأموال من ودائع جده عبد الله القداح ووكلاء وغلمان وبقى ببغداد من أولاد القداح أبو الشلغلغ وكان الحسين يدعى أنه الوصى وصاحب الامر والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ويراسلونه فى أمور الشيعة كلها * واتفق أنه جرى فى مجلسه يوما حديث النساء بسلمية وجمال بعضهن فوصفوا له امرأة رجل يهودى حداد مات عنها زوجها وهى فى غاية الحسن والجمال وأن لها ولدا من الحداد يماثلها فى الجمال فمال الى زواجها فتزوج بها وأحبها وحسن موقعها معه وأحب ولدها وأدبه وأحسن تعليمه وكان اسمه عبيد الله فتعلم العلم وصارت له نفس عظيمة وهمة كبيرة ثم مات الحسين فقال بعض علماء زمانه من أهل سلمية انه مات عن غير ولد فعهد الى ابن اليهودى الحداد وهو عبيد الله هذا

وعرّفه أسرار الدعوة من قول وفعل ودله على مواضع الدعاة وأعطاه الاموال والعلامات وتقدّم الى أصحابه بطاعته وخدمته وانه الامام والوصى وزوّجه ابنة عمه أبى الشلغلغ الذى نزل ببغداد وهذه دعوة أبى القاسم الابيض العلوى وغيره قالوا وجعل لنفسه أى عبيد الله المذكور نسبا وهو عبيد الله بن الحسين بن علىّ بن محمد بن علىّ بن موسى بن جعفر بن محمد ابن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب * وبعض العلماء بالانساب يقولون بل هو أى عبيدالله المهدى من ولد القدّاح جاء من زوجة اليهودى الحداد وظهرت كلمة عبيدالله المذكور وعرفه الدعاة واجتمعوا حوله فبذل الاموال وأكثر من الاعطية وشاع خبره عند الناس أيام المكتفى العباسى فطلبه فهرب هو وولده أبوالقاسم نزار الذى ولى بعده وهو يومئذ غلام وخرج معه خواصه ومواليه يريد المغرب وعليها زيادة الله فلما انتهى الى مصر لبث بها مستترا بزى التجار وكان العامل على مصر يومئذ عيسى النوشرى فأتته الكتب من الخليفة بصفته وحليته والامر بالقبض عليه وعلى كل من يشبهه وكان بعض المقربين من مجلس عيسى النوشرى متشيعا فأخبر عبيدالله بخبر القبض عليه وأشار عليه بالانصراف فرحل عن مصر مع أصحابه ومعه من الاموال شئ كثير فأوسع النفقة على من صحبه وفرق عيسى النوشرى الرسل فى طلب المهدى المذكور وعلم بخروجه فخرج خلفه فى عسكر فلحقه وقد نزل ببستان فلما رآه لم يشك فيه فقبض عليه ووكل به فلما حضر الطعام دعاه ليأكل فأعلمه أنه صائم فرق له وقال له أعلمنى بحقيقة حالك حتى أطلقك فخوفه بالله تعالى وأنكر حاله وما زال يعظ النوشرى ويخوّفه الله ويتلطفه حتى رق له وأطلقه وخلى سبيله وقيل انه أعطى النوشرى مالا جزيلا حتى أطلقه وعلم أصحاب النوشرى بما جرى فرجعوا على النوشرى باللوم وعنفوه على اطلاقه فندم وسير خلفه سرية من العسكر وكان المهدى لما لحق بأصحابه رأى ابنه أبا القاسم قد ضيع كلبا كان يصيد به وهو يبكى عليه فعرّفه عبيده أنهم تركوه فى البستان الذى كانوا فيه فرجع المهدى فى طلب الكلب حتى دخل البستان ومعه جماعة من غلمانه فرآهم النوشرى فسأل عنهم فقيل فلان قد عاد بسبب كذا وكذا فقال النوشرى لاصحابه قبحكم الله أردتم أن تحملونى على قتل هذا الرجل حتى آخذه فلو كان يطلب مايقال أو كان مريبا لكان يطوى المراحل ويخفى نفسه ولا كان رجع فى طلب كلب وتركه

واتسعت شهرة أبى عبيد الله بعد ذلك وكثرت جموعه فتقوّت بهم عزيمته وكان فى غضون هذه الحوادث قد عاث أبو عبدالله الشيعى بالمغرب وأكبر الدعوة الى المهدى عبيدالله بن القدّاح وقتل ونهب وفتح عدّة بلاد من افريقية مثل ميلا وسطيف وطبنة ومدينة بلزمة ودار ملوك ومدينة تيجس وباغاية وأنكيجان ومجانة وتيفاش ومسكيانة وتبسة ومدرة ومرمجنة والقصرين وقسطيلة وغير ذلك من المدن والبلدان وأخرج أبوعبيدالله العمال الى تلك البلاد وطلب أهل الشر والفساد فقتلهم وأمر أن يجمع ما كان لزيادة الله من الاموال والسلاح وغير ذلك وكان زيادة الله قد هرب الى ديار مصر فاجتمع له شئ كثير وفيه كثير من الجوارى لهن مقدار

وحظ من الجمال فوكل بهن امرأة صالحة كانت لزيادة الله ولم ينظر الى واحدة منهن ولما
استقر بالقيروان وحضرت الجمعة أمر الخطباء باقامة الخطبة فيها وفى رقادة فخطبوا ولم يذكروا
أحدا وأمر بضرب السكة ولم ينقش عليها اسم ولكنه جعل مكان الاسم من وجه * بلغت
حجة الله * ومن الوجه الآخر * تفرق أعداء الله * ونقش على السلاح * عدة فى سبيل الله
ووسم الخيل على أفخاذها * الملك لله * وأقام على ما كان عليه من لبس الدون الخشن
والقليل من الطعام الغليظ وبتغلب أبى عبدالله على هذه المدن والامصار زال ملك بنى
الاغلب وملك بنى مدرار من أفريقية وكان قد مضى على ملكهم ثلاثون ومائة سنة وهم
منفردون بملك سلجماسة وزال كذلك ملك بنى رستم من تاهرت ولهم ستون ومائة سنة تفردوا
بتاهرت * وجاء عبيدالله المهدى وولده أبو القاسم بدعوة من أبى عبدالله الشيعى فدخل
القيروان بعد أمور أضربنا عن ايرادها هنا وأبو عبد الله الشيعى ورؤساء كتامة مشاة بين يديه
وولده خلفه ونزل بقصر من قصور رقادة وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه فى الخطبة فى البلاد
ولقب بالمهدى أمير المؤمنين وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف ومعه الدعاة
وأحضروا الناس بالعنف والشدة ودعوهم الى مذهبهم فمن أجاب أحسن اليه ومن أبى حبس
فلم يدخل فى مذهبهم الا القليل وقتل كثير ممن لم يوافقهم على قولهم وقسم على وجوه كتامة
أعمال أفريقية ودون الدواوين وجبى الاموال واستقرت قدمه ودانت له أهل البلاد وقتل
أبا عبدالله الشيعى وأخاه أبا العباس لامور لاموضع لذكرها هنا * وتاقت نفسه الى فتح الديار
المصرية وضمها الى مملكته الواسعة فاستشار جماعة من قواده فى ذلك فأشاروا عليه بالفتح
وهونوا عليه الامر وكشفوا له عما أصاب الخلافة العباسية من الوهن وما هى عليه من قرب
الزوال * فلما كانت سنة احدى وثلثمائة هجرية جهز المهدى جيشا عظيما وسيره من افريقية
مع ولده أبى القاسم الى الديار المصرية فقصد برقة واستولى عليها فى ذى الحجة وسار الى مصر
فملكوا الاسكندرية وساروا منها الى الفيوم فملكها وصار فى يده أكثر ما جاورها من البلاد
فضيق عليها وشدد على أهلها ووردت الاخبار بذلك الى الخليفة المقتدر بالله العباسى فأكبرها
وأعظمها جدا وسير لخلاص البلاد مؤنسا الخادم فى جيش عظيم فالتقى بأبى القاسم وجيوشه
واقتتلوا قتالا عنيفا فظفر بهم مؤنس وهزمهم شر هزيمة فعادوا الى المغرب مهزومين وعلم
المهدى بما جرى لهم فجيش جيشا آخر وسيره مع قائد من قواده يقال له حباسة الى الاسكندرية
فى البحر فنزل عليها وقاتلها وتغلب عليها ثم سار منها الى مصر ونزل بين مصر والاسكندرية
وجاء الخبر بذلك الى المقتدر فأرسل مؤنسا الخادم فى عسكر الى مصر لقتال حباسة وأمده بالسلاح
والمال فسار اليها فالتقى العسكران فى جمادى الاولى فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل من الفريقين
خلق كثير وجرح خلق واشتد القتال وتعددت الوقائع وجد أصحاب مؤنس فى قتال المغاربة
حتى هزموهم شر هزيمة وتتبعوهم بالقتل والاسر فكان مبلغ القتلى على ماقاله صاحب الكامل
سبعة آلاف مع الاسرى وهرب الباقون وكانت هذه الواقعة فى سلخ جمادى الآخرة من

السنة أى سنة اثنتين وثلثمائة وعادوا الى المغرب فلما وصلوا الى المغرب قتل المهدى حباسة أمير
تلك الجيوش ومع ذلك لم تفتر للمهدى عزيمة ولم يتحول عن عزمه من أخذ مصر عنوة واشتد
عليه هذا الامر وأقلقه جدا فلما كانت سنة سبع وثلثمائة جهز المهدى جيشا عظيما تحت
رئاسة ابنه أبى القاسم وسيره الى مصر فوصل الى الاسكندرية فى ربيع الآخر من السنة
فرحل عامل المقتدر عنها لعدم قدرته على القتال فدخلها أبو القاسم وسار الى مصر فدخل
الجيزة وملك الاشمونين وكثيرا من الصعيد ووردت الاخبار بذلك الى الخليفة المقتدر فبعث
مؤنسا الخادم فى شعبان لرد أبى القاسم وجنوده عن البلاد فحصل بينه وبين أبى القاسم
عدة وقعات ووصل من أفريقية ثمانون مركبا نجدة لابى القاسم وعليها سليمان الخادم
ويعقوب الكتامى وهما أشجع قواد المهدى وجاء الخبر بذلك الى الخليفة المقتدر بالله فأمر
بأن تسير مراكب طرسوس اليهم فسارت خمسة وعشرون مركبا وفيها النفط والعدد ومقدمها
أبو اليمن فالتقت السفن بالسفن واقتتلوا على رشيد فظفر أصحاب مراكب المقتدر وأحرقوا
كثيرا من مراكب أفريقية وهلك أكثر أهلها وأسر منهم كثير وفى الاسرى سليمان الخادم
ويعقوب فقتل من الاسرى كثير وأطلق كثير ومات سليمان فى الحبس بمصر وحمل يعقوب الى
بغداد ثم هرب منها وعاد الى افريقية واشتد مؤنس الخادم قائد جيوش المقتدر بالله وألح فى
قتال أبى القاسم ومن معه حتى ظفر به وقهره فجاءه مرسوم الخليفة بالتشريف ولقب المظفر
ووقع الوباء أيضا فى عسكر أفريقية وكذلك الغلاء فمات منهم كثير من الخلق والخيل فعاد من
سلم الى أفريقية وسار عسكر مصر فى أثرهم حتى أجلوهم عن البلاد

فلما كانت سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة هجرية مات أبو محمد عبيد الله المهدى فى ربيع
الاول فأخفى ولده أبو القاسم خبر موته سنة لتدبير كان له وكان يخاف أن يختلف الناس عليه
اذا علموا بموته وكان عمر المهدى لما توفى ثلاثا وستين سنة وكانت خلافته منذ دخل رقادة
ودعى له بالامامة الى أن مات أربعا وعشرين سنة وشهرا وعشرين يوما * فقام بالامر بعده
ابنه أبو القاسم محمد وكان أبوه قد عهد اليه ولقب بالقائم بأمر الله فلما استتب له الامر
ودانت له المملكة هم بفتح ديار مصر فجيش جيشا عظيما وسيره اليها مع خادمه زيدان وبالغ
فى النفقة عليه فدخلوا الاسكندرية وكان المتولى على ديار مصر فى هذا الحين محمد الاخشيد
فأخرج لقتالهم جنودا فقاتلوهم وهزموا المغاربة وقتلوا فيهم وأسروا خلقا وعاد المغاربة مغلوبين
وبقى الحال فى سكون والقائم لا يبدى حراكا الى أن كانت سنة أربع وثلاثين وثلثمائة مات
القائم بأمر الله لثلاث عشرة مضت من شوال * فقام بالامر بعده ابنه اسمعيل وتلقب بالمنصور
بالله وكتم خبر موت أبيه لسبب الفتنة القائمة وخروج المدعو أبا يزيد وكان المنصور شهما
شجاعا حسن التدبير فضبط أركان الملك وأحسن تدبير البلاد فبلغت شهرته مبلغا عظيما وما
زال يتصرف حتى مات سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة للهجرة بالمهدية فكان ثالث من ظهر ومات
من هذه العائلة بالمغرب * فقام بالامر بعده ولده المعز لدين الله أبو تميم معد وهو أول ملوكهم

الاحد

الاحد عشر بديار مصر فلما تمت له البيعة وصفت له الامور تاقت نفسه الى فتح ديار مصر والتغلب عليها وقد طمع فيها * وكان لما مات كافور الاخشيدى لم يبق بمصر من تجتمع القلوب عليه فاختلفت عند ذلك كلمة أهل البلاد وتفرقت أهواؤهم وافتتنوا أو كادوا وأصابهم فى ذلك الحين غلاء شديد ثم قحط ثم وباء أفنى من الخلق ما لايكاد يدخل تحت الحصر فلما بلغ ذلك المعز أبا تميم طمع فى فتحها وكثرت رغبته فى ذلك فجهز القائد أبا الحسن جوهرا غلام والده المنصور وهو رومى فى مائة ألف مقاتل فبرز جوهر الى رمادة وبين يديه أكثر من ألف صندوق من المال وصار المعز يخرج اليه فى كل يوم وأطلق يده فى بيت ماله يحكى أن المعز خرج يوما الى معسكر جوهر فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع القواد وكبار القوم الذين خرجوا مع الجيش فنظر المعز اليهم وقال والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ووالله لتدخلن ديار مصر بالوردية من غير حرب ولتنزلن فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا وأمر المعز بافراغ الذهب فى هيئة الارحية وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة وأمر أولاده واخوته وولى عهده أن يسيروا فى ركاب جوهر وهو راكب وكتب الى سائر عماله يأمرهم اذا قدم عليهم جوهر أن يترجلوا مشاة فى خدمته فانحدر جوهر بجيوشه ونزل برقة فتقدم اليه صاحبها بخمسين ألف دينار ذهبا فداء من ترجله ومشيه فى ركابه فرده جوهر عليه وقال لابد من العمل بما أمر به أمير المؤمنين فمشى صاغرا وكان خروج جوهر من القيروان فى رابع عشر ربيع الاول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة فهنأه الشعراء يوم خروجه وودعه كبار الدولة وبالغوا فى تعظيمه * ومدحه محمد بن هانئ الشاعر بقصيدة منها هذه الابيات

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع * وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الافق سد بمثله * فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر اذ ودعت كيف أودع * ولم أدر اذ شيعت كيف أشيع

الى أن قال

اذا حل فى أرض بناها مدائنا * وان سار عن أرض غدت وهى بلقع
تحل بيوت العز حيث محله * وجم العطايا والرواق المرفع
رحلت الى الفسطاط أول رحلة * بأيمن فأل بالذى أنت تجمع
فان يك فى مصر ظماء لمورد * فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ووصل جوهر بمن معه من الجيوش الى مصر فلما اتصل خبر وصوله هربت العساكر الاخشيدية على وجوههم فنزل بالجيزة فى سابع عشر شعبان من السنة فخرج الناس لقائه واجتمع سائر الامراء وبينهم الوزير جعفر وجماعة من الاعيان وعبروا النيل الى الجيزة والتقوا بالقائد ونادى مناديه فنزل الناس كلهم الا الشريف والوزير فترجلوا وسلموا عليه واحدا واحدا والوزير عن شماله والشريف عن يمينه ثم دخل بجيوشه البلد من وقت الزوال بسلاحهم وعددهم وكراعهم وطبولهم وبنودهم ونزلوا فيما هو موضع القاهرة اليوم

ثم سار الى الفسطاط ونزل فيه بعسكره وخطب للمعز يوم الجمعة على منابر مصر وسائر أعمالها وأمر أن يزاد عقيب الخطبة « اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علىّ المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا اللهم صل على الائمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين » وأمر المؤذنين بجامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون أن يؤذنوا بحىّ على خير العمل فشق ذلك على الناس ولكنهم ما استطاعوا له ردا وشرع فى بناء القاهرة للجند والقصرين والجامع الازهر وأرسل بشيرا الى المعز يبشره بفتح مصر واقامة الدعوة له بها ويطلبه اليها وقد بدأ ببناء القاهرة فى سنة تسع وخمسين وثلثمائة للهجرة فلم تأت سنة احدى وستين حتى تم بناؤها * قال بعض الكتاب وقد كانت البقعة التى ابتنى فيها القاهرة والقصرين والجامع بقعة رملية فيما بين الفسطاط وعين شمس لاشئ فيها الا بعض البساتين منها بستان الاخشيد شرق الخليج وميدان الاخشيد ودير النصارى من أهل البلاد كان يسمى دير العظام فيه بئر لا يزال باقيا يعرف بئر الجامع الاقمر وتسميه العامة بئر العظمة وكان فى تلك البقعة أيضا موضع يعرف بقصر الشوك ثم عرف بعد بناء القاهرة بقصر الشوك

ولما استقر بجوهر المقام بمصر وثبتت قدمه سير جعفر بن فلاح الكتامى الى الشام فى عسكر عظيم فبلغ الرملة وبها أبو محمد الحسن بن عبد الله بن طغج فقاتله فى ذى الحجة من السنة أى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة واشتد ابن فلاح فى قتاله وألح فكانت بين الفريقين حروب كان الظفر فيها لابن فلاح وأسر ابن طغج وغيره من كبار القواد وسيرهم الى جوهر القائد بمصر فبعث بهم جوهر الى المعز بافريقية ودخل ابن فلاح الرملة عنوة فقتل ونهب وسبى ثم أمّن من بقى من أهلها وجبى منهم الخراج وسار الى طبرية فرأى ابن ملهم قد أقام الدعوة للمعز لدين الله فسار عنها الى دمشق فامتنع عليه أهلها وقاتلوه فقاتلهم وألح فى قتالهم حتى ظفر بهم وملك البلد ونهب بعضه وأقام الخطبة للمعز يوم الجمعة لايام خلت من المحرم سنة تسع وخمسين وقطعت الخطبة العباسية * قال صاحب الكامل * وكان بدمشق الشريف أبو القاسم بن أبى يعلى الهاشمى وكان جليل القدر نافذ الحكم فى أهلها فجمع أحداثها ومن يريد الفتنة وثار بهم فى الجمعة الثانية وأبطل الخطبة للمعز لدين الله وأعاد خطبة المطيع لله ولبس السواد وعاد الى داره فقاتله جعفر بن فلاح ومن معه قتالا شديدا وصبر أهل دمشق ثم افترقوا آخر النهار فلما كان الغد تزاحف الفريقان واقتتلوا ونشبت الحرب بينهما وكثرت القتلى من الجانبين ودام القتال فعاد عسكر دمشق منهزمين والشريف ابن أبى يعلى مقيم على باب البلد يحرض الناس على القتال ويأمرهم بالصبر وواصل المغاربة الحملات على الدماشقة حتى ألجؤهم الى باب البلد ووصل المغاربة الى قصر حجاج ونهبوا ما وجدوا فلما رأى ابن أبى يعلى الهاشمى والاحداث ما لقى الناس من المغاربة خرجوا من البلد ليلا فأصبح الناس حيارى فدخل الشريف الجعفرى وكان قد خرج من البلد الى جعفر

ابن

ابن فلاح فى الصلح فاعاده وأمره بتسكين الناس وتطييب قلوبهم ووعدهم الجميل ففعل ما أمره
وتقدم الى الجند والعامة بلزوم منازلهم وأن لا يخرجوا منها الى أن يدخل جعفر بن فلاح
البلد ويطوف فيه ويعود الى عسكره ففعلوا ذلك قال فلما دخلت المغاربة البلد عاثوا فيه
ونهبوا قطرا منه فثار الناس وحملوا عليهم ووضعوا السيف فيهم فقتلوا منهم جماعة وشرعوا
فى تحصين البلد وحفر الخنادق وعزموا على اصطلاء الحرب وبذل النفوس فى الحفظ وأحجمت
المغاربة عنهم ومشى الناس الى الشريف أبى القاسم بن أبى يعلى فطلبوا منه أن يسعى فيما
يعود بصلاح الحال ففعل ودبّر الحال الى أن تقرر الصلح يوم الخميس لست عشرة خلت من
ذى الحجة سنة تسع وخمسين وثلثمائة وكان الحريق قد أتى على عدة كثيرة من الدور وقت
الحرب * وأدخل صاحب الشرطة جعفر بن فلاح البلد يوم الجمعة فصلى مع الناس وسكّنهم
وطيب قلوبهم وقبض على جماعة من الاحداث فى المحرم سنة ستين وثلثمائة وقبض على
الشريف أبى القاسم بن أبى يعلى الهاشمى المذكور وسيره الى مصر واستقر أمر دمشق للمعز
لدين الله اه * وجاء الخبر بما وقع بدمشق من القتل والنهب الى الحسين بن أحمد بن بهرام
القرمطى صاحب القرامطة وأن ابن فلاح ملك البلد وقتل ابن طغج فاهمه هذا الخبر وأقلقه
هو وأصحابه وأزعجهم جدا وذلك لانه كان قد تقرر بينهم وبين ابن طغج أن يحمل اليهم ابن
طغج المذكور ثلثمائة ألف دينار نقرة فى كل سنة فلما ملك ابن فلاح الشام علموا أن المال
يفوتهم فعزموا على قصد الشام وأرسل صاحبهم الحسين بن أحمد بن بهرام القرمطى الى عز
الدولة بختيار يطلب منه المساعدة بالسلاح والمال فأجابه الى ذلك فساروا الى دمشق فى ذى
القعدة من السنة فى عدة عظيمة وبلغ خبرهم الى جعفر بن فلاح فاستهان بهم ولم يحترز منهم
فلم يشعر بهم حتى كبسوه بظاهر دمشق وقتلوه ونهبوا أمواله وسلاحه ودوابه وملكوا دمشق
وأمنوا أهلها وساروا الى الرملة فاستولوا على جميع ما بينها وبين دمشق فلما سمع من بها من
المغاربة خبرهم ساروا عنها الى يافا فتحصنوا بها وملك القرامطة الرملة وساروا الى مصر وتركوا
على يافا من يحصرها فلما وصلوا الى مصر اجتمع معهم خلق كثير من العرب والجند
والاخشيدية والكافورية فاجتمعوا بعين شمس واجتمع عسكر جوهر القائد وخرجوا اليهم
فاقتتلوا غير مرة كان الظفر فى كل وقعة للقرامطة وحصروا المغاربة حصرا شديدا وخرج
المغاربة يوما من مصر وحملوا على ميمنة القرامطة فانهزم من بها من العرب وتلك القوم
وقصدوا سواد القرامطة فنهبوه فاضطروا الى الرحيل وعادوا الى الشام فنزلوا الى الرملة
وحاصروا يافا وضيقوا على من بها فسير جوهر من مصر نجدة الى أصحابه بيافا ومعهم ميرة
فى خمسة عشر مركبا فخرجت مراكب القرامطة عليها فأسروا مراكب جوهر كلها ولم
ينج منها غير مركبين فغنمهما الروم ثم كان بعد ذلك من أمرهم ما سيذكر فى محله

ولما وصل البشير الى المعز لدين الله وبشره بفتح الديار المصرية واقامة الدعوة له بها وخطبه
اليها فرح فرحا لا يوصف وسار من افريقية يريد الديار المصرية فكان أول مسيره أواخر شوال



من السنة أى سنة احدى وستين وكان أول رحيله من المنصورية فأقام بسردانية وهى قرية قريبة من القيروان ولحقه بها رجاله وعماله وأهل بيته وجميع ما كان له فى قصره من أموال وأمتعة وغير ذلك حتى ان الدنانير سبكت وجعلت كهيئة الطواحين وحمل كل طاحونتين على جمل وسار عن سردانية بعد مقام أربعة أشهر الى طرابلس ومعه جيوشه وحواشيه ثم رحل عنها الى مصر ونزل على برقة ومعه محمد بن هانئ الشاعر الاندلسى وكان عندما خرج المعز من القيراوان يريد مصر مدحه ابن هانئ المذكور بقصيدة طويلة مطلعها

تقول بنو العباس هل فتحت مصر * فقل لبنى العباس قد قضى الامر

فأصبحوا وقد رأوا ابن هانئ المذكور ملقى على جانب البحر قتيلا ولم يدروا من قتله وكان قتله أواخر رجب من سنة اثنتين وستين وثلثمائة وكان من الشعراء المجيدين قال أهل الانتقاد ولكنه غالى فى مدح المعز حتى كفره العلماء فن ذلك قوله

ماشئت لاماشاءت الاقدار * فاحكم فأنت الواحد القهار

وقوله * ولطالما زاحمت تحت ركابه جبريلا * قال صاحب الكامل ومن ذلك ما ينسب اليه ولم أجدها فى ديوانه قوله

حل برقادة المسيح * حل بها آدم ونوح

حل بها الله ذو المعالى * فكل شئ سواه ريح

ورقادة اسم مدينة بالقرب من القيروان الى غير ذلك قال وقد تأول ذلك من يتعصب له والله أعلم اه ووصل المعز لدين الله الى الاسكندرية أواخر شعبان من السنة وأتاه أهل مصر وأعيانها فلقيهم وأكرمهم وأحسن اليهم وخطب بالاسكندرية خطبة بليغة وكان ممن سار للقائه قاضى مصر أبو طاهر الذهلى فجلس الى جنبه فسأله المعز هل رأيت خليفة أفضل منى فقال لم أر أحدا من الخلائق سوى أمير المؤمنين فقال له أحججت قال نعم قال وزرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم قال وقبر أبى بكر وعمر قال القاضى فتحيرت ماذا أقول ثم نظرت فاذا ابنه قائم مع كبار الامراء فقلت شغلنى عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولى العهد ونهضت اليه وسلمت عليه فأفسح المجلس الى غيرى * وسار من الاسكندرية الى مصر فدخلها خامس رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة وأنزل عساكره مصر والقاهرة فى الديار وبقى كثير منهم فى الخيام ونزل هو بالقصرين فكانت أول حكومة انتهت اليه أن امرأة لكافور الاخشيدى تقدمت اليه فذكرت له أنها كانت أودعت رجلا من اليهود الصواغ قباء من لؤلؤ منسوجا بالذهب وأنه جحد ذلك فاستحضره وقرره فأنكر اليهودى فأمر أن يفتش فوجدوا القباء قد جعله فى جرة ودفنها فى الارض فدفعه المعز اليها فتقدمت اليه وعرضته عليه فأبى أن يقبله منها ورده عليها فاستحسن منه الحاضرون ذلك وامتدت مملكة المعز لدين الله من حلب الى بلاد المغرب الى مكة كما كانت دولة الخلفاء العباسيين فى أيامه ممتدة أيضا من بغداد وسائر الممالك الشرقية الى العراق وأعمالها

ولما كان أصحاب التاريخ على اختلاف فى أصل نسب هذه العائلة أعنى بها الفاطمية وقد أكثروا القول فى ذلك وأطالوا الكلام واحتج كل فريق بحجة واستمسك بشئ من الادلة على صحة دعواه ولم تكن لتنقطع أيضا الى هذا الحين الخلافة من العباسيين وكان القائم بأمرها أمير المؤمنين الخليفة العباسى المطيع لله أبوالفضل ابن الخليفة المقتدر يدعونه على المنابر فى بغداد وسائر الممالك الشرقيـة والعراقين وأعمالها وقد ورد فى حديث صاحب الشريعة الاسلامية النهى عن التعدد فى الائمة قوله ﷺ اذا بويع لخليفتين فاقتلوا أحدهما ﷺ وكانت خـلافة الفاطميين لم تظهر لانقراض الخلفاء العباسيين ولالفقدان صلاحيتهم لحماية البيضة الاسلامية ولا لتعطيل وقع فى الاحكام الشرعيـة المتعلقة بالامامة بل كان ظهورها بظهور جوهر الرومى قائد المعز المغربى المذكور وتغلبه على ديار مصر بعد موت كافور الاخشيدى واختلاف كلمة أهل البلاد يومئذ فضلا عما قد كان أصابهم من الغلاء والقحط والوباء الشديد الذى لم يبق ولم يذر فلذلك رأيت أن لا أتحول عن تتبع سنى الخلافة العباسية بذكر مدة كل خليفة وما وقع فيها من الحوادث وجعلها مبدأ كل مدة حتى تنقطع تماما اما بقيام من هو أحق بالخلافة وأولى بالامامة وهذا بعيد لاسبيل اليه بعد انقراض العباسيين كما قاله المحققون من أهل السنة واما بتغلب من هو أصلح لحماية البيضة الاسلامية وأقدر على تنفيذ الاحكام الشرعيـة المتعلقة بالامامة وهذا ليس ببعيد اذا كان المراد من الامامة فى عرف المتأخرين اختيار الاصلح للامة كما فعل جمهور المهاجرين السابقين من العقبات الثلاث وأصحاب الهجرتين والقبلتين وأهل بدر وبينهم عمر بن الخطاب من اختيارهم لابى بكر الصديق ومبايعته بالخلافة دون سعد بن عبادة سيد قبيلة الاوس الذى اختاره الانصار والخزرجيون من الانصار ودون علىّ بن أبى طالب ابن عم صاحب الشريعة وزوج ابنته فاطمة الزهراء وحينئذ نرجع فى التاريخ اليه ونتبع فى ذكر الحوادث سنى خـلافته وهكذا من يأتى بعـده من الخلفاء الى ماشاء الله ٭ وأما المعز لدين الله بن المهـدى عبيد الله المغربى رأس هؤلاء الفـاطميين بديار مصر فقـد حسبناه فى عداد من ملك قبله من الملوك لفتحها على يد جوهر قائد جيوشه وكذلك من يقوم بعده من ولده الى أن ورثها الله من يشاء من عباده ولذلك فانى ذاكر هنا حوادث أيامهم واحـدا فواحدا فى قلب مدة كل خليفة من الخلفاء العباسيين كمن سبقهم من النواب والملوك الى أيام كافور الاخشيدى حتى لايلتبس الامر على القارئ بتعدد الخلفاء فيفوته الغرض والله الهادى الى الصواب

(الفصل الرابع والعشرون)

(فى خلافة أبى بكر بن عبد الكريم الطائع لله)

ثم قام بالامر بعد المطيع ولده عبد الكريم أبوبكر الطائع لله بويع له بالخلافة يوم خلع أبوه نفسه من الخلافة سنة ثلاث وستين وثلثمائة هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ميلادية وعمره يومئذ سبع وأربعون سنة فلم يل الخلافة من بنى العباس من هو أكبر منه سنا * قال صاحب رأس مال النديم * ولم يتقلد الخلافة من أبوه حى سوى الطائع لله والصديق رضى الله عنه وكلاهما اسمه أبوبكر اه تولى الخلافة وليس له منها سوى الاسم فقط كمن تقدم من العباسيين والامر يومئذ لابن بويه وغيره من الاتراك وكان ابن بويه هذا واسع الهيبة عالى الكلمة لم يبق للخليفة الطائع من مراسم الخلافة وأبهتها شيأ الا وحازه لنفسه فكان الخليفة يخافه جدا ويتحرز من قربه الى بغداد ويعمل فى السر على اعلاء كلمة بختيار وتحبب الجند اليه وتزوج بابنة بختيار لتعظم بذلك شوكته وتكبر هيبته فاحس عضد الدولة بن بويه بما وراء ذلك وكتب الى عز الدولة بختيار المذكور يدعوه الى طاعته وأن يسير عن العراق الى أىّ جهة أرادها وكان بختيار يومئذ على العراق فاستشار بختيار أصحابه فى ذلك فاختلفوا عليه فكتب الى عضد الدولة بالاجابة الى ما يطلب وانما يريد المساعدة بما يحتاج اليه من مال وسلاح فاجابه عضد الدولة الى ذلك وأنفذ اليه خلعة وتجهز بختيار بما أنفذه اليه عضد الدولة وخرج من بغداد عازما على قصد الشام وسار عضد الدولة فدخل بغداد وخطب له بها * قال أصحاب التاريخ ولم يكن قبل ذلك يخطب لاحد بها وضرب على بابه ثلاث نوب ولم تجر بذلك عادة من تقدمه وأمر أن يلقى الوزير أبو طاهر بن بقية وزير عز الدولة بختيار بين قوائم الفيلة لتقتله وكان قد طلبه من عز الدولة قبل جلائه عن بغداد فسلمه اليه بعد أن قلع عينيه فداسته الفيلة حتى قتلته ثم صلب على رأس الجسر فرثاه أبو الحسين بن الانبارى بمرثية لم يسمع فى مصلوب مثلها وهى

علو فى الحياة وفى الممات * لحق أنت احدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا * وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا * وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء * كمدهما اليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الارض عن أن * يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا * عن الاكفان ثوب السافيات

لعظمك

لعظمك فى النفوس تبيت ترعى ۞ بحــراس وحفــاظ ثقــات
وتوقــد حولك النيران قوم ۞ كــذلك كنت أيام الحياة
ركبت مطية من قبــل زيد ۞ علاها فى السنين الماضيات
وتلك قضـــــية فيها تأس ۞ تباعد عنك تعيــير العداة
ولم أر قبــل جذعك قط جذعا ۞ تمكن من عناق المكرمات
أسأت الى النوائب فاستثارت ۞ فأنت قتيــل ثأر النائبات
وكنت تجيرنا من صرف دهر ۞ فعاد مطالبا لك بالترات
وصير دهرك الاحسان فيــه ۞ الينا من عظيم السيآت
وكنت لمعشر سعدا فلما ۞ مضيت تفرقوا بالمنحسات
غليــل باطن لك فى فؤادى ۞ يخفــف بالدموع الجاريات
ولو أنى قــدرت عــلى قيام ۞ بفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الارض من نظم القوافى ۞ ونحت بها خلاف النائحات
ولكنى أصــبر عنك نفسى ۞ مخافة أن أعــد من الجناة
ومالك تربة فأقــول تســقى ۞ لانك نصب هطل الهاطلات
عليك تحيــــة الرحمن تترى ۞ برحمات غــواد دائمات

قوله زيد عــلاها فى البيت التاسع يعنى زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب لما قتــل وصلب بأمر هشام بن عبد الملك بن مروان ۞ وبقى ابن بقيــة المذكور مصلوبا الى أيام صمصام الدولة فأنزل ودفن وسار بختيار يريد الشام ليتخذها مقرا له وسار معــه ابن ناصر الدولة بن حمدان أخو أبى تغلب بن حمدان صاحب الموصــل فلما صار بن معهــما بعكبرا حسّن ابن حمدان الى بختيار المسير الى الموصل لكثرة أموالها وأطمعــه فيها وقال انها خــير من الشام وأسهل مأخذا فمال بختيار الى ذلك وسار نحوها فلما وصــل الى تكريت أتته رســل أبى تغلب تسأله المصالحة وأن يقبض على أخيه حمدان ويسلمه اليــه واذا فعل سار بنفســه مع عســاكره اليه وقاتل معه عضد الدولة وأعاد بغداد الى ملكه فأجابهم بختيار الى ذلك وقبض على ابن حمدان وسلمه الى رســل أبى تغلب فحبسه فى قلعــة وسار بختيار الى الموصــل والتقى بأبى تغلب وساروا جميعا نحو العراق وكانت جند أبى تغلب زهاء العشرين ألفا فلما جاء الخبر بذلك الى عضد الدولة قام من بغداد فى جيش عظيم وسار نحوهما فالتقوا بقصر الجص على مقربة من تكريت واقتتلوا قتالا عنيفا فهزمهما شر هزيمة وأسر بختيار وأحضر عنده وقتل من أصحابه خلق كثير واستقر ملك عضد الدولة بعد ذلك ببغــداد ثم سار الى الموصــل فملكها وملك ما يليها فهرب أبو تغلب ومعــه نساؤه وأولاد بختيار فسير عضــد الدولة الجند فى طلبه فلم يدركوه وصــار ينتقل من بلد الى بلد والجند فى أثره حتى أعياهــم القبض عليه ثم سار الى دمشق ومعه نساؤه يريد النزول عند العزيز صاحب مصر فلم يمكنه

عامل دمشق من الدخول فوقعت بينه وبين أصحاب العزيز وقائع كثيرة انكشفت عن هزيمته وأسروه فقطعوا رأسه وبعثوا به الى العزيز بمصر فشهره

وصفت الأمور لعضد الدولة فعمد الى عمارة بغداد وكانت قد تخربت بتوالى الفتن فرمم مساجدها وأسواقها وأدرّ الاموال على الائمة والعلماء والقراء والغرباء والضعفاء الذين يأوون الى المساجد وألزم أصحاب الدور الخراب بعمارتها وجدد مادثر من الأنهار وأعاد حفرها وأطلق مكوس الحجاج وأصلح الطريق من العراق الى مكة وأطلق الصلات لاهل البيوتات والشرف والضعفاء والمجاورين بمكة والمدينة واطمأنت قلوب الناس بعد تراكم الفتن وتوالى المحن وأجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسابين والاطباء والحساب والمهندسين وأذن لوزيره نصر بن هارون وكان نصرانيا بعناء الديارات وعمارة البيع واطلاق الاموال للفقراء من النصارى فأحبه الناس ومالوا اليه كثيرا واتسعت شهرته وعظم ملكه فكان له العراق وكرمان وعمان وخوزستان والموصل وديار بكر وحروان ومنبج وهو أول من سمى ملكا فى الاسلام ومال اليه الخليفة الطائع كرها وتزوج ابنته وكان غرض عضد الدولة من تزويج ابنته للطائع أن تلد له ذكرا فيجعله ولى عهده فتكون الخلافة فى ولد لهم فيه نسب وكان الصداق مائة ألف دينار فزفت اليه ومعها من الجواهر والحلى شئ لايحصى وما زال عضد الدولة يتصرف فى الأمور ويفتح الفتوحات العظيمة ويغزو ويقاتل كل من خالفه حتى وافته منيته فى شوال سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة وكان به الصرع مات ببغداد وحمل الى مشهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب فدفن به وكانت ولايته ببغداد خمس سنين ونصفا قيل ولما احتضر جعل يقول ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه ولم ينطلق لسانه بغير هذه الآيات * ومما يحكى عنه أنه خرج يوما الى بستان له متنزها فقال ما أطيب يومنا هذا لو ساعدنا فيه الغيث فجاء المطر فى الوقت فأنشد يقول

ليس شرب الراح الا فى المطر * وغناء من جوار فى السحر
ناعمات سالبات للنهى * ناغمات فى تضاعيف الوتر
بارزات الكاس من مطلعها * ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها * ملك الأملاك غلاب القدر
سهل الله له بغيته * فى ملوك الأرض ما دار القمر
وأراه الخير فى أولاده * ليساس الملك منهم بالغرر

قيل فلم يفلح بعد هذه الابيات وعوجل بقوله غلاب القدر * فلما مات قام بالامر بعده ولده الامير صمصام الدولة فخلع عليه الخليفة الطائع لله وقلده ما كان بيد أبيه ولم تستقر به الولاية حتى قام عليه أخوه شرف الدولة وقبض عليه واعتقله وأحاط بدوره وأمواله ببغداد وجعل هو يتصرف فى الامور حتى اعتل وانقطع عن الناس فأشار عليه نحرير الخادم بقتل

أخيه

أخيه صمصام الدولة فكان يعرض عن كلامه فلما اشتدت علته ألح عليه نحرير وقال له ان الدولة معه على خطر فان لم تقتله فاعمله فأرسل فى ذلك محمدا الشيرازى الفراش فمات شرف الدولة قبل أن يصل الفراش الى حيث صمصام الدولة فتأخر الفراش عن سمله واستشار أبا القاسم العلاء بن الحسن الناظر فى ذلك فأشار عليه بسمله فسمله فكان صمصام الدولة يقول ما أعمانى الا العلاء لانه أمضى فىّ حكم سلطان قد مات

وتوفى شرف الدولة مستهل جمادى الآخرة وحمل الى مشهد أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب فدفن به فكانت امارته سنتين وثمانية أشهر وكان عمره ثمانيا وعشرين سنة وخمسة أشهر وكان قد سير ولده أبا علىّ الى بلاد فارس وأصحبه بالخزائن والعدد والعسكر الكثير من الاتراك فلما اشتدت علته وأيس أصحابه منه دخل عليه كبارهم يسألونه أن يولى أحدا فقال أنا فى شاغل عما تدعوننى اليه فقالوا له من أملك بهاء الدولة أبا نصر أن ينوب عنك الى أن تعافى لئلا تثور فتنة فقال لكم ذلك فاستدعى أخاه وكله فى ذلك فتوقف بهاء الدولة وامتنع عن قبول الوكالة ثم أجاب فلما مات شرف الدولة جلس بهاء الدولة فى المملكة وقعد للعزاء وركب الطائع لله الخليفة الى العزاء فتلقاه بهاء الدولة وقبل الارض بين يديه فخلع عليه الطائع خلع السلطنة وجعل يتصرف فى الامور فكان قليل الحظ سيئ الطالع كثير شغب الجند عليه وقتال بعضهم لبعض وطلبهم الجماكى والمرتبات وما زالت الاحوال فى اختلال والجند فى تمرد وخروج حتى كانت سنة احدى وثمانين وثلثمائة هجرية فعظم شغب الجند عليه وظهرت الفتنة وطالبوه بالجماكى وقد قلت عنده الأموال فقبض على وزيره سابور واستصفى ماله فلم يغن عنه ذلك شيأ وكان أبو الحسين المعلم قد غلب على بهاء الدولة وحكم فى مملكته فحسن له القبض على الخليفة الطائع لله وأطمعه فى ماله وهون عليه ذلك فمال بهاء الدولة الى ذلك وأرسل الى الطائع وسأله الاذن فى الحضور فى خدمته ليجدد العهد به فأذن له بذلك وجلس له على عادة الخلفاء فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير فلما دخل قبل الأرض وجلس على كرسى فدخل بعض الديلم كأنه يريد يقبل يد الخليفة فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول إنا لله وإنا اليه راجعون وهو يستغيث ولا يلتفت اليه وأخذوه وأخذوا ما فى داره من الذخائر وشاع خبر القبض عليه فافتتن الناس ونهب بعضهم بعضا وكان من جملتهم الشريف الرضىّ فبادر بالخروج فسلم وقال أبياتا من جملتها

من بعد ما كان رب الملك مبتسما * الىّ أدنوه فى النجوى ويدنينى
أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه * لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى * ياقرب ماعاد بالضراء يبكينى
هيهات أغتر بالسلطان ثانية * قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ولما وصلوا بالطائع الى دار بهاء الدولة عقد لحضوره مجلسا وأشهد عليه بالخلع خلع



كارها فكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام وكان أبيض مربوعا حسن الجسم وكان أنفه كبيرا جدا وكان شديد القوة كثير الاقدام

وامتدت أيام المعز لدين الله العلوى الى خلافة الطائع لله فلما دانت له الامور وتمت عليه نعمة الله تحركت القرامطة وتاقت نفس مقدمهم حسن بن أحمد الى غزو ديار مصر واستخلاصها من المعز لدين الله فسار فى سنة ثلاث وستين وثلثمائة هجرية من الاحساء فى جموع كثيرة الى ديار مصر فحصرها ووردت الاخبار بذلك الى المعز فأكبر هذا الامر وأعظمه جدا وكتب الى حسن بن أحمد القرمطى كتابا يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته وأن الدعوة واحدة وأن القرامطة انما كانت دعوتهم اليه والى آبائه من قبله ووعظه وبالغ فى تهديده فلما وصل كتاب المعز الى حسن بن أحمد كتب جوابه * وصل كتابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون اليك على أثره والسلام * وسار حتى نزل على عين شمس بعسكره وأنشب القتال وبث السرايا فى البلاد ينهبونها فكثرت لذلك جموعه وجاءه من طوائف العربان خلق كثير * قال صاحب الكامل وكان ممن أتاه حسن بن الجراح الطائى أمير العرب بالشام ومعه جمع عظيم فلما رأى المعز كثرة جموعه استعظم ذلك وأهمه وتحير فى أمره ولم يقدم على اخراج عسكره لقتاله فاستشار أهل الرأى من نصحائه فقالوا ليس حيلة غير السعى فى تفريق كلمتهم والقاء الخلف بينهم ولا يتم ذلك الا بابن الجراح فراسله المعز واستماله وبذل له مائة ألف دينار ان هو خالف على القرمطى فأجابه ابن الجراح الى ما طلب منه فاستحلفوه حلف انه اذا وصل اليه المال المقرر انهزم بالناس فاحضروا المال قال فلما رأوه استكثروه فضربوا أكثرها دنانير من صفر وألبسوها الذهب وجعلوها فى أسافل الاكياس وجعلوا الذهب الخالص على رؤسها وحمل اليه فأرسل الى المعز أن يخرج فى عسكره يوم كذا ويقاتلونه وهو فى الجهة الفلانية فانه ينهزم ففعل المعز ذلك فانهزم وتبعه العرب كافة فلما رآه الحسن القرمطى منهزما تحير فى أمره وثبت وقاتل بعسكره الا أن عسكر المعز طمعوا فيه وتابعوه بالحملات عليه من كل جانب فارهقوه فولى منهزما واتبعوا أثره وظفروا بعسكره فأخذوا من فيه أسرى وكانوا نحو ألف وخمسمائة أسير فضربت أعناقهم ونهب ما فى المعسكر وجرد المعز القائد أبا محمد ابراهيم بن جعفر فى عشرة آلاف رجل وأمره باتباع القرامطة والايقاع بهم فأتبعهم وتثاقل فى سيره خوفا أن ترجع القرامطة اليه قال وأما هم فانهم ساروا حتى نزلوا أذرعات وساروا منها الى بلدهم الاحساء ويظهرون أنهم يعودون اه وما زال القائد أبو محمد ابراهيم بن جعفر سائرا بمن معه من العسكر حتى دخل دمشق وكان المعز ولى القائد ظالم ابن موهوب العقيلى عليها قبل وصول أبى محمد اليها بقليل فخرج ظالم للقاء أبى محمد مسرورا بقدومه لانه كان مستشعرا من عود القرامطة اليه وطلب منه أن ينزل بعسكره بظاهر دمشق فنزل ولم يستقر به المقام حتى تطاولت أيدى أصحابه بالعبث والفساد وقطع الطريق فاضطرب الناس وكادوا يفتتنون واتفق أن صاحب الشرطة أخذ انسانا من أهل البلد

فقتله

فقتله فثار به الغوغاء والاحداث وخرجوا عليه وقتلوا أصحابه وكانت الفتنة تعم البلاد فجعل ظالم يدارى الناس ويهوّن عليهم واتصل عبث أصحاب أبى محمد بالقرى فنزح أهلها وفارقوها ودخلوا البلد وهم يضجون من جور المغاربة فلما كان منتصف شوال من السنة قامت الفتنة بين أهل دمشق والمغاربة عسكر المعز وعظمت وجرى بين الفريقين قتال شديد ودام الحال على ذلك من القتل والنهب وحرق الدور وتخريب القرى الى ربيع الآخر سنة أربع وستين وثلثمائة الى أن جاء مرسوم المعز لدين الله الى أبى محمد بالعزل والتخلى عن قيادة من كان معه من الجند فاعتزل المنصب وورد مرسوم المعز الى القائد ريان الخادم والى طرابلس يأمره بالمسير الى دمشق لمشاهدة حالها وكشف أمور أهلها بعد الذى ذاقوه من هذه الحروب والمحن وأن يصرف القائد أبا محمود عنها فسار ريان الى دمشق وكشف الامر فيها وكتب به الى المعز وتقدم الى القائد أبى محمود بالانصراف فسار فى جماعة قليلة من العسكر الى الرملة وبقى الامر كذلك الى أن ظهر الفتكين أبو منصور التركى بظاهر دمشق يريد غزوها وأخذها من المعز لدين الله والفتكين هذا من موالى معز الدولة بن بويه قد كان خرج على مولاه بختيار بن معز الدولة وعصاه وقاتل مولاه بختيار فهزمه بختيار ومزق جوعه فهرب فى جماعة قليلة من أصحابه وكلهم أهل نجدة وقوة ودوّخ بعض مدن الشام وما زال وقد هابه العرب وتخوّفوا منه حتى نزل على دمشق يريد غزوها وكان نزوله عليها فى إبان ظهور الفتنة وتغلب الاحداث عليها حتى لم يبق للاعيان معهم حكم ولا للسلطان عليهم طاعة فلما وافاها خرج اليه أشرافها وشيوخها وأظهروا له الفرح بقدومه وسألوه أن ينزل عندهم ويملك بلدهم ويزيل عنهم سمة المصريين فأجابهم الى ذلك واستحلفهم على الطاعة والمساعدة وحلف لهم على الحماية وكف الاذى عنهم منه ومن غيره ثم دخل البلد بمن معه من الجند وأزال عنه ريان عامل المعز لدين الله وقطع خطبة المعز وخطب للخليفة الطائع لله وقمع أهل العسف والفساد فهابه الناس وخافوه جدا وكانت العرب قد استولت على سواد البلد وما يتصل به فأوقع بهم وقتل كثيرا منهم فأذعنوا له وقد ظهرت لهم شجاعته وعزة نفسه وكتب الى المعز لدين الله يداريه ويظهر له الطاعة فدعاه المعز وأرسل يستقدمه عنده ليخلع عليه ويوليه من جانبه فتخوّف الفتكين من ذلك وامتنع من المسير فتجهز المعز وجمع العساكر لقصده فلم يتم له ذلك حيث وافته منيته وهو على قدم المسير فمات فى سابع عشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة وله من العمر خمس وأربعون سنة وستة أشهر تقريبا * قال صاحب الكامل وكان سبب موته أن ملك الروم بالقسطنطينية أرسل اليه رسولا كان يتردد اليه بافريقية فخلا به بعض الايام فقال له المعز أتذكر اذ أتيتنى رسولا وأنا بالمهدية فقلت لك لتدخلن علىّ وأنا بمصر مالكا لها قال نعم قال وأنا أقول لك لتدخلن علىّ ببغداد وأنا خليفة فقال له الرسول ان أمنتنى على نفسى ولم تغضب قلت لك ما عندى فقال له المعز قل وأنت آمن قال بعثنى اليك الملك ذلك العام



فرأيت من عظمتك فى عينى وكثرة أصحابك ما كدت أموت منه ووصلت الى قصرك فرأيت
عليه نورا عظيما غطى بصرى ثم دخلت عليك فرأيتك على سريرك فظننتك خالقا فلو قلت
لى انك تعرج الى السماء لتحققت ذلك ثم جئت اليك الآن فما رأيت من ذلك شيأ أشرفت
على مدينتك فكانت فى عينى سوداء مظلمة ثم دخلت عليك فما وجدت من المهابة ما وجدته
ذلك العام فقلت ان ذلك كان أمرا مقبلا وانه الآن بضد ما كان عليه قال فأطرق المعز
وخرج الرسول من عنده وأخذت المعز الحمى لشدة ما وجد واتصل مرضه حتى مات فكانت
ولايته ثلاثا وعشرين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام منها مقامه بمصر سنتان وتسعة أشهر
والباقى بافريقية وهو رأس العائلة الفاطمية بديار مصر وكان شهما حازما مغرى بالنجوم لا
يعمل الا بأقوال المنجمين قال له منجمه ان عليه قطعا فى وقت كذا وأشار عليه بعمل سرداب
يختفى فيه الى أن يجوز ذلك الوقت ففعل ما أمره وأحضر قواده وكبار دولته فقال لهم ان
بينى وبين الله عهدا أنا ماض اليه وقد استخلفت عليكم ولدى نزارا يعنى العزيز فاسمعوا له
وأطيعوا ثم نزل السرداب فكان أحد المغاربة اذا رأى سحابا نزل عن دابته وأومأ بالسلام
اليه ظنا منه أن المعز فيه فغاب سنة ثم ظهر وبقى مدة ثم مرض وتوفى فستر ابنه العزيز
خبر موته الى عيد النحر من السنة فصلى بالناس وخطبهم ودعا لنفسه وعزى بأبيه

وكان المعز عالما فاضلا جوادا شجاعا حسن التدبير عهد فى أيامه الى يعقوب بن
يوسف بن كلس خراج مصر وجميع وجوه الاموال والحسبة والاعشار وجميع ما يضاف الى
ذلك من سائر الاعمال وقد كان يعقوب هذا يهوديا من بغداد جاء الى مصر فى أيام كافور
الاخشيدى وأسلم بها فعرفه كافور وقربه من مجلسه وولاه بعض المناصب العالية فظهرت
كفاءته واتسعت شهرته وما زال الى أن دخل جوهر مصر فعرف يعقوب المذكور وأقره على ما
بيده من الاعمال حتى قلده المعز الخراج وضم اليه عسلوج بن الحسن وكتب لهما المعز سجلا
بذلك فجلسا فى جامع ابن طولون واتخذاه دارا للامارة والنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال
فحضر الناس للقبالات وطالبا بالبقايا من الاموال على المتقبلين أى الملتزمين والمالكين والعمال
واستقصيا الطلب ونظرا فى المظالم فكثرت موارد الاموال وزيد فى الضياع وكثر الناس
وتكاثفوا وحسنت أحوال البلاد ودرت الارزاق وعم الاخذ والعطاء سائر البلاد وبقى
يعقوب على هذا الحال من النقض والابرام فى أمور السلطنة حتى مات المعز • يحكى عن
المعز أنه لما كان قادما الى ديار مصر وخرج الناس للقائه اجتمع به أناس من الاشراف وفيهم
عبدالله بن طباطبا فتقدم اليه وقال الى من ينتسب مولانا فقال سنعقد مجلسا نجمعكم فيه
ونسرد عليكم نسبنا ان شاء الله فلما استقر بالمعز المقام فى قصره بالقاهرة جمع الناس فى مجلس
عام وجلس بهم وقال هل بقى من رؤسائكم أحد قالوا لم يبق معتبر فسل نصف سيفه وقال
هذا نسبى • وبذر عليهم شيأ كثيرا من الذهب وقال وهذا حسبى • فقالوا جميعا سمعنا وأطعنا
ويقال انه كان شاعرا ومن شعره هذه الابيات

فله

لله ماصـــنعت بنا * تـلك المحاجر بالمعاجر
أمضى وأقضى فى النفو * س من الخناجر فى الحناجر
ولقد تعبت ببينكم * تعب المهاجر فى الهواجر

ولما استقر بالعزيز الملك بعد أبيه المعز أطاعه العسكر واجتمعوا عنده كلهم وكان هو يدبر الامور منذ مات أبوه الى أن أظهر خبر موته وأقر ابن كلس على مابيده وفوّض اليه النظر فى سائر الامور وبالغ فى اطلاق يده فعلت كلمة ابن كلس فأحكم نظام المملكة ورتب الدواوين وجعل منها ماهو للاموال والخراج والمستغلات ومنها ماهو للجيش والانشاء والسجلات وجعل فيها الكتاب ورؤساء الكتاب والامناء وكان يجلس للنظر بنفسه فى الظلامات ويخاطب الخصوم ويوقع على الرقاع وما زال على هذا الحال من بسط الكلمة والتصرف فى سائر الامور حتى مات فى سنة ثمانين وثلثمائة هجرية * وعاد الفتكين الى الظهور فى أيام العزيز والى الهجمات على سائر الشامات التابعة لديار مصر فاهتم العزيز لذلك وسير جوهرا القائد فى جيش عظيم لقتال الفتكين وو ردت الاخبار بذلك الى الفتكين فتحصن فى دمشق وملأها بالمؤن والذخيرة فزحف عليه جوهر بعسكره ونزل بظاهر دمشق و بنى على معسكره سورا وحفر خندقا عظيما فقاتله الفتكين بمن معه من الرجال وألح فى قتاله فكانت بينهم سجالا وما زال جوهر يوالى الهجمات على حصون البلد حتى قلت الاقوات فى البلد واختل أمر الفتكين وكاد يسقط فى يده ثم عاد فتقوى وجاء الخبر الى جوهر القائد بخروج القرمطى أحد وزحفه الى دمشق لخلاف جوهر وقد كانت أمواله قلت وهلك أكثر جنوده ودوابه فراسل الفتكين فى طلب الصلح على شروط معلومة فأجابه الفتكين اليها فرحل جوهر عن دمشق يريد القاهرة فلحقه القرمطى بمن معه وجعل يتخطف مؤخرة عسكر جوهر حتى دخل جوهر الرملة فأرسل القرمطى بسرية فاقتتلت مع جوهر فى واقعة كبيرة قتل فيها جماعة من الفريقين وفر جوهر الى عسقلان فلحقه الفتكين أيضا فى عسكر وحاصر عسقلان فسير جوهر الى العزيز فى طلب النجدة وأرسل الى الفتكين فى طلب الصلح وأن تقرر قاعدته على مال يحمله اليه وأن يخرج من تحت سيفه فأجابه الفتكين الى ذلك وعلق سيفه على باب عسقلان فخرج جوهر ومن معه من تحته وساروا الى القاهرة فوجدوا العزيز قد برز فى عسكر عظيم يريد المسير لقتال الفتكين فساروا معه حتى التقى الجمعان واشتبك القتال فلم تكن غير ساعة حتى انهزم جيش الفتكين وانتصر العزيز نصرة عظيمة فطلب الفتكين فاذا هو قد فر على فرس فقبض عليه أحد العرب وجاء به الى العزيز وعمامته فى عنقه فأمر به فطيف به على العساكر على جمل فجعل العسكر يلطمونه ويهزون لحيته * وسار بالفتكين وجميع الاسرى يريد القاهرة فدخلها فى أبهة ويتجمل زائد والغنائم أمامه والاسرى خلفه ثم رق الى الفتكين فاستخدمه ومن معه وأحسن اليه غاية الاحسان وأنزله فى دار وواصله بالعطاء والخلع حتى قال الفتكين يوما لقد احتشمت من ركوبى مع مولانا العزيز بالله وتطرقى اليه بما غمرنى من فضله واحسانه فلما بلغ ذلك العزيز

قال لمه حيدر باعم والله انى أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندى وما زال الفتكين يتقلب فى نعم العزيز حتى مات فى سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة هجرية وعظمت دولة العزيز بالله وكبر سلطانه فقلت الفتن فى أيامه الا ما كان منها عند النصارى ودرت الارزاق وهبطت الاسعار وعم الاخذ والعطاء سائر البلاد وما زال يتصرف مع هيبة ووقار حتى وافته منيته فى خلافة القادر بالله أبى العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر كما سيذكر فى محله

ومات فى أيام الخليفة الطائع لله مكاريوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام عشرين سنة قام فى خلالها المسلمون فى بيت المقدس على كنيسة القيامة فأحرقوها ونهبوا ما فيها وأخذوا منها ماقدروا عليه حتى لم يبق فيها شئ يذكر ثم اشتد مسلمو مصر على من بها من القبط أهل البلاد شدة بالغة فنهبوا أكثر دورهم وخربوا عدة كثيرة من منازلهم وضيقوا عليهم وطالت أيام هذه الشدة حتى كادت تعم سائر البلاد ثم زالت فأقام المتأصلون بعد موت مكاريوس المذكور تاوفانيوس وهو سموهم وأصله من مدينة الاسكندرية وكان عالما تقيا محبا للخير ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل الخامس والعشرون)

(فى خلافة أبى العباس احمد القادر بالله بن اسحق)

ثم قام بالامر بعد الطائع لله أبو العباس أحمد القادر بالله بن اسحق بن المعتضد بويع له بالخلافة ليلة خلع الطائع لله سنة احدى وثمانين وثلثمائة هجرية أى سنة احدى وتسعين وتسعمائة ميلادية وعمره يومئذ أربع وأربعون سنة ٭ قال أصحاب التاريخ ٭ لما قبض على الطائع لله واعتقل فى دار بهاء الدولة ذكر بهاء الدولة من يصلح للخلافة وتكلم مع أصحابه فى ذلك فاتفقوا على القادر بالله وهو أبو العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بن المعتضد هذا وكان بعيدا عن دار السلام خوفا من الطائع فأرسل بهاء الدولة فى طلبه فشغب جماعة الديلم ببغداد ومنعوه من الخطبة فقيل على المنبر ٭ اللهم أصلح عبدك وخليفتك القادر بالله ولم يذكروا اسمه تسكينا للفتنة فلما وصل الرسل الى حيث القادر بالله دخلوا عليه وهو يحكى مناما رآه تلك الليلة وهو ماحكاه هبة الله بن عيسى كاتب مهذب الدولة ٭ قال كنت أحضر عند القادر بالله كل أسبوع مرتين فكان يكرمنى فدخلت عليه يوما فوجدته قد تأهب تأهبا لم تجربه عادته ولم أرمنه ما ألفته من اكرامه واختلفت بى الظنون فسألته عن

سبب ذلك قال كان لزلة منى اعتذرت عن نفسى فقال بل رأيت البارحة فى منامى كأن نهركم هذا نهر الصليق قد اتسع فصار مثل دجلة أضعافا فسرت على حافته متعجبا منه ورأيت قنطرة عظيمة فقلت من حدث نفسه بجعل هذه القنطرة على هذا البحر العظيم ثم صعدتها وهى محكمة فبينا أنا عليها أتعجب منها اذ رأيت شخصا قد تأملنى من ذلك الجانب فقال أتريد أن تعبر فقلت نعم فمد يده حتى وصلت الى فأخذنى وأعبرنى فهالنى فعله فقلت من أنت قال على بن أبى طالب وهذا الامر صائر اليك ويطول عمرك فيه فأحسن الى ولدى وشيعتى قال المحدث فما انتهى القادر الى هذا القول حتى سمعنا صياح الملاحين وغيرهم وسألنا عن ذلك واذا هم الواردون اليه لاصعاده ليتولى الخلافة فخاطبته بامرة المؤمنين وبايعته وقام مهذب الدولة بخدمته أحسن قيام وحمل اليه من المال وغيره مايحمل لكبار الملوك الخلفاء وشيعه فسار القادر بالله الى بغداد فلما وصل الى جبل انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس لاستقباله وساروا فى خدمته فدخل دار الخلافة ثانى عشر رمضان وبايعه بهاء الدولة والناس وخطب له ثالث عشر رمضان فلم تستقر به الخلافة حتى أعاد لها بهجتها وجدد ناموسها وعظم حرمتها وألقى الله هيبته فى قلوب الخلق فأطاعوه أحسن طاعة وأتمها

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين فى رجب سلم بهاء الدولة الطائع لله الى القادر بالله فأجله وأكرمه وأنزله حجرة من خاص حجره ووكل به من ثقات خدمه من يقوم بخدمته وأحسن ضيافته فكان الطائع يطلب الزيادة فى الخدمة كما كان أيام الخلافة فكان القادر بالله يأمرهم بذلك ويلاطفه * حكى عنه أن القادر بالله أرسل اليه يوما طيبا فقال الطائع من هذا يتطيب أبو العباس يعنى القادر فقالوا نعم فقال قولوا له عنى فى الموضع الفلانى كندوج فيه مما كنت أستعمله فليرسل الى بعضه ويأخذ الباقى لنفسه ففعل ذلك وأرسل اليه يوما القادر بالله عدسية فقال ماهذا فقالوا عدس وسلق فقال أوقد أكل أبو العباس من هذا قالوا نعم قال قولوا له عنى لما أردت أن تأكل عدسية لم اختفيت فما كانت العدسية تعوزك ولم تقلدت هذا الامر فأمر حينئذ القادر أن تفرد له جارية من طباخاته تطبخ له مايلتمسه كل يوم فأقام على هذا الى أن توفى * وكاتب القادر بالله الملوك فى ارجاع الخطبة لبنى العباس ففعلوا الا القليل جدا وبايع لولده أبى الفضل بولاية العهد وأحضر حجاج خراسان وأعلمهم بذلك ولقبه الغالب بالله قال أصحاب التاريخ وكان سبب البيعة لولده المذكور أنه كان بنصيبين رجل من ولد الواثق بالله أمير المؤمنين اسمه أبو عبدالله بن عثمان الواثق فجاء أبو عبدالله هذا الى بغداد وأقام بها أياما ثم سار عنها الى خراسان وعبر النهر الى هرون بن أيلك بقرا خاقان ومعه الفقيه أبو الفضل التميمى فأكرم هرون وفادتهما فأخبره أبو الفضل أنه رسول من عند الخليفة القادر بالله الى هرون يأمره بالبيعة الى أبى عبدالله بن عثمان المذكور فانه ولى عهده فأجابه خاقان الى ذلك وبايعه وخطب له فى بلاده وأنزله منزلا رحبا وجعل ينفق عليه فلما بلغ ذلك القادر بالله عظم عليه جدا وراسل خاقان فى الامر فلم يلتفت خاقان لقوله ولا صغى لرسالته فلبث القادر

بطل النفس حتى مات هرون خاقان وولى بعده أحمد قراخاقان فكاتب أحمد المذكور فى أمر أبى عبد الله بن عثمان وبالغ فى الطلب فأجابه أحمد الى ما طلب وأمر بإبعاد ابن عثمان فبادر القادر بالبيعة لولده أبى الفضل بولاية العهد وجاء ابن عثمان الى بغداد متنكرا فعرف بها وطلبه القادر فهرب الى البصرة ثم الى فارس وكرمان ثم الى بلاد الترك مستنجدا فلم يتم له ما أراد وراسل الخليفة الملوك بطلبه فضاقت عليه الارض وسار الى خوارزم وأقام بها ثم فارقها فأخذه يمين الدولة محمود بن سبكتكين فحبسه فى قلعة الى أن مات بها

ومرض القادر بالله وانقطع فأرجف الناس بموته فبلغه ما يتحدث به الناس فجلس لهم جلوسا عاما وأذن للخاصة والعامة فوصلوا اليه فلما اجتمعوا قام الصاحب أبو القاسم وقال ان خدم مولانا أمير المؤمنين داعون له باطالة البقاء وشاكرون لما شملهم من نظره لهم وللمسلمين باختيار الامير ولده بولاية العهد فقال الخليفة للناس قد أذنا بالعهد له فلما عهد اليه ألقيت الستارة وقعد أبو الفضل على السرير الذى أقاموه له وخدمه الحاضرون وهنؤه ودعى له على المنابر يوم الجمعة لتسع بقين من جمادى الاولى سنة احدى وعشرين وأربعمائة فلما كان شهر ذى الحجة من السنة المذكورة مات أمير المؤمنين القادر بالله وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر فكانت خلافته احدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما وكان حليما كريما خيرا يحب الخير وأهله ويأمر به وينهى عن الشر ويبغض أهله وكان حسن الاعتقاد صنف فيه كتابا على مذهب السنة وكان يخرج من داره فى زى العامة ويزور قبور الصالحين واذا وصل اليه حال أمر فيه بالحق * قال القاضى حسين بن هرون كان بالكرخ ملك أى عقار ليتيم وكان له قيمة جيدة فأرسل الىّ ابن حاجب النعمان وهو حاجب القادر يأمرنى أن أفك عنه الحجر ليشترى بعض أصحابه ذلك الملك فلم أفعل فأرسل يستدعينى فقلت لغلامه تقدمنى حتى ألحقك وخفته فقصدت قبرا معروفا ودعوت الله أن يكفينى شره وهنالك شيخ فقال لى على من تدعو فذكرت له ذلك ووصلت الى ابن حاجب النعمان فأغلظ لى فى القول ولم يقبل عذرى فأتاه خادم برقعة ففضها وقرأها فتغير لونه ونزل من الشدة فاعتذر الىّ ثم قال كتبت الى الخليفة قصتى فقلت لا وعلمت أن ذلك الشيخ كان الخليفة * قيل وكان يقسم طعامه فى كل ليلة لثلاثة أقسام فقسم كان يتركه بين يديه وقسم يرسله الى جامع الرصافة وقسم يرسله الى جامع المدينة يفرق على المقيمين فيهما فاتفق أن الفراش حمل ليلة الطعام الى جامع المدينة ففرقه على الجماعة فأخذوا الا شابا فانه رده فلما صلوا المغرب خرج الشاب وتبعه الفراش فوقف على باب فاستطعم فأطعموه كسرات فأخذها وعاد الى الجامع فقال له الفراش ويحك ألا تستحى ينفذ اليك خليفة الله الطعام حلالا فترده وتخرج وتأخذ من الابواب فقال والله مارددته الا لانك عرضته علىّ قبل المغرب وكنت غير محتاج اليه فلما احتجت طلبت فعاد الفراش فأخبر الخليفة بذلك فبكى وقال له راع مثل هذا واغتنم أخذه وأقم الى وقت الافطار * وقال أبو الحسن الابهرى أرسلنى بهاء

الدولة الى القادر بالله فى رسالة فسمعته ينشد

سبق القضاء بكل ماهو كائن * والله ياهـذا لرزقـك ضامن
تعنى بما يفـنى وتترك ما به * تغـنى كأنك للحوادث آمن
أوماترى الدنيا ومصرع أهلها * فاعـمل ليوم فراقها يا خائن
واعـلم بأنك لاأباك فى الذى * أصبحت تجمعه لغيرك خازن
ياعامر الدنيا أتعمـر منزلا * لم يبق فيه مع المنية ساكن
المـوت شئ أنت تعـلم أنه * حـق وأنت بذكره تتهاون
ان المنيـة لاتؤامر من أتت * فى نفسه يوما ولا تستأذن

قال فقلت الحمد لله الذى وفق أمير المؤمنين لانشاء مثل هذه الابيات فقال بل لله المنة اذ ألزمنا بذكره ووفقنا لشكره ألم تسمع قول الحسن البصرى فى أهل المعاصى هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم اه وكان القادر أبيض طويل اللحيـة كبيرها يخضبها لشيبه وكان دائم التهجد كثير الصدقات

ومات فى خلافته أى سنة ست وثمانين وثلثمائة هجرية العزيز أبو منصور نزار صاحب مصر مات فى بلبيس بعد مرض طويل بالقولنج والحصاة وله من العمر اثنتان وأربعون سنة وبضـعة أشهر وكانت خلافتـه احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوما فحمل الى القاهرة ودفن فى تربة القصر وكان العزيز جيلا كثير العفو محبا للخير أسمر طويلا أصهب الشعر عريض المنكبين واستوزر عيسى بن نسطور القبطى فكان عيسى هذا حسن التدبير والسياسة على الهمة عاقلا رزينا مهيبا واسع الكلمة فمن حـلم العزيز وحبه للعفو أنه كان بمصر شاعر اسمه الحسـن بن بشر الدمشقى وكان كثـير الهجاء فهجا يعقوب بن كلس وزير العزيز وكاتب الانشاء أبا نصر عبد الله الحسين القيروانى فقال

قل لابى نصر صاحب القصر * والمتأنى لنقـض ذا الامر
انقض عرا الملك للوزير تفز * منه بحسن الثناء والذكر
وأعط وامنع ولا تخف أحدا * فصاحب القصر ليس فى القصر
وليس يدرى ما ذا يراد به * وهو اذا ما درى فما يدرى

فشكاه ابن كلس الى العزيز وأنشده الشعر فقال له هذا شئ اشتركنا فيه فى الهجاء فشاركنى فى العفو عنه ثم ان الدمشقى المذكور قال وعرض بالفضل القائد بهذه الابيات

تنصر فالتنصر دين حق * عليه زماننا هـذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا * وعطل ماسواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا الـ * ـعزيز ابن وروح القدس فضل

فشكاه أيضا الفضل الى العزيز فامتعض منـه الا أنه قال اعف عنه فعفا عنه ثم دخل

الوزير على العزيز فقال لم يبق للعفو عن هذا معنى وفيه غض من السياسة ونقض لهيبة الملك فانه قد ذكرك وذكرني وذكر ابن زبارج نديمك وسبك بقوله

زبارجى نديم * وكلسى وزير * نعم على قدر الكلب يصلح الساجور

فغضب العزيز وأمر بالقبض عليه فقبض عليه لوقته ثم بدا للعزيز اطلاقه فأرسل اليه يستدعيه وكان للوزير عين فى القصر ينقل له الاخبار فأخبره بذلك فأمر بقتله فقتل فلما وصل رسول العزيز فى طلبه أراه رأسه مقطوعا فعاد اليه فأخبره فاغتم له * وكان للعزيز محاسن أخرى وهو أول من اتخذ وزيرا أثبت اسمه على الطرز وقرن اسمه باسمه وأول من رمى من العلويين بالنشاب وأول من اتخذ منهم الاتراك واصطنعهم وجعل منهم القواد وأول من ركب من العلويين بالذؤابة الطويلة وضرب بالصولجان ولعب بالرمح . وأول من اتخذ الجير لركوبه اياها وأول من أقام الطعام فى جامع القاهرة لمن يحضر فى رجب وشعبان ورمضان

ولما مات ولى بعده ابنه أبو على منصور الحاكم بأمر الله بعهد من أبيه ولى وعمره احدى عشرة سنة وستة أشهر وأوصى العزيز أرجوان الخادم به فكان يتولى أمر داره ويدبر أمور مملكته وهو الذى أخذ له البيعة على الناس ولم يمض على ولايته الا القليل حتى ظهر بمصر ابن عمار شيخ كتامة وسيدها وعلت كلمته فتمكن من أمور السلطنة وأمر ونهى وحكم البلاد ولقب بأمير الدولة قال أصحاب التاريخ وهو أول من لقب فى دولة العلويين المصريين بهذا اللقب ولما بسط يده على جميع الامور أشار عليه أصحابه بقتل الحاكم بأمر الله واستخلاص البلاد لنفسه والاستقلال بملكها فلم يقبل ذلك احتقارا للحاكم واستصغارا لسنه وطغت كتامة وتجبرت وتطاولت أيديهم الى أموال الناس والعبث فى البلاد وأخذ النساء وأرجوان الخادم لايقدر على منعهم وهو مقيم مع الحاكم فى قصره يحرسه فلما ضاقت على أرجوان المذاهب كتب الى منجوتكين وهو يومئذ بدمشق يشكو اليه من فعال ابن عمار وأصحابه ويستنهضه الى نجدة الحاكم بأمر الله فجهز منجوتكين جيشا وسار به من دمشق الى مصر فعلم ابن عمار بخبره وخشى العاقبة فأظهر أن منجوتكين قد عصى على الحاكم وحضر الى مصر ليخلعه من السلطنة ونادى فى جنده بالخروج لقتال منجوتكين فخرجوا وتقدمهم أبو تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامى والتقوا بعسقلان واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم منجوتكين وأصحابه وقتل منهم خلق كثير وأسر منجوتكين وحمل الى مصر فأبقى عليه ابن عمار وأطلقه وولى على الشام أبا تميم الكتامى بدل منجوتكين المذكور فسار الى طبرية واستعمل على دمشق أخاه عليا فامتنع الناس عليه فأرسل اليهم أبو تميم يتهددهم ان هم أصروا على عدم الطاعة فخافوا وأذعنوا فدخل البلد فأحرق وقتل وعاد الى معسكره وقدم عليهم أبا تميم فأحسن اليهم وأطلق المسجونين واستعمل أخوه على على طرابلس بدل دمشق وخلع عنها جيش بن الصمصامة الكتامى فساءه ذلك ومضى الى مصر واجتمع بارجوان وحبب اليه العمل على خلع

الحسن

الحسن بن عمارة فمال الى ذلك وانتهز فرصة غياب كتامة عن مصر مع أبي تميم الا القليل منهم فدس أرجوان الى المشارقة أن يفتكوا بمن بقى من كتامة بمصر وبابن عمار معهم فبلغ ذلك ابن عمار فعمل على الايقاع بارجوان وشكر العضدى فأخبرهما عيون لهما على ابن عمار بذلك فاحتاطا ودخلا قصر الحاكم باكين واستدعوا كبار المشارقة وفرقوا فيهم الأموال فثاروا على ابن عمار ومن معه من كتامة وشدوا في قتالهم فانهزم ابن عمار وأصحابه واختفى فتقوت عزيمة ارجوان وفرح بهذا الظفر وأخرج الحاكم بأمر الله وأجلسه وجدد له البيعة وكتب الى وجوه القواد والناس بدمشق بالايقاع بأبى تميم فلم يشعر الا وقد هجموا عليه ونهبوا خزائنه فخرج هاربا وقتلوا من كان معه من كتامة فعادت الفتنة بدمشق واضطربت الأمور وعصى أهل صور والرملة وغيرهما فسير أرجوان لقتالهم جيشا عظيما وظفر بهم وأرجعهم الى الطاعة وظفر بأبى تميم فكان ذلك أول فتح حصل على يد أرجوان

وما زال أرجوان يدبر الأمور ويمهد العقبات ويثبت سلطنة الحاكم بأمر الله ويفتح الفتوحات الكبار مثل برقة وطرابلس الغرب وغيرهما ويبالغ في خدمة الحاكم حتى كانت سنة تسع وثمانين فثقل مكانه على الحاكم وأبغضه وأراد التخلص منه فقتله وكان أرجوان هذا خصيا أبيض حسن التدبير صائب الرأى وكان له وزير قبطى اسمه فهد بن ابراهيم وكان فهد هذا عاقلا حسن السياسة فاستوزره الحاكم ومال اليه وأحبه كثيرا وعلت كلمة الحاكم بأمر الله فسير الجيوش للغزو واشتد على القواد وكبار القبائل بمصر وأكثر فيهم القتل فخرج عليه الوليد المعروف بأبى ركوة وخرج معه كبار القبائل وأكثر القواد قال بعض أصحاب التاريخ في سبب خروجه على الحاكم مانصه ٭ كان أبو ركوة اسمه الوليد وانما كنى أبا ركوة لركوة كان يحملها فى أسفاره سنة الصوفية وهو من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان ويقرب فى النسب من المؤيد هشام بن الحكم الاموى صاحب الاندلس ولما استولى المنصور بن أبى عامر على المؤيد وأخفاه عن الناس تتبع أهله ومن يصلح منهم لذلك فقتل البعض وهرب البعض وكان أبو ركوة ممن هرب وعمره يومئذ يناهز العشرين سنة وقصد مصر وأقام بها وكتب الحديث ثم رحل الى مكة واليمن وعاد الى مصر ودعا بها الى القائم فأجابه بنو قرة وغيرهم قالوا وسبب استجابتهم له أن الحاكم بأمر الله كان قد أسرف فى مصر فى قتل القواد وحبسهم وأخذ أموالهم وصارت القبائل معه فى ضنك وضيق ويودون خروج الملك من يده وكان الحاكم في الوقت الذى دعا فيه أبو ركوة بنى قرة قد آذاهم وحبس منهم جماعة من أعيانهم وقتل بعضهم فلما دعاهم أبو ركوة انقادوا له وكان بين بنى قرة وبين زناتة حروب ودماء فاتفقوا على الصلح ومنع أنفسهم من الحاكم فقصد بنى قرة وفتح مكتبا يعلم الصبيان الخط وتظاهر بالدين والنسك وأمهم فى صلواتهم وشرع فى دعوتهم الى ما يريد فأجابوه وبايعوه واتفقوا عليه وعرفهم حينئذ نفسه وذكر لهم أن عندهم فى الكتب أن يملك مصر وغيرها ووعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا فاجتمع بنو قرة وزناتة

على بيعتـه وخاطبوه بالامامة وكانوا بنواحى برقـة فلما سمع الوالى ببرقـة خـبره كتب الى الحاكم ينهيه اليه ويستأذنه فى قصدهم واصلاحهم فأمره بالكف عنهم واطراحهم ثم ان أبا ركوة جمعهم وسار الى برقة واستقر بينهم أن يكون الثلث من الغنائم له والثلثان لبنى قرة وزناتة فلما قاربها خرج اليه واليها فالتقوا فانهزم عسكر الحاكم وملك أبو ركوة برقة وقوى هو ومن معه بما أخذوا من الاموال والسلاح وغيرهما ونادى بالكف عن الرعية والنهب وأظهر العدل وأمر بالمعروف فلما وصل المنهزمون الى الحاكم عظم عليه الامر وأهمته نفسه وملكه وعاود الاحسان الى الناس والكف عن أذاهم وندب عسكرا نحو خمسة آلاف فارس وسيّرهم وقدّم عليهم قائدا يعرف بإينال الطويل فبلغ ذات الحمام وبينها وبين برقة مفازة فيها منزلان لايلتى السالك الماء الافى آبار عميقة بصعوبة وشدة فسيّر أبو ركوة قائدا فى ألف فارس وأمرهم بالمسير الى إينال ومن معه ومطاردتهم قبل الوصول الى المنزلين المذكورين وأمرهم اذا عادوا أن يغوروا الآبار ففعلوا ذلك وعادوا وحينئذ سار أبو ركوة فى عساكره ولقيهم وقد خرجوا من المفازة على ضعف وعطش فقاتلهم واشتد القتال فحمل إينال على عسكر أبى ركوة فقتل منهم خلقا كثيرا وأبو ركوة واقف لايحمل هو ولا عسكره فاستأمن اليه جماعة كثيرة من كتامة لما نالهم من الاذى والقتل من الحاكم وأخذوا الامان لمن بقى من أصحابهم ولحقهم الباقون فحمل حينئذ بهم على عساكر الحاكم فانهزمت وأسر إينال وقتل وأسر أكثر عسكره وقتل منهم خلق كثير وعاد الى برقة وقد امتلأت أيديهم من الغنائم وانتشر ذكره وعظمت هيبته وأقام ببرقة وترددت سراياه الى الصعيد وأرض مصر وقام الحاكم من ذلك وقعد وسقط فى يده وندم على مافرط وفرح جند مصر وأعيانها وعلم الحاكم ذلك فاشتد قلقه وأظهر الاعتذار عن الذى فعله وكتب الناس الى أبى ركوة يستدعونه وممن كتب اليه الحسين بن جوهر المعروف بقائد القواد فسار حينئذ من برقة الى الصعيد وعلم الحاكم فاشتد خوفه وبلغ الامر به كل مبلغ وجمع عساكره واستشارهم وكتب الى الشام يستدعى العساكر فجاءته ففرق الاموال والدواب والسلاح وسيرهم وهم اثنا عشر ألف رجل بين فارس وراجل سوى العرب واستعمل عليهم الفضل بن عبد الله فلما قاربوا أبا ركوة لقيهم فى عساكره ودام مناجزة المصريين والفضل يناجز ويدافع ويراسل أصحاب أبى ركوة يستميلهم ويبذل لهم الرغائب فأجابه قائد كبير من بنى قرة يعرف بالماضى وكان يطالعه بأخبار القوم وماهم عازمون فيدبر الفضل أمره على حسب مايعلمه منه وضاقت الميرة على العساكر فاضطر الفضل الى اللقاء فالتقوا واقتتلوا بكوم شريك فقتل بين الفريقين قتلى كثيرة ورأى الفضل من جمع أبى ركوة ما هاله وخاف المناجزة فعاد الى عسكره وراسل بنو قرة العرب الذين فى عسكر الحاكم يستدعونهم اليهم ويذكرونهم أعمال الحاكم بهم فأجابوهم واستقر الامر على أن يكون الشام للعرب ومصر لابى ركوة ومن معه وتواعدوا ليلة يسير فيها أبو ركوة الى الفضل فاذا وصل اليه انهزمت العرب ولايبقى دون مصر مانع فكتب الماضى الى الفضل

ذلك

بذلك فلما كانت ليلة الميعاد جمع الفضل رؤساء العرب ليفطروا عنده وأظهر أنه صائم وطاولهم الحديث وتركهم فى خيمة واعتزلهم ووصى أصحابه بالحذر ورام العرب العود الى خيامهم فمطلهم وطاولهم ثم أحضر الطعام وأحضرهم فأكلوا وتحدثوا وسير الفضل سرية الى طريق أبى ركوة فلقوا العسكر الوارد من عنده فاقتتلوا ووصل الخبر الى العسكر فارتج وأراد العرب الركوب فمنعهم وأرسل الى أصحابهم من العرب فأمرهم بالركوب والقتال ولم يكن عندهم علم بما فعل رؤساؤهم فركبوا واشتد القتال ورأى بنو قرة الأمر على خلاف ما قرروه ثم ركب الفضل ومعه رؤساء العرب وقد فاتهم ما عزموا عليه فباشروا الحرب وغاصوا فيها وورد لابى ركوة مدد من أصحابه فلما رآه الفضل ردّ أصحابه وعاد الى المدافعة وجهز الحاكم عسكرا آخر نحو أربعة آلاف فارس وعبروا الى الجيزة فسمع أبو ركوة بهم فسار مجدّا فى عسكره ليواقعهم عند مصر وضبط الطرق لئلا يسمع الفضل ولم يمكن الماضى أن يكاتبه بذلك فساروا وأرسل اليه من الطريق يعرّفه الخبر وقطع أبو ركوة مسير خمس ليال فى ليلتين وكبسوا عسكر الحاكم بالجيزة وقتلوا نحو ألف فارس وخاف أهل مصر ولم يبرز الحاكم من قصره وأمر الحاكم من عنده من العساكر بالعبور الى الجيزة ورجع أبو ركوة فنزل عند الهرمين ثم انصرف من يومه وكتب الحاكم الى الفضل كتابا ظاهرا يقول فيه ان أبا ركوة انهزم من عساكرنا ليقرأ على القواد وكتب اليه سرا يعلمه بالحال فأظهر الفضل البشارة بانهزام أبي ركوة تسكينا للناس ثم سار أبو ركوة الى موضع يعرف بالسبخة كثير الاشجار وتبعه الفضل وكمن أبو ركوة بين الاشجار وطارد عسكر الفضل ورجع عسكره القهقرى ليطمعوا عسكر الفضل ويخرج الكمين اليهم فلما رأى الكمناء رجوع أبى ركوة ظنوها الهزيمة لاشك فيها فولوا يتبعونهم فركبهم أصحاب الفضل وعلوهم بالسيوف فقتل منهم ألوف كثيرة وانهزم أبو ركوة ومعه بنو قرة وساروا الى حللهم فلما بلغوها ثبطهم الماضى عن المقام معه فقالوا له قد قاتلنا معك ولم يبق فينا قتال فخذ لنفسك وانج فسار الى النوبة فلما بلغ الى حصن يعرف بحصن الجبل للنوبة أظهر أنه رسول من الحاكم الى ملكهم فقال له صاحب الحصن الملك عليل ولا بد من استئذانه فى مسيرك اليه وبلغ الفضل الخبر فأرسل الى صاحب القلعة بالخبر على حقيقته فوكل به من يحفظه وأرسل الى الملك بالحال وكان ملك النوبة قد توفى وملك بعده ولده فأمر بأن يسلم الى نائب الحاكم فتسلمه رسول الفضل وسار به فلقيه الفضل وأكرمه وأنزله فى مضاربه وحمله الى مصر فاشهر بها وطيف به وكتب أبو ركوة الى الحاكم رقعة يقول فيها يا مولانا الذنوب عظيمة وأعظم منها عفوك والدماء حرام ما لم يحلله سخطك وقد أحسنت وأسات وما ظلمت الا نفسى وسوء عملى أوبقنى وأقول

فررت فلم يغن الفرار ومن يكن * مع الله لم يعجزه فى الأرض هارب

ووالله ما كان الفرار لحاجة * سوى فزع الموت الذى أنا شارب



وقد قادنى جرى اليك برمتى * كما خرميتا فى رحا الموت سارب
وأجمع كل الناس أنك قاتلى * فيارب ظن ربه فيك كاذب
وما هو الا الانتقام وينتهى * وأخذك منه واجب لك واجب

ولما طيف به ألبس طرطورا وجعل خلفه قرد يصفعه وكان معلما بذلك ثم حمل الى ظاهر القاهرة ليقتل ويصلب فتوفى قبل وصوله فقطع رأسه وصلب وبالغ الحاكم فى اكرام الفضل الى حد أنه عاده فى مرضة مرضها دفعتين فاستعظم الناس ذلك ثم انه عمل على قتل الفضل لما عوفى فقتله

وصفت الأمور للحاكم فكثر شره وكبر ظلمه وعظم افساده وطغيانه فكان لايستقر على أمر من الأمور وكان له فى كل ساعة شأن قيل انه ابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ وبالغ فى اتقانها وتعزيزها ثم عاد فقتلهم جميعا وخربها وألزم الناس باغلاق الاسواق نهارا وفتحها ليلا فامتثلوا ذلك دهرا طويلا حتى اجتاز مرة بشيخ يعمل النجارة فى أثناء النهار فوقف عليه وقال ألم ننهكم عن هذا فقال ياسيدى أما كان الناس يسهرون لما كانوا يتعيشون بالنهار فهذا من جملة السهر فتبسم وتركه وأعاد الناس الى أمرهم الأول وكان يعمل الحسبة بنفسه فيدور فى الأسواق على حمار له وكان لا يركب الا حمارا فمن وجده قد غش فى معيشته أمر عبدا أسود معه اسمه مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى وكان قد منع النساء من الخروج من بيوتهن وأن لايطلعن من الطاقات أو الاسطحة ومنع الخفافين من عمل الأخفاف ومنعهن من دخول الحمامات وقتل خلقا من النساء على مخالفة ذلك وهدم بعض الحمامات عليهن ومنع من طبخ الملوخية والقرع وله رعونات كثيرة للغاية لاتدخل تحت الحصر فابغضه الناس وكتبوا له الاوراق بالشتم له ولاسلافه فى صور قصص حتى عملوا صورة امرأة من ورق بخفها وازارها وفى يدها قصة فيها من الشتم شئ كثير فلما رآها ظنها امرأة فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها فلما رأى مافيها غضب وأمر بقتلها فلما تحققها من ورق ازداد غضبا الى غضبه وأمر العبيد من السود أن يحرقوا مصر وينهبوا ما فيها من الاموال ويسبوا النساء ففعلوا وقاتلهم أهل مصر قتالا عنيفا ثلاثة أيام والنار تعمل فى الدور والسبى فى النساء واجتمع الناس فى الجامع ورفعوا المصاحف ولجؤا الى الله تعالى واستغاثوا به وما انجلى الحال حتى احترق من مصر نحو ثلثها ونهب نحو نصفها وسبيت نساء كثيرة وفعل بهن الفاحشة العظمى واشترى الرجال من سبى لهم من النساء والحريم من أيدى العبيد قال ابن الجوزى وزاد ظلم الحاكم وعن له أن يدعى الربوبية فصار الناس اذا رأوه يقولون ياواحد ياأحد يامحيى يامميت اه

وأنزل بالنصارى شدائد لم يعهدوا مثلها من قبل وذلك أنه لما تمكن الكثير منهم من أعمال الدولة وصاروا الوزراء حسدهم المسلمون واتهموهم بالمكايدة ووشوا بهم عند الحاكم بأمر الله فغضب جدا وكان لايملك نفسه اذا غضب فقبض على عيسى بن نسطور القبطى وهو

اذ ذاك فى رتبة الوزارة فضرب عنقه جهارا وقبض على فهد بن ابراهيم كاتب الاستاذ برجوان وضرب عنقه وشدّد على النصارى وألزمهم بلبس ثياب الغيار وشدّ الزنانير على أوساطهم ومنعهم من عمل الشعانين وعيد الصليب والتظاهر بما كانت عليه عادتهم فى الاعياد والمواسم من الاجتماع وقبض على جميع ما هو محبس للكنائس والديارات وأدخله فى الديوان وكتب الى عماله كلهم بذلك وأحرق خلقا كثيرا ومنعهم من شراء العبيد والاماء وهدم الكنائس التى بخط راشدة ظاهر مدينة مصر وأخرب كنائس المقس خارج القاهرة وأباح مافيها للناس فانتهبوا منها مايجل عن الوصف وهدم دير القصير وأنهب العامة مافيه ومنعهم من عمل الغطاس على شاطئ النيل بمصر المحروسة وأبطل مايعمل فيه من الاجتماع وألزم الرجال منهم بتعليق الصلبان من الخشب التى زنة كل صليب منها خمسة أرطال فى أعناقهم ومنعهم من ركوب الخيل ورسم لهم أن يركبوا البغال والحمير بسروج ولجم غير محلاة بل من جلود سود ومنع من ضرب الجرس فى القاهرة ونبّه أن لا يركب أحد من المكارية ذميا ولا يحمل نوتىّ مسلم أحدا من أهل الذمة وأن تكون ثيابهم وعمائمهم شديدة السواد وركب سروجهم من خشب الجميز وأن يعلق اليهود كذلك فى أعناقهم خشبا مدوّرا زنة الخشبة منها نحو الخمسة أرطال وهى ظاهرة فوق ثيابهم وزاد فى الجور والعسف فهدم مابقى من الكنائس وأباح مافيها وما هو محبس عليها للناس نهبا واقطاعا فهدمت بأسرها ونهب جميع أمتعتها وأقطع أحباسها وبنى فى مواضعها المساجد وأذن بالصلاة فى كنيسة مارى شنوده بمصر وأحيط بكنيسة المعلقة فى قصر الشمع وأكثر العامة من رفع القصص يطلبون بها هدم كنائس أعمال مصر ودياراتها فلم يردّ قصة منها الا وقد وقع عليها باجابة رافعها الى ما سأل فأخذوا أمتعة الكنائس والديارات وباعوها بأسواق مصر من أوانى الذهب والفضة وغير ذلك وتصرفوا فى أحباسها ووجدوا بكنيسة مارى شنودة مالا جليلا وكذلك فى كنيسة المعلقة من المصاغ وثياب الديباج شيأ كثيرا جدّا ثم كتب الى ولاة الاعمال بتمكين المسلمين من هدم الكنائس والديارات فعم الهدم والتخريب فيها من سنة ثلاث وأربعمائة هجرية حتى ذكر بعض أصحاب التاريخ أن الذى هدم لغاية آخريات سنة خمس وأربعمائة بمصر والشام وأعمالهما من الهياكل التى بناها الروم نيف وثلاثون ألف بيعة ونهب مافيها من آلات الذهب والفضة وقبض على أوقافها

وألزم النصارى أن تكون الصلبان فى أعناقهم اذا دخلوا الحمام وألزم اليهود أن تكون فى أعناقهم الاجراس اذا دخلوا الحمام ثم ألزم الاثنين معا بخروجهم كلهم من أرض مصر الى بلاد الروم فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة واستغاثوا وصاحوا بطلب العفو حتى أعفوا من النفى وفى خلال هذه الاحن أسلم كثير من النصارى وضربتهم يد الشتات فتمزقوا أو كادوا وأسكن اليهود فى حارة زويلة وتهدّدهم بالقتل ان لم يسلموا فخافوا وأسلم منهم عدد غفير ثم أمرهم بالرجوع الى دينهم فارتد منهم فى يوم واحد سبعة آلاف ثم عاد فأمر بهدم معابدهم



فهدمت ثم أمر باعادتها لهم فأعيدت وادعى الالوهية فكان يكتب له * بسم الحاكم الرحمن الرحيم * ثم انه ادعى علم الغيب فكان يقول ان فلانا قال في بيته كذا وكذا ودخل له كذا وكذا وكان ذلك باتفاق اعتمده مع العجائز اللواتي كن يدخلن بيوت الامراء وغيرهم ويخبرنه بما يجرى ثم كان من أمره أن تعدى شره الى أخته الاميرة سيدة الملك فاتهمها بالفاحشة وتهددها بالقتل وقد كانت من أفضل وأزكى نساء عصرها فأخذت في تدبير الحيلة على قتله فأرسلت الى أحد كبار قواد الحاكم وهو الامير سيف الدين بن الدواس تقول انى أريد أن ألقاك وسارت اليه ليلا وقالت له قد جئت اليك في أمر تحفظ فيه نفسك ونفسى وأنت تعلم ما يجرى من أخى من سفك الدماء وخراب البلاد وقد صمم على قتلك وقتلى وأخاف أن الناس يثورون به فيهلك هو ونحن وتنقلع هذه الدولة فقال وما الحيلة في أمره قالت الرأى عندى أن ترسل اليه غلمانا يقتلونه عند خروجه الى جبل المقطم في غد وليس معه غلام الا الركابى وصبى وينفرد بنفسه فاذا قتل نقيم ولده وتكون أنت وزيره ومدبر دولته وأزيد في اقطاعك مائة ألف دينار * ومضت سيدة الملك الى قصرها فلما كان الغد خرج الحاكم على عادته وانفرد بنفسه بالجبل المذكور فعمد ابن الدواس الى عشرة من العبيد السود وأعطى كل واحد منهم خمسمائة دينار ومضوا الى الجبل وقتلوه وأتوا به الى أخته ليلا فدفنته في دارها وكان عمره ستا وثلاثين سنة وتسعة أشهر وولايته خمسا وعشرين سنة وعشرين يوما وكان قتله ليلة الاثنين لثلاث بقين من شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة هجرية وبقى الناس على رسمهم يخرجون كل يوم يلتمسون رجوعه الى سلخ شوال * فلما كان ثالث ذى القعدة خرج مظفر الصقلبى صاحب المظلة وغيره من خواص الحاكم ومعهم القاضى فبلغوا حلوان ودخلوا في الجبل فبصروا بالحمار الذى كان عليه راكبا وقد ضربت يداه بسيف فأثر فيهما وعليه سرجه ولجامه فاتبعوا أثره فانتهوا به الى البركة الى شرق حلوان فرأوا ثيابه وهى سبعة قطع صوف مزررة بحالها لم تحل وفيها أثر السكاكين فعادوا ولم يشكوا في قتله واجتمع الجند على سيدة الملك أخت الحاكم يسألون عن سبب عدم رجوع الحاكم ففرقت في قوادهم الاموال وأصبحت وقد ألبست أبا الحسن عليا بن أخيها الحاكم أفخر الملابس وكان الجند قد اجتمعوا حول القصر ليعلموا ما جرى على الحاكم فلم يلبثوا أن خرج أبو الحسن وهو صبى والوزير بين يديه فصاح ياعبيد الدولة مولاتنا تقول لكم هذا مولاكم أمير المؤمنين فسلموا عليه ثم قبّل ابن الدواس الارض بين يديه وكذلك القواد الذين أرسلت اليهم الاموال ودعوا له فتبعهم الباقون ومشوا معه ولم يزل راكبا فنزل ودعا الناس من الغد فبايعوه ولقب الظاهر لاعزاز دين الله وسير الكتب الى البلاد بمصر والشام بأخذ البيعة وجمعت سيدة الملك الناس ووعدتهم وأحسنت اليهم ورتبت الامر ترتيبا حسنا وجعلت الامر بيد ابن الدواس وبالغت في تعظيمه ثم انها قالت له انا نريد أن نرد جميع أحوال المملكة اليك ونزيد في اقطاعك ونشرفك بالخلع السنية فاختر يوما يفعل فيه ذلك وشاع هذا الخبر بين الناس وتحدثوا به كثيرا

ثم أحضرته وأحضرت جميع القواد الى قصرها فلما انتظم بهم المقام أمرت الغلمان فأغلقوا الابواب وأرسلت الى ابن الدواس غلاما ومعه السيف وقالت له اذا وقفت على رأس ابن الدواس فقل للقواد ان هذا قاتل مولاكم الحاكم ثم اضربه بالسيف ففعل ذلك وقتله فلم يختلف رجلان وجعلت تتصرف فى الامور بنفسها فأحسنت التدبير واتسعت كلمتها وقامت هيبتها عند الناس واستقامت الامور على يديها وعاشت بعد الحاكم أربع سنين لاراد لكلمتها

وكان للحاكم بأمر الله المذكور وزير اسمه حمزة كان عظيم الدهاء واسع العلم غزير المادة قد وضع للحاكم مذهبا مخصوصا هو من مذاهب الباطنيين وقيل بل من اعتقادات القرامطة وقيل هو دين مستقل لاعلاقة له بشئ من الاديان الأخرى فظهر الدين المذكور واشتهر أوائل القرن الخامس للهجرة المحمدية فتبعه خلق كثير جدا و بالغ أصحابه فى اخفاء أمره وكتمان سره وغلق جميع أبواب الوصول اليه ومع ذلك فقد اجتهد أهل التاريخ وكتاب الاخبار من السلف فى الحصول على معرفة ما يمكن معرفته من تلك الاسرار وفاز بعضهم بالاطلاع على بعض المؤلفات والرسائل فى ذلك الحين وبحثوا وفتشوا فوجدوا من الكتب والرسائل الخاصة بهذا الدين عدة منها كتاب المشاهد والاسرار التوحيدية وكتاب الرد على النصيرية وهو يتضمن ستا وعشرين رسالة والرسالة المعروفة بالشافية لنفوس الموحدين الممرضة لقلوب المقصرين الجاحدين والرسالة المعروفة بالرسالة الموسومة بالاسرار ومجالس الرحمة للاولياء الابرار وأخرى اسمها الرسالة الموسومة بمجالس الرحمة * قال بعض الكتاب ويظن أن الكتب عندهم سبعة لان عدد سبعة هو من الاعداد المقدسة عندهم قالوا لان السموات سبع وكذلك الارضون والسيارات وأيام الاسبوع والعناصر والائمة عندهم والناطقون وغير ذلك فقد وجد فى أحد كتبهم المار ذكرها هذه العبارة * الجزء الاول من السبعة الاجزاء * وفى كتاب آخر ما نصه فوضعت هذا الكتاب وهو الجزء الاول من السبعة الاجزاء يشتمل على فرائض فرضها مولانا ذو المنة والاحسان وأنطق بها عبده قائم الزمان يتلو بعضها بعضا ويوضح فى العقل أنها فرض وفى كل كتاب ذكر فرض ما يجب أن يفرض واسقاط ما يجب أن يسقط وينقض * قال العلامة البستانى فى كتابه دائرة المعارف ولهم عدة كتب أخرى محفوظة بدار الكتب فى بلاد الفرنسيس والانجليز والمكتبة البابا وية وغيرها وتشتمل هذه الكتب على عدة رسائل أو فصول لكل رسالة أو فصل منها عنوان مخصوص وكلها تعاليم وردود على بعض المارقين من دينهم أو المخالفين لتعاليمهم وجلها بل كلها تنسب الى حمزة المذكور الملقب عندهم بالعقل

فن قواعد دينهم هذا ماجاء فى كتبهم ان الله واحد وهو الكائن الوحيد الذى تجب عبادته وألوهيته لاتدركها العقول فهى غير قابلة للتحديد والتعريف وقد ظهر للبشر عدة مرار فى ناسوته ثم ظهر لهم أخيرا باسم الحاكم فعل من الاعمال ما لايدركه العقل البشرى وأعماله كلها حكمة وأسرار غريبة الغاية ثم اختفى فلا يظهر الابعد مجيئه الأخير لتأييد دين التوحيد



ومعاقبة الجاحدين ويقول حمزة أيضا ان الله هو الابدى السرمدى القديم المولى المعلوه كرامة والسيد الرحيم وهو واحد لايشابه الكائنات فى شئ وهو يفوق جدا التعيين بالاعداد والمشابهات عظيم فلا زوجة له ولا ولد تعجز الناس طرّا عن استيفاء وصفه فالاعين التى تراه لاتدركه وجوهره لايدرك بالتأمل فالالوهية له وحده دون غيره ولا سبيل الى وصفه بالاوصاف الموافقة لكائنات المخلوقة فيتجانس مع المتجانسين فالعقول والتصورات تعجز عن ادراكه تعالى عن الكيف والاين فلا تدركه الاعين ولا تنسب اليه الحركة والراحة فهو واحد ولكن وحدته ليست كالتى يدركها البشر فهو البداية والنهاية وتنزه عما اعتقده به الناس خطأ وعما نسب اليه مما لايليق الا بمخلوقاته والادراك البشرى يقصر عن فهم أعماله فتخرس الالسن اذ لم تجد لمستخدمها سبيلا الى توحيد باريها * وعندهم ان الله الرحمن الرحيم اسم يدل على بعض وزراء دين التوحيد قال حمزة المذكور كيف توصف وحدة من لاحدود له ولا بداية ولا أصل ولا نهاية فان أقدم الاشياء أى وزراء الدين والانفس تقرّ أنه خالقها والكائنات الاخيرة كالاجساد تقرّ أن وجودها جديد فهو ملك الملوك الذى لايعرف ولا يحدد بلسان فم فالحمد لك يامن امتزت بالعظمة والقدرة المتعالى عن جميع البشر بالجود والملكوت الذى كنت موجودا فى كل دهر وزمان ومكان فلا تشبه البشر ولا يقدر مخلوقك أن يحددك أنت المنزه عن كل تشبيه ووصف مع الايمان والاعتقاد الثابت الذى لايتزحزح فى بداية وجودى ونهايته من صميم القلب وعلى رؤس الاشهاد أنك الاله الخالق القادر الفريد الوحيد الغير القابل الزيادة بالاعداد ولا بالكيات ولا الاسباب والاحساب فأنت الخالق الفريد موجد الكائنات المنزه عن النظير القادر الذى لا كان له قدرة عليك الغالب ولا ملجأ ولا مجير منك الا بنفسك الحاكم المولى الذى لايخضع لحكم أحد تفعل ماتشاء وتأمر بما تشاء بامرك العالى المجيد عن مقارنة الاصوات واللغات * قال العلامة المشار اليه فهذا هو توحيد الموحدين مترجما عن اللغات الاجنبية لتعذر الحصول على كتبهم الاصلية ويقولون ان الحاكم لاهوتا وناسوتا فلاهوته ثابت عندهم باعماله التى تفوق ادراك جميع البشر وبحكمته العظيمة جدا وقد دونوا فيها سؤالات وجوابات ومنها مايتعلق بظهور الحاكم وهى

سؤال ماهى كيفية ظهور مولانا الحاكم وفى أى زمان ظهر

جواب فى سنة أربعمائة للهجرة

س كيف ظهر

ج بالتظاهر بانه من الفاطميين بستر الوهيته

س لماذا ستر لاهوته

ج لنقصان الاعتبار وقلة الاصحاب

س فى أى سنة ظهر لاهوته

ج فى السنة الثامنة بعد أربعمائة للهجرة

س كم سنة أظهر لاهوته

ج ثمان سنوات وأخفاه في السنة التاسعة لانها كانت زمان تجارب وأسرار وأظهره ثانية في بداية السنة العاشرة وأثناء السنة الحادية عشرة ثم أخفاه في بداية السنة الثانية عشرة فلا يظهر بعد ذلك الا يوم الدين

س كيف كان الوزراء يحيون الحاكم عند مثولهم لديه

ج كانوا يقولون بصوت منخفض السلام عليك يامولانا ومرجعه اليك لان السلام لك وبيدك مقر السلام فالبركات والعظمات لك يامولانا العالي صاحب المجد والشرف

س ماذا ينبغي أن تفهم مما جاء في رسالة حمار بن جيش السليماني العكاوي الذي هو أخو مولانا المعظم

ج انمولانا أظهر نفسه بحيث أوهم الناس أنه ابن أبيه فعلا فظن حمار أن مولانا أخوه مع أنه لم يكن كذلك الا بحسب الظاهر فازداد ضلال حمار وكان ضلاله موجبا لصدور أمر مولانا بقتله

س ماهو معنى ركوب مولانا الحمير دون سروج

ج الحمار رمز الى الناطق فركبه مولانا دلالة على ابطال الناموس وغيره

. . . وهنا وضع المترجم أسفارا استقباحا لترجمة ماجاء بعد كلة وغيره عملا بأدب التحرير

س الى ماذا يرمز الثوب الصوف الاسود الذي كان مولانا يلبسه

ج انه ثوب حداد يرمز الى التجارب التي يمتحن بها عباده بعده

ولهم غير ذلك من الاسئلة والاجوبة التي لاعلاقة لها بمعتقدهم ويقولون في الوهية الحاكم انها ثابتة باعماله وقد ذكر حمزة وزيره المذكور تلك الاعمال في الرسالة المسماة السيرة المستقيمة وقال فيها مامحصله « لو كانت أشجار الارض كلها أقلاما والبحر حبرا وأضيف اليه سبعة بحور لما كانت كافية لتدوين جميع كلمات الله ﷺ والله هنا اسم انسانية الحاكم ﷺ قال فأقتصر على ذكر أمور قليلة العدد غزيرة النفع للتأمل المعترف بوحدة مولانا المستحق التعظيم الذي تفوق قدرته ادراك البشر فاول عمل قام به قتل لبرجوان وابن عمار مع أن برجوان كان متسلطا على الشرقية كلها وابن عمار على الغربية فقتلا كانهما كلبان بلا تحاش ولا خوف من قيام الفتنة بين الجند والعسكر وهذا أمر لايأتيه أكبر ملوك العالم بأسره وكذلك قتله لرؤساء قطاعته ولم يبال قط بأولادهم وأصحابهم وكان يسرى ليلا بين أولادهم وعيالهم ولا سيف معه ولاخنجر ولما أثار أبو ركوة الوليد بن هشام الفتنة خرج مولانا المعظم فلاقى حسن بن علوان ليلا في خمسمائة فارس فوقف بينهم بغير سلاح وسأل كلا منهم عن مراده ثم دخل البستان وليس معه أحد غير غلام والمؤذنين قال ولما ظهرت فتنة المفرج كان الناس ينتظرون دخوله مصر هو وأصحابه وتسلمه عرش السلطنة فكان مولانا يخرج على عادته ويسير نحو الطريق

التى كان يؤمل دخول المفرج منها حتى وقع الخلاف بين زعماء الفتنة وعاد حسين بن جعفر الحسينى الى مكة خوفا من أن المفرج يوقع به وهذا أيضا مما لايقدر على فعله أى ملك من ملوك الارض وكان مولانا يخرج فى حمارة الحر فى الغبار دون مبالاة وأصحابه يكادون يهلكون مما يعانونه وهو لايظهر العرق على وجهه مع أنه كان يبل أثواب أصحابه حتى ظاهرها وهذه من الادلة المثبتة لالوهية الحاكم عندهم * وذكر حمزة فى هذه الرسالة أيضا أمورا أخرى يضيق المقام دون ايرادها كلها ويقولون ان لاهوته لايفارق ناسوته أبدا بل هما متلازمان أماما يتعلق بناسوت الحاكم وما جاء فيه من قولهم فيعرف من الأسئلة والأجوبة الآتية وهى

سؤال كم مرة ظهر مولانا الحاكم بالناسوت

جواب ظهر عشر مرات باسماء بشرية وهى علىّ والبارى والموئل والقائم والمعز والعزيز وأبو زكريا والمنصور والحاكم

س أين وقع الظهور أو الكشف الاول

ج فى الهند فى مدينة اسمها تشماتشن

س أين ظهر البار أو البارى

ج فى فارس فى مدينة اسمها أصبهان ﷺ واسم الله عند الفرس بار خداى ﷺ وعلىّ ظهر فى اليمن والموئل فى المغرب وكان ظهوره كأنه رجل صاحب ألف جمل والقائم ظهر فى مدينة المهدية بالمغرب أيضا ثم جاء مصر وبقى بابا اسمه رشيدية وأبو زكريا والمنصور ظهرا فى المنصورية

ومما كتبه حمزة بشأن ناسوت الحاكم وظهوره أن الظهور تم عدة مرات فى القدم ولكنه لم يكن الظهور الناسوتى وورد فى كتاب لحمزة أيضا ماملخصه * اننا نظهر لكم فى كتاب آخر أسماء مولانا الناسوتية التى اتخذها لنفسه عند ظهوره فى الارض منذ خلق العقل الى زمن ظهور آدم الصفاء وعبادة الملائكة له وهى مدة سبعين دورا وبين كل دور سبعون أسبوعا وكل أسبوع سنة وكل سنة ألف سنة من سنى هذا الزمان وأبين لكم الاسماء أيضا التى اتخذها العقل وجنده فى تلك الادوار واسم كائناته كما أن اسم هذا الجيل هو الانسانى أو البشرى وقال فى كتابة أخرى اننى أبين لكم الاسم الذى اتخذته فى كل من تلك الادوار والاسم الذى كان للروح المضاد المدعو ابليس

وحمزة عندهم هو ظهور العقل وعند ظهوره بين البشر سمى آدم الصفاء وكان له وزيران فعصيا فسمى أحدهما آدم العاصى والثانى آدم الناسى وأنه عند ماظهر العقل المرة الاولى ظهر أيضا ناسوت الاله باسم البار أو البارئ * وكتب أيضا فى بعض كتاباته يقول ﷺ وقالوا الحاكم جل ذكره بار خداى يعنون بذلك ﷺ الله ﷺ عبد مولانا جل ذكره قال بعض الكتاب ومراد

حمزة

حمزة من هذه العبارة هو أن أسماء الخالق سبحانه وتعالى الواردة فى الكتب الدينية هى كلها عندهم أسماء وزراء الحاكم فاسم الله تعالى اسم لاحد وزراء الحاكم وقال أيضا ❁ قد كان مولانا فى زمن شنغيل فى ظاهر الامر يسمى ناسوته من حيث العالم البشرى بالبار أو البارئ فيقول الناس عند ذكرهم الحاكم «الحاكم بار خداى» والعرب تقول «الحاكم الله» قال وهذا لايوافق فان «الله» اسم الوزير الاول يعنى للحاكم ولكن «بار خداى» معناه الاله الاعلى أو اله الآلهة فهذا الاسم يوافق لمولانا أكثر من الاسم الاول قال وأما محمد بن اسمعيل فاسمه فى تلك الكتب الناطق السابع وهو الثانى من الأئمة الذين هم سلف الخلفاء الفاطميين وفى أيام الثالث منهم ظهر الناسوت يعنى الحاكم باسم أبى زكريا وظهر فى أيام الامام الرابع باسم علىّ الاعلى فابو زكريا لم يكن ملكا فى هذا العالم ثم ظهر العقل معه باسم قارون وفى آخر أيامه عند ما كبر وشاخ سمى بديار اليمن بالمهدى ثم ظهر أيضا النفس باسم أبى سعيد الملطى فلما كان الظهور الثالث يعنى للحاكم باسم الموئل كان فى بلاد تدمر وفى الايالات المشرقية وكان ظهوره فى شخص تاجر • وجاء فى كتاب حمزة المسمى بالنقض الخفى أن الناطقين سبعة وهم آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى المسيح ومحمد وسعيد وهو عبد الله الخليفة الاول الفاطمى الملقب بالمهدى وهو أبو القاسم أعظم الوزراء • أما ماجاء عن وزراء الحاكم فى كتبهم وهم الذين لقبوهم بألقاب مختلفة كالسابق والناطق وغير ذلك قولهم ❁ وقد نظرنا الى السابق والتالى والناطق والاساس والامام والحجة والقائم فرأيناهم كلهم عبيدا مزدوجين فعرفنا بان المعبود سواهم وعرفنا بتوفيق مولانا عز ذكره أن الهاء المشار اليها هى الخاتمة أى خاتمة الله وتمامه واللامين والالف خلف تالية وهو آخرهم ورابعهم وتمام القدرة به لانه لايقال لاحد من الحدود يعنى الوزراء ما قيل له وهو المهدى الذى وقع عليه هذ الاسم الاعظم بقوله أبو القاسم ولايجوز أن يقع هذا الاسم الاعلى أعظم الحدود ونهايتهم كما أن الهاء نهاية لااله الا الله

وقد عمل حمزة للدخول على الحاكم دستورا بعث به الى أبى عبد الله محمد بن وهّاب قال فيه ما نصه ❁ لاتحضر لديه مالم تدع اليه ولا تكلمه الا مجيبا وتقول بصوت منخفض جدا السلام فليأت السلام منك يا مولانا واليرجع اليك فانه لك ودينك مقام السلام أنت المجل المعبد يا سيدنا المتعالى لك المجد والكرامة • واياك ان ترفع صوتك ولا تحرك يديك ولا تومئ بعينيك ولا ترفع رأسك • وكان الناس يسجدون بين يديه ويقبلون الارض فاذا قابله أحد وهو راكب نزل عن مركوبه فاذا تقدم للسلام عليه سلم عليه من الجهة اليمنى واذا رفعوا له قصة كانت أسطرها فردية أى لا تكون زوجية وأن يكون كلام الناس معه بالفرد وعندهم أن هذه الامور كلها رموز فى الدين التوحيدى لابد من العمل بموجبها وعندهم أن الحاكم لم يمت بل غاب عن الناس الى ساعة معلومة وهى القيامة التى



يعبّرون عنها بفوز الدين التوحيدى ومن الاسئلة والاجوبة الآتية يعلم بعض الشئ من معتقدهم فى ذلك

سؤال ماذا نفهم يوم الديونة

جواب هو اليوم الذى يلبس فيه مولانا ناسوته ويدين الناس بالسيف الديونة القوية

س كيف يتم ذلك ومتى

ج لا يعلم أى متى يكون ذلك غير انه لا بد من ظهور علامات أولية تعرف بها الساعة

س ما هى هذه العلامات الاولية

ج هى تصرف ملوك الوقت فى الرعية على هوى أنفسهم وتسلط المسيحية

س فى أى شهر يتم ذلك

ج فى شهر جمادى أو رجب حسابا هجريا

س ماذا ترك مولانا عند غيبته

ج ترك سجلا معلقا فى باب الجامع سماه بالسجل المعلق

وكان ملخص ما فى السجل المذكور هذه العبارة الآتية ❁ بسم الله الرحمن الرحيم ٭ ان الاحسان فى الاستقبال هو للذين حادوا عن السبل المعوجة وابتعدوا عن حماقة الجهال وكان ايمانهم حقيقا الذين يؤمنون بالله تعالى وولاته وشهدائه عند الناس ونوابه فى الارض الذين سلم اليهم أمير المؤمنين أمور مخلوقاته وكذلك الاحسان للذين لا يخالطون الا الابرار الذين يخافون الله والذين يؤمنون باليوم الآخر ايمانا صحيحا قلبيا خاليا من الشك والريب والله سبحانه لا يحرم أهل الخير وفاء على البر جزاء ما يستحقون وما العداوة والبغضاء الا للاشرار والعصاة والابالسة والخداعين والكذابين الذين يقاومون الحق وللمرائين الذين ينكرون اليوم الآخر وقد حق غضب الله عليهم وعلى الذين يسلكون السبيل المعوجة ❁ ثم يلى هذا تعظيم الله سبحانه وتعالى والصلاة والسلام على النبى محمد وعلى آله وصحبه ٭ ثم يأخذ كاتب ذلك السجل فى تعنيف الموحدين وتوبيخهم على الاهمال والتغافل والجهل الذى وقعوا فيه ويحذرهم من سوء العاقبة ويذكرهم بما حصلوا عليه من المنافع الزمنية والروحية من لدن الحاكم رحمة منه ومنة حيث أنعم عليهم بجميع الحقوق الشرعية التى تؤهلهم للتصرف فى أنفسهم وفى مقتنياتهم على أنهم لا يستحقون شيأ من ذلك ويستلفتهم الى ما نالوه من الهبات الوافرة والعطايا الجزيلة من الذهب والفضة وجياد الخيل والماشية والاقطاعات وغير ذلك وكيف ان الحاكم رفع أمرهم وأعلى مقامهم الى درجات العز والرفاهية ووسع سلطانهم شرقا وغربا فى السهول والجبال وفى البحر والبر حتى صاروا ملوكا وسلاطين تحمل اليهم الجزية من كل صوب ودرب ويقول ان مامنعهم

اياه

اياه من المنح الروحية انما هو تعزيز لشريعة الاسلام وتوحيد دعائم بنيانها واقامة شعائرها
بتزيين المساجد وتوسيع المعابد وضرب صنوف الرق والمذلة على جميع اليهود والنصارى
لاكراههم على اعتناق الاسلام دينا وانشاء مدرسة للفقه والتوحيد ﻫ الى أن قال فى السجل
المذكور ﻫ واعلموا معشر الموحدين أن ما نلتموه من الهبات الروحية وفزتم بالحصول عليه فهو
نتيجة ولائه وصداقته مع الامم الخارجية وهما علة مجدكم وشرفكم فى هذا الحين مع
أعلى السعادة والسلامة الابدية وهذه النعم انما هى لازدياد كنود الانسان وازدياد ذنوبه
فوان كان أعداء الله وأمير المؤمنين لم يحاربوا الله وأمير المؤمنين خوفا منه ورهبة الا أن
بعضهم حارب البعض الآخر واقتتلوا عاصين على الله عابثين بحرمة الدين مستخفين بمقام
الامير مستصغرين الاعمان فأراقوا الدماء وتعدوا على أعراض الناس فتضاربوا وضرب دينهم
وضرب بهم نائب الله أمير المؤمنين فغضب الله سبحانه لذلك وغضب أمير المؤمنين من صنعهم
وخروجهم عن الطاعة فخرج لذلك أمير المؤمنين من بينكم لان الله سبحانه وتعالى قال
لست بمعاقبهم حتى تخرج من بينهم فغضب نائب الله يدل على غضب الله سبحانه وقد
ظهرت لكل ذى عينين علامات غضب الامام حيث أغلق أبواب أمته وأبطل مجالس
الحكمة وأخرج من قصره مكاتب القواد والعبيد ومنع جميع الناس من التسليم عليه ومنع
الجلوس على المقاعد حول قصره المقدس وامتنع عن اقامة الصلاة مع الجماعة فى الاعياد
والمواسم وشهر رمضان ومنع المؤذنين من الاذان ومنع أن يقال له مولانا وأن لاتقبل الارض
بين يديه وأن لا ينزل الناس عن حميرهم وخيولهم اذا مروا به ولبس الصوف من ألوان
مختلفة ومنع حاشيته وعبيده من السير فى ركابه وامتنع من اقامة الحدود وغير ذلك والناس
عن كل هذه العلامات غافلون فلذلك خرج أمير المؤمنين الذى هو نائب الله من بينهم وترك
جميع المخلوقات وشأنها جزاء مافعلوه ﻫ فهلموا أيها الناس هلموا تائبين فى بداية السبيل الذى
سلكه أمير المؤمنين عند غيبته وتشبهوا به أنتم وبنوكم مطهرين قلوبكم من الاهواء
وأحسنوا النية أمام صاحب الكائنات وارجعوا اليه بقلوبكم واستغفروا ليمن عليكم بارجاع
نائبه ولا يخرج أحدكم مفتشا عن أمير المؤمنين ولا سائلا عما جرى ولا تنقطعوا عن
الصلاة فى مدخل تلك الطريق قائلين هنا نسكن وهنا نقيم فاذا حلت ساعة الرحمة ظهر
نائب الله بينكم باختياره وارادته فقوموا بذلك فى الليل والنهار قبل حلول اليوم الآخر
وساعة الدينونة وقفل أبواب الرحمة والانتقام من العصاة اﻫ وجاء فى آخر السجل المذكور
ما معناه قد كتبه عبد أمير المؤمنين فى ذى القعدة سنة احدى عشرة وأربعمائة مع الامر
بأن لا يمنع أحد من قراءته ولا استنساخه وحرم كل من يقدر على نسخه ولم يفعل
قلت ولا غرابة من تسمية صاحب هذا السجل للحاكم فى هذه المرة باسم أمير المؤمنين
ونائب الله تعالى لان سجله هذا كان مكتوبا للعالم بأسره فالتزم فى تحريره جانب التستر
والموارية ومع ذلك فانه لا يبعد تفسير كل كلمة منه بحسب تعاليم دين الموحدين فاسم الله

سبحانه وتعالى عندهم ليس هو الا اسم لا هوت الحاكم ونائب الله وأمير المؤمنين هو اسم ناسوته ٭ ولما غاب الحاكم وانقطع خبره عن أصحابه خاف زعماء دينه من الفتنة وردة أصحابهم فكتبوا لهم رسالة فى بداية السنة الثامنة عشرة والاربعمائة للهجرة يطمنونهم ويمنونهم بالامانى البعيدة ولكى يباعدوا بينهم وبين السقوط فى الخطا من جرى توهم ظهور اللاهوت بعد الغيبة فى جسم آخر وفى تلك الرسالة ما محصله الى الموحدين المؤمنين بوحدة مولانا سعيد يوم الدين خضعوا وسلموا لكل ما يأمر به مولانا من محو كم وأيقنوا أنه سيبيد أنفسكم وأنفس جميع البشر وقد اعترفتم بوحدته وتعهدتم بأن لا تكونوا عبيدا لسواه فاحذروا الشكوك واخشوا الله ولا تخشوا الناس واتكلوا على حماية العالى ولا تخافوا الا من لا قدرة لاحد خلافه فاذا جاءت الشدة وظهر الاضطهاد ظهر ثابت الايمان منكم اخوانى انكم على يقين أن مولاكم لا تخلو منه الديار فان لم تبصره أعينكم فما ذلك الا لتفاقم خطوبكم وكثرة ذنوبكم فافقهوا ٭ قال بعض الكتاب والمراد من كلة الدار هنا تجرد الحاكم فى ثلاث من السنين وهى سنة ثمان وأربعمائة وعشر وأربعمائة واحدى عشرة وأربعمائة للهجرة ٭ وعندهم أن ظهور الحاكم بعد تلك الغيبة تسبقه علامات مختلفة منها كشف ستر معلم الاديان الكاذبة منذ الدهور القديمة ومنها تهافت الناس قاطبة على الآثام والفجور والفساد والآراء الكاذبة ومنها ظهور الخادع الذى هو المسيح الدجال وله مخادع اسمه الحد غشاش فيحارب زمان القيامة بيت الامامة ويقاتل حتى ينكسر وينهزم ويكون خبر انهزامه ضجة فى أرض الاقباط ويعقبها زلزلة تهدم بنيان الفسطاط وظهور مخادع أخر فى مدينة الفسطاط ومن علامات اليوم الاخير عندهم خراب مدينة حلب بجيوش المسيح الدجال الذى يخرج منها ويقال يومئذ ان خداع زمان القيامة الحد غشاش قد خرج من حلب فى يوم نحس وقد اجتمع الروم حول رايته فلا بد وأن يلقى تلك المدينة فى ويل وحرب ومن العلامات أيضا خراب جميع مساجد الشام بالزلزال وضعف الايمان ووقوع الموحدين فى شدة عظيمة للغاية وبلوغ النصرانية أوج الاعالى وغير ذلك مما لا يسعنا ايراده هنا

ومن الامور الاساسية فى الدين التوحيدى عندهم معرفة وزراء الحاكم واحدا فواحدا الى قسمين ويجعلون لهم خمس رتب فالوزراء الاولون خمسة الوزير الاول حمزة ويقال له العقل والثانى اسمعيل بن محمد التميمى ويقال له النفس والثالث أبو عبد الله محمد بن الوهاب القريشى ويقال له الكلمة والرابع أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السمورى ويقال له السابق والخامس أبو الحسن علىّ بن أحمد الملقب بهاء الدين ويقال له التابع وأما الوزراء الثانويون فهم أيوب بن علىّ ويقال له الجد ورفاع بن عبد الوارث ويقال له الفتح ومحسن بن علىّ ويقال له الخيال وأما غير هؤلاء فدعاة ونقباء وغير ذلك ٭ وورد فى كتبهم عن الوزراء الخمسة الموحدين العظام ما نصه فريدان خمسة أحرف دليل على خمسة حدود النفسانيين والنورانيين والروحانيين والجرمانيين والجسمانيين وهو دومعة العقل الكلى

النفسانى

النفسانى وذو معة النفس الروحانى والجناح الربانى والايمن الباب الاعظم وهو السابق والتالى معدن العلوم ومنه ابتناؤها اه وكتب حمزة الى أبى الحسن على بن أحمد الملقب بالمقتنى وبهاء الدين ما صورته الى رابع الحدود النفسانيين وتالى الروحانيين تالى السابق الفضل الشيخ المقتنى بهاء الدين اه

أما أصل هؤلاء الوزراء فهم كما ذكره حمزة فى رسالته المسماة كشف الحقائق حيث قال ما معناه ﷺ واعلم أن البارئ خلق من نوره الشعشانى شخصا كاملا وهو الارادة التى هى سيد جميع الاشياء وسماه العقل فكان كامل النور والقوة جمعت فيه الصفات الخمس الاصلية وضمن فيه كامل ما هو كائن وجعله امام الائمة فى جميع الأزمنة والأجيال وهو السابق الحقيقى لانه سبق الجميع بالاعتراف بوحدة الخالق والعقل كائن يدرك ويقع تحت الحواس فيأكل ويشرب وليس كما قال عنه السابقون لا يدرك وهو أول الكائنات التى خلقها تعالى وسماه أيضا علة العلل وهذا العقل تام العمل حكيم فى السكون قادر فى الحركة وهو نقطة البيكار يحكم على الارضيات والسمويات وبه شرف الانسان ومجده فى الزمنيات والروحيات وأول ماخلق الله العقل وقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال وعزتى وجلالى ما خلقت أجل منك شيأ بك آخذ وبك أعطى وبك أحاسب وبك أعاقب فلما سمع العقل كلام البارى نظر الى نفسه فرأى أن ليس له مثيل ولا نظير فظن أنه لايكون له منازع ولكن مولانا جل ذكره أخرج من طاعته العصيان ومن نوره الظلام ومن دعته الكبرياء ومن حكمته الجهل وهى صفات أربع رديئة مضادة للصفات الاربع الحسنة وهى العقل وصفاته وهى توقد العقل وقوة النور وراحة التواضع وبرودة الحكمة ورطوبة المادة فكل آلة روحية آلة مضادة تقاوم العقل وتعصيه فأدرك العقل أن ذلك انما هو تجربة من الخالق له تأديبا على ظنه فى نفسه الكمال فاعترف بضعفه واستغفره وسأله بأن يجعل له معينا على الضد المخالف وخليفة ينوب عنه عند المؤالف ليستغنى به عن مخاطبة الضد ومشاكلة الند فأجاب وخلق نفس الوزير ذى مصة من العقل وهو التابع الخاضع له وجعل له نصف ما للعقل فكان كالانثى والعقل كالذكر ولذلك يكون للذكر حظ الانثيين وجميع الوزراء أولاد هذين الكائنين فالذكر هو العقل والانثى النفس والوزير المسمى الكلمة هو تحت السابق والنفس تحت الكلمة والعقل فوق الجميع وهو روح الوزراء وسابق جميع القدماء ونور فى الظلام يعنى بذلك (حمزة) الذى هو العقل قالوا وأما الارواح الضدية التى خرجت من نور العقل وجاءت النفس متوسطة بين نور العقل وكلام الضد لان النفس حاصلة على نور العقل فتسمع كلامه وتنتفع بأوامره ولكنها تشترك فى ظلام الضد الحادث فتعرف حيله ومكره وخداعه وهو ذولين لانه فى الاصل من نور العقل وما هو الا ظلام وظلم بالنسبة اليه ولكنه لين بالنسبة الى خشونة العالم والكلمة أخرجت من العقل لمعاونته ومعاونة النفس على الضد وصدر السابق من النفس وقامت الكلمة عن اليمين

والسابق عن اليسار فأمسى الضد مخاطبا بالعقل والنفس والكلمة والسابق فحاول أن يفلت من تحتهم فسمي بالمحارحيث حار في نفسه ثم سمي بابليس لانه خرج من العقل دون ارادته لكن ليس له أب لانه جاء على غير ارادة أبيه فهو ضد الاولاد الناموسيين أى الموحدين الذين هم أولاد العقل وهو النور وأمهم الرحمة وهي النفس اه

ولحمزة أسماء كثيرة في كتبهم وهي خالته الروحية المجردة عن الشخص الذى ظهر به للناس ومنها * السابق الحقيقي * وذو مصة * والارادة * والعقل الكلي * والعقل * وقائم الزمان * والباب * والامام * والآمر * وعلة العلل * والوزير الثاني يسمى روحيا أيضا بالنفس * والنفس الكلي * والمشيئة * وذو مصة * والتالي * وحجة الامام * وداعي الامام * والوزير الثالث يسمى كذلك الكلمة * والجناح * والجناح الرباني * وداعي القائم * وسفير القدرة * وصاحب السعادة * والكلام * والوزير الرابع يسمى السابق * والصغير * والباب السابق * وباب حجة القائم * والباب الاعظم * والجناح الايمن * ويسمى الوزير الخامس أيضا بالتابع * والتالي * والجناح الايسر * ورابع الحدود * وآخر الحدود * ولهم أسماء غير ماذكر أيضا وينسبون التعاليم الآتية الى حمزة للدلالة على نفسه وهي

سؤال كم مرة ظهر حمزة وماذا كانت أسماؤه

جواب قد ظهر في جميع الادوار من آدم الى النبي محمد أى سبع مرات (كذا في الاصل الذى أخذنا عنه)

س ما هي الاسماء التي كانت له

ج كان اسمه في زمان آدم شطنيل وفي زمان نوح فيثوغورس وفي أيام ابراهيم داود وفي أيام موسى شعيا وكان المسيح الحقيقي في أيام يسوع وكان اسمه العازر أيضا وفي أيام الهجرة كان اسمه سلمان الفارسي وفي أيام سعيد كان اسمه صالحا

س من أين عرفنا شرف قائم الحق حمزة بن عليّ علينا سلامه

ج من شهادته بنفسه لنفسه حيث قال في رسالة التحذير والتنبيه * انا أصل مبدعات المولى وأنا صراطه والعارف بأمره وانا الطور والكتاب المسطور والبيت المعمور وانا صاحب البعث والنشور النافخ في الصور وانا امام المتقين وأنا صاحب النعم وأنا الناسخ للشرائع ومبطلها وأنا مهلك العالمين وأنا النار الموقدة التي تطلع على الافئدة

س من هو نقطة البيكار

ج حمزة بن عليّ

س ماذا نفهم بالطريق المستقيم

ج حمزة بن علىّ الذى يسمى أيضا قائم الحق وامام الزمان والعقل والسابق والنبى الكريم وعلة العلل

س من هو قائم الزمان

ج هو حمزة بن علىّ

س ما ذا تقول عن الانجيل الذى هو فى أيدى النصارى

ج هو حقيقى وفيه كلام المسيح الحقيقى الذى كان يسمى فى أيام صاحب الهجرة سلمان الفارسى وهو حمزة بن علىّ

س من هو الذى قام من القبر ودخل والابواب مقفلة حيث كان التلاميذ مجتمعين

ج هو المسيح الحى الابدى وهو حمزة عبد مولانا الحاكم

وقد اختفى حمزة هذا بعد اختفاء الحاكم وغيبته عن الناس فلم يعلم له خبر صحيح فقال بهاء الدين الذى هو المتشى فى غيبة حمزة المذكور ما معناه عند ما غاب المعبود * يعنى الحاكم * امتنع قائم الزمان عن الوجود اه

وكان بعد وظائف الوزراء الخمسة عندهم على أيام الحاكم ثلاث رتب أخرى للذين تعلقوا بخدمة دين التوحيد عندهم ويعرفون بالدعاة والمأذونين والمكاسرين الذين يسمون عندهم أيضا النقباء * قال حمزة ما معناه * يصح للداعى أن يسير الدعوة مأذونا ومكاسرا وقال عن الدعاة * انهم دعاة الاجلال البائنون بالكشف الدعاة الاعور الدجال المتفاضلون بتصوير الحقائق وهم من أذن لهم بالكسر والجبر وبعدهم النقباء المتزهون عن الكذب الذين يعرفون حقوق وزراء الحق * قالوا ومن أعمال الدعاة أنهم يدعون الناس الى الاعتراف بالوحدانية والمأذونون يخضعون للدعاة وعليهم القيام بتنفيذ أوامرهم ولا يعلم من كتبهم شيأ عن المكسرين وربما كان المقصود من اسمهم انهم يكسرون الاعتقادات القديمة الراسخة فى عقول الناس ويهدونهم الى التمسك بالدين التوحيدى * ومن اعتقاداتهم ان الله قال للدنيا كونى فكانت على الحالة التى عليها الآن ذكورا واناثا وشيوخا وشبابا كهولا وأطفالا آلاف الالف وجعلهم يتوهمون أن لهم آباء وأجدادا وأمهات وجدات فكان كل منهم يتوهم أن أباه فلان بن فلان وزاروا القبور فرأوا العظام وكان يقول هذا هو ذا قبر والدى وذاك هذا قبر أبى وهلم جرا وكان كل انسان عارفا بعمله وصنعته وحرفته فتوهموا أنه منقول عن زيد وعمرو على أن ذلك لم يكن غيروهم وتخيل بالجهل قوة البارى * قالوا ثم أحدثت الانفس تنتقل من جسد الى جسد بموت الجسد الاول وبقى هذا مدى الدوران * وقيها ان الله سبحانه وتعالى معلم كل حرفة وعمل وعندهم أن أهل التنزيل هم المسلمون وأهل التأويل هم النصارى وقد وضعوا فى سؤالات وجوابات وهى

سؤال ما هو اسم المسلمين

جواب اسمهم التنزيل

س ما هو اسم المسيحيين

ج اسمهم التأويل الذين أوّلوا كلام الانجيل والمسلمون سموا بالتنزيل لانهم يعتقدون أن القرآن أنزل من السماء

س كيف يدين الحاكم أصحاب الاديان الاجنبية عن التوحيد

ج ينقسمون الى أربعة أقسام وهم المسيحيون واليهود والكفرة والموحدون

س كيف تنقسم هذه الاقسام

ج أما النصارى فهم النصيرية والمتأولة وأما اليهود والمسلمون والكفرة فهم الذين تركوا دين مولانا الحاكم

س ما هو قصدنا من مدح الانجيل

ج ان قصدنا انما هو تمجيد اسم الحاكم بأمر الله وهو حمزة نفسه لانه هو الذى علم الانجيل والانجيل مبنى على حكمة الهيئة ومعناه الرمزى يدل على الدين التوحيدى

س ماذا تقول عن الشهداء الذين يعظم المسيحيون بسالتهم ويكثرون عددهم

ج نقول ان حمزة لم ير من الموافق الاعتراف بهم ولذلك رفضهم ولو شهد بهم جميع المؤرخين

س اذا قالوا لنا ان حقيقة دينهم مؤسسة على أدلة وبراهين أقوى من كلام حمزة وأثبت منه فماذا يكون جوابنا وبأى شئ عرفنا جودة حمزة بن علىّ

ج بشهادته لنفسه عند ما قال أنا أوّل خلق المولى

س ما ذا تقول عن الانجيل الذى فى أيدى النصارى

ج هو حقيق لانه يتضمن كلام المسيح الحقيقى الذى كان اسمه فى أيام محمد سلمان الفارسى وهو حمزة بن على والمسيح غير الحقيقى هو المولود من مريم فانه ابن يوسف

س أين كان المسيح الحقيقى عند ما كان المسيح غير الحقيقى مع التلاميذ

ج كان معهم وكان من تلاميذه وفاه بكلام الانجيل وعلم المسيح بن يوسف وأداه ماذا ينبغى أن يفعل ليكون عمله منطبقا على ناموس الدين المسيحى فكان يصغى اليه ويلتفت ثم انه خالف بعد ذلك المسيح الحقيق فألقى بغضه فى قلوب اليهود فقاموا عليه حينئذ وصلبوه

س ماذا جرى بعد الصلب

ج دفن فأتى المسيح الحقيقى وأخذه من القبر وخبأه فى البستان ثم أذاع بين الناس أن المسيح قام من بين الاموات

س لماذا فعل ذلك

ج لانشاء الدين المسيحى ولحافظ الناس على التعاليم التى علمهم اياها

س لماذا فعل هذا كله وخدع الغير المؤمنين

ج

ج فعل ذلك ليتمكن الموحدون من الاستئثار بالدين المسيحي بحيث لا يعلم أحد بهم
س من هو الذى نهض من القبر ودخل المكان الذى كان التلاميذ فيه والابواب مقفلة
ج هو المسيح الحى الذى لا يموت وهو حمزة عبد مولانا الحاكم
س من الذى أذاع الانجيل
ج متى ومرقس ولوقا ويحنا وهم النساء الاربع
س كيف لم يعرف النصارى الدين التوحيدى
ج لم يشأ الله ذلك وهو الحاكم بأمر الله * والله هنا اسم لحمزة
س كيف يمكن ان الله يستحسن الضرر ويرضى عن عدم الايمان
ج قد جرت عادة مولانا أن يعرف البعض ويعرض عن البعض
س اذا كان الوقوع فى عدم الايمان هو منه فلماذا يجازون عليه
ج يجازون لاظهاره نفسه لهم وهم لا يطيعونه
س كيف يطيعون رجلا قد خدع حيث كانت الاشياء مجهولة عنده كما ورد ايضا عليهم ومكرنا بهم
ج لا يجب أن يحاسبوا على ذلك ولا يصح أن يطلب الى الحاكم تبيين أسباب تصرفه بعبيده

وكانوا يعتبرون الديانة النصرانية ويحاولونها فقد عنونوا احدى رسائلهم الموسومة بالمسيحية للفتنى بهذه العبارة ﴿ الى جميع من تقرّب الى اللاهوت بحقيقة القربان وتمسك به من كل أهل الحق من قسيس وبطرك ومطران ﴾ ومن مذهبهم أيضا الاشتراكية أى انهم جميعا اخوة بعضهم لبعض ومن المقرر عندهم ذب القوى منهم عن الضعيف والذود عنه جهد الاستطاعة وحمل كل فرد منهم لسلاحه ليلا ونهارا للدفاع عند الحاجة فقد قال حمزة ما معناه أطلب اليكم أن يذب بعضكم عن بعض فانكم جميعا اخوة فاذا فعلتم ذلك كمل ايمانكم واقضوا حاجات بعضكم الدينية والعالمية واقبلوا عذر بعضكم بعضا وكونوا أعداء من يخدعونكم وزوروا المرضى منكم وأحسنوا الى المساكين * وقال بهاء الدين اياكم وأن يحاكم بعضكم بعضا فان ذلك مجلبة للبوار * ولهم مبادئ وأصول وشرائط كثيرة لا يسعنا ايرادها هنا اكتفاء بهذا القدر نقلا عن أصدق الكتاب وأدقهم تتميما للفائدة * وأقام الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله يتصرف فى الملك ويدبر أموره على ما يشاء حتى كان من أمره ما سيذكر فى خلافة القائم بأمر الله

ومات فى خلافة القادر بالله يوفانيوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام أربع سنين وفى رواية أربع سنين وستة أشهر فتقدم المتأصلون بعده ميناً وهو حادى ستيهم وأصله من مدينة جولا وكان راهبا بدير أبو مقار فأقام احدى عشرة سنة ومات فخلا الكرسى بعده سنة وقيل أقام سبع عشرة سنة فأقيم بعده أفرام أو هو ابراهام السريانى ابن زرعة وهو ثانى ستيهم

فأقام ثلاث سنين وقيل ثلاث سنين وستة أشهر ومات مسموما من بعض كار كتاب القبط على ما شاع بوشذ وسببه منعه من التسرى فخلا الكرسى بعده ستة أشهر وكان ورعا تقيا كثير البر محبا للفقراء غيورا على الدين جاهد جهادا عظيما فى ابطال التسرى وقد كان شائعا قبله قيل وظهرت على يديه عجائب كثيرة وآيات عديدة والله سبحانه وتعالى أعلم بالحقائق وفى أيام ابراهام هذا بنيت عدة كنائس مما هدم بسبب الفتن المتتابعة والاحن المترادفة وكانت أيامه كلها هدوا وطمأنينة فلما مات أقيم بعده فيلوثاوس وهو ثالث ستيم وكان راهبا بدير أبومقار ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل السادس والعشرون)

(فى خلافة أبى جعفر عبدالله القائم بامر الله بن القادر بالله)

ثم قام بالامر بعد القادر بالله ولده أبوجعفر عبد الله القائم بامر الله جددت له البيعة وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد سنة احدى وعشرين كما تقدم القول واستقرت الخلافة له وذلك سنة اثنين وعشرين وأربعمائة هجرية أى سنة ثلاثين وألف ميلادية قال أصحاب التاريخ وأول من بايع له الشريف أبو القاسم المرتضى وأنشده

فاما مضى جبل وانقضى * فمنك لنا جبل قد رسا
واما فجعنا ببدر التمام * فقدبقيت منه شمس الضحى
لنا حزن فى محل السرور * وكم ضحك فى خلال البكا
فياصارما أغمدته يد * لنا بعدك الصارم المنتضى

وهى طويلة الغاية وأرسل القائم بأمر الله قاضى القضاة أبا الحسن الماوردى الى الملك أبى كاليجار ليأخذ له البيعة ويخطب له فى بلاده فاجاب الى ذلك وخطب له فى بلاده وأرسل اليه هدايا جليلة وأموالا كثيرة فلم تستقر بالقائم الخلافة حتى قامت الفتنة ببغداد بين السنية والشيعة قال أصحاب التاريخ وكان سبب ذلك ان الملقب (بالمذكور) أظهر العزم على الغزاة واستأذن الخليفة فى ذلك فأذن له وكتب له دستورا من دار الخلافة وأعطى علما فاجتمع له لفيف من الناس فسار واجتاز بباب الشعير وطاف الحرانى وبين يديه الرجال بالسلاح فبينماهم على هذا الحال من التطواف اذ تحرك جماعة منهم وصاحوا بذكر أبى بكر وعمر وقالوا هذا يوم معاوى فتبعهم الجميع وصاحوا كذلك فنافرهم أهل الكرخ ورموهم وثارت الفتنة ونهبت دور اليهود لانهم قيل عنهم انهم أعانوا أهل الكرخ فلما كان الغد اجتمع السنية من الجانبين ومعهم جمع من الترك وقصدوا الكرخ فأحرقوا وهدموا الاسواق وأشرف

أهل

أهل الكرخ على خطر عظيم للغاية وسئل الخليفة فى ذلك فانكره انكارا شديدا ونسب اليهم تخريق علامته التى مع الغزاة فركب الوزير عند ذلك يريد تلافى الامر قبل استفحاله فوقعت فى صدره آجرة فسقطت عمامته واشتد الحال واتسع الخرق وقتل من أهل الكرخ جماعة وأحرق ونهب فى تلك الفتنة عدة أسواق كبيرة وعمائر واسعة وقتل العامة الكلالكى وهو صاحب العونة وأحرقوه ووقع القتال فى أصقاع البلد من الجانبين واقتتل أهل الكرخ ونهبوا الاسواق وقطع الجسر ليفرق بين الناس وأظهر الجند كراهة الملك جلال الدولة وأرادوا قطع خطبته ففرق فيهم المال وحلف لهم الايمان الغلاظ فسكنوا ثم أعادوا الشكوى الى الخليفة منه وطلبوا أن يأمر بقطع خطبته فلم يجبهم الى ذلك فامتنع حينئذ جلال الدولة من الجلوس للناس وضرب النوبة أوقات الصلوات وانصرف الطبالون لانقطاع الجارى لهم ودامت هذه الحال الى عيد الفطر فلم يضرب بوق ولاطبل ولا أظهرت الزينة وزاد الاختلاط وما دخلت سنة ست وعشرين وأربعمائة حتى اضمحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد وزالت هيبتها أو كادت وعم الخلل وارتفع الامن حتى ان بعض الجند خرجوا الى قرية على مقربة من بغداد فلقيهم جماعة من الاكراد فأخذوا منهم دوابهم فذهبوا الى مراح الخليفة فنهبوا أشياء من ثمرته وقالوا للعاملين فيه أنتم عرفتم حال الاكراد ولم تعلمونا فبلغ الخليفة الحال فعظم عليه جدا ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الاكراد لعجزه وشدة وهنه واجتهد فى تسليم الجند الى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتقدم الخليفة الى القضاة بترك القضاء والى الشهود بترك الشهادة والى الفقهاء بترك الفتوى فلما رأى جلال الدولة ذلك سأل أولئك الاجناد ليجيبوه الى أن يحملهم الى ديوان الخليفة ففعلوا فلما وصلوا الى دار الخلافة أطلقوا وعظم أمر طائفة العيارين من الجند فصاروا يأخذون أموال الناس ليلا ونهارا ولا مانع يمنعهم لان الجند لا يحمون الا عن السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم وانتشر كذلك العرب فى البلاد فعاثوا ونهبوا وقطعوا الطرق وبلغ النهب الى أطراف بغداد وأخذوا ثياب النساء فكانت فتنة شديدة ومحنة كبرى

وكان فى أيام القائم بامر الله أى سنة ثلاثين وأربعمائة قيام دولة السلاطين السلجوقية وانقراض دولة بنى بويه فكانت مدة ملكهم مائة سنة وسبعا وعشرين سنة ذكر ذلك ابن البطريق فى تاريخه فى حوادث سنة ست وأربعين وفى أيامه أيضا أى فى سنة ست وستين وأربعمائة غرق الجانب الشرقى وبعض القرى من بغداد * قال أصحاب التاريخ وسببه أن دجلة طغى ماؤه وارتفع كثيرا وانفتح القورج عند المسناة المعزية وجاء فى الليل سيل عظيم وطفح الماء من البرية وهبت ريح شديدة جدا وجاء الماء الى البيوت من فوق وفاض من البلاليع والآبار بالجانب الشرقى فهدم البيوت وسقطت على ما بها من الخلق فمات خلق كثير فكثر الصياح من كل صوب وحدب وترك الناس بيوتهم وهم يضجون و يجأرون الى الله وقام الخليفة يتضرع ويدعو الله وعليه البردة وبيده القضيب واشتد الكرب بالناس وكبر



خوفهم وتهدم أكثر المقابر بالجانب الشرقى ومعظم الاسوار ودخل الماء من شبابيك البيمارستان العضدى وكانت شدة بالها من شدة * قال بعض الكتاب ومن عجيب ما يحكى فى هذا الغرق أن الناس كانوا قد أنكروا كثرة المغنيات والخمور فقطع بعضهم أوتار عود مغنية كانت عند أحد العسكر فثار به ذلك الجندى فضربه فأجمعت عند ذلك العامة وعلت الضوضاء وكان ممن اجتمع مع العامة كثير من الائمة منهم أبو اسحق الشيرازى واستغاثوا الى الخليفة وطلبوا هدم المواخير والحانات وألحوا فى ذلك فوعدهم الخليفة بأنه سيكاتب السلطان فى ذلك فسكتوا وتفرقوا وقد لازم الكثير من الصالحين الدعاء بكشفه فاتفق أن غرقت بغداد ونال الخليفة والجند من ذلك أمر عظيم وعمت مصيبته كافة الناس فرأى الشريف أبو جعفر بن موسى بعض الحجاب الذين كانوا يقولون للناس نحن نكاتب السلطان فى أمر الحانات والمغنيات ونسعى فى تفريق الخلق ويشتهرهم ويقول لهم اسكتوا الى أن يرد الجواب فقال له أبو جعفر قد كتبنا يا رجل وكتبتم فجاء جوابنا قبل جوابكم يعنى أنهم شكوا ما حل بهم الى الله تعالى فأجابهم بالغرق قبل ورود جواب السلطان اهـ

ومع ما كان عليه الخليفة القائم من رقة الجانب وحسن السيرة وطيب الاخلاق والميل الى قضاء حوائج الخلق فانه كان مغلوبا على أمره لا كلمة له البتة ولا رأى ولا صوت مع السلجوقيين بعد بنى بويه فكانوا اذا رأوا منه انحرافا عنفوه وهددوه وشددوا فى المراقبة عليه فكانت دار الخلافة كلها عيونا وأرصادا للسلطان وما زال الحال هكذا حتى مات الخليفة سنة سبع وستين وأربعمائة لعشر ليال مضت من شعبان فكانت خلافته أربعا وأربعين سنة وثمانية أشهر وقيل خمسا وأربعين سنة وفى رواية أنه خلع ثم أعيد الى الخلافة ثانية ولكن أصحاب التاريخ لم تذكر شيأ من ذلك * قال صاحب الكامل وسبب موته أنه كان قد أصابه ماشرا فافتصد ونام منفردا فانفجر فصاده وخرج منه دم كثير ولم يشعر واستيقظ وقد ضعف وسقطت قوته فأيقن بالموت فأحضر ولى العهد ووصاه بوصايا وأحضر المنقبين وقاضى القضاة وغيرهم مع الوزير أبى جهير وأشهدهم على نفسه أنه جعل ابن ابنه أبا القاسم عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله ولى عهده فلما مات غسله الشريف أبو جعفر بن أبى موسى الهاشمى وصلى عليه المقتدى بأمر الله وكان عمره ستا وسبعين سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام * وكان القائم مليح الوجه أبيض مشربا حمرة حسن الجسم ورعا دينا زاهدا عالما قوى اليقين كثير الصبر ميالا للعدل قال محمد بن على بن عامر الوكيل دخلت يوما الى المخزن فلم يبق أحد الا أعطانى قصة فامتلأت أكمامى منها فقلت فى نفسى لو كان الخليفة أخى لأعرض عن هذه كلها فألقيتها فى بركة والقائم ينظر ولا أشعر فلما دخلت اليه أمر الخدم باخراج الرقاع من البركة فأخرجت ووقف عليها ووقع فيها بأغراض

اصحابها

أصابها ثم قال لى ياعاى ما حملك على هذا فقلت خوف الضجر منها فقال لاتعد الى مثلها فانا ما أعطيناهم من أموالنا شيأ انما نحن وكلاء

ومات فى خلافته أبوالحسن علىّ الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله وكان موته فى سنة سبع وعشرين وأربعمائة وعمره ثلاث وثلاثون سنة وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوما وكان جميل السيرة حسن السياسة منصفا للرعية الا أنه كان مشتغلا بلذاته محبا للدعة والراحة ففوض الامور الى وزيره أبىالقاسم علىّ بن أحمد الجرجرائى لمعرفته باخلاصه وكفايته ولما مات ولى ابنه أبوتميم معدّ ولقب المستنصر بالله ومولده بالقاهرة سنة عشر وأربعمائة فكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى خلافة المقتدى بأمر الله

* ومات فى خلافة القائم أيضا فيلوثاوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام أربعاوعشرين سنة وقامت فى أيام فيلوثاوس طائفة الملكية على المتأصلين أهل البلاد الذينهم قبط مصر فأخذوا منهم كنيسة السيدة المعروفة بكنيسة البطرك كرها وتسلمها ارسانيوس بطرك الملكية قهرا فقامت لذلك الفتنة بين الفريقين واشتدّ الخلاف وكثر الاخذ والرد وطال الحال على ذلك أياما وكادت الفتنة تبلغ مبلغا عظيما لولا الخطوب المتتابعة والكروب المتراكمة فترك المتأصلون الامر الى حين آخر * ولما مات فيلوثاوس المذكور أقيم بعده زخريس أوهو زخرياس رابع ستيهم وكان قسيسا بمدينة الاسكندرية فوقع له من البلايا والمحن ماسيذكر فى محله

(الفصل السابع والعشرون)

(فى خلافة أبى القاسم المقتدى بامر الله بن محمد بن القائم بامر الله)

ثم قام بالامر بعد القائم بأمر الله ولد ولده أبو القاسم عبد الله المقتدى بأمر الله بويع له بالخلافة يوم موت جده القائم بأمر الله سنة سبع وستين وأربعمائة هجرية أى سنة أربع وسبعين وألف ميلادية وحضر مؤيد الدولة بن نظام الملك والوزير فخر الدولة بن جهير وابن عميد الدولة والشيخ أبو اسحق وأبو نصر بن الصباغ وبقية النقباء وغيرهم من رجال الدولة والاماثل فبايعوه * قال بعض الكتاب وكان أول من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبى موسى الهاشمى وذلك أنه كان قد تولى غسل القائم فلما فرغ منه قام وبايع المقتدى وأنشده

* اذا سيد منا خلا قام سيد * ثم ارتج عليه فقال المقتدى * قؤول بما قال الكرام فعول *

ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر سوى المقتدى فان الذخيرة أبا العباس محمد بن القائم توفى



أيام أبيه ولم يكن له غيره فتحقق الناس انقراض نسله وانتقال الخلافة من البيت القادرى الى غيره وتوقعوا اختلال الاحوال بعد القائم لان من عدا البيت القادرى من العباسيين كانوا يخالطون العامة فى البلد ويجرون مجرى السوقة فاذا ولى أحدهم بحكم الضرورة لم يكن له ذلك القبول ولا تلك الهيبة التى هى لآل البيت القادرى وكان للذخيرة أبى العباس ولد القائم جارية اسمها أرجوان وكان يلم بها فلما مات ورأت ما نال القائم من المصيبة بانقراض عقبه ذكرت أنها حامل فتعلقت النفوس بذلك فولدت بعد موت سيدها أبى العباس لستة أشهر ذكرا فسموه المقتدى واشتد فرح القائم وعظم به سروره وبالغ فى الاشفاق عليه والمحبة له * قال بعض الكتاب فلما كانت حادثة البساسيرى (وهى طويلة أضربنا عن ايرادها هنا) كان للمقتدى المذكور أربع سنين تقريبا فأخفاه أهله وحمله أبو الغنائم بن المحلبان الى حران فلما عاد القائم الى بغداد بعد قيام الفتنة واختلاف أمورها بسبب البساسيرى المذكور أعيد المقتدى اليه فلما بلغ الحلم جعله ولى عهده واستقرت بالمقتدى الخلافة فاقر فخر الدولة بن جهير على الوزارة بوصية من جده القائم وسير عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير الى السلطان ملكشاه ليأخذ له البيعة وأرسل معه من أنواع الهدايا ما يجل عن الوصف

ووردت الاخبار الى المستنصر بالله العلوى صاحب مصر بموت القائم وولاية المقتدى ففرح بذلك وظن بلوغ مافى نفسه وكتب الى صاحب مكة ابن أبى هاشم يسأله أن يعيد له الخطبة بمكة وكانت قد انقطعت وعادت الى العباسيين وأرسل له هدية سنية للغاية ورسالة يقول فيها ان أيمانك وعهودك كانت للقائم وللسلطان ألب أرسلان وقد ماتا فاخطب لى فخطب له بمكة وقطع خطبة المقتدى فكانت مدة الخطبة العباسية بمكة أخيرا أربع سنين وخمسة أشهر ثم أعيدت فى ذى الحجة سنة ثمان وستين فلم يتم للمستنصر هذا الامر حتى سار الاقسيس من دمشق الى ديار مصر مع جيش عظيم يريد أخذها من المستنصر وكان قد أخذ دمشق بعد حروب أضربنا عن ايرادها هنا فحاصر مصر بعد وصوله اليها وأطال الحصار وشدد وضيق ولم يبق الا أن يملكها فاجتمع أهلها مع ابن الجوهرى الواعظ فى الجامع وبكوا وتضرعوا وابتهلوا الى الله تعالى فاستجاب الله لهم لما خرجوا لقتال الاقسيس المذكور انهزم من غير قتال وعاد على أقبح صورة بغير سبب فوصل الى دمشق وقد تفرق أصحابه فرأى أهلها قد صانوا مخلفيه وأمواله فشكرهم ورفع عنهم الخراج تلك السنة وأتى بيت المقدس فرأى أهله قد قصدوا على أصحابه ومخلفيه وحصروهم فى محراب داود عليه السلام فلما قارب البلد تحصن أهله منه وسبوه فقاتلهم حتى فتح البلد عنوة ونهب وقتل من خلقها كثيرا جدا حتى أعمل السيف فمن التجأ الى المسجد الاقصى وكف عمن كان عند الصخرة وحدها قال صاحب الكامل هكذا يقول الشاميون هذا الاسم اقسيس والصحيح أن اسمه أتسز وهو اسم تركى قال وقد ذكر بعض مؤرخى الشام ان أتسز هذا لما وصل الى ديار

مصر

مصر جعل أمير الجيوش يدرب العسكر واستمد العرب وغيرهم من أهل البلاد فاجتمع معه خلق كثير واقتتلوا فانهزم أتسز وقتل أخ له وقطعت يد أخ آخر وعاد منهزما الى الشام فى نفر قليل من عسكره فوصل الرملة ثم سار منها الى دمشق * وقال آخرون ولما وصل أتسز الى بلاد مصر ونزل بظاهر القاهرة أساء أصحابه السيرة فى الناس وظلموا وعاثوا وأفسدوا وفعلوا الافاعيل القبيحة فأرسل عظماء القرى جماعة فتقدموا الى المستنصر بالله العلوى يشكون اليه ما نزل بهم فأعاد الجواب بأنه عاجز عن دفع هذا العدو فقالوا نحن نرسل اليك من عندنا الرجال المقاتلة يكونون معك ومن ليس له سلاح تعطيه من عندك سلاحا وعسكر هذا العدو قد أمنوا وتفرقوا فى البلاد فنثور بهم فى ليلة واحدة ونقتلهم وتخرج أنت اليه فيمن اجتمع عندك من الرجال فلا يكون له بك قوة فأجابهم الى ذلك وأرسلوا اليه الرجال وثاروا كلهم فى ليلة واحدة بمن عندهم فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم ولم يسلم منهم الامن كان عنده فى عسكره وخرج اليه العسكر الذى كان عند المستنصر العلوى بالقاهرة فلم يقدر على الثبات قبلهم فولى منهزما وعاد الى الشام مذعورا فتبعه العساكر المصرية وتقدمهم نصر الدولة وما زالوا خلفه وهو يجد فى السير حتى دخل دمشق فلحقوه وحصروا دمشق وضيقوا عليها فأرسل اقسيس الى تاج الدولة تتش يستنصر به فسار الى نصرته فلما سمع المصريون بقربه أجفلوا من بين يديه شبه المنهزمين وخرج صاحب دمشق يلتقيه عند سور البلد وكأنه ندم على الاستنجاد به فاغتاظ تاج الدولة من ذلك حيث لم يبعد فى تلقيه وعاتبه فاعتذر الاقسيس بأمور لم يقبلها تاج الدولة وقبض عليه فى الحال وقتله ودخل دمشق بمن معه من الجنود وملكها وأخذ يتصرف فى أمورها فأحسن السيرة فى أهلها وعدل فيهم وذلك سنة أحدى وسبعين وأربعمائة كما رواه ابن الهمذانى وغيره من العراقيين * وأما الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقى صاحب تاريخ دمشق فقد قال ان تاج الدولة تتش المذكور كان تملك دمشق فى سنة اثنتين وسبعين ولما كان شهر ربيع الاول سنة ثمان وسبعين وصل أمير الجيوش فى عساكر مصر الى الشام فحصر دمشق وضيق عليها وبها صاحبها تاج الدولة تتش وما زال يقاتلها ليلا ونهارا حتى أعياه أمرها ولم يظفر منها بشئ فرحل عنها عائدا الى مصر واتسعت كلمة تتش فملك حمصا وغيرها من سواحل الشام وأخذ منها ما كان بيد صاحب مصر فسير أمير الجيوش بدرا وزير المستنصر عسكرا عظيما الى تلك الاطراف فقاتلوها قتالا عنيفا حتى رجعت الى الطاعة وقرر أمير الجيوش أمورها وجعل فيها الامراء وولى مدينة صور أميرا اسمه منير الدولة الجيوشى فلم تستقر به الولاية حتى عصى وخرج عن طاعة المستنصر فركب عليه أمير الجيوش فى عسكره وكان أهل صور قد أنكروا على منير الدولة عصيانه على سلطانه فلما وصل أمير الجيوش بالعسكر المصرى الى صور وأحاطوا بالبلد وقاتلوها ثار أهلها ونادوا بشعار المستنصر وأمير الجيوش وسلموا البلد فهجم العسكر المصرى بغير مانع ولا مدافع ونهبوا ما فى البلد من مال ومتاع وأسر منير الدولة ومن معه

من أصحابه وحملوا الى مصر فقتلوا عن آخرهم

وكانت أمور البلاد فى قلق واضطراب بسبب المجاعة العظيمة التى لم يسمع بمثلها من قديم الزمان * قال أصحاب التاريخ اشتدت المجاعة بمصر فى هذه الايام أعنى فى أيام المستنصر بالله العلوى حتى أكل الناس بعضهم بعضا وكان الكلب يباع بخمسة دنانير والقط بثلاثة دنانير واشتد الغلاء وعظم البلاء على الناس حتى شوهد فى كثير من الاحيان أن مابقى من الكلاب كانت تدخل الدور وتأكل الاطفال وهم فى المهود وآباؤهم وأمهاتهم ينظرون اليهم ولا يقدرون على النهوض لخلاصهم من شدة الجوع وكان الرجل يسرق ابن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر عليه ذلك قالوا وكان فى مصر حارة بها عشرون دارا كل دار يساوى ثمنها نحو ألف دينار يقال انها بيعت كلها بطبق خبز فسميت من ذلك الوقت بحارة الطبق وخرجت امرأة يوما الى السوق وبيدها عقد من الجوهر فقالت من يأخذ منى هذا العقد ويعطينى عوضه قمحا فلم تجد من يأخذه منها فالتفتت الى العقد وقالت اذا كنت لا تنفعنى وقت الحاجة فلا حاجة لى بك وألقته على الارض وسارت مغضبة * ويقال ان وزير المستنصر ركب بغلة يوما الى دار المستنصر فلما نزل عنها أخذها غلمانه وأكلوها ولم يتركوا منها الا المشلمش والجلد وكان الرجل يمشى من جامع ابن طولون الى باب زويلة ولا يرى فى وجهه انسانا الا نادرا ولبث الحال على هذا الوصف أياما كثيرة مات فيها من الناس والبهائم وبقية الحيوانات مالا يكاد يدخل تحت الحصر وارتفع النيل على عادته وعم الاراضى وهبط ولم يوجد من يزرع الارض سنة * وكثرت الفتن فى البلاد وعظمت نارها مابين الاتراك جند السلطنة والسودان أتباع المستنصر وغلمانه الذين عليهم معتمده وقد كانوا كثيرى العدد والعدد ولهم الكلمة النافذة والقول المطاع وكانت والدة المستنصر تجنح اليهم لانها كانت سوداء مثلهم وتحب ظهورهم على جماعة الاتراك واتفق أن المستنصر خرج يوما الى بركة عميرة التى هى بركة الحج على عادته ومعه جماعة من أصحابه وطائفة من السود وأخرى من الاتراك فنزلوا هناك يتعاطون الخمر فأفرط أحد الاتراك فى شربها حتى سكر وقام وبيده سيفه فأهوى به على أحد السود من أولئك الغلمان فصاح الاسود فى وجه التركى وقام بقية الغلمان عليه فقتلوه بسيوفهم وانقضى ذلك اليوم وعاد المستنصر الى القاهرة فدخل عليه جماعة من كبار الاتراك وقالوا ان كان قتل صاحبنا باغرائك فالسمع والطاعة والا فالسيف يحكم بيننا وبين السود فأنكر المستنصر ذلك وحلف انه لم يأمر بقتل صاحبهم فخرجوا من فورهم لقتال السود فاجتمع الفريقان واقتتلوا فى الازقة والحارات فى القاهرة ومصر قتالا عنيفا حتى جرى الدم فيها ثم افترقوا على أن القاتل يسلم الى جماعة الاتراك وبقيت الاحقاد كامنة فى قلوب الفريقين حتى قدم الاتراك عليهم ناصر الدولة أحد كبار القواد المطاعين فجمع كلمتهم وأحسن تدبير شؤنهم وجعل يتأهب لقتال السود فرأى جماعة السود أن لا قبل لهم على قتال الاتراك فنزلوا الى الصعيد الاعلى فانضم اليهم كثير من العربان والمصريين فقويت

قلوبهم

قلوبهم وكثرت جموعهم وانحدروا الى القاهرة والاسكندرية وقاتلوا الاتراك وأوقعوا بهم فى كوم شريك فكانت الدائرة على السود وقد مات منهم خلق كثير وغرق منهم جماعة فى النيل قال بعض الكتاب فكان من قتل وغرق منهم زهاء ثلاثين ألفا ومات مقدمهم المتعز أبا سعيد وكان من المقربين عند والدة المستنصر فكبر عليها هذا الامر جدا وأحزنها وكثر عبث السود فى القاهرة ومصر وسائر القرى والبلاد وعم الخطب واستفحل أمر الفتنة وطالب الاتراك المستنصر بما لهم من الجوامك والمرتبات وألحوا فى الطلب وركبوا على المستنصر وهددوه فاعتذر لنفاد ما فى يده وطاولهم فلم يقنعوا وكانوا لايستكفون عن مطالبته كل قليل من الزمان فسقط فى يده وخرج يوما هائما على وجهه حتى دخل جامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر وأقام به يريد خلع نفسه وترك أشغال الملك لمن يتولاه فلم يفلح وأعاده رجال دولته وألحوا عليه بالبقاء وعاد الاتراك والسود الى الفتنة وخروج بعضهم على بعض فاقتتلوا ثانية عند الجيزة أياما كثيرة كانت الحرب بينهم سجالا ثم دارت الدائرة على السود فأوقع بهم الاتراك ومزقوا شملهم كل ممزق فترفعوا الى الصعيد الاعلى وعاد الاتراك الى القاهرة ومعهم مقدمهم ناصر الدولة وقد صغرت مهابة المستنصر فى أعينهم فطالبوه بالزيادة فى رواتبهم وما زالوا به حتى بلغت أربعمائة ألف دينار نقرة فى كل شهر بعد أن كانت ثمانيا وعشرين ألفا فاشتد خوف المستنصر من ناصر الدولة وأصحابه وكبرت طيرته فكان لايرتاح فى أكله ولا شربه ولا نومه حتى فى صلاته وكذلك كان وزراؤه تخلعوا أنفسهم من منصب الوزارة ومع ذلك كان الاتراك لايستكفون عن مطالبته بالمال فأخرج كل ما كان فى قصره من الذخائر الثمينة والتحف الغالية التى كانت لأجداده وباعها لهم بأبخس الاثمان وقد كانت شيأ كثيرا جدا من الحلى والاحجار الكريمة والاوانى من الذهب والفضة والقماش والرياش والسروج المحلاة بالياقوت والزمرد والمرجان والسيوف الهندية مما لايكاد يدخل تحت الحصر فلما استصفوا ما فى قصره أخذوا أيضا ما كان فى قبر أجداده من التحف والنفائس ونهبوا ما كان فى خزانة الكتب من الكتب النفيسة • قال بعض أصحاب التاريخ وعددها عشرون ألف مجلد فاقتسموها بينهم وسيروا الى ابن المحترق حاكم الاسكندرية بشئ كثير منها وكان يزعم أنه يخصه فلما بلغوا بالكتب بلدة أبيار خرج عليهم جماعة من عربان قبيلة لواتة فنهبوها واتخذوا لهم من جلود بعضها أحذية وأحرقوا بعضها وتركوا بعضها ملقى فى بعض الدروب فانهالت عليه الرمال حتى صار تلا عظيما فكان يعرف بتل الكتب وكثر عبث جماعة الاتراك وازداد طغيان ناصر الدولة وعسفه فكتب اليه المستنصر يوما يقول لما تقربت منا وتطلبت محابتنا حبيناك وأوسعناك هبات وخيرات فكافأتنا بالعقوق ومازادك حلمنا الا سفه فألقيت عصا الشقاق فى جيوشنا وتواطأت مع ذويك على دمائنا فالآن اخرج من عاصمتنا ونحن نضمن لك الامان ونأذن لك بأن تحمل معك من ثروتك ماشئت الى حيث شئت وان لم تذعن الى ذلك فالعقاب ان شاء الله شديد فلم يلتفت اليه ناصر الدولة فكبر الامر



على المستنصر وجمع اليه قواد المغاربة وأمراء كتامة ومن استمالهم من قواد الاتراك وبينهم
الامير دكوز صهر ناصر الدولة وكان نافذ الكلمة واسع الهيبة وكلهم فى أمر ناصر الدولة
وما يأتيه جماعة الاتراك فى كل يوم من الجور والعسف وهدم أركان السلطنة وجدد عليهم
بيعته فبايعوه وحلفوا الايمان فتسلل عند ذلك أصحاب ناصر الدولة وتفرقوا عنه الا
القليل فخرج الى الجيزة ليدبر الحيلة فى ذلك فثار أصحاب المستنصر وانتهبوا بيت ناصر
الدولة وسائر بيوت أصحابه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وعم القتل والنهب وخرج المستنصر بالله
راكبا على فرس فى درعه وآلة حربه وأمامه الطبول الحربية وحوله القوّاد وكبار العسكر
والاعلام تخفق على رأسه ونادى مناديه بالامان والطاعة الى السلطان فتوافد الاتراك زمرا
ومرّوا من تحت العلم الكبير وصاحوا بطلب الامان وجاء جماعة من كبار قواد ناصر الدولة
ونفعلوا كذلك وكثرت الغوغاء وارتفعت أصواتهم بالدعاء للسلطان فلما رأى ناصر الدولة
ماحل بأصحابه وأيقن أنه مأخوذ لامحالة فرّ هاربا فى نفر من خواصه الى الاسكندرية وتحصن
بها وجعل يدس الدسائس ويبعث البعوث الى ما جاورها من المدن والبلدان لحمل أهلها على
الخروج عن طاعة المستنصر وخلع بيعته والمبايعة الى الخليفة القائم بأمر الله العباسى
واستمال اليه جماعة من عربان أولاد على وأمدهم بالمال فطافوا يحرضون الناس على
الخروج فأفلحوا قليلا فانحدر عند ذلك ناصر الدولة الى القاهرة مع من وافقه يريد حصارها
وأخذها من المستنصر وأحرق كل ما مر به من المدن والقرى والمزارع وعاث وأفسد حتى
أحاط بسور القاهرة ونصب عليه المنجنيقات وجعل يقاتل من بها أياما ثم تقررت قاعدة
الصلح بينه وبين المستنصر بالله على أن يكون بيد ناصر الدولة ما كان له من قبل بشرط
الطاعة وحسن الولاء للمستنصر فأقام ناصر الدولة حينا لايحرّك ساكنا وقد علم بما آلت اليه
حالة المستنصر بالله من الضنك والفاقة وذهاب نعمته حتى لم يبق عنده من حطام الدنيا غير
مصادة قديمة وبعض أثواب بالية لاتستر عورته وثلاثة عبيد فأعظم ناصر الدولة هذا الحال
جدّا ورتب الى المستنصر فى كل يوم مائة دينار ينفقها فى حاجات بيته وكف عن مشاغبته
وما زال ناصر الدولة على حاله من بسطة اليد والتصرف فى سائر الامور حتى دخل عليه
يوما دكوز صهره وهو جالس فى ايوانه مع أخيه فخر العرب فقتلهما واحتز رأسهما وحملهما
الى المستنصر بالله فقويت عند ذلك عزيمة المستنصر بالله وتجددت آماله ونشط الى ارجاع
سلطانه واعلاء كلمته فسير الى بدر الجمالى صاحب الشام يستقدمه الى مصر ليوليه سائر
ماوراء بابه وألح عليه فى ذلك فأجاب طلبه وسار بدر فى جماعة كثيرة من أصحابه ذوى البأس
والنجدة حتى جاؤا عكا وركبوا السفن فلم تكن الا أيام حتى بلغوا مصر ونزلوا مابين تنيس
ودمياط وسير بدر الى الشيخ سلمان عظيم البحيرة يعلمه بحضورهم فخرج اليه فى جمع عظيم
وساروا جميعا نحو القاهرة فلما وصلوا الى قليوب سير بدر الى المستنصر بالله يلزمه بالقبض على
دكوز قبل دخولهم القاهرة فقبض عليه فى الحال وسجنه فى خزانة البنود فدخل بدر القاهرة

يوم الاربعاء سادس عشرى جمادى الاولى سنة سبع وستين وأربعمائة ولم يكن عند مقدم الاتراك علم بمقدمه لما منهم الا من أضافه فلما انقضت ضيافتهم أعدّ لهم وليمة فى داره وبثّ مع أصحابه ان القوم اذا جنهم الليل فلا بدّ أن يحتاجوا الى الخلاء فمن قام منهم الى الخلاء فاقتلوه ووكل بكل واحد واحدا من أصحابه وأقطعه جميع ما ترك المقتول من دار ومتاع واقطاع فعاد القوم اليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا ليلتهم تلك فما طلع النهار حتى استولى أصحابه على جميع دور من قتلوا وشاع الخبر بذلك ففرح المستنصر بالله وخلع على بدر بالطيلسان المقوّر وقلده وزارة السيف والقلم فصارت القضاة والدعاة وسائر أرباب الدولة رهن أمره وزيد فى ألقابه لقب أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين وارتفعت كلمة بدر الجمالى واتسعت شهرته فتتبع المفسدين بالقتل والتشريد فلم يبق منهم أحدا وقتل من أماثل البلاد وقضاتهم ووزرائهم جماعة وسار الى الوجه البحرى فى جند وخدم وأتباع فأسرف فى قتل أصحاب الفتنة والخوارج من لواتة على عهد ناصر الدولة واستصفى أموالهم وأخرب دورهم ثم سار الى مدينة الاسكندرية فقتل بها من قتل وشرد من شرد حتى دامت الامور الى المستنصر بالله وعاد الى مصر ظافرا غانما ثم سار الى الصعيد لقتال جهينة والثعالبة وكانوا قد أفسدوا فقتل منهم وسبى وغنم من الاموال مالا يكاد يدخل تحت الحصر فصلح بما غنمه حال ذلك الصعيد بعد فساده * فلما دانت للمستنصر الامور وبعدت كلمته قدم عليه الحسن بن صباح رئيس الطائفة الاسماعيلية فى زى تاجر واجتمع به وخاطبه فى اقامة الدعوة له بأرض العجم بأسرها فأجابه الى ذلك فعاد الحسن ودعا الناس اليه سرا ثم أظهر الدعوة فتبعه خلق عظيم وكثرت لومه فقاتل بهم وملك القلاع والحصون وقال للمستنصر من امامى بعدك فقال له ابنى نزار وكان نزار أكبر أولاد المستنصر والاسماعيلية يقولون بامامة نزار الى هذا الحين ثم كان من أمر الاسماعيلية وظهورهم وقتالهم ماسيتلى عليك فى محله * وتزايدت محبة بدر للرعية ورفقه بحالهم بعد الذى ذاقوه على عهد ناصر الدولة فأباح الارض لمن يزرع بغير مال ثلاث سنوات فترفهت حال الفلاحين واتسعت المزارع وأخصبت الارض وكثرت غلاتها فدرت الارزاق وهبطت الاسعار وشبع الجائع وأكل الفقير وامتلأت مخازن الاغنياء وراجت التجارة فهرع التجار الى مصر والقاهرة وجاؤها من كل صوب وحدب وعم الامن سائر الانحاء وبلغ خراج مصر على يديه ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار عينا وأقام البنايات العظيمة وبنى دار الوزارة الكبرى وسماها الدار الافضلية فكانت مقره ومقر كل من يلى امرة الجيوش وبقيت كذلك الى أن انتقل الامر للايوبيين وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مع حشمة ووقار قال علقمة بن عبد الرزاق العليمى قصدت بدرا الجمالى بمصر فرأيت أشراف الناس وكبراءهم وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم ولم يصلوا اليه فبينما أنا كذلك اذ خرج بدر يريد الصيد فخرجت فى أثره ثم أقمت الى أن رجع من صيده فلما قاربته وقفت على نشز من الارض

وأومأت برقعة فى يدى وأنشأت أقول

نحن التجار وهـــذه أعـــلاقنا • در وجود يمينـــك المبتاع
قلب وفتشهـــا بسمعـــك انما • هى جوهـــر تختاره الاسماع
كســدت علينا بالشآم وكلما • قـــل النفاق تعطل الصـــناع
فأتاك يحملها اليـــك تجارها • ومطيهـــا الآمال والاطمـــاع
حـــتى أناخوهـــا ببابك والرجا • مـــن دونك السمسار والبياع
فوهبـــت مالم يعطه فى دهـــره • هـــرم ولا كعب ولا القعـــقاع
وسبقت هذا الناس فى طلب العلا • فالناس بعـــدك كلهـــم أتباع
يابدر أقسم لو بك اعتصم الورى • ولجوا اليك جميعهـــم ما ضاعوا

وكان على يد بدر بازى فألقاه وانفرد عن الجيش وجعل يستعيد الابيات وهو ينشدها الى أن استقر فى مجلسه ثم قال لجماعة غلمانه وخاصته من أحبنى فليخلع على هـــذا الشاعر فخرجت من عنـــده ومعى سبعون بغـــلا تحمل الخلع والتحف وأمر لى بعشرة آلاف درهم فخرجت من عنده وفرقت كثيرا من ذلك على الشعراء اه

وطالت أيام بدر وعظمت نعمتـــه وما زال يتصرف فى الامور ولا كلمة فوق كلمتـــه حتى وافته منيته فى سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية وله من العمر ثمانون سنـــة فكانت أيام حكمه زهاء عشرين سنة يقال انه قتل فى خلالها من الخلائق ما لا يكاد يدخـــل تحت الحصر ومع ذلك فقد كان محبوبا مطاع الكلمة وافر الحرمة فحزن عليه المستنصر حزنا عظيما وحزن عليه أهـــل مصر والقاهرة كافـــة وأقام المستنصر مكانه ابنـــه الافضـــل وولاه سائر ما وراء بابه فانطلقت كلمته واتسعت هيبته وظل يتصرف فى الامور حتى مات المستنصر بالله فى ثامن عشر ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية وله من العمر سبع وستون سنة وخمسة أشهر • ولمـــا مات المستنصر ولى بعده ابنه أبو القاسم أحـــد المستعلى بالله وكان المستنصر قد عهد بالخلافة من بعده الى أكبر أولاده نزار فخلعه الافضل بن بدر الجمالى من ولاية العهـــد وبايع المستعلى بالله المـــذكور • قال أصحاب التاريخ وكان سبب ذلك أن الافضل ركب مرة أيام المستنصر ودخـــل دهلـــيز القصر من باب الذهب راكبا ونزار خارج والمجاز مظلم فلم يره الافضل فصاح به نزار انزل ياأرمنى كلب عن الفرس ما أقل أدبك فحقدها عليـــه فلمـــا مات المستنصر خلعـــه خوفا منـــه على نفسه وبايع المستعلى فهرب نزار الى الاسكندرية وبها ناصر الدولة افتكين فبايعـــه أهـــل الاسكندرية وسموه المصطفى لدين الله فخطب الناس ولعن الافضل بن الامير بدر الجمالى وأعانه أيضا القـــاضى جلال الدولة بن عمـــار قاضى الاسكندرية فسار اليـــه الافضـــل فى جيش عظـــيم وحصره بالاسكندرية فعاد عنـــه مقهورا ثم زاد فى عسكره وسار اليه فحصره وأخذه وأخذ أفتـــكين فقتله وتسلم المســـتعلى أخاه نزارا فبنى عليه حائطا فمات وقتل القـــاضى جـــلال الدولة بن عمـــار ومن أعانه على الخروج

ولمـــا

ولما كان الخامس عشر من المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة مات الخليفة الامام المقتدى بامر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة بن القائم بأمر الله أمير المؤمنين فجأة وكان قد رفع اليه تقليد السلطان بركيارق ليعلم ما فيه وكان السلطان بركيارق المذكور قد جاء الى بغداد وأرسل الى الخليفة يطلب الخطبة لنفسه فأجيب الى ذلك وخطب له ولقب ركن الدين وحمل الوزير عميد الدولة الخلع الى بركيارق فلبسها وعرض التقليد على الخليفة ليعلم عليه فقرأه وتدبره وعلم ما فيه ثم قدم اليه طعام فأكل وغسل يديه وهو على أكمل حال وأحسن هيئة فى نفسه وجسمه وبين يديه قهرمانته شمس النهار فقال لها ماهؤلاء الاشخاص الذين دخلوا بغير اذن فالتفتت فلم تر أحدا ثم نظرت اليه فرأته قد تغير وجهه واسترخت يداه وانحلت قواه وسقط الى الارض فظنت أنه قد غشى عليه فاذا هو قد مات فأمسكت عن البكاء واستدعت الوزير أبا منصور فبكيا ثم أحضرا أبا العباس أحمد المستظهر بن المقتدى وكان قد عهد اليه أبوه فعزياه وهنآه بالخلافة ثم جهز المقتدى وصلى عليه ابنه المستظهر بالله ودفن وكان عمره ثمانيا وثلاثين سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر غير يومين وكانت أيامه كثيرة الخير واسعة الرزق وعظمت الخلافة على يديه وكان السلطان بركيارق مصمما على اخراجه قبل موته من بغداد الى البصرة تخلصا منه اذ كانت حرمته وافرة وهيبته عظيمة جدا والقلوب مجمعة على طاعته وكان قوى النفس عظيم الهمة من رجال بنى العباس

(الفصل الثامن والعشرون)

(فى خلافة المستظهر بالله أبى العباس أحمد)

ثم قام بالامر بعد المقتدى بأمر الله ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية أى سنة أربع وتسعين وألف ميلادية بايعه الوزير ثم ركب الى السلطان بركيارق وأعلمه الحال وأخذ بيعته للمستظهر بالله فلما كان اليوم الثالث من موت المقتدى جلس المستظهر للعزاء فحضر عز الملك بن نظام الملك وزير بركيارق وأمراء السلطان وجميع أرباب المناصب العالية والقضاة والعلماء فجلسوا فى العزاء وبايعوا وكان للمستظهر بالله لما بويع ست عشرة سنة وشهران ليس الا

ولما استقرت به الخلافة جعل يتصرف فى الامور فلم يكن له من حظها ما كان لأبيه المقتدى بأمر الله لشدة السلطان بركيارق وبسطة يده على جميع الأمور وكراهته لاتساع نفوذ الخلافة وكانت أحوال سلطنة بركيارق مع ذلك فى غاية الضعف والانحلال لتغلب

الفرنجة على الكثير من بلاده وفتحها عنوة اذ كانوا الى سنة أربع وثمانين وأربعمائة قد ملكوا من بلاد الاسلام عدة مدن وتطرقوا الى أطراف افريقية فملكوا منها جزيرة سيسيليا التى كانت فى يد الفاطميين بعد نزعها من أيدى الغالبين الذين هم قدماء الفرنسيس وذلك أنه لما كثر شغب أهل هاته الجزيرة وانقسم بعضهم على بعض واستعصى على المعز لدين الله العلوى اصلاح ماأفسده عماله أكثر من العزل والتولية فى عمالها وشدد فى مراقبتهم وتبعه فى ذلك من أتى بعده من ذريته فلم يفلحوا أيضا وتفاقم الخطب وتطاولت أيدى الفرنجة الى دس الدسائس واغراء من بالجزيرة من المسيحيين الى الخروج وشق عصا الطاعة وكان المسلمون من أهل الجزيرة أيضا قد انقسموا الى حزبين مختلفين وشطرين متخاصمين وكان مقدم أحد الحزبين رجلا يقال له ابن تمامة وهو من عظماء القوم وكبارهم فخرج فى أصحابه لقتال الفريق الثانى فانتشبت الحرب بينهما ثم انجلت عن هزيمة ابن تمامة ومن معه ففر هاربا الى كاتان وكانت الى هذا الحين فى يد الفرنجة فأكرم صاحبها وفادته وأمده بالعدة والرجال وعلم الفريق الثانى بما آلت اليه حال ابن تمامة فطلبوا المدد من صاحب افريقية فأمدهم فكانت بين الفريقين حرب هائلة وكان ممن خرج مع ابن تمامة لقتال القمص دوجر فى طائفة عظيمة من الفرنسيس فأبلى هذا القمص فى عسكر افريقية بلاء حسنا وانتصر ابن تمامة وانهزم من كان فى تلك الجزيرة من المسلمين فدخلها دوجر وجعل يتصرف بدهاء وحكمة وما زال بأهلها حتى بايعوه سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة هجرية وخرجت من يد العلويين كخروج غيرها من بقية المدن والبلدان ومازال دوجر يدبر أمرها ويتصرف فى ملكها حتى مات سنة خمس وتسعين وأربعمائة هجرية فقام بالامر بعده ابنه ولقب دوجر الثانى فزاد فى عمارتها وبالغ فى تحسين أحوالها حتى زهت وغنيت وكثرت خيراتها وتنعم أهلها براحة العيش بعد العناء والشدة وفى سنة تسعين وأربعمائة خرج الفرنجة أيضا الى بلاد الشام وساروا فى جيش عظيم للغاية وقصدوا انطاكية وصاحبها يومئذ آباغبسيان وكان أهل انطاكية من المسلمين والنصارى فخاف آباغبسيان أن تغدر به النصارى وتخذله فلما علم بقرب الفرنجة أخرج المسلمين من أهلها ليس معهم غيرهم وأمرهم بحفر خندق حول البلد ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضا ليس فيهم أحد من المسلمين فعملوا فيه الى العصر فلما أرادوا دخول البلد منعهم وقال لهم أنطاكية لكم فلا بد وأن تهبوها لى حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنجة فقالوا ومن يحفظ أبناءنا ونساءنا قال أنا أخلفكم فيهم فساروا الى عسكر الفرنجة فقبلهم ريشارد ملك الفرنجة وأنزلهم منزلا رحبا وحاصر ريشارد بعسكره البلد تسعة أشهر وظهر من شجاعة آباغبسيان وجودة رأيه وحزمه مالم يشاهد من غيره فلما طال مقام ريشارد على انطاكية راسل الذى كان على برج الوادى من أبراج البلد واسمه بروزبه وبذل له أموالا واقطاعا فلما تقرر الأمر بينهما أفرج لعساكر ريشارد عن البرج فتقدموا من ناحيته وتسلق جماعة

كثيرة

كثيرة منهم بالحبال ومازالوا يتسلقون حتى زادت عدتهم عن الخمسمائة ثم ضربوا البوق وكان
ذلك عند السحر والجند والحراس نيام فاستيقظ آباغبسيان وسأل عن الحال فقيل ان هذا
البوق من القلعة ولاشك أنها قد ملكت فدخله الرعب وأمر بباب البلد ففتح وخرج هاربا
فى ثلاثين غلاما على وجهه وخرج نائبه أيضا من باب آخر ودخل عسكر ريشارد البلد فنهبوا
وقتلوا من فيه من المسلمين وملكوه فلما سمع ملوك الاسلام بما جرى على انطاكية اجتمع
منهم قوام الدولة كربوقا ودقاق بن تتش وطغتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حمص
وأرسلان تاش صاحب سنجار وسليمان بن ارتق وغيرهم من الأمراء وتحالفوا على استخلاص
انطاكية من يد ريشارد وساروا فى جموع كثيرة نحو انطاكية فما اقتربوا منها حتى وقع
الخلاف بينهم وأساء كربوقا السيرة مع من معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم
وانفرد بالكلمة ظنا منه أنهم يقيمون معه على هذا الحال فأضمروا له السوء وعقدوا
النية على خذلانه اذا التقوا بجيوش الفرنجة فلما أحاطوا بانطاكية خرجت جيوش الفرنجة
لقتالهم وضربوا مصفا عظيما فوقع الخوف فى قلوب المسلمين وانهزموا شر هزيمة ولم يضرب
أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم وانهزم كربوقا وتبعهم الفرنجة فقتلوا منهم
خلقا كثيرا وغنموا ما فى العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والاسلحة فكان
شيأ لايكاد يدخل تحت الحصر ● ولما وردت الأخبار الى مصر بهزيمة الترك عن انطاكية
وضعفهم وتفرق كلمتهم طمع أبو القاسم المستعلى بالله صاحب مصر فى استخلاص بيت
المقدس من تاج الدولة تتش وكان قد أقطعه للأمير سقمان بن ارتق فسير اليه عسكرا
ومقدمهم الافضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش فحصروه وبه الامير سقمان وايلغازى ابنا أرتق
وابن عمهما سونج وابن أخيهما ياقوتى ونصب عليه الأفضل نيفا وأربعين منجنيقا فهدم
مواضع من سوره وقاتلهم أهل البلد فدام القتال والحصار نيفا وأربعين يوما وملكوه
بالامان وأحسن الأفضل أمير الجيوش المصرية الى سقمان وايلغازى ومن معهما وأجزل لهم
العطاء وسيرهم فساروا الى دمشق ثم عبروا الفرات فأقام سقمان ببلد الرها وسار ايلغازى الى
العراق واستناب الأفضل فى بيت المقدس رجلا يعرف بافتخار الدولة فبقى فيه ● ولما فرغ
ريشارد من قتال المسلمين على انطاكية وأخذها سار بعسكره ومن معه من أمراء الفرنجة
الى عكا وحاصروها أياما كثيرة فلم يقدروا عليها فساروا عنها الى بيت المقدس وحصروه نيفا
وأربعين يوما ونصبوا عليه برجين أحدهما من ناحية صهيون فقوى عليه المسلمون وأحرقوه
وقتلوا كل من به فلم يفرغوا من احراقه حتى أتاهم المستغيث بان المدينة قد ملكت من
الجانب الآخر ودخل الفرنجة البلد وركب الناس السيف ولبث الفرنجة أسبوعا يقتلون
فيه المسلمين واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام
فبذل لهم الفرنجة الأمان فسلموا اليهم ووفى لهم الفرنجة وخرجوا ليلا وقتل الفرنجة بالمسجد
الاقصى ما يزيد عن سبعين ألفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم

وزهادهم وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامى وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا نقرة ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا وغنموا منه مالايقع عليه الاحصاء رواه صاحب الكامل وكانت شدة عظيمة للغاية على المسلين وتمكن الفرنجة من البلاد واستثبت أقدامهم ولم يقدر المسلمون على ردهم لتفرق كلمة سلاطينهم واختلاف أهواء أمرائهم فقال أبوالمظفر الابيوردى فى هذا المعنى أبياتا

مزجنا دماء بالدموع السواجم * فلم يبق منا عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه * اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فهيا بنى الاسلام ان وراءكم * وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمة فى ظل أمن وغبطة * وعيش كنوار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها * على هفوات أيقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم * ظهور المذاكى أوبطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم * تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى * توارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا * وسمر العوالى داميات اللهازم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة * تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها * ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدى المشركين قواضبا * ستغمد منهم فى الطلى والجماجم
يكاد لهن المستجن بطيبة * ينادى بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتى لايشرعون الى العدا * رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى * ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الاعاريب بالاذى * ويغضى على ذل كماة الاعاجم

ومنها

فليتهم اذ لم يذودوا حمية * عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وان زهدوا فى الاجر اذ حمى الوغا * فهلا أتوه رغبة فى الغنائم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى * فلا عطسوا الا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحة * الينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية * تطيل عليها الروم عض الاباهم
فان أنتم لم تغضبوا بعد هذه * رمينا الى أعدائنا بالجرائم

فاستعظم المستعلى صاحب مصر ماتم على أهل القدس واغتم له ورسم الى الافضل أمير الجيوش بقتال الفرنجة واستخلاص بيت المقدس منهم فحشد الافضل جيشا عظيما وسار الى

عسقلان

عسقلان وأرسل الى الفرنجة ينكر عليهم مافعلوا ويتهددهم بالقتال فأعادوا الرسول بالجواب ورحلوا على أثره بخيلهم ورجلهم وطلعوا على المصريين عقب وصول الرسول ولم يكن عند المصريين خبر بوصولهم ولا من حركتهم ولم يكونوا على أهبة القتال فلما أحسوا بهم نادوا فى الجند بالخروج وكثر النداء بركوب الخيل فأعجلهم الفرنجة فهزموهم وقتلوا منهم خلقا وغنموا مافى المعسكر من مال وسلاح وغير ذلك وانهزم الافضل ودخل عسقلان وهرب الكثير من جنده فاختفوا فى شجر جميز كان هنالك كثيرا فأحرق الفرنجة بعض الشجر فمات من كانوا فيه وأعملوا السيف فيمن خرج منهم ثم عاد الافضل فى نفر قليل من خواصه وأتباعه الى مصر ونازل الفرنجة عسقلان وضايقوها فبذل لهم أهلها قطيعة اثنى عشر ألف دينار وقيل عشرين ألف دينار فعادوا الى بيت المقدس ظافرين غانمين وعظم أمرهم فملكوا أكثر سواحل الشام وغيرها مما لاعلاقة له بنا هنا * وانكف المستعلى عن قتالهم بعد هزيمة الافضل أمير جيوشه عند عسقلان واهلاكهم لعسكره وكذلك تشاغل عنهم السلطان بركيارق بقتال أخيه السلطان محمد وغيره من الامراء الذين خرجوا عن طاعته ومزقوا سلطنته لاسيما طائفة الباطنية الذين هم الاسماعيلية أصحاب الحسن بن الصباح الذى تقدم ذكر خبر حضوره الى المستنصر صاحب مصر ومخاطبته اياه فى اقامة الدعوة له بأرض العجم بأسرها وجعلهم نزار ولده امامهم بعد المستنصر المذكور فقد كان عظم شرهم وكبر أمرهم وخافهم الامراء والعظماء والقواد والجنود وتبعوا طريقتهم صاغرين وانبثت تعاليمهم فى أكثر المدن فظفروا بها وأقاموا القلاع والحصون وجندوا الاجناد وكادت تتم دعوتهم المشرق بأسره * وحيث قد وعدنا بأن نأتى على ذكر حال هذه الشيعة مفصلا فى محله * وهذا محله الآن * فها نحن نتلو عليك ماقاله أصحاب التاريخ وأجمعوا عليه من أحوال هؤلاء الشيعة التى كانت تسمى قبلا بالقرامطة قالوا كان ابتداء ظهور دعوتهم الاخيرة التى اشتهرت بالباطنية والاسماعيلية فى أيام السلطان ملك شاه وكان أول ماانكشف من أمرهم أنه اجتمع منهم ثمانية عشر رجلا فصلوا صلاة العيد فى ساوة على طريقتهم الشيعية ففطن بهم أصحاب الشحنة وانكشف لهم بعض ماخفى من أمرهم فقبض عليهم واعتقلوا أياما ثم أفرج عنهم بشفاعة بعض الوجوه والاعيان فكان ذلك أول اجتماع لهم ظاهر للناس ولما أطلقوا من الحبس أقاموا بساوة يدعون الناس ويكاشفون بعضهم ثم ساروا الى أصبهان يدعون أيضا فكان ممن دعوهم مؤذن من أهل ساوة كان مقيما بأصبهان فلم يجبهم الى دعوتهم فخافوا أن ينم عليهم فقتلوه فكان أول قتيل لهم وأول دم أراقوه فبلغ خبر قتله نظام الملك فأمر بأخذ من يتهم بقتله فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر فقتل ومثل به وجروا برجله فى الاسواق فكان أول قتيل منهم وكان والد طاهر هذا واعظا أتى بغداد مع السلطان بركيارق سنة ست وثمانين وأربعمائة هجرية فحظى منه ثم قصد البصرة فولى القضاء بها ثم توجه فى رسالة الى كرمان فقتله العامة فى الفتنة التى جرت وقالوا انه باطنى وتقوى الباطنية واشتد أزرهم بمن انضم الى شيعتهم من العظماء والقواد

وظهور دعوتهم فتمكنوا من قتل نظام الملك فكان لفعلهم هذا أثر مهم للغاية وكان أول فتكة مشهورة لهم ولذلك كانوا يقولون قتل نظام الملك منا نجارا فتلناه به ثم نزلوا ببلد عند قاين وبها مقدمهم فاجتمعوا عنده فتقووا به فاجتازت بهم قافلة عظيمة من كرمان الى قاين فخرج عليهم المقدم المذكور ومعه أصحابه ومن اجتمع اليه من الباطنية فقتل أهل القفل جميعهم ولم ينج منهم الا رجل تركمانى فوصل الى قاين فاخبر بالقصة فتسارع أهلها مع القاضى الكرمانى يريدون قتالهم فلم يظفروا ورجعوا عنهم وفشا مذهبهم بين جند السلطان بركيارق وتقوى به كثير منهم وزاد أمرهم فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخافهم من يخالفهم حتى انه لم يتجاسر أحد لا أمير ولا مقدم على الخروج من منزله الا حاسرا فيلبس تحت ثيابه درعا حتى ان الوزير الاعز أبا المحاسن كان يلبس زردية تحت ثيابه واستأذن السلطان بركيارق خواصه فى الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم ممن يقاتلهم فأذن لهم فى ذلك وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافى أمرهم

ولما مات السلطان ملكشاه وقد تمكنوا من قتل نظام الملك عظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت أطماعهم واجتمعوا فى أصبهان بعد أن كانوا متفرقين واتخذوا أصبهان مقرا وعظم شرهم فصاروا يسرقون من قدروا عليه من مخالفيهم ويقتلونهم وقد فعلوا ذلك بخلق كثير وزاد الامر وكثر خوف الناس فكان الرجل اذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقن أهله قتله وقعدوا للعزاء فتحذر الناس وصار لاينفرد أحد خوفا من فتك الباطنية ودعا أحدهم جارا له الى مذهبهم فلم يقبل فأخذه وأخفاه فقام أهله للنياحة عليه فأصعده جماعة من الباطنية الى سطح داره من غير أن يشعر به أحد وأروه أهله كيف يلطمون ويبكون عليه فنظر اليهم وهو لايقدر أن يتكلم خوفا منهم واشتد الحال بالناس فى أصبهان وهاجر الكثير من أهلها فرارا من فعال هؤلاء الطغاة واتفق أن رجلا بأصبهان دخل فى دار صديق له فرأى فيها ثيابا ومداسات وملابس لم يعهدها فداخلته الظنون وخرج من عنده وأخبر الناس بما رآه فكشف الناس عنها فعلموا أن صاحب الدار من الباطنية وأن الملابس هى من ملابس الناس الذين قتلهم الباطنية فثاروا جميعا يبحثون عمن قتل ويستكشفون فظهروا على الدروب التى تسكن فيها تلك الطائفة وعلموا انهم كانوا اذا اجتاز بهم انسان أخذوه الى دار منها وقتلوه وألقوه فى بئر فى الدار قد صنعت لذلك وكان على باب درب من دروبهم رجل أعمى فاذا اجتاز به انسان يسأله أن يقوده خطوات الى باب الدرب فيفعل ذلك فاذا دخل الدرب قبض عليه وسلمه الى جماعة منهم فيقتلونه فلما انكشف أمرهم وعلم الناس بما هم عليه قاموا قومة رجل واحد وتجرد للانتقام منهم أبو القاسم مسعود بن محمد الخجندى الفقيه الشافعى وانضم اليه لفيف الاهالى بالاسلحة وأمر بحفر أخاديد وأوقد فيها النيران وجعل العامة يقبضون على الباطنية جماعات وفرادى فيلقونهم

فى

فى النار وأوقفوا جماعة يشعلون النيران وسموا أحدهم مالكا فقتلوا منهم خلقا كثيرا وتفرق من بقى واختفى وكذلك ثار بهم جاولى سقاوو صاحب البلاد التى بين رامهرمز وأرجان وذلك لانهم لما ملكوا القلاع والحصون بخوزستان وفارس وغيرهما وكثر شرهم وقطعوا الطريق بتلك البلاد وقتلوا وسبوا وفعلوا ما لاخير فيه اتفق جاولى المذكور مع جماعة من صناديد أصحابه على أن يظهروا الشغب عليه ويخرجوا عن طاعته ويفارقوه ويقصدوا الباطنية ففعلوا وأظهروا أنهم معهم وعلى مذهبهم فأقاموا عندهم حتى وثقوا بهم ثم أظهر جاولى أن الامراء من بنى برسق يريدون قصده وأخذ بلاده وأنه عازم على مفارقتها لعجزه عن ردهم وأنه يريد همذان فلما شاع هذا الخبر وسار قال من عند الباطنية من أصحابه لهم الرأى انا نخرج الى طريقه ونأخذه وما معه من الاموال فساروا اليه فى ثلثمائة من أعيانهم وصناديدهم فلما التقوا ثار من معهم من أصحاب جاولى عليهم ووضعوا السيف فيهم فلم يفلت منهم سوى ثلاثة نفر صعدوا الى الجبل وهربوا وغنم جاولى مامعهم من دواب وسلاح وغير ذلك وركب عليهم أيضا السلطان بركيارق وقتل منهم خلقا كثيرا للغاية فكادت تضعف شوكتهم وتزول هيبتهم وانكفوا عن أفاعيلهم فقل أذاهم واطمأنت قلوب الناس واستراحت واختفى كبارهم وتتبعهم بركيارق فكان لايظفر بأحد منهم الا قتله وشهره

وأقام المستعلى يدبر الامور بمصر الى أن مات سنة خمس وتسعين وأربعمائة لسبع عشرة خلت من شهر صفر فكانت سلطنته سبع سنين وقريبا من شهرين فولى بعده ابنه أبو على المنصور بويع له فى اليوم الذى مات فيه أبوه وله خمس سنين وشهر وأربعة أيام ولقب الآمر بأحكام الله ولم يكن ممن ولى قط أصغر منه ومن المستنصر فقام بتدبير دولته الافضل بن أمير الجيوش أحسن قيام وأخلص فى خدمته غاية الاخلاص ۞ قال ابن يسر فى تاريخه لما توفى المستعلى أحضر الافضل أباعلى وبايعه بالخلافة ونصبه مكان أبيه ولقبه بالآمر بأحكام الله وكان له من العمر خمس سنين وشهر وأيام فكتب ابن الصيرفى الكاتب السجل بانتقال المستعلى وولاية الآمر وقرئ على رؤس كافة الاجناد والامراء وأوله من عبد الله ووليه أبى على الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين بن الامام المستعلى بالله الى كافة أولياء الدولة وأمرائها وقوادها وأجنادها ورعاياها شريفهم ومشروفهم وأميرهم ومأمورهم مغربيهم ومشرقيهم أحرهم وأسودهم كبيرهم وصغيرهم بارك الله فيهم ٭ سلام عليكم فان أمير المؤمنين يحمد اليكم الله الذى لااله الا هو ويسأل أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهر بن الائمة المهديين وسلم تسليما ۞ أما بعد ۞ فالحمد لله المنفرد بالثبات والدوام الباقى على تصرم الليالى والايام القاضى على أعمار خلقه بالتقضى والانصرام الجاعل نقض الامور معقودا بكمال الاتمام جاعل الموت حكما يستوى فيه جميع الانام ومنهلا لايعصم من ورده كرامة نبى ولا امام والقائل معزيا لنبيه ولكافة أمته كل من عليها فان و يبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام الذى استدعى الائمة لهذه الامة ولم

تخل الارض من أنوارهم لطفا بعباده ونعمه وجعلهم مصابيح الشبه اذا غدت داجية مدلهمه لتضيء للمؤمنين سبل الهداية ولايكون أمرهم عليهم غمه يحمده أمير المؤمنين حمد شاكر على ماقلده فيه من درج الامامه ونقله اليه من ميراث الخلافه صابرا على الرزية التى أطار هجوعها الالباب والفجيعة التى أطال طروقها الاسف والاكتآب ويسأله أن يصلى على جده محمد خاتم أنبيائه وسيد رسله وأمنائه ومجلى غياهب الكفر ومكشف عمائه الذى قام بما استودعه الله من أمانته وحمله على أعباء رسالته ولم يزل هاديا الى الايمان داعيا الى الرحمن حتى أذعن المعاندون وأقر الجاحدون وجاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون فحينئذ أنزل الله عليه اتماما لحكمته التى لايعترضها المعترضون ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه وأبناء أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب الذى أكرمه الله بالمنزلة العلية وانتخبه للامامة رأفة بالبرية وخصه بغوامض علم التنزيل وجعل له مبرة التعظيم مزية وقطع بسيفه دابر من زل عن القصد وضل عن سواء السبيل وعلى الائمة من ذريتهما العترة الهادية من سلالتهما آبائنا الابرار المصطفين الاخيار ما تصرفت الاقدار وتوالى الليل والنهار وأن الامام المستعلى بالله أمير المؤمنين قدس الله روحه كان ممن أكرمه الله بالاصطفاء وخصه بشرف الاجتباء ومكن له فى بلاده فامتدت أفياء عدله واستخلفه فى أرضه كما استخلف أباه من قبله وأيده بما استرعاه أباه بهدايته وارشاده وأمده بما استحفظه عليه من مواد توفيقه واسعاده ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده فلم يزل لاعلام الدين رافعا ولشبه المضلين دافعا ولراية العدل ناشرا وللدين عامرا وللعدو قاهرا الى أن استوفى المدة المحسوبة وبلغ الغاية المرهوبة فلو كانت الفضائل تزيد فى الاعمار أو تحمى من ضروب الاقدار أو تؤخر ما سبق تقديره فى علم الواحد القهار لحمى نفسه النفيسة كريم مجدها وشريف محتدها وكفاها خطير منصبها وعظيم هيبتها ووقتها أفعالها التى تستق من منبع الرساله وصانتها خلالها التى ترتقى الى مطلع الجلاله لكن الاعمار محررة مقسومه والآجال مقدرة معلومه والله تعالى يقول وبقوله يهتدى المهتدون ولكل أمة أجل فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فأمير المؤمنين يحتسب عند الله هذه الرزية التى عظم أمرها وفدح ويرح خطبها وقرح وغدت له القلوب واجفه والآمال كاسفه ومضاجع السكون منقضه ومدامع العيون مرفضه فانا لله وإنا اليه راجعون صبرا على بلائه وتسليما لامره وقضائه واقتداء بمن أثنى عليه فى الكتاب انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أوّاب وقد كان الامام المستعلى بالله قدس الله روحه عند نقلته جعل لى عهد الخلافة من بعده وأودعنى ماحازه من أبيه عن جده وعهد الىّ أن أخلفه فى العالم وأجرى الكافة فى العدل والاحسان على منهجه القائم وأطلعنى من العلوم على السر المكنون وأفضى الىّ من الحكمة بالغامض المصون وأوصانى بالعطف على البرية والعمل فيهم بسيرته المرضية على على بما جبلنى الله

عليه

علیه من الفضل وخصنی به من آثار العدل وانی فیما استرعیته سالك علی منهاجه عامل بموجب الشرف الذی عصب الله فی تاجه وكان مما ألقاه الیّ وأوجبه علیّ أن أعلی محل السید الاجل الافضل من قلبه الكریم وما یجب الیه من التبجیل والتكریم وان الامام المستنصر بالله كان عند ما عهد الیه ونص بالخلافة علیه أوصاه أن یتخذ هذا السید الاجل خلیفة وخلیلا ویجعله للامامة زعیما وكفیلا ویحفظ به أمر النظر والتقریر ویفوض الیه تدبیر ما وراء السریر وانه عمل بهذه الوصیة حذوا علی تلك الامانة النبویة وأسند الیه أحوال العساكر والرعیة وناط أمر الكافة بعزمته الماضیة وهمته العلیة فكان قلبه بالسداد یرجف ولا یجف وسیفه من دماء ذوی العناد یكف ولا یكف ورأیه فی حسم مواد الفساد یرسخ ولا یخف فأوصانی أن أجعله لی كما كان له صفیا وظهیرا وأن لا أسترعنه فی الامور لاصغیرا ولا كبیرا وأن أقتدی به فی ردّ الاحوال الی تكلیفه واسناد الاسباب الی تدبیره والینا سوط نازل الخطب ومنتقله الی غیر ذلك مما استودعنی اباه وألقاه الیّ من النص الذی یتضوّع نشره ورباه نعمة من الله قضت لی بالسعد العمیم ومنذ شهرت بالفضل المتین والحظ الجسیم والله یؤتی ملكه من یشاء والله واسع علیم فتعزوا معاشر الاولیاء والامراء والقواد والاجناد والرعایا والخدام حاضركم وغائبكم ودانیكم وقاصیكم عن الامام المنقول الی جنات الخلود واستبشروا بامامكم هذا الامام الحاضر وابتهجوا بكریم نظره المطلع لكم كواكب السعود ولكم من أمیر المؤمنین أن لایغض جفنا عن مصالحكم وأن یتوخی ما عاد بمیامنكم ومناجحكم وأن یحسن السیرة فیكم ویدفع أذی من یعادیكم ویتفقد مصلحة حاضركم وبادیكم ولامیر المؤمنین علیكم أن تعتقدوا موالاته بخالص الطویه وتجمعوا له فی الطاعة بین العمل والنیه وتدخلوا فی البیعة بصدور منشرحه وآمال منفسحه وضمائر نقیة وبصائر فی الولاء قویة وأن تتقدموا بشروط بیعته وتنتهوا بفروض نعمته وتبذلوا الطارف والتالد فی حقوق خدمته وتتقربوا الی الله سبحانه وتعالی بالمناصحة لدولته وأمیر المؤمنین یسأل أن تكون خلافته كافلة بالاقبال ضامنة ببلوغ الآمال وأن یجعل دعتها دائمة بالخیرات وقسمتها نامیة علی الاوقات ان شاء الله تعالی اه

ولم تكد تستقر الولایة بالآمر بأحكام الله حتی كثر عبث الفرنجة بالاملاك المصریة وتطاولت أیدیهم الی ایذاء المسلمین فأنفذ الافضل أمیر الجیوش بمصر سعد الدولة الطواشی مملوك أبیه الی الشام فی جیش عظیم لحرب الفرنجة وردعهم فلقیهم بین الرملة ویافا فتصافوا واقتتلوا قتالا عنیفا وطال القتال ثم حمل الفرنجة حملة صادقة علی المسلمین فانهزموا شر هزیمة ومات سعد الدولة تحت سنابك الخیل * قال بعض الكتاب وكان المنجمون یقولون لسعد الدولة انك تموت تحت سنابك الخیل فكان یحترز من ركوب الخیل حتی ولی بیروت وأرضها مفروشة بالبلاط فقلعه خوفا أن تزلق فرسه فیسقط فلم ینفعه الحذر عند



نزول القدر وملك الفرنجة خيمه وجميع ما للمسلمين وشردوا من بقى منهم فلما رجع المستنفرون الى مصر غضب الافضل وسير ابنه شرف المعالى فى جمع كثير فالتقوا هم والفرنجة بيازور بقرب الرملة فانهزم الفرنجة وتفرقوا وسار شرف المعالى بن الافضل من المعركة ونزل على قصر بالرملة وبه جماعة من كبار الفرنجة فقاتلهم خمسة عشر يوما حتى أخذهم أسرى وحمل منهم جماعة الى مصر ثم اختلف أصحاب شرف المعالى وتفرقت أهواؤهم فمنهم من أراد المسير الى بيت المقدس لاستخلاصه من الفرنجة ومنهم من أراد المسير الى يافا وأخذها وبقوا على هذا الخلاف أياما فبينما هم كذلك اذ وصل الى الفرنجة المدد فاجتمعوا وساروا الى عسقلان وبها شرف المعالى فقاتلوه ومن معه فلم يصبر على قتالهم فقفل منها راجعا الى مصر بمن بقى من أصحابه فأحزن ذلك ابن الافضل وسير رجلا يقال له تاج العجم فى البر وهو من كبار مماليك أبيه وجهز معه أربعة آلاف فارس وسير فى البحر رجلا يقال له القاضى ابن قادوس فى عمارة حربية الى يافا ونزل تاج العجم على عسقلان فاستدعاه ابن قادوس اليه ليتفقا على كيفية القتال فلم يجبه الى ذلك ولا أرسل اليه أحدا فراجعه فلم يقبل فأشهد عليه ابن قادوس قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها وسير الخبر بما وقع الى ابن الافضل أمير الجيوش فأرسل ابن الافضل من قبض على تاج العجم وأرسل رجلا يلقب بجمال الملك فأسكنه عسقلان وجعله مقدم العسكر فلم يقدر على استخلاص ما بأيدى الفرنجة من السواحل والمدن الشامية فقد كانوا استولوا الى هذا الحين على فلسطين ويافا وارسوف وقيسارية وحيفا وطبرية ولاذقية وانطاكية ما عدا بيت المقدس ولهم بالجزيرة الرها وسروج والرقة وقلعة جعبر وجبيل وعسقان من الشام وبيروت وطرابلس وبانياس وصيدا وكان السلطان بركيارق كلما سمع بفوز الفرنجة وأخذهم لبلاد المسلمين زادت همومه وعظم حزنه وجد فى حشد الجنود والاكثار من معدات القتال فاذا همّ بالخروج لحربهم عاقته العوائق وحالت دون عزمه الموانع وما زال حتى مرض وهو بأصبهان وثقل به مرضه فسار منها فى محفة طالبا بغداد فلما وصل الى بروجرد ضعف عن الحركة فأقام بها أربعين يوما فاشتد مرضه وأيس من نفسه فخلع الأمر على ولده ملكشاه وعمره يومئذ أربع سنين وثمانية أشهر وأحضر جماعة الامراء وكبار قواده وأعلمهم بما فعله وأخذ عليهم العهد بالطاعة لولده ومساعدته على حفظ السلطنة فحلفوا وتعهدوا فأمرهم بالمسير الى بغداد فساروا فلما كانوا على اثنى عشر فرسخا من بروجرد وصلهم خبر موته وكان بركيارق قد تخلف على عزم العود الى أصبهان فعاجلته منيته فرجع جماعة منهم وحملوا تابوته الى أصبهان ودفن بها * ووصل السلطان ملكشاه بن بركيارق الى بغداد فخرج وزير الخليفة وأصحاب الوظائف للقائه وكان وصوله فى خمسة آلاف فارس فخطبوا له ولقبوه بالقاب جده ملكشاه ولم تستقر به السلطنة حتى علم السلطان محمد أخو بركيارق بخبر موت بركيارق فسار فى جيش عظيم يريد بغداد وحمل الناس بها على البيعة له فلما وردت الاخبار بذلك الى الامير

اياز وزير ملكشاه الوصىّ عليه من قبل أبيه بركيارق خاف كثيرا وجمع اليه كبار الجند وقواد بركيارق وأعلمهم بخبر مجىء السلطان محمد ورغبته فى أخذ الملك من ابن أخيه ملكشاه واستحلفهم على الطاعة لملكشاه فخالفوا فلما وصل السلطان محمد فى عسكره ونزل بالجانب الغربى من بغداد نقض بعض القواد العهد وأظهروا الميل الى السلطان محمد فخاف الوزير اياز وأسرع الى تقرير الصلح مع السلطان محمد وتسليم السلطنة اليه وترك منازعته فيها فعبر الى عسكر السلطان محمد واجتمع به وسلم اليه مقاليد السلطنة فأمنه هو وجميع الامراء والقواد وضم اليه ولد أخيه ملكشاه ودخل السلطان محمد الى بغداد فى موكب حافل ولبث بها أياما حتى رتب أمورها وأحكم نظامها وسار عنها الى أصبهان وجعل يتصرف فى الامور ويقاتل الفرنجة على ما أخذوه من بلاد المسلمين حتى وافته منيته فى الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة احدى عشرة وخمسمائة * وكان لما اشتد به مرضه أحضر ولده محمودا وقبله وبكى كل واحد منهما وأمره بالخروج والجلوس على تخت السلطنة وأن ينظر فى أمور الناس وعمره اذ ذاك قد زاد على أربع عشرة سنة فقال يا أبت انه يوم غير مبارك يعنى من طريق النجوم فقال له صدقت يابنى ولكن على أبيك وأما عليك فمبارك بالسلطنة فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارين فلم يمض على السلطان محمد اليوم الثانى من جلوس ابنه حتى مات فجمعوا الامراء وقرئت عليهم وصيته الى ولده محمود يأمره فيها بالعدل والاحسان وكان السلطان محمد عادلا حسن السيرة شجاعا أطلق المكوس والضرائب فى جميع البلاد فأحبه الناس كثيرا واجتمعوا على طاعته اثنتى عشرة سنة

ولما تمت البيعة للسلطان محمود ودبر دولته الوزير الرئيس أبو منصور أرسل الى الخليفة المستظهر بالله يطلب أن يخطب له ببغداد فخطب له فى يوم الجمعة ثالث عشر المحرم سنة اثنتى عشرة وخمسمائة فلم يتم على الخليفة المستظهر بالله بعد الخطبة للسلطان محمود ببغداد الا ثلاثة أشهر وبضع أيام حتى مات بعلة التراقى وكان عمره احدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ومضى فى خلافته ثلاثة سلاطين خطب لهم بالحضرة وهم تاج الدولة تتش بن ألب ارسلان والسلطان بركيارق ومحمد ابنا ملكشاه * قال بعض الكتاب ومن غريب الاتفاق أنه لما توفى السلطان الب ارسلان توفى بعده القائم بأمر الله ولما توفى السلطان ملكشاه توفى بعده المقتدى بأمر الله ولما توفى السلطان محمد توفى بعده المستظهر بالله وكان الخليفة المستظهر بالله لين الجانب كريم الاخلاق محبا للخير وأهله كثير البر والاحسان لايرد مكرمة تطلب منه وكانت أيامه أيام سرور للرعية فكأنها من حسنها أعياد وكان حسن الخط جيد التوقيعات جيد الشعر فن شعره

أذاب حر الهوى فى القلب ما جمدا * لما مددت الى رسم الوداع يدا
وكيف أسلك نهج الاصطبار وقد * أرى طرائق فى مهوى الهوى قددا



قد أخلف الوعد لما أن شغفت به * من بعد ماقد وفى دهرى بما وعدا
ان كنت أنقض عهد الحب فى خلدى * من بعد هذا فلا عاينته أبدا

وكانت أيامه عند الرعية كأنها أعياد فكان اذا بلغه ذلك فرح به وسره واذا تعرض سلطان أو نائب الى أذى أحد بالغ فى الانكار والزجر عنه فلما مات ولى الخلافة بعده ولده أبو منصور الفضل ولقب المسترشد بالله

ومات فى خلافة المستظهر بالله أيضا زخرياس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ثمانيا وعشرين سنة صرفها فى الشدائد العظيمة والبلايا الكثيرة واعتقل ثلاثة أشهر وضربت عليه المغارم الفادحة وأخذت منه الاموال الكثيرة وأمر به يوما فألقى الى السباع هو وسوسنه النوبى فلم تضرهما باذن الله تعالى فأخذت السلطان بوشد اخافة من الخوف فصرفهما وانكف عنهما ورسم بالكف عن إيذاء النصارى فانكفوا عنهم حينا ولما مات خلا الكرسى بعده أربعة وسبعين يوما ثم أقيم بعده سانوتيو أوهو شنوده خامس ستهم من بلدة تليانة وكان راهبا بدير أبومقار وكان عالما كبيرا واماما خطيرا وله مناقب كثيرة ومكارم لاتعد ووقع من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل التاسع والعشرون)

(فى خلافة أبى منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر بالله)

ثم قام بالامر بعد المستظهر بالله ولده المسترشد بالله أبو الفضل بن أبى العباس أحمد بن المستظهر بالله بويع له بالخلافة يوم موت أبيه بعهد منه سنة احدى عشرة وخمسمائة هجرية أى سنة سبع عشرة ومائة وألف ميلادية وكان سن المسترشد يومئذ سبعا وعشرين سنة وبايعه أخواه ابنا المستظهر وهما أبو عبد الله محمد وأبو طالب العباس وعومته بنو المقتدى بأمر الله وغيرهم من القضاة والامراء والأئمة والاعيان وكان المتولى لاخذ البيعة القاضى أبوالحسن الدامغانى وكان نائبا عن الوزارة فأقره المسترشد بالله عليها * قال أصحاب التاريخ ولم يأخذ البيعة قاض غير هذا وأحمد بن أبى دواد فانه أخذها للواثق بالله والقاضى أبو علىّ اسمعيل بن اسحق أخذها للمعتضد بالله ثم ان المسترشد عزل قاضى القضاة عن نيابة الوزارة واستوزر أبا شجاع محمد بن الربيب أبا منصور وزير السلطان محمود ولما اشتغل الناس بالبيعة للمسترشد بالله ركب أخوه الامير أبوالحسن بن المستظهر بالله سفينة ومعه ثلاثة نفر وانحدر الى المدائن وسار منها الى دبيس بن صدقة بالحلة فأكرمه دبيس وأخبره بموت المستظهر بالله وأقام له الاقامات الكثيرة فلما علم المسترشد بالله خبره أهمه ذلك وأقلقه

وخشى

وخشي عاقبته فأرسل الى دبيس يطلب منه اعادة أبي الحسن ويشدد فى ذلك فأجابه بأنى عبد الخليفة وواقف عند أمره ومع هذا فان أبا الحسن استذم بى ودخل منزلى فكيف أكرهه على الرجوع وكان رسول المسترشد فى ذلك الى دبيس نقيب النقباء شرف الدين على ابن طراد الزينى فقصد الامير أبا الحسن وكلمه فى عوده وضمن له عن الخليفة كل ما يريد فأجاب الى العود وقال انى لم أفارق أخى لشر أراده وانما الخوف منه حملنى على مفارقته فاذا أمننى قصدته وتكفل دبيس باصلاح الحال بنفسه والمسير معه الى بغداد فعاد النقيب وأعلم الخليفة بالحال فأجاب الى ماطلب منه ثم حدث من الاسباب والرواجف ماأخر الحال وأقام الامير أبو الحسن عند دبيس الى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ثم سار عن الحلة الى واسط فانضم اليه كثير من الناس وكبر جمعه وأتت الاخبار الى الخليفة بذلك فتكدر جدا وركب الامير أبو الحسن على مدينة واسط فلكها وخيف جانبه فتقدم الخليفة المسترشد بالله بالخطبة لولى عهده ولده أبى جعفر المنصور وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة فخطب له ببغداد وكتب الى الآفاق بالخطبة له وأرسل الى دبيس بن مزيد فى معنى الامير أبى الحسن وانه الآن قد فارق جواره ومديده الى بلاد الخليفة وزاحمه على سلطانه وما يتعلق به ورسم اليه بقصده ومعاجلته قبل قوته فأرسل دبيس العساكر اليه ففارق واسط وقد تحير هو وأصحابه فضلوا عن الطريق ووصلت عساكر دبيس فصادفوهم عند الصلح فنهبوا أثقاله وهرب الاكراد من أصحابه والأتراك وعاد الباقون الى دبيس وبقى الامير أبو الحسن فى عشرة من أصحابه وهو عطشان وبينه وبين الماء خمسة فراسخ وكان الوقت قيظا فأيقن بالتلف وتبعه بدويان فأراد الهرب منهما فلم يقدر فأخذاه وقد اشتد به العطش فسقياه وحملاه الى دبيس فسيره الى بغداد وحمله الى الخليفة بعد أن بذل له عشرين ألف دينار فحمل الى دار العزيزة وكان بين خروجه عنها وعوده اليها أحد عشر شهرا

ولما أدخلوه على المسترشد بالله انكب على قدميه فقبلهما فقام المسترشد وقبله وبكيا وأنزله دارا حسنة كان يسكنها قبل أن يلى الخلافة وحمل اليه الخلع والتحف العظيمة وطيب نفسه فاطمأن وزالت عنه الوساوس وأخلص لاخيه المحبة وجعل المسترشد يتصرف فى الامور فلم تكد تستقر به الخلافة حتى خرج عليه دبيس وخلع طاعته فكانت بينهما حروب كثيرة خرج فى احداها الخليفة بنفسه ومعه العلماء والقضاة والمشايخ وهو متجمل بعمامة سوداء وجبة سوداء وشاش وعلى كتفه البردة وبيده القضيب وكان ينادى يا آل هاشم الغزاة الغزاة والعامة والعسكر ينادون يامنصور فانكشفت الحروب المذكورة عن هزيمة دبيس وموت أصحابه وعظم أمر الخليفة وظهرت كلمته وهابه الامراء وحسدوه وعظمت شوكة نوابه فاتفق أن وقعت بين نوابه وبين برنقش الزكوى نفرة وطالت أيامها فأرسل اليه الخليفة يتهدده ان هو أطال العناد معهم فخاف برنقش على نفسه وسار عن بغداد الى السلطان محمود بهمذان وشكا اليه مما يفعله نواب الخليفة وحذره جانب الخليفة وأعلمه أنه قد قاد



العسكر ولقى الحروب وقويت نفسه فان لم تعاجله قصد العراق ودخلها فيزداد قوة وجمعا ويمنعك عن نفسه وحينئذ يتعذر عليك ما هو الآن بيده فمال السلطان الى مقالته وسار نحو العراق وأشاع الخبر بذلك فأرسل الخليفة يعلمه بما عليه البلاد من الضعف والوهن بسبب غارات دبيس وافساد عسكره فيها وان الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والاقوات لهرب الاكرة عن بلادهم ويطلب منه أن يتأخر هذه الدفعة الى أن ينصلح حال البلاد ثم يعود اليها فلا مانع له عنها وبذل له على ذلك مالا كثيرا فلما سمع السلطان محمود هذه الرسالة قوى عنده ما قرره الزكوى برنقش وأبى أن يجيب الى التأخير وصمم العزم وسار اليها مجدا فلما بلغ الخليفة الخبر عبر هو وأهله وحرمه ومن عنده من أولاد الخلفاء الى الجانب الغربي مظهرا للغضب والانتزاح عن بغداد ان قصدها السلطان محمود فلما خرج من داره بكاه الناس بكاء عظيما فلما علم السلطان بذلك اشتد عليه وبلغ منه كل مبلغ فأرسل يستعطف الخليفة ويسأله العود الى داره فأعاد الجواب أنه لابد من عودك هذه الدفعة فان الناس هلكوا بشدة الغلاء وخراب البلاد وأنه لايرى فى دينه أنه يزداد مابهم وهو يشاهدهم فان عاد السلطان والارحل هو الى العراق كيلا يشاهد ما يلقى الناس بمجيء العسكر فغضب السلطان لقوله ورحل نحو بغداد وأقام الخليفة بالجانب الغربي فلما حضر عيد الاضحى خطب فى الناس وصلى بهم فبكى الناس لخطبته وأرسل عفيفا الخادم وهو من خواصه فى عسكر الى واسط ليمنع عنها نواب السلطان فأرسل السلطان اليه عماد الدين زنكي بن آقسنقر وكان له حينئذ البصرة فلما وصل عفيف الى واسط سار اليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالانتزاح عنها فأبى ولم يفعل فعبر اليه عماد الدين واقتتلوا فانهزم عسكر عفيف وقتل وأسر منهم خلق كثير وتغافل عن عفيف حتى نجا لمودة كانت بينهما * وجاء الخبر الى الخليفة بما جرى فجمع السفن جميعها اليه وسد أبواب دار الخلافة سوى الباب الغربي وأمر حاجب الباب ابن الصاحب بالمقام عليه لحفظ الدار ولم يبق من حواشى الخليفة بالجانب الشرقي سواه ووصل السلطان فى عسكره الى بغداد ونزل بباب الشماسية ودخل بعض عسكره الى بغداد ونزلوا فى دور الناس فشكا الناس ذلك الى السلطان فرسم باخراجهم وبقى فيها من له دار وبقى السلطان يراسل الخليفة بالعود ويطلب الصلح وهو يمتنع فكان يجرى بين العسكرين مناوشة والعامة من الجانب الغربي يسبون السلطان أفحش سب ثم ان جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة ونهبوا التاج وحجر الخليفة فضج أهل بغداد من ذلك واجتمعوا ونادوا الغزاة فأقبلوا من كل ناحية فلما رآهم الخليفة خرج من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه وأمر بضرب الكوسات والبوقات ونادى بأعلى صوته يال هاشم وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر الناس دفعة واحدة وكان له فى الدار ألف رجل مختفون فى السرادب فظهروا وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب فأسر منهم جماعة من الامراء ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الامراء ودار عز الدين المستوفى ودار الحكيم أوحد الزمان الطبيب وقتل منهم خلق

كثير فى الدروب وعبر الخليفة الى الجانب الشرقى ومعه ثلاثون ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد وأمر بحفر الخنادق فحفرت بالليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ووقع الغلاء عند العسكر واشتد الامر فكان القتال عليهم كل يوم عند أبواب البلد وعلى شاطئ دجلة وعزم عسكر الخليفة على أن يكبسوا عسكر السلطان فلم يتم لهم ذلك اذ غدر بهم أبو الهيجاء الكردى صاحب اربل وخرج كأنه يريد القتال فانضم الى عسكر السلطان وترك الخليفة وكان السلطان قد أرسل الى عماد الدين بواسط يأمره أن يحضر بنفسه ومعه المقاتلة فى السفن وعلى الدواب فى البر فجمع كل سفينة بالبصرة ليشحنها بالرجال المقاتلة وأكثر من السلاح وأصعد فلما قارب بغداد أمر كل من معه فى السفن وفى البر بلبس السلاح واظهار ما عندهم من الجلد والنهضة فسارت السفن فى الماء والعساكر فى البر على شاطئ دجلة وقد انتشروا وملؤا الارض برا وبحرا فرأى الناس منظرا عجيبا كبر فى أنفسهم وملأ صدورهم فركب السلطان والعسكر الى لقائهم فنظروا مالم ينظروا مثله وعظم عماد الدين فى أعينهم وعزم السلطان على قتال بغداد حينئذ والجد فى ذلك برا وبحرا فلما رأى الخليفة المسترشد بالله الامر على هذه الصورة وقد خرج الامير أبو الهيجاء من عنده بمن معه من العسكر خاف شر العاقبة وأجاب الى الصلح وترددت الرسل بينه وبين السلطان محمود فاصطلحا واعتذر السلطان مما جرى وكان السلطان حليما جدا يسمع سبه باذنه فلا يعاقب عليه فعفا عن أهل بغداد جميعهم ❊ وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان باحراق بغداد فلم يفعل وقال والله لاتساوى الدنيا مثل هذا الفعل وأقام ببغداد الى رابع شهر ربيع سنة احدى وعشرين وحمل الخليفة من المال كل ما استقرت القاعدة عليه وأهدى السلطان سلاحا وخيلا وغير ذلك واستمرت الأمور بين صفاء وكدر وخروج وعصيان لاتستقر على حال من الاحوال والخليفة المسترشد يعالجها بالصبر والكياسه ويلبس لكل أمر منها لبوسه لعل الله يأتيه بالفرج القريب

وكما كانت الحال على ذلك بين الخليفة والسلطان محمود كانت بين الآمر بأحكام الله صاحب مصر وبين أمرائه وقواده وجنوده وأهل البلاد اذ قد ساءت سيرته وقبح تصرفه وكثر أخذه الناس بالشبهات فجار وظلم وأراق الدماء بغير موجب ولا سبب فاختل نظام البلاد وعاث فيها المفسدون فى البر والبحر وسلبوا وقتلوا وأحرقوا وارتفع الامن وتعطلت الزراعات وكادت تقل الاقوات فاتفق جماعة على قتله وجعلوا يراقبون الفرص فلما كان اليوم الثانى من شهر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة علموا بعزمه على الخروج الى منتزهه بالروضة فكمنوا له فى الطريق فخرج فى ثلاثة من قومه فوثبوا عليه بالسيوف فأثخنوه وقيل ان الذين قتلوه هم الباطنية باغراء بعض قواده فكانت ولايته تسعا وعشرين سنة وخمسة أشهر وعمره أربع وثلاثون سنة وهو العاشر من ولد المهدى عبيد الله ❊ قال بعض الكتاب وكبر حبه فى آخر أيامه للنساء واشتد شغفه بهن فكان له معهن كل يوم شأن

وحكى له يوما عن جارية من عرب البادية وأنها من الجمال والكمال والرقة ومعرفة ضروب الشعر والأدب على جانب عظيم فشغف بحبها وحلا عشقه الى التزي بزي العرب وخرج يتنسم أخبار أهلها حتى نزل على حيهم وما زال يتحيل حتى رآها فأخذت بمجامع قلبه ووقعت منه موقعا عظيما فطلبها من أهلها فأجابوه الى زواجها فلما صارت فى قصره استوحشت فقالت له يوما مالى ولهذه القصور العالية فهلا أرجعتنى الى مضربى فتزيل عنى وحشتى قيل فبنى لها الهودج بالجزيرة على النيل وهو من غرائب البناء وكانت تحب ابن عم لها يعرف بابن مياح فكتبت له يوما هذه الأبيات

يا ابن مياح اليك المشتكى * مالكم من بعد كم قد ملكا
كنت فى حيى حرا مطلقا * نائلا ماشئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر موصد * لا أرى الا حبيسا ممسكا
كم تثنينا بأغصان اللوا * حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى * حيثما شاء طليق سلكا

فلما وصلت اليه هذه الابيات كتب يقول

بنت عمى والتى غذيتها * بالجوى حتى علا واحتنكا
بحت بالشكوى وعندى ضعفها * لو غدا ينفع منها المشتكى
مالك الامر اليه يشتكى * هالك وهو الذى قد أهلكا
شأن داود غدا فى عصرنا * مبديا بالتيه ماقد ملكا

فبلغت هذه الابيات الآمر فقال والله لولا انه أساء الادب فى البيت الرابع لرددتها الى حيه وزوجته بها

ولما قتل الآمر لم يكن له ولد بعده فظهر غلام أرمنى من غلمانه وتغلب على البلاد لاختلال الحال واستحوذ على الامور ثلاثة أيام ورام أن يتأمر فحضر الوزير أبو على أحمد ابن الافضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش وأقام الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن الامير أبى القاسم بن المستنصر بالله وبايعوه لينظر فى الامر نيابة حتى يكشف عن حمل كان للآمر فتكون الولاية فيه ويكون هو نائبا عنه فلما تم له الامر استحوذ الوزير أبو على على جميع الامور دونه وحصره فى مجلس لايدخل اليه أحد الا من يريده الوزير وخطب لنفسه على المنابر ونقل جميع الاموال من قصر الامارة الى داره وأسقط من الدعاء ذكر اسمعيل الذى هو جدّهم واليه تنسب الاسماعيلية وهو ابن جعفر بن محمد الصادق وأسقط من الآذان حى على خير العمل وأمر الخطباء أن يخطبوا له بألقاب كتبها لهم وهى السيد الافضل الاجل سيد مماليك أرباب الدول والمحامى عن حوزة الدين وناشر جناح العدل على المسلمين الاقربين والابعدين ناصر امام الحق فى حالتى غيبته وحضوره والقائم بنصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره أمين الله على عباده وهادى القضاة الى اتباع شرع الحق واعتماده ومرشد دعاة

المؤمنين

المؤمنين بواضح بيانه وارشاده مولى النعم ورافع الجور عن الأمم ومالك فضيلتى السيف والقلم أبو علىّ أحمد بن السيد الاجل الافضل شاهنشاه أمير الجيوش * قال أصحاب التاريخ وكان الافضل امامىّ المذهب يكثر ذم الآمر والتناقص به فنفر منه شيعة العلويين ومماليكهم وكرهوه وعزموا على قتله فخرج فى العشرين من المحرم سنة ست وعشرين يريد خزانة السلاح ليفرق على الاجناد على جارى العادة فى الاعياد فسار معه عالم كثير من الرجالة والفرسان فتأذى من الغبار فأمر بالبعد عنه وسار منفردا معه رجلان فصادف رجلين بسوق الصياقلة فضرباه بالسكاكين وجاء ثالث فضربه بسكين فى خاصرته فسقط عن دابته ورجع أصحابه فقتلوا الثلاثة وحملوه الى داره فدخل عليه الحافظ وتوجع له وسأله عن الأموال فقال أما الظاهر منها فأبو الحسن بن أسامة يعرفه وكان من أهل حلب وتولى أبوه قضاء القاهرة وأما الباطن فابن البطائحى يعرفه فقالا صدق فلما مات نقل من أمواله مالا يحصى عددا وبقى السلطان فى داره أربعين يوما والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلا ونهارا ووجد له من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة القليلة الوجود مالا يوجد مثله لغيره واعتقل أولاده وكان عمره سبعا وخمسين سنة وكانت ولايته بعد أبيه ثمانيا وعشرين سنة منها أيام المستنصر وجميع أيام المستعلى وأيام الآمر الى هذه السنة من أيام الحافظ * وكان الافضل المذكور حسن السيرة محبا للناس ميالا للخير عاملا على اعلاء شأن البلاد مجدا فى عمارها ونماء ثروتها فبنى فيها المبانى العظيمة والعمائر المفيدة ووسع خلجانها وأكثر مساقى أرضها وهو الذى حفر البحر المعروف ببحر أبى المنجا فى سنة ست وخمسمائة هجرية ونسباه باسم مهندسه أبو المنجا أبو شعيا اليهودى وأنشأ أيضا المرصد الكبير على مقربة من المقطم فى المكان الذى كان يعرف قبل ذلك بالجرف وله غير ذلك من الآثار النافعة * حكى انه لما قتل وظهر الظلم بعده اجتمع جماعة من الناس واستغاثوا بالسلطان وكان من جملة قولهم أنهم لعنوا الافضل بحضرة السلطان فسألهم عن سبب لعنهم اياه فقالوا عدل وأحسن السيرة ففارقنا بلادنا وأوطاننا وقصدنا بلاده لعدله فقد أصابنا بعده هذا الظلم فهو كان سبب ظلمنا قبل فأحسن السلطان اليهم وأمر بالاحسان الى الناس وكثرت الاقوال فى سبب قتل الافضل وقاتليه فقال قوم ان صاحبه الآمر بأحكام الله وضع عليه فقتله * قلت * وصوابه الحافظ لدين الله قالوا ولقد كان فى قصد الآمر أن يضع عليه من يقتله اذا دخل عليه قصره للسلام أو فى أيام الاعياد فمنعه من ذلك ابن عمه أبو الميمون عبد المجيد وقال له ان فى هذا الفعل شناعة وسوء سمعة لانه قد خدم دولتنا هو وأبوه خمسين سنة وليس منهم الا النصح لنا والمحبة لدولتنا وقد سار ذلك فى أقطار البلاد فلا يجوز أن تظهر منا هذه المكافأة الشنيعة ومع هذا فلابدّ وأن نقيم غيره مكانه ونعتمد عليه فى منصبه فيتمكن مثله أو يقاربه فيخاف أن نفعل به مثل ما فعلناه بهذا فيحذر من الدخول الينا خوفا على نفسه وان دخل علينا كان خائفا مستعدا للامتناع وفى هذا الفعل ما يسقط المنزلة قال والرأى عندى أن تراسل أبا عبد الله البطائحى

فانه الغالب على أمر الافضل والمطلع على سره وقصده أن يوليه منصبه ونطلب منه أن يدبر الامر فى قتله اذا ركب فاذا ظفرنا بمن قتله قتلناه وأظهرنا الطلب بدمه والحزن عليه فنبلغ غرضنا ويزول عنا قبح الاحدوثة ففعلوا ذلك وقتلوه وقال آخرون غير ذلك ۞ قلت ونسبة قتله الى الآمر بأحكام الله خطأ فان الآمر مات فى ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة والافضل قتل فى المحرم افتتاح سنة ست وعشرين وخمسمائة فيكون بين موت الاثنين سنة وشهران فيكون القاتل له اذا الحافظ لدين الله بن محمد ۞ ولما قتل ولى بعده أبو عبد الله بن البطائحى ولقب المأمون وتحكم فى الدولة وتصرّف واتسعت كلمته وبقى على ذلك الى سنة تسع عشرة وخمسمائة فقبض عليه وصلب هو واخوته واتسعت كلمة الحافظ بعد موت الافضل وتصرّف فى الامور واستبدّ بالملك فكثر ظلمه وكبر عسفه واشتدّ على الامراء والقوّاد شدّة عظيمة وأخذ الكثير منهم بالشبهات واشتدّ على النصارى وبالغ فى التضييق عليهم لأنهم كانوا يحبون الافضل بن بدر الجمالى وكان يتقربهم ويعمل بمشورة كبارهم لاخلاصهم فى خدمة الدولة وخلودهم الى السكون والطاعة وما زال على هذا الحال الى أن كان من أمره ماسيذكر فى محله

ولما كانت سنة تسع وعشرين وخمسمائة فى سابع عشر ذى القعدة مات الخليفة المسترشد بالله فكانت خلافته كلها خروج وعصيان وتمرّد وطغيان ولكنه كان شهما مقداما عالى الهمة واسع الدراية كبير الدربة قيل لم يل الخلافة بعد المعتضد بالله أعظم شهامة منه اذ كان شديد الهيبة وقد ضبط الامور وأحيا مجد بنى العباس وجاهد وغزا مرارا فكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وقيل سبعة أو ستة أشهر ۞ روى أنه ورد اليه رسل مجلس لهم فى جماعة من أهل بيته فلما أحضروهم بين يديه هجم عليه الفداوية منهم بالسكاكين فقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه يقال ان مسعودا أخا السلطان محمود جهز عليه الفداوية المذكورين ففعلوا به ذلك وعمره يومئذ أربع وأربعون سنة وقيل خمس وأربعون فبايعوا بالخلافة بعده ولده أبا منصور جعفرا الراشد بالله

ومات فى أيامه سانوتيو بطرك الاسكندرية بعد أن أقام أربع عشرة سنة قاسى فيها من الشدائد أعظمها وفعل العمال بالنصارى من الجور والظلم مالا يكاد يدخل تحت حصر فأقام المتأصلون بعده خرسطودولو ومعناه عبد المسيح وكان راهبا بصومعة سنجار وهو سادس ستيهم وأصله من بلدة بورا فلما استقر به المنصب قام من مدينة الاسكندرية الى مصر واتخذ كنيسة المعلقة بظاهر الفسطاط مقرا له وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل)

(الفصـــــل الثلاثون)

(فى خلافة أبى منصور جعفر الراشد بالله)

ثم قام بالامر بعد المسترشد بالله ابنه أبو منصور جعفر الراشد بالله بن المسترشد ابن المستظهر بويع له بالخلافة ثانى يوم موت أبيه فى ثامن عشر ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة هجريه أى سنة أربع وثلاثين ومائة وألف ميلادية بعهد من أبيه فجعل يتصرف فى الامور سنة فلما كانت سنة ثلاثين حضر برتقش الزكوى من عند السلطان مسعود الى بغداد يطالبه بما كان استقر عليه الخليفة المسترشد من المال الى السلطان وهو أربعمائة ألف دينار كما تقدم بيان ذلك فذكر الخليفة الراشد بالله أنه لا شئ عنده وأن المال جميعه كان مع المسترشد بالله فنهب أيام الفتنة فلم يقتنع برتقش بذلك وأعاد القول فراجعه الخليفة وترددت الرسل بينهما أياما ثم علم الراشد أن برتقش يريد الهجوم على دار الخلافة وتفتيشها وأخذ ما فيها من الأموال فجمع الخليفة العساكر لمنعها وأمر عليهم كبج آبه وأعاد عمارة السور الذى تهدم من الحوادث المترادفة فلما علم برتقش بذلك اتفق هو وبك آبه صاحب الشحنة ببغداد وأعلمه أن السلطان انما يريد أن يهجم على دار الخلافة فأحس الراشد بذلك واستعد لمنعهم وركب برتقش ومعه العساكر والامراء البكجية ومحمد بن عسكر فى نحو خمسة آلاف فارس ولقيهم عسكر الخليفة فاقتتلوا قتالا شديدا فأخرجوا عسكر السلطان الى دار السلطان فساروا الى طريق خراسان ثم انحدر بك آبه الى واسط وسار برتقش الى البندنجيين فنهب العامة دار السلطان ولم يبقوا فيها شيأ فاشتدت العداوة بين الخليفة وبين السلطان وعظمت الفتنة وكبر الامر على السلطان واستخدم الخليفة الراشد جندا كثيرا وأكثر من جمع السلاح ومعدات الحرب وتهيأ للقاء السلطان مسعود فلما جاء الخبر الى السلطان باستعداد الراشد كاتب أتابك زنكى واستماله وكذلك فعل ببرتقش فأشار أصحاب الراشد عليه بالتوقف فأقبل السلطان مسعود بجيوشه ودخل بغداد فى ذى القعدة وقيل فى ذى الحجة سنة ثلاثين فنهب دور الجند ومنع من نهب البلد واستمال الرعية اليه وأحضر القضاة والشهود فقدموا فى الخليفة الراشد بأنه صدرت عنه سيرة قبيحة من سفك الدماء المحرمة وارتكاب المنكرات وفعل مالا يجوز فعله وشهدوا عليه بذلك فحكم قاضى القضاة وهو يومئذ ابن الكرخى بخلعه فخلعوه لاربع عشرة من ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة وكان الراشد لما دخل السلطان الى بغداد ونهب عسكره الدور هرب فى قليل من خواصه ومعه أتابك زنكى الى الموصل فطلبه السلطان مسعود فهرب الى فارس ثم دخل الى اصفهان فحاصرها ومرض هناك فدخل عليه جماعة من الفداوية

فقتلوه وله احدى وعشرون سنة وقيل ثلاثون سنة ووردت الأخبار بموته الى بغداد فجلسوا للعزاء به فى دار النوبة يوما واحدا فكانت خلافته أحد عشر شهرا وأحد عشر يوما

ولما خلع الخليفة الراشد على هذه الصورة وانقطعت خطبته فى بغداد وجميع أعمالها استشار السلطان مسعود جماعة من أعيان بغداد منهم الوزير على بن طراد وصاحب المخزن وغيرهما فيمن يصلح أن يلى الخلافة فقال الوزير أحد عمومة الراشد وهو رجل صالح قال من هو قال من لا أقدر أن أفصح باسمه لئلا يقتل ثم ذكر للسلطان أبا عبد الله الحسين وقيل محمد ابن المستظهر بالله ودينه وعقله وعفته ولين جانبه فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الزينبى وصاحب المخزن ابن القشلانى وغيرهما وأمر باحضار الأمير أبى عبد الله بن المستظهر من المكان الذى كان يسكنه فأحضر وأجلس فى المثمنة ودخل السلطان اليه والوزير وتحالفا وقرر الوزير القواعد بينهما وخرج السلطان من عنده وحضر الامراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوه ثامن عشر ذى الحجة سنة ثلاثين وخمسمائة ولقب المقتفى لامر الله كما سيذكر فى محله

(الفصل الحادى والثلاثون)

(فى خلافة أبى عبد الله محمد المقتفى لأمر الله)

ثم قام بالامر بعد الراشد عمه أبو عبد الله بن محمد ولقب المقتفى لامر الله بن محمد المستظهر ابن المقتدى وبويع له يوم خلع ابن عمه وهو الرابع عشر من ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة هجرية أى سنة خمس وثلاثين ومائة وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة أرسل اليه ابن عمه الراشد رسولا من الموصل مع رسول الاتابك زنكى وهو كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزورى فأحضروه فى الديوان وسمعت رسالته عن الراشد بالله فى أمر خلع بيعته وقرروا ذلك بحضرة القضاة والشهود ثم سيرت الكتب بخلافته الى الآفاق واستوزر شرف الدين على بن طراد الزينبى ابن عم الوزير وأعاده الى منصبه وقرر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه صاحب المخزن • قال بعض الكتاب فجرت الامور على أحسن نظام وأرسل السلطان مسعود بعد قليل الى الخليفة المقتفى لأمر الله فى تقرير اقطاع ليكون لخاصته فكان جوابه ان فى الدار يعنى دار الخلافة ثمانين بغلة تنقل الماء من دجلة فلينظر السلطان ما يحتاج اليه من يشرب هذا الماء ويقوم به فترددت الرسل فى ذلك بينهما وطال الكلام أياما كثيرة كادت تتكدر الخواطر فى خلالها وما زالوا حتى تقررت القاعدة بينهما على أن يجعل له ما كان للمستظهر بالله من الاقطاع فأجاب الخليفة الى ذلك وقال السلطان لما

بلغه

بلغه قوله لقد جعلنا فى الخلافة رجلا عظيما * قلت * وهو قول يدل على زوال ما كان باقيا الى هذا الحين من بأس الخلافة وأنها صارت تحت كلة السلطنة خاضعة لامرها

وجاءت الاخبار الى الحافظ العلوى بمصر بخلافة المقتفى بالله فلم تهمه لاشتغاله بالفتنة القائمة بالقاهرة بسبب خروج وزيره تاج الدولة بهرام النصرانى الارمنى وذلك أنه لما استوزره فى سنة تسع وعشرين وخمسمائة تمكن فى البلاد واتسعت كلته وغلب على الحافظ واستعمل الارمن وعزل المسلمين وأساء السيرة فيهم وأهانهم هو والارمن الذين ولاهم وطمعوا فيهم ولم يكن من أهل مصر من تحركه الغيرة ولا تأخذه النخوة سوى الأمير رضوان بن الرحيقى فانه لما ساءه فعل الوزير وأقلقه جمع جمعا كثيرا وقصد القاهرة فسمع به بهرام الوزير فخاف وهرب الى الصعيد بغير قتال ولا حرب وقصد مدينة اسوان فمنعه واليها من الدخول اليها وقاتله وقتل السودان من الارمن أصحابه كثيرا فلما لم يقدر على الدخول الى اسوان أرسل الى الحافظ يطلب الامان فأمنه فعاد الى القاهرة فسجن بالقصر فبقى مدة ثم لبس زى الرهبنة وترهب ولحق بأحد الديارات واستوزر الحافظ الامير رضوان المذكور ولقبه بالملك الافضل فكان أول وزير للمصريين لقب بالملك فجعل يتصرّف فى الامور واتسعت كلته وكاد يتغلب على الحافظ ثم فسد ما بينه وبين الحافظ فعمل الحافظ على اخراجه فثار الناس عليه منتصف شوال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة فهرب من داره وتركها بما فيها فنهب الناس منها مالا يعد ولا يحصى وركب الحافظ فسكن الناس واختفى النهابون ونقل مابقى فى دار رضوان الى قصره وسار رضوان الى الشام يستنجد بالاتراك ويستنصرهم فأرسل اليه الحافظ الامير ابن مصال لبردّه بالامان والعهد أن لا يؤذيه فرجع الى القاهرة فحبسه الحافظ عنده فى القصر * وفى رواية أنه سار الى الشام وقصد صرخد فوصل اليها فى ذى القعدة ونزل على صاحبها أمين الدولة كمشتكين فأكرمه وعظمه وأقام عنده ثم سار الى مصر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ومعه جيش عظيم فقاتل المصريين عند باب النصر فهزمهم وقتل منهم جماعة كثيرة وأقام على الباب المذكور ثلاثة أيام فتفرّق منه كثير ممن كان معه فخشى العاقبة وعزم على العود الى الشام فأرسل اليه الحافظ الامير ابن مصال فرده وحبسه فى القصر وجمع بينه وبين عياله وأهله فأقام فى القصر الى سنة ثلاث وأربعين فنقب الحبس وخرج منه وقد أعدّت له خيل فهرب عليها وعبر النيل الى الجيزة فاجتمع عليه كثير من المغاربة وغيرهم فحشد منهم جمعا كبيرا وعاد الى القاهرة فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون وهزمهم ودخل القاهرة فنزل عند جامع الاقمر وأرسل الى الحافظ يطلب منه مالا ليفرّقه على عادتهم فانهم كانوا اذا وزروا وزيرا أرسلوا اليه عشرين ألف دينار ليفرقها فأرسل الحافظ اليه عشرين ألف دينار فقسمها وكثر عليه الناس فطلب زيادة فأرسل اليه الحافظ عشرين ألف دينار ففرّقها فتفرّق الناس وخفوا عنه وبقى هو فى قلة من أصحابه واذا الصوت قد وقع وعلت الضوضاء وخرج اليه جمع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه فحملوا على غلمانه فقتلوهم

وأعملوا السيف فيمن معه من المغاربة فقدم اليه بعض أصحابه الفرس ليركبه فلما أراد ركوبه ضرب الرجل رأسه بالسيف فقتله وحمل رأسه الى الحافظ فأرسله الى زوجته فوضع فى حجرها فألقت به وقالت هكذا يكون الرجال * ولم يستوزر الحافظ أحدا بعد موت رضوان وباشر الامور بنفسه وما زال يتصرف والامور طوع يده تارة وخارجة عنه أخرى حتى وافته منيته فى جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة هجرية فكانت سلطنته عشرين سنة الا خمسة أشهر وعمره نحوا من سبع وسبعين سنة ولم يزل فى جميعها محكوما عليه مغلوبا على أمره لا كلمة له وانما الكلمة لوزرائه حتى انه جعل ابنه حسنا وزيره وولى عهده ليتخلص بذلك من أسر الوزراء وتغلبهم عليه فلم يفلح اذ حكم عليه ابنه المذكور واستبد بالامر دونه وتجبر وظلم وقتل كثيرا من أمراء دولته وصادر الكثير منهم فكبر ذلك على الحافظ واستعظمه جدا فسقاه سما فمات * قال أصحاب التاريخ ولم يل الامر من العلويين من أبوه غير خليفة غير الحافظ والعاضد ۞ ولما مات الحافظ ولى الامر بعده ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور اسمعيل بن عبد المجيد الحافظ فاستوزر ابن مصال فلبث أربعين يوما يدبر الامر واتفق بعد ذلك أن خرج جماعة من السودان عن الطاعة فعاثوا وأفسدوا وعظم شرهم فخرج ابن مصال لقتالهم وردعهم فلما علم العادل بن السلار وهو بالاسكندرية بخروج ابن مصال سار الى القاهرة ونازعه فى الوزارة حتى تولاها وتمكن منها ثم سير ربيبه عباس بن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى فى عسكر لقتال ابن مصال فظفر به وقتله وعاد الى القاهرة واستقر العادل وتمكن وعلت كلمته فلم يبق للسلطان معه حكم واشتد على الامراء وأخذ بأسباب الحزم وبالغ فى التجلد فلم يغن هذا كله شيأ اذ كثر الاختلال واشتد وهن الدولة وتطاولت أيدى الطامعين الى أملاكها فأخذ الفرنجة فى أيامه عسقلان وجاءت مراكبهم الى دمياط فقاتلوا تنيس وحاصروها وضيقوا عليها أياما كثيرة ثم انصرفوا عنها وأخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبق وما زال ابن العادل يتصرف الى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فقام عليه عباس بن أبى الفتوح بن يحيى الصنهاجى فقتله باغراء الأمير أسامة بن منقذ ووافقه على ذلك الظافر بالله وولى الوزارة بعده فكانت الوزارة فى مصر لمن غلب والعلويون وراء الحجاب والوزراء كالمتملكين لا كلمة فوق كلمتهم * قال أصحاب التاريخ وقل أن ولى الوزارة أحد بعد الأفضل أمير الجيوش الا بحرب وقتل وما شابه ذلك

وتمكن عباس من الدولة وبسط يده على الأمور وعزل وولى وجمع الأموال وهادته الامراء وخضعت اليه العمال فى جميع الجهات وكان الامراء والاجناد يعلمون أنه انما ارتقى منصب الوزارة بفعل الامير أسامة بن منقذ حيث أغراه على قتل العادل كما تقدم فعزموا على قتل ابن منقذ وصاروا يراقبون الفرص فلما أحس ابن منقذ بما عزموا عليه خاف على نفسه وأخذ يدبر الحيلة فى فساد أمرهم فخلا بعباس وقال له كيف تصبر على

ما أسمع من قبيح القول قال وما ذاك قال الناس يزعمون ان الظافر يواصل ابنك نصرا وكان
نصر خصيصا للظافر وكان ملازما له ليله ونهاره وكان من أجمل الناس صورة وكان الظافر
يتهم به فانزعج لذلك عباس وعظم عليه وقال كيف الحيلة قال تقتله فيذهب عنا العار فذكر
الحال لولده نصر فاتفقا على قتله * وفى رواية أخرى أن الظافر أقطع نصر بن عباس المذكور
قرية قليوب وهى من أعظم قرى مصر يومئذ فدخل عليه مؤيد الدولة بن منقذ وهو عند أبيه
عباس فقال له نصر قد أقطعنى مولانا قرية قليوب فقال له مؤيد الدولة ما هى فى مهرك
بكثير فعظم عليه وعلى أبيه وأنف من هذا الحال وشرع أبوه عباس فى قتل الظافر وأمر ابنه
بذلك فحضر نصر عند الظافر يوما وقال أشتهى أن تجىء الى دارى لدعوة صنعتها ولا تكثر
من الجمع فمشى معه فى نفر يسير من الخدم ليلا فلما دخل الدار قتله ومن معه وأفلت خويدم
صغير اختبأ فلم يره ودفن القتلى فى داره وأخبر أباه عباسا بالخبر فبكر الى القصر وطلب
من الخدم المخصيين بخدمة الظافر أن يطلبوا له اذنا فى الدخول عليه لامر يريد أن يأخذ
رأيه فيه فقالوا انه ليس فى القصر فقال لابد منه وكان غرضه أن ينفى التهمة عنه بقتله وان
يقتل كل من بالقصر ممن يخاف أن ينازعه فيمن يقيمه فى السلطنة فلما ألح عليهم عجزوا عن
احضاره فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لايدرون ماالخبر اذ دخل عليهم الخويدم الصغير
الذى شاهد قتله وقد هرب من دار العباس عند غفلتهم عنه وأخبرهم بقتل الظافر فخرجوا الى
عباس وقالوا له سل ولدك عنه فانه يعرف أين هو لانهما خرجا جميعا فلما سمع ذلك منهم قال
أريد أن أستعرض القصر لئلا يكون قد اغتاله أحد من أهله فاستعرض القصر فقتل أخوين
للظافر وهما يوسف وجبريل وأجلس الفائز بنصر الله أبا القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله
اسمعيل ثانى يوم قتل أبيه وله من العمر خمس سنين فحمله عباس على كتفه وأجلسه
على سرير الملك وبايع له الناس وأخذ عباس يومئذ من القصر من الاموال والجواهر
والاعلاق النفيسة ماأراد ولم يترك فيه الا مالا خير فيه * وظن عباس بعد قتله للظافر واقامة
ابنه الفائز أن الامر يتم له على مايريد فكان الحال خلاف مااعتقده فان الكلمة اختلفت
عليه وثارت به طوائف الجند من الاتراك والسودان فكان اذا أمر أمرا لايلتفت اليه ولايسمع
له قول فزالت هيبته وانحطت مرتبته فى أعين الرعية فأرسل من بالقصر من النساء والخدم
الى الصالح طلائع بن رزيك وهو يومئذ فى منية ابن خصيب بالصعيد واليا عليها وعلى أعمالها
ولم تكن يومئذ من الاعمال الجليلة ولكنها كانت أقرب الاعمال اليهم يشكون ماحل بهم من
عباس وكان فى ابن رزيك شهامة فجمع جيشا عظيما وانحدر يريد قتال عباس فلما سمع عباس
ذلك خرج من مصر الى الشام بما معه من الاموال التى لاتحصى كثرة ومن التحف والاشياء التى
لاتوجد الاعنالك مما كان قد أخذه من القصر فلما سار وقع به عسكر الفرنجة فى الطريق فقتلوه
وأخذوا جميع ماكان معه وسار الصالح صاحب منية ابن خصيب فدخل القاهرة باعلام سود
وثياب سود حزنا على الظافر والشعور التى أرسلت اليه من نساء القصر على رؤس الرماح فخلع

عليه خلع الوزارة واستقر له منصبها وأحضر الخويدم الذى شاهد قتل الظافر فأراه موضع دفنه فأخرجه ونقله الى مقابرهم بالقصر ولما قتل الفرنجة عباسا وأخذوا ما معه من الاموال وغيرها أسروا ابنه فأرسل الصالح الى الفرنجة وبذل لهم مالا وأخذه منهم فسار من الشام مع أصحاب الصالح ولم يكلم أحدا منهم كلمة واحدة الى أن رأى القاهرة فأنشد

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود العواثر

فأدخلوه القصر ثم أخرج بعد أيام ميتا وصلب على باب زويلة واستقصى الصالح بيوت الكبار والاعيان بالديار المصرية فقبض على أهلها وأخذ أموالهم وأبعدهم عن ديارهم فمنهم من هلك ومنهم من تفرق فى البلاد ومنهم من نزح الى الحجاز واليمن وغيرهما * قال بعض الكتاب وكان دخول الملك الصالح الى القاهرة بالاعلام السود والثياب السود من الفأل العجيب فانه لم يمض سوى خمسة عشر عاما حتى دخلت القاهرة الاعلام السود العباسية وأزالت الاعلام العلوية ولم يزل الفائز بنصر الله لا كلمة له والحكم للصالح بن رزيك الوزير حتى مات الفائز فى صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة وعمره احدى عشرة سنة فكانت سلطنته ست سنين ونحو شهرين فلما مات دخل الصالح بن رزيك القصر واستدعى خادما كبيرا وقال له من ههنا يصلح للخلافة فقال ههنا جماعة وذكر أسماءهم وذكر له منهم انسانا كبير السن فأمر باحضاره فقال له بعض أصحابه سرا لا يكون عباس الوزير أحزم منك حيث اختار الصغير للخلافة وترك الكبار واستبد بالامر فأعاد الصالح الرجل الى موضعه وأمر حينئذ باحضار العاضد لدين الله أبى محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولم يكن أبوه خليفة وكان العاضد يومئذ مراهقا قارب البلوغ فبايع له وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز مالا يسمع بمثله

وكما كانت أمور السلطنة فى مصر فى اختلال وأحوالها فى اعتلال بسبب الفتن والخطوب المتراكمة المترتبة على فعال الطامعين فى منصب الوزارة فكذلك كانت أحوال الخلافة ببغداد الى هذا الحين اذ ظهرت الفتن وعمت الاحن وقامت الحروب فى كل الجهات على ساقها واشتدت وطالت أيامها فاختل نظام الامور وتعذر تدبير الجمهور وعاث أصحاب الفساد فقتلوا ونهبوا وفعلوا مالا خير فيه وكان من الحوادث أيضا فى تلك الايام أن زاد دجلة الى حد لم يسبق له مثال نخرق القوارج فوق بغداد وأقبل المد الى البلد فامتلأت الصحارى وخندق البلد وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة فوقع بعض السور عليها فسدها ثم فتح الماء فتحة أخرى وأهملوها ظنا أنها تنفس عن السور لئلا يقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق كثير من الدروب والحارات ودب الماء تحت الارض الى الكثير من الاماكن فوقعت وأخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربى فبلغت أجرة المعبرة عدة دنانير ولم يكن يقدر عليها لما أصاب الناس ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى بداخل السور يدب حتى كثر الخراب وبقيت المحال لا تعرف وانما هى تلول وقد غرق أيضا بالجانب الغربى من دجلة جميع المقابر وانخسفت وخرج الموتى على سطح الماء فكان أمرا عظيما جدا لم يسبق له مثيل فيما غبر

ولما

ولما كانت سنة أربع وخمسين وخمسمائة مرض الخليفة المقتفي لامر الله واشتد مرضه وخاف الناس عليه ثم عوفي فضربت البشائر ببغداد وفرقت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدولة وغلقت الحوانيت أسبوعا وعم الفرح جميع الاهالي ثم لم يلبث أن عاوده المرض في سنة خمس وخمسين فمات في ثاني ربيع الاول بعلة التراقي وهو ابن ست وستين سنة فكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وقيل أربعا وعشرين وثلاثة أشهر وستة عشر يوما وقيل خمسا وعشرين سنة وكان شهما كريما حليما حسن السيرة ذا رأي وتدبير وهو أول من استبد بالحكم منفردا عن السلطان بالعراق من أول يوم الديلم الى موته وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر الى الآن الا الخليفة المعتضد وكان شجاعا مقداما مباشرا للحروب بنفسه وكان يبذل الاموال الجليلة لاصحاب الاخبار في جميع البلاد حتى كان لايفوته منها شئ وقد عمل لنفسه من العقيق تابوتا دفن فيه ❁ ولما مات ولي الخلافة بعده أبو المظفر يوسف المستنجد بالله

(الفصل الثاني والثلاثون)

(في خلافة أبي المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفي لامر الله)

ثم قام بالامر بعد المقتفي لامر الله ابنه أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفي لامر الله وقد كان أبوه ولاه العهد في سنة سبع وأربعين وخمسمائة فبويع له بالخلافة بعد موت أبيه بيوم وقيل بل يوم موت أبيه سنة خمس وخمسين وخمسمائة هجرية أي سنة ستين ومائة وألف ميلادية وكان للمقتفي حظية هي أم ولده أبي علي وكانت تكره أبا المظفر وتتمنى تسليم الامر لولدها أبي علي فلما اشتد مرض المقتفي وأيست منه أرسلت الى جماعة من الامراء وبذلت لهم الاقطاعات الكثيرة والاموال الجزيلة ليساعدوها على أن يكون ولدها خليفة فقالوا وكيف الحيلة مع ولي العهد فقالت اذا دخل على أبيه قبضت عليه وكان يدخل الى أبيه كل يوم فقالوا لابد لنا من أحد من أرباب الدولة فوقع اختيارهم على أبي المعالي ابن الكيا الهراسي فدعوه الى ذلك فأجابهم على أن يكون وزيرا فقبلوا ما طلب فلما استقرت القاعدة بينهم وعلمت أم أبي علي أحضرت عدة من الجواري وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولي العهد المستنجد بالله وكان للمستنجد خصي صغير يرسله كل وقت يتعرف أخبار أبيه فرأى الجواري بأيديهن السكاكين ورأى بيد أبي علي وأمه سيفين فعاد الى المستنجد فأخبره وأرسلت هي الى المستنجد تقول ان والدك حضره الموت فاحضر لتشاهده فاستدعى




استاذ دار عضد الدولة وأخذه معه هو وجماعة من الفراشين ودخل الدار وقد لبس الدروع وأخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجوارى فضرب واحدة منهن بجرحها وكذلك أخرى وصاح فدخل استاذ الدار ومعه الفراشون فهرب الجوارى فأخذ أخاه أبا على وأمه فحبسهما وأخذ الجوارى فقتل منهن وأغرق

وجلس المستنجد للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه أبو طالب ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفى وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير بن هبيرة وقاضى القضاة وأرباب الدولة والعلماء وخطب له يوم الجمعة ونثرت الدنانير والدراهم ولما استقرت به الخلافة أقر ابن هبيرة على وزارته وأصحاب الولايات على ولاياتهم وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضى ابن مزاحم وبئس الحاكم هو وأخذ منه مالا كثيرا وأخذ كتبه فأحرق منها فى الرحبة ما كان من علوم الفلسفة فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب اخوان الصفا وما يشاكلهما وقدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء فكان أستاذ الدار ومكنه وتقدم الى الوزير أن يقوم له تعظيما وعزل قاضى القضاة أبا الحسن على بن أحمد الدامغانى وأقام مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفى وخلع عليه وأدناه منه ❁ ووردت الاخبار الى مصر بخلافة المستنجد وموت المقتفى فلم يلتفت اليها الملك الصالح بن رزيك وزير العاضد لدين الله وأهملها كاهماله لغيرها من بقية الامور واشتغاله بالتحكم فى دولة العاضد واستبداده بالامر والنهى وجباية الاموال وعزله الولاة والعمال وتبعيده كل من كان يخشى من وثوبه حتى أبغضه الامراء والعامة وحرم القصر وتمنوا موته والخلاص من شره فأرسلت عمة العاضد لدين الله الاموال الى بعض الامراء ودعتهم الى قتله وكان أشدهم عليه فى ذلك انسان يقال له ابن الداعى فاتفقوا على قتله ووقفوا له يوما فى دهليز القصر فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش منه فجرحوه جراحات مهلكة وحمل الى داره وفيه رمق فأرسل الى العاضد لدين الله يعاتبه على الرضا بقتله فأقسم العاضد أنه لا يعلم بذلك ولم يرض به فقال ان كنت لم ترض به و بريئا منه فسلم عمتك الىّ حتى أنتقم منها فرسم بتسليمها اليه فأخذها قهرا وقتلها ووصى بالوزارة من بعده لولده رزيك ولقب العادل فانتقل الامر اليه بعد أبيه ❁ قال أصحاب التاريخ وكان الصالح المذكور كريما فيه أدب وله أشعار حسنة بليغة تدل على فضل غزير فنها فى الافتخار

أبى الله الا أن يدوم لنا الدهر ❁ ويخدمنا فى ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المال تفنى ألوفه ❁ ويبقى لنا من بعده الاجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا ❁ سحاب لديه البرق والرعد والقطر
قرانا اذا رحنا الى الحرب مرة ❁ قرانا ومن أضيافنا الذئب والنسر
كما أننا فى السلم نبذل جودنا ❁ ويرتع فى انعامنا العبد والحر

وكان لاهل العلم عنده منزلة ويرسل اليهم العطايا الكثيرة وكان اماميا لم يكن على مذهب

العلويين

العلويين المصريين * وكان شديد المغالاة فى التشيع صنف كتابا فيه الرد على أهل الفساد جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو يتضمن امامة على بن أبى طالب والبحث فى الاحاديث الواردة فى ذلك ومن شعره فى التدين هذه الابيات

يا أمة سلكت ضلالا بينا * حتى استوى اقرارها وجحودها
ملتم الى أن المعاصى لم تكن * الا بتقدير الاله وجودها
لو صح ذا كان الاله بزعمكم * منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون الهنا * ينهى عن الفحشاء ثم يريدها

قالوا ولما ولى العاضد الخلافة وركب سمع الصالح ضجة عظيمة فقال ما الخبر فقيل انهم يفرحون بالخليفة فقال كانى بهؤلاء الجهلاء وهم يقولون ما مات الاول حتى استخلف هذا وما علموا أننى كنت فى ساعة أستعرضهم استعراض الغنم وقال عمارة دخلت الى الصالح قبل قتله بثلاثة أيام فناولنى قرطاسا فيه بيتان من شعر وهما

نحن فى غفلة ونوم وللمو * ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا الى الحمام سنينا * ليت شعرى متى يكون الحمام

قال فكان آخر عهدى به * وقال عمارة أيضا ومن عجيب الاتفاق أننى أنشدت ابنه قصيدة أقول فيها

أبوك الذى تسطو الليالى بحده * وأنت يمين ان سطا وشمال
لرتبته العظمى وان طال عمره * اليك مصير واجب ومآل
تخالسك اللحظ المصون ودونها * حجاب شريف لا انقضا وحجال

قال فانتقل الأمر اليه بعد ثلاثة أيام * وكان من جملة وصية الصالح لولده العادل عند ما أشرف على التلف أن لا يغير على شاور والى الصعيد قال فاننى أنا أقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكنى خلعه فلا تغيروا ما به فيكون لكم منه ما تكرهون * وشاور هذا تركى الاصل جاء الى مصر ودخل فى خدمة الصالح بن رزيك ولازمه فأقبل عليه الصالح وولاه الصعيد وهو أكبر الاعمال يومئذ بعد الوزارة * فلما استقر به المنصب ظهرت منه كفاءة عظيمة وتقدم زائد واستمال لنفسه الرعية والمقدمين من العربان وغيرهم فعسر أمره على الصالح ولم يمكنه بعد ذلك خلعه فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته فلما ولى العادل الوزارة مكان أبيه الصالح حسن له أهله عزل شاور المذكور واستعمال بعضهم مكانه وخوفوه منه ان أقره على عمله فأرسل اليه بالعزل وخالف وصية الصالح فجمع شاور عند ذلك جموعا كثيرة وانحدر بهم الى القاهرة فهرب العادل بن الصالح بن رزيك فلحقه شاور وأخذه وقتله فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله سبع سنين وشهرا وأياما وتولى شاور منصب الوزارة ولقب بامير الجيوش واستولى على جميع أموال بنى رزيك وودائعهم وخزائنهم وأخذ منها أيضا طيا والكامل ابنا شاور شيأ كثيرا وأنكر ما أخذاه * قال

بعض الكتاب ثم ظهر عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين الى الاتراك ولم يلبث شاور فى منصب الوزارة طويلا حتى ظهر الضرغام فى جموع كثيرة للغاية وأخذ ينازع شاور فى الوزارة وظهر أمره وعلت كلمته وطال نزاعه فانهزم شاور منه الى الشام فتولى ضرغام منصب الوزارة وأمر ونهى فكان فى هذه الدولة ثلاثة وزراء العادل بن شريك وشاور صاحب الصعيد وضرغام هذا كان أحد كبار الامراء البرقية الذين أقامهم الملك الصالح ابن رزيك على عهد وزارته ويقال له ضرغام أبى الاشبال وهو يومئذ حاجب الباب فلما تمكن ضرغام هذا من الوزارة قتل الكثير من الامراء المصريين لتخلوله البلاد من المنازعين وأكثر من الأخذ بالشبهات فضعفت لذلك الدولة وانحطت شهرتها وزالت هيبتها وطمع فى أخذها الطامعون فخرجت بعد ذلك من أيديهم كما سيتلى عليك فى محله ۞ أما شاور فانه لما وصل الى الشام التجأ الى صاحبها نور الدين محمد بن زنكى واستجاربه وشكا ما حل به من ضرغام فأكرم نور الدين مثواه وأحسن اليه وأنعم عليه وكان وصوله فى ربيع الاول من السنة أى سنة تسع وخمسين وخمسمائة وطلب من نور الدين أن يرسل معه عسكرا الى مصر ليعود الى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العسكر ويكون شيركوه ابن شادى مقدم العسكر التى تصحبه مقيما بعسكره فى مصر ويتصرف له بأمر نور الدين واختياره فبقى نور الدين يقدم الى هذا الغرض رجلا ويؤخر أخرى فتارة تحمله رغبات قصد شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفرنجة وتارة يمنعه خطر الطريق وان الفرنجة فيه وكذلك تخوف من ابن شاور ان استقرت قاعدته ربما لا يفى له ثم قوى عزمه على ارسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وازاحة عللها وكان هوى أسد الدين فى ذلك وميله شديدا الى المسير الى مصر وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالى معه بمخافة فجهز جيشا جرارا وجعل عليه الامير أسد الدين شيركوه المذكور وهو مقدم عسكره وأكبر أمراء دولته وأتبعهم وساروا وشاور فى صحبتهم وذلك فى جمادى الاولى سنة تسع وخمسين وتقدم نور الدين الى شيركوه بن شادى بان يعيد شاور الى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه وسار نور الدين الى طرف بلاد الفرنجة مما يلى دمشق بعسكره ليمنع الفرنجة من التعرض لاسد الدين شيركوه ومن معه فوصل أسد الدين والعساكر الذين معه الى مدينة بلبيس فخرج ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر من مصر ولقيهم فاقتتلوا فانهزم ناصر الدين وعاد الى القاهرة خاسرا ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة أواخر جمادى الآخرة فخرج ضرغام من القاهرة سلخ الشهر لقتال أسد الدين فقتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقى يومين ثم حمل ودفن بالقرافة وقتل أخوه فارس المسلمين فلما تم الظفر لأسد الدين خلع على شاور مستهل رجب وأعاده الى الوزارة وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ينتظر وفاء ما قرره شاور فغدر به شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضا وأرسل الى أسد الدين يأمره بالعود الى الشام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور اليه

فأرسل

فأرسل فى الحال أسد الدين الى نوابه فقتلوا مدينة بلبيس وحكم على اقليم الشرقية فأرسل شاور الى الفرنجة يستمدهم ويخوفهم من نور الدين اذا ملك مصر فسارعوا الى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا فى ديار مصر وكان شاور قد بذل لهم مالا على المسير اليه فتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين خبر ذلك سار بعسا كره الى أطراف بلادهم ليمنعهم عن المسير فلم يتمكن من ذلك اذ سار ملك القدس فى عسكره على عجل وكان قد وصل الى الساحل جمع كثير من الفرنجة يريدون زيارة بيت المقدس فسار جماعة منهم مع صاحب القدس فلما قاربوا مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس فأقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهرا يتحصن بها فاجتمعت العساكر المصرية وجموع الفرنجة ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضا فبينما هم على هذا الحال اذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنجة على حارم وملك نور الدين حارم ومسيره الى بانياس فأرادوا العودة الى بلادهم ليحفظوها فراسلوا أسد الدين فى الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها الى المصريين فأجابهم الى ذلك لان الأقوات والذخائر قلت عليه وخرج من بلبيس فى ذى الحجة وسار الى الشام وأقام على حاله فى خدمة نور الدين ولكنه كان دائما يتحدث بمصر مولعا بها ويحب أن يقصدها وكان عنده من الحصر على ذلك كثير

فلما كانت سنة اثنتين وستين وخمسمائة تجهز للسير الى مصر وسار فى ربيع الاول فى جيش ضخم للغاية فسير معه نور الدين جماعة من الامراء فكانت عدتهم يومئذ ألفى فارس وكان نور الدين كارها لذلك ولكن لما رأى من جد أسد الدين ورغبته فى المسير لم يمكنه الا أن يسير معه هذا الجمع خوفا من الهزيمة أو حادث يتجدد عليهم وسار أسد الدين بعسكره برا وترك بلاد الفرنجة على يمينه فوصل مصر وقصد اطفيح وعبر النيل عندها الى الجانب الغربى ونزل بالجيزة مقابل مصر ومدينة الفسطاط وأخذ يتصرف فى البلاد الغربية وأنفذ حكمه فيها وأقام على ذلك نيفا وخمسين يوما وكان شاور لما بلغه مجىء أسد الدين أرسل الى الفرنجة يستنجد بهم فأتوه على الصعب والذلول طمعا فى ملكها فترفع أسد الدين بمن معه الى الصعيد فبلغ مكانا يعرف بالبابين فتبعتهم العساكر المصرية وعسكر الفرنجة فأدركوهم بها فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان أسد الدين قد أرسل الى المصريين والفرنجة جواسيس فعادوا اليه وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم فى طلبه فعزم على قتالهم الا أنه خاف من أصحابه أن تضعف قلوبهم عن القتال فى هذا المقام الخطير الذى عطبهم فيه أقرب من سلامتهم لقلة عددهم فاستشارهم فأشاروا بعبور النيل الى الجانب الشرقى والرجوع الى الشام وقالوا ان نحن انهزمنا وهو الذى يغلب على الظن فالى أين نلتجئ وبمن نحتمى وكل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدو لنا فقام أمير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين بن برغش صاحب شقيق وكان شجاعا وقال

من يخاف القتل والاسر لا يخدم الملوك بل يكون فى بيته مع امرأته واقه لئن عدنا الى نور
الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن مالنا من الاقطاع والجامكية ولا يعود علينا
جميع ما أخذناه منذ خدمنا الى يومنا هذا ويقول تأخذون أموال المسلمين وتفرون من
عدوهم وتسلمون مثل مصر الى الكفار والحق بيده فقال أسد الدين هذا الرأى وبه أعمل
فقال ابن أخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال فأقام
أسد الدين بمكانه حتى أدركهم المصريون والفرنجة وهو على أهبة وجعل الاثقال فى القلب
يستكثر بها وجعل صلاح الدين فى القلب وقال له ولمن معه ان المصريين والفرنجة يجعلون
حلتهم على القلب ظنا منهم أنى فيه فاذا حملوا عليكم فلا تصدوهم بالقتال ولا تهلكوا
نفوسكم واندفعوا قدامهم بين أيديهم فاذا عادوا عنكم فارجعوا فى أعقابهم واختار هو من
شجعان عسكره جمعا يثق بهم ويعرف صبرهم فى الحروب ووقف بهم فى الميمنة فلما تقاتل
الطائفتان فعل الفرنجة ماذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين
أيديهم غير متفرقين وتبعهم الفرنجة فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من
الذين حملوا من المسلمين والفرنجة الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن
وأكثر القتل فلما عاد الفرنجة من أثر المسلمين رأوا عسكرهم منهزما فانهزموا أيضا
ولما تمت هزيمة المصريين والفرنجة سار أسد الدين بمن معه الى ثغر الاسكندرية وجبى باقى
القرى على طريقه من الاموال ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة من أهلها سلموها
اليه فاستناب بها صلاح الدين بن أخيه وعاد الى الصعيد فملكها وجبى أموالها وأقام بها
حتى صام رمضان فكبر ذلك على المصريين والفرنجة واجتمعوا بالقاهرة وأصلحوا حال
عسكرهم وجمعوهم وساروا الى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتد عليه الحصار
وقل الطعام على من بالاسكندرية فصبروا على ذلك وانحدر أسد الدين من الصعيد الى
الاسكندرية وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان فوصل رسل الفرنجة
والمصريين يطلبون الصلح * قال بعض الكتاب وبذلوا الى أسد الدين خمسين ألف دينار
سوى ماأخذه من البلاد فأجاب الى ذلك واشترط على الفرنجة أن يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا
منها قرية واحدة فأجابوه الى ذلك واصطلحوا وعادوا الى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية
من نصف شوال من السنة ووصل أسد الدين شيركوه الى دمشق ثامن عشرى ذى القعدة
* أما الفرنجة فانهم اتفقوا مع المصريين بأن يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها
بيد طائفة من فرسانهم ليمتنع نور الدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون لهم من دخل مصر
فى كل سنة مائة ألف دينار وهذا كله استقر مع شاور اذ لم يكن للعاضد حكم ولا كلمة وقد
حجب عن الأمور كلها وعاد جماعة الفرنجة بعد ذلك الى الساحل الشامى وتركوا بمصر
جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور أرسل الى نور الدين سرا
مع بعض الامراء ينهى محبته وولاءه ويسأله الدخول فى طاعته وتعاهدوا أن يفعل

هذا

هذا وبذل مالا يحمله فى كل سنة فأجابه نور الدين الى ذلك فحمل اليه ابن شاور مالا جزيلا
وبقى الأمر على هذا الحال وشاور لايعلم بالخبر ✽ فلما كانت سنة أربع وستين وخمسمائة
قصد أسد الدين ديار مصر ثالثة ومعه العسكر النورى فملكها وجعل يتصرف فيها ✽ وتحرير
الخبر أنه لما تمكن الفرنجة من البلاد المصرية وجعلوا لهم شحنة فى القاهرة حكموا وتصرفوا
فى الأمور وشددوا على الرعية فضج المسلمون واستغاثوا فأرسل الفرنجة الى ملكهم
بالشام المسمى مرى وكان أشجع ملوكهم بالشام يستدعونه ليملكها وأعلموه
خلوها من ممانع وهوّنوا عليه أمرها فلم يجبهم الى ذلك ✽ قال أصحاب التاريخ فاجتمع اليه
فرسان الفرنجة وذو والرأى منهم فأشاروا عليه بتملكها فقال لهم الرأى عندى أننا
لانقصدها ولا بغية لنا فيها وأموالها تساق الينا فنتقوى بها على نور الدين وان نحن
قصدناها لنملكها فان صاحبها وعسكره وجميع بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ويقاتلوننا
دونها ويحملهم الخوف على تسليمها الى نور الدين ولئن صار له فيها مثل أسد الدين كانت
العاقبة شرا علينا وأجلانا ولا محالة عن الشام فلم يقبلوا قوله وألحوا عليه فى قصدها فقبل
منهم على كره وشرعوا يجهزون ويشيعون أنهم انما يريدون مدينة حمص فلما سمع نور الدين
بالخبر شرع أيضا فى جمع عساكره وأمرهم بالقدوم عليه وجد الفرنجة فى السير الى مصر
فقدموها ونزلوا مدينة بلبيس وملكوها قهرا مستهل صفر ونهبوا مافيها وقتلوا وأسروا وكان
جماعة من أعيان المصريين قد كاتبوا الفرنجة ووعدوهم أن يأخذوا بناصرهم نكاية فى شاور
وتخلصا من جوره منهم ابن الخياط وابن فرجلة فاشتد عضد الفرنجة وساروا من بلبيس
الى مصر فنزلوا على القاهرة عاشر صفر وحاصروها فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم ما فعلوه
بأهل بلبيس فحملهم الخوف على الامتناع فحفظوا البلد وقاوموا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه
وأمر شاور باحراق مدينة مصر تاسع صفر وأمر أهلها بالجلاء عنها الى القاهرة وأن ينهب
البلد فانتقلوا وبقوا على الطرق فى حالة تبكى الناظر ونهبت المدينة وأصبح أهلها
لا يملكون شيأ وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنجة عليهم بيوم فبقيت النار تضطرم
فيها وتحرقها أربعة وخمسين يوما فكانت شدة لم يسبق لها مثال ومنظر تتفطر منه الاكباد
واشتد الفرنجة فى الحصار فعم البلاء وكبر خوف الناس فأرسل العاضد العبيدى الى نور
الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنجة وأرسل فى الكتب شعور نسائه
وقال هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنجة فلما وصلت كتب
العاضد الى نور الدين كبر عليه الامر وشرع فى تسيير الجيوش أما الفرنجة فانهم لما علموا
بعزم نور الدين اشتدوا فى حصار القاهرة وضيقوا على أهلها وشاور هو ولى أمر العساكر
فضاق به الخناق وضعف عن ردهم فأخلد الى اعمال الحيلة وأرسل الى ملك الفرنجة
يذكره مودته وصداقته له قديما وأن هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد صاحب البلاد
وانما المسلمون لايوافقونه على التسليم اليه ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين

فاجابه مرى الى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية يعجل بالبعض ويمهل بالبعض فاستقرت القاعدة على ذلك فعجل لهم شاور بمائة ألف دينار وسألهم الرحيل عنها ليجمع لهم المال فرحلوا قريبا وجعل شاور يجمع لهم المال من أهالى القاهرة ومصر فلم يتحصل الامقدار خمسة آلاف دينار وذلك لان أهل مصر كانت قد احترقت بيوتهم وما فيها وما سلم من الحريق نهب وهم لايقدرون على الاقوات فضلا عن الاقساط وأما أهل القاهرة فلان أغلب أهلها الجند وغلمانهم تعذر عليهم المال وهم فى خلال ذلك يراسلون نور الدين بما أصبح الناس فيه وبذلوا له ثلث بلاد مصر وأن يكون أسد الدين مقيما عندهم فى عسكره واقطاعهم من البلاد المصرية أيضا خارج عن الثلث الذى لهم وكان نور الدين لما وصلت كتب العاضد اليه بحلب أرسل الى أسد الدين يستدعيه اليه فخرج القاصد فى طلبه فلقيه على باب حلب وقد قدمها من حمص وكانت اقطاعا له وسبب وصوله أن كتب المصريين وصلت اليه أيضا فى هذا المعنى فسار الى نور الدين واجتمع به فعجب نور الدين من حضوره فى الحال وسر بذلك وتفاءل به وأمر بالتجهز الى مصر وأعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وغير ذلك وحكمه فى العسكر والخزائن فاختار من العسكر ألفى فارس وأخذ المال وجمع ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين الى باب دمشق فوصلها سلخ صفر ورحل الى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس ممن كان مع أسد الدين عشرين دينارا معونة غير محسوبة من جامكيته وأضاف الى أسد الدين جماعة آخرين من الامراء منهم مملوكه عز الدين جورديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقى وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى وصلاح الدين يوسف بن أيوب أخى شيركوه على كره منه وسار أسد الدين شيركوه من رأس الماء مجدا منتصف ربيع الاول فلما قارب مصر رحل الفرنجة الى بلادهم وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك جدا وأمر بضرب البشائر فى البلاد وبعث رسله الى الآفاق مبشرين بذلك فلما وصل القاهرة ودخل اليها اجتمع بالعاضد لدين الله فخلع عليه العاضد وعاد الى خيامه بالخلعة وفرح به أهل مصر وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع من ذلك لانه رأى أن العساكر كثيرة مع أسد الدين وهوى العاضد العلوى معه فلم يتجاسر على اظهار مافى نفسه وقد كان يكره بقاء أسد الدين فى مصر ويخشى منه على نفسه وشرع يماطل أسد الدين فى تقرير ماكان بذله لنور الدين من المال والاقطاع للجند وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه

وعزم شاور يوما على أن يعمل دعوة يدعو اليها أسد الدين والامراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنجة وكلم ابنه الكامل فى ذلك فنهاه وقال له والله لئن عزمت على هذا الامر لأعلمن به شيركوه فقال له أبوه لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعا فقال صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من أن نقتل وقد

ملكها

ملكها الفرنجة فترك شاور ماكان قد عزم عليه ورأى العسكر النورى الذين مع أسد الدين
مطل شاور فخافوا شره وتكلموا فى أمره كثيرا ثم اتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب وعز
الدين جرديك وغيرهم على قتل شاور فنهاهم أسد الدين على عادته فسكتوا وهم على هذا
العزم من قتله فاتفق أن قصد شاور عسكر أسد الدين كما كان يفعل كل يوم فلم يجده فى الخيام
وكان قد توجه لزيارة قبر الامام الشافعى فلقيه صلاح الدين يوسف وجرديك فى جمع من العسكر
فخدموه وأعلموه بان شيركوه قد انصرف لزيارة قبر الامام الشافعى فقال نمضى اليه فساروا جميعا
فسايره صلاح الدين وجرديك وماز الا حتى تمكنا منه وألقياه الى الارض عن فرسه فهرب أصحابه
عنه فأخذ أسيرا ولم يمكنهما قتله بغير أمر أسد الدين فتوكلا بحفظه وأعلما أسد الدين
فحضر ولم يمكنه الا اتمام ما عملاه فقتل شاور ووصل الخبر بما جرى الى العاضد لدين الله
العلوى فأرسل الى أسد الدين يطلب منه رأس شاور وتابع الرسل بذلك فأرسلوا رأسه الى
العاضد فى السابع عشر من ربيع الآخر ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع
الخلق ماأخافه على نفسه فقال لهم أمير المؤمنين يعنى العاضد يأمركم بنهب دار شاور فتفرق
الناس الى الدار فنهبوها وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور
أمير الجيوش فسار بالخلع الى دار الوزارة وهى التى كان بها شاور فلم ير فيها مايقعد عليه
واستقل بالامر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الاعمال من يثق به
من أصحابه وأقطع البلاد لعسكره وأما الكامل بن شاور فانه لما قتل أبوه دخل القصر هو
واخوته معتصمين فكان آخر العهد بهم * ذكر أن أسد الدين شيركوه حزن على شاور لانه
بلغه ما كان منه مع أبيه من منعه من قتل شيركوه وما استتب الامر لشيركوه وثبتت
قدماه فى منصب الوزارة حتى أتاه أجله على عجل فمات فى يوم السبت الثانى والعشرين من
جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام فلما مات
قام جماعة من الامراء النورية الذين كانوا معه وطلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة
العاضدية بعده منهم عين الدولة الياروقى وقطب الدين اينال وسيف الدين المشطوب الهكارى
وشهاب الدين محمود الحارمى وهو خال صلاح الدين يوسف وكان كل واحد من هؤلاء يخطبها
وقد جمع أصحابه ليغالب عليها فأرسل العاضد الى صلاح الدين وأحضره عنده وخلع عليه وولاه
الوزارة بعد عمه وكان الذى حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر
سنا من يوسف والرأى أن يولى الوزارة فانه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من
يستميلها الينا فيصير عندنا من الجند مانمنع بهم عن البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجهم فوافقهم
العاضد على ذلك وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر فلم يطعه أحد من أولئك الامراء الذين
يريدون الامر لانفسهم ولا اخدموه وكان معه الفقيه عيسى الهكارى فسعى مع المشطوب حتى
أماله الى صلاح الدين وقال له ان هذا الامر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمى وغيرهما
ثم قصد الحارمى وقال هذا صلاح الدين هو ابن أختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الامر

فلا تكن أول من يسعى فى اخراجه عنه ولا يصل اليك خال اليه أيضا ثم فعل هكذا بالباقين فأطاعه كلهم غير عين الدولة الياروقى فانه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد الى نور الدين بالشام فلما استقرت بصلاح الدين الوزارة استمال اليه قلوب الناس وبذل الاموال فأحبوه وضعف أمر العاضد صاحب البلاد ولم يبق له الا الاسم ثم أرسل يوسف الى نور الدين يطلب أن يرسل اليه اخوته وأهله فأرسلهم اليه وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته وكلهم فعل ذلك وأخذ اقطاعات الامراء المصريين فأعطاها أهله والامراء الذين معهم وزادهم فازدادوا حباله وطاعة لامره وكان يوم ولاية صلاح الدين يوما مشهودا جدا ه قال أبو شامة كانت الخلعة التى لبسها صلاح الدين يوم ولايته عمامة بيضاء وثوبا دبيقيا بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلسانا مطرزا بذهب وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيفا محلى بخمسة آلاف دينار وحجرا بثمانية آلاف دينار وعليه سرج ذهب وسرسار ذهب مجوهر وفى رأسه مائتا حبة جوهر وفى قوائمه أربعة عقود جوهر وفى رأسه قبعة بذهب شديدة البياض بأعلام بيض ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخر ومنشور الوزارة مكتوب فى ثوب أطلس أبيض وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين قال وكان يوما مشهودا وارتفع قدر صلاح الدين بالديار المصرية واستلفت اليه القلوب وخضعت له النفوس واضطهد العاضد فى أيامه غاية الاضطهاد اه

فلما كانت سنة خمس وستين حاصر الفرنج مدينة دمياط خمسين يوما فقاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم وجعل صلاح الدين يأمر وينهى ويتصرف فى الامور لا راد لكلمته ولا أمر فوق أمره والعاضد فى قصره محجور عليه لا يعرف من أحوال البلاد شيأ ولا يدرى ماهى عليه فكان نور الدين صاحب دمشق اذا خاطب صلاح الدين يوسف لايخاطبه مع ذلك الا بالامير الاسفهلار ويكتب علامته على رأس الجواب تعظيما عن أن يكتب اسمه وكان لايفرده بكتاب بل يكتب الامير الاسفهلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا وأرسل نور الدين الى صلاح الدين بعد أن ضعف أمر العاضد وانحطت كلمته يأمره أن يخطب للخليفة المستضيء العباسى بمصر لان الخليفة بعث يعاتبه فى ذلك ويطلب اعادة الخطبة اليه كما كانت قبل العلويين فأخذ صلاح الدين من هذا الحين فى تذليل العاضد والتضييق عليه فى جميع أموره واشتد عليه شدة بالغة فشكى العاضد من ذلك وراسل صلاح الدين وعاتبه فلم يلتفت اليه فكبر الامر على من بالقصر واتفق مؤتمن الخلافة وهو خصى كان بقصر العاضد اليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه مع جماعة من المصريين على مكاتبة الفرنجة واستدعائهم الى البلاد والتقوى بهم على صلاح الدين ومن معه وسيروا الكتب مع رجل يثقون اليه وأقاموا ينتظرون جوابه فسار ذلك القاصد الى البئر البيضاء فلقيه انسان تركمانى فرأى معه نعلين جديدين فأخذهما منه وقال فى نفسه لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فانه رث الهيئة وارتاب فيه وفيهما فأتى به الى

صلاح

صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتب فيهما فقرأها وسكت عليه وكانت رغبة مؤتمن الخلافة
أن يحرّك الفرنجة الى الديار المصرية فاذا وصلوا اليها وخرج صلاح الدين فى العسكر لقتالهم
ثار مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على مخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون بأجمعهم
يتبعون صلاح الدين فيأتون من وراء ظهره والفرنجة من بين يديه فلا تبقى لهم باقية فلما
قرأ صلاح الدين الكتاب سأل عن كاتبه فقيل انه رجل يهودى فأحضره فأمر بضربه وتقريره
فابتدأ وأسلم وأخبره بالخبر وأخفى صلاح الدين الحال واستشعر مؤتمن الدولة عما يجرى
فلازم القصر ولم يخرج منه خوفا من صلاح الدين وصلاح الدين لا يظهر له شيأ من الطلب
لئلا ينكر ذلك فلما طال الامر خرج من القصر الى قرية له تعرف بالخرقانة للتنزه فلما علم
به صلاح الدين أرسل اليه جماعة فأخذوه وقتلوه وأتوا برأسه ثم عزل جميع الخدم الذين
يتولون أمر القصر واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصى أبيض فكان لا يجرى
فى القصر صغيرة ولا كبيرة الا بأمره فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة واجتمعوا
فزادت عدتهم على خمسين ألفا وقصدوا حرب الاجناد الصلاحية فاجتمع العسكر أيضا
وانتشبت الحرب بين القصرين وكثر القتل بين الفريقين وكاد يتم الظفر للسودان وظهرت
هزيمة الاجناد الصلاحية فأرسل صلاح الدين فى الحال الى محلة السودان المعروفة بالمنصورة
فأحرقها على أموالهم وعيالهم فلما جاءهم الخبر بذلك ولوا منهزمين فركبهم السيف وأخذت
عليهم أفواه السكك فطلبوا الامان بعد أن كثر فيهم القتل فأجيبوا الى ذلك وأخرجوا من
مصر الى الجيزة فعبر اليهم شمس الدولة أخو صلاح الدين الاكبر فى طائفة من عسكره
فأبادهم بالسيف ولم يبق منهم الا الشريد ولم يراع لهم ذمة ولا عهدا وذلك سنة أربع وستين
فكانت هذه الواقعة من الوقائع التى تمكنت بها سلطنة صلاح الدين وعلت كلمته

واشتد خوف الفرنجة بالشام من تملك أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين لمصر فقاموا
فى سنة خمس وستين وخمسمائة وكاتبوا اخوانهم بصقلية والاندلس وغيرهما يستنجدونهم
ويعرّفونهم ما يتجدّد من ملك الترك لمصر وأرسلوا جماعة يستنهضونهم فأمدّوهم بالمال والرجال
والسلاح واستعدّوا للنزول على دمياط فلما عزموا على الرحيل كان أسد الدين قد مات كما تقدّم وملك
صلاح الدين فاجتمعوا عليها وحصروها وضيقوا على من بها فأرسل اليها صلاح الدين العساكر
فى النيل وحشد فيها كل من عنده وأمدّهم بالاموال والسلاح والذخائر وأرسل الى نور الدين
يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول انى ان تأخرت عن دمياط ملكها الفرنجة وان سرت
اليها خلفنى المصريون فى أهلها بالشر وخرجوا عن طاعتى وساروا فى أثرى والفرنجة أمامى
فلا يبقى لنا باقية فسيّر نور الدين العسكر اليه أرسالا يتلو بعضهم بعضا ثم سار هو بنفسه
الى بلاد الفرنجة الشامية فنهبها وأغار عليها واستباحها فوصلت الغارات الى ما لم تكن تبلغه
قبل خلو البلاد من ممانع فلما رأى الفرنجة تتابع العساكر الى مصر ودخول نور الدين الى
بلادهم ونهبها وتخريبها رجعوا ولم يظفروا بشئ وكان مدّة مقامهم على دمياط خمسين يوما



وأخرج فيها صلاح الدين من الاموال مالا يكاد يدخل تحت الحصر ه حكى انه قال مارأيت أكرم من العاضد أرسل الىّ مرة لمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها وأرسل صلاح الدين الى نور الدين والخليفة المستنجد بالله العباسى يعلمهما بأنه على عزم اعادة الخطبة الى المستنجد بديار مصر ففرح الخليفة المستنجد وأرسل الى نور الدين يحثه على ذلك وظل المستنجد يتصرّف فى الخلافة ويدبر أمرها بجهد الاستطاعة حتى وافته المنية فى الثامن من ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة هجرية يقال ان سبب موته انه مرض واشتد عليه المرض وكان قد خافه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز القتفوى وهو حينئذ أكبر أمير فى بغداد فلما اشتد مرض الخليفة اتفقا ووصيا الطبيب على أن يصف له مايؤذيه فوصف له دخول الحمام فامتنع لضعفه فأدخلوه هم قهرا وأغلقوا عليه بابه فمات وقيل ان الخليفة كتب الى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين وصلبهما فاجتمع ابن صفية بأستاذ الدار وأعطاه خط الخليفة فقال له تعود وتقول انى أوصلت الخط الى الوزير ففعل ذلك وحضر أستاذ الدار وقطب الدين ويزدن وأخوه تنامش وعرض الخط عليهم فاتفقوا على قتل الخليفة فلم يكن بأسرع من أن دخل عليه يزدن ومعه قايماز الحميدى فحملاه الى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب عليه وهو يصيح الى أن مات ﷺ وكان بين وزير الخليفة أبى جعفر ابن البلدى وبين أستاذ الدار وقطب الدين عداوة مستحكمة لان المستنجد بالله كان يأمر الوزير بأشياء تتعلق بهما فيفعلها فكانا يظنان انه هو الذى يسعى بهما فلما مرض الخليفة وأرجف بموته ركب الوزير ومعه الامراء والاجناد وغيرهم بالعدد فلم يتحقق عنده خبر موته فأرسل اليه عضد الدين يقول ان أمير المؤمنين قد خف ما به من المرض وأقبلت اليه العافية فخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجند فربما أنكر عليه ذلك فعاد الى داره وتفرّق عنه الناس وكان عضد الدين أستاذ الدار وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير خوفا منه ان دخل الدار أن يأخذهما فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبواب الدار وأظهروا وفاة المستنجد وأحضر هو وقطب الدين أبا محمد الحسن بن الخليفة المستنجد وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضىء بنور الله وشرطا عليه شروطا أن يكون عضد الدين وزيرا وابنه كمال الدين استاذ الدار وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم الى ذلك فبايعه بعد ذلك أهل بيته البيعة الخاصة يوم توفى أبوه وبايعه الناس من الغد فى التاج البيعة العامة وعلم الوزير ابن البلدى بما جرى فسقط فى يده وقرع منه ندما على ما فرط من عوده وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضىء فمضى الى دار الخلافة فلما دخلها صرف الى موضع ثم دخل عليه جماعة فقتلوه وقطعوه قطعا وألقوها فى دجلة وأخذوا جميع ما فى داره فرأوا فيها خطوط المستنجد بالله يأمره فيها بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين وخط الوزير قد راجعه فى ذلك وصرفه عنه فلما وقفا عليها عرفا براءته مما كانا يظنان فيه

فندما

فندما على تفريطهما فى قتله

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلا شهما كثير الرفق بهم شديدا على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس * قال صاحب الكامل بلغنى انه قبض على انسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى انسانا آخر مثله لأكف شره عن الناس ولم يطلقه قال ورد كثيرا من الاموال الى أصحابها وقبض على القاضى ابن المرخم وقد أخذ منه مالا كثيرا فأعاده الى أصحابه وكان ابن المرخم ظالما جائرا فى أحكامه اه

ومات فى خلافة المستنجد انبا ستودولو بطرك الاسكندرية فكانت مدته ثلاثين سنة كلها احن وشدائد وكان موته بكنيسة المعلقة بقصر الشمع بفسطاط مصر فبقى الكرسى خاليا مدة اثنين وسبعين يوما ثم أقيم بعده كيرولس الثانى وهو سابع ستيهم كان حبيسا بصومعة سنجار واسمه جرجس من أهل اقلامه فأقام أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصفا لم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر ومات بكنيسة المختار من جزيرة مصر المعروفة بالروضة وهو أول من عمل الكسوة البطريكية من ديباج أزرق وبلارية من ديباج أحمر بتصاوير ذهب وقطع الشرطونية فلم يول بعده بطركا مدة مائة وأربعة وعشرين يوما ثم أقيم غاثل وهو ثامن ستيهم وأصله من بلدة سمنا وكان حبيسا بصومعة سنجار وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل الثالث والثلاثون)

(فى خلافة المستضىء بنور الله بن المستنجد)

ثم قام بالامر بعد المستنجد أبو الحسن على المستضىء بنور الله بويع له بالخلافة يوم موت أبيه فى ثامن ربيع الثانى سنة ست وستين وخمسمائة هجرية أى سنة سبعين ومائة وألف ميلادية وخطب له باليمن والديار المصرية وقد كانت الخطبة العباسية منقطعة منها من زمن المطيع كما تقدم الكلام وكان صلاح الدين يوسف قد شرع من أيام المستنجد فى تمهيد الخطبة لبنى العباس فقطع الاذان بحى على خير العمل من ديار مصر كلها وعزل قضاة مصر لانهم كانوا شيعة وولى أقضى القضاة بها صدر الدين بن درباس الشافعى واستناب فى سائر الاعمال شافعية فلما كانت سنة سبع وستين أمر صلاح الدين باقامة الخطبة لبنى العباس بمصر أول جمعة من المحرم وبالقاهرة فى الجمعة الثانية فكان ذلك يوما مشهودا قالوا والعجب ان أول من خطب للعزحين أخذت مصر عمر بن عبد السميع الخطيب بجامع عمرو

وبجامع ابن طولون فكان أول من خطب لبنى العباس هـذه النوبة شريف علوى يقال له محمد بن الحسن بن أبى الضياء البعلبكى وسير صلاح الدين الخبر بذلك الى نور الدين فأرسل نور الدين الى الخليفة المستضىء يعلمه بذلك فزينت بغـداد وأغلقت الاسواق وعملت القباب وفرح المسـلمون فرحا عظيما قال ابن الجوزى وقد ألفت فى ذلك اليوم كتابا سميته النصر على مصر وكتب العماد الكاتب صلاح الدين الى الملك نور الدين صاحب دمشق يبشره بذلك

قد خطبنا للمستضىء بمصر * نائب المصطفى امام العصر

فى أبيات قـد أضربنا عن ايرادها هنا صفحا * وقال بعض شعراء بغـداد فى ذلك أبياتا كثيرة منها

ليهنـك يا مـولاى فتح تتابعت * اليك به خوص الركائب توجف
أخذت به مصرا وقد حال دونها * من الترك ناس فيهم الحق يقذف
فعادت بحمد الله باسم امامنا * تتيـه على كل البـلاد وتشرف
ولا غرو أن ذلت ليوسف مصره * وكانت الى عليائه تتشوف
تملكهـا من قبضة الكفر يوسف * وخلصها من عصبة الرفض يوسف
كشـفت بها عن آل هاشم سبة * وعارا أبى الا بسـيفك يكشف

وهى طويلة * قال صاحب حسن المحاضرة قال أبو شامة أنشدت هذه القصـيدة الخليفة قبـل موته عنـد تأويل منام رؤى فى هـذا المعنى وأراد بيوسف الثانى الخليفـة المستنجد فلم يخطب الا لولده المستضىء فجرى الفأل باسم الملك النـاصر صـلاح الدين يوسف بن أيوب قال صاحب الكامل عنـد ذكر حوادث سنة سبع وستين وخمسمائة * وفى هذه السنة فى ثانى جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله أبى محمد الامام عبـد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد بن أبى القاسم محمد بن المسـتنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبى على المنصور بن نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد بن المنصور بالله أبى الطاهر اسمعيل بن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد ابن المهدى بالله أبى محمـد عبيد الله وهو أول العلويين من هـذا البيت الذين خطب لهم بالخـلافة وخوطبوا بامرة أمير المؤمنين وكان السبب فى اعادة الخطبـة العباسية بمصر أن صـلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قـدمه بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة العاضـد وصار يحكم فى قصره صلاح الدين ونائبه قراقوش الخصى وهو من أعيان الامراء الاسـدية كلهـم يرجعون اليه فكتب اليـه نور الدين محـمد بن زنكى يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة المستضيئية فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهـم لميلهم الى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفا من نور الدين فانه كان يخاف أن يدخل الى الديار المصرية فيأخذها منـه فكان يريد أن يكون العاضـد معـه حتى اذا قصـده نور الدين امتنع به وبأهـل مصر عليـه قال

فلما اعتذر الى نور الدين بذلك لم يقبل عذره وألح عليه بقطع خطبته وألزمه الزاما لا فسحة له فى مخالفته وكان على الحقيقة نائب نور الدين واتفق ان العاضد مرض فى هذا الوقت مرضا شديدا فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه فنهم من أشار به ولم يفكر فى المصريين ومنهم من خافهم الا أنه لم يمكنه الا الامتثال لأمر نور الدين وكان قد دخل الى مصر انسان أعجمى يعرف بالأمير العالم رأيته أنا بالموصل فلما رأى ما هم فيه من الاحجام وأن أحدا لا يتجاسر يخطب للعباسي قال أنا أبتدئ بالخطبة له فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضئ ففعلوا ذلك فلم ينتطح فيها عنزان وكتب بذلك الى سائر بلاد مصر ففعلوا وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله ولا من أصحابه بقطع الخطبة وقالوا ان عوفى فهو يعلم وان توفى فلا ينبغى أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته فتوفى يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة • فلما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش الذى كان رتبه قبل موت العاضد فحمل الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله ومن الجواهر التى لم توجد عند غيرهم فنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا قال أنا لا أشك فانى رأيته ووزنته واللؤلؤ الذى لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرذ الذى طوله أربع أصابع فى عرض عقد كبير ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ عليه فلما رأوه ظنوه عمل لأجل اللعب به فسخروا من العاضد فأخذه انسان فضرب به فضرط فتضاحكوا منه ثم آخر كذلك وكان كل من ضرب عليه يضرط فألقاه أحدهم فكسره فاذا الطبل عمل لاجل القولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك • قلت وهو موضع النظر • قال وكان فيه من الكتب النفيسة المعدومة المثال ما لا يعد فباع بعض من فيه من أمة وعبد وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كأن لم يغن بالامس فسبحان الحى الدائم الذى لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور ولا يقرب النقص حماه

ولما اشتد مرض العاضد أرسل الى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض اليه فلما توفى علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيرا بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه وانقياده وكان فى نسبه تسعة خطب لهم بالخلافة وهم الحافظ والمستنصر والظاهر والحاكم والعزيز والمعز والمنصور والقائم والمهدى ومنهم من لم يخطب له بالخلافة وهو أبوه يوسف بن الحافظ وجد أبيه وهو الأمير أبو القاسم محمد بن المستنصر وبقى من خطب له بالخلافة وليس من آبائه وهم المستعلى والآمر والظافر والفائز وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بافريقية المهدى والقائم والمنصور والمعز الى أن سار الى مصر ومنهم بمصر المعز المذكور وهو أول من خرج اليها من افريقية والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد



ومدة حكمهم من حين ظهور المهدى بسلجماسة فى ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين الى أن مات العاضد مائتان واثنتان وسبعون سنة وشهر تقريبا وهذا دأب الدنيا لم تسكن الا اضطربت ولم تعط الا استلبت ماوهبت ولم تحل الا وتمررت ولم تصف الاوتكدرت بل صفوها لايخلو من الكدر وكدرها قد يخلو من الصفو نسأل الله تعالى أن يقبل بقلوبنا اليه ويرينا الدنيا حقيقة ويزهدنا فيها ويرغبنا فى الآخرة انه سميع الدعاء قريب من الاجابة ❁ قال ابن خلكان سمعت جماعة من المصريين يقولون ان هؤلاء القوم يريدون العبيديين فى أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء اكتب لنا ألقابا فى ورقة تصلح للخلفاء حتى اذا تولى واحد منا لقبوه ببعض تلك الالقاب فكتب لهم ألقابا وآخر ما كتب فى الورقة العاضد فاتفق أن آخر من ولى منهم العاضد اه ❁ قال ابن الاثير ومن الغريب أن العاضد فى اللغة القاطع وفى الحديث لا يعضد شجرها فبالعاضد قطعت دولة بنى عبيد ٭ قلت وزالت من ديار مصر وانمحت آثارها وقامت مكانها الدولة الايوبية

ولما وصلت البشائر الى بغداد باعادة الخطبة للخليفة العباسى كما سبقت الاشارة الى ذلك سيّر الخليفة الخلع مع عماد الدين صندل وهو من خواص الخدم والمقدمين فى الدولة لنور الدين وصلاح الدين فسار صندل الى نور الدين وألبسه الخلعة وسيّر الخلعة الى صلاح الدين بالديار المصرية والاعلام السود ثم أرسل الخليفة الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف كتاب التقليد ولم نحجم عن ايراده هنا مع طوله تتميما للفائدة قال ❁ أما بعد فان أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذى يكون لكل خطبة مبادا ٭ ولكل أمر مهادا ٭ ويستزيده على نعمته التى جعلت التقوى له زادا ٭ وحمله أعباء الخلافة فلم يضق عنه طوقا ولم يأل فيه اجتهادا ٭ وصغر لديه أمر الدنيا فما تسورت له محرابا ولا عرضت عليه جيادا ٭ وحققت فيه قوله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الارض ولا فسادا ٭ ثم يصلى على من أنزلت الملائكة لنصره امدادا ٭ وأسرى به الى السماء حتى ارتقى سبعا شدادا ٭ وتجلى له ربه فلم يزغ منه بصر ولا كذب فؤادا ٭ ثم من بعده على أسرته الطاهرة التى زكت أوراقا وأعوادا ٭ وورثت النور المبين بلادا ٭ ووصفت بأنها آخر الثقلين هداية وارشادا ٭ وخصوصا عمه العباس المدعوّ له بان يحفظ نفسا وأولادا ٭ وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركا ولاتخشى نفادا ٭ واذ استوفى القلم مراده من هذه الحمدلة ٭ وأنبأ القول فيها عن فصاحته المرسلة ٭ فانه يأخذ فى انشاء هذا التقليد الذى جعله حليفا لقرطاسه ٭ واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع من راسه ٭ وليس ذلك الا قناعة فى وصف المناقب التى كثرت فحسن لها مقام الاكثار ٭ واشتبه الطويل فيها بالاختصار ٭ وهى التى لا يعزى واصفها الى القول المعاد ٭ ولم يستوعر سلوك أطوادها ومن العجب وجود السهل فى سلوك الاطواد ٭ وتلك هى مناقبك أيها الملك الناصر السيد الأجل الكبير العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن

أوب والديوان العزيز يتلوها عليك تحدثا بشكرك * ويباهى أولياءه تنويها بذكرك *
ويقول أنت الذى تستكفى فتكون للدولة سهمها الصائب * وشهابها الثاقب * وكنزها
الذى تذهب الكنوز وليس بذاهب * وحاضرها وقد حضرت فى نصرتها اذا كان غيرك هو
الغائب * فاشكر اذا مساعيك التى أهلتك لما أهلتك * وفضلتك على الاولياء بما
فضلتك * ولئن شوركت فى الولاء بعقيدة الاضمار * فلم تشارك فى عزمك الذى انتصر
للدولة بسطة الانتصار * وفرق بين من أمد بقلبه وبين من أمد بيده فى درجات الامداد *
وما جعل الله القاعد كالذى قال لو أمرتنا لضربنا أكبادها الى برك الغماد * وقد كفاك من
المساعى أنك كفيت الخلافة أمر منازعيها * وطمست على الدعوة الكاذبة التى كانت
تدعيها * ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها محفوف من الباطل بحمرا بين * ورأيت
ماراه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السوارين اللذين أولهما كذابين * فبمصر منهما
واحد تجرى أنهارها من تحته ودعا الناس الى عبادة طاغوته وجبته * ولعب بالدين حتى
لم يدر يوم جمعته من يوم أحده ولا يوم سبته * وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم بالعمى
والصمم * واتخذوه صنما ولم تكن الضلالة هناك الا لعجل أو صنم * فقمت أنت فى وجه
باطله حتى قعد * وجعلت فى جيده حبلا من مسد * وقلت ليده تبت فاصبح ولايسعى
بقدم ولايبطش بيد * وكذلك فعلت بالآخر الذى نجمت باليمن ناجمته * وسامت فيه
سائمته * فوضع بيته موضع الكعبة اليمانيه * وقال هذا ذو الخلصة الثانيه * فأى
مقاميك يعترف الاسلام بسبقه * أم أيهما يقوم باداء حقه * وههنا فليصبح القلم للسيف
من الحساد * ولتقصر مكانته من مكانته وقد كان له من الانداد * ولم يحط بهذه المزية
الا أنه أصبح لك صاحبا * وتغرب حتى طار نخرا كما عز جانبا * وقضى بولايتك فكان
بها قاضيا لما كان حده ماضيا * وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غورا
ونجدا * وما اشتملت عليه رعية وجندا * وما انتهت اليها أطرافها برا وبحرا * وما
تستنقذه من مجاوريها مسالمة وقهرا * وأضاف اليها بلاد الشام وماتحتوى عليه من المدن
الممدنة * والمراكز المحصنة * مستثنيا منها ماهو بيد نور الدين اسماعيل بن نور الدين محمد
رحمه الله وهو حلب وأعمالها فقد مضى أبوه عن آثار فى الاسلام ترفع ذكره فى
الذاكرين * وتخلفه فى عقبه فى الفائزين * وولده هذا قد هذبته الفطرة فى القول
والعمل * وليست هذه الربوة الامن ذلك الجبل * فليكن له منك جار تدنو منه ودادا كما دنا
أرضا * وتصبح وهو لك كالبنيان يشد بعضه بعضا * والذى قدمناه من الثناء عليك
ربما تجاوزتك درجة الاقتصاد * وألفتك عن فضيلة الازدياد * فاياك أن تنظر الى سعيك
نظر الاعجاب * فتقول هذه بلادنا افتتحتها بعد أن أضرب عنها كثير من الأضراب *
ولكن اعلم أن الارض لله ورسوله ثم لخليفته من بعده * فلا منة للعبد باسلامه بل المنة
لله بهداية عبده * وكم سلف قبلك ممن لو رام مارمته لدنا شاسعه * وأجلب مانعه *

لكن ذخره الله لك لتحظى فى الآخرة بعفاره • وفى الدنيا برقم طرازه • فالق بيدك عن
هذا القول القاء التسليم • وقل لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم • وقد قرن
تقليدك عهدا بخلعة تكون لك فى الاسلام شعارا • وفى الرسم نخارا • وتناسب محل
قلبك وبصرك • وخير ملابس الاولياء ما ناسب قلوبنا وأبصارنا • ومن جملتها طوق يوضع
فى عنقك موضع العهد والميثاق • ويشير اليك بأن الانعام قد أطاف بك اطافة الاطواق
بالاعناق • ثم انك خوطبت بالملك وذلك خطاب يفضى لصدرك بالانشراح • ولأملك
بالانفساح • وتؤمر معه بمد يدك العليا لاتضمها الى الجناح • وهذه الثلاثة المشار اليها
هى التى تكمل بها أقسام السياده • وهى التى لا مزيد عليها فى الاحسان فيقال انها الحسنى
وزياده • فاذا صارت اليك فانصب لها يوما يكون فى الايام كريم الانساب • واجعله لها
عيدا وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب • هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانة تجعله
لك حاضرا وأنت ناء عن الحضور • وتضن أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك والضنة
من شيم الغيور • وهذه المكانة قد عرفتك نفسها وما كنت تعرفها • وما تقول الا أنها
لك صاحبة وأنت يوسفها • فأحرسها عليك حراسة تقضى بتقديمها • واعمل لها فان
الاعمال بخواتيمها • واعلم أنك تقلدت أمرا يفتتن به التقى الحالم • ولا ينفك صاحبه
عن عهدة الملوم • وكثيرا ماترى حسناته يوم القيامة وهى منقسمة بأيدى الخصوم • ولا
ينجو من ذلك الا من أخذ أهبة الحذار • وأشفق من شهادة الاسماع والأبصار • وعلم
أن الولاية ميزان احدى كفتيه فى الجنة والاخرى فى النار • قال النبى صلى الله عليه وسلم
يا أبا بكر انى أحب لك ما أحبه لنفسى لاتؤمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم فانظر الى
هذا القول النبوى تنظر من لم ينخدع بحديث الحرص والآمال • ومثل الدنيا وقد سيقت
اليك بحذافيرها أليس مصيرها الى الزوال • والسعيد من اذا جاءته قضى بها أرب الارواح
لا أرب الجسوم • واتخذ منها وهى السم دواء وقد تتخذ الادوية من السموم • وما
الاغتباط بما يختلف على تلاشيه المساء والصباح • وهو كماء أنزلناه من السماء فاختلط
به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح • والله يعصم أمير المؤمنين وولاة أمره من
تبعاتها التى لابستهم ولابسوها • وأحصاها الله ونسوها • ولك أنت من هذا الدعاء
حظ على قدر محلك من العناية التى جذبت بضبعك • ومحلك من الولاية التى بسطت
من ذرعك • فخذ هذا الأمر الذى تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان • وكن فى رعايته من
اذا نامت عيناه كان قلبه يقظان • وملاك ذلك كله فى اسباغ العدل الذى جعله الله ثالث
الحديث والكتاب • وأغنى بثوابه وحده عن أعمال الثواب • وقدر يوما منه بعبادة ستين
عاما فى الحساب • ولم يأمر به أمير الا زيد قوة فى أمره • وتحصن به من عدوه ومن
دهره • ثم يجاء به يوم القيامة وفى يده كتاب أمان • ويجلس على منبر من نور على يمين
الرحمن • ومع هذا فان مركبه صعب لا يستوى على ظهره الا من أمسك عنان نفسه

قبل

قبل عتابه * وغلبت لمّة ملكه على لمّة شيطانه * ومن أكبر فروضه أن تمحى السير السيئة التى طالت مدد أيامها * وأيس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمدا لانحسار غلاثمها * تلك السير هى المكوس التى أنشأتها الهمم الحقيره * ولا غنى للايدى الغنية اذا كانت ذات نفوس فقيره * وكلما زيدت الاموال الحاصلة منها قدرا زادها الله محقا * وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الموجبة فسموها حقا * ولولا أن صاحبها أعظم الناس جرما لما أغلظ فى عقابه * وقبلت توبة المرأة الغامدية بعتابه * وهى أشق من يكون السواد الاعظم له خصما * ويصبح وهو مطالب بما يعلم وبما لم يحط به علما * وأنت مأمور بأن تأبى هذه الظلامات فتنهى عن اجرائها * وتلحق أسماءها فى المحو بأسمائها * حتى لايبقى لها فى العيان صورة منظوره * ولا فى الالسنة أحاديث مذكوره * واذا فعلت ذلك أزلت عن الماضى سنة سوء سنتها يداه فبادر الى ما أمرت به مبادرة من يضيق به ذراعا * وتنظر الى الحياة الدنيا بعينها فرآها فى الآخرة متاعا * واحمد الله على أن قيض لك اماما مهديا يقف بك على هداك * ويأخذ بحجزتك عن خطوات الشيطان الذى هو أعدى عداك * وهذه البلاد المنوطة بنظرك تشتمل على أطراف متباعده * وتفتقر فى سياستها الى أيد متساعده * ولهذا يكثر بها قضاة الاحكام * وأولو تدبيرات السيوف والاقلام * وكل من هؤلاء ينبغى أن يقتن على الاختبار * ويسلط عليه شاهد عدل من أمانته الدرهم والدينار * فما أضل الناس شئ كحب المال الذى فرقت من أجله الاديان * وهجرت بسببه الاولاد والاخوان * وكثيرا ماترى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الاوثان * فاذا استعنت بأحد منهم على شئ من أمرك فاضرب عليه بالارصاد * ولا ترض بما عرفته من مبدا حاله فان الاحوال تنقل بتنقل الاجساد * واياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد * وكذلك تأمر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر محاسبين * وبعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم الغالبين * وليبدؤا أولا بأنفسهم فيعدلوها عن هواها * ويأمروها بما يأمرون به سواها * ولا يكون عن هدى الى طريق البر وهو عنها حائد * وانتصب لطب المرضى وهو محتاج الى طبيب وعائد * فما تنزل بركات السماء الا على من خاف مقام ربه * وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه * فاذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم * وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضئ كل قوم الا بمصابيحهم * ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم اخوانا فى الاصحاب وجيرانا فى الاقتراب * وأعوانا فى توزيع الحمل الذى يثقل على الرقاب * فالمسلم أخو المسلم وان كان عليه أميرا * وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كبيرا * وليست الولاية لمن يستعبد بها كثرة القطيف * ويتولاها بالوطء العنيف * ولكنها لمن يميل عن جوانبه * ويؤكل من أطايبه * ولمن اذا غضب لم ير للغضب عنده أثر * واذا ألحف فى سؤاله تخلق بخلق الضجر * واذا



حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم فى قسمة القول والنظر • فذلك الذى يكون صاحبه فى
أصحاب اليمين • والذى يدعى بالحفيظ العليم والقوى الامين • ومن سعادة المرء أن تكون
ولاته متأدبين بآدابه • وجارين على نهج صوابه • واذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا
حسنات مثبتة فى كتابه • وبعد الوصية فان ههنا حسنة الحسنات كالأم للولد ولطالما
أغنت عن صاحبها اغناء الجود • وتيقظت لنصره والعيون رقود • وهى التى تسمى لها
الآلاء • ولا يتخطاها البلاء • ولأمير المؤمنين عناية يتبعها الرحمة الموضوعة فى قلبه •
والرغبة فى المغفرة والرحمة لما تقدم وتأخر من ذنبه • وتلك هى الصدقة التى فضل الله
بعض عباده بمزية افضالها • وجعلها سببا الى التعويض عنها بعشر أمثالها • وهو
يأمرك أن تتفقد أحوال الفقراء الذين قدرت عليهم مادة الارزاق • وألبسهم التعفف
ثوب الغنى وهم فى ضيق من الاملاق • فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء فصبروا •
وكثرت الدنيا فى يد غيرهم فما نظروا اليها اذا نظروا • وينبغى لك أن تهيئ لهم من أمرهم
مرفقا • وتضرب بينهم وبين الفقر موبقا • وما أطلنا لك القول فى هذه الوصية الا
اعلاما بأنها من المهم الذى يستقبل ولا يستدبر • ويستكثر منه ولا يستكبر • وهذا
يعد من جهاد النفس فى بذل المال • ويتلوه جهاد العدو الكافر فى مواقف القتال •
وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه بما يجعل السيف فى ملازمته أخا • وتسخو له بنفسك ان
كان أحد بنفسه سخا • ومن صفاته أنه العمل المصحوب بفضل الكرامه • الذى ينمو أجره
بعد صاحبه الى يوم القيامه • وبه تمحض طاعة الخالق على المخلوق • وكل الاعمال عاطلة
لا خلوق لها وهو المختص دونها بزينة الخلوق • ولولا فضله لما كان مصحوبا بشطر
الايمان • ولما جعل الله الجنة ثمنا وليست لغيره من الاثمان • وقد علمت أن العدو هو
جارك الادنى • والذى يبلغك وتبلغه عينا وأذنا • ولتكن للاسلام نعم الجار • حتى
لا يكون له بئس الجار • ولا عذر لك فى جهاده بنفسك ومالك اذا قامت لغيرك الاعذار •
وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحا • أو تطرق أرضه مماسيا أو مصابحا • بل
يريد أن تقصد البلاد التى فى يد عدوه قصد المغير • وأن تحكم فيها بحكم الله الذى قضاه على
لسان سعد فى بنى قريظة والنضير • وعلى الخصوص البيت المقدس فانه بلد السلام
القديم • وأخو البيت الحرام فى الشرف والتعظيم • والذى توجهت اليه الوجوه من
قبل بالسجود والتسليم • وقد أصبح وهو يشكو طول الوحشة فى غربتها عنه وغربته
فانهض اليه نهضة تتوغل فى قرعه وتبدل صعب قياده بسمحه • وان كان له عام حديبية
فأتبعه بعام فتحه • وهذه الاستزادة بعد سداد ما فى اليد من ثغر كان مهملا فخبثت
موارده • أو مستهدما فرفعت قواعده • ومن أهمها ما كان حاضر البحر كأنه أعمى عورته
مكشوفه • وخطته مخوفه • والعدو قريب منه على بعده • وكثيرا ما يأتيه فجأة حتى
يشق برقه برعده • فينبغى أن ترتب بهذه الثغور رابطة يكثر شجعانها • ويقل أقرانها •

ويكون

ويكون قتالها لان تكون كلمة الله العليا لالانه يرى مكانها * وحينئذ يصبح كل منها وله من
الرجال أسرار * وتعلم أهله أن نبأ السيف أصدق من نبا الاخبار * ومع هذا فلا بد له
من أسطول يكثر عدده * ويقوى مدده * فانه العمدة التى تعين على كشف العماء *
والاستكثار من سبايا العبيد والاماء * وجيشه أخو الجيش السليمانى فذاك يسرى على
متن الريح وهذا يجرى على متن الماء * ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمطار *
وتساوت أقدار خلقتها على اختلاف مدة الاعمار * فاذا أسرعت قيل جبال متلفعة بقطع
من الغيوم * واذا نظر الى أشكالها قيل أهلة غير أنها تهتدى فى مسيرها بالنجوم * ومثل
هذا الخيل ينبغى أن يغالى فى جيادها * ويكثر من قيادها * وتؤمر عليها أميرا يلق
البحر بمثله من سعة صدره * ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها بخبره *
وكذلك فليكن من أفنت الايام تجاربه وزاحمها مناكبه * وممن يذل الصعب اذا هو
سامه وان سيس لين جانبه * وهذا هو الرجل الذى يرأس القوم فلا يجد هزة بالرياسه *
فان كان فى الساقة ففى الساق أو كان فى الحراسة ففى الحراسة * ولقد أفلحت عصابة
اعتصمت من ورائه * وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنجح من روائه * واعلم أنه
قد أخل من الجهاد بركن يقدح فى عمله وهو تمامه الذى يأتى فى آخره كما أن صدق
النية تأتى فى أوله * وذلك هو قسم الغنائم فان الايدى قد تناولته بالاجحاف * وخالطت
جهادها فيه بغلولها فلم ترجع بالكفاف * والله قد جعل الظلم فى تعدى حدوده
المحدوده * وجعل الاستئثار بالمغنم من أشراط الساعة الموعوده * ونحن نعوذ به أن
يكون زماننا هذا شر زمان والناس به شر ناس * لا ممن يستخلفنا على حفظ أركان دينه
ثم نهمل اهمال مضيع ولا اهمال ناس * والذى نأمرك به أن تجرى هذا الامر على
المنصوص من حكمه * وتبرئ ذمتك مما يكون غيرك الفائز بفوائده وأنت المطالب باثمه *
وفى أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الاكلة التى تكون غدا
نكالا وجحيما * وطعاما ذا غصة وعذابا أليما * فتصفح ماسطرناه لك من هذه الاساطير
التى هى عزائم مبرمات * بل آيات محكمات * وتحبب الى الله والى أمير المؤمنين باقتفاء
كلمها * وابن لك بها مجدا يبقى فى عقبك اذا أصبحت البيوت فى أعقابها * وهذا الذى
ينطق عليك بأنه لم يأل فى الوصايا التى أوصاها * فانه لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا
أحصاها * ثم انه قد ختم بدعوات دعا بها أمير المؤمنين عند ختامه * وسأل فيها خيرة
الله التى تتنزل من أمر منزلة نظامه * ثم قال انى أشهدك على ما قلدته شهادة تكون عليه
رقيبة وله حسيبة فانى لم آمره الا بأوامر الحق التى فيها موعظة وذكرى * ولمن تبعها
هدى ورحمة وبشرى * واذا أخذ بها فلج بحجته يوما يسأل فيه عن الحجج * ولم يختلج
دون رسوله على الحوض فى جملة من يختلج * وقيل له لا حرج عليك ولا اثم اذا
نجوت من ورطات الاثم والحرج والسلام اه

وفرح يوسف بهذا التقليد فرحا لا يوصف وأمر فضربوا البشائر وسيرها الى الآفاق
وعملت الولائم والافراح أياما وامتدحه الشعراء وتواردت عليه التهانى من أقطار البلاد شرقا
وغربا فتقوت عزيمته وثبت جأشه وتاقت نفسه الى الغزو والجهاد ومنع غارات الافرنجية
فسير جيشا الى بلاد الفرنجة الشامية وسار هو خلف الجيش حتى نزل على أعمال عسقلان
فأغار عليها وعلى الرملة وهجم على ربض غزة فنهبه وأتاه ملك الفرنجة فى قلة مسرعين لرده
عن البلاد فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنجة هاربا ثم عاد صلاح الدين يوسف الى مصر
فعمل مراكب مفصلة وحملها قطعا على الجمال فى البر وقصد أيلة فجمع قطع المراكب
وأنزلها فى الماء وحصر أيلة برا وبحرا وفتحها عنوة واستباح أهلها وما فيها ثم عاد غانما الى
مصر فجاءت اليه الاخبار بخروج العرب بالاقاليم القبلية وانهم عاثوا وأفسدوا وقتلوا ونهبوا
فسير لقتالهم أخاه تورانشاه فى عسكر كبير فقاتلهم وقهرهم وسامهم الخسف حتى دخلوا تحت
الطاعة وانكفوا عن الفساد وانكمش كبارهم خوفا من صلاح الدين وبطشه واتسعت كلمة
صلاح الدين وطارصيته وأجله ملوك الفرنجة وحسبوا ماوراء ظهوره واتساع كلمته وحسده
نور الدين صاحب الشام وكبر عليه ظهوره ✻ واتفق أن صلاح الدين يوسف سار عن مصر فى
صفر سنة سبع وستين وخمسمائة الى بلاد الفرنجة غازيا ونازل حصون الشوبك وبينه وبين
الكرك يوم ليس الا وحصرها وضيق عليها وشدد على من بها من طوائف الفرنجة ودام
القتال فطلبوا الامان واستمهلوا عشرة أيام فأجابهم صلاح الدين الى ذلك فلما سمع نور الدين
بما فعله صلاح الدين داخله الريب وحرك فؤاده الحسد فسار على عجل من دمشق قاصدا بلاد
الفرنجة أيضا ليدخل اليها من جهة أخرى فكلم صلاح الدين يوسف أصحابه فى أمر نور الدين
ومسيره الى بلاد الفرنجة فقالوا له ان دخل نور الدين بلاد الفرنجة على هذا الحال أنت من
جانب ونور الدين من جانب ملكها نور الدين ومتى زال الفرنجة عن الطريق وأخذ ملكهم
لم يبق لك بديار مصر مقام مع نور الدين وان جاء نور الدين اليك وأنت ههنا فلا بد لك من
الاجتماع به وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء ان شاء تركك أولا فقد لاتقدر على
الامتناع عليه والمصلحة الرجوع الى مصر فأذعن صلاح الدين الى قولهم وأخذ برأيهم وأمر
بالرحيل عن الشوبك مسرعين الى مصر ولم يأخذ من الفرنجة شيأ وكتب الى نور الدين
يعتذر باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين فيها وانهم عازمون
على الوثوب بها وانه يخاف عليها اذا بعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها فيخرجوهم
وتعود ممتنعة وأطال الاعتذار فلما وصل كتابه الى نور الدين تغير حاله وتحرك بغضه الذى كان
يكتمه على يوسف وعلم أن ذلك من يوسف حيلة ومكر وعزم على قصد مصر واخراجه عنها
وجعل يتهيأ لذلك فسمع صلاح الدين بالخبر فخاف العاقبة وجمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين
أيوب وخاله شهاب الدين الحارمى ومعهم سائر الامراء وأعلمهم بما بلغه من عزم نور الدين
وحركته اليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة فقام تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين فقال

انا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد فوافقه غيره من أهلهم وبالغوا فى القول فتطاول عليهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وسفه على تقى الدين وأقعده وقال لصلاح الدين أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى والله لو رأيته أنا وهذا خالك نور الدين لم نمكث الا أن نقتل بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فما بالك بغيرنا وكل من تراه عندك من الامراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات فى سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها فان أراد سمعنا وأطعنا والرأى أن تكتب كتابا مع نجاب تقول فيه بلغنى أنك تريد الحركة الى البلاد فأى حاجة الى هذا يرسل المولى نجابا يضع فى رقبتى منديلا ويأخذنى اليك وما ههنا من يمتنع * وقام الامراء وغيرهم وتفرقوا على هذا الحال فلما خلا به أيوب قال له بأى عقل فعلت هذا أما تعلم أن نور الدين اذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه اليه وحينئذ لانقوى عليه وأما الآن فاذا بلغه ماجرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار تعمل عملها والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل ففعل صلاح الدين يوسف ما أشار به أبوه فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره وأرسل صلاح الدين يعتذر الى نور الدين من نفسه بالحركة على ما يقرره نور الدين فاستقرت القاعدة بينهما على أن صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين من دمشق لغزو الفرنجة فأيهما سبق صاحبه يقيم الى أن يصل الآخر اليه وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين من مصر فى عسكر عظيم فى شوال من السنة لان طريقه أبعد وأشق فوصل الى الكرك وحصره وأما نور الدين فانه لما وصل اليه كتاب صلاح الدين بخروجه من مصر فرق الاموال وحصل الازواد وما يحتاج اليه وسار الى الكرك فوصل الى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فلما سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله واتفق رأيهم على العود الى مصر وترك الاجتماع بنور الدين لانهم علموا أنهم ان اجتمعوا به كان عزل صلاح الدين يوسف على نور الدين سهلا فأمر صلاح الدين جنوده بالرحيل فرحلوا مسرعين وأرسل صلاح الدين الفقيه عيسى الى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر وانه مريض شديد المرض ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد من أيديهم وأرسل معه من التحف والهدايا شيأ كثيرا فجاء الرسول الى نور الدين وأعلمه بذلك فعظم عليه وعلم المراد من عود صلاح الدين وداخله ماداخله من الغيظ والكدر وعزم على قصد يوسف * ولما وصل صلاح الدين الى مصر وجد أن أباه نجم الدين أيوب قد مات وكان سبب موته أنه ركب فرسه يوما بمصر فبينما هو سائر اذ جفل الفرس فدقه بالارض دقة شديدة فحملوه الى داره فلم يلبث الا يومين ومات فحزن عليه يوسف وبكاه وأقام بمصر يفكر فيما سيكون من نور الدين بعد تركه اياه فى الكرك وعدم لقائه به فعلم أن نور الدين حانق من ذلك وأنه على عزم الحركة فزاد

خوفه وسقط فى يده وجمع أهله وكلهم فى الامر وقال لهـم ان نور الدين على عزم الدخول الى مصر فاستقر الرأى بينهم على أنهم يملكون بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى اذا وصـل اليهم نور الدين لقوه وصـدّوه عن البلاد فان قدروا على منعـه أقاموا بمصر وان عجزوا عن منعـه ركـبوا البحر ولحقوا البـلاد التى افتتحوها فجهز صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه فى عسكر عظيم وسيّره الى بلاد النوبة فوصـل الى جزيرة اسوان ثم سار منها الى قلعـة ابريم فحصرها وقاتله أهلها قتالا شـديدا فلم يتغلبوا عليـه لانهم لم تكن لهم جنة تقيهـم السهام وغيـرها من آلات الحرب فسلموه القلعـة فملكها توران شـاه وأقام بها ولم ير فى البـلاد شيأ يرغب فيـه وتحتمل المشاق لاجـله ثم شـق عليـه مالقيـه من شظف العيش مـع مباشرة الحروب ومعاناة الكروب والخطوب فترك البـلاد وعاد الى مصر بما غنم من الاماء والعبيد

وظهر لصـلاح الدين يوسف أن جماعـة من كبار الدولة يريدون الايقاع به واعادة ذرية العلويين وذلك انه كان قد اجتمع جماعة من الشيعة منهم عمارة بن أبى الحسن اليمنى الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضى العويرس وداعى الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالهـم السودان وحاشـية القصر ووافقهـم على ذلك جماعة من الامراء التابعين لصـلاح الدين وجنده وتقررت القاعدة بينهم على استدعاء الفرنجة من صقلية ومن ساحل الشام الى مصر على شئ يبذلوه لهم من المال والبلاد فاذا قصدوا مصر فان خرج صلاح الدين بنفسه لقتالهم ثاروا هم فى القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنـه فـلا يبقى له مقام مقابل الفرنجة وان كان صـلاح الدين يقيم ويرسل العسـاكر لقتال ثاروا به وأخذوه باليد لعدم الناصر له وقال لهـم عمارة وأنا قد أبعدت أخاه الى اليمن خوفا أن يسدّ مسـده وتجتمع الكلمة عليه بعده وأرسلوا الى الفرنجة وصقلية والسـاحـل فى ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق الا رحيل الفرنجـة وكان جماعة المصريين قد أدخلوا معهم فى هـذه المـؤامرة زين الدين علىّ بن نجا الواعظ والقـاضى المعـروف بابن بجيـة ورتبوا الخليفة من ذرية العلويين والوزير والحاجب والداعى والقضـاة الا أن بنى رزيك قالوا يكون الوزير منـا وبنو شاور والقاضى قالوا يكون الوزير منا وكلاهما من بيت الوزارة بمصر فلما علم ابن نجا الحال دخـل على صلاح الدين وأعلمه حقيقـة الخبر فأمره بملازمتهـم ومخالطتهـم ومواطأتهم على ما يريدون فعله وتعريفه مايتجدد أوّلا فأوّلا ففعل وصار يطالعه بكل ماعزموا عليه ثم وصل رسول من بلاد الفرنجة بالساحل بهدية ورسالة وهى فى الظاهر الى صـلاح الدين وفى الباطن الى أولئك الجماعة وكان يرسـل اليهم بعض النصارى وتأتيه رسـلهم فأتى الخبر الى صلاح الدين من بلاد الفرنجـة بما كان من سر خصومه فوضع صـلاح الدين على الرسول بعض من يثق به من النصـارى وداخـله فأخبر الرسول بالخبر على الحقيقـة فقبض صلاح الدين فى الحـال على المقدمين فى هذه الحادثة منهم عمارة وعبـد الصمد الكـاتب

والعوريس وغيرهم وأمر بصلبهم فصلبوا وبقوا كذلك أياما • وقيل فى كشف أمرهم أيضا عبارة أخرى وهى انه كان بين عبد الصمد الكاتب وبين القاضى الفاضل الصلاحى مودّة فكان اذا لقى القاضى يخدمه ويتقرب اليه بجهده وطاقته فلقيه يوما فلم يلتفت اليه فقال القاضى الفاضل ماهذا الا لسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فأحضر علىّ بن نجا الواعظ وأخبره بالأمر وقال أريد أن تكشف لى الامر فسعى فى كشفه فلم ير له من جانب صلاح الدين شيأ فعدل الى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضى الفاضل وأعلمه فقال تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهى الحال اليه فحضر عند صلاح الدين وهو فى الجامع وذكر له الحال فقام وأخذ الجماعة وقررهم فأقروا فأمر بصلبهم جميعا وكان بين عمارة وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها فلما أراد صلاح الدين صلبه قام القاضى الفاضل وخاطب صلاح الدين فى اطلاقه فظن عمارة انه يحرض على هلاكه فقال لصلاح الدين يامولانا لاتسمع منه فى حقى فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة انه كان يشفع فيك فندم فأخرج عمارة ليصلب فطلب أن يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فأغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة

عبد الرحيم قد احتجب • ان الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودى فى أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها الى أقاصى الصعيد وأحيط بمن بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله ولم يتعرض صلاح الدين للذين نافقوا عليه من جنده ولا أعلمهم أنه علم بحالهم فكانت هذه الحادثة من أعظم الحوادث التى فاز بالخلاص منها صلاح الدين ووقف على خفى أمرها • ولم يمض بعد ذلك الا القليل حتى جاءته الاخبار بموت نور الدين محمود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر ففرح بموته فرحا لايوصف • مات فى يوم الاربعاء الحادى عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة بعلة الخوانيق ودفن بقلعة دمشق ثم نقل منها الى المدرسة التى أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين قيل ومن عجيب الاتفاق أنه ركب ثانى شوّال والى جانبه بعض الامراء الاخيار فقال له أحد الامراء سبحان من يعلم هل نجتمع هنا فى العام المقبل أم لا فقال نور الدين لاتقل هكذا بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا فمات نور الدين بعد أحد عشر يوما ومات الامير المذكور قبل الحول فأخذ كل منهما بما قال •

وكان قد شرع فى التجهز للدخول الى مصر لاخذها من صلاح الدين يوسف فانه رأى منه فتورا فى غزو الفرنجة من ناحيته وكان يعلم أن مامنع صلاح الدين من الغزو سوى الخوف منه ومن الاجتماع به فان صلاح الدين يؤثر كون الفرنجة فى الطريق ليمتنع بهم على نور الدين فأرسل الى الجزيرة والموصل وديار بكر بطلب الجند للغزاة وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل والشام ويسير هو بعساكره الى ديار مصر فيقلع يوسف عنها ويخرجه هو وجميع أهله منها ويستردها لنفسه فبينما هو يتهيأ لذلك



أتاه أمر الله الذى لامرد له * قال صاحب الكامل حكى لى طبيب كان يخدم نور الدين وهو من حذاق الاطباء قال استدعانى نور الدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من الاطباء فدخلنا اليه وهو فى بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبد فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه فلما دخلنا ورأينا ما به قلت له كان ينبغى أن لاتؤخر احضارنا الى أن يشتد بك المرض الآن وينبغى أن تعجل الانتقال من هذا الموضع الى مكان فسيح مضىء فله أثر فى هذا المرض قال وشرعنا فى علاجه وأشرنا بالفصد فقال ابن ستين لايفصد وامتنع عنه فعالجناه بغيره فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ومات رحمه الله ورضى عنه اه * وكان نور الدين أسمر اللون طويل القامة ليس له لحية الا فى حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها وكان مولده سنة احدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الارض بحسن سيرته وعدله * وبموته قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بالملك بعده وكان عمره يومئذ احدى عشرة سنة وحلف له الامراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وجاءت الاخبار الى صلاح الدين بولايته فخطب له بديار مصر وضربت السكة باسمه وتولى تربيته الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وصار مدبر دولته فلم يرض به بعض الامراء بالشام وقال له كمال الدين ان صاحب مصر من أصحاب نور الدين والمصلحة أن نشاوره فى الذى نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا وهو أقوى منا لانه قد انفرد بملك مصر فلم يوافق هذا القول أغراض بعض أمراء الشام لا سيما شمس الدين محمد وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجهم فلم يمض الا القليل حتى وردت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يعزيه ويهنئه بالملك وأرسل اليه دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لابيه فلما سار سيف الدين غازى صاحب الموصل الى بلاد الجزيرة وملكها لاسباب التى لم نأت على ذكرها لبعدها عن غرضنا أرسل صلاح الدين يوسف الى الملك الصالح يعاتبه حيث لم يعلمه بقصد سيف الدين بلاده وأخذها ليحضر فى خدمته ويكف سيف الدين عن اطماعه وكتب أيضا الى كمال الدين والامراء يقول لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق اليه مثل ثقته بى لسلم اليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى وأراكم قد تفردتم بمولاى دونى فسوف أصل الى خدمته وأجازى انعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده

وتمسك ابن المقدم ومن معه من الامراء بالملك الصالح وهم يراقبون الامور وكأنهم كانوا يعلمون بقصد الفرنجة بلاد مصر بناء على طلب جماعة الامراء الذين كانوا تآمروا على صلاح الدين يوسف فلم يهتموا لجوابه ولا أعاروه أذنا صاغية فلما كانت سنة سبعين

وخمسمائة

وخمسمائة سير صاحب صقلية الى الاسكندرية عمارة عظيمة عدتها مائتا سفينة تحمل الرجال وستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب تحمل آلات الحرب وأربعين تحمل الازواد وفيها من الرجال خمسون ألفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية وكان وصول هذه العمارة فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين وخمسمائة على حين غفلة من أهلها فلما شوهدت أمام المدينة خاف الناس خوفا عظيما وخرجوا بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول الى البر فمنعهم والى الاسكندرية من ذلك وأمرهم بملازمة السور فنزل الفرنجة الى البر مما يلى الماء والمنارة وتقدموا الى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد وسيرت الكتب فى الحال الى صلاح الدين يوسف يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال من أول النهار الى آخره ثم أعاد الفرنجة القتال فى اليوم الثانى وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات الى قريب السور ووصل فى ذلك اليوم بعض الجنود المصرية ممن كانوا فى أقطاعهم القريبة من الاسكندرية فتقوت بهم عزائم أهل البلد وفرحوا بوصولهم وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح أهل الاسكندرية أبواب البلد وقاتلوا الفرنج قتالا شديدا اليوم كله ثم عادوا الى البلد فدخلوه وقد قتل منهم خلق كثير ● وأما صلاح الدين فانه لما وصله الخبر خرج بعسكره وسير مملوكا له ومعه ثلاث جنائب ليجد السير عليها الى الاسكندرية ويبشر بوصوله وسير طائفة من العساكر الى دمياط خوفا عليها واحتياطا ووصل مملوك صلاح الدين والناس فى شدة ونادى فى البلد بمجىء صلاح الدين والعسكر مسرعين ففرح الناس بذلك وتقوت نفوسهم وعاودوا القتال وجدوا فتأخر الفرنجة وتقهقروا وقد علموا بقرب وصول صلاح الدين وأنه على ما هو عليه من نفوذ الكلمة وبعد الصيت فأقلعوا بمراكبهم وعادوا الى صقلية وكفى الله الناس شرهم ● ولم يكن ليطمئن صلاح الدين يوسف برجوع مراكب الفرنجة عن الاسكندرية وكفهم عن قتال أهلها حتى جاءه الخبر من الاقاليم القبلية بخروج (الكنز) أحد المقدمين بالصعيد وأنه اجتمع اليه من أهل البلاد والغوغاء والسودان والعربان وغيرهم خلق كثير جدا فجعل صلاح الدين يتأهب لقتاله وأمر بجمع الجند وآلات الحرب وكان بالاقاليم القبلية أمير من الامراء الصلاحية فى أقطاعه وهو أخو الأمير أبى الهيجاء السمين فقام عليه الكنز المذكور وقتله ونهب أرزاقه فعظم قتله على أخيه أبى الهيجاء وكان من أكبر الأمراء وأوسعهم شهرة وأشجعهم فى الحروب فسار الى قتال الكنز وسير معه صلاح الدين جماعة من الأمراء وجيشا كبيرا فلما وصلوا الى مدينة طود قاتلوا من بها وجدوا فى قتالهم حتى ظفروا بهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا ثم ساروا بعد فراغهم من طود الى الكنز وقد عظم أمره واتسعت كلمته وخضع له معظم البلاد فقاتلوه قتالا شديدا وما زالوا يجدون فى قتاله حتى قتل هو ومن معه من الاعراب وغيرهم من السود والغوغاء وأمنت بعده البلاد وجاء الخبر بذلك الى صلاح الدين فأمر

بضرب البشائر فانه كان يخشى من استفحال أمر الكنز وقيام الاقاليم القبلية معه

ولما صفت لصلاح الدين الأمور تاقت نفسه الى الغزو والجهاد وفتح المدن والبلدان فجمع عسكرا عظيما للغاية وتأهب للخروج وبينما هو على هذا الحال اذ وردت اليه الاخبار باختلال الامور فى دمشق واضطراب الاحوال بها وتطاول أيدى الطامعين اليها وانحطاط كلمة الملك الصالح بن نور الدين صاحب الشام واستقلال الكثير من عماله بأعمالهم وخروج بعض الامراء عليه واجتماع كلمة بعض أصحاب الكلمة الذين فى خدمة الملك الصالح على استدعاء صلاح الدين يوسف ليملكوه عليهم ويسلموه جميع البلاد وكان مقدمهم فى ذلك شمس الدين بن المقدم فسر صلاح الدين بذلك وبالغ فى التأهب والاستعداد ثم حصل من الاسباب ما أوجب تأخيره لجفاه الرسل من الشام تستحثه على المسير فلم يلبث أن سار جريدة فى سبعمائة فارس ومعه القاضى الفاضل وبعض الامراء فلما وطئ أرض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتب صلاح الدين بالقدوم لاخذ البلاد فلما رأى قلة من كانوا مع صلاح الدين خاف على نفسه واجتمع بالقاضى الفاضل وقال ما أرى معكم عسكرا وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد فان كان معكم مال سهل الأمر فقالوا هنا مال كثير مقدار خمسين ألف دينار فضرب صاحب بصرى على رأسه وقال هلكتم وأهلكتمونا وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار ثم سار صلاح الدين الى دمشق فما وصل خبر وصوله الى من بها من العسكر حتى خرجوا جميعا للقائه وخدموه ودخل البلد ونزل فى دار والده المعروفة بدار العقيقى وكانت قلعة دمشق بيد خادم اسمه ريحان فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزورى وهو يومئذ قاضى البلد والحاكم فى جميع أموره من الدوان والوقف وغير ذلك وأرسله الى ريحان المذكور ليسلم القلعة اليه وقال أنا مملوك الملك الصالح وما جئت الا لانصره وأخدمه وأعيد البلاد التى أخذت منه اليه فصعد كمال الدين الى ريحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين اليها وأخذها وأخذ ما فيها من الاموال وأخرجها الى دار أبيه واتسع بها وثبتت قدمه وقويت نفسه وهو مع ذلك يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالملك والخطبة والسكة باسمه ومازال بدمشق حتى قرر أمرها واستخلف بها أخاه سيف الاسلام طغدكين بن أيوب ثم سار عنها الى مدينة حمص وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة فى أقطاع الامير فخر الدين مسعود الزعفرانى ولكنه كان مشاغبا عليها لا كلمة له فيها لسوء سيرته فى أهلها وتغلب ولاة نور الدين عليها وكان بقلعة حمص وال يحفظها فراسل صلاح الدين من بحمص بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم فملك البلد وأمن أهلها وامتنعت عليه القلعة فسار عن حمص الى مدينة حماة بعد أن وكل بحصار من فى القلعة وقطع عنهم الزاد وهو فى جميع أحواله لا يظهر الا الطاعة للملك الصالح بن نور الدين وأنه انما خرج لحفظ بلاده من الفرنجة واستعادة ما أخذه سيف الدين غازى صاحب الموصل من بلاد

الجزيرة فلما وصل الى حماة ملك المدينة وكان بقلعتها الامير عز الدين جورديك وهو من المماليك النوريه فامتنع من التسليم الى صلاح الدين فأرسل اليه صلاح الدين يعرّفه ماهو عليه من طاعة الملك الصالح وانما انما يريد حفظ بلاده فاستحلفه جورديك على ذلك وسيّره الى حلب فى اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفى اطلاق شمس الدين علىّ وحسن وعثمان أولاد الداية وقد كانوا معتقلين بحلب فسار جورديك الى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها فلما وصل جورديك الى حلب قبض عليه كمشتكين وحبسه فلما علم أخوه بذلك خاف وسلم القلعة الى صلاح الدين فملكها

وسار صلاح الدين بعد ذلك يريد أخذ حلب فحصرها وضيق على من بها فقاتله أهلها قتالا شديدا وركب الملك الصالح وهو صبى وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم قد عرفتم احسان أبى اليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد احسان والدى اليه يأخذ بلدى ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق فهل يرضيكم فعله وهل تطيقون الصبر على ماتكرهون ثم بكى وأعاد عليهم القول وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الاموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه والمنع من بلده وجدوا فى القتال وأظهروا من الشجاعة والاقدام ما أعجز صلاح الدين عن التقدم نحو البلد وأرسل سعد الدين الى سنان مقدم الاسماعيلية وبذل له أموالا كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعة منهم الى عسكره فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة برقيس فعرفهم لانه جارهم كثير الاجتماع بهم والقتال لهم فلما رآهم قال لهم ما الذى أقدمكم وفى أى شئ جئتم فقاموا عليه وضربوه بالسكاكين فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقون من الاسماعيلية جماعة ثم قتلوا وتحرز صلاح الدين واشتد تحفظه وبقى محاصرا لحلب الى سلخ جمادى الآخرة سنة سبعين وخمسمائة ثم رحل عنها مستهل رجب قاصدا حمص لرد الفرنجة عنها حيث كانوا قد حضروا لنجدة أهل حلب وخلاص ما بيد صلاح الدين من البلاد الشامية فلما علم الفرنجة بوصوله اليهم رحلوا عن حمص ووصل صلاح الدين اليها فحصر القلعة الى أن ملكها وقد كانت ممتنعة عليه كما تقدم ثم سار منها الى بعلبك وكان الوالى بها من أيام نور الدين خادم اسمه يمن فحصرها صلاح الدين وهم بقتالها فأرسل اليه يمن يطلب الامان له ولمن معه فأمنهم وتسلم القلعة رابع عشرى رمضان من السنة فصار أكثر بلاد الشام بيده وعظم الأمر جدا على الملك الصالح بن نور الدين فكتب الى ابن عمه سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويخبره بما جرى على بلاده ويطلب أن يعبر اليه ليقصدوا صلاح الدين معا ويأخذوا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد الدين زنكى صاحب سنجار لينزل اليه بعساكره فيجتمعوا على المسير الى الشام فامتنع عماد الدين من ذلك وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه فى الملك لانه هو الكبير فحمله الطمع على الامتناع على

أخيه فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعودا فى معظم عسكره وسيّره الى الشام وجعل المقدم عليه أكبر أمرائه المدعو عز الدين محمود زلفندار وسار هو الى سنجار لحصرها وقاتلها وجدّ فى قتالها فامتنع أخوه عماد الدين بها وجد فى حفظها والذب عنها فدام الحصار عليها فبينما هو يحاصرها ويضيق على من بها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذى مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على مابيده ورحل الى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة وخافه الناس واتسعت شهرته وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازى على الصلح فلم يستقر حال * هذا والملك الصالح بن نور الدين يراسل سيف الدين ويطلب حضوره اليه بعسكره ويستحلفه فكبر الامر على سيف الدين واستعظمه وسيّر عسكره مع أخيه عز الدين زلفندار الى حلب ففرح الملك الصالح بوصولهم واجتمع معهم عسكر حلب وساروا كلهم الى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين الى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة وأن يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يقبل ذلك وأبى الاتسليم جميع ماأخذه صلاح الدين من بلاد الشام والعود الى مصر وكان صلاح الدين فى هذه الاثناء يحشد الجنود ويكثر من معدات الحرب ويتجهز للقتال فلما سمع بامتناع سيف الدين من اجابته الى ماطلب نادى فى عسكره بالركوب فركبوا وركب وسار بهم الى عز الدين مسعود وزلفندار فالتقوا بالقرب من مدينة حماة بموضع يقال له قرون حماة * قال بعض الكتاب وكان زلفندار جاهلا بالحروب غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه الا أنه قد رزق سعادة وقبولا من سيف الدين فلما التقى الجمعان لم يثبت عسكر سيف الدين وانهزموا شر هزيمة وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى صلاح الدين ثباته تعجب جدا وقال اما أن هذا يكون أشجع الناس أو انه لايدرى شيأ فى الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة على عسكر سيف الدين وتبعهم صلاح الدين بعسكره فقتل وغنم من السلاح والدواب شيأ كثيرا للغاية و وصل المنهزمون الى حلب فلحقهم صلاح الدين فى عسكره وقاتلهم عليها وحاصرها وجدّ فى حصارها وضيق وأمر بقطع خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه من السكة فى جميع بلاده * ولما طال الحصار واشتد عليهم الامر راسلوا صلاح الدين فى الصلح فتقررت القاعدة بينهم على أن يكون له مابيده من بلاد الشام ولهم ماباأيديهم منها فتم الصلح على هذه القاعدة ورحل صلاح الدين بجيوشه عن حلب الى حماة فسيّر اليه الخليفة العباسى بها خلعة نفيسة للغاية مع رسوله ثم سار الى دمشق وأقام بها وقد عظم شأنه بما ملكه من بلاد الشام وبفوزه المتتابع على الملك الصالح وجميع عماله وولاته وقد ملت جنوده من طول الاقامة بأرض الشام وامتلأت أيديهم من السلب والغنائم فطلبوا العود الى بلادهم والاستراحة فأذن لهم وسار هو كذلك فى عسكر مصر ومعه الغنائم الكثيرة فلما وصل اليها خرج اليه أهله وضربت البشائر وأولم وتصدق وأكثر من الخير للناس

ولما

ولما كانت سنة خمس وسبعين وخمسمائة مات الامام المستضيء بنور الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد وكان موته فى ثانى ذى القعدة فكانت خلافته نحو سبع سنين وسبعة أشهر وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكان عادلا حسن السيرة فى الرعية كثير البذل للاموال غير مبالغ فى أخذ ماجرت العادة بأخذه وكان الناس معه فى أمن عام واحسان شامل وسكون وطمأنينة لم يروا مثلها وكان حليما محبا للعفو والصفح عن المذنبين واستوزر فى أيامه عضد الدين أبا الفرج ابن رئيس الرؤساء فلبث يتصرف فى الامور الى أن قتل فى ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة فاستوزر بعده ظهير الدين أبا بكر منصور بن نصر المعروف بالعطار وكان خيرا حسن السيرة كثير العطاء فتمكن من الخلافة وظهرت كلمته فلما مات المستضيء قام ظهير الدين المذكور بأخذ البيعة لولده الناصر لدين الله فلما تمت له البيعة صار الحكم فى الدولة لاستاذ الدار مجد الدين بن أبى الفضل بن الصاحب * قال صاحب الكامل ولم يلبث بن العطار أن قبض عليه ووكل عليه فى داره ثم نقل الى التاج وقيد ووكل به وطلبت ودائعه وأمواله وفى ليلة الاربعاء ثامن عشر ذى القعدة أخرج ميتا على رأس حمال فغمز به بعض الناس فثار به العامة فألقوه عن رأس الحمال وكشفوا سوأته وشدوا فى ذكره حبلا وسحبوه فى البلد ووضعوا بيده مغرفة كأنها قلم وغمسوها فى العذرة وصاروا يقولون وقع لنا يامولانا الى غير ذلك من الافعال الشنيعة ثم خلص من أيديهم ودفن قال هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم وأعراضهم

ومات فى خلافة المستضيء خائيل بطرك الاسكندرية فكانت مدته تسع سنين وقيل تسع سنين وثمانية أشهر وكانت وفاته بالمعلقة بمصر واتفق فى أيامه أن نقص النيل نقصا فاحشا فسيره الخليفة الى بلاد الحبشة بهدية سنية الى النجاشى فتلقاه النجاشى وأكرم وفادته وأجله كثيرا وسأله عن سبب قدومه فعرفه بنقص النيل وضرر أهل مصر بسبب ذلك قبل فأمر بفتح سد يجرى منه الماء الى أرض مصر ففتح فزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع واستمرت الزيادة حتى روت البلاد وزرعت ثم عاد خائيل البطرك فخلع عليه الخليفة وأحسن اليه وأكرمه جدا فلما مات أقيم بعده مقارى أو هو مكاريوس الثانى تاسع ستهم وهو راهب من دير بومقار وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

(الفصل الرابع والثلاثون)

(فى خلافة أبى العباس أحمد الناصر لدين الله)

ثم قام بالامر بعد المستضيء ابنه أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بويع له بالخلافة

يوم وفاة أبيه فى أول ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة هجرية أى سنة تسع وسبعين ومائة وألف ميلادية وعمره ثلاث وعشرون سنة وسيرت الرسل الى الآفاق لاخذ البيعة له فسير صدر الدين شيخ الشيوخ الى البهلوان صاحب همدان وأصفهان والري وغيرها فامتنع من البيعة فراجعه صدر الدين وأغلظ عليه فى القول حتى انه قال لعسكره فى حضرته مالهذا عليكم طاعة مالم يبايع أمير المؤمنين بل يجب عليكم أن تخلعوه وتقاتلوه فخاف البهلوان وأذعن للبيعة والخطبة للناصر وسير رضى الدين القزوينى مدرس النظامية الى الموصل لاخذ البيعة فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله فى هذه السنة وجاءت الاخبار الى صلاح الدين يوسف بموت المستضىء وخلافة ابنه الناصر لدين الله فبايع له وخطب له أيضا وسير اليه الهدايا النفيسة والاعلاق الثمينة وهو بمصر ينشئ العمائر العظيمة والابنية الجسيمة فانه منذ رجوعه من الشام رسم بترميم القناطر والجسور وتطهير الترع وكانت جسور النيل قد أهملت من عهد الدولة الفاطمية فكان اذا فاض طغت مياهه فأغرقت وخربت الطرق وأفسدت الزرع فرمم مافسد منها وأقام السدود ونقل لبنائها كثيرا من حجارة الاهرام الصغيرة التى كانت حول الكبيرة بالجيزة وغيرها من أحجار المعابد والهيا كل القديمة المصرية ومهد الطريق من مصر الى الصعيد الاعلى وأنشأ القلعة بسفح المقطم المعروفة الآن بقلعة الجبل وبنى له فيها قصرا وقد كان الى هذا الحين يسكن فى دار الخليفة العبيدى ودار الوزير فجعلهما مسكنا لقواد الجيوش وأمراء الدولة من بعده ووكل بالبناء وزيره الامير بهاء الدين الاسدى الخصى وكان جليل القدر مقداما حسن السياسة والتدبير فبالغ فى العمل وأكثر من البنائين والعمال والمهندسين ونقر فى القلعة بئرا فى الصخر عميقا فيه من الماء ما يكفى حاجة الجند والمرابطين بالقلعة وهى باقية الى يومنا هذا والعامة يقولون انها البئر التى نزل فيها يوسف اخوته ه قال بعض الكتاب وانما هذا البئر من عمل المصريين القدماء فانطمس بالرمال ولم تخف معالمه فاعاد بهاء الدين حفره عند بناء القلعة واهتم بهاء الدين ببناء سور حول مصر والقاهرة وقلعة الجبل طوله تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع الهاشمى وكان قد بدأ بعمارته صلاح الدين يوسف سنة ست وستين وخمسمائة على عهد العاضد العلوى ثم بطل العمل فيه بسبب الفتن والحروب فجد بهاء الدين فى عمارته وهدم فى تخطيطه كثيرا من المساجد والمعابد والقبور والبيوت والوكائل والعمائر الجسيمة فضج الناس من ذلك وكبر عليهم هذا الامر وحسبوه جورا وظلما من بهاء الدين فابغضوه وسموه قراقوش وكانوا يلقون الرقاع فى طريقه وكلها سب ولعن له ولاصحابه وكان اذا مر بالاسواق صاح العامة فى وجهه وقالوا ماتحصل لك هذه الفعال ياظالم وهو لايلتفت اليهم ولا يؤاخذهم بشئ من ذلك وقد ألف الاسعد بن مماتى كتابا سماه الفاشوش فى أحكام قراقوش ذكر فيه من أفاعيل الجور والعسف وأنواع المظالم شيأ كثيرا وحفر بهاء الدين خندقا يمتد من باب الفتوح الى المقس وهو الخطة التى بها جامع أولاد عنان اليوم ومن الجهة الشرقية خارج

باب

باب النصر الى باب البرقية وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سورا آخر بابراج مبنيا بالحجارة العظيمة وابتنى الاشوان العظيمة بمصر لحفظ الغلال التى ترد فى كل سنة من الاعمال من الاقليمين القبلى والبحرى وهى الى الآن تعرف بمخازن يوسف والناس يظنون أنها مخازن فرعون يوسف التى بناها بعد تعبير رؤياه * قال أصحاب التاريخ وقد بنى سور القاهرة ثلاث مرات بناه فى المرة الاولى جوهر القائد وفى الثانية أمير الجيوش بدر الجمالى وفى الثالثة بهاء الدين وزير صلاح الدين يوسف فزاد فيه بهاء الدين القدر الذى يبتدئ من باب القنطرة الى باب الشعرية ومن باب الشعرية الى باب البحر وابتنى مع ذلك قلعة المقس جعلها على النيل بجانب جامع المقس المعروف الآن بجامع أولاد عنان وزاد فيه أيضا قطعة مما يلى باب النصر ممتدة الى باب البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير حتى يتصل بسور قلعة الجبل

وبينما كان صلاح الدين يشيد العمائر ويمهد الطرق ويقيم الجسور ويصلح الترع ويسهل العقبات بالديار المصرية جاءه الخبر بوفاة الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب والشام مات فى رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة هجرية وعمره نحو تسع عشرة سنة وكان على صغر سنه كثير التأمل واسع الفكر كبير المعرفة وكان يخشى من صلاح الدين يوسف ويعلم أنه سيأخذ عنه يوما ما بقى له من بلاد الشام ولذلك كان كثير الاحتياط بعيد الحساب فلما مرض وأيس من نفسه أحضر الامراء وسائر الاجناد وأوصاهم بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى واستحلفهم على ذلك فقال له بعضهم ان عماد الدين ابن عمك أيضا أحق بها وهو زوج أختك وكان والدك نور الدين يحبه ويؤثره وقد تولى تربيته بنفسه فهو أصلح للولاية وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد لكان أوفق وعز الدين له من البلاد من الفرات الى همذان ولا حاجة به الى بلدك فقال له ان هذا لم يغب عنى ولكن قد علمتم أن صلاح الدين يوسف قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدى الآن ومتى سلمت حلب الى عماد الدين يعجز عن حفظها وان ملكها صلاح الدين لم يبق لاهلنا معه مقام وان سلمت الى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا فعاله وعجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه ولما قضى نحبه أرسل الامراء الى أتابك عز الدين يستدعونه الى حلب فسار هو ومجاهد الدين قايماز الى الفرات وأرسل الى الامراء فحضروا عنده وساروا جميعا الى حلب فدخلوها فى العشرين من شعبان وكان صلاح الدين حينئذ بمصر * قال أصحاب التاريخ ولولا ذلك لزاحمهم عليها وقاتلهم وكان تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين يوسف بمدينة منبج فلما مر بها عز الدين ومن معه الى حلب خاف تقى الدين وهرب من منبج الى حماة فثار أهل حماة فأشار الامراء والقواد بحلب على عز الدين بقصد دمشق وأطمعوه فيها وفى غيرها من البلاد وأعلموه بمحبة أهل الشام له ولاهل بيته فلم يفعل وقال بيننا يمين فلا نغدر به وأقام بحلب ما شاء ثم سار عنها الى الرقة فلم يستقر به المقام



حتى جاءته رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار ليطلب أن يسلم اليه حلب ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار فلم يجبه الى ذلك وألح عماد الدين وترددت الرسل بينهما أياما كثيرة وكلم الامراء فى ذلك أيضا فسلمها اليه وأخذ بدلها سنجار وعاد الى الموصل وكان صلاح الدين يوسف لما بلغه خبر دخول عز الدين الى حلب وتصرفه فيها كبر عليه الامر جدا وخاف أن يسير منها الى دمشق وغيرها فيأخذ ما بيد صلاح الدين من البلاد الشامية فانكمش وجعل يراقب الفرص فلما بلغه ملك عماد الدين لها برز من مصر من يومه وسار الى الشام وكان خروجه فى الخامس من المحرم افتتاح سنة ثمان وسبعين * قال صاحب الكامل ومن عجيب ما يحكى من التطير انه لما برز من القاهرة أقام بخيمته ظاهر القاهرة حتى تجتمع العساكر والناس عنده وأعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب وكلهم مودع له وسائر معه وكان كل واحد يقول شيأ فى الوداع والفراق وما هم بصدده من السفر وكان ممن حضر هذا المجلس معلم لبعض أولاد صلاح الدين وكان جالسا خلف الجالسين فأخرج رأسه من بينهم وأنشد

تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطير وتنكد المجلس على الحاضرين فلم يعد صلاح الدين الى مصر الى أن مات مع طول الوقت اه وسار صلاح الدين عن مصر فتبعه التجار وأهل البلاد ممن كان قصد مصر من الشام فرارا من الغلاء وغيره فجعل طريقه على أيلة فلما سمع الفرنجة بسيره جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير فسير الضعفاء والانتقال مع أخيه تاج الملوك بورى الى دمشق وبقى هو فى المقاتلة فشن الغارات على أطراف الكرك والشوبك فلم يخرج اليه منها أحد فسار الى دمشق فوصلها بمن معه سالما ولبث بها أياما حتى أصلح حال جنده وتمم عسكره وسار بهم الى بلاد الفرنجة فى ربيع الاول فقصد طبرية فنزل بالقرب منها وخيم فى الاقحوان من الاردن فتهيأ الفرنجة وجاؤا اليه بجموعهم فنزلوا بطبرية وتأهبوا للقتال فسير صلاح الدين يوسف فرخشاه ابن أخيه الى بيسان فدخلها قهرا وغنم ما فيها وقتل وسبى وعم القتل والسبى وجاءت العرب فأغارت على جنين واللجون وما جاورهما من البلدان حتى قاربوا مرج عكا وسار الفرنجة من طبرية حتى نزلوا تحت جبل كوكب فتقدم صلاح الدين اليهم وأرسل عسكره يرمونهم بالنشاب فلم يتحركوا للقتال فعاد صلاح الدين الى دمشق ولبث بها أياما ثم سار منها فعبر الفرات وملك عدة بلاد من ديار الجزيرة وأقطعها للامراء الذين كانوا فى خدمته ودخل الفرنجة دمشق فقتلوا ونهبوا وسبوا ورحلوا عنها وجاءت الاخبار بذلك الى صلاح الدين فلم يقدر على الرجوع وقد اطمأن بترك الفرنجة لها ورحيلهم عنها ثم سار الى الموصل وحاصرها فلم ينل منها وعاد عنها الى سنجار فقاتلها فخامر معه بعض الامراء الاكراد وسلم اليه الناحية التى هو بها فطرقه صلاح الدين فلما أحس شرف الدين صاحبها بذلك استكان وخضع وطلب الامان فأمنه وملك البلد صلاح الدين وسار شرف الدين ومن معه الى الموصل

وطويت

وقويت عزيمة صلاح الدين بملك سنجار واطمأن على مابيده من البلاد الشامية اذ صارت سنجار على جميع تلك البلاد كالسور واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أنز وهو من كبار الامراء وأحسنهم سيرة وبقى صلاح الدين يوسف مشغول البال بملك حلب ونزعها من عماد الدين زنكى بن مودود وهو يراقب الفرص ويتبين انتفاعها فلما كان المحرم افتتاح سنة تسع وسبعين نزل عليها بجيش عظيم وأقام بالميدان الاخضر عدة أيام ثم انتقل منه الى جبل جوشن فنزل باعلاه وأظهر انما يريد أن يبنى مساكن له ولاصحابه وعسكره وأقام عليه أياما والقتال بين العسكرين كل يوم وعماد الدين زنكى ومن معه من العسكر النورى يجدون فى القتال ويدفعون عن البلد فلما كان فى بعض الايام جاء الى عماد الدين بعض الجنود وطلبوا منه ماالنفقة فاعتذر بقلة المال عنده فقال له بعضهم ان من يريد أن يحفظ بلدا مثل حلب لابد له من صرف الاموال ولو باع حلى نسائه فخاف عماد الدين وحسب ما وراء ذلك فمال الى تسليم حلب الى صلاح الدين وأخذ العوض عنها وأرسل فى الحال مع الأمير طومان الياروقى وكان ممن يميل الى صلاح الدين يوسف أن يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وجرت اليمين على ذلك * قال أصحاب التاريخ وباعها عماد الدين بابخس الاثمان أعطى حصنا مثل حلب وأخذ عوضها قرى ومزارع فنزل عنها ثامن عشر صفر وتسلمها صلاح الدين يوسف فعجب الناس كلهم من ذلك وقبحوا فعل عماد الدين حتى ان بعض عامة حلب أحضر اجانة وماء وناداه أنت لايصلح لك الملك وانما يصلح لك أن تغسل الثياب وأسمعوه المكروه * واستقر ملك صلاح الدين يوسف وسار عماد الدين الى البلاد التى أخذها فتسلمها وتقررت القاعدة بينه وبين صلاح الدين على أن عماد الدين يحضر فى خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره اذا استدعاه لايحتج بحجة وامتدح محى الدين بن الزكى قاضى دمشق صلاح الدين يوسف بقصيدة منها

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر * مبشر بفتوح القدس فى رجب

فكان فتح بيت المقدس فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كما سيذكر فى محله وهو من غريب الاتفاق * قال صاحب الكامل وكان فى جملة من قتل على حلب تاج الملوك بورى أخو صلاح الدين الاصغر وكان فارسا شجاعا كريما حليما جامعا لخصال الخير ومحاسن الاخلاق طعن فى ركبته فانفكت فمات منها بعد أن استقر الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل أن يدخلها صلاح الدين فلما استقر الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده وقال له هذه حلب قد أخذناها وهى لك فقال ذلك لوكان وأنا حى وواالله لقد أخذتها غالية حيث تفقد مثلى فبكى صلاح الدين وأبكى ولما خرج عماد الدين الى صلاح الدين وقد عمل له دعوة احتفل فيها فبينماهم فى سرور اذ جاء انسان فأسر الى صلاح الدين بموت أخيه فلم يظهر هلعا ولا جزعا وأمر بتجهيزه سرا ولم يعلم عماد الدين ومن معه



فى الدعوة واحتمل الحزن وحده لئلا يتشكك ماهم فيه وكان هذا من الصبر الجميل اه
ووصلت الاخبار الى صلاح الدين يوسف بوفاة قطب الدين صاحب ماردين وملك ابنه بعده وهو طفل وأن الحكم الى شاه أرمن صاحب خلاط وعسكره فيها وشاه أرمن هذا خال قطب الدين فطمعت نفس صلاح الدين فى أخذها فسار اليها فى جيش عظيم من الرجال والفرسان ونازلها فرآها مشحونة بالرجال وبها زوجة قطب الدين المتوفى ومعها بنتان لها منه وهى أخت نور الدين محمد صاحب الحصن فحاصر صلاح الدين البلد وشدد فى حصارها وكان المقدم على عسكرها أمير اسمه برتقش ولقبه أسد الدين وهو من كبار قواد العسكر وأشجعهم وأعلمهم بفنون الحرب واشتد القتال بين الفريقين شدة بالغة فلم يصل صلاح الدين الى مايريد فعدل من القوة والحرب الى اعمال الحيلة والدهاء فراسل زوجة قطب الدين وهى بالبلد يقول لها ان أسد الدين برتقش قد مال الينا فى تسليم البلد ونحن نرى حق أخيك نور الدين فيك بعد وفاته ونريد أن يكون لك فى هذا الامر نصيب وأنا أزوج بناتك بأولادى ويكون ميافارقين وغيرها لك وبحكمك ووضع أيضا من أرسل الى برتقش أن الخاتون قد مالت للمقاربة والانقياد الى السلطان وان من بخلاط من الجند والعسكر كاتبوه ليسلموا اليه فخذ لنفسك واتفق أن رسولا وصل من خلاط ليعلن صلاح الدين يوسف بالطاعة ففرح صلاح الدين بقدوم الرسول وأمره بالدخول الى ميافارقين والاجتماع ببرتقش فدخل واجتمع به وقال له أنت عمن تقاتل وأنا قد جئت فى تسليم خلاط الى صلاح الدين فسقط برتقش فى يده وضعفت عزيمته وأرسل الى صلاح الدين يطلب أن يقطعه بلدا ومالا وهو يتخلى عن البلد الى صلاح الدين فأجابه صلاح الدين الى ذلك وتسلم البلد فلما دخل اليها وفى بوعده الى زوجة قطب الدين وعقد نكاح بعض أولاده على بعض بناتها وأقر بيدها قلعة هناخ لتكون فيها هى وبناتها ورتب الامور فى ميافارقين وقرر اقطاعاتها وجميع ولاياتها وأحكم قواعدها ثم سار عنها يريد الموصل فانه كان كثير الرغبة فى أخذها من صاحبها شديد الطمع فى ذلك فسار نحوها وجعل طريقه على نصيبين فوصل الى كفر زمار والوقت شتاء فنزلها فى عساكره وعزم على المقام بها وقطع المدد من الغلة والاقوات عن الموصل لاضعافها فقد علم أنه لايقدر على محاربتها لمنعتها وكثرة مابها من الجند وآلات الحرب وطال مكث صلاح الدين بعسكره فخاف عز الدين صاحب الموصل فأرسل رسله الى صلاح الدين فى الصلح فمال صلاح الدين الى ذلك فبينما الرسل تتردد بينهما اذ مرض صلاح الدين وسار من كفر زمار عائدا الى حوران فلحقه الرسل بالاجابة الى ماطلب فتقرر الصلح وحلف على ذلك وكانت القاعدة أن يسلم اليه عز الدين شهرزور وأعمالها وولاية القرابلى وجميع ماوراء الزاب من الاعمال ويخطب له على منابر بلاده ويضرب اسمه على السكة وأرسل رسله الى عز الدين ليحلف بحضرتهم على ذلك فحلف وتسلم البلاد التى استقرت القاعدة على تسليمها ووصل صلاح الدين الى حوران فأقام بها مريضا وطال مرضه فأمنت الدنيا وسكنت الفتنة * وكان عند صلاح الدين

من

من أهله أخوه الملك العادل وهو يومئذ على حلب وولده الملك العزيز عثمان واشتد مرضه حتى أيسوا منه فحلف الناس لاولاده بالطاعة وجمع اليه الامراء وقواد الجند وجعل لكل من أولاده شيأ من البلاد موقوفا وجعل أخاه العادل وصيا على الجميع وجاءه ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة ليزوره فرأى من شدة مرضه ما أطمعه فى أخذ دمشق اذا هو مات فسار من عنده الى حمص واجتاز بحلب وأحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد اليه اذا مات صلاح الدين وأقام بحمص ينتظر موته ليسير الى دمشق فيملكها وانتقل صلاح الدين من حوران الى دمشق فبلغه ما قاله ناصر الدين فلم يمض غير قليل حتى مات ناصر الدين ليلة عيد الاضحى قيل انه شرب الخمر وأكثر منه فأصبح ميتا وقيل ان صلاح الدين وضع انسانا يقال له الناصح بن العميد من دمشق فحضر عند ناصر الدين فى تلك الليلة ونادمه وسقاه سما فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح المذكور فسألوا عنه فقيل انه سار من ليلته الى صلاح الدين فكان هذا مما قوى الظن * ولما مات ناصر الدين شيركوه أخذ صلاح الدين جميع اقطاعه وأعطاها لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة قال بعض الكتاب وخلف ناصر الدين من الاموال والخيل والآلات شيأ كثيرا فحضر صلاح الدين فى حمص واستعرض تركته وأخذ أكثرها ولم يترك الا مالا خير فيه قال صاحب الكامل وبلغنى أن شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة فقال له الى أين بلغت من القرآن فقال الى قوله تعالى ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا قال فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة أخرج صلاح الدين يوسف ولده الافضل عليا من مصر الى دمشق وأقطعها له وأخذ حلب من أخيه العادل وسيره مع ولده العزيز عثمان الى مصر وجعله نائبا عنه واستدعى تقى الدين منها وسبب ذلك أنه كان استناب تقى الدين بمصر وجعل معه ولده الاكبر الافضل عليا فأرسل تقى الدين يشكو من الافضل ويقول انه قد عجز عن جباية الاموال معه لانه كان حليما كريم الطبع اذا أراد تقى الدين مطالبة أحد أو معاقبته منعه فأحضر صلاح الدين ولده الافضل وكتب الى تقى الدين يقول ليس لك بعد أخذ الافضل حجة فى الخراج أو غيره وتغير عليه بسبب ذلك وظن انه انما يريد اخراج الافضل عن مصر لينفرد بها حتى يملكها اذا مات صلاح الدين وقوى هذا الخاطر عنده فأحضر أخاه العادل من حلب وسيره الى مصر ومعه ولده العزيز عثمان واستدعى تقى الدين الى الشام فامتنع من الحضور وجمع العساكر والاجناد ليسير الى المغرب الى مملوكه قراقوش وكان قد استولى على جبال نفوسة وبرقة وغيرها وكتب اليه يرغبه فى تلك البلاد فتهيأ للسفر اليه واستصحب معه الجند والعساكر وآلات الحرب فلما سمع ذلك صلاح الدين يوسف ساءه وعلم انه ان أرسل اليه يمنعه ليجيبه فأرسل اليه يقول أريد أن تحضر عندى لأودعك وأوصيك بما

تشعله فلما حضر عنده منعه وزاد فى اقطاعه حماة ومنبج والمعرة وكفر طاب وميا فارقين وجبل جور بجميع أعمالها * قال صاحب الكامل بلغنى من خبير بأحوال صلاح الدين انه انما حمله على أخذ حلب من العادل واعادة تقى الدين الى الشام ان صلاح الدين لما مرض بحران أرجف بمصر انه قد مات بجرى من تقى الدين حركات من يريد أن يستبد بالملك فلما عوفى صلاح الدين بلغه ذلك فأرسل الفقيه عيسى الهكارى وكان كبير القدر عنده مطاعا فى الجند الى مصر وأمره باخراج تقى الدين والمقام بمصر فسار مجدا فلم يشعر تقى الدين الا وقد دخل الفقيه عيسى الى داره بالقاهرة وأرسل اليه يأمره بالخروج منها فطلب أن يمهله الى أن يتجهز فلم يفعل وقال تقيم خارج المدينة وتتجهز فخرج وأظهر أنه يريد الدخول الى الغرب فقال له اذهب حيث شئت فلما سمع صلاح الدين الخبر أرسل اليه يطلبه فسار الى الشام فأحسن اليه ولم يظهر له شيأ مما كان لانه كان حليما كريما صبورا رحمه الله اهـ

ولما دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كتب صلاح الدين الى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب الى الموصل وديار الجزيرة واربل وغيرها من بلاد الشرق والى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم الى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز ثم خرج من دمشق فى عسكرها فسار الى رأس الماء وتلاحقت به العساكر الشامية فلما اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الافضل عليا ثم ساروا جميعا الى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما فنهبوا وخربوا وأحرقوا ثم سار منها الى طبرية فملكها وأمن صاحبتها فرحلت عنها فرتب أمورها وأحكم نظامها وسار عنها الى عكا فاستسلمت اليه ونزح الكثير من أهلها بما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا مابقى ودخل المسلمون اليها وسلم البلد بعد ذلك الى ولده الافضل وأعطى جميع مافيه من اقطاع وجناح وغير ذلك الى الفقيه عيسى وكان فيها من السلاح والاموال والمتاع وغير ذلك شئ لايكاد يدخل تحت الحصر وأقام صلاح الدين بعكا بعد ذلك عدة أيام حتى أتم تقرير جميع أمورها على قواعد مرتبة ثم ملك بيروت وجبلى وغيرهما وأجرى فيها أحكامه وأقام العمال بها على نظامه وترتيبه المألوف عنده فلما دانت له الامور فى جميع بلاد الشام الا ما كان منها بيد الفرنجة كان أمر عسقلان وبيت المقدس عنده أهم فكان كثير التحدث بحوادثهما كبير التولع بمعرفة أخبارهما وكان يقول أما عسقلان فانها على طريق مصر وأحب الاشياء عندى أن تتصل الولايات لى فلا يصعب علىّ خروج العسكر منها ودخولهم اليها وأما فتح بيت المقدس ففيه من الذكر الجميل والصيت العظيم مايبقى على مر الايام وفى أخذ البلدين فائدة للاسلام والمسلمين وعظمت رغبته وقويت نفسه بأخذ بيروت فسار منها نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومن معه من العسكر المصرى ونازلوها يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة وجد فى قتالها ونصب المنجنيقات ورمى بالاحجار ليلا ونهارا وسد عليها جميع المسالك فانقطع المدد وقلت الأقوات وطال القتال أياما كثيرة فلم يرمن بالمدينة من الفرنجة بدا من التسليم فراسلوا صلاح الدين فى

ذلك

ذلك واشترطوا شروطا فأجابهم صلاح الدين اليها فسلموها وخرج منهم من أراد الخروج بعياله وعياله ووفى لهم صلاح الدين بالامان ثم مال صلاح الدين بعسكره على ما جاور عسقلان من البلدان فأخذها وأنفذ فى جميعها أحكامه فذاع صيته واتسعت كلمته وهابه الملوك لما رأوه من انتصاره فى غزواته وفتوحاته ولما فرغ من أمر عسقلان وما جاورها من البلدان وقد استتب له الامر فيها أرسل الى مصر فأخرج الاسطول الذى بها فى جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب فأقاموا فى البحر يقطعون الطريق على الفرنجة كلما رأوا لهم مركبا غاصبوه أوأخذوه بما فيه من غلة أو متاع وما زال على هذا الحال حتى وصل فسار صلاح الدين عن عسقلان الى بيت المقدس وكان به جمع كبير من المقاتلة والفرسان الاشداء وقد حصنوه تحصينا ونصبوا عليه المنجنيقات وتأهبوا للذب والدفاع فلما قرب صلاح الدين منه تقدم أمير من أمراء جند صلاح الدين فى جماعة من أصحابه فلقيه جمع من الفرنجة قد خرجوا من البلد ليناوشوهم القتال فقاتلوه ومن معه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جميع من معه فأهم المسلمين قتله وساروا حتى نزلوا على بيت المقدس فرأوا على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا لأهله من الجلبة والضجيج من وسط المدينة مااستدلوا به على كثرة الجمع • وبقى صلاح الدين يوسف خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتلها لانها كانت فى غاية المنعة فلم يجد عليها موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية ونزلها ونصب فى ليلة وصوله المنجنيقات فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ورمى الفرنجة بمنجنيقاتهم وقاتلوا أشد قتال لم يره أحد من الناس وكان فرسان الفرنجة يخرجون فى كل يوم الى ظاهر البلد فيقاتلون ويبارزون فقتل من الفريقين خلق ومات من المسلمين الامير عز الدين عيسى بن مالك وهو من أكبر الامراء فى جيش صلاح الدين وكان أبوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلى القتال بنفسه حتى قتل وما زالوا على جد وشدة فى القتال حتى وصل المسلمون الى الخندق وجاوزوه والتصقوا بالسور ينقبونه والرماة يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمى لتكشف الفرنجة عن الاسوار حتى يتمكن المسلمون من النقب حتى نقبوه فلما رأى الفرنجة ذلك أرسلوا الى صلاح الدين فى طلب الامان وخرج صاحب الرملة واجتمع بصلاح الدين يوسف وكلمه فى الكف عن القتال وتقرير قاعدة لتسليم البلد وقال له أيها السلطان اعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير جدا لايعلمه الا الله وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظنا منهم أنك تجيبهم اليه فاذا رأينا أن لامناص من الموت فوالله لنقتلن أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولانترككم تأخذون منها دينارا ولا درهما ولا تسبون ولا تأسرون رجلا ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا وقاتلنا كم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه وحينئذ لايقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله ونموت

أعزاء أو تظفر كراما فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على اجابتهم الى مايطلبون وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب مالا يدرون عاقبة الامر فيه عن أى شئ ينجلى فأجاب صلاح الدين حينئذ الى ماطلبه صاحب الرملة واستقر أن يأخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيها الغنى والفقير ومن الطفل من الذكور والبنات دينارين ومن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك الى أربعين يوما فقد نجا ومن انقضت الاربعون يوما عنه ولم يؤدها فقد صار مملوكا فبذل صاحب الرملة عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ورتب صلاح الدين على كل باب من البلد أميرا من الامراء ليأخذوا من أهلها مااستقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم أولئك الامراء الاموال وتفرقت أيدى سبأ * قال صاحب الكامل وغيره وكان على رأس قبة الصخرة بالبيت المقدس صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة المذكور تسلق جماعة منهم الى أعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلهم صيحة واحدة من البلد ومن ظاهرها من المسلمين والنصارى فسمع الناس ضجة عظيمة كادت الارض أن تميد بهم لعظمها وشدتها فكان هذا الحادث من العجائب وتحدث الناس به كثيرا * ثم أمر صلاح الدين باعادة ما تخرب من الابنية الى ما كان عليه ولما كانت الجمعة الاخيرة رابع شعبان صلى المسلمون فى المسجد الاقصى صلاة الجمعة ومعهم صلاح الدين يوسف وصلى أيضا فى قبة الصخرة وكان الخطيب والامام محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق ثم رتب صلاح الدين فيه خطيبا واماما برسم الصلوات الخمس وشرع من قام من الفرنجة فى بيت المقدس فى بيع ملا يمكنه حمله من أمتعة وذخائر وأموال و أخذ مايطيق حمله فكان مايبيع شيأ كثيرا من الاسرة والصناديق والبتيات وغير ذلك فاشتراه تجار المسلمين وتركوا أيضا من الرخام الذى لامثيل له من الاساطين والالواح والفصوص وغيره شيأ كثيرا ثم ساروا ورحلوا متفرقين * قال أصحاب التاريخ وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه غير صلاح الدين يوسف رحمه الله وكفاه ذلك فخرا وشرفا

ولما شاع خبر أخذ صلاح الدين يوسف بيت المقدس وشحنه بالعساكر والاجناد والمهاجرين من المسلمين وأنه قد ولى عليه التطهير أخا الفقيه عيسى وفوّض اليه تدبيره هاج النصارى وماجوا ووصل بعض المستنفرين من أهل بيت المقدس الى قسطنطينية وغيرها من البلاد الالمانية وأخبروا بما جرى ووردت كتب بابا رومية الى امبراطور الالمان وغيره من ملوك أوروبا فى هذا المعنى فهموا باعداد المقاتلين وأكثروا من جمع الاسلحة ومعدات الحرب وبالغوا فى التجهز للقتال * قال بعض الكتاب وسار بطرك بيت المقدس الى رومية فى جمع من القسوس يستنفرون الناس الى الجهاد واستخلاص بيت المقدس من يد صلاح الدين يوسف ورسموا صورة المسيح فى زى رجل عارى البدن حاسر الرأس وبجانبه آخر فى زى أعرابى وقد طعنه وأسال دمه وطافوا بهذه الصورة فى الطرق والشوارع وهم يصيحون

ويبكون

ويبكون ويحثون الناس فهاج الناس وماجوا وكبر عليهم الأمر جدا وزادت حميتهم وتبعوهم وهم ينادون بالثار بالثار * وبينما كانت خواطر النصارى فى اضطراب وامبراطور الالمان يجهز المقاتلة للخروج للقتال كان صلاح الدين يوسف أيضا يجيش الجيوش ويكثر من الكراع ومعدات الحرب وهو على عزم أن يفتح مابقى من بلاد الساحل وسار الى جبلة ففتحها باغراء قاضيها وفتح ماحولها مثل انطرطوس ومرقية وأخذ حصن بكسرائيل بين جبلة ومدينة حماة وبعد أن قرر أحوال جبلة وجعل فيها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر سار عنها الى اللاذقية وكان الفرنجة قد ساروا عنها وأخلوها وصعدوا الى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتين وقاتلوهما وقد دخل الى الفرنجة بالقلعتين قاضى جبلة وما زال بهم حتى استأمنوا لصلاح الدين وخرب عسكر صلاح الدين مافى مدينة اللاذقية من الابنية العظيمة والعمائر الجسيمة المزخرفة المملوءة بالرخام الملون ونقلوا رخامها وشعثوا كثيرا من كنائسها التى قد غرم عليها الاموال الجليلة المقدار وبعد أن قرر أحوالها سلمها الى ابن أخيه تقى الدين عمر وسار صلاح الدين من اللاذقية الى قلعة صهيون فقاتل من بها وما زال يقاتلهم حتى سلموا اليه على قطيعة فتسلم الحصن وسلمه الى الامير ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبى قبيس ثم بث صلاح الدين سراياه حول صهيون فملكوا حصن بلاطنوس وحصن العيدو وحصن الجماهرتين وكان جماعة الفرنجة قد تركوها ورحلوا عنها * قال أصحاب التاريخ فاتسعت المملكة الاسلامية بتلك الناحية الا أنه كان دون الوصول اليها من البلاد الاسلامية على عقبة بكسرائيل أحوال لان الطريق السهلة كانت غير مسلوكة فان بعضها كان بيد الاسماعيلية وبعضها بيد الفرنجة فلما استسلمت الحصون المذكورة استسلمت أيضا قلعة الثغر ووجدوا قلعة بكاس خالية ليس فيها أحد من الفرنجة فأخذوها وسير صلاح الدين ولده الظاهر غازى صاحب حلب الى سرمينية فحاصرها وضيق عليها ومازال بأهلها حتى استنزلهم على قطيعة قررها عليهم فلما أنزلهم وأخذ منهم المقاطعة هدم الحصن وكان فيه وفى بقية تلك الحصون من أسارى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا وكانت جميع هذه الحصون الى سرمينية من أعمال أنطاكية فلم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك كما ذكره أصحاب التاريخ ثم سار صلاح الدين يوسف الى حصن برزية ونزل عليه وفتحه بعد قتال شديد دام أياما وأمن صاحب الحصن هو وعائلته ووفى له بالعهد وسيره الى أنطاكية ولبث ببرزية يومين ثم رحل عنها وأتى جسر الحديد على نهر العاصى بالقرب من أنطاكية فأقام عليه حتى وافاه من تخلف من الجند والقواد وسار عنه الى قلعة درب ساك فنزل عليها ونصب المنجنيقات وتابع الرمى عليها بالحجارة وما زال يجد فى قتالها ويزحف على الاسوار بجنده المرة بعد المرة حتى ظهر ضعف من بها من الفرنجة وعجزهم عن القتال وطلبوا من صلاح الدين الامان فأجابهم الى ماطلبوه فخرجوا وساروا الى انطاكية ولم يأخذوا من أموالهم ومتاعهم شيأ وكذلك فعل

بقلعة بغراس ولما تم له فتح بغراس عرض عسكره ليسير بمن بقى منهم الى فتح أنطاكية
فرأى من ضعفهم وملهم وانقباض نفوسهم ماخافه وأشفق منه فلبث أياما لاأمرهم بالسير
واتفق أن صاحب أنطاكية أرسل الى صلاح الدين يطلب الهدنة وأطلق كل أسير
عنده من المسلمين ففرح صلاح الدين بذلك واستشار من عنده فاشاروا باجابته الى ما طلب
ليعود الناس فيستريحوا ويجددوا مايحتاجون اليه فأرسل صلاح الدين الى صاحب
أنطاكية بالقبول واصطلحوا مدة على ثمانية أشهر واستحلفه على حفظ الزمام فحلف له وأطلق
من عنده من الاسرى فرحل صلاح الدين بعسكره عن أنطاكية الى حلب ثالث شعبان
من السنة أى سنة أربع وثمانين وخمسمائة فدخلها وسارمنها الى دمشق وفرق العساكر
الذين مع زنكى بن مودود وعسكر الموصل وغيرها وكانوا قد أشاروا عليه بذلك ففعل وهو
يخشى العاقبة وكان صلاح الدين قبل المهادنة مع صاحب أنطاكية قدجعل على الكرك عسكرا
يحصره وكان به الامير رينودى شاتيلون أحد ملوك الصليبيين فلازموا حصاره مدة طويلة
حتى فنيت أزواد من به من الفرنجة وذخائرهم والملك العادل أخو صلاح الدين يشدد فى
الحصار ويضيق على من به فأرسلوا اليه يطلبون الامان ويبذلون تسليم القلعة فأجابهم الى
ذلك وتسلم القلعة منهم ونزلوا وتسلم أيضا مايقاربها من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة
والسلع فاطمأنت قلوب المسلمين بأخذ ذلك الصقع وفرح صلاح الدين بفتحه فرحا عظيما وهو
مع ذلك كان يقول ان العمر قصير والأجل غيرمأمون وكيف أطاول الفرنجة وبيدهم الى
الآن كوكب وصفد وغيرهما وأقام بدمشق الى منتصف رمضان حتى وافته الجنود والعساكر
المشرقية وغيرهم ثم سار عن دمشق الى قلعة صفد فحصرها وضيق عليها ونصب المنجنيقات
ووالى الرمى عليها بالحجارة وكان من بها من عسكر الفرنجة قد مضى عليهم أيام كثيرة وهم
يدافعون عنها ولم يأتهم شئ من المؤنة فقلت أزوادهم وضاقت نفوسهم فأرسلوا يطلبون
الامان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنها وساروا الى مدينة صور ووفى لهم صلاح الدين
بالعهد ثم سار عن صفد الى كوكب فحاصرها وأرسل الى من بها من الافرنج يبذل لهم
الامان ان سلموا ويتهددهم بالقتل والسبى والنهب ان امتنعوا فأبوا الا القتال فقاتلهم وجد فى
قتالهم ونصب المنجنيقات وتابع الرمى بالحجارة فلم يتمكن منها وطال مقامه عليها ثم حملوا
على سورها حملة رجل حتى التصقوا به ونقبوه فلما رأى الفرنجة ذلك مالوا الى التسليم
وأرسلوا الى صلاح الدين فى ذلك فأجابهم واستلم منهم الحصن فى ذى القعدة وسيرهم
الى صور فانضموا الى من بها من المقاتلين وأصلحوا حالهم ورتبوا أمورهم فاشتدت
شوكتهم وجاءهم المدد تباعا من صقلية وغيرها فصاروا جيشا عظيما فندم صلاح الدين
على تفريطه حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حد أيلة الى أقصى
أعمال بيروت فكان لايفصل بينها غير مدينة صور وقد صارت فى غاية القوة والامتناع

بما وفد عليها من جموع الفرنجة والامداد المتتابعة واجتمع لهم أيضا جميع أعمال أنطاكية سوى القصير

ولما تم لصلاح الدين أخذ صفد سار الى بيت المقدس فعيد فيه عيد الاضحى ثم سار منه الى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة فلما كان ربيع الاول من سنة خمس وثمانين سار الى شقيف ارنوم وهو من أمنع الحصون ليحصره فنزل برج عيون وأقام بها يدبر أمر جيوشه فجرت بينه وبين صاحب الحصن وهو صاحب مدينة صيدا أيضا مفاوضات فى معنى القتال وفى المطاولة وترددت الرسل بينهما وكل منهما واقف عما يسأل الآخر فتقررت القاعدة بينهما على تسليم الحصن فى جمادى الآخرة من تلك السنة ولبث صلاح الدين ببرج عيون ينتظر الاجل المضروب بينهما ولكنه كان قلقا مضطرب البال مفكرا فى قرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين صاحب أنطاكية فسير تقى الدين ابن أخيه فيمن معه من عسكره ومن يلحق من بلاد المشرق وأمره بالنزول مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء الهدنة وكانت الاخبار عن صور تأتى اليه فى كل يوم أشكالا وكلها تدل على اجتماع الفرنجة بها وما يتصل بهم من الامداد فى البحر وتزايد جموعهم يوما عن يوم فكان منزعج الخاطر كثير الهم شديد الخوف وكان يخشى من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم الى صور وفيها الجموع المتكاثفة فتنقطع الميرة عنه وكان صاحب الشقيف فى هذه الهدنة يشترى الاقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يقوى به حصنه وصلاح الدين لايسيء به الظن ٭ ولما دخلت سنة ست وثمانين حتى تم تجهيز جموع الفرنجة وكثر عددهم وعددهم تحت راية امبراطور الالمان فسار بهم وهم لايحصون كثرة يريد بيت المقدس وجعل طريقه على القسطنطينية فلم يمدهم صاحبها بشئ من الذخيرة ولا الازواد وخشى منهم على بلاده وكادت تقع الحرب بينهما على ذلك ثم عبروا خليج القسطنطينية واتصلوا ببلاد الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن قتلمش بن سلجق فلم يبلغوا حدودها حتى ثارت بهم قبائل التركمان فناوشتهم القتال فلم تنل منهم فجعلوا يسايرونهم ويسرقون ماقدروا عليه وما زالوا سائرين حتى قاربوا مدينة قونية فخرج اليهم الملك قطب الدين ملك شاه بن قلج ارسلان يريد منعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد مسرعا ملحوزا الى قونية فأسرعوا المسير فى أثره ونازلوا قونية وجدوا فى قتالها وشددوا فأرسل اليهم قطب الدين يسألهم الجلاء عن المدينة ولهم مايطلبون فأجابه الامبراطور الى ذلك بشرط أن يسلم اليهم جميع مايحتاجون اليه من قوت وغيره فأتاهم بما يريدون فتزودوا وطلب منه رهائن وتسيير الكتب الى جميع بلاده بملازمة السكون والطاعة والقيام بكل مايطلب منهم فسلم الى الامبراطور نيفا وعشرين أميرا كان يكرههم رهنا وسير الكتب الى الآفاق بامداد جيوشهم بالميرة والزاد وجميع مايحتاجون اليه وسار امبراطور الالمان فى جموعه حتى أتى بلاد الارمن فخرج اليه صاحبها لافونة بن اصطفان بن ليون فى جماعة من كبار قومه والحصون وقلاعه وقدم له من الاقوات شيأ كثيرا وكذلك العلوفات وحكم الامبراطور فى بلاده



وأظهر له الطاعة فلبث أياما ثم نادى فى جموعه بالرحيل فساروا يريدون انطاكية ونزلوا على نهر فى طريقهم ولبثوا أياما واتفق أن الامبراطور نزل يوما فى النهر ليغتسل فغرق فى مكانه فعظم ذلك على أصحابه وأحزنهم جدا وكان معه ولده فاجتمع على البيعة له جميع الامراء وكبار الجند والاحزاب وسار بهم يريد انطاكية فرأى من تحصينها وامتناعها مالا تحتاج معه الى المدد فساروا عنها يريدون عكا فمروا بجبلة ولاذقية وقد ملكهما المسلمون فقاتلوهما قتالا عنيفا حتى أخذوهما ثم ساروا الى عكا فخرج عليهم أهل حلب وغيرهم فلم ينالوا منهم ما أرادوا فكانوا يتخطفون من خلفهم وبلغوا طرابلس وأقاموا بها أياما فرتبوا أمورهم وأحكموا نظامهم وتزودوا وركبوا السفن وأقلعوا الى عكا فلما وصلوا اليها صعد الى المترسين أمامها من جموع الفرنجة من صعد ممن يفضلون الجهاد على العود الى الاوطان وأقلع من أقلع عائدا الى أهله وولده صحبة امبراطور الالمان وكان صلاح الدين وأصحابه فى قلق وخوف ماعليه مزيد وهم يتوقعون جلاءهم عن جميع أرض الشام فى كل يوم انهم خسروا عكا وكانوا كلما علموا بقرب جموع ملك الالمان منهم ترفعوا عنهم وأخلوا لهم المسالك وبالغوا فى التحرز والالتفات * فلما سافر ملك الالمان بمن سافر معه من جموعه وقد تقوت نفوس من بالمتاريس أمام عكا من الفرنجة بمن جاءهم من المقاتلين والمتطوعة رتبوا أمورهم وخرجوا فى عدتهم وسلاحهم لقتال المسلمين وقصدوا معسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المصريون وتقهقروا فتبعهم الفرنجة وأعملوا فيهم القتل ودخلوا خيامهم ونهبوا جميع أموالهم وكانت عساكر الموصل قريبة من العساكر المصرية فلما رأوا ماحل بالمصريين حملوا على الفرنجة ومقدمهم علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل وجدوا فى قتالهم وبالغوا فنالوا منهم ثم افترقوا والقتلى لاتكاد تدخل تحت الحصر فلما كان بعد يومين رأى صلاح الدين وأصحابه من تكاثر وورود المدد فى السفن والبطس الكبيرة الى من بعكا ما أذهلهم وأخافهم وأوقعهم فى حيرة ثم وصل الأمير هنرى ابن أخى ملك الفرنسيس لامه وابن أخى ملك انجلترا لأمه ووصل معه من الاموال والذخيرة وآلات الحرب شئ كثير للغاية فلم يستقر به المقام حتى حشد وجند وبذل الاموال ورتب الأمور وأحكم نظام المقاتلين من كل صنف ثم أظهر أنه يريد الخروج الى لقاء المسلمين وقتالهم فانتقل صلاح الدين بعسكره من مكانه الى الخروبة فعكف الأمير هنرى بمن معه على المتاريس ونصبوا خلفها المنجنيقات ورموا بالحجارة على البلد وتابعوا الرمى ليلا ونهارا وقويت نفوسهم واشتدت عزائمهم وجاءتهم رسائل بابا رومة بالحث والاستنهاض والمثابرة على الجهاد والجد فى القتال وأنه سير الى الآفاق يستنهض ملوك المسيحيين الى استخلاص بيت المقدس من يد صلاح الدين يوسف وأن المدد تام عليهم برا وبحرا فلما كان حادى عشر شوال من السنة أى سنة ست وثمانين خرجوا فى عدد عظيم فهال منظرهم صلاح الدين وأصحابه وانقبضت له نفوسهم فنادى صلاح الدين بنقل الاثقال الى بلدة ميمون فنقلوها

وأرسل يستسرع حضور العساكر اليه من الاطراف فحضروا فأحكم نظامهم وجعل أولاده الافضل عليا والظاهر غازى والظافر مما يلى القلب وأخاه العادل أبا بكر فى الميمنة مع العساكر المصرية ومن انضم اليه وجعل فى الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه ونصب صلاح الدين خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر اليهم لمرض أصابه يومئذ فاقتتلوا قتالا خفيفا ثم عادوا الى مراكزهم وقد عرف الامير هنرى مواقف عسكر المسلمين وما لديهم من الاسلحة والكراع وغير ذلك فجعل يطاولهم ولا ينكف عن الرمى على من بعكا منهم بالحجارة تارة وبالسهام أخرى واشتد الغلاء فى عسكر صلاح الدين وقل الوارد من المؤنة لتعذر نقلها بسبب الشتاء ووقوف جماعة الفرنجة فبلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صورى فصبروا على هذا ومع ذلك فكانت تأتيهم المؤنة من البلدان القريبة على الصعب والذلول وأرسل من بعكا الى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدما على جندها فرسم صلاح الدين باقامة البدل وانفاذه اليها واخراج من بها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل الى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشوانى وشحنها بما تيسر من الجنود والعساكر وكانت مراكب الفرنجة قد لجأت الى صور والجزائر فرارا من عواصف الشتاء فانفتح الطريق الى عكا وتمكنت مراكب صلاح الدين من دخول المينا وتنزيل المقاتلة فدخل عكا عشرون أميرا وخرج منها ستون أميرا لاستيلاء الضجر والملل على جميع العساكر وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وانفاذهم وقلت النفقة على المقاتلين فتفرق بهذا السبب أيضا خلق كثير * قال أصحاب التاريخ وانضاف الى ذلك توانى صلاح الدين ووثوقه بنوابه واهمال النواب فانحسر الشتاء والامر كذلك وعادت مراكب الفرنجة الى عكا وانقطع الطريق وعاد الرمى بالمنجنيقات على البلد ليلا ونهارا وكان ممن دخل من الامراء الى عكا سيف الدين على بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الاسدية وكان دخولهم الى عكا فى أوائل سنة سبع وثمانين فجد الفرنجة فى القتال وشددوا فى الحصار وسدوا الطرق برا وبحرا وعظم الامر على صلاح الدين وأصحابه * قال صاحب الكامل فكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا * ووقع فى عسكر صلاح الدين بعض الموت فمات يوسف بن زين الدين على صاحب اربل وكان قد حضر فى عسكره نجدة لصلاح الدين فى جملة من حضر من الاطراف والقتال من الفرنجة قائم على ساق فى البر والبحر ووصل الى عكا فى الثانى عشر من ربيع الاول الملك فليب ملك الفرنسيس فى سفن كثيرة ومعه كثير من المقاتلة والمتطوعة فنزلت طائفة منهم الى البر ونزل الملك فليب فقابله الامير هنرى وضربت

لقدومه البشائر وعلم من فى جميع البلاد التى بيد الفرنجة بخبر قدومه ففرحوا به ولم
يلبث أن قاتل من بعكا من المسلمين وألح فى قتالهم وشدد فى التضييق عليهم وكان صلاح الدين
نازلا بمن معه على شفرعم فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنجة ليشغلهم بالقتال عن
الزحف الى البلد فلم يكن ليقدر على ذلك واشتد الكرب على من بالبلد وتولاهم الضجر
والملل وكبر خوف صلاح الدين وكاد يتولاه القنوط عند ملياته الاخبار أيضا بقرب وصول
الملك ريشارد الملقب بقلب الاسد ملك الانجليز الى عكا فى كثير من العساكر والمقاتلين على
ظهور البطس العظيمة ومراكب الحرب وكان ريشارد قد أنذر بالجهاد فسار فى عسكر عظيم
من انجلترا يريد عكا ومر بجزيرة قبرص فنزل عليها ليملكها لامور بينه وبين صاحبها لاتتعلق
بما نحن بصدده ووصلت بعض سفنه الى عكا ونزل من بها من المقاتلين والمتطوعين وقاتلوا
المسلمين مع من يقاتلون من المسيحيين وألحوا فى القتال وأمر الملك فليب فنصبوا سبع
منجنيقات وتابعوا الرمى بها على عكا ليلا ونهارا فعظم الأمر على صلاح الدين وقدم ريشارد
ملك الانجليز ثالث عشر جمادى الاولى فى جموعه وقد استولى فى طريقه على جزيرة قبرص
وأخذها من الروم ووصل الى مينا عكا فى خمس وعشرين قطعة كبارا مملوءة رجالا وأموالا
فلما عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين أرسلوا الى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم
يقدهم شيأ فخرج الامير سيف الدين على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب من البلد
واجتمع بالملك فليب ملك الفرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق من به من
المسلمين ويمكنهم من اللحوق بسلطانهم فلم يجبه الى ذلك وأبى الا التسليم بغير شرط فرجع
المشطوب وأخبر جماعة الامراء بما جرى فلما كان الليل اجتمع منهم عز الدين أرسل الاسدى
وابن عز الدين جاولى وسنقر الوشاقى وغيرهم واتفقوا على الهرب فخرجوا سرا من أصحابهم
ولحقوا بصلاح الدين فلما أصبح الناس ورأوا ذلك انخشلوا وازدادوا وهنا على وهنهم وضعفا
على ضعفهم وأيقنوا بالعطب وأرسل صلاح الدين الى فليب فى معنى التسليم بشرط أن
يطلق من أسرى النصارى بعدد ما فى عكا من المسلمين ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم اليهم
صليب الصلبوت فلم يقنع بما بذل وأمر بتشديد القتال فشددوا وزحفوا على البلد بجدهم
وحديدهم فلما صارت على وشك السقوط ظهر من بها من المسلمين على السور يحركون
أعلامهم ليراها أصحاب صلاح الدين وكانت هى العلامة اذا اخترمهم أمر فضجوا بالبكاء
والعويل ولكنهم لم يقدروا على نفع ولم يدفعوا عن البلد ضرا • قال بعض الكتاب فخرج
المشطوب الى ملوك الفرنجة وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه وبذل لهم على ذلك
مائتى ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين واعادة صليب الصلبوت مع أربعة عشر ألف
دينار الى صاحب صور فأجابوه الى ذلك فسلم البلد اليهم ودخلوه فلما ملكوه غدروا
وأحاطوا بمن فيه من المسلمين وأموالهم وحبسوهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل
اليهم مابذل لهم وقال آخرون بل فتحوا البلد عنوة وأعملوا فيه السيف وأخذوا ماء

من

من الاموال والمتاع وأرسلوا إلى صلاح الدين فى ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا
من عندهم من المسلمين فطاولهم صلاح الدين فأعملوا السيف فيمن بقى من المسلمين ولم
يستبقوا الا بعض الامراء والمقدمين ثم أخذوا يصلحون حال البلد ويرمون ما تهدم منها حتى
عادت الى ما كانت عليه من الامتناع وأقاموا الى شعبان من السنة لايتحركون ساكنا ولا
يشتغلون بغير تحصين البلد وترتيب أمورهم ثم برزوا منها وساروا يريدون حيفا وكان الملك
الافضل بن صلاح الدين يوسف فى طائفة من العسكر والمتطوعين يراقبون حركات الفرنجة
ومعهم جماعة من الامراء وهم سيف الدين ايازكوش وعز الدين جورديك وعدة من كبار
الجند فلما أحسوا بخروج الفرنجة وعلموا أنهم يقصدون حيفا كتب الملك الافضل الى أبيه
صلاح الدين يعلمه بالحال ويستمده فنادى صلاح الدين فيمن معه بالمسير اليه فامتنعوا فعاودهم
فامتنعوا وقد تولاهم الفشل واختلط الحال على صلاح الدين فلما أبطأ المدد على الملك الافضل
وعجز عن الوقوف فى طريق الفرنجة جعل يتخطف ساقتهم فعاد ريشارد ملك انجلترا على
ساقة الفرنجة فحماها وجمعهم وساروا وهم على أحسن نظام وأجل هيئة حتى أتوا حيفا
فنزلوا بها ونزل المسلمون بقربها فيمون على مقربة من حيفا فأقام الفرنجة بحيفا أياما ثم ساروا
منها الى قيسارية والمسلمون يسايرونهم فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم فلم
ينالوا منهم ونزل الفرنجة بها ثم قاموا من قيسارية وقد أصلحوا حالهم وساروا يريدون ارسوف
وكان المسلمون قد سبقوهم اليها وتبعهم السوقة والباعة وغيرهم ممن يتبعون العساكر فى
الحروب فلما اقترب الفرنجة من البلد خرج عليهم المسلمون وحملوا عليهم حملة منكرة فحملت
فرسان الفرنجة على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون منهزمين لايلوى أحد على أحد
واختلطوا بالسوقة فعلا الضجيج والصياح ووقع السيف على الاعناق وكثر القتل والتجأ من
بقى من المنهزمين الى قلب الجيش وفيه صلاح الدين يوسف فاختل نظامه وولوا جميعا منهزمين
ودخلوا شعرة كثيرة الشجر قريبة من موقفهم فظنها الفرنجة أنها مكيدة فلم يتبعوهم * قال
أصحاب التاريخ فلو علم الفرنجة أنها هزيمة لتبعوهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون عن آخرهم
وعاد الفرنجة فدخلوا أرسوف وأقاموا بها أياما ثم برزوا منها وقد رتبوا أمورهم وساروا
الى يافا فنزلوها وملكوها وبثوا سراياهم فى الاطراف فعاثوا وقتلوا وتخطفوا من المسلمين
خلقا كثيرا فعم الخوف وضاقت نفوس المسلمين وتفرق عن ملوك الاطراف أصحابهم
والمجاهدون معهم وعظم الامر جدا على صلاح الدين يوسف ولازمه الحزن والكدر وتولاه
القنوط واليأس فسار مجدا فى نفر قليل الى الرملة ولحق بأثقاله فيها وجمع اليه الامراء
واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتدمير عسقلان وقالوا له قد رأيت ما كان منا ومنهم
بالامس واذا جاؤا الى عسقلان ووقفنا فى وجوههم نصدهم عنها فلا شك أنهم يظفرون بنا
وينزلون عليها فاذا كان ذلك عدنا الى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الامر علينا لان
العدو قوى ونحن قد ضعفنا وتولانا اليأس ولازمنا الملل فلم تسمح نفس يوسف بتدميرها

ونادى فيمن عنده من العساكر والمتطوعة بالدخول اليها والذب عنها فلم يجبه أحد الى ذلك وقالوا ان أردت الذب عنها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار والا فما يدخلها منا أحد ونحن الى الآن ماننسى ما أصاب أهل عكا فلما أيس من حفظها سار نحوها وأمر بتخريبها فخربت وألقيت أحجارها بالبحر وهلك فيها من الاموال والذخائر شئ كثير للغاية وعفى أثرها ثم رحل صلاح الدين عن عسقلان بعد تخريبها الى الرملة فخرب حصنها وهدم الكنيسة الكبرى التى بها وأتلف جميع ما كان بها من الذخيرة وأما الفرنجة فانهم أطالوا المقام بيافا وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وأ كثروا فيها من الاسلحة والكراع والمدد يتواصل بينها وبين بقية القلاع والحصون التى بأيديهم فلما طال مكثهم بها عظم الامر على صلاح الدين وأصحابه وقلت عندهم الاقوات واشتد بهم الضجر فترددت الرسل بين الملك العادل أبى بكر ابن أيوب أخى صلاح الدين وبين ريشارد ملك الانكليز فى معنى الصلح أو المهادنة واجتمع الملك العادل بملك الانكليز مرارا كثيرة وتكلموا فى المعنى وشاع يومئذ بين العسكرين أن ستتقرر القاعدة على أن ملك الانكليز يزوّج ابنة عمه الاميرة جوليا من العادل ويكون القدس وما بأيدى المسلمين من بلاد الساحل للعادل وتكون عكا وما بيد الفرنجة من البلاد لابنة عم ريشارد الملك ثم لم تلبث أن بطلت هذه الاشاعة ولم يتم بينهما صلح ولهذه المصالحة والمصاهرة أسباب تكلم الكتاب من الانكليز عنها كثيرا فأضربنا عن ايرادها هنا خوف الاطالة قالوا وكان ريشارد ملك الانكليز يفعل ذلك مع الملك العادل خديعة ومكرا وأظهر ريشارد العزم على قصد بيت المقدس فاضطرب صلاح الدين من ذلك وسار الى الرملة بجريدة وترك الاثقال بالبترون ثم عاد الى البترون وقد برز الفرنجة من يافا يريدون الرملة فى ثالث ذى القعدة على عزم قصد بيت المقدس فاقتربوا من المسلمين وتخطفوهم وأ كثروا القتل واشتد البلاء على أصحاب صلاح الدين وعظم الخطب فكان فى كل ساعة يقع الصوت فى العسكر بلقاء الفرنجة فلقوا من ذلك شدة بالغة للغاية وأقبل الشتاء ووالت الامطار واشتد البرد والناس فى ضنك وحرج من حمل السلاح والسهر الدائم تحرزا من الفرنجة ورأى صلاح الدين من ملل الجند وعجزهم ماأخافه فسرحهم الى أوطانهم فلم يبق معه الا العسكر المصرى ومقدمهم يومئذ أبو الهيجاء السمين فسار بهم صلاح الدين الى البيت المقدس فنزلوا جميعا داخل البلد ونزل صلاح الدين بدار الاقصى بجوار بيعة قمامة ورسم بعمارة سور البلد وتجديد مارث منه فأحكموا بنيانه وعملوا خندقا عظيما خارج السور ورتبوا الابراج وتسلم كل برج منها أمير وحصن البلد حتى صارت فى غاية الامتناع أما الفرنجة فانهم وصلوا الى الرملة وملكوها وأقاموا بها أياما ثم ساروا منها الى البترون ثالث ذى الحجة وقاتلوا من بها من أصحاب صلاح الدين ونالوا منهم وجدوا فى قتالهم حتى ملكوها ورحل عنها من بقى من أصحاب صلاح الدين فنزل بها الفرنجة وأقاموا أياما وبث ريشارد ملك الانجليز عيونه وارصاده لتأتى له بخبر مايفعله صلاح الدين بالبيت المقدس ورسم بعمارة

عسقلان وارجاعها الى أحسن ما كانت عليه وتأهب للسير الى البيت المقدس وقد رتب المقاتلين على أحسن ترتيب وكان صلاح الدين لما دخل الى البيت المقدس سير رسلا الى سنان مقدم الاسماعيلية يطلب منه أن يرسل من يقتل ملك الانجليز قبل أن يبرح من البترون ويأتى الى البيت المقدس وأن من قتل المركيز منسرات صاحب صور فله عشرة آلاف دينار فأجابه سنان الى ذلك ثم عدل عن قتل ملك الانجليز كى لايخلو الجو لصلاح الدين فتطمع نفسه فى البلاد وتكثر غزواته وعمد الى قتل المركيز منسرات وكان من كبار الملوك معرفة بالحروب وحسن السياسة وبينه وبين ريشارد عداوة ومنافسة بسبب تقدم ريشارد على جميع الملوك الصليبيين واستلامه قيادة الجيش وتصرفه فى جميع الامور بدون مشورتهم خلافا للعهد واليمين الذى كان بينهم فأرسل رجلين فى زى الرهبان فاتصلا بصاحبى صيدا والرملة وكانا مع المركيز بصور فأقاما معهما أياما كثيرة يظهران العبادة فأنس بها المركيز وركن اليهما فلما كان فى بعض الايام سار المركيز الى أسقف البلد ولبث معه برهة ثم خرج يريد مقره فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحا بليغة وهرب أحدهما فدخل كنيسة يختفى فيها واتفق أنهم حملوا المركيز الى هذه الكنيسة ليشدوا جراحه فوثب عليه الباطنى المذكور وقتله فقبضوا عليه هو ورفيقه وقتلوهما فى الحال وعظم قتل المركيز على أصحابه جدا وظنوا أن قتله بوضع من ملك الانجليز ليخلو وجهه وينفرد بملك السواحل الشامية فولوا بعده الامير هنرى ابن أخت ملك الفرنسيس من أبيه وهو من كبار الامراء وأجودهم رأيا وأحسنهم سياسة وخبرة بالحروب وقد تولى ملك جميع بلاد الساحل الشامى بعد رجوع ريشارد الى بلاده والفراغ من هذه الحرب الصليبية

ووصل ريشارد ملك الانجليز فى عسكره الى حصن الداروم أوائل جمادى الاولى فخربه وعفى معالمه وسار الى بيت المقدس وصلاح الدين فيه فوصل بالعسكر الى بيت نوبة ثم ساروا من هناك الى قلونية سلخ الشهر وهى على فرسخين من بيت المقدس وبث سراياه فى الأطراف وطاف هو حول البيت المقدس ليرى من أين يأتيه ويقاتل من به فكبر خوف المسلمين وعظم عليهم الامر وثابروا على السهر والوقوف على السور ليلا ونهارا لايلقون عنهم السلاح وعلم الفرنجة بوصول عسكر من مصر ومعهم قفل كبير ومقدم ذلك العسكر أمير اسمه فلك الدين سليمان أخو العادل لامه ومعه عدة أمراء من المصريين فأسرى الفرنجة اليهم وأحاطوا بهم جميعا وأعملوا فيهم السيف بنواحى الخليل فانهزم الجند شر هزيمة وكثر فيهم القتل وغنم الفرنجة خيامهم وآلاتهم وجميع مالهم وهرب من نجا من الامراء والجند وصعدوا جبل الخليل فلم يتبعهم الفرنجة • قال بعض كتاب الاخبار ولو اتبعوهم نصف فرسخ لاتوا عليهم جميعا وعفوا أثرهم وبقى ملك الانكليز بعسكره حول البيت أياما كثيرة وعسكر صلاح الدين لايغفلون ولا يبارحون الاسوار



ثم ترددت الرسل بين ريشارد وصلاح الدين فى أمر الصلح والكف عن القتال وحقن الدماء ورحل ريشارد عن بيت المقدس وسار الى يافا ثم عنها الى عكا فخرج صلاح الدين فى عسكر من البيت المقدس وسار نحو يافا يريد أخذها فقاتل من بها من الفرنجة قتالا عنيفا وحاصر القلعة وشدد فى حصارها أياما واذا بريشارد قد أحاط بالبلد وقاتل صلاح الدين وهزمه وانتصر عليه ومزق شمل جموعه * قال أصحاب التاريخ وبرز ريشارد الى ظاهر المدينة فى ذلك اليوم واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدم اليه أحد وخافوا منه خوفا عظيما فوقف بين الصفين واستدعى طعاما ونزل عن فرسه وأكل فشق ذلك على صلاح الدين ونادى فى عسكره بالهجوم على الفرنجة والجدّ فى قتالهم فتقدم اليه بعض أمرائه ويعرف بالجناح وهو أخو المشطوب بن علىّ بن أحمد الهكارى فقال له يا صلاح الدين قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنائم وضربوا الناس بالجامات أن يتقدموا ليقاتلوا عند اتشاب نار القتال وتكون الغنائم نصيبا لهم * وكان لما دخل عسكر صلاح الدين الى يافا بعد فتحها وصار المقاتلون ينهبون ما فيها وقف جماعة من مماليك صلاح الدين على أبواب المدينة وكل من خرج من الجند ومعه شئ من الغنيمة أخذوه منه فان امتنع ضربوه وأخذوا ما معه قهرا فلما سمع صلاح الدين كلام الجناح غضب وقد أنس الغدر من الامراء ان هو أطال الحرب مع الفرنجة وراسل ملك الانجليز فى طلب الصلح وطلب التعجيل وقد عرف صلاح الدين ما عند العسكر من الضجر والملل وما فقد هلك من سلاحهم ودوابهم وما نفد من نفقاتهم وقال ان لم نعجل بالصلح تأخر ملك الانجليز ومن معه من الملوك والامراء الصليبيين عن الرحيل الى أوطانهم لدخول الشتاء فنبقى هنا سنة أخرى وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين وما زال بريشارد حتى تقررت القاعدة بينهم فى العشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وعقدوا الصلح وتحالفوا على هذه القاعدة ونادى كل فريق فى عسكره بتقرير قاعدة الصلح فاختلط العسكران وزار بعضهم بعضا وأباح صلاح الدين لطوائف الفرنجة زيارة بيت المقدس فزاروه وتفرقوا وبقى ما بيد الفرنجة من السواحل الشامية خاضعة للملك هنرى قال صاحب الكامل وكان هنرى هذا خيرا قليل الشر رفيقا بالمسلمين محبا لهم * وعاد صلاح الدين بعد ذلك الى بيت المقدس فرسم باحكام سوره وعمل به المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك ووقف عليها الوقوف ثم سار عن البيت المقدس نحو دمشق واستناب به الأمير جورديك أحد المماليك النورية فدخل دمشق فى الخامس والعشرين من شوال من السنة ففرح الناس به لطول غيبته عنهم وكان بها أولاده الصغار والظاهر والافضل والظافر فلبث بها فلما كان اليوم الخامس عشر من صفر من السنة أى سنة تسع وثمانين ركب فى طائفة من أصحابه لملاقاة الحاج ثم عاد وقد أصابته حمى شديدة ولازمته ثمانية أيام ثم مات بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر المذكور فحزن عليه الناس حزنا عظيما وغشى الملك والقلعة فى ذلك اليوم وحشة وكان كريما جوادا حسن الاخلاق

متواضعا

متواضعا صبورا على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب الناس مات وله من العمر سبع وخمسون سنة فعمل الشعراء فيه المراثى الكثيرة من ذلك قصيدة للعماد الكاتب مائتان وثلاثون بيتا أولها

شمل الهوى والملك عم شتاته * والدهر ساء وأقلعت حسناته
بالله أين الناصر الملك الذى * لله خالصة صفت نياته
أين الذى ما زال سلطانا لنا * يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذى شرف الزمان بفضله * وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذى عنت الفرنج لبأسه * ذلا ومنها أدركت ثاراته
أغلال أعناق الورى أسيافه * أطواق أجياد الورى حسناته

الى آخر ما قال

قال ابن السبكى فى الطبقات الكبرى له يعنى صلاح الدين من الفتوحات التى خلصها من الفرنجة قلعة ايليا وطبرية وعكا والقدس والخليل والكرك والشوبك ونابلس وعسقلان وبيروت وصيدا وبيسان وغزة ولد وحصا وخورية والفولة ومغليسيا والطود والاسكندرية وهفوس وباماس وارسوف وقيسارية وجبيل ونبل وعلكية ومقربلا والهون وآسمه ويافول ومجدل وبابايل والصافية وبيت نوبا والبيرون والجيب والكرمه وبيت لحم وبحاقرا وأحصر الدير وبترفاقيلة وسرير الزيت والوعر والهرمس وتغليسا والغارزية وتقرع ومجدل والجار والشقيف وسيطلة التى يقال لها قبرزكريا وجبيل وكوكب وانطوطوس واللاذقية وسكرائيل وصهيون وجبلة وقلعة العيد وقلعة الجاهيرية وبلاطنس والشغروبكاس وسرمينية وبرزية ودرب ساك وبغراس وصفد وله مضافات يطول شرحها * قال وكانت مملكته من المغرب الى تخوم العراق ومعها اليمن والحجاز وملك ديار مصر بأسرها مع ما انضم اليها من بلاد المغرب والشام بأسرها مع حلب وما والاها وأكثر بلاد ربيعة وبكر والحجاز بأسره واليمن بأسره ونشر العدل فى الرعية وحكم بالقسط وبنى المدارس والخوانق وأجرى الارزاق وهو الذى بنى قلعة الجبل المقطم التى هى دار سلاطين مصر وولاتها ولم يكن لهم قبلها الا دار الوزارة بالقاهرة وفتح من بلاد المسلمين حران وسروجه والرها والرقة والبيرة وسنجار ونصيبين وآمد وملك حلبا والموازيخ وشهرزور وحاصر الموصل الى أن دخل صاحبها تحت الطاعة وفتح عسكره طرابلس الغرب وبرقة من بلاد المغرب وكسر عسكر تونس وخطب بها لبنى العباس ولولم يقع الخلف بين عسكره الذين جهزهم الى المغرب لملك المغرب بأسره ولم يختلف عليه مع طول مدته أحد من العسكر وكان رقيق القلب جدا هذا كله من كلام ابن السبكى فى الطبقات * ومن صنائعه انه أسقط المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة وقد كان يؤخذ منهم شئ كثير ومن عجز عن أدائه حبس فربما فاته الوقوف بعرفة وعوض أميرها المدعو ثمال القطاعا بديار مصر يحمل اليه

منه فى كل سنة ثمانية آلاف اردب غلة عونا له ولمن بعده * قال العماد الكاتب وغيره مات صلاح الدين ولم يترك فى خزائنه من الذهب سوى دينار واحد صورى وستة وثلاثين درهما ولم يترك دارا ولا عقارا ولا مزرعة ولا شيأ من أنواع الاملاك وترك سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة واحدة وكان متدينا فى مأكله ومشربه وملبسه فلا يلبس الا القطن والكتان والصوف وكان به عرج فقال فيه ابن عنين الشاعر

سلطاننا أعرج وكاتبه * ذو عمش والوزير منحدب

وكان الخليفة المستضىء أرسل اليه فى سنة أربع وستين وخمسمائة خلعا سنية جدا وزاد فى ألقابه معز أمير المؤمنين فلما ولى الخليفة الناصر فى سنة ست وسبعين على ما تقدم بيانه أرسل اليه خلعة الاستمرار ثم أرسل اليه فى سنة اثنتين وثمانين يعاتبه على تلقيبه بالملك الناصر مع انه لقب أمير المؤمنين فأرسل يعتذر اليه بأن ذلك كان من أيام الخليفة المستضىء وانه ان لقبه أمير المؤمنين بلقب فهو لا يعدل عنه وتأدب مع الخليفة غاية الادب

ولما مات صلاح الدين يوسف بدمشق كان معه بها ولده الاكبر الافضل كما تقدم القول وكان قد حلف له العساكر جميعهم غير مرة فى حياة أبيه فلما مات أبوه استقل بملك دمشق والساحل والبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الاعمال الى الداروم وانحلت جميعها عن ملك مصر وكان بمصر أيضا ولده العزيز عثمان فاستولى عليها واستقر ملكه بها وكان ولده الظاهر غازى بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر واعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك وكان بحماة محمود بن تقى الدين عمه فأطاعه وصار معه وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه فأطاع الملك الافضل وكان الملك العادل أخو صلاح الدين قد صار الى الكرك فى أيام أخيه فامتنع به ولم يحضر عند أحد من أولاد أخيه وهكذا اقتسموا مملكة صلاح الدين فيما بينهم وتصرف كل واحد منهم بعصبته وهواه * ولنضرب صفحا عن جميع من ذكر ونتتبع حوادث صاحب مصر منهم وهو ﴿الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح﴾ فقد كان من أمره بعد أن استقل بحكم البلاد ودانت له الامور أن سار فى الرعية سيرة حسنة مع العفة فى المال والغيرة حتى انه ضاق ما بيده ولم يبق فى الخزانة درهم ولا دينار فجاء اليه رجل يسعى فى قضاء الصعيد بمال فامتنع وقال والله لا بعت دماء المسلمين وأموالهم بملك الارض فأحبته الرعية ومالت اليه القلوب وأخلصت له الطاعة وجعل يتصرف فلما كانت سنة تسعين وخمسمائة تاقت نفسه الى توسيع سلطانه وتمديد ملكه فعمد الى الاغارة على سلطنة أخيه الملك الافضل على فسار الى دمشق وحصرها وبها أخوه المذكور ونزل بميدان الحصى فكبر الأمر على الافضل وأرسل الى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب وهو يومئذ صاحب الديار الجزرية يستنجده وكان للافضل غاية الوثوق به والاعتماد عليه فساء الملك العادل ما فعله الملك العزيز وسار من فوره الى دمشق وصحبته الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب وناصر الدين محمد بن تقى الدين

صاحب

صاحب حماة وأسد الدين شيركوه صاحب حمص وعسكر الموصل وغيرهم واجتمعوا جميعا
بدمشق واتفقوا على حفظها علما منهم أن العزيز ان ملكها أخذ بلادهم وأذهب سلطانهم
فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أنه لاقدرة له على البلد فترددت الرسل حينئذ بينهم فى الصلح
فاستقرت القاعدة على أن يكون بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز وتبقى
دمشق وطبرية وأعمالها للافضل على ما كانت عليه وأن يعطى الافضل أخاه الملك الظاهر
جبلة ولاذقية وأن يكون العادل بمصر اقطاعه الاول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز الى مصر
ورجع كل واحد من اخوته الى بلاده ولكن لم يمض على هذا الاتفاق الا سنة واحدة غير
كاملة حتى نقض العزيز العهد وخرج من مصر فى عسكر عظيم الى دمشق يريد حصرها
ثانية وكان سبب ذلك أن من كان عنده من مماليك أبيه صلاح الدين المعروفين بالصلاحية
مثل فخر الدين جركس وقرا سنقر وقراجا وغيرهم كانوا منصرفين عن الافضل على أنه كان
أخرج من عنده منهم مثل ميمون القصرى وسنقر الكبير وأيبك وغيرهم فكانوا يكرهونه
لذلك وكانوا يخوفون العزيز من أخيه الافضل ويحرضونه على الاغارة على بلاده ويقولون
ان لم تفعل ذلك مال الاكراد والمماليك الاسدية من عسكر مصر الى أخيك وانضموا
الى عسكره فيخرجك من البلاد فصدق قولهم وعمل بمشورتهم وخرج فى سنة احدى وتسعين
وخمسمائة فبلغ خبر تأهبه الى الافضل فسار من دمشق الى عمه الملك العادل فاجتمع به فى
قلعة جعبر ودعاه الى نصرته وسار من عنده من حلب الى أخيه الملك الظاهر غازى فاستنجده
وسار الملك العادل من قلعة جعبر الى دمشق فسبق الملك الافضل اليها ودخلها وكان الافضل
لثقته به أمر نوابه بادخاله الى القلعة ثم عاد الافضل من حلب الى دمشق فأرسل مقدم
الاسدية وهو سيف الدين ايازكوش وغيره منهم ومن الاكراد أبو الهيجاء السمين وغيره الى
الافضل والعادل بالانحياز اليهما والكون معهما ويحضهما على الاتفاق على العزيز
والخروج من دمشق ليسلموها اليهما * قال أصحاب التاريخ وكان سبب بغض هؤلاء للعزيز
وميلهم الى الافضل أن العزيز لما ملك مصر مال الى طائفة المماليك الناصرية وقدمهم ووثق
بهم ولم يلتفت الى هؤلاء الامراء فأنفوا من ذلك ومالوا الى أخيه وأرسلوا الى الافضل والعادل
فاتفقا على ذلك أيضا واستقرت القاعدة بحضور رسل الامراء أن الافضل يملك الديار المصرية
ويسلم دمشق الى عمه الملك العادل وخرجا من دمشق على ذلك فانحاز اليهما من ذكرنا
فلم يمكن العزيز المقام بل عاد منهزما يطوى المراحل خوف الطلب ولايصدق بالنجاة وتساقط
أصحابه عنه الى أن وصل الى مصر وأما العادل والافضل فانهما أرسلا الى البيت المقدس وفيه
نائب العزيز فسلمه اليهما وسارا بمن معهما من الاسدية والاكراد الى مصر فرأى العادل من
انضمام العسكر الى الملك الافضل وميلهم اليه ما أخافه وعلم أنه أى الافضل ان أخذ مصر
ربما لا يسلم اليه دمشق فأرسل حينئذ سرا الى الملك العزيز يأمره بالثبات وأن يجعل
بمدينة بلبيس من يحفظها وتكفل بأنه يمنع الافضل وغيره من مقاتلة من بها فجعل العزيز

جماعة الناصرية ومقدمهم فخر الدين جركس بها ومعهم جماعة أخرى فلما وصل العادل والافضل الى بلبيس نازلوا من بها من أصحاب العزيز وعزم الافضل على مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل الى مصر فمنعه العادل من الامرين وقال هذه عساكر الاسلام فان قتلوا فى الحرب فمن يرد العدو الكافر وما بنا حاجة الى ذلك فان البلاد لك وبحكمك ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتهما قهرا زالت هيبة البلاد وطمع فيها الاعداء وليس فيها من يمنعك عنها وسلك معه مثل هذا فطالت الايام وأرسل الى العزيز سرا وأمره بارسال القاضى الفاضل وكان مطاعا عند البيت الصلاحى لعلو منزلته عند صلاح الدين فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلح وزاد القول ونقص وانحلت العزائم واستقر الامر على أن للافضل البيت المقدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والاردن وجميع ما بيده ويكون للعادل اقطاعه التى كانت قديما ويكون مقيما بمصر عند العزيز قالوا وانما اختار ذلك لان الاسدية والاكراد لايريدون العزيز فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه عما يريده فلما استقر الامر على ذلك وتعاهدوا عاد الافضل الى دمشق وبقى العادل بمصر عند العزيز

ولم يستقر الصلح بينهم على ماوصفنا أكثر من حول واحد حتى عاد العادل أبوبكر فأخذ دمشق من الافضل ابن أخيه صلاح الدين وذلك فى السابع والعشرين من رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وكان أبلغ الاسباب فى ذلك وثوق الافضل بالعادل المذكور وقد بلغ من وثوقه به أنه أدخله بلده وهو غائب عنه كما تقدم القول وخالف فيه قول أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب ٭ وقال بعض كتاب الاخبار غير ذلك ٭ وهو أنه لما أن سار العادل والأفضل الى مصر وحاصرا بلبيس ثم اصطلحا مع العزيز صاحب مصر أقام العادل مع العزيز بمصر فلم يلبث حتى استمال العزيز اليه وقرر معه أن يخرجا معا الى دمشق ويأخذاها من الافضل وأن يسلمها اليه فسار معه الى دمشق وحصروها بجميعا واستمالوا أميرا من أمراء الافضل يقال له العزيز بن أبى غالب الحمصى وكان الافضل كثير الاحسان اليه والاعتماد عليه والوثوق به فسلم اليه بابا من أبواب دمشق يعرف بالباب الشرقى لحفظه فمال الى العزيز والعادل ووعدهما أن يفتح لهما الباب ويدخل العسكر منه الى البلد غفلة ففتحه فى اليوم السابع والعشرين من رجب وقت العصر وأدخل الملك العادل منه ومعه جماعة من أصحابه فلم يشعر الافضل الا وعمه معه فى دمشق وركب الملك العزيز ووقف بالميدان الاخضر غربى دمشق فلما رأى الافضل أن البلد قد ملك خرج الى أخيه وقت المغرب واجتمع به ودخلا كلاهما البلد واجتمعا بالعادل وقد نزل فى دار أسد الدين شيركوه وتحادثوا واتفق العادل والعزيز على أنهما يبقيان على الافضل البلد خوفا من أنه ربما جمع من عنده من العسكر وثار بهما ومعه العامة فأخرجهما من البلد وعاد الافضل الى القلعة وبات العادل فى دار شيركوه وخرج العزيز الى الخيام فبات فيها وخرج العادل من الغد الى جوسقه فأقام به وعسكره فى البلد وفى كل يوم يخرج الافضل اليهما ويجتمع

بهما

بهما فبقوا على هذا الحال أياما ثم أرسلا اليه وأمراء بمفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة
أن يعطى قلعة صرخد له ويسلم جميع أعمال دمشق فخرج الافضل ونزل فى جوسق بظاهر
البلد غربى دمشق وتسلم العزيز القلعة ودخلها وأقام بها أياما فجلس يوما فى مجلس شرابه
فلما أخذت منه الخمر جرى على لسانه أنه على عزم أن يعيد دمشق الى أخيه الافضل فنقل
ذلك الى العادل فى الحال فحضر المجلس من ساعته والعزيز سكران فلم يزل به حتى سلم اليه
البلد وخرج منه وعاد الى مصر وسار الافضل الى صرخد ٭ واتفق أن خرج العزيز من
القاهرة يريد الصيد فجعل يتنقل من بلد الى آخر حتى وصل الى مدينة الفيوم فرأى
ذئبا فركض فرسه فى طلبه فعثر الفرس فسقط عنه ولحقته حمى فعاد الى القاهرة مريضا
واشتد به مرضه فمات فى العشرين من المحرم افتتاح سنة خمس وتسعين وخمسمائة
٭ قال أصحاب التاريخ وكان الغالب على أمره مملوك والده فخر الدين جهاركس فلما مات
العزيز سير فخر الدين المذكور الى الملك العادل أبى بكر بن أيوب وهو يحاصر ماردين
يستدعيه ليملكه البلاد فسار القاصد مجدا فلما بلغ الشام رأى بعض أصحاب الملك الافضل
فقال له قل لصاحبك ان أخاه العزيز مات وليس فى مصر من يمنعها فليسر اليها على عجل
وكان الافضل محبوبا الى الناس فلم يلتفت الى قول ذلك القاصد ولم يتحرك من صرخد حتى
جاءته رسل الامراء من مصر يدعونه اليهم ليملكوه البلاد وكان سبب ذلك أن الامير سيف
الدين يازكج مقدم الاسدية والفرقة الاسدية والامراء الاكراد يحبونه كثيرا وكانت المماليك
الناصرية الذين هم مماليك أبيه يكرهونه فاجتمع سيف الدين مقدم الاسدية المذكور وفخر
الدين جهاركس مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولونه الملك فقال فخر الدين نولى ابن الملك
العزيز فقال سيف الدين انه طفل وهذه البلاد ثغر الاسلام ولا بد من قيم بالملك يجمع
العساكر ويقاتل بها والرأى أننا اذا جعلنا الملك فى هذا الطفل نجعل معه بعض أولاد
صلاح الدين يدبره الى أن يبلغ أشده فان العساكر لا تطيع غيرهم ولا تنقاد لاحد غير أهل
هذا البيت وجرى بين الفريقين كلام ثم اتفقا على هذا فقال جهاركس ومن يتولى القيام بذلك
فأشار سيف الدين بغير الافضل فجرى بينه وبين جهاركس منازعة لئلا يتهم وينفر جهاركس
عنه فامتنع من ولايته ٭ قال بعض أصحاب الاخبار فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين
واحدا بعد آخر الى أن ذكر آخرهم الافضل فقال جهاركس هو بعيد عنا وكان يومئذ
بصرخد مقيما بها من حين أخذت منه دمشق فقال سيف الدين نمضى الى القاضى الفاضل
ونأخذ برأيه فاتفقا على ذلك وأرسل سيف الدين فى الحال القاصد وراءه فسار عن صرخد
لليلتين بقيتا من صفر متنكرا فى تسعة عشر نفرا فلما قارب بيت المقدس وقد عدل عن
الطريق المؤدى اليها لقيه فارسان قد أرسلا اليه من بيت المقدس فأخبراه أن من بالقدس
قد صار فى طاعته فجد فى السير فوصل الى بلبيس خامس ربيع الاول ولقيه اخوته
وجماعة الامراء المصريين وجميع الاعيان واتفق أن أخاه الملك المؤيد مسعودا صنع له طعاما

وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاما أيضا فابتدأ بطعام أخيه ليبن حلفها أخوه أن يبدأ به فظن فخر الدين جهاركس أنه فعل هذا انحرافا عنه وسوء ظن به فاضطرب خاطره وتغيرت نيته وعزم على الهرب فحضر عند الافضل وقال ان طائفة من العربان قد اقتتلوا وان لم نمض اليهم نصلح بينهم لأدى ذلك الى فساد عظيم فأذن له الافضل فى المضى اليهم ففارقه وسار مجدا حتى وصل بيت المقدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الناصرية منهم قراجه الزركش وسرا سنقر واستقدموا أيضا ميمونا القصرى صاحب نابلس وهو من المماليك الناصرية فقويت شوكتهم به واجتمعت كلمتهم على خلاف الافضل وأرسلوا الى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه اليهم ليدخلوا معه الى مصر ليملكوها فلم يسر اليهم لان أطماعه كانت قد قويت فى أخذ ماردين وقد عجز من بها عن حفظها حتى اذا أخذها جاءهم على الاثر ليدخل معهم مصر

أما الملك الافضل فانه بعد أن استراح من متاعب السفر سار عن بلبيس الى القاهرة فوصلها سابع ربيع الاول وعلم بهرب فخر الدين جهاركس فأهمه ذلك وترددت الرسل بينه وبين جهاركس ومن معه ليعودوا اليه فلم يزدادوا الا بعدا ولحق بهم جماعة آخرون من الناصرية أيضا فاستوحش الملك الافضل ممن بقى من الناصرية فقبض عليهم وهم شقيرة وأيبك فطيس والبكى الفارس وغيرهم وكل من هؤلاء بطل مشهور ومقدم مذكور وبعدهم جعل الافضل يتصرف فى الامور ويقرر القواعد ويصلح الاحوال ويقضى حوائج الخلق والمرجع فى جميع الامور الى سيف الدين يازكج فكان معه ابن أخيه الملك العزيز ملكا بالاسم فقط ٭ ولم يمض الا القليل حتى اجتمعت له الكلمة ومالت اليه القلوب وأحبه الامراء والرعية ووصل اليه رسول من عند أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب وأرسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه صاحب حمص يحثانه على الخروج الى دمشق واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال فمال الى رأيهم وبرز من القاهرة فى منتصف جمادى الاولى من سنة خمس وتسعين وخمسمائة على العزم الى دمشق وأقام بظاهر القاهرة الى ثالث رجب ثم رحل فيه وتعوّق فى مسيره ٭ قال أصحاب التاريخ ولو بادر وجعل المسير لملك دمشق بغير ممانع ولكنه تأخر فوصل اليها ثالث عشر شعبان فنزل على جسر الخشب على قيد فرسخ ونصف من دمشق وكان الملك العادل قد أرسل اليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الافضل لهم ففارق ماردين وخلف ولده الكامل محمدا فى جميع العساكر على حصارها وسار جريدة بجدّ السير فسبق الافضل فدخل دمشق قبله بيومين وتقدّم الافضل الى دمشق فى الغد وهو رابع عشر شعبان ودخل فى ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسقلان الى دمشق من باب السلام وكان سبب دخولهم أن قوما من أجناده ممن بيوتهم مجاورة لذلك الباب اجتمعوا بأمير اسمه مجد الدين أخى الفقيه عيسى الهكارى وتحدثوا معه فى أن يقصد هو والعساكر باب السلامة ليفتحوه لهم فاراد مجد الدين

المذكور

المذكور أن يختص بفتح الباب وحده فلم يعلم الافضل ولا أخذ أحدا من العسكر بل سار وحده ومعه نحو خمسين فارسا من أصحابه ففتح له الباب فدخله هو ومن معه فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الافضل فأستسلم من به من العساكر والاجناد ونزلوا عن الاسوار وبلغ الخبر الملك العادل فكاد يستسلم ولكنه تماسك أما الذين دخلوا البلد فانهم وصلوا الى باب البريد فلما رأى عسكر العادل الذين كانوا بدمشق قلة عددهم وانقطاع مددهم وثبوا عليهم وأخرجوهم منه وكان الافضل قد نصب خيامه بالميدان الاخضر وقارب عسكره الباب الجديد وهو من أبواب القلعة فقدر الله أنه أشير على الافضل بالانتقال الى ميدان الحصى ففعل ذلك فقويت نفوس من فيه وضعفت نفوس العسكر المصرى ثم ان الامراء الاكراد منهم تحالفوا فصاروا يدا واحدة يغضبون لغضب أحدهم و يرضون لرضا الآخر فظن الافضل وباقى الاسدية أنهم فعلوا ذلك لقاعدة بينهم و بين الدمشقيين فرحلوا من موضعهم وتأخروا ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص الى الافضل فى الخامس والعشرين من شعبان ووصل بعده الملك الظاهر صاحب حلب وعزموا على الزحف الى دمشق فمنعهم الملك الظاهر مكرا بأخيه وحسدا له ولم يشعر أخوه الافضل بذلك أما الملك العادل فانه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الامداد الى الافضل عظم عليه الامر فارسل الى المماليك الناصرية ببيت المقدس يستدعيهم اليه فساروا سلخ شعبان فوصل خبرهم الى الافضل فسير أسد الدين صاحب حمص ومعه جماعة من الامراء الى طريقهم فمنعوهم فسلكوا غير طريقهم فجاء هؤلاء ودخلوا دمشق فقوى العادل بهم قوة عظيمة وزال عنه ما كان يخشاه وأيس الافضل ومن معه من أخذ دمشق وخرج عسكر دمشق فكبسوا العسكر المصرى فوجدوهم قد حذروهم فعادوا عنهم خاسرين وأقام العسكر على دمشق ما بين قوة وضعف وانتصار وتخاذل حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمد وكان قد رحل عن ماردين ونزل عن معه بحوران فاستدعاه اليه بعسكره فسار على طريق البر فدخل الى دمشق ثانى عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق الى ذيل جبل الكسوة واستقر أن يقيموا بحوران حتى يخرج الشتاء فرحلوا الى رأس الماء وهو موضع شديد البرد فتغير العزم عن المقام واتفقوا على أن يعود كل الى بلده فلما وصل الافضل الى مدينة بلبيس نزل بها أياما فوصلته الاخبار بان عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصدا مصر ومعه المماليك الناصرية وقد حلفوا له على أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو (أى العادل) المدبر للملك الى أن يكبر فساروا على هذا وكان عسكر الافضل بمصر قد تفرقوا فسار كل منهم الى اقطاعه فرام الافضل جمعهم من أطراف البلاد فأعجله الامر عن ذلك ولم يجتمع منهم الا طائفة يسيرة ممن قرب اقطاعه ووصل العادل فى عسكر عظيم فاشار بعض الناس على الافضل أن يخرب سور بلبيس ويقيم بالقاهرة وأشار غيرهم بالتقدم الى أطراف البلاد ففعل ذلك فسار عن بلبيس ونزل موضعا يقال له السايح

والتقى هو والعادل سابع ربيع الآخر سنة ست وتسعين واقتتلوا فانهزم الافضل ودخل القاهرة ليلا واتفق فى تلك الليلة موت القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى كاتب الانشاء لصلاح الدين ووزيره فحضر الافضل للصلاة عليه وسار العادل حتى نزل على القاهرة بعسكره وحاصرها وضيق عليها فجمع الافضل من عنده من الامراء واستشارهم فرأى منهم تخاذلا فارسل الى عمه فى طلب الصلح وتسليم البلاد اليه وأخذ العوض عنها وطلب دمشق فلم يجبه العادل فنزل عنها الى حوران والرها فلم يجبه أيضا فنزل الى ميافارقين وحانى وجبل جوز فأجابه الى ذلك وتحالفوا عليه وخرج الافضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر واجتمع بالعادل وسار الى صرخد ودخل العادل الى القاهرة فى اليوم المذكور

ولما ثبتت قدم الملك العادل بمصر تاقت نفسه الى الاستبداد بالملك فقطع خطبة الملك المنصور بن الملك العزيز وخطب لنفسه وصادر طوائف الجند فى اقطاعهم واعترضهم فى أصحابهم ومن عليهم من العسكر المقرر فتغيرت لذلك نياتهم وانحرفوا عليه واتفقت على ذلك كلمتهم وبينما هو على هذا الحال اذ وردت الاخبار بتأهب الفرنسيس لاخذ مدينة دمياط فلم يهتم العادل بذلك فلما كانت سنة خمس عشرة وستمائة وصلت مراكبهم الى دمياط فى صفر فارسوا على بر الجزيرة بينهم وبين دمياط النيل وبنوا عليهم سورا وجعلوا خندقا يحول بينهم وبين من يقصدهم وشرعوا فى قتال من بدمياط وعملوا آلات ومرمة وأبراجا يزحفون بها فى المراكب الى برج عظيم كان بدمياط مشحون بالرجال ليقاتلوه ويملكوه وقد نزل الكامل بن الملك العادل بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعسكر متصل من عنده الى دمياط ليمنع الفرنسيس من العبور الى أرضها وأدام الفرنسيس قتال البرج وتابعوه فلم يظفروا منه بشئ قبل وكسرت مرمتهم وآلاتهم ومع ذلك لازموا قتاله وبقوا على ذلك أربعة أشهر حتى ظفروا وملكوا البرج وكان منيعا مبنيا فى وسط النيل وفيه سلاسل من حديد غلاظ ممدودة من النيل الى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر الملح أن تصعد فى النيل الى ديار مصر فلما ملكوا البرج قطعوا تلك السلاسل لتدخل مراكبهم الى النيل ويتمكنوا من البر فأمر الكامل فنصبوا عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك النيل فقاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا حتى قطعوه فأخذ الكامل عدة مراكب كبار وملأها رملا وخرقها وغرقها فى النيل فمنعت سفن الفرنسيس من السلوك فلما رأى الفرنسيس ذلك قصدوا خليجا هنالك يعرف بالخليج الازرق كان النيل يجرى فيه فحفروا ذلك الخليج وعمقوه وأجروا الماء فيه الى البحر الملح وأصعدوا مراكبهم فيه الى موضع يقال له بوره على أرض الجزيرة مقابل المنزلة التى فيها الكامل ليقاتلوه من هنالك فلما صاروا فى بورة حاذوه وقاتلوه فى الماء وزحفوا عليه غير مرة فلم يظفروا فلما كان شهر جمادى الآخرة من السنة أى سنة خمس عشرة وستمائة وردت الاخبار من القاهرة بموت الملك العادل فقام ولده الكامل من المنزلة الى القاهرة بجريدة اذ بلغه أيضا أن أمراء الاكراد اتفقوا مع الامير عماد الدين أحمد

ابن على المشطوب على خلعه وتمليك أخيه الملك الفائز ابن الملك العادل ليصير الحكم لهم
عليه وعلى البلاد وشاع الخبر بذلك بين الجند فركب كل انسان منهم هواه ونادى فيهم منادى
الفشل فتركوا خيامهم وذخائرهم وأموالهم وسلاحهم ولم يأخذوا منها الا القليل جدا وتركوا
من الميرة والكراع ودواب الحمل ما يجل عن الحصر ولحقوا بالكامل وأصبح الفرنسيس من
الغد فلم يروا من المسلمين أحدا على شاطئ النيل وعلموا بالخبر فعبروا النيل الى دمياط فغنموا
ما فى عسكر المسلمين فكان شيأ عظيما جدا واتفق أن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل
وصل الى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين والناس فى أمر مريج جدا وكان قد أرسل
اليه يستنجده فقوى بمقدمه واشتد أزره وثبت جنانه وعاد الى أشمون طناح وسير الى القاهرة
من أخرج ابن المشطوب الى الشام قهرا فاتصل بالملك الاشرف وصار من جنده أما الفرنسيس
فانهم لما عبروا الى أرض دمياط شرعوا فى حصارها والتضييق عليها فاجتمعت العرب على
اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وطغوا فى الطريق وأفسدوا وبالغوا فى الافساد
فكانوا أشد على المسلمين من الافرنج وأحاط الفرنجة يومئذ بدمياط وقاتلوها برا وبحرا وعملوا
عليهم خندقا يمنعهم عن يريدهم وأداموا القتال واشتد الحال على أهلها شدة بالغة وتعذرت
عليهم الاقوات وكثر القتل والجرح فيهم ودام الحصار زهاء أربعة شهور فسلموا البلد الى
الفرنسيس فى عشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة قهرا وخرج منهم قوم وأقام
آخرون فدخل الفرنسيس المدينة وأقاموا بها وبثوا سراياهم فى كل ما جاورها لجلا أهلها
عنها وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وبالغوا فى ذلك حتى انها صارت لا ترام الا بعد عناء شديد
أما الكامل فانه أقام بالقرب من الفرنسيس فى أطراف البلاد لا يأتى عملا وكثر توارد المدد
للفرنسيس من كل صوب وحدب فعظمت هيبتهم فى قلوب المسلمين وعم الخوف منهم
وعاد الملك المعظم صاحب دمشق الى الشام فخرب بيت المقدس فى ذى القعدة خوفا من
وصول الفرنسيس اليه وأخذه وقد خاف الناس كافة وأشرف الاسلام وأهله وبلاده على
خطة خسف فى مشرق الارض ومغربها وصاروا يتوقعون البلاء فى كل يوم وأراد أهل مصر
الجلاء عن البلاد الى الاقطار الحجازية والديار الشامية وغيرها فلم يتمكنوا من ذلك لوقوف
العربان فى الطرق وافسادهم فى البلاد وفعلهم بالمسلمين مالم تفعله الفرنسيس من النهب
والسلب وهتك الاعراض وسبى النساء والفرنسيس قد أحاطوا بهم من كل جانب وتابع
الكامل كتبه الى أخويه المعظم صاحب دمشق والاشرف موسى بن العادل صاحب
الجزيرة وديار أرمينية يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فان لم يمكن فليرسلا
العسكر اليه وبقى الامر كذلك مع الفرنسيس الى سنة ثمان عشرة وستمائة ثم وصل
الملك الاشرف الى مصر وكان الفرنسيس قد ساروا من دمياط وقصدوا الكامل ونزلوا
مقابله وبينهما خليج من النيل وهو بحر أشمون وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ الى عسكر
المسلمين وقد تيقن الناس جميعا بأنهم يملكون الديار المصرية لا محالة فلما علم الكامل

بوصول أخيه الاشرف توّجه اليه ولقيه واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما أما الملك
المعظم صاحب دمشق فانه قصد دمياط ظنا أن أخويه وعسكريهما قد نزلوا بها واجتمع
الاشرف بالكامل فاستقر الامر بينهما على التقدم الى خليج من النيل يعرف ببحر المحلة
فتقدموا اليه فقاتلوا الفرنسيس وازدادوا قربا وتقدمت شوانى المسلمين من النيل وقاتلوا
شوانى الفرنسيس وترددت الرسل بين الفريقين فى تقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون
للفرنسيس بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة مع اللاذقية وجميع ما فتحه صلاح
الدين ما عدا الكرك ليسلموا دمياط فلم يقبلوا وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب
بيت المقدس ليعمروه بها فلم يتم بينهم أمر * وبينما هم على هذا الحال من الخلاف عبر طائفة
من المسلمين الى الارض التى عليها الفرنسيس فقطعوا النيل فركب الماء أكثر تلك الارض
ولم يبق للفرنسيس جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فنصب الكامل حينئذ سورا على
النيل عند أشمون وعبرت العساكر عليها فملك الطريق التى يسلكه الفرنسيس ان أرادوا
العود الى دمياط فراسل الفرنسيس عند ذلك الكامل وخابروه فى أمر الصلح وتسليم دمياط
بغير عوض واتفق فى هذه الاثناء وصول الملك المعظم صاحب دمشق ومعه عسكر جرار
فاشتدت بحضوره ظهور المسلمين وتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة سابع
رجب سنة ثمان عشرة وستمائة وتسلمت فى تاسع رجب المذكور فدخلها المسلمون فلم يجدوا
من أهلها الا القليل فقد كانوا تفرقوا أيدى سبا ورأوها حصينة لما بذله الفرنسيس فى
تحصينها

ولما رحلت جيوش الفرنسيس عن دمياط جلس الافضل للعزاء على موت أبيه الملك
العادل مع طول المدة فانه مات فى سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة كما تقدم
القول وحمل الى دمشق ودفن بالتربة التى أعدها لنفسه بها * قال أصحاب التاريخ وكان العادل
عاقلا ذا رأى سديد ومكر شديد وخديعة صبورا حليما متواضعا وكان عمره خمسا وسبعين
سنة وشهورا وملك دمشق من الافضل ابن أخيه وملك مصر منه أيضا * ومن أعجب ما رؤى
فى منافاة الطوالع أنه لم يملك الافضل مملكة الا وأخذها منه عمه العادل المذكور فأول ذلك
أن صلاح الدين أعطى ابنه الافضل حوران والرها وميافارقين سنة ست وثمانين بعد وفاة
تقى الدين فسار اليها فلما وصل الى حلب أرسل أبوه الملك العادل بعده فرده من حلب وأخذ
هذه البلاد منه ثم ملك الافضل بعد وفاة أبيه دمشق فأخذها منه ثم ملك مصر بعد وفاة
أخيه الملك العزيز فأخذها أيضا منه ثم تملك صرخد فأخذها منه وهذا من غريب الاتفاق
وكان العادل قد قسم البلاد فى حياته بين أولاده فجعل بمصر الملك الكامل محمدا وبدمشق
والقدس وطبرية والاردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى وجعل
بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط وأعمالها لابنه الملك الاشرف موسى وأعطى الرها
لولده شهاب الدين غازى وأعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه فلما توفى ثبت كل فى

المملكة التى أعطاها له أبوه وانفقوا اتفاقا حسنا ولم يجر بينهم من الاختلاف شئ بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولا يخافه ولا يظن به السوء

وحدث فى أيام الملك العادل المذكور فناء عظيم بديار مصر أهلك الكثير من الاغنياء والفقراء وحصل عقب ذلك غلاء شديد واشتد الجوع فى جميع البلاد فرحل الكثير من الناس الى دمشق والمشرق والمغرب وكان الفقراء يأكلون لحوم الكلاب والقطط والحيوانات فلما نفدت أوكادت صاروا ينبشون القبور ويأكلون جيف الاموات وبلغت بهم الشدة مبلغا عظيما حتى صاروا يخطفون الاطفال فى الاسواق من أمهاتهم فكانوا يذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم جهارا فى الشوارع * قال أصحاب الاخبار دخلت امرأة يوما على الملك العادل وهى خائفة ترتجف فسألها عن حالها فقالت انى يامولاى قابلة وان قوما استدعونى فى هذا الصباح لأولد امرأة فذهبت معهم ولما كان وقت الفطور قدموا لى طعاما كثير اللحم غير أنه لايشبه اللحم المعهود فأنكرته ولم تقبله نفسى ثم وجدت بنتا صغيرة هناك فاختليت بها وسألتها عن ذلك اللحم فقالت البنت ان فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها أبى وها هى معلقة اربا فى هذه الخزانة فاقشعر جسمى من هذا الخبر وجئت فى الحال الى تلك الخزانة ففتحتها على حين غفلة فوجدتها مملوءة من لحم تلك المرأة فجئت اليك لاعلمك بذلك وهذه قصتى فتعجب الملك العادل من كلامها وأرسل معها من هجم على تلك الدار وأخذ من فيها وهرب صاحبها وبقى مختفيا حتى أصلح أمره مع حاكم البلد بدفع ثلثمائة دينار فدية عن نفسه * وكان الذين اعتادوا منهم على أكل لحم بنى آدم يصيدون الناس باصناف الحيل والمخادعة فكانوا يستطلبونهم الى بيوتهم بانواع الملاعب فيذبحونهم ويأكلونهم فوقع مرة فى أشراكهم ثلاثة أطباء أحدهم خرج معهم ولم يرجع والثانى أعطته امرأة درهمين على أن يذهب معها الى مريض فصدق كلامها وسار معها فلما توغلت به فى الازقة ومضايق الطرق فكر فى نفسه وعلم الحيلة فخاف وامتنع عنها وصاح عليها وشتمها فتركته وهربت وأما الثالث فان رجلا استدعاه الى زيارة مريض وأطمعه فى الاجرة فذهب معه وما زال يسير به من مكان الى مكان حتى أدخله دارا خربة فارتاب الطبيب منه وتوقف فى وسط الدرج وكان الرجل قد سبق وطرق الباب فخرج اليه رفيقه وهو يقول له ماهذه العاقة هل حصلت على صيد ينفع فخاف الطبيب عند سماعه هذا الكلام وخفق قلبه وأيقن بالهلاك وكان فى حائط ذلك الدرج شباك صغير يشرف على اصطبل فألقى نفسه من ذلك الشباك فجاء فى وسط الاصطبل فقام اليه صاحب الاصطبل وقال له من أنت ومن تكون فخاف خوفا عظيما وكتم أمره عنه خوفا منه أيضا فقال له الرجل صاحب الاصطبل لابأس عليك قد علمت ما حالك ولا يخفاك أن أهل هذا البيت يذبحون الناس بالاحتيال والخداع والحمد لله على سلامتك ثم أخرجه من ذلك المكان وسار معه حتى أوصله السوق قال الراوى ولولا هذا التصادف والاتفاق

لهلك الطبيب وانقطع خبره وكانت مدة سلطنة الملك العادل سيف الدين تسع عشرة سنة كلها احن ومحن

ولما كانت سنة اثنتين وعشرين وستمائة مات الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد ابن المستضىء بنور الله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله مات فى آخر ليلة من رمضان فكانت خلافته ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوما وكان عمره سبعين سنة تقريبا فلم يل الخلافة أطول مدة منه الا ماقيل عن المستنصر بالله العلوى صاحب مصر فانه ولى ستين سنة • وكان الخليفة الناصر قد بقى ثلاث سنين عاطلا عن الحركة وقد ذهبت احدى عينيه والاخرى يبصر بها ابصارا ضعيفا ثم أصابه فى آخر أيامه اسهال شديد استمر عشرين يوما مات بسببه • قال أصحاب التاريخ ولم يطلق فى طول مرضه شيأ مما كان أحدثه من الرسوم الجائرة وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما فخرب بلاد العراق وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان يفعل الشئ وضده فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة فى بغداد ليفطر الناس عليها فى رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها وأطلق بعض المكوس التى جددها فى بغداد خاصة ثم أعادها وقصر همه على رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فأبطل الفتوة فى البلاد جميعها الا من يلبس سراويل يدعى اليه ولبس كثير من الملوك منه سراويل الفتوة وكذلك منع الطيور المناسيب لغيره الا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق الا من ينتمى اليه فأجاب الناس بالعراق وغيره الى ذلك • قلت فاذا كان هذا غرام الخليفة أيام خلافته كان من أعجب الامور بل من أكبر المعايب وكان ماينسبه العجم اليه من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك صحيحا فهو اذا الطامة الكبرى على هامة الخلافة والداهية الدهياء التى يصغر عندها كل ذنب عظيم

ومات فى أيامه مكاريوس بطرك الاسكندرية وكان يعرف بمكاريوس الثانى وكان تقدمه بدير أبو مقار وكل بالاسكندرية ثم عاد الى مصر وأقام بها أياما ثم عاد الى دير أبو مقار ثانية فقدس به ثم جاء الى مصر فقدس فى كنيسة المعلقة وأقام ستا وعشرين سنة وأحدا وأربعين يوما ومات فخلت مصر من بطرك للتأصلين سنتين وشهرين وفى أيامه حصلت زلزلة عظيمة بالقاهرة هدمت فيها كنيسة المختار بالروضة قال بعض أهل التاريخ والصحيح أن الذى هدمها هو الافضل فانها كانت فى بستانه وكان كثير الضجر من وجودها فى بستانه فلما مات أقيم بعده غبريال المكنى بابى العلاء صاعد بن شريك الشماس بكنيسة مرقوريوس بالمعلقة وهو السبعون من بطاركة الاسكندرية وأصله من كبار الكتاب بمصر وكل بالاسكندرية وقدس بالمبارات بوادى هبيب وأقام أربع عشرة سنة ومات فخلا الكرسى بعده ثمانية أشهر ثم قدم بعده مخائيل بن التقادوسى الراهب بقلاية الدمشيرية وهو حادى سبعيهم وأصله راهب من دير أبى مقار فأقام سنة وسبعين يوما ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر فأقيم بعده يوحنا الخامس المكنى بأبى الفتح

بالمعلقة

بالمعلقة وكمل بالاسكندرية وهو ثانى سبعيهم وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل الخامس والثلاثون)

(فى خلافة الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله)

ثم قام بالامر بعد الخليفة الناصر ابنه محمد الظاهر بأمر الله بويع له بالخلافة يوم موت أبيه فى الاول من شوال سنة اثنتين وعشرين وستمائة هجرية أى نحو سنة خمس وعشرين ومائتين وألف ميلادية ولم يكن أبوه الملك الناصر يحبه فانه بعد أن خطب له بولاية العهد على منابر العراق وغيرها من البلاد عاد فخلعه وأرسل الى الآفاق بقطع الخطبة له * قال أصحاب التاريخ وانما فعل ذلك لانه كان يميل الى ولده الاصغر علىّ فاتفق أنه مات سنة اثنتى عشرة وستمائة ولم يكن للخليفة ولد خلاف ولى العهد المذكور فاضطر الى اعادته الا أنه كان تحت الاحتياط والحجر عليه لايتصرف فى شئ ما فلما مات أبوه ولى الخلافة وأحضر الناس لاخذ البيعة وتلقب بالظاهر بأمر الله يعنى بذلك أن أباه وجميع أصحابه أرادوا صرف الامر عنه فظهر وولى الخلافة بامر الله لابسعى أحد * فلما ولى أظهر من العدل والاحسان ماأعاد به سنة العمرين وأعاد الاموال المغصوبة فى أيام أبيه وقبله وكانت شيأ كثيرا جدا وأطلق المكوس فى البلاد جميعها وأمر باعادة الخراج القديم فى جميع العراق وأن يسقط جميع ماجدده أمير الخراج بأمر أبيه وكان شيأ كثيرا وتقدم الى القاضى فى أن كل من عرض عليه كتابا صحيحا بملك يعيده اليه من غير اذنه وأقام رجلا صالحا فى ولاية الحشرى وبيت المال وكان هذا الذى أقامه حنبليا فقال اننى من مذهبى أورث ذوى الارحام فان أذن أمير المؤمنين أن أفعل ذلك وليت والا فلا فقال له أعط كل ذى حق حقه واتق الله ولا تتق سواه * وكانت العادة ببغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة الى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع بعض الاصدقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ماسوى ذلك من كل صغيرة وكبيرة فكان الناس من هذا فى حجر عظيم فلما ولى الظاهر أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال أىّ غرض لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم فلا يكتب أحد الينا الا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له ان العامة تفسد بذلك ويعظم شرها فقال نحن ندعو الله أن يصلح أحوالهم * ومحاسن أعماله كثيرة جدا منها انه أخرج توقيعا الى الوزير بخطه ليقرأ على أرباب الدولة فلما وصل الرسول قال أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لايبين له أثر بل أنتم الى امام فعال أحوج منه الى امام قوال فقرؤه فاذا فى أوله بعد البسملة * اعلموا

أنه ليس امهالنا اهمالا ولا اغضاؤنا اغفالا ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ماسلف من تخريب البلاد وتشريد الرعية وتقبيح الشريعة واظهار الباطل الجلى فى صورة الحق الخفى حيلة ومكيدة وتسميه الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدرا كا لاغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل وأنياب أسد مهيب تتفقون بالفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه الى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيطيعكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا وبفقركم غنى وبباطلكم حقا ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ولا يؤاخذ الا من اصر ولا ينتقم الا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم فى طاعته فان سلكتم مسالك نواب خلفاء الله فى أرضه وأمنائه على خلقه والا هلكتم والسلام ❁ وكانت أيامه قصيرة اذ مات فى الرابع عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما ❁ قال صاحب الكامل وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه والعدل والاحسان الى رعيته ولما مات وجدوا فى بيت فى داره ألوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها فقيل له ليفتحها فقال لاحاجة لنا فيها كلها سعايات ولقصر مدة خلافته لم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر وعمل له العزاء فى البلاد كلها لاحسانه وفضله على الرعية وولى الخلافة بعده ابنه أبو جعفر المنصور

(الفصل السادس والثلاثون)

(فى خلافة المستنصر بالله أبى جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله)

ثم قام بالامر بعد الظاهر بأمر الله ابنه الاكبر أبو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه فى الرابع عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة هجرية أى سنة ست وعشرين ومائتين وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة سلك فى الخير والاحسان الى الناس سيرة أبيه وأمر فنودى ببغداد بافاضة العدل وأن من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته فلما كان أول جمعة أتت على خلافته أراد أن يصلى الجمعة فى المقصورة التى كان يصلى فيها الخلفاء قيل له ان المطبق الذى يسلك فيه اليها خراب لايمكن سلوكه فركب فرسا وسار الى الجامع وهو جامع القصر ظاهرا يراه الناس بقميص أبيض وعمامة بيضاء بسكاكين من حرير ولم يترك أحدا يمشى معه من أصحابه الصلاة بالموضع الذى كان يصلى فيه وسار هو ومعه خادمان وركابدار لاغير فصلى وعاد

وكذلك

وكذلك الجمعة الثانية حتى أصلح له الطبق * واهتم بمصالح الرعيـة وحاجات الخلق فـدبر الامور وأحسن السياسة وكان محبا للرعيـة ميالا للعـدل كثيرا الحلم كثير العفو ولكنه كان قليل الحظ اذ تحركت الفرنجة فى أيامـه ولم يتمكنوا عن شن الغارات على بلاد الاسلام فى البر والبحر وكانوا يبالغون جدا فى قتال المسلمين فهاله أمرهم وأزعجه وخشى العاقبة وسيّر الى الملك الكامل صاحب مصر يستنجده فتجهز الملك الكامل وجمع عسكرا جرارا وسار به الى الشام فى شوال سنة خمس وعشرين وستمائة وفى نيته التغلب عليها وأخذها فوصل الى بيت المقدس ثم سار عنه الى مدينة نابلس وأغار على تلك البلاد وكانت من أعمال دمشق وهى تابعة للملك المعظم فلما علم الملك المعظم بذلك خاف أن يقصده أيضا ويأخذ دمشق منه فأرسل الى عمه الملك الاشرف يخبره بحاله ويستنجده ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار اليه جريدة فدخل دمشق فلما سمع الملك الكامل بذلك لم يتقدم اليه لان البلد كان منيعا وقد صار به من يمنعه ويحميه وأرسل اليه الملك الاشرف يستعطفه ويعرفه أنه ما جاء الى دمشق الا الطاعة له وموافقة لاغراضه والاتفاق معه على منع الفرنجة عن بلاد المسلمين فأعاد الكامل الجواب يقول وأنا ما جئت لهـذه البلاد الا بسبب الفرنجـة فانه لم يكن فى البلاد من يمنعهم عما يريدونه وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا وأنت تعلم ان عمنا السلطان صلاح الدين فتح بيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الحسن على مدى الاعصار ومر الايام فان أخذه الفرنجة حصل لنا من سوء الذكر وقبح الاحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذى ذخره عمنا وأىّ وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى ثم انهم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه ويتعدونه الى غيره وحيث قد حضرت أنت فانا أعود الى مصر واحفظ أنت البلاد ولست بالذى يقال عنى انى قاتلت أخى أو حاصرته حاشا لله تعالى * وتأخر عن نابلس يريد الديار المصرية ونزل تل العجول فخاف الاشرف ومن بالشام قاطبة وعلموا أنه ان عاد استولى الفرنجة على البيت المقدس وغيره مما يجاوره ولا ممانع دونه فترددت الرسل وسار الاشرف بنفسه الى الكامل أخيه فحضر عنده فى ليلة عيد الاضحى ومنعه من العود الى مصر فلبثا بمكانهما وقد تم ما كان يتوقعه الملك الكامل من عودة الفرنجة فانهم وصلوا فى عدد كثير ونزلوا على السواحل الشامية وأخذوا يفسدون فيما يجاورهم من البلاد الداخلة تحت حكم الاسلام * قال بعض كتاب الاخبار ومضى اليهم وهم بمدينة صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور وأطاعوهم وصاروا معهم على المسلمين واتفق موت الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحب دمشق فقوى طمع الفرنجة بموته فساروا الى عكا ونزلوا بها ورتبوا أمورهم وأصلحوا حالهم وتأهبوا للقتال فلما رأى الملك الكامل هو وأخوه الملك الاشرف مافعله الفرنجة خافا وبعثا بالرسل الى ملك الفرنجة دفعات كثيرة وتخابرا معه فى الصلح وطال الامر بين الفريقين ثم استقرت القاعدة على أن يسلموا للفرنجة بيت المقدس ومعه عدة بلاد أخرى من ملحقاته



ويكون باقى البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وغير ذلك بيد المسلمين فتسلمه الفرنج
ورموا سوره وحصنوه تحصينا عظيما وذلك سنة ست وعشرين وستمائة هجرية • ولما
كانت سنة خمس وثلاثين وستمائة جاءت الاخبار الى الملك الكامل صاحب مصر بموت أخيه
الملك الاشرف فسار من مصر الى الشام يريد دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك
وهو لايشك فى أن الملك الكامل يسلم اليه دمشق لما كان قد تقرر بينهما وكان بدمشق الملك
الصالح اسمعيل فاستعد للحصار وأرسل اليه صاحب حمص نجدة فنازل الملك الكامل دمشق
وما زال يقاتلها حتى ظفر وأخرج منها الملك الصالح اسمعيل وعوضه عنها بعلبك وما حولها
مضافا الى بصرى وكان قد ورد من قبل الخليفة المستنصر محيى الدين يوسف ابن الشيخ
جمال الدين بن الجوزى رسولا للتوفيق بين الكامل ومن معه فتسلم الملك الكامل دمشق
لاحدى عشرة بقيت من جمادى الاولى واشتد حنق الملك الكامل على شيركوه صاحب
حمص لمعاونته الصالح اسمعيل فأمر العسكر فبرزوا بقصد حمص وأرسل أيضا الى صاحب
حماة وأمره بالمسير الى حمص فاشتد خوف شيركوه وتخضع للملك الكامل وأرسل اليه فسله
فدخل على الملك الكامل فلم يلتفت اليه وصمم على الانتقام ولكنه لم يتم له قصده اذ
اخترمته المنية حتف أنفه بدمشق وكان سبب موته أنه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام
فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة الى صدره وورمت معدته
واشتدت به الحمى فنهاه الاطباء عن القىء وخوفوه منه فلم يقبل وتقايأ فمات لوقته وعمره نحو
ستين سنة • قال أصحاب التاريخ وكان بين موته وموت أخيه الاشرف نحو ستة أشهر
وكانت وفاته لتسع بقين من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة فكانت مدة ملكه على مصر
من حين مات أبوه عشرين سنة وكان بها نائبا قبل ذلك قريبا من عشرين سنة فحكم فى
مصر نائبا وملكا زهاء أربعين سنة • وكان ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير أمنت
الطرق فى أيامه وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه واستوزر فى أول ملكه وزير أبيه صفى
الدين بن شكر فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحدا بعده وكان يخرج بنفسه فيتطرف
أمور الجسور عند زيادة النيل واصلاحها فعمرت فى أيامه البلاد وزاد خصبها وكثرت غلاتها
ودرت أرزاقها فأحبه الرعية ومالت اليه القلوب المتباعدة عن محبة أهل هذا البيت
الصالحى واتفق الامراء الذين كانوا معه بدمشق على تحليف العساكر والاجناد لولده الملك
العادل أبى بكر وهو حينئذ نائب أبيه بمصر فحلف له جميع العساكر وأقاموا فى دمشق
الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب نائبا عن أبى بكر بن الكامل
وتقدمت الامراء الى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق وتهددوه ان هو تأخر فرحل
الى الكرك وتفرقت العساكر فسار أكثرهم الى مصر وتأخر مع الجواد يونس بعضهم
ومقدمهم عماد الدين ابن الشيخ • ولما بلغ شيركوه صاحب حمص خبر موت الملك الكامل
صاحب مصر فرح فرحا عظيما وحصل على ما كان يطمع نفسه فيه وأظهر سرورا ما عليه

من

من مزيد ولعب بالكرة على خلاف العادة وهو فى عشر السبعين وأرسل عسكرا فاسترجع سلمية من نواب الملك المظفر وتغلب عليها وقطع القناة الموصلة منها الى حماة فيبست بساتينها وعزم على قطع النهر العاصى عن حماة أيضا فسدّ مخرجه من بحيرة قدس التى بظاهر حمص وتجهز وركب متن هواه غير حاسب لما وراء ذلك حسابا . وكانت أعمال الكامل كلها خيرا واصلاحا قال الحافظ عبد العظيم المنذرى أنشأ الملك الكامل دار الحديث بالقاهرة وعمر القبة على ضريح الشافعى وأجرى الماء من بركة الحبش الى حوض السبيل والساقية التى على باب القبة المذكورة وأوقف غير ذلك من الوقوف على أنواع البر وله المواقف المشهورة بدمياط مع الفرنجة اهـ وقال ابن خلكان واتسعت المملكة للملك الكامل حتى قال خطيب مكة مرة عند الدعاء له . سلطان مكة وعبيدها . واليمن وزبيدها . ومصر وصعيدها والشام وصناديدها . والجزيرة ووليدها . سلطان القبلتين . ورب العلامتين . وخادم الحرمين الشريفين . الملك الكامل أبو المعالى ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين اهـ

ووردت الاخبار الى الملك الاكبر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وهو صاحب حصن كيفا بولاية أخيه العادل أبى بكر واتفاق كلمة الامراء والقواد على البيعة له فاهمه ذلك وأقلقه وجعل يراقب الفرص الى أن علم بعجز أخيه عن القيام باعباء الملك واختلال أمور المملكة فتجرد للقتال وسار فى عسكر عظيم يريد مصر ليأخذها من العادل ويتغلب عليها فبرز العادل الى بلبيس يريد قتال الملك الصالح فلم يكد يصل اليها حتى اختلفت عليه الامور وخرج عليه الجند وشقوا عصا الطاعة فقبضوا عليه واعتقلوه وأرسلوا الى الصالح أيوب فوصل اليهم فى قلة فملكوه وبايعوا له وذلك فى صفر سنة سبع وثلاثين وستمائة وسيروا الخبر بذلك الى الآفاق وأقام الصالح فى الملك وقد دانت له الامور وثبتت قدماه فأحسن السياسة والتدبير فكانت مدة ملك العادل سنتين غير كاملتين واتسعت كلمة الملك الصالح وتصرف فى الامور وقبض على سائر الامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع أخيه ثم أمر بهم فقتلوا جميعا وخلع الملك الجواد يونس ومنعه من دخول مصر وتوعده بالقتل ان هو عاد اليها فسار الجواد الى جماعة الفرنجة فى عكا وحبب اليهم قتال الصالح واستخلاص البلاد منه ففرحوا به وأحسنوا وفادته وسيروه الى صاحب دمشق فى طلب التعاقد على ما فيه المصلحة لهم جميعا فتم لهم الاتفاق مع صاحب دمشق والملك المنصور ابراهيم صاحب حمص وتحالفوا على أن تسير جماعة الفرنجة الى مصر لقتال الصالح ونزع البلاد منه وأن يكون لهم فى مقابل ذلك أورشليم وطبرية وعسقلان والشقيف والصبيد وبادر الفرنجة من حينئذ فملكوا تلك الاماكن وأخذوا فى ترميم حصون عسقلان وطبرية وجعلوا يعدون المعدات ويتأهبون للزحف على ديار مصر ووردت الاخبار بذلك الى الملك الصالح فأقلقته . وكان لما تمكن جنكيزخان من شرقى آسية ودانت له الامور فيها ولم يطعه الخوارزميون كبر عليه هذا الامر وأعظمه وطردهم من آسية فجاؤا شرقى



الشامات ونزلوا هنالك فى طلب الرزق وقد علم الملك الصالح صاحب مصر بقدومهم ذلك فأنفذ اليهم رسلا فى التحالف على قتال الفرنجة ومن تعاهد معهم على قتاله فأجابوه الى ذلك وأسرعوا فى الزحف الى أن بلغوا غزة فحاربوا الفرنجة عند أسوارها ووصلت اليهم النجدة من الملك الصالح فانهزمت الفرنجة فتبعهم الخوارزميون وعسكر مصر حتى أخذوا منهم غزة وبيت المقدس واشتدت عزيمة الملك الصالح بما ناله من الغلبة على الفرنجة فسار فى جيش عظيم الى دمشق يريد أخذها فحاصرها وألح فى قتالها حتى أخضعها لسلطانه وخرج الى حمص وحاصرها فلم ينل منها مأربا وعمد الى التقرب من الخليفة المستنصر بالله العباسى ليعظم بذلك أمره وتعلو كلمته وتنضم اليه القلوب المتباعدة عنه فأرسل اليه هدية نفيسة فلم يكد يصل رسوله بالهدية حتى جاء الخبر بموت الخليفة مات بكرة يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة هجرية فكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة الا شهرا * قال أصحاب التاريخ وكان حسن السيرة عادلا فى الرعية وهو الذى بنى المدرسة فى بغداد المسماة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقى مما يلى دار الخلافة فلما مات اتفق أرباب الدولة على تقليد الخلافة لولده عبد الله ولقبوه المستعصم وهو سابع ثلاثى الخلفاء العباسيين وآخرهم وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور

ومات فى أيام الخليفة المستنصر بالله بوحنا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام تسع عشرة سنة وكان اسمه أولا يونس أبو الفتح من دير أبى حنس وكانت أيامه كلها شدائد واحنا وبلايا ومحنا تكاد أن لا تدخل تحت الحصر وقد أضربنا عن ايرادها هنا وخلا الكرسى بعد موته ثلاثة وأربعين يوما ثم أقاموا بعده مرقس بن زرعة المكنى بأبى الفرج ثالث سبعيهم وهو سريانى المحتد ووقع فى أيامه من الحوادث ماسنذكر فى حينه

(الفصل السابع والثلاثون)

(فى خلافة المستعصم بالله بن المستنصر بالله)

ثم قام بعد المستنصر بالله ولده المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبى جعفر ابن الظاهر محمد بن الناصر العباسى وهو آخر الخلفاء العراقيين وبويع له بالخلافة فى جمادى الاولى سنة أربعين وستمائة هجرية أى سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف ميلادية فلم تستقر به الخلافة حتى أساء التدبير وانهمك على اللعب بالحمام وغير ذلك مما لا يليق بالخلافة قال أصحاب الاخبار وكان قليل الرأى ضعيف العزيمة لاحزم له ولا حرمة ولاهيبة فلما جاءت

البشائر

البشائر الى الملك الصالح بخلافته أرسل اليه يطلب منه تقليدا بمصر والشام بخاتم التشريف والطوق الذهب والمركوب فلبس التشريف الاسود والعمامة والجبة وركب الفرس فى موكب حافل للغاية وأولم لامراء الدولة وكبار الجند ولمية فاخرة ولم تتم أفراحه هذه حتى ورد عليه كتاب الملك لويز ملك الفرنسيس يقول * أما بعد فانه لم يخف عليك أنى أمين الامة العيسوية كما انه لايخفى على أنك أمين الامة المحمدية وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الاندلس وما يحملونه الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال والنساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلى منهم الديار وأنا أرسلت لك مافيه الكفاية وبذلت لك النصح الى النهاية فلو حلفت لى بكل الايمان وأدخلت على القسس والرهبان وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلا اليك وقاتلك فى أعز البقاع عليك فاما أن تكون البلاد لى هدية حصلت فى يدى واما أن تكون البلاد لك والغلبة على فيدك العليا ممتدة الى وقد عرفتك وحذرتك من عساكر فى ساحتى تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك بأسياف القضا * فلما وقف الصالح على مافى الكتاب بكى واسترجع وقال القاضى بهاء الدين زهيرا كتب الجواب فكتب بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين * أما بعد فانه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد الا جددناه ولا بغى علينا باغ الا دمرناه ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الاواخر منكم والاوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولا بد أن تزل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك فهنالك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فاذا قرأت كتابى هذا تكون فيه على أول سورة النحل أتى أمر الله فلا تستعجلوه وتكون فيه على آخر سورة ص ولتعلمن نبأه بعد حين ونعود الى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقول الحكماء ان الباغى له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام وجاءته الاخبار بوصول المراكب الفرنساوية مشحونة بالعساكر والاجناد وهذه غزوتهم السابعة الصليبية فأهمه أمرهم وخرج من القاهرة الى المنصورة ونزل بها وحصن مدينة دمياط بالآلات العظيمة والذخائر الوافرة وجعل فيها بنى كنانة وهم موصوفون بالبسالة والاقدام وأرسل فخر الدين ابن الشيخ فى طائفة عظيمة من الجند ليكونوا قبالة الفرنسيس اذا نزلوا من مراكبهم فتقدم الفرنسيس نحو البر ونزلوا من المراكب وهجموا على المدينة يريدون أخذها وذلك فى أوائل سنة سبع وأربعين وكان مقدم الفرنسيس فى هذه الحملة الملك لويز التاسع ملك الفرنسيس فخاف فخر الدين ابن الشيخ وهاله كثرة جيوش الفرنسيس فعبر من البر الغربى الى البر الشرقى فى جماعة من المسلمين ووصل الملك لويز بعسكره الى البر الغربى لتسع بقين من صفر من السنة فلما جرى ذلك هرب أيضا بنو كنانة وأهل دمياط كافة وأخلوها

وتركوها مفتحة الابواب فملكها الفرنسيس بغير قتال واستولوا على مابها من الذخائر والسلاح فعظم الامر جدا على الملك الصالح وأمر بالقبض على من وجد من بنى كنانة وصلبه فقبضوا عليهم وصلبوا عن آخرهم وكان الملك الصالح وهو مقيم بالمنصورة يقاسى ألم المرض وهو السل والقرحة التى كانت به فلم يقدر على الخروج للقاء عساكر الفرنسيس واشتدت به علته شدة بالغة وكان كلما سمع بظفر الفرنسيس قلق واضطرب فلما كانت ليلة الاحد لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان من السنة أى سنة سبع وأربعين وستمائة مات فكانت مدة تملكه الديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما وكان عمره نحو أربع وأربعين سنة وقيل أربعين وكان مهيبا عالى الهمة عفيفا طاهر اللسان وقد جمع من المماليك الترك مالم يجتمع لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره من مماليكه ورتب جماعة منهم حول دهليزه وسماهم (البحرية) فكان من أمرهم ماسيتلى عليك فى محله ❁ وكان شديد البأس لايجسر أن يخاطبه أحد الا مجيبا ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء وكانت القصص تضعها بين يديه الخدام فيكتب بيده عليها وتخرج للموقعين وكان لايستقل أحد من أهل دولته بأمر من الامور الا بعد مشاورته وكان يحب العمارة والبناء فبنى قلعة الجزيرة التى هى بالروضة واشترى ألف مملوك وأسكنهم بها وسماهم البحرية وبنى بالقاهرة المدارس الاربع بين القصرين وبنى الصالحية وهى بلدة بالشام وبنى له فيها قصورا للصيد وبنى قصرا عظيما بين مصر والقاهرة يسمى بالكبش وكان له ثلاثة أولاد أحدهم فتح الدين عمر مات فى حبس الصالح اسماعيل وكان قد مات ولده الآخر قبله ولم يبق له غير المعظم توارنشاه بحصن كيفا ومات الملك الصالح المذكور ولم يوص بالملك لاحد وكانت له جارية اسمها شجرة الدر فلما مات أخفت خبر موته وبقيت تعلم بعلامته ثم أحضرت فخر الدين ابن الشيخ والطواشى جمال الدين محسنا وهما من كبار الامراء وعرفتهما بموت السلطان فكتموا ذلك خوفا من الفرنسيس واتفقوا على أن شجرة الدر تجمع الامراء كافة وتقول لهم ان السلطان يأمركم أن تحلفوا له أولا ثم لولده الملك المعظم توارنشاه المقيم بحصن كيفا من بعده وللامير فخر الدين بن الشيخ بأتابكية العسكر فاجتمع الامراء وحلفوا وكتب الى حسام الدين بن أبى على وهو يومئذ النائب بمصر بمثل ذلك فحلف وحلفت العساكر والاجناد وجميع الكبراء بمصر والقاهرة على ذلك أيضا فى العشر الاواسط من شعبان من السنة فكانت تخرج الكتب وغيرها وعليها علامة الملك الصالح وكان الذى يكتبها خادم صغير يقال له السهيلى فلا يشك أحد فى أنها بخط السلطان ❁ وأرسل فخر الدين ابن الشيخ قاصدا لاحضار الملك المعظم من حصن كيفا فلما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان ولكن كان أرباب الدولة لايجسرون أن يتفوهوا بذلك وبلغ الخبر الملك لويز ملك الفرنسيس وهو بدمياط فسار فى طائفة عظيمة من جنوده فى مستهل رمضان يريد المنصورة فلما صار على مقربة منها لاقته عساكر المسلمين فاقتتلوا قتالا عظيما جدا مات فيه جماعة من كبار المسلمين ونزل

الفرنسيس بجر مساح ثم اقتربوا من معسكر المسلمين وكبسوهم على المنصورة بكرة الثلاثاء
لخمس خلون من ذى القعدة وكان فخر الدين يوسف بن الشيخ صدر الدين بن حمويه مقدم
العساكر الاسلامية فى الحمام بالمنصورة فركب مسرعا فصادفه جماعة من عسكر الفرنسيس
فقتلوه فحمل المسلمون والاتراك البحرية على الفرنسيس حتى ردوهم بعد قتال عنيف للغاية
أما الملك المعظم تورانشاه فانه لما وصل اليه القاصد قام من يومه من حصن كيفا ووصل
الى دمشق وعيد بها عيد الفطر ووصل الى المنصورة يوم الخميس لتسع بقين من ذى القعدة
سنة سبع وأربعين وستمائة فلم يستقر به المقام حتى شدد الفرنسيس فى القتال وقامت الحرب
بين الفريقين برا وبحرا وحملت مراكب المسلمين على مراكب الفرنسيس فأخذت منهم عدة
كثيرة واشتد الامر على الفرنسيس وقلت عندهم الاقوات وصعب لذلك عليهم المقام قبالة
المسلمين فرحلوا ليلة الاربعاء لثلاث بقين من المحرم افتتاح سنة ثمان وأربعين يريدون مدينة
دمياط فاقتفى المسلمون أثرهم فانحاز الملك لويز بمن معه من الملوك والامراء الى بلد هنالك
وطلبوا الامان فأمنهم الطواشى محسن الصالحى ثم غدر بهم وأحضرهم أسرى الى المنصورة
فقيد الملك لويز وجعله فى دار كان ينزلها كاتب الانشاء فخر الدين بن لقمان ۔ قلت وآثارها باقية
الى هذا اليوم وقد تهدم أكثرها ۔ ووكل به الطواشى صبيح المعظمى ففرح المسلمون بذلك
فرحا لايوصف وسار الملك المعظم من المنصورة الى فارسكور ونزل بها ونصب بها برجا من
خشب وقرب اليه أصحابه الذين جاؤا معه من حصن كيفا واعتمد عليهم وسلم اليهم مقاليد
الامور ۔ قال كاتب الاخبار وكان أولئك الناس من الاراذل ۔ واطرح جانب أمراء أبيه
ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد مانفر قلبه منه فاتفقوا جميعا على قتله وتحالفوا
على ذلك فلم يشعر الا وقد هجموا عليه بالسيوف ومقدمهم ركن الدين بيبرس وضربه بالسيف
فهرب الملك المعظم الى البرج الخشب الذى نصب له بفارسكور فأطلقوا فى البرج النار فخرج
المعظم منه هاربا طالبا البحر ليركب فى حراقته فحالوا بينه وبين الحراقة بالنشاب فطرح
نفسه فى البحر فأدركوه وأجهزوا عليه فى نهار الاثنين المذكور فكانت مدة اقامته فى الملك
من حين وصوله شهرين وأياما ۔ ولما جرى ذلك اجتمع الامراء واتفقوا على أن يقيموا شجرة
الدر زوجة الملك الصالح فى المملكة وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى المعروف
بالتركمانى أتابك العسكر وحلفوا على ذلك وخطبوا لشجرة الدر على المنابر وضربت السكة
باسمها ۔ قال أصحاب الاخبار فكان نقش السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة
الملك المنصور خليل وكانت شجرة الدر قد ولدت من الملك الصالح ولدا ومات صغيرا وكان اسمه
خليلا فسميت والدة خليل وكانت علامتها على التوقيع والدة خليل

ولما استقر لها الملك وقع الحديث مع لويز ملك الفرنسيس فى تسليم مدينة دمياط
بالافراج عنه فتقدم لويز الى من بها من نوابه فى تسليمها فسلموها وأصعد عليها السلطان يوم
الجمعة لثلاث مضين من صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة وأطلق ملك الفرنسيس فركب فى



البحر مع جنوده نهار السبت وأقلعوا الى عكا ثم عادت العساكر ودخلت القاهرة يوم الخميس تاسع صفر وأرسل المصريون رسولا الى الامراء الذين بدمشق فى موافقتهم على ما فعلوه من تولية شجرة الدر فلم يجيبوا اليه وطال الامر بينهم أياما ثم عادوا فاتفقوا على جعل عز الدين أيبك الجاشنكير فى السلطنة لانهم رأوا أنه اذا استقر أمر المملكة لامرأة على ما هو عليه الحال تفسد الامور فولوا أيبك وأركبوه بالصناجق السلطانية وحملت الغاشية بين يديه يوم السبت آخر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ولقبوه بالملك المعز • وكان لصلاح الدين يوسف بن الملك الكامل ولد اسمه الاشرف موسى وله من العمر ثمان سنين فملكوه مع عز الدين أيبك فخطب لهما معا وضربت السكة باسمهما وسموا الاشرف المذكور السلطان وأبطلوا السكة والخطبة التى كانت باسم شجرة الدر فكانت مدة ملكها ثلاثة أشهر • قال بعض كتاب الاخبار ان شجرة الدر هى التى خلعت نفسها من تخت المملكة وتزوجت بالامير أيبك المذكور وهو أول ملوك الدولة الجركسية بالديار المصرية • فلما استقرت به السلطنة وتصرف فى الامور شمخت أنوف الاتراك أبناء جنسه وعظم من يومئذ شأنهم ومدوا أيديهم الى العامة واستوزر الاسعد الفائزى فكان بئس الرجل أكثر من احداث المغارم والمكوس فأبغضه الناس وكبر بغضهم لايبك فكان أهل مصر والقاهرة يحقرونه ويسمعونه ما يكره اذا ركب ويقولون لا نريد الا سلطانا رئيسا ولد على الفطرة لاعبدا رقا وانحرفت خواطر الجند عليه فجعل يسايرهم ويسترضيهم بالعطايا الجزيلة وما زال حتى دانت له بعد ذلك الامور واستتبت كلمته وبسط يده على جميع المملكة فرسم بهدم سور مدينة دمياط تخلصا من غارات الفرنسيس فهدموه فى العشر الاخير من شعبان وبنوا مدينة بالقرب من دمياط فى البر وسموها المنشية وكانت الاسوار التى هدموها من عمارة المتوكل الخليفة العباسى وكبر أمر ولاية الامير أيبك على الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق وأعظمه جدا لخروج الملك من بيت أبيه الى الموالى والعبيد فتحرك يريد أخذ ملك مصر من يد أيبك المذكور استصغارا له واستخفافا بقدره فسار من دمشق وصحبته من ملوك أهل بيته الصالح اسماعيل بن العادل بن أيوب والاشرف موسى صاحب حمص والمعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين وأخو المعظم نصرة الدين والامجد حسن والظاهر شادى ابنا الناصر داود بن الملك المعظم عيسى بن العادل بن أيوب وتقى الدين بن عباس بن الملك العادل بن أيوب فى جيش عظيم للغاية ومقدم الجيش شمس الدين لؤلؤ الارمنى واليه تدبير المملكة وكان خروجهم من دمشق فى يوم الاحد منتصف رمضان من السنة فلما بلغ المصريين خبر قدومهم هالهم أمرهم واهتموا لقتالهم ودفعهم وبرزوا الى السائح وتركوا الاشرف المسمى بالسلطان بقلعة المقطم وخرج أيبك حينئذ على ولدى الصالح اسماعيل وهما المنصور ابراهيم والملك السعيد عبد الملك وكانا معتقلين من حين استيلاء الملك الصالح أيوب على بعلبك وقطع عليهما ليتوهم الناصر يوسف صاحب دمشق من أبيهما الصالح اسماعيل ويتخوف منه ثم

التى

التقى العسكران بالقرب من العباسة باقليم الشرقية فى الخامس عشر من ذى القعدة فكانت الغلبة أولا على جنود مصر فخامر جماعة من المماليك الترك العزيزية على الملك الناصر صاحب دمشق وثبت المعز أيبك فى جماعة قليلة من البحرية فانضاف جماعة من العزيزية مماليك والد الملك الناصر الى المعز أيبك فلما انكسر المصريون وتبعهم العسكر الشامى ولم يشكوا فى النصر والغلبة بقى الملك الناصر تحت الصناجق السلطانية مع جماعة يسيرة من المتعممين لايتحركون من موضعهم فحمل المعز أيبك بمن معه عليه فولى الملك الناصر منهزما طالبا جهة الشام ثم حمل أيبك لطاب شمس الدين لؤلؤ فهزمهم وأخذ شمس الدين أسيرا فضرب عنقه بين يديه وكذلك أسر الامير ضياء الدين بن أيوب القيمرى فحز رأسه وأسر يومئذ الملك الصالح اسماعيل والاشرف صاحب حمص والمعظم توران شاه بن صلاح الدين بن أيوب وأخوه نصرة الدين ووصل عسكر الملك الناصر فى أثر المنهزمين الى العباسة وضربوا بها دهليز الملك الناصر وهم لايشكون أن الهزيمة تمت على المصريين فلما جاءهم الخبر بفرار الملك الناصر اختلفت آراؤهم وتفرقت كلمتهم فمنهم من أشار بالدخول الى القاهرة وتملكها * قال بعض كتاب الاخبار ولو فعلوه لما بقى مع المعز أيبك من يقاتلهم به وكان هرب منهم لترفع المنهزمين الى الصعيد الاعلى * ومنهم من أشار بالرجوع الى الشام وكان معهم تاج الملوك بن المعظم وهومجروح بجراح ليست خفيفة * ودخل المنهزمون من المصريين الى القاهرة من غد الواقعة نهار الجمعة فلم يشك أهل مصر والقاهرة فى غلبة الملك الناصر وملكه ديار مصر فخطب له الخطيب فى الجمعة المذكورة بقلعة الجبل وبمصر وأما القاهرة فلم يقم فيها فى ذلك النهار خطبة لاحد ثم وردت اليهم البشرى بانتصار المماليك البحرية ودخل المعز أيبك والبحرية الى القاهرة يوم السبت ثانى عشرى ذى القعدة ومعه الصالح اسماعيل تحت الاحتياط وغيره من المعتقلين فحبسوا بقلعة الجبل وفى ثالث يوم دخوله أمر باخراج أمين الدولة وزير الصالح اسماعيل وأستاذ داره المسمى بغمور وكانا معتقلين من حين استيلاء الصالح أيوب على بعلبك فشنقهما على باب قلعة الجبل وأوعز الى جماعة من أصحابه بقتل الصالح عماد الدين اسماعيل بن الملك العادل بن أيوب فلما كانت ليلة الاحد السابع والعشرين من ذى القعدة هجموا عليه وهو يمص قصب السكر وقبضوا عليه وأخرجوه الى ظاهر قلعة الجبل من جهة القرافة فقتلوه ودفنوه هناك وعمره يقرب من خمسين سنة فعلت كلمة المعز أيبك من حينئذ واتسعت شهرته ومالت اليه القلوب وجعل يتصرف فى أمور المملكة بالاشتراك مع الملك الاشرف لا يقدر على الاستقلال بها ولا الاستبداد بالاحكام لممانعة خوشداشه اقطاى الجمدار له فى ذلك فكان أيبك فى حزن دائم من ذلك * فلما كانت سنة اثنتين وخمسين وستمائة دبر المعز أيبك أمر قتل اقطاى فأوقف له فى بعض دهاليز الدور التى بقلعة الجبل ثلاثة مماليك أحدهم يسمى قطز والثانى بهادر والثالث سنجر الغتمى فلما مر بهم فارس الدين اقطاى المذكور ضربوه بالسيوف



فقتلوه ووصل خبر قتله الى المماليك البحرية فانزعجوا وفروا من مصر الى الشام خوفا من المعز أيبك فخلا الجو للمعز واستقل بالسلطنة وخلع الاشرف موسى منها وسيره الى عماته فكان الاشرف موسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة فى ديار مصر وكان انقضاء دولتهم فى هذه السنة أى سنة اثنتين وخمسين وستمائة هجرية وسنة خمسين ومائتين وألف ميلادية فكان عدد ملوكهم تسعة أولهم الملك صلاح الدين بن أيوب وآخرهم الاشرف موسى أو الملكة شجرة الدر زوجة الملك الصالح الايوبى فسبحان من له الملك وحده والسلطان الدائم بلا زوال

فبادوا جميعا ولا مخبر * وماتوا جميعا وصح الخبر

فلما تمت نعمة المعز أيبك بتملكه على ديار مصر وما يتبعها من الشامات واستقل بحكمها ظهرت على يديه الدولة الشركسية التى هى احدى فروع الدولة التركية وتمكن سلطانها فتولى حكم البلاد منها سبعة وأربعون ملكا أولهم المعز أيبك المذكور وآخرهم طومان باى وهم الملقبون بمماليك الدولة الايوبية الكردية ليمتازوا عن المماليك البحرية وكان الملك الصالح الايوبى قد اصطفاهم لنفسه وخصهم بخدمته فكان لهم التقدم فى أيامه كما سبقت الاشارة الى ذلك قال أصحاب التاريخ وكان فيهم قطاطة وخشونة واستهتار بالامور كلها * وأحسن المعز أيبك التدبير وأقام العدل بين الرعية وشدد على المماليك العزيزية لتمردهم وتطاول أيدى بعضهم الى العامة فكرهوه وجعلوا يترقبون الفرص للقبض عليه فعلم نيتهم واستعد لهم وبالغ فى الاستعداد * فلما كانت سنة ثلاث وخمسين هموا بالقبض عليه فلم يفلحوا فهربوا من مخيمهم الى العباسة على جنبه فأحاط على وطاقاتهم بجميعها وأخذ ما فيها فهابه الامراء كافة وحسده الملك الناصر صاحب الشام وخاف أن يأخذ ملكه فسير كمال الدين المعروف بابن العديم رسولا من قبله الى الخليفة المستعصم وصحبته تقدمة جليلة وطلب خلعة من الخليفة فعلم المعز أيبك بقصده فأرسل شمس الدين سنجر الاقرع وهو من مماليك المظفر غازى صاحب ميا فارقين الى بغداد بتقدمة جليلة جدا وسعى فى تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب الشام فبقى الخليفة متحيرا أياما ثم انه أحضر سكينا من البلسم كبيرة وقال الخليفة لوزيره أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامة منى فى انه له خلعة عندى فى وقت آخر وأما فى هذا الوقت فلا يمكننى اعطاؤه شيأ فأخذ رسول صاحب الشام السكين وعاد الى الملك الناصر يوسف بغير خلعة فكبر عليه هذا الامر وجعل يراقب الفرص وهو قلق وجل ودس الى شجرة الدر من يعلمها بحاله * وكانت شجرة الدر كثيرة التداخل فى أمور المملكة ولها بعض الغلبة على أمر المعز أيبك فأحس المعز بذلك فكان يضمر لها السوء ويحمل على التخلص منها واتفق انه سير الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل من يخطب له ابنته ليتزوج بها فلما علمت شجرة الدر بعزمه وكانت قد آنست منه البغض وأحست بالشر صارت تتربص الفرصة للايقاع به فلما كان يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الاول سنة خمس وخمسين

وستمائة

وستمائة خرج الى لعب الكرة ثم عاد ودخل الحمام فأوعزت فى الحال الى سنجر الجوهرى مملوك الطواشى محسن وبعض الخدم بأن يقتلوه فدخلوا عليه وقتلوه وأرسلت شجرة الدر فى تلك الليلة اصبع المعز أيبك وخاتمه الى الامير عز الدين الحلبى الكبير وطلبت منه أن يقوم بالأمر فلم يجسر على ذلك وظهر الخبر فثارت مماليك المعز لقتل شجرة الدر فمانع عنها طوائف المماليك الصالحية واجتمع كافة الامراء وكبار الجند ليولوا ملك البلاد لمن يصلح فاتفقت كلمتهم جميعا على اقامة نور الدين على بن المعز أيبك ولقبوه بالملك المنصور وعمره يومئذ خمس عشرة سنة ونقلت شجرة الدر من دار السلطنة الى البرج الاحمر ثم قبضوا على الخدام الذين وافقوها على قتل الملك فصلبوهم وهرب سنجر الجوهرى ولكنهم ظفروا به بعد ذلك وصلبوه واحتيط بالصاحب بهاء الدين علىّ بن حنا الذى كان وزير شجرة الدر وأخذ خطه بستين ألف دينار ❁ ولما تولى الملك نور الدين على المنصور واستقرت به السلطنة قبض على شجرة الدر ودخل بها على أمه فأمرت باعدامها فقتلها الجوارى بالقباقيب ورماها بالخندق وهى عريانة على باب القلعة وبقيت أياما ثم دفنت بالتربة التى كانت قد أعدتها لنفسها ❁ قال كتاب الاخبار وقد جوزيت من جنس عملها لانها كانت سعت فى قتل الملك المعظم فمات غريقا كما تقدم بيانه فى محله وترك ثلاثة أيام على شاطئ النيل فكذلك فعل بها

ودخلت سنة ست وخمسين وستمائة هجرية بكثير من الحوادث المهمة فقصد فى أولها هولاكو ملك التتار دار السلام وحاصرها وضيق عليها وشدد حتى ملكها فى العشرين من المحرم وقبض على الخليفة المستعصم بالله ❁ قال أهل التاريخ وكان سبب ذلك أن مؤيد الدين بن العلقمى وزير الخليفة كان رافضيا وكان أهل الكرخ أيضا روافض فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جارى عادتهم فأمر أبو بكر بن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر فنهبوا الكرخ وقتلوا النساء وركبوا منهن الفواحش فعظم فعلهم على الوزير ابن العلقمى وعزم على الانتقام فكاتب التتار وأطمعهم فى ملك دار السلام وكان عسكر بغداد قد بلغ يومئذ مائة ألف فارس فقطعهم المستعصم ليصل الى التتار متحصل اقطاعاتهم فأصبح عسكر بغداد بعد ذلك أقل من عشرين ألف فارس ثم أرسل ابن العلقمى الى التتار أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد فى جمع عظيم للغاية فلما علم الخليفة بخبر قدومهم أخرج عسكره لقتالهم ومقدمهم ركن الدين بن الدوادار فالتقوا على مرحلتين من دار السلام واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم عسكر الخليفة ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم الى جهة الشام ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقى ونزل باجو من أكبر مقدميه الى الجانب الغربى على قرية قبالة دار الخلافة وخرج مؤيد الدين بن العلقمى الوزير الى هولاكو فاستوثق لنفسه وعاد الى الخليفة المستعصم وقال ان هولاكو يبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبى بكر وحسن له الخروج الى هولاكو فخرج اليه المستعصم فى جمع من أكابر أصحابه فأنزله فى



خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والاماثل فاجتمع هنالك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محيي الدين بن الجوزى وأولاده وكذلك صار يخرج الى التتار طائفة بعد طائفة حتى تكاملوا فأمر هولاكو فقتلهم التتار عن آخرهم ثم مدّوا الجسر وعدى باجو ومن معه وبذلوا السيف فى بغداد وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ولم يسلم الا من كان صغيرا فأخذ أسيرا ودام القتل والنهب فى بغداد نحو أربعين يوما ثم نودى بالامان قال الراوى وأما الخليفة فانهم قتلوه ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقيل خنق وقيل وضع فى عدل ورفسوه حتى مات وقيل غرق فى دجلة وقيل غير ذلك وكان هذا المستعصم وهو عبدالله أبو أحمد ابن المستنصر أبى جعفر منصور بن محمد الظاهر بن الامام الناصر أحمد ضعيف الرأى كما تقدم وقد غلب عليه أمراء دولته لسوء تدبيره وانهماكه فى اللذات وعدم اهتمامه بمقام الخلافة ومسند الامامة فكانت خلافته نحو ست عشرة سنة وبموته زالت الخلافة من العباسيين وانقرضت دولتهم وانمحت آثارها فلم تكن شيأ مذكورا ❁ قال أصحاب التاريخ كان ابتداء دولة الخلفاء العباسيين فى سنة اثنتين ومائة هجرية وهى السنة التى بويع فيها السفاح بالخلافة وقتل فيها مروان الحمار آخر خلفاء بنى أمية وكانت مدة ملكهم خمسمائة سنة وأربعا وعشرين سنة على التقريب وعدّة خلفائهم سبع وثلاثون خليفة ● حكى القاضى جمال الدين بن واصل قال لقد أخبرنى من أثق به أنه وقف على كتاب عتيق فيه ما صورته ● ان علىّ بن عبدالله بن عباس بن عبد المطلب بلغ بعض الخلفاء من بنى أمية عنه أنه قال ان الخلافة تصير الى ولده فأمر الاموى بعلىّ بن عبدالله فحمل على جمل وطيف به وضرب وكان يقال عند ضربه هذا جزاء من يفترى ويقول ان الخلافة تكون فى ولده فكان علىّ بن عبدالله المذكور رحمه الله يقول اى والله لتكونن الخلافة فى ولدى ولا تزال فيهم حتى يأتيهم العلج من خراسان فينزعها منهم فوقع مصداق ذلك بورود هولاكو وازالة ملك بنى العباس على يديه فأقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة وذلك من يوم الاربعاء رابع عشر صفر سنة ست وخمسين وستمائة وهو يوم قتل الخليفة المستعصم الى سنة تسع وخمسين وستمائة فسبحان من له الدوام والبقاء

وكما كانت دار السلام فى قلق واضطراب بسبب دخول هولاكو اليها بعسكره ظافرا منصورا وقتله للخليفة المستعصم وجميع رجال الدولة وكبار البلد كانت مصر كذلك بسبب الارهاصات الداخلية والفتن المتوالية وتحزب بعض الامراء ضد البعض الآخر وتغلب بعضهم على أمر الملك المنصور لاسيما سيف الدين قطز أحد مماليك المعز أيبك فقد كان شديد البأس واسع الكلمة كبير الهيبة وكان يراقب الفرص لخلع الملك المنصور ليتولى الملك مكانه وما زال على هذا الحال الى أن اتفق فى أوائل ذى الحجة سنة تسع وخمسين وستمائة خروج علم الدين الغتمى وسيف الدين بهادر وجمع من كبار المعزية الى الرمى بالبندق وكان لهما كلمة نافذة وشهرة كبيرة فانتهز سيف الدين قطز المذكور فرصة غيابهما وقبض على ولد

استاذه

أستاذه الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك وخلعه من السلطنة فلما قدم الغتمى
وبهادر المذكوران لم يمهلهما حتى قبض عليهما واعتقلهما مخافة بقية الامراء ودانوا له وبالغوا
فى الخضوع اليه فتولى الملك وقبض على زمام السلطنة وتلقب بالملك المظفر ووردت عليه
رسائل التهانى من كل صوب وحدب * وكان الملك الناصر يوسف صاحب الشام قد أرسل
الى الملك المنصور على قبل خلعه كمال الدين بن العديم مستنجدا على التتار واتفق خلع الملك
المنصور وولاية قطز بحضرة كمال الدين بن العديم المذكور فلما استقر قطز بمنصب السلطنة
كلمه كمال الدين فيما جاء بصدده فأعاد جواب الملك الناصر يوسف بأن ينجده ولا يقعد عن
نصرته فعاد ابن العديم بهذا الجواب ثم أخذ الملك المظفر حينئذ فى جمع الجيوش واعداد
معدات الحرب وفرق فى جيوشه الاموال فكانت زهاء ستمائة ألف دينار جمعها مما فرضه على
أهل البلاد مما سماه تصقيع الاملاك وزكاتها وما ناله من ثلث التركات مما قيمته ستة آلاف
دينار فى سنة وخرج يريد قتال التتار ومعه الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك
الافضل على فى أوائل رمضان من السنة فلما علم كتبغا وهو نائب هولاكو على الشام
ومقدم التتار بسير العساكر الاسلامية اليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من بالشام من التتار
وسار الى لقاء المسلمين وكان الملك السعيد صاحب الصبيبة بن الملك العزيز بن الملك العادل
ابن أيوب صحبة كتبغا فتقارب الجمعان واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم التتار شر هزيمة
وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب وكثر فيهم القتل وقتل كتبغا وأسر ابنه وترفع من سلم
من التتار الى رؤس الجبال وتبعهم المسلمون فأثخنوهم وهرب من سلم منهم الى المشرق فجرد
الملك المظفر قطز ركن الدين بيبرس البندقدارى فى أثرهم وهو من مقدمى الامراء المصرية
وكبار العسكر وكان ممن صحب التتار أيضا فى هذه الوقعة الملك الاشرف موسى صاحب
حمص فلما رأى ماحل بهم من الفشل والقتل فارقهم وتقدم الى الملك المظفر قطز فى طلب
الامان فأمنه وأقره على مابيده من البلاد وأما الملك السعيد صاحب الصبيبة فانه أمسك
أسيرا وأحضر بين يدى الملك المظفر قطز فأمر به فضرب عنقه بين يديه ثم دخل الملك
المظفر دمشق ظافرا منصورا ففرح به أهل دمشق فرحا لا يوصف فجعل ينظر فى الامور
ويأمر وينهى ويصلح ما أفسده التتار ولبث على هذا الحال أياما فعظم شأنه واتسعت شهرته
وطار صيته فحسده أصحابه وكرهوه وخافوا أن تطول مدته فاتفق منهم بيبرس البندقدارى
الصالحى مع آخر اسمه آنصو مملوك نجم الدين الرومى الصالحى والهارونى وعلم الدين صوغان
أوغلى على قتله وتحالفوا على ذلك فلما قام من دمشق وسار يريد الديار المصرية ساروا معه
يترقبون الفرص فلما وصلوا الى القصير بطريق الرملة وبينه وبين الصالحية مرحلة وقد سبق
الدهليز والعسكر الى الصالحية قامت بين يدى قطز أرنب ففرح بها وساق عليها يريد قنصها
فساق هؤلاء المذكورون معه فلما بعدوا تقدم اليه آنصو وأظهر أنه يريد أن يشفع عنده
الملك المظفر قطز فى انسان فأجابه الى ذلك فأهوى ليقبل يده وقبض عليها فحمل عليه بيبرس

البندقدارى حينئذ وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب وكان ذلك فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة فكانت مدة ملكه أحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما وساق بيبرس وأولئك المذكورون معه بعد قتله حتى لحقوا بالدهليز بالصالحية فسألهم أقطاى فارس الدين نائب السلطنة عن الملك المظفر قطز فقالوا له قتلناه فقال من قتله منكم فقال له بيبرس أنا فقال له اقطاى ياخوند اجلس فى مرتبة السلطنة فجلس فاستدعيت العساكر والاجناد للحليف له فحلفوا فى اليوم الذى قتل فيه قطز وهو سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة

واستقرت السلطنة لبيبرس وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ثم غير لقبه عن الملك القاهر وتلقب بالملك الظاهر لانه بلغه أن القاهر لقب غير مبارك ماتلقب به أحد فطالت مدته فلما حلف له الجند ورجال الدولة بيمين الطاعة سار بهم الملك الظاهر بيبرس المذكور من الصالحية يريد القاهرة ثم تركهم فى الطريق وسار فى جماعة من أصحابه فصعد الى قلعة الجبل ففتحت له فدخلها واستقرت قدمه فى المملكة وفرح الناس به وزينوا له مصر والقاهرة أياما فجعل يتصرف فى الامور ويقرر قاعدتها على ما يجب ثم لم يلبث أن سير علاء الدين البندقدارى أستاداره فى عسكر عظيم لقتال علم الدين سنجر الحلبى المستولى على دمشق من قبل الملك قطز فقاتله بظاهر دمشق فهرب الحلبى الى بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل الى مصر فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق فى ملك الملك الظاهر بيبرس وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشامات مثل حماة وحلب وحمص وغيرها وأقام ايدكين البندقدارى الصالحى فى دمشق لتدبير الامور فعظمت شوكة الملك الظاهر وظهرت كلمته ودانت له الامور كما يشاه وهابه الملوك وتزلفوا اليه وسيروا اليه الهدايا الجليلة والتحف النفيسة حتى كان من أمره بعد ذلك ماسيذكر فى محله

(المقالة السادسة)

(فى كيفية ظهور الخلافة العباسية بالقاهرة بعد موت الخليفة المستعصم بالله)

(وفيها فصول)

لما كان الملك الظاهر بيبرس المذكور شديد الرغبة فى الغزو والفتوحات ومنازعة هولاكو ومن حذا حذوه من ملوك الخوارج وكان يخشى أنه اذا تقدم الى ذلك فشل أمره وتفرق الناس عنه وزالت سلطنته اذا لم تفرض له الامور بالفرض الشرعى وقد كانت الدنيا

الى هــذا الحين بغير خليفة بعد موت الخليفة المستعصم على ماص بك بيانه عمد الى البحث عمن بقى من سلالة الخلفاء العباسيين وأظهر الاهتمام بامرهم وأجزل العطاء لجماعة من العربان ليأتوه بالخبر فلما كانت سنة تسع وخمسين وستمائة قدم الى القاهرة فى مستهل رجب جماعة من العربان ومعهم رجل أسود اسمه أحمد أبو القاسم زعموا أنه ابن الامام الظاهر بالله محمد ابن الامام الناصر العباسى قالوا وكان معتقلا ببغداد ثم أطلق وكان عدة أولئك العربان عشرة منهم الامير ناصر الدين مهنا فلما علم الملك الظاهر بقدومهم أظهر الفرح وخرج لقائهم ومعه القاضى تاج الدين والوزير والعلماء والامراء والشهود والمؤذنون فتلقوه فدخل من باب النصر فى أبهة عظيمة وكبكبة زائدة وأنزلهم الملك الظاهر بيبرس مكانا رحبا وبالغ فى الحفاوة بهم فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة تسع وخمسين جلس الملك الظاهر بيبرس وأبو القاسم الاسود المذكور فى الديوان بقلعة الجبل وجلس القاضى والوزير والامراء على طبقاتهم وأثبت أبو القاسم المذكور نسبه لدى القاضى تاج الدين بالوجه الشرعى فلما ثبت ذلك وقف قاضى القضاة قائما وأشهد على نفسه ثبوت النسب ثم قام عز الدين ابن عبد السلام شيخ الاسلام يومئذ فبايعه بالخلافة أولا ثم السلطان الملك الظاهر ثم القاضى تاج الدين ثم الامراء ورجال الدولة واحدا فواحدا وركب من يومه فى دست الخلافة بمصر والامراء بين يديه والناس حوله وشق القاهرة ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه وطيروا الاخبار بذلك الى الآفاق فكان الناس فى خلافته على طرفى نقيض ولكل فريق حجة والله سبحانه أعلم بالحقائق

أقول ولما لم يكن من رأينا الانتقال الى البحث فى كنه هذه الخلافة ولا فى كيفية صيرورتها الى أبى القاسم الاسود المذكور كى لا يتطرف بنا القلم الى الخوض فى مجال قد تسابق فيه فحول الكتاب وكبار أهل النقد على غير جدوى لاختلاف الاقوال فيه وتعدد المذاهب وتباين الاهواء وقد جاء فى حديث صاحب الشريعة الاسلامية فى الامر بطاعة الخليفة مالفظه « اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشى كان رأسه زبيبة » وكان الغرض من هذا المؤلف انما هو ذكر الحوادث على ترتيب سنى خلافة كل خليفة ممن سبق الى هذه الفترة التى بات فيها الاسلام بغير خليفة قد التزمنا هذه الخطة بعينها فى تقييد حوادث وأنباء المدة من ظهور أبى القاسم هذا على ترتيب سنى خلافته وخلافة من يأتى بعده ممن يكون لله فى الارض خليفة كما جاء به حديث صاحب الشريعة عسى أن لا يشكل الامر على القارئ ولا تفوته الفائدة من سرد الحوادث والاخبار متتابعة كتتابع سنى الخلافة واتصال أدوارها بعضها ببعض ❁ وكما كانت دار السلام وغيرها مقرا للخلافة العباسية والامامة الاسلامية الى هذا الحين فقد أصبحت مدينة القاهرة مقرا لها أيضا بظهور أبى القاسم هذا والبيعة له ولكن على آخر رمق من حياة الخلافة بعد ذلك الحول والطول والقوة والسودد فسبحان من قسم الحظوظ

(الفصـــــــل الاول)

(فى خلافة المستنصر بالله احمد بن الخليفة الظاهر بالله)

وقام بالامر بعد قتــل الخليفة المستعصم على ماص بك بيانه فى حينه عمه أحمد بن الخليفة الظاهر بالله بن محمد بن الناصر العباسى ٭ قال أصحاب التاريخ وهو أخو المستنصر بويع له بالخلافة بمدينة القـاهرة فى يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة أى ســنة ستين ومائتين وألف ميلادية وذلك بعد قتل المستعصم بثلاث ســنين ونصف سنة وأيام ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وكتبت الكتب ببيعته الى الآفاق وأنزل بقلعة الجبــل هو وخـدمه وحشمه فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب ركب فى أبهة السواد وجاء الى الجامع بالقلعة فصعد المنبر وخطب خطبة ذكر فيها شرف بنى العباس ودعا للسلطان ثم نزل فصلى بالناس وفى يوم الاثنين رابع شعبان ركب أيضا وركب معه السلطان والقاضى والوزراء والامراء وأهل الحل والعـقد الى خيمة عظيمة قد ضربت له بظاهر القاهرة فألبس السلطان بيده خلعة سوداء وعمامة سوداء وطوقا من ذهب فى عنقه وقيدا من ذهب فى رجله وفوض اليه الأمور فى البلاد الاسلامية كافة وماسيفتحه من البلاد الأخرى ولقبه بقسيم أمــير المؤمنين ثم صــعد بعد ذلك فخر الدين بن لقمان رئيس الكتاب منبرا فقرأ عليــه تقليد السلطان وركب السلطان بهذه الابهة والقيد فى رجليه والطوق فى عنقه والوزير بين يديه ورجال الدولة مشاة سوى القاضى والوزير فشق من القاهرة وقد زينت له فكان يوما مشهودا ثم بعد قليل طلب الخليفة من السلطان أن يجهزه الى بغداد لقتال هولاكو واستخلاص دار السلام منه فأجابه الى ذلك ورتب له جندا وجيش له عسكرا وأقام له كل ما يحتاج اليه ودفع اليه ألف ألف دينار وسار السلطان بصحبته الى دمشق فدخلوها فى يوم الاثنين سابع ذى القعدة وصليا فيها الجمعة ثم سار الخليفة من دمشق بعسكره وركب الملك الظاهر وودّعــه وأوصاه بالتأنى فى الامــور ثم عاد الى الديار المصرية فدخلها سابع عشر ذى الحجة فلم يلبث الا قليلا حتى وصلت اليــه كتب الخليفة بعصر انه قد استولى على عانة والحديثة وولى عليهما وأن كتب أهل العراق وصلت اليه يستحثونه على الوصول اليهم ففرح الملك الظاهر بذلك وترامت آماله الى المرمى البعيد ٭ وبينما كان الخليفة يجد السير بعسكره الى بغداد اذ وصل اليه التتار فى جمع كثير وأحاطوا بعسكره واقتتلوا قتالا يســيرا فظفر التتار بعسكر الخليفة وقتلوا الخليفة وجماعة كثــيرة من أصحابه ونهبوا ما كان معه من الاسلحة والكراع وشــددوا على من بقى من العســكر فتفرقوا أيدى سبأ ووصلت

الاخبار الى السلطان الملك الظاهر بما وقع فشق عليه الامر واستعظمه * قال أصحاب التاريخ وقد كان يود نصرته وفتحه البلاد رجاء أن تكبر دولة الملك الظاهر على يديه فلم يوفق الى ذلك وقتل الخليفة فى ثالث المحرم سنة ستين وستمائة فكانت خلافته دون السنة أشهر

وكان ممن شهد الوقعة مع الخليفة وهرب مع من نجا أبو العباس أحمد بن الامير أبى على الحسن القبى بن الامير على بن الامير أبى بكر بن أمير المؤمنين المسترشد بالله فقصد الرحبة وجاء الى عيسى بن مهنا فكاتب فيه الملك الظاهر فطلبه فقدم الى القاهرة ومعه ولده وجماعة فدخلها فى سابع عشر ربيع الآخر فتلقاه السلطان وأظهر السرور به وأنزله بقلعة الجبل وأغدق عليه واستمر بقية العام بلا مبايعة والسكة تضرب باسم المستنصر المقتول فلما كان المحرم افتتاح سنة احدى وستين تمت له البيعة وتقلد الخلافة بعد ثبوت نسبه على ما سيذكر

(الفصل الثانى)

(فى خلافة الحاكم بأمر الله بن المستظهر بالله العباسى)

ثم تولى الخلافة أبو العباس أحمد ابن الامير أبى بكر على بن أبى بكر بن المسترشد بالله بن المستظهر بالله العباسى وبويع له بالخلافة فى يوم الخميس ثامن المحرم افتتاح سنة احدى وستين وستمائة هجرية أى سنة اثنتين وستين ومائتين وألف ميلادية وذلك انه لما كان يوم الخميس المذكور جلس السلطان الملك الظاهر بيبرس مجلسا عاما وجاء أبو العباس المذكور راكبا الى الايوان الكبير وجلس مع السلطان بعد ثبوت نسبه فقرئ نسبه على الناس ثم أقبل عليه السلطان وبايعه بامرة المؤمنين ثم أقبل هو على السلطان فقلده الأمور ثم بايعه الناس على طبقاتهم ولقب الحاكم بأمر الله فلما كان من الغد يوم الجمعة خطب الخليفة بالناس فقال فى خطبته الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركنا وظهيرا * وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا * أحمده على السراء والضراء * وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء * وأستنصره على الاعداء * وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له * وأن محمدا عبده ورسوله * صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء * وأئمة الاقتداء * الاربعة الخلفاء * وعلى العباس عمه * وكاشف غمه * وعلى السادة الخلفاء الراشدين * والائمة المهديين * وعلى بقية الصحابة والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين * أيها الناس اعلموا أن الامامة فرض من فروض الاسلام * والجهاد محتوم على

جميع الانام * ولا يقوم علم الجهاد * الا باجتماع كلمة العباد * ولا سبيت الحرم الا بانتهاك المحارم * ولا سفكت الدماء الا بارتكاب المآثم * فلو شاهدتم أهل الاسلام * حين دخلوا دار السلام * واستباحوا الدماء والاموال * وقتلوا الرجال والاطفال * وهتكوا حرم الخلافة والحريم * وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم * فارتفعت الاصوات بالبكاء والعويل * وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل * فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه * وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه * فشمروا عن ساق الاجتهاد * فى احياء فرض الجهاد * فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * فلم تبق معذرة فى القعود عن أعداء الدين * والمحاماة عن المسلمين * وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الاجل العالم العادل المجاهد المؤيد ركن الدنيا والدين قد قام بنصر الامامة عند قلة الانصار * وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار * فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود * والدولة العباسية متكاثرة الجنود * فبادروا عباد الله الى شكر هذه النعمة وأخلصوا نياتكم تنصروا * وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا * ولا يردعنكم ما جرى فالحرب سجال والعاقبة للمتقين * والدهر يومان والآخرة للمؤمنين * جمع الله على التقوى أمركم * وأعز بالايمان نصركم * وأستغفر الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين فاستغفروه انه هو الغفور الرحيم * ثم خطب الثانية ونزل فصلى بالناس وكتب ببيعته الى الآفاق ليخطب له وتكتب السكة باسمه * قال أبو شامة فخطب له بجامع دمشق وسائر الجوامع يوم الجمعة سادس عشر المحرم من هذه السنة * وقال ابن فضل الله ونقش اسمه على السكة وضرب بها الدينار والدرهم قال ثم خاف الظاهر عاقبة أمره فأسكنه عنده بقلعة الجبل وعنده حريمه وخدمه وغلمانه موسعا عليه فى النفقات والكساوى يتردد عليه العلماء والقراء على أكمل ما يكون من أنواع الاكرام وملازمته بجانب الاجلال والمهابة ممنوعا من اجتماع أحد من أهل الدولة ثم أسقط اسمه من سكة النقود وأبقاه على المنابر فقط

وجعل الظاهر بيبرس منذ مبايعة هذا الخليفة الحاكم بأمر الله يتأهب لغزو التتار والاخذ بالثار فبنى دار العدل القديمة تحت سور قلعة الجبل وصار يجلس بها لعرض العساكر فى كل اثنين وخميس وما زال حتى جيش جيشا ضخما وسار به فى سنة ست وستين الى الشام وقاتل من يافا حتى ملكها واستولى على الشقيف وانطاكية وبغراس وطبرية والقرين وارصوف وصافيتا وابياس ومرقية وعرج على دار السلام فحاصرها وضيق فى حصارها وما زال بها حتى دخلها وأباحها أياما ثم رتب أمورها وأحكم نظامها ثم سار منها وصحبته ولده الامير بركة خان الى مصر بريد الحج فمر بمدينة حلب وكانت فى أيدى التتار فقاتلهم وأجلاهم عنها ثم عرج الى بيت المقدس وعاد قافلا الى مصر ولبث بها الى ميعاد خروج ركب الحاج فخرج من القاهرة فى كبكبة عظيمة وسار برا الى السويس يريد

مكة وخرج معه جماعة كثيرة وقد كانت الطريق من مصر الى مكة الى ذلك الحين من
صحراء عيذاب فكان الحجاج يركبون السفن بالنيل من ساحل الفسطاط الى مدينة قوص
بالصعيد الاعلى ثم يركبون الابل منها فيقطعون صحراء عيذاب الى ساحل البحر الاحمر
ويركبون السفن بالبحر الاحمر الى جدة التى هى ميناء مكة وكذلك كانت تأتى على هذه
الطريق جميع قوافل التجار من الحبشة والهند واليمن وجميع جزيرة العرب فكانت لذلك
الصحراء المذكورة آهلة عامرة آمنة فلما سار الظاهر بيبرس الى مكة برا تبعه الناس فى ذلك
واقتدوا به وتحولوا عن طريق صحراء عيذاب وكذلك تحولت قوافل التجار بعد سنة ستين
وسبعمائة هجرية فزالت بهجة مدينة قوص وقلت أهميتها وتقهقرت تقهقرا سريعا حتى
أصبحت بالحالة التى هى عليها الآن أوأهم بقليل • ولما رجع من الحج اهتم بأمور الرعية وبالغ
فى ترتيب أحوال المملكة وعمل على تأمين السبل وقطع شأفة أهل الفساد • وبينما هو على
هذا الحال اذ جاءته الاخبار تترى بزحف طوائف التتار الى أرض الشام ومحاصرتهم بيرة
فجيش عسكرا عظيما وسار بهم الى قتال التتار وصحبته الأمير قلاوون الالفى فالتقى الجمعان
عند بيرة واقتتلوا قتالا عنيفا فانتصر المسلمون على التتار نصرة مؤزرة واستولوا على بيرة
وساروا منها الى أرمينية ففتحوها عنوة وأباحها بيبرس أياما فغنموا وسبوا وقتلوا وأراقوا فيها
الدماء الكثيرة ولبث بها حتى رتب أمورها وقرر أحوالها وسار عنها يريد القاهرة فلما صار
على قيد فرسخ منها خرج الامراء والكبراء والعلماء والفقهاء وعامة الناس للقائه وضربت
البشائر لقدومه فدخل من باب النصر وقد فرشوا له الطريق بالبسط والطنافس الفاخرة
اجلالا وتعظيما فشق من وسط المدينة وصعد الى قلعة الجبل ثم أولم وأعطى الناس وكان قد
ترك الامير قلاوون بالشام فلم يمض الا القليل على وصوله حتى جاءه الخبر بزحف بغا خان بن
هولا كو ملك التتار على أرض الشام وحصره بيرة ثانية فأنفذ الى الامير قلاوون بقتالهم
واجلائهم عن البلاد فسار اليهم الامير قلاوون فى قلة من العساكر المصرية وضربهم
ضربة أرجعتهم على أعقابهم فسر الملك الظاهر بذلك سرورا عظيما ومال الى الأمير قلاوون
وأحبه واعتمد فى كثير من الامور عليه

وتاقت نفس الملك الظاهر بيبرس الى فتح بلاد النوبة والصعيد الاعلى فأنفذ فى سنة أربع
وسبعين الامير آق سنقر فى جيش عظيم فسار من ساحل الفسطاط الى اسوان فقاتلها وما
زال بها حتى استولى عليها وترفع الى الصعيد الاعلى يغزو ويفتح ويحرق ويخرب ويسفك
الدماء حتى ملك جميع مصر العليا وأخضعها لحكم الملك الظاهر وقرر أمورها على ماشاء
وقفل راجعا مثقلا بالغنائم من الذهب والفضة وسن الفيل والريش والعبيد والاماء
والخصيان والخيل والدواب ووحوش البر ففرح الملك الظاهر بقدومه وسر باتساع ملكه
وطمع فى فتح برقة واخضاعها لحكمه فسار لقتال من بها وعاد ظافرا منصورا فلما كانت سنة
خمس وسبعين عاد بغا خان بن هولا كو الى الزحف على أرض الشام ليأخذها من عامل



الظاهر فأهم الظاهر ذلك واستعظمه وجيش جيشا عظيما وخرج به من القاهرة فى يوم الخميس لعشرين مضت من رمضان من السنة وسار يريد قطع شأفة التتار ومحو أثرهم فوصل الى حلب ومنها الى النهر الازرق ثم الى ابلستين فوصل اليها فى ذى القعدة فسير بغا لقتاله عسكرا عظيما ومقدمهم كبير اسمه تناون وهو من كبار المقدمين فالتقى الفريقان فى أرض ابلستين يوم الجمعة عاشر ذى القعدة واقتتلوا فانهزم التتار وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم تناون وغلب كبراءهم وأسر منهم جماعة كثيرة وكان ممن أسر فى هذه الموقعة سيف الدين قبجق وسيف الدين أرسلان فلما تم الظفر للملك الظاهر بيبرس سار الى قيسارية واستولى عليها وكان الحاكم بالروم يومئذ معين الدولة سليمان البرواناه فكان يكاتب الملك الظاهر فى الباطن والملك الظاهر يظن أنه ان وصل قيسارية يصل اليه البرواناه على ما كان قد اتفق معه فى الباطن فلم يحضر اليه وأقام الملك الظاهر على قيسارية سبعة أيام فى انتظاره وخطب له على منابرها ثم رحل عن قيسارية وقد نفدت منه الاقوات فحصل للعسكر شدة بالغة جدا وفنى العلف فماتت دواب الحمل والخيل ووصلوا الى عمق حارم وهم فى أسوء حال فلبثوا بها شهرا فلما بلغ بغا بن هولاكو ما حصل بقومه التتار ساق فى جمع المغل حتى جاء الابلستين وشاهد عسكره صرعى جيفا واشلاء ولم يشاهد أحدا من عسكر الروم مقتولا فالتهب قلبه بنار الغيظ وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين ونهب وخرب وفعل مالا خير فيه ثم سار الى الاردن وصحبته معين الدين البرواناه فلما استقر بالاردن أمر بالبرواناه فقتل وقتل معه نيفا وثلاثين نفسا من مماليكه وخواصه

أما الملك الظاهر بيبرس فانه بعد أن أقام بعمق حارم شهرا يصلح حال عسكره رحل عنها فى أواخر سنة خمس وسبعين ونزل بالقصر الابلق ثم سار منها لغزو الروم وعاد فلما كان المحرم افتتاح سنة ست وسبعين وستمائة مرض مرضا شديدا ومات فى يوم الخميس السابع والعشرين منه وكانت وفاته وقت الزوال وقد اختلف فى سبب موته * قال بعض كتاب الاخبار انكسف القمر كسوفا كليا وشاع بين الناس أن ذلك سبب موت رجل جليل القدر فاراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل الى غيره فاستدعى بشخص من أولاد الملوك الايوبية يقال له الملك القاهر من ولد الملك الناصر داود ابن المعظم عيسى وأحضر خمرا مسموما وأمر الساقى فسقى الملك القاهر ثم شرب الملك الظاهر ناسيا بتلك الكاس التى شرب منها القاهر على أثر شربه فمات القاهر عقب ذلك وحصلت للملك الظاهر حمى محرقة ومات بها فى التاريخ المذكور وقال آخرون غير ذلك فكتم نائبه ومملوكه بدر الدين بيلبك المعروف بالخزندار خبر موته وحنطه وكفنه وتركه فى قلعة دمشق الى أن تمت تربته بدمشق بقرب الجامع فدفن بها وهى مشهورة معروفة وارتحل بعد ذلك بيلبك بالعساكر ومعهم المحفة مظهرا ان الملك الظاهر فيها وانه مريض وسار الى مصر وكان الملك الظاهر قد حلف العساكر لولده بركة خان ولقبه الملك السعيد وجعله ولى عهده فوصل بيلبك الخزندار بالخزائن والعسكر الى الملك

السعيد

السعيد بركة وهو بقلعة الجبل وأصبحوا وقد أظهروا موت الملك الظاهر وجلس ابنه الملك السعيد للعزاء ثم جددوا له البيعة واستقرت له السلطنة فكانت مدة ملك الملك الظاهر بيبرس سبع عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام على التحقيق لانه ملك فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة ومات فى السابع والعشرين من المحرم افتتاح سنة ست وسبعين وستمائة وكان ملكا شجاعا عاقلا مهيبا ملك مصر والشام واستولى على النوبة وفتح الفتوحات الجليلة فكان مافتحه مما بأيدى الصليبيين يافا وطبرية وصفد والشقيف وارسوف وقيسارية وانطاكية وحصن الاكراد والقصير وبغراس وحصن عكا والقرين ومرقية وصافيتا وحلب قال أصحاب التاريخ وناصفهم فى طرسوس وأدنة والمرقب والمصيصة وبانياس وغيرها وتملك مما كان بيد المسلمين على بجاون وبعلبك ودمشق وحمص وصرخد والصلت وتل ناشر والرحبة وتدمر والرصافة والخوانى والقدموس والعليقة وقلعة الكهف وصهيون وبلاطيس والرصافة ومصياف والقليعة والشوبك والكرك

وعمر الحرم النبوى وقبة الصخرة ببيت المقدس وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وبنى منارة رشيد وأنشأ الشوانى وعمر عدة قلاع بالديار الشامية والاماضول وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير خارج باب الحسينية وحفر خليج الاسكندرية القديم وبنى فى طرفه قرية سماها الظاهرية وحفر بحر أشموم طناح وجدد الجامع الازهر بالقاهرة وأعاد اليه الخطبة بعد انقطاعها حينا من الدهر وأنشأ قناطر السباع • وأصله مملوك قبجاقى الجنس وكان أسمر أزرق العينين جهورى الصوت حضر هو ومملوك آخر مع تاجر الى حماة فاستحضرهما الملك المنصور محمد ليشتريهما فلم يعجبه واحد منهما وكان ايدكين البندقدار الصالحى مملوك الملك الصالح أيوب صاحب مصر قد غضب عليه الملك الصالح وكان قد توجه ايدكين الى ناحية حماة فأرسل الملك الصالح المذكور وقبض على ايدكين واعتقله بقلعة حماة فتركه الملك المنصور صاحب حماه فى جامع قلعة حماة واتفق ذلك عند حضور الملك الظاهر بيبرس مع التاجر فلما قلبه الملك المنصور ولم يشتره أرسل ايدكين البندقدار وهو معتقل فاشتراه وبقى عنده ثم أفرج الملك الصالح عن البندقدار فسار من حماة وصحبته الملك الظاهر وبقى مع أستاذه البندقدار مدة ثم أخذه الملك الصالح من البندقدار فانتسب الى الملك الصالح دون البندقدار وكان يخطب له وينقش على الدراهم والدنانير بيبرس الصالحى فسبحان المعطى بغير حساب

واستقر الملك السلطان الملك السعيد بركة بن الملك الظاهر بيبرس فى مصر والشام فى أوائل ربيع الاول من السنة أى سنة ست وسبعين واستقر بدر الدين بيليك الخزندار فى نيابة السلطنة على ما كان عليه مع أبيه الملك الظاهر واستمرت الأمور على أحسن حال وأتم نظام فلم تطل أيام بيليك الخزندار بعد ذلك ومات على مايقال حتف أنفه وقيل انه مات مسموما والله سبحانه وتعالى أعلم بالحقائق فتولى نيابة السلطنة بعده شمس الدين الفرقانى قال أصحاب التاريخ



ولكنه لم يتمكن من التغلب على الملك السعيد فخبط ذلك الملك السعيد وخلط وقدم الاصاغر على الاكابر وأبعد عنه أكثر الامراء وقبض على سنقر الاشقر والبيسرى وبقى الامر كذلك حتى خرجت هذه السنة ودخلت سنة سبع وسبعين وستمائة فتجهز السلطان الملك السعيد يريد البلاد الشامية ثم خرج فى عسكر عظيم ووصل الى دمشق ثم جرد منها عسكرا مع الامير سيف الدين قلاوون الصالحى وجرّد أيضا صاحب حماة فساروا جميعا ودخلوا الى بلاد سيس وشنوا الغارة عليها وغنموا ثم عادوا الى جهة دمشق واتفقوا على أن يشقوا عصى الطاعة على الملك السعيد بركة ويخلعوه من السلطنة لسوء تدبيره وبغضهم لافعاله ومروا بدمشق ولم يدخلوها فأرسل اليهم الملك السعيد واستعطفهم وأدخل عليهم والدته فلم يلتفتوا الى ذلك وداوموا السير فركب الملك السعيد وساق وسبقهم الى مصر وصعد الى قلعة الجبل وسار العسكر فى أثره * فلما كانت سنة ثمان وسبعين وصل العساكر الى مصر فى أثر الملك السعيد وذلك فى ربيع الاول وحصروه بقلعة الجبل فخامر عليه أكثر من كان معه من الامراء فصاروا يهربون واحدا بعد واحد من القلعة وينضمون الى العسكر المحارب فلما رأى الملك السعيد منهم ذلك أجاب الى الانخلاع من السلطنة وأن يعطى الكرك فأجابوه الى ذلك وأنزلوه من القلعة وخلعوه فى ربيع الاول من السنة أى سنة ثمان وسبعين وسيروه فى الحال الى الكرك صحبة بيدغان الركنى وجماعة معه فوصل اليها وتسلمها بما فيها من الاموال والخزائن وكان شيأ كثيرا قال كاتب الاخبار وبعد أن جرى ذلك وتم على ما أراده الامراء اجتمعوا وهم بدر الدين البيسرى الشمسى وايتمش السعدى وبكتاش الفخرى أمير سلاح وغيرهم على اقامة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس فى السلطنة ولقبوه بالملك العادل وذلك فى شهر ربيع الاول المذكور وعمره يومئذ سبع سنين وشهور ثم خطب له وضربت السكة باسمه وصار الامير سيف الدين قلاوون الصالحى أتابك العسكر فلما استقر الحال على ما ذكر أرسل الامير سيف الدين قلاوون الامير شمس الدين سنقر الى دمشق وجعله نائب السلطنة بالشام وكان العسكر لما خالفوا الملك السعيد بركة على ما تقدم بيانه قبضوا على عز الدين ايدمر نائب السلطنة بدمشق وحبسوه وتولى تدبير دمشق بعده أقوش الشمسى نائب السلطنة بحلب فسار الامير شمس الدين وتولاها واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة

ولم تكن مدة الملك العادل سلامش المذكور لتطول سوى بضع أشهر وقام الامير سيف الدين قلاوون أتابك العسكر وخلعه من السلطنة وجلس هو على تخت الملك يوم الاحد الثانى والعشرين من رجب سنة ثمان وسبعين ولقب نفسه بالملك المنصور فلما استقرت به السلطنة وثبتت قدماه فيها قام سنقر الاشقر متولى دمشق وخرج عن طاعته وادعى السلطنة واستحلف العساكر والاجناد فحلفوا له وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر وكان ذلك لاربع وعشرين خلت من ذى القعدة وجاءت الاخبار بذلك الى الملك المنصور قلاوون فأهمه الامر جدا وجهز عسكرا عظيما للغاية مع علم الدين سنجر الحلبى وهو من

مقدّمى

مقدمى العساكر المصرية وكذلك بدر الدين بكتاش وبدر الدين الايدمرى وعز الدين الافرم فساروا جميعا الى الشام وبرز سنقر بجيوش الشام الى ظاهر دمشق والتقى الفريقان فى تاسع عشر صفر واشتبك القتال فلم يكن بأسرع من أن ولى الشاميون وسنقر منهزمين فلعبت فيهم سيوف المصريين ونهبت أثقالهم وكان السلطان الملك المنصور قلاوون قد جعل مملوكه حسام الدين لاجين السلحدار نائبا بقلعة دمشق فاعتقله سنقر بها فلما انهزم سنقر أفرج عن حسام الدين وعن آخرين لم يخالفوا مع سنقر ولم يحلفوا له وكتب الحلبى الى السلطان الملك المنصور بالنصر فرسم بتعيين الامير لاجين المنصورى نائبا للسلطان بالشام أما سنقر الاشقر فانه هرب الى الرحبة وكاتب أبيغا بن هولاكو ملك التتار وأطمعه فى البلاد وكان عيسى بن مهنا أمير العربان مع من حلف لسنقر وقاتل معه وكتب بذلك الى أبيغا أيضا موافقة له ثم سار سنقر من الرحبة الى صهيون فى جمادى الاولى واستولى عليها وعلى برزية وبلاطس والثغر وغيرها بعد حروب كثيرة ٭ وطمع أبيغا بن هولاكو ملك التتار فى ملك الشام فسير جيشين عظيمين أحدهما مقدمه اباكا خان والثانى مقدمه منجو تيمور بن هولاكو عدته ثمانون ألف فارس فالتقوا بالمصريين واقتتلوا قتالا عنيفا فصبر المصريون وقاتلوا قتال الاسود حتى ظفروا بالتتار وانتصروا عليهم نصرة مؤزرة وقتل منجو تيمور تحت سنابك الخيل وفرّ اباكا خان الى همدان فقبض عليه أخوه تكودارا وغلان وسقاه السم فمات لحينه وولى تكودارا المذكور الملك بعده وراسل الملك المنصور قلاوون فى أمر الصلح أو الهدنة وأظهر الاسلام وسمى نفسه أحمد خان فتقررت قاعدة الصلح بين الفريقين وتعهد أحمد خان بالطاعة والولاء فعاد الملك المنصور ظافرا مؤيدا ولبث الحال فى سكون والأمور على ما يرام حتى قامت الفتنة فى جوف البلاد وخرج على الملك المنصور كبار الامراء والمماليك ونبذوا طاعته وعملوا على خلعه فتأهب لاذلالهم وتجرد لقطع شأفتهم وأعمل فيهم السيف ثلاثة أيام كاملة ولم يرحم صغيرا لصغره ولا شيخا لشيخوخته واشتد القتل حتى امتلأت الاسواق بجثثهم بين رجال ونساء وأولاد فاشتد الهول على الناس وعظم الخطب وارتفعت أصوات النساء بالبكاء واستغاثوا فاجتمع العلماء ودخلوا على السلطان وشكوا اليه ما يلاقيه الناس من هول هذا الامر وتلطفوا فى القول وبالغوا فى الاستشفاع فأجابهم الى ما يسألون وأمرنا دوا بالكف عن القتل وحقن الدماء الا أنه ضيق على من بقى منهم وأبطل كثيرا من عاداتهم بعد أن كانوا يلبسون الالبسة المطرزة بطراز الذهب والفضة ويضعون العمائم من الحرير والوشى ويرخون ضفائر الشعر على ظهورهم مغطاة بالحرير وغير ذلك من أنواع الزينة والترفه فزالت بعد ذلك هيبتهم وانكسرت شوكتهم وأمن الناس من شرهم وزال عنهم بأسهم

ولما كانت سنة أربع وثمانين وستمائة هجرية تحرك الامير سلامش متولى الكرك يريد الاستقلال والخروج عن تابعية السلطان الملك المنصور قلاوون فاستعظم الملك المنصور هذا

الامر وسار من مصر فى جيش عظيم الى الكرك فلاقاه سلامش فى جمع عظيم واقتتلوا فدارت عليه وعلى جيشه الدائرة وسقط سلامش فى قبضة الملك المنصور فأحضره الى القاهرة مكبلا بالحديد وسجنه فلبث مسجونا الى ما بعد وفاة الملك المنصور * ورسم بعد ذلك الملك المنصور لولده الملك الصالح علاء الدين بولاية العهد بعده وسلطنته وأركبه بشعار السلطنة وشق فى وسط المدينة بأبهة وكبكبة عظيمة ولكنه لم يلبث أن أدركته المنية وهو فى شرخ الشباب وزهوة العمر أصابته حمى خبيثة فمات فى سنة سبع وثمانين وستمائة فحزن عليه السلطان الملك المنصور حزنا عظيما وبكاه بكاء مرا وجلس للعزاء أياما كثيرة وفرق الصدقات الكثيرة وخرج من مصر فى جيش فرارا مما يلاقيه من ألم الحزن على فقد ولده فسار يريد فتح طرابلس وقد كانت الى ذلك الحين فى أيدى الصليبيين لا ينازعهم عليها منازع من نحو المائة وثمانين سنة * فلما وصل اليها حاصرها وضيق عليها وشدد ووالى الرمى عليها ليلا ونهارا حتى ظفر بها وفتحها فاباحها أياما كثيرة وهدم أسوارها وخرب بناءها حتى أوشكت أن تصبح أثرا بعد عين ثم أمر فرمموا مابقى منها وأعادوا اليها بعض رونقها وولى عليها أميرا من المصريين ورتب له جماعة من العساكر يقومون بحراسة أبراجها ويدفعون عنها عند الحاجة * قال أهل التاريخ ولم يجسر أحد الى هذا الحين ممن سبقه من الملوك مثل صلاح الدين أيوب وغيره على التعرض الى طرابلس لحصانتها وكثرة عساكرها ثم سار لغزو عكا ففتحها أيضا ونزل الى مسجد التبر ومعه العساكر والاجناد المتوافرة فلما أقام به أياما ابتدأ مرضه وكان فى العشر الاواخر من شوال وهو بالدهليز بالمكان المذكور وأخذ مرضه يتزايد حتى مات يوم السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة وكان جلوسه على تخت الملك فى اليوم الثانى والعشرين من رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة فكانت مدة ملكه نحوا من احدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وأياما وترك ولدين هما الملك الاشرف صلاح الدين خليل والسلطان الاعظم الملك الناصر محمد * وكان ملكا مهيبا حليما جليل القدر كثير العفو شجاعا غير سفاك للدماء محبا للرعية ميالا الى فعل الخير كثير الاحسان وافر الحرمة فلما مات اجتمع الامراء من الخاصكية وغيرهم وتكلموا فيمن يتولى السلطنة بعده فاتفقت كلمتهم على تولية ولده الملك الاشرف صلاح الدين خليل

فلما كان اليوم الثانى من موت الملك المنصور أجلسوا الاشرف صلاح الدين خليل المذكور على تخت السلطنة وبايعوه البيعة العامة بعد أن بايعه الخليفة الحاكم بأمر الله ابن المستظهر بالله فى السابع من ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة ولم تستقر به السلطنة حتى قبض على حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة يومئذ قبض عليه فى يوم الجمعة ثانى عشر ذى القعدة وقتله وفوض نيابة السلطنة الى بدر الدين بيدر وقلد الوزارة الى شمس الدين محمد بن السلعوس * ولما رتب أمور الدولة على ما شاء سار الى ارمينيا وحاصر أرودوم وضيق عليها وشدد فى الحصار حتى فتحها وأقام بها أياما فذاع صيته وكبرت

هيبته

هيبته وهابه الملوك المجاورون لمملكه وتزلفوا اليه وعاد الى القاهرة وأقام بها أياما ثم خرج منها على الهجن يريد الكرك وسارت عساكره على الطريق الى دمشق وسار السلطان ودخل دمشق ثم سار منها الى البرية متصيدا ووصل الى العزقلس وهو جفار فى طرف بلاد حمص من الشرق ونزل عليه وأرسل الى مهنا بن عيسى أمير العرب وأخويه محمد وفضل وولده موسى بن مهنا وكان قد أضمر لهم السوء لامر نقمه على عيسى المذكور فحضروا اليه فى قلة من قومهم وهم لايعلمون بسوء نيته فقبض عليهم فى الحال وسيرهم الى مصر فحبسوا فى قلعة الجبل وعاد السلطان خلفهم فوصلها فى رجب من السنة وجعل يتصرف فى الامور فظهرت عليه علامات الخيلاء وتبدلت أحواله وتغيرت طباعه وأساء معاملة رجال الدولة وكافة الناس وتخوف لاقل سبب فانحرفت الخواطر عنه وأبغضه الامراء وتمنوا هلاكه • وكانت طائفة الكتاب من القبط الى سلطنته فى صدر الدولة ولهم الكلمة النافذة والرأى المسموع وقد أحبهم الامراء الخاصكية كثيرا ومالوا اليهم جدا وكان منهم كاتب عند خاصكى يعرف بعين الغزال فوجد يوما فى طريقه بمصر سمسارا بشونة مخدومه فلما رآه السمسار نزل عن دابته وسلم عليه فسأله الكاتب عن مال تأخر عليه من ثمن غلة الامير وأمر غلامه فنزل وأمسك السمسار وسار به نحو دار الامير فصاح السمسار فتجمع الناس وكثرت العامة وعلت بينهم الضوضاء حتى صار الى صليبة جامع ابن طولون والناس يكثرون وكان قد قرب الكاتب من بيت أستاذه فأحاط العامة بالكاتب وألقوه عن دابته وخلصوا السمسار من غلامه فسبق الغلام الى بيت الامير ليستنجده فجاءت طائفة من غلمان الامير فخلصوا الكاتب من العامة وشرعوا فى القبض عليهم فصاحوا هذا مايحل وصاروا مسرعين الى أن وقفوا تحت قلعة الجبل وصاحوا نصر الله السلطان وأكثروا من الضجيج والصياح فأرسل من يكشف الخبر فعرفوه ما كان من أمر الكاتب والسمسار وما وقع منهما فغضب السلطان وطلب الكاتب ورسم للعامة باحضار النصارى اليه وطلب الامير بدر الدين بيدو النائب والامير سنجر الشجاعى ورسم لهما باحضار جميع النصارى بين يديه ليقتلهم فما زالا به حتى استقر الحال على أن ينادى فى القاهرة ومصر بأن لايستخدم أحد من النصارى أو اليهود عند أمير وأمر الامراء كافة بأن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الاسلام فمن امتنع ضربت عنقه ومن أسلم استخدموه عندهم ورسم للنائب بأن يعرض على جميع مباشرى الديوان السلطانى ويفعل بهم كذلك فنزل الطلب لهم فصارت العامة والحرافيش تسبق الى بيوتهم وتنهبها حتى عم النهب بيوت جميع النصارى واليهود وأخرجوا نساءهم سبايا وقتلوا جماعة منهم بأيديهم فقام الامير بيدو مع السلطان لرد العامة وركب والى القاهرة ونادى من نهب بيت نصرانى حل دمه وقبض على طائفة من العامة وشهرهم بعد ماضربهم فانكفوا عن النهب بعد مانهبوا كنيسة المعلقة بمصر وقتلوا جماعة بها • ثم جمع النائب جماعة من كتاب السلطان

والامراء وأوقفهم بين يدى السلطان فرسم للشجاعى والامير جاندار أن يأخذا عدة معهما وينزلوا الى سوق الخيل تحت قلعة الجبل ويحفروا حفرا كبيرة ويلقوا فيها الكتاب الحاضرين ويضرموا عليهم الحطب نارا فتقدم الامير بيدر وشفع فابى أن يقبل شفاعته وقال ما أريد فى دولتى ديوانيا نصرانيا فلم يزل به حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقر فى خدمته ومن امتنع ضربت عنقه فأخرجهم الى دار النيابة وقال لهم ياجماعة هذا ماوصلت قدرتى اليه مع السلطان فى أمركم وقد قبل شفاعتى على شرط وهو أن من اختار منكم دينه قتل ومن اختار الاسلام خلع عليه و باشر أمر خدمته فابتدره المكين بن السقاعى أحد المستوفين وقال ياخوند وأى شئ تختارونه منا الآن قولوا لنا ماتختارونه ونحن نتبع قولكم فغلب الامير بيدرا الضحك وقال ويحك بامكين أنختار غير دين الاسلام ثم أمر فأحضروا العدول واستسلمهم جميعا وكتب بذلك شهادات عليهم ودخل بها على السلطان ثم خرجوا الى مجلس الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس فبدأ بعض الحاضرين بالمكين بن السقاعى وناوله ورقة ليكتب عليها وقال يامولانا القاضى اكتب على هذه الورقة فأجابه على الفور * يابنى والله ماكان لنا هذا القضاء فى خلد * فأعجب القوم بفصاحته وسرعة خاطره فى هذا الوقت الضيق وتوجعوا لحالهم بعدا وراجع الامراء السلطان فى أمرهم وألحوا عليه فأجابهم الى مايطلبون فكانت حالة من أشد الاحوال وأنكاها مات فيها من الاطفال والشيوخ والرجال عدد كثير وبلغت فعال العامة بأصحاب البيوتات من النساء مبلغا عظيما للغاية فكن يخرجن حاسرات مكشوفات الوجوه هائمات فى الطرق والحارات لايعرفن للسلامة سبيلا وكان الامير بيدرا يرق لحالهن ويتوجع لمصابهن فأخجل ذلك السلطان وندم على ما بدا منه وتوجع كثيرا وقد كثر خلطه وخبطه وأخذه للناس بالشبهات وتخوفه من مماليكه وأمراء دولته حتى من أقرب الناس اليه وأخصهم به فشدد وهدد وبالغ فى التحرز فكرهه مماليكه وتفرقوا عنه وجعل الامير بيدرا يراقب الفرص للايقاع به والتخلص من شره فلما كان أول المحرم افتتاح سنة ثلاث وتسعين وستمائة خرج من قلعة الجبل يريد الصيد وسار فى طائفة من الجند الى أن وصل تروجة بالبحيرة ونصب دهليزه وركب فى نفر قليل من خواصه وخرج الصيد فقصده مماليك والده وهم بيدرا نائب السلطنة ولاجين الذى كان متوليا نيابة السلطنة بالشام وكان قد اعتقله السلطان مرة بعد أخرى وقرا سنقر الذى كان خلعه عن نيابة السلطنة بحلب وبهادر رأس النوبة وجماعة من الامراء فلما قاربوا السلطان خاف منهم وأرسل اليهم أميرا يقال له كرت أميراخور ليكشف خبرهم وسبب مجيئهم فى هذا الحين فلما وصل اليهم أمسكوه على الفور وقاربوا السلطان وكان بينهم وبينه خور فخاضوه ووصلوا اليه وتقدم بيدرا نحوه وعاجله بضربة بسيفه ثم فعل به كذلك لاجين حتى مات وتركوه ملقى على الارض فحمله أيدمر الفخرى والى تروجة الى القاهرة فدفن فى تربته التى أنشأها بجوار مشهد السيدة نفيسة وذلك فى الثالث عشر من المحرم المذكور فكانت مملكته ثلاث سنين وشهرين ليس الا

وخرج

وفرح الناس بموته فرحا عظيما فكانوا لايذكرونه الا باللعنات

واتفق الجماعة الذين قتلوه على سلطنة بيدرا الذى هو مملوكه وأن يلقبوه بالملك القاهر فساروا على هذا العزم نحو قلعة الجبل فاجتمعت عند ذلك مماليك السلطان الملك الاشرف وانضموا الى زين الدين كتبغا المنصورى وساروا فى أثر بيدرا ومن معه فلحقوهم عند الطرانة فى خامس عشر المحرم فاقتتلوا فانهزم بيدرا وأصحابه وتفرقوا فى الاقطار فتبعوا بيدرا حتى لحقوه واحتزوا رأسه ورفعوه على رمح واختفى لاجين وقراسنقر ولم يطلع لهما على خبر ووصل زين الدين كتبغا وجماعة المماليك السلطانية بعد قتل بيدرا الى قلعة الجبل وبها علم الدين سنجر الشجاعى نائبا واتفقوا على تولية السلطان الملك الناصر بن السلطان الملك المنصور فأجلسوه على تخت السلطنة فى العشر الاواسط من المحرم وعمره يومئذ تسع سنين وتقرر أن يكون الامير زين الدين كتبغا المنصورى نائب السلطنة وعلم الدين سنجر الشجاعى وزيرا وركن الدين بيبرس البرجى الجاشنكير أستاذ الدار وتتبعوا الامراء الذين اتفقوا مع بيدرا على قتل الملك الاشرف فظفروا أولا بيهادر رأس النوبة وأقوش الموصلى الحاجب فضربت أعناقهما وأحرقت جثتهما ثم ظفروا بطرنطاى الساقى وايتاق ونغية وأروس السلحدارية ومحمد خواجا والطنبغا الجمدار وآق سنقر الحساى فاعتقلوا بخزانة البنود أياما ثم قطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا على الجمال وطيف بهم وأيديهم معلقة فى أعناقهم وقبض بعد أيام أيضا على مختار الساقى فشنق * ووافق زين الدين كتبغا والشجاعى على القبض على شمس الدين محمد بن السلعوس وزير السلطان الملك الاشرف فقبضا عليه وتولى الشجاعى معاقبته واستصفى ماله وقتله وكان ابن السلعوس قد بلغ عند السلطان منزلة عظيمة وتمكن فى الدولة وصارت الامور كلها له وكان لابن السلعوس المذكور أقارب وأهل بدمشق فلما صار الى هذه الحالة أرسل فأحضرهم بمصر فحضروا جميعا الا شخصا منهم فانه استمر مقيما وكتب الى ابن السلعوس يقول

تنبه ياوزير الارض واعلم * بأنك قد وطئت على الافاعى
وكن بالله معتصما فانى * أخاف عليك من نهش الشجاعى

ولم تمض مدة طويلة حتى وقعت الوحشة بين الامير زين الدين كتبغا وعلم الدين سنجر الشجاعى المذكور فصار مع كل منهما جماعة من الامراء واشتد الامر بينهما واستفحل الخلاف فنزل كتبغا ومن معه من قلعة الجبل وبقى سنجر وأصحابه بها لايبرحون فحصره كتبغا وما زال حتى غلب عليه وقتله واحتز رأسه وطيف به فى البلد وذلك فى صفر من السنة أى سنة ثلاث وتسعين وستمائة فلما شاع خبر موته ظهر حسام الدين لاجين وشمس الدين قرا سنقر من الاستتار بعد الغيبة فأخذ لهما زين الدين كتبغا الامان من السلطان وقرر لهما الاقطاعات الجليلة وأعز جانبهما وأخذ زين الدين المذكور من هذا الحين يعمل



على اختلاس الملك من أستاذه الملك المنصور فلما كان يوم الاربعاء تاسع المحرم افتتاح سنة أربع وتسعين وستمائة أزال من طريق مقاصده ما كان يحول دون الوصول اليها وخلع السلطان الملك المنصور من تخت السلطنة وجلس هو على سرير الملك ولقب نفسه الملك العادل زين الدين كتبغا واستحلف الناس على ذلك فحلفوا وخطب له على منابر مصر والشام ونقشت السكة باسمه ثم قبض على السلطان الملك الناصر ووضعه فى قاعة بقلعة الجبل وحجبه عن الناس فصار لايراه أحد ولا يسمع بخبره فكانت مدة ملك السلطان الملك الناصر المذكور سنة الا أياما

ولما استتب الامر لزين الدين كتبغا جعل نائبه فى السلطنة حسام الدين لاجين الذى كان مستترا بسبب قتل السلطان الملك الاشرف وأفرج عن الامير مهنا أمير العربان واخوته وابنه عيسى وزودهم وسيرهم الى بلادهم وخرج فى شوال من السنة يريد الشام فوصل دمشق وأقام بها أياما وقد نقم على عز الدين أيبك الحموى نائب السلطنة بالشام أمورا فخلعه وولى مكانه سيف الدين أحد مماليكه وقام من دمشق فى أوائل المحرم افتتاح سنة سبع وتسعين وستمائة بالعسكر متوجها الى مصر فلما وصل الى نهر العريجا واستقر بدهليزه وتفرقت مماليكه وغيرهم الى خيامهم ركب حسام الدين لاجين المنصورى نائب السلطنة بسنجقه ونقاره وانضم اليه بدر الدين البيسرى وقرا سنقر المنصورى وسيف الدين قلجاق المنصورى وبهادر الظاهرى وغيرهم من كبار الاصراء وكانوا قد اتفقوا مع لاجين نائب السلطنة على الغدر بالسلطان كتبغا المذكور لبغضه لهم واعراضه عنهم الى بعض خواصه وباغتوه عند الظهر فى دهليزه بالمنزلة المذكورة فلم يتمكن من جمع أصحابه وركب فى نفر قليل فحمل عليه نائبه لاجين فقتل بكتوت الازرق وبخاص وكانا أكبر مماليك العادل فولى العادل هاربا راجعا الى دمشق حيث كان بها مملوكه عزلو ووصل اليها فركب مملوكه عزلو المذكور والتقى به ودخل الى قلعة دمشق واهتم بجمع العساكر والتأهب للقتال مع لاجين فلم يوافقه عسكر دمشق على ذلك ورأى منهم التخاذل فخلع نفسه عن السلطنة ولبث بقلعة دمشق وأرسل الى حسام الدين لاجين يطلب منه الامان وموضعا يأوى اليه فأعطاه صرخد فسار كتبغا الى صرخد واستقر بها الى أن كان من أمره ماسيذكر فى حينه ٭ وأما حسام الدين لاجين فانه لما هزم العادل كتبغا على ماذكر نزل بدهليزه عند نهر العريجاء واجتمع مع الاصراء الذين وافقوه على ماذا وشرطوا عليه شروطا فالتزمها فكان من تلك الشروط أن لاينفرد عنهم برأى ولا يغرى مماليكه بهم كما فعل كتبغا فأجابهم الى ذلك وحلف لهم واستحلفهم على الطاعة فحلفوا و بايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى وذلك فى المحرم افتتاح سنة ست وتسعين وستمائة فكانت مدة ملك السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى سنتين تقريبا الى أن خلع

ولما بايع الاصراء الملك المنصور حسام الدين لاجين رحل من فوره بالعسكر الى مصر

ووصل

ووصل اليها فدخلها فى أبهة زائدة وصعد الى قلعة الجبل واستقر بها وجعل يتصرف فى الامور ويرتب الاحوال على مايريد ثم سير الامير سيف الدين منجق الى دمشق وجعله نائب السلطنة بالبلاد الشامية وأخرج السلطان الملك الناصر من معتقله بقلعة دمشق وسيره الى الكرك صحبة سلار فأوصله اليها وتركه بها وعاد سلار الى مصر وأفرج كذلك عن بيبرس الجاشنكير وعن عدة أمراء كان العادل كتبغا قد قبض عليهم واعتقلهم فى أيامه ٭ وتاقت نفسه الى التشبه بكبار الملوك ممن سلفه فى الغزو والفتوحات فجيش جيشا عظيما وسار الى بلاد الروم فلم يفتح الله عليه بشئ منها الا القليل جدا فى جانب مافقد من المال والرجال وذلك لانصراف قلوب الامراء عنه وتسليم أموره المخصوصية الى الاحداث من المماليك الذين اصطفاهم لنفسه وعينهم لخدمته وكان القائم عليهم شخص اسمه سيف الدين طغجى ٭ قال أصحاب التاريخ وكان سبب بغض الامراء له ما فعله بهم من أخذ جانب من اقطاعاتهم واخراجه من دواوينهم وجعله لهم ولجميع العساكر والاجناد أحد عشر قيراطا بدل عشرين وقد كانت القاعدة الى سلطنة الملك المنصور لاجين أنهم اعتبروا أرض مصر أربعة وعشرين قيراطا خصوا السلطان منها بأربعة والعساكر والاجناد بعشرة وسائر الامراء بعشرة ولما كان الامراء هم المتولين ادارة شؤن جميع العساكر فى السلم والحرب كانوا لايعطون العسكر من اقطاعهم الا بقدر الحاجة وربما أقل بكثير أولا يعطونهم ويضمون مايستغل منها الى دواوينهم المخصوصية فكثرت لذلك اقطاعات الامراء وأوى اليها أهل الشقاوة والفساد فعاثوا فيما جاورها من البلاد والقرى والمزارع وقطعوا الطرق على المارة وأبناء السبيل وعجز الولاة عن ردعهم خوفا من اغضاب الامراء وكانت الحقوق الديوانية تمنع من هذه الاقطاعات فكانت طعمة لاعوان الامراء فلما تولى السلطنة الملك المنصور لاجين راك جميع البلاد ورد تلك الاقطاعات على أربابها وأخرجها جميعها من دواوين الامراء ورتب للامراء وجميع الاجناد أحد عشر قيراطا وأفرد تسعة لحاجة العسكر عند الاقتضاء وحرر أوراقا بما يكفى الامراء والاجناد ٭ فلما أيس الامراء من رجوع الاحوال الى ما كانت عليه قبل سلطنة لاجين وقد أحسوا بعزم السلطان على الايقاع بهم عمدوا الى قتله واختاروا لذلك جماعة من مماليكه فلما كانت ليلة الجمعة حادى عشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين فى أوائل الليل دخل عليه جماعة من أولئك المماليك وهو يلعب بالشطرنج وتقدم أحدهم نحوه واسمه سيف الدين كرجى وضربه بسيفه وتلاه الباقون بسيوفهم حتى قتلوه وطلبوا مملوكه ونائبه منكوتمر فهرب واستجار بسيف الدين طغجى الاشرفى مقدم المماليك فأجاره وبعث به الى الجب فحبسه هنالك ثم بعد استقراره فى الجب توجه اليه كرجى الذى قتل السلطان ومعه جماعة وأخرجوه وذبحوه على رأس الجب وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جلس طغجى مقدم المماليك فى موضع النيابة وأمر ونهى ٭ قال كتاب الاخبار وكان هنالك جماعة من كبار الامراء المتقدمين مثل حسام الدين استاذ الدار

وبيبرس الجاشنكير وغيرهم فأخذهم آخذ الغيظ مما فعله طغجى فاتفقوا على الوقيعة به واعادة الملك الى السلطان الملك المقيم بالكرك التى تقدم الكلام عنه واتفق فى هذه الاثناء أن حضر بعض العسكر الذين كانوا فى حلب ومعهم أمير السلاح وغيره من الامراء فأشار الامراء المتآمرون على طغجى المذكور بالركوب للقاء أمير السلاح فامتنع فعاودوه فأجاب وركب من قلعة الجبل وجعل نائبه بها كرجى قاتل السلطان الملك المنصور لاجين فلما اجتمع الامراء بأمير السلاح تحدثوا فيما فعله أولئك الصبيان من قتل السلطان وبالغوا فى الامر واتهموا طغجى المذكور بفعله وكان طغجى جالسا بينهم فأنكر ذلك وبالغ فى الانكار فقام عليه الامراء بالسيوف فهرب منهم فأدركوه وقتلوه وقصدوا كرجى بقلعة الجبل فهرب فاتبعوه وقتلوه أيضا وذلك فى ربيع الآخر من السنة فكانت مدة ملك حسام الدين لاجين الملقب بالملك المنصور سنتين وثلاثة أشهر وقيل سبعة وأربعين يوما لم يأت فيها بعمل يذكر ولا بمعروف يشكر

ولما قتل الملك المنصور وطغجى على الوجه المذكور اتفق الامراء كافة على اعادة الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين بن قلاوون الى مملكته فبعثوا اليه سيف الدين آل ملك وعلم الدين الجاولى الى الكرك فاحضراه الى مصر وصعد الى قلعة الجبل فى أبهة وكبكبة عظيمة فلما كان يوم السبت رابع عشر جمادى الاولى من السنة أى سنة ثمان وتسعين وستمائة أجلسوه على سرير الملك وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق وضربت السكة باسمه فكانت هذه ولايته الثانية واتفق معه الامراء على أن يكون سيف الدين سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير أستاذ الدار وبكتمر الجوكندار أمير جاندار ففعل وفوض نيابة السلطنة بالشام الى جمال الدين أقوش الافرم وأفرج عن شمس الدين قراسنقر من الاعتقال وكان له فيه نحو سنة وشهرين ثم سيره الى الصبيبة وقد كانت البلاد بغير ملك مدة أحد وأربعين يوما الى أن حضر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون المذكور

وعاود التتار الكرة فى أيام الملك الناصر على بلاد الشام فعبروا الفرات فى شهر ربيع الآخر سنة سبعمائة فجفلت منهم المسلمون ودخلت بلاد حلب وسار قراسنقر بعسكر حلب الى حماة وبرز زين الدين كتبغا وعسكر حماة الى ظاهر البلد ووصل العساكر من دمشق أيضا واجتمعوا بحماة ونزل التتار على سرمين والمعرة وتيزين والعمق وغيرها ينهبون ويقتلون فكبر الأمر على السلطان واستعظمه جدا وسار فى عسكره ووصل الى العرجاء وكان الوقت شتاء فاتفق أن هطلت الامطار بشدة زائدة فاشتدت الاوحال حتى انقطعت الطرقات وانقطعت الاقوات وعجز السلطان والعسكر عن القيام على تلك الحال فرحلوا وعادوا الى مصر وبقيت التتار تعيث وتفسد وتفعل بالبلاد مالا خير فيه نحو ثلاثة أشهر ثم رحلوا الى بلادهم فرجع عسكر حلب ولم يستقر بالسلطان المقام بعد رجوعه حتى تغيرت عليه قلوب الامراء وقامت الفتنة بسبب تولى بعضهم المناصب دون البعض الآخر وتحزبوا وتفرقت كلمتهم وكاد يتعذر على السلطان تلافى الأمر وبينماهم على هذا الحال من الاضطراب

والاختباط

والاختباط اذ مات الخليفة أبو العباس الحاكم بأمر الله فى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الاولى سنة احدى وسبعمائة فارسل نائب السلطنة خلف جميع من فى البلاد من الامراء والقضاة والعلماء والصوفية ومشايخ الزوايا والرباطات وغيرهم ليحضروا للصلاة على الخليفة فكان المجتمعون خلقا كثيرا جدا وبعد الصلاة عليه دفنوه بجوار السيدة نفيسة فى قبة بنيت له فكان الخليفة المذكور أول خليفة مات بمصر من بنى العباس وكانت خلافته أربعين سنة وأشهرا ولم يكن له من الامر شئ سوى الامامة والخطبة فى صلاة الجمعة

قال أبو شامة ولاحظه الملك الاشرف خليل بن قلاوون أتم ملاحظة ممن سبقه ورقى لوده ثمة الخلافة فيه حقها من جميل المحافظة وقال غيره خطب الخليفة الحاكم بأمر الله بالقلعة مرة ثانية يوم الجمعة رابع شوال سنة تسعين وستمائة بسؤال الملك الاشرف له ذلك وذكر فى خطبته ولية السلطنة للاشرف ثم خطب مرة ثالثة بالمنصورة بحضرة السلطان والقضاة وحض على غزو التتار واستنقاذ بلاد العراق من أيديهم وذلك سنة تسعين وستمائة فى ذى القعدة ثم خطب مرة رابعة فى التاسع والعشرين من ربيع الاول سنة احدى وتسعين وحث على الجهاد والنفير وصلى بالناس الجمعة وجهر بالبسملة * وقال الذهبى فى العبر آخر خليفة خطب يوم الجمعة الراضى بالله ولم يخطب بعده خليفة الا الحاكم العباسى هذا فانه خطب فى خلافته * وقال ابن فضل الله لما ملك المنصور لاجين زاد فى اكرامه أى فى اكرام الخليفة الحاكم بأمر الله وصرفه فى الركوب والنزول فبرز الى قصر الكبش وسكن به ثم انه حج فى سنة سبع وتسعين وستمائة فاعطاه المنصور لاجين ستمائة ألف درهم ورجع من الحج فأقام بمنزله الى أن مات ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الاولى سنة احدى وسبعمائة ودفن بجوار السيدة نفيسة اه

ومات فى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله مرقس بطرك الاسكندرية فكانت مدته اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر وخمسة وعشرين يوما وفى أيام مرقس هذا انتقل مرقس بن قنبر وجماعة من القنابرة الى رأى الملكية وبالغوا فى نصرة الملكيين أياما كثيرة فاستعظم المتأصلون هذا الامر وكثر بين الفريقين الاخذ والرد الى أن عاد القنابرة الى المتأصلين فقبلوا فلم يلبثوا الا القليل حتى ارتدوا الى الملكية ثم رجعوا فلم يقبلوا وكان مرقس البطرك المذكور ذا همة ومروءة عاقلا رزينا حازما يحسن السياسة والتدبير وكان جليلا مهيبا مقبول الكلمة واحترقت فى أيامه كنيسة أبو مرقوره وخلا بعد موته الكرسى سبعة وعشرين يوما ثم أقيم يوحنا بن أبى غالب وهو رابع سبعهم من أهالى مصر وكل بالاسكندرية وكان من طائفة التجار يتردد الى اليمن فى البحر حتى كثر ماله وكان معه مال لأولاد الخباب فاتفق أنه غرق فى البحر الاحمر وذهب جميع ماله ونجا بنفسه الى القاهرة وقد أيس أولاد الخباب من مالهم فلما بلغهم خبر حضوره قابلوه فأعلمهم أن مالهم قد سلم لانه كان قد جعله فى نقائر خشب مسمرة فى المركب فصار لهم به من هذا الحين عناية

كبرى فلما مات مرقس البطرك سعى يوحنا المذكور للقس أبى ياسر ليولسه بطركا قيل فقال له أولاد الخباب خذ أنت البطركية ونحن نزكيك فوافقهم يوحنا على ذلك فسعوا له وأقاموه بطركا فشق الامر على أبى ياسر وهجره بعد صحبة طويلة وكان معه لما استقر فى البطركية سبعة عشر ألف دينار مصرية أنفقها على الفقراء وأبطل الديابية ومنع الشرطونية ولم يأكل لأحد خبزا ولم يقبل من أحد هدية حتى مات رحمه الله تعالى

ولما مات الخليفة الحاكم بأمر الله قام بالخلافة بعده ولده أبو الربيع سليمن ولقب بالمستكفى بالله وكان أبوه قد عهد اليه بالامر قبل وفاته فبويع بغير خلاف ولا جدال

(الفصل الثالث)

(فى خلافة المستكفى بالله أبو الربيع سليمن بن الحاكم بامر الله)

ثم قام بالامر بعد الحاكم بأمر الله ولده المستكفى بالله أبو الربيع سليمن بن الحاكم بامر الله بويع له فى العشرة الاواخر من جمادى الاولى سنة احدى وسبعمائة هجرية أى سنة احدى وثلثمائة وألف ميلادية وخطب له على المنابر بالديار المصرية والشامية وسارت البشائر بذلك الى جميع الاقطار والممالك الاسلامية • قال ابن كثير قدم البريد من القاهرة سادس عشر جمادى الآخرة فأخبر بوفاة أمير المؤمنين الحاكم بامر الله ومبايعة المستكفى وانه حضر جنازته الناس كلهم مشاة فخطب يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة للخليفة المستكفى بجامع دمشق وكتب له تقليد بالخلافة وقرئ بحضرة السلطان والدولة يوم الاحد العشرين من ذى الحجة ولم يكن السلطان أمضى له عهد والده حتى سأل الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد وهو قاضى القضاة يومئذ هل يصلح للخلافة أم لا فقال الشيخ تقى الدين نعم يصلح قال وانما احتيج الى ذلك لانه كان صغير السن لم يبلغ عشرين سنة فان مولده كان فى أربع وثلاثين وستمائة وكان له ابن أخ أسن منه فكان ينازعه الامر فلما أشار الشيخ باستقلاله أمضى عهد والده فكان العهد هكذا

الحمد لله الذى رفع المستكفى به لما انتصب بشريف همته للمحل الاسمى • ومنح الأمة بمبايعه خفض العيش وجزم أمرهم على الصلاح والتوفيق جزما • وأدام الائمة من قريش وتلم لا لىّ حكم أحكامهم فى جيد الزمان نظما • وجعل الناس تبعا لهم فى هذا الامر نفخرهم بالخلافة العظمى لايدى ولا يسمى • فالحاكم المحسن المسترشد المستظهر بخيرة الدين القائم بأمر الله القادر المقتدر الموفق المتوكل المعتصم الرشيد المهدى الكامل من اقتفى لسنن سنتهم رسما • استودع الخلافة فى بنى العباس الذى كان لنبيه الكريم عما •

وفرج عنه ليلة العقبة بمبايعة الانصار كربا وغما • فبشره بأن الخلافة فى عقبه فمه
بالسرور عما • فلما انتهى ذلك السر فى العوالم الى الحاكم قيل وقد نكبت هيئة الخلافة
عن معرفته حقوقها العظيم من كل عظيم ففهمناها سليمن وكلا آتينا حكما وعلما • أحمده
حمد من لم يثن عن طاعته وطاعة رسوله وأولى الأمر عزما • والله يؤتيها من يشاء من خلقه
اختيارا ورغما • وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى دعا الى مودة أولى القربى وهم أفضل
قرابة زكاة وأقرب رحما • صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وخلفائه وعترته الذين هم أعدل
البرية حكما • وبعد فان الملك السلام منذ أسجد لآدم ملائكته الكرام فى سالف الازمان
قدما • جعل طاعة خلفائه فى بلاده على سائر عباده حقا كيف لا وبهم يعمر الوجود وتقام
الحدود وتهدم أركان الجور هدما • فحياتهم تأمن البلاد وربما تصادف قرب وفاتهم أن
لبس القمر ليلة التم حلة السواد وأخفى جرما • ولما كان سنة من تقدم من الائمة الخلفاء اذا
خاف أن يهجم عليه الحمام هجما • ولاتهلى اليه الايام ألما وسقما • تفويض الامر وولاية
العهد الى الخلق لخير ذريته وبنيه نجدة وحزما • أشهد على نفسه الشريفة مولانا الامام
الحاكم الحاكم عليه تقواه • المراقب لله فى سره ونجواه • الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين
وخليفة رب العالمين • ابن عم سيد المرسلين وارث الخلفاء الراشدين • أبو العباس أحمد ابن
الأمير الحسن بن أمير المؤمنين المسترشد بالله أبى منصور الفضل ابن أمير المؤمنين المستظهر
بالله أبى العباس أحمد ابن أمير المؤمنين أبى القاسم عبد الله ابن المرحوم الذخيرة للدين ولى
عهد المسلمين محمد ابن الامام القائم بأمر الله أبي عبد الله محمد بن القادر بالله أبى العباس
أحمد ابن أمير المؤمنين أبى الفضل جعفر المقتدر بالله ابن أمير المؤمنين المعتضد بالله أبى
العباس ابن الأمير محمد الموفق بالله أبى طلحة ولى عهد المسلمين ابن أمير المؤمنين جعفر
المتوكل ابن أمير المؤمنين أبى اسحق محمد المعتصم بن هرون الرشيد ابن أمير المؤمنين محمد
ابن أمير المؤمنين عبد الله حبر الأمة بن عباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم
أعز الله به الدين • وأمتع ببقاء نسله الشريف الاسلام والمسلمين • وهو فى حالة يسوغ معها
الاشهاد عليه • ويرجع فى الامور المنوطة للخلافة الشريفة اليه • أنه عهد الى ولده لصلبه
الامام المستكفى بالله أبى الربيع سليمن شيد الله به أركان الايمان • ونصر ببركة سلفه
العصابة المحمدية على أهل الكفر والطغيان • وجعله ولى عهده واستخلفه من بعده لما يعلمه
من أهليته • وعدالته وكفالته وصلاحه لذلك وكفايته • وأشخصه لشهود هذا المكتوب
الشريف • ونبه على استحقاقه لذلك وعلى العالى المنيف • عهدا صحيحا شرعيا • معتبرا
تاما مرعيا • وفوض اليه أمر الخلافة العظيمة تفويضا شرعيا صريحا • وعقد له عقد
ولاية العهد على الامة عقدا صحيحا • وقبل ذلك منه القبول الشرعى • المعتبر المرضى •
فالله تعالى يجمع به كلمة الاسلام • ويصحبه فى خلافته الشريفة رأيا موفقا ويقمع ببركة
سلفه الكرام أهل الطغيان • ويهيئ له من أمره مرفقا بمنه وكرمه آمين • والحمد لله رب



العالمين • وصلواته على سيد المرسلين • نبيه وآله وصحبه أجمعين • وبه شهد فى اليوم المبارك التاسع عشر من جمادى الاولى سنة احدى وسبعمائة أحسن الله العقبى فى ختامها • وأجرى الخيرات فيما بقى من شهورها وأيامها اه

ولما بايعه السلطان والقضاة والاعيان ألبس جبة سوداء وطرحة سوداء وخلع السلطان على أولاد أخيه خلع الامراء وأشهد عليه أنه ولى الملك الناصر جميع ما ولاه والله وفوض اليه جميع الامور ثم نزل فى داره بالكبش ونقش اسمه على سكة الدينار والدرهم ثم رسم السلطان بعد ذلك أن ينتقل هو وأولاده وجميع من يلوذ به الى قلعة الجبل اكراما لهم وتعظيما فانتقلوا فى جمادى الآخرة ونزلوا فى دارين منها وأجرى عليهم الرواتب الكثيرة واستمر هو والسلطان دهرا كالاخوين يلعبان بالاكرة ويخرجان الى المتنزهات ويسافران معا الى غزو التتار حتى وشى الواشى بينهما وكان من أمرهما ماسيذكر فى محله ان شاء الله

ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة نزل بديار مصر نازلة لم يسبق لها مثيل فقد زلزلت الارض زلزالا عظيما فانشقت الصخور وهدم كثير من المبانى والدور بمصر والقاهرة والاسكندرية وغيرها ومات خلق كثير تحت الردم ودمرت من أسوار مدينة الاسكندرية ستا وأربعين بدنة وكانت القتلى تئن وتستغيث تحت الردم والناس فى دهشة لايلتفتون اليهم بل كل مشغول بنفسه قال كاتب الاخبار فكانت ساعة يالها من ساعة تشيب من هولها الولدان وبقيت الخرائب دهرا فكانوا اذا أرادوا حمل ما انهال من ترابها ظهرت جثث النساء والرجال والاطفال على هيئات مختلفة تتفطر من رؤيتها القلوب واستمروا على هذا أياما كثيرة وعم الخوف الناس وأخذ من قلوبهم وتطيروا من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون فانحرفت قلوبهم عنه وتطاولت أيدى بعض الامراء الى العبث بأمور المملكة وظهر سلار نائب المملكة وبيبرس الجاشنكير أستاذ الدار واستبدا بالأمر وتجاوزا الحد فى الانفراد بالاموال والأمر والنهى ولم يتركا للسلطان غير الاسم وحصراه فى قلعة الجبل أياما كثيرة حتى قبل جميع ما طلباه صاغرا وكان كلما هم بالخلاص صادفه من الشدة ما يقصده وطال عليه الحال فلما كان شهر رمضان سنة ثمان وسبعمائة أظهر الرغبة فى الخروج الى الحج وأخذ فى التأهب والاستعداد وخرج فى الخامس والعشرين منه فرافق خدمته جماعة من الامراء هم عز الدين ايدمر الخطيرى والامير حسام الدين قرا لاجين والامير سيف الدين آل ملك وغيرهم فسار الى الكرك ووصل اليها فى عاشر شوال وكان النائب بها جمال الدين أقوش الاشرفى فعمل الولائم واحتفل بالسلطان احتفالا عظيما فعبر السلطان الى المدينة ثم الى القلعة قال بعض الكتاب ولما عبر على الجسر الى القلعة والامراء تمشى بين يديه والمماليك حوله وخلفه سقط جسر القلعة وقد أصيبت يد فرس السلطان وهو راكب داخل عتبة الباب فلما أحس الفرس بسقوط الجسر أسرع حتى كاد أن يدوس الامراء الماشين بين يديه وسقط فى الخندق من المماليك وأهل الكرك عدد كثير ونزل فى

الوقت

الوقت السلطان عند الباب وأمر فأحضروا الجنبات والحبال ورفعوا الذين سقطوا فى الخندق جميعا * ولما استقر به المقام أمر من كان معه من الامراء بالرجوع الى مصر وكاشفهم على أنه انما أظهر السفر الى الاقطار الحجازية وسيلة الى المقام بالكرك وعدم العود الى مصر تخلصا من فعال سلار و بيبرس الجاشنكير فراجعه الامراء فى ذلك فلم يقبل وأصر على البقاء بالكرك فعاد الامراء الى مصر وأعلموا من بها بالخبر وتشاوروا فيما بينهم واتفقوا على أن يولوا السلطنة بيبرس الجاشنكير وأن يكون سلار مستمرا على نيابة المملكة كما كان عليها وحلفوا جميعا على ذلك

فلما كان يوم السبت الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وسبعمائة خرج بيبرس من داره راكبا فى شعار السلطنة وحوله الامراء والمماليك على اختلاف طبقاتهم وأمامه الجنائب السلطانية وسار الى الديوان الكبير بقلعة الجبل وجلس على سرير الملك ولقب بالملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصورى وطير الخبر الى نواب السلطنة بالشام فحلفوا له وكتب تقليدا الى السلطان بالكرك ودستورا بما عينه له من الاقطاع وأرسلهما اليه * قال كاتب الاخبار واستقر الحال على ذلك بلا منازع حتى خرجت هذه السنة فكانت مملكة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية نحو العشرين سنة * ولما استقر بيبرس المنصب استبد بالامر وأساء التدبير وأظهر الشدة والجفاء لكثير من الامراء فانحرفت خواطرهم وابتعدوا عنه وظهرت بينهم دلائل الوحشة والنفور ونزح عن مصر منهم جمال الدين أقوش الموصلى المعروف بقتال السبعة وهو من مماليك بدر الدين بن لؤلؤ صاحب الموصل وكذلك لاجين الجاشنكير المعروف بالزرتاح ومعهما زهاء ألفى فارس من عسكر مصر وبعض من عسكر حماة قاصدين حلب فدخلوها وكان نائب السلطنة فيها يومئذ قرا سنقر المنصورى واتفق أن حضر أيضا جماعة من عسكر دمشق مع الحاج بهادر الظاهرى فسرّ قرا سنقر بقدومهم وعمد الى تمهيد السبل لارجاع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الى كرسى السلطنة فجعل يستميل الناس الى طاعة السلطان ويستعدهم لنصرته وخرج أيضا جماعة من المماليك على جيبة وغيظ مفارقين طاعة بيبرس المذكور وساروا الى السلطان بالكرك وأعلموه بما عليه الناس من طاعته ومحبته وبغضهم لبيبرس فتقوت عند ذلك آمال السلطان وأعاد خطبته بالكرك ووردت اليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه وأنهم باقون على طاعته وكذلك وردت اليه المكاتبات من حلب فسار عن معه من الكرك فى جمادى الآخرة الى قرية عمان وهى قريب من رأس الماء ونزل بها فجاءه أحد مماليك قرا سنقر نائب السلطنة بحماة برسالة مكذوبة على قرا سنقر الى السلطان بعدم تعويله على ما وردت به كتب أولئك الطائفين وسرعة رجوعه الى الكرك فصدق السلطان هذا الخبر وظنه حقا وعاد مسرعا الى الكرك فمن معه من العساكر واستمرت العساكر مع ذلك على طاعته واستدعائه واختلت فى هذه الفترة حكومة بيبرس



أو كادت وجاهره الناس بالعداوة وأظهروا الخلاف وانعكست الأمور عليه وخرج أغلب الجند عن الطاعة فرحل من كان بحماة من الجند والعساكر بغير دستور ولا مرسوم ولم يبق بحماة الا بعض العسكر المصرى * ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العسكر له وخروجهم عن طاعة بيبرس وبقاء العسكر الشامى جميعه على الاخلاص والولاء عاود المسير الى دمشق وخرج من الكرك وخرجت عساكر دمشق الى لقائه وكان نائب السلطنة بدمشق أقوش الافرم وهو من الطائعين لبيبرس فلما لم يقدر على منع العسكر من الخروج هرب من دمشق فدخلها السلطان فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان من السنة وهيئت له قلعة دمشق فلم ينزل بها ونزل بالقصر الابلق فأرسل الافرم اليه يطلب الامان فأمنه فقدم الى طاعته وتتابع وصول العسكر لنجدة السلطان من حماة والساحل ووردت عساكر الشام جميعا فلما تكاملوا رسم لهم السلطان بالتأهب للسير الى ديار مصر وأرسل الى الكرك فأحضر ما كان بها من الحواصل وأنفق فى العسكر ثم سار بهم من دمشق فى يوم الثلاثاء تاسع رمضان سنة ثمان وسبعمائة * فلما بلغ بيبرس الجاشنكير ونائبه بمصر مافعله السلطان خافا جدا وجرد بيبرس عسكرا عظيما مع الامير برلغى وغيره من المقدمين فساروا الى الصالحية وأقاموا بها وكان برلغى المذكور من أكبر أصحاب الجاشنكير وأعزهم اليه وسار السلطان بجيشه حتى وصل غزة فى يوم الجمعة تاسع عشرى رمضان فلم يشعر عسكر مصر بوصول السلطان الى غزة حتى أخذوا يتقدمون له بالطاعة فريقا بعد فريق وكان ممن قدم له الطاعة أيضا برلغى قائد الجيوش وغيره من المقدمين وكثير من العساكر ثم تتابعت الطلاب وكان السلطان يلتقى فى كل يوم وهو سائر طلبا بعد طلب من الامراء والمماليك والاجناد يقبلون الارض ويسيرون بين يديه قاصدين الديار المصرية ووردت الاخبار بذلك الى بيبرس فأسرع فى خلع نفسه وسير ركن الدين بيبرس الدوادار ومعه بهادرآص الى السلطان فى طلب الامان وأن يتصدق عليه ويعطيه اما الكرك واما حماة أوصهيون وأن يكون معه ثلثمائة مملوك من مماليكه فأجابه السلطان الى مائة منهم وأن يعطيه صهيون وأسرع مع ذلك فى المسير الى مصر فهرب الجاشنكير من قلعة الجبل الى الصعيد وخرج سلار الى طاعة السلطان والتقاه يوم الاثنين الثامن والعشرين من رمضان قاطع بركة الحاج وتقدم نحوه ثم ضرب للسلطان الدهليز بالبركة فلم ينزل به ورحل فى نهاره ومعه العسكران الشامى والمصرى فوصل الى قلعة الجبل من يومه وصعد اليها وجلس على سرير الملك بعد العصر فى نهار الاربعاء مستهل شوال سنة تسع وسبعمائة فكانت هذه أيضا سلطنته الثالثة

وفى يوم الجمعة ثالث شوال وهو اليوم الثالث من دخول السلطان القاهرة سار سلار من قلعة الجبل الى الشوبك بحكم من السلطان حيث أنعم بها عليه وأعطى سيف الدين قبيق حلبا واسترجع منه حماة فقام اليها وقام معه عسكر حماة ورسم الامير أقوش الافرم

بصرخد

بصرخد فسار اليها وقرر نيابة السلطنة بالشام لشمس الدين قرا سنقر وقرر حماة للحاج بهادر الظاهرى ثم استرجعها منه وقرره على نيابة السلطنة بالحصون والفتوحات بعد عزل استدمر عنها وقرر الامير سيف الدين بكتمر الجوكندار فى نيابة السلطنة بمصر ورتب جميع الامور على ما أراد ودانت له الاحوال فجعل يتصرف فيها • أما بيبرس الجاشنكير فانه لما هرب الى الصعيد وكان قد أخذ معه شيأ كثيرا من الاحمال والاموال أرسل السلطان فاسترجع منه ما أخذه وضيق عليه فقصد المسير الى صهيون حسبما كان طلب فسار من اطفيح الى السويس ومنها الى الصالحية ثم سار منها الى أن وصل الى موضع بأطراف غزة يسمى العنصر قرب الداروم وكان قرا سنقر متوجها الى دمشق نائبا بها على ما استقر عليه الحال فوصل اليه مرسوم السلطان بالقبض على بيبرس المذكور فركب قرا سنقر فى الحال وكبس عليه بالمكان المذكور وقبض عليه وسار به الى مصر حتى وصل الى الخطارة فبعث اليه السلطان باستدمر الكرجى وتسلم منه بيبرس وأخذه الى قلعة الجبل واعتقله فيها وذلك فى يوم الخميس رابع عشر ذى القعدة سنة تسع وسبعمائة فكان آخر العهد به وكانت مدة سلطنته أحد عشر شهرا لاغير • قال كتاب الاخبار وبيبرس هذا هو الذى بنى البيبرسية بالدرب الاصفر ودفن بها وجدد جامع الحاكم بعد الزلزلة التى سبق الكلام عنها فى حينها • وانتظمت للملك الناصر الأمور واستقرت له الاحوال فتصرف واستبد بالامر وأنشأ العمارات العظيمة فى سنة عشرين وسبعمائة منها الميدان المعروف بميدان المهاوى المجاور لقناطر السباع وعمد الى بناء زريبة فى التل الاعظم بجوار الجامع الطيبرسى فرسم بنقل كوم تراب كان هنالك وحفر ماتحته من الطين لاجل بناء الزريبة وأجرى الماء الى مكان الحفر فصار يعرف بالبركة الناصرية وكان الشروع فى حفر البركة المذكورة سنة احدى وعشرين وسبعمائة • قال أصحاب التاريخ فلما انتهى الحفر الى جانب كنيسة الزهرى (كانت هنالك كنيسة تسمى كنيسة الزهرى بالقرب من قناطر السباع فى بر الخليج الغربى غربى باب اللوق وكان بها كثير من النصارى لايزالون فيها وبجانبها عدة كنائس فى الموضع الذى يعرف بحكر اقبغا مابين السبع سقايات وبين قنطرة السد خارج مدينة الفسطاط) أخذ الفعلة فى الحفر حول كنيسة الزهرى حتى بقيت قائمة فى وسط الموضع الذى عينه السلطان للحفر وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة ومع ذلك لم تسقط وصار العامة من غلمان الامراء العاملين فى الحفر وغيرهم فى كل وقت يصرخون فى طلب هدمها الى أن كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة وترك أعمال الحفر فتجمع عدة من غوغاء العامة بغير مرسوم من السلطان وصاحوا بصوت مرتفع الله أكبر ووضعوا أيديهم بالمساحى وقصوها فى الكنيسة المذكورة وهدموها حتى بقيت كوما وقتلوا من كان فيها من النصارى وأخذوا جميع ما كان بها من أوانى الذهب والفضة والحلى وغيره من الاشياء الثمينة ثم تطاولت أيديهم الى الكنائس الاخرى فهدموا كنيسة بومينا التى كانت بالحمراء وكانت معظمة جدا من قديم الزمان وبها كثير من

المسيحيين قد انقطعوا فيها وكان يحمل اليهم بها من مصر سائر مايحتاج اليه ويبعث اليها بالنذور الجليلة والصدقات الكثيرة فوجد فيها مال كثير من نقود ومصوغات وتسلق العامة الى أعلاها وفتحوا أبوابها وأخذوا منها مالا وقماشا وغيره فكان أمرا مهولا للغاية ثم مضوا من كنيسة الحمراء بعد ماهدموها الى كنيستين أخريين بجوار السبع سقايات تعرف احداهما بكنيسة البنات وكان بها كثير من الراهبات المتعبدات وعدة من الرهبان فكسروا أبواب الكنيستين وسبوا البنات سبيا وكن زيادة عن ستين بنتا وأخذوا ماعليهن من الثياب ونهبوا سائر ماظفروا به وأحرقوا وهدموا تلك الكنائس كلها • قال المقريزى هذا والناس فى صلاة الجمعة فعندما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولا كبيرا من كثرة الغبار ودخان الحريق وهرج الناس وشدة حركتهم ومعهم مانهبوه من الامتعة فكان ذلك اليوم أشبه بيوم القيامة وانتشر الخبر وطار الى الرميلة تحت قلعة الجبل فسمع السلطان ضجة عظيمة أفزعته فبعث ليكشف الخبر فلما بلغه ماوقع انزعج انزعاجا عظيما وغضب من تجرى العامة واقدامهم على ذلك بغير أمره وأمر الامير ايدغمش أمير اخور أن يركب بجماعة الاوشاقية ويتدارك هذا الخلل ويقبض على من فعله فأخذ ايدغمش يتهيأ للركوب واذا بخبر قد ورد من القاهرة أن العامة ثارت فى القاهرة وخربت كنيسة بحارة الروم وكنيسة بحارة زويلة وجاء الخبر من مدينة مصر أيضا بأن العامة قامت بمصر فى جمع كثير جدا وزحفت الى كنيسة المعلقة بقصر الشمع فقفلها الموكلون بها وهم محصورون بها وهى على وشك أن تؤخذ فتزايد غضب السلطان وهم أن يركب بنفسه ويبطش بالعامة فراجعه الامير ايدغمش فتأخر ونزل من القلعة فى أربعة من الامراء الى مصر وركب الامير بيبرس الحاجب والامير ألماس الحاجب الى موضع الحفر وركب الامير طينال الى القاهرة وكل منهم فى صحة وافرة وقد أمر السلطان بقتل كل من قدروا عليه من العامة بحيث لايبقوا على أحد فقامت القاهرة ومصر على ساق وفرت النهابة فلم يظفر الامراء منهم الا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخمر الذى نهبوه من الكنائس ولحق الامير ايدغمش بمصر وقد ركب الوالى الى المعلقة قبل وصول ايدغمش ليخرج من نطاق المعلقة من حضر للنهب فأخذه الرجم حتى فر منهم ولم يبق الا أن يحرق باب الكنيسة فجرد ايدغمش ومن معه السيوف يريدون الفتك بالعامة فوجدوا عالما لا يحصر وخاف سوء العاقبة فأمسك عن القتل وأمر أصحابه بارجاف الناس من غير اهراق دم ونادى مناديه من وقف حل دمه ففر سائر من اجتمع من العامة وتفرقوا وصار ايدغمش واقفا الى أن أذن العصر خوفا من عود العامة ثم مضى وألزم والى مصر أن يبيت بأعوانه هنالك وترك معه خمسين من الاوشاقية • أما الامير ألماس فانه وصل الى كنائس الحمراء وكنائس الزهرى ليتداركها فاذا بها قد صارت كيمانا ليس بها جدار قائم فعاد وعاد الامراء فردوا الخبر على السلطان وهو لايزداد الاحنقا فما زالوا به حتى سكن غضبه قال الراوى وكان الامر فى هدم هذه الكنائس من أعجب العجب وهو أن الناس لما كانوا فى صلاة

الجمعة

الجمعة من هذا اليوم بجامع قلعة الجبل فعند ما فرغوا من الصلاة قام رجل موله وهو يصيح في وسط الجامع اهدموا الكنيسة التى فى القلعة اهدموها وأكثر من الصياح المزعج حتى خرج عن الحد ثم اضطرب فتعجب السلطان والامراء من قوله ورسم لنقيب الجيوش والحاجب بالفحص عن ذلك فمضيا من الجامع الى خرائب التتار من القلعة فاذا فيها كنيسة بنيت فهدموها قال ولم يفرغوا من هدمها حتى وصل الخبر بوقعة كنائس الحمراء والقاهرة فكثر تعجب السلطان من شأن ذلك الفقير وطلبه فلم يوقف له على خبر اه ولما شاع خبر الكنيسة التى كانت بخرائب التتار بقلعة الجبل وما جرى عليها بأمر السلطان ثار العامة وهدموا كنائس الزهرى وكنائس الحمراء وغيرها من كنائس القاهرة وحرقوا وقتلوا وسبوا ونهبوا وفعلوا من الفظائع مالا يقع تحت حصر وكان الذى هدم فى ذلك اليوم من الكنائس بالقاهرة كنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكنيستين بحارة زويلة ثم جاءت الاخبار أيضا من مدينة الاسكندرية بأن العامة هدمت بها أربع كنائس وكنيستين بمدينة دمنهور وست كنائس بمدينة قوص وما حولها من العمائر وتواترت الاخبار من الاقاليم القبلية والبحرية بكثرة ما هدم من الكنائس والديارات فى جميع أعمال مصر ما بين قوص والاسكندرية ودمياط وغيرها فكانت شدة عظيمة الغاية

ولم تكن لتسكن خواطر الناس حتى ظهر الحريق فى القاهرة ومصر فى عدة مواضع فوقع الحريق فى ربع بخط الشوائين من القاهرة فى يوم السبت عاشر جمادى الاولى وسرت النار الى ما حوله واستمرت الى آخر يوم الاحد فتلف فى هذا الحريق شئ كثير وعند ما أطفئ وقع الحريق بحارة الديلم فى زقاق العريسة بالقرب من دار كريم الدين ناظر الخاص فى خامس عشر جمادى الاولى وكان يوما شديد الريح فسرت النار من كل ناحية حتى وصلت الى بيت كريم الدين وبلغ ذلك السلطان فانزعج لما كان هنالك من الحواصل السلطانية وسير طائفة من الامراء لاطفائها فجمعوا الناس لذلك وتكاثروا عليها وقد عظم الخطب من ليلة الاثنين الى ليلة الثلاثاء فتزايد اشتعال النار وعجز الامراء والناس عن اطفائها لكثرة انتشارها فى الاماكن وقوة الريح التى قلعت باسقات النخل وغرقت المراكب فلم يشك الناس فى حريق القاهرة كلها وصعدوا المآذن وبرز الفقراء وأهل الخير وضجوا وعجوا وجأروا وكثر صراخ الناس وبكاؤهم وصعد السلطان الى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدة الريح واستمر الحريق والحث يرد على المكلفين بالاطفاء من السلطان الى يوم الثلاثاء فنزل نائب السلطان ومعه جميع الامراء وسائر السقائين ونزل الامير بكتمر الساقى فكان يوما عظيما لم ير الناس أعظم ولا أشد هولا منه ووكلوا بأبواب القاهرة من يرد السقائين اذا خرجوا من القاهرة لاجل اطفاء النار فلم يبق أحد من سقائى الامراء وسقائى البلد الا وعمل وصاروا ينقلون الماء من المدارس والحمامات وأخذ جميع النجارين وسائر البنائين لهدم الدور فهدم فى هذه النوبة ماشاء الله من الدور العظيمة والرباع الكبيرة وعمل فى هذا الحريق أربعة

وعشرون مأمورا من الامراء المقدمين سوى أمراء الطبلخانات والعشراوات والمماليك وعمل الامراء بأنفسهم فيه وصار الماء من باب زويلة الى حارة الديلم فى الشارع بحرا من كثرة الرجال والجمال التى تحمل الماء ووقف بكتمر الساقى والامير أرغون النائب على نقل الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين الى بيت ولده بدرب الرصاصى وخربوا ستة عشر دارا من جوار الدار وما قابلها حتى تمكنوا من نقل الحواصل فما كمل اطفاء الحريق ونقل الحواصل حتى وقع الحريق فى ربع الظاهر خارج باب زويلة وكان يشتمل على مائة وعشرين بيتا وتحته قيسارية تعرف بقيسارية الفقراء وهبت مع الحريق ريح قوية فركب الحاجب والوالى لاطفائها وهدموا عدة دور من حول الربع حتى انطفأت ووقع فى ثانى يوم حريق بدار الامير سلار فى خط بين القصرين ابتدأ من الباذهنج وكان ارتفاعه عن الارض مائة ذراع فوقع الاجتهاد فيه حتى أطفئ فأمر السلطان الامير علم الدين سنجر الخازن والى القاهرة والامير ركن الدين بيبرس الحاجب بالاحتراز واليقظة ونودى بأن يعمل عند كل حانوت دن فيه ماء أو زير مملوء بالماء وان يقام مثل ذلك فى جميع الحارات والازقة والدروب فبلغ ثمن كل دن خمسة دراهم بعد درهم وثمن الزير ثمانية دراهم ووقع حريق أيضا بحارة الروم وعدة مواضع حتى وجدوا هذا الحريق من نفط قد لف عليه خرق مبلولة بزيت وقطران

قال راوى هذا الخبر فلما كانت ليلة الجمعة النصف من جمادى قبض على راهبين خرجا من المدرسة الهكارية بعد العشاء الاخيرة وقد اشتعلت النار فى المدرسة ورائحة الكبريت فى أيديهما فحملا الى الامير علم الدين الخازن والى القاهرة فأعلم السلطان بذلك فأمر بعقوبتهما قال وبينما هو نازل من القلعة واذا بالعامة قد أمسكوا نصرانيا وجد فى جامع الظاهر ومعه خرق فى هيئة الكعك فى داخلها قطران ونفط وقد ألقى منها واحدة بجانب المنبر وما زال واقفا الى أن خرج الدخان فمشى يريد الخروج من الجامع وكان قد فطن به شخص وتأمله من حيث لا يشعر وقبض عليه فتكاثر الناس فجروه الى بيت الوالى وهو بهيئة المسلمين فعوقب عند الامير ركن الدين بيبرس الحاجب فاعترف بأن جماعة من النصارى قد اجتمعوا على عمل نفط وتفريقه مع جماعة من أتباعهم وانه ممن أعطى ذلك وأمر بوضعه عند منبر جامع الظاهر ثم أمر بالراهبين فعوقبا فاعترفا أنهما من سكان دير البغل وانهما اللذان أحرقا المواضع التى تقدم ذكرها بالقاهرة غيرة وحنقا من المسلمين لما كان من هدمهم الكنائس وان طائفة النصارى تجمعوا وأخرجوا من بينهم مالا جزيلا لعمل هذا النفط واتفق وصول كريم الدين ناظر الخاص من الاسكندرية فعرفه السلطان ما وقع من القبض على النصارى فقال النصارى لهم بطرك يرجعون اليه ويعرف أحوالهم فرسم السلطان بطلب البطرك عند كريم الدين ليتحدث معه فى أمر الحريق وما ذكره النصارى من قيامهم فى ذلك فجاء مع والى القاهرة فلما أن دخل بيت كريم الدين بحارة الديلم وأحضروا اليه الثلاثة النصارى من عند الوالى قالوا لكريم الدين بحضرة البطرك والوالى جميع ما اعترفوا به قبل

ذلك فبكى البطرك كثيرا عند سماعه هذا الكلام وقال هؤلاء سفهاء النصارى قصدوا مقابلة
سفهاء المسلمين على تخريب الكنائس وانصرف من عند كريم الدين مجلا مكرما فوجد كريم
الدين قد أقام له بغلة على بابه ليركبها فركبها وسار وأصبح كريم الدين يريد الركوب الى
القلعة على العادة فلما خرج الى الشارع صاح به العامة مايحل لك ياقاضى تحامى النصارى
وقد أحرقوا بيوت المسلمين وتركبهم بعد هذا البغال فشق عليه ماسمع وعظمت نكايته
واجتمع بالسلطان فأخذ يهون عليه أمر النصارى الممسوكين ويذكر أنهم سفهاء وجهال فرسم
السلطان للوالى بتشديد عقوبتهم فنزل وعاقبهم عقوبة شديدة للغاية قال الراوى فاعترفوا بأن
أربعة عشر راهبا بدير البغل قد تحالفوا على احراق ديار المسلمين كلها وفيهم راهب يصنع
النفط وأنهم اقتسموا القاهرة ومصر فجعلوا للقاهرة ثمانمائة ولمصر سبعمائة فكبس دير البغل
وقبض على من فيه وأحرق منهم جماعة منهم أربعة بشارع صليبة ابن طولون فى يوم الجمعة
فاجتمع لمشاهدتهم عالم كثير فاجترأ من ذلك اليوم جمهور الناس على النصارى وفتكوا بهم وصاروا
يسلبون ما عليهم من الثياب حتى فحش الأمر وتجاوزوا فيهم المقدار فغضب السلطان من
ذلك وهم أن يوقع بالعامة واتفق أنه ركب من القلعة يريد الميدان الكبير فى يوم السبت
فرأى من الناس أمما عظيمة قد ملأت الطرقات وهم يضجون نصر الله الاسلام انصر
دين محمد بن عبد الله فجزع من ذلك وعند ماتزل الميدان أحضر اليه الخازن نصرانيين
قد قبض عليهما وهما يحرقان الدور فأمر باحراقهما فأخرجا وأحرقا بمرأى من الناس
وبينماهم فى احراق النصرانيين اذا بدواة الامير بكتمر الساقى قد مر يريد بيت الامير وكان
نصرانيا فعندما عاينه العامة ألقوه عن دابته الى الأرض وجردوه من جميع ما عليه من
الثياب وحملوه ليلقوه فى النار ثم تركوه واتفق مع هذا مرور كريم الدين وقد لبس التشريف
من الميدان فرجمه من هناك رجما متتابعا وصاحوا كم تحامى النصارى وتشد معهم ولعنوه
وسبوه فلم يجد بدا من العود الى السلطان وهو بالميدان وقد اشتد ضجيج العامة وصياحهم
حتى سمعهم السلطان فلما دخل عليه وأعلمه الخبر امتلأ غضبا واستشار الأمراء وكان
بحضرته منهم الامير جمال الدين نائب الكرك والامير سيف الدين الاوبكرى والخطيرى وبكتمر
الحاجب فى عدة أخرى فقال الاوبكرى العامة عمى والمصلحة أن يخرج اليهم الحاجب
ويسألهم عن اختيارهم حتى يعلم فكره السلطان منه ذلك وأعرض عنه فقال نائب الكرك
كل هذا من أجل الكتاب النصارى فان الناس أبغضوهم والرأى أن السلطان لايعمل فى
العامة شيأ وانما يعزل النصارى من الدوان فلم يعجبه هذا الرأى أيضا والتفت الى الامير
ألماس الحاجب وقال له امض ومعك أربعة من الامراء وضع السيف من باب زويلة الى
باب النصر بحيث لاترفع السيف عن أحد البتة وقال لوالى القاهرة اركب الى باب اللوق والى
باب البحر ولاتدع أحدا حتى تقبض عليه وتطلع به الى القلعة ومتى لم تحضر الذين رجموا
وكيلى يعنى كريم الدين والا وحياة رأسى شنقتك عوضا عنهم وعين معهم عدة من المماليك

السلطانية فخرج الامراء بعد ما تلكؤا فى المسير حتى اشتهر الخبر فلم يجدوا أحدا من الناس حتى ولا غلمان الامراء ولا حواشيهم ووقع القول بذلك فى القاهرة فغلقت الاسواق وتفرق الناس واختفوا وسار الامراء فلم يجدوا فى طول طريقهم أحدا الى أن بلغوا باب النصر وقبض الوالى من باب اللوق وناحية بولاق على كثير من الكلابزية والنوتية وأسقاط الناس فاشتد الخوف وعدّى كثير من الناس الى البر الغربى بالجيزة وخرج السلطان من الميدان فلم يجد فى طريقه الى أن صعد قلعة الجبل أحدا من العامة فلما استقر بالقلعة سير الى الوالى يستعجل حضوره فما غربت الشمس حتى أحضر من أمسك من العامة نحو مائتى رجل فعزل منهم طائفة أمر بشنقهم وجماعة رسم بتوسيطهم وجماعة رسم بقطع أيديهم فصاحوا جميعا يا خوند مايحل لك ماتحن الذين رجمنا فبكى الأمير بكتمر الساقى ومن حضر من الامراء رحمة لهم وما زالوا بالسلطان الى أن قال للوالى اعزل منهم جماعة وانصب الخشب من باب زويلة الى تحت القلعة بسوق الخيل وعلق هؤلاء بأيديهم فلما أصبح يوم الاحد علق الجميع من باب زويلة الى سوق الخيل وكان فيهم من له بزة وهيئة ولم يفتح أحد من أرباب الحوانيت بالقاهرة ومصر فى هذا اليوم حانوتا ● وجلس السلطان فى الشباك وقد أحضر بين يديه جماعة ممن قبض عليهم الوالى فقطع أيدى وأرجل ثلاثة منهم والامراء لايقدرون على الكلام معه فى أمرهم لشدة حنقه فتقدم كريم الدين وكشف رأسه وقبل الارض وهو يسأل العفو فقبل سؤاله وأمر بهم أن يعملوا فى حفير الجيزة فأخرجوا وقد مات ممن قطع أيديهم اثنان وأنزل المعلقون من على الخشب وعند ما قام السلطان من الشباك وقع الصوت بالحريق فى جهة جامع ابن طولون وفى قلعة الجبل وفى بيت الامير ركن الدين الاحمدى بحارة بهاء الدين وبالفندق خارج باب البحر من المقس وما فوقه من الاربع واستمر الحريق فى الاماكن الى يوم السبت فلما ركب السلطان الى الميدان على عادته وجد خلقا كثيرا جدا من العامة قد صبغوا خرقا من القماش بلون أزرق وعملوا فيها صلبانا بيضا وعند ما رأوا السلطان صاحوا بصوت عال واحد لا دين الادين محمد بن عبد الله يا ملك الناصر يا سلطان الاسلام انصرنا على أهل الكفر ولا تنصر النصارى فتعجب السلطان من فعالهم وسار حتى نزل بالميدان وصراخ العامة لا يبطل ولم يستقر به المقام حتى أمر الحاجب أن يخرج وينادى بين يديه من وجد نصرانيا فله ماله ودمه فخرج ونادى بذلك فصاحت العامة وصرخت نصرك الله وضجوا بالدعاء وكان النصارى يلبسون العمائم البيض فنودى فى القاهرة من وجد نصرانيا بعمامة بيضاء حل له دمه وماله ومن وجد نصرانيا راكبا حل له دمه وماله وخرج مرسوم بلبس النصارى العمائم الزرق وأن لايركب أحد منهم فرسا ولا بغلا ومن ركب حمارا فليركبه بلا إكاف عرضا ولا يدخل نصرانى الى الحمام الا وفى عنقه جرس ولا يتزيا أحد منهم بزى المسلمين ومنع الامراء من استخدام المسيحيين وأخرجوا من ديوان السلطان وكتب لسائر الاعمال بصرف جميع المباشرين من

المسيحيين

المسجونين وكثر ايقاع السلطان بهم حتى تركوا السعي في الطرقات ولبث الحال هكذا أياما ثم نودي في الناس بعد ذلك بالأمان وأنهم يتفرجون على عادتهم عند ركوب السلطان الى الميدان وذلك أنهم كانوا قد تخوفوا على أنفسهم لكثرة ما أوقعوا بالمسجونين وزادوا في الخروج عن الحد فاطمأنوا وخرجوا على العادة الى جهة الميدان ودعوا للسلطان وصاروا يقولون نصرك الله ياسلطان الارض اصطلحنا اصطلحنا فأعجب السلطان منهم ذلك وتبسم من قولهم وقد سكنت الخواطر وعادت الامور الى سابق مجراها وكانت هذه الحوادث من أشنع ما حل بمصر خرب فيها من الكنائس كنيسة بخرائب التتر بقلعة الجبل وكنيسة الزهري في الموضع الذي فيه البركة الناصرية وكنيسة الحمراء وكنيسة بجوار السبع سقايات تعرف بكنيسة البنات وكنيسة أبي مينا وكنيسة الفهادين بالقاهرة وكنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكنيستان بحارة زويلة وكنيسة بخزانة البنود وكنيسة بالخندق وأربع كنائس بثغر الاسكندرية وكنيستان بمدينة دمنهور الوحش وأربع كنائس بالغربية وثلاثة بالشرقية وست بالبهنساوية وبأسيوط ومنفلوط ومنية ابن خصيب ثمان كنائس وبقوص وأسوان احدى عشرة كنيسة وبالاطفيحية كنيسة وبسوق وردان من مدينة الفسطاط وبالمصاصة وقصر الشمع من مصر ثمان كنائس وخرب من الديارات شيء كثير * قال بعض أهل التاريخ وأقام دير البغل ودير شهران مدة لايأوي بهما أحد واحترق بالقاهرة ربع في سوق الشوائين وزقاق العريسة بحارة الديلم وستة عشر بيتا بجوار بيت كريم الدين وعدة أماكن بحارة الروم ودار بهادر بجوار المشهد الحسيني وأماكن باسطبل الطارمة وبدرب العسل وقصر أمير سلاح وقصر سلار بخط بين القصرين وقصر بيسري وخان الحجر والجملون وقيسارية الادم ودار بيبرس بحارة الصالحية ودار ابن المغربي بحارة زويلة وعدة أماكن بخط بئر الوطاويط وبالحكر وفي قلعة الجبل وغير ذلك من الاماكن بمصر والقاهرة قال وكانت هذه الخطوب العظيمة في مدة يسيرة الغاية قلما وقع مثلها في الازمان المتطاولة هلك فيها من الخلق وتلف من الاموال وخرب من الاماكن ما لا يمكن وصفه لكثرته والله عاقبة الامور

وبينما كانت هذه الخطوب تتعاقب والناس في خوف مما عليه من مزيد كان الواشون وأصحاب السعاية يوقعون بين الخليفة المستكفي بالله وبين السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وما زالوا يوغرون الصدور حتى أبغض الناصر الخليفة ومال عليه وأخذ يراقب أموره وينتقد أعماله فاشتدت الوحشة بينهما وخرجت سنة ثلاثين وسبعمائة على هذا الحال فأمره السلطان أن ينتقل من القلعة الى مناظر الكبش حيث كان أبوه ساكنا ثم أمره أن يخرج الى بلدة قوص بصعيد مصر فيقيم بها الى ما شاء الله فخرج في ثامن عشر ذي الحجة من سنة سبع وثلاثين هو وأولاده وأهله فكانوا زهاء المائة نفس ورتب لهم ما كان مرتبا لهم بمصر من الكساوي والمأكول فتوجع الناس لخروجه كثيرا * قال الحافظ ابن حجر وكان



طول مدته يخطب له على المنابر حتى فى مدة اقامته بقوص واستمر بها الى أن مات فى شعبان سنة أربعين وسبعمائة ودفن بها • وكان قد عهد بالخلافة قبل موته الى ابنه أحمد وأشهد عليه أربعين عدلا وأثبت ذلك على يد قاضى مدينة قوص فلما بلغ ذلك الملك الناصر لم يلتفت الى العهد المذكور وطلب ابن أخى المستكفى ابراهيم ابن ولى العهد المستمسك بالله أبى عبد الله محمد بن الحاكم بأمر الله أبى العباس وكان جده الحاكم قد عهد الى ابنه محمد ولقب المستمسك بالله فمات فى حياته فعهد الى ابنه ابراهيم هذا ظنا منه أنه يصلح للخلافة فرآه غير صالح لما هو فيه من الانهماك فى اللعب ومعاشرة الارذال فنزل عنه وعهد الى ولده المستكفى وهو عم ابراهيم وكان ابراهيم المذكور قد نازعه لما مات الحاكم فلم يلتفت الى منازعته اعتمادا على قول الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد كما تقدم بيان ذلك فى محله فأقام على ضغينة حتى كان هو السبب فى الوقيعة بين عمه وبين الملك الناصر وجرى ماجرى من تبعيده الى مدينة قوص فلم يمض الملك الناصر عهد المستكفى لولده وبايع ابراهيم هذا يوم الاثنين ثالث رمضان كما سيذكر فى محله ولقب الواثق بالله وراجع الناس السلطان فى أمره ووصموه بسوء السيرة خصوصا قاضى القضاة عز الدين بن جماعة فانه جهد كل الجهد فى صرف السلطان عنه فلم يفعل وما زال بهم حتى بايعوه كرها • قال صاحب حسن المحاضرة ثم ان الله فجع الملك الناصر بموت أعز أولاده الأمير أنوك فكان ذلك أول عقوباته ولم يمتع بالملك بعد وفاة المستكفى فأقام بعده سنة وأياما وأهلكه الله وقد قيل ان وفاة المستكفى كانت سنة احدى وأربعين فعلى هذا لم يتم الحول على الناصر حتى مات بعد ثلاثة أشهر سنة الله فيمن مس من الخلفاء أحدا بسوء فان الله يقصمه عاجلا وما يدخره له فى الآخرة من العذاب أشد قال ثم ان الله انتقم من الناصر فى أولاده فسلط عليهم الخلع والحبس والتشريد فى البلاد والقتل فجميع من ولى الملك من ذريته اما أن يخلع عاجلا واما أن يقتل فأول ولد تولى بعده عوجل بخلعه ونفيه الى قوص حيث كان قد سير الخليفة ثم قتل بها وغالب من ولى من ذريته لم تطل مدته اهـ

ومات الخليفة المستكفى وهو ابن بضع وخمسين سنة بمدينة قوص فكانت خلافته تسعا وثلاثين سنة وكان موته فى شعبان سنة أربعين وسبعمائة كما ذكر

ومات فى أيامه يوحنا بطرك الاسكندرية وكان من الحوادث فى أيامه ماوصفنا من تخريب الكنائس والديارات وقتل الرجال والاطفال وسبى النساء وغير ذلك من الخطوب التى لم يسبق لها مثال فى الايام الغابرة وقد أقام بطركا ستا وعشرين سنة • فلما مات قام أبو الفتوح ابن العياط مع السلطان الملك الناصر فى ولاية القس داود بن يوحنا بن لقلق الفيومى فانه كان خصيصا به فأجابه السلطان الى ذلك وكتب توقيعه فشق ذلك على المسيحيين وقام منهم الاسعد بن صدقة كاتب دار التفاح بمصر ومعه جماعة وتوجهوا مصرا ومعهم الشموع الى تحت قلعة الجبل حيث كان يسكن السلطان واستغاثوا وأوقعوا

فى القس داود وقالوا انه لايصلح وفى شريعتنا أنه لا يقوم البطرك الى هذا المسند الا باتفاق الجهور عليه فبعث السلطان يطيب خواطرهم وكان القس المحكى عنه قد ركب بكرة ومعه لفيف الاساقفة وخلق كثير من المسيحيين ليقدموه بكنيسة المعلقة بمصر وذلك يوم الاحد فركب السلطان من قلعة الجبل وأوقف ولاية القس المذكور وبعث فى طلب الاساقفة لتحقيق الامر فوافتهم الرسل مع القس فى الطريق فأخذوهم فدخل القس عندئذ فى كنيسة فى الطريق وبطلت رسالته يومئذ فأقام المتأصلون بغير بطرك تسع عشرة سنة ومائة وستين يوما وكان بعد ذلك من أمرهم ما سيذكر فى محله

(الفصل الرابع)

(فى خلافة ابراهيم الواثق بالله ابن ولى العهد المستمسك بالله)

لما مات الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله طلب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ابن أخى المستكفى ابراهيم ابن ولى العهد المستمسك بالله أبى عبد الله محمد بن الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد وبايعه بالخلافة فى يوم الاثنين ثالث رمضان سنة ست وأربعين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وثلثمائة ميلادية رغما عما بدا من قاضى القضاه عز الدين بن جماعة من صرف السلطان عنه وما زال السلطان بالناس حتى بايعوه فى السنة المذكورة واستقرت له الخلافة فبالغ السلطان فى تعظيمه وقربه اليه واختص به ورتب له الرواتب الكثيرة نكاية فى ولد المستكفى والمتحزبين له وما زال على هذا الحال والناس فى خلافته على قسمين حتى مرض السلطان الملك الناصر ومات فى يوم الاربعاء سابع عشرى ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة ولاختلاف الامراء وتباين أغراضهم لم يتفقوا على الذى يولونه السلطنة من بعده فاشتغلوا بذلك وتركوا السلطان المتوفى ليلة فى قلعة الجبل بغير دفن حتى تم الامر لابنه أبى بكر المنصور فى يوم الخميس ثم أخذوا فى تجهيز السلطان المتوفى فوضع فى محفة بعد العشاء الاخيرة وحمل على بغلين وأنزل من قلعة الجبل الى الاسطبل السلطانى وسار به الامير ركن الدين بيبرس الاحدى أمير جندار والامير نجم الدين والى القاهرة وقطلوبغا الذهبى وعلمدار خوطا بهار الدوادار وعبروا به الى القاهرة من باب النصر وقد أقفلت الحوانيت كلها ومنع الناس من الوقوف للنظر اليه وقدام المحفة شمعة واحدة فى يد علمدار وعبروا به المدرسة المنصورية بين القصرين ليدفن عند أبيه الملك المنصور قلاوون وكان الامير علم الدين سنجر الجاولى ناظر المارستان قد جلس ومعه القضاة الاربعة وشيخ الشيوخ ركن الدين شيخ خانقاه سرياقوس والشيخ ركن الدين عمر بن

الشيخ ابراهيم الجعبرى حطت الجفة وأخرج منها ووضع تجاه الفسقية التى بالقبة وأمر ابن أبى الظاهر مغسل الاموات بتغسيله فغسله وكفن فى نصيفة وعملت له أخرى طراحة ومخدة ووضع فى تابوت من خشب وصلى عليه قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بن جماعة الشافعى بمن حضر وأنزل الى قبر أبيه فى مصلية من خشب وقد ربطت بحبل ونزل معه الى القبر الغاسل الامير سنجر الجاولى . قلت فسبحان من لا يحول ولا يزول انظر كيف ملك كثيرا من المعمور من الارض ومات غريبا وغسل طريحا ودفن وحيدا ان فى ذلك لعبرة لقوم يتبصرون ❁ قال بعض كتاب الاخبار ومات الملك الناصر وليس له نائب بديار مصر ولا حاجب متصرف وكان أبيض اللون قد وخطه الشيب وفى عينيه حول وبرجله اليمنى أثر شوكة تنغص عليه أحيانا وتؤلمه وكان لايكاد يمس بها الارض ولا يمشى الا متكئا على أحد أو متوكئا على شئ ولا يصل الى الارض الا أطراف أصابعه وكان شديد البأس يتولى الامور بنفسه مهيبا عند أهل دولته اذا وقف الامراء فى خدمته لا يجسر أحد أن يتكلم مع آخر كلمة ولا يلتفت بعضهم الى بعض خوفا منه ولا يمكن أحدهم أن يذهب الى بيت أحد البتة لا فى وليمة ولا غيرها فان فعل أحد منهم شيأ من ذلك قبض عليه وأخرجه من يومه منفيا وكان عارفا بأمور رعيته وأحوال مملكته وأبطل نيابة السلطنة من ديار مصر فى سنة سبع وعشرين وسبعمائة وأبطل الوزارة وصار يتحدث بنفسه فى الجليل من الامور والحقير فعظمت حاشية المملكة وكثرت أتباع السلطنة وتخولوا فى النعم الجزيلة حتى الخولة منهم والكلابزية وكان كثير الاخذ بالشبهات فقتل فى أيامه خلقا كثيرا من الامراء وكان اذا كبر أحد من أمرائه وظهر قبض عليه وسلب نعمته وأقام بدله من صغار مماليكه الى أن يكبر ويعظم أمره فيقبض عليه ويقيم بدله ليأمن بذلك شرهم وكان كثير التخيل والحذر حتى انه اذا تخيل من ولده قتله وفى آخر أيامه عظم شرهه فى جمع الاموال فصادر الكثير من الدواوين القبط والولاة وغيرهم ورمى البضائع على التجار حتى خاف كل من له مال وانكمش وكان مخادعا كثير الحيل لا يقف عند قول ولا يفى بعهد ولا يبر فى يمين وكان محبا للعمارة فعمر عدة أماكن منها جامع القلعة وقد هدمه مرتين وعمر القصر الابلق بالقلعة ومعظم الاماكن التى بالقلعة وعمر المجرى الذى ينقل الماء عليه من النيل الى قلعة الجبل على السور وعمل الميدان تحت القلعة ومناظر سرياقوس والخانقاه بسرياقوس وحفر الخليج الناصرى بظاهر القاهرة وعمر الجامع الجديد على شاطئ النيل بظاهر مصر وجدد جامع الفيلة الذى بالمرصد والمدرسة الناصرية بين القصرين من القاهرة وغير ذلك وما زال يعمر منذ عاد فى ولايته الثالثة الى أن مات . قال بعض كتاب الاخبار وبلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة عنها ثلثمائة وخمسون دينارا سوى من يحضر من المقيدين وغيرهم فى عمل ما يعمره وحفر عدة من الخلجان والترع وأقام الجسور

بالبلاد

بالبلاد حتى انه كان يصرف من الانحياز على ذلك ربع متحصل الاقطاعات وحفر خليج الاسكندرية وبحر المحلة مرتين وبحر اللبيني بالجيزة وعمل جسر شيبين وجسر أبيار بالشرقية والقليوبية مدة ثلاث سنين متوالية فلم ينجح فأنشأه بنيانا بالطوب والجير وأنفق فيه أموالا عظيمة ورالك فى أيامه ديار مصر والشام وغزا عدة غزوات فتح فيها جزيرة ارواد فى سنة اثنتين وسبعمائة وفتح ملطية فى سنة خمس عشرة واناش فى ربيع الاول سنة ثلاث وعشرين وخربها ثم عمرها الارمن فسير لها جيشا عظيما فأخذها وأخذ معها عدة بلاد من بلاد الارمن وذلك سنة سبع وثلاثين وأقام بها نائبا من أمراء حلب وعمر قلعة جعبر بعد خرابها واندثارها وضرب السكة باسمه فى سنة احدى وأربعين فى شوال وخطب له فى ارتنا احدى بلاد الروم وضربت السكة باسمه أيضا وكذلك ببلاد القرمان و بلاد الكرد وكثير من بلاد الشرق وكان من الذكاء المفرط على جانب عظيم يعرف مماليك أبيه ومماليك الامراء بأسمهم ووقائعهم وكان عليّ الهمة كبير السياسة واسع المعرفة بمهادنة الملوك يبذل فى ذلك من الاموال مالا يوصف كثرة فكان كلمه ينفذ أمره فى سائر أقطار الارض وهو مع ذلك مؤيد فى جميع أموره مظفر فى كل أحواله مسعود فى سائر حركاته ❊ وكانت مدة سلطنته فى المرة الثالثة أربعا وأربعين سنة وخمسة عشر يوما خارجا عما بين ذلك قال بعض الكتاب ولما احتضر ندم على ما فعل من مبايعة ابراهيم الواثق بالله ابن ولى العهد المستمسك فأوصى الامراء برد العهد الى ولى عهد المستكفي بالله وخلع بيعة الواثق ❊ فلما استقرت السلطنة لولده أبي بكر المنصور عقد مجلسا يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة وطلب الواثق ابراهيم وولى العهد أحمد بن المستكفي المتوفى بمدينة قوص وسأل القضاة قائلا ❊ من يستحق الخلافة شرعا ❊ فقال ابن جماعة ان الخليفة المستكفي المتوفى أوصى بالخلافة من بعده لولده أحمد وأشهد عليه أربعين عدلا بمدينة قوص وثبت ذلك عندى بعد ثبوته على يد نائبي بمدينة قوص فعند ذلك قام السلطان وخلع الواثق ابراهيم وبايع أحمد وبايعه القضاة كلهم ❊ قال الحافظ ابن حجر ولقب أولا المستنصر ثم لقب الحاكم بأمر الله لقب جده وكتب له ابن فضل الله صورة المبايعة وقد أضربنا هنا عن ايرادها فكانت مدة خلافة الواثق ابراهيم المذكور ثلاثة أشهر وتسعة أيام

قلت ولم يعتبر جماعة المؤرخين خلافة الواثق المذكور مدة صحيحة ولذلك لم يذكرها أحد منهم فى عددهم سوى الذهبي فى آخر ذيله على العبر وقد قال الحسيني فى ذيله على العبر أيضا ان الذى قام بالخلافة بعد المستكفي ابنه أحمد الملقب بالحاكم بأمر الله وكان ولىّ عهد أبيه اه

(الفصل الخامس)

(فى خلافة الحاكم بأمر الله احمد بن المستكفى بالله)

ثم قام بالامر بعد المستكفى بالله ابنه الحاكم بأمر الله أحمد وكان ولى عهد أبيه كما سبقت الاشارة الى ذلك بويع له بالخلافة يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة ست وأربعين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وثلثمائة وألف الميلاد بمشورة ابن جماعة بايعه السلطان المنصور أبو بكر بن الملك الناصر قلاوون وبايعه القضاة والامراء بعد خلع الواثق ابراهيم فى اليوم المذكور ولقب بالحاكم بأمر الله لقب جده واستقرت له الخلافة وأمده السلطان بالرواتب الكثيرة والعطاء الوافر ● فلما كان ثانى يوم المحرم افتتاح سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة حضر الخليفة الحاكم بأمر الله المذكور والسلطان الملك المنصور أبو بكر والقضاة بدار العدل فجلس الخليفة على الدرجة العليا وعليه خلعة خضراء وفوق عمامته طرحة سوداء مرقومة بالذهب وجلس السلطان دون مقام الخليفة وخطب خطبة افتتحها بقوله ● ان الله يأمر بالعدل الآية وبقوله ● وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم الآية ● ثم أوصى الامراء بالرفق بالرعية واقامة الحق وتعظيم شعائر الاسلام ونصرة الدين ثم قال ● فمن نكث فانما ينكث على نفسه وقرأ الآية ● وجلس ثم جىء بخلعة سوداء ألبسها الخليفة السلطان بيده ثم قلده سيفا عربيا ثم أخذ علاء الدين بن فضل الله كاتب السر فى قراءة عهد الخليفة للسلطان حتى فرغ منه ثم قدمه الى الخليفة فكتب عليه ثم كتب بعده القضاة الاربعة بالشهادة عليه ولكن لم تطل مدة السلطان الملك المنصور بعد ذلك فانه سلم الأمير قوصون زمام الملك وصرّفه فى جميع الامور بلا استثناء فخانه وعمل لنفسه وكان من أمره ماسيتلى عليك ● قال بعض كتاب الأخبار وقوصون هذا هو سيف الدين حضر من بلاد بركة الى ديار مصر صحبة خوند ابنة أزبك امرأة الملك الناصر محمد ابن قلاوون فى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة عشرين وسبعمائة ومعه قليل من العصى وطسما ونحو ذلك مما قيمته خمسمائة درهم ليتجر فيها فطاف بذلك فى الأسواق بالقاهرة وتحت قلعة الجبل وفى داخل القلعة فاتفق انه فى بعض الايام دخل الاسطبل السلطانى ليبيع ما معه فأحبه بعض الاوشاقية وكان صبيا جميلا طويل القامة له من العمر ما يقارب الثمان عشرة سنة فصار يتردد الى الاوشاقى الى أن رآه السلطان فوقع منه موقعا فسأل عنه فعرف بأنه يحضر ليبيع ما معه وأن بعض الاوشاقية ولع به فأمر باحضاره اليه وابتاع منه نفسه ليصير من جملة مماليكه السلطانية فنزله من جملة السقاة وشغف به وأحبه حبا كثيرا فأسلمه للامير بكتمر الساقى وجعله أمير عشرة ثم أعطاه امرة طبلخاناه ثم جعله أمير مائة

مقدم ألف ورقاه حتى بلغ أعلى المراتب فلما كبر وظهر أمره أرسل الى بلاده وأحضر اخوته سوسون وغيره من أقاربه وأمر الجميع واختص به السلطان بحيث لم ينل أحد عنده ما ناله وزوجه بابنتـه وتزوج السلطان أخته فلما احتضر السلطان جعه له وصيا على أولاده وعهد لابنه أبى بكر فأقيم فى الملك من بعده وأخذ قوصون المذكور فى تدبير المملكة وتصرف فى جميع الامور وحجر على أبى بكر وضيق عليـه ثم تاقت نفسه الى الملك فأخـذ فى أسـباب السلطنة وأخرج أبا بكر المنصور بعـد شهرين من ولايتـه الى مدينـة قوص بصعيد مصر فى يوم الاحـد لعشرين من صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة هو واخوته فتهتكت يومئـذ نساء أبيـه الناصر وكثر البكاء والعويل بالقاهرة يوم خروجـه ولم يستقر به المقام بقوص حتى سير اليـه من قتله وخاف قوصون أن يعجل بارتقاء كرسى السلطنة فأقام بعد الملك المنصور أخاه أبا بكر علاء الدين كجك بن النـاصر محمـد بن قلاوون ولقب بالاشرف ولم يكمل له من العمر ثمان سـنين وقيـل ست وقيـل خمس وتقلد قوصون نيابة السلطنة بديار مصر فأمر حاشيته وأقاربه ستين أميرا وأكثر من العطاء وبذل الاموال والانعام فصار أمر الدولة كله بيده هذا وأحمد بن السلطان الملك الناصر بمدينة الكرك مقيم يراقب الفرص ويستطلع الاخبار فخاف قوصون منـه وأخذ فى التـدبير عليه فلم يتم له ما أراد من ذلك وحرك ساكنا فى نفس أحمد فتجرد أحمد بعد ذلك لطلب الملك وخاطب الامراء وكاتب بعض النوّاب بالديار الشامية والمصرية فأذعنوا اليه وكان بمصر من الامراء الامير ايدغمش والامير آل ملك وقمارى والمـاردانى وغـيرهم فارتاب قوصون منهم وأخذ فى التـدبير عليهم فأحسوا بذلك وخافوا فوات الوقت فركبوا لقتاله وحصروه بقلعة الجبـل وما زالوا حتى قبضوا عليه فى ليلة الاربعاء آخر رجب سـنة اثنتـين وأربعـين ونهبت داره وسائر دور حواشـيه وأسبابه وسـير الى الاسكندرية صحبة الامير قلاى فقتل بها واعتقلوا السلطان الملك الاشرف بقلعة الجبل فى أوائل شعبان وبقى معتقلا الى أن مات فى سـنة ست وأربعـين ٭ قال صاحب السكردان والله أعلم كيف كان موته فكانت سلطنته خمسة أشهر وعشرة أيام

وقام الامير ايدغمش بأمر الدولة وتدبير المملكة وسير الى شهاب الدين أحمـد بن الناصر محمـد بن قـلاوون يسـتدعيـه من الكرك ليوليـه سلطنـة مصر فقام على البريد فى عشرة من أهل الكرك ليلة الخميس ثامن عشرى رمضان وعبر الدور من قلعة الجبل بمن كان معـه واحتجب عن الامراء ولم يخرج لصلاة العيد ولاحضر السماط على العادة الى أن لبس شعار السلطنة وعقد له المبايعـة بينـه وبين الخليفـة الشيخ تقى الدين بن السبكى وكان قد حضر يومئـذ من الشام ولقب بالملك الناصر شهاب الدين وجلس على سرير الملك فى يوم الاثنـين عاشر شوال من السنة فلما استقرت به السـلطنة وتصرّف فى الامور أعرض عن الامراء وتباعـد عنهـم ولم يراع لهـم حرمة ولا اعتبارا وما زال حتى ساءت سيرته وخبثت سريرته واشتدت الوحشة بينهم وبينه فخشى شر العاقبـة وأظهر السـفر الى الكرك لترويح النفس



والتخلى عن أشغال السلطنة حينا وخرج فى يوم الاربعاء ثانى ذى القعدة واستخلف الامير آق سنقر نائب الغيبة فلما وصل قبة النصر بظاهر القاهرة نزل عن فرسه ولبس ثياب العرب ومضى مع خواصه من أهل الكرك على البريد وترك الاطلاب فسارت حتى وافته بالكرك فرد العسكر الى بلاد الخليل وأقام بقلعة الكرك ففرح الامراء بخروجه وخلعوه فى يوم الاربعاء حادى عشر المحرم افتتاح سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فكانت سلطنته ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوما أو أربعين يوما ثم قتل فى أوائل سنة أربع وأربعين كما سيذكر فى محله

ولما خلع الملك الناصر شهاب الدين المذكور أقاموا بعده أخاه عماد الدين اسماعيل ولقب بالملك الصالح وبايعوه فى يوم الخميس ثانى عشرى المحرم المذكور وقام الامير أرغون زوج أمه بتدبير المملكة ومعه عدة من الامراء فلما استقرت به السلطنة سير الى الكرك جماعة من الامراء وكثيرا من العساكر والاجناد لقتال الناصر محمد وكانت قد وردت اليه الاخبار بتأهب الناصر محمد لرد الملك لنفسه والاستعداد للبطش بجميع الامراء المصريين فالتقى الجمعان واقتتل الجنود قتالا شديدا فكانت الحرب بينهم سجالا وطالت أياما كثيرة فلما كان فى أحد الايام اشتبك القتال بين الفريقين واشتد فثبتت العساكر المصرية وقاتلت قتال الابطال وما زالت حتى أخذت الناصر محمدا من وسط قومه فانقض عليه سيف الدين منجق اليوسفى وكان من أجناد السلحدارية واحتز رأسه فانفشل أصحابه وتفرق جمعهم وولوا مدبرين وتمت عليهم الهزيمة وعاد اليوسفى الى مصر ومعه رأس الناصر محمد فى غلق وعاد الامراء ومن بقى من العساكر ووصل الخبر عما جرى الى السلطان الملك الصالح عماد الدين ففرح بالنصر وأجاز اليوسفى بالامرة على ديار مصر فظهر نبله وصار من هذا الحين يتنقل فى مراتب الدولة حتى عظم شأنه واتسعت كلمته وكان من أمره بعد ذلك ماسيذكر فى حينه * ولما أحضرت رأس الناصر محمد أمام السلطان الملك الصالح ووقع بصره عليها فزع وأخذه الخوف فرض واشتد به المرض وما زال يتنابه حتى مات فى ليلة الخميس رابع عشر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة وقيل رابع ربيع الآخر وعمره نحو عشرين سنة فكانت سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأحد عشر يوما وكان حسن السيرة لين العريكة بعيد الغضب محجورا عليه فى جميع أموره ليس له من الملك سوى الاسم فقط والامر بيد الامير أرغون ومن كان معه من الامراء المصريين فقام بالامر بعده أخوه زين الدين شعبان بعهد من أخيه ولقب الملك الكامل وجلس على تخت السلطنة من غده فلما استقرت به السلطنة تاقت نفسه الى الاستبداد بالملك وعمل على تبعيد الامير أرغون ومن معه من الامراء واستمال اليه جماعة من المماليك فأحس الامراء بفعله ووقعت الوحشة بينه وبينهم وطال الامر وكرهوا ماهو عليه وكبر خوفهم فركبوا عليه وتجردوا لقتاله وركب هو كذلك فى طائفة من المماليك الذين اصطفاهم لنفسه والتقى الجمعان واقتتلا

قتالا

فلم يثبت أصحابه عند احتدام الوطيس وخذلوه فعاد الى قلعة الجبل منهزما فأتبعه الامراء وساقوا خلفه وحصروه بالقلعة فى يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين ثم خلعوه فى اليوم المذكور فكانت سلطنته سنة واحدة وثمانية وخمسين يوما واجتمع جميع الامراء وتشاوروا فيمن يصلح للولاية بعده فاتفقوا على تولية أخيه زين الدين حاجى فبايعوه بالملك من يومه ولقبوه بالملك المظفر * فلما تمت له البيعة واستقرت به السلطنة عبث بالامور وأساء السيرة وخبثت منه السريرة وانهمك فى الملاذ والملاهى واللعب واستبد بالامر وعمل على تذليل الامراء وابعادهم عن خدمة الدولة واختص بطائفة من الاحداث وسير الامير سيف الدين منجك اليوسفى الى دمشق وولاه الحجابة بها مكان ابن طوغان الحاجب فاتسعت كلمته بالشام وكبرت حرمته وعظم أمره فاستعظم الامراء بمصر ذلك جدا وخافوا من الملك المظفر وهو يخادعهم ويظهر لهم خلاف مايبطن ويعمل على الايقاع بهم فلما أيسوا من الصلح تحالفوا على قتاله وركبوا جميعا عليه فركب هو كذلك فى طائفة من أصحابه واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا وما زالوا يقاتلونه حتى خذله من كان معه من المماليك وتركوه فهرب فتبعه الامراء حتى قبضوا عليه واعتقلوه أياما ثم ذبحوه فى يوم الاحد ثانى عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة فكانت مدة سلطنته سنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يوما لم يعمل فيها عملا يذكر * وعاد الامراء وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتحدت كلمتهم على تولية أخيه بدر الدين أبى المعالى حسن بن محمد فبايعوه بالملك من يومه ولقبوه بالملك الناصر وذلك يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وله من العمر يومئذ احدى عشرة سنة وأركب من يومه من باب الستارة بقلعة الجبل وعليه شعار السلطنة وفى ركابه جميع الامراء الى أن نزل بالايوان السلطانى ومدبرو الدولة يومئذ الامير يلبغاروس والامير الجيغا المظفرى والامير شيخو والامير طاز وأحمد شاد الشرابخناه وأرغون الاسماعيلى فخلع على يلبغاروس واستقر فى نيابة السلطنة بديار مصر مكان ارقطاى وقرر ارقطاى فى نيابة السلطنة بحلب وخلع على الامير سيف الدين منجك اليوسفى واستقر فى الوزارة مع الاستدارية وقرر الامير ارغون شاه فى نيابة السلطنة بدمشق الشام وجعل يتصرف فى الامور على مايشاء * ولما كانت سنة تسع وأربعين وسبعمائة هجرية كثر انكشاف الاراضى من ماء النيل بالبر الشرقى فيما يلى بولاق الى الفسطاط فاهتم رجال الدولة بسد البحر مما يلى الجيزة وفوض ذلك الى الامير منجك فجمع لذلك من الاهالى والامراء من الاموال شيأ كثيرا جدا وبالغ فى العمل وطال الامر أياما كثيرة فلم يجد نفعا وساء الحال وانقطعت الآمال من رى تلك الاراضى وتطير الناس وخافوا شر تلك السنة فقبض السلطان على منجك المذكور فى ربيع الاول من السنة واعتقله واشتد بأسباب ذلك الغلاء وقل الوارد من الغلال وغيرها * قال بعض كتاب الاخبار وظهر بعد ذلك الوباء واشتد وكثر الموت فى الناس كثرة بالغة فكان الفقراء يموتون فى الازقة والحارات وعلى أبواب المساجد ولا

يجدون من يحملهم وامتلأت كذلك البيوت بالموتى وبقوا أياما بغير دفن فكانت الكلاب تدخل البيوت وتأكل الاحياء من الاطفال وتشبع من جثث الاموات فكان أمرا مهولا للغاية وبقي أياما كثيرة حتى ارتفع وزال ❊ وقد تشاءم الناس من أيام السلطان الملك الناصر بدر الدين وتطيروا من حكمه فانحرفت عنه القلوب وتغيرت عليه الخواطر وقد زادهم بغضا له وحقدا عليه سوء تصرفه وعدم اكتراثه بالامور وكراهته للامراء فانه لما رشد وأثبت رشده في سنة احدى وخمسين وسبعمائة هجرية استبد بالامر وجعل يتصرف بما في نفسه وقبض على الأمير منجك الوزير وسجنه ورسم بالقبض على الامير بلبغاروس نائب السلطنة بديار مصر وهو مسافر الى الحجاز فقبضوا عليه وألقوه في السجن وعمل على الوقيعة بالامير شيخو العمري ولكنه كان يخشى العاقبة لما لشيخو المذكور من الصولة والكلمة المسموعة فاتفق ان شيخو خرج متصيدا الى ناحية طنان بالغربية فلما كان يوم السبت رابع عشري شوال سنة احدى وخمسين استدعى اليه السلطان جميع الامراء واستحلفهم لنفسه فحلفوا بالطاعة والوفاء فكتب عند ذلك تقليدا للامير شيخو بنيابة طرابلس وجهزه اليها مع الامير سيف الدين طينال الجاشنكير فسار اليه وأخذه من طينال ولم يمكنه من العود الى القاهرة فوصل الى دمشق ليلة الثلاثاء رابع ذى القعدة ولم يستقر به المقام حتى ظهر مرسوم السلطان ببقاء شيخو بدمشق على اقطاع الامير بيلبك السالمي وتجهيزه الى القاهرة فخرج بيلبك من دمشق وأقام شيخو على اقطاعه فما وصل بيلبك الى القاهرة الا وقد وصل دمشق مرسوم السلطان بامساك شيخو وتجهيزه الى السلطان مقيدا وتقييد مماليكه واعتقالهم بقلعة دمشق فقبض عليه وسير الى القاهرة مكبلا بالقيود ❊ ولما وصل الخطيا ساروا به منها الى الاسكندرية فلم يزل معتقلا بها الى أن خلع السلطان الملك الناصر حسن وتولى أخوه الملك الصالح فأفرج عنه وعن منجك الوزير وعدة من الامراء فوصلوا الى القاهرة في رابع رجب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وكان من أمره بعد ذلك ماسيذكر في محله ان شاء الله ❊ قال أصحاب التاريخ وشيخو هذا هو الامير الكبير سيف الدين أحد أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون حظي عند الملك المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون وزادت وجاهته حتى شفع في الامراء وأخرجهم من سجن الاسكندرية ثم انه استقر في أول دولة الملك الناصر حسن أحد أمراء المشورة ثم ترفع الى أن صارت القصص تقرأ عليه بحضرة السلطان في أيام الخدمة وصار زمام الدولة بيده فساسها أحسن سياسة بسكون وعدم شره وكان نافذ الكلمة مسموع الرأى صائب الفكر ميالا الى الدعة والسكون والتأليف بين الاحزاب فاحبه الامراء ومالوا اليه وأخذوا بقوله فلم يخالفوا له كلمة ❊ واشتد السلطان الملك الناصر على بقية الامراء والعمال بالجهات وضيق عليهم وقبض على الامير المجاهد صاحب اليمن وأتى به الى القاهرة مقيدا بالحديد وألقاه في السجن أياما ثم أطلقه ثم عاد فقبض عليه وسيره الى قلعة الكرك وسجنه بها فامتلأت قلوب الامراء كافة حقدا عليه واجتمعوا وتحالفوا على قتاله فلما كان يوم الاحد

سابع

سابع عشرى جمادى الآخرة ركبوا لقتاله وهم طاز واخوته ويلبغا الشمسى وبيغوا ووقفوا تحت القلعة وصعد الامير طاز وهو متقلد سلاحه الى قلعة الجبل فى عدة وافرة من الجند وقبضوا على السلطان فى الحال وحبسوه بالدور الاسفل من القلعة فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر

ثم أقاموا بعده أخاه صلاح الدين صالح وبايعوه فى يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة وطيروا الاخبار بذلك الى الآفاق وبقى السلطان الملك الناصر أبو المعالى حسن معتقلا مؤثرا الاشتغال بالعلم * قال بعض الكتاب وكتب بخطه نسخة من كتاب دلائل النبوة للبيهقى فكانت حسنة وكان لايتعرض فى الظاهر لشئ من أمور الدولة ولا لشئ من أحوالها وكان يظهر غاية الرضا عن الحالة التى هو عليها * أما السلطان الملك الصالح صلاح الدين فانه لم يستقر به الملك حتى كثر لهوه وخرج عن الحد فى التبذل والعبث بمصلحة الدولة وأمور المملكة وكان هو الثامن ممن تولى الملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم جعل يبطل ماأمضاه أخوه فرسم بالافراج عن الأمير شيخو والامير منجك من معتقلهما بمدينة الاسكندرية فحضرا الى القاهرة فى رجب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة ونزل الامير منجك بالاشرفية من قلعة الجبل وكان السلطان الملك الناصر قد صادره وأخذ جميع أمواله وفرق أملاكه على بعض المماليك السلطانية فلما استقر بالاشرفية بعث اليه الامير شيخو خمس رؤس خيل وألفى دينار وبعث اليه أيضا جميع الامراء بالتقدمات والهدايا وأقام لايعمل عملا ولا يرجع الى خدمة الدولة فكان يجلس على حصير فوق ثوب سرج عتيق وكلما أتاه أحد من الامراء يبكى ويتوجع ويقول انظروا كيف أخذوا جميع مالى حتى صرت على ما ترونى ثم كتب فتوى تتضمن أن رجلا مسجونا فى قيد هدد بالقتل ان لم يبع أملاكه وانه خشى على نفسه القتل فوكل فى بيعها فأفتاه الفقهاء بأنه لايصح بيع المكره فتقدم الامراء الى السلطان فى أمره وفى رد أملاكه عليه فعارضهم فى ذلك الامير صرغتمش ثم قبل السلطان أن يرد عليه من أملاكه ماأنعم به السلطان على مماليكه فاسترد عدة أملاك وأقام الى أن قام بيبغاروس بحلب وخرج عن طاعة السلطان فاختفى منجك بعد ذلك وحسب السلطان ماوراء اختفائه فطلبه فلم يجده فأمر باطلاق النداء عليه بالقاهرة ومصر وفتش عليه وهدد من أخفاه وألزم عربان العايد باقتفاء أثره فلم يوقف له على خبر وكبسوا عليه عدة أماكن بالقاهرة ومصر وفتش عليه حتى فى داخل الصهاريج التى بالجامع الذى بناه فأعياهم أمره وأدرك السلطان السفر لحرب بيبغاروس بحلب لخروجه فأخذ يتأهب لذلك الى يوم الخميس رابع شعبان فخرج الامير طاز وعرض الامير شيخو والامير صرغتمش أطلابهما وقد وصل الامير طاز الى مدينة بلبيس فحضر اليه من أخبره انه رأى بعض أصحاب منجك فسير اليه وأحضره وفتشه فوجد معه كتاب منجك الى أخيه بيبغاروس بحلب وفيه انه مختف عند الحسام الصفدى استاداره فبعث الكتاب الى الامير شيخو فوافاه والاطلاب خارجة

فاستدعى بالحسام وسأله فأنكر فعاقبه الامير صرغتمش فلم يعترف فركب الى بيت الحسام بجوار الجامع الازهر وهجمه واذا منحك ومعه مملوك فشد وثاقه وساربه مشهرا بين الناس وقد هرعوا من كل مكان الى قلعة الجبل فسجن بالاسكندرية ثانية الى أن شفع فيه الامير شيخو فأفرج عنه فى ربيع الاول سنة خمس وخمسين ورسم له أن يسير الى صفد فسار اليها من غير أن يعبر الى القاهرة ولم يتم خروج السلطان لقتال بيبغاروس حتى دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وظهر الطاعون بمصر واشتد شدة بالغة فكثر الموت فى الناس وعم فتأخر السلطان الملك الصالح عن المسير لقتال بيبغاروس بحلب وتعطلت أعمال الدولة بسبب اشتداد الطاعون وكثرة الموت وأصاب الطاعون الخليفة الامام الحاكم بأمر الله فمات ولم يعهد لاحد بالخلافة بعده فجمع الامير شيخو جميع الامراء والقضاة وأهل الحل والعقد وكان قد رجع الى خدمة الدولة بعد الاعتقال وتولى مسند الحل والعقد وطلب جماعة من بنى العباس ليرى من هو أصلح للامامة وتولى منصب الخلافة فوقع الاختيار على أخيه أبى بكر بن المستكفى فكانت خلافة الحاكم بأمر الله نحو اثنتى عشرة سنة وكانت أحواله كلها شدة وعيشته فى ضيق لعدم كفاية المرتبات المعينة لمنصب الخلافة

(الفصـــــل السادس)

(فى خلافة المعتضد بالله أبى الفتح بن أبى بكر المستكفى بالله)

ثم قام بالخلافة بعد الحاكم بامر الله أخوه المعتضد بالله أبو الفتح وبويع بغير عهد وقيل بعهد من أخيه الحاكم بأمر الله وهو أبو الفتح بن أبى بكر المستكفى بالله أبى الربيع سليمان بن الحاكم بامر الله أبى العباس أحمد بن أبى على بن المسترشد بالله العباسى ولقب بالمعتضد وكنى أبا الفتح وذلك سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة ضم اليه نظر المشهد النفيسى ليستعين بما يرد الى ضريح السيدة نفيسة من نذر العامة على تقويم أوده * قال كتاب الاخبار لان مرتب الخلفاء كان الى هذا الحين على مكس الصاغة لاغير وحسبه أن يقوم بما لابد منه من قوتهم فكانوا أبدا فى عيش ضيق فحسنت نوعا حالة الخليفة المعتضد بما كان يبيعه من الشمع المحمول الى المشهد ونحوه وصار فى رغد من العيش وكان الى مابعد تولية المعتضد الخلافة بايام قد ارتفع الطاعون و زال من جميع البلاد فجعل السلطان الملك الصالح يتأهب لقتال بيبغاروس بحلب وأمر فنادوا فى الجند بالخروج الى ظاهر القاهرة فصاروا يخرجون أطلابا والسلطان يستحث الامراء و يشدد عليهم وهم يتلكؤن و يظهرون غير ما يبطنون

وطالت

وطالت أيام النداء فى العسكر بالخروج وعظم بعضهم لنصرة السلطان الملك الصالح على يلبغاروس وكره الامراء السلطان وظهر بغضهم له فأهمل لذلك التجريدة وبطلت أو كادت وتشاغل السلطان عنها باستمالة العامة واسترضائهم ليكونوا له عونا على الامراء اذا ركبوا عليه وخرجوا عن طاعته فعرف العامة منه ذلك وأخذت منهم الخيلاء فجعلوا يطلبون من السلطان المطاليب الكثيرة وتقدم اليه جماعة منهم فى طلب أخذ جميع الاملاك الموقوفة على الديارات والكنائس بمصر وأعمالها وألحوا فى الطلب فمال السلطان الى قولهم وأحال الامر على ديوان الاحباس فوجد أن للنصارى أوقافا تبلغ زهاء الخمسة وعشرين ألف فدان كلها موقوفة على الكنائس والديارات فلما عرضوا ذلك على الامير شيخو والامير طاز والامير صرغتمش وهم القائمون بالامر يومئذ قرروا بأن تضاف جميع هذه الاطيان الى اقطاعات الامراء وتنزع من أيدى النصارى فانتزعوها واشتد الحال على النصارى بعد ذلك شدة عظيمة وعاد العامة الى تخريب الكنائس وهدم الديارات كما فعلوا فى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فهدموا عدة كنائس بمصر والقاهرة وخربوا عدة أخرى وخرج الحاجب والامير علاء الدين علىّ بن الكورانى والى القاهرة الى ناحية شبرى الخيام من ضواحى مصر فهدموا كنيسة بها وأخذوا منها اصبع الشهيد وأحضروه الى الملك الصالح فرسم باحراقه فأحرق بين يديه وذرى رماده فى البحر * قال بعض كتاب الاخبار فبطل عيد الشهيد من يومئذ واشتد العامة على النصارى شدة بالغة وتطاولت أيديهم الى السلب والنهب وغير ذلك والسلطان لا يرد العامة كلية ولا يوقفهم عند حد ارضاء لهم والامراء فى شاغل بما يدبرونه للسلطان وظل الحال هكذا أياما ثم سكنت الفتنة وعادت الامور الى ما كانت عليه وعاد السلطان الى الاهتمام بتجريد العسكر لقتال يلبغاروس بحلب وهم بتولية موفق الدين مسند الوزارة وهو قبطى مرتد فعارضه الامراء فى ذلك وطلبوا تولية علم الدين وهو قبطى مرتد كذلك فامتنع السلطان من قبوله وعارض فشدد الامراء فى الطلب وانضم بعضهم الى بعض واتحدوا على اكراه السلطان على تولية علم الدين المذكور والا خلعوا السلطان وترددت الرسل بين الفريقين واشتد الخلاف وطال الحال أياما فبطل الاهتمام بأمر التجريدة ثانية وتحرز السلطان من الامراء وجمع اليه مماليكه الذين اصطفاهم لنفسه فلما كان يوم الاثنين ثانى شوال سنة خمس وخمسين ثار عليه الاميران شيخو وطاز وقبضا عليه وحبساه بقلعة الجبل فكانت سلطنته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وهذا عجيب فى الاتفاق ثم اتحدت كلمة الامراء على ارجاع السلطان الملك الناصر حسن فأخرجوه من معتقله وأجلسوه على تخت السلطنة فى يوم الاثنين المذكور فكانت مدة حبسه بقلعة الجبل ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما فلما استقر به المنصب وتصرف فى الامور رسم بالقبض على الامير طاز فامسك وأخرج الى البلاد الشامية ثم جعل يأمر وينهى ويتصرف فى الملك مستبدا فهابه الامراء واتسعت

كلمتـه وكبرت شهرته وضرب الفلوس الجدد فعمل كل فلس زنة مثقال وكان كثير البغض للامراء شـديد الرغبة فى الايقاع بهم والتخلص من شرهـم فكان لا ينكف عن تذليلهـم والنكاية بهم وتفريقهم عن بعض فاشتد بغضهم له وجعـلوا يدبرون على قتـله والتخلص منـه ٭ وما دخلت سـنة اثنتين وستين وسبعمائة حـتى ظهر الطاعون بمصر والقاهرة واشتد وفشا فكثر الموت فى الناس والدواب أيضا وعظم أمره ومات خلق كثير للغاية فخرج السـلطان فى طائفـة من مماليكه وعـدى الى بر الجيزة وأقام بناحية كوم برا فرارا من الطاعون وخرج معه الامير يلبغا فى طائفة من عسكره وخيم على مقربة من خيام السـلطان لحراسته فراسـله الامراء فى أمر قتـله فاجابهـم الى ذلك وجعـل يخالف أمر السلطان ويقبح فعاله فاستعظم السلطان منه ذلك وكبر عليـه الامر وما زالا يتنازعان والامير يلبغا يراقب الفرص ليغتاله الى ليـلة الاربعاء تاسع جمادى الاولى ركب السلطان فى جماعـة من أصحابه ليكبس على الامير يلبغا فى خيمته ويقتله فاحس يلبغا بذلك فخرج عن الخيام وكمـن بمكان وهو لابس آلة حربه فى جماعـة من قومـه فلم يظفر السـلطان به ورجع فثار به يلبغا وهجم عليه بمن معه فانكسر السـلطان وفر يريد قلعة الجبل فتبعه يلبغا وقد انضم اليـه جماعة من الامراء وغيرهـم ممن لايحبون السـلطان فدخـل السـلطان الى القلعـة وصار يقاتل مع طائفة من مماليكه أياما وراء السور ثم أحس بالكسرة وأنه على وشك أن يؤخذ فنزل متخفيا ومعـه ايدمر الدوادار يريد الخروج الى الشام وسارا الى بيت الامير شرف الدين موسى بن الازكشى أمير حاجب يريدان الاختفاء به حتى يتيسر لهـما الخـروج فبعث شرف الدين المذكور الى الامير يلبغا يعلمه بمجىء السـلطان اليه فبعث يلبغا فى الحال من قبض عليـه هو والامـير ايدمر ومن ذلك الوقت لم يوقف له على أثر البتـة مع كثرة تفتيش أتباعه وحواشيه على قبره وما آل اليه أمره فكانت مدة ولايته الثانية ست سنين وسبعة أشهر وأياما ٭ قال أصحاب الاخبـار واشـتد فى أيامه على القبط بمصر ورشيد بغـير سبب فضيق عليهم وأبعدهم عن خـدمة الدولة فلاطفـه كبارهـم لعله يرتدع فلم يقلع عمـا هو عليـه فما كسوه وأتعبوه و بالغوا فى تسفيهه والازدراء به فهم بالايقاع بهم فلم يظفر لبغض الامراء له وكراهة طوائف المماليك له فعاد الى ملاطفتهم واستمـالتهـم فلم يفلح لتفاقم الخطب واشتداد النفرة منـه وما زال كذلك حتى قبض عليه وقتل

وبنى فى أيامه جامعـه المشهور وهو تحت قلعـة الجبل فيما بين القلعـة وبركة الفيل وكان موضعه بيت الامير يلبغا ٭ قال صاحب الخطط وابتدأ السـلطان عمارته فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة وأوسع دوره وعلاه فى أكبر قالب وأحسن هيئة وأضخم شكل ولا يعرف فى بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هـذا الجامع أقامت العمارة فيـه مدة ثلاث سنين لاتبطل يوما واحدا وأرصد مصروفها فى كل يوم عشرين ألف درهـم عنها نحو ألف مثقال ذهبا ٭ قال ولقد أخـبرنى الطواشى مقبـل الشامى انه سمع السـلطان حسنا يقول

اتفق

أنفق على القالب الذى بنى عليه عقد الايوان الكبير مائة ألف درهم نقرة وهذا القالب مما رمى على الكيمان بعد فراغ العقد المذكور * قال وسمعت السلطان المذكور يقول لولا أن يقال ملك عجز عن اتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه وفى هذا الجامع عجائب من البنيان منها أن ذرع ايوانه الكبير خمسة وستون ذراعا فى مثلها ويقال انه أكبر من ايوان كسرى الذى بالمدائن من العراق بخمسة أذرع ومنها القبة العظيمة التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها ومنها المنبر الرخام الذى لا نظير له ومنها البوابة العظيمة ومنها المدارس الأربع التى بدور قاعة الجامع الى غير ذلك وكان السلطان قد عزم على أن يبنى أربع منائر يؤذن عليها فتمت ثلاث منائر الى ان كان يوم السبت سادس شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وستين وسبعمائة فسقطت المنارة التى على الباب فهلك تحتها نحو ثلثمائة نفس من الايتام الذين كانوا قد رتبوا بمكتب السبيل الذى هناك ومن غير الايتام وسلم من الايتام ستة أطفال فأبطل السلطان بناء هذه المنارة وبناء نظيرتها وبقى هناك منارتان قائمتان الى اليوم * ولما سقطت المنارة المذكورة لهجت العامة بمصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن على بن محمد السبكى فى سقوطها هذه الابيات

أبشر فسعدك يا سلطان مصر أتى	بشيره بمقال سار كالمثل
ان المنارة لم تسقط لمنقصة	لكن لسر خفى قد تبين لى
من تحتها قرئ القرآن فاستمعت	فالوجد فى الحال أداها الى الميل
لو أنزل الله قرآنا على جبل	تصدعت رأسه من شدة الوجل
تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت	من خشية الله لا للضعف والخلل
وغاب سلطانها فاستوحشت ورمت	بنفسها لجوى فى القلب مشتعل
فالحمد لله حظ العين زال بما	قد كان قدره الرحمن فى الأزل
لايعترى البؤس بعد اليوم مدرسة	شيدت بنيانها بالعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها اتلألأت	علما فليس بمصر غير مشتغل

قال فاتفق قتل السلطان بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما * ومات السلطان قبل أن يتم رخام هذا الجامع فأتمه بعده الطواشى بشير الجدار وكان قد جعل السلطان لهذا الجامع أوقافا عظيمة فلم يترك منها الا شئ يسير وأقطع أكثر البلاد التى وقفت عليه بديار مصر والشام لجماعة من الامراء وغيرهم وصار هذا الجامع فى مقابلة قلعة الجبل لانه قلما تكون فتنة بين أهل الدولة الا ويصعد عدة من الامراء وغيرهم الى أعلاه ويصير الرمى منه على القلعة * فلما كان فى سلطنة الملك الظاهر برقوق لم يحتمل ذلك وأمر فهدمت الدرج التى كان يصعد منها الى المنارتين والبيوت التى كان يسكنها الفقهاء ويتوصل من هذه الدرج الى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة وهدمت البسطة العظيمة والدرج التى كانت

بجانبى هـذه البسطة التى كانت أمام باب الجامع حتى لا يمكن التسور الى الجامع وسـد من وراء الباب النحاس الذى لم يعمل فيما عهد باب مثله وفتح شباك من شبابيك احدى مدارس هـذا الجامع ليتوصل منـه الى داخـل الجامع عوضا عن الباب المسدود فصار هذا الجامع تجاه باب القلعـة المعروف بباب السلسلة وامتنع صعود المؤذنين الى المنارتين وبقى الاذان على درج هـذا الباب * قال المقريزى وكان ابتداء هدم ما ذكر فى يوم الاحد ثامن صفر سنة ثلاث وتسـعين وسبعمائة ولما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة الجامع بجوار باب زويلة اشـترى هـذا الباب النحاس والتنور النحاس الذى كان معلقا فى الجامع المذكور بخمسمائة دينار ونقلا فى يوم الخميس سابع عشرى شوال سنة تسع عشرة وثمانمائة فركب الباب على البوابة وعلق التنور تجاه المحراب * فلما كان يوم الخميس تاسع شهر رمضان سنة خمس وعشرين وثمانمائة أعيـد الاذان فى المئـذنتـين كما كان وأعيد بناء الدرج والبسطة وركب باب بدل الباب الذى أخذه المؤيد واستمر الامر على ذلك

ولما مات السـلطان الملك الناصر حسـن المـذكـور اجتمـع الامراء وتشـاوروا فيمن يولونه السلطنة بعده فوقع اختيارهم على ابن أخيه السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمـد بن المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون وعمره يومئـذ أربع عشرة سـنة فبايعوه فى يوم الاربعاء تاسع جمادى الاولى سنة اثنتين وسـتين وسبعمائة ولقب بالملك المنصور وركب من يومه فى دست السلطنة وصعد الى قلعة الجبـل فى كبكبة عظيمـة الغـاية * ولما استقر به المنصب قام بالامر يلبغا وأخـذ فى تدبـير الملك والتصرف فى الامور أمر ونهى واستبد فاتسعت كلمته وعظمت سطوته وهابه الامراء جميعا وتمكن من الملك كل تمكن ودانت له الامور فلما بلغ السـلطان الملك المنصور أشـده لم يطق الصبر على أفعال يلبغا وتاقت نفسـه الى الاستبداد بالملك فجعل يستعمل الحيلة فى نزعـه من يد يلبغا ويستميل اليـه الامراء وطوائف المماليك ويعمل على تقرب العامة منه فلم يفلح وكان من أمره ما سيذكر فى محله

ولما دخلت سـنة ثلاث وسـتين وسـبعمائة مرض الخليفة المعتضـد بالله أبوبكر بن المستكفى بالله وطال مرضه واشتدت علته الى ليلة الاربعاء ثامن عشر جمادى الاولى مات فى داره بالكبش فكانت خلافته نحو عشر سنين قال بدر الدين فى ترجمـة الخليفة المذكور هو أمير المؤمنين * وقائد المذعنين * وامام الائمة * وقدوة المتكلمين فى براءة الذمـة * علت أركـانه * وبسطت أغصانه * وتجملت به ديار مصره * وصغت الى رأيه ملوك عصره * رأس وساد * ومنح وأفاد * ورفـل فى حلل النعـيم * وهـدى الى سلوك الطريق المستقيم * واعتضد بالله فى أموره * ولم يختف عن الناس بحجبه ولا ستوره * واسـتمر سائرا فى منهاج عزه وبقائه * الى أن لحق بعـد عشرة أعوام بالخلفاء الكرام من آبائه * وكان الخليفة المعتضـد المذكـور يقنع بالكفاف حسن السـيرة حج مرتين احـداهـما سنة أربع وخمسـين والثـانيـة سـنة سـتين وكانت أمور عيشه متيسرة

وفى

وفى خلافته سعى المتأصلون فى اقامة بطارك لهم بعد تلك العطلة التى وقعت بسبب القس داود بن لقلق التى تقدم بيان حوادثها واتحدت كلمتهم فى هذه المرة على اقامة القس داود المذكور فعمل بكارهم على تقليده المنصب وألحوا وأكثروا الطلب حتى تم له الامر فكان خامس سبعى بطاركة الاسكندرية وهو من مدينة الفيوم فلما استقر به المنصب أحسن السياسة وقام بواجب الرياسة وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل السابع)

﴿ فى خلافة المتوكل على الله أبى عبد الله محمد ﴾

ثم قام بالامر بعد الخليفة المعتضد ابنه أبو عبد الله محمد بعهد من أبيه فى يوم الخميس ثانى عشر جمادى الاولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة احدى وستين وثلثمائة وألف ميلادية ولقب بالمتوكل على الله وخلع عليه من يومه بين يدى السلطان الملك المنصور محمد بن الملك المظفر حاجى وفوض اليه نظر المشهد النفيسى على ما كان عليه أبوه من قبل وفوض هو الى السلطان الملك المنصور التصرف فى أمور المملكة ومهام الدولة وأشهد على نفسه بذلك فزادت رغبة السلطان من حينئذ فى الاستبداد بالامر والتخلص من يلبغا وعظم عليه ما هو فيه من الحجر والتقييد وتجرد لمعاداة يلبغا وايقافه عند حده وجعل يستميل بعض الامراء وأصحاب الكلمة وأجزل العطاء الى طوائف المماليك ليكونوا له عونا على يلبغا كل هذا ويلبغا لا يلتفت اليه ولا يهتم به حتى ظن السلطان أنه بلغ المنشود وتم له المقصود فلما كان يوم الاثنين رابع عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة ركب الامير يلبغا فى نفر من أصحابه وصعد الى قلعة الجبل وقبض على السلطان الملك المنصور ففر من كان حوله من الاجناد والمماليك وتركوه فخلعه يلبغا فى الحال وحبسه بالقلعة من يومه فكانت سلطنته سنتين وأشهرا وبقى مسجونا الى أن مات لسنة احدى وثمانين وسبعمائة هجرية * وفى اليوم الثانى من خلع السلطان الملك المنصور اجتمع يلبغا مع الامراء وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتفقت كلمتهم على تولية ابن عمه زين الدين أبى المعالى شعبان ابن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون ولقب بالملك الاشرف وعمره يومئذ عشر سنين قال أصحاب التاريخ ولم يل من بنى قلاوون من أبوه لم يتسلطن سواه وقام الامير يلبغا بتدبير الملك والتصرف فى جميع الامور على ما كان عليه أيام الملك المنصور وزيادة ولبث على هذا الحال زهاء الاربع سنين وقد عظم شأنه وكبر عدم اكتراثه بالامور وزاد احتقاره لكبار الدولة واستخفافه برجال السلطنة وكثرت مماليكه المعروفة بالخاصكية وساروا بسيرته فعاثوا وجاروا

وظلموا الرعية وتطاولت أيديهم الى أموال الناس واستصفوا مالا يحل * وظهر القحط فى هذه الايام بمصر وعم جميع المدن والقرى فأكل الناس الكلاب والقطط والميتة وجذور الاشجار واشتد الحال شدة بالغة واتصل بالديار الشامية وتفشى فيها فضج الناس وعجوا وأكثر أهل مصر من الاستغاثة والتضرع الى الله سبحانه وتعالى وذهب جماعة الى دار الامير يلبغا ويرجوه بالطوب وصاحوا مايحل لك أن تطلق المماليك يعيثون فى الارض وقد ابتلانا الله بسبب فعالهم بالقحط فعظم الامر على يلبغا وتطير من ذلك ولبث الحال على هذه الشدة أياما كثيرة حتى أكل بعض الناس أولادهم وفشا هذا الامر بينهم فلم يبق منكورا ثم ارتفع القحط فعمد الامير يلبغا الى ايقاف مماليكه عند حدهم وكف أذاهم عن الرعية وشدد فى ذلك وبالغ فى العقوبة فانحرفت خواطرهم عنه وتوغرت صدورهم منه وزالت عنهم هيبته فاتفقوا على قتله وجعلوا يراقبون الفرص فلما كان فى بعض الايام كبسوه بداره التى فى الكبش وهم فى عدة عظيمة وقتلوه ونهبوا مافى داره من حلى وملبوس ففرح السلطان الملك الاشرف بموته وظن كل استقلاله بالملك فقام الامير استدمر الناصرى أحد مماليك يلبغا المذكور وضم هؤلاء المماليك اليه وتولى الامارة عليهم ونادى السلطان الملك الاشرف بالشر وكاشف أولئك المماليك بما فى سره فقويت قلوبهم واشتدت عزيمتهم وتجردوا الى نزع الملك من آل قلاوون ثم لم يلبثوا أن ركبوا جميعا لقتال الاشرف وركب الاشرف لقتالهم ومعه المماليك السلطانية واقتتل الفريقان وطالت الحرب بينهم أياما وما زالوا حتى انهزم استدمر وجميع الخاصكية وانتصر الاشرف عليهم نصرة مؤزرة وقبض على كثير منهم فقتل طائفة وأغرق طائفة وأبعد طائفة وبقى منهم بمصر جماعة التجؤا الى بعض الامراء * قال بعض كتاب الاخبار وكان هؤلاء المماليك مختلفى الاجناس غلاظ الطباع أشقياء لا دين لهم ومنهم الامير صرغتمش واستدمر والجاولى اليوسفى ولم يزل من بقى منهم فى اختلاف ومقت وهياج وحقد للدولة الى أن تحيلوا وعادوا الى خدمة الدولة واتفقوا على أن طائفة منهم تسكن بالطباق وان يدخلوا فى سلك مماليك الاسياد يعنى أولاد السلطان ففعلوا ومنهم من بقى أمير عشرة ومنهم من انضم الى المماليك السلطانية ومماليك الامراء وظهروا بعد الانكماش فكانوا أرذل مذكور فى الديار المصرية وعادوا الى العمل على الايقاع بالسلطان ونزع الملك من ذلك البيت

فلما كانت سنة ثلاث وستين وسبعمائة عزم السلطان الملك الاشرف على الحج وأخذ فى الاسباب فانتهز عند ذلك أولئك المماليك الفرصة وكتموا أمرهم وتواعدوا مع أصحابهم الذين تأهبوا للخروج فى خدمة السلطان على أنهم يثيرون الفتنة مع السلطان فى العقبة وكذلك المقيمون بمصر يخرجون فينقضون نظام الدولة ويحدثون الفوضى ويزيلون السلطان وجميع الامراء ويستبدون هم بالملك فيفعلون ما يستحسنون وخرج السلطان من مصر يريد الحجاز وهو فى أبهة عظيمة للغاية وتجمل زائد فى عدة وافرة من الاطناب وقد رتب قبل خروجه الامور واستخلف بمصر والثغور من يثق بهم فى خدمته وأخذ معه من

أولئك المماليك من لايظن فيه الخيانة وكان بينهم جملة من المماليك الاخر فلم يبعد عن مصر الا قليلا حتى قام من كان بها منهم وأثاروا الفتنة واستمالوا اليهم جماعة من المماليك السلطانية ونادوا بموت السلطان الملك الاشرف وأقاموا ابنه بدلا منه ولبثوا منتظرين فعل أصحابهم الذين هم فى خدمة السلطان أما هؤلاء فانهم لما وصلوا الى العقبة ثاروا على السلطان فقاتلهم واشتد القتال بين الفريقين أياما فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انهزم السلطان بعد أمور طويلة وطلب العود الى مصر وصحبته كبار الامراء وبعض مماليكه الذين اصطفاهم فنهب الخاصكية الخزينة السلطانية وما فيها ونهبوا جميع ركاب الحج وأخذ بعضهم ماسلبه وسار الى الشام والبعض الى الحجاز والبعض الى مصر وعاد نساء السلطان الى مصر فى أسوء حال وأشد ضيق وقد ذبح الكثير من الامراء فى هذه الوقعة وتبعوا السلطان فلحقوه عند قلعة الجبل فانتشب القتال بينه وبينهم واشتد وقاتل السلطان قتال الابطال وطال الحال أياما اختل فيها نظام الدولة وعاث أهل الفساد وكثرت العربدة بمصر والقاهرة والقرى القريبة وارتفع الامن وعم الخطف فانكف الناس عن الخروج الى الاسواق وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وقاتل أهل الاطراف العامة من فوق أسطحة البيوت وما زال الحال هكذا حتى قبض الخاصكية على السلطان وقد تفرق عنه من بقى من أصحابه وسجنوه أياما قلائل ثم خنقوه ونهبوا جميع بيوت الاموال وذخائر السلطان واقتسموا مخانيه وكذلك فعلوا بأموال وذخائر ومخاطى جميع الامراء وأزالوا عن الدولة القلاوونية عزها ورونقها وأذهبوا بهجتها وكان قتل السلطان الملك الاشرف فى يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة فكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة وشهرين وخمسة عشر يوما وأنشأ فى أيامه قصره المعروف بالاشرفية تحت قلعة الجبل سنة اثنتين وتسعين وستمائة ولما فرغ منه صنع فيه أفراحا عظيمة الغاية لم يعمل مثلها فى الدولة التركية وختن أخاه الملك الناصر محمد بن قلاوون وابن أخيه الأمير موسى بن الصالح على بن قلاوون وجمع سائر أرباب الملاهى وجميع الامراء ونثر عليهم الذهب وخلع عليهم الخلع السنية

ولما مات السلطان الملك الاشرف اجتمع أصحاب الكلمة من الامراء وهم قرطاى وأيبك وغيرهما وكتبوا الى الخليفة المتوكل بالله العباسى يطلبون منه أن يبايع من يشاء بالملك فكتب يقول اختاروا من بينكم من تشاؤن وأنا أبايعه فوقع اختيارهم على ابن الملك الاشرف علاء الدين وعمره يومئذ سبع سنين فبايعوه ولقبوه بالملك المنصور وكان الأمير طشتمر رأس الفتنة وزعيم الخاصكية الذين ثاروا على السلطان الملك الاشرف بالعقبة قد تأخر بسبب ركب الحاج فلما وصل الى القاهرة أرسل اليه قرطاى انك قد استقريت فى نيابة دمشق فسر الى الشام فرأى العجز فتوجه الى دمشق كارها وجعل قرطاى يتصرف فى الدولة ويستبد بالملك حتى علت كلمته ودانت له الامور وعظمت شوكته فابغضه الامراء وحقدوا عليه وأخذوا يراقبون الفرص ليفتكوا به ● فلما كان فى أحد الايام قام ايبك فى نفر من



أصحابه وأمسك قرطاى المذكور وغدر به واستقل بالحكم وتصرف فى الامور وطير الخبر بذلك الى الآفاق فلما علم بالخبر الامير طشتمر نائب دمشق شق عليه وكاتب نائب حلب وبقية نواب الشام واستنجدهم على قتال اينبك فأجابوه الى ذلك وركب اليه اشقتمر نائب حلب ومعه العساكر الحلبية واجتمع الكل بدمشق قاصدين الديار المصرية وجاءت الاخبار بذلك الى اينبك فسير عسكرا لقتالهم وخرج هو كذلك ومعه السلطان وبعض الامراء وكان بين اينبك وبين الامير برقوق والامير بركة شقاق وهما يراقبان الفرص للغدر به فلما وصل اينبك الى أول منزلة ركب عليه المذكوران فى نفر من خواصهما يريدان البطش به فهرب نحو القاهرة وانفشل العسكر ورجع السلطان والامراء وكتب برقوق وبركة الى طشتمر انك تحضر أميرا كبيرا للقاهرة فأجاب الى ذلك وتفرقت العسكر من دمشق وسار طشتمر الى مصر فلاقاه برقوق وبركة ودخل القاهرة فى موكب حافل واستقر أميرا كبيرا بمصر وأخذ يتصرف فى أمور الدولة فلما رأى برقوق من اتساع كلمة طشتمر واقبال الدنيا عليه بجذافيرها حسده وندم على تسليمه مقاليد المملكة وتاقت نفسه الى الملك وكان غاية فى المكر والدهاء صبورا حازما مدبرا مولعا بالاستقلال فجعل يدبر لنفسه ويستميل كبار القوم حتى جاء عيد الاضحى من سنة تسع وسبعين وسبعمائة فركب فى طائفة من أصحابه على طشتمر وأمسكوه واستقر برقوق يحكم البلاد وتصرف فى أمور الدولة فعلت كلمته وكبرت شهرته وطار صيته وهابه الامراء وما زال على هذا الحال من الشهرة والجد حتى مات السلطان الملك المنصور فى سلخ ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة هجرية بعد أن حكم أربع سنين وأربعة أشهر فجمع برقوق الامراء كافة وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتفقت كلمتهم على تولية زين الدين حاجى أخى الملك المنصور وله من العمر يومئذ ست سنين فبايعوه من يومه ولقبوه بالملك الصالح وأركبوه فى دست السلطنة فلم يكن له منها سوى الاسم والكلمة للامير برقوق ولبث الامير برقوق بعد ولاية السلطان الملك الصالح زين الدين سنة ونصف سنة يعمل على اعلاء كلمته وتوسيع شهرته وأخذ الملك لنفسه فلما تم له الامر قام فى التاسع عشر من رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة على الملك الصالح وخلعه ونفاه واستلم مقاليد الملك فكانت مدة سلطنة الملك الصالح سنة ونصف سنة وبضع أيام وكان هو آخر من حكم ديار مصر من دولة المماليك سلالة قلاوون المعروفين عند أهل التاريخ بالمماليك البحرية وبموته انقرضت دولتهم وعفت آثارهم بعد أن حكموا نحوا من مائة وثلاثين سنة وقد مر بك بيان أخبار هذه المدة وما وقع فيها من الحوادث فقامت بعدها دولة المماليك الثانية وظهرت بظهور برقوق المذكور وهو رأسها ومؤسسها فسبحان منزله الملك والملكوت وهو على كل شئ قدير

(وصل

(وصـــــــل)

(فى أصل الجراكسة وفى طباعهم وأديانهم)

وفى

(منشأ دولتهم الثانيــة بديار مصر)

قال أصحاب التاريخ قد تسمى الكتاب هذه الدولة بدولة المماليك الشراكسة نسبة الى منشا سلاطينها فانهم كانوا من الشعب الشركسى وقد اختلفوا فى محل ظهورهم فنهم من قال انهم ظهروا بآسية العليا ومنهم من قال انهم نشؤا بسيبريا ناحية بحيرة بيكال فى نحو القرن السادس للميلاد المسيحى • والثانى أشهر • ثم نزحوا الى بحر قزوين فاستوطنوا غربيه وأنشؤا لهم مساكن على شبه الخيام فسميت تلك الاصقاع من ذلك الوقت باسم شركاسيا وتناسلوا ونموا نموا عظيما فكانوا بعد ذلك يحملون الى أقطار العالم للاتجار بهم كالسلع سواء بسواء وكانوا كغيرهم من بقيــة الامم فى الازمان الغابرة عاكفين على عبادة الاوثان والتقرب اليها بالقرابين والذبائح وتقديم التقادم من الاسلحة والحلى • قال بعضهم وكان فى أحد الجبال الواقعة مابين صخوم وصوغوجق التى يقال لها غوبة شجرة عظيمة عجيبة المنظر تعادل فى كبرها السنيديان وهى مكونة من عدة أشجار مختلفة الاجناس قد نبتت فى مكان واحد وتسمى عندهم يعنى عند طوائف الشراكسة باسم • قودوش • فكان يأتى اليها فى يوم معلوم من كل سنة طير كبير اسمه بيوغه زعموا انه يسند رأسه على تلك الشجرة ليسلم نفسه للذبح قربانا لها ولا مانع من يأتى ليذبحه فاذا فعل ذلك قام أحد الجماعة الحاضرين هنالك فى ذلك اليوم فيذبحه فى الحال ثم يصبون على رأسه وعينيه شيأ من الخمر أو البوزة ثم يكشفون رؤسهم ويأخذون طقياتهم بأيديهم ويضجون ويقولون يا الهنا العظيم ان عنايتك بعبيدك ليس لها حساب ولاحد ثم يسجدون ويتضرعون لهذه الشجرة وهم مكشوفو الرؤس وبعد ذلك يقسمون فيما بينهم لحم ذلك الطير وجلده ويحمدون معبودهم وينصرفون واذا سار جماعة منهم الى السرقة والنهب بحرا فى القارب المعروف عندهم باسم قجابا أو خرجوا الى السلب فى الطرق والجبال ينذرون لتلك الشجرة شيأ من سلاحهم وآلة حربهم ان هم فازوا وظفروا بفريستهم فيقول الواحد منهم ان غلبت فى نوبتى هذه فانى أنذر لشجرة قودوش أحسن بارودة أو أحسن درع أو أحسن شئ لاتفنيه الامطار ولا تعمل فيه العواصف فاذا تم له ما أراد أتى بما نذره فيعلقه على أغصان تلك الشجرة

ولذلك كان يرى على أغصان قودوش المذكورة شئ كثير من تلك النذور باقية معلقة محترمة لايستطيع أحد أن يمسها بيده لانهم يزعمون أن من سرق شيأ من تلك الاشياء مات لساعته وكان لمعبودتهم قودوش هذه نواب يعرفون باسم طغالك وهؤلاء النواب يختارهم الناس يعنى اذا رأى أحد من الناس شجرة فى جوار داره واستحسنها واستعظم حجمها اتخذها نائبة عن قودوش فيستر ساقها بسياج لطيف ويربط أطرافها من أعلى بالحبال والحشيش اليابس على هيئة عامة ثم يسميها باسم طغالك وينسبون اليها نماء زرعهم وحفظه من الصيال فاذا هاف الزرع مثلا ونقصت غلة الارض فى سنته تقدموا الى تلك الشجرة وجعلوا يتضرعون اليها ويقولون وهم حاسرو الرؤس نرجو كرما منك أيها المعبود العظيم أن تبارك فى غلات أرضنا وتكثرها فى عامنا هذا فقد كانت فى العام الماضى غير كافية لنا ولضيوفنا ثم يسجدون تحتها لجهة الشرق ويذبحون رأسا من الضأن أو المعز قربانا ويصبون على رأسه شيأ من الخمر أو البوزة ويكررون هذه الضراعة والابتهال كل قليل الى زمن الحصاد فاذا أخصبت أرضهم وكثرت غلاتها فى عامهم ذلك فرحوا وخروا سجدا لمعبودتهم وبالغوا فى تعظيمها والا حنقوا وصاحوا عليها لماذا لاتسمعين نداءنا ثم يغضبون فينزعون عنها أوراقها و يقطعون أغصانها ثم ينزعونها من أصلها ويحرقونها ويتخذون لهم معبودة أخرى مكانها ثم يتقدمون اليها بالتبجيل والتعظيم ويقولون لها يامعبودتنا الجديد ان الطغالك الذى كان لنا فعبدناه من قبلك حينا قد أساء الينا فألقيناه فى النار والتنور وجعلناك لنا طغالك جديدة وسنقوم بعبادتك خير قيام فان أنت لم تصغى الى ندائنا فلعناك وألقيناك فى النار * قال الراوى وكان هذا التنبيه من عاداتهم القديمة * وكانت عادة السلاطين الجانكيزيين أنهم يعطون أولادهم الى أمراء الجراكسة لارضاعهم وتربيتهم على حالة البداوة فاذا أتموا مدة الرضاع والتربية ردوهم الى آبائهم فكانوا لذلك يغدون ويروحون الى بلاد القرم ولاختلاطهم بمن اعتنق الدين الاسلامى من التتار مال بعضهم الى التدين به فخلطوه ببعض عاداتهم فكانوا يصومون شهرا فى السنة وبعد أربعة أشهر من هذا الشهر يطبخون حبوب عاشوراء ثم بعد ذلك بشهر أيضا يدعون لقراءة المولد النبوى شيخا عارفا برطانتهم فيقرأ عليهم شيأ تقليدا للاسلام وكانوا يعملون فى كل سنة ضيافة على اسم سلطان الابطال الامام علىّ بن أبى طالب ويتظاهرون مثل العلويين وظلوا على هذا الحال حينا من الدهر وهم لايعرفون من الاسلام غير الاسم فقط لان العبادة التى نقلوها عن التتار لم يقصدوا بها عرض العبودية لجانب الحق سبحانه وتعالى وتعظيم نبيه ورسوله بل كانت لحصول الفيض والبركة * قال بعض الكتاب وكانوا أيضا يعملون عيد فصح لروح أبى جهل ويسمون هذا الفصح باسم صاوصوروق اه وقد دخلت النصرانية فى عدة جهات من بلاد الجراكسة بسبب الجنويزيين الذين استوطنوا ساحل البحر الاسود فى القرون المتوسطة فمال الى التدين بها الكثير منهم وكادت تعم جميع القبائل فلما تغلبت الدولة العثمانية على بلادهم واستقر أمرها ظهر الدين الاسلامى وزال

الدين

الدين المسيحى أوكاد

وكانت لهم حكايات وروايات غريبة للغاية يروونها بالسند الى معبوداتهم ودينهم قبل الاسلام * منها أنهم كانوا يروون أن رجلا محبوسا فى مغارة فى جهة قلعة الحجاج الكائنة فى جبل البرز يقال له ﴿ ضحاك مارى ﴾ فاتفق أن رجلا من أهل قرية كانت تقرب من ذلك الجبل كان يتجول فى الجبل للصيد فرأى المغارة المذكورة ففكر فى نفسه وقال ليتها تصلح مأوى للغنم ثم دخلها فلم يأته الى جوفها حتى سمع صوتا مريعا أوقفه عن المسير فجعل يفرك عينيه بيديه لعله يرى ما فى داخل المغارة واذا به يرى شيأ هائلا على شكل الانسان مربوطة رجلاه الى عنقه ويداه مقيدتان بقيد محكم وفى وسطه سلسلة من حديد فوقف الرجل قليلا حتى سكن روعه واطمأن جأشه وعلم أنه محبوس وبينما هو يفكر فى أمر ذلك المحبوس اذ خاطبه المحبوس قائلا يا أخى لاتخف واقترب منى فانى مرهون هنا ومنتظر للوقت المعهود فان أنت أحسنت لى العمل فأتنى بعصى طويلة تشبه القصبة الطويلة التى يعلق بها حبل الغسيل فان فعلت وقدرت على أن أنزل هذا السيف المعلق أمامى فانى أتخلص من هذا القيد وهذه السلسلة التى أنا مربوط بها فأجازيك على احسانك بخير الاحسان وأحفظ لك هذا الجميل على الازمان قالوا فخرج اليه الرجل وأتاه بعصا فتناولها ويداه مربوطتان ومدها نحو السيف واجتهد جهده فى تنزيله فلم يقدر فالتفت الى الرجل وقال له ويلك فيسك لم يأت وقت لمجانى ولاساعة خلاصى من هذا الاسر وكسر العصا قطعا فجعلها جذاذا كقطع السوالك فتركه الرجل وانصرف وعاد الى القرية فأخبر زوجته وأولاده بما رآه وحدثهم بما سمعه من ذلك المحبوس ولبث أربعة أيام ومات وشاع خبر موته وما أخبر به أولاده من خبر ذلك المحبوس فاجتمع أهل القرية وقالوا كيف يموت وقد عاش جده وأبوه أكثر من مائة عام وهما لم يشاهدا ذلك المحبوس ولا المغارة ولو لم يره هو مامات وهو فى هذا العمر واستولى الخوف من الموت على جميع أهل القرية فتعاهدوا على أن لايذهب أحد منهم الى تلك المغارة وشاع خبر ما وقع بين القرى المجاورة فاجتمعوا وتعاهدوا على أن لايقتربوا من تلك المغارة ولا يراها أحد منهم وعملوا لذلك حدودا لا يتخطوها فأوت الى تلك الحدود الوحوش من الثعالب والسمور والفهد وكلب الماء وكثير من الطيور كالرهو والبيل والرخم والغرنوق ودجاج الارض والدراج وصيدها جميعها ممنوع فيما بينهم ولم تزل هذه الحيوانات مع كثرتها تشاهد للمارين وهى آمنة مطمئنة لاخوف عليها * ومن عادة الامهات عندهم أنه اذا بكى الطفل وأسكتته أمه ولم يسكت خوفته بصاحب تلك المغارة فتقول له مه والا أتيتك بصاحب المغارة فيفعل بك كذا وكذا ويروون عن هذا المحبوس غير ذلك أيضا ولهم عادات فى عباداتهم كثيرة غير ما ذكرناه قد أضربنا عن ايرادها هنا

(لاحقـــــة)

((فى أخلاق الجراكسة وعاداتهم))

جاء فى تاريخ العلامة جودت باشا ماتعريبه ❁ جبت أرض قبائل الجراكسة والاباظة طولا وعرضا فوجدتها نظيفة طاهرة من جميع الادران ووجدتهم قوما عقلاء قابلين للحضارة والمدنية ذوى شجاعة وجسارة صادقين فى أقوالهم ثابتين فيها لايتكلمون بالكذب أصلا ولا يحلفون أيمانا كاذبة فاذا اتخذت لك منهم خادما فهما كان عنيدا فظا عاصيا فاستحلفه على الامانة والولاء فاذا حلف لايخونك أبدا ولا يحنث فى يمينه ولايعمل على خلاف ما أقسم به ولكن يجب استحلافه على كل أمر بحرفه فتقول له احلف أنك لاتخوننى فى كذا وفى كذا وفى كذا فاذا ارتكب الخيانة فى أمر وعاتبته عليه وكان غير داخل فى عداد ما استحلف عليه قال قد حنثت فى هذا الامر لاننى لم أحلف على عدم الخيانة فيه ❁ قال وهم قوم فى غاية السخاء والكرم يقرون الضيف حتى لو كان صاحب البيت من أشرافهم والضيف من صعاليكهم أو من أحد العامة فانه لايقعد فى حضوره بل يخدمه واقفا على قدميه ولاينام بل يقضى ليله مسلحا بسلاحه لحفظه وحراسته ومن عادتهم أن صاحب البيت لايأكل مع الضيف ولا من الطعام الذى صنع للضيف ولاينزعون عن الدجاج الذى يطبخونه للضيف رؤسها عن أبدانها بل يضعونها أمام الضيف كذلك اشارة الى أن رؤسهم وأجسامهم فداء له وألبستهم تكاد تكون جميعها من لون واحد فلا فرق بين الغنى والفقير فى الملبس وفقراؤهم لايصيرون أغنياء وأغنياؤهم لايصيرون فقراء وجميعهم يعتقدون أنهم اخوة بعضهم لبعض فاذا لزم لأحدهم شئ وطلبه من الآخر أعطاه اياه بلا معاوضة ولا يجيبه بكلمة لا ❁ ومن عاداتهم أن لا يقتل أحدهم الآخر ولا يشتمه ولا يسبه ولا يضربه ويستخدمون أسراهم بالرفق واللين من غير أن يضربوهم أو يؤذوهم ولا يقترون عليهم فى المأكل والمشرب وليس من الأمور المعيبة عندهم النهب والسلب أو التخريب بل يعتبرون ذلك من البسالة والاقدام ❁ ومن عاداتهم احترام الشباب للشيوخ فلا يقصر الشاب فى خدمة الشيخ بل يقوم بخدمته قيام العبد لخدمة مولاه ويصح لصاحب الحسب والنسب والقدر الرفيع من قبائل الجراكسة أن يتزوج بنت آحاد الناس ليكسبها قدرا وشرفا ولكن لا يصح أن الاصاغر من الناس يتزوجون بنات ذوى الحسب الرفيع مطلقا ولا يسكنون بجوار بعضهم بل بيوتهم متفرقة على رؤس الجبال فاذا حدث لاحدهم حادث نادى بما يعبر عنه بلسان التتار أيش حريق فيصل خبر ذلك الحادث الى جميع البيوت فى وقت قريب للغاية فيجتمعون ويتكلمون فى أمر ذلك الحادث واذا قاموا لحرب قدموا عليهم

أحدهم

أحدهم فلا يبقى لاحد منهم كلمة فوق كلمته فعليه تدبير أمرهم فى تلك الحرب وعليهم طاعته فى جميع ما يأمر به فاذا انقضت الحرب عاد كل الى ماهو عليه من الحرية والاستقلال ولغتهم متعددة ولا تنطبق على مخارج الحروف المعتادة قال ومع هذا كله فانهم متوحشون جبليون لا يميزون بين الكفر والايمان ولا بين الخير والشر ولا يقدر غريب أن يطوف بينهم واذا أراد أحد الناس أن يمر بين مساكن احدى قبائلهم أخذ معه دليلا من قوم تلك القبيلة والا وقع فى مخالب العطب وهذا الدليل يقال له (شاغرى) وهذا الشاغرى يكون مرعى الجانب مسموع الكلمة فاذا شاء أحد من الناس الاختلاط بقبائل أولئك القوم ومعاشرتهم والتطواف بين منازلهم كواحد منهم لزمه أن يتبنى لاحد أصحاب الحسب وطريقة ذلك عندهم أنه يأخذ أولا ثوبين من القماش الابيض وجلدا من السختيان وابرة وخيطا ومشطا وكستبانا ثم يطلب له دليلا فاذا وجده يعطيه أحد الثوبين المذكورين أجرة ليوصله الى أمير القبيلة التى يختارها فيسير به الى دار الامير فيقدم هديته الى امرأة صاحب الدار واذا كان صاحب الدار غائبا فى ذلك الوقت لزمه الدخول الى فناء الدار وطلب زوجة صاحب الدار فاذا جاءته هجم عليها وأخذ بفمه أحد ثدييها وجعل يرضعه وهو يقول قد صرت فى بيت الوالدين وصرت لك ابنا فى الرضاع يفعل هذا ولو كانت امرأة ذلك الرجل بنتا وكان زفافها اليه تلك الليلة واذا كان لايعرف رطانتهم يبلغهم مايقول بواسطة ترجمان منهم وقاعدتهم فى هذا الامر أن المرأة تمسح بيدها على ظهره اشارة لقبول بنوته ثم تأذن له بالاقامة عندهم وعند مايأتى زوجها تخرج اليه وتقول له انظر الى هذا فقد اتخذته لى ولدا ثم تشير الى زوجها بأن يقبل يده فيفعل ويقبله أيضا ويأخذ من يومه فى تدارك أمر ضيافته فيعد لذلك ما طاب من الأكل والمشرب ويدعو قبيلته ومن جاورها من بقية القبائل ويجعل ذلك الوقت عيدا فيأكلون ويشربون ويفرحون يومهم ذلك وفى ختامه يقول صاحب الدار لجميع من حضر انظروا قد اتخذت هذا لى ولدا فيمشون فى وجهه ويهنؤنه ثم ينصرفون ويبقى صاحب الدار وذلك الرجل فى الاتصال كالاب والابن ويظهر كل منهما للآخر محبته فيغدو الرجل ويروح بلا ممانع فان كان تاجرا فلا يبقى فى حاجة الى من يحفظ عليه ماله بل يكون آمنا من جميع المخاوف والمحاذير فاذا صادفه فى طريقه أحد وقصده بسوء من أخذ ماله أواذهاب روحه فقال أنا متبنى لفلان فانه ينكف عنه فاذا لم يلتفت الى قوله وأخذ ماله أو أخذه أسيرا واتصل خبر ماجرى له بأبيه قام لاسترجاع ما أخذ منه أو استخلاصه وأخذ أيضا من الفاعل لذلك تسعة أمثال ما اغتاله ويسمون ذلك عندهم (عيبلق) أى جزاء ما ارتكبه من العيب وهى عادة من رسمهم القديم واذا كان الصائل أوالمغتال لا قدرة له على دفع هذا الجزاء أخذ أسيرا وبيع * ومن عاداتهم أن من يحكم عليه بالجزاء لايهرب بل يسلم نفسه واذا كان له بنات ورضى أب من أخذ ماله بأخذهن جاز له بحسب قانونهم أخذ اثنتين منهن بدلا عن أبيهما فيباعان عوضا عن أبيهما

والقتل عندهم من أكبر الجرائم وأشدها عقابا ولذلك يتباعدون عنه ما استطاعوا فاذا ضرب أحدهم آخر ضربا أفضى به الى الموت كان الجزاء بحسب مرتبة الاهل وهم على ثلاث مراتب وهى مرتبة البكوات * ومرتبة الأوزنيين * والطوقاد * فالبكوات هم كبار القبائل وأصحاب الحسب والنسب والاوزنيون هم أواسط الناس والمساتير منهم والطوقاد هم العامة فاذا كان المقتول من أواسط الناس كانت ديته عشرين عددا حسب اصطلاحهم خمسة منها أسرى تقاس قدودهم على قدر معلوم بالشبر والخمسة الثانية منها عبارة عن خمسة رؤس من جياد الخيل كل رأس بقيمة أسير والخمسة الثالثة منها عبارة عن خمسة دروع كل درع قيمة أسير والخمسة الباقية يقال لها (شوشقه) يعطى فيها سيف وبارودة وقوس ولابد من قيام المحكوم عليه بالدية بجميع ذلك على أى حال كان ولما لم يكن عندهم نقود ولا سكة كان تقدير قيمة الاسير عندهم بالشبر ولا يعتبر عندهم ثمن الاسير بحسب جماله أو بشاعته بل ينظر حسابه على حسب الشبر والاسير التام عندهم ستة أشبار فاذا كان أقل من ذلك عد ناقصا فاذا لزم أحدهم أن يعطى آخر أسيرا تاما وأعطاه اياه بقياس أربعة أشبار مثلا لزمه أن يتم الباقى بشئ آخر * ومن عاداتهم أيضا أنه اذا زنت امرأة وثبت زناها بيعت هى وجميع أولادها بأبخس الاثمان * وقاعدة ذلك عندهم * أن زوج تلك الزانية يذهب الى أبيها وأمها ويخبرهما بما وقع ويقول ان بنتكما بنت حرام فخذوها عنى وأعطونى ما أخذتموه منى مقدما فى عقد نكاحها فعند ذلك يتبرأ منها والداها ويأذناه بأخذها وبيعها هى وأولادها فيحملها مع أولادها الى النخاس ويبيعهم ويأخذ ثمنهم فلا يصل الى داره الا ويكون قد فرق جميع الثمن المقبوض على اخوانه وخلانه ويبيت ليلته تلك ويصبح فيسير الى بيت الزانى ومعه بعض كبار القبيلة ويقول له قد بعت المرأة بكذا من الثمن وأطلب منك حقى ثم يتركه وينصرف ويرسل اليه فى ثانى يوم من يطالبه بهذا الثمن فلا يسع الزانى الا أن يقوم بدفع الثمن الذى بيعت به المرأة وتسعة أمثاله أيضا جزاء ما ارتكبه من فعل الزنا فان كان الزانى لامال عنده ولم يوجد من يعينه على ذلك فيقوم عليه والداه ويقيدانه ويسلمانه الى زوج المرأة ويقولان له هذا حقك فيأخذه بحيث لايضربه ولا يشتمه ولا يهينه ولا يوبخه ولا يقول له انك فعلت كذا وكذا لان الشتم وفحش القول عندهم مكروه ويسير به الى السوق ويبيعه بأى قيمة أعطيت فيه ثم يلتفت الى الشخص ويقول له هذه قيمتك ويفرق ماقبضه من الثمن على الحاضرين ثم ان قبيلة الجانى توفى بقية حقه

وبلاد الجراكسة لطيفة الهواء والماء وفصولها الاربعة جميلة وأراضيها خصبة ذات محاصيل كثيرة وينبت فيها جميع أصناف الخضر ولكن جميع قبائل الجراكسة لا يأكلون الخضر ويعيشون على أكل اللحم فقط وليس لهم غاية فى الفلاحة فهم ذوو كسل وبطالة وطباعهم أشبه شئ بطباع العرب البادية ولكنهم لا يعادون بعضهم ولا توجد بينهم آداب ولا رسوم مدنية ولا ما يوجب الترقى والحشمة والاحتراز من

بعضهم

بعضهم وفى بلادهم جميع أنواع النباتات كالسنا والراوند الصينى ونوع من السحلب القوى وجميع أنواع الفاكهة والخضر والزيتون والكستنة والشاى البرى ومن أشهر الاشجار عندهم شجر البقس وهو يصلح للسفن جدا فلذلك اذا أتى أصحاب السفن لاخذ شئ منه لا يتقدمون الى ذلك الا اذا وضعوا رهائن منهم عند كبار الجراكسة وأخذوا معهم رهائن منهم أيضا ليكونوا آمنين من شر أصحاب القرصان المعروفين باسم جكليا ولا يوجد عندهم ملح مطلقا وهو عزيز للغاية عندهم فلذلك جرت العادة عند أصحاب السفن التى تسير الى بلاد الجراكسة أن يأخذوا معهم كثيرا من الملح ويتعاملون به معاملة العروض وذلك بأن يضعوا مقدارا من الملح فى احدى كفتى الميزان ويجعلون فى الكفة الثانية مقدارا من العسل مثلا أو من شمع العسل أو من جلود الثعالب والسمور * وفى بلادهم أيضا سائر أنواع الصيد من الطير والوحش ولهم فى القنص أمر غريب ومنه صيد الفهد وهو مخصوص بالنساء وذلك أنهن يعلقن قطعة من اللحم فى شعبتى شجرة ذات شعوب فيأتى الفهد ويثب لأخذ اللحم فتتعلق رجله فى شعبة الشجرة فيمسك وفى الحال يسلمنه الى رجل طويل القامة يسلخ جلده * ومن عاداتهم الغريبة أن الذى يسلخ الفهد يلزم أن يكون مساويا للفهد فى الطول ولهم عوائد أخر غير ما ذكر قد أضربنا عن ايرادها خوف الاطالة

وقد جاء بهؤلاء الجراكسة ملوك مصر وأكثروا من شرائهم وتغالوا فى ملبسهم ومركبهم لا سيما السلطان الملك الصالح ابن السلطان الملك الكامل فكانوا مع من بقى من المماليك البحرية الذين اصطفاهم السلطان الملك الصالح لخدمته وسلم اليهم دولته يدا واحدة فكانت لهم حراسة الحصون والقلاع وفى أيديهم سائر الابراج وقد سكنوها وتسموا بها فكان يقال لهم البرجية كما كان المماليك البحرية يسمون أيضا فى أيام الملك الصالح بالحلقة اشارة الى أنهم كانوا لا يفارقونه فى حله وترحاله وما زالوا على هذا الحال حتى عظم أمرهم واشتد بأسهم وظهرت كلمتهم وهابهم الامراء لتمكنهم من مناصب الدولة وأمور المملكة وتزلف السلاطين الى كبارهم وأدنوهم خوفا من بطشهم وأخذوا برأيهم وعملوا بمشورتهم فسادوا وأمروا وفازوا واشتهروا وظهر من بينهم برقوق اليلبغاوى الجرى الذى تقدم الكلام عنه واشتهر أمره واتسعت كلمته وخضع له كبار الدولة وأمراء المملكة فتصرف فى جميع الامور تصرف المستبد وركب فى دست السلطنة فى أيام الملك المنصور وفى سلطنة أخيه الملك زين الدين حاجى وما زال على هذا الحال من الرفعة والسودد وعلو الكلمة حتى تمكن ورسخت قدمه وخلع السلطان الملك الصالح زين الدين واستبد بالملك وطلب من الخليفة المتوكل البيعة فبايعه وبايعه القضاة والعلماء والامراء وكبار الدولة ولقبوه بالملك الظاهر تفاؤلا بالملك ركن الدين بيبرس البندقدارى * ثم كان من أمره وأمر من جاء بعده من هذه الطائفة ما سيذكر بعد

(فصـــــل)

(فى الكلام على ما وقع فى أيام هـذه الدولة أعنى دولة الجراكسة الثانية الى انقراضها وزوال ملكها)

لما تمت البيعة للسلطان الملك الظاهر برقوق أحسن السيرة وبالغ فى الاهتمام بشؤن البلاد وراحة الرعية ورتب أمور الدولة وأتقن نظام المملكة وحصن الثغور وعمر الابراج ورمم القلاع وأكثر من العساكر والاجناد وتأهب لقتال تيمورلنك وقد كان تيمورلنك على عزم الزحف على الشام وأخذها والركوب على ديار مصر واستخلاصها من يد السلطان الملك الظاهر فخرج السلطان الملك الظاهر فى أبهة عظيمة وسار من القاهرة فى جيش جرار لقتال تيمورلنك * فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا فانهزمت جيوش تيمورلنك شر هزيمة وعادت خاسرة وعاد السلطان الملك الظاهر برقوق بجيوشه الى القاهرة ظافرا غانما ودخل من باب النصر فى أبهة وأمامه الامراء ورؤساء الدولة ففرح الناس برجوعه ودقت البشائر ولم يستقر به المقام بالقاهرة حتى سعى أصحاب السعاية بينه وبين الخليفة المتوكل فاعلموه أن الخليفة واطأ جماعة من أهل الفساد على قتله اذا لعب الاكرة وانه تعاهد مع آخرين على نصرته واستبداده بالامر وأن الخليفة يقول انه ما فوض الى السلطان الملك الظاهر برقوق السلطنة الا كرها وانه لم يسر فى ملكه بالعدل فاستعظم الملك الظاهر هذا الامر وبث العيون والارصاد حول الخليفة المتوكل فكبرت الوحشة بينهما وخاف كل من صاحبه وتحفظ فاستدعى السلطان الملك الظاهر بالقضاة والائمة والعلماء وخاطبهم فى أمر الخليفة وما بدا منه وأعلمهم بخبر الدعاة الذين انضموا اليه ووافقوه على خلع السلطان فأجمعوا على خلع الخليفة وطال الاخذ والرد بينهم أياما ثم خلعوه وقبض عليه وسجن بقلعة الجبل فى سنة سبع وثمانين وسبعمائة هجرية وقيل بل امتنعوا من اجابة طلب السلطان وقلموا عنه فخلع هو الخليفة بقوته واعتقله بالقلعة ثم طلب عمر بن ابراهيم بن المستمسك بن الحاكم وبايعه ولقبه الواثق بالله وذلك فى رجب سنة خمس وثمانين وسبعمائة * فلما كان ذو القعدة من السنة المذكورة أخرج المتوكل من سجنه فأقام بداره مكرما لا خوف عليه * وقد كان الخليفة المتوكل المذكور خلع قبل هذا الحين بقليل وذلك انه لما مات الاشرف وأقيم ولده المنصور على كان الامير ايبك البدرى مدبر دولته فوقع بينه وبين الخليفة المتوكل كلام فحقد أيبك على المتوكل أمورا فطلب نجم الدين زكريا بن ابراهيم ابن ولى العهد المستمسك ابن الخليفة يوم الاثنين رابع ربيع الاول سنة تسع وسبعين وخلع عليه وأقامه خليفة

فاستقر

فاستقر بغير مبايعة ولا اجماع ولقب المعتصم بالله • فلما كان العشرون من الشهر المذكور كلم الامراء أينبك فيما فعله مع المتوكل ورغبوه فى اعادته الى الخلافة فأعاده وخلع زكريا فكانت مدة خلافة زكريا خمسة عشر يوما ولم يتم الشهر على أينبك حتى اتفق العسكر على خلافه وقاموا عليه فهرب فتبعوه وظفروا به فى تاسع ربيع الآخر من السنة فقيدوه وسجنوه بالاسكندرية ثم كان آخر العهد به فقال فيه شهاب الدين ابن العطار

من بعد عز أذل أينبكا • وانحط بعد السمو منفتكا
وراح يبكى الدماء منفردا • والناس لا يعرفون أين بكى

واستقر الواثق فى الخلافة الى أن مات حتف أنفه يوم الاربعاء تاسع عشرى شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة أو سنة سبع وثمانين وسبعمائة فكلم الناس برقوقا فى اعادة المتوكل الى الخلافة فأبى وأحضر أخا عمر زكريا الذى كان أينبك قد ولاه تلك الايام اليسيرة فبايعه ولقب بالمستعصم بالله فاستقر الى يوم الخميس ثانى جمادى الاولى سنة احدى وتسعين وسبعمائة • قال بعض أهل التاريخ وندم برقوق على ماصنع بالمتوكل فخلع زكريا وأعاد المتوكل الى الخلافة فركب من يومه فى الدست وحلف القضاة كلا من الخليفة والسلطان على موالاة الآخر ومناصحته وأقام زكريا بداره الى أن مات مخلوعا فى سنة احدى وثمانمائة هجرية وقرئ تقليد المتوكل فى المشهد النفيسى فى ثامن عشر الشهر بحضرة القضاة والامراء وقرر له السلطان دارا بقلعة الجبل يسكنها ويركب الى داره بالمدينة متى شاء واستمر فى خلافته مهيبا محترما محبوبا عند الامراء والوجهاء وكثرت أولاده كثرة فائقة وأثرى وكثر ماله وهابه الملك الظاهر برقوق لما رأى من طاعة الامراء له واجتماع رجال الدولة على كلمته والأخذ بمشورته فلم يلبث على مصافاة السلطان الملك الظاهر الا قليلا حتى عادت الوحشة بينهما واستحكم النفور واشتد الخلاف فاتحد الخليفة المتوكل مع جماعة من كبار الامراء وبينهم الامير يلبغا الناصرى والامير منطاش على خلع السلطان الملك الظاهر فقاموا عليه وخلعوه من السلطنة وسيروه منفيا الى قلعة الكرك واستقدموا السلطان الملك الصالح حاجى آخر ملوك دولة المماليك البحرية الذى قد كان خلعه برقوق على ماتقدم بيانه فحضر وبايعوه فى السادس من جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين وسبعمائة ولقب بالملك المنصور واتسعت كلمة منطاش وكبرت صولته وتاقت نفسه الى الملك فركب فى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة على بعض الامراء وقتلهم وأمسك الناصرى مع جماعة من الامراء وسيرهم الى الاسكندرية وألقاهم فى السجن وأرسل الى بزلار نائب دمشق من أمسكه وقتله وأقام بدله فى نيابة دمشق الامير جنتمر أخا الامير طاز وسير الى قلعة الكرك من يقتل السلطان الملك الظاهر برقوق وكان المرسل ممقوتا عند أهل الكرك فلما علموا بخبر مجيئه قاموا عليه وقتلوه

وأطلقوا السلطان الملك الظاهر برقوق فسار برقوق الى دمشق فى نفر من أصحابه نخرج اليه صاحب دمشق بالعساكر الشامية فانتصر عليهم برقوق نصرة عظيمة ونزل بقبة يلبغا وحاصر دمشق وضيق عليها وشدد وتوجه اليه نائب حلب المدعو كشبغا بعساكر حلب ناصرا له واجتمع اليه أيضا كل من كان قد تفرق عنه فكبرت جموعه وجاءت الاخبار بذلك الى منطاش بالقاهرة نخرج اليه منطاش بالسلطان والعساكر المصرية والخليفة والقضاة وقرب من الشام والتقى الجمعان بناحية شقحب فانتصر البعض من الفريقين وانكسر البعض ولم يعلم أحدهما حال الآخر فولى كشبغا هاربا نحو حلب وولى منطاش نحو دمشق ولم يشعر السلطان الملك الظاهر برقوق بنفسه الا وهو على مخيم السلطان الملك المنصور حاجى فنزل فى الحال عن فرسه وأمسك الملك المنصور وقيده وجلس هو على كرسى السلطنة وصار كل من يحضر من الفريقين يجده جالسا فى دست السلطنة فلا يسعه الا النزول وتقبيل الارض بين يديه فلما كان اليوم الثانى خرج منطاش فيمن بقى من عسكر مصر والتقى الجمعان وتناوشا قليلا ثم رجع كل الى مقره وسار السلطان الملك الظاهر برقوق من ليلته قاصدا مصر ومعه جماعة من عسكر حلب والعسكر الشامى والمصرى ووصل اليها فوجد مماليكه قد خرجوا جميعا من الحبوس وأمسكوا أعوان منطاش والعاملين معه ومنطاش بدمشق فدخل السلطان الملك الظاهر برقوق مصر فرحا مطمئنا وأطلق جميع الامراء الذين حبسهم منطاش

وأما منطاش فانه لما بلغه خبر وصول السلطان الملك الظاهر برقوق الى مصر وماجرى فيها أرسل أميرا اسمه تمنتمر الموساى الى حلب نائبا وحاصروا كشبغا فى قلعتها وجاء الخبر بذلك الى السلطان برقوق فجهز عسكرا عظيما من مصر ومقدمهم الامير يلبغا الناصرى وسير معه الامير الجوبانى نائبا بدمشق وقرادمرداش نائبا بطرابلس فلما أحس منطاش بقدومهم هرب من دمشق وبلغ ذلك تمنتمر وهو يقاتل من بحلب فهرب أيضا وخرج الناصرى والجوبانى ومن معهما من العساكر من دمشق فى أثر منطاش وهو منضم الى نعير بن جبار وعنقا فحصلت بين الفريقين وقعة عظيمة للغاية على مدينة حمص قتل فيها الجوبانى وجماعة من الامراء وعاد الناصرى الى دمشق فجاءه تقليد نيابتها وبلغ ذلك كشبغا نائب حلب فأخذ فى عمارة سورها ولم تكن عمرت من عهد طاذان ووصل منطاش ونعير وعنقا فى جيش جرار ونازلوا حلب وحاصروها فى شهر رمضان فلم يتمكنوا منها ورجعوا عنها خاسئين وأرسل السلطان الملك الظاهر برقوق فى طلب الامير كشبغا فحضر الى مصر فولاه بها أميرا كبيرا واستقر عوضه قرادمرداش بولاية حلب ولم ينكف منطاش عن شن الغارة كل قليل من الزمن على البلاد الشامية وكثر عبثه وفساده فكبر أمره على السلطان برقوق وخرج فى جيش عظيم يريد الشام وبلغ ذلك منطاش فهرب نحو الشرق وقدم السلطان دمشق واستصحب معه الناصرى وسارا الى حلب وأقاما بها أياما ثم عاد الى دمشق وفى ليلة عوده قتل يلبغا الناصرى وجماعة من الامراء بقلعة حلب وأخذ معه قرادمرداش وقرر

عوضه

عوضه فى حلب الامير سيف الدين بطا الدوادار وسار فى عسكره يريد مصر فدخلها فى سنة أربع وتسعين وسبعمائة وفى قلبه غصة لعدم ظفره بمنطاش واراحة البلاد منه فلم يمض على وصوله الا القليل حتى جاءه الخبر بمسير منطاش الى نعير بن جبار ونزوله عليه طنبيا فأرسل السلطان برقوق ووعد نعيرا باعادة الامرية اليه ومناه حتى سلم منطاش فسيره السلطان مع جماعة الى قلعة حلب فقتل بها وأحضر رأسه الى القاهرة وعلق بباب زويلة وعاد السلطان فنكث وعده لنعير وأرسل اليه يوبخه ويعيره بأنه خان ذمة العرب ولم يوله الامرية فندم نعير على ما صنعه بمنطاش وتمكن السلطان الملك الظاهر من السلطنة وثبتت قدماه فى منصبها فهابه الناس وكبرت شهرته وتقرب منه الامراء والملوك وأهدى له الامير يوسف بن قرا محمد أمير التركمان بالشرق مدينة تبريز وبعث اليه بمفاتيحها مع بعض كبار قومه فأرسل اليه برقوق خلعة سنية وفوض اليه الغزو وفتح ما تمكن من فتحه من المدن والامصار ففرح قرا يوسف بذلك وجيش جيشا عظيما وخرج للغزو وقتال التتار فركب عليه تيمورلنك فى عسكر جرار وقاتله فانتصر عليه تيمورلنك نصرة عظيمة ومزق عساكره كل ممزق فسار قرا يوسف ومعه أحمد بن عويس وهو ممن كان حالفه على قتال التتار الى قسطنطينية مستجيرين بالامبراطور منويل فلم ينجدهما ولم يسمح لهما بالبقاء فى بلاده خوفا من تيمورلنك لا سيما وقد كانت الامبراطورية كلها فى ضعف واختلال بأسباب الحوادث المتراكمة وهجمات السلطان بايزيد رابع سلاطين آل عثمان على معظم ايالات المملكة الرومانية الشرقية وضم الكثير منها الى أملاكه وقربه من مقر الامبراطورية لولا قيام تيمورلنك من خلفه فى عسكر كبير ومنعه من التقدم الى القسطنطينية • ولما لم يتمكن قرا يوسف وأحمد بن عويس من البقاء فى جوار منويل الامبراطور جاآ الى مصر فى نحو سنة خمس وتسعين مستجيرين بالسلطان الملك الظاهر برقوق فأحسن برقوق وفادتهما وأنزلهما منزلا رحبا وابثا عنده أياما وكان تيمورلنك والسلطان بايزيد التركى يتمنى كل منهما فتح ديار مصر ونزعها من يد دولة المماليك الثانية فعمد كل منهما الى ارسال وفد الى برقوق فتقدم وفد بايزيد الى برقوق فى معاهدتهم على السلم والى الخليفة المتوكل على أن يقرهم على ما بيدهم من سلطنة الاناضول فأجابهم الى ذلك أما سفراء تيمورلنك فانهم أغلظوا فى القول وسألوه تسليم قرا يوسف وأحمد بن عويس فطيب برقوق خاطرهم ولاطفهم فلم يزدادوا الا عتوا فأمر بهم فقتلوا جميعا فشق ذلك على تيمورلنك واستعظمه وسار فى جيش عظيم الى مصر آخذا بالثار فمر بالرها ففضها وأعمل السيف فى أهلها تشفيا وانتقاما فأهلك منها خلقا كثيرا ثم جاء الى حلب فأنكى فيها فخشى السلطان برقوق العاقبة وخرج من القاهرة فى عسكر عظيم وصحبته السلطان أحمد بن عويس يريد دفع تيمورلنك عن البلاد فلما وصل الى دمشق خلع على السلطان أحمد المذكور وجهزه بشعار الملك وسيره الى بغداد فأخذها وضرب السكة باسم السلطان برقوق وجعل السلطان برقوق يتأهب لصد

تيمورلنك ويكثر من جمع الاسلحة والكراع الا أن المنية أدركته قبل أن يتم له الارب فمات بداء الصرع فى يوم الجمعة خامس عشر شوال سنة احدى وثمانمائة هجرية وعمره ستون سنة فحزن عليه الناس حزنا عظيما لعدله ورفقه بالرعية وقد أبطل فى أيامه المكوس عن الفاكهة والاثمار التى كانت ترد من طريق بولاق وكان كثير الصدقات محبا للعلم والعلماء بنى مدرسة عظيمة وسماها المدرسة الظاهرية وابتنى جامعا لا يزال الى يومنا ظاهرا معروفا بجامع برقوق وكان له ولع باقتناء الاسلحة وجياد الخيل والاستكثار من المماليك الجراكسة وكان كثير العناية بامور الدولة وتنظيم المملكة

ولما مات السلطان الملك الظاهر برقوق المذكور بايعوا بالملك ابنه فرج زين الدين الملقب بابى السعادات وله من العمر يومئذ ست وعشرون سنة ولقبوه بالملك الناصر فلما كانت سنة ثلاث وثمانمائة وردت الاخبار الى الملك الناصر بتأهب تيمورلنك للزحف على ديار مصر والشام فانه لما عاد من أخذ بلاد الهند بلغه وفاة السلطان الملك الظاهر برقوق فاستبشر لذلك وأنعم على مخبره بجملة تحف وكان فى نفسه منه لقتله رسله ومن أخذ السلطان بايزيد خان مدينة سيواس عقب موت صاحبها القاضى برهان الدين سنة ثمان وتسعين وسبعمائة مع ملطية وأخذ السلطان أحمد بن عويس بغداد فقصد بلاد الشام ومعه من العساكر مالا يكاد يحصى ٭ قال أبو الوليد محمد بن الشحنة الحنفى أخبرنى الحافظ الخوارزمى أن بديوان عساكر تيمورلنك المختصة به ثمانمائة ألف وانه اجتاز على سيواس وحاصرها وأخذها بعد أن حلف لاهلها أن لايضع فيهم السيف فلما تمكن منهم حفرلهم حفائر ودفنهم فيها أحياء ثم أحرق البلد وأخربها وتوجه نحو البساتين فوجد أهلها قد أخلوها فاحرقها وخربها ثم توجه الى ملطية فهرب من كان بها فاخذها وخربها ثم اجتاز ببهنى فحصرها ونصب عليها المنجنيق وهدم بعض قلعتها ثم أخذها صلحا ٭ ولما كان يوم الخميس تاسع ربيع الاول وصل الى حلب ونازلها وكان العامل عليها يومئذ المقر السيفى دمرداش الخاصكى فارسل يستنجد بجلالته عساكر دمشق مع نائبها سعيد بن سودون خال الملك الناصر وعسكر طرابلس مع نائبها المقر السيفى شيخ الخاصكى وعسكر حماة مع نائبها دقماق وعسكر صفد وغزة فلما اجتمعوا اختلفت كلمتهم فمن قائل ادخلوا المدينة وقاتلوا من الاسوار ومن قائل اخرجوا الى ظاهر البلد بالخيام ومكثوا على هذا الحال أياما فلما رأى الامير دمرداش نائب حلب اختلافهم خاف شر العاقبة فاذن للناس فى اخلاء المدينة والتوجه حيث شاؤا فلم يوافقوه على ذلك وضربوا خيامهم ظاهر البلد تلقاء العدو وحضر قاصد تيمورلنك وطلب الاجتماع بنائب دمشق فاذن له فلما دخل عليه أمر بعض غلمانه فقتلوه قبل أن يسمع كلامه فلما لم يرجع القاصد علم تيمورلنك أنه قتل فنادى فى العسكر بالخروج فخرجوا من خيامهم وزحف بهم على المسلمين فى يوم السبت حادى عشر ربيع الاول وأمامهم الفيلة فزعر المسلمون وخافوا وولوا نحو المدينة وازدحموا على الابواب فمات منهم خلق عظيم

والعدو وراءهم بأسر ويقتل بحد السيف وأخذ تيمورلنك البلد عنوة فصعد نواب المملكة وخواص الناس الى القلعة وكان أهل حلب قد أودعوا غالب أموالهم بها فحاصر القلعة وشدد عليها وضيق فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الاول أخذها بالامان والايمان مجردة عن الذمة والايمان فدخلها العسكر ولبثوا بها يومين اثنين ثم غدروا بكل من فيها وأمر فنقلوا جميع ما كان بها من الاموال والاقمشة والامتعة مما لا يحصى وعاقب أغلب المسلمين بأنواع العقوبات وحبسهم بالقلعة مابين مقيد ومزنجير ومسجون ومرسم عليه ثم نزل تيمورلنك من القلعة الى دار النيابة وصنع وليمة على زى المغل فوقف سائر الملوك والنواب فى خدمته وأدار عليهم كؤس الخمر فشربوا وطربوا فى ذلك اليوم والمسلمون فى عقاب وعذاب وقتل وسبى وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم فى هدم وحرق وتخريب ونبش الى آخر شهر ربيع الاول فركب تيمورلنك فى عسكره وسار نحو دمشق وقد أقام على حلب نائبا اسمه الامير موسى فلما جاءت الاخبار الى الملك الناصر بمسير تيمورلنك الى دمشق خرج من القاهرة فى عسكر كثير وسار نحو دمشق لقتال تيمورلنك فالتقى الجمعان واشتبت الحرب بينهما فكانت سجالا ثم وقعت الهزيمة على الملك الناصر ومزقت عساكره كل ممزق فعاد الى القاهرة ليجمع ما تفرق منهم ويعود لقتال تيمورلنك فبلغه أن تيمورلنك قد اشتغل عنه بقتال السلطان بايزيد ابن السلطان عثمان التركى ففرح بذلك واستبشر * وكان تيمورلنك لما وصل الى قرا باغ بلغه أن بايزيد سار الى ارزنكان وأخذها فعظم ذلك على تيمورلنك واستكبره وسار فى عسكره الى بلاد السلطان بايزيد يريد أخذها فخرج عليه السلطان بايزيد والتقى الجمعان بأنكورية وحصل بينهما قتال شديد فدارت الدائرة على السلطان بايزيد وسقط أسيرا فى يد تيمورلنك وبقى عنده مأسورا الى أن مات واستولى تيمورلنك على غالب بلاده وجهز قصاده الى السلطان الملك الناصر صاحب مصر يطلب منه أميرا من أمرائه اسمه اطلمشى كان قد أمسكه من عدة سنين قرا يوسف وجهزه الى الملك الظاهر برقوق وبقى فى مصر الى ذلك الحين فخاف السلطان الملك الناصر من ذلك وخشى شر العاقبة وترددت الرسل بين تيمورلنك وبينه فى تقرير قاعدة الصلح وما زالوا حتى انعقدت بينهما مودة ومهادنة فارسل السلطان الملك الناصر الى تيمورلنك زرافة حبشية فاهداه تيمورلنك فيلا وتتابعت رسائل المودة بين الفريقين فظن الناس خضوع السلطان الملك الناصر الى تيمورلنك واعترافه بالمبايعة الى دولة التتار فتقلقوا من ذلك وانقبضت نفوسهم وانحرفت خواطرهم على الناصر وأحس هو منهم بذلك فانكمش وتحرز وأبعد عنه كثيرا من الامراء ومقدمى الاجناد وكثرت الوحشة بينهم وبينه * واتفق أن قصر النيل فى سنة ست وثمانمائة هجرية ثم شرقت البلاد فدهى أهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف واشتد القحط وكثر الموت فى الناس والدواب فمات فى مدينة قوص وحدها جوعا زهاء سبعة عشر ألفا ومات فى أسيوط أحد عشر ألفا ومات نحو ذلك



وأكثر فى مدن أخرى واشتد الكرب وعم الخطب وطالت الشدة أياما فزاد بغض الناس للملك الناصر واعتقدوا انه ماوقع لهم ذلك الا لتقرب الناصر من تيمور لنك وخضوعه لملة التتار ثم ارتفع الموت عن الناس وكثر الوارد من الحبوب والاقوات ففرحوا بذلك وجاءت الاخبار بموت تيمور لنك فى السابع عشر من شعبان سنة سبع وثمانمائة فزاد فرحهم واطمأن جأش السلطان الملك الناصر وهم باسترجاع ماأخذه تيمور لنك من البلاد الشامية وطمع فى ذلك لما تحقق من وقوع الفتنة بين أولاد تيمور لنك واختلال نظام مملكة أبيهم فاخذ يجيش الجيوش ويكثر من جمع الاسلحة والكراع بدون مشورة الامراء ومقدمى العساكر فاغضبهم ذلك منه وانضموا الى أعدائه من بقية الامراء المبعدين فلما حانت لهم الفرص ركبوا وضيقوا عليه فى قصره وقام معهم العامة والغوغاء وكثر صياحهم حول القصر وبالغوا فى سبه ورميه بالخيانة وعدم الصلاحية للملك وعقد جماعة من الامراء لواء وساروا به الى حيث الامير عز الدين عبد العزيز أخى الناصر وأركبوه وساروا فى ركابه الى قصر الملك الناصر فحاصروه وضيقوا عليه وذلك فى السادس عشر من ربيع الاول سنة ثمان وثمانمائة فلما رأى الناصر انه مأخوذ لامحالة تنازل عن السلطنة وخلع نفسه منها فرضوا بذلك وانصرفوا عنه فخرج من قصره واختفى عند بعض خواصه فظن الناس يومئذ أنه قتل بين الغوغاء وأتموا البيعة لاخيه عز الدين عبد العزيز المذكور ولقبوه بالملك المنصور فكانت سلطنة الملك الناصر ست سنين وخمسة أشهر وأحد عشر يوما * ولما استقر المنصب بالسلطان الملك المنصور عبد العزيز جعل يتصرف فى الامور ويدنى قوما ويقصى آخرين ثم أساء السيرة فأبغضه الناس وندم الامراء على مافعلوه بأخيه الناصر فاتصل ذلك بالناصر فخرج من مخبئه وشاع خبر ظهوره وتقدم اليه الامراء فى أن يعود الى السلطنة فاجابهم الى ذلك فولوه المنصب فى جمادى الآخرة من السنة فلما قبض على زمام الامور أمسك أخاه عز الدين ونفاه الى الاسكندرية فقتل بها فى السابع من ربيع الآخر سنة تسع وثمانمائة وقيل سنة ثمان وثمانمائة فكانت سلطنته شهرين غير كاملين

ولم يكن الخليفة المتوكل على الله ليتعرض الى شئ من أمور السلطنة فى كل هذه المدة بعد الذى جرى له مع السلطان الملك الظاهر برقوق بل كان منعكفا على أشغاله الخصوصية مع هيبة ووقار وشهرة مطاع الامر مسموع الكلمة حتى مات ليلة الثلاثاء عشرى رجب سنة ثمان وثمانمائة هجرية * قال أصحاب التاريخ وهو أول من أثرى من خلفاء مصر وكثر ماله ورزق أولادا كثيرة يقال انه جاء له مائة ولد ما بين مولود وسقط ومات عن عدة أولاد ذكور واناث ولى الخلافة منهم خمسة ولانظير لذلك وتولى الخلافة من اخوته أربعة واتفق للمتوكل هذا أن عاد الى الخلافة بعد خلعه مرتين ولم يقع ذلك لاحد فيما تقدم الا المقتدر فقط * وذكر الحافظ بن حجر فى انباء الغمر أن مولد المتوكل كان فى سنة نيف وأربعين وسبعمائة

وانه

وانه لما تسلطن برقوق المرة الاولى حسن له جماعة من أهل الدولة وغيرهم طلب الملك فكاتب الامراء والعربان مصرا وشاما وعراقا وبث الدعاة فى الآفاق فبلغ ذلك برقوق فخلعه وسجنه فخرج يلبغا الناصرى على برقوق بسبب ذلك فافرج عنه برقوق وأعاده الى الخلافة وفرح الناس به فرحا عظيما * قال فلما انتصر الناصرى وزالت دولة برقوق قال الناصرى للخليفة بحضر من الامراء يامولانا أمير المؤمنين ماضربت بسيفى هذا الا فى نصرتك وبالغ فى تعظيمه وتبجيله فتبرّم المتوكل من الدخول فى الملك وأشار باعادة حاجى بن شعبان * وكان المتوكل قد عهد بالخلافة لولده أحمد ولقبه المعتمد على الله ثم خلعه وعهد الى ابنه أبى الفضل العباس فاستقر فى الخلافة بعده كما سيذكر فى محله ولقب المستعين بالله فكانت خلافة المتوكل المذكور نحوا من خمس وأربعين سنة

ومات فى أيامه كيرلس بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وقد وقعت فى أيامه شدة عظيمة قاسى فيها النصارى من البلايا والمحن مالا يكاد يدخل تحت الحصر وكبر الامر على كيرلس البطرك وعظم الخطب فكان صبورا وقورا عظيم العناية بالامة فلما مات خلا الكرسى بعده ثمان سنوات * ثم أقيم بعده ابن القس أبو المكارم بن كليل الشماس المصرى وسمى اثناسيوس وهو سادس سبعيهم فأقام احدى عشرة سنة ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ فاختاروا بعده شماسا اسمه غبريال أصابته القرعة فنقم عليه جماعة واختاروا آخر اسمه يوحنا فوقعت الفتنة بينهم اشتدت فاشتد اللدد وطال الخصام وعمل كل فريق على نصرة صاحبه وتقوى أصحاب يوحنا وثبتت قدمهم فتمكنوا من اقامته بطركا فكان سابع سبعيهم وأقام ست سنين وتسعة أشهر كلها منافسة ومماكسة وخصام ثم قاموا عليه وخلعوه وسجنوه باحدى الديارات وولوا غبريال مكانه فأقام سنتين وشهرين كانت الفتنة فى خلالهما لاتخمد نارها ولا ينطفئ أوارها وكان المتأصلون لذلك على طرفى نقيض وقد نادى بينهما منادى القلق الدائم والكمد الملازم ثم عاد أصحاب يوحنا فتغلبوا وظفروا وقاموا على غبريال فخلعوه وسجنوه وأخرجوا يوحنا من معقله وأعادوه الى منصب البطريكية ثانية فعد ثامن سبعيهم * قال بعض كتاب الاخبار وكان يوحنا هذا رجلا جليل القدر وقورا واسع العلم والمعرفة فلما استقر به المنصب دبر الامور فأحسن التدبير وعمل على ازالة الوحشة من بين الاحزاب وبالغ فى التلطف مع الحزم ففاز ونجح ومالت اليه القلوب واتحدت على محبته الخواطر فعظمت شهرته واتسعت كلمته وطالت أيامه وكان من الحوادث فيها ما سيذكر فى محله

(الفصـــل الثامن)

(فى خلافة أبى الفضل المستعين بالله ابن المتوكل)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة المتوكل على الله ابنه أبو الفضل العباسى وبويع له بها فى ثانى يوم وفاة أبيه سنة ثمان وثمانمائة هجرية أى سنة خمس وأربعمائة وألف ميلادية ولقب بالمستعين بالله فلما استقرت به الخلافة أدنى منه جميع الامراء وتحبب الى رجال الدولة واستمال اليه العامة فمالوا الى محبته ودانت له الامور واجتمع الناس على طاعته وبقيت الاحوال ساكنة والخواطر مطمئنة الى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة فوقعت فتنة عظيمة بين السلطان الملك الناصر فرج وبين شيخ المحمودى أحد كبار الامراء فخرج عليه شيخ وشق عصا طاعته وكان شيخ المذكور أحد مماليك الملك الظاهر برقوق المقربين اليه وكان جليل القدر عالما داهية واسع المعرفة والتدبير شدد فى معاداة الملك الناصر ورماه بالكفر والزندقة والانحلال وتقرب من كبار الامراء واستمالهم الى مذهبه فوافقوه على خلع الناصر وتوليته من يأهل لمنصب السلطنة فكاشف الخليفة المستعين بالله بما فى نفسه وحبب اليه الملك وأعلمه أن الامراء والناس كافة ميالون الى مبايعته فمال الخليفة الى السلطنة وتاقت نفسه اليها وجعل شيخ المحمودى يراقب الفرص للايقاع بالناصر فاتفق خروج الناصر من مصر الى الشام ترويحا للنفس فلم يستقر به المقام بدمشق حتى سير اليه الامير شيخ من يستقدمه الى مصر ويسأله التنازل عن الملك طوعا قبل أن يحل به العطب فاكبر الناصر هذا الامر وأعظمه وقبض على رسول الامير شيخ وسجنه ونادى فى عسكر الشام بالخروج الى مصر وجاءت الاخبار بذلك الى الامير شيخ فاستعد لقتاله واشتد على الخليفة فى خلعه وقد أثبتوا عليه الزندقة والكفر وحكم ناصر الدين بن العديم بسفك دمه واتفق رأى الامراء كافة على سلطنة الخليفة المستعين بالله واستقلاله بالامر فوافقهم الخليفة بعد شدة وتوثق منهم بالايمان فبايعوه وحلفوا له على الوفاء فلم يغير لقبه وجلس على سرير الملك وقام الكل بين يديه ووردت بعد ذلك الأخبار بقرب السلطان الملك الناصر الى حدود الديار المصرية فخرج الامير شيخ فى عسكر عظيم ومعه الخليفة المستعين وجماعة من أكابر الامراء فدخلوا الشام بغير قتال وجعل الخليفة يتصرف فى الأمور فقرر الأمير بكتمر جلق على نيابة الشام وقرقماس فى نيابة حلب وسودون الجلب فى نيابة طرابلس وجعل الامير شيخ والامير نوروز فى ركابه يديران الامر ونادى منادى الخليفة ألا ان فرج بن برقوق قد خلع من السلطنة ومن حضر الى أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين فهو آمن فقال

الناس من الناصر ففر الناصر الى مدينة حلب فلما علم به أهلها قام أناس منهم على أسوار البلد فنادوا نصر الله أمير المؤمنين فلما سمع الرماة ذلك تخوفوا على أنفسهم ولم يغيبوه وقبضوا على الناصر وقتلوه بحكم ابن العديم فى الخامس والعشرين من المحرم افتتاح سنة خمس عشرة وثمانمائة هجرية وكتب المستعين الى القاهرة باجتماع الكلمة اليه وعزل الجلال البلقينى فأغضبه وفعل معه بعد ذلك ما فعل ثم أرسل المستعين كتابا ثانيا الى من بالقاهرة من الاعيان فأرسل الى الجامع الطولونى فقرأه خطيبه ابن النقاش على المنبر ثم أرسل الى الجامع الازهر فقرأه خطيبه الحافظ بن حجر على المنبر وصدرت الكتب منه أيضا الى أمراء التركمان والعربان والعشير فكان مفتتحها ❊ من عبد الله ووليه الامام المستعين بالله أمير المؤمنين ❊ وخليفة رب العالمين ❊ وابن عم سيد المرسلين ❊ المفترضة طاعته على الخلق أجمعين ❊ أعز الله ببقائه الدين ❊ الى فلان ثم سار بالعسكر المصرى ومن انضم اليه أيضا من العساكر الشامية الى القاهرة فدخلوا فى يوم الثلاثاء ثانى ربيع الآخر من السنة بعد أن تلقاهم الناس الى قطيا والصالحية وبلبيس وحصل للناس من الفرح بذلك مالا مزيد عليه وشق الخليفة القاهرة والامراء بين يديه الى قلعة الجبل فنزل بها ونزل الامير شيخ الاسطبل بباب السلسلة فلما كان الثامن عشر من ربيع الآخر صعد الامير شيخ والامراء كافة الى القصر وجلس الخليفة على تخت الملك فخلع على الامير شيخ خلعة عظيمة بطراز لم يعهد مثلها وفوض اليه أمر المملكة بالديار المصرية فى جميع الامور وكتب له أن يولى ويعزل من غير مراجعة وأشهد عليه بذلك ولقب نظام الملك فكان الامراء اذا فرغوا من الخدمة بالقصر نزلوا فى خدمة الامير شيخ الى الاسطبل فأعيدت الخدمة اليه ليكون عنده الابرام والنقض ثم يتوجه دواداره الى الخليفة المستعين فيعلم على المنشورات والتواقيع وظل الحال على ذلك حينا وقد نودى فى الناس برفع المظالم والمكوس وغير ذلك مما أثقل الرعية فأحب الناس الخليفة المستعين جدا ومالوا اليه بقلوبهم وعمل الحافظ أبو الفضل ابن حجر فى المستعين قصيدته المشهورة التى مطلعها

الملك أصبح ثابت الاساس ❊ بالمستعين العادل العباسى

فلما كان فى شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة أمر الامير شيخ دواداره أن لا يمكن الخليفة المستعين من كتابة العلامة الا بعد عرضها عليه ففعل الدوادار ذلك فاستوحش الخليفة وضاق صدره وراجع الامير شيخ فى ذلك فلم يلتفت اليه وسأله أن يفوض اليه السلطنة على العادة فأجابه الخليفة بشرط أن ينزل من القلعة الى بيته فلم يوافقه شيخ على النزول بل استنظره أياما فلم يفوض اليه السلطنة فقام عليه ونقله من القصر الى دار من دور القلعة ومعه أهله ووكل به من يمنعه الاجتماع بالناس فكتب المستعين الى الامير فيروز سرا يستنجده وكان يومئذ واليا على دمشق من قبل المستعين فأسرع لنجدته فى جيش عظيم

للغاية فلما بلغ القاهرة جمع فى سابع ذى القعدة العلماء والقضاة واستفتاهم عما صنعه الامير شيخ بالخليفة المستعين فأفتوه بعدم جواز ذلك فأجمع على قتال الامير شيخ فاستمر الخليفة المستعين بالقلعة الى ذى الحجة سنة ست عشرة وهو باق على الخلافة وتقررت قاعدة الصلح بينه وبين الامير شيخ فعاد فيروز بعسكر الشام الى دمشق وسكنت الفتنة بعد ذلك أياما قلائل ٭ وعزم الامير شيخ على الشخوص الى الشام بعد رجوع الامير فيروز فخاف من المستعين وخشى غائلته فراجع البلقينى فى أمره وكاشفه بما فى نفسه وكان فى نفس البلقينى من الخليفة المستعين شئ لكونه عزله من منصبه كما سبقت الاشارة اليه فأقام له دعوى شرعية وحكم بخلعه من الخلافة فخلع قهرا وسير الى الاسكندرية فأقام بها مخلوعا الى أن مات بالطاعون فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة هجرية فكانت خلافته نحوا من أربع سنين وكانت مدة جلوسه على تخت السلطنة سبعة أشهر وخمسة أيام وأقاموا بعده أخاه أبا الفتح داود

(الفصل التاسع)

(فى خلافة أبى الفتح داود المعتضد)

ثم قام بالامر بعد المستعين أخوه أبو الفتح داود وبويع بالخلافة يوم خلع أخيه سنة ست عشرة وثمانمائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وألف ميلادية فلم يكن له فى أمور المملكة كلمة ولا رأى والامر للامير شيخ المحمودى فانه بعد أن عاد من الديار الشامية وقد قرر أمورها على ما شاء قبض على زمام الملك واستبد بالمنصب فأحسن السياسة واستمال اليه الرعية وحذا حذو الخليفة المستعين فى ابطال المكوس والمغارم والرفق بالرعية فأحبه الناس واجتمعت اليه القلوب وأمنت الرعية وسعدت البلاد ودرّت الارزاق ورخصت الاقوات وكثر الوارد منها وأمنت الطرق واختفى أهل الفساد وأرباب الشقاوة ٭ قال المقريزى وأنشأ جامعه المشهور بجوار باب زويلة من داخله حيث كانت خزانة شمائل وأول ما ابتدئ به فى أمر هذا الجامع أن رسم فى رابع شهر ربيع الاول سنة ثمان عشرة وثمانمائة بانتقال سكان قيسارية سنقر الاشقر التى كانت تجاه قيسارية الفاضل ثم نزل بجماعة من أرباب الدولة فى خامسه من قلعة الجبل وابتدئ فى الهدم فى القيسارية المذكورة وما يجاورها فهدمت الدور التى كانت هنالك فى درب الصفيرة وهدمت خزانة شمائل فوجد بها من رمم القتلى ورؤسهم شئ كثير الى أن قال وكان السبب فى اختيار هذا المكان دون غيره أن السلطان يريد المؤيد شيخ المحمودى حبس فى خزانة شمائل هذه أيام تغلب الامير منطاش وقبضه على

المماليك

المماليك الظاهرية فقاسى فى ليلة من البق والبراغيث شدائد فنذر لله تعالى ان تيسر له ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجدا لله عزوجل ومدرسة لاهل العلم فاختار لذلك هذه البقعة وفاء بنذره الى أن قال وفى يوم الخميس سابع عشر شوال نقل باب مدرسة السلطان حسن ابن محمد بن قلاوون والتنور النحاس المكفت الى هذه العمارة وقد اشتراهما السلطان بخمسمائة دينار وهذا الباب هو الذى عمل لهذا الجامع وهذا التنور هو التنور المعلق تجاه المحراب الى أن قال وبلغت النفقة على الجامع الى أخريات شهر رمضان هذا سوى عمارة الامير فخر الدين زيادة عن سبعين ألف دينار وتردد السلطان الى النظر فى هذا الجامع غير مرة فلما كان فى أثناء شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين ظهر بالمئذنة التى أنشئت على بدنة باب زويلة التى تلى الجامع اعوجاج الى جهة دار التفاح فكتب محضر بجماعة المهندسين أنها مستحقة الهدم وعرض على السلطان فرسم بهدمها فوقع الشروع فى الهدم يوم الثلاثاء رابع عشريه واستمر فى كل يوم فسقط يوم الخميس سادس عشريه منها حجر هدم ملكا تجاه باب زويلة هلك تحته رجل فغلق باب زويلة خوفا على المارة من يوم السبت الى آخر يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الاولى مدة ثلاثين يوما قال ولم يعهد وقوع مثل هذا قط منذ بنيت القاهرة اه

ومات السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى المذكور فى يوم الاثنين ثامن المحرم افتتاح سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر وستة أيام كلها راحة واطمئنان واسعاد على الرعية فقام بعده ابنه السلطان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد وعمره يومئذ سنة ونصف سنة فقام بأمره الامير ططر فلم يحسن السيرة وأساء التدبير واستبد بالملك وأكثر من السرف والتبذير حتى بذر ماجمعه الملك المؤيد من الاموال وخرج بالمظفر مع حداثته يريد قتال الامراء بالشام وذلك أنهم لما علموا بموت الملك المؤيد وولاية ابنه المظفر استخفوا به لحداثته وقصدوا الاستبداد بالملك والاستقلال بحكم الديار الشامية فخشى ططر من ذلك وخرج لقتالهم وارجاعهم الى الطاعة فسار فى جيش عظيم ومعه السلطان الملك المظفر فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا عنيفا للغاية فظفر بهم الامير ططر وشردهم وأخضع من بقى منهم وأخذ أموالهم وسبى نساءهم وما زال حتى دانت له الامور فسار الى دمشق وفى نفسه ما فيها من حب الاستبداد بالملك فلما استقر به المقام بدمشق قام على الملك المظفر فى شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة فخلعه وارتقى عرش السلطنة فى يوم الجمعة تاسع عشرى شعبان المذكور فكانت سلطنة الملك المظفر شهاب الدين ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام

* ولبث ططر بالشأم أياما كان يدبر فيها الامر لنفسه وتلقب بالظاهر وكنى بأبى الفتح وهو من مماليك السلطان الملك الظاهر برقوق وسير الاخبار بسلطنته الى مصر فتعجب الناس من ذلك حيث لم يكونوا ليتوقعوا ولايته على هذه الصورة ثم سار من دمشق وهو منوعك البدن حتى دخل مصر وصعد الى قلعة الجبل فى موكب حافل للغاية وأمامه الامراء وكبار العسكر والجنائب السلطانية

فلم يستقر بها حتى ثقل به المرض واشتد فمات يوم الاحد رابع عشرى ذى الحجة من السنة فكانت سلطنته ثلاثة أشهر و يومين * فأقيم بعده ولده السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد وعمره نحو عشر سنين فقام بأمره الامير برسباى الدقاقى وجعل يتصرف فى الامور فطمحت نفسه فى الملك فقام على الملك ناصر الدين بعد أربعة أشهر وأربعة أيام من ولايته وخلعه وتسلق عرش السلطنة ولقب نفسه بالاشرف سيف الدين وكنى بابى النصر وقد كان من مماليك الظاهر برقوق فكان جلوسه على تخت الملك فى يوم الاربعاء ثانى ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة هجرية * قال أصحاب التاريخ وكان فاضلا عالما نحا نحو الملك المؤيد شيخ فى التزام الحزامة والعدل وعدم التهاون فى قضاء مصالح الخلق فأحبه الناس جميعا ومالوا الى طاعته واجتمعت له القلوب فسعدت أيامه وأمنت الرعية وزالت الفتن وانقطعت أسبابها واختفى أهل الفساد وزاد النيل فى أيامه فعم الاراضى فأخصبت وكثرت غلتها كثرة عظيمة فرخصت الاسعار وشبع الفقراء وكانت له حروب كثيرة مع الفرنجة ووقائع مشهورة فى عدة أماكن وأخضع جزيرة قبرص وألزم الملك لوسينيان الثالث بالطاعة والخضوع وضرب عليه الجزية فكان أجدر جميع الملوك الشراكسة بالمدح والشكران فقد كان أرفعهم همة وأكبرهم عزيمة وأشدهم صرامة وأقدرهم على سياسة الجمهور وتدبير الأمور فطالت لذلك أيامه وعاهد ملوك الفرنجة والسلطان مراد سلطان آل عثمان فكبرت لذلك هيبته واتسعت شهرته وارتفعت كلمته وخافه الملوك والامراء وتزلفوا اليه وهادوه بالهدايا النفيسة * فلما كانت سنة سبع وعشرين وثمانمائة هجرية خرج عليه بنبق الجلبانى عامله على دمشق وشق عصا طاعته فسار اليه فى عسكر عظيم وقاتله حتى هزمه وقبض عليه وعلى دعاته فقتل بعضهم وشرد بعضهم وولى الامير عبد الرحمن مكانه وكان عبد الرحمن هذا زنجيا أسود قال أصحاب التاريخ فلم يقع فى أيام السلطان الملك الاشرف المذكور من الحروب والفتن غير هذه الفتنة ولم تلبث أن تلاشت وعادت اليه الامور بالديار الشامية كما كانت عليه من قبل واستمر يدبر الملك ويعدل فى الرعية الى أن مات ثالث عشر ذى الحجة سنة احدى وأربعين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته عشر سنين وتسعة أشهر

فقام بالامر بعده ولده يوسف ولقب بالملك العزيز وعمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة فقام بأمره الأمير جقمق وسمى نظام الدولة وتسلم مقاليد الأمور فاستبد بها وتصرف حسب هواه وضيق على الملك العزيز فلم يبق له من الملك سوى الاسم فاستعظم الملك العزيز هذا الامر جدا وجمع مماليكه وشاور كبارهم وأصحاب الرأى منهم فى أمر خلع جقمق من منصبه فوافقوه على ذلك وتجردوا لخلعه فأحس جقمق بما عزموا عليه وتحرز منهم وجمع كبار الامراء وطوائف العسكر وخرج بهم على الملك العزيز فاقتتلوا أياما اختل فيها نظام الدولة وكثر عبث أهل الفساد وتطاولت أيديهم الى أموال الناس وكادت الفتنة تعم حتى ظفر جقمق بالملك العزيز فقبض عليه وخلعه وارتقى منصب السلطنة فى التاسع عشر من ربيع

الاول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة فكانت سلطنة العزيز يوسف المذكور ثلاثة أشهر لاغير ولقب جقمق نفسه بالملك الظاهر وقبض على زمام الملك وصار يتصرف فى الامور فعبث وأكثر من تقرير المغارم وضرب المكوس ولم يهتم بمصالح الرعية فأبغضه الناس وتشاءموا من ولايته ونفرت منه القلوب وظهر الطاعون بالقاهرة ومصر عقب ولايته واشتد الموت فى الناس شدة بالغة ثم عم البلاد ففتك بأهلها فتكا ذريعا فكان الناس يموتون بالازقة والطرقات ولا يوجد من يدفنهم وطالت أيامه ثم ارتفع ولم ترتفع عن الناس المغارم ولا انكفت عنهم جباة المكوس وأعوان السلطان فكان الخليفة المعتضد بالله فى نكد وكمد بأسباب هذه المحن وما نال الرعية من فعال الملك الظاهر المذكور وكان يئن ويتوجع ويراجع الظاهر فى ذلك والظاهر لايلتفت اليه ولا يزداد الا تشديدا فى الطلب فمرض الخليفة وثقل به مرضه فكان اذا جاءه أحد الامراء ليعوده شكى اليه من فعال الظاهر بالرعية وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى فلما حضرته الوفاة عهد بالخلافة الى شقيقه أبى الربيع سليمان ولقب المستكفى بالله وكتب له عهدا بذلك يقول * بسم الله الرحمن الرحيم * هذا ما أشهد على نفسه الشريفة حرسها الله وحماها * وصانها من الاكدار ورعاها * الشريفة الطاهرة الزكية الامامية الاعظمية العباسية النبوية المعتضدية * أمير المؤمنين * وابن عم سيد المرسلين * ووارث الخلفاء الراشدين * المعتضد بالله تعالى أبو الفتح داود أعز الله به الدين * وأمتع ببقائه الاسلام والمسلمين * أنه عهد الى شقيقه المقر العالى المولى الاصيلى العريق الحسيبى النسيبى السليلى * سيدى أبى الربيع سليمان المستكفى بالله عظم الله شأنه بالخلافة المعظمة وجعله خليفته بعده ونصبه إماما على المسلمين عهدا شرعيا معتبرا مرضيا نصيحة للمسلمين * ووفاء بما يجب عليه من مراعاة مصالح الموحدين * واقتداء بسنة الخلفاء الراشدين * والائمة المهديين * وذلك لما علم من دينه وخيره وعدالته وكفائته وأهليته * واستحقاقه بحكم أنه اختبر حاله وعلم طويته * وأن الذى يدين الله به أنه اتقى لله ممن رآه وأنه لايعلم أنه صدر منه ما ينافى استحقاقه لذلك وأنه ان ترك الامر همل من غير تفويض المشار اليه أدخل اذ ذاك المشقة على أهل الحل والعقد فى اختيار من ينصبونه للامامة ويرتضونه لهذا الشأن فبادر الى هذا العدل شفقة عليهم وقصدا لبراءة ذمته ووصول الامر الى من هو أهله لعلمه أن العهد كان غير محوج الى رضا سائر أهله ووجب على من سمعه وتحمل ذلك منه أن يعلم به ويأمر بطاعته عند الحاجة اليه ويدعو الناس الى الانقياد له فحمل ذلك على من حضره حسب اذنه الشريف وسطر عن أمره قبل ذلك سيدى المستكفى أبى الربيع سليمان المسمى فيه عظم الله شأنه قبولا شرعيا * ومات الخليفة المعتضد بعد ذلك فى يوم الاحد رابع ربيع الاول سنة خمس وأربعين وثمانمائة هجرية واستقر المستكفى فكانت خلافة المعتضد نحو ثلاثين سنة هلالية

ومات فى أيام الخليفة المعتضد المذكور يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام بطركا تسعا





وعشرين سنة فخلا الكرسى بعده سنة ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر فأقاموا بعده ثاوروسيوس وهو تاسع سبعيهم وأصله من منية ابن خصيب من صعيد مصر واسمه عبد المسيح وكان راهبا فى دير أبو قانه ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر

(الفصـــل العاشر)

(فى خلافة أبى الربيع سليمان المستكفى بالله)

ثم قام بالامر بعد المعتضد شقيقه أبو الربيع سليمن ولقب المستكفى بالله بعهد منه واستقر بالخلافة فى يوم الاحد رابع ربيع الاول سنة خمس وأربعين وثمانمائة هجرية أى سنة احدى وأربعين وأربعمائة وألف ميلادية * قال بعض كتاب الاخبار وكان من صلحاء الخلفاء وعبادهم صالحا دينا عابدا كثير التهجد والتلاوة كثير الصمت حسن السيرة فلما رآه السلطان الملك الظاهر جقمق على هذا الحال اعتقده وعرف له حقه وأجله وعظم قدره وأحبه ولبثا على الصفاء والمودة حينا من الدهر فلم تقع فى أيامه فتن ولم تقم تلك الاحن التى كانت لاتنقعد لها قائمة بأسباب بغض الامراء بعضهم لبعض وتداخلهم فى أمور السلطنة وأحوال الدولة وميل كل منهم الى الاستبداد بالأمر والاستقلال بأبهة السلطنة وانكف جقمق عن ضرب المكوس والمغارم على الرعية وأبطل بعضها خوفا من الخليفة فاطمأنت القلوب وسكنت خواطر الفقراء وأمنت الطرق واختفى أهل الفساد ودرت الارزاق وكثرت غلات البلاد وشبع الفقراء بعد الجوع وأمنوا بعد الخوف ولم تطل مدة خلافة المستكفى بالله اذ مات ليلة الجمعة سلخ ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثمانمائة فكانت مدة خلافته نحو ثمان سنين كلها خير وبركة ولم يعهد بالخلافة لأحد فمشى السلطان فى جنازته الى تربته وحمل نعشه بنفسه وتسابق الامراء الى ذلك وخرج الالوف من الناس أمام جنازته وبكوه بكاء مرا وبايع السلطان الملك الظاهر جقمق بعده أخاه أبا البقاء حمزة ولقب بالقائم بأمر الله

ومات فى أيام الخليفة المستكفى ثاوروسيوس بطرك المتأصلين فكانت مدته ست سنوات أو نحوا منها وكان ورعا تقيا كثير الصدقات مجتهدا متهجدا ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر فأقيم بعده يوحنا رئيس دير شهران وأصله من منية ابن خصيب فهو الثمانون عددا لبطاركة الاسكندرية ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل)

(الفصل الحادى عشر)

(فى خلافة أبى البقاء حمزة القائم بأمر الله)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة المستكفى أخوه أبو البقاء حمزة فى سلخ ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثمانمائة هجرية أى سنة خمسين وأربعمائة وألف ميلادية ولقب القائم بأمر الله وكان شهما صارما أقام أبهة الخلافة وتعرض لأمور السلطنة واستمال اليه جماعة من كبار الامراء وطوائف القواد فعظمت صولته وكبرت هيبته وتطاولت يده الى فعل الدسائس وافساد الامور على السلطان الملك الظاهر جقمق فأحس السلطان بذلك فأبغضه ومقته وخشى عاقبة فعله وآثر العزلة والتخلى عن الملك على مناواة الخليفة وكان قد ناهز الثمانين فتنازل عن السلطنة لابنه فخر الدين عثمان وصرّفه فى سائر الامور وحذره من فعال الخليفة وكان كثير الحزن والاشفاق على ولده فلم تطل بعد ذلك حياته ومات بعد قليل فكانت وفاته فى التاسع والعشرين من صفر سنة سبع وخمسين وثمانمائة فبايع الناس ولده فخر الدين المذكور البيعة العامة فى الحادى عشر من المحرم افتتاح سنة ثمان وخمسين ولقب بالملك المنصور وكانت سلطنة الملك الظاهر جقمق أربع عشرة سنة ونحو عشرة أشهر ولم يستقر بالملك المنصور المنصب حتى عاد الخليفة القائم بأمر الله الى دس الدسائس وايقاظ الفتنة طمعا فى الملك فالتم حوله الدعاة واستفحل أمره وظهرت كلمته واشتد الخصام بينه وبين الملك المنصور وعمل كل على تذليل الآخر فتحزبت الاحزاب وانقسم الناس واختلفت الكلمة وعظمت الفتنة وما زال الرؤساء فى نزاع وخصام والامر فى شدة واحتدام حتى تمكن الخليفة من خلع السلطان الملك المنصور فى سابع ربيع الاول من السنة فلم تكن مدة سلطنته سوى أحد وأربعين يوما أو أحد وثلاثين ولم يتمكن الخليفة من الاستواء على عرش السلطنة بعد خلع الملك المنصور اذ غادره الدعاة وانصرف عنه الاحزاب واختاروا مملوكا اسمه أبو النصر اينال وهو شيخ مسن فولوه الملك وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك الاشرف وذلك ثانى يوم خلع الملك المنصور

ولما استقرت السلطنة بالملك الاشرف المذكور دبر فاحسن التدبير وساس فأحسن السياسة ونظر فى مصالح الخلق نظرة الصادق الأمين واتخذ الامير بلجيونى وزيرا ولم يترك صغيرة ولا كبيرة الا أحاط بها فخاف الخليفة منه وخشى أمره وانكف عن المشاغبة ولازم السكون ست سنوات وهو يتوقع فى كل سنة منها موت اينال نظرا لشيخوخته فلم يمت ولما طال عليه الحال وعيل صبره والنفس الامارة تدفع به الى ركوب ذلك المركب الخشن قام وأثار الفتنة فأحس بها بلجيونى الوزير فاعلم السلطان حتى خرج الجند على الاشرف وخرج الخليفة معهم فقام عليهم الاشرف فى مماليكه وخواصه وقاتلهم قتالا عنيفا وظفر بهم وشرد الكثير منهم ومزقهم كل ممزق وأرجع من بقى منهم الى الطاعة وأرسل فى طلب الخليفة الى قلعة الجبل

فصعد بعد اقدام واحجام فلما دخل عليه عاتبه واغلظ معه القول وزاد فى الغلظة فغضب الخليفة وقال للاشرف ﷺ ما بالك قد خلعت نفسى وعزلتك ﷺ وكان ذلك غلطا منه * فقال قاضى القضاة علم الدين البلقينى وكان حريصا على جر الخلافة الى أخى الخليفة يوسف لكونه زوج ابنته قد بدأ بخلع نفسه فانخلع وثنى بخلع السلطان وهو غير خليفة فلم ينفذ ذلك وحكم بصحة خلعه * وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وثمانمائة فرسم السلطان عند ذلك باخراج الخليفة الى الاسكندرية فأخرجوه مقهورا مبعدا فأقام بالاسكندرية الى أن مات سنة ثلاث وستين وثمانمائة هجرية ودفن عند شقيقه المستعين بالله العباسى * قال بعض كتاب الاخبار ومن غريب الاتفاق أنهما شقيقان كل منهما رام السلطنة وكل منهما خلع وكل منهما سكن الاسكندرية ودفنا معا وحكم بخلعهما قاضيان أخوان ذلك خلعه الجلال البلقينى وهذا أخوه العلم البلقينى وهو عجيب اه وخلا الجو للاشرف اينال بعد ذلك فاستبد بالملك وعاقب زعماء دعاة الخليفة وخلع من كان يتوسم فيه الشر من الامراء وكبار العسكر ونظر فى أمور السلطنة بعين ساهرة ووافق علم الدين البلقينى فبايع أبا المحاسن يوسف أخا القائم بالخلافة ولقب المستنجد بالله فكانت خلافة القائم بأمر الله نحوا من أربع سنوات وستة أشهر كلها معاندة ومحاسدة فسبحان من أودع فى كل قلب ما شغله

(الفصل الثانى عشر)

(فى خلافة أبى المحاسن يوسف المستنجد بالله)

ثم قام بالامر بعد الخليفة القائم أخوه أبو المحاسن يوسف ولقب بالمستنجد بالله وبويع له يوم خلع القائم بأمر الله فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وثمانمائة هجرية أى سنة أربع وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية فكان حسن السيرة عاقلا رزينا فاحبه الاشرف اينال وأجله ووفاه حقه وأسكنه بدار اخوته الخلفاء بالمدينة وواصله بالعطايا والتحف وكان السلطان الملك الاشرف قد أنهكته متاعب السلطنة وثقل عليه حمل أعباء الدولة فاشرك معه ولده شهاب الدين أبا الفتح أحمد وسلمه مقاليد الامور فسار فى الرعية سيرة تحمد وسلك مسالك الرفق وأحسن التدبير والسياسة وضرب بعض الدراهم باسمه ووفى السلطنة حق تدبيرها * فلما كان شهر جمادى الاولى سنة خمس وستين وثمانمائة وقد ثقل بالملك الاشرف اينال مرضه خلع نفسه وولى ابنه أبا الفتح المذكور ولقبه بالملك المؤيد فكانت مدة سلطنة اينال ثمان سنين وشهرين فاستقر ولده فى السلطنة واستقل بتدبير الملك وتصرف فى الامور على أحسن مارام فحسده الامراء واستولت عليهم الغيرة فقاموا عليه وخلعوه فقامت بسبب ذلك فتنة عظيمة وطالت أيامها وبقى الحال على ذلك حتى ولوا بعده

فى

فى الثامن عشر من رمضان سنة خمس وستين الامير سيف الدين خوش قدم ولقبوه بالملك الظاهر فكانت مدة سلطنة المؤيد أربعة أشهر لا غير

وكان خوش قدم هذا يعرف بالرومى وبالناصرى لانه كان من مماليك الملك الناصر وكان عاقلا عالما واسع الدراية عظيم التدبير محبا للرعيــة ساهرا على ما فيه راحتها ميالا الى الآداب اليونانية القديمة لانه يونانى الاصل ولم يستوزر الا كل عالى الهمة كبير الدراية خبيرا بالامور فعم فى عهده الأمن البلاد وسعد أهلها وجرى أمراؤه على شاكلته فاجتمعت قلوب الامراء والرعيــة على طاعته وانصرفوا عن الخليفة فلم يبق للخليفة من الامور الا الدين فقط فكان لا يتعرض لأحوال السلطنة ولا يزاحم الظاهر عليها وما زال الظاهر مسموع الكلمة ينظر فى مصالح الرعيــة نظر الأب الشفيق والفتنة راقدة والعدل قائم حتى اخترمتــه المنية عاشر ربيع الاول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته نحو ست سنين وستة أشهر فبكاه الناس بكاء مرا وحزنوا عليه حزنا شديدا

ولما كان اليوم الثانى من موته اجتمع الامراء وكبار الجند وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فوقع اختيارهم على الامير أبى سعيد بالباى أحد الامراء المقدمين فبايعوه فى الحال ولقبوه بالملك الظاهر تفاؤلا فلم يستقر به المنصب حتى أظهر الغلظة فكان فظا مستبدا طلقا عنيدا وكاد يفسد ما أصلحه السلف فابغضته الرعيــة وانحرفت عنه خواطر الامراء كافة تخاف من الفتنة وأوجس من الخليفة المستنجد فانزله من داره من قلعة الجبل ووكل بمن يراقب أموره فراد بغض الامراء له وكرهوا بقاءه فى دست السلطنــة وتجردوا لخلعــه ثم قاموا عليه قومة رجل واحد وخلعوه فى السابع عشر من جمادى الاولى سنة اثنتين وسبعين وقيل فى سابع جمادى الاولى فكانت مدة سلطنته نحو ست وخمسين يوما وقيل ست وستين * ثم ولوا بعده الامير تمربغا بايعوا له بالسلطنة فى ثانى يوم خلع الظاهر بالباى ولقبوه بالملك الظاهر أيضا فلم يكد يستقر به المنصب حتى ظهر فساده وكثر عبثــه وأطاع النفس الامارة فقاموا عليه وخلعوه أيضا ففرحت بخلعــه الرعية وكان خلعــه فى العشر الاول من رجب من السنة فكانت سلطنته نحو تسعة وخمسين يوما

ثم ولوا بعده الامير قايتباى أحد مماليك جقمق وبايعوه فى ثامن عشر رجب المذكور ولقبوه بالملك الاشرف قايتبــاى فلما استقر به المنصب أخذ فى تدبير الامور على ما فيه المصلحة واصلاح ما أفسده السلف * وكان شهما جليل القدر مسموع الكلمة مهيبا واسع المعرفة بأحوال الرعية فأمنت البلاد على يديه واطمأنت خواطر أهلها * وكان بين ملك فارس ومصر معاهدة وعلاقة ودية قد مضى عليها حين وكان بين ملوك آل عثمان وملك فارس عداوة وخلاف كانت الحرب بسببهما لا تنطفئ لها نار ولا يسكن لها اوار وظل الفريقان على قدم الحرب والجلاد حينا حتى ظفر السلطان محمد الغازى العثمانى بملك فارس وهزمه شر هزيمة ومزق شمل جنوده فلما جاءت الاخبار بذلك الى الاشرف قايتباى خاف من السلطان محمد وأوجس شرا



وخشى أن يهاجم الديار الشامية يوما فيسلخها عن ملك مصر ويضمها الى أملاكه التى كانت بلغت يومئذ مبلغا عظيما فجيش الاشرف جيشا ضخما وسيره الى الحدود ليدفع عنها غارات الجيوش العثمانية فعلم السلطان محمد بقصده ولم يلتفت اليه وخرج فى جيش عظيم يريد قتال الروم وأخذ بعض مدنهم فزاد قلق الاشرف قايتباى وهم بخلع نفسه من السلطنة وترك الامور لمن يتولاها فخاف الامراء وقواد الجند عاقبة تنازله ومنعوه من ذلك وجددوا له البيعة وبالغوا فى استرضائه فتولاها كارها وأخذ يتأهب لقتال السلطان محمد * وبينما هو على قدم التأهب والاستعداد اذجاءت الانباء بنصرة السلطان محمد على الروم وعزمه على الزحف على مصر والشام وأخذهما وعمت الاشاعة بذلك وتحققت بتأهب السلطان محمد واكثاره من جمع الاسلحة وآلات الحرب فكبر خوف الاشرف قايتباى وبالغ هو كذلك فى التأهب والاستعداد وصار يراقب الحوادث مع الحذر فلما تم السلطان محمد ماأراد من ترتيب الجيوش ولم يبق عليه الا تسييرهم الى الشام فاجأته المنية فى مدينة طيقور جابر وجاءت الاخبار بذلك الى الملك الاشرف قايتباى ففرح وظن بلوغ الغاية ومات السلطان محمد عن ولدين هما بايزيد وجم المعروف عند أهل التاريخ باسم زيزم وكان بايزيد حاكما بأماسيا وجم حاكما فى بلاد القرمان فوقع بينهما الخلاف واشتد خصامهما على الملك واشتغلا عن الفتح بالمنازعة والمخاصمة فثار الانكشارية بسبب ذلك على قرمانى محمد باشا الصدر الاعظم يومئذ وقتلوه وعاثوا فى البلاد حتى كاد يختل نظام العسكر السلطانى فازداد اطمئنان الاشرف قايتباى وعاد الى القاهرة بجيوشه ولبث يراقب الحوادث ويتنسم الاخبار واشتد الخصام بين ولدى السلطان محمد الى حد القتال فقامت الحرب بينهما وطالت أيامها ودخل الأمير جم مدينة بورصه عنوة وقتل فيها من الانكشارية خلقا كثيرا فركب عليه أخوه بايزيد وقهره عند مدينة يكى شهر ففر جم بمن بقى من عسكره يريد الالتجاء الى حمى الاشرف قايتباى فتبعه بايزيد بخيله ورجله الى حدود الديار المصرية ثم رجع ظافرا منصورا ووصل جم الى القاهرة فى نفر من خواصه فأكرمه الاشرف وأحسن لقاءه وأنزله مكانا رحبا فأقام عنده زهاء السنة ثم سار من مصر الى حلب وأخذ يراسل الامير قاسما آخر سلالة أمراء القرمان ويمنيه بأنه اذا أنجده ومكنه من تولى الملك مكان أخيه السلطان بايزيد رد اليه بلاد أجداده وعاهده على المودة والصفاء فمال اليه الامير قاسم وجمع أحزابه وسار فى نفر كثير مع جم المذكور لمحاصرة قونيه عاصمة القرمان فركب عليهم كدك أحمد باشا أحد قواد العساكر العثمانية وهزمهم ومزق جمعهم ففر الامير جم هاربا * وجاءت الاخبار بذلك الى الاشرف قايتباى فتطير وزاد خوفه من السلطان بايزيد وعزم على مفاجأته والزحف عليه بالعسكر المصرى قبل أن يدهمه بايزيد بخيله ورجله وجعل من يومئذ يناوى الترك ويقطع على قوافلهم السبل ويشرد ركبهم الراحل الى بيت الله الحرام وكان ملك الهند قد أرسل الى السلطان بايزيد سفيرا فى أمر لامحل لذكره هنا فلما وصل السفير الى مدينة السويس أمر الاشرف قايتباى فقبضوا عليه وجاؤا به الى القاهرة وعوّقه عنده وزحف على

أذنة فملكها عنوة وكذلك فعل بطرسوس وقد كانتا فى حوزة العثمانيين فاستعظم السلطان بايزيد ذلك وأكبره وسير سفراء الى قايتباى فى طلب رد ما أخذه المصريون من البلاد العثمانية فأرجع قايتباى السفراء بغير جواب وسير عسكرا كثيرا لقتال عساكر بايزيد فكبر كبد السلطان بايزيد وسير هو كذلك جيشا عظيما لقتال عسكر قايتباى فالتقى الجمعان واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انحازت العساكر المصرية الى ملاطية فأخذها الاشرف قايتباى بخمسة آلاف مقاتل ثم كروا على جند بايزيد وهم فى مضايق الجبال وأعملوا فيهم السيف وقتلوا منهم خلقا كثيرا ومن بقى وتحصن فى طرسوس وأذنة فأرسل قايتباى الامير أزبك فى نجدة لاخراج العثمانيين منهما فقاتلهم أزبك قتالا شديدا وأبلى فيهم بلاء حسنا فشق هذا الامر جدا على السلطان بايزيد وأكبره وآلى على نفسه أن يسترجع أذنة وطرسوس فأنفذ عسكرا عظيما مع صهره الامير أحمد ❊ وأحمد هذا ابن أمير البشناق ومولده فى بلاد الارنؤد وتربى فى مهد النصرانية ثم أسلم ودخل فى خدمة آل عثمان حتى بلغ رتبة الامارة فلما التقى الفريقان اقتتلا قتالا شديدا فانهزم الامير أحمد وظفرت به الجنود المصرية وانتصروا عليه نصرة عظيمة ووقع أحمد المذكور فى قبضة الامير أزبك فسار به الى القاهرة محصورا ووصل الخبر الى السلطان بايزيد بما حل بأصحابه فكاد يتميز من الغيظ وجند جندا عظيما وعقد لواءه لامير من كبار القواد اسمه على باشا فسار فى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة هجرية ونزل بجيوشه فى بلاد القرمان فعلم الاشرف بخبره وكثرة عساكره فخوف وعمد الى طلب الصلح وأنفذ الى السلطان بايزيد صهره الامير أحمد واسطة فى ذلك فأبى بايزيد الا القتال وأحث جيوشه حتى التقت بجيوش الاشرف قايتباى فى أذنة وطرسوس فانتشبت الحرب بينهم فانهزمت جيوش قايتباى شر هزيمة وأخذ منهم العثمانيون أذنة وطرسوس وعاد من بقى من المصريين الى مصر وفرح السلطان بايزيد بنصرة جيوشه فسار الى أرمينية فى عسكر عظيم وحاصر تحتها وافتتحها بعد قتال شديد وقبض على واليها وسيره الى القاهرة بدلا من الامير محمد استخفافا بالاشرف قايتباى فاستعظم الاشرف ذلك وسير الامير أزبك ثانية فى جيش كبير للقتال فالتقى الفريقان عند طرسوس فواقعهم أزبك فكادوا يهزمونه فعاد اليهم وظفر بهم ونال منهم فرجعوا القهقرى ولم يقدروا على القتال فعاد أزبك الى القاهرة ظافرا غانما فأجله الاشرف وأدناه منه ❊ وحسب الاشرف قايتباى عاقبة تلك الحروب وأوجس منها خيفة فأرسل الى السلطان بايزيد فى طلب الصلح حقنا للدماء فلم يلتفت بايزيد الى ذلك وأغلظ فى القول وطلب منه أن يتخلى عن أذنة وطرسوس فان لم يفعل جاء لقتاله مع جميع دعاة آل عثمان فيفتح مصر عنوة ويعمل السيف فى أهلها فلا يرحم كبيرا ولا صغيرا فأذعن الاشرف الى ذلك وتخلى عنهما صاغرا وذلك سنة ست وتسعين وثمانمائة هجرية فانكف بايزيد عن قتاله وعاقده الصلح

وكان الاشرف قايتباى مع كل هذه الحروب والخطوب كثير التحرز من الخليفة أبى

المحاسن يوسف لا يركن اليه ولا يمكنه من شئ من أمور السلطنة ولا يبيح له النزول من قلعة الجبل الى دار أجداده بالمدينة خوفا من تقرب الامراء منه وقيام العامة لنصرته فلبث محجورا عليه بقلعة الجبل مقهورا مغلوبا لايعلم من أحوال المملكة شيأ حتى مات فى يوم السبت رابع عشرى المحرم افتتاح سنة أربع وثمانين وثمانمائة هجرية وكان قد عهد بالخلافة الى ابن أخيه عبد العزيز أبى المعز يعقوب بن المتوكل على الله فكانت خلافة المستنجد نحو ثلاث وعشرين سنة وبضع أشهر

ومات فى خلافته يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام عشرين سنة وكان كامل الرأى صائب الفكر حسن التدبير محبوبا معظما قامت فى أيامه فتنة عظيمة بسبب ضعف الحكام وسقوط هيبة أصحاب الامر والنهى فقام العامة على النصارى بالقاهرة وأغلقت جميع كنائسهم ومنعتهم من اقامة شعائر دينهم ثم عم هذا الامر جميع الاقاليم القبلية والبحرية واشتدت نار الفتنة فوقع القتل والسبى والنهب والتخريب وأريقت الدماء هدرا فى الازقة والحارات وعجز ولاة الامر عن ردع العامة وزاد الخطب اشتدادا باشتغال السلطان الملك الاشرف قايتباى بقتال السلطان با يزيد وخلوا القاهرة وغيرها من المرابطين من العساكر والاجناد وما زال الحال على ذلك أياما كثيرة حتى سكنت الفتنة من نفسها وانكف العامة والناس جميعا فى تحرز فكان الخطب شديدا * ولما مات يوحنا البطرك المذكور أقام المتأصلون بعده يوحنا التاسع فكان حادى ثمانيهم ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله

(الفصل الثالث عشر)

(فى خلافة عبد العزيز أبى المعز يعقوب بن المتوكل)

ثم قام بالامر بعد المستنجد ابن أخيه عبد العزيز أبو المعز يعقوب بن المتوكل على الله وبويع بالخلافة بعهد من عمه يوم الاثنين سادس عشر المحرم سنة أربع وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة تسع وسبعين وأربعمائة وألف ميلادية * فلما كان عصر يوم الاثنين المذكور صعد الى قلعة الجبل وحضر القضاة والاعيان فأمضوا عهد عمه ولبس تشريف الخلافة ونزل الى داره والقضاة بين يديه وكان قد أراد أن يلقب نفسه بالمستعز بالله ثم وقع التردد بينه وبين المستعين أوالمتوكل واستقر الحال على أن يلقب بالمتوكل على الله * فلما استقرت به الخلافة أحسن السيرة والتدبير وأدنى منه العلماء وتعفف عن أخذ ما يتحصل من مشهد السيدة نفيسة من النذور من شمع وزيت وغيرهما وصرفه فى مصالح المكان من عمارة وغيرها وكان الخلفاء قبله يأخذون لانفسهم أكثره ويفرقون ماينبقى على من شاؤا من أزلامهم فرفع ذلك كله فلما خبر السلطان الملك الاشرف حاله مال اليه وأحبه ولم يضيق عليه

كما كان يفعل بعمه المستنجد ولكنه مع ذلك كان فى شاغل عنه بالانباء المتراكمة عن السلطان بايزيد وخوفه من نقض الصلح واضطرام نار الحرب فكان قلق البال مضطرب البلبال وما زال على هذا الحال حتى مرض ومات فى الثانى والعشرين من ذى القعدة سنة احدى وتسعمائة هجرية فكانت سلطنته تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وعشرين يوما فبكاه الناس وحزنوا عليه حزنا عظيما واجتمعت كلمة الامراء كافة على تولية ولده أبى السعادات محمد فولوه يوم وفاة أبيه ولقبوه بالملك الناصر

فلما استقر به المنصب أساء السيرة وعبث بالامور وجار وظلم الرعية فكان جبارا غشوما عتلا زنيما لا رحمة عنده وكان شديد البغض للملة النصرانية على غير سبب وكان النصارى من أهل البلاد الى هذا الحين لم يتمكنوا من لم شعث ماأفسدته الفتنة السابقة ولا اصلاح ما تهدم من كنائسهم ودورهم وغير ذلك فضيق عليهم وبالغ فى تذليلهم وأباح للعامة تتبعهم بالايذاء ورفع القصص ضدهم فكان الرجل منهم لا يشعر الا وقد طرقوا بابه أوأدخلوه عنوة وأخذوا جميع ما وصلت اليه أيديهم من ملبوس وأثاث ثم يأخذون صاحب الدار حتى اذا نزلوا به عند باب داره ذبحوه أو أوقدوا حطبا وألقوه فيه على مرأى من أهله وولده واشتدت نار الفتنة وارتفع لهيبها فقتل وحرق خلق كثير وأغلقت الكنائس وسائر بيوت العبادة وتعطلت الشعائر الدينية * قال بعض أهل التاريخ فتوجه الناس بقلوبهم الى الله تعالى وضجوا وعجوا والناصر بظلمه كل يوم فى شان ﴿ فلما كان فى بعض الايام اتفق أن مملوكا من مماليكه أذنب ذنبا صغيرا فأمر به الناصر فسلخ جلده حيا بين يديه فقام عليه عند ذلك طوائف المماليك ونادوا بخلعه فخلعوه كرها وحجروا عليه وضيقوا وتشاوروا فيمن يصلح للولاية فاتفقت كلمتهم على مبايعة الامير قانصوه الملقب بخمسمائة وهو من مقدمى الامراء ولقبوه بالملك الاشرف فكانت سلطنة الناصر ستة أشهر الا أياما قلائل كلها عسف وجور لا يطاق

فلما استقرت بقانصوه السلطنة رأى من اختلال الاحوال وتفشى الفساد فى جميع أمور المملكة ما أقعده عن التدبير وأعجزه عن القيام بمهام السلطنة فعالج الامر فلم يفلح فأ كثر من الاخذ والرد مع الامراء فلم يتم له أمر فخلع نفسه فكانت سلطنته خمسة أشهر لاغير وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر فى محله ان شاء الله * وأما الخليفة المتوكل فانه أقام يدبر أمور الامامة لايتعرض لشئ من أحوال المملكة عاكفا على ما بيده من حقوق الخلافة حتى مات فى يوم الجمعة الثانى من صفر سنة ثلاث وتسعمائة ولم يعهد بالخلافة لاحد من بعده فكانت خلافته نحوا من عشر سنين فاجتمعت الكلمة على البيعة للخليفة أبى صابر ولقب بالمستمسك

ومات فى خلافة المتوكل المذكور يوحنا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ست سنين قضاها فى أنكد عيش وأضيق حال بين أسر واسترقاق وقد ذاقت فى أيامه النصارى من الرزايا والمحن أنواعا وأصنافا وعوته أقيم بعده بنيامين وهو راهب من جبل سينا فكان ثانى ثمانيهم ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله ·

(الفصـــــل الرابع عشر)

(فى خلافة أبى صابر يعقوب المستمسك بالله)

ثم قام بعد الخليفة المتوكل على الله أبو صابر يعقوب وبويع بالخلافة يوم السبت الثالث من صفر سنة ثلاث وتسعمائة هجرية أى سنة سبع وتسعين وأربعمائة وألف ميلادية ولقب بالمستمسك بالله وكان حسن السيرة سليم السريرة محبا للخير وأهله عاقلا فأقام فى داره بالمدينة لا يتطرق لشئ من أمور السلطنة ولا يتعلق بأمر من أمور الدولة الا ما كان بيده من النظر على المشهد النفيسى فمالت الى محبته القلوب وهابه الامراء واجتمعوا على طاعته ومال جماعة منهم الى تسليم مقاليد السلطنة اليه فتحزب آخرون للناصر محمد وطلبوا ارجاعه الى تخت الملك بعد تنازل الملك الاشرف وخلعه نفسه وانضم الى هؤلاء جماعة من الكبراء والعلماء وما زالوا حتى فازوا بارجاعه وتسليم مقاليد الامور اليه وظنوا اصلاح ما فسد من أخلاقه فلم يستقر به المنصب حتى عاد الى ما كان عليه من الجور والعسف بالرعية وارتكاب المحرم والفحش مما لا خير فيه وتمادى فى جوره وظلمه فمقته الرعية وأبغضه الامراء وندموا على توليته الملك وحقدوا عليه وكرهوا مماليكه والمقربين اليه وصاروا يراقبون الفرص للايقاع به وطال الحال على ذلك أياما . فلما كان سادس عشر ربيع الأول سنة أربع وتسعين خرج الناصر يريد الجيزة على عادته فكمن له كمين فى الطريق من المماليك وخرجوا عليه وضربوه بالسيوف وتركوه ملقى بالطريق وعادوا الى القاهرة وأشاعوا خبر موته فاجتمع الامراء وكبار الجند وتشاوروا فيمن يصلح للولاية بعده فاجتمعت كلمتهم على مبايعة خاله قانصوه الغورى فبايعوه فى يوم الجمعة سابع عشر من الشهر ولقبوه بالملك الظاهر وولوه السلطنة على كره منه اذ كان يعرف ماوراءها من المتاعب وما سيلاقيه من المصاعب . فلما استقر به المنصب رأى من فساد الاحوال ما أفسده وأضعف عزيمته وأبغضه فى الملك فتقاعس وترك الامور تجرى فى أعنتها وتحجب عن الناس ومنع الامراء من الحضور الى خدمته وأغلق دون أهل الظلامات بابه بغضا منه فى السلطنة وكرها فلما أيس الامراء منه وتحققوا من عزمه على اعتزال المنصب قاموا عليه وخلعوه فى أوائل ذى الحجة سنة خمس وتسعمائة فكانت سلطنته سنة وبضع أشهر وولوا بدله خاله جانبلاط الاشرف قايتباى ولقبوه بالملك الاشرف فتولاها والامور مختلة والاحوال معتلة وسعد السلطنة فى إدبار فعالجها علها تستقيم فلم يفلح فصمم على خلع نفسه وهم بذلك فأجابوه اليه وخلع فى تاسع عشرى جمادى الآخرة سنة ست وتسعمائة فكانت مدته سنة وأشهرا وأياما

واختل نظام السلطنة وزالت هيبة الدولة وتطاولت اليها أعناق الطامعين لكثرة العزل والتولية فلما رأى أمراء الشام ذلك وتحققوا أن ذلك انما هو ناجم عن تفرق الاحزاب وانقسام

الآراء وتباين الاهواء اختاروا من بينهم الامير طومان باى وسيروا الرسل الى أمراء مصر فى
أمر توليتــه الســلطنة فوافقوا على توليتــه وبايعوه جميعا وطيروا الاخبار بذلك الى الآفاق
ولقبوه بالملك العادل فقدم الى مصر فى طائفة من الجند الشامى وصعد الى قلعــة الجبــل
وأمامه الامراء المصريون ومقدمو الجند والجنائب السلطانية ودقت لقدومه البشائر وتوسم
الناس فيــه سمــة الخير واســتبشروا به فلما قبض على زمام الامور ورأى من تمرد الجنــد
واقدامهم على الكبائر بغير خوف ولاحساب لتفشى الخلل فى جميع الامور وفساد الاحوال
شدد عليهم وضيق وآخذهم على كل هفوة فأبغضوه وأضمروا له السوء وصاروا يراقبون الفرص
للايقاع به فأحس بذلك وأخذ يحترز منهم ويعمل على تفريق كلمتهم وتذليل كبارهم فلم يفلح وقد
أكثر المبغضون له وكبر خوفه منهــم ففر واختفى أربعــين يوما فجعلوا يفتشون عليــه حتى
عثروا به فى ذى القعدة من الســنة فجاؤا به وقتلوه ومثلوا بجثته فكان يوما عبوسا كثر فيه بعد
ذلك النهب والسلب والتخريب واراقة الدماء وتمكن العــدو من عــدوه فخاف حينئذ جميع
الامراء وانكمشوا ولم يتقدم أحد منهم بعد ذلك على طلب الملك لاستفحال أمر الجند وتصرفهم
فى جميع أمور الدولة ثم اجتمع جميع الامراء وكبار الجند والاعيان والعلماء وأصحاب الوظائف
العالية وتشاوروا فى الامر طويلا ثم اتحدت كلمتهم على ارجاع الامير قانصوه الغورى الى دست
الســلطنة ثانيا لانهم رأوا أنه لين الجانب سهل الازالة أى وقت أرادوا خلعه خلعوه لانه كان
أقلهم مالا وأضعفهم حالا وأوهنهم قوة فلما كلموه فى ذلك قال لاأقبل الا بشرط أن لاتقتلونى
فان رأيــتم منى اعوجاجا وأردتم خلعى فاعلمــونى فأنزل لكم عن الســلطنة وأخــلى بينكم
فعاهدوه على ذلك فقبل منهم فبايعوه فى ذى الحجة من السنة وفرح العساكر ببيعته واستبشروا
بولايته وظنوا بلوغ الغاية * قال بعض أهل التاريخ وكان قانصوه هذا كثير الدهاء كبير المعرفة
ذا فطنة وتجربة بالامور الا أنه شديد الطمع كثير الظلم جبارا طاغية فجعل يعالج الامور حتى
سكنت الفتنة بما عاهد عليه الجند واشتغلوا عنه وأهملوا أمره فأخذ يعمل التدبير على اهلاكهم
وتمزيق شملهم وصار يلقى الفتنة بينهم ويأخذ هذا بهذا ويحرض طائفة على الاخرى ويدس لكبارهم
السم فى الطعام ويباعد بين بعضهم والبعض بالأسفار والبعثات الطويلة وغير ذلك من الحيل
حتى أفنى أكثرهم وأهلك جميع كبارهــم وشرد أصحاب الكلمة فيهم وأضعف شوكتهم وأزال
صولتهم وفرق كلمتهم وأذهب هيبتهم ثم اتخذ لنفسه مماليك جلبا وأعدهم جندا وبالغ فى ترتيب
نظامهم فكانوا بعد قليل ضربة على الرعية يظلمون ويجورون ويعبثون بالخلق ويسلبون المارة
وأبناء السبيل وظهر منهم غاية الفساد والجور وهو يتغافل عنهم والناس فى ضجر وابتهال الى الله
بقلوب مفعمة حزنا * فلما قويت بهم شوكته عمد الى مصادرة النــاس فى أموالهم بالقهر والبأس
وكثر أخذه للناس بالشبهات فكثر أصحاب السعاية على بابه فكانوا اذا علموا باحد من مساتير الناس
وشوا به عند السلطان فيرسل اليه أعوانه من أولئك المماليك ويأخذ أمواله بغير رحمة ويسلمه
الى من يعاقبه بانواع العقوبات حتى يأخذ ما أخفاه من دنياه الى أن يصبح فقيرا بعد غناه وعمت



المصادرة فأخفى الناس أموالهم وتظاهروا بالفقر والمسكنة وعظم ملك قانصوه وكبرت هيبته وعلت كلمته حتى هابه ملوك الروم والمشرق والفرنجة وفك الاسرى منهم وكان له المواكب الهائلة والكلمة المسموعة ومهد طريق الحاج وأمنه فكان يسافر اليه من مصر النفر القليل

ونزلت فى أيامه طائفة من الفرنجة على سواحل البحر الاحمر وصاروا يشنون الغارة على قوافل التجارة التى كانت تأتى الى مصر من الاقطار الهندية وبلاد العرب وغيرها فاستعظم قانصوه ذلك وسير جيشا عظيما لقتالهم فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا عنيفا فظفر الفرنجة وانتصروا على عساكر قانصوه نصرة عظيمة وأهلكوهم فلم ينج منهم أحد وكانت هذه الوقعة من أشد الوقائع وأشأمها على السلطان قانصوه اذ بدا بعدها نجم سعده فى الافول وسلطنة فى الاضمحلال

• ولما كانت سنة ثمان عشرة وتسعمائة جاء الى مصر الامير كركور أخى السلطان سليم ابن السلطان بايزيد فارا من أخيه بعد قتال على الملك لا محل لايراده هنا واستنجد قانصوه على قتال أخيه ففرح قانصوه بقدمه وجهزه بعشرين سفينة حربية وأمده ببعض العساكر البرية وسيره لفتح القسطنطينية فسار بها كركور فخرجت عليه عمارة عظيمة من السواحل الشامية وقاتلته وشددت فى قتاله حتى أغرقت جميع المراكب المصرية ودمرتها فلما جاء الخبر بذلك الى قانصوه ندم على ما فعل وخاف شر السلطان سليم وتحرز وبعث اليه سفراء فى طلب الصلح وعقد معاهدة على الولاء والمودة فلما تمثل السفراء بين يدى السلطان سليم أغلظ عليهم فى القول وهددهم وقال لهم قولوا لصاحبكم ليست السلامة فى كل مرة وان أنا الا زاحف على القاهرة فسيلقى صاحبكم نارا حامية ان شاء الله تعالى فرجع السفراء وأخبروه بما كان فكبر خوف قانصوه وأزعجه الامر وأخذ يراقب الفرص ويعلل النفس بالامانى البعيدة • ومرض فى هذه الاثناء الخليفة المستمسك بالله وثقل مرضه فزاد خوف الاشرف قانصوه من قيام الفتنة أيضا فى داخل البلاد وخروج الاحزاب لاسيما وقد كان بعض كبار الجند والامراء ناقمين عليه متحفزين للبطش يوما زال المرض يشتد بالخليفة حتى مات فى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هجرية فكانت خلافته نحوا من عشرين سنة ولم يعهد بالخلافة لاحد من بعده فعجل الاشرف قانصوه فى مبايعة ولده محمد المتوكل على الله وبايعه كذلك الامراء والقضاة والعلماء خوفا من قيام الفتنة

ومات فى خلافة المستمسك المذكور بنيامين بطرك المتأصلين بعد أن أقام احدى عشرة سنة واشتد فى أيامه السلطان الملك الاشرف قانصوه على النصارى شدة بالغة فصادر الكثير منهم فى أموالهم وضيق عليهم وزاد فى نكايتهم حتى عاقب بعض النساء بالجلد ونحوه وكان بنيامين هذا ورعا تقيا ساكن الب عمر فى أيامه ديرابنابشوى فى برية شهات وبعوته خلا الكرسى سنة ثم أقيم بعده بطرس وهو ثالث ثمانيهم واسمه داود وكان راهبا بدير أبى مقار فأقام ثمان سنين ومات ووقع فى أيامه من الشدائد والمحن ماوقع للنصارى فى أيام بنيامين فكان صبورا جلودا متواضعا فأقيم بعده مرقس وهو رابع ثمانيهم واسمه فرج الله وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

(الفصل)

(الفصــــل الخامس عشر)

(فى خلافة محمــد المتوكل على الله ابن المستمسك)

ثم قام بالامر بعد المستمسك ابنه الخليفة محمد المتوكل على الله بويع بالخلافة ثانى يوم موت الخليفة المستمسك سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هجرية أى سنة ست عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وفى اليوم المذكور صعد الخليفة المشار اليه الى قلعة الجبل وألبس تشريف الخلافة بحضرة السلطان الملك قانصوه والقضاة والعلماء ونزل الى داره بالمدينة فى دست الخلافة والقضاة بين يديه والتزم النظر بالمشهد النفيسى على ما كان عليه الخلفاء من قبل واحتجب عن الناس الا القليل بأسباب الحوادث والفتنة القائمة وتشاغل عنه السلطان قانصوه بما هو فيه من تجنيد الجند وجمع الاسلحة والكراع لقتال السلطان سليم فقد كانت الاخبار تأتى اليه فى كل يوم أشكالا لاسيما بعد أن سار السلطان سليم فى عسكر جرار لقتال اسمعيل شاه ملك فارس لما بينهما من العداوة القديمة * قال أصحاب التاريخ وكان سبب هذه العداوة أنه لما عصى السلطان سليم واخوته والدهم السلطان بايزيد استنجد الامير أحمد شاه اسمعيل على قتال والده ثم على أخيه من بعده فساعده وقبل من التجأ اليه من أولاده وسير سفراءه الى سلطان مصر قانصوه فى طلب عقد تحالف سرى على الايقاع بالدولة العثمانية وايقاف سلاطينها عند حدهم فعظم هذا الامر على السلطان سليم وجيش جيشا عظيما لغزو بلاد فارس وأخذها جميعها من اسمعيل شاه ولما كان اسمعيل شاه لايبدى حراكا ولم يفتح للحرب بابا وكان السلطان سليم على قدم الاستعداد للقتال دس لعماله فى الولايات المتاخمة لبلاد العجم أن يحصوا الشيعيين من العجم النازلين فى بلادهم فأحصوهم سرا فكانوا زهاء أربعين ألفا فأمر بقتلهم صبرا فقتلوا عن آخرهم ثم سار السلطان سليم بجيوشه الى أدرنه فى الثانى والعشرين من المحرم افتتاح سنة عشرين وتسعمائة فكان كلما مر ببلد أو مدينة فتحها حتى وصل تبريز فلاقاه ملك فارس فى عسكر عظيم واحتدمت نار القتال بين الفريقين فانهزم ملك فارس ومن معه وساقت عساكر السلطان سليم خزائن ملك فارس وآلات حربه وذخيرة جنوده وما زال السلطان سليم يسير خلفه بخيله ورجله حتى وطأ أرض تبريز فقتل وأسر وأراق الدماء وأراد أخذ جميع بلاد فارس ومحو آثار هذه الدولة فلم يفلح لاشتداد القحط والغلاء وانتشار الوباء بين عسكره وبيعت العلوفة بمائة درهم وبيع الرغيف بمائة درهم وكان ذلك لانقطاع القوافل التى كان أعدها السلطان سليم لتأتى له بالمؤن والعلوفة فتخلفت عنه ولم يوجد بتبريز شئ من المأكول أو الحبوب حيث أحرق ملك فارس جميع الاجران وخرب المبانى وأفسد المزروعات لكى لا يتمكن السلطان سليم من شئ منها فاضطرب السلطان لذلك وخاف شر العاقبة وسأل عن سبب انقطاع القوافل

فقالوا له ان سبب ذلك قانصوه الغورى سلطان مصر فان بينه وبين ملك فارس عهدا على ذلك فقفل السلطان سليم راجعا بمن بقى من عسكره الى مقر سلطنته وفى نفسه ما فيها وأخذ يتأهب لقتال قانصوه وسلخ مصر منه وأقسم أنه لا ينكف عن الحرب حتى يزيل عنها دولة المماليك الشراكسة ويبيدهم

وكان من مقدمى الامراء المصريين أميران أحدهما اسمه خير بك متولى حلب وثانيهما اسمه سيباى الغزالى متولى الشام وكان بينهما وبين السلطان قانصوه الغورى عداوة فى الباطن وقد علم السلطان سليم بذلك فراسلهما فى أمر قتاله بمصر فأوسعا له الامل وسهلا عليه سبل العمل وحرضاه على ذلك وكشف له عن فساد الاحوال وعجز السلطان قانصوه عن القتال فأحس السلطان قانصوه بذلك وأخذ يراقب الامور ويبعث بالعيون لتأتى له بصادق الاخبار حتى علم بتأهب السلطان سليم للحركة والقيام من دار سلطنته فأخذ هو كذلك فى التأهب وعرض العساكر والاجناد وجمع الاموال لنفقة الحرب وفتح خزائن البيسارية وحواصل الامتعة فأخرجوا منها ما أرادوا من كراع وسلاح وأرسل الى الخليفة المتوكل على الله أن يتأهب للخروج معه الى حلب ونادى فى جميع العسكر بالتأهب والاستعداد فلما كان يوم الاثنين ثامن عشرى ربيع الاول سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة أنفق على العسكر نفقة السفر فكان ما خص كل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة أشهر ثمانية آلاف فضة وثمن جمل سبع أشرفيات ثم نادوا فى العسكر بالخروج فخرجوا فى يوم الجمعة سابع ربيع الآخر وساروا تباعا الى الريدانية وعسكروا بها أياما ثم خرجت أطلاب السلطان وأمير المؤمنين الخليفة وبقية الامراء والمباشرين وفى صبح يوم السبت خامس عشر ربيع الآخرة اجتمع سائر الامراء المقدمين عند السلطان بالميدان وهم بملابس التشريف فخلع عليهم الخلع السنية فكانت عدتهم خمسة عشر أميرا ثم رسم السلطان بتعيين الامير طقطاى نائب القلعة أحد المقدمين والامير برزمك المعروف بالناشف والامير تانى بك العجمى أحد المقدمين وغيرهم من الامراء نواب غيبة كل منهم فى مسنده حتى يرجع السلطان من هذه الحلة ثم خرج السلطان من باب الاسطبل الذى عند السلم المدرج وأمامه النفير السلطانى المسمى بالبرغيشى وهو فى موكب عظيم وأبهة زائدة وكان يتقدم هذا الموكب ثلاثة أفيال مغشاة بالصناجق وخلفهم العساكر بملابس التشريف تباعا ثم الامراء رؤس النوب بالعصى ثم أرباب الوظائف من المباشرين ثم ولد السلطان وبجانبه الاتابكى سودون العجمى ثم القضاة الاربعة ثم أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله محمد بن المستمسك يعقوب العباسى وهو لابس العمامة البغدادية التى بالعذبتين وعليه قباء بعلبكى بطراز أسود حرير ثم سارت الجنائب السلطانية فكانوا طوالتين من الخيل من أحسن الجياد بعراقى وسروج بقواشى من الحرير الاصفر وطبول وزمور وطوالتين آخرين بكباس وسروج ذهب ومياثر زركش وخلفهم جماعة من رؤس النوب مشاة والجاويشية والطبردارية مشاة بالاطبار

ثم البقيع والجامع مغطاة بالحرير الاصفر ثم الجوكندارية بالمجمرة • قال بعض كتاب الاخبار ثم أقبل السلطان الملك الظاهر قانصوه وكان الخليفة أمامه بنحو العشرين خطوة والسلطان راكب على فرس من جياد الخيل وعلى رأسه كلوتا وهو لابس قباء بعلبكيا أبيض بطراز مزركش والصنجق السلطانى على رأسه وشبل العثمانى مقدم المماليك خلفه ومعه السلحدارية والجم الغفير من الخاصكية والجمدارية ودخل من باب زويلة وشق القاهرة بموكبه هذا فضج الناس له بالدعاء وما زال حتى خرج من باب النصر وسار الى المعسكر بالريدانية ونزلت فى غروب ذلك اليوم من قلعة الجبل جميع الخزائن السلطانية وكان فيها من الذهب زهاء ألفى ألف دينار نقرة وكثير من الفضة والنحاس ثم نزلت الزردخانة وهى محملة على مائة جمل ونادى المنادى سادس عشر الشهر المذكور بخروج من تعوّق من العساكر والاجناد بالقاهرة ومصر القديمة وأن السلطان على عزم السفر فى يوم الجمعة عشرى الشهر فخرج من بقى ورسم السلطان لجماعة من نواب الشافعية ونواب الحنفية ونواب المالكية ونواب الحنابلة أن يرافقوه فى هذه الغزوة ورسم بذلك لجماعة من مشايخ الصوفية والائمة ومشايخ القراء والمؤذنين والكتاب وجماعة من الاطباء والكحالين والحلاقين والمغنين وجماعة كثيرة من البنائين والنجارين والحدادين ثم قام الركب وسار الى الديار الشامية ولبث السلطان بالريدانية فى نفر من خواصه وكبار أمرائه أياما فجاءته الاخبار من عامله على حلب بأن السلطان سليم لايريد الا المصالحة وحقن الدماء وعدم الاندفاع الى حرب ربما كانت عاقبتها عليه وخيمة فسر السلطان الظاهر بهذا الخبر واعتقد صدق مقال السلطان سليم والامر على عكس ذلك فقد كان هذا القول خدعة من السلطان سليم ومداهنة لغاية فى نفسه • فلما كان يوم السبت ثانى عشرى ربيع الآخر سار السلطان الملك الظاهر قانصوه من الريدانية وصحبته أمير المؤمنين الخليفة والقضاة الاربعة وولده المعز الناصرى وأقبباى الطويل وذلك بعد صلاة الضحى يريد الخانقاه السرياقوسية فكانت مدة لبثه بالريدانية سبعة أيام وأقام بالخانقاه يوما وليلة ورحل عنها فى يوم الاحد ثالث عشريه • وكان بمصر من أولاد أحمد بك أخى السلطان سليم غلام اسمه قاسم وكان سبب حضوره الى مصر أنه لما قام السلطان سليم على أخيه أحمد أبى قاسم المذكور وقتله خافت أم أحمد عليه فسلمته الى مربيه من الخصيان وأشارت عليه بالهرب الى الديار الشامية فهربا معا الى حلب وهما فى هيئة مبتذلة فدخلاها فلبثا بها حينا فلما علم السلطان الملك الظاهر بأمر الصبى المذكور كاتب عامله على حلب فى أمره ورسم بتسييره الى مصر فجاءها مع مربيه وأقاما بها متنكرين فلما عزم السلطان الظاهر على الشخوص الى الشام جهز الامير قاسما المذكور فى عدة من المماليك والفرسان والخدم والحشم ودواب الحمل وقيد بخدمته الامير ماماى الصغير المحتسب ورسم بخروجه خلفه الى الشام فى هذه الابهة والكبكبة كى يشيع خبره ويعلم الناس فى دار السلطنة العثمانية أن بمصر غلاما من سلالة ملوكهم فيخرجون على

السلطان سليم بسببه ويتحازون اليه فتضعف شوكة السلطان سليم وتسقط هيبته فيظفر به ويعود منصورا وكان الصبي المذكور لم يبلغ من العمر سوى الثالثة عشرة فخرج فى غرة جمادى الاولى من السنة فى موكب حافل وشق من صليبة ابن طولون وعلى رأسه عمامة تركمانية وفى وسطه خنجر وفى أذنه قرط مثمن للغاية وخلفه جماعة من العثمانيين والامير ماماى المحتسب والامير اينال باى دوادار سكين ولحق بالركب السلطانى كما رسم الظاهر قانصوه

ودخل السلطان الملك الظاهر قانصوه بجيوشه الى الصالحية فى يوم الثلاثاء خامس عشرى ربيع الآخر ثم سار منها الى قطيا فلاقاه نائبها ومدّ له الموائد وجهزه بما لاق وسار منها فدخل مدينة غزة فى يوم الخميس رابع جمادى الاولى فلاقاه الأمير دولت باى نائب غزة فأقام بها خمسة أيام ثم رحل عنها الى دمشق فدخلها فى يوم الاثنين ثامن عشرى جمادى الاولى فلاقاه الأمير سيباى الغزالى نائب الشام وأظهر الفرح بقدومه ومشى فى ركابه فدخل وأمامه الخليفة والقضاة الاربعة وسائر الامراء وأرباب الوظائف من المباشرين والجم الغفير من العساكر والناس فلاقاه بها جميع أمراء الشام وعسكرها وحملوا القبة والجلالة على رأسه كما جرت عادة الملوك من القدم وزينت له المدينة ودقت البشائر بقلعة دمشق ونثر على رأسه بعض تجار الفرنجة الذهب والفضة وفرش له سيباى الغزالى تحت أقدام فرسه الشقق الحرير خديعة وغشا فشق وسط المدينة ودخل من الباب المسمى باب النصر وخرج الى الفضاء وسار نحو المصطبة السلطانية بناحية قانون فنزل بها ورسم بعمارتها فرعوها ❊ قال أصحاب التاريخ ولم يتفق هذا الموكب لغيره من ملوك مصر الا للملك الاشرف برسباى لما سار الى دمشق سنة ست وثلاثين وثمانمائة ❊ وأقام السلطان بالمصطبة تسعة أيام ثم رحل عنها الى حمص ثم الى حماة فلاقاه عاملها قباى بردى الغزالى وبالغ فى تعظيمه وعمل له موكبا حافلا جدا فأقام بها أياما حتى جاءه الامير قاسم أخو السلطان سليم فأنزله بها وسار هو بعسكره ومتاعه قاصدا حلبا فدخلها فى يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة فى موكب حافل ومشى أمامه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله والقضاة الاربعة وسائر الامراء وحملت له القبة والجلالة وكان الحامل لها الامير خير بك عامل على حلب فلم يستقر بالسلطان المقام حتى وفدت عليه رسل السلطان سليم وهم ركن الدين قاضى عسكره وأمير اسمه قراجاه باشا وفى ركابهما سبعمائة راكب فأنزلهم قانصوه فى أحسن مكان وأكرم وفادتهما ودعاهما الى مقامه وجعل يعاتبهما ويشكو من فعال السلطان سليم واقدامه على سفك الدماء التى حرم الله سفكها فلاطفاه وهونا عليه الامر وقالا قد جئنا الى مقامك وكلانا مفوض فى اجراء كل ماتحب وتختار بشرط أن لاتتعرض لنجدة ملك فارس وقالا ان السلطان يريد أن ترسل اليه سكرا وحلوى من محصول بلادك فسر الظاهر قانصوه بذلك وظن السلامة والاخلاص وأرسل اليه ماطلب ولم تكن نية السلطان سليم من ارسال هذا الوفد الا ليسبر غور الامور ويعرف أحوال جيوش الظاهر قانصوه وما عندهم من سلاح وكراع وكان السلطان سليم قد

وصل فى هذه الاثناء الى قيسارية ثم خلع الظاهر على رسل السلطان سليم خلعا سنية ورسم للامير مغلباى دوادار سكين بأن يتوجه الى السلطان سليم رسولا ومعه بعض التحف وكثير من الهدايا الثمينة وكتاب يعرب عن المودة والولاء والاشارة الى تقرير قاعدة الصلح بين الفريقين لحسم المشاكل وقطع أسباب الخصومة وبث ينتظر الجواب فلما أبطأ رسوله جمع جميع الامراء المقدمين والالوف والنواب وأمراء الطبلخاناه وأمراء العشراوات واستحلفهم على القرآن بأن يكونوا له عونا على العدو ولايخونوه ولايخالفوا له أمرا ولا يغدروا به فحلفوا جميعا وحلف معهم خيربك والغزالى ثم نادى فى العسكر بالعرض فى الميدان فعرضوا وهم باللباس الكامل ثم مروا من تحت سيفين قد نصبا على شكل قنطرة كعادة الاتراك • وعندهم أن هذا هو القسم الاعظم • وأرسل السلطان قانصوه الى الامير قاسم بن أحمد بحماة فجاء الى حلب فخلع عليه وأذاع خبره وطيره الى الآفاق وجعل يتأهب وبينما هو على هذا الحال اذ جاءه الخبر بأن السلطان سليم قبض على الامير مغلباى الذى سار اليه بالهدية والكتاب وكبله بالحديد وأبى الا القتال وقطع دابر الظاهر وأصحابه واستخلاص البلاد منهم • وساق السلطان سليم بعد ذلك بعسكره الى عنتاب وفتح قلعة ملطية وبهنسا وكركر وغيرهما من القلاع فاضطرب الملك الظاهر وتحير فى أمره ونادى فى طائفة من العسكر بالخروج الى لقائه فخرج أمير اسمه عبد الرزاق بعسكره وخرج معه خيربك فى نفر من جنده أيضا فكانت عدتهم خمسة آلاف ونزلوا على قيد يوم من مدينة حلب ثم خرج بعدهم سيباى الغزالى نائب الشام والأمير تمراز نائب طرابلس والأمير طراباى نائب صفد ونائب حمص ونائب غزة وتتابع خروجهم بالعسكر والاسلحة فى اليوم السابع عشر من رجب وخرج بعد ذلك من بقى وساروا قاصدين جبلات ووردت الاخبار بذلك الى نائب الغيبة بمصر فأطلق بعض المحابيس من القضاة والرجال وفرق الصدقات ودعا الناس الى الدعاء للسلطان الملك الظاهر قانصوه بالنصر والتأييد

وعاد فى هذه الاثناء الى حلب الامير مغلباى دوادار الذى سار الى مقام السلطان سليم رسولا بالكتاب والهدية وهو فى أسوء حال من العرى والتعب وأخبر الظاهر بما ناله من السلطان سليم وتصميمه على القتال ومحو أثر دولة الغورى فهال الملك الظاهر هذا الامر وأزعجه وخرج من حلب فى يوم الثلاثاء العشرين من رجب ومعه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله العباسى والقضاة الاربعة وسار الى جبلان فبات بها ليلة وأصبح فرحل عنها الى مرج دابق فأقام بها الى يوم الاحد سابع عشرى رجب فجاءته الرسل من قبل السلطان سليم تدعوه الى القتال فنادى فى العسكر بالخروج وركب هو وعليه تخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طبر وأخذ يرتب صفوف العسكر ويختار لها مواقع القتال ثم وقف بخواصه الذين يعتقد عليهم فى قلب الجيش وعلى يمينه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طبر مثل السلطان وعلى رأسه الصنجق الخليفتى



وكان حول السلطان أربعون مصحفا فى أكياس من الحرير الاصفر على رؤس جماعة من الاشراف وبينهم مصحف بخط الامام عثمان بن عفان وحوله أيضا جماعة من الفقراء وهم خليفة أحمد البدوى ومعهم العلم الاحمدى والقادرية ومعهم علم أخضر وخليفة السيد أحمد ابن الرفاعى ومعه العلم الخليلى والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة ومعه علم أسود والامير قاسم ابن أخى السلطان سليم واقف بازاء الخليفة وعلى رأسه صنجق من الحرير الاحمر وكان خلف السلطان الظاهر الصنجق السلطانى وتحته سنبل العثمانى مقدم المماليك والقضاة الاربعة والامير تمراز الزردكاش أحد المقدمين واصطفت جيوش السلطان سليم وارتفعت أعلامهم فبرز من جيوش السلطان الملك الظاهر الاتابكى سودون العجمى بعسكره والامير سيباى الغزالى نائب الشام والمماليك القرانصة للقتال فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا عنيفا للغاية فانهزم عسكر السلطان سليم وتقهقروا الى الوراء فساق خلفهم سودون العجمى وأصحابه وغنموا منهم سبعة صناجق ومكاحل وأسروا منهم عددا كثيرا من رماة البنادق وكادت تتم هزيمتهم وكان خيربك عامل حلب والغزالى والى الشام قد راسلا السلطان سليم واستوثقا منه لانفسهما بأن يعطى خيربك مصر والغزالى الشام فلما التحم الجمعان واضطرمت النيران وكادت تتم هزيمة عسكر السلطان سليم فر خيربك بمن معه وكانوا فى الميمنة وانضموا الى صفوف العدو وفر الغزالى بمن معه من العسكر الشامى وكانوا فى الميسرة وبقى السلطان الملك الظاهر بمن معه من خواصه فى القلب فاندفع عليه من بقى من عساكر السلطان سليم فأراد الهرب وحول وجه جواده يريد حلبا فسقط ومات تحت سنابك الخيل وقيل أصابه فى الحال فالج فلم يملك نفسه فسقط فمات لساعته فانقض عسكر السلطان سليم على من كانوا حوله فقتلوا الامير بيبرس أحد المقدمين وكثيرا من الخاصكية والغلمان وشردوا من بقى ووطؤا المصاحف والاعلام بسنابك الخيل ونهبوا ماوجدوه فى المعسكر المصرى وزال من تلك الساعة ملك السلطان الملك الظاهر قانصوه فكانت مدة تصرفه فى ملك مصر والشام وأعمالها خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما فقد كان ولى الملك فى مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ومات فى الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة * وقتل فى هذه الوقعة من الامراء المقدمين عدة كثيرة وقتل سيباى نائب الشام عند فراره للانضمام الى عسكر السلطان سليم وعدة أخرى من العمال والنواب وقد ستر وجه الارض بالجثث من الانسان والحيوان فكان المشهد مريعا للغاية والخطب شديدا ودخل السلطان سليم وطاق الملك الظاهر فأخذ جميع مافيه من مال وسلاح وكان شيأ كثيرا وانحاز من بقى من عساكر الظاهر الى مدينة حلب ليتترسوا فيها فقام عليهم أهلها جميعا ومنعوهم من الدخول وقاتلوا دونها فقتلوا من العسكر خلقا ونهبوا ما كان معهم من سلاح ومتاع وخيول وغنموا ودائعهم التى كانت بالمدينة فارتد من بقى وساروا الى دمشق فدخلوها وهم فى أسوء حال ما بين ضعيف وجريح بلا لباس ولا سلاح ولحق بهم بعض

المشردين

المتشردين من المباشرين ومن بقي من الامراء الكبار ولبثوا بها أياما بلا ماء ولا زاد الا القليل جدا وأقام السلطان سليم خارجا عن حلب بالمكان المعروف بميدان حلب حتى تكامل ورود عسكره وجمعوا الاسلاب والغنائم فسار اليه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله يعقوب والقضاة الثلاثة وهم قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل وقاضي القضاة محيى الدين الدميري المالكي وقاضي القضاة شهاب الدين الفتوحي الحنبلي أما قاضي الحنفية محمد ابن الشحنة فكان قد هرب مع العسكر الى دمشق فناله ما نالهم فلما دخل الخليفة قام له السلطان سليم وأجله وأجلسه وجلس بين يديه ولم يلتفت الى القضاة ولم يجلسهم ثم رسم للخليفة بالمقام في مدينة حلب وخلع عليه خلعة سنية من مال وملبوس ووكل به من يحرسه ثم صرف القضاة على غير صورة * وخرج اليه بالميدان أمراء حلب فتسلم المدينة وارتفعت راياته على حصونها بلا حرب ولا جلاد وغنم جميع ما كان بها من مال وسلاح وتحف وغير ذلك وهرب قانصوه الاشرف نائب قلعتها وسار الى الشام مع من هرب من العسكر * قال بعض كتاب الاخبار وكان بالقلعة من المال ماقيمته مائة ألف ألف دينار خلاف أواني الذهب والفضة والتحف النفيسة وصلى السلطان سليم صلاة الجمعة في جامع الاطروش بحلب فخطب الخطيب باسمه ودعا له ولاسلافه وبالغ في المدح والتعريف وعند ماسمع السلطان سليم الخطيب يقول في تعريفه * خادم الحرمين الشريفين * أظهر الفرح والسرور بلقب خادم الحرمين الشريفين وخلع على الخطيب خلعا متعددة وهو على المنبر وأحسن اليه احسانا كثيرا فلما خرج من الصلاة زينت له المدينة وأوقدوا له الشموع على أبواب الدكاكين وارتفعت له الاصوات بالدعاء فأقام بالميدان أياما وهو يرتب الامور ويجرى الاحكام ويمهد العقبات ثم ارتحل الى الشام فخرج من كان بها من العساكر المصرية هاربين وخرج اليه أهل دمشق وطلبوا الامان فأمنهم ودخل المدينة في موكب حافل للغاية وأقام بها أياما وخطب له بها الخطباء ووصل من بقي من العسكر المصري والامراء الى القاهرة وهم في أسوء حال من العري والجوع والضعف وبينهم كثير من المرضى والجرحى فقام العزاء بالقاهرة على السلطان ومن مات من الامراء والعسكر والمباشرين وأرباب الوظائف وكثر البكاء والنواح في جميع البيوت فكان الخطب عظيما والحزن عاما * وجاءت الاخبار الى الامير طومان باى الدوادار متولي الغيبة بعزم السلطان سليم على الزحف بجيوشه على القاهرة فهاله الامر وأزعجه وجمع من بقي من الامراء المقدمين وأمراء الطبلخاناه وأمراء العشراوات وتكلموا في الامر طويلا فاتفقت كلمتهم على تولية الامير طومان باى المذكور منصب السلطنة فامتنع فألحوا عليه فلم يقبل وأظهر غاية الامتناع ثم ركب وركب معه من الامراء المقدمين الامير علان والامير أنسباى حاجب الحجاب والامير تمر والامير بغطاى نائب القلعة وآخرون غيرهم وساروا الى كوم الجارح عند الشيخ أبي السعود وكان للامير طومان باى معرفة ثابتة به وصحبة فذكروا للشيخ ما وقع للعساكر المصرية بمرج دابق وما حصل بالسلطان قانصوه

الغورى وعزم السلطان سليم على الزحف بجيوشه على القاهرة ورغبتهم فى مبايعة الامير طومان باى بالسلطنة وامتناعه وطال بهم الكلام فى ذلك فقام الشيخ وأحضر المصحف واستحلفهم جميعا على أنه اذا قبل الامير طومان باى المنصب لايخونونه ولا يغدرونه ولا يغامرون عليه ويرضون بقوله وفعله فحلفوا جميعا على ذلك ثم أعاد عليهم اليمين ثانيا أن لا يظلموا الرعية ولا يجددوا الاحداثات من المشاهرة والجامعة التى أحدثها الغورى وأن يبطلوا ما على الحوانيت من ذلك وأن يجروا الامور على ما كانت عليه أيام الملك الاشرف قايتباى ويسيروا الحسبة على طريقة يشبك الجمالى عند ما كان متوليا عليها فحلفوا له على ذلك وقاموا من عنده وقد قبل الامير طومان باى المنصب وأطاع • فلما كان يوم الجمعة رابع عشر رمضان من السنة صلى الامير طومان باى صلاة الفجر وركب فركب معه الامراء المقدمون وأمامهم الفوانيس بالشموع والمشاعل وشق من صليبة ابن طولون وهو بقفيفة صغيرة وملوطة بيضاء وكذلك الامراء الذين معه فارتفعت له أصوات الناس بالدعاء وصعد الى باب السلسلة وجلس به وأرسل يستدعى أمير المؤمنين يعقوب والد أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله فحضر ومعه هرون ولد الخليفة محمد المتوكل على الله وأولاد ابن عم خليل وحضر قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمد بن الشحنة والقاضى شرف الدين يحيى بن البرديني أحد نواب الشافعية وجماعة من نواب القضاة الذين بالقاهرة فلما تكامل المجلس اجتمع سائر الامراء المقدمين وغيرهم من الاجناد والعسكر فابرز أمير المؤمنين يعقوب ورقة بالوكالة المطلقة عن ولده المتوكل على الله فتليت بحضرة من حضر وبعد ذلك تقدم الخليفة يعقوب فبايع الامير طومان باى بالسلطنة وبايعه هو أيضا وشهد عليهما بذلك الشرف يحيى بن البرديني وجماعة من نواب القضاة فلما تمت له البيعة أحضروا له الخلعة السلطانية وهى جبة سوداء وعمامة سوداء وسيف بدوى ولقبوه بالملك الاشرف ثم قدموا له فرس النوبة فركب على سلم الحراقة التى بباب السلسلة والخليفة أمامه فطلع من باب سر القصر الكبير وجلس على تخت المملكة وقبل الامراء الارض بين يديه ودقت البشائر بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة ومصر فارتفعت له الاصوات بالدعاء وفرح الناس به فانه كان بارا شفيقا على الرعية ميالا الى خير البلاد فلما كان وقت صلاة الجمعة من ذلك اليوم خرج السلطان الملك الاشرف طومان باى المذكور وصلى صلاة الجمعة وخطب به الشرف يحيى بن البرديني وخطب جميع الخطباء باسمه على المنابر فى ذلك اليوم بعد انقطاع الخطبة خمسين يوما من مصر والقاهرة وغيرهما

وجاء فى هذه الاثناء الى القاهرة بعض كبار الامراء الذين تخلفوا بدمشق ومعهم جماعة كثيرة من كبار دمشق وأعيانها فرارا من ايذاء جند السلطان سليم فانهم لما دخلوا دمشق عاثوا وأفسدوا ونهبوا الدور وأخذوا كل ما وصلت اليه أيديهم فهاجر الكثير من أهل دمشق وتفرقوا وجاء منهم جماعة الى القاهرة • قال بعض أصحاب التاريخ وكثر فساد عسكر السلطان

سليم

سليم فتطاولت أيديهم أيضا الى نهب مافى القرى المجاورة لدمشق فخرج لقتالهم الامير ناصر الدين بن الحنش أحد كبار قبائل العرب فلاقاهم عند قابون واقتتل الفريقان قتالا عنيفا فانتصر عليهم ابن الحنش وقهرهم وأعمل فيهم القتل بالسيف ثم تترس فى دمشق وجاءت الاخبار بذلك الى السلطان طومان باى ففرح وتقوت عزائمه ونادى فى العسكر المصرى الذى تخلف بالقاهرة لحراستها بعد خروج قانصوه بأن يتأهبوا للخروج ثم عرضهم وعين من الامراء المقدمين الذين تخلفوا أيضا ستة أمراء ثم رتب أمور الجند وولى عليهم من شاء من الامراء وعين أرباب الوظائف العالية والمباشرين وأمراء الطبلخاناه والعشراوات وغيرهم من أصحاب الوظائف الاخرى وكتب الى ابن الحنش يستنهض همته الى قتال السلطان سليم ووعده بولاية حمص وأتابكية الشام ان هو نال من العثمانيين وفرق شملهم وكثر الارجاف فى هذا الحين واشتد خوف الناس ولم يخرج الحج فى هذه السنة وتعطلت مراسمه وجاءت الاخبار بعزم السلطان سليم على الزحف على غزة بجيوشه بعد أن ملك جميع الديار الشامية من الشام الى الفرات وأقام الولاة والعمال ورتب الامور على ما يشاء فلما علم السلطان الاشرف طومان باى بذلك نادى فى العسكر بالخروج الى الريدانية وخلع على الامير جان بردى وجعله مقدم هذه الحملة فخرج من يومه الى الريدانية ونصب وطاقه وأكثر النداء فى العسكر فصاروا يخرجون تباعا والنداء متواصل والاخبار مترادفة بوصول طلائع جيوش السلطان سليم الى سواد غزة وخرج أصحاب البنادق من الجند وأصحاب المكاحل وغيرهم وتقدم الامير جان بردى بعسكره يريد غزة وتبعه بعض الامراء بمماليكهم فالتقت بهم طلائع السلطان سليم على مقربة من غزة فقاتلوهم قتالا عنيفا ولازم كل فريق منهم مواقعه * فلما كان يوم الاثنين حادى عشر ذى القعدة قبض جواسيس السلطان الملك الاشرف طومان باى على جماعة من أصحاب السلطان سليم بطريق بركة الحاج وكانوا نحو خمسة عشر ومعهم شيخ كبير هو مقدمهم وكان حضورهم من طريق الدرب السلطانى ولم يأتوا من طريق غزة لوقوف الامير جان بردى بعسكره عند سواد غزة فلما جاؤا بهم الى دار الامير علان الدوادار الكبير أشاروا الى الشيخ بأن يترجل عن فرسه ليدخل على الامير فلم يقبل فبطحوه على وجهه وأوسعوه ضربا ومن معه وأمر بهم الدوادار فقيدوهم جميعا بالحديد وألقوهم فى السجن وفتشوهم فوجدوا مع ذلك الشيخ عدة رسائل لبعض الامراء والمباشرين وأرباب الوظائف العالية بمصر ورسالة الى السلطان الملك الاشرف طومان باى وهى غاية فى التشديد والغلظة وكلها سباب ووعيد وتهديد الى أن قال له فيها * ولقد أوحى الله الىّ بأن أملك جميع البلاد شرقا وغربا كما ملكها ذو القرنين وأن لا تكون كلمة فوق كلمتى ولا يد فوق يدى وأما أنت فمملوك تباع وتشرى فلا تصح لك ولاية ولا يجوز لك التسلط على الاحرار وقد أتت الىّ السلطنة على ديار مصر بعهد من أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة فان سالمتنا سلمت وأزلنا عنك البأس واضرب السكة باسمنا

الشريف ثم اخطب لنا على المنابر قياما بواجب السلطنة وقد وليناك بعد الطاعة عمالة مصر وملحقاتها الى مدينة غزة فقط فان أبيت الطاعة وأطلنك فاعلا أتيت الى مصر وقتلت جميع من بها من الشراكسة حتى الاجنة الذين فى بطون الامهات وأمحو شأفتهم عن وجه الارض * الى أن قال وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا * الآية

فلما قرئ هذا الكتاب على السلطان الملك الاشرف طومان باى بكى بكاء مرا وجمع اليه الامراء وكلمهم فى الامر ثم شدد فى خروج من بقى من العساكر وشاع خبر ما فى هذا الكتاب بين الناس فانزعجوا ونزح بعضهم الى أطراف القاهرة وبعضهم الى الصعيد الاعلى بأموالهم وعيالهم وعم الخوف بجميع الرعية وامتنع من بقى من العساكر والاجناد من مماليك الطباق لا سيما المماليك القرانصة من الخروج الى القتال الا بعد النفقة وأن ينفذ لكل واحد منهم مائة وثلاثين دينارا فأخذ السلطان يلاطفهم ويسايرهم حتى قبلوا خمسين دينارا فجمع السلطان هذا المال من أولاد السلطان الملك الغورى وأولاد السلطان الملك المؤيد وأولاد السلطان الملك المنصور وجميع أولاد الامراء الذين بالقاهرة ومصر ولم يحدث بسببه احداثا على أهل البلاد كما كان يفعل غيره من الملوك والسلاطين اذا قامت الحرب من عدو خارجى * وفى هذه الاثناء جاء الخبر بوقوع القتال فى يوم الاحد سابع عشرى ذى القعدة بين العساكر المصرية وعساكر السلطان سليم تحت أسوار مدينة غزة واشتد شدة بالغة ثم انكشف عن هزيمة المصريين وفى رواية ان هذه الوقعة كانت بناحية بيسان فساق عسكر السلطان سليم خلف العسكر المصرى وأكثروا فيهم القتل والطعن فمات منهم خلق كثير وخرج الامير جان بردى مقدم الجيوش المصرية والامير أزدمك الناشف أحد الامراء المقدمين وغيرهما من كبار الامراء والمباشرين وغنموا ما كان معهم من سلاح وكراع وخيول وجمال ومات الامير على باى السيفى الدوادار أحد أمراء الطبلخاناه وتشتت من بقى من المصريين وغرق ثقلهم * فلما كان يوم الاثنين خامس المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة دخل من بقى من العسكر الى القاهرة وهم فى أتعس حال فكان أول من دخل الامير جان بردى مقدم الحلقة والامير أزدمك الناشف وبعض أمراء العشراوات والعساكر والغلمان والاتباع فأخبروا بما نالهم من عساكر السلطان سليم وبالغوا وهولوا وملؤا القلوب خوفا ورهبة من سطوة السلطان سليم وشدة بأس عساكره وأنهم دخلوا غزة وملكوها وأتى مع من حضر أيضا والى غزة المسيحى دوات باى فاشتد غم السلطان الملك الاشرف وحار فى أمره ووصلت طلائع الجيوش العثمانية الى قطيا وقد أباح لهم السلطان سليم مدينة غزة أياما فقتلوا فيها وأراقوا الدماء وأفحشوا فى القتل حتى فى الاطفال والصبيان تشفيا وانتقاما وكان فتح غزة على يدى سنان باشا أحد كبار عسكر السلطان سليم

واهتم السلطان الملك الاشرف باعداد المعدات وجمع الذخيرة فجمع منها شيأ كثيرا

وسيرها

وسيرها مع بعض طوائف الجنـد من المماليك وأخلاط الناس من سود ومغاربة وغيرهم وأخرج عدة عجلات تجرها الابقار وعليها المكاحل النحاس وساروا الى الريدانية ونزلوا على مقربة من تربة العادل ورسم السلطان بتسليم قيادة هذا الجيش الى الامير سودون الدوادار فتقيد عندئذ بخروج الجند واخراج المعدات وبرز بهم الى الريدانية وبث العيون والارصاد لتأتى اليه بالاخبار فأعلموه بأن السلطان سليم خرج من دمشق يريد الديار المصرية وقد قسم عساكره الى فرقتين فسير احداهما من طريق الدرب السلطانى وثانيتهما من طريق التيه وهو طريق السبرية التى سلكها بنو اسرائيل مع موسى عليه السلام عند خروجهم من أرض مصر فسير سودون الخبر بذلك الى الاشرف بالقاهرة فجمع الاشرف الامراء وحثهم على الخروج الى الريدانية فخرجوا وعسكروا بها وتابع الامير سودون استطلاع الاخبار فعلم أن العدو وصل الى مدينة غزة وأن السلطان سليم عرّج فى نفر قليل الى زيارة بيت المقدس ومقام الخليل ابراهيم وأحسن الى من بالبيت وعاد ولما كان يوم الاثنين تاسع عشر ذى الحجة نزل السلطان الملك الاشرف ومعه الامير قاسم ابن أخى السلطان سليم من قلعة الجبل فى عدة وافرة من الجند والغلمان وساروا الى الريدانية وأقام السلطان بالمصطبة التى بها المعروفة بالمطعم ورسم بترتيب العساكر ووضع المكاحل واستعد للقاء السلطان سليم بالصالحية فمنعه الامراء وقالوا لانقاتله الا بالريدانية فراجعهم فلم يقبلوا فألح عليهم فامتنعوا فأجابهم كارها ورسم بعمل خندق من سبيل علان الى الجبل الاحمر والى منتهى مزارع المطرية فملوه ووضعوا عليه الطوارق والمكاحل وأتى الى الريدانية الكثير من القصابين والخبازين والبياعين على اختلافهم وخيموا هناك وأرسل الاشرف الامير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرقية ليستكشف خبر مجيء السلطان سليم بجيوشه الى قطيا فعاد فى يوم الاحد خامس عشرى الشهر ومعه رأسا شخصين من عساكر السلطان سليم ورجل من أبناء حلب كان فى خدمة الامير خير بك واليها الذى انضم الى عسكر السلطان سليم وكان هو سبب هزيمة المصريين وموت السلطان كما تقدم بيان ذلك فى محله وكان قانصوه المذكور لما وصل الى الصالحية وجد أن طائفة من عسكر السلطان سليم قد دخلتها وأخذت منها بعض المؤنة وعلائف الدواب الحمل فقبض على اثنين منهم واحتز رأسيهما وقبض على ثالث وهو من أتباع خير بك وأتى بالرأسين والرجل الى الاشرف بالمصطبة فسأل السلطان ذلك الرجل عن أحوال عسكر السلطان سليم ووجدوا معه عدة رسائل من خير بك الى بعض الامراء المقدمين بمصر فألقوه فى السجن مقيدا بالحديد وأخفوا عن الناس خبره وخبر تلك الرسائل

وكان السلطان سليم كلما مر ببلد أو قرية أو قصبة فى طريقه أحسن الى أهلها فيهرب من بها من الشراكسة أو يختفى ويتنكر وما زال على هذا الحال حتى وصلوا بلبيس ومنها جاؤا الى العكرشة فلما علم الأشرف بوصولهم الى العكرشة هم بان يلقاهم بها ويقاتلهم على ما هم فيه من التعب والجوع فلم تمكنه الامراء من ذلك وقالوا لا نقاتلهم الآن وكأنهم كانوا على



عهـد مع السلطان سليم فى ذلك فلما لم يقاتلوه وأقسموا له فى الاجل سار بعسكره من غير ممانع حتى دخل الخانكاه فخرج أهلها على وجوههم الى القاهرة مولولين فرسم والى القاهرة بغلق الابواب الكبرى فغلقوا باب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر وباب القنطرة وغيرها من الابواب وأغلقت أسواق المدينة وتعطلت الطواحين فقل الدقيق والخبز من الاسواق واشتد الجوع بالفقراء * ولما كان يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة قام السلطان سليم بعسكره من بركة الحاج الى الجبل الاحمر فقام لقتاله الأشرف وصمم على القتال بغير مهل والتقى الفريقان فاقتتلا قتالا عنيفا فقتل من عسكر السلطان سليم عدة وافرة وقتل سنان باشا أحمد مقدمى جند السلطان سليم فحزن عليه السلطان حزنا عظيما قال بعض الكتاب حتى انه قال وأى فائدة لى فى مصر بعد يوسف بريد (سنان باشا المذكور) واشتد السلطان سليم على عساكره وقسمهم الى قسمين وسير أحدهما من خلف الجبل الاحمر وزحف بالثانى نحو الريدانية حيث معسكر السلطان طومان باى ثم انضم القسمان وأعملا القتل برمى البنادق والمكاحل واشتد الرمى وتراسل على العساكر المصرية فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى قتل أكثر الامراء المصريين وعدد عديد من العساكر والاجناد فتمت هزيمة المصريين وفر من بقى منهم يريد النجاة ووقف الاشرف طومان باى يقاتل الاعداء مقاتلة الاسود الضوارى وحوله نفر من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية ثم عمد بعد ذلك الى الفرار ففر الى طرا ودخلت العساكر العثمانية الى القاهرة فعاثوا وقتلوا ونهبوا وحرقوا وخربوا جميع بيوت الامراء وأخذوا ما فى الحواصل والاشوان ولبثوا على هذا الحال اليوم كله فكان يوما عبوسا قمطريرا فقال فى ذلك الشيخ بدر الدين الزيتونى

يبكى على مصر وسكانها * قد خربت أركانها العامره

وأصبحت بالذل مقهورة * من بعد ما كانت هى القاهره

وأصبح يوم الاثنين سلخ ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وتسعماية فدخل القاهرة أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله ومعه بعض كبار الامراء من أصحاب السلطان سليم وطائفة كثيرة من عسكره ودخل معه الامير خيربك والى حلب وقاضى القضاة الشافعية كمال الدين الطويل والقاضى المالكى محيى الدين الدميرى والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى وكان دخول الخليفة المتوكل على الله من باب النصر فشق القاهرة وأمامه المناداة على الناس بالامن والامان والبيع والشراء والتحذير من اخفاء أحد من المماليك الشراكسة والدعاء للسلطان المظفر سليم خان فلما سمع الناس النداء ضجوا بالدعاء * قال بعض كتاب الاخبار ومع ذلك لم تكن العساكر لتكف عن النهب وقتل النساء والاطفال والقبض على كل من وجدوه من المماليك فكانوا اذا قبضوا على أحد منهم ساروا به الى الريدانية حيث السلطان فيذبحونه بين يديه ويحتزون رأسه ويعلقونه حتى كثرت الرمم وانتشرت من الريدانية الى سفح الجبل الاحمر الى مزارع المطرية ولبث الحال على ذلك ثلاثة

ايام

أيام كاملة والناس فى هول ولا هول القيامة * وخطب فى ذلك اليوم للسلطان سليم على منابر مصر والقاهرة وقد بالغ بعض الخطباء فى خطبته فقال * وانصر اللهم السلطان ابن السلطان مالك البرين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه اللهم انصره نصرا عزيزا وافتح له فتحا مبينا يامالك الدنيا والآخرة يارب العالمين فسر السلطان سليم بذلك سرورا عظيما

وأرسل السلطان جماعة من الانكشارية فقيدهم بحراسة الابواب ومنع العسكر من العبث ونهب البيوت فمنعوهم وسكنت خواطر الناس قليلا وأرسل السلطان خلف المعز الناصرى محمد ابن السلطان الغورى فلما حضر بين يديه خلع عليه وألبسه قفطانا مخملا مذهبا وألبسه عمامة عثمانية ورسم له بأن يسكن فى مدرسة أبيه التى أنشأها فى الشرابشيين وعين بعض الكشاف للاقاليم القبلية والبحرية وخلع على الزينى بركات بن موسى وجعله يتحدث على الحسبة ونزل السلطان سليم فى يوم الاحد ثانى المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة من الريدانية الى بولاق ونصب خيامه بها من تحت الرصيف الى آخر الجزيرة الوسطى وقد أحضروا له مفاتيح قلعة الجبل فلم يلتفت اليها ولا أحلها محلا ثم دخل فى ثانى يوم القاهرة من باب النصر وشق المدينة فى موكب حافل للغاية وأمامه الجنائب والعساكر والاجناد وطوائف الغلمان وهو فى هيبة وجلالة عظيمة ثم رجع الى بولاق وأقام بوطاقه يرتب الامور ويفرق المناصب بين قومه وقد ظن موت السلطان الملك الاشرف طومان باى مع من قتلوا فى الوقعة وتمزق شمل من بقى من العساكر المصرية واطمأن لذلك قلبه فلم يلتفت الا الى تنظيم الاحوال وترتيب الامور على ماتقتضيه مصلحة الرعية وكان من الامور بعد ذلك ماسيتلى عليك مفصلا فى الجزء الثالث ان شاء الله تعالى

تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث مبتدئا بمختصر تاريخ ملوك آل عثمان
قبل فتح مصر بالجيوش العثمانية ثم ماجرى بعد دخول
السلطان سليم بجيوشه الى القاهرة الى ظهور
الحاج محمد على باشا الكبير
وولايته

(تابع الخطا والصواب)

صحيفة	سطر	خطـــا	صـــواب
١٨٠	١٣	مديحة	مديحة
١٨٥	٣٠	قفيل	قفيل
١٨٧	٣١	المتعصم	المعتصم
١٩٧	٢٥	بعينه	بعينة
١٩٩	٢٩	فبينا	فبيقا
٢٠٣	١١	فاعلهم	فاعله
٢١٤	٢٠	وهو يؤخذ	وهوما يؤخذ
٢٢٣	١١	لدى	ليرى
٢٢٥	٢٥	المجانيق	المنجانيق
٢٣٠	١٤	عليه	عليها
٢٣٢	١٥	أو ثر	أو أثر
٢٣٢	٢٢	كانت	كان
٢٣٥	٠١	الدحان	الدخان
٢٥١	٠٣	وفوزلك	ونازوك
٢٧١	١٢	لوزون	يوزون
٢٧٦	١٦	يطفون	يطفون
٢٧٧	٠٢	المابر	المنابر
٢٨٣	٢٦	هوبت	هرب
٣٢٩	١٣	وامت	دامت
٣٣٥	١٥	الستنصر	المستنصر
٣٣٥	١٨	هؤلاء	هذه
٣٣٦	٠٩	حاسراء	حارسا
٣٥٠	٢٦	ومازالوا	ومازالا
٣٦٣	٢٧	أونخرجهم	أونخرجه
٣٦٧	٥	مثلة	مثله
٣٦٩	١٥	الآمرة	الزمرة

تابع الخطا والصـــواب

صحيفة	سطر	خطـــأ	صـــواب
٣٨٤	٩	عزالدين	وعزالدين
٣٨٦	٣٠	حفر	حفر
٣٩٤	١٧	فى	من
٤٠٥	٢٥	بيعةقمامه	بيعةالقيامة
٤٠٣	١٠	بها	بهما
٤١٣	٠٣	مربج	مربع
٤٤٦	٢٦	الشروطا	الشروط
٤٤٨	٢٧	وانقطعت	وعزت
٤٥٥	١٤	حينها	محله
٤٦٤	٠٥	الامير	والامير
٤٧٨	١٣	ونادى	وناوى
٤٧٨	٣١	الاموز	الامور
٤٨٣	١٩	أغوا	أعموا
٤٨٩	٣٤	لسلطان	السلطان
٤٩٦	١٢	وتوليته	وتولية
٥٠٥	١٥	الاحزاء	الاعراء
٥٠٩	١٦	والناصر	والناصر
٥١١	٠٩	أكثر	كشر
٥٢٣	٢٤	الدواب	لدواب

﴿ تم التصويب والخطأ ﴾